المستطرف في كل فن مستظرف



شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي

(٧٩٠ - ٨٥٠ هـ)

عالم الكتب

المستطرف
في كل فن مستظرف

الطبعة الأولى
١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

عالم الكتب
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

ص.ب: ٨٧٢٣ - ١١، برقياً: نابعلبكي
هاتف: ٨١٩٦٨٤-٣١٥١٤٢-٦٠٣٢٠٣(٠١)
خليوي: ٣٨١٨٣١(٠٣)
فاكس: ٣١٥١٤٢ / ٦٠٣٢٠٣ (٩٦١١)

WORLD OF BOOKS
FOR PRINTING, PUBLISHING & DISTRIBUTION
BEIRUT - LEBANON

P.O.BOX : 11- 8723, CABLE : NABAALBAKI
TEL.: 01- 819684 / 315142 / 603203
CELL. 03-381831; FAX: (9611) 603203 / 315142

المُسْتَطْرَف

في كُلِّ فَنٍّ مُسْتَظْرَف

تأليف
شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي
(المولود سنة ٧٩٠هـ - المتوفى سنة ٨٥٠ هـ)

تحقيق وتهذيب وتعليق
سعيد محمد اللحام

عالم الكتب

بسم الله الرحمن الرحيم

لسان العرب

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وبه نستعين في كل حين، وعليه نتوكل وإليه ننيب، نحمده حمد المقر بنعمه المستغفر لذنبه، الراغب بقربه، الراجي لعفوه سبحانه وتعالى هو الغفور الرحيم.

والصلاة والسلام على المصطفى من العرب والعجم من باتّباع دعوته ننجو من النِّقَم، نبي الرحمة، البشير النذير والسراج المنير، والداعي إلى الله بإذنه، من أرسله الله بدين الهدى والحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، النبيّ الأميّ الطاهر الأمين، سيد ولد آدم، وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد

عزيزي القارىء.

امتاز الأدب العربي عن سواه من الآداب العالمية بمصنفات جمع فيها مؤلفوها مادة أدبية ليست من إنتاجهم، وأشعاراً ليست من نظمهم.

وقد تنوعت هذه المصنفات، فمنها ما اختص بالشعر الجاهلي مثلاً، كجمع الزوزني للمعلقات وشرحها، ومنها من اختص بشعر الحماسة كحماسة أبي تمام، ومنها ما اختص بجمع طرائف أخبار النحويين أو الأعراب أو اللغة، أو ما استعجم من الألفاظ. إلخ. . .، ومنها ما اختص بجمع أخبار فئة معينة ككتب الجاحظ.

إلا أن هذه الجمع والتصنيف الذي اصطبغ في أكثره بصبغة معجمية تبعه جمع آخر وتصنيف مختلف، فظهرت في فترة لاحقة مصنفات جمعت من كل باب من أبواب الأدب أطرفه ومن كل فن أظرفه.

وقد اختار كل مؤلف ومصنف منهجاً عمل من خلاله، لذلك نجد أنه رغم كثرة المصنفات في هذا اللون من ألوان الأدب فإن لكل منها نكهة مختلفة وفي كلّ منها مادة جديدة لم تذكرها المصنفات الأخرى، مما يجعل كل مصنف منها فريداً في بابه، لا يغني عن سواه ولا يغني سواه عنه.

إلا أن أقرب هذه المصنفات إلى قلوب القراء عبر العصور، وأكثرها تداولاً هو كتاب «المستطرف في كل فن مستظرف» الذي أعده وجمع مادته وألّف بين أخباره ونوادره وحكَمه ومواعظه شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأشبيهي.

ولقد لقي هذا الكتاب من عناية المحققين المعاصرين ما جعله يصدر في طبعات كثيرة تتفاوت في قيمتها ودقتها لرغبة القراء في اقتنائه ورغبة الناشرين بإصداره.

لذا رأينا أنه لا بد من تحقيقه على أصول معتمدة لتنقيته من شوائب الأخطاء والتصحيف التي امتلأت بها طبعاته المختلفة، وأنه لا بد أن نقوم على تصحيحه بأنفسنا لكي لا تفسد أخطاء التنضيد ما أصلحناه من شوائب النسخ والتصحيف.

ولم نكتف بذلك، فالكتاب صار في متناول كل يد وكل أسرة، وكل فرد من أفراد الأسرة، وما يقرأه البعض ويستحسنه لا يصح أن يقرأه الكل، وفي الكتاب من الشعر ما لا يستحب نشره فكيف بقراءته لذا قمنا بتهذيب الكتاب وتنقيته فحذفنا ما وجب حذفه دون أن نخل بترتيب الأبواب أو الفصول وهذبنا ما وجب تهذيبه دون أن نفقد الطرفة طرافتها ولا الخبر طُرَفَه ولا الحكاية معناها وفحواها وهدفها، ثم شرحنا ما يدق معناه ويستغرب لفظه فلم نغرق في شروح تبعد الكتاب عن مقصده ككتاب لإمتاع الأسماع بما لذ وطاب من طرائف الأخبار والأشعار، ويحوله إلى كتاب تعليمي بحت.

إن كل كتاب أدبي هو شاهد على العصر الذي أُلِّفَ فيه، وكتاب المستطرف، شاهد على عصره في أخباره وطرائفه ونوادره وأشعاره، وهو مع ذلك ما يزال حيّاً يقرأ في كل عصر وكأنه كتب بالأمس القريب.

نأمل أن يحقق الجهد الذي أوليناه لهذا الكتاب غايته، والاهتمام الذي بذلناه هدفه، بنيل إعجاب وتقدير وتشجيع القارىء العزيز، على الله توكلنا وإليه أنبنا هو نعم المولى ونعم النصير.

سعيد محمد اللحام

بسم الله الرحمن الرحيم

١/أ الحمد لله الملك العظيم العلي الكبير، الغني اللطيف الخبير، المنفرد بالعز والبقاء، والإرادة والتدبير، الحي العليم الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، تبارك الذي بيده الملك، وهو على كل شيء قدير، أحمده حمد عبد معترف بالعجز والتقصير، وأشكره على ما أعان عليه على قصد ويَسر من عسير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا مشير، ولا ظهير له ولا وزير، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله البشير النذير السراج المنير، المبعوث إلى كافة الخلق من غني وفقير، ومأمور وأمير، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه صلاة يفوز قائلها من الله بمغفرة وأجر كبير، وينجو بها في الآخرة من عذاب السعير، وحسبنا الله ونعم الوكيل فنعم المولى ونعم النصير.

أمّا بعد: فقد رأيت جماعة من ذوي الهمم، جمعوا أشياء كثيرة من الآداب والمواعظ والحكم، وبسطوا مجلدات في التواريخ والنوادر، والأخبار، والحكايات، واللطائف، ورقائق الأشعار، وألفوا في ذلك كتباً كثيرة، وتفرد كل منها بفرائد فوائد لم تكن في غيره من الكتب محصورة، فاستخرت الله تعالى وجمعت من جموعها هذا المجموع اللطيف، وجعلته مشتملاً على كل فن ظريف، (وسميته المستطرف، في كل فن مستظرف) واستدللت فيه بآيات كثيرة من القرآن العظيم. وأحاديث صحيحة من أحاديث النبي الكريم، وطرزته بحكايات حسنة عن الصالحين الأخيار، ونقلت فيه كثيراً مما أودعه الزمخشري في كتابه «ربيع الأبرار» وكثيراً مما نقله ابن عبد ربه في كتابه «العقد الفريد» ورجوت أن يجد مطالعه فيه كل ما يقصد ويريد، وجمعت فيه لطائف وظرائف عديدة، من منتخبات الكتب النفيسة المفيدة، وأودعته من الأحاديث النبوية، والأمثال الشعرية، والألفاظ اللغوية، والحكايات الجدية، والنوادر الهزلية، ومن الغرائب والدقائق، والأشعار والرقائق، ما تشنف بذكره الأسماع وتقر برؤيته ٢/أ العيون، وينشرح بمطالعته كل قلب محزون (شعر).

من كلِّ معنىً يكاد الميْت يفهمه
حسناً ويعشقه القرطاس والقلم

وجعلته يشتمل على أربعة وثمانين باباً من أحسن الفنون، متوجة بألفاظ كأنها الدر المكنون، كما قال بعضهم شعراً في المعنى:

ففي كل بابٍ منه درٌّ مؤلفٌ
كنظم عقود زيّنتها الجواهر
فإنْ نظم العقد الذي فيه جوهرٌ
على غير تأليف فما الدرّ فاخرُ

وضمنته كل لطيفة، ونظمته بكل ظريفة، وقرنت الأصول فيه بالفصول، ورجوت أن يتيسر لي ما رمته من الوصول. وجعلت أبوابه مقدمة، وفصلتها في مواضعها مرتبة منظمة، ليقصد الطالب إلى كل باب منها عند الاحتياج إليه، ويعرف مكانه بالاستدلال عليه، فيجد كل معنى في بابه إن شاء الله تعالى والله المسؤول في تيسير المطلوب، وأن يلهم الناظر فيه ستر ما يراه من خلل وعيوب، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وهذه فهرست الكتاب والله سبحانه المهون للصعاب.

(الباب الأول) في مباني الإسلام: وفيه خمسة فصول، (الباب الثاني) في العقل والذكاء والحمق والذم وغير ذلك. (الباب الثالث) في القرآن العظيم وفضله وحرمته وما أعد الله تعالى لقارئه من الثواب العظيم، والأجر الجسيم. (الباب الرابع) في العلم والأدب وفضل العالم والمتعلم. (الباب الخامس) في الآداب والحكم وما أشبه ذلك. (الباب السادس) في الأمثال السائرة وفيه فصول. (الباب السابع) في البيان والبلاغة والفصاحة، وذكر الفصحاء من الرجال والنساء، وفيه فصول. (الباب الثامن) في الأجوبة المسكتة والمستحسنة، ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك. (الباب التاسع) في ذكر الخطب والخطباء، والشعراء، وسرقاتهم، وكبوات الجياد،

وهفوات الأمجاد. (الباب العاشر) في التوكل على الله تعالى، والرضا بما قسم والقناعة، وذم الحرص والطمع، وما أشبه ذلك وفيه فصول، (الباب الحادي عشر) في المشورة والنصيحة، والتجارب، والنظر في العواقب. (الباب الثاني عشر) في الوصايا الحسنة، والمواعظ المستحسنة، وما أشبه ذلك. (الباب الثالث عشر) في الصمت وصون اللسان، والنهي عن الغيبة والسعي بالنميمة، ومدح العزلة وذم الشهرة، وفيه فصول. (الباب الرابع عشر) في الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الإسلام، وما يجب للسلطان على الرعية، وما يجب لهم عليه. (الباب الخامس عشر) فيما يجب على من صحب السلطان والتحذير من صحبته. (الباب السادس عشر) في الوزراء وصفاتهم وأحوالهم، وما أشبه ذلك. (الباب السابع عشر) في ذكر الحجاب والولاية، وما فيها من الغرور والخطر. (الباب الثامن عشر) فيما جاء في القضاء وذكر القضاة، وقبول الرشوة والهدية على الحكم، وما يتعلق بالديون، وذكر القصاص والمتصوفة وفيه فصول، (الباب التاسع عشر) في العدل والإحسان والإنصاف، وغير ذلك. (الباب العشرون) في الظلم وشؤمه وسوء عواقبه، وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك. (الباب الحادي والعشرون) في بيان الشروط التي تؤخذ على العمال، وسيرة السلطان في استجباء الخراج وأحكام أهل الذمة وفيه فصلان. (الباب الثاني والعشرون) في اصطناع المعروف، وإغاثة الملهوف، وقضاء الحوائج للمسلمين، وإدخال السرور عليهم. (الباب الثالث والعشرون) في محاسن الأخلاق ومساويها. (الباب الرابع والعشرون) في حسن المعاشرة، والمودة، والأخوة، والزيارة، وما أشبه ذلك. (الباب الخامس والعشرون) في الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم، وفضل الشفاعة وإصلاح ذات البين، وفيه فصلان. (الباب السادس والعشرون) في الحياء والتواضع، ولين الجانب وخفض الجناح، وفيه فصلان: (الباب السابع والعشرون) في العجب والكبر والخيلاء، وما أشبه ذلك. (الباب الثامن والعشرون) في الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت. (الباب التاسع والعشرون) في الشرف والسؤدد وعلو الهمة. (الباب الثلاثون) في الخير والصلاح، وذكر السادة الصحابة وذكر الأولياء والصالحين، رضي الله عنهم أجمعين. (الباب الحادي والثلاثون) في مناقب الصالحين وكرامات الأولياء، رضي الله عنهم. (الباب الثاني والثلاثون) في ذكر الأشرار والفجّار، وما يرتكبون من الفواحش والوقاحة والسفاهة. (الباب الثالث والثلاثون) في الجود والسخاء والكرم، ومكارم الأخلاق واصطناع المعروف، وذكر الأمجاد وأحاديث الأجواد. (الباب الرابع والثلاثون) في البخل والشح وذكر البخلاء، وأخبارهم وما جاء عنهم. (الباب الخامس والثلاثون) في الطعام وآدابه والضيافة وآداب المضيف والضيف، وأخبار الأكلة وما جاء عنهم وغير ذلك. (الباب السادس والثلاثون) في العفو والحلم والصفح، وكظم الغيظ، والاعتذار وقبول المعذرة، والعتاب، وما أشبه ذلك. (الباب السابع والثلاثون) في الوفاء بالوعد وحسن العهد ورعاية الذمم. (الباب الثامن والثلاثون) في كتمان السر وتحصينه، وذم إفشائه. (الباب التاسع والثلاثون) في الغدر والخيانة والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد، وفيه فصول. (الباب الأربعون) في الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها وفضل الجهاد. وشدة البأس والتحريض على القتال، وفيه فصول. (الباب الحادي والأربعون) في ذكر أسماء الشجعان، ذكر الأبطال وطبقاتهم وأخبارهم، وذكر الجبناء وأخبارهم، وذم الجبن. (الباب الثاني والأربعون) في المدح والثناء وشكر النعمة، والمكافأة، وفيه فصول. (الباب الثالث والأربعون) في الهجاء ومقدماته. (الباب الرابع والأربعون) في الصدق والكذب، وفيه فصلان. (الباب الخامس والأربعون) في بر الوالدين وذم العقوق وذكر الأولاد وما يجب لهم وعليهم، وصلة الرحم والقرابات، وذكر الأنساب، وفيه فصول. (الباب السادس والأربعون) في الخلق وصفاتهم وأحوالهم، وذكر الحسن والقبح والطول والقصر والألوان واللباس، وما أشبه ذلك. (الباب السابع والأربعون) في ذكر الحلي والمصوغ والطيب والتطييب، وما جاء في التختم. (الباب الثامن والأربعون) في الشباب والشيب والصحة والعافية وأخبار المعمرين، وما أشبه ذلك، وفيه فصول. (الباب التاسع والأربعون) في الأسماء والكنى والألقاب، وما استحسن منها. (الباب الخمسون) في الأسفار والاغتراب، وما قيل في الوداع والفراق والحث على ترك الإقامة بدار الهوان، وحب الوطن والحنين إلى الأوطان. (الباب الحادي والخمسون) في ذكر الغنى وحب المال والافتخار بجمعه. (الباب الثاني والخمسون) في ذكر الفقر ومدحه. (الباب الثالث والخمسون) في ذكر التلطف في السؤال، وذكر من سئل فجاد. (الباب الرابع والخمسون) في ذكر الهدايا

والتحف، وما أشبه ذلك. (الباب الخامس والخمسون) في العمل والكسب والصناعات والحرف، والعجز والتواني وما أشبه ذلك. (الباب السادس والخمسون) في شكوى الزمان وانقلابه بأهله، والصبر على المكاره، والتسلي عن نوائب الدهر، وفيه ثلاثة فصول. (الباب السابع والخمسون) فيما جاء في اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة، والسرور بعد الحزن، ونحو ذلك. (الباب الثامن والخمسون) في ذكر العبيد والإماء والخدم، وفيه فصلان. (الباب التاسع والخمسون) في أخبار العرب، وذكر غرائب من عوائدهم وعجائب أمرهم. (الباب الستون) في الكهانة والقيافة والزجر والعرافة والفأل والطيرة والفراسة والنوم والرؤيا. (الباب الحادي والستون) في الحيل والخدائع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد، والتيقظ والتبصر، ونحو ذلك. (الباب الثاني والستون) في ذكر الدواب والوحوش والطير والهوام والحشرات، مرتباً على حروف المعجم. (الباب الثالث والستون) في ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم. (الباب الرابع والستون) في خلق الجان وصفاتهم (الباب الخامس والستون) في ذكر البحار وما فيها من العجائب، وذكر الأنهار والآبار، وفيه فصول. (الباب السادس والستون) في ذكر عجائب الأرض وما فيها من الجبال والبلدان وغرائب البنيان، وفيه فصول. (الباب السابع والستون) في ذكر المعادن والأحجار وخواصها. (الباب الثامن والستون) في ذكر الأصوات والألحان وذكر الغناء واختلاف الناس، ومن كرهه واستحسنه. (الباب التاسع والستون) في ذكر المغنين والمطربين وأخبارهم، ونوادر الجلساء في مجالس الخلفاء. (الباب السبعون) في ذكر القينات والأغاني. (الباب الحادي والسبعون) في ذكر العشق ومن بلي به، والافتخار به والعفاف، وأخبار من مات بالعشق، وما في معنى ذلك، وفيه فصول. (الباب الثاني والسبعون) في ذكر رقائق الشعر والمواليا والدوبيت، وكان وكان، والموشحات، والزجل، والقومة، والألغاز، ومدح الأسماء والصفات، وفيه فصول. (الباب الثالث والسبعون) في ذكر النساء وصفاتهن ونكاحهن وطلاقهن، وما يمدح وما يذم من عشرتهن، وفيه فصول، (الباب الرابع والسبعون) في ذم الخمر وتحريمها والنهي عنها. (الباب الخامس والسبعون) في المزاح والنهي عنه، وما جاء في الترخيص فيه، والبسط والتنعم، وفيه فصول. (الباب السادس والسبعون) في النوادر والحكايات، وفيه فصول. (الباب السابع والسبعون) في الدعاء وآدابه وشروطه، وفيه فصول. (الباب الثامن والسبعون) في القضاء والقدر وأحكامهما والتوكل على الله تعالى. (الباب التاسع والسبعون) في التوبة وشروطها والندم والاستغفار. (الباب الثمانون) في ذكر الأمراض والعلل والطب والدواء، والسنة والعيادة وثوابها، وما أشبه ذلك، وفيه فصول. (الباب الحادي والثمانون) في ذكر الموت وما يتصل به من القبر وأحواله. (الباب الثاني والثمانون) في الصبر والتأسي والتعازي والمراثي ونحو ذلك وفيه فصول (الباب الثالث والثمانون) في ذكر الدنيا وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها، ونحو ذلك. (الباب الرابع والثمانون) في فضل الصلاة على النبي ﷺ وهو آخر الأبواب، ختمتها بالصلاة على سيد العباد. أرجو بذلك شفاعته ﷺ يوم المعاد.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب الأول
في مباني الإسلام
وفيه خمسة فصول

الفصل الأول
في الإخلاص لله تعالى والثناء عليه

وهو أن تعلم أن الله تعالى واحد لا شريك له. فرد لا مثل له. صمد لا ند له. أزلي قائم، أبدي دائم، لا أول لوجوده، ولا آخر لأبديته. قيوم لا يفنيه الأبد، ولا يغيره الأمد، بل هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، منزه عن الجسمية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾[1]، وهو فوق كل شيء، فوقيته لا تزيده بعداً عن عباده، وهو ﴿أَقْرَبُ﴾ إلى العبيد ﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[2]، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[3]، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[4]، لا يشابه قربه قرب الأجسام، كما لا تشابه ذاته ذوات الأجرام[5]، منزه عن أن يحده زمان، مقدس عن أن يحيط به مكان، تراه أبصار الأبرار في دار القرار، على ما دلت عليه الآيات والأخبار، حيٌّ قادر جبار قاهر لا يعتريه عجز ولا قصور، ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[6]، له الملكوت والعزة والجبروت، خلق الخلق وأعمالهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم، لا تحصى مقدوراته[7]، ولا تتناهى معلوماته، عالم بجميع المعلومات، لا يعزب عنه[1] مثقال ذرة في الأرض ولا في السموات، يعلم السر وأخفى[2]، ويطلع على هواجس الضمائر وخفيات السرائر، مريد للكائنات، مدبر للحادثات، لا يجري في ملكه قليل ولا كثير، ولا جليل ولا حقير، خير أو شر، نفع أو ضر، إلا بقضائه وقدره وحكمه ومشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو المبدىء المعيد[3]، الفاعل لما يريد، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته، ولا قوة له على طاعته إلا بمحبته وإرادته. لو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته لعجزوا[4]. سميع بصير متكلم بكلام لايشبه كلام خلقه، وكل ما سواه سبحانه وتعالى، فهو حادث أوجده بقدرته، وما من حركة ولا سكون إلا وله في ذلك حكمة دالة على وحدانيته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[5] الآية. وقال أبو العتاهية:

فيا عجباً كيف يُعصى الإلـه
أم كيف يجحده الجَاحِدُ
وفي كل شيء له آية
تدل على أنه الوَاحِدُ
ولله في كل تحريكة
وتسكينة في الورى شَاهِدُ

وقال غيره:

(1) سورة الشورى، الآية: (١١).
(2) سورة قٓ، الآية: (١٦).
(3) سورة سبإ، الآية: (٤٧).
(4) سورة الحديد، الآية: (٤).
(5) الأجرام ج جرم وهو كل شيء له أبعاد من طول وعرض وارتفاع.
(6) سورة البقرة، الآية: (٢٥٥).
(7) مقدوراته: الأمور التي يقدر عليها وهي لا تحصى لأنه سبحانه على كل شيء قدير.

(1) لا يعزب عنه: أي لا يبعد عن إدراكه وعلمه.
(2) السر ما كان بين اثنين وما أخفى هو ما فكرت به وما خالج النفس ولم تتلفظ به الشفتان.
(3) قال تعالى: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ [الأنبياء / ١٠٤].
(4) لا حركة ولا سكون إلا بمشيئة الواحد القهار.
(5) سورة البقرة، الآية: (١٦٤) وسورة آل عمران، الآية: (١٩٠).

كـلّ مـا تـرتـقـي إلـيـه بـوهـم[1]
مـــن جـــلالٍ وقـــدرة وســـنـــاءِ

فـالـذي أبـدع الـبـريـة أعـلـى
مـنـه، سـبـحـانَ مـبـدع الأشـيـاءِ

وقال علي رضي الله عنه في بعض وصاياه لولده: «إعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنه إله واحد لا يضاده في ملكه أحد». وعنه عليه الصلاة والسلام: «كل ما يتصور في الأذهان فالله سبحانه بخلافه».

وقال لبيد بن ربيعة:

ألا كـل شـيءٍ مـا خـلا الله بـاطـلُ
وكـل نـعـيـمٍ لا مـحـالـةَ زائـلُ[2]

وكلّ ابـن أنـثـى لـو تـطـاول عـمـره
إلى الـغـايـة الـقـصـوى فـللـقـبـر آيـل

وكـلّ أنـاسٍ سـوف تـدخـل بـيـنـهـم
دويـهـيـةٌ[3] تـصـفـرّ مـنـهـا الأنـامـل

وكـلّ امـرئٍ يـومـاً سـيـعـرف سـعـيـه
إذا حـصـلـت عـنـد الإلـه الـحـصـائـل

وروي أن النبي ﷺ قال وهو على المنبر: أن أشعر كلمة قالتها العرب: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل».

ثم بعد هذا الاعتقاد الإقرار بالشهادة بأن محمداً رسول الله بعثه برسالته إلى الخلائق كافة وجعله خاتم الأنبياء، ونسخ بشريعته الشرائع وجعله سيد البشر والشفيع المشفّع في المحشر، وأوجب على الخلق تصديقه فيما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة، فلا يصح إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت، من سؤال منكر ونكير، وهما ملكان من ملائكة الله تعالى يسألان العبد في قبره عن التوحيد والرسالة، ويقولان له: مَنْ رَبّك وما دينُك ومن نبيُّك. ويؤمن بعذاب القبر وأنه حق، وأن الميزان حق، والصراط حق، والحساب حق، وأن الجنة حق، والنار حق، وأن الله تعالى يدخل الجنة من يشاء بغير حساب وهم المقرّبُون، وأنه يخرج عصاة الموحدين من النار بعد الانتقام، حتى لا يبقى في جهنم من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان. ويؤمن بشفاعة الأنبياء ثم بشفاعة العلماء ثم بشفاعة الشهداء، وأن يعتقد فضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، ويحسن الظن بجميعهم على ما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار. فمن اعتقد جميع ذلك مؤمناً به موقناً فهو من أهل الحق والسنة، مفارق لعصابة الضلال والبدعة.

(١) أي كل ما يمكن أن تتخيله.
(٢) إلا نعيم الآخرة فإنه لا يحول ولا يزول.
(٣) دويهية: تصغير داهية وهو هنا تصغير تعظيم وليس تصغير تحقير.

رزقنا الله الثبات على هذه العقيدة، وجعلنا من أهلها، ووفقنا للدوام إلى الممات على التمسك والاعتصام بحبلها، إنه سميع مجيب. فهذه العقيدة قد اشتملت على أحد أركان الإسلام الخمسة، قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً».

الفصل الثاني

في الصلاة وفضلها

قال الله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ۝﴾[3] واختلفوا في اشتقاق اسم الصلاة مم هو، فقيل هو من الدعاء، وتسمية الصلاة دعاء، معروفة في كلام العرب، فسميت الصلاة صلاة لما فيها من الدعاء. وقيل: سميت بذلك من الرحمة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾[4] فهي من الله رحمة ومن الملائكة استغفار، ومن الناس دعاء. قال ﷺ: «اللهم صل على آل أبي أوفى أي ارحمهم»[5]. وقيل: سميت بذلك من الاستقامة من قولهم صليت العود على النار إذا قومته، والصلاة تقيم العبد على طاعة الله وخدمته وتنهاه عن خلافه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[6] وقيل لأنها صلة بين العبد وربه. وعن رسول الله ﷺ قال: «علم الأيمان الصلاة، فمن فرغ لها قلبه وحافظ عليها بحدودها فهو مؤمن». وعن عمر بن

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٣٨).
(٢) سورة البقرة، الآية: (٤٣).
(٣) سورة النساء، الآية: (١٠٣).
(٤) سورة الأحزاب، الآية: (٥٦).
(٥) وذلك عندما أدوا زكاتهم إلى النبي ﷺ.
(٦) سورة العنكبوت، الآية: (٤٥).

الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه قال وهو على المنبر: «إن الرجل ليشيب عارضاه في الإسلام وما أكمل لله تعالى صلاة» قيل: وكيف ذلك؟ قال: «لا يتم ركوعها وسجودها وخشوعها وتواضعه وإقباله على الله فيها». وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: «كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه». وقيل للحسن(١): ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهاً؟ فقال: «لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره». وقال بعضهم: «لا تفوت أحداً صلاة في جماعة إلا بذنب». وكانت رابعة العدوية تصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، وتقول: والله ما أريد بها ثواباً ولكن ليسر ذلك رسول الله ﷺ. ويقول للأنبياء عليهم الصلاة والسلام: أنظروا إلى امرأة من أمتي هذا عملها في اليوم والليلة. وقال بعضهم: صليت خلف ذي النون المصري، فلما أراد أن يكبر رفع يديه وقال: «الله» ثم بهت وبقي كأنه جسد لا روح فيه إعظاماً لربه جل وعلا، ثم قال: «الله أكبر» فظننت أن قلبي انخلع من هيبة تكبيره. وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود كذب من ادَّعى محبتي. وإذا جنَّ عليه الليل نام عني، أليس كل محب يحب الخلوة بحبيبه؟.

ولعبد الله بن المبارك رضي الله تعالى عنه:

إذا ما الليل أظلم كابدوهُ
فيسفرُ عنهمُ وهُمُ ركوعُ(٢)
أَطَارَ الخَوْفُ نَوْمَهُمُ فَقَامُوا
وَأَهْلُ الأمن في الدنيا هجوعُ(٣)

وكان سيدي الشيخ الإمام العلامة فتح الدين بن أمين الدين الحكم التحريري رحمه الله، كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات:

يا أيها الراكد كم ترقدُ
قم يا حبيبي قد دنا الموعدُ
وخذ من الليل ولو ساعةً
تحظى إذا ما هجع الرقد
من نام حتى ينقضي ليلهُ
لم يبلغ المنزلَ لو يجهدُ

وكان سيدي أويس القرني(١) لا ينام ليلة ويقول: «ما بال الملائكة لا يفترون ونحن نفتر» وقال حذيفة رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة»(٢) وقال هشام بن عروة: «كان أبي يطيل المكتوبة(٣) ويقول هي رأس المال».

وقال أبو الطفيل: «سمعت أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يقول: «يا أيها الناس قوموا إلى نيرانكم فأطفئوها، سمعت رسول الله ﷺ يقول الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر». وجزَّأ محمد بن المنكدر، عليه وعلى أمه وعلى أُخته، الليل أثلاثاً، فماتت أخته. فجزأه عليه وعلى أمه، فماتت أمه. فقام الليل كله. وكان مسلم بن بشار إذا أراد أن يصلي في بيته يقول لأهله: تحدثوا فلست أسمع حديثكم. وكان إذا دخل البيت سكت أهله فلا يسمع لهم كلام. فإذا قام إلى الصلاة تحدثوا وضحكوا ووقع حريق إلى جنبه وهو في الصلاة فما شعر به حتى أطفيء، وكان الحمام يقع على رأس ابن الزبير في المسجد الحرام يحسبه جذعاً منصوباً لطول انتصابه في الصلاة. وكانت العصافير تقع على ظهر إبراهيم بن شريك وهو ساجد كما تقع على الحائط.

وختم القرآن في ركعة واحدة، أربعة من الأئمة: عثمان بن عفان وتميم الداري، وسعيد بن جبير وأبو حنيفة رضي الله تعالى عنهم.

ورأى الأوزاعي شاباً بين القبر والمنبر، فلما طلع الفجر استلقى ثم قال: عند الصباح يحمد القوم السُّرَى(٤). فقال: يا ابن أخي لك ولأصحابك لا للجَمَّالين.

وكان خلف بن أيوب لا يطرد الذباب عن وجهه في الصلاة، فقيل له: كيف تصبر؟ فقال: «بلغني أن الفساق

---

(١) هو الحسن البصري ٢١ ـ ١١٠ هـ. إمام أهل البصرة في زمانه.

(٢) ليسفر عنهم: أي يشرق فجره وهم ما زالوا في صلاة.

(٣) أهل الأمن في الدنيا: الذين أطمأنوا إلى الحياة الدنيا وظنوا أن لا حساب بعدها ولا عقاب، ولا ثواب.

---

(١) هو أويس القرني بن عامر بن جزء بن مالك القرني المرادي، أحد النساك العباد المقدمين، أصله من اليمن أخبر النبي ﷺ أصحابه أنه سيقدم من اليمن وطلب إليهم إذا أدركوه أن يسألوه الدعاء لهم فأدركه عمر رضي الله عنه وسأله الدعاء فدعا له بخير.

(٢) فزع إلى الأمر: لجأ إليه.

(٣) أي الصلاة المكتوبة وهي الفرائض الخمس.

(٤) هو مثل يضرب لمن يستعد للأمر قبل وقوعه، والسرى: السير خلال الليل.

يتصبرون تحت السياط ليقال فلان صبور. وأنا بين يدي ربي أفلا أصبر على ذباب يقع علي.

وقال أبو صفوان بن عوانة: «ما من منظر أحسن من رجلٍ عليه ثياب بيض وهو قائم يصلي في القمر كأنه يشبه الملائكة» وقال الحسن: «ما كان في هذه الأمة أعبد من فاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ، وكانت تقوم بالأسحار حتى تورمت قدماها». وقام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه، وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وكانت دموعه تقع في مصلاه كوكف المطر[1]، وكان إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يسمع لقلبه خفقان وغليان، هذا خوف الحبيب والخليل مع ما أعطيا من الإجلال والإكرام وشرف المقام. فالعجب كيف يطمئن قلب من أزعجته الآثام.

وقال رسول الله ﷺ لرجل قال له: ادع الله أن يجعلني رفيقك في الجنة؟ فقال: «أعني على نفسك بكثرة السجود».

وقال حاتم الأصم رحمه الله تعالى: «فاتتني صلاة الجماعة مرة فعزّاني أبو إسحق البخاري وحده، ولو مات لي ولد لعزاني أكثر من عشرة آلاف لأن مصيبة الدين عندهم أهون من مصيبة الدنيا» وكان السلف رضي الله تعالى عنهم يعزون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتتهم التكبيرة الأولى، وسبعاً إذا فاتتهم الجماعة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ركعتان مقتصدتان في تفكر، خير من قيام ليلة والقلب ساه».

(وأنشد بعضهم):

خسر الذي ترك الصلاة وخابا
وأبى معاداً صالحاً ومآبا
إن كان يجحدها[2] فحسبُك أنه
أضحى بربّك كافراً مرتابا
أو كان يتركها لنوع تكاسلٍ
غطّى على وجه الصواب حجابا
فالشافعيُ ومالكٌ رأياً له
إن لم يتبْ حدَّ الحسام عقابا
والرأي عندي للإمام عذابُه
بجميع تأديبٍ يراه صوابا

(١) وكف المطر: هطوله.
(٢) أي ينكر وجوبها.

اللهم أعنّا على الصلاة وتقبلها منا بكرمك ولا تجعلنا من الغافلين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

ومما يستحسن إلحاقه بهذا الفصل ذكر شيء من فضل السواك والأذان.

أما السواك: فقد قال الرسول ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة». وقال أيضاً: «صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة على غير سواك». وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ إذا قام ليتهجد شاص فاه[1] بالسواك». وقال ﷺ: «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب». وعنه ﷺ أنه قال: «لو يعلم الناس ما في السواك لبات مع الرجل في لحافه». وقال أيضاً: «أفواهكم طرق لكلام ربكم فنظفوها». والاختيار في السواك أن يكون بعود الأراك[2]. ويجزي بغيره من العيدان وبالسعد والأشنان[3]، والخرقة الخشنة وغير ذلك مما ينظف. ويستاك عرضاً مبتدئاً بالجانب الأيمن من فيه، وينوي به الإتيان بالسنة. والسواك بعود الزيتون يزيل الحفر من الأسنان. وقال الأصحاب يقول عند السواك: «اللهم بارك لي فيه يا أرحم الراحمين». ويستاك في ظاهر الأسنان وباطنها، ويمر السواك على أطراف أسنانه وأضراسه وسقف حلقه إمراراً لطيفاً، ويستاك بعود متوسط لا شديد اليبوسة ولا شديد اللين، فإن اشتد يبسه لينه بالماء، وقد قيل: إن من فضائل السواك أنه يذكر الشهادة عند الموت ويسهل خروج الروح.

وأما الأذان فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه». قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[4]. نزلت في المؤذنين.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يغفر الله للمؤذن مدى صوته، ويشهد له ما سمعه من رطب ويابس». وعن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة**». رواه مسلم.

(١) شاص فاه: دلك لثته وأسنانه ونظفها بعود السِّواك.
(٢) الأراك: شجر تتخذ منه أعواد السواك من أغصانه الدقيقة.
(٣) السعد والأشنان: نباتات تستعمل لغسل الأيدي والملابس.
(٤) سورة فصلت، الآية: (٣٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين»**. رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا أنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة»** رواه البخاري. والأحاديث في فضله كثيرة مشهورة والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل الثالث

في الزكاة وفضلها

قرن الله سبحانه وتعالى الزكاة بالصلاة في مواضع شتى من كتابه. قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[3]. وعن بريدة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: **«ما حبس قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر»**[4]، وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: **«ما خالطت الزكاة مالاً قط إلا أهلكته»**[5]. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: **«من كان عنده ما يزكي ولم يزك ومن كان عنده ما يحج ولم يحج سأل الرجعة»**[6]. يعني قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾[7].

ولنلحق بهذا الفصل ذكر شيء من الصدقة وفضلها وما جاء فيها وما أعد الله تعالى للمتصدقين من الأجر والثواب، ودفع البلاء. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾[8]. وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ الآية[9]. والآيات الكريمة في ذلك كثيرة، والأحاديث الصحيحة فيه مشهورة، وروى الترمذي في جامعه بسنده، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»**. وفي صحيح مسلم، وموطأ مالك، وجامع الترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما نقص مال من صدقة»**. أو قال: **«ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع عبد إلا رفعه الله تعالى»**.

ودخلت امرأة شلاَّء على عائشة رضي الله عنها فقالت: **«كان أبي يحب الصدقة وأمي تبغضها، لم تتصدق في عمرها إلا بقطعة شحم وخلقة**[1]**، فرأيت في المنام كأن القيامة قد قامت، وكأن أمي قد غطت عورتها بالخلقة وفي يدها الشحمة تلحسها من العطش، فذهبت إلى أبي وهو على حافة حوض يسقي الناس، فطلبت منه قدحاً من ماء فسقيت أمي، فنوديت من فوقي ألا من سقاها، فشل الله يدها فانتبهت كما ترين»**.

ووقف سائل على امرأة وهي تتعشى فقامت فوضعت لقمة في فيه، ثم بكرت إلى زوجها في مزرعته، فوضعت ولدها عنده وقامت لحاجة تريد قضاءها، فاختلسه الذئب. فوقفت وقالت: **«يا رب ولدي»**، فأتاها آت فأخذ بعنق الذئب، فاستخرجت ولدها من غير أذى ولا ضرر، فقال لها: **«هذه اللقمة بتلك اللقمة التي وضعتها في فم السائل»**.

وعشش ورشان[2] في شجرة في دار رجل، فلما همت أفراخه بالطيران زينت امرأة ذلك الرجل له، أخذ أفراخ ذلك الورشان، ففعل ذلك مراراً، وكلما فرخ الورشان أخذوا أفراخه، فشكا الورشان ذلك إلى سليمان عليه السلام وقال: **«يا رسول الله أردت أن يكون لي أولاد يذكرون الله تعالى من بعدي، فأخذها الرجل بأمر امرأته**، ثم أعاد الورشان الشكوى، فقال سليمان لشيطانين: **«إذا رأيتماه يصعد الشجرة، فشقاه نصفين»**. فلما أراد الرجل أن يصعد الشجرة اعترضه سائل فأطعمه كسرة من خبز شعير، ثم صعد وأخذ الأفراخ على عادته. فشكا الورشان ذلك إلى سليمان عليه السلام، فقال للشيطانين: **«ألم**

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٤٣).
(٢) سورة النور، الآية: (٣٧).
(٣) سورة البينة، الآية: (٥).
(٤) القطر: المطر.
(٥) أي المال الذي لم تؤدَّ زكاته يهلكه منع أداة زكاته.
(٦) أي طلب يوم الحساب أن يعاد إلى الدنيا.
(٧) سورة المؤمنون، من الآيتين: (٩٩ ـ ١٠٠).
(٨) سورة يوسف، الآية: (٨٨).
(٩) سورة الأحزاب، الآية: (٣٥).

---

(١) خلقة: ثوب بالٍ.
(٢) الورشان: طائر يشبه الحمام يعيش قرب مساكن البشر وفي البساتين.

تفعلا ما أمرتكما به؟» فقال: «اعترضنا ملكان فطرحانا في الخافقين».

وقال النخعي: «كانوا يرون أن الرجل المظلوم إذا تصدق بشيء دفع عنه البلاء». وكان الرجل يضع الصدقة في يد الفقير ويتمثل قائماً بين يديه ويسأله قبولها حتى يكون هو في صورة السائل، وقال رسول الله ﷺ: «الصدقة تسد سبعين باباً من الشر». وعنه ﷺ قال: «ردوا صدمة البلاء ولو بمثل رأس الطائر من الطعام». وروي عنه ﷺ أنه قال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»[1]. وقال عيسى صلوات الله وسلامه عليه: «من رد سائلاً خائباً لم تغش الملائكة ذلك البيت[2] سبعة أيام». وكان نبينا محمد ﷺ يناول المسكين بيده، وعنه ﷺ: «ما من مسلم يكسو مسلماً ثوباً إلا كان في حفظ الله ما كانت عليه منه رقعة».

وقال عبد العزيز بن عمير: «الصلاة تبلغك نصف الطريق والصوم يبلغك باب الملك والصدقة تدخلك عليه».

وعن الربيع بن خيثم أنه خرج في ليلة شاتية وعليه برنس خز[3]، فرأى سائلاً فأعطاه إياه، وتلا قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[4]. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر وإن سوء الخلق شؤم وحسن الملكة نماء، والصدقة تدفع ميتة السوء».

وقال يحيى بن معاذ: «ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا من الصدقة»، وعن عمر رضي الله عنه: «أن الأعمال تباهت فقالت الصدقة: أنا أفضلكن».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تداركوا الهموم والغموم بالصدقات يدفع الله ضركم وينصركم على عدوكم»، وعن عبيد بن عمير قال: «يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط، وأعطش ما كانوا قط، فمن أطعم لله أشبعه الله، ومن سقى لله سقاه الله، ومن كسا لله كساه الله».

وقال الشعبي: «من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه». وكان الحسن بن صالح إذا جاءه سائل، فإن كان عنده ذهب أو فضة أو طعام أعطاه، فإن لم يكن عنده من ذلك شيء أعطاه دهناً أو غيره مما ينتفع به، فإن لم يكن عنده شيء أعطاه كحلاً أو أخرج إبرة وخيطاً فرقع بهما ثوب السائل.

ووجّه رجل ابنه في تجارة فمضت أشهر ولم يقع له على خبر، فتصدق برغيفين وأرخ ذلك اليوم، فلما كان بعد سنة رجع ابنه سالماً رابحاً، فسأله أبوه: هل أصابك في سفرك بلاء؟ قال: نعم غرقت السفينة بنا في وسط البحر، وغرقت في جملة الناس، وإذا بشابين أخذاني فطرحاني على الشط، وقالا لي: قل لوالدك هذا برغيفين فكيف لو تصدقت بأكثر من ذلك؟! وقال علي رضي الله تعالى عنه وكرم الله وجهه: «إذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك فيوافيك به حيث تحتاج إليه، فاغتنم حمله إياه»[1]. لله در القائل حيث قال:

يبكي على الذاهب من ماله
وإنما يبقى الذي يذهبُ

وحكي أن رجلاً عَبَدَ الله سبعين سنة، فبينما هو في معبده ذات ليلة إذ وقفت به امرأة جميلة فسألته أن يفتح لها، وكانت ليلة شاتية فلم يلتفت إليها، وأقبل على عبادته، فولت المرأة، فنظر إليها، فأعجبته فملكت قلبه وسلبت لبه، فترك العبادة وتبعها وقال: إلى أين؟ فقالت: إلى حيث أريد. فقال: هيهات صار المرادُ مريداً والأحرار عبيداً. ثم جذبها فأدخلها مكانه، فأقامت عنده سبعة أيام، فعند ذلك تذكر ما كان فيه من العبادة، وكيف باع عبادة سبعين سنة بمعصية سبعة أيام، فبكى حتى غشي عليه، فلما أفاق قالت له: يا هذا والله أنت ما عصيت الله مع غيري، وأنا ما عصيت الله مع غيرك، وإني أرى في وجهك أثر الصلاح، فبالله عليك إذا صالحك مولاك فاذكرني. قال فخرج هائماً على وجهه. فآواه الليل إلى خربة فيها عشرة عميان، وكان بالقرب منهم راهب يبعث إليهم في كل ليلة بعشرة أرغفة، فجاء غلام الراهب على عادته بالخبز، فمد ذلك الرجل العاصي يده، فأخذ رغيفاً، فبقي منهم رجلاً لم يأخذ شيئاً، فقال: أين رغيفي؟ فقال الغلام: قد فرقت عليكم العشرة. فقال: أبيت طاوياً،

---

(١) شق تمرة: نصفها.
(٢) أي لم تزر الملائكة ذلك البيت.
(٣) البرنس: ثوب أشبه بالعباءة المغربية اليوم، جزء منه غطاء للرأس.
(٤) سورة آل عمران، الآية: (٩٢).

(١) أي إن ما تتصدق به وأنت غني صحيح سيأتيك وأنت أحوج ما تكون إليه أو يأتيك ثوابه وأنت أحوج ما تكون إلى الثواب والحسنات.

فبكى الرجل العاصي وناول الرغيف لصاحبه وقال لنفسه: أنا أحق أن أبيت طاوياً لأنني عاص، وهذا مطيع، فنام واشتد به الجوع حتى أشرف على الهلاك. فأمر الله تعالى ملك الموت بقبض روحه فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة: هذا رجل فر من ذنبه، وجاء طائعاً. وقالت ملائكة العذاب: بل هو رجل عاص، فأوحى الله تعالى إليهم أن زنوا عبادة السبعين سنة بمعصية السبع ليال، فوزنوها فرجحت المعصية على عبادة السبعين سنة، فأوحى الله إليهم أن زنوا معصية السبع ليال بالرغيف الذي آثر به على نفسه. فوزنوا ذلك، فرجح الرغيف فتوفته ملائكة الرحمة، وقبل الله توبته.

وحكي أن رجلاً جلس يوماً يأكل هو وزوجته وبين أيديهما دجاجة مشوية، فوقف سائل ببابه، فخرج إليه وانتهره، فذهب، فاتفق بعد ذلك أن الرجل افتقر وزالت نعمته، وطلق زوجته، وتزوجت بعده برجل آخر، فجلس يأكل معها في بعض الأيام وبين أيديهما دجاجة مشوية، وإذا بسائل يطرق الباب، فقال الرجل لزوجته ادفعي إليه هذه الدجاجة، فخرجت بها إليه فإذا هو زوجها الأول، فدفعت إليه الدجاجة ورجعت وهي باكية، فسألها زوجها عن بكائها، فأخبرته أن السائل كان زوجها، وذكرت له قصتها مع ذلك السائل الذي انتهره زوجها الأول، فقال لها زوجها: أنا والله ذلك السائل.

وذكر عن مكحول أن رجلاً أتى إلى أبي هريرة رضي الله عنه فقال: ادع الله لابني فقد وقع في نفسي الخوف من هلاكه. فقال له: ألا أدلك على ما هو أنفع من دعائي وأنجع وأسرع إجابة؟ قال: بلى. قال: تصدق عنه بصدقة تنوي بها نجاة ولدك وسلامة ما معه، فخرج الرجل من عنده، وتصدق على سائل بدرهم وقال: هذا خلاص ولدي وسلامته وما معه، فنادى في تلك الساعة مناد في البحر: ألا إن الفداء مقبول وزيد مغاث. فلما قدم سأله أبوه عن حاله فقال: يا أبت لقد رأيت في البحر عجباً يوم كذا وكذا في وقت كذا وكذا. وهو اليوم الذي تصدق فيه والده عنه بالدرهم، وذلك أنا أشرفنا على الهلاك والتلف، فسمعنا صوتاً من الهواء: ألا أن الفداء مقبول وزيد مغاث. وجاءنا رجال عليهم ثياب بيض فقدموا السفينة إلى جزيرة كانت بالقرب منا وسلمنا وصرنا بخير أجمعين. والآثار والحكايات في ذلك كثيرة وفيما أشرت إليه كفاية لمن وعى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى والله أعلم.

الفصل الرابع

في الصوم وفضله وما أعد الله للصائم من الأجر والثواب

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾[1]. قيل: الصوم عموم وخصوص وخصوص الخصوص: فصوم العموم هو كف البطن والفرج وسائر الجوارح عن قصد الشهوة، وصوم الخصوص هو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام، وصوم خصوص الخصوص هو صوم القلب عن الهمم الدنية وكفه عما سوى الله بالكلية. قال رسول الله ﷺ: **«زكاة الجسد الصيام»**. وعنه ﷺ أنه قال: **«للصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره، وفرحة عند لقاء ربه»**، وقال وكيع في قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾[2]. إنها أيام الصوم تركوا فيها الأكل والشرب.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«من أفطر يوماً في رمضان من غير رخصة رخصها الله له، لم يقض عنه صيام الدهر»**. وروي في صحيح النسائي عنه أيضاً ﷺ أنه قال: **«إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين»**.

وروى الزهري أن تسبيحة واحدة في شهر رمضان أفضل من ألف تسبيحة في غيره.

وروي عن قتادة أنه كان يقول: من لم يغفر له في شهر رمضان فلن يغفر له في غيره. وقال رسول الله ﷺ: **«لو يعلم الناس ما في شهر رمضان من الخير لتمنت أمتي أن يكون رمضان السنة كلها، ولو أذن الله للسموات والأرض أن تتكلما لشهدتا لمن صام رمضان بالجنة»**. وقال ﷺ: **«ليس من عبد يصلي في ليلة من شهر رمضان إلا كتب الله له بكل ركعة ألفاً وخمسمائة حسنة، وبنى له بيتاً في الجنة من ياقوتة حمراء لها سبعون ألف باب، لكل باب منها مصراعان من ذهب، وله بكل سجدة يسجدها شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام»**.

وقال ﷺ: **«إن لكل صائم دعوة فإذا أراد أن نقبل، فليقل في كل ليلة عند فطره: يا واسع المغفرة اغفر لي»**.

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١٨٣).

(٢) سورة الحاقة، الآية: (٢٤).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «من صام يوماً من رمضان خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فإذا انسلخ عنه الشهر وهو حي لم يكتب عليه خطيئة حتى الحول، ومن عطش نفسه لله في يوم شديد الحر من أيام الدنيا كان حقاً على الله أن يرويه يوم القيامة».

وقال بعضهم: الصيام زكاة البدن ومن صام الدهر فقد وهب نفسه لله تعالى».

وروي في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»**.

وعنه ﷺ أنه قال: **«صيام ثلاثة أيام من كل شهر كصيام الدهر»** وهي الأيام البيض وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر.

وفي صحيح البخاري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»**.

وفضل الصوم غزير لأنه خصه الله تعالى بالإضافة إليه كما ثبت في الصحيح من الحديث عن النبي ﷺ أنه قال مخبراً عن ربه عز وجل: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به». وقد يكتفى في فضله بهذا الحديث الجليل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الفصل الخامس

في الحج وفضله

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾(١). وقال رسول الله ﷺ: **«من خرج من بيته حاجاً أو معتمراً فمات. أجرى الله له أجر الحاج والمعتمر إلى يوم القيامة»**. وقال ﷺ: **«من استطاع الحج ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً»**.

وفي الحديث: «إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة». وفيه: أعظم الناس ذنوباً من وقف بعرفة فظن أن الله لم يغفر له وهو أفضل يوم في الدنيا». وفي الخبر: إن الحجر الأسود ياقوتة من يواقيت الجنة، وأنه يبعثه الله يوم القيامة وله عينان ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بحق وصدق.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (٩٧).

وجاء في الحديث الصحيح: أن آدم عليه الصلاة والسلام لما قضى مناسكه لقيته الملائكة. فقالوا: يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام.

وقال مجاهد: إن الحجّاج إذا قدموا مكة لحقتهم الملائكة فسلموا على ركبان الإبل، وصافحوا ركبان الحمر، واعتنقوا المشاة اعتناقاً. وكان من سنة السلف رضي الله عنهم أن يشيعوا الغزاة، ويستقبلوا الحجاج ويقبلوهم بين أعينهم، ويسألوهم الدعاء لهم، ويبادروا ذلك قبل أن يتدنسوا بالآثام.

وعن النبي ﷺ: **«أن الله قد وعد هذا البيت أن يحجه كل سنة ستمائة ألف، فإن نقصوا كملهم الله تعالى من الملائكة، وإن الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة فكل من حجها يتعلق بأستارها ويسعى حولها حتى تدخل الجنة فيدخل معها**.

وحكي أن جميلة الموصلية بنت ناصر الدولة أبي محمد بن حمدان حجت سنة ست وثمانين وثلاثمائة فصارت تاريخاً مذكوراً. قيل إنها سقت أهل الموسم كلهم السويق بالطبرزد والثلج، واستصحبت البقول المزروعة في المراكن على الجمال، وأعدت خمسمائة راحلة للمنقطعين، ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار، ولم تستصبح فيها وعندها إلا بشموع العنبر، وأعتقت ثلاثمائة عبد ومائتي جارية، وأغنت الفقراء والمجاورين.

ولما بنى آدم عليه الصلاة والسلام البيت وقال: يا رب إن لكل عامل أجراً، فما أجر عملي؟ قال: إذا طفت به غفرت لك ذنوبك. قال: زدني. قال: جعلته قبلة لك ولأولادك، قال: يا رب زدني. قال: أغفر لكل من استغفرني من الطائفين به من أهل التوحيد من أولادك. قال: يا رب حسبي.

وفي الحديث: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة». وقيل للحسن: ما الحج المبرور؟ قال: أن ترجع زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة.

وأول من كسا الكعبة الديباج عبد الله بن الزبير، وكانت كسوتها المسوح والأنطاع(١) وكان يطيبها حتى يوجد ريحها من خارج الحرم. وكان حكيم بن حزام يقيم عشية

---

(١) المسوح: الأثواب من شعر الإبل وما ماثلها ج مسح وهو لباس المتنسكين والأنطاع: ج نطع وهي قطع من الجلد المدبوغ تستعمل عادة كالمفارش.

عرفة مائة بدنة ومائة رقبة، فيعتق الرقاب عشية عرفة وينحر البدن يوم النحر، وكان يطوف بالبيت فيقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له نعم الرب ونعم الإله أحبه وأخشاه.

ورُوِي الحسن بن علي رضي الله عنهما يطوف بالبيت، ثم صار إلى المقام فصلى ركعتين، ثم وضع خده على المقام فجعل يبكي ويقول: عُبَيْدُكَ ببابك خُوَيْدِمُكَ ببابك سَائِلُكَ ببابك مُسَيْكِينُكَ ببابك[1]. يردد ذلك مراراً ثم انصرف رضي الله عنه، فمر بمساكين معهم فلق خبز يأكلون، فسلم عليهم فدعوه إلى الطعام، فجلس معهم، وقال: لولا أنه صدقة لأكلت معكم. ثم قال: قوموا بنا إلى منزلي. فتوجهوا معه، فأطعمهم وكساهم وأمر لهم بدارهم.

وحج عبد الله بن جعفر رضي الله عنه ومعه ثلاثون راحلة وهو يمشي على رجليه حتى وقف بعرفات فأعتق ثلاثين مملوكاً وحملهم على ثلاثين راحلة وأمر لهم بثلاثين ألفاً، وقال: أعتقهم لله تعالى لعله يعتقني من النار. وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما: إني لأستحي من ربي أن ألقاه ولم أمش إلى بيته، فمشى من المدينة إلى مكة عشرين مرة.

ومن لطيف ما أنشد عمرو بن حبان الضرير حين لم يهد إليه الحجاج شيئاً:

كأنَّ الحجيجَ الآن لم يقربوا منىً
ولم يحملوا منها سواكاً ولا نعلاً
أتونا فما جادوا بعودِ أراكةٍ
ولا وضعوا في كفِّ طفلٍ لنا نقلا[2]

وقال غيره:

يحجون بالمال الذي يجمعونه
حراماً إلى البيت العتيق المحرّم
ويزعم كلّ منهمو أنّ وزره
يحطُّ ولكنْ فوقه في جهنم[3]

---

(١) استعمل صيغة التصغير للتواضع وإظهار الانكسار أمام الله العزيز الكريم ولقول الرسول ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه ذرة من كِبْر».

(٢) النقل: أنواع من الحلويات الجافة كالفواكه المجففة وما أشبهها.

(٣) وزره: ذنبه، يحط: المراد يغفر له.
وقوله: ولكن فوقه في جهنم أي يزاد إلى وزره في جمع المال الحرام وزر الحج بالمال الحرام فيحمله على ظهره في جهنم.

وقال آخر:

حجّ في الدهر حجةً
حجّ فيها وأحرما
وأتانا من الحجا
ز كما راح محرما
فهو ذو الحجة الذي
ما توقّى مُحرّما

وتخاصم بدوي مع حَاجٍّ عند منصرف الناس فقيل له أتخاصم رجلاً من الحجاج فقال:

يحجّ لكيما يغفر اللّهُ ذنبَهُ
ويرجع قد حطت عليه ذنوبُ[1]

وقال أبو الشمقمق:

إذا حججت بمال أصله دنسٌ
فما حججتُ ولكنْ حجّت العيرُ[2]
ما يقبل الله إلاّ كلّ طيبةٍ
ما كلّ من حجّ بيتَ الله مبرور

والله سبحانه وتعالى أعلم.

الباب الثاني

في العقل والذكاء والحمق وذمه وغير ذلك

نص الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز ومنزل خطابه الوجيز على شرف العقل، وقد ضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال وأوضحها، وبيّن بدائع مصنوعاته وشرحها، فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾[3].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له: أقبل، فأقبل ثم قال له: أدبر، فأدبر، فقال

---

(١) يقول هنا: حطت عليه بدل حطت عنه أي زيدت إلى ذنوبه ذنوب بدل أن تغفر ذنوبه.

(٢) العير: القافلة والنوق والمراد هنا الناقة التي حملته إلى الحج.

(٣) سورة النحل، الآية: (١٢).

عز من قائل: «وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أعز عليّ منك. بك آخذ وبك أعطي وبك أحاسب وبك أعاقب»[1].

وقال أهل المعرفة والعلم: العقل جوهر مضيء خلقه الله عز وجل في الدماغ، وجعل نوره في القلب يدرك به المعلومات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة.

واعلم أن العقل ينقسم إلى قسمين: قسم لا يقبل الزيادة والنقصان، وقسم يقبلهما. فأما الأول فهو العقل الغريزي المشترك بين العقلاء. وأما الثاني فهو العقل التجريبي وهو مكتسب، وتحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع، وباعتبار هذه الحالة يقال أن الشيخ أكمل عقلاً وأتم دراية، وإن صاحب التجارب أكثر فهماً وأرجح معرفة، ولهذا قيل: من بَيَّضَتْ الحوادث سواد لمته[2]، وأخلقت التجارب لباس جدته، وأراه الله تعالى لكثرة ممارسته، تصاريف أقداره وأقضيته كان جديراً برزانة العقل ورجاحة الدراية. وقد يخص الله تعالى بألطافه الخفية من يشاء من عباده، فيفيض عليه من خزائن مواهبه رزانة عقل وزيادة معرفة تخرجه عن حد الاكتساب ويصير بها راجحاً على ذوي التجارب والآداب، ويدل على ذلك قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام فيما أخبر الله تعالى به في محكم كتابه العزيز حيث يقول: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[3]. فمن سبقت له سابقة من الله تعالى في قسم السعادة، وأدركته عناية أزلية، أشرقت على باطنه أنوار ملكوتية وهداية ربانية، فاتصف بالذكاء والفطنة قلبه، وأسفر عن وجه الإصابة ظنه، وإن كان حديث السن قليل التجربة، كما نقل في قصة سليمان بن داود عليهما السلام وهو صبي حيث رد حكم أبيه داود عليه السلام في أمر الغنم والحرث.

وشرح ذلك فيما نقله المفسرون أن رجلين دخلا على داود عليه السلام أحدهما صاحب غنم، والآخر صاحب حرث[4]. فقال أحدهما: إن هذا دخلت غنمه بالليل إلى حرثي فأهلكته وأكلته ولم تبق لي فيه شيئاً، فقال داود عليه السلام: الغنم لصاحب الحرث عوضاً عن حرثه، فلما خرجا من عنده مرا على سليمان عليه السلام، وكان عمره إذ ذاك على ما نقله أئمة التفسير إحدى عشرة سنة، فقال لهما: ما حكم بينكما الملك؟ فذكرا له ذلك. فقال: غير هذا أرفق بالفريقين. فعادا إلى داود عليه السلام وقالا له ما قاله ولده سليمان عليه السلام فدعاه داود عليه السلام وقال له: ما هو الأرفق بالفريقين؟ فقال سليمان: تسلم الغنم إلى صاحب الحرث. ـ وكان الحرث كرماً قد تدلت عناقيده في قول أكثر المفسرين ـ فيأخذ صاحب الكرم الأغنام يأكل لبنها وينتفع بدرها ونسلها، ويسلم الكرم إلى صاحب الأغنام ليقوم به، فإذا عاد الكرم إلى هيئته وصورته التي كان عليها ليلة دخلت الغنم إليه سلّم صاحب الكرم الغنم إلى صاحبها وتسلم كرمه كما كان بعناقيده وصورته، فقال له داود: القضاء كما قلت. وحكم به كما قال سليمان عليه السلام.

وفي هذه القصة نزل قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ۝ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[1]. فهذه المعرفة والدراية لم تحصل لسليمان بكثرة التجربة وطول المدة، بل حصلت بعناية ربانية وألطاف إلهية، وإذا قذف الله تعالى شيئاً من أنوار مواهبه في قلب من يشاء من خلقه اهتدى إلى مواقع الصواب، ورجح على ذوي التجارب والاكتساب في كثير من الأسباب، ويستدل على حصول كمال العقل في الرجل بما يوجد منه وما يصد عنه، فإن العقل معنى لا يمكن مشاهدته، فإن المشاهدة من خصائص الأجسام.

فأقول: يستدل على عقل الرجل بأمور متعددة منها: ميله إلى محاسن الأخلاق وإعراضه عن رذائل الأعمال، ورغبته في إسداء صنائع المعروف وتجنبه ما يكسبه عاراً ويورثه سوء السمعة.

وقد قيل لبعض الحكماء: بمَ يعرف عقل الرجل؟ فقال: بقلة سقطه في الكلام، وكثرة إصابته فيه. فقيل له: فإن كان غائباً، فقال: بإحدى ثلاث إما برسوله وإما بكتابه وإما بهديته، فإن رسوله قائم مقام نفسه، وكتابه يصف نطق لسانه، وهديته عنوان همّته، فبقدر ما يكون فيها من نقص يحكم به على صاحبها.

وقيل: من أكبر الأشياء شهادة على عقل الرجل حسن

---

(١) رجح أهل الحديث أن هذا الحديث موضوع، وضعه المعتزلة لتأييد مذهبهم وقولهم.

(٢) اللمة: شعر الرأس إذا طال فبلغ الكتف وأقصر منه الجُمّة.

(٣) سورة مريم، الآية: (١٢).

(٤) الحرث: ما نبت في الأرض من زروع بعد حرثها وبذرها وما لازم وجه الأرض من نبات فلا تقال للشجر إنما قد تقال للعنب إن لم يكن مرفوعاً على عرائش.

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: (٧٨ ـ ٧٩).

مداراته للناس، ويكفي أن حسن المداراة يشهد لصاحبه بتوفيق الله تعالى إياه؛ فإنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من حرم مداراة الناس فقد حرم التوفيق» فمقتضاه أن من رزق المداراة لم يحرم التوفيق.

وقالوا: العاقل الذي يحسن المداراة مع أهل زمانه. وقال رسول الله ﷺ: «الجنة مائة درجة تسعة وتسعون منها لأهل العقل وواحدة لسائر الناس» وقال علي بن عبيدة، العقل ملك والخصال رعية، فإذا ضعف عن القيام عليها وصل الخلل إليها. فسمعه أعرابي فقال: هذا كلام يقطر عسله.

وقيل: بأيدي العقول تمسك أعِنّة النفوس[1]، وكل شيء إذا كثر رخص إلا العقل فإنه كلما كثر غلا. وقيل: لكل شيء غاية وحدّ، والعقل لا غاية له ولا حدّ، ولكن الناس يتفاوتون فيه تفاوت الأزهار في المروج[2].

واختلف الحكماء في ماهيته فقال قوم: هو نور وضعه الله طبعاً وغريزة في القلب كالنور في العين. وهو يزيد وينقص ويذهب ويعود وكما يدرك بالبصر شواهد الأمور كذلك يدرك بنور القلب المحجوب والمستور، وعمى القلب كعمى البصر. قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[3]. وقيل محل العقل الدماغ وهو قول أبو حنيفة رحمه الله تعالى. وذهب جماعة إلى أنه في القلب كما روي عن الشافعي رحمه الله تعالى واستدلوا بقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾[4]. وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾[5]. أي عقل، وقالوا: التجربة مرآة العقل، ولذلك حمدت آراء المشايخ حتى قالوا: المشايخ أشجار الوقار لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم فهم وعليكم بآراء الشيوخ فإنهم إن عدموا ذكاء الطبع فقد أفادتهم الأيام حيلة وتجربة.

قال الشاعر:

ألم ترَ أنّ العقلَ زينٌ لأهله
ولكنْ تمامُ العقلِ طولُ التجاربِ

(١) العنان في الأصل للفرس يمنعها من الشرود.

(٢) أي كما أن في الأزهار ما هو طيب الريح قوي العطر وما هو أقل من ذلك أو أكثر ومنها ما كان سيىء الريح كذلك عقول البشر.

(٣) سورة الحج، الآية: (٤٦).

(٤) سورة الحج، الآية: (٤٦).

(٥) سورة ق، الآية: (٣٧).

وقال آخر:

إذا طال عمرُ المرء في غير آفةٍ
أفادت له الأيام في كرّها عقلا

وقال عامر بن عبد قيس: إذا عَقَلَكَ عَقْلُكَ[1] عما لا يعنيك فأنت عاقل. ويقال: لا شرف إلا شرف العقل ولا غنى إلا غنى النفس. وقيل: يعيش العاقل بعقله حيث كان كما يعيش الأسد بقوته حيث كان. قال الشاعر:

إذا لم يكن للمرء عقلٌ فإنّه
وإن كان ذا بيتٍ على الناس هيّنٌ
ومن كان ذا عقلٍ أُجِلَّ لعقله
وأفضل عقلٍ عَقْلُ من يتدينُ

وقالوا العاقل لا تبطره المنزلة السنية، كالجبل لا يتزعزع وإن اشتدت عليه الريح، والجاهل تبطره[2] أدنى منزلة كالحشيش يحركه أدنى ريح.

وقيل لعلي رضي الله عنه: صف لنا العاقل؟ قال: هو الذي يضع الشيء مواضعه. قيل: فصف لنا الجاهل؟ قال: قد فعلت. يعني الذي لا يضع الشيء مواضعه. وقال المنصور لولده: خذ عني ثنتين: لا تقل من غير تفكير ولا تعمل بغير تدبير. وقال أزدشير: أربعة تحتاج إلى أربعة: الحسب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقرابة إلى المودّة، والعقل إلى التجربة.

وقال كسرى أنوشروان: أربعة تؤدي إلى أربعة: العقل إلى الرياسة، والرأي إلى السياسة، والعلم إلى التصدير، والحلم إلى التوقير.

وقال القاسم بن محمد: من لم يكن عقله أغلب الخصال عليه كان حتفه من أغلب الخصال عليه.

وقيل: أفضل العقل معرفة العاقل بنفسه. وقيل: ثلاثة هن رأس العقل: مداراة الناس، والاقتصاد في المعيشة، والتحبب إلى الناس. وقيل: من أعجب برأي نفسه بطل رأيه، ومن ترك الاستماع من ذوي العقول مات عقله. وعن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه أنه قال: أهل مصر أعقل الناس صغاراً، وأرحمهم كباراً.

(١) عَقَلَكَ عما لا يعنيك: منعك من الاقتراب منه.

(٢) البطر؛ هو كما قال رسول الله ﷺ كفر النعمة وظلم الناس، والبَطِر يتطاول على الله بما حباه الله من نعمة ويظنها من عند نفسه كما قال قارون فيما ذكره عنه رب العالمين ﴿إنما أوتيته على عِلم عندي﴾.

وقيل: العاقل المحروم خير من الأحمق المرزوق[1]. وقيل: لا ينبغي للعاقل أن يمدح امرأة حتى تموت، ولا طعاماً حتى يستمرئه، ولا يثق بخليل حتى يستقرضه[2].

وقيل: طول اللحية أمان من العقل. **وسئل بعضهم**: أيما أحمد في الصبا الحياء أم الخوف؟ قال: الحياء لأن الحياء يدل على العقل، والخوف يدل على الخبن. وقيل: غضب العاقل على فعله وغضب الجاهل على قوله.

وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: قال لي رسول الله ﷺ: **«يا عويمر ازدد عقلاً تزدد من الله تعالى قرباً»** قلت: بأبي وأمي ومن لي بالعقل؟ قال: **«اجتنب محارم الله تعالى وأدِّ فرائض الله تعالى تكن عاقلاً، ثم تنقل إلى صالح الأعمال تزدد في الدنيا عقلاً، وتزدد من الله قرباً وعزاً»**.

وحكي بعض أهل المعرفة قال: حياة النفس بالروح، وحياة الروح بالذكر، وحياة القلب بالعقل، وحياة العقل بالعلم. ويروى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه كان ينشد هذه الأبيات ويترنم بها:

إنّ المكارم أخلاقٌ مطهرةٌ
فالعقل أوّلها والدينُ ثانيها
والعلمُ ثالثها والحلم رابعها
والجود خامسها والعُرْفُ ساديها[3]
والبر سابعها والصبر ثامنها
والشكر تاسعها واللين عاشيها[4]
والعين تعلم من عينيّ محدثها
إن كان من حزبها أو من أعاديها
والنفس تعلم أني لا أصدقها
ولست أرشدُ إلا حين أعصيها

وقال بعض الحكماء: العاقل من عقله في إرشاد، ورأيه في إمداد، فقوله سديد، وفعله حميد. والجاهل من جهله في إغراء، فقوله سقيم، وفعله ذميم. ولا يكتفي في الدلالة على عقل الرجل الاغترار بحسن ملبسه وملاحة سمته وتسريح لحيته وكثرة صلفته ونظافة بزته، إذ كم من كنيف مبيض، وجلد مفضّض. وقد قال الأصمعي: رأيت بالبصرة شيخاً له منظر حسن وعليه ثياب فاخرة، وحوله حاشية وهرج، وعنده دخل وخرج، فأردت أن أختبر عقله، فسلمت عليه وقلت: ما كنية سيدنا؟ فقال: أبو عبد الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، قال الأصمعي: فضحكت منه وعلمت قلة عقله وكثرة جهله، ولم يدفع ذلك عنه غزارة خرجه ودخله. وقد يكون الرجل موسوماً بالعقل مرموقاً بعين الفضل، فيصدر منه حالة تكشف عن حقيقة حاله وتشهد عليه بقلة عقله واختلاله.

وقيل: إن إياس بن معاوية القاضي كان من أكابر العقلاء، وكان عقله يهديه إلى سلوك طرق لا يكاد يسلكها من لم يهتد إليها، فكان من جملة الوقائع التي صدرت منه وشهدت له بالعقل الراجح والفكر القادح أنه كان في زمانه رجل مشهور بين الناس بالأمانة، فاتفق أن رجلاً أراد أن يحج. فأودع عند ذلك الرجل الأمين كيساً فيه جملة من الذهب، ثم حج فلما عاد من حجه جاء إلى ذلك الرجل وطلب كيسه منه فأنكره وجحده، فجاء إلى القاضي إياس وقص عليه القصة، فقال القاضي: هل أخبرت بذلك أحداً غيري؟ قال: لا. قال: فهل علم الرجل أنك أتيت إلي؟ قال: لا. قال: انصرف وأكتم أمرك، ثم عد إلي بعد غد. فانصرف. ثم إن القاضي دعا ذلك الرجل المستودَع فقال: قد حصل عندي أموال كثيرة ورأيت أن أودعها عندك فاذهب وهيىء لها موضعاً حصيناً. فمضى ذلك الرجل وحضر صاحب الوديعة بعد ذهاب الرجل، فقال له القاضي إياس: امض إلى خصمك واطلب منه وديعتك، فإن جحدك فقل له امض معي إلى القاضي إياس أتحاكم أنا وأنت عنده، فلما جاء إليه دفع إليه وديعته فجاء إلى القاضي وأعلمه بذلك. ثم إن ذلك الرجل المستودَع جاء إلى القاضي طامعاً في تسليم المال، فسبه القاضي وطرده. وكانت هذه الواقعة مما تدل على عقله وصحة فكره.

ولما مات بعض الخلفاء اختلفت الروم واجتمعت ملوكها. فقال: الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض، فتمكننا الغرة منهم[1] والوثبة عليهم، وعقدوا لذلك المشورات، وتراجعوا فيه بالمناظرات، وأجمعوا على أنه فرصة الدهر. وكان رجل منهم من ذوي العقل والمعرفة

---

(١) لأن العاقل وإن كان محروماً ساعده عقله على تدبير أموره، أما الأحمق فيضيع بحمقه ما أصابه من رزق.

(٢) الخليل: الصديق المقرّب، ويستقرضه أي سيتدين منه فيرى إن كان يقرضه أم يتعلل له وإن أقرضه كيف يستقضيه.

(٣) ساديها: سادسها.

(٤) عاشيها: عاشرها.

(١) أي يمكن مفاجأتهم أثناء انشغالهم وغفلتهم عنا.

والرأي غائباً عنهم، فقالوا: من الحزم عرض الرأي عليه. فلما أخبروه بما أجمعوا عليه قال: لا أرى ذلك صواباً. فسألوه عن علة ذلك فقال: في غد أخبركم إن شاء الله تعالى. فلما أصبحوا أتوا إليه وقالوا: قد وعدتنا أن تخبرنا في هذا اليوم بما عولنا عليه، فقال: سمعاً وطاعة. وأمر بإحضار كلبين عظيمين كان قد أعدهما، ثم حرض بينهما وحرض كل واحد منهما على الآخر، فتواثبا وتهارشا حتى سالت دماؤهما، فلما بلغا الغاية فتح باب بيت عنده وأرسل على الكلبين ذئباً كان قد أعده لذلك، فلما أبصراه تركا ما كانا عليه وتآلفت قلوبهما ووثبا جميعاً على الذئب فقتلاه. فأقبل الرجل على أهل الجمع فقال: مثلكم مع المسلمين مثل هذا الذئب مع الكلاب، لا يزال الهرج[1] بين المسلمين ما لم يظهر لهم عدو من غيرهم، فإذا ظهر تركوا العداوة بينهم وتألفوا على العدو. فاستحسنوا قوله واستصوبوا رأيه فهذه صفة العقلاء.

وأما ذم الأحمق: فقد قال ابن الأعرابي[2]: الحماقة مأخوذة من حمقت السوق إذا كسدت فكأنه كاسد العقل والرأي، فلا يشاور ولا يلتفت إليه في أمر من الأمور. والحق غريزة لا تنفع فيها الحيلة وهو داء دواؤه الموت.

قال الشاعر:

لِكُلِّ داءٍ دَوَاءٌ يُسْتَطَبُّ بِهِ
إلاَّ الحَمَاقَةَ أَعْيَتْ مَنْ يُدَاوِيهَا

والحمق مذموم. قال رسول الله ﷺ: **«الأحمق أبغض الخلق إلى الله تعالى إذ حرمه أعز الأشياء عليه وهو العقل»** ويستدل على صفة الأحمق من حيث الصورة بطول اللحية لأن مخرجها من الدماغ، فمن أفرط طول لحيته قل دماغه، ومن قل دماغه قل عقله، ومن قل عقله فهو أحمق. وأما صفته من حيث الأفعال فترك نظره في العواقب وثقته بمن لا يعرفه، والعجب وكثرة الكلام وسرعة الجواب، وكثرة الالتفات والخلو من العلم، والعجلة والخفة والسفه والظلم والغفلة والسهو والخيلاء، إن استغنى بطر وإن افتقر قنط، وإن قال أفحش وإن سُئِلَ بَخِلَ، وإن سَأَلَ أَلَحَّ، وإن قال لم يُحسن، وإن قيل له لم يَفْقه، وإن ضحك قهقه، وإن بكى صرخ، وإن اعتبرنا هذه الخلال وجدناها في كثير من الناس، فلا يكاد يعرف العاقل من الأحمق.

قال عيسى عليه السلام: «عالجت الأبرص والأكمه فأبرأتهما، وعالجت الأحمق فأعياني» والسكوت عند الأحمق جوابه. ونظر بعض الحكماء إلى أحمق على حجر فقال: حجر على حجر.

وحكي أن أحمقين اصطحبا في طريق، فقال أحدهما للآخر: تعالى نتمن على الله فإن الطريق تقطع بالحديث. فقال أحدهما: أنا أتمنى قطائع غنم أنتفع بلبنها ولحمها وصوفها. وقال الآخر: أنا أتمنى قطائع ذئاب أرسلها على غنمك حتى لا تترك منها شيئاً. قال: ويحك أهذا من حق الصحبة وحرمة العشرة. فتصايحا وتخاصما، واشتدت الخصومة بينهما حتى تماسكا بالأطواق، ثم تراضيا من أن أول من يطلع عليهما يكون حكماً بينهما، فطلع عليهما شيخ بحمار عليه زقان من عسل، فحدثاه بحديثهما، فنزل بالزقين وفتحهما حتى سال العسل على التراب، قال: صب الله دمي مثل هذا العسل إن لم تكونا أحمقين.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان رجل يتعبد في صومعة فأمطرت السماء، وأعشبت الأرض، فرأى حماره يرعى في ذلك العشب فقال: يا رب لو كان لك حمار لرعيته مع حماري هذا، فبلغ ذلك بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهم أن يدعو عليه، فأوحى الله إليه: لا تدع عليه فإني أجازي العباد على قدر عقولهم. ويقال فلان ذو حمق وافر وعقل نافر ليس معه من العقل إلا ما يوجب حجة الله عليه. وخطب سهل هند ابنة عتبة فحمقته فقال:

وَمَا هَوَجِي يَا هِنْدَ إلاَّ سَجِيَّةٌ
أَجُرُّ لَهَا ذَيْلِي بِحُسْنِ الخَلاَئِقَ[1]
وَلَوْ شِئْتُ خَادَعْتُ الفَتَى عَنْ قَلُوصِهِ
وَلأَطَمْتُ فِي البَطْحَاءِ مِنْ كُلِّ طَارِقِ[2]

ويقال للإبله السليم القلب هو من بقر الجنة لا ينطح ولا يرمح، والأحمق المؤذي هو من بقر سقر[3] والله سبحانه

(١) الهرج: القتل.
(٢) هو عالم اللغة الكوفي محمد بن زياد، ربيب المفضل، توفي سنة ٢٣١ هـ.

(١) سجية: طبع. أجر لها ذيلي: أختال.
(٢) القلوص: الناقة السريعة.
البطحاء: الأرض المستوية، الطارق: الآتي ليلاً.
(٣) سقر: من أسماء جهنم وقيل هو طبقة من طبقاتها كالجحيم ولظى والسعير إلخ...

وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثالث

في القرآن وفضله وحرمته وما أعد الله تعالى لقارئه من الثواب العظيم والأجر الجسيم

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝﴾[1] وسمى الله تعالى القرآن كريماً فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝﴾[2] وسماه حكيماً، فقال تعالى: ﴿يس ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝﴾[3]. وسماه مجيداً فقال تعالى: ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝﴾[4]. أنزله الله تعالى على سيد الأنام وخاتم الأنبياء الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، فكان من أعظم معجزاته أن أعجز الله الفصحاء عن معارضته وعن الإتيان بآية من مثله، قال تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[5]. وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝﴾[6] فهو النور المبين والحق المستبين لا شيء أسطع من أعلامه ولا أصدع من أحكامه ولا أفصح من بلاغته ولا أرجح من فصاحته ولا أكثر من إفادته ولا ألذ من تلاوته، قال رسول الله ﷺ: «القرآن فيه خبر من قبلكم ونبأ من بعدكم وحكم ما بينكم». وقال أيضاً ﷺ: «أصفر البيوت بيت صفر من كتاب الله تعالى». وقال الشعبي: الذي يقرأ القرآن إنما يحدث عن ربه عز وجل، ووفد غالب بن صعصعة على عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه، ومعه ابنه الفرزدق فقال له: من أنت؟ قال: غالب بن صعصعة. قال: ذو الإبل الكثيرة؟ قال: نعم. قال: فما فعلت بإبلك؟ قال: أذهبتها النوائب[7] وزعزعتها الحقوق[1]، قال: ذلك خير سبلها. ثم قال له: يا أبا الأخطل من هذا الذي معك؟ قال: ابني وهو شاعر. قال: علمه القرآن فهو خير له من الشعر. فكان ذلك في نفس الفرزدق حتى قيد نفسه وآلى على نفسه أن لا يحل قيده حتى يحفظ القرآن فحفظه في سنة وفي ذلك قال:

وَمَا صَبُّ رِجْلَيَّ في حديدِ مجاشعٍ
مع القيدِ إلا حاجةٌ لي أريدها

وقال أنس: رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «يا بني لا تغفل عن قراءة القرآن إذا أصبحت وإذا أمسيت، فإن القرآن يحيي القلب الميت، وينهى عن الفحشاء والمنكر».

وحكى الزمخشري في كتابه ربيع الأبرار قال: ومن حكايات الحشوية ما قيل إن إبراهيم الخواص مر بمصروع فأذن في أذنه فناداه الشيطان من جوفه دعني أقتله فإنه يقول القرآن مخلوق.

وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة، وأقبل على قراءة القرآن.

وكان الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى إذا دخل شهر رمضان يفر من مذاكرة الحديث ومجالسة أهل العلم، ويقبل على القراءة في المصحف.

وكان أبو حنيفة والشعبي رحمهما الله تعالى يختمان في رمضان ستين ختمة. وقال عليّ رضي الله تعالى عنه: من قرأ القرآن فمات فدخل النار فهو ممن كان يتخذ آيات الله هزوًا.

وقال الشعبي: اللسان عدل على الأذن والقلب فاقرأ قراءة تسمعها أذنك ويفهمها قلبك.

وقال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتي أعظم مما أوتي فقد استصغر ما عظم الله». وعنه ﷺ أنه قال: «إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد». قيل يا رسول الله وما جلاؤها؟ قال: «قراءة القرآن وذكر الموت».

وقال عمر بن ميمون: من نشر مصحفاً حين يصلي الصبح فقرأ مائة آية رفع الله له مثل عمل جميع أهل الدنيا.

وقال عليّ كرم الله وجهه: من قرأ القرآن وهو قائم في الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة، ومن قرأه وهو جالس في الصلاة فله بكل حرف خمسون حسنة، ومن

---

(١) سورة القمر، الآيات: (١٧) و(٢٢) و(٣٢) و(٤٠).
(٢) سورة الواقعة، الآية: (٧٧).
(٣) سورة يس، الآيتان: (١ ـ ٢).
(٤) سورة ق، الآية: (١).
(٥) سورة البقرة، الآية: (٢٣).
(٦) سورة الإسراء، الآية: (٨٨).
(٧) النوائب ج نائبة، وهي حوادث الدهر والمصائب.

(١) زعزعتها الحقوق: فرقها أداء الحقوق إلى مستحقيها.

قرأه في غير صلاة وهو على وضوء فخمسة وعشرون حسنة، ومن قرأه على غير وضوء فعشر حسنات.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحب إلي من أن أقرأ القرآن كله هذرمة[1].

وقال رسول الله ﷺ: «اقرأوا القرآن وأبكوا فإن لم تبكوا فتباكوا». وعن صالح المزني. قال: قرأت القرآن على رسول الله ﷺ في المنام فقال لي: يا صالح هذه القراءة فأين البكاء؟

وكان عثمان رضي الله عنه يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة وليلة السبت بالأنعام إلى هود وليلة الأحد بيوسف إلى مريم وليلة الاثنين بطه إلى طسم نبأ موسى وفرعون وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن ويختم ليلة الخميس.

وعن علي رضي الله عنه لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا خير في قراءة لا تَدَبُّرَ فيها. وكان عكرمة بن أبي جهل رضي الله تعالى عنه ولعن أباه، إذا نشر المصحف أغمي عليه ويقول: هو كلام ربي.

وأبطأت عائشة رضي الله عنها على رسول الله ﷺ ليلة، فقال: ما حبسك؟ قالت: قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتاً منه فقام فاستمع إليه طويلاً ثم قال: هذا سالم مولى أبي حذيفة، الحمد لله الذي جعل في أمتي مثله.

وقال ابن عيينة، رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقلت يا رسول الله قد اختلفت علي القراءات فعلى قراءة من تأمرني فقال: على قراءة أبي عمرو[2]. وعن أبي عمرو أني لم أزل أطلب أن أقرأه كما قرأه رسول الله ﷺ وكما أنزل عليه فقدمت مكة فلقيت بها عدة من التابعين ممن قرأ على الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، فقرأت عليهم فاشدد بها يدك. فينبغي للإنسان أن يحافظ على تلاوة القرآن ليلاً ونهاراً، سفراً وحضراً.

وقال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى في كتابه الأذكار: قد كان للسلف رضي الله عنهم عادات مختلفة في القدر الذي يختمون فيه، فكانت جماعة منهم يختمون في كل شهر ختمة وآخرون في كل عشر ليال ختمة، وآخرون في كل ثلاث ليال ختمة، وكان كثيرون في كل يوم وليلة ختمة، وختم جماعة في كل يوم وليلة ختمتين، وختم بعضهم في اليوم والليلة ثمان ختمات، أربعاً في الليل، وأربعاً في النهار.

وروي أن مجاهداً رحمه الله تعالى كان يختم القرآن في شهر رمضان فيما بين المغرب والعشاء. وأما الذين ختموا القرآن في ركعة فلا يحصون لكثرتهم، فمنهم عثمان بن عفان، وتميم الداري، وسعيد بن جبير رضي الله تعالى عنهم، وروينا في مسند الإمام المجمع على حفظه وجلاله وإتقانه وبراعته أبي محمد الدارمي رحمه الله، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: إذا وافق ختم القرآن أول الليل، صلت عليه الملائكة حتى يصبح، وإذا وافق أول النهار، صلت عليه الملائكة حتى يمسي، قال الدارمي: هذا حديث حسن عن سعد، وأفضل القراءة ما كان في الصلاة وأما في غير الصلاة فأفضلها قراءة الليل، والنصف الأخير منه أفضل من الأول، والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبة، وأما قراءة النهار فأفضلها بعد الصبح، ولا كراهة في وقت من الأوقات، ولا في أوقات النهي عن الصلاة، ويستحب الاجتماع عند الختم لحصول البركة.

وقيل: إن الدعاء يستجاب عند ختم القرآن، وإن الرحمة تنزل عند ختمه، ويستحب الدعاء عقب الختم استحباباً مؤكداً تأكيداً شديداً، ويجب على القارىء الإخلاص في قراءته، وأن يريد بها وجه الله تعالى وأن لا يقصد بها توصلاً إلى شيء سوى ذلك، وأن يتأدب مع القرآن ويستحضر في ذهنه أنه يناجي ربه سبحانه وتعالى، ويتلو كتابه فيقرأ على حالة من يرى الله تعالى، فإنه إن لم يكن يراه فإن الله يراه، وينبغي للقارىء إذا أراد القراءة أن ينظف فمه بالسواك وأن يكون شأنه الخشوع والتدبر والخضوع فهذا هو المقصود المطلوب وبه تنشرح الصدور ويتيسر المرغوب، ودلائله أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر، وقد كان الواحد من السلف رضي الله عنهم يتلو آية واحدة ليلة كاملة يتدبرها ويستحب البكاء والتباكي لمن لا يقدر على البكاء فإن البكاء عند القراءة صفة العارفين، وشعار عباد الله الصالحين، قال الله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾[1].

وقال السيد الجليل صاحب الكرامات والمعارف

(١) الهذرم: القراءة السريعة دون فهم أو تدبرٌ.
(٢) هو أبو عمرو بن العلاء قارىء أهل البصرة وأحد القرّاء السبعة المتفق على قراءاتهم.

(١) سورة الإسراء، الآية: (١٠٩).

والمواهب واللطائف إبراهيم الخواص رضي الله تعالى عنه: دواء القلب خمسة أشياء، قراءة القرآن بالتدبر وخلو البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين.

وقد جاءت آثار بفضيلة رفع الصوت بالقراءة، وآثار بفضيلة الإسرار، قال العلماء: إن أراد القارىء بالإسرار بعد الرياء فهو أفضل في حق من يخاف ذلك، فإن لم يخف الرياء فالجهر أفضل بشرط أن لا يؤذي غيره، من مُصَلٍّ أو نائم أو غيرهما، والأحاديث في فضل القراءة وآداب حملة القرآن كثيرة غير محصورة، من أراد الزيادة فلينظر في كتاب التبيان في آداب حملة القرآن لشيخ مشايخ الإسلام محيي الدين النووي قدس الله روحه ونور ضريحه، وقد جاء في فضل القرآن أحاديث كثيرة.

وروي في فضل قراءة سور من القرآن في اليوم والليلة فضل كبير، منها يس، وتبارك الملك، والواقعة، والدخان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: من قرأ يس في يوم وليلة ابتغاء وجه الله تعالى غفر له، وفي رواية له، من قرأ سورة الدخان في ليلة أصبح مغفوراً له.

وفي رواية عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة.

وعن جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ لا ينام كل ليلة حتى يقرأ الم تنزيل الكتاب، وتبارك الملك.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: من قرأ في ليلة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[(1)] كان له كعدل[(2)] نصف القرآن، ومن قرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾[(3)] كانت له كعدل ربع القرآن، ومن قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾[(4)] كانت له كعدل الثلث، والأحاديث بنحو ما ذكرناه كثيرة، وقد أشرنا إلى المقاصد منها، والله تعالى أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) أي سورة الزلزلة.
(٢) كعدل: أي كان له ثواب يعادل ثواب القراءة المذكورة.
(٣) أي سورة الكافرون.
(٤) أي سورة الإخلاص.

الباب الرابع
في العلم والأدب
وفضل العالم والمتعلم

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[(1)] وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[(2)] وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلّموا العلم فإن تعلمه لله حسنة ودراسته تسبيح»، والبحث عنه جهاد، وطلبه عبادة، وتعليمه صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، وبيان سبيل الجنة، والمؤنس في الوحشة، والمحدِّث في الخلوة، والجليس في الوحدة، والصاحب في الغربة، والدليل على السراء، والمعين على الضراء، والزين عند الأخِلاَّء، والسلاح على الأعداء، بالعلم يبلغ العبد منازل الأخيار في الدرجات العلى، ومجالسة الملوك في الدنيا، ومرافقة الأبرار في الآخرة، والفكر في العلم يعدل الصيام، ومذاكرته تعدل القيام، وبالعلم توصل الأرحام وتفصل الأحكام، وبه يعرف الحلال والحرام، وبالعلم يعرف الله ويوحَّد، وبالعلم يطاع الله ويعبد.

قيل: العلم درك حقائق الأشياء مسموعاً ومعقولاً.

وقال النبي ﷺ: «خير الدنيا والآخرة مع العلم وشر الدنيا والآخرة مع الجهل»، وعنه عليه الصلاة والسلام، يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء يوم القيامة فلا يفضل أحدهما على الآخر، ولغدوة في طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة، ولا يخرج أحد في طلب العلم إلا وملك موكل به يبشره بالجنة، ومن مات وميراثه المحابر والأقلام دخل الجنة.

وقال علي كرم الله وجهه: أقل الناس قيمة أقلهم علماً، وقال أيضاً رضي الله عنه: العلم نهر والحكمة بحر والعلماء حول النهر يطوفون والحكماء وسط البحر يغوصون والعارفون في سفن النجاة يسيرون.

وقال موسى عليه السلام في مناجاته: إلهي من أحب الناس إليك؟ قال: عالم يطلب علماً، وقال بعض السلف

---

(١) سورة فاطر، الآية: (٢٨).
(٢) سورة المجادلة، الآية: (١١).

رضي الله عنهم: العلوم أربعة: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنجوم للأزمان، والنحو للّسان، وقيل: العالم طبيب هذه الأمة والدنيا داؤها، فإذا كان الطبيب يطلب الداء فمتى يبرىء غيره.

وسئل الشعبي عن مسألة فقال: لا علم لي بها، فقيل له: لا تستحي، فقال: ولِمَ أستحي مما لم تستح الملائكة منه حين قالت لا علم لنا، وعن النبي ﷺ: **«فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»**، وروي: كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب.

وقال علي كرم الله وجهه: من نصّب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، وقيل: مؤدب نفسه ومعلمها أحق بالإجلال من مؤدب الناس ومعلمهم.

وأنشدوا:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ المُعَلِّم غَيْرَهُ
هلاَّ لنفسك كان ذا التعليمُ

تَصِفُ الدواء لذي السقام وذي الضّنَى
كَيْمَا يَصِحُّ به وَأَنْتَ سَقِيمُ(١)

ونراك تصلح بالرشاد عقولنا
أبداً وأنت من الرشاد عَدِيمُ

فابدأ بنفسك فانهها عن غَيِّهَا
فإذا انتهت عنه فأنت حَكِيمُ

فَهُنَاكَ يُقْبَلُ مَا تَقُولُ ويُهْتَدَى
بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ

لاَ تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ
عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

وقال بعضهم:

إنّي رأيت الناس في عصرنا
لا يطلبون العلمَ للعلمِ

إلاّ مباهاةً لأصحابه
وعدّةً للغشّ والظُّلمِ

نظر رجل إلى امرأته وهي صاعدة في السلم، فقال لها: أنت طالق إن صعدت، وطالق إن نزلت، وطالق إن وقفت، فرمت نفسها إلى الأرض، فقال لها: فداك أبي وأمي إن مات الإمام مالك أحتاج إليك أهل المدينة في أحكامهم، وقال النبي ﷺ: **«هلاك أمتي في شيئين: ترك العلم وجمع المال»**.

وسئل رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال فقال: العلم بالله، والفقه في دينه، وكررها عليه، فقال يا رسول الله: أسألك عن العمل، فتخبرني عن العلم، فقال: **«إن العلم ينفعك معه قليل العمل، وإن الجهل لا ينفعك معه كثير العمل»**.

وقال عيسى عليه السلام: من علم وعمل عد في الملكوت الأعظم عظيماً.

وقال الخليل عليه السلام: العلوم أقفال والأسئلة مفاتيحها، وعنه عليه السلام: زلة العالم مضروب بها الطبل(١)، وزلة الجاهل يخفيها الجهل(٢).

وقال الحسن: رأيت أقواماً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: من عمل بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه، والعامل بغير علم كالسائر على غير طريق(٣)، فاطلبوا العلم طلباً لا يضر بالعبادة، واطلبوا العبادة طلباً لا يضر بالعلم.

وقال يزيد بن ميسرة: من أراد بعلمه وجه الله تعالى أقبل الله بوجهه ووجوه العباد إليه، ومن أراد بعلمه غير وجه الله صرف الله وجهه ووجوه العباد عنه.

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: ألا أخبركم بأجود الأجواد، قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الله أجود الأجواد، وأنا أجود ولد آدم، وأجود مَنْ بعدي رجل علم علماً فنشره، يبعث يوم القيامة أمة وحده، ورجل جاد بنفسه في سبيل الله حتى قتل.

وقال الثوري: كان يقال: العالم الفاجر فتنة لكل مفتون.

عن الفضيل رحمه الله تعالى أنه قال: لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم وأعزوا هذا العلم وصانوه وأنزلوه حيث أنزله الله إذاً لخضعت لهم رقاب الجبابرة وانقاد لهم الناس، وكانوا لهم تبعاً، ولكنهم أذلوا أنفسهم وبذلوا علمهم لأبناء الدنيا فهانوا وذلوا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فأعظم بها مصيبة والله أعلم.

---

(١) السقام: المرض والضّنى: سوء الحال والمرض الشديد.

(١) أي أن زلة العالم وخطأه يشتهر بين الناس ويعرفه القاصي والداني لأنه لا تتوقع منه زلة.
(٢) لأن الزلل متوقع منه فلا يأبه أحد لذلك.
(٣) لأن ربما أراد خيراً فأدّى به جهله إلى الإضرار بدل النفع.

وللقاضي العلامة أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني[1] وقد أحسن كل الإحسان كأنما طرزت في خلع حسان:

(شعر):

ولم أقض حق العلم إن كنت كلما
بدا طمعٌ صَيَّرْتُهُ لي سُلَّمَا
ولم أبتذلْ في خدمة العلم مُهجتي
لأخدم من لاقيت لكنْ لأخْدَمَا
أأشقى به غرساً وأجنيه ذلةً
إذاً فاتِّبَاعُ الجهلِ قد كان أسلما
فإنْ قُلتُ زَنْدُ العِلْمِ كَابٍ فإنَّما
كبا حين لم نحرسْ حِمَاهُ وأظلما[2]
لو أنَّ أهل العلم صَانوه صانهمْ
ولو عظَّموه في النفوس لعُظِّمَا
ولكنْ أهانوه فهونوا ودنَّسُوا
محياه بالأطماعِ حتى تَجهَّمَا

وقيل: من لم يتعلم في صغره لم يتقدم في كبره، **وقال الفضيل**: شر العلماء من يجالس الأمراء، وخير الأمراء من يجالس العلماء[3].

وقال لقمان: جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بماء السماء.

قيل: من عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار، وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا رأى طالبي العلم قال: مرحباً بكم ينابيع الحكمة ومصابيح الظلمة، خلقان الثياب جدد القلوب، رياحين كل قبيلة.

وقال علي رضي الله عنه: كفى بالعلم شرفاً أن يدعيه من لا يحسنه، ويفرح به إذا نسب إليه، وكفى بالجهل ضعة أن يتبرأ منه من هو فيه ويغضب إذا نسب إليه.

وعن النبي ﷺ ما آتى الله أحداً علماً إلا أخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه أحداً. ودعا بعضهم لآخر فقال: جعلك الله ممن يطلب العلم رعاية لا رواية، وممن يظهر حقيقة ما يعلمه بما يعمله.

وعن عمر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: على باب الجنة شجرة تحمل ثماراً كثدي النساء، يخرج من تحتها عين ماء يشرب منها العلماء والمتعلمون مثل اللبن الحليب، والناس عطاش.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، من تعلم باباً من العلم ليعلمه للناس ابتغاء وجه الله أعطاه الله أجر سبعين نبياً.

وعن أنس رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، **«ويل لأمتي من علماء السوء، يتخذون العلم تجارة يبيعونها لا أربح الله تجارتهم»**.

شعر:

العلم أنفسُ شيءٍ أنت داخرُهُ
من يدرس العلم لم تدرس مفاخره[1]
أقبلْ على العلم واستقبلْ مقاصدَهُ
فأول العلم إقبالٌ وآخرهُ

قال الشعبي: دخلت على الحجاج حين قدم العراق، فسألني عن أسمي، فأخبرته، ثم قال: يا شعبي: كيف علمك بكتاب الله؟ قلت: عَنّي يؤخذ، قال: كيف علمك بالفرائض؟ قلت: إليّ فيها المنتهى، قال: كيف علمك بأنساب الناس؟ قلت: أنا الفيصل فيها، قال: كيف علمك بالشعر؟ قلت: أنا ديوانه، قال: لله أبوك، وفرض لي أموالاً، وسوّدني على قومي[2]، فدخلت عليه وأنا صعلوك من صعاليك همدان، وخرجت وأنا سيدهم.

قال البستي:

إذا لم يزد علمُ الفتى قلبَهُ هدىً
وسيرته عدلاً وأخلاقه حسنا
فبشِّرهُ أنَّ الله أولاه فتنةً
تغشّيه حرماناً وتوسعه حزنا

وقال الهيثم بن جميل: شهدت مالك بن أنس رضي الله عنه، سُئِلَ عن ثمان وأربعين مسألة، فقال في اثنتين وثلاثين منها لا أدري.

وقال الأوزاعي: شكت النواويس إلى الله تعالى ما تجد

---

(١) أحد القضاة الأدباء، ولد بجرجان وتوفي بنيسابور عام ٣٩٢ هـ.

(٢) زَند العلم: المراد نوره، والزند ما يقتدح فيشتعل وينير، وكبا زند العلم أي انطفأ نوره أو خبا.

(٣) وقال علي رضي الله عنه وكرّم الله وجهه: إذا رأيت العلماء على أبواب الأمراء فبئس العلماء وبئس الأمراء وإذا رأيت الأمراء على أبواب العلماء فنعم العلماء ونعم الأمراء.

---

(١) لم تدرس مفاخره: أي بقيت آثارها ظاهرة للعيان لم تُبْلِهَا الأيّام.

(٢) سوّدني على قومي: جعلني سيدهم وكبيرهم.

من نتن ريح الكفار، فأوحى الله إليها أنّ بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه.

وقال علي رضي الله عنه: مَن أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماء والأرض.

ولصالح اللخمي (شعر):

تعلّم إذا ما كنت لست بعالمٍ
فما العلم إلا عند أهل التّعلّمِ

تعلم فإن العلمَ أزينُ للفتى
من الحلّةِ الحسناءِ عند التكلمِ

ودخل عبد الله بن مسلم الهذلي على المهدي في القراءة فأخذ عشرة آلاف درهم، ثم دخل في الرماة، فأخذ عشرة آلاف درهم، ثم دخل في المغنين فأخذ كذلك، ثم دخل في القصاص فأخذ كذلك، فقال المهدي: لم أر كاليوم أجمع لما يجمع الله في أحد منك.

وملّ جماعة من الحكماء مجالسة رجل فتواروا عنه في بيت فرقي السطح، وجعل يستمع من كوة، حتى وقع عليه الثلج، فصبر، فشكر الله ذلك، فجعله إمام الحكماء لا يختلفون في شيء إلا صدروا عن رأيه.

وشكا رجل إلى وكيع بن الجراح سوء الحفظ، فقال له: استعن على الحفظ بترك المعاصي، فأنشأ يقول:

شكوت إلى وكيع سوءَ حفظي
فأرشدني إلى ترك المعاصي

وذلك أنَّ حفظ العلم فضلٌ
وفضلُ اللّهِ لا يؤتى لعاصي[1]

ووجد في بعض الآثار عن بعضهم أنه قال: إذا أردت أن تكون أحفظ الناس فقل عند رفع الكتاب أو المصحف أو ابتداء القراءة في كل شيء أردت، بسم الله وسبحان الله، و لا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم عدد كل حرف كتب ويكتب أبد الآبدين، ودهر الداهرين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قيل: وإذا أردت أن لا تنسى حرفاً فقل قبل القراءة: اللهم افتح علينا حكمتك، وانشر علينا رحمتك يا ذا الجلال والإكرام. وإذا أردت أن ترزق الحفظ فقل خلف كل صلاة مكتوبة: آمنت بالله الواحد الأحد الحق لا شريك له وكفرت بما سواه.

ومن فوائد سيدي الشيخ صالح شهاب الدين أحمد بن موسى بن عجيل رحمه الله تعالى في الحفظ: يقرأ في كل يوم عشر مرات ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[1] يا حي يا قيوم يا رب موسى وهارون، ويا رب إبراهيم، ويا رب محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام، ألزمني الفهم وارزقني العلم والحكمة والعقل، برحمتك يا أرحم الراحمين.

وعن أبي يوسف قال: مات لي ولد فأمرت من يتولى دفنه ولم أدع مجلس أبي حنيفة خوفاً أن يفوتني منه يوم.

وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة: ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بالحديث، ولا أحفظ له من محمد بن إسماعيل البخاري حتى كان يقال: إن حديثاً لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث.

وقال البخاري رحمه الله تعالى: أحفظ مائة ألف حديث صحيح، ومائتي ألف حديث غير صحيح، وقال ما وضعت في كتابي الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين، وقال: أخرجته من ستمائة ألف حديث، وصنفته في ست عشرة سنة، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى.

وقال مجاهد: أتينا عمر بن عبد العزيز لنعلّمه، فما برحنا حتى تعلّمنا منه، وكان يقال: الليث بن سعد رحمه الله تعالى ذهب علمه كله بموته، ولهذا قال الشافعي لما قدم مصر بعد موته: والله لأنت أعلم من مالك وإنما أصحابك ضيعوك، وقال الليث بن سعد: ما هلك عالم قط إلا ذهب ثلثا علمه ولو حرص الناس.

ويقال: إذا سئل العالم فلا تُجبْ أنت، فإن ذلك استخفاف بالسائل والمسؤول، **وقالوا**: من خدم المحابر خدمته المنابر.

(شعر):

لاَ تَـدَّخِـرْ غَـيْـرَ الـعُـلُـو
مِ فَـإِنَّـهـا نِـعْـمَ الـذَّخَـائـرْ

فَـالـمَـرْءُ لَـوْ رَبِـحَ الـبَـقَـا
ءَ مَـعَ الـجَـهَـالَـةِ كَـانَ خَـاسِـرْ

---

(١) وروي هذا البيت بلفظ آخر هو:

وأخبرني بأن العلم نور
ونور الله لا يهدى لعاصي

(١) سورة الأنبياء، الآية: (٧٩).

وللشافعي رضي الله تعالى عنه:

أَخِي لَنْ تَنَالَ العِلْمَ إِلاَّ بِسِتَّةٍ
سَأُنْبِيكَ عَنْ تَفْصِيلِهَا بِبَيَانِ
ذَكَاءٌ وَحِرْصٌ وَاجْتِهَادٌ وَبُلْغَةٌ
وَصُحْبَةُ أُسْتَاذٍ وَطُولُ زَمَانِ[1]

وقال الزهري: العلماء أربعة، سعيد بن المسيب بالمدينة، وعامر الشعبي بالكوفة، والحسن البصري بالبصرة، ومكحول بالشام.

وقال بعضهم: العلماء سُرُج الأزمنة، كل عالم سراج زمانه يستضيء به أهل عصره.

وقيل لإبراهيم بن عيينة: أي الناس أطول ندامة؟ قال: أما في الدنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكره، وأما في الآخرة فعالم مفرط[2].

(شعر):

كُنْ عَالِماً وَارْضَ بِصَفِّ النِّعَالِ
وَلاَ تَكُنْ صَدْراً بِغَيْرِ الكَمَالِ
فَإِنْ تَصَدَّرْتَ بِلاَ آلَةٍ
صَيَّرْتَ ذَاكَ الصَّدْرَ صَفَّ النِّعَالِ

وقيل: لما اجتمع موسى بالخضر عليهما السلام، جاء عصفور فأخذ بمنقاره من البحر قطرة ثم حط على ورك الخضر، ثم طار فنظر الخضر إلى موسى عليه السلام وقال: يا نبي الله إن هذا العصفور يقول: يا موسى أنت على علم من علم الله علمكه الله لا يعلمه الخضر، والخضر على علم من علم الله علمه إياه لا تعلمه أنت وأنا على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه أنت ولا الخضر، وما علمي وعلمك وعلم الخضر في علم الله إلا كهذه القطرة من هذا البحر.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[3] **وقال تعالى**: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[4]. **قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما**: خلق الله تعالى أربعين ألف عالم، الإنس والجن عالمان، والبواقي لا يعلمها إلا هو[1].

وقال موسى عليه السلام: يا رب قد قلت للسموات والأرض ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[2]، فلو لم تطعك السموات والأرض ماذا كنت فاعلاً بهما؟ قال: يا موسى كنت آمر دابة من دوابي أن تبتلعهما، قال موسى: يا رب وأين تلك الدابة؟ قال: في مرج من مروجي، قال موسى: يا رب وأين ذلك المرج؟ قال: في علم من علمي لا يعلمه إلا أنا. **وعن عبد الله بن عمر** رضي الله عنهما قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في فكرة، فقال: فيم تفكرون؟ تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله، فإن الله خلق من جانب الغرب[3] أرضاً يقال لها البيضاء، تقطعها الشمس في أربعين يوماً[4]، فيها خلق ما عصوا الله طرفة عين، فقال ابن عمر: يا رسول الله أين إبليس منهم؟ قال: ما علموا بإبليس خلق أم لا. قال: أمن بني آدم؟ قال: ما علموا بآدم خلق أم لا»[5]، فهذه كلها مما أعدها الله في علم غيبه، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون.

وقال قتادة: لو كان أحد منا مكتفياً من العلم لاكتفى نبي الله موسى عليه السلام إذ قال: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾[6]. **وقال الحكماء**: أفضل العلم وقوف العالم عند علمه. **وقال بعضهم**: ليس العلم ما خزنته الدفاتر وإنما العلم ما خزنته الصدور. وقيل: العلم يؤدي إلى التصدير، وقيل: من تواضع للعلم ناله ومن لم يتواضع له لم ينله. وقيل: من برق علمه برق

---

(١) حرص: حرص على متابعة العلم واجتهاد أي في تحصيله، وبلغة أي الاكتفاء بالقليل من الطعام وعدم الإقبال على الدنيا.
(٢) عالم قد أضاع علمه في طلب ما لا خير فيه ولا بقاء له وهو الدنيا.
(٣) سورة البقرة، الآية: (٢٥٥).
(٤) سورة المدثر، الآية: (٣١).

---

(١) قلت والله أعلم بوجه الصواب: إن في الكون عوالماً لا يعلم عددها إلا هو سبحانه وكلما زاد علم الناس كلما اتّضح لهم أنهم أكثر جهلاً مما كانوا يظنون.
(٢) سورة فصلت، الآية: (١١).
(٣) وفي رواية: أشار بيده إلى الغرب، أي كوكب آخر مثل الأرض يدعى الأرض البيضاء، والله أعلم.
(٤) أي مقدار أربعين دورة من دورات الشمس في فلكها وحول نفسها وهذا يعادل حسب ما فهمنا من علم الهيئة مليون سنة ضوئية: فهي بالتالي في مجرة أخرى غير المجرة التي نحن فيها والله أعلم.
(٥) لم يذكر سند الحديث هنا لنحكم بحاله من ضعيف أو حسن فالله أعلم.
(٦) سورة الكهف، الآية: (٦٦).

وجهه ومن لم يستفد بالعلم مالاً اكتسب به جمالاً، العلم نور وهدى، والجهل غي وردى.

وقال بعضهم: العالم يعرف الجاهل والجاهل لا يعرف العالم، لأن العالم كان جاهلاً، والجاهل لم يكن عالماً. وقيل: أربعة يُسَوِّدون العبد[1]: العلم والأدب والصدق والأمانة.

وقيل: أهل العراق أطلب الناس للعلم.

وقال حماد بن سلمة: مثل الذي يطلب الحديث ولا يعرف النحو كمثل الحمار عليه مخلاة لا شعير فيها.

ولإبراهيم بن خلف المهراني:

النحو يُصلح من لسان الألْكَنِ
والمرءُ تُكرِمُهُ إذا لم يَلْحَنِ
وإذا طلبت من العلوم أجلَّها
فأجلُّها منها مقيمُ الألسنِ

وقال علي بن بشار:

رأيتُ لسان المرء آيةَ عقله
وعنوانه فانظرْ بماذا تعنونُ
ولا تَعْدُ إصلاح اللسان فإنَّهُ
يُخبِّر عمّا عنده وَيُبَيِّنُ
ويعجبني زيّ الفتى وجمالُهُ
فيسقطُ من عينيَّ ساعة يَلْحَنُ

ودخل أعرابي السوق فوجدهم يلحنون فقال: سبحان الله يلحنون ويربحون.

وكلّم أبو موسى بعض قواده فلحن، فقال: لمَ لا تنظر في العربية؟ فقال: بلغني أن من نظر فيها قلّ كلامه، فقال: ويحك لأن يقل كلامك بالصواب خير لك من أن يكثر كلامك بالخطأ. **وكان يقال**: مجالسة الجاهل مرض للعاقل. وقال أبو الأسود الدؤلي: إذا أردت أن تعذب عالماً فأرفق به جاهلاً[2].

وقال الشاعر:

جَهِلْتَ ولا تدري بأنّك جاهلٌ
ومن لي بأن تدري بأنّك لا تدري

وقال رجل للحسن أنا أفصح الناس. قال: لا تقل هذا، قال: فخذ عليّ كلمة واحدة، قال: هذه واحدة، أبو جهل كناه المسلمون بذلك وكانت قريش تكنيه أبا الحكم، فقال حسان رضي الله تعالى عنه:

الناس كنوه أبا حكم
والله كنّاه أبا جهلِ

وأما ما جاء في الأدب: فقد قال بعض الحكماء العقل يحتاج إلى مادة من الأدب كما تحتاج الأبدان إلى قوتها من الطعام.

وقال علي كرم الله وجهه: الأدب كنز عند الحاجة، عون على المروءة، صاحب في المجلس، أنيس في الوحدة، تعمر به القلوب الواهية، وتحيا به الألباب الميتة، وينال به الطالبون ما حاولوا.

وقيل: عقل بلا أدب كشجاع بلا سلاح.

وحكي أن رجلاً تكلم بين يدي المأمون فأحسن، فقال: ابن من أنت؟ قال: ابن الأدب يا أمير المؤمنين، قال: نعمَ النسب انتسبت إليه، ولهذا قيل: المرء من حيث يثبت لا من حيث ينبت، ومن حيث يوجد لا من حيث يولد.

قال الشاعر:

كُنْ أبْنَ من شئت وأكتسبْ أدباً
يغنيك محمودُهُ عن النسبِ
إنَّ الفتى من يقول ها أنذا
ليس الفتى من يقول كان أبي

وقال بعض الحكماء: من كثر أدبه كثر شرفه، وإن كان وضيعاً، وبعد صيته، وإن كان خاملاً، وساد وإن كان غريباً وكثرت حوائج الناس إليه، وإن كان فقيراً.

قال بعض الشعراء:

لكلِّ شيءٍ زينةٌ في الورى
وزينةُ المرءِ تمامُ الأدَبِ
قد يشرُفُ المرءُ بآدابه
فينا وإن كان وضيع الأبِ

وقال بعض الأعاجم مفتخراً:

مالي عقلي وهمتي حسبي
ما أنا مولى وما أنا عربي
إذا انتمى منتمٍ إلى أحدٍ
فإنّني منتمٍ إلى أدبي

وقيل: الفضل بالعقل والأدب لا بالأصل والحسب، **وقيل**: المرء بفضيلته لا بفصيلته وبكماله لا بجماله،

---

(١) يسودون العبد: أي يجعلونه من سادة الناس.

(٢) أي اجعله له رفيقاً جاهلاً، وقيل في المثل عندنا: عيش الفهيم مع البهيم داه دفين.

وبآدابه لا بثيابه. وقيل لرجل: من أدبك؟ قال: رأيت جهل الجهال قبيحاً فاجتنبته فتأدبت، ومن أدب ولده صغيراً سُرّ به كبيراً، من عرف الأدب اكتسب به المال والجاه.. خير الخلال الأدب، وشر المقال الكذب.. وقيل لبقراط ما الفرق بين من له أدب ومن لا أدب له؟ قال: كالفرق بين الحيوان الناطق والحيوان الذي ليس بناطق.. ودخل أبو العالية على ابن عباس رضي الله عنهما فأقعده معه على السرير وأقعد رجالاً من قريش تحته، فرأى سوء نظرهم إليه وحموضة وجوههم[1]، فقال: ما لكم تنظرون إليّ نظر الشحيح إلى الغريم المفلس، هكذا الأدب يشرف الصغير على الكبير ويرفع المملوك على المولى، ويقعد العبيد على الأسرة.

وقال جالينوس: إن ابن الوضيع إذا كان أديباً كان نقص أبيه زائداً في منزلته، وابن الشريف إذا كان غير أديب كان شرف أبيه زائداً في سقوطه.. **وقيل:** أحسن الأدب أن لا يفتخر المرء بأدبه.

وسمع معاوية رجلاً يقول أنا غريب فقال: كَلاً، الغريب من لا أدب له.

ويقال: إذا فاتك الأدب فالزم الصمت فهو من أعظم الآداب.

ولعبد الملك بن صالح:

في الناس قومٌ أضاعوا مجد أوّلهم
ما في المكارم والتقوى لهم أَرَبُ
سُوءُ التأدّبِ أَرْدَاهُمْ وأرذلهُمْ
وقد يَزِين صحيح المنصبِ الأدبُ[2]

ـ **وقيل:** أربعة تُسَوِّدُ العبد: الأدب والعلم والصدق والأمانة.

ـ **وقال بعض الحكماء:** خمسة لا تتم إلا بخمسة: لا يتم الحسب إلا بالأدب، ولا يتم الجمال إلا بالحلاوة، ولا يتم الغنى إلا بالجود، ولا يتم البطش إلا بالجرأة، ولا يتم الجهاد إلا بالتوفيق.

والله تعالى أعلم.

(١) حموضة وجوههم: عبوسها وتجهمها.
(٢) أرداهم: أهلكهم.
وأرذلهم: جعلهم مع الأرذال أو من الأرذال بعد أن كان أوائلهم من كرام الناس.

الباب الخامس
في الآداب والحكم وما أشبه ذلك

قال الحكماء:

ـ إذا أراد الله بعبد خيراً ألهمه الطاعة، وألزمه القناعة، وفقهه في الدين، وعضده باليقين، فاكتفى بالكفاف، واكتسى بالعفاف، وإذا أراد به شراً حبب إليه المال، وبسط منه الآمال، وشغله بدنياه ؤوكله إلى هواه، فركب الفساد وظلم العباد. ـ الثقة بالله أزكى أمل والتوكل عليه أوفى عمل، ـ من لم يكن له من دينه واعظ لم تنفعه المواعظ، ـ من سره الفساد ساءه المعاد، ـ كل يحصد ما زرع ويجزى بما صنع. ـ لا يغرنك صحة نفسك وسلامة أمسك، فمدة العمر قليلة وصحة النفس مستحيلة. ـ من أطاع هواه باع دينه بدنياه، ـ ثمرة العلوم العمل بالمعلوم ـ من رضي بقضاء الله لم يسخطه أحد، ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد ـ أفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه ـ خير الناس من أخرج الحرص من قلبه، وعصى هواه في طاعة ربه. ـ نصرة الحق شرف ونصرة الباطل سرف. ـ البخيل حارس نعمته وخازن لورثته. ـ من لزم الطمع عدم الورع، ـ إذا ذهب الحياء حل البلاء. ـ علم لا ينفع كدواء لا ينجع ـ من جهل المرء أن يعصي ربه في طاعة هواه، ويهين نفسه في إكرام دنياه. ـ أيام الدهر ثلاثة: يوم مضى لا يعود إليك، ويوم أنت فيه لا يدوم عليك، ويوم مستقبل لا ندري ما حاله ولا تعرف مَنْ أهله. ـ من كثر ابتهاجه بالمواهب اشتد انزعاجه للمصائب. ـ لا تبت على غير وصية وإن كنت من جسمك في صحة، ومن عمرك في فسحة. ـ عظ المسيء بحسن أفعالك ودل على الجميل بجميل خلالك. ـ إياك وفضول الكلام[1] فإنه يظهر من عيوبك ما بطن[2]، ويحرك من عدوك ما سكن[3].. ـ لا يجد العجول فرحاً ولا الغضوب سروراً ولا الملول صديقاً. ـ حسن النية من العبادة. ـ حسن الجلوس من السياسة. ـ من زاد في خلقه نقص في حظه. ـ من ائتمن

(١) أي كثرة الكلام لأن من كَثُرَ كَلاَمُهُ كَثُرَ سَقَطُه.
(٢) أي ما كان مستوراً.
(٣) أي ما هدأ من دواعي بغضائه لك فربما بذكرك بعض الأشياء التي تسوءه هيجت ماضي العداوة.

الزمان خانه. ـ أظهر الناس محبة أحسنهم لقاء، ـ لا يكمل للإنسان دينه حتى يكون فيه أربع خصال: يقطع رجاءه مما في أيدي الناس، ويسمع شتم نفسه ويصبر، ويحب للناس ما يحب لنفسه، ويثق بمواعيد الله. ـ إياك والحسد فإنه يفسد الدين، ويضعف اليقين، ويذهب المروءة.

ـ قيل لأفلاطون: ما الشيء الذي لا يحسن أن يقال، وإن كان حقاً؟ قال: مدح الإنسان نفسه.

ـ أربعة تؤدي إلى أربعة: الصمت إلى السلامة، والبر إلى الكرامة، والجود إلى السيادة، والشكر إلى الزيادة.

ـ من ساء تدبيره أهلكه جده[1] ـ الغرة ثمرة الجهل، ـ آفة القوة استضعاف الخصم.

ـ آفة النعم قبيح المن. ـ آفة الذنب حسن الظن ـ الحزم أسد الآراء والغفلة أضر الأعداء.

ـ من قعد عن حيلته أقامته الشدائد، ومن نام عن عدوه أيقظته المكايد.

ـ من قرب السفلة واطرح ذوي الأحساب والمروءات استحق الخذلان.

ـ من عفا تفضّل ومن كظم غيظه فقد حلم. ومن حلم فقد صبر، ومن صبر فقد ظفر.

ـ من ملك نفسه عند أربع حرمه الله على النار حين يغضب وحين يرغب وحين يرهب وحين يشتهي.

ـ من طلب الدنيا بعمل الآخرة فقد خسرهما، ومن طلب الآخرة بعمل الدنيا فقد ربحهما. ـ كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله فأقصره على الجميل، واقتصر منه على القليل.

ـ كل امرىء يُعْرَف بقوله، ويُوصف بفعله فقل سديداً وافعل حميداً.

ـ من عرف شأنه وحفظ لسانه وأعرض عما لا يعنيه وكف عن عرض أخيه دامت سلامته، وقلّت ندامته.

ـ كن صموتاً وصدوقاً، فالصمت حرز، والصدق عز. ـ من أكثر مقاله سئم، ومن أكثر سؤاله حرم. ـ من استخف بإخوانه خذل، ومن اجترأ على سلطانه قتل. ـ ما عز من أذل جيرانه، ولا سعد من حرم إخوانه.

ـ خير النوال ما وصل قبل السؤال. ـ أولى الناس بالنوال أزهدهم في السؤال. ـ من حسن صفاؤه وجب اصطفاؤه، ـ من غاظك بقبيح الشتم منه فغظه بحسن الحلم عنه. ـ من يبخل بماله على نفسه جاد به على زوج عرسه[1]. ـ إذا اصطنعت المعروف فاستره، وإذا اصطنع إليك فانشره. من جاور الكرام أمن من الإعدام. من طاب أصله زكا فرعه. ـ من أنكر الصنيعة استوجب القطيعة. ـ من منّ بمعروفه سقط شكره، ومن أعجب بعمله حبط أجره. ـ من رضي من نفسه بالإساءة شهد على أصله بالرداءة. ـ من رجع في هبته بالغ في خسته. ـ من رقي في درجات الهمم عظم في عيوان الأمم. ـ من كبرت همته كثرت قيمته. ـ من ساء خلقه ضاق رزقه. ـ من صدق في مقاله زاد في جماله. ـ من هان عليه المال توجهت إليه الآمال. ـ من جاد بماله جَلّ، ومن جاد بعرضه ذل. ـ خير المال ما أخذ من الحلال، وصرف في النوال، وشر المال ما أُخذ من الحرام، وصرف في الآثام. ـ أفضل المعروف إغاثة الملهوف. ـ من تمام المروءة أن تنسى الحق لك، وتذكر الحق عليك، وتستكبر الإساءة منك، وتستصغرها من غيرك. ـ من أحسن المكارم عفو المقتدر. ـ جود الرجل يحببه إلى أصدقائه، وبخله يبغضه إلى أودّائه[2]. ـ لا تسيء إلى من أحسن إليك، ولا تعن على من أنعم عليك. ـ من كثر ظلمه واعتداؤه قرب هلاكه وفناؤه. ـ من طال تعدّيه كثرت أعاديه. ـ شر الناس من ينصر الظُّلُوم، ويخذل المظلوم. ـ من حفر حفيراً لأخيه كان حتفه فيه. ـ من سل سيف العدوان أُغمد في رأسه. ـ من لم يرحم العبرة سلب النعمة، ومن لم يقل العثرة سلب القدرة. ـ لا تحاج من يذهلك خوفه، ويملكك سيفه، ـ صمتٌ تسلم به خير من نطق تندم عليه، ـ من قال ما لا ينبغي سمع ما لا يشتهي. ـ جرح الكلام أصعب من جرح الحسام. ـ من سكت عن جاهل فقد أوسعه جواباً، وأوجعه عتاباً. ـ من أمات شهوته أحيا مروءته. ـ من كثرت عوارفه كثرت معارفه. ـ من لم تقبل توبته عظمت خطيئته. ـ إياك والبغي فإنه يصرع الرجال، ويقطع الآجال.

ـ الناس في الخير أربعة أقسام: منهم من يفعله ابتداء، ومنهم من يفعله اقتداء، ومنهم من يتركه حرماناً، ومنهم من يتركه استحساناً. فمن فعله ابتداء فهو كريم، ومن فعله

---

(١) أي من اتكل على حظه فتواكل وأساء التدبير أهلكه حظه، لأن الحظ لا ينفع، إن وجد، إلا مع حسن التدبير.

(١) لأن امرأته سترثه ثم تتزوج من غيره بعده وتتمتع وإياه بما ورثت من مال.

(٢) أوداثه: أهل مودته وصداقته.

اقتداء فهو حكيم، ومن تركه حرماناً فهو شقي، ومن تركه استحساناً فهو دني.

ـ من سالم سلم، ومن قدم الخير غنم، ومن لزم الرقاد عدم المراد. ومن دام كسله خاب أمله.

ـ العجول مخطىء وإن ملك، والمتأني مصيب وإن هلك.

ـ من أماراتِ الخذلان معاداة الإخوان، ـ استفساد الصديق من عدم التوفيق. ـ الرفق مفتاح الرزق. ـ من نظر في العواقب سلم من النوائب، ومن أسرع في الجواب أخطأ في الصواب. ـ من ركب العجل أدركه الزلل. ـ من ضعفت آراؤه قويت أعداؤه. ـ من قلت فضائله ضعفت وسائله. ـ من فعل ما شاء لقي ما ساء. ـ من كثر اعتباره قل عثاره. ـ من ركب جده[1] غلب ضده. ـ القليل مع التدبير أبقى من الكثير مع التبذير. ـ ظن العاقل أصح من يقين الجاهل. ـ قليل تحمد آخرته خير من كثير تذم عاقبته. ـ من خاف سطوتك تمنى موتتك. ـ إذا استشرت الجاهل اختار لك الباطل. ـ من أعجبته آراؤه غلبته أعداؤه. ـ من قصر عن السياسة صغر عن الرياسة. ـ لا تشتك ضعفك إلى عدوك، فإنك تشمته بك، وتطمعه فيك. ـ من لم يعمل لنفسه عمل للناس، ومن لم يصبر على كده صبر على الإفلاس. ـ من أفشى سره أفسد أمره. ـ الحازم من حفظ ما في يده، ولم يؤخر شغل يومه لغده. ـ من طلب ما لا يكون طال تعبه. ـ لا تفتح باباً يعييك[2] سده، ولا ترم سهماً يعجزك رده. ـ سوء التدبير سبب التدمير. ـ أغمد سيفك ما ناب عنك لسانك. ـ ليس العجب من جاهل يصحب جاهلاً، ولكن العجب من عاقل يصحبه، لأن كل شيء يفر من ضده، ويميل إلى جنسه. ـ إذا نزل القدر بطل الحذر، ـ رب عطب تحت طلب، ومنية تحت أمنية. ـ لا يخلو المرء من ودود يمدح، وعدو يقدح. ـ الجوع خير الخضوع. ـ الكذوب متهم وإن صدقت لهجته، ووضحت حجته. ـ من طاوعه طرفه اشتد حتفه. ـ من لم تُسِرَّ حياته لم تُغِمَّ وفاته. ـ من أعظم الذنوب تحسين العيوب. ـ الشرف بالهمم العالية لا بالرمم البالية. ـ إذا ملك الأراذل هلك الأفاضل. ـ من ساءت أخلاقه طاب فراقه. ـ من حسنت خصاله طاب وصاله. ـ بعد يورث الصفا خير من قرب يوجب الجفا. ـ اللسان سيف قاطع لا يؤمن حده، والكلام سهم نافذ لا يمكن رده. ـ من اطلع على جاره انهتكت حجب أستاره. ـ أجهل الناس من قل صوابه، وكثر إعجابه. ـ أظهر الناس نفاقاً من أمر بالطاعة، ولم يأتمر بها، ونهى عن المعصية، ولم ينته عنها. ـ من سلا عن المسلوب كمن لم يسلب، ومن صبر على النكبة كمن لا ينكب، ـ الفضيلة بكثرة الآداب لا بفراهة الدواب ـ من زادت شهوته نقصت مروءته. ـ من عرف بشيء نسب إليه، ومن اعتاد شيئاً حرص عليه. ـ عند الجدال يظهر فضل الرجال. ـ من أَخَّرَ الأكل لذ طعامه، ومن أخر النوم طاب منامه. ـ موت في دولة وعز خير من حياة في ذلة وعجز. ـ مقاساة الفقر هي الموت الأحمر، ومسألة الناس هي العار الأكبر. ـ حق يضر خير من باطل يسر. ـ كم من مرغوب فيه يسوء ولا يسر، ومرهوب منه ينفع ولا يضر. ـ عثرة الرجل تزيل القدم، وعثرة اللسان تزيل النعم. ـ المزاح يورث الضغائن ـ من حلم ساد ومن تفهم ازداد. ـ معاشرة ذوي الألباب عمارة القلوب. ـ شر ما صحب المرء الحسد ربما أصاب الأعمى رشده، وأخطأ البصير قصده. ـ اليأس خير من التضرع إلى الناس. ـ لا تكن ضاحكاً في غير عجب ولا ماشياً في غير أرب. ـ من سعى بالنميمة حذره القريب ومقته الغريب. ـ الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استبد برأيه. ـ أشرف الغنى ترك المنى. ـ من ضاق خلقه مله أهله. ـ الحسد للصديق من سقم المودة. ـ كل الناس راض عن عقله. ـ دنياك كلها وقتك الذي أنت فيه. ـ استر سوأة أخيك، لما يعلم فيك. ـ خمول الذكر أسنى من الذكر الذميم. ـ العجلة أخت الندامة.

ـ من كرم أصله لان قلبه ومن قلَّ لبه زاد عجبه[1]. ـ ربما أُدرِكَ بالظن الصواب. ـ ليس لمعجب رأي، ولا لمتكبر صديق. ـ سل عن الرفيق قبل الطريق، وعن الجار قبل الدار. ـ لا تعادين أحداً، فإنك لا تخلو من عداوة جاهل أو عاقل، فالحذر من حكمة العاقل وجهل الجاهل. ـ ضاحك معترف بذنبه خير من باك مُدِلٍّ على ربه. ـ من قل سروره كان الموت راحته. لا تَرُدَّنَّ على ذي خطأ خطأه، فيستفيد منك علماً، ويتخذك عدواً. ـ استحي

(١) أي من استفاد من حظه والمراد إقبال أيامه غلب أضداده وأعداءه بحسن تدبيره.

(٢) يعييك: يتعبك، أي لا تفتح باباً لا تقدر على إغلاقه فلا تبدأ أمراً لا تقدر على إتمامه ولا تستثر عدوه لا تقدر عليه.

(١) أي من قل عقله زاد غروره فلا يكون المغرور كامل العقل أبداً لأنه يتبع هواه.

من ذم من لو كان حاضراً لبالغت في مدحه، ومدح من لو كان غائباً، لسارعت إلى ذمه[1].

ـ وقيل: المنفعة توجب المحبة، والمضرة توجب البغضة، والمخالفة توجب العداوة، والمتابعة توجب الألفة، والعدل يوجب اجتماع القلوب، والجور يوجب الفرقة، وحسن الخلق يوجب المودة، وسوء الخلق يوجب المباعدة، والانبساط يوجب المؤانسة، والانقباض يوجب الوحشة، والكبر يوجب المقت[2]، والتواضع يوجب الرفعة، والجود يوجب المدح، والبخل يوجب الذم، والتواني يوجب التضييع، والحزم يوجب السرور، والحذر يوجب السلامة، وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة، وبالتأني تسهل المطالب، وبحسن المعاشرة تدوم المحبة، وبخفض الجانب تأنس النفوس، وبسعة خلق المرء يطيب عيشه، والاستهانة توجب التباعد، وبكثرة الصمت تكون الهيبة، وبعدل المنطق تجلب الجلالة، وبالنصفة تكثر المواصلة، وبالأفضال يعظم القدر، وبصالح الأخلاق تزكو الأعمال، وباحتمال المؤن يجب السؤدد، وبالحلم على السفيه تكثر أنصارك عليه. وبالرفق والتودد تستحق اسم الكرامة وبترك ما لا يعنيك يتم لك الفضل.

واعلم أن السياسة[3] تكسو أهلها المحبة. ومن صغر الهمة الحسد للصديق على النعمة. والنظر في العواقب نجاة. ومن لم يحلم ندم. ومن صبر غنم. ومن سكت سلم. ومن اعتبر أبصر. ومن أبصر فهم. ومن فهم علم. ومن أطاع هواه ضل. ومع العجلة الندامة ومع التأني السلامة. وزارع البر يحصد السرور. وصاحب العقل مغبوط. وصداقة الجاهل تعب.

إذا جهلت فاسأل، وإذا زللت فارجع، وإذا أسأت فاندم، وإذا ندمت فأقلع.

المروءات كلها تبع للعقل، والرأي تبع للتجربة، والعقل أصله التثبت وثمرته السلامة، والأعمال كلها تتبع القدر.

واختار العلماء أربع كلمات من أربع كتب فمن التوراة: من قنع شبع. ومن الإنجيل من اعتزل نجا. ومن الزبور: من سكت سلم. ومن القرآن: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

واجتمعت حكماء العرب والعجم على أربع كلمات، لا تحمل بظنك ما لا يطيق. ولا تعمل عملاً لا ينفعك. ولا تغتر بامرأة. ولا تثق بمال ولو كثر. والله تعالى أعلم.

الباب السادس
في الأمثال السائرة
وفيه فصول

الفصل الأول
فيما جاء من ذلك في القرآن العظيم وأحاديث النبي الكريم

اعلم أن الأمثال من أشرف ما وصل به اللبيب خطابه، وحلّى بجواهره كتابه. وقد نطق كتاب الله تعالى، وهو أشرف الكتب المنزلة بكثير منها، ولم يخل كلام سيدنا رسول الله ﷺ عنها، وهو أفصح العرب لساناً، وأكملهم بياناً، فكم في إيراده وإصداره من مثل يعجز عن مباراته في البلاغة كل بطل. وسنذكر إن شاء الله تعالى بعد ذلك نبذة من أمثال العرب والمولدين والعامة.

فمن أمثال كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[2]، ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾[3]، ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[4]، ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[5]، ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾[6]، ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾[7]، ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[8]، ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[9]، ﴿لِكُلِّ

(١) أي لا يكن كلامك تبعاً لخوف أو رياء، أو تبعاً لرغبة أو رهبة.
(٢) المقت: شد البغضاء والكراهية.
(٣) السياسة هنا حسن التعامل مع الناس.

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٠١).
(٢) سورة آل عمران، الآية (٩٢).
(٣) سورة يوسف، الآية (٥١).
(٤) سورة يوسف، الآية (٤١).
(٥) سورة هود، الآية (٨١).
(٦) سورة الأعراف، الآية (٩٥).
(٧) سورة النجم، الآية (٥٨).
(٨) سورة البقرة، الآية (٤٤).
(٩) سورة سبإ، الآية (٥٤).

نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾[١]، ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾[٢]، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[٣]، ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ﴾[٤]، ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾[٥]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾[٦]، ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾[٧]. ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[٨]. ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾[٩] ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾[١٠]. ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾[١١]. ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾[١٢] ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾[١٣] ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[١٤]. ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[١٥]. ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾[١٦]. ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾[١٧]. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[١٨]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾[١٩]. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾[٢٠]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾[٢١]، ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ ﴾[٢٢]. ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾[١]. ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾[٢]. ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾[٣]. ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[٤]. ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[٥]. ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾[٦]. ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[٧]. ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾[٨]، ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾[٩] ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾[١٠] ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[١١]. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[١٢]. ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾[١٣]. ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾[١٤]. ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾[١٥]، ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[١٦]. ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾[١٧]. ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾[١٨]، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾[١٩]، ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[٢٠] ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[٢١]. ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ ﴾[٢٢]. ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾[٢٣].

---

(١) سورة الأنعام، الآية (٦٧).
(٢) سورة الإسراء، الآية (٨٤).
(٣) سورة النساء، الآية (١٩).
(٤) سورة آل عمران، الآية (١٢٠).
(٥) سورة المدثر، الآية (٣٨).
(٦) سورة الأنعام، الآية (٤٤).
(٧) سورة المائدة، الآية (٩٩).
(٨) سورة البقرة، الآية (٢٤٩).
(٩) سورة التوبة، الآية (٩١).
(١٠) سورة الحشر، الآية (١٤).
(١١) سورة الرحمن، الآية (٦٠).
(١٢) سورة فاطر، الآية (١٤).
(١٣) سورة الأنفال، الآية (٢٣).
(١٤) سورة المؤمنون، الآية (٥٣).
(١٥) سورة البقرة، الآية (٢٨٦).
(١٦) سورة المائدة، الآية (١٠٠).
(١٧) سورة الشعراء، الآية (٢١).
(١٨) سورة ص، الآية (٢٤).
(١٩) سورة الصف، الآية (٢).
(٢٠) سورة النساء، الآية (٤٩).
(٢١) سورة المائدة، الآية (١٠١).
(٢٢) سورة الأنعام، الآية (٤).

---

(١) سورة الأنعام، الآية (٢٨).
(٢) سورة المائدة، الآية (٩٨).
(٣) سورة المؤمنون، الآية (٧٥).
(٤) سورة الغاشية، الآيتان (٢١ ـ ٢٢).
(٥) سورة الزخرف، الآية (٢٣).
(٦) سورة الزخرف، الآية (٣٨).
(٧) سورة الذاريات، الآية (٣٦).
(٨) سورة الأعراف، الآية (١٨٧).
(٩) سورة النجم، الآية (٣٢).
(١٠) سورة الرحمن، الآية (٢٩).
(١١) سورة المرسلات، الآية (٥٠).
(١٢) سورة الأنعام، الآية (١٣٢).
(١٣) سورة المزمل، الآية (١٠).
(١٤) سورة الجاثية، الآية (١٥).
(١٥) سورة الأعراف، الآية (١٥٥).
(١٦) سورة الحشر، الآية (٢).
(١٧) سورة الواقعة، الآية (٧٦).
(١٨) سورة الملك، الآية (٣).
(١٩) سورة ص، الآية (٨٨).
(٢٠) سورة الفرقان، الآية (٦٧).
(٢١) سورة الصافات، الآية (٦١).
(٢٢) سورة الرحمن، الآية (٢٦).
(٢٣) سورة آل عمران، الآية (١٨٥).

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾[1].

ومن الأمثال من الحديث النبوي: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىءٍ ما نوى». «نية المرء خير من عمله». «آفة العلم النسيان». «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه». «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه». «أنزلوا الناس منازلهم». «اليد العليا خير من اليد السفلى». «من مات غريباً مات شهيداً». «مطل الغني ظلم». «يد الله مع الجماعة». «الجار قبل الدار». والرفيق قبل الطريق». «من غشنا فليس منا». «سيد القوم خادمهم». «الحياء شعبة من الإيمان». «تخيروا لنطفكم». «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول». «حدِّث عن البحر ولا حرج». «المجالس بالأمانات». «كل ميسر لما خلق له». «أطلبوا الخير من حسان الوجوه». «إياك وما يعتذر منه» «الوحدة خير من الجليس السوء». «إستعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان». «الندم توبة». «لا يكون المؤمن طعاناً ولا لعاناً». «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك». «من كثّر سواد قوم فهو منهم». «أنصف أخاك ظالماً أو مظلوماً». «انتظار الفرج عبادة». «كاد الفقر أن يكون كفراً». «نعم صومعة المرء بيته». «الأعمال بخواتيمها».

الفصل الثاني

في أمثال العرب

ـ إن من البيان لسحراً. ـ إن الجواد قد يعثر. ـ إن البلاء موكل بالمنطق. ـ إن أخا الهيجاء من يسعى معك، ومن يضر نفسه لينفعك. ـ أنف في السماء وإست في الماء. ـ إن الذليل الذي ليست له عضد. ـ أي الرجال المهذب ـ إنما هو كبرق خلب. ـ إذا أدبر الدهر عن قوم كفى عدوهم أمرهم. ـ إياك أعني فاسمعي يا جارة. ـ إن لم يكن وفاق ففراق. ـ إنك لا تجني من الشوك العنب. ـ إذا حان القضاء ضاق الفضاء. ـ إن المناكح خيرها الأبكار. ـ إذا كنت مناطحاً فناطح بذوات القرون. ـ أوى إلى ركن بلا قواعد. ـ إياك أن تضرب بلسانك عنقك. ـ أكل وحمد خير من أكل وذم. ـ آفة المروءة خِلْفُ الوعد. ـ إذا قلت له زن طَأْطَأَ رأسه وحزن. ـ إذا أتاك أحد الخصمين وقد فقئت عينه، فلا تقض له حتى يأتيك خصمه فلعله فقئت عيناه. ـ ترك الذنب أيسر من طلب التوبة. ـ اتق شر من تحسن إليه. الناس إخوان، وشتى في الشّيَم ـ بلغ السيل الزبى. ـ أجع كلبك يتبعك. ـ حافظ على الصديق، ولو في الحريق. ـ إشتدي أزمة تنفرجي. ـ أتبع السيئة الحسنة تمحها. ـ الخيل أعرف بفرسانها. ـ رمتني بطرفها وانسلت. ـ ربَّ رمية من غير رام. ـ الرباح مع السماح. ـ رب أكلة تمنع أكلات. ـ استراح من لا عقل له.

ـ رب أخ لك لم تلده أمك. ـ رب طمع أدى إلى عطب. ـ ربما كان السكوت جواباً. ـ رب ملوم لا ذنب له. ـ رب عين أنم من لسان. ـ رحم الله من أهدى إليَّ عيوبي. ـ ركوب الخنافس ولا المشي على الطنافس. ـ سبق السيف العذل. ـ زوج من عود خير من قعود. ـ سَبُّك من بلغك السبُّ. ـ سحابة صيف عن قليل تقشع. ـ شر أيام الديك يوم تغسل رجلاه. ـ طاعة النساء ندامة. ـ أطلب تظفر. ـ طَرْفُ الفتى يخبر عن لسانه. ـ ظاهر العتاب خير من باطن الحقد. ـ عند الصباح يحمد القوم السُّرَى[1]. ـ الظلم مرتعه وخيم. ـ عند النطاح يغلب الكبش الأجم.

العبد يُقرعُ بالعصا
والحرّ تكفيه الملامة

ـ أعقل وتوكل. ـ العتاب قبل العقاب. ـ عند الرهان تعرف السوابق. ـ عند الامتحان يكرم المرء أو يهان. ـ عند النازلة تعرف أخاك. ـ في القمر ضياء، والشمس أضوأ منه. ـ القول ما قالت حذام. ـ لقد أسمعت لو ناديت حياً. ـ أقلل طعامك يحمد منامك. ـ كل فتاة بأبيها معجبة. ـ كل كلب ببابه نبّاح. ـ كاد العروس أن يكون ملكاً. ـ كثرة العتاب توجب البغضاء. ـ أكثر مصارع الرجال تحت بروق المطامع. ـ الكلام أنثى، والجواب ذكر. ـ كل إناء يرشح بما فيه. ـ كما تزرع تحصد. ـ كل امرىء في بيته صبي. ـ كلب جوال غير من أسد رابض. ـ لقد ذل من بالت عليه الثعالب. ـ ليس الخبر كالعيان. ـ لكل صارم نبوة، ولكل جواد كبوة. ـ لكل قادم دهشة ـ لعل لها عذراً وأنت تلوم. ـ لكل ساقطة لاقطة. ـ لكل مقام مقال. ـ لك لسان من رطب وبدان من خشب. ـ للباطل جولة ثم يضمحل. ـ ليست النائحة الثكلى مثل المستأجرة. ـ لكل غد طعام. ـ لكل دهر دولة ورجال. ـ لا عطر بعد عروس. ـ لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. ـ لا يضر السحاب نباح الكلاب. ـ لا تقتن من كلب سوء جرواً. ـ مقتل الرجل بين

---

(١) سورة الطور، الآية (١٥).

(١) السرى: السير ليلاً، وهم سيحمدون السرى إذ يجدون أنهم قد ابتعدوا عن العدو الذي يطلبهم ولا يقدرون على قتاله.

فكيه، ـ ما كحك جلدك مثل ظفرك. ـ من عتب على الدهر طال عتبه. ـ معاتبة الإخوان خير من فقدهم. ـ النفس مولعة بحب العاجل ـ هذه بتلك، والبادي أظلم. ـ يا حبذا الإمارة ولو على الحجارة. ـ يكسو الناس وإسته عارية. ـ يدك منك وإن كانت شلاء

الفصل الثالث

في أمثال العامة والمولدين

ـ التسلط على المماليك دناءة. ـ اجلس حيث يؤخذ بيدك وتبر[1]، ولا تجلس حيث يؤخذ برجلك وتجر[2]. ـ أجرأ الناس على الأسد أكثرهم له رؤية. ـ الحاجة تفتق الحيلة. ـ الحاوي لا ينجو من الحيات. ـ الحبة تدور وإلى الرحى ترجع. ـ المؤذي ردي كلما جلوته صدي. ـ الأسواق موائد الله في أرضه. ـ السلامة إحدى الغنيمتين. ـ الشاة المذبوحة لا يؤلمها السلخ. ـ الطير بالطير يصاد. ـ اطلع القرد في الكنيف فقال: هذه المرآة لهذا الوجه الظريف. ـ العادة طبيعة خامسة. ـ الغائب حجته معه. ـ الخضوع عند الحاجة رجولة. ـ الناس أتباع لمن غلب. ـ النكاح يفسد الحب. ـ النصح بين الملأ تقريع. ـ الحر حر وإن مسه الضر. والعبد عبد وإن ملك الدر. ـ الثقيل إذا تخفف صار طاعوناً. ـ أضيع من حلي على زنجية. ـ العمل للزرنيخ، والإسم للنورة. ـ أنشط من أير دخل نصفه. ـ البغل الهرم لا يفزعه صوت الجلجل. ـ بدن وافر، وقلب كافر.

ـ تزاوروا ولا تجاوروا. ـ تعاشروا كالإخوان، وتعاملوا كالأجانب. ـ ثمرة العجلة الندامة. ـ جواهر الأخلاق تفضحها المعاشرة. ـ حيثما سقط لقط. ـ خذ اللص قبل أن يأخذك. ـ خذ القليل من اللئيم وذمه. ـ ذل من لا سفيه له. ـ ريق العدو سم قاتل. ـ رب ساع لقاعد. ـ زكاة البدن العلل. ـ زلق الحمار وكان من سهوة المكاري. ـ زلة الرجل عظم يجبر، وزلة اللسان لا تبقي ولا تذر. ـ سلطان غشوم خير من فتنة تدوم. ـ سواء قوله وبوله. ـ سفير السوء يفسد ذات البين. ـ شهر ليس لك فيه رزق لا تعد أيامه. ـ صديق الوالد عم الولد. ـ ضرب الطبل تحت الكسا. ـ طاعة الولاة بقاء العز ـ طفيلي ويقترح. ـ عناية القاضي خير من شاهدي عدل. ـ دلت على أهلها براقش. (وهو اسم كلبة نبحت فدلت على الجيش فقتلوهم).

ـ غش القلوب يظهر في فلتات الألسن وصفحات الوجوه. ـ غنى المرء في الغربة وطن. ـ فر من الموت وفي الموت وقع. ـ فم يسبح وقلب يذبح. ـ فلان كالكعبة يزار ولا يزور. ـ قيل للزمّار: تهيأ للزمر، قال: المزمار في كمي والريح في فمي[1]. ـ كل قليلاً تعش كثيراً. ـ كلامه ريح في قفص. ـ كالإبرة تكسو الناس وهي عريانة. ـ كلمة حكمة من جوف خرب. ـ كاد المريب أن يقول: خذوني. ـ كنت سنداناً فصرت مطرقة. ـ كل ما فاتك من الدنيا فهو غنيمة. ـ كلما طار قصوا جناحه. ـ لو كان المزاح فحلاً لم ينتج إلا شراً. ـ لسان الجاهل مفتاح حتفه. ـ لكل جديد لذة. ـ لو ضاعت صفعة ما وجدت إلا في قفاه. ـ لو كان في البوم خير ما فات الصياد. ـ من اعتمد على شرف آبائه فقد عقهم. ـ من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلاً. وبالله التوفيق.

الفصل الرابع

في الأمثال من الشعر المنظوم مرتبة على حروف المعجم

(حرف الألف)

ـ ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل
وكلّ نعيمٍ لا محالة زائلُ

ـ إذا جاء موسى وألقى العصا
فقد بطل السحر والساحرُ

ـ إذا لم يكن فيكنّ ظلٌ ولا جنى
فأبعدكن الله من شَجَرَاتِ

ـ إذا كنت في فكري وقلبي ومقلتي
فأيّ مكانٍ من مكانك ألطف

ـ إذا أراد كريمٌ نفع صاحبه
فليس يخفى عليه كيف ينفعه

ـ إذا ما أتيت الأمر من غير بابه
ضللت وإن تقصد إلى الباب تهتدِ

ـ إذا أنت لم تنصفْ أخاك وجدته
على طرف الهجران إن كان يعقلُ

ـ إذا لم يكن عندي نوال هجرتني
وإن كان لي مال فأنت صديقي

(١) أي ينالك الإكرام والتقدير وإن لم يكن في صدر المكان.
(٢) لأنك في مكان ليس لك ولست من أهله.

(١) أي أن الأمر لا يحتاج إلى تهيؤ، إدفعوا لي فأزمّر.

ـ الناس في طلب المعاش وإنما
بالجَدّ[١] يرزق منهم من يرزقُ

ـ أيُها السائل عمّا قد مضى
هل جديد مثل ملبوسٍ خَلِق

ـ إنما أنفسنا عاريةٌ[٢]
والعواري حكمها أن تسترد

ـ إن العدو وإن أبدى مسالمةً
إذا رأى منك يوماً غِرّةً وثبا

ـ أتمنى على الزمان محالاً
أن ترى مقلتاي طلعة حرٍّ[٣]

ـ إذا ملكٌ لم يكن ذا هبة
فدعه فدولته ذاهبه

ـ إذا ثارت خطوب الدهر يوماً
عليك فكنْ لها ثبت الجنان

ـ إذا كنت لا ترضى بما قد ترى
فدونك الحبل به فاختنِق

ـ إن الأمور إذا بدت لزوالها
فعلامة الإدبار فيها تظهر

ـ إذا ضاع شيءٌ بين أمّ وبنتها
فإحداهما لا شكّ ذلك آخذه

ـ إذا كان رب البيت بالطبل ضارباً
فلا تلم الصبيان فيه على الرقص[٤]

ـ إذا ما أراد الله إهلاك نملةٍ
سمت بجناحيها إلى الجو تصعد

ـ إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنا[٥]
أصبت حليماً أو أصابك جاهل

ـ إذا لم تستطع أمراً فدعه
وجاوزه إلى ما تستطيعُ

ـ إذا صوّت العصفور طار فؤاده
ولكن حديد الناب عند الثرائد[٦]

(١) أي الكل يسعى والرزق يصيبه من كتب له.
(٢) عارية: مستعارة.
(٣) أي صار في زمن رديء ليس فيه كرام.
(٤) وروي عجز هذا البيت: فشيمة أهل البيت كلهم الرقص.
(٥) الخنا في الأصل الزنا بالأقارب وتطلق على كل عمل دنيء.
(٦) الثرائد ج ثريدة وهو طعام يعد من الخبز واللحم والمرق.

ـ أهِنْ عامراً تَكْرُمْ عليه فإنما
أخو عامرٍ من مسّه بهوان

ـ إذا محاسني اللاتي أتيتُ بها
عُدّت ذنوباً فقل لي كيف أعتذرُ

ـ إخوان صدقٍ ما رأوك بغبطةٍ
فإذا افتقرت فقد هوى بك من هوى

ـ إذا اعتاد الفتى خوض المنايا
فأيسرُ ما يمرّ به الوحول

ـ ألم تر أن المرء تدوى يمينه
فيقطعها عمداً ليسلم سائره

ـ إذا أنت لم تعلم طبيبك كلّ ما
يسوك أبعدت الدواء عن السقمِ

ـ إذا أنت حمّلت الخؤون أمانةً
فإنك قد أسندتها شرّ مسندِ

ـ أكلّ خليلٍ هكذا غير منصفٍ
وكلّ زمانٍ للكرام بخيلُ

ـ إذا أنت عبت المرء ثم أتيته
فأنت ومن تزري عليه سواء

ـ أسأتُ إذ أحسنتُ ظنّي بكم
والحزم سوءُ الظنّ بالناس

ـ الحادثات إذا ألمّ خطوبها
فلها مَساوٍ مرّةً ومحاسنُ

ـ الخير لا يأتيك متصلاً
والشرّ يسبق سيله مطرُهْ[١]

ـ العلم ينهض بالخسيس إلى العلا
والجهل يقعد بالفتى المنسوبِ

ـ الكفر بالنعمة يدعو إلى
زوالها والشكر أبقى لها

ـ أيا دارهم ما كنت أنت بدارهم
ولا أنا مذ سار الركاب بهم أنا

ـ أقلّبُ طرفي لا أرى غَيْرَ صَاحِبِ
يميل مع النعماء حيث تميلُ

(١) أي الخير يأتي على دفعات، مرة بعد مرة أما الشر فيبدأ سيلاً دفعة واحدة.

- إذا ما قضيت الدّين بالدّين لم يكن
قضاءً ولكن ذاك غرمٌ على غرمِ

(حرف الباء الموحدة)

- بنا فوق ما تشكو فصبراً لعلنا
نرى فرجاً يشفي السقام قريبا

- بالملح نصلح ما نخشى تغيّره
فكيف بالملح إن حلّت به الغِيَرُ[1]

- بني عمنا إنّ العداوة شأنها
ضغائنُ تبقى في نفوس الأقاربِ

(حرف التاء المثناة الفوقية)

- تحنّ إليه أفئدةُ البرايا
وتهواه الخلائق للسماع

- تلوم على القطيعة من أتاها
وأنت سننتها للناس قبلي

- تلجي الضرورات في الأمور إلى
سلوك ما لا يليق بالأدب

- تفرقت الظباء على حراشٍ
وما يدري حراشٌ ما يصيد[2]

- تجتلي الأذن منه أحسن مما
تجتلي العين من وجوه البدور[3]

(حرف الجيم)

- جنّ له الدهر فنال الغنى
آه لمن أغفله الدهر

- جربت أهلي وأهليه فما تركت
إلى التجارب في ودّ امرىءٍ غرضا

(حرف الحا المهملة)

- حيّاك من لم تكن ترجو تحيته
لولا الدراهم ما حيّاك إنسانُ

(1) أي أن الأطعمة واللحوم تصلح بالملح فإذا فسد لم يُصْلَح، والمراد إن كان العلماء أو الأمراء الذين بهم يصلح فساد من فسد من الرعية فاسدون فَمَنْ يُصْلِحُ الفاسِدَ.

(2) أي هو يأتيه الرزق والخير من كل جانب وهو لا يدري ما هو فيه كما يقال: تهدى الحلاوة لمن لا أضراس له.

(3) أي أن كلامه شديد الحلاوة والرقة.

(حرف الخاء المعجمة)

- خَفّض الجأش واصبرنْ رويداً
فالرزايا إذا توالت تولت[1]

- خليليّ إنّ الحبّ صعبٌ مراسه
وإن عزيز القوم فيه يهان

- خاطرْ بنفسك كي تصيب غنيمةً
إن الجلوس مع العيال قبيحُ

- خيالُك في عيني وذكرك في فمي
ومثواك في قلبي فأين تغيبُ؟

- خن من أمنت ولا تركن إلى أحد
فما نصحتك إلا بعد تجريبي

(حرف الدال المهملة)

- داود محمودٌ وأنت مذممٌ
عجباً لذاك وأنتما من عود

- دعيني أنهب الأموال حتى
أعفّ الأكرمين عن اللئام

(حرف الذال المعجمة)

- ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
وأخو الجهالة في الشقاء منعّم[2]

(حرف الراء)

- رُبَّ مهزولٍ سمينٌ عِرْضُهُ
وَسَمِينُ الجِسْمِ مَهْزَولُ الحَسَبْ

- رقوا عليّ صحائفاً سودتُها
فيكم بلا حقٍ ولا استحقاق

- رضيت ولا أرضى إذا كان مسخطي
من الأمر ما فيه رضا صاحب الأمر

- ربّ يوم بكيت منه فلما
صرت في غيره بكيت عليه

(حرف الزاي)

- زنيمٌ ليس يعرف من أبوه
بغيّ الأم ذو حسبٍ لئيم

(حرف السين المهملة)

- سروري أن نبقى بخير ونعمة
وإني من الدنيا بذلك قانع

(1) إذا توالت تولت: إذا كثرت كان ذلك إيذاناً بانقضائها.

(2) وروي عجز هذا البيت: «وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم».

ـ سوء حظّي أنالني منك هجراً
فعلى الحظ لا عليك العتابُ

ـ سبكناه ونحسبه لجيناً
فأبدى الكير عن خبث الحديد[1]

ـ ستذكرني إذا جرّبت غيري
وتعلم أنني نعم الصديق

(حرف الشين المعجمة)

ـ شفيعي إليك الله لا ربَّ غيره
وليس إلى رد الشفيع سبيلُ

ـ شكرتك قبل الخير إن كنت واثقاً
بأني بعد الخير لا شكّ شاكرُ

(حرف الصاد المهملة)

ـ صحّ لنا والده أولاً
وأنت في حل من الوالده

(حرف الضاد المعجمة)

ـ ضاقت ولو لم تضق لما انفرجت
والعسرّ مفتاح كل ميسور[2]

(حرف الطاء المهملة)

ـ طَويلُ عُمْرِ المعالي والندى أبداً
قَصِيرُ عُمْرِالأعادي والمواعيدِ

ـ طوبى لأعين قوم أنت بينهُمُ
القومُ في نزهةٍ من وجهك الحسنِ

(حرف الظاء المشالة)

ـ ظهرت خياناتُ الثقات وغيرهمْ
حتّى اتّهمنا رؤية الأبصارِ

ـ ظلمت أمرأ كلّفته غير خلقه
وهل كانت الأخلاق إلا غرائزُ

(حرف العين المهملة):

ـ علم الله كيف أنت فأعطا
ك المحلّ الجليل من سلطانه

ـ على المرء أن يسعى لما فيه نفعُهُ
وليس عليه أن يساعده الدهرُ

ـ عسى فرجٌ يأتي به الله إنّهُ
له كل يومٍ في خليقته أمرُ

ـ عتبت على عمروٍ فلما تركته
وجربت أقواماً بكيت على عمرو

(حرف الغين المعجمة)

ـ غنيٌ بلا دينٍ عن الخلق كلّهم
وإنّ الغنى إلا عن الشيء لا به

ـ غلامٌ أتاه اللؤم من شطر نفسه
ولم يأته من شطر أم ولا أب

(حرف الفاء)

ـ فلم أر كالأيام للمرء واعظاً
ولا كصروف الدهر للمرء هادياً

ـ فنفسك أكرمْها فإنك إنْ تَهُنْ
عليك فلن تلقى لها الدهر مُكْرِماً

ـ فصبرٌ جميلٌ إنّ في اليأس رَاحَةٌ
إذا الغيث لم يمطر بلادك ماطره

ـ فما أكثر الأصحاب حين تعدّهم
ولكنهم في النائبات قليلُ

ـ فإن كانت الأجسام منّا تباعدت
فإن المدى بين القلوب قريب

ـ فلو كان حمداً يخلد المرء لم يمت
ولكن حمد المرء غير مخلّد

ـ فإن تَفُقِ الأنام[1] وأنت منهمْ
فإن المسك بعض دم الغزالِ

(حرف القاف)

ـ قد يجمعُ المالَ غيرَ آكِلِهِ
ويأكل المال غير من جمعَهُ

ـ قد زال ملك سليمان فعاوده
والشمس تنحطُ في المجرى وترتفع

ـ قد يدرك المتأنّي نجحَ حاجته
وقد يكون مع المستعجل الزّلل

ـ قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه
خَلِقٌ وجيبُ قميصه مرقوع

---

(١) السبك هو أن يذاب المعدن ثم يسكب في قالب ليتخذ شكلاً واللجين الفضة، الكير: منفاخ الحداد، والخبث ما يرتفع على سطح المعدن السائل من صدإ ووسخ يرمى.

(٢) وهذا كقولهم: اشتدي أزمة تنفرجي.

(١) تفق الأنام: تتفوق عليهم.

(حرف الكاف)

- كلوا اليوم من رزق الإله وأبشروا
فإنَّ على الخلاّق رزقكم غدا
- كفى زاجراً للمرء أيام دهره
تروح له بالواعظات وتغتدي
- كنت من كربتي أفرّ إليهم
فهم كربتي اليَوْمَ فأين الفرار
- كانوا بني أم ففرق شملهم
عدمَ العقول وخفةُ الأحلام
- كلّ المصائب قد تمرّ على الفتى
فتهون غيرَ شماتة الأعداءِ
- كأنك من كل النفوس مركبٌ
فأنت إلى كل الأنام حبيبُ
- كالكلب إن جاع لم يمنعك بصبصةً
وإن ينل شبعاً ينبح من الأَشَر

(حرف اللام)

- لعمرك ما يدري الفتى كيف يتّقي
إذا هو لم يجعل له الله واقيا
- لعمري ما ضاقت بلادٌ بأهلها
ولكنَّ أخلاق الرجال تضيقُ
- للموت فينا سهامٌ وهي صائبةٌ
من فاته اليوم سهمٌ لم يفتْهُ غدا
- لو أن خفة عقله في رجله
سبق الغزال ولم يفته الأرنب
- لو كان ما بي في صخر لأنحَلَهُ
فكيف يَحمِلُهُ خَلْقٌ من الطِّينِ
- لعمرك ما الأيام إلا مُعارةٌ
فما استطعت من معروفها فتزوّدِ
- لكل امرىءٍ حالان بؤسٌ ونعمةٌ
وأعطفهم في النائبات أقاربُهْ

(حرف الميم)

- مَنْ يحمدِ الناس يحمدوه
والناس من عابهم يعاب
- من لم يعدنا إذا مرضنا
إن مات لم نشهد الجنازه
- متى يبلغ البنيان يوماً تمامه
إذا كنت تبنيه وغيرُك يهدمُ
- من كان فوق محل الشمس رتبته
فليس يرفعُهُ شيءٌ ولا يضعُ
- من الناس من يغشى الأباعد نفعه
ويشقى به حتى الممات أقاربُه
- ما كان في المخدع من أمركم
فإنه في المسجد الجامع[1]
- ما قام عمروٌ في الولا
يَة قائماً حتى قعدْ[2]

(حرف النون)

- نُسَوِّدُ أعلاها وتأبى أصولها[3]
وليس إلى رد الشباب سبيلُ
- نحن بنو الموتى فما بالنا
نعاف ما لا بدّ من شربه
- ندمت ندامة الكسعيّ لمّا
رأت عيناه ما صنعت يداه[4]

(حرف الهاء)

- هنّاكم الله بالدنيا ومتعكم
بما تحب لكم منها ونرضاه
- هل بالحوادث والأيام من عجبٍ
أم هل إلى رد ما قد فات من طلب
- هبِ الدنيا تقاد إليك عفواً
أليس مصير ذاك إلى الزوال
- هنيئاً لمن لا ذاق للدهر لوعةً
ولم تأخذ الأيام منه نصيبا
- هم يحسدوني على موتي فواحزني
حتى على الموت لا أخلو من الحسد

---

(١) أي لا سر يحفظ عندكم.
(٢) أي كانت مدة ولايته قصيرة جداً.
(٣) المراد الشَّعر فإذا صبغ لإخفاء الشيب أظهر النامي منه أنه أبيض.
(٤) حكاية الكسعي مشهورة وقد استعمل الفرزدق هذا المثال فقال:
ندمت ندامة الكسعي لمّا
غَدَتْ مني مطلقة نوار
ولم يذكر قائل البيت المذكور هنا لنعرف هل هو الأسبق أم الفرزدق.

(حرف الواو)

- ولم أر كالمعروف أمّا مذاقه
فحلوٌ وأمّا وجهه فجميلُ

- وإذا خشيت من الأمور مقدّراً
وهربت منه فنحوه تتوجّهُ

- والرزق يخطىء باب عاقل قومه
ويبيت بوّاباً بباب الأحمق

- ولا يغررك طولُ الحلم منّي
فما أبداً تصادفني حليما

- ولا خير فيمن لا يوطّن نفسه
على نائبات الدهر حين تنوبُ

- وإذا أتتك مذمتي من ناقصٍ
فهي الشهادةُ لي بأنّي كاملُ

- وما للمرء خيرٌ في حياة
إذا ما عُدَّ من سقط المتاع

- وما المرء إلا كالهلال وضوئه
يوافي تمام الشهر ثم يغيب

- وقد تسلب الأيام حالات أهلها
وتعدو على أسد الرجال الثعالب

- ومن يأمن الدهر الخَؤونَ فإنني
برأي الذي لا يأمن الدهر أقتدي

- وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد
ذخراً يكون كصالح الأعمال

- ومن يكن الغراب له دليلاً
يمرّ به على جيف الكلاب

- ومن يك مثلي ذا عيالٍ ومقتراً[1]
من الزاد يطرح نفسه أيَّ مطرحِ

- ولربما منع الكريم وما به
بخلٌ ولكنْ سوء حظ الطالب

- ولا بات يسقينا سوى الماء وحده
وهذا جزا من بات ضيف الضفادع

- ومن عاش في الدنيا فلا بدّ أن يرى
من العيش ما يصفو وما يتكدر

- ولو دامت الدولات دامت لغيرنا
رعايا ولكن ما لهنّ دوام

(١) مقتراً: فقيراً.

- وأحسنْ فإنّ المرء لا بدّ ميّتٌ
وأنّك مجزيٌ بما كنت ساعياً

- ولا تريَنّ الناس إلاّ تجملاً
وإن كنت صفر الكفّ والبطن طاويا

- وما لامرىءٍ طولُ الخلود وإنّما
يُخلّده طول الثناء فيخلدِ

- ولربَّ نازلةٍ يضيق بها الفتى
ذرعاً وعند الله منها المخرج

- وكان رجائي أن أعود ممتّعاً
فصار رجائي أن أعود مسلّما

- وتجلّدي[1] للشامتين أريهم
أنّي لريب الدهر لا أتضعضع

- ولا بد من شكوى إلى ذي مروءةٍ
يواسيك أو يسليك أو يتوجعُ

- وهوّن حزني عن خليلي أنّني
إذا شئت لاقيت الذي مات صاحبه

- ويومٌ علينا ويومٌ لنا
ويومٌ نساءُ ويوم نُسَر

(حرف اللام ألف)

- لا تنظرنّ إلى الجهالة والحجى[2]
وانظر إلى الإقبال والإدبار

- لا يسأل المرء عن خلائقه
في وجهه شاهدٌ من الخبر

- لا يصبر الحر تحت ضيمٍ
وإنما يصبِّر الحمار

- لاَ تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتي مثله
عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

- لا يبالي الشتم عرضٌ
كله شتمٌ وذمٌّ

- لا تنظرنَّ إلى آمرىءٍ ما أصله
وانظر إلى أفعاله ثم أحكمِ

- لا يسكن المرء في أرض يهان بها
إلا من العجز أو من قلّةِ الحِيَلِ

- لا يقبلون الشكر ما لم يُنْعِمُوا
نِعَماً يكون لها الثناء تبيعا

(١) تجلدي: صبري.
(٢) الحجى: العقل الراجح.

- لا أسأل الناس عَمّا في ضمائرهم
ما في ضميري لهم من ذاك يكفيني

(حرف الياء المثناة التحتية)

- يَفِرُّ من المنية كلُّ حي
ولا يُنْجِي من القدر الحذار[1]

- يريك الرضا والغلُّ حشو جفونه
وقد تنطق العينان والفمُ ساكت[2]

- يهمهم للشعير إذا رآه
ويعبس إن رأى وجه اللجام

- يفارقني من لا أطيق فراقه
ويصحبني في الناس من لا أريده

- يزيد تفضلاً وأزيد شكراً
وذلك دأبه أبداً ودأبي

- يواسي الغرابُ الذئبَ في كل صيده
وما صارت الغربان في سعف النخل

- يهون علينا أن تصاب جسومنا
وتسلم أعراضٌ لنا وعقول

- يغرّ الفتى مرّ الليالي سليمةً
وهنّ به عَمّا قليلٍ غوائرُ

- يغيظني وهو على رسله
والمرء في غيظ سواه حليم

- يريك البشاشة عند اللقا
ويبريك في السر بريَ القلم

الفصل الخامس

في الأمثال السائرة بين الرجال والنساء مرتبة على حروف المعجم

(حرف الألف)

- إن كنت ما تعمل جميل اعمل كما يعمل معك. - إذا أبغضك جارك، حوّل باب دارك. - إذا كان صاحبك عسل، لا تلحسه كله. - المستعجل والبطيء عند المعدية[3]. - تلتقي ألف ذقن، ولا سلام عليكم. - ألف ذقن ولا ذقني. - إذا غاب عنك أصله، كانت دلائل نسبته فعله. - إذا وصلت وسلم الله بِعْ بِمَا قَسَمَ اللَّهَ. - إذا كنت أعمى وأطروش شم رائحة النقوش. - إذا كان النبيذ دردي[1]، والعشيق كردي، والبقل فول حار، والعشاء بيسار[2] إيش يكون الحال. - إذا كان القطن أحمر، والمغسل أعور، والدكة مخلعة، والنعش مكسر، اعلم أن الميت من أهل سقر، والوادي الأحمر. - إيش ينفع الضراط عند طلوع الروح، قال تقريف للحاضرين وتفريق للملائكة. - الفشر والنشر والعشا خبيزة. - أكل الدقة والنوم في الأزقة ولا دجاجة محمرة يعقبها مشقة. إيش أنت في الحارة يا منخل بلا طارة. - الرجم بالطوب ولا الهروب. - إذا وقعت يا فصيح لا تصيح. - أقرع يقول لأقرع امش بنا نزرع في بركة القرعان إيش ما يطلع يطلع النصف لي والربع لي والثمن لي والثمن الآخر لك. - والله العدو ما يبقى حبيب حتى يصير الحمار طبيب. - أقعد يا حمار حتى ينبت لك الشعير. أي موضع راح الحزين يلقى جنازة[3].

قال الشاعر:

- إن دام هذا السير يا مسعود
لا جملٌ يبقى ولا قُعُود

غيره:

- إذا لم تكن لي والزمان شرْمْ بُرمْ
فلا خير فيك والزمان ترللّي[4]

غيره:

- إذا أقبلت كادت نقاد بشعرة
وإن أدبرت كادت تَقُدُّ السلاسلا

(حرف الباء الموحدة)

بينما يتروى البخيل قضي الكريم حاجته. - بينما يسعد المعتر فرغ عمره. - بينما أصِلُ قبره نسيت هَمَّهُ. بينما يعدل المعتر حاله جاه الموت شاله. - بينما يخلص ربنا حقي اتفرقعت جوزة حلقي. بينما يقطع الجريد يفعل الله ما

---

(١) وفي المثل: الحذر لا يمنع القدر وأيضاً: لا ينفع حذر من قدر.

(٢) أي يتظاهر بالود وهو عدو مبغض.

(٣) المعدية: نوع من القوارب تستعمل للانتقال ونقل الناس من ضفة لأخرى والمراد هنا أنه لا فائدة من الاستعجال.

(١) الدردي: الثفل الذي يرسب في قعر الوعاء من المشروبات والسوائل الكثيفة.

(٢) البيسار: والبيسارة طبق يعد من العدس. وبعض أنواع الحبوب.

(٣) ومثله: على حظ الحزينة سَكَّرت المدينة.

(٤) أي إن لم يكن فيك خير لي وزماني في إدبار فما حاجتي إليك وزماني في إقبال.

يريد. ـ بينما يجيء الترياق من العراق يكون الملسوع مات. ـ بين حانة ومانة حلقت لحانا. ـ بدوي مقروح لقي التمر مطروح، أين يخلي ويروح. ـ بدال لحمتك وقلقاسك هات لك شد على راسك. ـ بدال اللحمة والباذنجان هات لك قميص يا عريان. ـ بدال لحمتك التلاتة هات لك شد يا شماتة. ـ بقى للكلب سرج وغاشية وغلمان وحاشية. ـ بقي للخرا مرا وصار يحلف بالطلاق[1]. ـ بعد الجوع والقلة بقي لك حمار وبغلة.

(حرف التاء المثناة من فوق)

ـ تموت الحدادي وعينها في الصيد. ـ تعالوا بنا نقتبح ونرجع غداً نصطلح. ـ تدحرج الخرا لعند البعر قال له: إيش أنت قال له بزم قردش. ـ ترك الفضول من حزم العقول. ـ تراب العمل ولا زعفران البطالة. ـ تسكر وتخانق ما هو شيء موافق. ـ تجارة الأحمق على أهل بيته. ـ تضارب الريح مع الموج جاء الهم على النواتية[2]. ـ تزاوروا ولا تجاوروا. ـ تبات نار تصبح رماد، لها رب يدبرها.

(حرف الثاء المثلثة)

ـ ثوب العيرة ما يدفي. ـ ثقيل واسمه صخر بن جبل. ـ ثور علّقوه أغمي عليه قال: حتى يطلع شيء يرشوه عليه. ـ ثور عاجز ما يدور ساقية ثقيلة ـ من أولاد الزنا مر العناـ ثوب عليه وثوب على الوتد، قال: أنا اليوم أحسن من كل من في البلد.

(حرف الجيم)

ـ جور القط ولا عدل الفار. ـ جمل موضع جمل يبرك. ـ جهد المقل دموعه. ـ جمل بحبه قال: وأين المحبة ـ جيت أصطاد صادوني. ـ جار له حق وجار ما له حق وجار لا صَحِبْتُهُ عافية. ـ جارك مرآك إن لم ينظر وجهك نظر قفاك. جا[3] كتاب من عند خاله قال كل من هو في حاله. جا[3] كتاب من عند عمه قال كل من هو ملهي بهمه. ـ جاءوا ينعلوا خيل الباشا مدت أم قويق رجلها. ـ جوزوها له ما لها إلا له. ـ جوزوا مشكاح لريمة ما على الاثنين قيمة.

(حرف الحاء المهملة)

ـ حاجة لا تهمك وَصّي عليها زوج أمك. ـ حوّل حبيبي ماعونه وقدرته مع كانونه. ـ حمار حنكوه بالتوت على باب الغيط يموت. ـ حلينا القلوع وأرسينا وأصبحنا على ما أمسينا. ـ حب وداري واكره وداري. ـ حدثتني ونصحتني عايرتني وجرصتني. ـ حط فليساتك في كمك واشتر أبوك وأمك. ـ حبة قرض تخرب أرض.

(حرف الخاء المعجمة)

ـ خديني وارغبي فيه أنا حصاد ملوخية وعند الخبز آكل مية وعند الشغل ما لي نية. ـ خبثت لي وصلحت لك. ـ خذ ذا الصبي فوق صبيانك تمام لأحزانك. ـ خزينة في جرة وملحه في صرة. ـ خبزه بلا إدام ويعزم على الجيران.

(حرف الدال المهملة)

ـ دار الظالم خراب ولو بعد حين. ـ درهم لك ودرهم عليك ودرهم لا لك ولا عليك. ـ دواء ما لا تشتهي النفوس تعجيل الفراق.

(حرف الذال المعجمة)

ـ ذا درب ما يسد ريح. ـ ذي ما هي رمانة إلا قلوب ملآنة. ـ ذا لي وذا أيدي عليه. ـ ذي مائدة ما يقعد عليها طفيلي. ـ ذا الخبز ما هو من دار العميان. ـ الولد خرا من ظرفه كل من شال رجليه حك أنفه ـ ذكروا مصر القاهرة قامت باب اللوق بحشايشها. ـ ذكروا المدن جاءت القرى تحجل.

(حرف الراء المهملة)

ـ راح ذاك الزمان بناسه، وجا هذا الزمان بفاسه، وكل من تكلم بالحق كسروا راسه. ـ رأوا حجّار راكب حيط قالوا: إلى أين يا حجّار قال: مسافر. قالوا: من كانت هذه المطية مطيته لا يشرق ولا يغرب ـ رأوا سكران يقرأ قالوا: غنّ تشاكل روحك. ـ رأوا شيخاً يتهجّى قالوا: يختم على الصراط. ـ رأوا وردانة على سنداس قالوا: ما لذي الفسيقة إلا ذي البليطة. ـ رأوا على قبره مكتوب يا سعادة ساكنه قالوا أبصر من يزاحمه. ـ راكب بلاش ويناغش مراة الريس. ـ ركبتك وراي حطيت يدك في الخرج. ـ راح الجندي وخلى خلقه عندي. ـ رزق الكلاب على المجانين. ـ راسين في عمامة ما يكون. ـ راحت على جمل، وجاءت على قطة قال ما لذي الشيلة إلا ذي الحطة.

---

(١) وهذا كقولهم: صار للدبانة دكانة وصارت تسكر على بكير.

(٢) النواتية: البحّارة.

(٣) أي جاءه.

قال الشاعر:

راح الذي كنا نعيـ
ـش بفضله بين الورى
وبقي الذين حياتهم
ووجودهم مثل الخرا

(حرف الزاي المعجمة)

- زقزوق على بركة يضحك وهو ضحكة. - زاوية بلا عيش بنيت ليش. - زوج القصيرة يحسبها صغيرة. زوجت بنتي أقعد في دارها جاتني وأربعة وراها[1].

قال الشاعر:

زوجت بنتي تنستر
ويمتلي بيتي قماش
جا غزلها في أكلها
ونيكها طلع بلاش

- زنبور زن على حجر مسن، قال له: إيش تريد قال: ألحسك قال له: أنا ألحس البولاد. - زنبور زن على فلس جحش، قال له: إيش تطلب قال له: عسل. قال له: قصدت معدن يا دندن.

(حرف السين المهملة)

- سل المجرب ولا تنس الطبيب. - سَمُوك مسحر قال فرغ رمضان. - سموك حبل قال وطولت. - سَمُوك راجح قال إن شاء الله تجي الحق. - سبع وزر ولا انستر.

(قال الشاعر):

سيغنني الله عن بقراط دنٌ
ويأتي الله باللبن الحليب

وقال آخر:

سيغنني الله عن زيد وعمرو
ويأتي الله بالفرج القريب

(حرف الشين المعجمة)

- شره ووضيع ويغضب سريع. - شيء ما نابه وتقطعت ثيابه. - شعر يحلق وشعر ما يحلق. - شرب السموم القاتلة ولا الحاجة إلى السفل. - شمني ولا تدعكني. - شيء ما يجيء على القلب عنايته صعبة. - شِرًا العبد ولا تربيته. - شخت بغلة عامت زبلة. - ركبت خنفسة زمر زنبور قال: ما هذا الجوق الجليل إلا لمقطعات النيل.

(حرف الصاد المهملة)

- صام سنة وفطر على بصلة. - صبري على الحبيب ولا فقده. - صاحب يضر عدو مبين. - صباح الفَوّال ولا صباح العطّار. - صباحك يا أعور قال ذي خناقة بايتة. - صباح الخير يا جاري قال: أنت في دارك وأنا في داري.

(حرف الضاد المعجمة)

- ضرب الحبيب كأكل الزبيب. - ضربتين في الرأس تعمي[1]. - ضرب ويكي وسبق يشتكي. - ضربة على كيس غيري كأنها في عدل حنا، ضَمّنوا حِدّاية لغراب قال: الكل يطيروا. - ضربوا بياع الكسبرة خري بياع التوم، قال: ذي داهية جات على الخضرية.

(حرف الطاء المهملة)

- طارت الطيور بأرزاقها. - طفيلي ويجلس في الصدر. - طفيلي ويقترح - طويل الكم خطار قليل الفرح في الدار. - طبق وجارية على صحن بسارية. - طبلوا جاكم عثمان يد من ورا ويد من قدام. - طعامك ما جاني ودخانك عماني. - طار طيرك وأخذه غيرك. - طول ما أعيش يكفيني رعي الحشيش. - طوّل الغيبة وجانا بالخيبة.

(حرف الظاء المعجمة)

- ظُهْرَك عندي نصف الليل.

(حرف العين المهملة):

- عنقود مُدَلّي في الهوا من لا يصل إليه يقول حامض ولا استوى. - عشق بداله لا أباله. - عاشق ما يسمع بكا صغير. - عاشق ما يسمع كلام مفارق. - عاشق مقل شيء ما زرع إيش جا يستغل. - عزومة حسبت عليك كُل وبحلق عينيك. - عند المخاضة يبان القيليط. - عند الطعان يبان الفارس من الجبان. - عريان التينة وفي حزامه سكينة. - عريان وفي كمه ميزان.

(حرف الغين المعجمة)

- غابت السباع ولعبت الضباع. - غربة وكربة ما يحمل الحال. - غطّاس وقلقاس نحسين في قدرة. - غالي السوق ولا رخيص البيت.

(حرف الفاء)

- فرجة بلا كسر تعمي البصر. - فقير ونقير وكلامه كثير

(١) ومثله: زوجت بنتي لأخلص من همّا جاتني وراها ابن عمّا.

(١) ورويت أيضاً «توجع» بدل «تعمي».

ويقول هاتوا عشا من يخني. ـ فوق الشراطة ملغ ودانه. ـ فارس خرا ويسوق في الوحل. ـ فارس خرا واسمه عنتر. ـ فارس خرا ويسابق الخيل. ـ فرد ضربة في الراس تكفي. ـ فصدوا قرد ضرط قالوا به دم زايد. ـ فرغت الرعانة يا جانم.

(حرف القاف)

ـ قالوا للأعمى زوّق عصاتك قال هو أنا محب فيها. ـ قالوا للحمار اجتر قال مضغ المحال ما ينطلي. ـ قالوا للقرد شب أيادي ملاح وتمسك الماصول. ـ قالوا للقرد اطلب من ربك قال هو أنا عنده بوجه يبسط. ـ قالوا للجمل زمّر قال لا شِفَف ملمومة ولا أيادي مفرودة. ـ قالوا للدبة طرزي قالت: ذي خفة أيادي. ـ قالوا للكلاب احرثوا قالوا: ما جرت بهذا عادة. ـ قالوا للغراب ما لك تسرق الصابون قال الأذى طبعي. ـ قالوا لبقر الديوان إذا متم يكفنوكم في حرير قالوا اشتهينا نروح بجلودنا. ـ قالوا للغزالة احركي حركت ذنبها.

(حرف الكاف)

ـ كل من عودته بأكلك كلما نظرك جاع. ـ كشكار دايم ولا علامة مقطوعة[1]. ـ كل كرهاً واشرب كرهاً ولا تعاشر كرهاً. ـ كل هم كاوي عند همي ياوي. ـ كل شيء لا يشبه قانيه حرام. ـ كل مائة عصفور ما يجو حداية. ـ كل ألف مصة ما يجو بغصّة. كل ألف بوسة ما يجو بعبوسة. ـ كملت يا لحمان بالشعرة والصنان ـ كمل حبيبي كل المعاني أعرج وقيليط ومعجباني ـ كمل حبيبي وأكمل أعرج وقيليط وأحول وفيه عادة أخرى لمن يواصل يخرا ـ كأنه خان للغجر ولا يوحشه من غاب ولا يؤانسه من حضر ـ كأنه من طواحين الكشكار داير على رجل الفار. كأنه عصفور ينيك بلاش ويأوي في الأعشاش.

(حرف اللام)

ـ لولاك ياكمي ما أكلت يا فمي ـ لولاك يا لساني ما انسكيت يا قفاي[2] ـ لولا الغيرة والحسد كانت عجوزة كفت بلد ـ لولا أختك ما صرت ابن عمتك ـ لو قليناها بلية ما جات هكذا ـ لو كان فيها خير ما رماها طير ـ لك وعليك ما يصعب عليك ـ لك أسوة بغيرك ـ لقمة بدقة ولا خروف بزقة ـ لقمة تحت حيطة ولا خروف بعيطة ـ لو سلم الكرم من حارسه طابت مغارسه ـ لو تقطع يده وتدليها من فيه صنعة ما يخليها ـ لو عمل لي من الذهب وليمة هو عندي بتلك العين القديمة ـ لو شال رأسه إلى السما كأنه عصيدة بما[1] ـ لو نظر الجمل لصنمه كان كدمه ـ لولا الكشط والبراية ما كانت لأولاد الخرا كتاب.

(حرف الميم)

ـ محبة بلا حبة ما تساوي حبة ـ ما شلتك يا دمعتي إلا لشدتي ـ من عاشر غير جنسه دق الهم صدره ـ من قدم النحس تعب في تأخيره ومن عاشر الحداد احترق بناره ـ من عاشر الزبداني فاحت عليه روايحه. من ركب في غير سرجه وغرزه دخل الهوا إسته وهزه ـ من لا يحط يده لزنده ما يعرف حره من برده ـ ما رأيتك يا نور حتى ابيضت العيون ـ ما لي على فراقكم جلد إلا هجاجي من البلد ـ ما كفانا هم أبونا قام أبونا جاب أبوه، قال خذوا جدكم ربوه ـ من عدم نابه ونصابه وثيابه وشبابه كان الموت أولى به ـ من يكلم القبح يروح عرضه وينفضح. ما تنقدوهم كلهم زغليه ما فيهم من يعجب النقاد.

(حرف النون)

ـ نواية تسند الجرة قال وتسند الزير الكبير ـ نفسك أتلفت أي شيء أخلفت ـ نصف البلا ولا البلا كله ـ ناقص ونحّاس ـ ناموسة باتت على شجرة أصبحت تقول خاطرك قالت لها وأنت كنت على أي ورقة ـ نيتك مطيتك ـ نسيت يا فلاح ما كنت فيه، كعبك المشقق والوحل فيه ـ نيك حتى تبقى ديك.

(حرف الهاء)

ـ هانت الزلابية حتى أكلها بنو وائل ـ هان المسك وانتثر ـ هدية تُعرِّقوها تخليتها ولا لومها ـ هدية الأحباب على ورق السداب ـ قال هو أعمى عن ورق الموز ـ هو عرس تأكل وتنسل ـ أهدوا هدية وأعينهم فيها يقولوا الله يردها ـ هاتوا ذا الغزل المخبل لذا القلب المدبل.

(حرف الواو)

ـ واحد نتفه وآخر لقفه وقال آخر يا قريب الفرج ـ واحد بيخطبوا له وهو قائم عليه قال أنا في حاجتك ـ واحد جائز رأى قرد يجرش ترمس قال ما لذي الفاكهة البدرية إلا ذي الصورة القمرية ـ واحد سموه عنبر وصنعته سرباتي، قال الذي كسبه في الاسم خسره في الصنعة ـ وحش ويكش ويقعد في الوش ويغني بلينا بكم ـ وقت أكل الدجاج ما

(١) ومثله: ساقية جارية ولا نهر مقطوع.

(٢) أي لولا طول لساني لم أصفع على قفاي.

(١) بما أي بماء والعصيدة تكون عادة بالعسل أو السكر.

يفتكروني وفي وقت شيل التراب هات يدك ـ وإيش قام على ثومه بفصل الحكومة ـ وقت الشوا واليخني ما قلت يا أخي الحقني ووقت ضرب الدرة قلت اصفعوه واصفعوني.

(حرف اللام ألف)

ـ لا تعيرني ولا أعيرك الدهر حيرني وحيرك[1] ـ لا أصل شريف ولا وجه ظريف ـ لا أخوك ولا ابن عمك تشقق ثوبك على إيش. ـ لا عاش بليق. ـ لا حراس ولا دراس. ـ لا عاش العار ولا بنى له دار. ـ لا ربح ثوابه ولا خلاه لأصحابه. ـ لا في الفراق نجد راحة ولا في الوصل. ـ لا تشكرن فتى حتى تجربه. ـ لا تفرح لمن يروح حتى تنظر من يجي. ـ لا يضر السحاب نبح الكلاب. ـ لا يغرك تظريفي الأصل في ريفي.

(حرف الياء)

ـ يا شب مليح ما أحسن وصفك لا في يدك ولا في طرفك. ـ يا ويل من ذاق الغنى بعد جَوْعَة يموت وفي قلبه من الهم واجس. ـ يا طارق الباب بعد العشي لا تطرق الباب ما تم شي. ـ يا من ملّنا ما كان حلّنا، لسا ما لنا في العشرة سنة. ـ يهنيكم قدومه قد جاكم بشومه. ـ يا ليتنا انكسرنا ولا بك انتصرنا. ـ يا ويل من كان عشيه من بيت خيه. ـ يا طالب الشر بلا أصل تعال للصائم بعد العصر.

أمثال النساء

(حرف الألف)

ـ أحبك يا سواري مثل معصمي لا. ـ الذي في قلب أم حنين تحلم به في الليل. ـ إن كنتي حرة لا تضيعي نقابك بره. ـ إن لم تعملي وتفتخري وإلا انهري وانعفري. ـ إن كانت الداية أحن من الوالدة قال ذي داهيه عيارة. ـ الكلام لك يا جارة إلا أنت حمارة. ـ إيش تعمل الماشطة في الوجه المشؤوم. ـ إيش قام على الحزينة بالنقش والزينة. ـ إيش ينفع النفخ في الوجه الأصم. ـ أرملة عدس ومتزوجة عدس، أقعدي بعدسكي الاسم زوج والطعم الترمل. ـ العاقلة فينا تزني بيقطينا. ـ إذا كان زوجي راضي إيش فضول القاضي. ـ استعارت الرعنه شيء حسبته لها أخذت المقص ودارته لها. ـ اقعدي في عشك حتى يجي حد ينشك.

(حرف الباء الموحدة)

ـ بعد أن كنتي لي وحدي بقيت أسمع أخبارك. ـ بعد سنة وشهرين جابت بنت بشفرين. ـ بعد أن كان زوجها بقي طباخ في عرسها. ـ بعد مشيك في الحلقة بقالك سلالم وغرفة واسم ستيتة. ـ بعد أمي وأختي الكل جيراني. ـ بينما تتقب الحولة انصرف القاضي. ـ بنت الخرا تزف لابن الخرا بدف. ـ باتت ناموسة على جميزة قالت صبحك الله بالخير قالت من درى بك قبلاً. ـ بدال ما تمشي وتهزي كتفك رقعي فردة خفك. ـ بخرا[1] وتزاحم بالبوس. بقي لأم سيسي برقع وللضفدعة زمارة. ـ بعد مشيك في الخلافي لبستي الصافي. ـ بعيد على الحزينة تستعمل الزينة.

(حرف التاء)

ـ تابت القحبة يوم وليلة قالت ما بقي في البلد حكام. ـ تضاربت المجنونة والحمقا حسبته الرعنة من حقا. ـ تضارب وتتعرى وتصيح يا قلة رجالي. ـ تأخذوا أبونا وتكابرونا. ـ ترتانة وبيبانة ومفاتيح الخزانة. ـ تباهت الرعنة بشعر بنت أختها. ـ تخلوني وإلا استحل بجارنا قالت إذا كان ذا قِبلك خذيه بلا استحلال. ـ تَتَغَمَّى بالخرج ولا تخلي الغنج. ـ تقعد عيوشة في ديارتها ما لا حد حاجة في زيارتها.

(حرف الثاء)

ـ ثوب سيدي ثوب حبيبي، ثوب ستي ثوب قحبة.

(حرف الجيم)

ـ جارة بجارة والعداوة خسارة. ـ جاني عذولي ورتالي ما هي محبة إلا شماتة لي. ـ جارية وزبدية على باذنجانة مقلية. ـ جاتنا العدوة مكحلة قطران ما هي إلا غيرة وقلبها فرحان. ـ جاب ثيابه يغسلهم بلا صابونة معهم.

(حرف الحاء المهملة)

ـ حولة وتتقب بنخ. ـ حزانى ما عندهم دقيق اشتروا لهم منخل رقيق. ـ حزانى ما عندهم خبز اشتروا لهم بعشرة ملوخية. ـ حزينة وواعية. ـ حبلة ومرضعة وعلى كتفها أربعة، وطلعت الجبل تجيب دوا للحبل. ـ حولة ونصرانية لا مليحة ولا أصل طيب. ـ حزينة ما لها مملوك سمت زنبورها خوش كلدم. حزينة مَالَّهَا ملك اكترت لها بواب. ـ حزينة ما لها كاملية طلبت لها خف وشعرية.

(حرف الخاء المعجمة)

ـ خطبوها تعززت وكان زمان البوار. ـ خلت زوجها

(١) وتروى أيضاً: الهم طايلني وطايلك.

(١) البخراء: من كانت رائحة فمها كريهة.

مكروب وراحت تشوف المصلوب .ـ خذي قطيفة واكتمي سري قالت ما يطاوعني قلبي .ـ خلت ما يعنيها واتبعت حك رجليها.

(حرف الدال المهملة)

ـ دري زوجك بكتبتك تمي نهارك مع ليلتك .ـ دق من أسفل ولا تطلع ما أنت على القلب.

(حرف الذال المعجمة)

ـ ذكرت العجوز أطلالها.

(حرف الراء)

ـ رقصتي ما أحسنتي كان قعادك أجمل .ـ رعنا يضحكوا بها ومن تضحك تساعدهم .ـ رأوا جاموسة منقبة بحصير قالوا ما لذا الشكل الوضيع إلا دا القماش الرفيع ـ راحت تبيع ربعة غابت جمعة ـ راحت رجال الهيبة وبقيت رجال الخيبة ـ راحت رجال اللحم والقلقاس وبقيت رجال الخبز بالفسفاس ـ رأوا خنفسة على مكنسة قالوا ما لذي الوصيفة إلا ذا الحمار الأزعر.

(حرف الزاي)

ـ زمر بالزميميرة تبان لك العاقلة من المجينينه ـ زوجي ما حكم علي قام لي عشيقي بشمعة ـ زوجوا بنت نشادري لسرباتي قالوا قليلات الخرا تتدحرج لبعضها.

(حرف السين المهملة)

ـ سودا وتتنقش بسباخ سودا ـ منقبة قفل على خزانة ـ سألوها عن أبيها قالت جدي شعيب.

(حرف الشين المعجمة)

شدي قرطاسك من عند موسه قالوا دا شي ما فرحتي به وأنتي عروسة .ـ شامتة ومعزية.

(حرف الصاد المهملة)

ـ صارت القحبة واعظة ـ صارت القويقة شاعرة.

(حرف الضاد المعجمة)

ـ ضحك ابن سنة غمي على أمه قالت ما أخف دمه.

(حرف الطاء المهملة)

ـ طلعت تترحم نزلت تتوحم.

(حرف الظاء المعجمة):

ـ ظريفة وعفيفة ولها نفس شريفة.

(حرف العين المهملة)

ـ عميا تحفف مجنونة وتقول حواجبك سود مقرونة ـ عاقلة وجابت طفلة وجاتها خطّار واشتروا لها قلقاس ذكر وحطب أخضر في نهار مطر وقالوا لها اطبخي ـ على قدر لمحة تقع الصلحة ـ عجوزة وجابت غلام إذا جنت لا تلام ـ عجوزة وخرفانة دي داهية كمانة.

(حرف الغين المعجمة)

ـ غيرك يقوم مقامك عليش قلبي أعذبه.

(حرف الفاء)

ـ فرحت حزينة خربت مدينة.

(حرف القاف)

قالوا للمغاني اتزوقوا قلبوا عصايبهم ـ قحبة ما كنست بيتها كنست المسجد، قالوا دي قحبة تطلب الثواب ـ.

(حرف الكاف)

ـ كل من تبعت هواها صارت سراويلها رداها ـ كبرتي يا برقوقة وبقي لك دبوقة ـ كانوا مغاني صاروا ملاهي ـ لا راحت ولا جات كما هي ـ كلي قليه وياتي هنيه ـ كأنها من الباسطية قماش على جريدة ـ كأنها حزمة فجل أصفر وعرقها أخضر ـ كأنها من عمايم اليهود صفرا طويلة رفيعة ـ كأنها من بيت الوالي ما يتحدث فيها سوى الحاشية ـ كأنها ضبة جعيدي مخلوعة ولا تاخذ شي.

(حرف اللام)

لو كان ما ينقش إلا السُّمان بارت المواشط من زمان ـ للساعة ما حبلت جابت المرسين ـ لولا المعاير ما كانت الحراير.

(حرف الميم)

ـ ماشطة وتمشط بنتها ـ من افتكرنا بياسمينا ما نسينا.

(حرف النون)

ـ نواية تسند الجرة قال وتسند الزير الكبير.

(حرف الهاء)

ـ هش يا دبانا أنا حبلي من مولانا.

(حرف الواو)

ـ وجه لا يرى بالذهب يشترى.

(حرف اللام ألف)

ـ لا أنتي مليحة ولا تغني بإيش تدلي.

(حرف الياء)

ـ يعيش المدلل بلا مكلل ـ يا غزالة الأقمار أين كنتي

بالنهار ـ يا ما تحت النقاب والشعرية من كل بلية ـ يا من ملّنا ما كان حلّنا للساعة ما لنا في العشرة سنة.

الباب السابع
في البيان والبلاغة والفصاحة
وذكر الفصحاء من الرجال والنساء

وفيه فصول

الفصل الأول
في البيان والبلاغة

أما البيان فقد قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝﴾(١) وقال ﷺ: «**إن من البيان لسحرا**». قال ابن المعتز: البيان ترجمان القلوب وصيقل العقول. وأما حده فقد قال الجاحظ: البيان اسم جامع لكل ما كشف لك عن المعنى.

وأما البلاغة فإنها من حيث اللغة هي أن يقال: بلغت المكان إذا أشرفت عليه وإن لم تدخله. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾(٢). وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ﴾(٣). أي وثيقة كأنها قد بلغت النهاية.

وقال اليوناني: البلاغة وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة. **وقال الهندي**: البلاغة تصحيح الأقسام، واختيار الكلام.

وقال الكندي: يجب للبليغ أن يكون قليل اللفظ كثير المعاني.

وقيل: إن معاوية سأل عمرو بن العاص من أبلغ الناس؟ فقال: أقلهم لفظاً، وأسهلهم معنى، وأحسنهم بديهة. ولو لم يكن في ذلك الفخر الكامل لما خص به سيد العرب والعجم ﷺ وافتخر به حيث يقول: «نُصِرتُ بالرُّعْبِ وَأُوتِيتُ جَوَامعَ الكَلِم». وذلك أنه كان عليه الصلاة والسلام يتلفظ باللفظ اليسير الدال على المعاني الكثيرة.

---

(١) سورة الرحمن، الآيات (١ ـ ٤).
(٢) سورة الطلاق، الآية (٢).
(٣) سورة القلم، الآية (٣٩).

وقيل: ثلاثة تدل على عقول أصحابها، الرسول على عقل المرسل، والهدية على عقل المهدي، والكتاب على عقل الكاتب.

وقال أبو عبد الله وزير المهدي: البلاغة ما فهمته العامة ورضيت به الخاصة. **وقال البحتري**: خير الكلام ما قل وجل ودل ولم يمل.

وقالوا: البلاغة ميدان لا يقطع إلا بسوابق الأذهان، ولا يسلك إلا ببصائر البيان.

وقال الشاعر:

لك البلاغة ميدانٌ نشأت به
وكلّنا بقصور عنك نعترفُ
مَهِّد لي العذر فِي نظم بعثت به
من عنده الدرّ لا يُهدى له الصَّدفُ

ورُوي أن ليلى الأخيلية مدحت الحجاج فقال يا غلام: اذهب إلى فلان، فقل له يقطع لسانها، قال: فطلب حجاماً فقالت: ثكلتك أمك إنما أمرك أن تقطع لساني بالصلة، فلولا تبصرها بأنحاء الكلام ومذاهب العرب والتوسعة في اللفظ ومعاني الخطاب لتم عليها جهل هذا الرجل.

وقال الثعالبي: البليغ من يحول الكلام على حسب الأمالي، ويخيط الألفاظ على قدر المعاني. والكلام البليغ ما كان لفظه فحلاً، ومعناه بكراً.

وقال الإمام فخر الدين الرازي رحمة الله تعالى عليه في حد البلاغة: إنها بلوغ الرجل بعبارته كنه ما في قلبه مع الاحتراز عن الإيجاز المخل، والتطويل الممل، ولهذه الأصول شعب وفصول لا يحتمل كشفها هذا المجموع ويحصل الغرض بهذا القدر وبالله التوفيق إلى أقوم طريق.

الفصل الثاني
في الفصاحة

قال الإمام فخر الدين الرازي رحمة الله تعالى عليه: إعلم أن الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد، وأصلها من قولهم أفصح اللبن إذا أخذت عنه الرغوة. وأكثر البلغاء لا يكادون يفرقون بين البلاغة والفصاحة، بل يستعملونهما استعمال الشيئين المترادفين على معنى واحدة في تسوية الحكم بينهما. ويزعم بعضهم أن البلاغة في المعاني، والفصاحة في الألفاظ، ويستدل بقولهم معنى بليغ ولفظ فصيح.

وقال يحيى بن خالد: ما رأيت رجلاً قط إلا هبته حتى

يتكلم، فإن كان فصيحاً عظم في صدري، وإن قصر سقط من عيني.

وقد اختلف الناس في الفصاحة، فمنهم من قال: إنها راجعة إلى الألفاظ دون المعاني، ومنهم من قال: إنها لا تخص الألفاظ وحدها. واحتج من خص الفصاحة بالألفاظ بأن قال: نرى الناس يقولون هذا لفظ فصيح، وهذه الألفاظ فصيحة، ولا نرى قائلاً يقول: هذا معنى فصيح، فدل على أن الفصاحة من صفات الألفاظ دون المعاني.

وإن قلنا إنها تشمل اللفظ والمعنى لزم من ذلك تسمية المعنى بالفصيح، وذلك غير مألوف في كلام الناس، والذي أراه في ذلك أن الفصيح هو اللفظ الحسن المألوف في الاستعمال بشرط أن يكون معناه المفهوم منه صحيحاً حسناً.

ومن المستحسن في الألفاظ تباعد مخارج الحروف، فإذا كانت بعيدة المخارج جاءت الحروف متمكنة في مواضعها غير قلقة ولا مكدودة، والمعيب من ذلك كقول القائل:

لو كنتَ كنتَ كتمت الحبّ كنت كما
كنّا وكنت ولكن ذاك لم يكن

وكقول بعضهم أيضاً:

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه
ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

وكقول الآخر:

وقبر حرب بمكان قفر
وليس قرب قبر حرب قبرُ

قيل: إن هذا البيت لا يمكن إنشاده في الغالب عشر مرات متوالية إلا ويغلط المنشد فيه لأن القرب في المخارج يحدث ثقلاً في النطق به.

وقيل: من عرف بفصاحة اللسان لحظته العيون بالوقار. وبالفصاحة والبيان استولى يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام على مصر وملك زمام الأمور وأطلعه ملكها على الخفي من أمره والمستور.

قال الشاعر:

لسان الفتى نِصْفٌ ونِصْفٌ فُؤَادُهُ
فَلَم يَبْقَ إلاّ صورةَ اللّحم والدّم

وسمع النبي ﷺ من عمه العباس كلاماً فصيحاً فقال: بارك الله لك يا عم في جمالك. أي فصاحتك.

وعرضت على المتوكل جارية شاعرة، فقال أبو العيناء[1] يستجيزها: أحمد الله كثيراً. فقالت: حيث أنشاك ضريراً. فقال: يا أمير المؤمنين قد أحسنت في إساءتها فاشترها.

وقال فيلسوف: كما أن الآنية تمتحن بأطيانها، فيعرف صحيحها من مكسورها، فكذلك الإنسان يعرف حاله من مَنْطِقِهِ.

وقال المبرد: قلت للمجنون: أجزني هذا البيت:

أرى اليوم يوماً قد تكاثف غيمُهُ
وإبراقه فاليوم لا شك ماطر

فقال:

وقد حجبت فيه السحائبُ شمسَه
كما حجبت وردَ الخدود المحاجرُ

وقال عبد الملك لرجل: حدثني، فقال: يا أمير المؤمنين افتتح، فإن الحديث يفتح بعضه بعضاً.

وقال الهيثم بن صالح لابنه: يا بني إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب، قال: يا أبت فإن أنا أكثرت وأكثرت؟، يعني كلاماً وصواباً، قال: يا بني، ما رأيت موعوظاً أحق بأن يكون واعظاً منك.

وقال الشعبي: كنت أحدث عبد الملك بن مروان وهو يأكل فيحبس اللقمة فأقول: أجزها أصلحك الله، فإن الحديث من وراء ذلك، فيقول: والله لحديثك أحب إليّ منها.

وقال ابن عيينة: الصمت منام العلم، والنطق يقظته، ولا منام إلا بتيقظ ولا يقظة إلا بمنام.

قال ابن المبارك:

وهذا اللسان بريدُ الفؤاد
يدلّ الرجالَ على عقلهِ

ومر رجل بأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، ومعه ثوب، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: أتبيعه؟ فقال: لا، رحمك الله، فقال أبو بكر: لو تستقيمون لقُوِّمَتْ ألسنتكم، هلّا قلت: لا ورحمك الله.

ومنه: ما حكي أن المأمون سأل يحيى بن أكثم عن

---

(١) هو محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر الهاشمي ولاءً، أديب فصيح وشاعر ظريف توفي بالبصرة سنة ٢٨٣ هـ.

شيء، فقال: لا، وأيد الله أمير المؤمنين، فقال المأمون: ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها.

وكان الصاحب يقول: هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ. ويقال: اللسان سبع صغير الجرم عظيم الجرم(١).

وقال بعضهم شعراً:

سحبان يقصر عن بحور بيانه
عجزاً ويغرق منه تحت عبابِ
وكذاك قسٌ ناطقٌ بعكاظه
يعيا لديه بحجةٍ وجواب(٢)

وقيل أنه حج مع ابن المنكدر شابان، فكانا إذا رأيا امرأة جميلة قالا: قد أبرقنا، وهما يظنان أن ابن المنكدر لا يفطن، فرأيا قبة فيها امرأة، فقالا: بارقة، وكانت قبيحة، فقال ابن المنكدر: بل صاعقة.

وكان أصحاب أبي علي الثقفي إذا رأوا امرأة جميلة يقولون: حُجَّة، فعرضت لهم قبيحة، فقالوا: داحضة(٣). وكتب إبراهيم بن المهدي: إياك والتتبع لِوَحْشِيِّ الكلام طمعاً في نيل البلاغة، فإن ذلك العناء الأكبر، وعليك بما سهل مع تجنبك الألفاظ السفل.

ويقال: القول على حسب همة القائل يقع والسيف بقدر عضد الضارب يقطع.

وقال الأحنف: سمعت كلام أبي بكر حتى مضى، وكلام عمر حتى مضى، وكلام عثمان حتى مضى، وكلام علي حتى مضى رضي الله تعالى عنهم، ولا والله ما رأيت فيهم أبلغ من عائشة.

وقال معاوية رضي الله تعالى عنه: ما رأيت أبلغ من عائشة رضي الله تعالى عنها، ما أغلقت باباً فأرادت فتحه إلا فتحته، ولا فتحت باباً فأرادت إغلاقه إلا أغلقته.

ومن غريب الكنايات الواردة على سبيل الرمز، وهو من الذكاء والفصاحة: ما حكي أن رجلاً كان أسيراً في بني بكر بن وائل وعزموا على غزو قومه، فسألهم في رسول يرسله إلى قومه، فقالوا: لا ترسله إلا بحضرتنا لئلا تنذرهم وتحذرهم، فجاءوا بعبد أسود، فقال له: أتعقل ما أقوله لك، قال: نعم إني لعاقل، فأشار بيده إلى الليل، فقال: ما هذا؟ قال: الليل. قال: ما أراك إلا عاقلاً، ثم ملأ كفيه من الرمل وقال: كم هذا؟ قال: لا أدري وإنه لكثير، فقال: أيما أكثر، النجوم أم النيران؟ قال: كُلٌّ كثير، فقال: أبلغ قومي التحية، وقل لهم يكرموا فلاناً يعني أسيراً كان في أيديهم من بكر بن وائل، فإن قومه لي مكرمون، وقل لهم إن العرفج قد دنا وشكت النساء، وأمُرْهُم أن يُعْرُوا ناقتي الحمراء فقد أطالوا ركوبها، وأن يركبوا جملي الأصهب بأمارة ما أكلت معكم حيساً، واسألوا عن خبري أخي الحارث. فلما أدى العبد الرسالة إليهم قالوا: لقد جُنَّ الأعور، والله ما نعرف له ناقة حمراء ولا جملاً أصهب، ثم دعوا بأخيه الحارث فقصوا عليه القصة، فقال: قد أنذركم، أما قوله: قد دنا العرفج، يريد أن الرجال قد استلأموا ولبسوا السلاح وأما قوله: شكت النساء أي أخذت الشكاء للسفر، وأما قوله: أعروا ناقتي الحمراء أي ارتحلوا عن الدهناء، واركبوا الجمل الأصهب، أي الجبل. وأما قوله: أكلت معكم حيساً، أي أن أخلاطاً من الناس قد عزموا على غزوكم لأن الحيس يجمع التمر والسمن والأقط، فامتثلوا أمره وعرفوا لحن الكلام وعملوا به فنجوا.

وأسرت طيء غلاماً من العرب، فقدم أبوه ليفديه، فاشتطوا عليه، فقال أبوه: والذي جعل الفرقدين يمسيان ويصبحان على جبل طيء ما عندي غير ما بذلته ثم انصرف، وقال: لقد أعطيته كلاماً إن كان فيه خير فهمه، فكأنه قال له: إلزم الفرقدين يعني في هروبك على جبل طيء، ففهم الإبن ما أراده أبوه وفعل ذلك فنجى.

وكانت علية بنت المهدي تهوى غلاماً خادماً اسمه طل، فحلف الرشيد أن لا تكلمه ولا تذكره في شعرها، فاطلع الرشيد يوماً عليها وهي تقرأ في آخر سورة البقرة، ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ﴾، فالذي نهى عنه أمير المؤمنين.

ومن ذلك قولهم: تركت فلاناً يأمر وينهى وهو على شرف الموت، أي يأمر بالوصية وينهى عن النوح، ويقال: ما رأيت فلاناً، أي ما ضربته في رئته، ولا كلّمته أي ما جرحته، فإن الكلوم الجراح، وما رأيت ربيعاً، فالربيع حظ الأرض من الماء، والربيع النهر، وما رأيت كافراً ولا فاسقاً، فالكافر السحاب والفاسق الذي تجرد من ثيابه، وما رأيت فلاناً راكعاً ولا ساجداً ولا مصلّياً، فالراكع العاثر الذي كبا لوجهه، والساجد المدمن النظر، والمصلّي الذي يجيء بعد السابق، وما أخذت لفلان دجاجة ولا فروجاً،

---

(١) أي صغير الحجم عظيم الأثر.

(٢) المراد بقس هنا قس بن ساعدة الإيادي كان يأتي سوق عكاظ ويعظ الناس وكان فيما يقال على الإبراهيمية وقيل كان من الذين أدركوا ضلال قومهم في الفترة.

(٣) الحجة الداحضة: هي الحجة المردودة لبطلانها.

فالدجاجة الكبة من الغزل، والفروجة الدراعة، وما أخذت لفلان بقرة ولا ثوراً. فالبقرة العيال الكثيرة. يقال: جاء فلان يسوق بقرة، أي عياله، والثور القطعة الكبيرة من الأقط.

وحكي أن معاوية رضي الله تعالى عنه بينما هو جالس في بعض مجالسه وعنده وجوه الناس فيهم الأحنف بن قيس إذ دخل رجل من أهل الشام، فقام خطيباً، وكان آخر كلامه أن لعن علياً رضي الله تعالى عنه ولعن لاعنه، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين إن هذا القائل لو يعلم أن رضاك في لعن المرسلين للعنهم، فاتق الله يا أمير المؤمنين ودع عنك علياً رضي الله تعالى عنه، فلقد لقي ربه، وأفرد في قبره، وخلا بعمله، وكان والله المبرور سيفه الطاهر ثوبه العظيمة مصيبته، فقال معاوية: يا أحنف لقد تكلمت بما تكلمت، وأيم الله لتصعدن على المنبر فتلعنه طوعاً أو كرهاً، فقال له الأحنف: يا أمير المؤمنين إن تعفني فهو خير لك وإن تجبرني على ذلك، فوالله لا تجري شفتاي به أبداً، فقال: قم فاصعد، قال: أما والله لأنصفنك في القول، والفعل، قال: وما أنت قائل إن أنصفتني، قال: أصعد المنبر، فأحمد الله وأثني عليه، وأصلي على نبيه محمد ﷺ ثم أقول: أيها الناس، إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن علياً، ألا وإن معاوية وعلياً اقتتلا فاختلفا، فادعى كل واحد منهما أنه مبغي عليه وعلى فئته، فإذا دعوت فأمنوا رحمكم الله، ثم أقول اللهم العن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه، والعن الفئة الباغية، اللهم العنهم لعناً كثيراً أمنوا رحمكم الله. يا معاوية لا أزيد على هذا ولا أنقص حرفاً ولو كان فيه ذهاب روحي. فقال معاوية: إذاً نعفيك يا أبا بحر.

وقال معاوية لعقيل بن أبي طالب: إن علياً قد قطعك وأنا وصلتك ولا يرضيني منك إلا أن تلعنه على المنبر قال: أفعل، فصعد المنبر، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ﷺ: أيها الناس إن معاوية بن أبي سفيان قد أمرني أن ألعن علي بن أبي طالب، فالعنوه فعليه لعنة الله، ثم نزل، فقال له معاوية: إنك لم تبين من لعنت منهما بَيِّنْهُ، فقال: والله لا زدت حرفاً ولا نقصت حرفاً، والكلام إلى نية المتكلم.

ودخلت امرأة على هرون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقالت: يا أمير المؤمنين: أقر الله عينك، وفرحك بما آتاك، وأتم سعدك لقد حكمت فقسطت، فقال لها: من تكونين أيتها المرأة. فقالت: من آل برمك ممن قتلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم. فقال: أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله، ونفذ فيهم قدره، وأما المال فمردود إليك، ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه، فقال: أتدرون ما قالت هذه المرأة، فقالوا: ما نراها قالت إلا خيراً. قال: ما أظنكم فهمتم ذلك، أما قولها أقر الله عينك، أي أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأما قولها: وفرّحك بما آتاك، فأخذته من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾[1] وأما قولها: وأتم الله سعدك، فأخذته من قول الشاعر:

إذا تــمَّ أمــرٌ بــدا نــقــصُــهُ
تــرقَّــبْ زوالاً إذا قــيــل، تــمْ

وأما قولها لقد حكمت فقسطت، فأخذته من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾[2]، فتعجبوا من ذلك.

وحكي: أن بعضهم دخل على عدوه من النصارى، فقال له: أطال الله بقاءك، وأقر عينك، وجعل يومي قبل يومك، والله إنه ليسرني ما يسرك، فأحسن إليه، وأجازه على دعائه، وأمر له بصلة، وكان ذلك دعاء عليه لأن معنى قوله: أطال الله بقاءك، حصول منفعة المسلمين به في أداء الجزية، وأما قوله: وأقر عينك، فمعناه سكن الله حركتها أي أعماها، وأما قوله: وجعل يومي قبل يومك، أي جعل الله يومي الذي أدخل فيه الجنة قبل يومك الذي تدخل فيه النار، وأما قوله: إنه ليسرني ما يسرك، فإن العافية تسره كما تسر الآخر. فانظر إلى الاشتراك وفائدته، ولولا الاشتراك ما تهيأ لمتستر مراد ولا سلم له في التخلص قياد.

وكان حماد الراوية لا يقرأ القرآن، فكلفه بعض الخلفاء القراءة في المصحف، فصحف في نيف وعشرين موضعاً من جملتها قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾[3] بالغين المعجمة والسين المهملة[4]. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ

---

(١) سورة الأنعام، الآية (٤٤).
(٢) سورة الجن، الآية (١٥).
(٣) سورة النحل، الآية (٦٨).
(٤) أي قال: «يغرسون» لأن المصاحف كانت بغير نقط ولا شكل فقد أصاب المعنى لمعرفته بالعربية وإن لم يصب اللفظ الصحيح.

لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾[1] بالباء الموحدة ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[2] بالباء الموحدة. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾[3] بالجيم والباء الموحدة ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾[4] بالزاي وترك الهمزة ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾[5] بالسين المهملة ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾[6] بالنون والعين المهملة. ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى﴾[7] بإسقاط التاء. ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝﴾[8] بالغين المعجمة والراء المهملة قرن الشقاق بالغرة، وهذا لا يقع إلا من الأذكياء.

وحكي أن المأمون ولّى عاملاً على بلاد، وكان يعرف منه الجور في حكمه، فأرسل إليه رجلاً من أرباب دولته ليمتحنه، فلما قدم عليه أظهر له أنه قدم في تجارة لنفسه، ولم يعلمه أن أمير المؤمنين عنده علم منه، فأكرم نزله وأحسن إليه، وسأله أن يكتب كتاباً إلى أمير المؤمنين المأمون يشكر سيرته عنده ليزداد فيه أمير المؤمنين رغبة، فكتب كتاباً فيه بعد الثناء على أمير المؤمنين: أما بعد، فقد قدمنا على فلان، فوجدناه آخذاً بالعزم، عاملاً بالحزم، قد عدل بين رعيته، وساوى في أقضيته، أغنى القاصد، وأرضى الوارد، وأنزلهم منه منازل الأولاد، وأذهب ما بينهم من الضغائن والأحقاد، وعمّر منهم المساجد الدائرة، وأفرغهم من عمل الدنيا، وشغلهم بعمل الآخرة، وهم مع ذلك داعون لأمير المؤمنين يريدون النظر إلى وجهه والسلام. فكان معنى قوله: آخذاً بالعزم، أي إذا عزم على ظلم أو جور، فعله في الحال، وقوله: قد عدل بين رعيته وساوى في أقضيته، أي أخذ كل ما معهم حتى ساوى بين الغني والفقير، وقوله: عمّر منهم المساجد الدائرة، وأفرغهم من عمل الدنيا، وشغلهم بعمل الآخرة، يعني أن الكل صاروا فقراء لا يملكون شيئاً من الدنيا، ومعنى قوله: يريدون النظر إلى وجه أمير المؤمنين، أي ليشكوا حالهم وما نزل بهم. فلما جاء الكتاب إلى المأمون عزله عنهم لوقته، وولّى عليهم غيره.

(١) سورة التوبة، الآية (١١٤).
(٢) سورة القصص، الآية (٨).
(٣) سورة لقمان، الآية (٣٢).
(٤) سورة مريم، الآية (٧٤).
(٥) سورة الأعراف، الآية (١٥٦).
(٦) سورة البقرة، الآية (١٣٨).
(٧) سورة القصص، الآية (٥٥).
(٨) سورة صٓ، الآية (٢).

ومن ذلك ما حكي أن القاضي الفاضل كان له صديق خصيص[1] به، وكان صديقه هذا قريباً من الملك الناصر صلاح الدين، وكان فيه فضيلة تامة، فوقع بينه وبين الملك أمر، فغضب عليه، وهمّ بقتله، فتسحب إلى بلاد التتر، وتوصل إلى أن صار وزيراً عندهم، وصار يعرف التتر كيف يتوصل إلى الملك الناصر بما يؤذيه، فلما بلغه ذلك نفر منه وقال للفاضل: اكتب إليه كتاباً عرّفه فيه أنني أرضى عليه، واستعطفه غاية الاستعطاف إلى أن يحضر، فإذا حضر قتلته، واسترحت منه، فتحير الفاضل بين الاثنين، صديقه يعز عليه، والملك لا يمكنه مخالفته، فكتب إليه كتاباً واستعطفه غاية الاستعطاف، ووعده بكل خير من الملك، فلما انتهى الكتاب ختمه بالحمدلة والصلاة والسلام على النبي ﷺ وكتب إن شاء الله تعالى كما جرت به العادة في الكتب، فشدد «إن» ثم أوقف الملك على الكتاب قبل ختمه، فقرأه في غاية الكمال وما فهم إن، وكان قصد الفاضل ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾[2]، فلما وصل الكتاب إلى الرجل فهمه، وكتب جوابه بأنه سيحضر عاجلاً، فلما أراد أن ينهي الكتاب، ويكتب إن شاء تعالى مد النون وجعل في آخرها ألفاً وأراد بذلك ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا﴾[3] فلما وصل الكتاب إلى الفاضل فهم الإشارة، ثم أوقف الملك على الجواب بخطه، ففرح بذلك.

وحكي: أن بعض الملوك طلع يوماً إلى أعلى قصره يتفرج، فلاحت منه التفاتة، فرأى امرأة على سطح دار إلى جانب قصره لم ير الراؤون أحسن منها، فالتفت إلى بعض جواريه، فقال لها: لمنْ هذه؟ فقالت: يا مولاي هذه زوجة غلامك فيروز، قال: فنزل الملك وقد خامره حبها، وشغف بها، فاستدعى بفيروز، وقال له: يا فيروز، قال: لبيك يا مولاي، قال: خذ هذا الكتاب وامض به إلى البلد الفلانية، وائتني بالجواب، فأخذ فيروز الكتاب، وتوجه إلى منزله، فوضع الكتاب تحت رأسه، وجهّز أمره، وبات ليلته، فلما أصبح ودع أهله وسار طالباً لحاجة الملك، ولم يعلم بما قد دبره الملك، وأما الملك فإنه لما توجه فيروز قام مسرعاً وتوجه متخفياً إلى دار فيروز، فقرع الباب قرعاً خفيفاً، فقالت امرأة فيروز: من بالباب؟ قال: أنا

(١) أي أختص به فقرّبه إليه ولم يستر عنه أمراً من أموره.
(٢) سورة القصص، الآية (٢٠).
(٣) سورة المائدة، الآية (٢٤).

الملك سيد زوجك، ففتحت له، فدخل وجلس، فقالت له: أرى مولانا اليوم عندنا، فقال: زائر. فقالت: أعوذ بالله من هذه الزيارة. وما أظن فيها خيراً، فقال لها: ويحك إنني الملك سيد زوجك، وما أظنك عرفتني فقالت: بل عرفتك يا مولاي، ولقد علمت أنك الملك، ولكن سبقتك الأوائل في قولهم:

سأترك ماءكم من غير وِرْدِ
وذاك لكثرة الوُرّاد فيه[1]

إذا سقط الذباب على طعام
رفعت يدي ونفسي تشتهيهِ

وتجتنب الأسودُ ورودَ ماءٍ
إذا كان الكلاب وَلَغْنَ فيه[2]

ويرتجع الكريم خميصَ بطنٍ
ولا يرضى مساهمة السفيه[3]

وما أحسن يا مولاي قول الشاعر:

قلْ للذي شَفَّهُ الغرام بنا
وصاحبِ الغدر غير مصحوب

والله لا قال قائلٌ أبداً
قد أكلَ الليثُ فضلةَ الذيبِ

ثم قالت: أيها الملك تأتي إلى موضع شرب كلبك تشرب منه، قال: فاستحيا الملك من كلامها وخرج وتركها، فنسي نعله في الدار، هذا ما كان من الملك.

وأما ما كان من فيروز، فإنه لما خرج وسار تفقد الكتاب، فلم يجده معه في رأسه، فتذكر أنه نسيه تحت فراشه، فرجع إلى داره، فوافق وصوله عقب خروج الملك من داره، فوجد نعل الملك في الدار، فطاش عقله، وعلم أن الملك لم يرسله في هذه السفرة إلا لأمر يفعله، فسكت ولم يبد كلاماً، وأخذ الكتاب، وسار إلى حاجة الملك، فقضاها، ثم عاد إليه، فأنعم عليه بمائة دينار، فمضى فيروز إلى السوق، واشترى ما يليق بالنساء، وهيأ هدية حسنة وأتى إلى زوجته، فسلم عليها، وقال لها: قومي إلى زيارة بيت أبيك، قالت وما ذاك؟ قال: إن الملك أنعم علينا وأريد أن تظهري لأهلك ذلك.

قالت: حباً وكرامة، ثم قامت من ساعتها، وتوجهت إلى بيت أبيها، ففرحوا بها، وبما جاءت به معها، فأقامت عند أهلها شهراً، فلم يذكرها زوجها ولا ألم بها، فأتى إليه أخوها، وقال له يا فيروز: إما أن تخبرنا بسبب غضبك، وإما أن تحاكمنا إلى الملك، فقال: إن شئتم الحكم، فافعلوا، فما تركت لها عليَّ حقاً، فطلبوه إلى الحكم، فأتى معهم.

وكان القاضي إذ ذاك عند الملك جالساً إلى جانبه، فقال أخو الصبية: أيد الله مولانا قاضي القضاة إني أجُرت هذا الغلام بستاناً سالم الحيطان ببئر ماء معين عامرة، وأشجار مثمرة، فأكل ثمره، وهدم حيطانه، وأخرب بئره، فالتفت القاضي إلى فيروز، وقال له: ما تقول يا غلام؟

فقال فيروز: أيها القاضي قد تسلمت هذا البستان وسلمته إليه أحسن ما كان، فقال القاضي: هل سلم إليك البستان كما كان؟

قال: نعم، ولكن أريد منه السبب لرده.

قال القاضي: ما قولك؟

قال: والله يا مولاي ما رددت البستان كراهة فيه، وإنما جئت يوماً من الأيام، فوجدت فيه أثر الأسد، فخفت أن يغتالني، فحرمت دخول البستان إكراماً للأسد، قال: وكان الملك متكئاً فاستوى جالساً، وقال: يا فيروز ارجع إلى بستانك آمناً مطمئناً، فوالله إن الأسد دخل البستان ولم يؤثر فيه أثراً، ولا التمس منه ورقاً، ولا ثمراً ولا شيئاً، ولم يلبث فيه غير لحظة يسيرة، وخرج من غير بأس، ووالله ما رأيت مثل بستانك، ولا أشد احترازاً من حيطانه على شجره، قال: فرجع فيروز إلى داره، ورد زوجته، ولم يعلم القاضي ولا غيره بشيء من ذلك والله أعلم.

وهذا كله مما يأتي به الإنسان من غرائب الكنايات الواردة على سبيل الرمز، ومنه ما يجده المتستر في أمره من الراحة في كتمان حاله مع لزوم الصدق، ورضا الخصم بما وافق مراده لأن في المعاريض مندوحة عن الكذب.

كما روي في غزوة بدر أن النبي ﷺ كان سائراً بأصحابه يقصد بدراً، فلقيهم رجل من العرب فقال: ممن القوم؟ فقال له النبي ﷺ: من ماء. أخذ ذلك الرجل يفكر ويقول: من ماء من ماء يرددها لينظر أي العرب يقال لهم ماء، فسار النبي ﷺ بأصحابه لوجهته، وكان قصده أن يكتم أمره وقد صدق رسول الله ﷺ في قوله، فإن الله عز وجل قال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۞﴾[1].

---

(١) ورد الماء: قصده وشرب منه.
(٢) يقال لشرب الكلب ولوغ لأنه يدخل فمه كله في الماء.
(٣) خميص البطن: جائع. مساهمة السفيه: مشاركته.

(٤) سورة الطارق، الآيتان (٥ ـ ٦).

وكما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال للكافر الذي سأله عن رسول الله ﷺ وقت ذهابهما إلى الغار: هو رجل يهديني السبيل، وقد صدق فيما قال رضي الله عنه، فقد هداه الله وهدانا السبيل، ولا سبيل أوضح ولا أقوم من الإسلام.

وكما حُكي عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه لما سأله بعض المعتزلة بحضرة الرشيد ما تقول في القرآن؟ فقال الشافعي: إياي تعني، قال: نعم. قال: مخلوق، فرضي خصمه منه بذلك، ولم يرد الشافعي إلا نفسه. وكما حكي عن ابن الجوزي رحمه الله تعالى أنه سئل وهو على المنبر وتحته جماعة من مماليك الخليفة وخاصته، وهم فريقان قوم سنية وقوم شيعة، فقيل له: من أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر أم علي رضي الله عنهما، فقال: أفضلهما بعده من كانت ابنته تحته، فأرضى الفريقين ولم يرد إلا أبا بكر رضي الله عنه لأن الضمير في ابنته يعود إلى أبي بكر رضي الله عنه، وهي عائشة رضي الله عنها، وكانت تحت رسول الله ﷺ، والشيعة ظنوا أن الضمير في ابنته يعود إلى رسول الله ﷺ وهي فاطمة رضي الله عنها، وكانت تحت علي رضي الله عنه، فهذه منه جيدة حسنة وكلمة باتت جفون الفريقين منها وسنة، والله أعلم.

الفصل الثالث

في ذكر الفصحاء من الرجال

دخل الحسن بن الفضل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم، فأحب الحسن أن يتكلم، فزجره وقال: يا صبي تتكلم في هذا المقام؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت صبياً، فلست بأصغر من هدهد سليمان ولا أنت بأكبر من سليمان عليه السلام حين قال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾(١)، ثم قال: ألم تر أن الله فهم الحكم سليمان ولو كان الأمر بالكبر لكان داود أولى.

ولما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز، أتته الوفود، فإذا فيهم وفد الحجاز، فنظر إلى صبي صغير السن، وقد أراد أن يتكلم فقال: ليتكلم من هو أسن منك، فإنه أحق بالكلام منك، فقال الصبي: يا أمير المؤمنين لو كان القول كما تقول لكان في مجلسك هذا من هو أحق به منك، قال: صدقت، فتكلم، فقال: يا أمير المؤمنين: إنا قدمنا عليك من بلد تحمد الله الذي مَنّ علينا بك، ما قدمنا عليك رغبة منا ولا رهبة منك، أما عدم الرغبة، فقد أمنا بك في منازلنا، وأما عدم الرهبة، فقد أمنا جورك بعدلك، فنحن وفد الشكر والسلام. فقال له عمر رضي الله عنه: عظني يا غلام. فقال: يا أمير المؤمنين إن أناساً غرّهم حلم الله وثناء الناس عليهم، فلا تكن ممن يغره حلم الله وثناء الناس عليه، فتزل قدمك وتكون من الذين قال الله فيهم ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝﴾(١). فنظر عمر في سن الغلام فإذا له اثنتا عشرة سنة، فأنشدهم عمر رضي الله تعالى عنه:

تعلّمْ فليس المرءُ يولد عالماً
وليس أخو علمٍ كمنْ هو جاهلُ
فإنّ كبير القوم لا علم عنده
صغير إذا التفّت عليه المحافل

وحكي: أن البادية قحطت في أيام هشام، فقدمت عليه العرب، فهابوا أن يكلموه، وكان فيهم درواس بن حبيب، وهو ابن ست عشرة سنة، له ذؤابة، وعليه شملتان، فوقعت عليه عين هشام، فقال لحاجبه: ما شاء أحد أن يدخل عليّ إلا دخل، حتى الصبيان، فوثب درواس حتى وقف بين يديه مُطرِقاً فقال: يا أمير المؤمنين إن للكلام نشراً وطياً، وإنه لا يعرف ما في طيه إلا بنشره، فإن أذن لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته، فأعجبه كلامه، وقال له: انشره لله درك، فقال: يا أمير المؤمنين إنه أصابتنا سنون ثلاث، سنة أذابت الشحم وسنة أكلت اللحم، وسنة دقت العظم، وفي أيديكم فضول مال، فإن كانت لله ففرقوها على عباده، وإن كانت لهم، فعلام تحبسونها عنهم، وإن كانت لكم، فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين، فقال هشام: ما ترك الغلام لنا في واحدة من الثلاث عذراً، فأمر للبوادي بمائة ألف دينار، وله بمائة ألف درهم، ثم قال له: ألك حاجة؟ قال: ما لي حاجة في خاصة نفسي دون عامة المسلمين، فخرج من عنده وهو من أجلّ القوم.

وقيل: إن سعد بن ضمرة الأسدي لم يزل يُغِير على النعمان بن المنذر يستلب أمواله حتى عيل صبره(٢)، فبعث إليه يقول إن لك عندي ألف ناقة على أنك تدخل في طاعتي، فوفد عليه وكان صغير الجثة، اقتحمته عينه

---

(١) سورة النمل، الآية (٢٢).

(١) سورة الأنفال، الآية (٢١).
(٢) أي فقد صبره وقدرته على الاحتمال.

وتنقصه[1]، فقال: مهلاً أيها الملك إن الرجال ليسوا بعظم أجسامهم، وإنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، إن نطق نطق ببيان، وإن صال صال بجنان[2]، ثم أنشأ يقول:

يا أيها الملك المرجوّ نائله
إني لمن معشرٍ شُمّ الذرى زهرِ[3]
فلا تغرّنك الأجسامُ إنّ لنا
أحلام عادٍ وإن كنّا إلى قصرِ
فكم طويل إذا أبصرت جثته
تقول هذا غداة الروع ذو ظفرِ[4]
فإن ألمّ به أمر فأفظعه
رأيته خاذلاً بالأهل والزُّمَرِ[5]

فقال: صدقت، فهل لك علم بالأمور، قال: إني لأنقض منها المفتول، وأبرم منها المحلول، وأجيلها حتى تجول، ثم أنظر فيها إلى ما تؤول، وليس للدهر بصاحب من لا ينظر في العواقب. قال: فتعجب النعمان من فصاحته وعقله، ثم أمر له بألف ناقة وقال له: يا سعد إن أقمت واسيناك، وإن رحلت وصلناك، فقال: قرب الملك أحب إليّ من الدنيا وما فيها، فأنعم عليه وأدناه، وجعله من أخص ندمائه.

وحكي: أن هرقل ملك الروم كتب إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يسأله عن الشيء ولا شيء، وعن دين لا يقبل الله غيره، وعن مفتاح الصلاة، وعن غرس الجنة، وعن صلاة كل شيء، وعن أربعة فيهم الروح، ولم يركضوا في أصلاب الرجال وأرحام النساء، وعن رجل لا أب له، وعن رجل لا أم له، وعن قبر جرى بصاحبه، وعن قوس قزح ما هو، وعن بقعة طلعت عليها الشمس مرة واحدة ولم تطلع عليها قبلها ولا بعدها، وعن ظاعن ظعن مرة واحدة، ولم يظعن قبلها ولا بعدها، وعن شجرة نبتت من غير ماء، وعن شيء تنفس ولا روح له، وعن اليوم وأمس وغد وبعد غد، وعن البرق والرعد وصوته، وعن المحو الذي في القمر. فقيل لمعاوية لست هناك ومتى أخطأت في شيء من ذلك سقطت من عينه، فاكتب إلى ابن عباس يخبرك عن هذه المسائل، فكتب إليه، فأجابه، أما الشيء فالماء، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[1]. وأما لا شيء فإنها الدنيا تبيد وتفنى، وأما دين لا يقبل الله غيره، فلا إله إلا الله، وأما مفتاح الصلاة، فالله أكبر، وأما غرس الجنة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأما صلاة كل شيء، فسبحان الله وبحمده، وأما الأربعة الذين فيهم الروح، ولم يركضوا في أصلاب الرجال وأرحام النساء، فآدم وحواء وناقة صالح وكبش إسماعيل، وأما الرجل الذي لا أب له فالمسيح، وأما الرجل الذي لا أم له، فآدم عليه السلام، وأما القبر الذي جرى بصاحبه، فحوت يونس عليه السلام سار به في البحر. وأما قوس قزح فأمان من الله لعباده من الغرق، وأما البقعة التي طلعت عليها الشمس مرة واحدة، فبطن البحر حين انفلق لبني إسرائيل، وأما الظاعن الذي ظعن مرة ولم يظعن قبلها ولا بعدها، فجبل طور سيناء كان بينه وبين الأرض المقدسة أربع ليال، فلما عصت بنو إسرائيل أطاره الله تعالى بجناحين، فنادى مناد إن قبلتم التوراة كشفته عنكم ولا ألقيته عليكم، فأخذوا التوراة معذرين، فرده الله تعالى إلى موضعه، فلذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾[2] الآية. وأما الشجرة التي نبتت من غير ماء، فشجرة اليقطين التي أنبتها الله تعالى على يونس عليه السلام، وأما الشيء الذي يتنفس بلا روح، فالصبح. قال الله تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝﴾[3]. وأما اليوم، فعمل، وأمس فمثل، وغد فأجل، وبعد غد فأمل. وأما البرق فمخاريق بأيدي الملائكة تضرب بها السحاب، وأما الرعد، فاسم الملك الذي يسوق السحاب وصوته زجره، وأما المحو الذي في القمر، فقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[4]. ولولا ذلك المحو لم يعرف الليل من النهار، ولا النهار من الليل.

ودعا بعض البلغاء لصديق له، فقال: تمم الله عليك ما أنت فيه، وحقق ظنك فيما ترجوه، وتفضل عليك بما لم تحتسبه.

---

(١) تنقصه: احتقره.
(٢) صال بجنان: قاتل بقلب لا يعرف الخوف.
(٣) أي من قوم ذوي مكانة عالية وكرامة.
(٤) غداة الروع: صباح المعركة.
(٥) أي إن ألم به ما فاق احتماله فرّ غير آبه بما تؤول إليه حال الأهل والجماعة.

(١) سورة الأنبياء، الآية (٣٠).
(٢) سورة الأعراف، الآية (١٧١).
(٣) سورة التكوير، الآية (١٨).
(٤) سورة الإسراء، الآية (١٢).

وحكي: أن الحجاج سأل يوماً الغضبان بن القبعثري عن مسائل يمتحنه فيها من جملتها أن قال له: من أكرم الناس؟ قال: أفقههم في الدين وأصدقهم لليمين، وأبذلهم للمسلمين، وأكرمهم للمهانين، وأطعمهم للمساكين. قال: فمن ألأم الناس؟ قال: المعطي على الهوان، المقتر على الإخوان، الكثير الألوان. قال: فمن شر الناس؟ قال: أطولهم جفوة، وأدومهم صبوة، وأكثرهم خلوة، وأشدهم قسوة. قال: فمن أشجع الناس؟ قال: أضربهم بالسيف. وأقراهم للضيف. وأتركهم للحيف. قال: فمن أجبن الناس؟ قال: المتأخر عن الصفوف المنقبض عن الزحوف، المرتعش عند الوقوف، المحب ظلال السقوف الكاره لضرب السيوف.

قال: فمن أثقل الناس؟

قال: المتفنن في الملام، الضنين بالسلام، المهذار في الكلام، المقبقب على الطعام.

قال: فمن خير الناس؟

قال: أكثرهم إحساناً وأقومهم ميزاناً، وأدومهم غفراناً، وأوسعهم ميداناً.

قال: لله أبوك، فكيف يعرف الرجل الغريب، أحسيب هو أم غير حسيب؟

قال: أصلح الله الأمير إن الرجل الحسيب يدلك أدبه وعقله وشمائله وعزة نفسه وكثرة احتماله وبشاشته وحسن مداورته على أصله، فالعاقل البصير بالأحساب يعرف شمائله، والنذل الجاهل يجهله، فمثله كمثل الدرة إذا وقعت عند من لا يعرفها ازدراها، وإذا نظر إليها العقلاء عرفوها وأكرموها، فهي عندهم لمعرفتهم بها حسنة نفيسة.

فقال الحجاج: لله أبوك، فما العاقل والجاهل؟

قال: أصلح الله الأمير، العاقل الذي لا يتكلم هذراً، ولا ينظر شزراً، ولا يضمر غدراً، ولا يطلب عذراً، والجاهل هو المهذار في كلامه، المنان بطعامه، الضنين بسلامه المتطاول على إمامه، الفاحش على غلامه.

قال: لله أبوك، فما الحازم الكيس؟

قال: المقبل على شأنه، التارك لما لا يعنيه، قال: العاجز؟

قال: المعجب بآرائه الملتفت إلى ورائه.

قال: هل عندك من النساء خبر؟

قال: أصلح الله الأمير إني بشأنهن خبير إن شاء الله تعالى. إن النساء من أمهات الأولاد بمنزلة الأضلاع إن عدلتها انكسرت، ولهن جوهر لا يصلح إلا على المداراة، فمن داراهن انتفع بهن وقرت عينه، ومن شاورهن كدرن عيشه، وتكدرت عليه حياته، وتنغصت لذاته، فأكرمهن أعفهن، وأفخر أحسابهن العفة، فإذا زلن عنها فهن أنتن من الجيفة.

فقال له الحجاج: يا غضبان إني موجهك إلى ابن الأشعث وافد، فماذا أنت قائل له؟ قال: أصلح الله الأمير أقول ما يرديه ويؤذيه ويضنيه، فقال: إني أظنك لا تقول له ما قلت وكأني بصوت جلاجلك تجلجل في قصري هذا، قال: كلا أصلح الله الأمير سأحدد له لساني، وأجريه في ميداني، قال: فعند ذلك أمره بالمسير إلى كرمان، فلما توجه إلى ابن الأشعث وهو على كرمان بعث الحجاج عيناً عليه أي جاسوساً، وكان يفعل ذلك مع جميع رسله، فلما قدم الغضبان على ابن الأشعث قال له: إن الحجاج قد هَمَّ بخلعك وعزلك، فخذ حذرك، وتغدّ به قبل أن يتعشى بك، فأخذ حذره عند ذلك، ثم أمر للغضبان بجائزة سنية، وخلع فاخرة، فأخذها وانصرف راجعاً، فأتى إلى رملة كرمان في شدة الحر القيظ وهي رملة شديد الرمضاء، فضرب قبته فيها، وحط عن رواحله فبينما هو كذلك إذا بأعرابي من بني بكر بن وائل قد أقبل على بعير قاصداً نحوه وقد اشتد الحر وحميت الغزالة وقت الظهيرة، وقد ظميء ظمأ شديداً، فقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فقال الغضبان: هذه سنة وردها فريضة قد فاز قائلها وخسر تاركها، ما حاجتك يا أعرابي؟

قال: أصابتني الرمضاء وشدة الحر والظمأ، فيممت قبتك أرجو بركتها.

قال الغضبان: فهلا تيممت قبة أكبر من هذه وأعظم.

قال: أيتهن تعني؟

قال: قبة الأمير بن الأشعث.

قال: تلك لا يوصل إليها.

قال: إن هذه أمنع منها.

فقال الأعرابي: ما اسمك يا عبد الله؟.

قال: آخذ، فقال: وما تعطي؟

قال: أكره أن يكون لي إسمان.

قال: بالله من أين أنت؟

قال: من الأرض.

قال: فأين تريد؟

قال: أمشي في مناكبها.

فقال الأعرابي وهو يرفع رجلاً ويضع أخرى من شدة الحر: أتقرض الشعر؟ قال: إنما يقرض الفأر.

فقال: أفتسجع؟

قال: إنما تسجع الحمامة.

فقال: يا هذا ائذن لي أن أدخل قبتك.

قال: خلفك أوسع لك.

فقال: قد أحرقني حر الشمس.

قال: ما لي عليها من سلطان.

فقال: الرمضاء أحرقت قدمي.

قال: بُلْ عليها تبرد.

فقال: إني لا أريد طعامك، ولا شرابك.

قال: لا تتعرض لما لا تصل إليه، ولو تلفت روحك.

فقال الأعرابي: سبحان الله.

قال: نعم من قبل أن تطلع أضراسك.

فقال الأعرابي: هل عندك غير هذا؟

قال: بلى. هراوة أضرب بها رأسك.

فاستغاث الأعرابي يا جار بني كعب.

قال الغضبان: بئس الشيخ أنت، فوالله ما ظلمك أحد فتستغيث.

فقال الأعرابي: ما رأيت رجلاً أقسى منك أتيتك مستغيثاً فحجبتني وطردتني، هلا أدخلتني قبتك وطارحتني القريض؟

قال: ما لي بمحادثتك من حاجة.

فقال الأعرابي: بالله ما اسمك، ومن أنت؟

فقال: الغضبان بن القبعثري.

فقال: اسمان منكران خلقا من غضب.

قال: قف متوكئاً على باب قبتي برجلك هذه العوجاء.

فقال: قطعها الله إن لم تكن خيراً من رجلك هذه الشنعاء.

قال الغضبان: لو كنت حاكماً لجرت في حكومتك لأن رجلي في الظل قاعدة ورجلك في الرمضاء قائمة.

فقال الأعرابي: إني لأظنك حرورياً.

قال: اللهم اجعلني ممن يتحرى الخير ويريده، فقال: إني لأظن عنصرك فاسداً.

قال: ما أقدرني على إصلاحه.

فقال الأعرابي: لا أرضاك الله ولا حياك ثم ولى، وهو يقول:

لا بـاركَ الله فـي قـوم تَـسُـودُهُـمُ
إنـي أظـنـكَ والـرحـمـن شـيـطـانـا
أتـيـتُ قـبَّـتَـهُ أرجـو ضـيـافـتـه
فـأظهـر الـشيـخُ ذو القـرنـيـن حـرمـانـا

فلما قدم الغضبان على الحجاج وقد بلَّغه الجاسوس ما جرى بينه وبين ابن الأشعث وبين الأعرابي قال له الحجاج: يا غضبان كيف وجدت أرض كرمان؟

قال: أصلح الله الأمير أرض يابسة الجيش، بها ضعاف هؤلاء إن كثروا جاعوا، وإن قلوا ضاعوا.

فقال له الحجاج: ألست صاحب الكلمة التي بلغتني أنك قلت لابن الأشعث تغدَّ بالحجاج قبل أن يتعشى بك، فوالله لأحبسنك عن الوساد، ولأنزلنك عن الجياد، ولأشهرنك في البلاد.

قال: الأمان أيها الأمير، فوالله ما ضرت من قيلت فيه ولا نفعت من قيلت له.

فقال له: ألم أقل لك كأني بصوت جلاجلك تجلجل في قصري هذا، اذهبوا به إلى السجن، فذهبوا به، فقيد وسجن، فمكث ما شاء الله، ثم إن الحجاج ابتنى الخضراء بواسط فأعجب بها، فقال لمن حوله: كيف ترون قبتي هذه وبناءها؟

فقالوا: أيها الأمير إنها حصينة مباركة منيعة، نضرة بهجة، قليل عيبها، كثير خيرها.

قال: لِمَ لم تخبروني بنصح؟

قالوا: لا يصفها لك إلا الغضبان، فبعث إلى الغضبان، فأحضره، وقال له: كيف ترى قبتي هذه وبناءها؟

قال: أصلح الله الأمير بنيتها في غير بلدك لا لك ولا لولدك لا تدوم لك، ولا يسكنها وارثك، ولا تبقى لك، وما أنت لها بباق.

فقال الحجاج: قد صدق الغضبان ردوه إلى السجن، فلما حملوه قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾[1]، فقال: أنزلوه، فلما أنزلوه قال: ﴿رَبِّ

---

(١) سورة الزخرف، الآية (١٣).

﴿أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾[1] فقال: اضربوا به الأرض، فلما ضربوا به الأرض قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[2] فقال: جروه، فأقبلوا يجرونه وهو يقول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3] فقال الحجاج: ويلكم اتركوه فقد غلبني دهاء وخبثاً، ثم عفا عنه، وأنعم عليه، وخلى سبيله.

وحدث الزبير قال: دخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون، وقد كانت ضياعهم أُخذت، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. محمد بن عبد الملك بين يديك سليل نعمتك وغصن من أغصان دوحتك، أتأذن له في الكلام، فقال: تكلم. قال: الحمد لله رب العالمين ولا إله إلا الله رب العرش العظيم، وصلى الله والملائكة على محمد خاتم النبيين، ونستمتع الله لحياطة ديننا ودنيانا، ورعاية أدنانا وأقصانا ببقائك يا أمير المؤمنين، ونسأل الله أن يمد في عمرك من أعمارنا، وأن يقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا، فإن الحق لا تعفو آثاره، ولا ينهدم مناره، ولا ينبت حبله، ولا يزول ما دمت بين الله وبين عباده، والأمين على بلاده يا أمير المؤمنين. هذا المقام مقام العائذ بظلك، الهارب إلى كنفك، الفقير إلى رحمتك وعدلك من تعاود النوائب وسهام المصائب وكَلَب الدهر، وذهاب النعمة، وفي نظر أمير المؤمنين ما يفرج كربة المكروب، ويبرد غليل القلوب، وقد نفذ أمر أمير المؤمنين في الضياع التي أفادناها نعم آبائه الطيبين، ونوافل أسلافه الطاهرين الراشدين، وقد قمت مقامي هذا متوسلاً إليك بآبائك الطيبين وبالرشيد خير الهداة الراشدين، والمهدي ناصر المسلمين، والمنصور منكل الظالمين، ومحمد خير المحمدين بعد خاتم النبيين مزدلفاً إليك بالطاعة التي أفرع عليها غصني واحتنكت بها سني، وريّش بها جناحي، متعوذاً من شماتة الأعداء وحلول البلاء، ومقارفة الشدة بعد الرخاء، يا أمير المؤمنين قد مضى جدك المنصور وعمك صالح بن علي جدي وبينهما من الرضاع والنسب ما علمه أمير المؤمنين، وعرفه، وقد أثبت الله الحق في نصابه، وأقره في داره، وأربابه، يا أمير المؤمنين إن الدهر ذو اغتيال، وقد يقلب حالاً بعد حال فارحم يا أمير المؤمنين الصبية الصغار، والعجائز الكبار الذين سقاهم الدهر كدراً بعد صفو، ومراً بعد حلو، وهبنا نعم آبائك اللاتي غذتنا صغاراً وكباراً وشباباً وأشياخاً وأمشاجاً في الأصلاب، ونطفاً في الأرحام، وقدمنا في القرابة حيث قدمنا الله منك في الرحم، فإن رقابنا قد ذلت لسخطك، ووجوهنا قد عنت لطاعتك، فأقلنا عثرتنا يا أمير المؤمنين، إن الله قد سهل بك الوعور وجلا بك الديجور وملأ من خوفك القلوب والصدور، بك يرع الفاسق ويقمع بك المنافق، فارتبط نعم الله عندك بالعفو والإحسان فإن كل راع مسؤول عن رعيته، وإن النعم لا ينقطع المزيد فيها حتى ينقطع الشكر عليها، يا أمير المؤمنين إنه لا عفو أعظم من عفو إمام قادر عن مذنب عاثر، وقد قال الله جل ثناؤه، وتعالت قدرته: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] أحاط الله أمير المؤمنين بستره الواقي ومنعه الكافي ثم أنشد يقول:

أميرَ المؤمنين أتاك ركبٌ ... لهم قُربى وليس لهم تلاد[2]

هم الصدر المقدَّمُ من قريشٍ ... وأنت الرأس تتبعك العباد

لقد طابت بك الدنيا ولذّت ... وأرجو أن يطيبَ بك المعاد

فكيف تنالكم لحظات عينٍ ... وكيف يقلّ سؤددك البلاد

قال: فاستحسن المأمون كلامه وأمر له بالحلل الفاخرة والجوائز السنية، وأمر برد ضياعه وقرب منزلته وأدناه، ودفع إليه من المال ما أغناه.

ومن حكايات الفصحاء ونوادر البلغاء ما حكي عبد الملك بن مروان جلس يوماً وعنده جماعة من خواصه وأهل مسامرته، فقال: أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه وله عليّ ما يتمناه، فقام إليه سويد بن غفلة، فقال: أنا لها يا أمير المؤمنين، قال: هات. فقال: نعم يا أمير المؤمنين. أنف بطن ترقوة ثغر جمجمة حلق خد دماغ ذكر رقبة زند ساق شفة صدر ضلع طحال ظهر عين غبب فم قفا كف لسان منخر نغنوغ هامة، وجه يد، وهذه آخر حروف المعجم، والسلام على أمير المؤمنين.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية (٢٩).
(٢) سورة طه، الآية (٥٥).
(٣) سورة هود، الآية (٤١).

(٤) سورة النور، الآية (٢٢).
(٥) تلاد ج تليد وهو المال الموروث.

فقام بعض أصحاب عبد الملك، وقال: يا أمير المؤمنين أنا أقولها من جسد الإنسان مرتين، فضحك عبد الملك وقال لسويد: أسمعت ما قال: قال: أصلح الله الأمير أنا أقولها ثلاثاً، فقال: هات ولك ما تتمناه، فابتدأ يقول: أنف أسنان أذن، بطن بنصر بزة، ترقوة تمرة تينة، ثغر ثنايا ثدي، جمجمة جنب جبهة، حلق حنك حاجب، خد خنصر خاصرة، دبر دماغ دراديز، ذقن ذكر ذراع، رقبة رأس ركبة، زند زردمة زب، فهناك ضحك عبد الملك حتى استلقى على قفاه، ساق سرة سبابة، شفة شفر شارب، صدر صدغ صلعة، ضلع ضفيرة ضرس، طحال طرة طرف، ظهر ظفر ظلم، عين عنق عاتق، غبب غلصمة غنة، فم فك فؤاد، قلب قفا قدم، كف كتف كعب لسان لحية لوح، منخر مرفق منكب، نغنوغ ناب نن، هامة هيئة هيف وجه وجنة ورك، يمين يسار يافوخ. ثم نهض مسرعاً، فقبل الأرض بين يدي أمير المؤمنين قال: فعندها ضحك عبد الملك وقال: والله ما تزيدنا عليها شيئاً أعطوه ما يتمناه، ثم أجازه وأنعم عليه، وبالغ في الإحسان إليه.

وكان الحجاج بن يوسف الثقفي من الفصحاء، وكان على عتوه وإسرافه جواداً، وكان إذا ضحك واستغرق في الضحك أتبع ذلك الاستغفار مرات، وكان يطعم على ألف خوان، وكان يطوف على الموائد ويقول: يا أهل الشام مزقوا الخبز لئلا يعود إليكم ثانياً، وكان يجلس على كل مائدة عشرة رجال، وذلك في كل يوم وكان يقول: أرى الناس يتخلفون عن طعامي، فقيل له: إنهم يكرهون الحضور قبل أن يدعوا، فقال: قد جعلت رسولي إليهم كل يوم الشمس إذا طلعت وعند المساء إذا غربت.

حكي عن عبد الملك بن عمير أنه قال: لما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق جمع أهل بيته وأولي النجدة من جنده، وقال: أيها الناس، إن العراق كدر ماؤها، وكثر غوغاؤها، وأملولح عذبها، وعظم خطبها، وظهر ضرامها، وعسر إخماد نيرانها فهل من ممهد لهم بسيف قاطع، وذهن جامع، وقلب ذكي، وأنف حمي، فيخمد نيرانها، ويردع غيلانها، وينصف مظلومها، ويداوي الجرح حتى يندمل فتصفو البلاد، وتأمن العباد، فسكت القوم، ولم يتكلم أحد.

فقام الحجاج وقال: يا أمير المؤمنين أنا للعراق. قال: ومن أنت لله أبوك؟ قال: أنا الليث الضمضام، والهزبر الهشام، أنا الحجاج بن يوسف. قال: ومن أين؟ قال: من ثقيف كهوف الضيوف ومستعمل السيوف. قال: أجلس لا أم لك، فلست هناك.

ثم قال: ما لي أرى الرؤوس مطرقة والألسن معتقلة، فلم يجبه أحد، فقام إليه الحجاج وقال: أنا مجندل الفساق، ومطفىء نار النفاق، قال: ومن أنت؟ قال: أنا قاصم الظلمة، ومعدن الحكمة الحجاج بن يوسف معدن العفو والعقوبة، آفة الكفر والريبة، قال إليك عني، وذاك، فلست هناك.

ثم قال: مَن للعراق؟ فسكت القوم، وقام الحجاج وقال: أنا للعراق، فقال: إذن أظنك صاحبها والظافر بغنائمها وإن لكل شيء يا ابن يوسف آية وعلامة. فما آيتك وما علامتك؟ قال: العقوبة والعفو، والاقتدار والبسط، والازورار والإدناء، والابعاد والجفاء، والبر والتأهب، والحزم وخوض غمرات الحروب بجنان غير هيوب، فمن جادلني قطعته، ومن نازعني قصمته، ومن خالفني نزعته، ومن دنا مني أكرمته، ومن طلب الأمان أعطيته، ومن سارع إلى الطاعة بجلته، فهذه آيتي وعلامتي، وما عليك يا أمير المؤمنين أن تبلوني، فإن كنت للأعناق قطاعاً، وللأموال جماعاً، وللأرواح نزاعاً، ولك في الأشياء نفاعاً. وإلا فليستبدل بي أمير المؤمنين، فإن الناس كثير، ولكن من يقوم بهذا الأمر قليل.

فقال عبد الملك: أنت لها، فما الذي تحتاج إليه؟ قال: قليل من الجند والمال، فدعا عبد الملك صاحب جنده فقال: هيىء له من الجند شهوته وألزمهم طاعته، وحذرهم مخالفته، ثم دعا الخازن، فأمره بمثل ذلك، فخرج الحجاج قاصداً نحو العراق.

قال عبد الملك بن عمير: فبينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة إذا أتانا آت فقال: هذا الحجاج قدم أميراً على العراق، فتطاولت الأعناق نحوه وأفرجوا له عن صحن المسجد، فإذا نحن به يمشي وعليه عمامة حمراء متلثماً بها، ثم صعد المنبر، فلم يتكلم كلمة واحدة، ولا نطق بحرف حتى غص المسجد بأهله، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حالة حسنة وهيئة جميلة، فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته ومواليه وأتباعه عليهم الخز والديباج قال: وكان في المسجد يومئذ عمير بن صابىء التميمي، فلما رأى الحجاج على المنبر قال لصاحب له: أحصبه لكم؟

قال: اكفف حتى نسمع ما يقول، فأبى ابن صابىء وقال: لعن الله بني أمية حيث يولون ويستعملون مثل هذا

على العراق، وضيع الله العراق حيث يكون هذا أميرها، فوالله لو دام هذا أميراً كما هو ما كان بشيء، والحجاج ساكت ينظر يميناً وشمالاً، فلما رأى المسجد قد غص بأهله قال: هل اجتمعتم؟

فلم يرد عليه أحد شيئاً، فقال: إني لا أعرف قدر اجتماعكم، فهل اجتمعتم؟

فقال رجل من القوم: قد اجتمعنا أصلح الله الأمير، فكشف عن لثامه، ونهض قائماً فكان أول شيء نطق به أن قال: والله إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها، وإني لأرى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى، والله يا أهل العراق إن أمير المؤمنين نثر كنانة بين يديه فعجم عيدانها، فوجدني أمرّها عوداً، وأصلبها مكسراً، فرماكم بي لأنكم طالما أثرتم الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال، والله لأنكلن بكم في البلاد، ولأجعلنكم مثلاً في كل واد، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، وإني يا أهل العراق لا أعد إلاّ وفيت، ولا أعزم إلا أمضيت، فإياي وهذه الزرافات والجماعات، وقيل وقال، وكان ويكون، يا أهل العراق: إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأتاها وعيد القرى من ربها، فاستوثقوا واستقيموا، واعملوا، ولا تميلوا، وتابعوا، وبايعوا، واجتمعوا، واستمعوا، فليس مني الإهدار والإكثار إنما هو هذا السيف، ثم لا ينسلخ الشتاء من الصيف حتى يذل الله لأمير المؤمنين صعبكم، ويقيم له أودكم؛ ثم إني وجدت الصدق مع البر ووجدت البر في الجنة، ووجدت الكذب مع الفجور، ووجدت الفجور في النار، وقد وجهني أمير المؤمنين إليكم، وأمرني أن أنفق فيكم وأوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة، وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً يتخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه، يا غلام: اقرأ كتاب أمير المؤمنين.

فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم، فلم يرد أحد شيئاً.

فقال الحجاج: اكفف يا غلام، ثم أقبل على الناس فقال: أيسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون شيئاً عليه؟ هذا أدبكم الذي تأدبتم به، أما والله لأؤدبنكم أدباً غير هذا الأدب، اقرأ يا غلام، فقرأ حتى بلغ قوله: سلام عليكم فلم يبق أحد إلا قال: وعلى أمير المؤمنين السلام، ثم نزل بعدما فرغ من خطبته وقراءته، ووضع للناس عطاياهم، فجعلوا يأخذونها حتى أتاه شيخ يرعش، فقال: أيها الأمير إني على الضعف كما ترى، ولي ابن هو أقوى مني على الأسفار، أفتقبله بديلاً مني؟ فقال: نقبله أيها الشيخ، فلما ولى قال له قائل: أتدري من هذا أيها الأمير؟ قال: لا. قال: هذا ابن صابىء الذي يقول:

هممت ولَم أفعلْ وكدتُ وليتني
تركت على عثمان تبكي حلائله[1]

ولقد دخل هذا الشيخ على عثمان رضي الله عنه وهو مقتول، فوطىء في بطنه، فكسر ضلعين من أضلاعه، فقال الحجاج: ردوه فلمّا ردوه قال له الحجاج: أنت الفاعل بأمير المؤمنين عثمان ما فعلت يوم قتل في الدار؟ إن في قتلك أيها الشيخ إصلاحاً للمسلمين. يا سياف أضرب عنقه، فضرب عنقه، وكان من أمره بعد ذلك ما عرف وسطر.

ومن حكايات الحجاج ما حكي أنه لما أسرف في قتل أسرى دير الجماجم، وأعطى الأموال، بلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فشق عليه، وكتب إليه، أما بعد، فقد بلغني عنك إسراف في الدماء، وتبذير في العطاء، وقد حكمت عليك في الدماء في الخطأ بالدية، وفي العمد بالقود، وفي الأموال أن تردها إلى مواضعها، ثم تعمل فيها برأيي، فإنما هو مال الله تعالى، ونحن أمناؤه، فإن كنت أردت الناس لي فما أغناني عنهم، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم، وسيأتيك عني أمران: لين وشدة، فلا يؤمننك إلا الطاعة، ولا يوحشنك إلا المعصية، وإذا أعطاك الله عز وجل الظفر، فلا تقتلن جانحاً، ولا أسيراً، وكتب في أسفل الكتاب:

إذا أنت لم تترك أموراً كرهتها
وتطلب رضائي بالذي أنا طالبُهْ
فإن تَرَ مِنّي غفلةً قرشيةً
فيا ربما قد غصّ بالماء شاربه[2]
وأن ترَ مني وثبةً أمويةً
فهذا وهذا كلّ ذا أنا صاحبه

---

(١) أي لقد هممت بقتل عثمان رضي الله عنه لكنني لم أفعل، وكدت أفعل وليتني فعلت وتركت حلائل عثمان أي نساءه يبكينه.

(٢) أي فإن تر مني تسامحاً وتغافلاً مقصوداً وهذه عادة قريش فيا ربما فاجأت بعقوبة من ظن أنه ناج منها.

فلا تأمنني والحوادثُ جمةٌ
فإنك تجزي بالذي أنت كاسبُهْ
فلا تَعْدُ ما يأتيك مني وإنْ تَعُدْ
يقمن به يوماً عليك نوادبه[(١)]
فلا تمنعنّ الناس حقاً علمته
ولا تعطين ما ليس للناس واجبه
فإنك إنْ تعطي الحقوق فإنما
النّوافل شيءٌ لا يثيبك واهبه[(٢)]

فلما ورد الكتاب على الحجاج كتب إلى أمير المؤمنين أما بعد، فقد ورد كتاب أمير المؤمنين بذكر إسرافي وتبذيري في الأموال. ولعمري ما بلغت في عقوبة أهل المعصية، ولا قضيت حقوق أهل الطاعة، فإن كان قتلي العصاة إسرافاً وإعطائي المطيعين تبذيراً، فليمض لي أمير المؤمنين ما سلف والله ما أصبت القوم خطأ فأوديهم ولا ظلمتهم عمداً فأقاديهم ولا قتلت إلا لك، ولا أعطيت إلا فيك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، وكتب في أسفل الكتاب:

إذاً أنا لا أبغي رضاك وأتقي
أذاك فليلي لا توارى كواكبه
وما لامرىءٍ بعد الخليفة جنّة
تقيه من الأمر الذي هو راكبه
إذا قارف الحجاج فيك خطيئةً
لقامت عليه بالصباح نوادبه
إذا أنا لم أدنِ الشفيق لنصحه
واقصِ الذي تسري إليّ عقاربه
وأعط المواسي في البلاء عطيةً
لردّ الذي ضاقت عليّ مذاهبه
فمن يتّقي بؤسي ويرجو مودتي
ويخشى غداً والدهر جمّ نوائبه
وأمري إليك اليوم ما قلت قلته
وما لم تقله لم أقلْ ما يقاربُهْ
ومهما أردت اليوم مني أردته
وما لم ترده اليوم إني مجانبه

(١) تَعْدُ: تتجاوز، تَعُدْ: تعاود.
(٢) النوافل ج نافلة وهي ما يفعله المرء بعد الواجب عليه وهبة الأمير للجنود والمقاتلة زيادة على حقهم من الأعطيات.

وقف بي على حدّ الرضا لا أجوزه
مدى الدهر حتى يرجع الدرّ حالبه[(١)]
وإلاّ فدعني والأمورَ فإنني
شفيقٌ رفيقٌ أحكمته تجاربه

فلما انتهى الكتاب إلى عبد الملك قال: خاف أبو محمد صولتي ولن يعاود لأمر كرهته إن شاء الله تعالى، فمن يلومني على محبته، يا غلام أكتب إليه: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب وأنت أعلى عيناً بما هناك.

وفي مروج الذهب للمسعودي: أن أم الحجاج وهي الفارعة بنت همام، ولدته مشوهاً لا دبر له، فثقب له دبر وأبى أن يقبل الثدي وأعياهم أمره، فيقال: إن الشيطان تصور لهم في صورة الحارث بن كلدة حكيم العرب، فسألهم عن ذلك، فأخبره مخبر من أهله، فقال لهم: اذبحوا له تيساً وألعقوه من دمه، وأولغوه فيه، ثم أطلوا به وجهه، ففعلوا ذلك، فقبل الثدي، فلأجل ذلك كان لا يصبر عن سفك الدماء، وكان يخبر عن نفسه أن أكبر لذاته سفك الدماء وارتكاب أمور لا يقدر غيره عليها، وكانت أمه متزوجة قبل أبيه الحارث بن كلدة، فدخل عليها يوماً في السحر، فوجدها تخلل أسنانها فطلقها، فسألته لمَ فعل؟ فقال لها: إن كنت باكرت الغداء فأنت شرهة، وإن كان بقايا طعام بفيك، فأنت قذرة، فقالت: كل ذلك لم يكن، وإنما تخللت من شظايا السواك، فقال: قضي الأمر، فتزوجها بعده يوسف بن عقيل الثقفي فأولدها الحجاج.

وقيل إن الحجاج تقلد الإمارة وهو ابن عشرين سنة، ومات وله ثلاث وخمسون سنة، وكان من عنف السياسة، وثقل الوطأة، وظلم الرعية، والإسراف في القتل على ما لا يبلغه وصف، أحصي من قتله الحجاج بأمره سوى من قتله في حروبه فكانوا مائة ألف وعشرين ألفاً، ووجد في سجنه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة، لم يجب على أحد منهم قطع ولا قتل، وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد، ولم يكن لحبسه سقف يستر الناس من الحر والبرد.

وقيل للشعبي، أكان الحجاج مؤمناً؟ قال: نعم بالطاغوت، وقال: لو جاءت كل أمة بخبيثها وفاسقها

(١) حتى يرجع الدر حالبه: أي حتى يرجع اللبن المحلوب إلى الضرع وهذا مستحيل.

وجئنا بالحجاج وحده لزدنا عليهم والله أعلم.

وقد مضى القول في ذكر الفصحاء من الرجال وحكاياتهم وما أعان الله تعالى عليه واستحضرته من أخبارهم، وأنا قائل إن شاء الله تعالى ما استحضرته من ذكر فصحاء النساء وأخبارهن وحكاياتهن والله المستعان.

ذكر فصحاء النساء وحكاياتهن

حكي عن أبي عبد الله النميري أنه قال: كنت يوماً مع المأمون وكان بالكوفة، فركب للصيد ومعه سرية من العسكر، فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة، فأطلق عنان جواده وكان على سابق من الخيل، فأشرف على نهر ماء من الفرات، فإذا هو بجارية عربية خماسية القد، قاعدة النهد، كأنها القمر ليلة تمامه، وبيدها قربة قد ملأتها وحملتها على كتفها، وصعدت من حافة النهر، فانحل وكاؤها[1] فصاحت برفيع صوتها: يا أبت أدرك فاها قد غلبني فوها لا طاقة لي بفيها.

قال: فعجب المأمون من فصاحتها ورمت الجارية القربة من يدها، فقال لها المأمون: يا جارية من أي العرب أنت؟ قالت: أنا من بني كلاب، قال: وما الذي حملك أن تكوني من الكلاب؟ فقالت: والله لست من الكلاب وإنما أنا من قوم كرام غير لئام يقرون الضيف[2]، ويضربون بالسيف، ثم قالت: يا فتى من أي الناس أنت؟ فقال: أو عندك علم بالأنساب؟ قالت: نعم. قال لها: أنا من مضر الحمراء[3]، قالت: من أي مضر؟ قال: من أكرمها نسباً، وأعظمها حسباً، وخيرها أماً وأباً، وممن تهابه مضر كلها قالت: أظنك من كنانة، قال: أنا من كنانة، قالت: فمن أي كنانة؟ قال: من أكرمها مولداً وأشرفها محتداً وأطولها في المكرمات يداً، ممن تهابه كنانة وتخافه، فقالت: إذن أنت من قريش، قال: أنا من قريش، قالت: من أي قريش؟ قال: من أجملها ذكراً وأعظمها فخراً، ممن تهابه قريش كلها وتخشاه، قالت: أنت والله من بني هاشم، قال: أنا من بني هاشم، قالت: من أي هاشم؟ قال: من أعلاها منزلة، وأشرفها قبيلة، ممن تهابه هاشم

(١) وكاء القربة: الخيط الذي تربط به فوهتها، وكل كيس من قماش أو جلد لحفظ الأشياء له وكاء.

(٢) يقرون الضيف: يطعمونه.

(٣) العرب تسمي مضر: الحمراء، وإياد: الشمطاء، وربيعة: الفرس بسبب حكاية ميراثهم من أبيهم وقد ذكر الميداني القصة مفصلة في مجمع الأمثال.

وتخافه، فعند ذلك قبلت الأرض، وقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين، وخليفة رب العالمين. قال: فعجب المأمون وطرب طرباً عظيماً وقال: والله لأتزوجن بهذه الجارية لأنها من أكبر الغنائم، ووقف حتى تلاحقته العساكر، فنزل هناك، وأنفذ خلف أبيها وخطبها منه، فزوجه بها وأخذها وعاد مسروراً، وهي والدة ولده العباس والله أعلم.

وحكي أن هند ابنة النعمان[1] كانت أحسن أهل زمانها، فوصف للحجاج حسنها، فأنفذ إليها يخطبها، وبذل لها مالاً جزيلاً، وتزوج بها، وشرط لها عليه بعد الصداق مائتي ألف درهم ودخل بها، ثم إنها انحدرت معه إلى بلد أبيها المعرة وكانت هند فصيحة أديبة، فأقام بها الحجاج بالمعرة مدة طويلة، ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق فأقامت معه ما شاء الله، ثم دخل عليها في بعض الأيام وهي تنظر في المرآة وتقول:

وما هندُ إلاّ مُهرةٌ عربيةٌ
سليلة أفراس تحلّلها بغلُ
فإن ولدت فحلاً فلله درّها
وإن ولدت بغلاً فجاء به البغلُ

فانصرف الحجاج راجعاً ولم يدخل عليها، ولم تكن علمت به، فأراد الحجاج طلاقها، فأنفذ إليها عبد الله بن طاهر، وأنفذ لها معه مائتي ألف درهم، وهي التي كانت لها عليه، وقال: يا ابن طاهر طلقها بكلمتين، ولا تزد عليهما، فدخل عبد الله بن طاهر عليها، فقال لها: يقول لك أبو محمد الحجاج كنت فبنت، وهذه المائتا ألف درهم التي كانت لك قبله، فقالت: إعلم يا ابن طاهر أنا والله كنا فما حمدنا، وبنا فما ندمنا، وهذه المائتا ألف درهم التي جئت بها بشارة لك بخلاصي من كلب بني ثقيف.

ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ووصف له جمالها، فأرسل إليها يخطبها، فأرسلت إليه كتاباً تقول فيه بعد الثناء عليه: إعلم يا أمير المؤمنين، أن الإناء ولغ فيه الكلب فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك من قولها، وكتب إليها يقول: إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً إحداهن بالتراب، فاغسلي الإناء يحل الاستعمال، فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم

(١) هي هند بنت النعمان بن بشير.

يمكنها المخالفة، فكتبت إليه بعد الثناء عليه، يا أمير المؤمنين، والله لا أحل العقد إلا بشرط، فإن قلت ما هو الشرط؟ قلت: أن يقود الحجاج محملي من المعرة إلى بلدك التي أنت فيها، ويكون ماشياً حافياً بحليته التي كان فيها أولاً، فلما قرأ عبد الملك ذلك الكتاب ضحك ضحكاً شديداً، وأنفذ إلى الحجاج وأمره بذلك، فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب وامتثل الأمر ولم يخالف، وأنفذ إلى هند يأمرها بالتجهز، فتجهزت، وسار الحجاج في موكبه حتى وصل المعرة بلد هند، فركبت هند في محمل الزفاف، وركب حولها جواريها وخدمها، وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير بها فجعلت هند تتواغد عليه وتضحك مع الهيفاء دايتها، ثم إنها قالت للهيفاء: يا داية إكشفي لي سجف المحمل[1]، فكشفته، فوقع وجهها في وجه الحجاج، فضحكت عليه، فأنشأ يقول:

فإن تضحكي مني فيا طولَ ليلةٍ
تركتك فيها كالقباءِ المفرّجِ

فأجابته هند تقول:

وما نبالي إذا أرواحنا سلمت
بما فقدناه من مالٍ ومن نشب
فالمال مكتسبٌ والعز مرتجعٌ
إذا النفوس وقاها الله من عطب

ولم تزل كذلك تضحك وتلعب إلى أن قربت من بلد الخليفة، فرمت بدينار على الأرض، ونادت: يا جَمّال إنه قد سقط منا درهم، فارفعه إلينا، فنظر الحجاج إلى الأرض، فلم يجد إلا ديناراً، فقال: إنما هو دينار، فقالت: بل هو درهم قال: بل دينار، فقالت: الحمد لله سقط منا درهم، فعوضنا الله ديناراً، فخجل الحجاج وسكت، ولم يرد جواباً، ثم دخل بها على عبد الملك بن مروان، فتزوج بها، وكان من أمرها ما كان، وقد وجدت في بعض النسخ ما هو أوسع من هذا ولكن اقتصرت على القليل منه إذ فيه الغرض والله أعلم.

وقيل: إن جارية عرضت على الرشيد ليشتريها، فتأملها وقال لمولاها: خذ جاريتك، فلولا كلف بوجهها وخنس بأنفها لاشتريتها، فلما سمعت الجارية مقالة أمير المؤمنين قالت مبادرة: يا أمير المؤمنين اسمع مني ما أقول، فقال: قولي، فأنشدت تقول:

ما سلم الظبيُ على حسنه
كلا ولا البدرُ الذي يوصفُ
الظبي فيه خَنَسٌ بيِّنٌ
والبدرُ فيه كلفٌ يُعرفُ

قال: فعجب من فصاحتها وأمر بشرائها. وقيل: عرضت على المأمون جارية بارعة الجمال فائقة في الكمال، غير أنها كانت تعرج برجلها، فقال لمولاها: خذ بيدها وارجع، فلولا عرج بها لاشتريتها فقالت الجارية: يا أمير المؤمنين إنه في وقت حاجتك لا يكون بحيث تراه، فأعجبه سرعة جوابها وأمر بشرائها.

ومن ذلك ما حكي أن كريم الملك كان من ظرفاء الكتاب، فعبر يوماً تحت جوسق ببستان، فرأى جارية ذات وجه زاهر، وكمال باهر، لا يستطيع أحد وصفها، فلما نظر إليها ذهل عقله، وطار لبه، فعاد إلى منزله وأرسل إليها هدية نفيسة مع عجوز كانت تخدمه، وكانت الجارية عزباء. وكتب إليها رقعة يُعَرِّضُ إليها بالزيارة في جوسقها، فلما قرأت الرقعة قبلت الهدية، ثم أرسلت إليه مع العجوز عنبراً، وجعلت فيه زر ذهب، وربطت ذلك على منديل، وقالت للعجوز: هذا جواب رقعته، فلما رأى كريم الملك ذلك لم يفهم معناه، وتحير في أمره، وكانت له ابنة صغيرة السن، فلما رأت أباها متحيراً في ذلك قالت له: يا أبت أنا علمت معناه قال: وما هو لله درك؟ قالت:

أهدتْ لك العنبرَ في جوفهِ
زرٌ من التبر خفي اللحامِ
فالزر والعنبر معناهما
زُرْ هكذا مختفياً في الظلام

قال، فعجب من فطنتها وفصاحتها واستحسن ذلك منها.

وحكي إن طائفة من بني تميم كانوا يكسرون أول الفعل، فمرت فتاة منهم جميلة الصورة على جماعة، فناداها شخص منهم وأراد أن يوقعها فيما ينسب إليهم من كسر الفعل، فقال: لأي شيء يا بني تميم ما تكتنون؟ فقالت: ولِمَ لا نكتني وكسرت الفعل، فضحك عليها، وقال أفعل إن شاء الله، فخجلت من قوله وتغير وجهها،

---

(١) المحمل: شيء كغرفة صغيرة يوضع على ظهر الناقة لتجلس فيه المرأة فيسترها عن الأعين خلال السفر، والسجف: الستر والستارة.

وأرادت أن توقعه كما أوقعها، فقالت له: هل تحسن شيئاً من العروض؟ قال: نعم. قالت قطع لي:

حــولــوا عــنــا كــنــيــســتــكــم
يــا بــنــي حــمــالــة الــحــطــب

فقطعه، فوقف على عن ثم ابتدأ بالنون والألف مع بقية الحروف فضحكت عليه، وأضحكت أصحابه، فقال: ويحك لم تبرحي حتى أخذت ثارك.

وحكي إن شاعراً كان له عدو، فبينما هو سائر ذات يوم في بعض الطرق إذا هو بعدوه، فعلم الشاعر أن عدوه قاتله لا محالة، فقال له يا هذا: أنا أعلم أن المنية قد حضرت، ولكن سألتك الله إذا أنت قتلتني أمض إلى داري وقف بالباب وقل: «ألا أيها البنتان إن أباكما». فقال: سمعاً وطاعة، ثم إنه قتله، فلما فرغ من قتله أتى إلى داره، ووقف بالباب وقال: ألا أيها البنتان إن أباكما. وكان للشاعر ابنتان فلما سمعتا قول الرجل: ألا أيها البنتان إن أباكما. أجابتا بفم واحد: قتيل خذا بالثأر ممن أتاكما ـ ثم تعلقتا بالرجل، ورفعتاه إلى الحاكم فاستقرره فأقر بقتله فقتله[١]، والله أعلم.

وقيل: بينما كثيرُ عزة مار بالطريق يوماً إذا هو بعجوز عمياء على قارعة الطريق تمشي، فقال لها تنحي عن الطريق، فقالت له: ويحك ومن تكون؟ قال: أنا كثير عزة[٢]. قالت: قبحك الله، وهل مثلك يتنحى له عن الطريق، قال: ولِمَ؟ قالت: ألست القائل:

وما روضة بالحسن طيبة الثرى
يمج الندى جثجاثها وعرارها[٣]
بأطيب من أردانِ عزةَ موهناً
إذا أُوقِدتْ بالمجمر اللّدنِ نارها[٤]

ويحك يا هذا! لو تبخر بالمجمر اللدن مثلي ومثل أمك لطاب ريحها، لم لا قلت مثل سيدك أمرىء القيس:

وكنت إذا ما جئت بالليل طارقاً
وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

(١) وتروى هذه الحكاية أيضاً عن المهلهل الشاعر.
(٢) هو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي، شاعر، وعاشق عذري قصة عشقه لعزة مشهورة، ذكرتها كتب الأدب وفي كتاب «عشاق العرب» تجدها مفصّلة.
(٣) الجثجاث والعرار: من نباتات الصحراء.
(٤) الأردان: أطراف الأكمام.

فقطعته ولم يرد جواباً. وقيل: أتي الحجاج بامرأة من الخوارج، فقال لأصحابه: ما تقولون فيها؟ قالوا: عاجلها بالقتل أيها الأمير. فقالت الخارجية[١]: لقد كان وزراء صاحبك خيراً من وزرائك يا حجاج. قال: ومن هو صاحبي؟ قالت: فرعون استشارهم في موسى عليه السلام فقالوا: أرجه وأخاه.

وأتي بأخرى من الخوارج، فجعل يكلمها وهي لا تنظر إليه، فقيل لها: الأمير بكلمك، وأنت لا تنظرين إليه، فقالت: إني لأستحي أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه.

وحكى ابن الجوزي في كتابه المنتظم في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما ولي عمر رضي الله عنه الخلافة بلغه أن أصدقة أزواج النبي ﷺ خمسمائة درهم، وأن فاطمة رضي الله عنها كان صداقها على علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أربعمائة درهم، فأدى اجتهاد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أن لا يزيد أحد على صداق البضعة النبوية فاطمة رضي الله عنها، فصعد المنبر وحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: أيها الناس لا تزيدوا في مهور النساء على أربعمائة درهم، فمن زاد ألقيت زيادته في بيت مال المسلمين، فهاب الناس أن يكلموه، فقامت امرأة في يدها طول، فقالت له: كيف يحل لك هذا، والله تعالى يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا﴾[٢] فقال عمر رضي الله عنه: امرأة أصابت ورجل أخطأ. وقيل: جاءت امرأة إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فقالت: يا أمير المؤمنين إن زوجي يصوم النهار، ويقوم الليل، فقال لها: نِعْمَ الرجل زوجك، وكان في مجلسه رجل يسمى كعباً، فقال: يا أمير المؤمنين: إن هذه المرأة تشكو زوجها في أمر مباعدته إياها عن فراشه، فقال له: كما فهمت كلامها احكم بينهما، فقال كعب: عليَّ بزوجها، فأحضر، فقال له: إن هذه المرأة تشكوك، قال: أفي أمر طعام أم شراب؟ قال: بل في أمر مباعدتك إياها عن فراشك، فأنشدت المرأة تقول:

يا أيها القاضي الحكيمُ أنشده
ألهى خليلي عن فراشي مسجده
نهاره وليله لا يرقدُهُ
فلستُ في أمر النساء أحمدهُ

(١) هي فراشة الخارجية.
(٢) سورة النساء، الآية (٢٠).

فأنشأ الزوج يقول:

زهّدني في فرشها وفي الحلل
أنّي امرؤ أذهلني ما قد نزل
في سورة النمل وفي السبع الطوَل
وفي كتاب الله تخويف يجل

فقال له القاضي:

إنّ لها عليك حقاً لم يزل
في أربع نصيبها لمن عقل
فعاطها ذاك ودع عنك العلل

ثم قال: إن الله تعالى أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع، فلك ثلاثة أيام بلياليهن ولها يوم وليلة، فقال عمر رضي الله عنه: لا أدري من أيكم أعجب أمن كلامها أم من حكمك بينهما، إذهب فقد وليتك البصرة.

حكاية المتكلمة بالقرآن

قال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى: خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام، فبينما أنا في بعض الطريق إذا أنا بسواد على الطريق، فتميزت ذاك، فإذا هي عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف، فقلت: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقالت: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝﴾[1]، قال: فقلت لها: يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان؟ قالت: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾[2]، فعلمت أنها ضالة عن الطريق، فقلت لها: أين تريدين؟ قالت: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾[3]، فعلمت أنها قد قضت حجها، وهي تريد بيت المقدس، فقلت لها: أنتِ منذ كم في هذا الموضع؟ قالت: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾[4]، فقلت: ما أرى معك طعاماً تأكلين؟ قالت: ﴿هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾[5] فقلت: فبأي شيء تتوضئين؟ قالت: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾[6]، فقلت لها: إن معي طعاماً، فهل لك في الأكل؟ قالت: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾[7]، فقلت: ليس هذا شهر رمضان. قالت: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[1]، فقلت: قد أبيح لنا الإفطار في السفر. قالت: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2]، فقلت: لِمَ لا تكلميني مثل ما أكلمك؟ قالت: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝﴾[3]، فقلت: فمن أي الناس أنت؟ قالت: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝﴾[4] فقلت: قد أخطأت فاجعليني في حل، قالت: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[5] فقلت: فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة، قالت: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾[6] قال: فانخت ناقتي، قالت: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾[7] فغضضت بصري عنها وقلت لها: اركبي، فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[8] فقلت لها: اصبري حتى أعقلها، قالت: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾[9] فعقلت الناقة وقلت لها: اركبي فلما ركبت قالت: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝﴾[10] قال: فأخذت بزمام الناقة، وجعلت أسعى وأصيح فقالت: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾[11] فجعلت أمشي رويداً رويداً وأترنم بالشعر، فقالت: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾[12] فقلت لها: لقد أوتيت خيراً كثيراً، قالت: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[13] فلما مشيت بها قليلاً قلت: ألك زوج؟ قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[14] فسكت، ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة، فقلت لها: هذه القافلة فمن لك

(١) سورة يس، الآية (٥٨).
(٢) سورة الأعراف، الآية (١٨٦).
(٣) سورة الإسراء، الآية (١).
(٤) سورة مريم، الآية (١٠).
(٥) سورة الشعراء، الآية (٧٩).
(٦) سورة النساء، الآية (٤٣).
(٧) سورة البقرة، الآية (١٨٧).

(١) سورة البقرة، الآية (١٥٨).
(٢) سورة البقرة، الآية (١٨٤).
(٣) سورة قٓ، الآية (١٨).
(٤) سورة الإسراء، الآية (٣٦).
(٥) سورة يوسف، الآية (٩٢).
(٦) سورة البقرة، الآية (١٩٧).
(٧) سورة النور، الآية (٣٠).
(٨) سورة الشورى، الآية (٣٠).
(٩) سورة الأنبياء، الآية (٧٩).
(١٠) سورة الزخرف، الآيتان (١٣ ـ ١٤).
(١١) سورة لقمان، الآية (١٩).
(١٢) سورة المزمل، الآية (٢٠).
(١٣) سورة البقرة، الآية (٢٦٩) وآل عمران، الآية (٧).
(١٤) سورة المائدة، الآية (١٠١).

فيها؟ فقالت: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[1] فعلمت أن لها أولاد فقلت: وما شأنهم في الحج؟ قالت: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[2] فعلمت أنهم أدلاء الركب، فقصدت بها القباب والعمارات فقلت: هذه القباب فمن لك فيها؟ قالت: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[3] ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[4] ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾[5] فناديت يا إبراهيم يا موسى يا يحيى فإذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد أقبلوا، فلما استقر بهم الجلوس قالت: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾[6] فمضى أحدهم فاشترى طعاماً فقدموه بين يدي فقالت: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾[7] فقلت: الآن طعامكم علي حرام حتى تخبروني بأمرها، فقالوا: هذه أمنا لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن، فسبحان القادر على ما يشاء، فقلت: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[8] والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثامن
في الأجوبة المسكتة والمستحسنة
ورشقات اللسان
وما جرى مجرى ذلك

قيل: أن معن بن زائدة دخل على المنصور، فقال له: هيه يا معن تعطي مروان بن أبي حفصة مائة ألف على قوله:

مـعـنُ بـنُ زائـدة الـذي زادت بـه
شـرفـاً عـلـى شـرفٍ بـنـو شـيـبـانِ

(١) سورة الكهف، الآية (٤٦).
(٢) سورة النحل، الآية (١٦).
(٣) سورة النساء، الآية (١٢٥).
(٤) سورة النساء، الآية (١٦٤).
(٥) سورة مريم، الآية (١٢).
(٦) سورة الكهف، الآية (١٩).
(٧) سورة الحاقة، الآية (٢٤).
(٨) سورة الحديد، الآية (٢١).

فقال كلا يا أمير المؤمنين إنما أعطيته على قوله:

مـا زلـتَ يـوم الـهـاشـمـيـة مـعـلـنـاً
بـالـسـيـف دون خَـلـيـفَـة الـرحـمـنِ

فـمـنـعـت حـوزتـه وكـنـت وقـاءه
مـن وقـع كـلّ مـهـنـدٍ وسـنـانِ[1]

فقال: أحسنت والله يا معن وأمر له بالجوائز والخلع.

ووفد ابن أبي محجن على معاوية، فقام خطيباً فأحسن، فحسده معاوية وأراد أن يوقعه، فقال له: أنت الذي أوصاك أبوك بقوله:

إذا مـتّ فـأدفـنـي إلـى جـنـب كـرمـةٍ
تـروّي عـظـامـي بـعـد مـوتـي عـروقـهـا

ولا تـدفـنـنـي فـي الـفـلاةِ فـإنـنـي
أخـاف إذا مـا مـتّ أن لا أذوقـهـا

وقال: بل أنا الذي يقول أبي:

لا تـسـأل الـنـاس مـا مـالـي وكـثـرتـه
وسـائـل الـنـاس مـا جـودي ومـا خـلـقـي

أعـطـي الـحـسـام غـداة الـروع حُـصَّـتَـه
وعـامـلُ الـرمـح أرويـه مـن الـعـلـق[2]

وأطـعـن الـطـعـنـة الـنـجـلاء عَـنْ عَـرَضٍ
وأكـتـم الـسـرّ فـيـه ضَـرْبَـةُ الـعُـنُـقِ

ويـعـلـم الـنـاس أنّـي مـن سـراتـهـم
إذا سـمـا بـصـر الـرعـديـد بـالـفَـرَقِ[3]

فقال له معاوية: أحسنت والله يا ابن أبي محجن، وأمر له بصلة وجائزة.

وقيل: أخذ عبد الملك بن مروان بعض أصحاب شبيب الخارجي[4]، فقال له: ألست القائل:

ومـنّـا شـريـدٌ والـبـطـيـن وقـعـنـب
ومـنـا أمـيـر الـمـؤمـنـيـن شـبـيـب

فقال: يا أمير المؤمنين إنما قلت ومنا يا أمير المؤمنين شبيب، وأردت بذلك مناداة لك. فكان ذلك سبباً لنجاته.

ودخل شريك بن الأعور على معاوية وكان دميماً، فقال

(١) المهند: السيف، السنان: الرمح.
(٢) العلق: الدم الغليظ أو الجامد.
(٣) سراة القوم: كبراؤهم، الفَرَق: شدة الخوف والرعب.
(٤) في الأصل: الحارثي والصواب ما أثبتناه وشبيب أحد قادة الخوارج.

له معاوية: إنك لدميم والجميل خير من الدميم وإنك لشريك وما لله من شريك، وإن أباك لأعور والصحيح خير من الأعور، فكيف سدت قومك؟ فقال له: إنك معاوية وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت لها الكلاب، وإنك لابن صخر، والسهل خير من الصخر، وإنك لابن حرب والسلم خير من الحرب، وإنك لابن أمية وما أمية إلا أَمَةٌ صُغِّرَت، فكيف صرت أمير المؤمنين؟ ثم خرج وهو يقول:

أيشتمني معاويةُ بنُ حربٍ
وسيفي صارمٌ ومعي لساني
وحولي من ذوي يزنٍ ليوثٌ
ضراغمةٌ تهشُّ إلى الطِّعانِ[1]
يعير بالدمامة مِنْ سَفَاهٍ
وربات الحجال من الغواني

ودخل يزيد بن أبي مسلم صاحب شرطة الحجاج على سليمان بن عبد الملك بعد موت الحجاج، فقال له سليمان: قَبَّحَ الله رجلاً أجرَّك رسنه، وأولاك أمانته.

فقال: يا أمير المؤمنين رأيتني والأمر لك وهو عني مدبر، فلو رأيتني وهو علي مقبل لاستكبرت مني ما استصغرت، واستعظمت مني ما استعظمت.

فقال سليمان: أترى الحجاج استقرَّ في جهنم! فقال: يا أمير المؤمنين لا تقل ذلك، فإن الحجاج وطأ لكم المنابر، وأذل لكم الجبابرة، وهو يجيء يوم القيامة عن يمين أبيك وشمال أخيك، فحيثما كانا كان.

وقال يهودي لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما لكم لم تلبثوا بعد نبيكم إلا خمس عشرة سنة حتى تقاتلتم، فقال علي كرم الله وجهه: ولم أنتم لم تجف أقدامكم من البلل حتى قلتم يا موسى أجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة.

ووجد الحجاج على منبره مكتوباً ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾[2]، فكتب تحته ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[3].

ودخل عقيل على معاوية وقد كف بصره، فأجلسه معه على سريره ثم قال له: أنتم معشر بني هاشم تصابون في أبصاركم، فقال له عقيل: وأنتم معشر بني أمية تصابون في بصائركم.

(١) تهش إلى الطعان: تسرع إلى القتال.
(٢) سورة الزمر، الآية (٨).
(٣) سورة آل عمران، الآية (١١٩).

وقيل: اجتمعت بنو هاشم يوماً عند معاوية فأقبل عليهم وقال: يا بني هاشم إن خيري لكم لممنوح، وإن بابي لكم لمفتوح فلا يقطع خيري عنكم، ولا يرد بابي دونكم، ولما نظرت في أمري وأمركم رأيت أمراً مختلفاً، إنكم ترون أنكم أحق بما في يدي مني، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقوقكم قلتم: أعطانا دون حقنا، وقصَّر بنا عن قَدْرِنا، فصرت كالمسلوب والمسلوب لا حمد له، هذا مع إنصاف قائلكم وإسعاف سائلكم، قال: فأقبل عليه ابن عباس رضي الله عنهما فقال: والله ما منحتنا شيئاً حتى سألناه، ولا فتحت لنا باباً حتى قرعناه، ولئن قطعت عنا خيرك فخير الله أوسع منك، ولئن أغلقت دوننا باباً لنكفكفن أنفسنا عنك، وأما هذا المال فليس لك منه إلا ما للرجل من المسلمين ولولا حقنا في هذا المال لم يأتك منا زائر يحمله خُفٌّ، ولا حافر[1] أكفاك أم أزيدك؟ قال: كفاني يا ابن عباس. وقال معاوية يومها: أيها الناس إن الله حبا قريش بثلاث فقال لنبيه ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[2] ونحن عشيرته الأقربون، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[3]. ونحن قومه، وقال: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝ إِيلَافِهِمْ﴾[4]. ونحن قريش، فأجابه رجل من الأنصار فقال: على رسلك يا معاوية فإن الله تعالى يقول: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾[5]. وأنتم قومه. وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[6] وأنتم قومه وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾[7] وأنتم قومه ثلاثة بثلاثة ولو زدتنا لزدناك.

وقال معاوية أيضاً لرجل من اليمن: ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة! فقال: أجهل من قومي قومك الذين قالوا حين دعاهم رسول الله ﷺ: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[8]. ولم يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه.

(١) خف: المراد ناقة. وحافر: المراد فرس.
(٢) سورة الشعراء، الآية (٢١٤).
(٣) سورة الزخرف، الآية (٤٤).
(٤) سورة قريش، الآيتان: (١ ـ ٢).
(٥) سورة الأنعام، الآية (٦٦).
(٦) سورة الزخرف، الآية (٥٧).
(٧) سورة الفرقان، الآية (٣٠).
(٨) سورة الأنفال، الآية (٣٢).

وقال يوماً لجارية بن قدامة: ما كان أهونك على قومك إذ سَمَّوْك جارية! فقال: ما كان أهونك على قومك إذ سموك معاوية وهي الأنثى من الكلاب! قال: اسكت لا أم لك. قال: لي أم ولدتني، أما والله إن القلوب التي أبغضناك بها لبين جوانحنا، والسيوف التي قاتلناك بها لفي أيدينا، وإنك لم تهلكنا قسوة، ولم تملكنا عنوة، ولكنك أعطيتنا عهداً وميثاقاً، وأعطيناك سمعاً وطاعة، فإن وفيت لنا وفينا لك، وإن نزعت إلى غير ذلك فإنّا تركنا وراءنا رجالاً شداداً، وأسنة حداداً، فقال معاوية: لا أكثر الله في الناس مثلك يا جارية، فقال له: قل معروفاً فإن شر الدعاء محيط بأهله.

وخطب معاوية يوماً فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾[1] فعلام تلومونني إذا قصرت في عطاياكم؟ فقال له الأحنف: وإنا والله لا نلومك على ما في خزائن الله ولكن على ما أنزله الله لنا من خزائنه فجعلته في خزائنك وَحِلْتَ بيننا وبينه.

وقيل: دخل مجنون الطاق يوماً إلى الحمام وكان بغير مئزر فرآه أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه وكان في الحمام فغمض عينيه فقال المجنون: متى أعماك الله؟ قال: حين هتك سترك.

ومن ذلك ما حُكِيَ أن الحجاج خرج يوماً متنزهاً فلما فرغ من نزهته صرف عنه أصحابه، وانفرد بنفسه، فإذا هو بشيخ من بني عجل فقال له: من أين أيها الشيخ؟ قال: من هذه القرية، قال: كيف ترون عمالكم؟ قال: شَرُّ عمال، يظلمون الناس، ويستحلون أموالهم. قال: فكيف قولك في الحجاج؟ قال: ذاك ما ولي العراق شر منه، قبَّحه الله، وقَبَّحَ مَن استعملَهُ، قال: أتعرف من أنا؟ قال: لا، قال: أنا الحجاج، قال: جعلت فداك أو تعرف من أنا؟ قال: لا. قال: فلان بن فلان مجنون بني عجل أصرع في كل يوم مرتين، قال: فضحك الحجاج منه وأمر له بصلة.

وقال رجل لصاحب منزل: أصلح خشب هذا السقف فإنه يقرقع. قال: لا تخف فإنه يسبِّح. قال: إني أخاف أن تدركه رقة فيسجد.

وقالت عجوز لزوجها: أما تستحي أن تزني ولك حلال طيب؟ قال: أما حلال فنعم، وأما طيِّب فلا.

وقال مالك لوزيره: ما خير ما يُرْزَقه العبد؟ قال: عقل يعيش به، قال: فإن عدمه، قال: أدبٌ يتحلَّى به، قال: فإن عدمه؟ قال: مال يستره، قال: فإن عدمه؟ قال: فصاعقة تحرقه وتريح منه العباد والبلاد.

وتنبأ رجل في زمن المنصور فقال له المنصور: أنت نبي سفلة؟ فقال: جعلت فداك كل نبي يبعث إلى شكله.

ومن الأجوبة المسكتة المستحسنة:

ما ذكر أن إبراهيم مغني الرشيد غنَّى يوماً بين يديه فقال له: أحسنت أحسن الله إليك، فقال له: يا أمير المؤمنين إنما يحسن الله إلي بك، فأمر له بمائة ألف درهم.

وقال رجل لبعض العلوية: أنت بستان، فقال العلوي: وأنت النهر الذي يسقى منه البستان.

وذبحت عائشة رضي الله تعالى عنها شاة وتصدقت بها وأفضلت منها كتفاً، فقال لها النبي ﷺ: «ما عندك منها؟» فقالت: ما بقي منها إلا كتف، فقال: «كلها إلا كتفاً»[1].

وقال عبد الله بن يحيى لأبي العيناء: كيف الحال؟ قال: أنت الحال. فانظر كيف أنت لنا، فأمر له بمال جزيل وأحسن صلته.

وكان عمرو بن سعد بن سالم في حرس المأمون ليلة فخرج المأمون يتفقد الحرس، فقال لعمرو: من أنت؟ قال: عمرو عمرك الله بن سعد أسعدك الله بن سالم سلَّمك الله. قال: أنت تكلأنا[2] الليلة؟ قال: الله يكلأك يا أمير المؤمنين وهو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين فقال المأمون:

إن أخا الهيجاء من يسعى معك
ومن يضرّ نفسَه لينفعكْ
ومن إذا رَيْبُ الزمان صدعك
شتت فيك شمله ليجمعكْ

ودفع إليه أربعة آلاف دينار. قال عمرو: وددت لو أن الأبيات طالت.

وقال المعتصم للفتح بن خاقان وهو صبي صغير: أرأيت يا فتح أحسن من هذا الفص، لفص كان في يده؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين: اليد التي هو فيها أحسن منه، فأعجبه جوابه وأمر له بصلة وكسوة.

وقيل إن رجلاً سأل العباس رضي الله عنه: أأنت أكبر أم

---

(١) سورة الحجر، الآية (٢١).

(١) أي أن ما تصدقت به هو الباقي.
(٢) تكلأنا: تحرسنا.

رسول الله ﷺ؟ فقال: رسول الله ﷺ أكبر وأنا ولدت قبله.

وقال معاوية لسعيد بن مرة الكندي: أأنت سعيد؟ قال: أمير المؤمنين السعيد وأنا ابن مرة، وقال المأمون للسيد بن أنس: أأنت السيد؟ قال: أمير المؤمنين السيد وأنا ابن أنس.

قال الحجاج للمهلب وهو يماشيه: أأنا أطول أم أنت؟ قال: الأمير أطول، وأنا أبسط قامة، أراد الطَّوْلَ وهو الفضل.

والأجوبة بهذا المعنى كثيرة لو تتبعتها لعجزت عنها ولكني اقتصرت على هذا وأوجزت، وفيما ذكرته من ذلك كفاية وأسأل الله تعالى العون والعناية.

الباب التاسع

في ذكر الخطب والخطباء والشعر والشعراء وسرقاتهم وكبوات الجياد وهفوات الأمجاد

قيل: خطب المأمون فقال: اتقوا الله عباد الله وأنتم في مهل، بادروا الأجل ولا يغرَّنْكُمُ الأمل، فكأني بالموت قد نزل، فشغلت المرء شواغله، وتولت عنه فواصله، وهيئت أكفانه، وبكاه جيرانه، وصار إلى التراب الخالي بجسده البالي، فهو في التراب عفير، وإلى ما قدم فقير.

وقال الشعبي: ما سمعت أحداً يخطب إلا تمنيت أن يسكت مخافة أن يخطىء ما خلا زياداً فإنه لا يزداد إكثاراً إلا أزداد إحساناً.

وخطب علي رضي الله عنه فقال في خطبته: عباد الله الموت الموت ليس منه فوت، إن أقمتم أخذكم، وإن فررتم منه أدرككم، الموت معقود بنواصيكم، فالنجا النجا والوحا الوحا، فإن وراءكم طالباً حثيثاً وهو القبر، ألا وإن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، ألا وإنه يتكلم في كل يوم ثلاث كلمات فيقول: أنا بيت الظلمة، أنا بيت الوحشة، أنا بيت الديدان ألا وإن وراء ذلك اليوم يوماً أشد منه يوماً يشيب فيه الصغير، ويسكر فيه الكبير ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[1]. ألا وإن وراء ذلك اليوم يوماً أشد منه؛ فيه نار تتسعر، حرُّها شديد وقعرها بعيد، وحليها حديد، وماؤها صديد، ليس لله فيها رحمة، قال: فبكى المسلمون بكاء شديداً، ثم قال: ألا وإن وراء ذلك اليوم ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2] أدخلنا الله وإياكم دار النعيم، وأجارنا وإياكم من العذاب الأليم.

وخطب الحجاج بن يوسف فقال في بعض خطبه: إن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن رضي الله عنه خطب بالبصرة فقال: أيها الناس كل كلام في غير ذكر فهو لغو، وكل صمت في غير فكر فهو سهو، والدنيا حلم والآخرة يقظة، والموت متوسط بينهما، ونحن في أضغاث أحلام.

قيل: اجتمع الناس عند معاوية وقام الخطباء لبيعة يزيد، وأظهر قوم الكراهة، فقام رجل من الخطباء من عذرة يقال له يزيد بن المقنع فاخترط من سيفه شبراً ثم قال: أمير المؤمنين هذا وأشار إلى معاوية، ثم قال: فإن يهلك، فهذا وأشار إلى يزيد، ثم قال: فمن أبى فهذا، وأشار إلى سيفه، فقال له معاوية: أنت سيد الخطباء.

فصل

في ذكر الشعر والشعراء وسرقاتهم

قيل: ما استدعي شارد الشعر بمثل الماء الجاري والشرف العالي، والمكان الخضر الخالي.

وقيل: أمسك على النابغة الجعدي أربعين يوماً فلم ينطق بالشعر، ثم أن بني جعدة غزوا، فظفروا، فاستخفه الطرب والفرح، فرام الشعر، فذلَّ له ما استصعب عليه، فقال له قومه: والله لنحن بإطلاق لسان شاعرنا أَسَرُّ منا بالظفر بعدونا.

وقال أبو نؤاس: ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة منهن الخنساء وليلى، فما ظنك بالرجال؟ وقال: الرجال الشعراء أمراء الكلام يتصرفون فيه كيف شاءوا، جائز لهم فيه ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده، ومن تسهيل اللفظ وتعقيده.

وقيل: وفد زياد بن عبد الله على معاوية فقال له: أقرأت القرآن؟ قال نعم. قال: أقرضت القريض؟ قال: نعم.

---

(١) سورة الحج، الآية (٢).

(٢) سورة آل عمران، الآية: (١٣٣).

قال: أرويت الشعر؟ قال: لا. فكتب إلى عبد الله: أبا زياد بارك الله لك في ابنك فأروه الشعر، فقد وجدته كاملاً، وإني سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: أرووا الشعر فإنه يدل على محاسن الأخلاق، ويقي مساويها، وتعلموا الأنساب فَرُبَّ رَحِم مجهولة قد وصفت بعريان النسب، وتعلموا من النجوم ما يدلكم على سبلكم في البر والبحر، ولقد هممت بالهرب يوم صفين، فما ثبتني إلا قول القائل:

أقول لها إذا جشأت وجاشت
مكانك تُحمدي أو تستريحي[1]

وقيل: لم ير قط أعلم بالشعر والشعراء من خلف الأحمر، كان يعمل الشعر على ألسنة الفحول من القدماء، فلا يتميز عن مقولهم، ثم تنسك، فكان يختم القرآن كل يوم وليلة، ويذل له بعض الملوك مالاً جزيلاً على أن يتكلم في بيت من الشعر شَكُوا فيه فأبى.

وكان الحسن بن علي رضي الله عنه يعطي الشعراء، فقيل له في ذلك، فقال: خير مالك ما وقيت به عرضك.

وقال أبو الزناد: ما رأيت أروى للشعر من عروة قلت له: ما أرواك يا أبا عبد الله؟ فقال: وما روايتي مع رواية عائشة رضي الله عنها ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً.

وكان رسول الله ﷺ يتمثل بقول القائل: كفى الإسلام والشيب للمرء ناهياً، ولم ينطق به موزوناً، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أشهد أنك رسول الله حقاً وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى﴾[2].

ولنذكر نبذة من سرقات الشعراء وسقطاتهم:

فمن ذلك قول قيس بن الخطيم وهو شاعر الأوس وشجاعها[3]:

وما المال والأخلاق إلاّ مُعَارةٌ
فما اسطعت من معروفها فتزوّد

وكيف يخفى ما أخذه مع اشتهار قصيدة طرفة بن العبد وهي معلقة على الكعبة يقول فيها:

(١) يخاطب نفسه إذ اضطربت فيقول لها اثبتي مكانك فإما النصر تحمدي وإما الشهادة فتستريحي من عناء الدنيا.
(٢) سورة يس، الآية (٦٩).
(٣) أبو يزيد شاعر الأوس وأحد صناديدها أدرك الإسلام فقتل قبل أن يدخل فيه.

لعمرك ما الأيام إلاّ معارةٌ
فما استطعت من معروفها فتزودِ

ومن ذلك قول عبدة بن الطيب:

فما كان قيسٌ هلكُهُ هلكُ واحدٍ
ولكنهُ بنيانُ قومٍ تهدّما

أخذه من قول امرىء القيس:

فلو أنها نفسي تموت شريتها
ولكنها نفسٌ تساقط أنفسا

ويقال من سرق شيئاً واسترقَّه، فقد استحقه، وهو أن يسرق الشاعر المعنى دون اللفظ. فمن السرقة الفاحشة قول كثير في عبد الملك بن مروان:

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه
حَصَانٌ عليها عقد در يزينها[1]

أخذه من قول الحطيئة ولم يغير سوى الروي:

إذا ما أراد الغزو لم يثنِ همه
حصانٌ عليها لؤلؤ وشنوفُ[2]

وجرير على سعة تبحره وقدرته على غرر الشعر وابتكار الكلام نقل قوله:

فلو كان الخلود بفضل قوم
على قومٍ لكان لنا الخلودُ

من قول زهير وهو شعر مشهور يحفظه الصبيان وترويه النسوان وهو:

فلو كان حمدٌ يخلد المرء لم يمتْ
ولكنّ حمد المرء غير مخلد

وقد قال الشماخ:

وأمرٍ ترجّي النفس ليس بنافع
وآخر تخشى ضَيرَهُ لا يضيرها

وهو مأخوذ من قول الآخر:

ترجّي النفوسُ الشيءَ لا تستطيعه
وتخشى من الأشياء ما لا يضيرُها

وأبو تمام مع قوته وقدرته على الكلام يقول:

وأحسن من نور تُفتّحه الصبا
بياض العطايا في سواد المطالبِ

(١) الحَصَان: المرأة المحصنة والمراد الزوجة.
(٢) الشنوف: الحَلَق والأوضاح أي ما يعلق في الآذان من حُلي.

أخذه من قول الأخطل:

رأيت بياضاً في سوادٍ كأنه
بياض العطايا في سواد المطالبِ

ومن سقطات الشعراء:

ما قيل: أن أبا العتاهية كان مع تقدمه في الشعر كثير السقط، روي أنه لقي محمد بن مبادر بمكة، فمازحه وضاحكه، ثم إنه دخل على الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين هذا شاعر البصرة يقول قصيدة في كل سنة، وأنا أقول في كل سنة مائتي قصيدة، فأدخله الرشيد إليه وقال: ما هذا الذي يقول أبو العتاهية، فقال: يا أمير المؤمنين لو كنت أقول كما يقول:

ألا يا عتبة الساعة
أموت الساعة الساعة

لقلت كثيراً ولكني أقول:

ابن عبد الحميد يوم توفي
هدّ ركناً ما كان بالمهدودِ

ما درى نعشه ولا حاملوه
ما على النعش من عفافٍ وجودِ

فأعجب الرشيد قوله وأمر له بعشرة آلاف درهم، فكاد أبو العتاهية يموت غماً وأسفاً.

وكان بشّار بن برد يسمونه أبا المحدثين، ويسلمون إليه في الفضيلة والسبق، وبعض أهل اللغة يستشهد بشعره ومع ذلك قال:

إنما عظم سليمى حبتي
قصبُ السكر لا عظم الجملْ

وإذا أدنيت منها بصلاً
غلب المسك على ريح البصلْ

هذا مع قوله:

إذا قامت لمشيتها تثنت
كأن عظامها من خيزران

ومع قوله في الفخر:

كأنّ مثار النقع[1] فوق رؤوسنا
وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبه

ومع قوله أيضاً:

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى
ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

وأبو الطيب المتنبي في فضله المشهور وأخذه بزمام الكلام، وقوته على رقائق المعاني وعلى ما في شعره من الحكم والأمثال السائرة يقول:

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم
إذا رأى غير شيءٍ ظنّه رجلا

وغير شيء معناه المعدوم، والمعدوم لا يرى فهذا سقط فاحش. ومما يستهجن من قوله وتكاد أن تمجه الأسماع قوله:

تقلقلت بالهمّ الذي قلقل الحشا
قلاقل عيشٍ كلّهن قلاقل

وقوله وقد جمع بين قبح اللفظ وبرودة المعنى:

إن كان مثلك كان أو هو كائنٌ
فبرئت حينئذ من الإسلامِ

ومن معانيه المسروقة قوله:

ونَهْبُ نفوسِ أهل النهب أولى
بأهل المجد من نهب القماش

أخذه من قول أبي تمام:

إن الأسود أسود الغاب همتها
يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

قال أبو عبد الله الزبيري: اجتمع راوية جرير، وراوية كثير، وراوية جميل، وراوية الأحوص، وراوية نصيب، فافتخر كل منهم وقال: صاحبي أشعر، فحكموا السيدة سكينة بنت الحسين رضي الله تعالى عنهما بينهم لعقلها وتبصرها بالشعر، فخرجوا حتى استأذنوا عليها، وذكروا لها أمرهم فقالت لراوية جرير أليس صاحبك الذي يقول:

طرقتك صائدةُ القلوبِ وليس ذا
وقت الزيارة فارجعي بسلام

وأي ساعة أحلى من الزيارة بالطروق! قبح الله صاحبك وقبح شعره فهلا قال: فادخلي بسلام.

ثم قالت لراوية كثير أليس صاحبك الذي يقول:

يقرّ بعيني ما يقرّ بعينها
وأحسن شيء ما به العين قرت

وليس شيء أقر بعينها من النكاح، أيحب صاحبك أن يُنْكَحَ! قبح الله صاحبك وقبح شعره.

---

(١) النقع: التراب والغبار.

ثم قالت لراوية جميل أليس صاحبك الذي يقول:

فلو تركت عقلي معي ما طلبتها
ولكن طلابيها لما فات من عقلي

فما أراه هَوِيَ، وإنما طلب عقله. قبح الله صاحبك وقبح شعره. ثم قالت لراوية نصيب أليس صاحبك الذي يقول:

أهيم بدعدٍ ما حييت فإن أمت
فوا حزني من ذا يهيم بها بعدي

فما له همة إلا مَنْ يتعشقها بعده. قبحه الله وقبح شعره هلاَّ قال:

أهيم بدعدٍ ما حييت فإن أمت
فلا صلحت دعد لذي خِلّة بعدي

ثم قالت لراوية الأحوص أليس صاحبك الذي يقول:

من عاشقين تواعدا وتراسلا
ليلا إذا نجم الثريا حلّقا
باتا بأنعم ليلة وألذها
حتى إذا وضح الصباح تفرقا

قبحه الله وقبح شعره. هلا قال: تعانقا. فلم تثن على واحد منهم، وأحجم رواتهم عن جوابها رضي الله عنها.

وروى ابن الكلبي قال: لما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز وفدت إليه الشعراء كما كانت تفد على الخلفاء من قبله، فأقاموا ببابه أياماً لا يؤذن لهم في الدخول حتى قدم عدي بن أرطأة عليه وكان منه بمكانة فتعرض له جرير وقال:

يا أيها الرجل المزجي مَطِيَّتَهُ[1]
هذا زمانك إنّي قد خلا زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه
أني لدى الباب كالمشدود في قَرَنٍ[2]
لا تنس حاجتنا لاقيت مغفرة
قد طال مَكْثِيَ عن أهلي وعن وطني

فقال: نعم يا أبا عبد الله، فلما دخل على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال: يا أمير المؤمنين، الشعراء ببابك، وألسنتهم مسمومة، وسهامهم صائبة، فقال عمر رضي الله عنه: مالي وللشعراء، فقال: يا أمير المؤمنين إن

(١) المزجي مطيته: المستحث ناقته أو فرسه على الإسراع.
(٢) المشدود في قرن: المربوط مقروناً بحبل مع شيء آخر.

رسول الله ﷺ مُدِحَ فأعطى، وفيه أسوة لكل مسلم، قال: صدقت، فمن بالباب منهم؟ قال: ابن عمك عمر بن أبي ربيعة القرشي قال: لا قرب الله قرابته ولا حيًّا وجهه، أليس هو القائل:

ألا ليتني في يوم تدنو منيتي
شممت الذي ما بين عينيك والفمِ
وليت طهوري كان ريقك كلهُ
وليت حنوطي من مشاشك والدم
وياليت سلمى في القبور ضجيعتي
هنالك إن في جَنّةٍ أو جهنّمِ

فليته عدو الله تمنى لقاءها في الدنيا، ثم يعمل عملا صالحاً، والله لا يدخل عليَّ أبداً، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال جميل بن معمر العذري قال: أليس هو القائل:

ألا ليتنا نحيا جميعاً فإن نمتْ
يوافي لدى الموتى ضريحي ضريحها
فما أنا في طول الحياة براغبٍ
إذا قيل قد سوّي عليها صفيحها[1]
أظلّ نهاري لا أراها وتلتقي
مع الليل روحي في المنام وروحها

والله لا يدخل عليَّ أبداً، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: كثير عزة قال: أليس هو القائل:

رهبان مدين والذين عهدتهم
يبكون من حذر الفراق قعودا
لو يسمعون كما سمعت حديثها
خروا لعزّة رُكّعاً وسجودا

أبعده الله، فوالله لا يدخل عليَّ أبداً، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: الأحوص الأنصاري قال: أبعده الله، والله لا يدخل عليَّ أبداً، أليس هو القائل، وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جاريته حتى هرب بها منه:

الله بيني وبين سيّدها
يفرّ مني بها وأتبعه

فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: همام بن غالب الفرزدق. قال: أليس هو القائل يفتخر بالزنا في قوله:

هما دلّياني من ثمانين قامة
كما انقضّ بازٌ ليِّنُ الريش كاسِرُه

(١) صفيحها: قبرها.

فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا
أحيٌّ فيرجى أم قتيلٌ نحاذره
فقلت ارفعوا الأجراس لا يفطنوا بنا
ووليت في أعقاب ليلٍ أبادره

والله لا دخل عليَّ أبداً، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: الأخطل التغلبي. قال: أليس هو القائل:

ولست بصائم رمضان عمري
ولست بآكلٍ لحم الأضاحي
ولست بزاجرٍ عيساً بكوراً
إلى أطلال مكّة بالنجاحِ
ولست بقائم كالعبد يدعو
قبيل الصبح حيّ على الفلاح
ولكني ساشربها شمولاً
وأسجد عند منبلج الصباح[(1)]

أبعده الله عني، فوالله لا دخل عليَّ أبداً، ولا وطىء لي بساطاً، وهو كافر، فمن بالباب غيره من الشعراء ممن ذكرت؟ قال: جرير. قال: أليس هو القائل:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا
وقت الزيارة فارجعي بسلام

فإن كان ولا بد، فهذا، فأذِنَ له قال عدي بن أرطأة: فخرجت فقلت: أدخل يا جرير، فدخل وهو يقول:

إنّ الذي بعث النبي محمداً
جعل الخلافة في الإمام العادل
وسع الخلائق عدلُهُ ووفاؤهُ
حتى ارعووا وأقام ميل المائل[(2)]
إني لأرجو منه نفعاً عاجلاً
والنفسُ مولعةٌ بحبِّ العاجل
والله أنزل في الكتاب فريضة
لابن السبيل وللفقير العائل

فلما مثل بين يديه قال: يا جرير اتق الله ولا تقل إلا حقاً، فأنشأ يقول:

كم باليمامة من شعثاء أرملة
ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
ممّن بعدلكَ يُكْفى فقد والده
كالفرخ في العشّ لم يدرج ولم يطر

أأذكر الجهد والبلوى التي نزلت
أم قد كفاني ما بلّغت من خبري
إنّا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا
من الخليفة ما نرجو من المطر
إن الخلافة جاءته على قدرٍ
كما أتى ربّه موسى على قدر
هذي الأرامل قد قُضّيت حاجتها
فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر
الخير ما دُمْتَ حيّاً لا يفارقنا
بوركت يا عمر الخيرات من عمر

فقال: والله يا جرير لقد وافيت الأمر، ولا أملك إلا ثلاثين ديناراً فعشرة أخذها عبد الله ابني، وعشرة أخذتها أم عبد الله، ثم قال لخادمه: ادفع إليه العشرة الثالثة، فقال: والله يا أمير المؤمنين أنها لأحب مال اكتسبته، ثم خرج فقال له الشعراء: ما وراءك يا جرير؟ فقال: ورائي ما يسوءكم خرجت من عند أمير يعطي الفقراء ويمنع الشعراء، وإنني عنه لراض، ثم أنشأ يقول:

رأيت رقى الجنّ لا تستفزه
وقد كان شيطاني من الجن راقيا

ومما جاء في كبوات الجياد وهفوات الأمجاد

قال الأحنف الشريف: من عدت سقطاته، قلت عثراته، وقالوا: كل صارم ينبو، وكل جواد يكبو، وكان الأحنف بن قيس حليماً سيداً يضرب به المثل، وقد عدت له سقطة وهو أن عمرو بن الأهتم دس إليه رجلاً يسفهه فقال: يا أبا بحر ما كان أبوك في قومه؟ قال: كان أوسطهم وسيدهم، ولم يتخلف عنهم، فرجع إليه ثانياً، ففطن أنه من قبل عمرو بن الأهتم، فقال: ما كان أبوك؟ قال: كانت له فتوة ومروءة، ومكارم أخلاق، ولم يكن أهتم سلأّجا.

وقال سعيد بن المسيب: ما فاتني الأذان في مسجد رسول الله ﷺ منذ أربعين سنة، ثم قام يريد الصلاة فوجد الناس قد خرجوا من المسجد.

وقال قتادة: ما نسيت شيئاً قط، ثم قال: يا غلام ناولني نعلي. قال: النعل في رجلك.

وكان هشام بن عبد الملك من رجال بني أمية ودهاتهم، وقد عدت له سقطات منها: أن الحادي حدا به يوماً فقال:

إني عليك أيها النجيّ
أكرم من يمشي به المطيّ

(1) الشمول: الخمر.
(2) ارعووا: رجعوا عن الضلالة وارتدعوا.

فقال هشام: صدقت. وذكر عنده سليمان أخوه، فقال: والله لأشكونه يوم القيامة إلى أمير المؤمنين عبد الملك، ولما ولي الخلافة قال: الحمد لله الذي أنقذني من النار بهذا المقام. قال النابغة: أي الرجال المهذب[1]، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب العاشر
في التوكل على الله تعالى والرضا بما قسم والقناعة وذم الحرص والطمع وما أشبه ذلك

وفيه فصول

الفصل الأول
في التوكل على الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[4].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير». رواه مسلم قيل: معناه متوكلون، وقيل: قلوبهم رقيقة.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصاً وتعود بطاناً»[5].

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود من دعاني أجبته، ومن استغاثني أغثته، ومن استنصرني نصرته، ومن توكل عليّ كفيته، فأنا كافي المتوكلين وناصر المستنصرين، وغياث المستغيثين، ومجيب الداعين.

وحكي أنه كان في زمن هارون الرشيد قد حصل للناس غلاء سعر، وضيق حال حتى اشتد الكرب على الناس اشتداداً عظيماً، فأمر الخليفة هارون الرشيد الناس بكثرة الدعاء والبكاء، وأمر بكسر آلات الطرب، ففي بعض الأيام رؤي عبد يصفق ويرقص ويغني، فحمل إلى الخليفة هارون الرشيد، فسأله عن فعله ذلك من دون الناس، فقال: إن سيدي عنده خزانة بر، وأنا متوكل عليه أن يطعمني منها، فلهذا أنا إذاً لا أبالي فأنا أرقص وأفرح، فعند ذلك قال الخليفة: إذا كان هذا قد توكل على مخلوق مثله، فالتوكل على الله أولى، فسلّم للناس أحوالهم، وأمرهم بالتوكل على الله تعالى.

وحكي أن حاتماً الأصم كان رجلاً كثير العيال، وكان له أولاد ذكور وإناث، ولم يكن يملك حبة واحدة، وكان قدمه التوكل فجلس ذات ليلة مع أصحابه يتحدث معهم، فتعرضوا لذكر الحج، فداخل الشوق قلبه، ثم دخل على أولاده، فجلس معهم يحدثهم، ثم قال لهم: لو أذنتم لأبيكم أن يذهب إلى بيت ربه في هذا العام حاجاً، ويدعو لكم ماذا عليكم لو فعلتم؟ فقالت زوجته وأولاده: أنت على هذه الحالة لا تملك شيئاً ونحن على ما ترى من الفاقة، فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحالة؟

وكان له ابنة صغيرة فقالت: ماذا عليكم لو أذنتم له ولا يهمكم ذلك، دعوه يذهب حيث شاء، فإنه مُناوِلٌ للرزق، وليس برزاق، فذكّرتهم ذلك، فقالوا: صدقت والله هذه الصغيرة، يا أبانا انطلق حيث أحببت، فقام من وقته وساعته وأحرم بالحج، وخرج مسافراً، وأصبح أهل بيته يدخل عليهم جيرانهم يوبخونهم كيف أذنوا له بالحج، وتأسف على فراقه أصحابه وجيرانه، فجعل أولاده يلومون تلك الصغيرة ويقولون: لو سكتّ ما تكلمنا، فرفعت الصغيرة طرفها إلى السماء وقالت: إلهي وسيدي ومولاي عودت القوم بفضلك وأنك لا تضيعهم فلا تخيبهم، ولا تخجلني معهم، فبينما هم على هذه الحالة إذ خرج أمير البلدة متصيداً، فانقطع عن عسكره وأصحابه، فحصل له عطش شديد، فاجتاز بيت الرجل الصالح حاتم الأصم، فاستسقى منهم ماء، وقرع الباب فقالوا: من أنت؟ قال: الأمير ببابكم يستسقيكم، فرفعت زوجة حاتم رأسها إلى السماء وقالت: إلهي وسيدي سبحانك البارحة بتنا جياعاً، واليوم يقف الأمير على بابنا يستسقينا، ثم إنها أخذت كوزاً جديداً وملأته ماء، وقالت للمتناول منها: اعذرونا، فأخذ الأمير الكوز وشرب منه، فاستطاب الشرب من ذلك الماء فقال: هذه الدار لأمير؟ فقالوا: لا والله بل لعبد من عباد الله الصالحين يعرف بحاتم الأصم. فقال الأمير: لقد سمعت به.

---

(١) المراد أيّ الرِّجَالِ السَّالِمُ من العيوبِ.
(٢) سورة الفرقان، الآية (٥٨).
(٣) سورة الأنفال، الآية (٢).
(٤) سورة الطلاق، الآية (٣).
(٥) خماصاً: جائعة وبطاناً: شبعى ممتلئة البطون.

فقال الوزير: يا سيدي لقد سمعت أنه البارحة أحرم بالحج وسافر ولم يخلف لعياله شيئاً، وأخبرت أنهم البارحة باتوا جياعاً، فقال الأمير: ونحن أيضاً قد ثقلنا عليهم اليوم، وليس من المروءة أن يثقل مثلنا على مثلهم، ثم حل الأمير منطقته من وسطه ورمى بها في الدار، ثم قال لأصحابه: من أحبني، فليلق منطقته، فحل جميع أصحابه مناطقهم ورموا بها إليهم، ثم انصرفوا، فقال الوزير: السلام عليكم أهل البيت، لآتينكم الساعة بثمن هذه المناطق، فلما أنزل الأمير رجع إليهم الوزير، ودفع إليهم ثمن المناطق مالاً جزيلاً واستردها منهم، فلما رأت الصبية الصغيرة ذلك بكت بكاء شديداً، فقالوا لها: ما هذا البكاء؟ إنما يجب أن تفرحي، فإن الله قد وسّع علينا، فقالت: يا أم، والله إنما بكائي كيف بتنا البارحة جياعاً، فنظر إلينا مخلوق نظرة واحدة، فأغنانا بعد فقرنا، فالكريم الخالق إذا نظر إلينا لا يكلنا إلى أحد طرفة عين، اللهم انظر إلى أبينا، ودبره بأحسن التدبير، هذا ما كان من أمرهم.

وأما ما كان من أمر حاتم أبيهم، فإنه لما خرج محرماً ولحق بالقوم توجع أمير الركب، فطلبوا له طبيباً، فلم يجدوا، فقال: هل من عبد صالح، فدل على حاتم، فلما دخل عليه وكلمه دعا له فعوفي الأمير من وقته، فأمر له بما يركب، وما يأكل، وما يشرب، فنام تلك الليلة مفكراً في أمر عياله، فقيل له في منامه: يا حاتم من أصلح معاملته معنا أصلحنا معاملتنا معه، ثم أخبر بما كان من أمر عياله، فأكثر الثناء على الله تعالى، فلما قضى حجه ورجع تلقته أولاده، فعانق الصبية الصغيرة وبكى، ثم قال: صغار قوم كبار قوم آخرين. إن الله لا ينظر إلى أكبركم ولكن ينظر إلى أعرفكم به، فعليكم بمعرفته والاتكال عليه فإنه من توكل على الله فهو حسبه.

ومن كلام الحكماء:

من أيقن أن الرزق الذي قسم له لا يفوته تعجل الراحة، ومن علم أن الذي قضي عليه لم يكن ليخطئه فقد استراح من الجزع، ومن علم أن مولاه خير له من العبادة، فَقَصَدَهُ كفاه همه وجمع شمله.

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت عند النبي ﷺ يوماً فقال: يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت، فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن تنفعك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن تضرك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الصحف وجفت الأقلام.

ورُفِعَ إلى الرشيد أن بدمشق رجلاً من بني أمية عظيم المال والجاه كثير الخيل والجند، يخشى على المملكة منه، وكان الرشيد يومئذ بالكوفة. قال منارة خادم الرشيد: فاستدعاني الرشيد وقال: اركب الساعة إلى دمشق وخذ معك مائة غلام وائتني بفلان الأموي، وهذا كتابي إلى العامل لا توصله له إلا إذا امتنع عليك، فإذا أجاب فَقَيِّدْهُ وعادله بعد أن تحصي جميع ما تراه وما يتكلم به، واذكر لي حاله ومآله، وقد أجلتك لذهابك ستاً، ولمجيئك ستاً، ولإقامتك يوماً، أفهمت؟ قلت: نعم. قال: فسر على بركة الله، فخرجت أطوي المنازل ليلاً ونهاراً لا أنزل إلا للصلاة أو لقضاء حاجة حتى وصلت ليلة السابع باب دمشق، فلما فتح الباب دخلت قاصداً نحو دار الأموي، فإذا هي دار عظيمة هائلة، ونعمة طائلة، وخدم وحشم، وهيبة ظاهرة، وحشمة وافرة، ومصاطب متسعة، وغلمان فيها جلوس، فهجمت على الدار بغير إذن، فبهتوا وسألوا عني، فقيل لهم: إن هذا رسول أمير المؤمنين، فلما صرت في وسط الدار رأيت أقواماً محتشمين، فظننت أن المطلوب فيهم، فسألت عنه، فقيل لي: هو في الحمام، فأكرموني، وأجلسوني، وأمروا بمن معي ومن صحبني إلى مكان آخر، وأنا أنتقد الدار، وأتأمل الأحوال، حتى أقبل الرجل من الحمام ومعه جماعة كثيرة من كهول وشبان وحفدة وغلمان، فسلم عليّ وسألني عن أمير المؤمنين، فأخبرته وأنه بعافية، فحمد الله تعالى، ثم أحضرت له أطباق الفاكهة فقال: تقدم يا منارة كُلْ معنا، فتأملت تأملاً كثيراً إذ لم يكنني، فقلت: ما آكل، فلم يعاودني.

ورأيت ما لم أره إلا في دار الخلافة، ثم قدم الطعام، فوالله ما رأيت أحسن ترتيباً، ولا أعطر رائحة، ولا أكثر آنية منه، فقال: تقدم يا منارة، فكُلْ. قلت: ليس لي به حاجة، فلم يعاودني.

ونظرت إلى أصحابي فلم أجد أحداً منهم عندي، فحرت لكثرة حفدته، وعدم من عندي، فلما غسل يديه أحضر له البخور فتبخر، ثم قام فصلى الظهر، فأتم الركوع والسجود، وأكثر من الركوع بعدها، فلما فرغ استقبلني وقال: ما أقدمك يا منارة؟

فناولته كتاب أمير المؤمنين، فقبله ووضعه على رأسه، ثم فضّه وقرأه، فلما فرغ من قراءته استدعى جميع بنيه وخواص أصحابه وغلمانه وسائر عياله، فضاقت الدار بهم

على سعتها، فطار عقلي، وما شككت أنه يريد القبض عليّ، فقال: الطلاق يلزمه والحج والعتق والصدقة، وسائر أيمان البيعة لا يجتمع منكم أثنان في مكان واحد حتى ينكشف أمره، ثم أوصاهم على الحريم ثم استقبلني وقدم رجليه وقال: هات يا منارة قيودك، فدعوت الحداد فقيده وحمل حتى وضع في المحمل وركبت معه في المحمل، وسرنا، فلما صرنا في ظاهر دمشق ابتدأ يحدثني بانبساط ويقول: هذه الضيعة لي تعمل في كل سنة بكذا وكذا، وهذا البستان لي وفيه من غرائب الأشجار وطيب الثمار كذا وكذا، وهذه المزارع يحصل لي منها كل سنة كذا وكذا، فقلت: يا هذا ألست تعلم أن أمير المؤمنين أهمّه أمرك حتى أنفذني خلفك وهو بالكوفة ينتظرك، وأنت ذاهب إليه ما تدري ما تقدم عليه، وقد أخرجتك من منزلك ومن بين أهلك ونعمتك وحيداً فريداً، وأنت تحدثني حديثاً غير مفيد ولا نافع لك ولا سألتك عنه، وكان شغلك بنفسك أولى بك:

فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد أخطأت فراستي فيك يا منارة ما ظننت أنك عند الخليفة بهذه المكانة إلا لوفور عقلك، فإذا أنت جاهل عامي لا تصلح لمخاطبة الخلفاء، أما خروجي على ما ذكرت فإني على ثقة من ربي الذي بيده ناصيتي وناصية أمير المؤمنين، فهو لا يضر ولا ينفع إلا بمشيئة الله تعالى، فإن كان قد قضي علي بأمر فلا حيلة لي بدفعه ولا قدرة لي على منعه، وإن لم يكن قد قدر علي بشيء فلو اجتمع أمير المؤمنين وسائر من على وجه الأرض على أن يضروني لم يستطيعوا ذلك إلا بإذن الله تعالى، وما لي ذنب فأخاف، وإنما هذا واشٍ وشى عند أمير المؤمنين ببهتان[1]، وأمير المؤمنين كامل العقل، فإذا اطّلع على براءتي فهو لا يستحل مضرتي، وعلي عهد الله لا كلمتك بعدها إلا جواباً.

ثم أعرض عني وأقبل على التلاوة وما زال كذلك حتى وافينا الكوفة بكرة اليوم الثالث عشر، وإذا النجب قد استقبلتنا من عند أمير المؤمنين تكشف عن أخبارنا، فلما دخلت على الرشيد قبلت الأرض، فقال: هات يا منارة أخبرني من يوم خروجك عني إلى يوم قدومك عليّ، فابتدأت أحدثه بأموري كلها مفصلة والغضب يظهر في وجهه، فلما انتهيت إلى جمعه لأولاده وغلمانه، وخواصه وضيق الدار بهم، وتفقدي لأصحابي، فلم أجد منهم أحداً أسودّ وجهه، فلما ذكرت يمينه عليهم تلك الأيمان المغلظة تهلّل وجهه، فلما قلت إنه قدم رجليه أسفر وجهه واستبشر، فلما أخبرته بحديثي معه في ضياعه وبساتينه وما قلت له، وما قال لي فقال: هذا رجل محسود على نعمته، ومكذوب عليه، وقد أزعجناه وأرعبناه وشوشنا عليه وعلى أولاده وأهله، أخرج إليه، وانزع قيوده، وفكه وأدخله عليّ مكرماً، ففعلت، فلما دخل قبّل الأرض، فرحب به أمير المؤمنين وأجلسه، واعتذر إليه، فتكلم بكلام صحيح، فقال له أمير المؤمنين: سل حوائجك، فقال: سرعة رجوعي إلى بلدي وجمع شملي بأهلي وولدي قال: هذا كائن، فسل غيره؟ قال: عدل أمير المؤمنين في عماله ما أحوجني إلى سؤال. قال: فخلع عليه أمير المؤمنين، ثم قال: يا منارة اركب الساعة معه حتى ترده إلى المكان الذي أخذته منه. قم في حفظ الله وودائعه ورعايته ولا تقطع أخبارك عنا وحوائجك، فانظر حسن توكله على خالقه، فإنه من توكل عليه كفاه ومن دعاه لبّاه، ومن سأله أعطاه ما تمناه.

وروي أن هذه الكلمات وجدها كعب الأحبار مكتوبة في التوراة فكتبها وهي: يا ابن آدم لا تخافن من ذي سلطان ما دام سلطاني باقياً، وسلطاني لا ينفد أبداً، يا ابن آدم لا تخش من ضيق الرزق ما دامت خزائني ملآنة، وخزائني لا تنفد أبداً، يا ابن آدم لا تأنس بغيري، وأنا لك، فإن طلبتني وجدتني، وإن أنست بغيري فِتُّك وفاتك الخير كله، يا ابن آدم خلقتك لعبادتي، فلا تلعب، وقسمت رزقك فلا تتعب، وفي أكثر منه فلا تطمع، ومن أقل منه فلا تجزع، فإن أنت رضيت بما قسمته لك أرحت قلبك وبدنك، وكنت عندي محموداً، وإن لم ترض بما قسمته لك فوعزتي وجلالي لأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش في البر ولا ينالك منها إلا ما قد قسمته لك، وكنت عندي مذموماً، يا ابن آدم خلقت السموات السبع والأرضين السبع، ولم أعْيَ بخلقهن أيعينني رغيف أسوقه لك من غير تعب، يا ابن آدم أنا لك محب، فبحقي عليك كن لي محباً، يا ابن آدم لا تطالبني برزق غد كما لا أطالبك بعمل غد، فإني لم أنس من عصاني، فكيف من أطاعني وأنا على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط.

قال الشاعر:

وما ثَمَّ إلاّ الله في كلِّ حالةٍ
فلا تتكل يوماً على غير لطفهِ

---

(٦) البهتان: اغتياب المرء بما ليس فيه، وهو من أنواع الظلم.

فكم حالةٍ تأتي ويكرهُها الفتى
وخيرته فيها على رغم أنفه

ولمؤلفه رحمه الله تعالى:

توكّل على الرحمن في الأمر كلّه
فما خاب حقاً من عليه توكّلا
وكن واثقاً بالله واصبر لحكمه
تفزْ بالذي ترجوه منه تفضّلا

الفصل الثاني

في القناعة والرضا بما قسم الله تعالى

جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[1]. أن المراد بها القناعة.

وقال ﷺ: «القناعة مال لا ينفذ». **وقيل:** يا رسول الله ما القناعة؟ قال: «الأياس مما في أيدي الناس وإياكم والطمع فإنه الفقر الحاضر».

وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه من القناعة بالجانب الأوفر، وإنه كان يشتهي الشيء فيدافعه سنة.

قال الكندي:

العبد حرٌ ما قنع
والحرّ عبدٌ ما طمع

وقال بشر بن الحارث: خرج فتى في طلب الرزق، فبينما هو يمشي فأعيا، فآوى إلى خراب يستريح فيه، فبينما هو يدير بصره إذ وقعت عيناه على أسطر مكتوبة على حائط، فتأملها فإذا هي:

إني رأيتك قاعداً مستقبلي
فعلمتُ أنك للهموم قرينُ
هوّن عليك وكن بربّك واثقاً
فأخو التوكّل شأنه التهوينُ
طرح الأذى عن نفسه في رزقه
لمّا تيقن أنّهُ مضمونُ

قال: فرجع الفتى إلى بيته، ولزم التوكل وقال: اللهم أدّبْنا أنت.

قال الجاحظ: إنما خالف الله تعالى بين طبائع الناس ليوفق بينهم في مصالحهم، ولولا ذلك لاختاروا كلهم الملك والسياسة والتجارة والفلاحة وفي ذلك بطلان المصالح، وذهاب المعايش، فكل صنف من الناس مزين لهم ما هم فيه، فالحائك إذا رأى من صاحبه تقصيراً أو خلفاً قال: ويلك يا حَجّام والحجام إذا رأى مثل ذلك من صاحبه قال: ويلك يا حائك، فجعل الله تعالى الاختلاف سبباً للائتلاف، فسبحانه من مدبر قادر حكيم، ألا ترى إلى البدوي في بيت من قطعة خيش معمد بعظام الجيف كلبه معه في بيته لباسه شملة من وبر أو شعر، ودواؤه بعر الإبل وطيبه القطران وبعر الظباء، وحُليُّ زوجته الوَدَع، وثماره المُقْل، وصيده اليَرْبُوع[1] وهو في مفازة[2] لا يسمع فيها إلا صوت بومة، وعواء ذئب وهو قانع بذلك مفتخر به.

وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه: يا بني إذا طلبت الغنى، فاطلبه في القناعة، فإنها مال لا ينفذ، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر، وعليك باليأس، فإنك لم تيأس من شيء إلا أغناك الله عنه.

وأصاب داود الطائي فاقة كبيرة، فجاءه حماد بن أبي حنيفة رضي الله عنه بأربعمائة درهم من تركة أبيه وقال: هي من مال رجل ما أقدم عليه أحد في زهده وورعه وطيب كسبه، فقال: لو كنت أقبل من أحد شيئاً لقبلتها تعظيماً للميت، وإكراماً للحي، ولكني أحب أن أعيش في عز القناعة.

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: اتخذوا البيوت منازل، والمساجد مساكن، وكلوا من بقل البرية، واشربوا من الماء القراح، واخرجوا من الدنيا بسلام.

وأنشد المبرد:

إن ضنّ زيدٌ بما في بطن راحتهِ
فالأرضُ واسعة والرزق مبسوطُ
إنّ الذي قدّر الأشيا بحكمتِهِ
لم ينسني قاعداً والرحلُ محطوطُ

قال عبد الواحد بن زيد: ما أحسب أن شيئاً من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا، ولا أعلم درجة أرفع من الرضا وهو رأس المحبة، قيل له: متى يكون العبد راضياً عن ربه؟ قال: إذا سرته المصيبة كما تسره النعمة.

---

(١) سورة النحل، الآية (٩٧).

(١) حيوان صحراوي صغير أشبه بالفأر.
(٢) المفازة: الأرض المهلكة وإنما سميت مفازة تفاؤلاً.

وكان عبد الله بن مرزوق من ندماء المهدي، فسكر يوماً ففاتته الصلاة فجاءته جارية له بجمرة، فوضعتها على رجله، فانتبه مذعوراً فقالت له: إذا لم تصبر على نار الدنيا، فكيف تصبر على نار الآخرة. فقام فصلّى الصلوات، وتصدق بما يملكه وذهب يبيع البقل، فدخل عليه فضيل وابن عيينة، فإذا تحت رأسه لبنة وما تحت جنبه شيء، فقالا له: إنه لم يدع أحد شيئاً إلا عوضه الله منه بديلا، فما عوضك عما تركت له؟ قال: الرضا بما أنا فيه.

وقال الثوري: ما وضع أحد يده في قصعة غيره إلا ذُلّ له، **وقال الفضيل**: من رضي بما قسم الله له بارك الله له فيه.

وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: الشمس في الشتاء جلالي، ونور القمر سراجي، وبقل البرية فاكهتي، وشعر الغنم لباسي، أبيت حيث يدركني الليل ليس لي ولد يموت، ولا بيت يخرب، أنا الذي كببت الدنيا على وجهها.

(بيت مفرد)؛

إنَّ القناعة من يحلُلْ بساحتها
لم يلقَ في ظلِّها همّاً يُؤرِّقهُ[1]

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: أنظروا إلى الطير تغدو وتروح ليس معها شيء من أرزاقها، لا تحرث، ولا تحصد، والله يرزقها، فإن زعمتم أنكم أكبر بطوناً من الطير، فهذه الوحوش والبقر والحمُرُ لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها.

وقيل: وفد عروة بن أُذينة على هشام بن عبد الملك، فشكا إليه خِلَّته[2]، فقال له القائل:

لقد علمتَ وما الإسرافُ من خُلُقي
أنَّ الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى إليه فيعييني تطلُّبه
ولو قعدت أتاني ليس يعييني

وقد جئت من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق فقال: يا أمير المؤمنين لقد وعظَت فأبلغت، وخرج، فركب ناقته وكَرَّ إلى الحجاز راجعاً، فلما كان من الليل نام هشام على فراشه، فذكر عروة، فقال في نفسه رجل قرشي قال حكمة ووفد علي، فجبهته ورددته خائباً، فلما أصبح وجه إليه بألفي دينار، فقرع عليه الرسول باب داره بالمدينة، وأعطاه المال، فقال: أبلغ أمير المؤمنين مني السلام وقل له: كيف رأيت قولي سعيت، فأكديت، فرجعت، فأتاني رزقي في منزلي.

ولما ولي عبد الله بن عامر العراق قصده صديقان له أنصاري وثقفي، فلما سارا تخلف الأنصاري وقال: الذي أعطى ابن عامر العراق قادر على أن يعطيني، فوفد الثقفي وقال: أحوز الحظين، فلما دخل على عبد الله بن عامر قال له: ما فعل زميلك الأنصاري؟ قال: رجع إلى أهله، فأمر للثقفي بأربعة آلاف دينار [وللأنصاري بمثلها] فخرج الثقفي وهو يقول:

فوالله ما حرْصُ الحريص بنافع
فيغني ولا زهدُ القنوع بضائر
خرجنا جميعاً من مساقط روسنا
على ثقةٍ منا بجود ابن عامر
فلما أنخنا الناجعات ببابه
تخلف عني اليثربيّ ابن جابر
وقال ستكفيني عطية قادرٍ
على ما يشاء اليوم للخلق قاهر
فإن الذي أعطى العراق ابن عامر
لرَبّي الذي أرجو لسدِّ مفاقري
فقلت خلالي وجهه ولعله
سيجعل لي حظَّ الفتى المتزاور
فلما رآني سال عنه صبابةً
إليه كما حنت ظؤار الأباعر[1]
فأبْتُ وقد أيقنت أن ليس نافعاً
ولا ضائراً شيءٌ خلاف المقادر

قيل: أوحى الله تعالى إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه: أتدري لِمَ رزقت الأحمق؟ قال: لا يا رب. قال: ليعلم العاقل أن طلب الرزق ليس بالاحتيال.

ولبعض العرب:

ولا تجزع إذا أعسرت يوماً
فقد أيسرتَ في الزمن الطويلِ
ولا تظننْ بربك ظنَّ سوءٍ
فإنَّ الله أولى بالجميلِ

---

(١) يؤرّقه: يمنعه من النوم ويقلقه التفكر في الهموم.
(٢) خلّته: فقره وحاجته.

(١) ظؤار الأباعر: المرضعات من النوق صغار غيرها.

وإنَّ العُسْرَ يتبعه يَسَارٌ
وقول الله أصدق كلِّ قِيلِ

فلو أن العقول تسوق رزقاً
لكان المال عند ذوي العقولِ

وأوحى الله تعالى إلى يوسف عليه الصلاة والسلام: أُنظر إلى الأرض فنظر إليها، فانفجرت، فرأى دودة على صخرة، ومعها الطعام، فقال له: أتراني لم أغفل عنها، وأغفل عنك، وأنت نبي وابن نبي.

ودخل علي بن أبي طالب رضي الله عنه المسجد وقال لرجل كان واقفاً على باب المسجد: أمسك عليَّ بغلتي، فأخذ الرجل لجامها، ومضى وترك البغلة، فخرج علي وفي يده درهمان ليكافىء بها الرجل على إمساكه بغلته فوجد البغلة واقفة بغير لجام، فركبها ومضى، ودفع لغلامه درهمين يشتري بهما لجاماً، فوجد الغلام اللجام في السوق قد باعه السارق بدرهمين فقال علي رضي الله عنه: أن العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر ولا يزداد على ما قدر له.

وقيل لراهب: من أين تأكل؟ فأشار إلى فيه وقال: الذي خلق هذه الرحى يأتيها بالطحين.

وقال سليم بن المهاجر الجيلي:

كسوت جميل الصبر وجهي فصانه
به الله عن غشيان كلِّ بخيلِ

فما عشت لم آت البخيل ولم أقم
على بابه يوماً مقام ذليلِ

وإنَّ قليلاً يستر الوجه أن يرى
إلى الناس مبذولاً لغير قليلِ

وصلّى معروف الكرخي خلف إمام، فلما فرغ من صلاته قال الإمام لمعروف: من أين تأكل؟ قال: أصبر حتى أعيد صلاتي التي صليتها خلفك. قال: ولِمَ؟ قال: لأن من شك في رزقه شك في خالقه.

وقال أبو حازم: ما لم يكتب لي لو ركبت الريح ما أدركته.

وقال عمر بن أبي عمر اليوناني:

غلا السعر في بغداد من بعد رخصة
وإنّي في الحالين بالله واثقُ

فلست أخاف الضيق والله واسعٌ
غناه ولا الحرمان، والله رازق

وقال الفهستاني:

غنيٌّ بلا دنيا عن الخلق كلِّهم
وأنَّ الغنى الأعلى عن الشيء لاَ بِهِ

وقال منصور الفقيه:

الموت أسهل عندي
بين القنا والأسنّة

والخيل تجري سراعاً
مقطّعات الأعنّة

من أن يكون لنذلٍ
عليَّ فضلٌ ومنّة

وأنشد أعرابي:

أيا مالك لا تسأل الناس والتمسْ
بكفّيك فضل الله فالله أوسع

ولو تسأل الناس التراب لأوشكوا
إذا قيل هاتوا أن يملّوا ويمنعوا

وقال رجل لرسول الله ﷺ أوصني قال: عليك باليأس مما في أيدي الناس، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر.

وقيل: إذا وجدت الشيء في السوق، فلا تطلبه من صديقك.

وقيل لأعرابية: من أين معاشكم؟ قالت: لو لم نعش إلا من حيث نعلم لم نعش.

وقال أعرابي: أحسن الأحوال حال يغبطك بها من دونك ولا يحقرك معها من فوقك.

وقال المعري:

إذا كنت تبغي العيش فابغ توسّطاً
فعند التناهي يقصر المتطاولُ

توقّى البدور النقص وهي أهلّةٌ
ويدركها النقصان وهي كواملُ

وقال آخر:

إقنع بأيسر رزق أنت نائله
واحذر ولا تتعرض للإرادات

فما صفا البحر إلاّ وهو مُنتَقِصٌ
ولا تعكّر إلا في الزيادات

وقال أعرابي: استظهر على الدهر بخفة الظهر.

قال هشام بن إبراهيم البصري:

وكم ملك جَانَبْتُهُ عن كراهة
لإغلاق بابٍ أو لتشديد حاجبِ

ولي في غنى نفسي مرادٌ ومذهبٌ
إذا انصرفت عني وجوه المذاهب

وقيل: ينبغي أن يكون المرء في دنياه كالمدعو إلى الوليمة أن أتته صحفة تناولها، وإن لم تأته لم يرصدها ولم يطلبها.

وقال شقيق بن إبراهيم البلخي: قال لي إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: أخبرني عما أنت عليه. قلت: إن رزقت أكلت، وإن منعت صبرت. قال: هكذا تعمل كلاب بلخ؟ فقلت: كيف تعمل أنت؟ قال: إن رزقت آثرت، وإن منعت شكرت.

وقال بعضهم:

هي القناعة فالزمها تعِشْ ملكاً
لو لم يكن منك إلا راحة البدنِ
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها
هل راح منها بغير القطن والكفن

(وقال آخر):

وإنَّ القناعة كنز الغنى
فصرت بأذيالها مُمْتَسِكْ
فلا ذا يراني على بابه
ولا ذا يراني له منهمك
فصرت غنيّاً بلا درهم
أمرّ على الناس شبه الملك

جاء فتح الموصلي إلى أهله بعد العتمة، فلم يجد عندهم شيئاً للعشاء ووجدهم بغير سراج، فجلس ليلته يبكي من الفرح ويقول: بأي يد كانت مني تركت مثلي على هذه الحالة. والله تعالى أعلم.

الفصل الثالث

في ذم الحرص والطمع وطول الأمل

قال الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝﴾[1].

وروي أن النبي ﷺ قرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝﴾[1] قال: يقول ابن آدم مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، ولبست فأبليت، وتصدقت فأمضيت.

---

(١) سورة التكاثر، الآيتان (١ ـ ٢).

وروى عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: «يا عائشة إن أردت اللحوق بي، فليكفك من الدنيا كزاد الراكب، وإياك ومجالسة الأغنياء، ولا تستخلقي ثوباً حتى ترقعيه»[1].

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، وهلاك آخره هذه الأمة بالبخل والأمل».

وقيل: الحرص ينقص من قدر الإنسان ولا يزيد في رزقه، وقيل لحكيم: ما بال الشيخ أحرص على الدنيا من الشاب؟ قال: لأنه ذاق من طعم الدنيا ما لم يذقه الشاب.

وما أحسن ما قال بعضهم:

إذا طاوعتَ حرصك كنت عبداً
لكلِّ دنيئةٍ تدعى إليها

وقال آخر وأجاد:

قد شاب رأسي ورأس الدهر لم يشب
إن الحريص على الدنيا لفي تعب

وقيل للإسكندر: ما سرور الدنيا؟ قال: الرضا بما رزقت منها. قيل: فما غمها؟ قال: الحرص عليها.

وقال الحسن: لو رأيت الأجل ومروره لنسيت الأمل وغروره.

وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: إشترى أسامة بن زيد وليدة بمائة دينار إلى شهر، فسمعت رسول الله ﷺ يقول: ألا تعجبون من أسامة اشترى إلى شهر؟ إن أسامة لطويل الأمل.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان نبي الله ﷺ يخرج فيبول ثم يمسح بالتراب، فأقول: إن الماء منك قريب، فيقول: ما يدريني لعلي ما أبلغه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه: لا يزال الكبير شاباً في اثنين، حب المال وطول الأمل.

وقيل لمحمد بن واسع: كيف تجدك؟ قال: قصير الأجل، طويل الأمل، مسيء العمل، وقيل: من جرى في عنان أمله كان عاثراً بأجله، لو ظهرت الآجال لافتضحت الآمال.

ولقد أحسن أبو العباس أحمد بن مروان في قوله:

---

(١) أي تستغني عن ثوب وتستبدليه بحجة أنه بالٍ حتى يحتاج إلى الترقيع.

وذي حرص تراه يلمّ وفراً
لوارثه ويدفع عن حِماه

ككلب الصيد يمسك وهو طاوٍ
فريسته ليأكلها سواه

ولقد أحسن من قال في الجناس الحقيقي:

إذا ما نازعتك النفس حرصاً
فأمسكها عن الشهوات أمسك

ولا تحرص ليوم أنت فيه
وعُدَّ فرزق يومك رزق أمسك

ومن كلام الحكماء: إياكم وطول الأمل، فإن من ألهاه أمله أخزاه عمله.

قال عبد الصمد بن المعذل:

ولي أمل قد قطعت به الليالي
أراني قد فنيت به وداما

قال الحسن: إياكم وهذه الأماني، فإنه لم يعط أحد بالأمنية خيراً قط في الدنيا ولا في الآخرة.

وقال قس بن ساعدة:

وما قد تولى فهو لا شك فائتٌ
فهل ينفعنّي ليتني ولعلّني

وقال آخر:

ولا تتعلّلْ بالأماني فإنها
عطايا أحاديث النفوس الكواذب

وقال آخر وأجاد:

الله أصدقُ والآمالُ كاذبةٌ
وجلّ هذي المنى في الصّدر وسواس

(وقال آخر):

شطّ المزار بسعدى(١) وانتهى الأمل
فلا خَيَالٌ ولا رَسْمٌ ولا طَلَلُ(٢)

إلاّ رجاءً فما ندري أندركه
أم يستمرّ فيأتي دونه الأَجَلُ

وقال أبو العتاهية:

لقد لعبتُ وجَدَّ الموت في طلبي
وأن في الموت لي شغلاً عن اللعب

---

(١) أي صار منزلها بعيداً.
(٢) الطلل: آثار منازل القوم بعد رحليهم عن المكان.

ولو سمتْ فكرتي فيما خُلِقْتُ له
ما اشتدّ حرصي على الدنيا ولا طلبي

وله أيضاً:

تعالى الله يا سلم بن عمروٍ
أذلّ الحرص أعناق الرجال

هب الدنيا تقاد إليك عفواً
أليس مصير ذلك للزوال

وقد ضَمَّنْتُ البيت الأخير فقلت:

أيا من عاش في الدنيا طويلاً
وأفنى العمر في قيلٍ وقال

وأتعب نفسه فيما سيفنى
وجمّع من حرامٍ أو حلال

هب الدنيا تقاد إليك عفواً
أليس مصير ذلك للزوال

ومما جاء في الطمع وذمه:

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع، **وقال** رضي الله عنه: ما الخمر صِرْفاً بأذهب لعقول الرجال من الطمع.

وفي الحديث: «إياك والطمع فإنه الفقر الحاضر». وقال فيلسوف: العبيد ثلاثة: عبد رقّ، وعبد شهوة، وعبد طمع(١). وقال بعضهم: من أراد أن يعيش حراً أيام حياته فلا يسكن قلبه الطمع.

وقيل: اجتمع كعب وعبد الله بن سلاّم فقال له كعب: يا ابن سلاّم مَنْ أرباب العلم؟ قال: الذين يعملون به، قال: فما أذهب العلم عن قلوب العلماء بعد أن علموه، قال: الطمع وشره النفس، وطلب الحوائج إلى الناس.

واجتمع الفضل وسفيان وابن كريمة اليربوعي، فتواصوا ثم افترقوا وهم مجمعون على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب، والصبر عند الطمع.

وقيل: لما خلق الله آدم عليه السلام عجن بطينته ثلاثة أشياء: الحرص، والطمع، والحسد فهي تجري في أولاده

---

(١) لأن الشهوة تتسلط على المرء حتى يصير عبداً لمن عنده أو بواسطته يحقق شهوته كمن يذل نفسه للمرأة رغبة فيها، وعبد الطعام لا يستطيع مقاومته إذا وضع أمامه وإن كان قد أكل قبل قليل وعبيد الإدمان سواء إدمان الخمر أو المخدرات أو السجائر إلخ.. وعبد الطمع يقوده طمعه إلى مواقع الزلل والاستهانة بالنفس إلخ.

إلى يوم القيامة، فالعاقل يخفيها، والجاهل يبديها، ومعناه أن الله تعالى خلق شهوتها فيه.

قال إسماعيل بن قطري القراطيسي:

حسبي بعلميَ إنْ نفع
ما الذلّ إلاّ في الطمع

من راقب الله نزع
عن سوء ما كان صنع[1]

ما طار طير وارتفع
إلا كما طار وقع

وقال سابق البربري:

يخادع ريبَ الدهرِ عن نفسه الفتى
سفاهاً وريب الدهر عنها يخادعه

ويطمع في سوف ويهلك دونها
وكم من حريص أهلكته مطامعه

وقيل لأشعب: ما بلغ من طمعك؟ قال: أرى دخان جاري فأفت خبزي، وقال أيضاً: ما رأيت رجلين يتسارّان في جنازة إلا قدرت أن الميت أوصى لي بشيء من ماله، وما زفت عروس إلا كنست بيتي رجاء أن يغلطوا فيدخلوا بها إليّ.

قال بعضهم:

لا تغضبنّ على امرئ
لك مانعٌ ما في يديه

واغضب على الطّمع الذي استـ
ـدعاك تطلب ما لديه

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الحادي عشر في المشورة والنصيحة والتجارب والنظر في العواقب

قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[2]. واختلف أهل التأويل في أمره بالمشاورة مع ما أمده الله تعالى من التوفيق على ثلاثة أوجه:

أحدها أنه أمره بها في الحرب ليستقر له الرأي الصحيح، فيعمل عليه، وهذا قول الحسن.

ثانيها: أنه أمره بالمشاورة لما علم فيها من الفضل، وهذا قول الضحاك.

ثالثها: أنه أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون وإن كان في غنية عن مشورتهم، وهذا قول سفيان.

وقال ابن عيينة: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أمراً شاور فيه الرجال، وكيف يحتاج إلى مشاورة المخلوقين مَن الخالق مدبر أمره، ولكنه تعليم منه ليشاور الرجل الناس، وإن كان عالماً.

وقال عليه الصلاة والسلام: «ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار، ولا افتقر من اقتصد». وقال عليه الصلاة والسلام: «من أُعجب برأيه ضَلّ، ومن استغنى بعقله زَلّ». وكان يقال: ما استنبط الصواب بمثل المشاورة. وقال حكيم: المشورة موكل بها التوفيق لصواب الرأي.

وقال الحسن: الناس ثلاثة، فرجل رجل، ورجل نصف رجل، ورجل لا رجل. فأما الرجل الرجل فذو الرأي والمشورة، وأما الرجل الذي هو نصف رجل، فالذي له رأي ولا يشاور، وأما الرجل الذي ليس برجل، فالذي ليس له رأي ولا يشاور.

وقال المنصور لولده: خذ عني اثنتين: لا تقل في غير تفكير، ولا تعمل بغير تدبير.

وقال الفضل: المشورة فيها بركة وإني لأستشير حتى هذه الحبشية الأعجمية.

وقال أعرابي: لا مال أوفر من العقل، ولا فقر أعظم من الجهل، ولا ظهر أقوى من المشورة. وقيل: من بدأ بالاستخارة، وثنى بالاستشارة، فحقيق أن لا يخيب رأيه. وقيل: الرأي السديد أحمى من البطل الشديد.

قال أبو القاسم النهروندي:

وما أَلِفَ مطرورِ السّنانِ[1] مسدّدِ
يعارض يوم الروع رأياً مسددا

وقال علي رضي الله عنه: خاطر من استغنى برأيه.

وسمع محمد بن داود وزير المأمون قول القائل:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمةٍ
فإن فساد الرأي أن يترددا

---

(١) أي تراجع عن سيء أعماله.
(٢) سورة آل عمران، الآية (١٥٩).

(١) مطرور السنان: قد ظهر سنان رمحه مسنوناً طويلاً.

فأضاف إليه قوله:

وإن كنت ذا عزمٍ فانفذه عاجلاً
فإن فساد العزم أن يتقيّدا

ولمحمد بن إدريس الطائي:

ذهب الصواب برأيه فكأنّما
آراؤه اشتُقّت من التأييد
فإذا دجا خطبٌ تبلّج رأيه
صبحاً من التوفيق والتسديد[1]

ولمحمد الوراق:

إنّ اللبيب إذا تفرّق أمره
فتق الأمور مناظراً ومشاورا
وأخو الجهالة يستبدّ برأيه
فتراه يعتسف الأمور مخاطرا

وقال الرشيد حين بدا له تقديم الأمين على المأمون في العهد:

لقد بان وجه الرأي لي غير أنّني
عَدَلْتُ عن الأمر الذي كان أحزما[2]
فكيف يردّ الدّرّ في الضرع بعدما
توزّع حتى صار نهباً مقسّماً
أخاف التواء الأمر بعد استوائه
وأن ينقض الحبل الذي كان أبرما

وقال آخر:

خليليّ ليس الرأي في جنب واحدٍ
أشيرا عليّ اليوم ما تريانِ

ووصف رجل عضد الدولة فقال له: وجه فيه ألف عين، وفم فيه ألف لسان، وصدر فيه ألف قلب.

وقال أزدشير بن بابك: أربعة تحتاج إلى أربعة. الحسب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقرابة إلى المودة، والعقل إلى التجربة. وقال: لا تستحقر الرأي الجزيل من الرجل الحقير، فإن الدرّة لا يستهان بها لهوان غائصها.

وقال جعفر بن محمد: لا تكونن أول مشير، وإياك والرأي الخطير، وتجنب ارتجال الكلام، ولا تشيرن على مستبد برأيه، ولا على متلون، ولا على لجوج.

وقيل: ينبغي أن يكون المستشار صحيح العلم، مهذب الرأي، فليس كل عالم يعرف الرأي الصائب، وكم ناقد في شيء ضعيف في غيره.

قال أبو الأسود الدؤلي:

وما كلّ ذي نصحٍ بمؤتيك نصحه
وما كلّ مؤتٍ نُصحَه بلبيبِ
ولكن إذا ما استُجمعا عند واحدٍ
فحُقّ له من طاعةٍ بنصيبِ

وكان اليونان والفرس لا يجمعون وزراءهم على أمر يستشيرونهم فيه وإنما يستشيرون الواحد منهم من غير أن يعلم الآخر به لمعان شتى، منها:

لئلا يقع بين المستشارين منافسة، فتذهب إصابة الرأي، لأن من طباع المشتركين في الأمر التنافس والطعن من بعضهم في بعض.

وربما سبق أحدهم بالرأي الصواب فحسدوه وعارضوه.

وفي اجتماعهم أيضاً للمشورة تعريض السر للإذاعة، فإذا كان كذلك وأذيع السر لم يقدر الملك على مقابلة من أذاعه للإبهام[1]. فإن عاقب الكل عاقبهم بذنب واحد، وإن عفا عنهم ألحق الجاني بمن لا ذنب له.

وقيل: إذا أشار عليك صاحبك برأي ولم تحمد عاقبته فلا تجعلن ذلك عليه لوماً وعتاباً بأن تقول: أنت فعلت، وأنت أمرتني، ولولا أنت، فهذا كله ضجر ولوم وخفة[2].

وقال أفلاطون: إذا استشارك عدوك، فجرّد له النصيحة[3] لأنه بالاستشارة قد خرج عن عداوتك إلى موالاتك.

وقيل: من بذل نصحه واجتهاده لمن لا يشكره فهو كمن بذر في السباخ[4].

قال الشاعر يمدح من له رأي وبصيرة:

بصير بأعقاب الأمور كأنّما
يخاطبه من كل أمرٍ عواقبه[5]

---

(١) دجا: صار في الدجى أي الظلمة وتبلج: استنار كتبلج الصبح بعد العتمة.

(٢) عدلت عن الأمر: مِلْتُ عنه وتركته.

(١) إذ لا يمكنه تحديد من أذاع السر ما دام الأمر قد عُرِف من أكثر من واحد.

(٢) لأن عليك أن تستشير أكثر من واحد ثم تعمل رأيك في الأمر.

(٣) أي أخلص له النصيحة.

(٤) السباخ ج سبخة، وهي الأرض المالحة لا تنبت زرعاً.

(٥) عواقب الأمور: نتائجها.

وقال ابن المعتز: المشورة راحة لك، وتعب على غيرك. وقال الأحنف: لا تشاور الجائع حتى يشبع، ولا العطشان حتى يروى، ولا الأسير حتى يطلق، ولا المقل حتى يجد[1].

ولما أراد نوح بن مريم قاضي مروان أن يزوج ابنته استشار جاراً له مجوسياً، فقال: سبحان الله! الناس يستفتونك وأنك تستفتيني. قال: لا بد أن تشير عليّ. قال: إن رئيس الفرس كسرى كان يختار المال، ورئيس الروم قيصر كان يختار الجمال، ورئيس العرب كان يختار الحسب، ورئيسكم محمد كان يختار الدين، فانظر لنفسك بمن تقتدي.

وكان يقال: من أعطى أربعاً لم يمنع أربعاً، من أعطى الشكر لم يمنع المزيد، ومن أعطي التوبة لم يمنع القبول، ومن أعطي الاستخارة لم يمنع الخيرة، ومن أعطي المشورة لم يمنع الصواب.

وقيل: إذا استخار الرجل ربه واستشار صحبه وأجهد رأيه فقد قضى ما عليه، ويقضي الله تعالى في أمره ما يحب.

وقال بعضهم: خمير الرأي خير من فطيره[2]، وتقديمه خير من تأخيره.

وقالت الحكماء: لا تشاور معلماً، ولا راعي غنم، ولا كثير القعود مع النساء، ولا صاحب حاجة يريد قضاءها، ولا خائفاً، ولا حاقناً[3]. وقيل: سبعة لا ينبغي لصاحب أن يشاورهم. جاهل، وعدو وحسود، ومراء، وجبان، وبخيل، وذو هوى، فإن الجاهل يضل، والعدو يريد الهلاك، والحسود يتمنى زوال النعمة، والمرائي واقف مع رضا الناس، والجبان من رأيه الهرب، والبخيل حريص على جمع المال فلا رأي له في غيره، وذو الهوى أسير هواه فلا يقدر على مخالفته.

وحكي أن رجلاً من أهل يثرب يعرف بالأسلمي قال: ركبني دين أثقل كاهلي، وطالبني به مستحقوه، واشتدت حاجتي إلى ما لا بد منه، وضاقت عليّ الأرض، ولم أهتد إلى ما أصنع، فشاورت من أثق به من ذوي المودة والرأي، فأشار عليّ بقصد المهلب بن أبي صفرة بالعراق، فقلت له: تمنعني المشقة وبعد الشقة وتيه المهلب، ثم إني عدلت عن ذلك المشير إلى استشارة غيره، فلا والله ما زادني على ما ذكره الصديق الأول، فرأيت أن قبول المشورة خير من مخالفتها، فركبت ناقتي وصحبت رفقة في الطريق، وقصدت العراق، فلما وصلت دخلت على المهلب، فسلمت عليه وقلت له: أصلح الله الأمير إني قطعت إليك الدهناء[1]، وضربت أكباد الإبل من يثرب، فإنه أشار عليّ بعض ذوي الحجى والرأي بقصدك لقضاء حاجتي، فقال: هل أتيتنا بوسيلة أو بقرابة وعشيرة، فقلت: لا. ولكني رأيتك أهلاً لقضاء حاجتي، فإن قمت بها فأهل لذلك أنت، وأن يحل دونها حائل لم أذم يومك، ولم أيأس من غدك، فقال المهلب لحاجبه: اذهب به وادفع إليه ما في خزانة مالنا الساعة، فأخذني معه، فوجدت في خزانته ثمانين ألف درهم، فدفعها إليّ، فلما رأيت ذلك لم أملك نفسي فرحاً وسروراً، ثم عاد الحاجب بي إليه مسرعاً، فقال: هل ما وصلك يقوم بقضاء حاجتك؟ فقلت: نعم أيها الأمير وزيادة، فقال: الحمد لله على نجح سعيك، واجتنائك جني مشورتك، وتحقق ظن من أشار عليك بقصدنا، قال الأسلمي: فلما سمعت كلامه وقد أحرزت صلته أنشدته وأنا واقف بين يديه:

يا مَنْ على الجودِ صاغ اللَّهُ راحتَه
فليس يحسن غير البذل والجود
عمّت عطاياك أهل الأرض قاطبةً
فأنت والجودُ منحوتان من عود
من استشار فبابُ النجح منفتحٌ
لديه فيما ابتغاه غيرُ مردود

ثم عدت إلى المدينة فقضيت ديني، ووسعت على أهلي، وجازيت المشير عليّ، وعاهدت الله تعالى أن لا أترك الاستشارة في جميع أموري ما عشت.

وحكي عن الخليفة المنصور أنه كان صَدَرَ من عمه عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس أمور مؤلمة لا تحتملها حراسة الخلافة ولا تتجاوز عنها سياسة الملك، فحبسه عنده، ثم بلغه عن ابن عمه عيسى بن موسى بن علي، وكان والياً على الكوفة ما أفسد عقيدته

---

(١) لأن عقل كل واحد من هؤلاء مشغول بأمر يمنعه من التفكر بغيره.

(٢) خمير الرأي: الذي أشبعه درساً ومشاورة والفطير بالأصل الخبز الذي لم يختمر والرأي الفطير: أي المتعجل.

(٣) الحاقن: الذي قد اجتمع البول في مثانته ولم يعد يقدر على تأخير تبوله.

(١) الدهناء: أي صحراء الدهناء.

فيه، وأوحشه منه، وصرف وجه ميله إليه عنه، فتألم المنصور من ذلك وساء ظنه، وتأرق جفنه، وقلّ أمنه، وتزايد خوفه، وحزنه، فأدته فكرته إلى أمر دبره وكتمه عن جميع حاشيته وستره، واستحضر ابن عمه عيسى بن موسى وأجراه على عادة إكرامه، ثم أخرج من كان بحضرته وأقبل على عيسى وقال له: يا ابن العم إني مطلعك على أمر لا أجد غيرك من أهله، ولا أرى سواك مساعداً لي على حمل ثقله، فهل أنت في موضع ظني بك، وعامل ما فيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي، فقال له عيسى بن موسى: أنا عبد أمير المؤمنين ونفسي طوع أمره ونهيه، فقال: إن عمي وعمك عبد الله قد فسدت بطانته، واعتمد على ما بعضه يبيح دمه، وفي قتله صلاح ملكنا، فخذه إليك واقتله سراً، ثم سلمه إليه، وعزم المنصور على الحج مضمراً أن ابن عمه عيسى إذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصاص، وسلمه إلى أعمامه أخوة عبد الله ليقتلوه به قصاصاً، فيكون قد استراح من الاثنين عبد الله وعيسى. قال عيسى: فلما أخذت عمي وفكرت في قتله رأيت من الرأي أن أشاور في قضيته من له رأي عسى أن أصيب الصواب في ذلك، فأحضرت يونس ابن قرة الكاتب، وكان لي حسن ظن في رأيه، وعقيدة صالحة في معروفه، فقلت له: إن أمير المؤمنين دفع إليّ عمه عبد الله وأمرني بقتله وإخفاء أمره، فما رأيك في ذلك وما تشير به؟

فقال لي يونس: أيها الأمير احفظ نفسك بحفظ عمك وعم أمير المؤمنين، فإني أرى لك أن تدخله في مكان داخل دارك وتكتم أمره عن كل أحد ممن عندك، وتتولى بنفسك حمل طعامه وشرابه إليه، وتجعل دونه مغالق وأبواباً، وأظهر لأمير المؤمنين أنك قتلته وأنفذت أمره فيه، وانتهيت إلى العمل بطاعته، فكأني به إذا تحقق منك أنك فعلت ما أمرك به، وقتلت عمه أمرك بإحضاره على رؤوس الأشهاد، فإن اعترفت أنك قتلته بأمره أنكر أمره لك وآخذك بقتله وقتلك.

قال عيسى بن موسى: فقبلت مشورة يونس وعملت بها، وأظهرت لأمير المؤمنين أني أنفذت أمره، ثم حج المنصور، فلما قدم من حجه وقد استقر في نفسه أنني قد قتلت عمه عبد الله دسّ إليّ عمومته أخوة عبد الله، وحثهم على أن يسألوه في أخيهم، ويستوهبوه منه، فجاءوا إليه وقد جلس والناس بين يديه على مراتبهم، فسألوه في عبد الله فقال: نعم إن حقوقكم تقتضي إسعافكم بحاجتكم كيف وفيها صلة رحم وإحسان إلى من هو في مقام الوالد، ثم أمر بإحضار عيسى بن موسى، فأحضر لوقته فقال: يا عيسى كنت دفعت إليك قبل خروجي إلى الحج عمي عبد الله ليكون عندك في منزلك إلى حين رجوعي، فقال عيسى: قد فعلت يا أمير المؤمنين. فقال المنصور: وقد سألني فيه عمومتك وقد رأيت الصفح عنه وقضاء حاجتهم وصلة الرحم بإجابة سؤالهم فيه، فائتنا به الساعة.

قال عيسى: فقلت يا أمير المؤمنين ألم تأمرني بقتله والمبادرة إلى ذلك؟ قال: كذبت لم آمرك بذلك ولو أردت قتله لأسلمته إلى من هو بصدد ذلك، ثم أظهر الغيظ، وقال لعمومته: قد أقر بقتل أخيكم مدعياً أنني أمرته بقتله، وقد كذب عليّ.

قالوا: يا أمير المؤمنين فادفعه إلينا لنقتله به ونقتص منه، فقال: شأنكم به. قال عيسى: فأخذوني إلى الرحبة واجتمع الناس عليّ، فقام واحد من عمومتي إلي وسل سيفه ليضربني به، فقلت له: يا عم أفاعل أنت؟ قال: أي والله كيف لا أقتلك وقد قتلت أخي فقال لهم: لا تعجلوا وردوني إلى أمير المؤمنين فردوني إليه فقلت: يا أمير المؤمنين إنما أردت قتلي بقتله، والذي دبرته علي عصمني الله تعالى من فعله، وهذا عمك باق حي سوي، فإن أمرتني بدفعه إليهم دفعته الساعة.

فأطرق المنصور، وعلم أن ريح فكره صادفت إعصاراً وأن انفراده بتدبيره قارف خساراً، ثم رفع رأسه وقال: ائتنا به، فمضى عيسى وأحضر عبد الله، فلما رآه المنصور قال لعمومته: اتركوه عندي وانصرفوا حتى أرى فيه رأياً. قال عيسى: فتركته وانصرفت وانصرف إخوته، فسلمت روحي، وزالت كربتي، وكان ذلك ببركة الاستشارة بيونس وقبول مشورته والعمل بها، ثم إن المنصور أسكن عبد الله في بيت أساسه قد بني على الملح ثم أرسل الماء حوله ليلاً فذاب الملح وسقط البيت، فمات عبد الله، ودفن بمقابر باب الشام، وسلم عيسى من هذه المكيدة ومن سهام مراميها البعيدة.

ومما جاء في النصيحة: إعلموا أن النصيحة للمسلمين وللخلائق أجمعين من سنن المرسلين، قال الله تعالى إخباراً عن نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾[1]. وقال شعيب عليه السلام:

(١) سورة هود، الآية (٣٤).

﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾[1].
وقال صالح عليه السلام: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّٰصِحِينَ﴾[2].

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الدين النصيحة إن الدين النصيحة إن الدين النصيحة». قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامتهم.

فالنصح لله هو وصفه بما هو أهله وتنزيهه عما ليس له بأهل، والقيام بتعظيمه، والخضوع له ظاهراً وباطناً، والرغبة في محابه والبعد عن مساخطه، وموالاة من أطاعه، ومعاداة من عصاه، والجهاد في رد العصاة إلى طاعته قولاً وفعلاً. والنصيحة لكتابه إقامته في التلاوة، وتحسينه عند القراءة. وتفهم ما فيه، والذب عنه من تأويل المحدثين وطعن الطاعنين، وتعليم ما فيه للخلائق أجمعين. قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[3]. والنصيحة للرسول عليه السلام إحياء سنته بالطلب لها وإحياء طريقته في بث الدعوى، وتأليف الكلمة، والتخلق بالأخلاق الطاهرة، والنصيحة للأئمة معاونتهم على ما كلفوا القيام به بتنبيههم عند الغفلة، وإرشادهم عند الهفوة، وتعليمهم ما جهلوا، وتحذيرهم ممن يريد بهم السوء، وإعلامهم بأخلاق عمالهم وسيرتهم في الرعية، وسد خلتهم عند الحاجة، ورد القلوب النافرة إليهم. والنصيحة العامة للمسلمين الشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم والرحمة لصغيرهم وتفريج كربهم وتوقي ما يشغل خواطرهم، ويفتح باب الوسواس عليهم.

واعلم أن جرعة النصيحة مُرّةٌ لا يقبلها إلا أولو العزم.

وقال ميمون بن مهران: قال لي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: قل لي في وجهي ما أكره، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره.

وفي منثور الحكم: وَدُّكَ من نصحك وقَلاكَ من مشى في هواك[4]. **وقال أبو الدرداء رضي الله عنه:** إن شئتم لأنصحن لكم إن أحب عباد الله إلى الله الذين يحببون الله تعالى إلى عباده ويعملون في الأرض نصحاً.

ولورقة بن نوفل:

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم
إني النذير فلا يغرركم أحد
لا شيء مما ترى تبقى بشاشته
إلا الإله ويُردى[1] المال والولد
لم تغن عن هرمز يوماً ذخائره
والخلد قد حاولت عادٌ فما خلدوا

وقال بعض الخلفاء لجرير بن يزيد: إني قد أعددتك لأمر. قال: يا أمير المؤمنين. إن الله تعالى قد أعد لك مني قلباً معقوداً بنصحيتك، ويداً مبسوطة لطاعتك، وسيفاً مجرداً على عدوك.

وأنشد الأصمعي:

النصح أرخص ما باع الرجال فلا
تردد على ناصح نصحاً ولا تلمِ
إن النصائح لا تخفى مناهلُها
على الرجال ذوي الألباب والفهم[2]

ولمعاذ بن مسلم:

نصحتك والنصيحة إن تعدّت
هوى المنصوح عزّ لها القبول[3]
فخالفت الذي لك فيه حظٌ
فنالك دون ما أمّلت غول

وقيل: أشار فيروز بن حصين على يزيد بن المهلب أن لا يضع يده في يد الحجاج فلم يقبل منه، وسار إليه، فحبسه وحبس أهله فقال فيروز:

أمرتك أمراً حازماً فعصيتني
فأصبحت مسلوب الإمارة نادما
أمرتك بالحجاج إذ أنت قادرٌ
فنفسك أولي اللوم إن كنت لائما
فما أنا الباكي عليك صبابةً
وما أنا بالداعي لترجع سالما

ويقال: من اصفرّ وجهه من النصيحة، اسودّ لونه من الفضيحة.

---

(١) سورة الأعراف، الآية (٩٣).
(٢) سورة الأعراف، الآية (٧٩).
(٣) سورة ص، الآية (٢٩).
(٤) أي أحبك من نصحك وإن قال ما تكره، وكرهك من سايرك في هواك المودي بك إلى التهلكة.

(١) يردى المال: يذهب ويفنى ويردى الولد: يهلك.
(٢) مناهل ج منهل وهو موضع شرب الماء وطلبه ومناهل كل أمر مصدره الصحيح.
(٣) عزّ لها القبول: صار قبولها صعباً.

وقال طرفة:

ولا ترفدنّ النصح[1] من ليس أهلَهُ[2]
وكن حين تستغني برأيك غانيا
وإنّ امرأ يوماً تولّى برأيه
فدعه يصيبُ الرشدَ أو يك غاويا

وفي مثله قال بعضهم:

من الناس من أن يستشرك فتجتهد
له الرأي يستغششك ما لم تتابعه
فلا تمنحن الرأي من ليس أهله
فلا أنت محمودٌ ولا الرأي نافعه

والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثاني عشر
في الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة وما أشبه ذلك

قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[3] وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾[4]. وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[5]. وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[6]. وقال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[7]. والآيات في ذلك كثيرة مشهورة وفوائدها جمة منشورة.

(١) أي لا تعطينّ النصح.
(٢) أي من لا يقبله لهوى غالب عليه.
(٣) سورة النحل، الآية (١٢٥).
(٤) سورة النحل، الآية (٩٠).
(٥) سورة آل عمران، الآية (١٠٤).
(٦) سورة التوبة، الآية (٧١).
(٧) سورة آل عمران، الآية (١١٤).

وروينا في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

وقال شيخنا محيي الدين النووي رحمة الله تعالى عليه في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾[1]. إن هذه الآية الكريمة مما يغتر بها أكثر الجاهلين ويحملونها على غير وجهها بل الصواب في معناها أنكم إذا فعلتم ما أُمرتم به لا يضركم ضلالة من ضل.

ومن جملة ما أُمروا به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والآية مرتبة في المعنى على قوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[2].

وقال محمد بن تمام: الموعظة جند من جنود الله تعالى، ومثلها مثل الطين يضرب به على الحائط إن استمسك نفع وإن وقع أثر.

ومن كلام عليّ رضي الله تعالى عنه: لا تكونن ممن لا تنفعه الموعظة إلا إذا بالغت في إيلامه، فإن العاقل يتعظ بالأدب، والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب.

وأنشد الجاحظ:

وليس يزجركم ما توعظون به
والبُهم يزجرها الراعي فتنزجر

وكتب رجل إلى صديق له: أما بعد، فعظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك[3]، واستح من الله بقدر قربه منك، وخفه بقدر قدرته عليك والسلام. وقيل: من كان له من نفسه واعظ كان له من الله حافظ، وقال لقمان: الموعظة تشق على السفيه كما يشق صعود الوعر على الشيخ الكبير. قيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: إنك إن أتيتني بعبد آبق[4] كتبتك عندي حميداً، ومن كتبته عندي حميداً لم أعذبه بعدها أبداً.

وقال الرشيد لمنصور بن عمار: عظني وأوجز، فقال: يا أمير المؤمنين: هل أحد أحب إليك من نفسك، قال:

(١) سورة المائدة، الآية (١٠٥).
(٢) سورة المائدة، الآية (٩٩).
(٣) أي كن لهم قدوة في الخير.
(٤) العبد الآبق: الهارب من سيده العاصي له، والمراد هنا الإنسان العاصي وإعادته هدايته.

لا. قال: إن أردت أن لا تسيء إلى من تحب فافعل.

وقال النبي ﷺ في بعض خطبه: أيها الناس الأيام تطوى، والأعمار تفنى، والأبدان في الثرى تبلى، وأن الليل والنهار يتراكضان تراكض البريد[1]، ويقربان كل بعيد، ويخلقان كل جديد، وفي ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ورغب في الباقيات الصالحات.

ولما لقي ميمون بن مهران الحسن البصري قال له: لقد كنت أحب أن ألقاك فعظني، فقرأ الحسن البصري: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[2]. ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ۝﴾[3]. فقال: عليك السلام أبا سعيد لقد وعظتني أحسن موعظة.

ولما ضرب ابن ملجم لعنه الله علياً رضي الله عنه، دخل منزله فاعترته غشية ثم أفاق، فدعا الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما وقال: أوصيكما بتقوى الله تعالى، والرغبة في الآخرة، والزهد في الدنيا، ولا تأسفا على شيء فاتكما منها، فإنكما عنها راحلان. افعلا الخير وكونا للظالم خصماً، وللمظلوم عوناً، ثم دعا محمداً ولده[4] وقال له: أما سمعت ما أوصيت به أخويك، قال: بلى. قال: فإني أوصيك به، وعليك ببر أخويك وتوقيرهما، ومعرفة فضلهما، ولا تقطع أمراً دونهما، ثم أقبل عليهما وقال: أوصيكما به خيراً، فإنه أخوكما وابن أبيكما وأنتما تعلمان أن أباه كان يحبه، فأحباه، ثم قال: يا بني أوصيكم بتقوى الله في الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الصديق والعدو، والعمل في النشاط والكسل، والرضا عن الله في الشدة والرخاء، يا بني ما شرّ بعده الجنة بشر، ولا خير بعده النار بخير، وكل نعيم دون الجنة حقير، وكل بلاء دون النار عافية، يا بني من أبصر عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره، ومن رضي بما قسم الله له لم يحزن على ما فاته، ومن سل سيف البغي قتل به، ومن حفر لأخيه بئراً وقع فيها، ومن هتك حجاب أخيه هتكت عورات بنيه، ومن نسي خطيئته استعظم خطيئة غيره، ومن أعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله زل، ومن تكبر على الناس ذل، ومن خالط الأنذال احتقر، ومن دخل مداخل السوء اتهم، ومن جالس العلماء وقر، ومن مزح استخف به، ومن أكثر من شيء عرف به، ومن كثر كلامه كثر خطؤه وقل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار، يا بني الأدب ميزان الرجل، وحسن الخلق خير قرين[1]، يا بني العافية عشرة أجزاء: تسعة منها في الصمت إلا عن ذكر الله تعالى، وواحدة في ترك مجالسة السفهاء، يا بني زينة الفقر الصبر، وزينة الغنى الشكر. يا بني لا شرف أعلى من الإسلام ولا كرم أعز من التقوى ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا لباس أجمل من العافية. يا بني الحرص مفتاح التعب ومطية النَّصَبِ.

ولما حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة، نظر إلى أهله يبكون حوله فقال: جاد لكم هشام بالدنيا، وجدتم له بالبكاء، وترك لكم جميع ما جمع، وتركتم عليه ما حمل، ما أعظم منقلب هشام إن لم يغفر الله له.

وقال الأوزاعي للمنصور في بعض كلامه: يا أمير المؤمنين أما علمت أنه كان بيد رسول الله ﷺ جريدة يابسة يستاك بها[2] ويردع بها المنافقين، فأتاه جبريل عليه السلام. فقال: يا محمد ما هذه الجريدة التي بيدك؟ اقذفها لا تمتلأ قلوبهم رعباً، فكيف بمن سفك دماء المسلمين، وانتهب أموالهم، يا أمير المؤمنين: إن المغفور له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه بخدشة خدشها أعرابياً من غير تعمد. يا أمير المؤمنين: لو أن ذنوباً[3] من النار صُبَّ، ووضع على الأرض لأحرقها، فكيف بمن يتجرعه، ولو أن ثوباً من النار وضع على الأرض لأحرقها، فكيف بمن يتقمصه[4]، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب، فكيف بمن يتسلسل بها، ويرد فضلها على عاتقه.

وروى زياد عن مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لما بعث أبو جعفر إلى مالك بن أنس وابن طاوس قال: دخلنا عليه وهو جالس على فرش، وبين يديه أنطاع قد

---

(١) البريد في الأصل المسافة التي يقطعها عامل البريد وفرسه بين نقطتين لإرسال الرسائل ثم أطلق على عامل البريد وعلى البغال المستعملة كدواب لنقل البريد.
(٢) سورة الجاثية، الآية (٢٣).
(٣) سورة الشعراء، الآيات (٢٠٥ ـ ٢٠٧).
(٤) وهو المعروف بمحمد بن الحنفية نسبة لأمه.

---

(١) القرين: كل ما قرن أو من قرن إلى الإنسان.
(٢) الجريدة: غصن النخل الذي يحمل الورق ويستاك به أي يشوص أسنانه وينظفها بقطع من الجريدة.
(٣) الذَّنُوب: الدلو العظيمة.
(٤) يتقمصه: يلبسه كقميص.

بسطت، وجلادون بأيديهم السيوف يضربون الأعناق، فأومأ إلينا أن اجلسا فجلسنا، فأطرق زماناً طويلاً ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاوس وقال: حدثني عن أبيك. قال: سمعت أبي يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى في ملكه، فأدخل عليه الجور في حكمه**». فأمسك أبو جعفر ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه قال مالك: فضممت ثيابي مخافة أن ينالها شيء من دم ابن طاوس، ثم قال: يا ابن طاوس ناولني هذه الدواة. فأمسك عنه، فقال: ما يمنعك أن تناولنيها، قال: أخاف أن تكتب بها معصية، فأكون شريكك فيها. فلما سمع ذلك قال: قوما عني. فقال ابن طاوس: ذلك ما كنا نبغي. قال مالك: فما زلت أعرف لابن طاوس فضله من ذلك اليوم.

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال لكعب الأحبار: يا كعب خوّفنا. قال: أو ليس فيكم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؟ قال: بلى يا كعب، ولكن خوفنا. فقال: يا أمير المؤمنين اعمل، فإنك لو وافيت يوم القيامة بعمل سبعين نبياً، لازدريت عملهم مما ترى، فنكس عمر رضي الله عنه رأسه، وأطرق ملياً، ثم رفع رأسه، وقال: يا كعب خوّفنا. فقال: يا أمير المؤمنين: لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالمشرق وَرَجُلٌ بالمغرب لغلى دماغه، حتى يسيل من حرها، فنكس عمر رأسه ثم أفاق، فقال: يا كعب زدنا، فقال: يا أمير المؤمنين إن جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة، فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه يقول: يا رب لا أسألك اليوم إلا نفسي.

وقال سيدي الشيخ أبو بكر الطرطوشي رحمه الله تعالى عليه: دخلت على الأفضل بن أمير الجيوش، وهو أمير على مصر، فقلت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد السلام على نحو ما سلمت رداً جميلاً، وأكرمني إكراماً جزيلاً، وأمرني بدخول مجلسه، وأمرني بالجلوس فيه. فقلت: أيها الملك إن الله تعالى قد أحلك محلاً علياً شامخاً، وأنزلك منزلاً شريفاً باذخاً، وملكك طائفة من ملكه، وأشركك في حكمه، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك، فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك، وليس الشكر باللسان، وإنما هو بالفعال والإحسان. قال الله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾[1]، واعلم أن هذا الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت من كان

(١) سورة سبأ، الآية (١٣).

قبلك، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك، فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة، فإن الله تعالى سائلك عن الفتيل والنقير والقطمير. قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾[2]، واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد آتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليه السلام، فسخر له الإنس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم، وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع فقال له: ﴿هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3]، فوالله ما عدها نعمة كما عددتموها، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن تكون استدراجاً من الله تعالى، ومكراً به. فقال: ﴿هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[4]. فافتح الباب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، وأغث الملهوف، أعانك الله على نصر المظلوم، وجعلك كهفاً للملهوف وأماناً للخائف. ثم أتممت المجلس بأن قلت قد جبت البلاد شرقاً وغرباً، فما اخترت مملكة وارتحت إليها، ولَذَّت لي الإقامة فيها غير هذه المملكة، ثم أنشدته:

والناس أكيسُ من أن يَحْمَدُوا رجلاً
حتى يروا عنده آثار إحسان[5]

وقال الفضل بن الربيع: حج هارون الرشيد سنة من السنين، فبينما أنا نائم ذات ليلة إذ سمعت قرع الباب، فقلت: من هذا؟ فقال: أجب أمير المؤمنين، فخرجت مسرعاً، فقلت، يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك، فقال: ويحك قد حاك في نفسي شيء لا يخرجه إلا عالم، فانظر لي رجلاً أسأله عنه، فقلت ههنا سفيان بن عيينة، فقال امض بنا إليه، فأتيناه، فقرعت عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعاً، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ أتيتك، فقال: جد لما جئنا له، فحادثه ساعة، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم. فقال: يا أبا العباس اقض دينه ثم انصرفنا.

فقال: ما أغنى عني صاحبك شيئاً، فانظر لي رجلاً

(١) سورة الحجر، الآيتان (٩٢ - ٩٣).
(٢) سورة الأنبياء، الآية (٤٧).
(٣) سورة صٓ، الآية (٣٩).
(٤) سورة النمل، الآية (٤٠).
(٥) أكيس: أذكى وأقدر.

أسأله، فقلت: ههنا عبد الرزاق بن همام، فقال: امض بنا إليه، فأتيناه، فقرعت عليه الباب فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعاً، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك، فقال جد لما جئنا به، فحادثه ساعة، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم. فقال: يا أبا العباس اقض دينه، ثم انصرفنا. فقال ما أغنى عني صاحبك شيئاً، فانظر لي رجلا أسأله.

فقلت: ههنا الفضيل بن عياض، فقال، امض بنا إليه، فأتيناه، فإذا هو قائم يصلي في غرفته يتلو آية من كتاب الله تعالى وهو يرددها، فقرعت عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: ما لي ولأمير المؤمنين، فقلت: سبحان الله! أما تَجِبُ عليك طاعته؟ ففتح الباب ثم ارتقى إلى أعلى الغرفة، فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة، فجعلنا نجول عليه بأيدينا، فسبقت كف الرشيد كفي إليه، فقال: أواه من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله تعالى؟

فقلت في نفسي: ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب نقي، فقال: جد لما جئنا له رحمك الله تعالى، فقال: وفيمَ جئت حملت على نفسك، وجميع من معك حملوا عليك، حتى لو سألتهم أن يتحملوا عنك شقصاً[1] من ذنب ما فعلوا ولكان أشدهم حباً لك أشدهم هرباً منك.

ثم قال: إن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي، ورجاء بن حيوة، فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء، فأشيروا عليّ.

فعدّ الخلافة بلاء، وعددتها أنت وأصحابك نعمة.

فقال سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله، فصم عن الدنيا، وليكن إفطارك فيها على الموت.

وقال محمد بن كعب: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله تعالى، فليكن كبير المسلمين عندك أباً، وأوسطهم عندك أخاً، وأصغرهم عندك ولداً، فبر أباك، وارحم أخاك، وتحنن على ولدك.

وقال رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله تعالى، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم متى شئت مت.

(١) الشقص: الجزء من الشيء.

وإني لأقول هذا، وإني لأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام، فهل معك رحمك الله مثل هؤلاء القوم من يأمرك بمثل هذا. فبكى هارون الرشيد بكاء شديداً حتى غشي عليه، فقلت له: ارفق يا أمير المؤمنين، فقال: يا ابن الربيع قتلته أنت وأصحابك، وأرفق به أنا، ثم أفاق هارون الرشيد، فقال: زدني. فقال: يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه شكا إليه سَهَراً، فكتب له عمر يقول: يا أخي اذكر سهر أهل النار في النار وخلود الأبدان، فإن ذلك يطرد بك إلى ربك نائماً ويقظان، وإياك أن تزل قدمك عن هذا السبيل، فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك، فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه، فقال له عمر: ما أقدمك؟ فقال له: لقد خلعت قلبي بكتابك لا وليت ولاية أبداً حتى ألقى الله عز وجل.

فبكى هارون بكاء شديداً، ثم قال: زدني. قال يا أمير المؤمنين: إن العباس عم النبي ﷺ جاء إليه، فقال يا رسول الله أمِّرني إمارة، فقال له النبي ﷺ يا عباس: نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها. إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل.

فبكى هارون الرشيد بكاء شديداً، ثم قال: زدني يرحمك الله. فقال: يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك، فإن النبي ﷺ قال: من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة، فبكى هارون الرشيد بكاء شديداً، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم دين لربي يحاسبني عليه، فالويل لي إن ناقشني. والويل إن سألني، والويل لي إن لم يلهمني حجتي، قال هارون: إنما أعني دين العباد. قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، أو إنما أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝﴾[1]. فقال له هارون: هذه ألف دينار، فخذها وأنفقها على عيالك وتقوّ بها على عبادة ربك، فقال: سبحان الله أنا دللتك على سبيل الرشاد تكافئني أنت بمثل هذا سلمك الله ووفقك، ثم صمت، فلم يكلمنا، فخرجنا

(١) سورة الذاريات، الآيات: (٥٦ ـ ٥٨).

من عنده، فقال لي هارون إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا، فإن هذا سيد المسلمين اليوم.

واعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له شروط وصفات، قال سليمان الخواص: من وعظ أخاه فيما بينه وبينه، فهي نصيحة، ومن وعظه على رؤوس الأشهاد فإنما بكّته.

وقالت أم الدرداء رضي الله تعالى عنها: من وعظ أخاه سراً فقد سره وزانه، ومن وعظه علانية فقد ساءه وشانه، ويقال: من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وسره، ومن وعظه جهراً فضحه وضرّه.

وعن عبد العزيز بن أبي داود قال: كان الرجل إذا رأى من أخيه شيئاً أمره في ستر، ونهاه في ستر، فيؤجر في ستره ويؤجر في أمره، ويؤجر في نهيه.

وعن عمر رضي الله تعالى عنه: إذا رأيتم أخاكم ذا زلة فقوموه وسددوه، وادعوا الله أن يرجع به إلى التوبة، فيتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان على أخيكم.

وبالله التوفيق إلى أقوم طريق، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثالث عشر

في الصمت وصون اللسان والنهي عن الغيبة والسعي بالنميمة ومدح العزلة وذم الشهرة

وفيه فصول

الفصل الأول

في الصمت وصون اللسان

قال الله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾(٢).

واعلم أنه ينبغي للعاقل المكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً تظهر المصلحة فيه، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة فالسنة الإمساك عنه، لأنه قد يجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه بل هذا كثير وغالب في العادة والسلامة لا يعادلها شيء، وروينا في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت»**.

قال الشافعي رضي الله تعالى عنه في الكلام: إذا أراد أحدكم الكلام فعليه أن يفكر في كلامه فإن ظهرت المصلحة تكلم، وإن شك لم يتكلم حتى تظهر.

وروينا في صحيحيهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قلت يا رسول الله: أي المسلمين أفضل؟ قال: **«من سلم الناس من لسانه ويده»**.

وروينا في كتاب الترمذي عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: قلت يا رسول الله: ما النجاة؟ قال: **«أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك»**. قال الترمذي حديث حسن. وروينا في كتاب الترمذي، وابن ماجة، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»**. والأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة، وفيما أشرت كفاية لمن وفقه الله تعالى.

وأمّا الآثار عن السلف وغيرهم في هذا الباب فكثيرة لا تحصر لكن ننبه على شيء منها.

فمما جاء من ذلك ما بلغنا أن قس بن ساعدة، وأكثم بن صيفي اجتمعا، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟ فقال: هي أكثر من أن تحصر، وقد وجدت خصلة إن استعملها الإنسان سترت العيوب كلها. قال: وما هي؟ قال: حفظ اللسان.

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه لصاحبه الربيع: يا ربيع لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها، وقال بعضهم: مثل اللسان مثل السبع، إن لم توثقه عدا عليك ولحقك شره.

ومما أنشدوه في هذا الباب:

إِحفظ لسانَكَ أيها الإنسانُ
لا يلدغنك إنه ثعبانُ
كم في المقابر من قتيل لسانه
كانت تهاب لقاءه الشجعانُ

وقال الفارسي:

(١) سورة قٓ، الآية (١٨).
(٢) سورة الفجر، الآية (١٤).

لعمرك إن في ذنبي لشغلاً
لنفسي عن ذنوب بني أميه

على ربي حسابهم إليه
تناهى علم ذلك لا إليه

وقال علي رضي الله عنه: إذا تم العقل نقص الكلام.

وقال أعرابي: رب منطق صدع جمعاً[1] وسكوت شعب صدعاً[2]، **وقال وهب بن الورد**: بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء: تسعة منها في الصمت، والعاشر في عزلة الناس، **وقال علي بن هشام** رحمة الله تعالى عليه:

لعمرك إنّ الحلم زينٌ لأهله
وما الحلم إلاّ عادةٌ وتحلّمُ

إذا لم يكن صمت الفتى عن ندامةٍ
وعيٍّ فإن الصمت أولى وأسلم

وقال ابن عيينة: من حرم الخير فليصمت، فإن حرمهما فالموت خير له، **وعن رسول الله ﷺ** أنه قال لأبي ذر رضي الله عنه: **«عليك بالصمت إلا من خير، فإنه مطردة للشيطان، وعون على أمر دينك»**.

ومن كلام الحكماء: من نطق في غير خير فقد لغا[3]، ومن نظر في غير اعتبار فقد سَهَا، ومن سكت في غير فكر فقد لَهَا، وقيل: لو قرأت صحيفتك لأغمدت صفيحتك[4] ولو رأيت ما في ميزانك لختمت على لسانك.

ولَمّا خرج يونس عليك السلام من بطن الحوت طال صمته، فقيل له: ألا تتكلم؟ فقال: الكلام صيرني في بطن الحوت. **وقال حكيم**: إذا أعجبك الكلام فاصمت، وإذا أعجبك الصمت فتكلم.

وكان يقال: من السكوت ما هو أبلغ من الكلام لأن السفيه إذا سكت عنه كان في اغتنام[5].

وقيل لرجل: بم سادكم الأحنف، فوالله ما كان بأكبركم سناً، ولا بأكثركم مالاً؟ فقال: بقوة سلطانه على لسانه.

وقيل: الكلمة أسيرة في وثاق الرجل، فإذا تكلم بها صار في وثاقها.

وقيل: اجتمع أربعة ملوك، فتكلموا، فقال ملك الفرس: ما ندمت على ما لم أقل مرة، وندمت على ما قلت مراراً، وقال قيصر: أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت، وقال ملك الصين: ما لم أتكلم بكلمة ملكتها، فإذا تكلمت بها ملكتني، وقال ملك الهند: العجيب ممن يتكلم بكلمة إن رفعت ضرت وإن لم ترفع لم تنفع. وكان بهرام جالساً ذات ليلة تحت شجرة، فسمع منها صوت طائر، فرماه، فأصابه، فقال: ما أحسن حفظ اللسان بالطائر والإنسان. لو حفظ هذا لسانه ما هلك.

وقال علي رضي الله تعالى عنه: بكثرة الصمت تكون الهيبة. **وقال عمرو بن العاص** رضي الله عنه: الكلام كالدواء إن أقللت منه نفع، وإن أكثرت منه قتل. **وقال لقمان** لولده: يا بني إذا افتخر الناس بحسن كلامهم، فافتخر أنت بحسن صمتك، يقول اللسان كل صباح وكل مساء للجوارح كيف أنتن، فيقلن بخير إن تركتنا.

قال الشاعر:

احفظ لسانك لا تقول فتبتلي
إن البلاء موكّلٌ بالمنطق

الفصل الثاني

في تحريم الغيبة

اعلم أن الغيبة من أقبح القبائح وأكثرها انتشاراً في الناس حتى لا يسلم منها إلا القليل من الناس وهي ذكرك الإنسان بما يكره ولو بما فيه سواء كان في دينه أو بدنه أو نفسه أو خُلُقه أو خَلْقه أو ماله أو ولده أو والده أو زوجته أو خادمه أو عمامته أو ثوبه أو مشيته أو حركته أو بشاشته أو خلاعته أو غير ذلك مما يتعلق به سواء ذكرته بلفظك أو بكتابك أو رمزت إليه بعينك أو يدك أو رأسك أو نحو ذلك.

فأما الدِّين فكقولك سارق، خائن، ظالم، متهاون بالصلاة، متساهل في النجاسات، ليس باراً بوالديه، قليل الأدب، لا يضع الزكاة مواضعها، ولا يجتنب الغيبة.

وأما البدن فكقولك: أعمى، أو أعرج، أو أعمش، أو قصيراً، أو طويلاً، أو أسود، أو أصفر.

وأما غيرهما فكقولك: فلان قليل الأدب، متهاون بالناس لا يرى لأحد عليه حقاً، كثير النوم، كثير الأكل وما أشبه ذلك، أو كقولك فلان أبوه نجار أو إسكاف أو حداد أو حائك، تريد تنقيصه بذلك أو فلان سيء الخلق متكبر، مراء، معجب، عجول، جبار، ونحو ذلك. أو فلان

---

(١) صدع جمعاً: فرقهم.
(٢) شَعَبَ: من الأضداد تعني شَقَّ وتعني جمع وهو هنا بمعنى الجمع والإصلاح.
(٣) اللغو: الكلام الباطل.
(٤) صفيحتك: سيفك أو سلاحك.
(٥) أي ربح بسكوته عدم زيادة ذنوبه.

واسع الكم، طويل الذيل، وسخ الثوب، ونحو ذلك.

وقد روينا في صحيح مسلم وسنن أبي داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بما يكره» قيل: وإن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته» قال الترمذي حديث حسن صحيح.

وروينا في سنن أبي داود والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا. قال بعض الرواة تعني قصيرة. فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته» أي خالطته مخالطة يتغير بها طعمه وريحه لكثرة نتنها.

وروينا في سنن أبي داود عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لما عرج بي إلى السماء مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم».

وروي عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا، ثم قال رسول الله ﷺ إن الرجل ليزني فيتوب، فيتوب الله عليه وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبها».

وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: من اغتاب المسلمين وأكل لحومهم بغير حق وسعى بهم إلى السلطان، جيء به يوم القيامة مزرقة عيناه ينادي بالويل والثبور ويعرف أهله ولا يعرفونه.

وقال معاوية بن قرة: أفضل الناس عند الله أسلمهم صدراً وأقلهم غيبة، وقال الأحنف: فيّ خصلتان: لا أغتاب جليسي إذا غاب عني، ولا أدخل في أمر قوم لا يدخلوني فيه.

وقيل للربيع بن خيثم: ما نراك تعيب أحداً فقال: لست عن نفسي راضياً فأتفرغ لذم الناس وأنشد:

لنفسي أبكي لست أبكي لغيرها
لنفسي من نفسي عن الناس شاغلُ

وقال كثير عزة:

وسعى إليّ بعيب عزّة نسوةٌ
جعل الإله خدودهنّ نعالها

وقال محمد بن حزم: أول من عمل الصابون سليمان وأول من عمل السويق[1] ذو القرنين وأول من عمل الحيس[2] يوسف، وأول من عمل خبز الجرادق[3] نمروذ، وأول من كتب في القراطيس الحجاج، وأول من اغتاب إبليسٌ لعنه الله اغتاب آدم عليه السلام.

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام: أن المغتاب إذا تاب فهو آخر من يدخل الجنة، وإن أصر فهو أول من يدخل النار.

ويقال: لا تأمن من كذب لك أن يكذب عليك، ومن اغتاب عندك غيرك، أن يغتابك عند غيرك.

وقيل للحسن البصري رضي الله تعالى عنه: إن فلاناً اغتابك، فأهدى إليه طبقاً من رطب فأتاه الرجل وقال له: اغتبتك فأهديت إلي، فقال الحسن: أهديت إلي حسناتك فأردت أن أكافئك.

وعن ابن المبارك رحمه الله تعالى قال: لو كنت مغتاباً أحداً لاغتبت والدي لأنهما أحق بحسناتي، وإذا حاكى إنسان إنساناً بأن يمشي متعارجاً أو متطأطئاً أو غير ذلك من الهيئات، يريد تنقيصه بذلك فهو حرام، وبعض المتفقهين والمتعبدين يعرضون بالغيبة تعريضاً تفهم به كما تفهم بالتصريح، فيقال لأحدهم كيف حال فلان فيقول الله يصلحنا، الله يغفر لنا، الله يصلحه، نسأل الله العافية، نحمد الله الذي لم يبتلنا بالدخول على الظلمة، نعوذ بالله من الكبر، يعافينا الله من قلة الحياء، الله يتوب علينا... وما أشبه ذلك مما يفهم تنقيصه فكل ذلك غيبة محرمة.

واعلم أنه كما يحرم على المغتاب ذكر الغيبة كذلك يحرم على السامع استماعها، فيجب على من يستمع إنساناً يبتدىء بغيبة أن ينهاه إن لم يخف ضرراً، فإن خافه وجب عليه الإنكار بقلبه ومفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقته، فإن قال بلسانه أسكت وقلبه يشتهي سماع ذلك، قال بعض العلماء، إن ذلك نفاق. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[4] ومما أنشدوه في هذا المعنى:

وسمعُكَ صُنْ عن سماع القبيح
كصون اللسان عن النطق به

(١) السويق: طحين قمح أو شعير يقلى بسمن.
(٢) الحيس: طعام يتخذ من التمر والسمن والدقيق فيطبخ الدقيق بالسمن ثم يخلط بالتمر.
(٣) الجرادق: خبز سميك مدور كالخبز الإفرنجي.
(٤) سورة الأنعام، الآية (٦٨).

فإنك عند سماع القبيح
شريكٌ لقائله فانتبه
وكم أزعج الحرص من طالب
فوافى المنيّة في مطلبه

الفصل الثالث

في تحريم السعاية بالنميمة

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝﴾[1] الآية. وحسبك بالنمام خسة ورذيلة، سقوطه وضعته والهماز المغتاب الذي يأكل لحوم الناس، الطاعنُ فيهم.

وقال الحسن البصري، هو الذي يغمز بأخيه في المجلس وهو الهمزة اللمزة. **وقال علي والحسن البصري** رضي الله عنهما: العتل الفاحش السيىء الخلق، **قال ابن عباس** رضي الله عنهما: العتل: الفاتك الشديد المنافق، **وقال عبيد بن عمير**: العتل: الأكول الشروب القوي الشديد، يوضع في الميزان فلا يزن شعيرة. **وقال الكلبي**: هو الشديد في كفره. وقيل: العتل: الشديد الخصومة بالباطل، والزنيم هو الذي لا يعرف من أبوه. قال الشاعر:

زنيمٌ ليس يعرف من أبوه
بغيّ الأم ذو حسبٍ لئيم

ورويناً في صحيحي البخاري ومسلم عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«لا يدخل الجنة نمام»**.

وروي أن النبي ﷺ مر بقبرين فقال: **«إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله»**.

قال الإمام أبو حامد الغزالي رحمة الله تعالى عليه: «النميمة إنما تطلق في الغالب على من ينم قول الغير إلى المقول فيه كقوله فلان يقول فيك كذا، فينبغي للإنسان أن يسكت عن كل ما رآه من أحوال الناس إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع معصية، وينبغي لمن حملت إليه النميمة وقيل له قال فيك فلان كذا أن لا يصدق من نم إليه لأن النمام فاسق، وهو مردود الخبر، وأن ينهاه عن ذلك وينصحه ويقبح فعله ويبغضه في الله تعالى، فإنه بغيض عند الله والبغض في الله واجب، وأن لا يظن بالمنقول عنه السوء، لقول الله تعالى: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ

(١) سورة القلم، الآيتان: (١٠ ـ ١١).

ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[1]. وسعى رجل إلى بلال بن أبي بردة برجل وكان أمير البصرة، فقال له انصرف حتى أكشف عنك، فكشف عنه فإذا هو ابن بغي يعني ولد زنا. قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «لا ينم على الناس إلا ولد بغي».

وروي أن النبي ﷺ قال: **«ألا أخبركم بشراركم، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: شراركم المشاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة والباغون العيوب»**.

وروى **أبو هريرة** رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين ملعون كل شغاز، ملعون كل قتات، ملعون كل نمام، ملعون كل منان»**. والشغاز المحرش بين الناس يلقي بينهم العداوة، والقتات: النمام، والمنان: الذي يعمل الخير ويمن به. وأما السعاية إلى السلطان وإلى كل ذي قدرة فهي المهلكة والحالقة التي تجمع الخصال الذميمة، من الغيبة وشؤم النميمة والتغرير بالنفوس والأموال في النوازل والأحوال، وتسلب العزيز عزه وتحط المسكين عن مكانته والسيد عن مرتبته، فكم دم أراقه سعي ساع، وكم حريم استبيح بنميمة نمام، وكم من صفيين تباعدا وكم من متواصلين تقاطعا، وكم من محبين افترقا، وكم من إلفين تهاجرا وكم من زوجين تطالقا. ليتق الله ربه عز وجل، رجلٌ ساعدته الأيام وتراخت عنه الأقدار أن يصغي لساع أو يستمع لنمام.

ووجد في حكم القدماء أبغض الناس إلى الله المثلث. **قال الأصمعي**: «هو الرجل يسعى بأخيه إلى الأمام فيهلك نفسه وأخاه وإمامه».

وقال بعض الحكماء: «احذروا أعداء العقول ولصوص المودات وهم السعاة والنمامون، إذا سرق اللصوص المتاع سرقوا هم المودات».

وفي المثل السائر «من أطاع الواشي ضيّع الصديق»، وقد تقطع الشجرة فتنبت، ويقطع اللحم السيف فيندمل، واللسان لا يندمل جرحه. ودفع إنسان رقعة إلى الصاحب بن عباد يحثه فيها على أخذ مال يتيم وكان مالاً كثيراً، فكتب إليه على ظهرها: النميمة قبيحة وإن كانت صحيحة، والميت رحمه الله واليتيم جبره الله والساعي لعنه الله ولا حول ولا قوة إلا بالله».

ورويناً في كتاب أبي داود والترمذي عن ابن مسعود

(١) سورة الحجرات، الآية (١٢).

رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**». ومن الناس من يتلون ألواناً ويكون بوجهين ولسانين، فيأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه، وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً.

قال صالح بن عبد القدوس رحمه الله تعالى:

قل للذي لست أدري من تَلَوُّنِهِ
أناصحٌ أم على غش يناجيني
إني لأكثر مما سمتني عجباً
يدٌ تشجّ وأخرى منك تأسوني
تغتابني عند أقوام وتمدحني
في آخرين وكلٌ عنك يأتيني
هذان شيئان قد نافيت بينهما
فاكفف لسانك عن شتمي وتزييني

وقيل: «الإلف[1] لحوح جموح خير من واحد متلون». وكان يشبه المتلون بأبي براقش، وأبي قلمون، فأبو براقش طائر منقط بألوان النقوش يتلون في اليوم ألواناً وأبو قلمون ضرب من ثياب الحرير ينسج بالروم يتلون ألواناً. ويقال للطائش الذي لا ثبات معه أبو رياح، تشبيهاً بمثال فارس من نحاس بمدينة حمص على عمود حديد فوق قبة بباب الجامع يدور مع الريح ويمناه ممدودة وأصابعها مضمومة إلا السبابة، فإذا أشكل عليهم مهب الريح عرفوه به، فإنه يدور بأضعف نسيم يصيبه، والذي يعمله الصبيان من قرطاس على قصبة، يسمى أبا رياح، أيضاً، ويقال: أخلاق الملوك مثل في المتلون.

قال بعضهم:

ويومٌ كأخلاق الملوك تلوناً
فصحوٌ وتغييمٌ وطلٌ ووابل[2]
أشبهه إياك من صفاته
دنوّ وإعراضٌ ومنعٌ ونائل

وكلم معاوية الأحنف في شيء بلغه عنه، فأنكره الأحنف، فقال له معاوية: بلغني عنك الثقة، فقال له الأحنف: إن الثقة لا يبلغ مكروهاً.

وكان الفضل بن سهل يبغض السعاية[3]، وإذا أتاه ساع يقول له: «إن صَدَقْتَنا أبغضناك، وإن كَذَبْتَنا عاقبناك، وإن استَقَلْتَنا أَقَلْنَاكَ».

وكتب في جواب كتاب ساع: «نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية لأن السعاية دلالة والقبول إجازة، وليس من دل على شيء وأخبر به كمن قبله وأجازه، فاتقوا الساعي فإنه لو كان في سعايته صادقاً لكان في صدقه لئيماً إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة».

وقيل: من سعى بالنميمة حذره الغريب ومقته القريب.

وقال المأمون: النميمة لا تقرب مودة إلا أفسدتها، ولا عداوة إلا جددتها، ولا جماعة إلا بددتها، ثم لا بد لمن عرف بها ونسب إليها، أن يجتنب ويخاف من معرفته ولا يوثق بمكانه.

وأنشد بعضهم:

من نمّ في الناس لم تؤمَنْ عقاربه
على الصديق ولم تؤمن أفاعيه
كالسَّيل بالليل لا يدري به أحدٌ
من أين جاء ولا من أين يأتيه
الويل للعهد منه كيف ينقضه
والويل للودِّ منه كيف يفنيهِ

وقال آخر:

يسعى عليك كما يسعى إليك فلا
تأمن غوائل ذي وجهين كَيَّاد

وقال صالح بن عبد القدوس رحمه الله تعالى:

من يخبِّرك بشتم عن أخ
فهو الشاتم لا مَنْ شتمك
ذاك شيءٌ لم يواجهك به
إنما اللومُ على من أعلمك

وقال آخر:

إن يعلموا الخير أخفوه وإن علموا
شراً أذاعوا وإن لم يعلموا كذبوا

وقال آخر:

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً
منّي وما سمعوا من صالحٍ دفنوا[1]
صمٌ إذا سمعوا خيراً ذكرت به
وإن ذكرت بسوءٍ عندهم أذنوا[2]

---

(١) الإلف: الصاحب والصديق الذي يألفه المرء.

(٢) الطلُّ: الندى والمطر الخفيف، والوابل: المطر الغزير.

(٣) الساعي، أي الساعي بالشر، يسعي بإنسان أو يتهمه بأشياء عند ذوي السلطان.

(٤) دفنوا الخير: أخفوه وتناسوه ولم يتحدثوا به.

(٥) أَذَنوا: مخففة والمراد أَذَّنوا أي رفعوا أصواتهم بها.

وقال الحسن: ستر ما عاينت أحسن من إشاعة ما ظننت. وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه: من سمع بفاحشة فأفشاها فهو كالذي أتاها.

ومما جاء في النهي عن اللعن

ما روينا في صحيح البخاري ومسلم عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لَعْنُ المؤمن كقتله»**[1].

وروينا في صحيح مسلم أيضاً عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة»**.

وروينا في سنن أبي داود، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن العبد إذا لعن شيئاً صعدت اللعنة إلى السماء، فتغلق أبواب السماء دونها ثم تهبط إلى الأرض، فتغلق أبوابها دونها، ثم تأخذ يميناً وشمالاً فإذا لم تجد مساغاً رجعت إلى الذي لُعِنَ إن كان أهلاً لذلك، وإلا رجعت إلى قائلها»**. ويجوز لعن أصحاب الأوصاف المذمومة على العموم كقوله: لعن الله الظالمين، لعن الله الكافرين، لعن الله اليهود، والنصارى، لعن الله الفاسقين، لعن الله المصورين ونحو ذلك.

وثبت في الأحاديث الصحيحة أن رسول الله ﷺ قال: لعن الله الواصلة والمستوصلة[2]، وأنه قال: لعن الله آكل الربا، وأنه قال: لعن الله المصوِّرين، وأنه قال: لعن الله من لعن والديه، وأنه قال: لعن الله من ذبح لغير الله، وأنه قال: لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، وأنه قال: لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال، وجميع هذه الألفاظ في البخاري ومسلم، بعضها فيهما، وبعضها في أحدهما، والله أعلم.

ومما جاء في العزلة ومدح الخمول وذم الشهرة

قال رسول الله ﷺ: **«الخمول نعمة، وكلٌ يتبرأ والظهور[3] نقمة وكلٌ يتمنى»**.

وقال بعضهم:

(١) لأن اللعنة هي الطرد من رحمة الله عز وجل.

(٢) الواصلة: التي تصل شعر النساء بشعر مستعار كحلاّقات النساء هذه الأيام، والمستوصلة التي تطلب وصل شعرها وهما ملعونتان لأنهن يغيرن خلق الله ويخدعان الرجال.

(٣) أي حب الظهور والتباهي.

تلحّفْ بالخمول[1] تعش سليماً
وجالسْ كل ذي أدبٍ كريم

وقال جعفر بن الفراء:

من أخمل النفس أحياها وروّحها
ولم يبت طاوياً منها على ضجر
إن الرياح إذا اشتدت عواصفها
فليس ترمي سوى العالي من الشجر

وقال أعرابي: رب وحدة أنفع من جليس ووحشة أنفع من أنيس[2]. وكان أبو معاوية الضرير يقول: فيَّ خصلتان، ما يسرني بهما رد بصري: قلة الإعجاب بنفسي، وخلو قلبي من اجتماع الناس إليّ. وقال عمر رضي الله عنه: خذوا حظكم من العزلة. وصعد حسان على أطم[3] من آطام المدينة ونادى بأعلى صوته يا صباحاه، فاجتمعت الخزرج، فقالوا ما عندك؟ قال: قلت: بيت شعر، فأحببت أن تسمعوه قالوا: هات يا حسان. فقال:

وإنّ امرأً أمسى وأصبح سالماً
من الناس إلا ما جنى لسعيدُ

ولما بنى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه منزله بالعقيق قيل له: تركت منازل إخوانك وأسواق الناس ونزلت بالعقيق، فقال: رأيت أسواقهم لاغية ومجالسهم لاهية، فوجدت الاعتزال فيما هنالك عافية.

وقيل لعروة أخي مرداس: ألا تحدثنا ببعض ما عندك من العلم، فقال: أكره أن يميل قلبي باجتماعكم إلى حب الرياسة، فأخسر الدارين.

وقال سفيان بن عيينة: دخلنا على الفضل في مرضه نعوده، فقال: ما جاء بكم، والله لو لم تجيئوا لكان أحب إليّ، ثم قال: نعم الشيء المرض لولا العبادة.

وقيل للفضل: إن ابنك يقول: وددت لو أني بالمكان الذي أرى الناس فيه، ولا يروني، فقال: ويح ابني لمَ لا أتمها، فقال: لا أراهم ولا يروني.

وقال علي رضي الله تعالى عنه: طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وطوبى لمن لزم بيته، وأكل قوته، واشتغل بطاعته، وبكى على خطيئته، فكان من نفسه في

(١) تلحف بالخمول أي اتخذه لحافاً تستتر به.

(٢) وقيل: الوحدة خير من جليس السوء.

(٣) الأطم: كالبرج إلا أنه يبنى من لِبِنٍ نيء.

شغل، والناس منه في راحة.

وقال سفيان: الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس. وقيل لراهب في صومعته: ألا تنزل، فقال: من مشى على وجه الأرض عَثَر[1]. والكلام في مثل هذا كثير، وقد اكتفينا بهذا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الرابع عشر
في الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الإسلام وما يجب للسلطان على الرعية وما يجب لهم عليه

روي عن الحسن أنه قال للحجاج: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول قال رسول الله ﷺ: «وَقِّرُوا السلاطين وبَجِّلُوهم، فإنهم عز الله وظله في الأرض إذا كانوا عدولاً»، فقال الحجاج: ألم نكن فيهم إذا كانوا عدولاً؟ قال: قلت: بلى.

وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال: قلت للنبي ﷺ: أخبرني عن هذا السلطان الذي ذلَّت له الرقاب وخضعت له الأجساد ما هو؟ قال: **ظل الله في الأرض، فإذا أحسن فله الأجر وعليكم الشكر، وإذا أساء فعليه الإصر[2] وعليكم الصبر**.

وعنه عليه الصلاة والسلام: أيما راع استرعى رعيته، ولم يحطها بالأمانة والنصيحة من ورائها إلا ضاقت عليه رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء.

وقال مالك بن دينار رضي الله تعالى عنه: وجدت في بعض الكتب: يقول الله تعالى: أنا ملك الملوك، رقاب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن

(١) عثر: سقط متعثراً بشيء، والمراد هنا وقع في الخطايا والذنوب، لأنه قد يرى ما لا يحل وزنا العين البصر، وقد يعمل ما لا يحل وزنا اليد البطش وقد يقول ما لا يجوز وأكثر هلكة الإنسان من اللسان، لذا كان البعد عن الناس غنيمة لمن رام النجاة.

(٢) الإصر: العقاب وعاقبة السوء.

عصاني جعلتهم عليه نقمة، لا تشغلوا ألسنتكم بسب الملوك، ولكن توبوا إلى الله يعطفهم عليكم.

وقال جعفر بن محمد رحمة الله تعالى عليه: كَفَّارة عمل السلطان الإحسان إلى الإخوان. **وقال كسرى** لسيرين: ما أحسن هذا الملك لو دام، فقال: لو دام لأحد ما انتقل إلينا. ومر طارق السرطي بابن شبرمة في موكبه فقال:

أراها وإن كانت تحبّ فإنها ... سحابة صيفٍ عن قليل تقشّع[1]

وجلس الإسكندر يوماً فما رفع إليه حاجة فقال: لا أعد هذا اليوم من أيام ملكي. **وقال الجاحظ**: ليس شيء ألذ ولا أسر من عز الأمر والنهي، ومن الظفر بالأعداء، ومن تقليد المنن أعناق الرجال لأن هذه الأمور تصيب الروح، وحظ الذهن وقسمة النفس.

وقيل: الملك خليفة الله في عباده، ولن يستقيم أمر خلافته مع مخالفته. **وقال الحجاج**: سلطان تخافه الرعية خير من سلطان يخافها. **وقال أردشير لابنه**: يا بني: الملك والدين أخوان لا غنى لأحدهما عن الآخر، فالدين أس والملك حارس، وما لم يكن له أس فمهدوم، وما لم يكن له حارس فضائع. **قيل**: لما دنت وفاة هرمز وامرأته حامل، عقد التاج على بطنها وأمر الوزراء بتدبير المملكة حتى يولد له ولد، فتملك، وأغار العرب على نواحي فارس في صباه، فلما أدرك ركب، وانتخب من أهل النجدة فرساناً وأغار على العرب، فانتهكهم بالقتل، ثم خلع أكتاف سبعين ألفاً، فقيل له: ذو الأكتاف، وأمر العرب حينئذ بإرخاء الشعور ولبس المصبغات، وأن يسكنوا بيوت الشعر، وأن لا يركبوا الخيل إلا عراة[2].

وقيل: من أخلاق الملوك حب التفرد.

كان أردشير إذا وضع التاج على رأسه لم يضع أحد على رأسه قضيب ريحان، وإذا لبس حلة لم ير أحد مثلها، وإذا تختم بخاتم كان حراماً على أهل المملكة أن يتختموا بمثله.

وكان سعيد بن العاص بمكة إذا اعتمّ لم يعتم أحد بمثل عمامته ما دامت على رأسه. **وكان الحجاج** إذا وضع على رأسه عمامة لم يجترىء أحد من خلق الله أن يدخل عليه بمثلها. **وكان عبد الملك** إذا لبس الخف الأصفر لم يلبس

(١) تقشعت السحابة: تبددت وزالت.

(٢) هذا من الأخبار الموضوعة من بعض الشعوبية للإساءة إلى العرب.

أحد مثله حتى ينزعه. وأخبرني من سافر إلى اليمن أنه لا يأكل الأوز بها أحد غير الملك.

وقيل: من حق الملك أن يفحص عن أسرار الرعية فحص المرضعة عن ابنها، وكان أردشير متى شاء قال لأرفع أهل مملكته وأوضعهم: كان عندك في هذه الليلة كيت وكيت، حتى كان يقال يأتيه ملك من السماء، وما ذاك إلا بتفحصه وتيقظه.

وكان علم عمر رضي الله عنه بمن نأى عنه كعلمه بمن بات معه على وساد واحد. ولقد اقتفى معاوية أثره.

وتعرَّف إلى زياد رجل[1]، فقال: أتتعرف إليَّ وأنا أعرف بك من أبيك وأمك، وأعرف هذا البُرْدَ الذي عليك؟ ففزع الرجل حتى ارتعد من كلامه.

وعن بعض العباسيين قال: كلمت المأمون رحمة الله تعالى في امرأة خطبتها، وسألته النظر إليها، فقال: يا أبا فلان من قصتها وحليتها وفعلها وشأنها كيت وكيت، فوالله ما زال يصفها ويصف أحوالها حتى أبهتني[2].

ومما جاء في طاعة ولاة أمور الإسلام:

أمر الله تعالى بذلك في كتابه العزيز على لسان نبيه الكريم فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[3].

وروينا في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما قال: بايعت رسول الله ﷺ على شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة والسمع والطاعة، والنصح لكل مسلم.

وسئل كعب الأحبار عن السلطان، فقال: ظل الله في أرضه، من ناصحه اهتدى، ومن غشَّه ضل. **وعن حذيفة بن اليمان** رضي الله عنه، لا تسبوا السلطان فإنه ظل الله في الأرض، به يقوم الحق ويظهر الدين، وبه يدفع الله الظلم ويهلك الفاسقين.

وقال عمر بن عبد العزيز لمؤدبه، كيف كانت طاعتي لك؟ قال: أحسن طاعة. قال: فأطعني كما كنت أطيعك، خذ من شاربك حتى تبدو شفتاك، ومن ثوبك حتى تبدو عَقِبَاك[4].

---

(١) أي عَرَّفه بنفسه فذكر اسمه ونسبه.

(٢) أي أدهشني، وأثار استغرابي.

(٣) سورة النساء، الآية: (٥٩).

(٤) أي قصِّر ثوبك لإن إطالة الثوب من الكبر.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني[1]، ومن عصى أميري فقد عصاني**.

وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن النبي ﷺ أمر بالسمع والطاعة لولي الأمر ومناصحته ومحبته والدعاء له. ولو تتبعت ذلك لطال الكلام، لكن إعلم أرشدني الله وإياك إلى الاتباع، وجنبنا الزيغ والابتداع، أن من قواعد الشريعة المطهرة والملة الحنيفية المحرزة أن طاعة الأئمة فرض على كل الرعية، وأن طاعة السلطان تؤلف شمل الدين وتنظم أمور المسلمين، وأن عصيان السلطان يهدم أركان الملة، وأن أرفع منازل السعادة طاعة السلطان، وأن طاعته عصمة من كل فتنة، وبطاعة السلطان تقام الحدود وتؤدى الفروض، وتحقن الدماء، وتؤمن السبل، وما أحسن ما قالت العلماء: إن طاعة السلطان هدى لمن استضاء بنورها وإن الخارج عن طاعة السلطان منقطع العصمة بريء من الذمة، وإن طاعة السلطان حبل الله المتين ودينه القويم، وإن الخروج منها خروج من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ومن غش السلطان ضلَّ وزلَّ، ومن أخلص له المحبة والنصح حل من الدين والدنيا في أرفع محل، وإن طاعة السلطان واجبة أمر الله تعالى بها في كتابه العظيم المنزل على نبيه الكريم. وقد اقتصر في ذلك على ما أوردناه واكتفينا بما بيناه، ونسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا وأن يعيذنا من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، وأن يصلح شأننا إنه قريب مجيب، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

الباب الخامس عشر

فيما يجب على من صحب السلطان والتحذير من صحبته

أما صحبة السلطان: فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما، قال لي أبي: يا بني إني أرى أمير المؤمنين يستخليك ويستشيرك[2] ويقدمك على الأكابر من أصحاب

---

(١) لأن الأمير إنما يأتمر بأمر من ولاَّه الإمرة.

(٢) يستخليك: أي يدعوك إلى الاجتماع به في خلوة والمراد =

محمد ﷺ، وإني أوصيك بخلال ثلاث: لا تفشين له سراً، ولا تجرين عليه كذباً، ولا تغتابن عنده أحداً، قال الشعبي رحمه الله تعالى: قلت لابن عباس كل واحدة منهن[1] خير من ألف، فقال: أي والله، ومن عشرة آلاف.

وقال بعض الحكماء: إذا زادك السلطان تأنيساً فزده إجلالاً، وإذا جعلك أخاً، فاجعله أباً، وإذا زادك إحساناً، فزده فعل العبد مع سيده، وإذا ابتليت بالدخول على السلطان مع الناس، فأخذوا في الثناء عليه، فعليك بالدعاء له ولا تكثر في الدعاء له عند كل كلمة، فإن ذلك تنبيه بالوحشة والغربة.

وقال مسلم بن عمر لمن خدم السلطان: لا تغتر بالسلطان إذا أدناك ولا تتغير منه إذا أقصاك.

وروي أن بعض الملوك استصحب حكيماً، فقال له: أصحبك على ثلاث خصال، قال: وما هن؟ قال: لا تهتك لي ستراً، ولا تشتم لي عرضاً، ولا تقبل فيّ قول قائل حتى تستشيرني، قال: هذا لك. فماذا لي عليك؟ قال: لا أفشي لك سراً، ولا أدخر عنك نصيحة، ولا أوثر عليك أحداً، قال: نعمَ الصاحب للمستصحب أنت.

وقال بزرجمهر: إذا خدمت ملكاً من الملوك، فلا تطعه في معصية خالقك، فإن إحسانه إليك فوق إحسان الملك، وإيقاعه بك أغلظ من إيقاعه.

وقالوا: إصحب الملوك بالهيبة لهم والوقار لأنهم إنما احتجبوا عن الناس لقيام الهيبة وإن طال أنسك بهم تزدد غماً.

وقالوا: عَلِّم السلطان وكأنك تتعلم منه، وَأشِرْ عليه وكأنك تستشيره*، وإذا أحلّك السلطان من نفسه بحيث يسمع منك، ويثق بك، فإياك والدخول بينه وبين بطانته[2]، فإنك لا تدري متى يتغير منك، فيكونون عوناً عليك، وإياك أن تعادي من إذا شاء أن يطرح ثيابه، ويدخل مع الملك في ثيابه فعل.

وفي الأمثال القديمة: احذروا زمارة المخدة[3] وفيه قيل:

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزراً
مثلَ الشفيعِ الذي يأتيك عريانا

وقال يحيى بن خالد: إذا صحبت السلطان فداره مداراة المرأة العاقلة لصحبة الزوج الأحمق.

وأما ما جاء في التحذير من صحبة السلطان:

فقد اتفقت حكماء العرب والعجم على النهي عن صحبة السلطان، قال في كتاب كليلة ودمنة: ثلاثة لا يسلم عليها إلا القليل: صحبة السلطان وإئتمان النساء على الأسرار، وشرب السم على التجربة.

وكان يقال: قد خاطر بنفسه من ركب البحر، وأعظم منه خطراً من صحب السلطان.

وكان بعض الحكماء يقول: أحق الأمور بالتثبت فيها أمور السلطان، فإن من صحب السلطان بغير عقل، فقد لبس الشعار[1] الغرور. وفي حكم الهند: صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخطر.

وقيل للعتابي: لمَ لا تصحب السلطان على ما فيك من الأدب، قال: لأني رأيته يعطي عشرة آلاف في غير شيء، ويرمي من السور في غير شيء، ولا أدري أي الرجلين أكون.

وقال معاوية لرجل من قريش: إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبي، ويبطش بطش الأسد. وقال ميمون بن مهران: قال لي عمر بن عبد العزيز: يا ميمون احفظ عني أربعاً: لا تصحبن السلطان، وإن أمرته بالمعروف ونهيته عن المنكر، ولا تخلون بامرأة، وإن أقرأتها القرآن، ولا تصل من قطع رحمه، فإنه لك أقطع، ولا تتكلم بكلامِ اليومَ تعتذر منه غداً.

وكم رأينا، وبلغنا ممن صحب السلطان من أهل الفضل والعقل والعلم والدين ليصلحه ففسد هو به، فكان كما قيل:

عَدْوَى البليدِ إلى الجليدِ سريعةٌ
والجمرُ يوضع في الرماد فيخمدُ

ومثل من صحب السلطان ليصلحه، مثل من ذهب ليقيم حائطاً مائلاً، فاعتمد عليه ليقيمه، فخر الحائط عليه فأهلكه.

قال الشاعر:

---

* يستشرك على أمور ويستشيرك في أمور لا يجب أن يطّلع عليها الناس.

(١) أي من هذه الخلال أي الخصال الثلاث.

(٢) بطانة السلطان: المقرّبون منه من حاشيته الذي يتخذهم موضعاً لسره وأنساً لمجالسه الخاصة كما تتخذ البطانة للثوب.

(٣) زمارة المخدة أو شواشة أو وسواسة المخدة: هي امرأة الرجل لأنه تحدثه وهما في الفراش بما تريد فيصغي لها.

(١) الشِّعار: ما لاصق الجسد من الثياب أي الملابس الداخلية.

ومُعاشر السلطان شبه سفينةٍ
في البحر ترجف دائماً من خوفه
إن أدخلت من مائه في جوفها
يغتالها مع مائها في جوفه

وفي كتاب كليلة ودمنة: لا يسعد من ابتلي بصحبة الملوك، فإنهم لا عهد لهم ولا وفاء ولا قريب ولا حميم، ولا يرغبون فيك إلا أن يطعموا فيما عندك، فيقربوك عند ذلك، فإذا قضوا حاجتهم منك تركوك ورفضوك، ولا ود للسلطان ولا إخاء، والذنب عنده لا يغفر.

وقالت الحكماء: صاحب السلطان كراكب الأسد يخافه الناس وهو لمركوبه أخوف. **وقال محمد بن واسع**، والله لسف التراب ولقضم العظم خير من الدنو من أبواب السلاطين. **وقال محمد بن السمّاك**: الذباب على العذرة خير من العابر على أبواب الملوك. **وقيل**: من صحب السلطان قبل أن يتأدب، فقد غرر بنفسه. **وقال ابن المعتز**: من شارك السلطان في عز الدنيا شاركه في ذل الآخرة، **وعنه**: إذا زادك السلطان تأنيساً وإكراماً فزده تهيباً واحتشاماً.

وقال أبو علي الصغاني: إياك والملوك، فإن من والاهم أخذوا ماله ومن عاداهم أخذوا رأسه. **وقيل**: مكتوب على باب قرية من قرى بلخ اسمها بهار، أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاثة: عقل، وصبر، ومال، وتحته مكتوب: كذب عدو الله من كان له واحد منها لم يقرب باب السلطان.

وقال حسان بن ربيع الحميري: لا تثقن بالملك فإنه ملول، ولا بالمرأة فإنها خؤون ولا بالدابة فإنها شرود. **وقال عبيد بن عمير**: ما ازداد رجل من السلطان قرباً إلا ازداد من الله بعداً، ولا كثرت أتباعه إلا كثرت شياطينه، ولا كثر ماله إلا كثر حسابه.

وقال ابن المبارك رحمه الله:

أرى الملوك بأدنى الدّين قد قنعوا
ولا أراهم رضوا في العيش بالدُّون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما اسـ
ـتغنى الملوك بدنياهمْ عن الدّين

وقال بعضهم في ولاة بني مروان:

إذا ما قطعتم ليلكم بمدامكم[1]
وأفنيتمو أيامكم بمنام[2]
فمن ذا الذي يغشاكم في مُلمّة
ومن ذا الذي يغشاكم بسلام
رضيتم من الدنيا بأيسر بلغةٍ[1]
بلثم غلام أو بشرب مدام
ولم تعلموا أنّ اللسان موكّلٌ
بمدح كرامٍ أو بذمّ لئام

نهت الحكماء عن خدمة الملوك

فقالوا: إن الملوك يستعظمون في الثواب رد الجواب، ويستقلون في العقاب ضرب الرقاب، **وقيل**: شر الملوك من أمنه الجريء وخافه البريء. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وحسبنا الله ونعم الوكيل نعمَ المولى ونعمَ النصير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السادس عشر

في ذكر الوزراء وصفاتهم وأحوالهم وما أشبه ذلك

قال الله تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩﴾[2]. فلو كان السلطان يستغني عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران عليه السلام. ثم ذكر حكمة الوزارة، فقال: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ۝٣٢﴾[3] دلت هذه الآية على أن الوزارة تشد قواعد المملكة، وأن يفوض إليه السلطان إذا استكملت فيه الخصال المحمودة، ثم قال: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤﴾[4]. دلت هذه الآية على أن بصحبة العلماء والصالحين أهل الخبرة والمعرفة، تنتظم أمور الدنيا والآخرة، وكما يحتاج أشجع الناس إلى السلاح، وأفره الخيل إلى السوط، وأحَدُّ الشفار إلى المسن، كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم وأعلمهم إلى الوزير.

---

(١) المدام: الخمر أي قضيتم ليلكم بشرب الخمر.
(٢) لأن من يقضي ليله بشرب الخمر سينام نهاره.

(١) البلغة: ما يتبلغ به المرء وهو أقل الطعام والمراد قنعتم باليسير والقليل.
(٢) سورة طه، الآية (٢٩).
(٣) سورة طه، الآيتان (٣١ ـ ٣٢).
(٤) سورة طه، الآيتان (٣٣ ـ ٣٤).

وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضُّه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضُّه عليه، والمعصوم من عصمه الله.

وقال وهب بن منبه، قال موسى لفرعون: آمِنْ ولك الجنة ولك ملكك. قال: حتى أشاور هامان، فشاوره في ذلك، فقال له هامان: بينما أنت إله تعبد إذ صرت تَعْبُد. فأنف واستكبر، وكان من أمره ما كان.

وعلى هذا النمط كان وزير الحجاج يزيد بن مسلم لا يألوه خبالاً. ولبئس القرناء شر قرين لشر خدين، وأشرف منازل الآدميين النبوة ثم الخلافة ثم الوزارة، وفي الأمثال: نعمَ الظهير الوزير. وأول ما يظهر نبل السلطان وقوة تمييزه وجودة عقله في انتخاب الوزراء واستنقاء الجلساء ومحادثة العقلاء، فهذه ثلاث خلال تدل على كماله، وبهذه الخلال يجمل في الخلق ذكره، وترسخ في النفوس عظمته، والمرء موسوم بقرينه، وكان يقال حلية الملوك وزينتهم وزراؤهم.

وفي كتاب كليلة ودمنة: لا يصلح السلطان إلا بالوزراء والأعوان. وقال شريح بن هبيد: لم يكن في بني إسرائيل ملك إلا معه رجل حكيم إذا رآه غضبان كتب إليه صحائف، وفي كل صحيفة: إرحم المسكين واخش الموت، واذكر الآخرة، فكلما غضب الملك ناوله الحكيم صحيفة حتى يسكن غضبه، ومثل الملك الخير والوزير السوء الذي يمنع الناس خيره ولا يمكنهم من الدنو منه، كالماء الصافي فيه التمساح، فلا يستطيع المرء دخوله، وإن كان سابحاً وإلى الماء محتاجاً، ومثل السلطان كمثل الطبيب، ومثل الرعية كمثل المرضى، ومثل الوزير كمثل السفير بين المرضى والأطباء، فإذا كذب السفير بطل التدبير. وكما أن السفير إذا أراد أن يقتل أحداً من المرضى وصف للطبيب نقيض دائه، فإذا سقاه الطبيب على صفة السفير هلك العليل، كذلك الوزير ينقل إلى الملك ما ليس في الرجل، فيقتله الملك، فمن ههنا شُرِطَ في الوزير أن يكون صدوقاً في لسانه، عدلاً في دينه، مأموناً في أخلاقه، بصيراً بأمور الرعية، وتكون بطانة الوزير أيضاً من أهل الأمانة والبصيرة، وليحذر الملك أن يُوَلِّي الوزارة لئيماً، فاللئيم إذا ارتفع جفا أقاربه وأنكر معارفه، واستخف بالأشراف وتكبر على ذوي الفضل.

ودخل بعض الوزراء على بعض الخلفاء وكان الوزير من أهل العقل والأدب، فوجد عنده رجلاً ذمياً كان الخليفة يميل إليه ويقربه، فقال الوزير منشداً:

يا ملكاً طاعتُهُ لازمه
وحبّه مفترضٌ واجبُ
إن الذي شُرّفت من أجله
يزعم هذا أنّه كاذب

وأشار إلى الذمي، فسأله يا أمير المؤمنين عن ذلك، فسأله، فلم يجد بداً من أن يقول هو صادق، فاعترف بالإسلام.

وكان بعض الملوك قد كتب ثلاث رقاع، وقال لوزيره إذا رأيتني غضبان، فادفع إليَّ رقعة بعد رقعة، وكان في الأولى إنك لست بإله، وإنك ستموت، وتعود إلى التراب، فيأكل بعضك بعضاً، وفي الثانية: إرحم من في الأرض يرحمك من في السماء، وفي الثالثة: اقض بين الناس بحكم الله، فإنهم لا يصلحهم إلا ذلك.

ولمّا كانت أمور المملكة عائدة إلى الوزراء، وأزِمَّة[1] الملوك في أكف الوزراء سبق فيهم من العقلاء المثل السائر، فقالوا: لا تغتر بمودة الأمير إذا غشك الوزير، وإذا أحبك الوزير، فنم لا تخش الأمير، ومثل السلطان كالدار والوزير بابها، فمن أتى الدار من بابها ولج ومن أتاها من غير بابها انزعج. وموقع الوزارة من المملكة كموقع المرآة من البصر، فكما أن من لم ينظر في المرآة لا يرى محاسن وجهه وعيوبه، كذلك السلطان إذا لم يكن له وزير لا يعلم محاسن دولته وعيوبها. ومن شروط الوزير أن يكون كثيرالرحمة للخلق رؤوفاً بهم. .

واعلم أنه ليس للوزير أن يكتم عن السلطان نصيحة، وإن استقلّها، وموضع الوزير من المملكة كموضع العينين من الرأس، وكما أن المرآة لا تريك وجهك إلا بصفاء جوهرها وجودة صقلها ونقائها من الصدأ، كذلك السلطان لا يكمل أمره إلا بجودة عقل الوزير، وصحة فهمه، ونقاء قلبه. والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الأزِمَّة: ج زمام وهو ما تقاد به الدابة، وزمام الأمر: وسيلة السيطرة عليه وإدارته، والوزير هو المقرّب والمستشار من الملك وإليه يستمع في كل أمر وإلا لما اتّخذه.

الباب السابع عشر

في ذكر الحجاب والولاية وما فيها من الغرر والخطر

أما الحُجّاب:

فقد قيل: لا شيء أضيع للمملكة وأهلك للرعية من شدة الحُجّاب. **وقيل**: إذا سهل الحجّاب أحجمت الرعية عن الظلم، وإذ عظم الحُجّاب هجمت على الظلم.

وقال ميمون بن مهران، كنت عند عمر بن عبد العزيز، فقال لحاجبه: من بالباب؟ فقال: رجل أناخ ناقته الآن، يزعم أنه ابن بلال مؤذن رسول الله ﷺ، فأذن له أن يدخل، فلما دخل قال: حدثني أبي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: من ولي شيئاً من أمور المسلمين ثم حجبهم عنه حجبه الله عنه يوم القيامة، فقال عمر لحاجبه: إلزم بيتك، فما رؤي على بابه بعد ذلك حاجب.

وكان خالد بن عبد الله القشيري يقول لحاجبه: إذا أخذت مجلسي فلا تحجبن عني أحداً. فإن الوالي لا يحتجب إلا لثلاث: عيب يكره أن يطلع عليه أحد، أو ريبة يخاف منها أن تظهر، أو بخل يكره معه أن يسأل شيئاً.

وكانت العجم تقول: لا شيء أضيع للمملكة من شدة حُجّاب الملك، ولا شيء أهيب للرعية وأكف لهم عن الظلم من سهولته. **وقيل لبعض الحكماء**: ما الجرح الذي لا يندمل؟ قال: حاجة الكريم إلى اللئيم، ثم يرده بغير قضائها. **قيل**: فما الذي هو أشد منه؟ قال: وقوف الشريف بباب الدنيء ثم لا يؤذن له.

ووقف عبد الله بن العباس العلوي على باب المأمون يوماً، فنظر إليه الحاجب ثم أطرق، فقال عبد الله لقوم معه: إنه لو أذن لنا لدخلنا، ولو صرفنا لانصرفنا، ولو اعتذر إلينا لقبلنا، وأما النظرة بعد النظرة والتوقف بعد التعرف فلا أفهم معناه، ثم تمثل بهذا البيت.

وما عن رضىً كان الحمار مطيتي
ولكنّ من يمشي سيرضى بما ركبْ

ثم انصرف، فبلغ ذلك المأمون، فضرب الحاجب ضرباً شديداً، وأمر لعبد الله بصلة جزيلة وعشر دواب.

قال الشاعر:

رأيت أناساً يسرعون تبادراً
إذا فتح البواب بابك أصبعا
ونحن جلوسٌ ساكتون رزانةً
وحلماً إلى أن يُفتح الباب أجمعا

ووقف رجل خراساني بباب أبي دلف العجلي حيناً فلم يؤذن له فكتب رقعة وتلطف في وصولها إليه وفيها:

إذا كان الكريم له حِجَابٌ
فما فضل الكريم على اللئيمِ[1]

فأجابه أبو دلف بقوله:

إذا كان الكريمُ قليلَ مال
ولم يُعْذَر تعلّل بالحِجَابِ
وأبوابُ الملوك محجّباتٌ
فلا تستنكرنّ حجاب بابي

ومن محاسن النظم في ذم الاحتجاب قول بعضهم:

سأهجركم حتى يلين حجابكم
على أنه لا بدّ سوف يلينُ
خذوا حذركم من صفوة الدهر إنها
وإن لم تكن خانت فسوف تخونُ[2]

وقال آخر:

ماذا على بوّاب داركم الذي
لم يعطنا إذناً ولا يُستأذنُ
لو ردّنا رداً جميلاً عنكمُ
أو كان يدفع بالتي هي أحسنُ

وقال آخر:

أمرت بالتسهيل في الإذن لي
ولم يَرَ الحاجبُ أن يَأْذَنَا
فلن تراني بعدها عائداً
ولن تراه بعد مستأذِنَا[3]

وقال آخر:

ولقد رأيت بباب دارك جفوةً
فيها لحسن صنيعك التكديرُ[4]

---

(١) أي إذا كان الكريم يمنع الناس من الوصول إليه فما الفرق بينه وبين اللئيم.

(٢) أي إن كان الدهر قد صفا لكم هذه الأيام، فقد يتغير الحال وتحتاجون إلى من يحتاج اليوم إليكم.

(٣) أي لن تراه بعد اليوم مستأذناً لي بالدخول عليكم.

(٤) أي رأيت ببابك جفوة ورداً يعكر صفو المودة بيننا.

مـا بـال دارك حـيـن تـدخـل جـنّـةً
وبــاب دارك مــنـكـرٌ ونـكـيـرُ

وقال آخر:

إذا جئتُ ألقى عند بابكِ حاجباً
محيّاه من فرط الجهالة حالِكُ
ومن عجبٍ مَغْنَاكَ جنّة قاصدٍ
وحاجبها من دون رضوان مالكُ[١]

وقال آخر:

سأترك باباً أنت تملك إذنه
ولو كنت أعمى عن جميع المسالكِ
فلو كنت بَوَّابَ الجنان تركتها
وحوّلت رجلي مسرعاً نحو مالكِ[٢]

وقال آخر:

ماذا يفيدك أن تكون محجّباً
والعبد بالباب الكريم يلوذ
ما أنت إلاّ في الحصار معي فلا
تتعبْ فكلّ محاصرٍ مأخوذُ

وقال أبو تمام:

سأترك هذا الباب ما دام إذنه
على ما أرى حتى يلين قليلا
فما خاب من لم يأته متعمّداً
ولا فاز من قد نال منه وصولا
إذا لم نجد للإذن عندك موضعاً
وجدنا إلى ترك المجيء سبيلا

واستأذن رجل على أمير، فقال للحاجب: قل له إن الكرى قد خطب إلي نفسي وإنما هي هجعة وأهب، فخرج الحاجب، فقال له الرجل: ما الذي قال لك؟ قال: قال كلاماً لا أفهمه وهو يريد أن لا يأذن لك.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إنما أمهل فرعون مع دعواه الألوهية لسهولة إذنه وبذل طعامه.

وقال عمرو بن مرة الجهني لمعاوية سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من أمير يغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلة[٣] والمسألة إلا أغلق الله أبواب السموات دون حاجته وخلته ومسألته، وجاء النامي الشاعر لبعض الأمراء فحجبه، فقال:

سأصبر إن جفوت فكم صبرنا
لمثلك من أميرٍ أو وزيرِ
رجوناهم فلما أخلفونا
تمادتْ فيهم غِيَرُ الدهور
فبتنا بالسلامة وهي غنمٌ
وباتوا في المحابس والقبور
ولمّا لم ننل منهم سروراً
رأينا فيهمُ كلّ السرور

وأنشدوا في ذلك أيضاً:

قل للذين تحجبوا عن راغبٍ
بمنازلٍ من دونها الحجّاب
إن حال عن لقياكم بوابكم
فالله ليس لبابه بوّاب

واستأذن سعد بن مالك[١] على معاوية، فحجبه، فهتف بالبكاء، فأتى الناس وفيهم كعب[٢] فقال: وما يبكيك يا سعد؟ فقال: وما لي لا أبكي وقد ذهب الأعلام من أصحاب رسول الله ﷺ ومعاوية يلعب بهذه الأمة؟ فقال كعب: لا تبك، فإن في الجنة قصراً من ذهب يقال له عدن أهله الصدّيقون والشهداء، وأنا أرجو أن تكون من أهله.

واستأذن بعضهم على خليفة كريم وحاجبه لئيم، فحجبه فقال:

في كلّ يومٍ لي ببابك وقفةٌ
أطوي إليه سائر الأبوابِ[٣]
وإذا حضرت رغبت عنك فإنه
ذنبٌ عقوبتُهُ على البوّابِ[٤]

وأما ذكر الولايات وما فيها من الخطر العظيم:

فقد قال الله تعالى لداود عليه السلام: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[٥].

---

(١) المغنى: البيت حوله حديقة وبركة ماء.
(٢) أي نحو النار لأن مالكاً خازن النار.
(٣) ذوي الخلة: الفقراء والمحتاجون.

---

(١) هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.
(٢) هو كعب بن جعيل بن قمير بن عجرة التغلبي، الشاعر وهو شاعر معاوية بن أبي سفيان توفي حوالي سنة ٥٥ هـ.
(٣) أي أدع سائر الأبواب لآتيه فأتجاوزها وأقف عنده.
(٤) رغبت عنه: كرهت الوقوف عنده.
(٥) سورة صٓ، الآية (٢٦).

جاء في التفسير: إن من اتباع الهوى أن يحضر الخصمان بين يديك فتود أن يكون الحق للذي في قلبك محبة خاصة، وبهذا سلب سليمان بن داود ملكه. **قال ابن عباس** رضي الله عنهما: كان الذي أصاب سليمان بن داود عليهما السلام أن ناساً من أهل جرادة امرأته، وكانت من أكرم نسائه عليه، تحاكموا إليه مع غيرهم، فأحب أن يكون الحق لأهل جرادة فيقضي لهم، فعوقب بسبب ذلك حيث لم يكن هواه فيهم واحداً.

وروي عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليه. **وقال معقل بن يسار** رضي الله عنه، سمعت النبي ﷺ يقول: ما من عبد يسترعيه الله رعية، فلم يحطها بنصيحته إلا لم يجد رائحة الجنة.

وفي الحديث: «من ولي من أمور المسلمين شيئاً ثم لم يحطهم بنصيحته كما يحوط أهل بيته، فليتبوأ مقعده من النار.

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث إلى عاصم يستعمله على الصدقة، فأبى، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا كان يوم القيامة يؤتى بالوالي فيقف على جسر جهنم، فيأمر الله تعالى الجسر فينتفض انتفاضة فيزول كل عضو منه عن مكانه، ثم يأمر الله تعالى بالعظام، فترجع إلى أماكنها، فإن كان لله مطيعاً أخذ بيده، وأعطاه كفلين من رحمته، وإن كان لله عاصياً انخرق به الجسر فهوى به في نار جهنم مقدار سبعين خريفاً، فقال عمر رضي الله عنه سمعت من النبي ﷺ ما لم أسمع قال: نعم. وكان سلمان وأبو ذر حاضرين، فقال سلمان: أي والله يا عمر ومع السبعين سبعون خريفاً في واد يلتهب التهاباً، فضرب عمر رضي الله عنه بيده على جبهته وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون: من يأخذها بما فيها، فقال سلمان من أرغم الله أنفه وألصق خده بالأرض.

وروى أبو داود في السنن قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن أبي عريف على الماء، وإني أسألك أن تجعل لي العرافة من بعده، فقال النبي ﷺ العرفاء في النار.

وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة الإمام الجائر. **وقالت عائشة** رضي الله عنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة، فيلقى من شدة الحساب ما يود أنه لم يقض بين اثنين في تمرة.

وقال الحسن البصري: إن النبي ﷺ دعا عبد الرحمن بن سمرة يستعمله، فقال: يا رسول الله خِرْ لي، فقال: أقعد في بيتك. **وقال أبو هريرة** رضي الله عنه: ما من أمير يؤمر على عشرة إلا جيء به يوم القيامة مغلولاً، أنجاه عمله أو أهلكه.

وقال طاوس لسليمان بن عبد الملك: هل تدري يا أمير المؤمنين من أشد الناس عذاباً يوم القيامة؟ قال سليمان: قل. فقال طاوس: أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله في ملكه فجار في حكمه، فاستلقى سليمان على سريره وهو يبكي، فما زال يبكي حتى قام عنه جلساؤه.

وقال ابن سيرين: جاء صبيان إلى أبي عبيدة السلماني يتخيرون إليه في ألواحهم، فلم ينظر إليها، وقال: هذا حُكْمٌ، لا أتولى حُكْماً أبداً. **وقال أبو بكر بن أبي مريم**: حَجُّ قوم، فمات صاحب لهم بأرض فلاة، فلم يجدوا ماء، فأتاهم رجل فقالوا له: دلنا على الماء. فقال: احلفوا لي ثلاثاً وثلاثين يميناً أنه لم يكن صرّافاً ولا مكاساً[1] ولا عريفاً، ويروى ولا عرافاً، ولا بريداً، وأنا أدلكم على الماء، فحلفوا له ثلاثاً وثلاثين يميناً كما تقدم، فحلفوا له، فأعانهم على غسله، ثم قالوا له: تقدم فصلِّ عليه، فقال: لا، حتى تحلفوا لي ثلاثاً وثلاثين يميناً كما تقدم، فحلفوا له فصلى عليه، ثم التفتوا فلم يجدوا أحداً، فكانوا يرون أنه الخضر عليه السلام.

وقال أبو ذر رضي الله عنه، قال لي رسول الله ﷺ: يا أبا ذر إني أحب لك ما أحب لنفسي، وإني أراك ضعيفاً، فلا تتأمرن على اثنين ولا تَلِيَنَّ مال يتيم

ومن غريب ما اتفق وعجيب ما سبق: ما حكي أن ملكاً من ملوك الفرس يقال له أردشير، وكان ذا مملكة متسعة وجند كثير، وكان ذا بأس شديد، قد وصف له بنت ملك بحر الأردن بالجمال البارع، وأن هذه البنت بكر ذات خدر، فسيّر أردشير من يخطبها من أبيها، فامتنع من إجابته، ولم يرض بذلك، فعظم ذلك على أردشير، وأقسم بالأيمان المغلظة ليغزون الملك أبا البنت، وليقتلنه

---

(١) المكاس: جابي المكوس وهي الضرائب والعشور، وذلك لأن الصراف قد يغش في صرافته والمكاس قد يظلم الناس فيخفف عمن يحب ويزيد على من يكره.

هو وابنته شر قتلة، وليمثلن بهما أخبث مثلة.

فسار إليه أردشير في جيوشه، فقاتله، فقتله أردشير وقتل سائر خواصه، ثم سأل عن ابنته المخطوبة، فبرزت إليه جارية من القصر من أجمل النساء وأكمل البنات حسناً وجمالاً وقدراً واعتدالاً، فبهت أردشير من رؤيته إياها، فقالت له: أيها الملك إنني ابنة الملك الفلاني ملك المدينة الفلانية، وأن الملك الذي قتلته أنت قد غزا بلدنا وقتل أبي وقتل سائر أصحابه قبل أن تقتله أنت، وأنه أسرني في جملة الأسارى وأتى بي في هذا القصر، فلما رأتني ابنته التي أرسلت تخطبها أحبتني، وسألت أباها أن يتركني عندها لتأنس بي، فتركني لها، فكنت أنا وهي كأننا روحان في جسد واحد، فلما أرسلت تخطبها خاف أبوها عليها منك فأرسلها إلى بعض الجزائر في البحر الملح عند بعض أقاربه من الملوك.

فقال أردشير: وددت لو أني ظفرت بها فكنت أقتلها شر قتلة، ثم أنه تأمل الجارية فرآها فائقة في الجمال، فمالت نفسه إليها، فأخذها للتسري، وقال هذه أجنبية من الملك ولا أحنث في يميني بأخذها، ثم إنه واقعها وأزال بكارتها، فحملت منه، فلما ظهر عليها الحمل، اتفق أنها تحدثت معه يوماً، وقد رأته منشرح الصدر، فقالت له: أنت غلبت أبي وأنا غلبتك، فقال لها: ومن أبوك؟ فقالت له: هو ملك بحر الأردن، وأنا ابنته التي خطبتها منه، وإنني سمعت أنك أقسمت لتقتلني فتحيلت عليك بما سمعت، والآن هذا ولدك في بطني، فلا يتهيأ لك قتلي.

فعظم ذلك على أردشير إذ قهرته امرأة وتحيلت عليه حتى تخلصت من يديه، فانتهرها، وخرج من عندها مغضباً، وعوّل على قتلها، ثم ذكر لوزيره ما اتفق له معها، فلما رأى الوزير عزمه قوياً على قتلها خشي أن تتحدث الملوك عنه بمثل هذا، وأنه لا يقبل فيها شفاعة شافع، فقال أيها الملك: إن الرأي هو الذي خطر لك والمصلحة هي التي رأيتها أنت، وقتل هذه الجارية في هذا الوقت أولى وهو عين الصواب لأنه أحق من أن يقال أن امرأة قهرت رأي الملك وحَنَّثَتْهُ في يمينه[1] لأجل شهوة النفس، ثم قال أيها الملك: إن صورتها مرحومة وحمل الملك معها، وهي أولى بالستر، ولا أرى في قتلها أستر ولا أهون عليها من الغرق، فقال لها الملك: نعم ما رأيت خذها غرقها، فأخذها الوزير ثم خرج بها ليلاً إلى بحر الأردن ومعه ضوء ورجال وأعوان، فتحيَّل إلى أن طرح شيئاً في البحر أوهم من كان معه أنها الجارية، ثم إنه أخفاها عنده، فلما أصبح جاء إلى الملك، فأخبره أنه غرّقها، فشكره على ما فعل.

ثم إن الوزير ناول الملك حقاً[1] مختوماً وقال أيها الملك إني نظرت مولدي، فرأيت أجلي قد دنا على ما يقتضيه حساب حكماء الفرس في النجوم، وإن لي أولاداً وعندي مال قد ادخرته من نعمتك، فخذه إذا أنا مت إن رأيت، وهذا الحُق فيه جوهر أسأل الملك أن يقسمه بين أولادي بالسوية فإنه إرثي الذي قد ورثته من أبي وليس عندي شيء مما اكتسبته منه إلا هذا الجوهر.

فقال له الملك: يطول الرب في عمرك ومالك لك ولأولادك سواء كنت حياً أو ميتاً. فألح عليه الوزير أن يجعل الحُق عنده وديعة فأخذه الملك وأودعه عنده في صندوق، ثم مضت أشهر الجارية، فوضعت ولداً ذكراً جميلاً حسن الخلقة مثل فلقة القمر، فلاحظ الوزير جانب الأدب في تسميته، فرأى أنه إن اخترع له إسماً وسماه به، وظهر لوالده بعد ذلك، فيكون قد أساء الأدب، وإن هو تركه بلا إسم لم يتهيأ له ذلك، فسماه شاه بور ومعنى شاه بور بالفارسية ابن ملك، فإن شاه ملك، وبور ابن، ولغتهم مبنية على تأخير المتقدم وتقديم المتأخر، وهذه تسمية ليس فيها مؤاخذة.

ولم يزل الوزير يلاطف الجارية والولد إلى أن بلغ الولد حد التعليم، فعلمه كل ما يصلح لأولاد الملوك من الخط والحكمة والفروسية، وهو يوهم أنه مملوك له اسمه شاه بور، إلى ان راهق البلوغ.

هذا كله وأردشير ليس له ولد، وقد طعن في السن وأقعده الهرم، فمرض وأشرف على الموت، فقال للوزير: أيها الوزير: قد هرم جسمي وضعفت قوتي وإني أرى أني ميت لا محالة، وهذا الملك يأخذه من بعدي من قضي له به. فقال الوزير: لو شاء الله أن يكون للملك ولد كان قد ولي بعده الملك، ثم ذكره بأمر بنت ملك بحر الأردن وبحملها، فقال الملك: لقد ندمت على تغريقها. ولو كنت أبقيتها حتى تضع، فلعل حملها يكون ذكراً.

فلما شاهد الوزير من الملك الرضا، قال: أيها الملك إنها عندي حية ولقد ولدت وضعت ولداً ذكراً من أحسن

---

(١) حنثه في يمينه: جعله لا يفي بها.

(١) الحق: وعاء صغير للطيب أو لحفظ الأوراق.

الغلمان خلقاً وخُلقاً، فقال الملك: أحق ما تقول: فأقسم الوزير أن نعم، ثم قال: أيها الملك إن في الولد روحانية تشهد بأبوة الأب وفي الوالد روحانية تشهد ببنوة الإبن، لا يكاد ذلك ينخرم أبداً[1]، وإنني آتي بهذا الغلام بين عشرين غلاماً في سنه وهيئته ولباسه، وكلهم ذوو آباء معروفين خلا هو. وإني أعطي كل واحد منهم صولجاناً وكرة وآمرهم أن يلعبوا بين يديك في مجلسك هذا، ويتأمل الملك صورهم، وخلقتهم وشمائلهم، فكل من مالت إليه نفسه وروحانيته فهو هو، فقال الملك: نعمَ التدبير الذي قلت.

فأحضرهم الوزير على هذه الصورة ولعبوا بين يدي الملك، فكان الصبي منهم إذا ضرب الكرة وقربت من مجلس الملك تمنعه الهيبة أن يتقدم ليأخذها إلا شاه بور، فإنه كان إذا ضربها، وجاءت عند مرتبة أبيه تقدم، فأخذها ولا تأخذه الهيبة منه، فلاحظ أردشير ذلك منه مراراً، فقال أيها الغلام ما اسمك؟ قال: شاه بور، فقال له: صدقت أنت ابني حقاً، ثم ضمه إليه وقبله بين عينيه.

فقال له الوزير: هذا هو ابنك أيها الملك، ثم أحضر بقية الصبيان ومعهم عدول فأثبت لكل صبي منهم والداً بحضرة الملك، فتحقق الصدق في ذلك، ثم جاءت الجارية وقد تضاعف حسنها وجمالها، فقبلت يد الملك، فرضي عنها.

فقال الوزير: أيها الملك قد دعت الضرورة في هذا الوقت إلى إحضار الحُق المختوم، فأمر الملك بإحضاره، ثم أخذه الوزير وفك ختمه وفتحه فإذا فيه ذكر الوزير وأنثياه مقطوعة مصانه فيه من قبل أن يتسلم الجارية من الملك، وأحضر عدولاً من الحكماء وهم الذين كانوا فعلوا به ذلك، فشهدوا عند الملك بأن هذا الفعل فعلناه به من قبل أن يتسلم الجارية بليلة واحدة، قال: فدهش الملك أردشي روبهت لما أبداه هذا الوزير من قوة النفس في الخدمة، وشدة مناصحته، فزاد سروره وتضاعف فرحه لصيانة الجارية وإثبات نسب الولد ولحوقه به، ثم إن الملك عوفي من مرضه الذي كان به وصح جسمه، ولم يزل يتقلب في نعمه وهو مسرور بابنه إلى أن حضرته الوفاة، ورجع الملك إلى ابنه شاه بور بعد موت أبيه، وصار ذلك الوزير يخدم ابن الملك أردشير وشاه بور يحفظ مقامه ويرعى منزلته حتى توفاه الله تعالى، والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

(١) أي لا يخطىء ذلك أبداً.

الباب الثامن عشر

فيما جاء في القضاء وذكر القضاة وقبول الرشوة والهدية على الحكم وما يتعلق بالديون وذكر القصاص والمتصوفة

وفيه فصول

الفصل الأول

فيما جاء في القضاء وذكر القضاة وأحوالهم وما يجب عليهم

قال الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[3]. وقال رسول الله ﷺ: من حكم بين اثنين تحاكما إليه وارتضياه، فلم يقض بينهما بالحق، فعليه لعنة الله. وعن أبي حازم، قال: دخل عمر على أبي بكر رضوان الله عليهما، فسلّم عليه، فلم يرد عليه، فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف: أخاف أن يكون وجد عليّ[4] خليفة رسول الله ﷺ، فكلم عبد الرحمن أبا بكر، فقال: أتاني، وبين يدي خصمان قد فرغت لهما قلبي وسمعي وبصري، وعلمت أن الله سائلي عنهما وعما قالا وقلت. وادعى رجل على عليٍّ عند عمر رضي الله عنهما وعليٌّ جالس، فالتفت عمر إليه وقال: يا أبا الحسن

(١) سورة ص، الآية (٢٦).
(٢) سورة ص، الآية (٢٢).
(٣) سورة المائدة، الآية (٤٥).
(٤) وَجَدَ عليّ: غضب مني.

قم فاجلس مع خصمك، فتناظرا، وانصرف الرجل، ورجع عليّ إلى مجلسه، فتبين لعمر التغير في وجه عليّ، فقال يا أبا الحسن ما لي أراك متغيراً، أكرهت ما كان؟ قال: نعم. قال: وما ذاك؟ قال: كنيتني بحضرة خصمي. هلا قلت يا علي قم، فاجلس مع خصمك، فأخذ عمر برأس علي رضي الله عنهما، فقبله بين عينيه، ثم قال بأبي أنتم بكم هدانا الله وبكم أخرجنا من الظلمات إلى النور.

وعن أبي حنيفة رضي الله عنه: القاضي كالغريق في البحر الأخضر[1] إلى متى يسبح وإن كان سابحاً. وأراد عمر بن هبيرة أن يولي أبا حنيفة القضاء، فأبى، فحلف ليضربنه بالسياط، وليسجننه، فضربه حتى انتفخ وجه أبي حنيفة ورأسه من الضرب، فقال: الضرب بالسياط في الدنيا أهون عليّ من الضرب بمقامع الحديد في الآخرة.

وعن عبد الملك بن عمير عن رجل من أهل اليمن قال: أقبل سيل باليمن في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فكتب إلينا، لا تحركوه حتى يقدم إليكم كتابي، ثم فتح، فإذا برجل على سرير عليه سبعون حلة منسوجة بالذهب وفي يده اليمنى لوح مكتوب فيه هذان البيتان:

إذا خان الأمير وكاتباه
وقاضي الأرض داهنَ في القضاءِ[2]
فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ
لقاضي الأرض من قاضي السماءِ

وإذا عند رأسه سيف أشد خضرة من البقلة مكتوب عليه هذا سيف عاد بن إرم.

عن ابن أبي أوفى عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله مع القاضي ما لم يجر، فإذا جار بريء الله منه ولزمه الشيطان.

وقال محمد بن حريث: بلغني أن نصر بن علي راودوه على القضاء بالبصرة، واجتمع الناس إليه فكان لا يجيبهم فلما ألحوا عليه دخل بيته ونام على ظهره وألقى ملاءة على وجهه وقال: اللهم إن كنت تعلم أني لهذا الأمر كاره فاقبضني إليك، فَقُبِضَ.

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ القضاة جسور للناس يمرون على ظهورهم يوم القيامة.

وقال حفص بن غياث لرجل كان يسأله عن مسائل القضاء: لعلك تريد أن تكون قاضياً، لأن يدخل الرجل

---

(١) أي في البحر المالح والعرب تُسَمّي شديد الزرقة أخضر.

(٢) داهن من المداهنة، أي راعى بعض الخصوم على حساب البعض الآخر.

أصبعه في عينيه فيقلعهما ويرمي بهما خير له من أن يكون قاضياً.

وقيل أول من أظهر الجور من القضاة بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، كان أمير البصرة وقاضياً فيها وكان يقول إن الرجلين يتقدمان إلي فأجد أحدهما أخف على قلبي من الآخر فأقضي له.

وتقدم المأمون بين يدي القاضي يحيى بن أكثم مع رجل ادعى عليه بثلاثين ألف دينار، فطرح للمأمون مصلى يجلس عليه فقال له يحيى: لا تأخذ على خصمك شرف المجلس، ولم يكن للرجل بينة، فأراد أن يحلف المأمون فدفع إليه المأمون ثلاثين ألف دينار وقال: والله ما دفعت لك هذا المال إلا خشية أن تقول العامة أني تناولتك من جهة القدرة ثم أمر ليحيى بمال وأجزل عطاءه.

وقدم خادم من وجوه خدم المعتضد بالله إلى أبي يوسف بن يعقوب في حكم فارتفع الخادم على خصمه في المجلس فزجره الحاجب عن ذلك فلم يقبل، فقال أبو يوسف: قم، أتؤمر أن تقف بمساواة خصمك في المجلس فتمتنع، يا غلام ائتني بعمرو بن أبي عمرو النخّاس[1] فإنه إن قدم عليّ الساعة أمرته ببيع هذا العبد وحمل ثمنه إلى أمير المؤمنين، ثم إن الحاجب أخذ بيده حتى أوقفه بمساواة خصمه فلما انقضى الحكم رجع الخادم إلى المعتضد وبكى بين يديه وأخبره بالقصة، فقال له: لو باعك لأجزت بيعه ولم أردك إلى ملكي، فليست منزلتك عندي تزن رتبة المساواة بين الخصمين في الحكم فإن ذلك عمود السلطان وقوام الأديان. والله تعالى أعلم.

وقال العكلي يمدح بعض القضاة:

رُفضتْ وعطلتْ الحكومة قبله
في آخرين ومثلها روّاضها
حتى إذا ما قام أَلَّفَ بينها
بالحق حتى جمّعت أوفاضها[2]

وفي ضد ذلك قول بعضهم:

أبكي وأندب مِلّة الإسلام
إذ صرت تقعد مقعَدَ الحُكّامِ
إنّ الحوادث ما علمت كبيرةٌ
وأراك بعض حوادث الأيام

---

(١) النخاس: بائع الرقيق من عبيد وجواري.

(٢) أوفاضها: شتاتها، والأوفاض أخلاط الناس.

وتقدمت إمرأة إلى قاض، فقال لها: جا معك شهودك، فسكتت، فقال كاتبه: إن القاضي يقول لك جاء شهودك معك، قالت: نعم، هلا قلت مثل ما قال كاتبك كَبُرَ سِنُّك وقلّ عقلك وعظمت لحيتك حتى غطت على لبك، ما رأيت ميتاً يقضي بين الأحياء غيرك.

وقيل: المضروب بهم المثل في الجهل وتحريف الأحكام، قاضي مِنىَ وقاضي كسكر وقاضي أيدج، وهو الذي قال فيه أبو إسحاق الصابي:

يا رُبَّ علج أعلج
مثل البعير الأهوج[1]
رأيته مطلعاً
من خلف باب مرتج[2]
وخلفه عذيبة
تذهب طوراً وتجي[3]
فقلت من هذا ترى
فقيل قاضي أيدج

وقاضي شلبة وهو الذي قال فيه أبو الحسن الجوهري:

رأيت رأساً كَدُبّه
ولحية كالمذبة[4]
فقلت من أنت قل لي
فقال قاضي شلبه

وتقدمت امرأة جميلة إلى الشعبي فادَّعت عنده فقضى لها، فقال هذيل الأشجعي:

فُتن الشعبيّ لما
رفع الطرف إليها
فتنته ببنان
كيف لو رأى معصميها
ومشت مشياً رويداً
ثم هزت منكبيها
فقضى جوراً على الخصم
ولم يقض عليها

(١) العلج: لفظة تطلق على غير العرب، وأعلج: المراد كافر.
(٢) مُرْتَج: مغلق.
(٣) العذَيبة: طرف العمامة النازل على الكاهل أو الضفيرة.
(٤) المذبة: خشبة في طرفها رزمة من شعر أو خيوط لإبعاد الذباب.

فتناشدها الناس وتداولوها حتى بلغت الشعبي فضرب الأشجعي ثلاثين سوطاً.

وحكى ابن أبي ليلى قال: انصرف الشعبي يوماً من مجلس القضاء ونحن معه فمررنا بخادمة تغسل الثياب وهي تقول: فتن الشعبي لما. وأعادته ولم تعرف بقية البيت فلقنها الشعبي وقال: رفع الطرف إليها. ثم قال أبعده الله أما أنا فما قضيت إلا بالحق. وأنشد بعضهم في أمين الحكم:

تَتَمَاوَتَنَّ إِذَا مَشَيْتَ تَخَشُّعاً
حَتَّى تُصِيبَ وَدِيعَةً لِيَتِيمِ

الفصل الثاني

في الرشوة والهدية على الحكم وما جاء في الديون

أما الرشوة، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: **لعن الله الراشي والمرتشي**. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا تولوا اليهود ولا النصارى فإنهم يقبلون الرشا ولا يحل في دين الله الرشا، قال الشهيدي: وأصحابنا اليوم أقبل للرشا منهم.

وفي نوابغ الحكم: «إن البراطيل تنصر الأباطيل».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: من شفع شفاعة ليرد بها حقاً أو يدفع بها ظلماً، فأهدي له فقبل فذلك السحت[1]، فقيل له، ما كنا نرى السحت إلا الأخذ على الحكم، قال: الأخذ على الحكم كفر.

وأنشد المبرد رحمه الله تعالى:

وكنت إذا خاصمت خصماً كببته
على الوجه حتى خاصمتني الدراهم
فلما تنازعنا الحكومة غُلِّبَتْ
عَلَيّ وقالت: قم فإنك ظالمُ

وأما الدين وما جاء فيه نعوذ بالله من غلبة الدين وقدر الرجال

فقد روي عن أبي أُمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: من تداين بدين وفي نفسه وفاؤه ثم مات، تجاوز الله عنه وأرضى غريمه بما شاء. ومن تداين بدين وليس في نفسه وفاؤه ثم مات، اقتص الله لغريمه منه يوم القيامة. رواه الحاكم.

(١) السحت: المال الحرام.

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتي له بجنازة لم يسأل عن شيء من عمل الرجل، ويسأل عن دَيْنِهِ فإن قيل عليه دين كف عن الصلاة عليه، وإن قيل ليس عليه دين صلّى عليه، فأُتي بجنازة، فلما قام ليكبر ﷺ قال: هل على صاحبكم من دين؟ فقالوا: ديناران يا رسول الله، فعدل النبي ﷺ عنه وقال: صلوا على صاحبكم، فقال علي كرم الله وجهه: هما عليّ يا رسول الله وهو بريء منهما، فتقدم رسول الله ﷺ فصلّى عليه، ثم قال لعلي رضي الله عنه: جزاك الله عنه خيراً، فك الله رهانك كما فككت رهان أخيك، إنه ليس من ميت يموت وعليه دين إلا وهو مرتهن بدينه، ومن فك رهان ميت فك الله رهانه يوم القيامة.

وقال بعض الحكماء: الدين همّ بالليل وذلّ بالنهار، وهو غلّ[1] جعله الله في أرضه، فإذا أراد الله أن يذل عبداً جعله طوقاً في عنقه.

وجاء سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يتقاضى ديناً له على رجل، فقالوا: خرج إلى الغزو، فقال أشهد أن رسول الله ﷺ قال: لو أن رجلاً قتل في سبيل الله، ثم أُحيي، ثم قتل لم يدخل الجنة حتى يقضي دينه.

وعن الزهري قال: لم يكن رسول الله ﷺ يصلي على أحد عليه دين، ثم قال بعد: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم من مات وعليه دين فعليّ قضاؤه» ثم صلى عليهم.

وعن جابر: لا همّ إلا هم الدين ولا وجع إلا وجع العين. **وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال**: من تزوج امرأة بصداق ينوي أن لا يؤديه إليها، فهو زان، ومن استدان ديناً ينوي أن لا يقضيه فهو سارق، وقال حبيب بن ثابت: ما احتجت إلى شيء أستقرضه إلا استقرضته من نفسي، أراد أنه يصبر إلى أن تمكن الميسرة، ونظيره قول القائل:

وإذا غلا شيء عليّ تركته
فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

وقال بعضهم أيضاً:

لقد كان القريضُ سمير قلبي
فألهتني القروضُ عن القريضِ

وقال غيلان بن مرة التميمي:

وإني لأقضي الدّينَ بالدين بعدما
يرى طالبي بالدين أن لست قاضيا

فأجابه ثعلبة بن عمير:

إذا ما قضيت الدين بالدين لم يكن
قضاء ولكن ذاك غرم على غرم

واستقرض من الأصمعي خليل له فقال: حباً وكرامة، ولكن سكّن قلبي برهن يساوي ضعف ما تطلبه، فقال: يا أبا سعيد أما تثق بي؟ قال: بلى، وإن خليل الله كان واثقاً بربه، وقد قال له: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[1]، اللهم أوفِ عنّا دَيْنَ الدنيا بالميسرة، ودين الآخرة بالمغفرة، برحمتك يا أرحم الراحمين.

الفصل الثالث

في ذكر القُصّاص والمتصوفة وما جاء في الرياء ونحو ذلك

أما ما جاء في ذكر القصاص والمتصوفة:

فقد روي عن خباب بن الأرت قال: قال رسول الله ﷺ أن بني إسرائيل لما قصُّوا هلكوا. وروي أن كعباً كان يقص، فلما سمع الحديث ترك القَصَص.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: لم يقص أحد على عهد رسول الله ﷺ ولا عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وإنما كان القصص حين كانت الفتنة.

وقال ابن المبارك: سألت الثوري، من الناس؟ قال العلماء، قلت: فمن الأشراف؟ قال: المتقون، قلت: فمن الملوك؟ قال: الزهاد، قلت: فمن الغوغاء؟ قال: القُصّاص الذين يستأصلون أموال الناس بالكلام، قلت: فمن السفهاء؟ قال: الظَلَمَة. **قيل**: وهب رجل لقاص خاتماً بلا فص، فقال وهب الله لك في الجنة غرفة بلا سقف. **وقال قيس بن جبير النهشلي**، الصعقة التي عند القصاص من الشيطان. **وقيل لعائشة رضي الله عنها**: إن أقواماً إذا سمعوا القرآن صعقوا، فقالت: القرآن أكرم وأعظم من أن تذهب منه عقول الرجال. **وسئل ابن سيرين** عن أقوام يصعقون عند سماع القرآن، فقال: ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط، فيقرأ عليهم القرآن من أوله إلى آخره فإن صعقوا، فهو كما قالوا. وكان بمرو قاص يبكي بمواعظه، فإذا طال مجلسه بالبكاء أخرج من كمه طنبوراً صغيراً فيحركه ويقول: مع هذا الغم الطويل يحتاج إلى فرح ساعة.

وقال بعضهم: قلت لصوفي بعني جبتك، فقال: إذا باع

---

(1) غِلٌّ: قَيْدٌ.

(1) سورة البقرة، الآية (٢٦٠).

الصياد شبكته فبأي شيء يصيد. وسئل بعض العلماء عن المتصوفة، فقال: أكلة رقصة، ووعظ عيسى عليه السلام بني إسرائيل، فأقبلوا يمزقون الثياب، فقال: ما ذنب الثياب، أقبلوا على القلوب فعاتبوها.

وأما ما جاء في الرياء:

فقد قال الله تعالى: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا معاذ احذر أن يرى عليك آثار المحسنين، وأنت تخلو من ذلك فتحشر مع المرائين».

وقيل: لو أن رجلاً عمل عملاً من البر فكتمه ثم أحب أن يعلم الناس أنه كتمه، فهو من أقبح الرياء.

وقيل: كل ورع يحب صاحبه أن يعلمه غير الله، فليس من الله في شيء. وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا: ما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء»[2]. وقيل: بينما عابد يمشي ومعه غمامة على رأسه تظله، فجاء رجل يريد أن يستظل معه، فمنعه. وقال إن أقمت معي لم يعلم الناس أن الغمامة تظلني، فقال له الرجل قد علم الناس أنني لست ممن تظله الغمامة، فحولها الله تعالى إلى ذلك الرجل.

وقال عبد الأعلى السلمي يوماً: الناس يزعمون أني مراء وكنت أمس والله صائماً ولا أخبرت بذلك أحداً. اللهم أصلح فساد قلوبنا واستر فضائحنا برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) سورة النساء، الآية (١٤٢).

(٢) لأن المرائي يطلب رضا الناس بعمله وليس رضا الله عز وجل فكأنه يتعبد لهم أو يشركهم بعبادة هي لله وحده.

الباب التاسع عشر

في العدل والإحسان والإنصاف وغير ذلك

إعلم أرشدك الله أن الله تعالى أمر بالعدل، ثم علم سبحانه وتعالى أنه ليس كل النفوس تصلح على العدل بل تطلب الإحسان وهو فوق العدل فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1] الآية. فلو وسع الخلائق العدل ما قرن الله به الإحسان. والعدل ميزان الله تعالى في الأرض الذي يؤخذ به للضعيف من القوي والمحق من المبطل.

واعلم أن عدل الملك يوجب محبته، وجوره يوجب الافتراق عنه، وأفضل الأزمنة ثواباً أيام العدل.

وروينا من طريق أبي نعيم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لعمل الإمام العادل في رعيته يوماً واحداً أفضل من عمل العابد في أهله مائة عام أو خمسين عاماً»[2].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة». وروينا في سنن أبي داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السماء».

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لكعب الأحبار: أخبرني عن جنة عدن، قال: يا أمير المؤمنين لا يسكنها إلا نبي أو صديق أو شهيد أو إمام عادل، فقال عمر: والله ما أنا نبي، وقد صدقت رسول الله ﷺ وأما الإمام العادل، فإني أرجو أن لا أجور، وأما الشهادة فأنّى لي بها. قال الحسن: فجعله الله صديقاً شهيداً حكماً عدلاً.

وسأل الإسكندر حكماء أهل بابل: إيما أبلغ عندكم؟ الشجاعة أو العدل، قالوا إذا استعملنا العدل استغنينا به عن الشجاعة.

ويقال: عدل السلطان أنفع من خصب الزمان. وقيل: إذا رغب السلطان عن العدل رغبت الرعية عن طاعته. وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يشكو إليه من خراب مدينته ويسأله مالاً يُرِمُّها به[3]، فكتب إليه عمر قد فهمت كتابك، فإذا قرأت كتابي، فحصن مدينتك بالعدل، ونق طرقها من الظلم، فإنه مرمتها والسلام. ويقال: إن الحاصل من خراج سواد العراق في

(١) سورة النحل، الآية (٩٠).

(٢) لأن خير الإمام العادل يعم الناس جميعاً من أهل بلده وعمل العابد خاص به وحده.

(٣) يرمها: يرممها ويعيد بناء ما تهدم منها.

زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان مائة ألف ألف وسبعة وثلاثين ألف ألف، فلم يزل يتناقص حتى صار في زمن الحجاج ثمانية عشر ألف ألف. فلما ولي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ارتفع في السنة الأولى إلى ثلاثين ألف ألف، وفي الثانية إلى ستين ألف ألف، وقيل أكثر. وقال: إن عشت لأبلغنه إلى ما كان في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فمات في تلك السنة.

ومن كلام كسرى: لا ملك إلا بالجند، ولا جند إلا بالمال، ولا مال إلا بالبلاد ولا بلاد إلا بالرعايا، ولا رعايا إلا بالعدل.

ولما مات سلمة بن سعيد كان عليه ديون للناس ولأمير المؤمنين المنصور، فكتب المنصور لعامله استوف لأمير المؤمنين حقه، وفرق ما بقي بين الغرماء، فلم يلتفت إلى كتابه، وضرب للمنصور بسهم من المال، كما ضرب لأحد الغرماء، ثم كتب للمنصور: إني رأيت أمير المؤمنين كأحد الغرماء، فكتب إليه المنصور: ملئت الأرض بك عدلاً.

وكان أحمد بن طولون والي مصر متحلياً بالعدل مع تجبره وسفكه للدماء، وكان يجلس للمظالم وينصف المظلوم من الظالم.

حكي أن ولده العباس استدعى بمغنية وهو يصطبح يوماً، فلقيها بعض صالحي مصر ومعها غلام يحمل عودها فكسره، فدخل العباس إليه وخبره بذلك، فأمره بإحضار ذلك الرجل الصالح، فلما أحضر إليه قال: أنت الذي كسرت العود، قال: نعم. قال: أفعلمت لمن هو؟ قال: نعم هو لابنك العباس، قال: أفما أكرمته لي، قال أكرمه لك بمعصية الله عز وجل، والله تعالى يقول: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[1]. ورسول الله ﷺ يقول: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. فأطرق أحمد بن طولون عند ذلك، ثم قال: كل مُنكر رأيته فغيره وأنا من ورائك[2]. **ووقف يهودي** لعبد الملك بن مروان فقال: يا أمير المؤمنين إن بعض خاصتك ظلمني فأنصفني منه وأذقني حلاوة العدل، فأعرض عنه، فوقف له ثانياً، فلم يلتفت إليه، فوقف له مرة ثالثة، وقال يا أمير المؤمنين إنا نجد في التوراة المنزّلة

(١) سورة التوبة، الآية (٧١).

(٢) وأنا من ورائك: أي وأنا أساندك وأؤيد عملك.

على كليم الله موسى صلوات الله وسلامه عليه: إن الإمام لا يكون شريكاً في ظلم أحد حتى يرفع إليه فإذا رفع إليه ذلك ولم يزله، فقد شاركه في الظلم والجور. فلما سمع عبد الملك كلامه فزع وبعث في الحال إلى من ظلمه، فعزله وأخذ لليهودي حقه منه.

وروي أن رجلاً من العقلاء غصبه بعض الولاة ضيعة له، فأتى إلى المنصور، فقال له: أصلحك الله يا أمير المؤمنين أأذكر لك حاجتي أم أضرب لك قبلها مثلاً؟ فقال: بل إضرب المثل. فقال: إن الطفل الصغير إذا نابه أمر يكرهه فإنما يفزع إلى أمه إذ لا يعرف غيرها وظناً منه أن لا ناصر له غيرها، فإذا ترعرع واشتد كان فراره إلى أبيه، فإذا بلغ وصار رجلاً وحدث به أمر شكاه إلى الوالي لعلمه أنه أقوى من أبيه، فإذا زاد عقله شكاه إلى السلطان لعلمه أنه أقوى مما سواه، فإن لم ينصفه السلطان شكاه إلى الله تعالى لعلمه أنه أقوى من السلطان، وقد نزلت بي نازلة، وليس أحد فوقك أقوى منك إلا الله تعالى، فإن أنصفتني وإلا رفعت أمري إلى الله تعالى في الموسم، فإني متوجه إلى بيته وحرمه. فقال المنصور: بل ننصفك، وأمر أن يكتب إلى واليه بِرَدِّ ضيعته إليه.

وكان الإسكندر يقول: «يا عباد الله إنما إلهكم الله الذي في السماء الذي نصر نوحاً بعد حين، الذي يسقيكم الغيث عند الحاجة، وإليه مفزعكم[1] عند الكرب، والله لا يبلغني أن الله تعالى أحب شيئاً إلا أحببته واستعملته إلى يوم أجلي، ولا أبغض شيئاً إلا أبغضته وهجرته إلى يوم أجلي، وقد أنبئت أن الله تعالى يحب العدل في عباده ويبغض الجور من بعضهم على بعض، فويل للظالم من سيفي وسوطي، ومن ظهر منه العدل من عمالي، فليتكئ في مجلسي كيف شاء، وليتمن على ما شاء فلن تخطئه أمنيته، والله تعالى المجازي كلا بعمله[2].

ويقال: إذا لم يعمر الملك ملكه بالإنصاف خرب ملكه بالعصيان.

وقيل: مات بعض الأكاسرة فوجدوا له سفطاً، ففتح، فوجد فيه حبة رمان كأكبر ما يكون من النوى معها رقعة مكتوب فيها: هذه من حب رمان عمل في خراجه بالعدل.

(١) إليه مفزعكم: تلجأون إليه دون سواه.

(٢) هذا الكلام الأرجح أنه لذي القرنين الذي ذكره القرآن الكريم وقد خلط الناس بينه وبين الإسكندر اليوناني الذي نعرف أنه كان وثنياً.

وقيل: تظلّم أهل الكوفة من واليهم، فشكوه إلى المأمون، فقال ما علمت في عمالي أعدل ولا أقوم بأمر الرعية وأعود بالرفق عليهم منه، فقال رجل منهم: يا أمير المؤمنين ما أحد أولى بالعدل والإنصاف منك، فإن كان بهذه الصفة فعلى أمير المؤمنين أن يوليه بلداً بلداً حتى يلحق كل بلد من عدله مثل الذي لحقنا ويأخذ بقسطه منه كما أخذنا، وإذا فعل ذلك لم يصبنا منه أكثر من ثلاث سنين، فضحك المأمون من قوله وعزله عنهم.

وقدم المنصور البصرة قبل الخلافة، فنزل بواصل بن عطاء[1] وقال: بلغني أبيات عن سليم بن يزيد العدوي في العدل، فقم بنا إليه، فأشرف عليهم من غرفة، فقال لواصل من هذا الذي معك؟ قال: عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم، فقال: رَحْبٌ على رَحْبٍ، وقُرْبٌ على قُرْبٍ، فقال: أنه يحب أن يسمع أبياتك في العدل، فقال: سمعاً وطاعة، وأنشد يقول:

حتى متى لا نرى عدلاً نُسرّ به
ولا نرى لوُلاة الحق أعوانا
مستمسكين بحقٍ قائمين به
إذا تلوَّن أهل الجور ألوانا
يا للرجال لداءٍ لا دواءَ له
وقائدٍ ذي عمىً يقتاد عميانا

فقال المنصور: وددت لو أني رأيت يوم عدل[2] ثم مت.

وقيل: لما ولي عمر بن عبد العزيز أخذ في رد المظالم، فابتدأ بأهل بيته، فاجتمعوا إلى عمة له كان يكرمها وسألوها أن تكلمه، فقال لها: إن رسول الله ﷺ سلك طريقاً، فلما قبض سلك أصحابه ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ، فلما قضي الأمر إلى معاوية جره يميناً وشمالاً، وأيم الله لئن مدّ في عمري لأردنه إلى ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ وأصحابه. فقالت له: يا ابن أخي إني أخاف عليك منهم يوماً عصيباً، فقال كل يوم أخافه دون يوم القيامة، فلا أمنيه الله.

وقال وهب بن منبه: إذا هم الوالي بالجور أو عمل به أدخل الله النقص في أهل مملكته في الأسواق والزروع والضروع[3] وكل شيء، وإذا همّ بالخير والعدل أو عمل به أدخل الله البركة في أهل مملكته كذلك.

قال الوليد بن هشام: إن الرعية لتصلح بصلاح الوالي وتفسد بفساده.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أن ملكاً من الملوك خرج يسير في مملكته متنكراً، فنزل على رجل له بقرة تحلب قدر ثلاث بقرات، فتعجب الملك من ذلك وحدثته نفسه بأخذها، فلما كان من الغد حلبت له النصف مما حلبت بالأمس، فقال له الملك: ما بال حلبها نقص أرعت في غير مرعاها بالأمس؟ فقال: لا ولكن أظن أن ملكنا رآها أو وصله خبرها فهمّ بأخذها، فنقص لبنها، فإن الملك إذا ظلم أو همّ بالظلم ذهبت البركة. فتاب الملك وعاهد ربه في نفسه أن لا يأخذها ولا يحسد أحداً من الرعية، فلما كان من الغد حلبت عادتها.

ومن المشهور بأرض المغرب أن السلطان بلغه أن امرأة لها حديقة فيها القصب الحلو وأن كل قصبة منها تعصر قدحاً، فعزم الملك على أخذها منها، ثم أتاها وسألها عن ذلك، فقالت: نعم، ثم إنها عصرت قصبة، فلم يخرج منها نصف قدح، فقال لها: أين الذي كان يقال؟

فقالت: هو الذي بلغك إلا أن يكون السلطان قد عزم على أخذها مني، فارتفعت البركة منها، فتاب الملك وأخلص لله النية وعاهد الله أن لا يأخذها منها أبداً، ثم أمرها فعصرت قصبة منها فجاءت ملء قدح.

وحكى سيدي أبو بكر الطرطوشي رحمه الله في كتابه «سراج الملوك» قال: حدثني بعض الشيوخ ممن كان يروي الأخبار بمصر قال: كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أرادب ولم يكن في ذلك الزمان نخلة تحمل نصف ذلك، فغصبها السلطان، فلم تحمل شيئاً في ذلك العام، ولا تمرة واحدة. وقال لي شيخ من أشياخ الصعيد: أعرف هذه النخلة وقد شاهدتها وهي تحمل عشرة أرادب وستين ويبة وكان صاحبها يبيعها في سني الغلاء كل ويبة بدينار.

وحكي أيضاً رحمه الله تعالى قال: شهدت في الإسكندرية والصيد مطلق للرعية السمك يطفو على الماء لكثرته، وكانت الأطفال تصيده بالخرق من جانب البحر، ثم حجزه الوالي ومنع الناس من صيده، فذهب السمك حتى لا يكاد يوجد إلى يومنا هذا، وهكذا تتعدى سرائر الملوك وعزائمهم ومكنون ضمائرهم إلى الرعية إن خيراً

---

(١) هو واصل بن عطاء الغَزّال، رأس المعتزلة، وهو الذي نشر مذهب المعتزلة، ولد بالمدينة سنة ٨٠ هـ. ونشأ بالبصرة وسمي غزّالاً لكثرة تردده على أسواق الغزّالين. وتوفي سنة ١٣١ هـ.

(٢) أي يوم يعدل فيه الناس جميعاً في تعاملهم مع بعض البعض.

(١) الضروع: المراد كل ماشية ذات ضرع ولبن.

فخير وإن شراً فشر.

وروى أصحاب التواريخ في كتبهم قالوا كان الناس إذا أصبحوا في زمان الحجاج يتساءلون إذا تلاقوا من قتل البارحة ومن صلب ومن جلد ومن قطع وما أشبه ذلك، وكان الوليد بن هشام صاحب ضياع واتخاذ مصانع فكان الناس يتساءلون في زمانه عن البنيان والمصانع والضياع وشق الأنهار وغرس الأشجار، ولما ولي سليمان بن عبد الملك وكان صاحب طعام ونكاح كان الناس يتحدثون ويتساءلون في الأطعمة الرفيعة ويتغالون في المناكح والسراري ويعمرون مجالستهم بذكر ذلك، ولما ولي عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه كان الناس يتساءلون كم تحفظ من القرآن وكم وردك كل ليلة وكم يحفظ فلان وكم يختم وكم يصوم من الشهر وما أشبه ذلك[1].

فينبغي للإمام أن يكون على طريقة الصحابة والسلف رضي الله عنهم ويقتدي بهم في الأقوال والأفعال فمن خالف ذلك فهو لا محالة هالك وليس فوق السلطان العادل منزلة إلا نبي مرسل أو ملك مقرب.

وقد قيل إن مثله كمثل الرياح التي يرسلها الله تعالى بشراً بين يدي رحمته فيسوق بها السحاب ويجعلها لقاحاً للثمرات وروحاً للعباد.

ولو تتبعت ما جاء في العدل والإنصاف وفضل الإمام العادل لألفت في ذلك مجموعاً جامعاً لهذا المعنى ولكن اقتصرت على ما ذكرته مخافة أن يمله الناظر ويسأمه السامع، وبالله التوفيق إلى أقوم طريق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب العشرون

في الظلم وشؤمه وسوء عواقبه وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك

قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[2] وقال

(١) وقد جاء في المثل: الناس على دين ملوكهم، فالخاصة تتبع الحاكم في أهوائه والعامة تقلد الخاصة فيعم في الناس ما يفعلوه إن خيراً فخير وإن شراً فشر إلا من رحم ربي فلا يقلد أحدهم في فعله، بل يعمل بما جاء في كتابه.

(٢) سورة هود، الآية (١٨).

تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾[1] قيل: هذا تسلية للمظلوم ووعيد للظالم وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[3].

وقال رسول الله ﷺ: «من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم خرج من الإسلام». وقال أيضاً ﷺ: «رحم الله عبداً كان لأخيه قبله مظلمة في عرض أو مال فأتاه فتحلله منها قبل أن يأتي يوم القيامة وليس معه دينار ولا درهم». وقال أيضاً: ﷺ «من اقتطع حق امرىء مسلم أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة»، فقال له رجل: يا رسول اللهِ ولو كان شيئاً يسيراً، قال: «ولو كان قضيباً من أراك».

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوحى الله تعالى إلي يا أخا المرسلين يا أخا المنذرين أنذر قومك فلا يدخلوا بيتاً من بيوتي ولأحد من عبادي عند أحد منهم مظلمة، فإني ألعنه ما دام قائماً يصلي بين يدي حتى يرد تلك الظلامة إلى أهلها فأكون سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويكون من أوليائي وأصفيائي ويكون جاري مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في الجنة».

وعن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إياك ودعوة المظلوم فإنما يسأل الله تعالى حقه»، وعنه ﷺ أنه قال: «ما من عبد ظُلم فشخص ببصره إلى السماء[4] إلا قال الله عز وجل لبيك عبدي حقاً لأنصرنك ولو بعد حين»، وعنه أيضاً أنه قال: ألا إن الظلم ثلاثة فظلم لا يغفر وظلم لا يترك وظلم مغفور لا يطلب، فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله والعياذ بالله تعالى، قال الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[5] وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضاً[6]، وأما الظلم المغفور الذي لا يطلب فظلم العبد نفسه.

ومر رجل برجل قد صلبه الحجاج فقال: يا رب إن

(١) سورة إبراهيم، الآية (٤٢).

(٢) سورة الكهف، الآية (٢٩).

(٣) سورة الشعراء، الآية (٢٢٧).

(٤) شخص ببصره إلى السماء: رفعه إلى السماء كأنه يقول: يا رب إني ظلمت ومنك أطلب العدل والإنصاف.

(٥) سورة النساء، الآية (٤٨).

(٦) لأن له حساباً في الدنيا، وحساباً في الآخرة.

حلمك على الظالمين قد أضر بالمظلومين، فنام تلك الليلة فرأى في منامه أن القيامة قد قامت وكأنه قد دخل الجنة، فرأى ذلك المصلوب في أعلى عليين وإذا مناد ينادي حلمي على الظالمين أحل المظلومين في أعلى عليين.

وقيل: من سَلَبَ نعمة غيره سلب نعمته غيره. وسمع مسلم بن بشار رجلاً يدعو على من ظلمه فقال له كِلِ الظالم إلى ظلمه فهو أسرع فيه من دعائك[1].

ويقال: من طال عدوانه زال سلطانه، **وقال علي بن أبي طالب** رضي الله عنه: يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم، ورئي لوح في أفق السماء مكتوب فيه لا إله إلا الله محمد رسول الله وتحته هذا البيت:

فلم أر مثل العدل للمرء رافعاً
ولم أر مثل الجور للمرء واضعاً

وقال الشاعر:

كنت الصحيح وكنّا منك في سقم
فإن سقمت فإنا السالمون غدا
دعت عليك أكفٌ طالما ظُلِمَتْ
ولن تردَّ يدٌ مظلومة أبداً

وكان معاوية يقول: إني لأستحي أن أظلم من لا يجد عليَّ ناصراً إلا الله، **وقال أبو العيناء** كان لي خصوم ظلمة فشكوتهم إلى أحمد بن أبي دؤاد وقلت: قد تضافروا علي وصاروا يداً واحدة، فقال: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[2] فقلت له: إن لهم مكراً، فقال: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[3]، قلت: هم فئة كثيرة فقال: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[4].

وقال يوسف بن أسباط: من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه. **وعن أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال أبو القاسم ﷺ: «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه وإن كان أخاه لأبيه وأمه»، **وقال مجاهد:** يسلط الله على أهل النار الجَرَبَ فيحكون أجسادهم حتى تبدو العظام فيقال لهم: هل يؤذيكم هذا فيقولون: إي والله فيقال لهم هذا بما كنتم تؤذون المؤمنين.

(١) كِلِ الظالم إلى ظلمه: أوكله إليه فعاقبة الظلم على الظالم أشد من صبرك عليه.
(٢) سورة الفتح، الآية (١٠).
(٣) سورة فاطر، الآية (٤٣).
(٤) سورة البقرة، الآية (٢٤٩).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لما كشف الله العذاب عن قوم يوسف عليه السلام ترادوا المظالم بينهم حتى كان الرجل ليقلع الحجر من أساسه فيرده إلى صاحبه.

وقال أبو ثور بن يزيد: الحجر في البنيان من غير حلّه عربون على خرابه. **وقال غيره:** لو أن الجنة وهي دار البقاء أسست على حجر من الظلم لأوشك أن تخرب. **وقال بعض الحكماء:** اذكر عند الظلم عدل الله فيك وعند القدرة قدرة الله عليك، لا يعجبك رحب الذراعين سفّاك الدماء فإن له قاتلاً لا يموت.

وقال سحنون بن سعيد: كان يزيد بن حاتم يقول: ما هبت شيئاً قط هيبتي من رجل ظلمته وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا الله فيقول حسبك الله، الله بيني وبينك.

وقال بلاد بن مسعود: اتق الله فيمن لا ناصر له إلا الله. **وبكى علي بن الفضل** يوماً فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي على من ظلمني إذا وقف غداً بين يدي الله تعالى ولم تكن له حجة.

وروي أن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد له ناصراً غيري». **ونادى رجل** سليمان بن عبد الملك وهو على المنبر: يا سليمان اذكر يوم الأذان، فنزل سليمان من على المنبر ودعا بالرجل فقال له ما يوم الأذان؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] قال: فما ظلامتك؟ قال: أرض لي بمكان كذا وكذا أخذها وكيلك، فكتب إلى وكيله: ادفع إليه أرضه وأرضاً مع أرضه.

وروي أن كسرى أنوشروان كان له معلم حسن التأديب يعلمه حتى فاق في العلوم فضربه المعلم يوماً من غير ذنب فأوجعه فحقد أنوشروان عليه، فلما ولي الملك قال للمعلم: ما حملك على ضربي يوم كذا وكذا ظلماً؟ فقال له: لما رأيتك ترغب في العلم رجوت لك الملك بعد أبيك فأحببت أن أذيقك طعم الظلم لئلا تظلم، فقال أنوشروان: زه زه[2].

وقال محمد سويد وزير المأمون:

فلا تأمننَّ الدهر حراً ظلمته
فما ليلُ حرٍّ إن ظلمتَ بنائم

وروي أن بعض الملوك رقم على بساطه:

(١) سورة الأعراف، الآية (٤٤).
(٢) زه زه: حَسَنٌ، حَسَنٌ، بالفارسية.

لا تظلمنَّ إذا ما كنت مقتدراً
فالظلم مصدرُه يفضي إلى النَّدمِ
تنام عيناك والمظلوم منتبهٌ
يدعو عليك وعينُ الله لم تنمِ

وما أحسن ما قال الآخر:

أتهزأ بالدعاء وتزدريه
وما تدري بما صنع الدعاءُ
سهام الليل نافذةٌ ولكنْ
لها أمدٌ[1] وللأمد انقضاء
فيمسكها إذا ما شاء ربيّ
ويرسلها إذا نفذَ القضاءُ[2]

وقال أبو الدرداء: إياك ودمعة اليتيم ودعوة المظلوم فإنها تسري بالليل والناس نيام، وقال الهيثم بن فراس السامي من بني سامة بن لؤي في الفضل بن مروان:

تجبرت يا فضل بن مروان فاْعتبرْ
فقبلك كان الفضلُ والفضلُ والفضلُ
ثلاثة أملاكٍ مضوا لسبيلهم
أبادَهُمُ الموت المشتّت والقَتْلُ

يريد الفضل بن الربيع والفضل بن يحيى والفضل بن سهل.

ووجد تحت فراش يحيى بن خالد البرمكي رقعة مكتوب فيها:

وحق الله إنّ الظلم لؤمٌ
وأنّ الظلم مرتعهُ وخيمُ
إلى ديّان يوم الدين نمضي
وعند الله تجتمع الخصوم

ووجد القاسم بن عبيد الله وزير المكتفي في مصلاه رقعة مكتوباً فيها:

بَغَى وللبغي سهامٌ تنتظر
أنفذَ في الأحشاء من وخز الإبَر
سهام أيدي القانتين في السحَر

وقال المنصور بن المعتمر لابن هبيرة حين أراد أن يوليه القضاء: ما كنت لِآلِي[3] هذا بعدما حدثني إبراهيم، قال: وما حدثك إبراهيم؟ قال: حدثني عن علقمة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الظلمة وأعوان الظلمة وأشياع الظلمة حتى من برى لهم قلماً أو لاق[1] لهم دواة، فيجمعون في تابوت من حديد ثم يرمى بهم في نار جهنم.

وروى هارون بن محمد بن عبد الملك الزيات قال: جلس أبي للمظالم يوماً فلما انقضى المجلس رأى رجلاً جالساً فقال له: ألك حاجة؟ قال: نعم. أدنني إليك فإني مظلوم وقد أعوزني العدل والإنصاف.

قال: ومن ظلمك؟

قال: أنت ولست أصل إليك فأذكر حاجتي.

قال: وما يحجبك، وقد ترى مجلسي مبذولاً؟

قال: يحجبني عنك هيبتك وطول لسانك وفصاحتك.

قال: ففيم ظلمتك؟

قال: في ضيعتي الفلانية أخذها وكيلك غصباً مني بغير ثمن فإذا وجب عليها خراج أديته باسمي لئلا يثبت لك اسم في ملكها فيبطل ملكي فوكيلك يأخذ غلتها وأنا أؤدي خراجها وهذا لم يسمع بمثله في المظالم.

فقال له محمد: هذا قول تحتاج معه إلى بينة وشهود وأشياء.

فقال له الرجل: أيؤمنني الوزير من غضبه حتى أجيب؟

قال: نعم قد أمنتك. قال: البينة هم الشهود وإذا شهدوا فليس يحتاج معهم إلى شيء آخر فما معنى قولك بينة وشهود وأشياء وأي شيء هذه الأشياء إن هي إلا الجور وعدولك عن العدل؟

فضحك محمد وقال: صدقت والبلاء موكل بالمنطق وإني لأرى فيك مصطنعاً ثم وقع له مائة دينار يستعين بها على عمارة ضيعته وصيره من أصحابه فكان قبل أن يتوصل إلى الإنصاف واعادة ضيعته له، يقال له يا فلان كيف الناس فيقول: بِشَرٍ بين مظلوم لا ينصر وظالم لا ينتصر، فلما صار من أصحاب محمد بن عبد الملك ورد عليه ضيعته وأنصفه قال له ليلة: كيف الناس الآن؟

قال: بخير.

قال: اعتمدت معهم الإنصاف ورفعت عنهم الإجحاف ورددت عليهم الغصوب وكشفت عنهم الكروب وأنا أرجو

---

(١) أي لها مدة محدودة لا بد أن تنقضي.
(٢) هي سهام الدعاء تنطلق إلى الظالم تنتقم منه للمظلوم بأمر الله تعالى.
(٣) آلي هذا الأمر: أتولاه، وأقوم به.

(١) لاق: سَكَب.

لهم ببقائك نيل كل مرغوب والفوز بكل مطلوب.

ومما نقل في الآثار الإسرائيلية في زمان موسى صلوات الله وسلامه عليه أن رجلاً من ضعفاء بني إسرائيل كان له عائلة وكان صياداً يصطاد السمك ويقوت منه أطفاله وزوجته؛ فخرج يوماً للصيد فوقع في شبكته سمكة كبيرة ففرح بها ثم أخذها ومضى إلى السوق ليبيعها ويصرف ثمنها في مصالح عياله، فلقيه بعض العوانية فرأى السمكة معه فأراد أخذها منه فمنعه الصياد، فرفع العواني خشبة كانت بيده فضرب بها رأس الصياد ضربة موجعة وأخذ السمكة منه غصباً بلا ثمن. فدعا الصياد عليه وقال: إلهي جعلتني ضعيفاً وجعلته قوياً عنيفاً، فخذ لي بحقي منه عاجلاً فقد ظلمني ولا صبر لي إلى الآخرة، ثم إن ذلك الغاصب الظالم انطلق بالسمكة إلى منزله وسلمها إلى زوجته وأمرها أن تشويها فلما شوتها قدمتها له ووضعتها بين يديه على المائدة ليأكل منها ففتحت السمكة فاها ونكزته في أصبع يده نكزة طار بها عقله وصار لا يقر بها قراره فقام وشكا إلى الطبيب ألم يده وما حل به فلما رآها قال له: دواؤها أن تقطع الأصبع لئلا يسري الألم إلى بقية الكف، فقطع أصبعه فانتقل الألم والوجع إلى الكف واليد وازداد التألم وارتعدت من خوفه فرائصه فقال له الطبيب ينبغي أن تقطع اليد إلى المعصم لئلا يسري الألم إلى الساعد فقطعها فانتقل الألم إلى الساعد فما زال هكذا كلما قطع عضواً انتقل الألم إلى العضو الآخر الذي يليه.

فخرج هائماً على وجهه مستغيثاً إلى ربه ليكشف عنه ما نزل به، فرأى شجرة فقصدها فأخذه النوم عندها فنام فرأى في منامه قائلاً يقول: يا مسكين إلى كم تقطع أعضاءك، اِمض إلى خصمك الذي ظلمته فأَرْضِهِ، فانتبه من النوم وفكر في أمره فعلم أن الذي أصابه من جهة الصياد، فدخل المدينة وسأل عن الصياد وأتى إليه فوقع بين يديه يتمرغ على رجليه وطلب منه الإقالة مما جناه[1]، ودفع إليه شيئاً من ماله وتاب من فعله فرضي عنه خصمه الصياد فسكن في الحال ألمه وبات تلك الليلة فرد الله تعالى عليه يده كما كانت. ونزل الوحي على موسى عليه السلام يا موسى وعزتي وجلالي لولا أن ذلك الرجل أرضى خصمه لعذبته مهما امتدت به حياته.

ومما تضمنته أخبار الأخيار ما رواه أنس رضي الله عنه قال: بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قاعد إذ جاءه رجل من أهل مصر فقال: يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك.

فقال عمر رضي الله عنه: لقد عذت بمجير فما شأنك؟

فقال: سابقت بفرسي ابناً لعمرو بن العاص، وهو يومئذ أمير على مصر، فجعل يقنعني[1] بسوطه ويقول أنا ابن الأكرمين فبلغ ذلك عمراً أباه فخشي أن آتيك فحبسني في السجن فانفلتُّ منه، فهذا الحين أتيتك.

فكتب إلى عمرو بن العاص إذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان، وقال للمصري: أقم حتى يأتيك، فأقام حتى قدم عمرو وشهد موسم الحج فلما قضى عمر الحج وهو قاعد مع الناس وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه قام المصري فرمى إليه عمر رضي الله عنه بالدرة، قال أنس رضي الله عنه: فلقد ضربه ونحن نشتهي أن يضربه فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول: إضرب ابن الأكرمين.

قال: يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت.

قال: ضعها على ضلع عمرو، فقال: يا أمير المؤمنين: لقد ضربت الذي ضربني، قال: أما والله لو فعلت ما منعك أحد حتى تكون أنت الذي تنزع؛ ثم أقبل على عمرو بن العاص وقال: يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟

فجعل عمرو يعتذر إليه ويقول: إني لم أشعر بهذا.

وقيل: لما ظلم أحمد بن طولون قبل أن يعدل استغاث الناس من ظلمه وتوجهوا إلى السيدة نفيسة يشكونه إليها فقالت لهم: متى يركب؟ قالوا: في غد.

فكتبت رقعة ووقفت بها في طريقه وقالت: يا أحمد يا ابن طولون فلما رآها عرفها فترجل عن فرسه وأخذ منها الرقعة وقرأها فإذا فيها: ملكتم فأسرتم وقدرتم فقهرتم وخولتم فعسفتم، وَرَدَتْ إليكم الأرزاق فقطعتم، هذا وقد علمتم أن سهام الأسحار[2] نافذة غير مخطئة لا سيما من قلوب أوجعتموها وأكباد جوعتموها وأجساد عريتموها، فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم، إعملوا ما شئتم فإنا صابرون وجوروا فإنا بالله مستجيرون واظلموا فإنا إلى

(١) الإقالة من الذنب: أي أن يسامحه عما فعل.

(١) يقنعني بسوطه: يضربني بالسوط حتى يلتف سوطه على رأسي وبدني كأنه القناع.

(٢) أي سهام الدعاء في وقت السحر.

الله متظلمون ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾(١)
قال: فعدل لوقته.

وحكي أن الحجاج حبس رجلاً في حبسه ظلماً فكتب إليه رقعة فيها: قد مضى من بؤسنا أيام ومن نعيمك أيام والموعد القيامة والسجن جهنم والحاكم لا يحتاج إلى بينة، وكتب في آخرها:

ستعلم يا نؤوم إذا التقينا
غداً عند الإله من الظلوم

أما والله إن الظلم لؤمٌ
وما زال الظلوم هو الملومُ

سينقطع التلذذ عن أناسٍ
أداموه وينقطع النعيمُ

إلى ديّان يوم الدين نمضي
وعند الله تجتمع الخصومُ

وحكي أبو محمد الحسين بن محمد الصالحي قال: كنا حول سرير المعتضد بالله ذات يوم نصف النهار فنام بعد أن أكل، فانتبه منزعجاً وقال: يا خدم، فأسرعنا الجواب فقال: ويلكم أعينوني والحقوا بالشط فأول ملاح ترونه منحدراً في سفينة فارغة فاقبضوا عليه وائتوني به ووكلوا بالسفينة من يحفظها.

فأسرعنا فوجدنا ملاحاً في سفينة منحدرة وهي فارغة فقبضنا عليه ووكلنا بها من يحفظها وصعدنا به إلى المعتضد.

فلما رآه الملاح كاد يتلف فصاح عليه المعتضد صيحة عظيمة كادت روحه تذهب منها وقال: أصدقني يا ملعون عن قضيتك مع المرأة التي قتلتها اليوم وإلا ضربت عنقك:

فتلعثم، وقال: نعم كنت سحراً في المشرعة الفلانية فنزلت إمرأة لم أر مثلها عليها ثياب فاخرة وحلي كثيرة وجواهر فطمعت فيها واحتلت عليها حتى سددت فمها وغرّقتها وأخذت جميع ما كان عليها ثم طرحتها في الماء ولم أجسر على حمل سلبها إلى داري لئلا يفشو الخبر علي، فعولت على الهروب والانحدار إلى واسط فصبرت إلى أن خلا الشط في هذه الساعة من الملاحين وأخذت في الانحدار فتعلق بي هؤلاء القوم فحملوني إليك، فقال: وأين الحلي والسلب؟ قال: في صدر السفينة تحت البواري.

قال المعتضد: علي به الساعة، فحضروا به فأمر بتغريق الملاح ثم أمر أن ينادى ببغداد من خرجت له امرأة إلى المشرعة الفلانية سَحَراً وعليها ثياب فاخرة وحلي فليحضر، فحضر في اليوم الثاني ثلاثة من أهلها وأعطوا صفتها وصفة ما كان عليها فسلم ذلك إليهم.

قال: فقلت يا مولاي من أين علمت أو أوحي إليك بهذه الحالة وأمر هذه الصبية فقال: بل رأيت في منامي رجلاً شيخاً أبيض الرأس واللحية والثياب وهو ينادي: يا أحمد أول ملاح ينحدر الساعة فاقبض عليه وقرره على المرأة التي قتلها اليوم ظلماً وسلبها ثيابها وأقم عليه الحد ولا يَفُتْكَ، فكان ما شاهدتم. فيتعين على كل ولي أمر أن يعدل في الأحكام، وأن يتبصر في رعيته وعلى كل غافل أن يكف يده عن الظلم ويسلك سنن العدل ويعامل بالنصفة ويراقب الله في السر والعلانية ويعلم أن الله يجازي على الخير والشر ويعاقب الظالم على ظلمه وينتصر للمظلوم ويأخذ له حقه ممن ظلمه، وإذا أخذ الظالم لم يفلته.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

الباب الحادي والعشرون

في بيان الشروط التي تؤخذ على العمال وسيرة السلطان في استجباء الخراج وأحكام أهل الذمة

وفيه فصلان

الفصل الأول

في سيرة السلطان في استجباء الخراج والانفاق من بيت المال وسيرة العمال

قال جعفر بن يحيى: الخراج عماد الملوك وما استعزوا بمثل العدل وما استنذروا بمثل الظلم، وأسرع الأمور في خراب البلاد تعطيل الأرضين وهلاك الرعية وانكسار

(١) سورة الشعراء، الآية (٢٢٧).

الخراج من الجور[1].

ومثل السلطان إذا أجحف بأهل الخراج حتى يضعفوا عن عمارة الأرضين مثل من يقطع لحمه ويأكله من الجوع فهو إن شبع من ناحية فقد ضعف من ناحية أخرى، وما أدخل على نفسه من الضعف والوجع أعظم مما دفع عن نفسه من ألم الجوع.

ومثل من كلف الرعية فوق طاقتهم كالذي يطين سطحه بتراب أساس بيته. وإذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الأرضين فيتركونها فتخرب الأرض ويهرب المزارعون فتضعف العمارة ويضعف الخراج وينتج من ذلك ضعف الأجناد وإذا ضعف الجند طمع الأعداء في السلطان.

وروي أن المأمون أرق ذات ليلة فاستدعى سميراً يحدثه فقال يا أمير المؤمنين كان بالموصل بومة وبالبصرة بومة فخطبت بومة الموصل بنت بومة البصرة لابنها، فقالت بومة البصرة لا أجيب خطبة ابنك حتى تجعلي في صداق ابنتي مائة ضيعة خربة، فقالت بومة الموصل لا أقدر عليها لكن إن دام وإلينا سلمه الله علينا سنة واحدة فعلت ذلك، قال: فاستيقظ لها المأمون وجلس للمظالم وأنصف الناس بعضهم من بعض وتفقد أمور الولاة والعمال والرعية.

وقال أبو الحسن بن علي الأسدي: أخبرني أبي قال: وجدت في كتاب قبطي باللغة الصعيدية مما نقل بالعربية أن مبلغ ما كان يستخرج لفرعون في زمن يوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه من أموال مصر لخراج سنة واحدة من الذهب العين أربعة وعشرون ألف ألف وأربعمائة دينار[2]، من ذلك ما ينصرف في عمارة البلاد كحفر الخلجان والانفاق على الجسور وسد الترع وتقوية من يحتاج إلى التقوية من غير رجوع عليه بها لأقامة العوامل والتوسعة في البلدان وغير ذلك من الآلات وأجرة من يستعان به لحمل البذر وسائر نفقات تطبيق الأرض، ثمانمائة ألف دينار ولما ينصرف للأرامل والأيتام وإن كانوا غير محتاجين حتى لا يخلو أمثالهم من بر فرعون أربعمائة ألف دينار، ولما ينصرف لكهنتهم وبيوت صلاتهم مائتا ألف دينار، ولما ينصرف في الصدقات مما يصب صبا وينادى عليه، برئت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة ولم يحضر، فيحضر لذلك جمع كثير، مائتا ألف دينار. فإذا فرقت الأموال على أربابها دخل أمناء فرعون إليه وهنأوه بتفرقة الأموال ودعوا له بطول البقاء ودوام العز والنعماء والسلامة، ثم نهوا إليه حال الفقراء فيأمر باحضارهم وتغيير شعثهم ويمد لهم السماط فيأكلون بين يديه ويشربون ويستفهم من كل واحد منهم عن سبب فاقته فإن كان ذلك من آفة الزمان زاد عليه مثل الذي كان له، ولما ينصرف في نفقات فرعون الراتبة في كل سنة مائتا ألف دينار ويفضل بعد ذلك مما يتسلمه يوسف الصديق عليه السلام للملك ويجعله في بيت المال لنوائب الزمان أربعة عشر ألف ألف وستمائة ألف دينار.

وقال أبو رهم كانت أرض مصر أرضاً مدبرة حتى أن الماء ليجري تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه حيث شاءوا ويرسلونه حيث شاءوا، وذلك قول فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾[1]. الآية.

وكان ملك مصر عظيماً لم يكن في الأرض أعظم منه ملكاً وكانت الجنان بحافتي النيل متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء، والزروع كذلك من أسوان إلى رشيد وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعاً لما دبروا من جسورها وحافاتها والزروع ما بين الجبلين من أولها إلى آخرها، وذلك قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾[2].

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: استعمل فرعون هامان على حفر خليج سردوس فأخذ في حفره وتدبيره، فجعل أهل القرى يسألونه أن يجري لهم الخليج تحت قراهم ويعطوه مالاً فكان يذهب به من قرية إلى قرية من المشرق إلى المغرب ومن الشمال إلى القبلة ويسوقه كيف أراد وإلى حيث قصد، فليس خليج بمصر أكثر عطوفاً منه فاجتمع له من ذلك أموال عظيمة جزيلة فحملها إلى فرعون وأخبره بالخبر، فقال له فرعون: إنه ينبغي للسيد أن يعطف على عبده ويفيض عليه من خزائنه وذخائره ولا يرغب فيما

---

(١) لأن الظلم يدفع العباد للهجرة من الأرض وترك الأعمال فتتعطل مصادر الخراج بالتالي ويسرع الخراب إلى البلاد، وعاقبة الظلم وخيمة، وقد قال تعالى في سورة لقمان على لسان لقمان في خطابه لولده: ﴿**يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم**﴾ فشبه الشرك الذي هو أعظم الذنوب بالظلم ليبين لنا مقدار خطره وعظيم ضرره ومدى عاقبته وعقوبته.

(٢) لأن العدل إذا عمَّ الناس أقبلوا على العمل فزاد الدخل وزادت بالتالي عائدات الدولة.

(١) سورة الزخرف، الآية (٥١).

(٢) سورة الدخان، الآيتان (٢٥ ـ ٢٦).

بأيديهم، رد على أهل القرى أموالهم، فرد عليهم ما أخذه منهم.

فإذا كانت هذه سيرة من لا يعرف الله ولا يرجو لقاءه ولا يخاف عذابه ولا يؤمن بيوم الحساب، فكيف تكون سيرة من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ويوقن بالحساب والثواب والعقاب.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾[1]. قال: هي خزائن مصر، ولما استوثق أمر مصر ليوسف عليه السلام، وكمل، وصارت الأشياء إليه وأراد الله تعالى أن يعوضه على صبره، لما لم يرتكب محارمه وكانت مصر أربعين فرسخاً في مثلها، وما أطاع يوسف فرعون وهو الريان بن مصعب وناب عنه إلا بعد أن دعاه إلى الإسلام فأسلم، وكانت السنون التي حصل فيها الغلاء والجوع مات العزيز وتملك يوسف، وافتقرت زليخا، وعمي بصرها فجعلت تتكفف الناس[2] فقيل لها: لو تعرضت للملك ربما يرحمك ويعينك ويغنيك فطالما كنت تحفظينه وتكرمينه، ثم قيل لها لا تفعلي لأنه ربما يتذكر ما كان منك إليه من المراودة والحبس فيسيء إليك ويكافئك على ما سبق منك إليه.

فقالت: أنا أعلم بحلمه وكرمه، فجلست له على رابية في طريقه يوم خروجه وكان يركب في زهاء مائة ألف من عظماء قومه وأهل مملكته، فلما أحست به قامت ونادت سبحان من جعل الملوك عبيداً بمعصيتهم والعبيد ملوكاً بطاعتهم.

فقال يوسف عليه السلام: من أنت؟

فقالت: أنا التي كنت أخدمك بنفسي وأُرَجِّلُ[3] شعرك بيدي وأكرم مثواك بجهدي وكان مني ما كان، وقد ذقت وبال أمري وذهبت قوتي وتلف مالي وعمي بصري وصرت أسأل الناس، فمنهم من يرحمني ومنهم من لا يرحمني، وبعدما كنت مغبوطة أهل مصر[4] كلها صرت مرحومتهم بل محرومتهم وهذا جزاء المفسدين، فبكى يوسف عليه السلام بكاء شديداً وقال لها: هل في

(١) سورة يوسف، الآية (٥٥).
(٢) تكفف: تستجدي أكُفَّهم.
(٣) رَجَّلَ الشعر: سرَّحه.
(٤) الغبطة: أن تتمنى أن تنال من الخير مثلما عند من تغبطه دون أن تتمنى زوال نعمته أما الحسد فهو أن تتمنى زوال النعمة عن إنسان لتكون لك.

قلبكِ من حبك إياي شيء؟ قالت: نعم والذي اتخذ إبراهيم خليلاً لنظرة إليك أحب إلي من ملء الأرض ذهباً وفضة، فمضى يوسف وأرسل إليها يقول إن كنت أيِّماً تزوجناك وإن كنت ذات بعل أغنيناك. فقالت لرسول الملك: أنا أعرف أنه يستهزىء بي هو لم يردني في أيام شبابي وجمالي، فكيف يقبلني وأنا عجوز عمياء فقيرة؟ فأمر بها يوسف عليه السلام فجهزت وتزوج بها وأدخلت عليه فصف يوسف عليه السلام قدميه وقام يصلي ودعا الله تعالى باسمه العظيم الأعظم، فرد الله عليها حسنها وجمالها وشبابها وبصرها كهيئتها يوم راودته فواقعها، فإذا هي بكر فولدت له إفرائيم بن يوسف ومنشا بن يوسف وطاب في الإسلام عيشهما حتى فرق الموت بينهما.

فينبغي للقوي أن لا ينسى الضعيف وللغني أن لا ينسى الفقير، فرب مطلوب يصير طالباً ومرغوب فيه يصير راغباً، ومسؤول يصير سائلاً، وراحم يصير مرحوماً، فنسأل الله تعالى أن يرحمنا برحمته ويغنينا بفضله.

ولما ملك يوسف عليه السلام خزائن الأرض كان يجوع ويأكل من خبز الشعير، فقيل له: أتجوع وبيدك خزائن الأرض؟ فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع.

ومن حسن سيرة العمال ما روي أن عمر رضي الله عنه استعمل على حمص رجلاً يقال له: عمير بن سعد، فلما مضت السنة كتب إليه عمر رضي الله عنه إن أقدم علينا، فلم يشعر عمر إلا وقد قدم عليه ماشياً حافياً عكازته بيده وإداوته[1] ومزوده[2] وقصعته على ظهره، فلما نظر إليه عمر قال له: يا عمير أأجبتنا أم البلاد بلاد سوء؟ فقال يا أمير المؤمنين: أما نهاك الله أن تجهر بالسوء، وعن سوء الظن؟ وقد جئت إليك بالدنيا أجرُّها بقرابِهَا، فقال له: وما معك من الدنيا؟ قال: عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدواً إن لقيته ومزود أحمل فيه طعامي وإداوة أحمل فيها ماء لشربي ولطهوري، وقصعة أتوضأ فيها وأغسل فيها رأسي وآكل فيها طعامي، فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد إلا تبع لما معي.

قال: فقام عمر رضي الله عنه من مجلسه إلى قبر رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه، فبكى بكاء شديداً، ثم قال: اللهم ألحقني بصاحبي غير مفتضح ولا مبدل، ثم عاد إلى مجلسه، فقال: ما صنعت في عملك

(١) الإداوة: وعاء صغير للماء.
(٢) المزود: ما يلف به طعام المسافر.

يا عمير، فقال: أخذت الإبل من أهل الإبل، والجزية من أهل الذمة عن يد وهم صاغرون ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، فوالله يا أمير المؤمنين لو بقي عندي منها شيء لأتيتك به.

فقال عمر: عد إلى عملك يا عمير، قال: أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تردني إلى أهلي، فأذن له فأتى أهله، فبعث عمر رجلاً يقال له حبيب بمائة دينار وقال له: اختبر لي عميراً وأنزل عليه ثلاثة أيام حتى ترى حاله هل هو في سعة أم ضيق، فإن كان في ضيق فأدفع إليه المائة دينار، فأتاه حبيب، فنزل به ثلاثاً، فلم ير له عيشاً إلا الشعير والزيت، فلما مضت ثلاثة أيام قال: يا حبيب، إن رأيت أن تتحول إلى جيراننا فلعلهم أن يكونوا أوسع عيشاً منا، فإننا والله وتالله لو كان عندنا غير هذا لآثرناك به.

قال: فدفع إليه المائة دينار، وقال: قد بعث بها أمير المؤمنين إليك، فدعا بفرو خَلِقٍ لامرأته، فجعل يصر منها الخمسة دنانير والستة والسبعة، ويبعث بها إلى إخوانه من الفقراء إلى أن أنفذها، فقدم حبيب على عمر، وقال: جئتك يا أمير المؤمنين من عند أزهد الناس وما عنده من الدنيا قليل ولا كثير، فأمر له عمر بوسقين[1] من طعام وثوبين، فقال يا أمير المؤمنين أما الثوبان فأقبلهما، وأما الوسقان فلا حاجة لي بهما عند أهلي صاع من بر هو كافيهم حتى أرجع إليهم.

وروي أن عمر رضي الله عنه صرّ أربعمائة دينار وقال للغلام: إذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح ثم تربص عنده في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع بها، فذهب بها الغلام إليه، وقال له: يقول لك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اجعل هذه في بعض حوائجك قال: وصله الله ورحمه، ثم دعا بجاريته وقال لها: اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفذها، فرجع الغلام إلى عمر وأخبره فوجده قد عد مثلها لمعاذ بن جبل، فقال له: انطلق بها إلى معاذ بن جبل، وانظر ما يكون من أمره، فمضى إليه وقال له كما قال لأبي عبيدة بن الجراح ففعل معاذ كما فعل أبو عبيدة، فرجع الغلام فأخبر عمر، فقال: إنهم إخوة، بعضهم من بعض رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

(١) الوسق: يساوي (٦٠) صاعاً أي حوالي ٩٣ كلغ.

الفصل الثاني

في أحكام أهل الذمة

روي عن عبد الرحمن بن غنم قال: كتبنا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى أهل الشام. بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من نصارى مدينة كذا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدائننا ولا فيما حواليها كنيسة ولا ديراً ولا قلية ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان مختطاً منها في خطط المسلمين في ليل ولا في نهار، وإن نوسع أبوابها للمار وابن السبيل وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم، ولا نؤوي في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوساً ولا نكتمه عن المسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شرعنا ولا ندعو إليه أحداً ولا نمنع أحداً من ذوي قراباتنا الدخول في دين الإسلام إن أراده، وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس وأن لا نتشبه بالمسلمين في شيء من ملابسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا نتكلم بكلامهم ولا نتكنى بكناهم ولا نركب في السروج ولا نتقلد بالسيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمر وأن تجز مقادم رؤوسنا ونلزم زيّنا حيثما كنا، وأن نشد الزنار على أوساطنا ولا نظهر صلباننا ولا كتبنا في شيء من أسواق المسلمين وطرقهم، ولا نضرب بالنواقيس في كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران في شيء من طرق المسلمين، ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، ولا نتطلع على منازلهم، وقد شرطنا ذلك على أنفسنا وعلى أهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم، وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل بنا ما يحل بأهل المعاندة والشقاق.

فكتب إليه عمر رضي الله عنه أن امض ما سألوه والحق فيه حرفين واشترطهما عليهم مع ما شرطوا على أنفسهم، أن لا يشتروا شيئاً من سبايا المسلمين ومن ضرب مسلماً عمداً فقد خلع عهده.

وروي أن بني ثعلبة دخلوا على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فقالوا يا أمير المؤمنين إنا قوم من العرب إفرض لنا.

قال: نصاري؟

قالوا: نصاري.

قال: ادعوا إلي حجاماً، ففعلوا فجز نواصيهم وشق من أرديتهم حزماً يحتزمون بها، وأمرهم أن لا يركبوا بالسروج وأن يركبوا على الأكف من شق واحد.

وروي أن أمير المؤمنين الخليفة جعفراً المتوكل أقصى اليهود والنصارى ولم يستعملهم وأذلهم وأبعدهم وخالف بين زيهم وزي المسلمين وقرب منه أهل الحق وأبعد عنه أهل الباطل، فأحيا الله به الحق وأمات به الباطل، فهو يذكر بذلك، ويترحم عليه ما دامت الدنيا.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لا تستعملوا اليهود والنصارى، فإنهم أهل رشا في دينهم ولا يحل في دين الله الرشا.

ولما استقدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا موسى الأشعري رضي الله عنه من البصرة وكان عاملاً بها للحساب، دخل على عمر وهو في المسجد فاستأذن لكاتبه وكان نصرانياً، فقال له عمر: قاتلك الله وضرب بيده على فخذه، وَلّيت ذمياً على المسلمين، أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾[1]. الآية. هلا اتَّخَذْتَ حنيفياً؟ فقال: يا أمير المؤمنين لي كتابته وله دينه، فقال: لا أكْرِمُهُم إذ أهانهم الله، ولا أُعِزُّهم إذ أذلهم الله ولا أُدْنِيهم إذ أقصاهم الله.

وكتب بعض العمال إلى عمر رضي الله عنه: إن العدو قد كثر وإن الجزية قد كثرت، أفنستعين بالأعاجم؟ فكتب إليه: إنهم أعداء الله وإنهم لنا غششة فأنزلوهم حيث أنزلهم الله.

ولما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر لحقه رجل من المشركين عند الحرة فقال: إني أريد أن أتبعك وأصيب معك. قال: أتؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا، قال: ارجع، فلن نستعين بمشرك، ثم لحقه عند الشجرة فقال: جئتك لأتبعكَ وأصيب معك. قال: أتؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا. قال: فارْجع، فلن أستعين بمشرك، ثم لحقه عند ظهر البيداء، فقال له مثل ذلك، فأجابه بمثل الأول، فقال: نعم. فخرج به وفرح به المسلمون، وكان له قوة وجلد. وهذا أصل عظيم في أن لا يستعان بكافر، وهذا وقد خرج ليقاتل بين يدي النبي ﷺ ويراق دمه، فكيف استعمالهم

(١) سورة المائدة، الآية (٥١).

على رقاب المسلمين.

وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه إلى عماله أن لا تولوا على أعمالنا إلا أهل القرآن، فكتبوا إليه إنا قد وجدنا فيهم خيانة، فكتب إليهم إن لم يكن في أهل القرآن خير، فأجدر أن لا يكون في غيرهم.

قال أصحاب الشافعي: ويلزمهم أن يتميزوا في اللباس عن المسلمين، وأن يلبسوا قلانس يميزونها عن قلانس المسلمين بالحُمْرَة، ويشد الزنانير على أوساطهم ويكون في رقابهم خاتم من نحاس أو رصاص أو جرس يدخلون به الحمام، وليس لهم أن يلبسوا العمائم ولا الطيلسانات، وأما المرأة فإنها تشد الزنار تحت الإزار، وقيل فوق الإزار وهو الأولى، ويكون في عنقها خاتم تدخل به الحمام، ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض، ولا يركبون الخيل ولا البغال، ولا الحمير بالأكف عرضاً ولا يركبون بالسروج، ولا يتصدرون في المجالس ولا يُبْدَأون بالسلام، ويُلْجَأُون إلى أضيق الطرق ويمنعون أن يتطاولوا على المسلمين في البناء، وتجوز المساواة، وقيل: لا تجوز. وإن تملكوا داراً عالية أُقِرُّوا عليها، ويمنعون من إظهار المنكر كالخمر والخنزير والناقوس والجهر بالتوراة والإنجيل، ويمنعون من المقام في أرض الحجاز وهي مكة والمدينة واليمامة وإن امتنعوا من أداء الجزية والتزام أحكام أهل الملة انتقض عهدهم، وإن زنى أحد منهم بمسلمة أو أصابها بنكاح أو آوى عيناً[1] للكفار أو دل على عورة المسلمين[2] أو فتن مسلماً عن دينه أو قتله أو قطع عليه الطريق تنتقض ذمته.

وفي تقدير الجزية اختلاف بين العلماء، فمنهم من قال إنها مقدرة الأقل والأكثر على ما كتب به عمر رضي الله عنه إلى عثمان بن حنيف بالكوفة، فوضع على الغني ثمانية وأربعين درهماً وعلى من دونه أربعة وعشرين درهماً، وعلى من دونه اثني عشر درهماً، وذلك بمحضر من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، ولم يخالفه أحد وكان الصرف اثنا عشر بدينار، وهذا مذهب أبي حنيفة وأحمد بن حنبل، وأحد قولي الشافعي، ويجوز للإمام أن يزيد على ما قدره عمر، ولا يجوز أن ينقص عنه ولا جزية على النساء والمماليك والصبيان والمجانين.

وأما الكنائس، فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن

(١) العين: الجاسوس.

(٢) عورة المسلمين: أي أماكن أو نقاط ضعفهم.

تهدم كل كنيسة بعد الإسلام، ومنع أن تجدد كنيسة، وأمر أن لا تظهر عليه خارجة من كنيسة ولا يظهر صليب خارج من كنيسة إلاّ كُسِرَ على رأس صاحبه، وكان عروة بن محمد يهدمها بصنعاء وهذا مذهب علماء المسلمين أجمعين.

وشدد في ذلك عمر بن عبد العزيز وأمر أن لا يترك في دار الإسلام بِيْعَةٌ[1] ولا كنيسة بحال قديمة ولا حديثة.

والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب، وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثاني والعشرون
في اصطناع المعروف وإغاثة الملهوف وقضاء حوائج المسلمين وإدخال السرور عليهم

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[3].

وقال رسول الله ﷺ: من مشى في عون أخيه ومنفعته، فله ثواب المجاهدين في سبيل الله، وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الخلق كلهم عيال الله، فأحب خلقه إليه أنفعهم لعياله»، رواه البزار والطبراني في معجمه، ومعنى عيال الله فقراء الله تعالى، والخلق كلهم فقراء الله تعالى، وهو يعولهم.

وروينا في مسند الشهاب عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «خير الناس أنفعهم للناس».

وعن كثير بن عبيد بن عمرو بن عوف المزني، عن أبيه، عن جده، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن لله خلقاً خلقهم لقضاء حوائج الناس، آلى على نفسه أن لا يعذبهم بالنار، فإذا كان يوم القيامة وضعت لهم منابر من نور يحدثون الله تعالى والناس في الحساب.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: من سعى لأخيه المسلم في حاجة، فقضيت له أو لم تقض غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وكتب له براءتان براءة من النار وبراءة من النفاق.

وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من قضى لأخيه المسلم حاجة كنت واقفاً عند ميزانه، فإن رجح وإلا شفعت له». رواه أبو نعيم في الحلية.

وروينا في مكارم الأخلاق لأبي بكر الخرائطي، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من مشى في حاجة أخيه المسلم كتب الله له بكل خطوة سبعين حسنة وكفّر عنه سبعين سيئة، فإن قضيت حاجته على يديه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فإن مات في خلال ذلك دخل الجنة بغير حساب».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال: رسول الله ﷺ: «من مشى مع أخيه في حاجة فناصحه فيها جعل الله بينه وبين الناس سبع خنادق ما بين الخندق والخندق كما بين السماء والأرض». رواه أبو نعيم وابن أبي الدنيا.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله عند أقوام نعماً يقرُّها عندهم ما داموا في حوائج الناس ما لم يملوا فإذا ملوا نقلها الله إلى غيرهم» رواه الطبراني.

وروينا من طريق الطبراني بإسناد جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد أنعم الله عليه نعمة، فأسبغها عليه ثم جعل حوائج الناس إليه، فتبرّم، فقد عرض تلك النعمة للزوال». وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أغاث ملهوفاً كتب الله له ثلاثاً وسبعين حسنة: واحدة منها يصلح بها آخرته ودنياه والباقي في الدرجات».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما يقول الأسد في زئيره؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: يقول: اللهم لا تسلطني على أحد من أهل المعروف». رواه أبو منصور الديلمي، في مسند الفردوس. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قيل: يا رسول الله أي الناس أحب إليك؟ قال: أنفع الناس للناس، قيل: يا رسول الله، فأي الأعمال أفضل؟ قال: إدخال السرور على المؤمن، قيل: وما سرور المؤمن؟ قال: إشباع جوعته وتنفيس كربته، وقضاء دينه، ومن

---

(١) البيعة: دير صغير أو صومعة حبيس، يحتبس فيها الرهبان.
(٢) سورة البقرة، الآية (٢٣٧).
(٣) سورة المائدة، الآية (٢).

مشى مع أخيه في حاجة كان كصيام شهر واعتكافه، ومن مشى مع مظلوم يعينه ثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام، ومن كف غضبه ستر الله عورته، وإن الخلق السيء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ من لقي أخاه المسلم بما يحب ليسره بذلك سره الله يوم القيامة، رواه الطبراني في الصغير بإسناد حسن، وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أدخل على أهل بيت من المسلمين سروراً لم يرض الله له سروراً دون الجنة»، رواه الطبراني. وعن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ما أدخل رجل على المؤمن سروراً إلا خلق الله من ذلك السرور ملكاً يعبد الله تعالى ويوحده، فإذا صار العبد في قبره أتاه ذلك السرور، فيقول له: أما تعرفني، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا السرور الذي أدخلتني على فلان. أنا اليوم أؤانس وحشتك وألقنك حجتك وأثبتك بالقول الثابت، وأشهد مشاهدك يوم القيامة وأشفع لك إلى ربك وأريك منزلك في الجنة»، رواه ابن أبي الدنيا.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يرفعه: «إذا أراد أحدكم الحاجة فليبكر لها يوم الخميس وليقرأ إذا خرج من منزله آخر سورة آل عمران، وآية الكرسي، و﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝﴾[1]، وأم الكتاب[2]، فإن فيها حوائج الدنيا والآخرة، وهو حديث مرفوع».

ومن كلام الحكماء: إذا سألت كريماً حاجة، فدعه يفكر فإنه لا يفكر إلا في خير وإذا سألت لئيماً حاجة فعاجله، لئلا يشير عليه طبعه أن لا يفعل. وسأل رجل رجلاً حاجة، ثم تواني عن طلبها، فقال له المسؤول: أنمت عن حاجتك؟ فقال: ما نام عن حاجته من أسهرك لها، ولا عدل بها عن محجة النجح من قصدك بها، فعجب من فصاحته وقضى حاجته وأمر له بمال جزيل.

وقال مسلمة لنصيب: سلني، فقال: كفك بالعطية أبسط من لساني بالمسألة، فأمر له بألف دينار. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها، وعنه أيضاً قال: لا تكثر على أخيك بالحوائج فإن العجل إذا أفرط في مص ثدي أمه نطحته.

(١) أي سورة القدر بتمامها.
(٢) أي سورة الفاتحة.

وقال ذو الرياستين لثمامة بن أشرس: ما أدري ما أصنع بكثرة الطلاب؟ فقال: زل عن موضعك وعليّ أن لا يلقاك منهم أحد، فقال له: صدقت، وجلس لهم في قضاء حوائجهم.

وحدّث أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخي قال: عرضت على أبي الحسن علي بن محمد بن الفرات رقعة في حاجة لي، فقرأها ووضعها من يده، ولم يوقع فيها بشيء، فأخذتها وقمت وأنا أقول متمثلاً من حيث يسمع هذين البيتين:

وإذا خطبتَ إلى كريم حاجةً
وأبى فلا تقعدْ عليه بحاجبِ
فلربما منع الكريم وما به
بخلٌ ولكن سوء حظِّ الطالب

فقال: وقد سمع ما قلت، ارجع يا أبا جعفر، بغير سوء حظ الطالب ولكن إذا سألتمونا الحاجة، فعاودونا، فإن القلوب بيد الله تعالى، فأخذ الرقعة ووقع فيها بما أردت.

وسأل إسحاق بن ربعي، إسحاق بن إبراهيم المصعبي أن يوصل له رقعة إلى المأمون، فقال لكاتبه: ضمها إلى رقعة فلان، فقال:

تأنَّ لحاجتي واشددْ عُراها
فقد أضحَتْ بمنزلةِ الضَيَاع
إذا شاركتها بلبانِ أخرى
أضرَّ بها مشاركةُ الرِّضاع

وقال أبو دقاقة البصري:

أضحت حوائجنا إليك مُنَاخَةً
معقولةً برحابك الوصَّال[1]
أطلق فديتك بالنجاح عِقَالها
حتى تثور معاً بغير عقالِ

وقال سلم الخاسر:

إذا أذنَ الله في حاجةٍ
أتاك النجاح على رَسْلِهِ
فلا تسألِ الناس من فضلهمْ
ولكن سلِ الله من فضلهِ

ولله در القائل حيث قال:

أيها المادح العباد ليُعطى
إن لله ما بأيدي العبادِ

(١) معقولة: مربوطة، الوصّال: الذي يوصل الأمر إلى غايته.

فاسألِ الله ما طلبت إليهم
وارْجُ فرض المقسّم الجوّاد

وعن عبد الله بن الحسن بن الحسين رضي الله تعالى عنهم قال: أتيت باب عمر بن عبد العزيز في حاجة، فقال: إذا كانت لك حاجة إليّ، فأرسل إليّ رسولاً أو أكتب لي كتاباً، فإني لأستحي من الله أن يراك ببابي.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: والذي وَسِعَ سمعه الأصوات، ما من أحد أَوْدَعَ قلباً سروراً إلا خلق الله تعالى من ذلك السرور لطفاً، فإذا نزلت به نائبة جرى إليها كالماء في انحداره حتى يطردها عنه كما تطرد غريبة الإبل، **وقال لجابر** بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما: يا جابر من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه، فإن قام بما يجب لله فيها عرّضها للدوام والبقاء، وإن لم يقم فيها بما يجب لله عرّضها للزوال.

نعوذ بالله من زوال النعمة ونسأل التوفيق والعصمة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً أبداً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

الباب الثالث والعشرون

في محاسن الأخلاق ومساويها

قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾[1].

فخص الله تعالى نبيه ﷺ من كريم الطباع ومحاسن الأخلاق، من الحياء والكرم والصفح وحسن العهد بما لم يؤته غيره، ثم ما أثنى الله تعالى عليه بشي من فضائله بمثل ما أثنى عليه بحسن الخلق، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾[1].

قالت عائشة رضي الله عنها: كان خُلُقه القرآن، يغضب لغضبه ويرضى لرضاه، **وكان الحسن** رضي الله عنه إذا ذكر رسول الله ﷺ قال: أكرم ولد آدم على الله عز وجل وأعظم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منزلة عند الله، أتي بمفاتيح الدنيا فاختار ما عند الله تعالى، وكان يأكل على الأرض ويجلس على الأرض ويقول: «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»، ولا يأكل متكئاً ولا على خوان، وكان يأكل خبز الشعير غير منخول، وكان يأكل القثاء بالرطب ويقول: «برد هذا يطفيء حر هذا»، وكان أحب الطعام إليه اللحم، ويقول: «هذا يزيد في السمع، ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل»، وكان يحب الدباء، ويقول: «يا عائشة إذا طبختم قدراً، فأكثروا فيه من الدباء، فإنها تشد قلب الحزين»، وكان يقول: «إذا طبختم الدباء فأكثروا من مرقها»، وكان يكتحل بالإثمد[1] ولا يفارقه في سفره قارورة الدهن والكحل والمرآة والمشط والإبرة يخيط ثوبه بيده، وكان يضحك من غير قهقهة ويرى اللعب المباح ولا ينكره، وكان يسابق أهله؛ **قالت عائشة** رضي الله عنها سَابَقْتُهُ، فسبقتُهُ، فلما كثر لحمي سابقتُهُ فسبقني فضرب بكتفي وقال: «هذه بتلك»، وكان له عبيد وإماء لا يرتفع على أحد منهم في مأكل ولا مشرب ولا ملبس وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، نشأ في بلاد الجهل والصحاري يتيماً لا أب له ولا أم، فعلمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق، وكان أفصح الناس منطقاً وأحلاهم كلاماً، وكان يقول: «أنا أفصح العرب».

وقال أنس رضي الله عنه: والذي بعثه بالحق نبياً ما قال لي في شيء قط كرهه لم فعلته ولا في شيء لم أفعله لم لا فعلته ولا لامني أحد من أهله إلا قال دعوه إنما كان هذا بقضاء وقدر.

وقال بعض مشايخنا رحمهم الله تعالى: لا مانع من أن النبي ﷺ إذا هضم نفسه وتواضع لا يمنع من المرتبة التي هي أعلى مرتبة من العبودية فالنبي ﷺ أعطاه الله تعالى مرتبة الملك مع كونه عبداً له متواضعاً، فحاز المرتبتين مرتبة العبودة ومرتبة الملكية، ومع ذلك كان يلبس المرقع والصوف ويرقع ثوبه ويخصف نعله ويركب الحمار بلا إكاف ويردف خلفه، ويأكل الخشن من الطعام وما شبع قط من خبز بر ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله تعالى. من دعاه لبّاه[2] ومن صافحه لم يرفع يده حتى يكون هو الذي يرفعها، يعود المريض[3] ويتبع الجنائز ويجالس الفقراء،

(١) سورة القلم، الآية (٤).

(١) الإثمد: كحل حجري الأرجح أنه حجر النتريت، يسحق ناعماً ويكتحل به.

(٢) أي أجاب دعوته سواء بالنداء أو الدعوة إلى الزيارة أو إلى الطعام.

(٣) عيادة المريض: زيارته أثناء مرضه للاطمئنان على حاله.

أعظم الناس من الله مخافة وأتعبهم لله عز وجل بدناً، وأجدّهم في أمر الله، لا تأخذه في الله لومة لائم، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أما والله ما كان تغلق من دونه الأبواب ولا كان دونه حجاب ﷺ.

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها ما ضرب رسول الله ﷺ امرأة قط ولا خادماً له، ولا ضرب بيده شيئاً إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون إثماً أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس منه.

وقال إبراهيم بن عباس: لو وزنت كلمة رسول الله ﷺ بمحاسن الناس لرجحت، وهي قوله عليه الصلاة والسلام: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم»، وفي رواية أخرى فسعوهم ببسط الوجه والخلق الحسن.

وعنه ﷺ: «حسن الخلق زمام من رحمة الله تعالى في أنف صاحبه، والزمام بيد الملك، والملك يجره إلى الخير والخير يجره إلى الجنة، وسوء الخلق زمام من عذاب الله تعالى في أنف صاحبه، والزمام بيد الشيطان، والشيطان يجره إلى الشر، والشر يجره إلى النار.

وقال بعض السلف: الحسن الخلق ذو قرابة عند الأجانب والسيء الخلق أجنبي عند أهله.

وقال الفضيل: لأن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إليّ من أن يصحبني عابد سيء الخلق، لأن الفاجر إذا حسن خلقه خف على الناس وأحبوه، والعابد إذا ساء خُلقه مقتوه.

(بيت منفرد):

إذا رام التخلّق جاذبته
خلائقُهُ إلى الطبعِ القديم(١)

قيل: أبى الله لسيء الخلق التوبة لأنه لا يخرج من ذنب إلا دخل في ذنب آخر لسوء خلقه.

وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل ما بال فلان، ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون، حتى لا يفضح أحداً، وعنه ﷺ: «ما شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق»، وعنه أيضاً ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه كن له، من صَدَقَ لسانه زكا عمله، ومن حَسُنَتْ نيَّتُهُ زِيْدَ في رزقه، ومن حَسُنَ بِرُّهُ لأهل بيته زِيْدَ له في عمره، ثم قال: وحسن الخلق وكف الأذى يزيدان في الرزق.

وقيل: سوء الخلق يعدي لأنه يدعو إلى أن يقابل بمثله.

وكتب الحسن بن علي إلى أخيه الحسين رضي الله عنهم في إعطائه الشعراء، فكتب إليه الحسين: أنت أعلم مني بأن خير المال ما وقي به العرض. فانظر إلى شرف أدبه، وحسن خلقه كيف ابتدأ كتابه بأنت أعلم مني، وكان بينه وبين أخيه كلام، فقيل له: ادخل على أخيك، فهو أكبر منك، فقال: إني سمعت جدي رسول الله ﷺ يقول: أيما اثنين جرى بينهما كلام، فطلب أحدهما رضا الآخر كان سابقه إلى الجنة وأنا أكره أن أسبق أخي الأكبر إلى الجنة، فبلغ ذلك الحسن، فجاءه عاجلاً رضي الله عنهما، وأنشد في المعنى:

وإنيّ لألقى المرءَ أعلم أنّهُ
عدوّ وفي أحشائه الضِّغْنُ كَامِنُ
فأمنحه بِشراً فيرجع قلبه
سليماً وقد ماتت لديه الضغائن

وسرق بعض حاشية جعفر بن سليمان جوهرة نفيسة وباعها بمال جزيل، فأنفذ إلى الجوهريين بصفتها، فقالوا باعها فلان من مدة، ثم إن ذلك الرجل الذي سرقها قبض عليه وأحضر بين يدي جعفر، فلما رأى ما ظهر عليه قال له: أراك قد تغير لونك ألست يوم كذا طلبت مني هذه الجوهرة فوهبتها لك، وأقسم بالله لقد أنسيت هذا، ثم أمر للجوهري بثمنها، وقال للرجل: خذها الآن حلالاً طيباً وبعها بالثمن الذي يطيب خاطرك به، لا تبع بيع خائف.

ودخل محمد بن عباد على المأمون، فجعل يعممه بيده وجارية على رأسه تتبسم، فقال لها المأمون: مـمّ تضحكين؟ فقال ابن عباد: أنا أخبرك يا أمير المؤمنين تتعجب من قبحي وإكرامك إياي، فقال: لا تعجبي فإن تحت هذه العمامة كرماً ومجداً.

قال الشاعر:

وهل ينفع الفتيانَ حسنَ وجوههم
إذا كانت الأعراضُ غيرَ حسان
فلا تجعل الحسنَ الدليلَ على الفتى
فما كلّ مصقول الحديد يماني(١)

---

(١) رام التخلق: أراد التظاهر بأنه من ذوي الخلق الحسن جاذبته: منعته، خلائقه: طباعه.

(١) أي كما أن صقل الحديد لا يجعله في مضاء السيوف فكذلك الحسن لا يجعل الرجال من أهل المجد.

وحكي أن بهرام الملك خرج يوماً للصيد فانفرد عن أصحابه، فرأى صيداً، فتبعه طامعاً في لحاقه حتى بعد عن عسكره، فنظر إلى راع تحت شجرة، فنزل عن فرسه ليبول، وقال للراعي: احفظ علي فرسي حتى أبول، فعمد الراعي إلى العنان وكان ملبساً ذهباً كثيراً، فاستغفل بهرام وأخرج سكيناً، فقطع أطراف اللجام وأخذ الذهب الذي عليه، فرفع بهرام نظره إليه، فرآه فغضّ بصره[1] وأطرق برأسه إلى الأرض وأطال الجلوس حتى أخذ الرجل حاجته، ثم قام بهرام، فوضع يده على عينيه، وقال للراعي قدم إليّ فرسي، فإنه قد دخل في عيني من سافي[2] الريح، فلا أقدر على فتحهما، فقدمه إليه، فركب وسار إلى أن وصل إلى عسكره، فقال لصاحب مراكبه: إن أطراف اللجام قد وهبتها، فلا تتهمن بها أحداً.

وذكر أن أنوشروان وضع الموائد للناس في يوم نوروز[3] وجلس، ودخل وجوه أهل مملكته في الإيوان، فلما فرغوا من الطعام جاءوا بالشراب وأحضرت الفواكه والمشموم[4] في آنية الذهب والفضة، فلما رفعت آنية المجلس أخذ بعض من حضر جام ذهب وزنه ألف مثقال[5] وخبأه تحت ثيابه وأنوشروان يراه، فلما فقده الشرابي صاح بصوت عال: لا يخرجن أحد حتى يفتش، فقال كسرى: ولِمَ؟ فأخبره بالقضية، فقال: قد أخذه من لا يرده ورآه من لا ينم عليه[6]، فلا تفتش أحداً فأخذ الرجل الجام ومضى فكسره، وصاغ منه منطقة وحلية لسيفه وجدد له كسوة جميلة.

فلما كان في مثل ذلك اليوم[7] جلس الملك ودخل ذلك الرجل بتلك الحلية، فدعاه كسرى، وقال له: هذا من ذاك؟ فقبّل الأرض، وقال: نعم، أصلحك الله.

وقال عبد الله بن طاهر: كنا عند المأمون يوماً، فنادى بالخادم: يا غلام، فلم يجبه أحد، ثم نادى ثانياً، وصاح يا غلام، فدخل غلام تركي وهو يقول: ما ينبغي للغلام أن يأكل و يشرب كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام يا غلام إلى كم يا غلام، فنكس المأمون رأسه طويلاً، فما شككت أنه يأمرني بضرب عنقه، ثم نظر إليّ فقال: يا عبد الله إن الرجل إذا حسنت أخلاقه ساءت أخلاق خدمه، وإذا ساءت أخلاقه حسن أخلاق خدمه، وإنا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لنحسن أخلاق خدمنا.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ورد علينا الوليد بن عتبة بن أبي سفيان المدينة والياً، وكأن وجهه ورقة من ورق المصحف، فوالله ما ترك فينا فقيراً إلا أغناه، ولا مديوناً إلا أدى عنه دينه، وكان ينظر إلينا بعين أرق من الماء، ويكلمنا بكلام أحلى من الجَنِيّ[1] ولقد شهدت منه مشهداً لو كان من معاوية لذكرته، تغدينا يوماً عنده، فأقبل الفراش بصحفة، فعثر في وسادة، فوقعت الصحفة من يده، فوالله ما ردها إلا ذقن الوليد، وانكب جميع ما فيها في حجره فبقي الغلام متمثلاً واقفاً ما معه من روحه إلا ما يقيم رجليه، فقام الوليد فدخل، فغيّر ثيابه، وأقبل علينا تبرق أسارير جبهته، فأقبل على الفراش وقال يا بائس ما أرانا إلا روّعناك، إذهب، فأنت وأولادك أحرار لوجه الله تعالى.

ومرض أحمد بن أبي دؤاد، فعاده المعتصم، وقال: نذرت إن عافاك الله تعالى أن أتصدق بعشرة آلاف دينار، فقال أحمد: يا أمير المؤمنين، فاجعلها في أهل الحرمين، فقد لقوا من غلاء الأسعار شدة، فقال: نويت أن أتصدق بها على من ههنا، وأطلق لأهل الحرمين مثلها، فقال أحمد: مَتَّعَ اللّهُ الإسلامَ وأهلَهُ بك يا أمير المؤمنين، فإنك كما قال النميري لأبيك الرشيد رحمة الله تعالى عليه:

إن المكارم والمعروف أوديةٌ
أحلّك الله منها حيث تجتمع
من لم يكن بأمين الله معتصماً
فليس بالصلوات الخمس ينتفعُ

وقيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت حسن الخلق؟ فقال: من قيس بن عاصم، بينما هو ذات يوم جالس في داره إذ جاءته خادم له بسفود عليه شواء حار، فنزعت السفود من اللحم وألقته خلف ظهرها فوقع على ابن له، فقتله لوقته، فدهشت الجارية[2]، فقال: لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى.

(١) غض بصره: نظر إلى الأرض متغاضياً عنه كأنه لم يره.
(٢) سافي الريح: الغبار الذي تحركه الريح من تراب وقش وما ماثل ذلك.
(٣) النوروز والنيروز عيد رأس السنة الفارسية ويكون أول الربيع.
(٤) المشموم: ما يشم من الروائح الطيبة كالعطور والمسك والعنبر وما شابه ذلك.
(٥) المثقال يساوي حوالي ثلاثة غرامات ونصف.
(٦) من لا ينم عليه: أي من لن يدل عليه أحداً أو يخبر عن فعله.
(٧) أي من العام التالي.

(١) أي أحلى من العسل الذي جني حديثاً.
(٢) أي أصابها رعب شديد عجزت معه عن الكلام.

وكان ابن عمر رضي الله عنه إذا رأى أحداً من عبيده يحسن صلاته يعتقه، فعرفوا ذلك من خلقه، فكانوا يحسنون الصلاة مراءاة له، فكان يعتقهم، فقيل له في ذلك، فقال: من خدعنا في الله انخدعنا له.

وروي أن أبا عثمان الزاهد اجتاز ببعض الشوارع في وقت الهاجرة، فألقي عليه من فوق سطح طست رماد، فتغير أصحابه، وبسطوا ألسنتهم في الملقي للرماد، فقال أبو عثمان: لا تقولوا شيئاً، فإن من استحق أن يصب عليه النار، فصولح بالرماد لم يجز له أن يغضب.

وقيل لإبراهيم بن أدهم[1] تغمده الله تعالى برحمته: هل فرحت في الدنيا قط؟ فقال: نعم مرتين إحداهما أني كنت قاعداً ذات يوم، فجاء إنسان فبال عليَّ، والثانية كنت جالساً فجاء إنسان فصفعني.

وروي أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه دعا غلاماً له، فلم يجبه، فدعاه ثانياً وثالثاً فرآه مضطجعاً، فقال: أما تسمع يا غلام؟ قال: نعم. قال: فما حملك على ترك جوابي؟ قال: أمنت عقوبتك، فتكاسلت، فقال: إذهب فأنت حر لوجه الله تعالى.

وحكي أن أبا عثمان الحيري دعاه إنسان إلى ضيافة، فلما وافى باب الدار قال له الرجل: يا أستاذ ليس لي وجه في دخولك، فانصرف رحمك الله، فانصرف أبو عثمان، فلما وافى منزله عاد الرجل إليه، وقال: يا أستاذ ندمت وأخذ يعتذر له، وقال: احضر الساعة، فقام معه فلما وافى داره قال له مثل ما قال في الأولى، ثم فعل به ذلك أربع مرات، وأبو عثمان ينصرف ويحضر، ثم قال: يا أستاذ إنما أردت بذلك اختبارك والوقوف على أخلاقك، ثم جعل يعتذر له ويمدحه. فقال أبو عثمان: لا تمدحني على خلق تجده في الكلاب، فإن الكلب إذا دعي حضر وإذا زجر انزجر.

وقال الحارث بن قصي: يعجبني من القرّاء كل فصيح مِضْحَاك، فأما الذي تلقاه ببشر ويلقاك بوجه عبوس فلا كثّر الله في المسلمين مثله.

ومن محاسن الأخلاق

ما حكي عن القاضي يحيى بن أكثم قال: كنت نائماً ذات ليلة عند المأمون، فعطش، فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه، وأنا نائم، فينغص عليَّ نومي، فرأيته وقد قام يمشي على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء وبينه وبين المكان الذي فيه الكيزان نحو من ثلاثمائة خطوة، فأخذ منها كوزاً، فشرب، ثم رجع يمشي على أطراف أصابعه حتى قرب من الفراش الذي أنا عليه، فخطا خطواتِ خائفٍ لئلا ينبهني حتى صار إلى فراشه، ثم رأيته آخر الليل قام يبول، وكان يقوم في أو الليل وآخره، فقعد طويلاً يحاول أن أتحرك فيصيح بالغلام، فلما تحركت وثب قائماً وصاح يا غلام، وتأهب للصلاة. ثم جاءني، فقال لي: كيف أصبحت يا أبا محمد، وكيف كان مبيتك؟ قلت: خير مبيت جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين، قال: لقد استيقظت للصلاة، فكرهت أن أصيح بالغلام، فأزعجك، فقلت يا أمير المؤمنين قد خصك الله تعالى بأخلاق الأنبياء، وأحب لك سيرتهم، فَهَنَّأكَ الله تعالى بهذه النعمة، وأتمها عليك، فأمر لي بألف دينار، فأخذتها وانصرفت.

قال: وبت عنده ذات ليلة، فانتبه وقد عرض له السعال، فجعلت أرمقه، وهو يحشو فمه بكم قميصه يدفع به السعال حتى غلبه، فسعل وأكب على الأرض لئلا يعلو صوته، فأنتبه.

قال يحيى، وكنت معه يوماً في بستان ندور فيه، فجعلنا نمر بالريحان، فيأخذ من الطاقة والطاقتين ويقول لقيم البستان: أصلح هذا الحوض، ولا تغرس في هذا الحوض شيئاً من البقول، قال يحيى: ومشينا في البستان من أوله إلى آخره، وكنت أنا مما يلي الشمس والمأمون مما يلي الظل، فكان يجذبني أن أتحول أنا في الظل، ويكون هو في الشمس، فأمتنع من ذلك حتى بلغنا آخر البستان، فلما رجعنا قال: يا يحيى والله لتكونن في مكاني ولأكونن في مكانك حتى آخذ نصيبي من الشمس كما أخذت نصيبك، وتأخذ نصيبك من الظل كما أخذت نصيبي. فقلت: والله يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيك يوم الهول بنفسي لفعلت، فلم يزل بي حتى تحولت إلى الظل وتحول هو إلى الشمس، ووضع يده على عاتقي، وقال: بحياتي عليك إلا ما وضعت يدك على عاتقي مثل ما فعلت أنا، فإنه لا خير في صحبة من لا ينصف.

انظر إلى أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم ما أحسنها

---

(١) هو من أشراف بلخ وكان أبوه كثير المال والخدم إلا أنه ترك كل ذلك وكان من العباد، ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (٤/ ١٣٤ ـ ١٣٨) ومما نقل عنه قوله: «ما تهنيت بالعيش إلا في بلاد الشام أفر بديني من شاهق إلى شاهق ومن جبل إلى جبل إلخ». وأخباره عندنا متوارثة سماعاً ويسمى عندنا السلطان إبراهيم وأطلقوا اسمه على السمك المعروف عندنا في لبنان بهذا الإسم بسبب حادثة رويت عنه.

وإلى أفعالهم ما أزينها، نسأل الله تعالى أن يحسن أخلاقنا، وأن يبارك لنا في أرزاقنا إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الرابع والعشرون
في حسن المعاشرة والمودة والأخوة والزيارة وما أشبه ذلك

اعلم أن المودة والأخوة والزيارة سبب التآلف، والتآلف سبب القوة، والقوة سبب التقوى، والتقوى حصن منيع وركن شديد بها يمنع الضيم وتنال الرغائب وتُنجع المقاصد، وقد منّ الله تعالى على قوم وذكرهم نعمته عليهم بأن جمع قلوبهم على الصفا وردها بعد الفرقة إلى الألفة والإخاء، فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[1].

ووصف نعيم الجنة وما أعد فيها لأوليائه من الكرامة، إذ جعلهم إخواناً على سرر متقابلين، وقد سن رسول الله ﷺ الإخاء وندب إليه، وآخى بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وقد ذكر الله تعالى أهل جهنم وما يلقون فيها من الألم إذ يقولون: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾[2].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه: الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين، وأنشدوا في ذلك:

وما المرءُ إلا بإخوانه
كما يقبضُ الكفّ بالمعصم
ولا خيرَ في الكفّ مقطوعةً
ولا خير في الساعد الأجذم

وقال زياد: خير ما اكتسب المرء الإخوان فإنهم معونة على حوادث الزمان ونوائب الحدثان، وعون في السراء والضراء.

ومن كلام علي رضي الله عنه وكرم وجهه:

عليكَ بإخوان الصفاء فإنَّهُمْ
عمادٌ إذا استنجدتهم وظهورُ

وإنَّ قليلاً ألفُ خِلٍّ وصاحبٍ
وإنَّ عدواً واحداً لكثيرُ

وقال الأوزاعي: الصاحب للصاحب كالرقعة في الثوب إن لم تكن مثله شانته. وقال عبد الله بن طاهر: المال غاد ورائح والسلطان ظل زائل والإخوان كنوز وافرة.

وقال المأمون للحسن بن سهل: نظرت في اللذات فوجدتها كلها مملولة سوى سبعة، قال: وما السبعة يا أمير المؤمنين؟ قال: خبز الحنطة، ولحم الغنم، والماء البارد، والثوب الناعم، والرائحة الطيبة والفراش الواطيء، والنظر إلى الحسن من كل شيء، قال: فأين أنت يا أمير المؤمنين من محادثة الرجال؟ قال: صدقت، وهي أولاهن

وقال سليمان بن عبد الملك: أكلت الطيب ولبست اللين وركبت الفاره[1] وافتضضت العذراء، فلم يبق من لذاتي إلا صديق أطرح معه مؤنة التحفظ.

وكذلك قال معاوية رضي الله عنه: نكحت النساء حتى ما أفرق بين امرأة وحائط، وأكلت الطعام حتى لا أجد ما استمرئه، وشربت الأشربة حتى رجعت إلى الماء، وركبت المطايا حتى اخترت نعلي، ولبست الثياب حتى اخترت البياض، فما بقي من اللذات ما تتوق إليه نفسي إلا محادثة أخ كريم.

وأنشدوا في معنى ذلك:

وما بقيتْ من اللّذاتِ إلاّ
محادثةَ الرجال ذوي العقولِ
وقد كنّا نعدّهم قليلاً
فقد صاروا أقلَّ من القليل

وقال لبيد:

ما عاتب المرءُ اللبيبُ كنفسه
والمرءُ يصلحه الجليس الصالحُ

وقال آخر:

إذا ما أتت من صاحبٍ لك زلّةٌ
فكن أنت محتالاً لزلّته عذرا[2]

وقيل لابن السماك: أي الإخوان أحق ببقاء المودة؟ قال: الوافر دينه، الوافي عقله، الذي لا يملّك على القرب ولا ينساك على البعد، إن دنوت منه داناك، وإن بعدت عنه

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٠٣).
(٢) سورة الشعراء، الآيتان (١٠٠ ـ ١٠١).

(١) الفاره، من الدواب: الصحيح البنية، الجميل الشكل، القوي المتين.
(٢) أي إبحث لزلته عن عذر حتى تعذره.

راعاك، وإن استعنت به عضدك، وإن احتجت إليه رفدك، وتكون مودة فعله أكثر من مودة قوله. وأنشدوا في المعنى:

إن أخاكَ الصدق من يسعى معكْ
ومنْ يضرّ نفسه لينفعكْ
ومن إذا رَيْبُ الزمان صدعكْ
شتّت فيك شمله ليجمعك[1]

* * *

وليس أخي من ودّني بلسانه
ولكنّ أخي من ودّني وهو غائب
ومن ماله مالي إذا كنت معدماً
ومالي له إن أعوزته النوائبُ

وقال أبو تمام:

مَنْ لي بإنسان إذا أغضبتُهُ
وجهلتُ كان الحلمُ ردَّ جوابِهِ
وإذا صبوت إلى المدام شربت من
أخلاقه وسكرت من آدابه[2]
وتراه يصغي للحديث بطرفه
وبقلبه ولعلّه أدرى بهِ[3]

وقيل لخالد بن صفوان: أي إخوانك أحب إليك؟ قال: الذي يسد خلتي[4] ويغفر زلتي ويقيل عثرتي. وقيل: من لا يؤاخي إلا من لا عيب فيه قلَّ صديقه، ومن لم يرض من صديقه إلا بإيثاره على نفسه دام سخطه، ومن عاتب على كل ذنب ضاع عتبه، وكثر تعبه.

قال الشاعر:

ومن لم يغمض عينه عن صديقه
وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتبُ

وقال آخر:

إذا كنتَ في كل الأمور معاتباً
صديقك لم تلقَ الذي لا تعاتبه
وإن أنت لم تشرب مراراً على الأذى
ظمئت وأيّ الناس تصفو مشاربه

(١) تقدم ذكر البيتين في فصل سابق إنما جاء الشطر الأول بلفظ: «إن أخا الهيجاء من يسعى معك».
(٢) الصبوة: جهل الصبا، والمدام: الخمر.
(٣) ولعله أدرى به: أي يصغي للحديث وهو يعرفه مسبقاً تأدُّباً.
(٤) خلّتي: فقري.

وقال: إذا رأيت من أخيك أمراً تكرهه أو خلة لا تحبها فلا تقطع حبله ولا تصرم وده، ولكن داوِ كَلْمَتَه[1] واستر عورته وأبقه وأبرأ من عمله.

قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝﴾[2] فلم يأمره بقطعهم، وإنما أمره بالبراءة من عملهم السيء.

وقال ﷺ: «الأرواح أجناد مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف.». وقال عليه الصلاة والسلام: إن روحي المؤمنين ليلتقيان من مسيرة يوم ما رأى أحدهما صاحبه.

وفي ذلك قال بعضهم:

هَوِيتُكُمْ بِالسَّمْعِ قبل لقائكم
وسمع الفتى يهوى لعمري كطرفه[3]
وخُبِّرتُ عنكم كلَّ جودٍ ورفعةٍ
فلما التقينا كنتُم فوق وصفِهِ

وقال آخر:

تبسّم الثغر عن أوصافكم فغدا
من طيب ذكركم نَشْراً فأحيانا[4]
فمن هناك عشقناكُمْ ولم نركمْ
والأذن تعشق قبل العين أحيانا

[وقيل]: ما تحاب اثنان في الله إلا كان أفضلهما عند الله أشدهما حباً لصاحبه.

ما زار أخ أخاً في الله شوقاً إليه ورغبة في لقائه إلا نادته ملائكة من ورائه طبت وطابت لك الجنة.

وقالوا: ليس سرور يعدل لقاء الإخوان، ولا غم يعدل فراقهم. وقالوا: شر الإخوان الواصل في الرخاء، الخاذل عند الشدة. وقالوا: إن من الوفاء أن تكون لصديق صديقك صديقاً، ولعدو صديقك عدواً. وقالوا: أعجب الأشياء ودٌّ من يهودي وحفظ من نصراني، ورياضة من دَهْرِي[5]، وكرم من أعجمي، والحذر من الكريم إذا أهنته، واللئيم إذا أكرمته، والعاقل إذا أحرجته، والأحمق

(١) كلمته: جرحه والمراد نقصه أو خطأه.
(٢) سورة الشعراء، الآية (٢١٦).
(٣) وقيل: «والأذن تعشق قبل العين أحياناً».
(٤) نشراً: رائحة طيبة.
(٥) الرياضة: حية أو صوم واعتزال للناس، والدهري: المادي الملحد.

إذا مازحته، والفاجر إذا عاشرته.

وقالوا: إصحب من الإخوان من أولاك جمائل كثيرة فكافأته بجميلة واحدة، فنسي جمائله وبقي شاكراً ناشراً ذاكراً لجميلتك، يوليك عليها الإحسان الكثير الجزيل ويجعل أنه ما بلغ من مكافأتك القليل.

وقال ابن عائشة: لقاء الخليل شفاء الغليل. **وقال بعض الحكماء**: إذا وقع بصرك على شخص فكرهته، فاحذره جهدك.

قال عبد الله بن طاهر:

خليليّ للبغضاء حالٌ مبينةٌ
وللحب آثارٌ تُرى ومعارفُ
فما تُنكر العينان فالقلب مُنكرٌ
وما تعرف العينان فالقلب عارف

وقال آخر:

وكنت إذا الصديقُ أرادَ غيظي
وشرّقني على ظمإٍ بريقي[1]
غفرتُ ذُنوبَهُ وكظمت غيظي
مخافة أن أعيشَ بلا صديق

وقال آخر:

وليس فتى الفتيان مَنْ جُلّ همّهِ
صبَوحٌ وإن أمسى ففضل غبوقِ[2]
ولكن فتى الفتيان من راح أو غدا
لضر عدو أو لنفع صديقِ

وأما آداب المعاشرة: فالبشاشة والبشر وحسن الخلق والأدب، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: من أخلاق النبيين والصديقين البشاشة إذا تراءوا والمصافحة إذا تلاقوا

وكان القعقاع بن ثور الهذلي إذا جالسه رجل يجعل له نصيباً من ماله ويعينه على حوائجه، ودخل يوماً على معاوية، فأمر له بألف دينار وكان هناك رجل قد فسح له في المجلس، فدفعها للذي فسح له، فقال:

وكنت جليس قعقاع بن ثورٍ
وما يشقى بقعقاعٍ جليسُ

(١) شرقني بريقي: أغصّني به.

(٢) الصبوح: شراب الصباح سواء كان لبناً أو غيره، والغبوق شراب المساء كذلك.

ضحوك السن إنْ نطقوا بخيرٍ
وعند الشر مِطراقٌ عبوسِ

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لجليسي عليّ ثلاث: أن أرمقه بطرفي إذا أقبل، وأوسع له إذا جلس، وأصغي له إذا حدث. **ويقال**: لكل شيء محل، ومحل العقل مجالسته الناس، ومثل الجليس الحسن كالعطار إن لم يصبك من عطره أصابك من رائحته. ومثل الجليس السوء، مثل الكبريت إن لم يحرق ثوبك بناره آذاك بدخانه.

وكانت تحية العرب: «صبحتك الأنعمة وطيب الأطعمة» **وتقول أيضاً**: «صبحتك الأفالح وكل طير صالح». **ووصف المأمون ثمامة بحسن المعاشرة، فقال**: إنه يتصرف مع القلوب تصرف السحاب مع الجنوب[1].

وقيل: أول ما يتعين على الجليس الإنصاف في المجالسة بأن يلحظ بعين الأدب مكانه من مكان جليسه فيكون كل منهما في محله. **وقال** ﷺ: ذو العلم والسلطان أحق بشرف المنزل.

وقال جعفر الصادق رضي الله عنه، إذا دخلت منزل أخيك فأقبل كرامته كلها ما عدا الجلوس في الصدور وينبغي للإنسان أن لا يقبل بحديثه على من لا يقبل عليه، فقد قيل إن نشاط المتكلم بقدر إقبال السامع، ويتعين عليه أن يحدث المستمع على قدر عقله ولا يبتدع كلاماً لا يليق بالمجلس، فقد قيل لكل مقام مقال، وخير القول ما وافق الحال. وأوجبوا على المستمع أنه إذا ورد عليه من المتكلم ما كان مر بسمعه أولاً أن لا يقطع عليه ما يقوله، بل يسكت إلى أن يستوعب منه القول، وعدوا ذلك من باب الأدب، ولعله إذا صبر وسكت استفاد من ذلك زيادة فائدة لم تكن في حفظه.

وقيل: ثمانية إن أهينوا فلا يلوموا إلا أنفسهم: الجالس في مجلس ليس له بأهل، والمقبل بحديثه على من لا يسمعه، والداخل بين اثنين في حديثهما ولم يدخلاه فيه، والمتعرض لما لا يعنيه، والمتأمّر على رب البيت في بيته، والآتي إلى مائدة بلا دعوة، وطالب الخير من أعدائه، والمستخف بقدر السلطان.

ويتعين على الجليس أن يراعي ألفاظه ويكون على حذر أن يعثر لسانه خصوصاً إذا كان جليسه ذا هيبة، فقد قيل: رب كلمة سلبت نعمة.

وقال أبو العباس السفاح: ما رأيت أغزر من فكر أبي

(١) أي مع ريح الجنوب.

بكر الهذلي لم يعد علي حديثاً قط. وقيل إن أبا العباس كان يحدثه يوماً إذ عصفت الريح فأرمت طستاً من سطح إلى المجلس، فارتاع من حضر ولم يتحرك الهذلي ولم تزل عينه مطابقة لعين السفاح فقال: ما أعجب شأنك يا هذلي، فقال: إن الله يقول: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾[1]. وإنما لي قلب واحد، فلما غمره النور بمحادثة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال، فلو انقلبت الخضراء على الغبراء[2] ما أحسست بها ولا وجمت لها[3]، فقال السفاح لئن بقيت لك لأرفعن مكانك، ثم أمر له بمال جزيل وصلة كبيرة. وكان ابن خارجة يقول: ما غلبني أحد قط غلبة رجل يصغي إلى حديثي.

وفي نوابغ الحكم: أكرم حديث أخيك بانصاتك وصنْهُ من وصمة التفاتك. **وقيل**: من حق الملك إذا تثاءب أو ألقى المروحة من يده أو مدّ رجليه أو تمطّى[4] أو اتكأ أو فعل ما يدل على كسله أن يقوم من بحضرته، وكان أردشير إذا تمطّى قام سُمّاره[5].

ومن حق الملك أن لا يعاد عليه حديث وإن طال الدهر. **قال روح بن زنباع** أقمت مع عبد الملك سبع عشرة سنة، فما أعدت عليه حديثاً إلا مرة واحدة، فقال لي: قد سمعته منك. **وعن الشعبي قال**: ما حدثت بحديث مرتين رجلاً بعينه. **وقال عطاء بن أبي رباح**: إن الرجل ليحدثني بالحديث فأنصت له كأني لم أسمعه قط، وقد سمعت به من قبل أن يولد.

وقيل: المودة طلاقة الوجه والتودد إلى الناس. **وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه**: إن المسلمين إذا التقيا، فضحك كل واحد منهما في وجه صاحبه ثم أخذ بيده تحاتت ذنوبهما كتحاتّ ورق الشجر، **وقيل**: البشر يدل على السخاء كما يدل النور على الثمر. **وقيل**: من السنّة إذا حدثت القوم أن لا تقبل على واحد منهم، ولكن اجعل لكل واحد منهم نصيباً.

(١) سورة الأحزاب، الآية (٤).

(٢) الخضراء: السماء والعرب تسمي شدة الزرقة والزرقة الصافية، خضرة والغبراء: الأرض.

(٣) أي ولا تأثرت بها.

(٤) تمطّى: تمدّد فمد يديه أو رجليه مع مَدِّهما بتعب، والتمطي كناية عن النعاس.

(٥) السُمّار: جلساء المساء.

وقالوا: إذا أردت حسن المعاشرة فَالْقَ عدوك وصديقك بالطلاقة ووجه الرضا والبشاشة ولا تنظر في عطفيك[1] ولا تكثر الالتفات ولا تقف على الجماعات، وإذا جلست فلا تتكبر على أحد وتحفّظ من تشبيك أصابعك، ومن العبث بلحيتك، ومن اللعب بخاتمك، وتخليل أسنانك، وإدخال أصبعك في أنفك، وكثرة بصاقك، وكثرة التمطي والتثاؤب في وجوه الناس وفي الصلاة، وليكن مجلسك هادئاً وحديثك منظوماً مرتباً، واصغ إلى كلام مجالسك واسكت عن المضاحك ولا تتصنع تصنع المرأة في التزين، ولا تلح في الحاجات ولا تشجع أحداً على الظلم ولا تهازل أمتك ولا عبدك، فيسقط وقارك عندهما، وإذا خاصمت فانصف وتحفظ من جهلك وتجنب عجلتك وتفكر في حُجَّتِك، ولا تكثر الإشارة بيدك ولا الالتفات إلى من وراءك واهدىء غضبك وتكلم، وإذا قرّبكَ سلطان فكن منه على حذر، واحذر انقلابه عليك وكلمه بما يشتهي ولا يحملنك لطفه بك على أن تدخل بينه وبين أهله وحشمه، وإن كنت لذلك مستحقاً عنده.

وإياك وصديق العافية[2] فإنه أعدى الأعداء ولا تجعل مالك أكرم من عرضك، ولا تجالس الملوك فإن فعلت فالتزم ترك الغيبة ومجانبة الكذب وصيانة السر وقلة الحوائج وتهذيب الألفاظ والمذاكرة بأخلاق الملوك والحذر منهم. وإن ظهرت المودة، ولا تتجشأ بحضرتهم ولا تخلل أسنانك بعد الأكل عندهم، ولا تجالس العامة فإن فعلت فآداب ذلك ترك الخوض في حديثهم وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم والتغافل عما يجري من سوء ألفاظهم.

وإياك أن تمازح لبيباً أو سفيهاً، فإن اللبيب يحقد عليك والسفيه يتجرأ عليك، ولأن المزاح يخرق الهيبة ويذهب بماء الوجه ويعقب الحقد ويذهب بحلاوة الإيمان والود ويشين فقه الفقيه ويجرّىء السفيه ويميت القلب ويباعد عن الرب تعالى ويكسب الغفلة والذلة، ومن بلي في مجلس بمزاح أو لغط، فليذكر الله عند قيامه، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، غفر له ما كان في مجلسه ذلك.

(١) عطفيك: كتفيك، لأن هذه النظرة من علامات الكِبْر.

(٢) صديق العافية: الذي يصاحبك في أيام غناك وإقبال سَعْدِك.

وأما آداب المسايرة

فقد روي أن رسول الله ﷺ تَعَاقَبَ هو وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورجل آخر من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين في سفر على بعير، فكان إذا جاءت نوبته في المشي مشى، فيعزمان عليه أن لا يمشي فيأبى ويقول: ما أنتم بأقدر مني على مشي وما أنا بأغنى منكم عن أجر، وقال ﷺ: **«لا تتخذوا ظهور الدواب كراسي»**.

وقيل: لا تتقدم الأصاغر على الأكابر إلا في ثلاث: إذا ساروا ليلاً أو خاضوا سيلاً أو واجهوا خيلاً. **وقال علي بن أبي طالب** كرم الله وجهه: لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث، في نكبته وغيبته ووفاته.

وأما ما جاء في الإخوان القليلي الموافاة العديمي المكافأة الذين ليس عندهم لصديق مصافاة:

فقال وهب بن منبه: صحبت الناس خمسين سنة فما وجدت رجلاً غفر لي زلة ولا أقالني عثرة ولا ستر لي عورة. **وقال علي بن أبي طالب** كرم الله وجهه: إذا كان الغدر طبعاً، فالثقة بكل أحد عجز. **وقيل لبعضهم**: ما الصديق؟ قال: اسم وضع على غير مسمى وحيوان غير موجود[1].

قال الشاعر:

سمعنا بالصديق ولا نراهُ
على التحقيق يوجد في الأنامِ
وأحسبه محالاً نمّقوهُ
على وجه المجازِ من الكلام[2]

وقال أبو الدرداء: كان الناس ورقاً لا شوك فيه، فصاروا شوكاً لا ورق فيه، **وقال جعفر الصادق** لبعض إخوانه: أقلل من معرفة الناس وأنكر من عرفت منهم، وإن كان مائة صديق فأطرح تسعة وتسعين وكن من الواحد على حذر. **وقيل لبعض الولاة**: كم لك صديق؟ فقال أما في حال الولاية فكثير، وأنشد:

الناس إخوانُ مَنْ دامت له نعم
والويل للمرء إن زلّت به القدمُ

ولما نكب علي بن عيسى الوزير لم ينظر ببابه أحداً من أصحابه الذين كانوا يألفونه في ولايته، فلما ردت إليه الوزارة وقف أصحابه ببابه ثانياً **فقال**:

ما الناسُ إلاّ مع الدنيا وصاحبها
فكلما انقلبت يوماً به انقلبوا
يُعظِّمون أخا الدنيا فإن وثبتْ
يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا

وقال آخر:

فما أكثر الأصحاب حين نعدّهم
ولكنّهمْ في النائبات قليلُ

وقال البحتري:

إيّاك تغترّ أو تخدعك بارقةٌ
من ذي خداعٍ يري بِشْراً وألطافا
فلو قلبت جميع الأرض قاطبةً
وسرت في الأرض أوساطاً وأطرافا
لم تلق فيها صديقاً صادقاً أبداً
ولا أخاً يبذل الإنصاف إن صافى[1]

وقال بعضهم في المعنى أيضاً:

خليليّ جربت الزمان وأهله
فما نالني منهم سوى الهمّ والعنا[2]
وعاشرت أبناء الزمان فلم أجد
خليلاً يُوَفّيّ بالعهود ولا أنا

وقال آخر:

لما رأيت بني الزّمان وما بهم
خلّ وفيّ للشدائد أصطفي[3]
فعلمتُ أنّ المستحيل ثلاثةٌ
الغول والعنقاء والخلّ الوفي

بيت مفرد:

وكلّ خليلٍ ليس في الله ودّهُ
فإنّي به في ودّه غير واثقِ

قال آخر:

إذا ما كنتَ متّخذاً خليلاً
فلا تأمن خليلك أن يخونا

---

(1) قالت العرب: «المستحيلات ثلاث: الغول والعنقاء والخلُّ الوفي».
(2) نمّقوه: ابتدعوه زينة.

(1) صافى: أخلص المودة والإخاء.
(2) العنا، أي العناء وهو التعب والجهد.
(3) أصطفي: أختار وأنتقي.

فإنك لم يخنك أخٌ أمينٌ
ولكنْ قلما تلقى أمينا

وقال آخر:

تحبّ عدوي ثم تزعم أنني
أودّك إن الرأي عنك لعازب[1]

وليس أخي من ودّني بلسانه
ولكنْ أخي من ودّني وهو غائبُ

ومن ماله مالي إذا كنت معدماً
ومالي له إن أعوزته النوائبُ[2]

ولما غضب السلطان على الوزير ابن مقلة وأمر بقطع يده لما بلغه أنه زوّر عنه كتاباً إلى أعدائه وعزله، لم يأت إليه أحد ممن كان يصحبه ولا توجع له، ثم إن السلطان ظهر له في بقية يومه أنه بريء مما نسب إليه فخلع عليه ورد إليه وظائفه، فأنشد يقول هذه الأبيات:

تحالف الناسُ والزمان
فحيث كان الزمان كانوا

عاداني الدهر نصف يوم
فانكشف النّاس لي وبانوا

يا أيّها المعرضون عنّا
عودوا فقد عاد لي الزمانُ

ومثله في المعنى:

أخوك أخوك من يدنو وترجو
مودّتهُ وإنْ دُعيَ استجابا

إذا حاربتَ حارب من تعادي
وزاد سلاحه منك اقترابا

وقال أبو بكر الخالدي:

وأخٍ رَخِصْتُ عليه حتى مَلَّني
والشيء مملولٌ إذا ما يرخصُ

ما في زمانك من يعزّ وجوده
إن رِمْتَهُ إلاّ صدقٌ مخلصُ[3]

فيجب على الإنسان أن لا يصحب إلا من له دين وتقوى، فإن المحبة في الله تنفع في الدنيا والآخرة وما أحسن ما قال بعضهم:

(١) عزب عنك الرأي: ابتعد ولم تصبه.
(٢) أعوزته: أفقرته، والنوائب: المصائب.
(٣) رمته: أردته.

وكلّ محبّةٍ في الله تبقى
على الحالين من فرجٍ وضيق

وكلّ محبّةٍ فيما سواه
فكالحلفاء في لهب الحريق[1]

فينبغي للإنسان أن يجتنب معاشرة الأشرار ويترك مصاحبة الفجار ويهجر من ساءت خلته وقبحت بين الناس سيرته. قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[3] فاثبت الله المماثلة بيننا وبين البهائم وذلك إنما هو في الأخلاق خاصة، فليس أحد من الخلق إلا وفيه خُلق من أخلاق البهائم، ولهذا تجد أخلاق الخلائق مختلفة فإذا رأيت الرجل جاهلاً في خلائقه غليظاً في طبائعه قوياً في بدنه لا تؤمن ضغائنه فألحقه بعالم النمورة[4]، والعرب تقول: أجهل من نمر وإذا رأيت الرجل هجاماً على أعراض الناس فقد ماثل عالم الكلاب فإن دأب الكلب أن يجفو من لا يجفوه ويؤذي من لا يؤذيه، فعامله بما كنت تعامل به الكلب إذا نبح، ألست تذهب وتتركه؟

وإذا رأيت إنساناً قد جبل على الخلاف إن قلت نعم قال لا، وإن قلت لا قال نعم، فألحقه بعالم الحمير، فإن دأب الحمار إن أدنيته بعد وإن أبعدته قرب، فلا تنتفع به ولا يمكنك مفارقته.

وإن رأيت إنساناً يهجم على الأموال والأرواح فألحقه بعالم الأسود وخذ حذرك منه كما تأخذ حذرك من الأسد.

وإذا بليت بإنسان خبيث كثير الروغان فألحقه بعالم الثعالب.

وإذا رأيت من يمشي بين الناس بالنميمة ويفرق بين الأحبة فألحقه بعالم الظربان، وهي دابة صغيرة تقول العرب عند تفرق الجماعة مشى بينهم ظربان فتفرقوا.

وإذا رأيت إنساناً لا يسمع الحكمة والعلم وينفر من مجالسة العلماء ويألف أخبار أهل الدنيا، فألحقه بعالم الخنافس، فإنه يعجبها أكل العذرات وملامسة النجاسات

(١) الحلفاء: نبت سريع الاشتعال إذا جف، تصنع من عيدانه حُصُر تفرش.
(٢) سورة الزخرف، الآية (٦٧).
(٣) سورة الأنعام، الآية (٣٨).
(٤) لأن النمر يوصف بالغدر.

وتنفر من ريح المسك والورد وإذا شمت الرائحة الطيبة ماتت لوقتها.

وإذا رأيت الرجل يصنع بنفسه كما تصنع المرأة لبعلها، يبيض ثيابه ويعدل عمامته وينظر في عطفيه، فألحقه بعالم الطواويس.

وإذا بليت بإنسان حقود لا ينسى الهفوات ويجازي بعد المدة الطويلة على السقطات، فألحقه بعالم الجمال، والعرب تقول أحقد من جمل، فتجنب قرب الرجل الحقود.

وعلى هذا النمط فليحترز العاقل من صحبة الأشرار وأهل الغدر ومن لا وفاء لهم فإنه إذا فعل ذلك سلم من مكائد الخلق وأراح قلبه وبدنه والله أعلم.

وأما الزيارة والاستدعاء إليها

فقد قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيّ والمتباذلين فيّ والمتزاورين فيّ، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي». وقال ﷺ: **«من عاد مريضاً أو زار أخاً نادي مناد أن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً»**. وقيل: المحبة شجرة أصلها الزيارة.

قال الشاعر:

زُرْ من تحبّ وإن شطّتْ بك الدارُ
وحال من دونه حجبٌ وأستار[١]
لا يمنعنك بُعدٌ من زيارته
إن المحبّ لمن يهواه زوّارُ

ولكن الزيارة غباً لقوله ﷺ: **«زر غباً تزدد حباً»**[٢].

قال الشاعر في معنى ذلك:

عليك بإغباب الزيارة إنها
إذا كثرت صارت إلى الهجر مسلكا
ألم تر أن الغيث يسأم دائماً
وَيُسْأَلُ بالأيدي إذا هو أمسكا

ويقال الإكثار من الزيارة ممل، والإقلال منها مُخِل[٣].

وكتب صديق إلى صديقه هذا البيت:

إذا ما تقاطعنا ونحن ببلدةٍ
فما فضل قرب الدار منّا على البعد

وقال آخر:

وإن مروري بالديار التي بها
سُليمى ولم ألمم بها لجفاء

وقال آخر:

قد أتانا من آل سعدى رسولٌ
حبّذا ما يقول لي وأقول

وقال آخر:

أزور بيوتاً لاصقاتٍ ببيتها
وقلبي في البيت الذي لا أزوره

وزار محمد بن يزيد المهلبي المستعين ووهب له مائتي ألف درهم، وأقطعه أرضاً فقال:

وخصصتني بزيارةٍ أضحى لنا
مجدي بها طول الزمان مؤثل
وقضيت ديني وهو دين وافرٌ
لم يقضه مع جوده المتوكّلُ

وكتب المأمون إلى جاريته الخيزران[١] يستدعيها للزيارة:

نحن في أفضل السرور ولكنْ
ليس إلا بكم يتمّ السرور
عيب ما نحن فيه يا أهل ودي
أنكم غبتم ونحن حضور
فأجِدُوا المسير بل إن قدرتمْ
أن تطيروا مع الرياح فطيروا

وقيل لفيلسوف: أي الرسل أنجح؟ قال: الذي له جمال وعقل. **وقيل**: إذا أرسلتم رسولاً في حاجة، فاتخذوه حسن الوجه حسن الاسم. **وقال لقمان لابنه**: يا بني لا تبعث رسولاً جاهلاً، فإن لم تجد حكيماً عارفاً، فكن رسول نفسك.

وقال بعضهم:

إذا أبطأ الرسول فقل نجاحٌ
ولا تفرح إذا عجل الرسول

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) شطت بك الدار: بعدت دارك عن داره.

(٢) أي لتكن الزيارات متباعدة فمن كثُرَ على أهله كرهوه.

(٣) قال الإمام علي رضي الله عنه: كن من الناس مثلك من النار، لا تقترب منها فتحترق ولا تبتعد عنها فتبترد.

(١) هي أم الخليفة هارون الرشيد.

الباب الخامس والعشرون

في الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم وفضل الشفاعة وإصلاح ذات البين

وفيه فصلان

الفصل الأول

في الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]. ووصف الله نفسه لعباده فقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2]. وقال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝﴾[3].

قال المفسرون: «الرحمن» اسم رقيق يدل على العطف والرقة واللطف والكرم والمنّة والحلم عن الخلق، والرحيم مثله. وقيل: يقال رحمن الدنيا ورحيم الآخرة.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يضع الله الرحمة إلا على رحيم، قلنا: يا رسول الله كلنا رحيم، قال: ليس الرحيم الذي يرحم نفسه وأهله خاصة، ولكن الرحيم الذي يرحم المسلمين» رواه أبو يعلى والطبراني.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من لا يَرحم لا يُرحم، ومن لا يَغفر لا يُغفر له». وعنه ﷺ قال: «إرحموا تُرحموا، واغفروا يُغفر لكم». وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ، قال الله عز وجل: «إن كنتم تريدون رحمتي فارحموا خلقي»، رواه أبو محمد بن عدي في كتاب الكامل.

وروينا من طريق الطبراني، عن الشعبي، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتواصلهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»، قال الطبراني: إني رأيت رسول الله ﷺ في المنام، فسألته عن هذا الحديث، فقال النبي ﷺ، وأشار بيده صحيح صحيح صحيح ثلاثاً.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمر عليها يده نور يوم القيامة». ودخل عامل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فوجده مستلقياً على ظهره وصبيانه يلعبون على بطنه، فأنكر ذلك عليه، فقال له عمر: كيف أنت مع أهلك؟ قال: إذا دخلت سكت الناطق. فقال له: اعتزل فإنك لا ترفق بأهلك وولدك، فكيف ترفق بأمة محمد ﷺ.

وروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أبدال أمتي لن يدخلوا الجنة بالأعمال ولكن يدخلونها برحمة الله وسخاوة النفس وسلامة الصدور والرحمة لجميع المسلمين».

الفصل الثاني

في الشفاعة وإصلاح ذات البين

قال الله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ۝﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يسأل العبد عن جاهه كما يسأله عن عمره، فيقول له جعلت لك جاهاً، فهل نصرت به مظلوماً أو قمعت به ظالماً أو أغثت به مكروباً»؟ وقال ﷺ: «أفضل الصدقة أن تعين بجاهك من لا جاه له». وعن أبي بردة، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا جاءني طالب حاجة فاشفعوا له لكي تؤجروا، ويقضي الله تعالى على لسان نبيه ما شاء».

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة صدقة اللسان، قيل: يا رسول الله، وما صدقة اللسان؟ قال: الشفاعة تفك بها الأسير وتحقن بها الدماء، وَتَجُرُّ بها المعروف إلى أخيك، وتدفع عنه بها كريهة». رواه الطبراني في المكارم.

---

(١) سورة التوبة، الآية (١٢٨).
(٢) سورة البقرة، الآية (١٤٣).
(٣) سورة الفاتحة، الآيتان (٢ ـ ٣).

(١) سورة النساء، الآية (٨٥).

وقال علي رضي الله عنه: الشفيع جناح الطالب. **وقال رجل لبعض الولاة**: إن الناس يتوسلون إليك بغيرك، فينالون معروفك ويشكرون غيرك، وأنا أتوسل إليك بك ليكون شكري لك لا لغيرك.

وقيل: كان المنصور معجباً بمحادثة محمد بن جعفر بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم، وكان الناس لعظم قدره يفزعون إليه في الشفاعات، فثقل ذلك على المنصور، فحجبه مدة، ثم لم يصبر عنه، فأمر الربيع أن يكلمه في ذلك، فكلمه، وقال: اعف أمير المؤمنين لا تثقل عليه في الشفاعات، فقبل ذلك منه، فلما توجه إلى الباب اعترضه قوم من قريش معهم رقاع، فسألوه إيصالها إلى المنصور، فقص عليهم القصة، فأبوا إلا أن يأخذها، فقال: أقذفوها في كمي، ثم دخل عليه وهو في الخضراء مشرف على مدينة السلام وما حولها من البساتين، فقال له: أما ترى إلى حسنها يا أبا عبد الله؟

فقال له: يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيما آتاك وهنأك بإتمام نعمتك عليك فيما أعطاك، فما بنَت العرب في دولة الإسلام ولا العجم في سالف الأيام أحصن ولا أحسن من مدينتك ولكن سمجتها في عيني خصلة، قال: وما هي؟ قال: ليس لي فيها ضيعة، فتبسم، وقال: قد حسنتها في عينك بثلاث ضياع قد أقطعتكها، فقال: أنت والله يا أمير المؤمنين شريف الموارد كريم المصادر، فجعل الله تعالى باقي عمرك أكثر من ماضيه، ثم أقام معه يومه ذلك، فلما نهض ليقوم بدت الرقاع من كمه، فجعل يردهن ويقول: ارجعن خائبات خاسرات.

فضحك المنصور وقال: بحقي عليك ألا أخبرتني وأعلمتني بخبر هذه الرقاع، فأعلمه، وقال ما أتيت يا ابن معلم الخير إلا كريماً، وتمثل بقول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر:

لسنا وإنْ أحسابُنا كرُمَتْ
يوماً على الأحساب نتّكل
نبني كما كانت أوائلنا
تبني ونفعل مثل ما فعلوا

وتصفح الرقاع وقضى حوائجهم عن آخرها، قال محمد: فخرجت من عنده وقد ربحت وأربحت.

وقال المبرد أتاني رجل لأشفع له في حاجة، فأنشدني لنفسه:

إنّي قصدتُك لا أُدلي بمعرفةٍ
ولا بقربٍ ولكنْ قد فشت نعمك[1]
فبتّ حيرانَ مكروباً يؤرّقُني
ذلّ الغريب ويغشيني الكرى كرمكْ
ما زلت أنكب حتى زُلزلت قدمي
فاحتل لتثبيتها لا زلزلت قدمكْ[2]
فلو هممتَ بغير العرف ما علقت
به يداك ولا انقادت له شيمكْ

قال: فشفعت له وأنلته من الإحسان ما قدرت عليه.

وكتب رجل إلى يحيى بن خالد رقعة فيها هذا البيت:

شفيعي إليك الله لا شيءَ غيره
وليس إلى رد الشفيع سبيلُ

فأمره بلزوم الدهليز، فكان يعطيه كل يوم عند الصباح ألف درهم فلما استوفى ثلاثين ألفاً، ذهب الرجل، فقال يحيى والله لو أقام إلى آخر عمره ما قطعتها عنه:

(شعر):

وقد جئتكم بالمصطفى متشفّعاً
وما خاب من بالمصطفى يتشفّع
إلى باب مولانا رفعتُ ظُلامتي
عسى الهمّ عنّي والمصائب تُرفع

وقال آخر:

تشفّعْ بالنبي فكلّ عبدٍ
يُجارُ إذا تَشفّعَ بالنبيّ
ولا تجزعْ إذا ضاقتْ أمورٌ
فكم لله من لطفٍ خفيّ

وروي أن جبريل عليه السلام قال: يا محمد لو كانت عبادتنا لله تعالى على وجه الأرض لعملنا ثلاث خصال: سقي الماء للمسلمين، وإعانة أصحاب العيال، وستر الذنوب على المسلمين إذا أذنبوا.

اللهم استر ذنوبنا واقض عنا تبعاتنا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) فشت نعمك: انتشرت وعمّت الناس.
(٢) أنكب: تصيبني النكبات.

الباب السادس والعشرون

في الحياء والتواضع ولين الجانب وخفض الجناح

وفيه فصلان

الفصل الأول

في الحيـــاء

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: مكارم الأخلاق عشرة: صدق الحديث، وصدق اللسان، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، والمكافأة بالصنيع، وبذل المعروف، وحفظ الذمام للجار، وحفظ الذمام للصاحب وقرى الضيف ورأسهن الحياء.

قال رسول الله ﷺ: الحياء شعبة من الإيمان. وقال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت».

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: من كسا بالحياء ثوبه لم ير الناس عيبه. وعن زيد بن علي عن آبائه يرفعونه: من لم يستح فهو كافر.

قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: إني لأدخل البيت المظلم أغتسل فيه من الجنابة فأحني فيه صلبي حياء من ربي، وقال بعضهم: الوجه المصون بالحياء كالجوهر المكنون في الوعاء.

وقال الخواص: إن العباد عملوا على أربع منازل، على الخوف والرجاء والتعظيم والحياء، فأرفعها منزلة الحياء لما أيقنوا أن الله يراهم على كل حال قالوا: سواء علينا رأيناه أو رآنا، وكان الحاجز لهم عن معاصيه الحياء منه.

ويقال: القناعة دليل الأمانة، والأمانة دليل الشكر، والشكر دليل الزيادة، والزيادة دليل بقاء النعمة، والحياء دليل الخير كله.

الفصل الثاني

في التواضع ولين الجانب وخفض الجناح

قال الله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾[1]. وقال رسول الله ﷺ: «أفضل العبادة التواضع». وقال ﷺ: «لا ترفعوني فوق قدري، فتقولوا فيّ ما قالت النصارى في المسيح، فإن الله عز وجل اتخذني عبداً قبل أن يتخذني رسولاً»، وأتاه ﷺ رجل فكلمه فأخذته رعدة، فقال ﷺ له: «هَوِّن عليك، فإني لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد»[2]، وكان ﷺ يرقع ثوبه، ويخصف نعله[3]، ويخدم في مهنة أهله ولم يكن متكبراً ولا متجبراً، أشد الناس حياء وأكثرهم تواضعاً، وكان إذا حدث بشيء مما أتاه الله تعالى قال: ولا فخر.

وقال ﷺ: «إن العفو لا يزيد العبد إلا عزاً فاعفوا يعزكم الله، وإن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة، فتواضعوا يرفعكم الله، وإن الصدقة لا تزيد المال إلا نماء فتصدقوا يزدكم الله».

وقال عدي بن أرطأة لإياس بن معاوية: إنك لسريع المشية، قال: ذلك أبعد من الكبر وأسرع في الحاجة. وخرج معاوية على ابن الزبير وابن عامر، فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير، فقال معاوية لابن عامر: اجلس، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحب أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار».

وقيل: التواضع سلم الشرف. ولبس مطرف بن عبد الله الصوف وجلس مع المساكين، فقيل له في ذلك، فقال: إن أبي كان جباراً، فأحببت أن أتواضع لربي لعله أن يخفف عن أبي تجبره.

وقال مجاهد: إن الله تعالى لما أغرق قوم نوح شمخت الجبال وتواضع الجودي فرفعه فوق الجبال، وجعل قرار السفينة عليه.

وقال الله تعالى لموسى عليه السلام: هل تعرف لِمَ كلمتك من بين الناس؟ قال: لا يا رب. قال: لأني رأيتك تتمرغ بين يدي في التراب تواضعاً لي. وقيل: من رفع نفسه فوق قدره استجلب مقت الناس[4].

وقال أبو مسلم صاحب الذخيرة: ما تاه إلا وضيع ولا فاخر إلا لقيط، وكل من تواضع لله رفعه الله. فسبحان من

---

(١) سورة الحجر، الآية (٨٨).

(١) سورة القصص، الآية (٨٣).
(٢) القديد: اللحم المجفف.
(٣) يخصف نعله: يرقع نعله.
(٤) مقت الناس: بغضهم وعداوتهم.

تواضع كل شيء لعز جبروت عظمته، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السابع والعشرون
في العجب والكبر والخيلاء وما أشبه ذلك

إعلم أن الكبر والإعجاب يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل، وحسبك من رذيلة تمنع من سماع النصح وقبول التأديب، والكبر يكسب المقت، ويمنع من التألف.

قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر»، وقال رسول الله ﷺ: «من جرّ ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه».

وقال الأحنف بن قيس: ما تكبر أحد إلا من ذلة يجدها في نفسه. ولم تزل الحكماء تتحامى الكبر وتأنف منه.

ونظر أفلاطون إلى رجل جاهل معجب بنفسه فقال: وددت أني مثلك في ظنك وأن أعدائي مثلك في الحقيقة. ورأى رجل رجلاً يختال في مشيه، فقال: جعلني الله مثلك في نفسك ولا جعلني مثلك في نفسي.

وقال الأحنف: عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر. ومر بعض أولاد المهلب بمالك بن دينار وهو يتبختر في مشيه، فقال له مالك: يا بني لو تركت هذه الخيلاء لكان أجمل بك، فقال: أو ما تعرفني[1]؟ قال: أعرفك معرفة أكيدة أوّلُكَ نطفة مَذِرة وآخرك جيفة قذرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة، فأرخى الفتى رأسه وكف عما كان عليه.

وقالوا: لا يدوم الملك مع الكبر وحسبك من رذيلة تسلب الرياسة والسيادة، وأعظم من ذلك أن الله تعالى حرّم الجنة على المتكبرين، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[2]، فقرن الكبر بالفساد. وقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[3]. قال بعض الحكماء: ما رأيت متكبراً إلا ما تحول ما به بي، يعني أتكبر عليه.

(١) أي ألا تعرف من أنا وما هي مكانتي.
(٢) سورة القصص، الآية (٨٣).
(٣) سورة الأعراف، الآية (١٤٦).

واعلم أن الكبر يوجب المقت ومن مقته رجاله لم يستقم حاله، والعرب تجعل جذيمة الأبرش غاية في الكبر، يقال إنه كان لا ينادم أحداً لتكبره ويقول: إنما ينادمني الفرقدان.

وكان ابن عوانة من أقبح الناس كبراً. روي أنه قال لغلامه: اسقني ماء، فقال: نعم، فقال: إنما يقول نعم من يقدر أن يقول: لا، اصفعوه، فصفع. ودعا أكاراً فكلمه، فلما فرغ دعا بماء فتمضمض به استقذاراً لمخاطبته. ويقال: فلان وضع نفسه في درجة لو سقط منها لتكسر.

قال الجاحظ: المشهورون بالكبر من قريش بنو مخزوم، وبنو أمية. ومن العرب: بنو جعفر بن كلاب، وبنو زرارة بن عدي، وأما الأكاسرة فكانوا لا يعدون الناس إلا عبيداً وأنفسهم إلا أرباباً، وقيل لرجل من بني عبد الدار: ألا تأتي الخليفة، فقال: أخاف أن لا يحمل الجسر شرفي.

وقيل للحجاج بن أرطأة: ما لكَ لا تحضر الجماعة[1]؟ قال: أخشى أن يزاحمني البقالون. وقيل: أتى وائل بن حجر إلى النبي ﷺ فأقطعه أرضاً، وقال لمعاوية: أعرض عن هذه الأرض عليه وأكتبها له، فخرج معه معاوية في هاجرة شديدة، ومشى خلف ناقته فأحرقه حر الشمس، فقال له: أردفني خلفك على ناقتك، قال: لست من أرداف الملوك، قال: فأعطني نعليك. قال: ما بُخْلٌ يمنعني يا ابن أبي سفيان، ولكن أكره أن يبلغ أقيال اليمن[2] أنك لبست نعلي. ولكن أمش في ظل ناقتي فحسبك بها شرفاً، وقيل: أنه لحق زمن معاوية ودخل عليه، فأقعده معه على السرير وحدثه.

وقال المسرور بن هند لرجل: أتعرفني؟ قال: لا، قال: أنا المسرور بن هند، قال: ما أعرفك. قال: فتعساً ونكساً لمن لم يعرف القمر.

قال الشاعر:

قولا لأحمقَ يلوي التيهُ أخدَعَه
لو كنت تعلم ما في التيه لم تَتِهِ[3]
التيه مفسدةٌ للدين منقصةٌ
للعقل مهلكةٌ للعرض فانتبهِ

(١) أي صلاة الجماعة.
(٢) أقيال اليمن: ملوكهم.
(٣) أخدعه: هما أخدعان، العرقان على جانبي الرقبة يشتدان عند الغضب.

وقيل: لا يتكبر إلا كل وضيع، ولا يتواضع إلا كل رفيع، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثامن والعشرون

في الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت

فمن شواهد المفاخرة قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ۝﴾[1]. نزلت في علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وعقبة بن أبي معيط، وكانا تفاخرا، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[2]. نزلت في أبي جهل، وعمار بن ياسر، والنسب إلى سيدنا رسول الله ﷺ أشرف الأنساب، وقد قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»، وقد نفى الله تعالى الفخر بالأنساب بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[3]. فالفخر في الإسلام بالتقوى.

وقال رسول الله ﷺ: «إن نبيكم واحد وإن أباكم واحد، وأنه لا فضل لعربي على عجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، ألا هل بلغت»؟».

وقال الأصمعي: بينما أنا أطوف بالبيت ذات ليلة إذ رأيت شاباً متعلقاً بأستار الكعبة وهو يقول:

يا من يجيب دعا المضطر في الظُّلم
يا كاشفَ الضر والبلوى مع السقمِ
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا
وأنت يا حيّ يا قيومُ لم تنمِ
أدعوك ربّي حزيناً هائماً قلقاً
فارحمْ بكائي بحق البيت والحرم
إن كان جودك لا يرجوه ذو سفهٍ
فمن يجود على العاصين بالكرمِ

ثم بكى بكاء شديداً وأنشد يقول:

ألا أيّها المقصود في كلِّ حاجتي
شكوت إليك الضرّ فارحم شكايتي
ألا يا رجائي أنت تكشف كربتي
فهب لي ذنوبي كلها واقض حاجتي
أتيت بأعمالٍ قباح رديئةٍ
وما في الورى عبدٌ جنى كجنايتي[1]
أتحرقني بالنار يا غاية المنى
فأين رجائي ثم أين مخافتي

ثم سقط على الأرض مغشياً عليه، فدنوت منه، فإذا هو زين العابدين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، فرفعت رأسه في حجري وبكيت، فقطرت دمعة من دموعي على خده ففتح عينيه وقال: من هذا الذي يهجم علينا؟ قلت: عبيدك الأصمعي، سيدي ما هذا البكاء والجزع، وأنت من أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة؟ أليس الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2]. فقال: هيهات هيهات يا أصمعيّ إن الله خلق الجنة لمن أطاعه، ولو كان عبداً حبشياً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان حراً قرشياً، أليس الله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ۝ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۝﴾[3].

والفخر وإن نهت عنه الأخبار النبوية وَمَجَّتْهُ العقول الذكية إلا أن العرب كانت تفتخر بما فيها من البيان طبعاً لا تكلفاً، وجبلة[4] لا تعلماً، ولم يكن لهم من ينطق بفضلهم إلا هم ولا ينبه على مناقبهم سواهم.

وكان كعب بن زهير إذا أنشد شعراً قال لنفسه: أحسنت وجاوزت والله الإحسان، فيقال له: أتحلف على شعرك؟ فيقول: نعم لأني أبصر به منكم. وكان الكميت إذا قال قصيدة صنع لها خطبة في الثناء عليها، ويقول عند إنشادها: أي عِلْم بين جنبي وأي لسان بين فكي.

وقال الجاحظ، ولم يصف الطبيب مصالح دوائه للمعالجين ما وجد له طالب. ولما أبدع ابن المقفع في رسالته التي سماها باليتيمة تنزيهاً لها عن المثل، سكنت

---

(١) سورة السجدة، الآية (١٨).
(٢) سورة فصلت، الآية (٤٠).
(٣) سورة الحجرات، الآية (١٣).

(١) جنى كجنايتي: ارتكب آثاماً كآثامي.
(٢) سورة الأحزاب، الآية (٣٣).
(٣) سورة المؤمنون، الآيات (١٠١ ـ ١٠٣).
(٤) جبلة: خلقة وطبعاً.

من النفوس موضع إرادته من تعظيمها، ولو لم ينحلها هذا الاسم لكانت كسائر رسائله.

وسنذكر في هذا الباب إن شاء الله تعالى شيئاً من نظم البلغاء ونثرهم في الافتخار ومن تفاخر منهم بعون الله وفضله وتيسيره.

قال أبو بكر الهذلي: سايرت المنصور فعرض لنا رجل على ناقة حمراء تطوي الفلاة وعليه جبة حمراء وعمامة عدنية، وفي يده سوط يكاد يمس الأرض، فلما رآه المنصور أمرني بإحضاره، فدعوته، وسألته عن نسبه وبلاده وعن قومه وعشيرته وعن ولاة الصدقة، فأحسن الجواب، فأعجبه ما رأى منه، فقال أنشدني شعراً، فأنشده شعر الأوس بن حجر وغيره من الشعراء من بني عمرو بن تميم، وحدثه حتى أتى على بيت شعر لطريف بن تميم وهو قوله:

إن الأمـور إذا أوردتـهـا صـدرت
إن الأمـور لـهـا وِرْدٌ وإصـدارُ

فقال: ويحك ما كان طريف فيكم حيث قال هذا البيت؟ قال: كان أثقل العرب على عدوه وطأة وأقراهم لضيفه، وأحوطهم من وراء جاره[1]، اجتمعت العرب بعكاظ، فكلهم أقروا له بهذه الخلال، فقال له: والله يا أخا بني تميم لقد أحسنت إذ وصفت صاحبك، ولكني أحق ببيته منه ومن شعر أبي الطمحان:

وإنّي من القوم الذين همُ همُ
إذا مات منهم سيّدٌ قام صاحبُهْ
نجوم سماءٍ كلمّا غاب كوكبٌ
بدا كوكبٌ تأوي إليه كواكبه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم
دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه[2]
وما زال فيهم حيث كان مسوّداً
تسير المنايا حيث سارت ركائبه

ولما قدم معاوية المدينة صعد المنبر فخطب وقال: من ابن علي رضي الله تعالى عنه؟ فقام الحسن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله عز وجل لم يبعث بعثاً إلا جعل له عدواً من المجرمين، فأنا ابن علي وأنت ابن صخر وأمك هند وأمي فاطمة وجدتك قيلة وجدتي خديجة، فلعن الله الأمنا حسباً وأخملنا ذكراً وأعظمنا كفراً وأشدنا نفاقاً، فصاح أهل المسجد آمين آمين، فقطع معاوية خطبته ودخل منزله.

وروي أن معاوية خرج حاجًا فمر بالمدينة ففرق على أهلها أموالاً ولم يحضر الحسن بن علي رضي الله عنهما، فلما خرج من المدينة اعترضه الحسن بن علي فقال له معاوية: مرحباً برجل تركنا حتى نفد ما عندنا وتعرض لنا ليبخلنا، فقال له الحسن: وَلِمَ ينفد ما عندك وخراج الدنيا يجي إليك، فقال معاوية: إني قد أمرت لك بمثل ما أمرت به لأهل المدينة وأنا ابن هند، فقال الحسن: قد رددته عليك وأنا ابن فاطمة.

ودخل الحسين يوماً على يزيد بن معاوية فجعل يزيد يفتخر ويقول: نحن ونحن ولنا من الفخر والشرف كذا وكذا والحسين ساكت فأذن المؤذن فلما قال: أشهد أن محمداً رسول الله قال الحسين: يا يزيد جَدُّ من هذا؟ فخجل يزيد ولم يرد جواباً. وفي ذلك يقول علي بن محمد بن جعفر:

لقد فاخرتنا من قريش عصابة
بمطِّ خدودٍ وامتداد أصابع
فلما تنازعنا الفخار قضى لنا
عليهم بما نهوى نداء الصوامع
ترانا سكوناً والشهيد بفضلنا
عليهم جهير الصوت من كل جامع

وله أيضاً:

إني وقوميّ من أنساب قومهم
كمسجد الخيف من بحبوحة الخيف
ما علق السيف منا بابن عاشرة
إلا وهمته أمضى من السيف

وتفاخر العباس بن عبد المطلب وطلحة بن شيبة وعلي بن أبي طالب، فقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، وقال طلحة: أنا خادم البيت ومعي مفتاحه، فقال علي: ما أدري ما تقولان أنا صليت إلى هذه القبلة قبلكما بستة أشهر، فنزلت ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[1]. الآية.

---

(١) أي كان أحفظهم لجاره حاضراً وفي غيبته، وفي غناه وعند حاجته.

(٢) الجزع نوع من خرز اليمن وثاقبه الذي يثقبه ليمر الخيط فيه ويجمعه في عقد.

(١) سورة التوبة، الآية (١٩).

وتفاخر رجلان على عهد موسى عليه السلام فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة آباء مشركين، فقال الآخر: أنا ابن فلان ولولا أنه مسلم ما ذكرته، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أما الذي عد تسعة آباء مشركين فحق على الله أن يُجْعَلَ عاشرهم في النار، والذي انتسب إلى أب مسلم فحق على الله أن يجعله مع أبيه المسلم في الجنة. قال سلمان الفارسي:

أبـي الإسـلام لا أبَ لـي سـواه
إذا افـتـخـروا بـقـيـسٍ أو تـمـيـم

وتفاخر جرير والفرزدق عند سليمان بن عبد الملك، فقال الفرزدق: أنا ابن محي الموتى، فأنكر سليمان قوله، فقال يا أمير المؤمنين قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[1] وجدي فدى الموءودات فاستحياهن، فقال سليمان: إنك مع شعرك لفقيه. وكان صعصعة جد الفرزدق أول من فدى الموءودات.

وللعباس بن عبد المطلب:

إن الـقـبـائـل مـن قـريـشٍ كـلـهـا
لـيـرون أنّـا هـامُ أهـلِ الأبـطـح
وتـرى لـنـا فـضـلاً عـلـى ساداتها
فـضـل المنار على الطريق الأوضح

وكتب الحكم بن عبد الرحمن المرواني من الأندلس إلى صاحب مصر يفتخر:

ألـسـنـا بـنـي مـروان كـيـف تـبـدلـت
بـنـا الـحـال أو دارت عـلـيـنـا الـدوائـر
إذا ولـد الـمـولـود مـنـهـا تـهـلـلـت
لـه الأرض واهـتـزت إلـيـه الـمـنـابـر

وكتب إليه كتاباً يهجوه فيه ويسبه، فكتب إليه صاحب مصر: أما بعد: فإنك عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك والسلام.

وكان أبو العباس السفاح يعجبه السَّمَر[2] ومنازعة الرجال بعضهم بعضاً، فحضر عنده ذات ليلة إبراهيم بن مخرمة الكندي وخالد بن صفوان بن الأهتم فخاضوا في الحديث وتذاكروا مصر واليمن، فقال إبراهيم بن مخرمة: يا أمير المؤمنين إن أهل اليمن هم العرب الذين دانت لهم الدنيا ولم يزالوا ملوكاً ورثوا الملك كابراً عن كابر وآخراً

---

(١) سورة المائدة، الآية (٣٢).
(٢) السمر: حديث العشية أثناء السهر.

عن أول منهم النعمان والمنذر ومنهم عياض صاحب البحرين ومنهم من كان كل يأخذ سفينة غصباً وليس من شيء له خطر إلا إليهم ينسب، إن سئلوا أعطوا وإن نزل بهم ضيف قروه، فهم العرب العاربة وغيرهم المتعربة. فقال أبو العباس: ما أظن التميمي رضي بقولك.

ثم قال: ما تقول أنت يا خالد؟ قال: إن أذن لي أمير المؤمنين في الكلام تكلمت، قال: تكلم ولا تهب أحداً، وقال: أخطأ المقتحم بغير علم[1]، ونطق بغير صواب، وكيف يكون ذلك لقوم ليس لهم ألسن فصيحة، ولا لغة صحيحة نزل بها كتاب ولا جاءت بها سنّة، يفتخرون علينا بالنعمان والمنذر ونفتخر عليهم بخير الأنام وأكرم الكرام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فلله المنة به علينا وعليهم، فمنا النبي المصطفى والخليفة المرتضى ولنا البيت المعمور وزمزم، والحطيم، والمقام، والحجابة، والبطحاء، وما لا يحصى من المآثر، ومنا الصديق والفاروق وذو النورين، والرضا والولي وأسد الله وسيد الشهداء، وبنا عرفوا الدين، وأتاهم اليقين، فمن زاحمنا زاحمناه ومن عادانا اصطلمناه[2]، ثم أقبل خالد على إبراهيم فقال: ألك علم بلغة قومك؟ قال: نعم. قال: فما اسم العين عندكم؟ قال: الجمجمة، قال: فما اسم السن؟ قال: الميدن، قال: فما اسم الأذن؟ قال: الصنارة، قال: فما اسم الأصابع؟ قال: الشناتير، قال: فما اسم الذئب؟ قال: الكنع، قال: أفعالم أنت بكتاب الله عز وجل؟ قال: نعم. قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[3] وقال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾[5]، فنحن العرب والقرآن بلساننا أنزل، ألم تر أن الله تعالى قال: ﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾[6] ولم يقل، والجمجمة بالجمجمة، وقال تعالى: ﴿وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾[6] ولم يقل والميدن بالميدن.

وقال تعالى: ﴿وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ﴾[6] ولم يقل والصنارة بالصنارة، وقال تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي

---

(١) المقتحم بغير علم: المتطاول والمتدخل في أمر لا يعرفه.
(٢) اصطلمناه: أبدنا خضراءه.
(٣) سورة يوسف، الآية (٢).
(٤) سورة الشعراء، الآية (١٩٥).
(٥) سورة إبراهيم، الآية (٤).
(٦) سورة المائدة، الآية (٤٥).

﴿ءَاذَانِهِمْ﴾[1] ولم يقل شناتيرهم في صناراتهم، وقال تعالى: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾[2] ولم يقل الكنع، ثم قال لإبراهيم إني أسألك عن أربع إن أقررت بهن قهرت وإن جحدتهن كفرت، قال: وما هن؟ قال: الرسول منا أو منكم؟ قال: منكم. قال: فالقرآن أنزل علينا أو عليكم؟ قال: عليكم. قال: فالمنبر فينا أو فيكم؟ قال: فيكم. قال: فالبيت لنا أو لكم؟ قال: لكم. قال: فاذهب فما كان بعد هؤلاء فهو لكم، بل ما أنتم إلا سائس قرد، أو دابغ جلد أو ناسج برد، قال: فضحك أبو العباس، وأقرّ لخالد وحباهما جميعاً.

وقال بشار بن برد يفتخر:

إذا نحن صلنا صولةً مضريةً
هتكنا حجابَ الشمس أو قطرت دما

إذا ما أعرنا سيداً من قبيلةٍ
ذُرا منبرٍ صلّى علينا وسلما

وقال السموأل بن عادياء[3]:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضُه
فكلُّ رداءٍ يرتديه جميلُ

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها
فليس إلى حسن الثناء سبيلُ

تعيّرنا أنّا قليلٌ عديدنا
فقلت لها إنّ الكرام قليلُ

وما قلّ من كانت بقاياه مثلنا
شبابٌ تسامى للعلا وكهولُ

وما ضرّنا أنّا قليلٌ وجارنا
عزيزٌ وجار الأكثرين ذليلُ

لنا جبلٌ يحتلّه من نجيره
منيعٌ يردّ الطرف وهو كَلِيلُ

سرى أصله تحت الثرى وسما به
إلى النجم فرعٌ لا يزال طويلُ

وإنّا أناسٌ لا نرى القتل سبّةً
إذا ما رأته عامرٌ وسلولُ

يقرب حبّ الموت آجالنا لنا
وتكرهه آجالهم فتطولُ

وما مات منّا سيّدٌ حتف أنفه
ولا طلّ منا حيث كان قتيلُ

تسيل على حدّ الظّبات[4] نفوسنا
وليست على غير الظّبات تسيلُ

ونحن كماء المزن ما في نصابنا
كِهَامٌ ولا فينا يعدّ بخيلُ[5]

وننكر إن شئنا على الناس قولهمْ
ولا ينكرون القول حين نقولُ

إذا سيّدٌ منّا خلا قام سيّدٌ
قؤول بما قال الكرام فعولُ

وما خمدت نارٌ لنا دون طارقٍ[6]
ولا ذمّنا في النازلين نزيلُ

وأيامنا مشهورةٌ في عدوّنا
لها غرر مشهورةٌ وحجولُ[7]

وأسيافنا في كلّ شرقٍ ومغربٍ
بها من قِرَاع الدارعين فلولُ[8]

معوّدةٌ أن لا تسلّ نصالها
فتغمد حتى يستباح قتيلُ

سلي إن جهلت النّاس عنّا وعنهم
فليس سواءٌ عالمٌ وجهولُ

فإنّا بني الريان قطبٌ لقومهم
تدور رحاهم حولهم وتجولُ

ولما قدم وفد تميم على رسول الله ﷺ ومعهم خطيبهم وشاعرهم، خطب خطيبهم، فافتخر، فلما سكت، أمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس أن يخطب بمعنى ما خطب به خطيبهم، فخطب ثابت بن قيس فأحسن، ثم قام شاعرهم وهو الزبرقان بن بدر فقال:

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٩).
(٢) سورة يوسف، الآية (١٧).
(٣) في نسبة هذه القصيدة إليه شك، وفي القصة كلها لأن اليهود من عادتهم عدم الوفاء بالعهد والأرجح أنه تمسّك بالدروع بخلاً وحباً بالمال الذي أداته لامرىء القيس.

(١) حد الظبات: حد الشّفار، شفرة السيف وشفرة الرمح.
(٢) أي ليس فينا من يتأخر عن نصرة. وقوله ليس فينا بخيل يؤكد أن القصيدة ليست ليهودي لأن البخل طبع في اليهود.
(٣) الطارق: الآتي ليلاً.
(٤) الغرر: بياض شعر مقدمة الرأس، والحجول بياض الأقدام والمراد علامات ظاهرة واضحة.
(٥) الدارعين: حملة الدروع، وفلول: ثلمات وجروح.

نحن الملوك فلا حيٌّ يفاخرنا
فينا العلاء وفينا تنصب البِيَعُ
ونحن نطعمهم في القحط ما أكلوا
من العبيط[1] إذا لم يؤنس الفزع
وننحر الكُومَ[2] عبطاً في أرومتنا
للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا
تلك المكارم حزناها مقارعةً
إذا الكرام على أمثالها اقترعوا

ثم جلس، فقال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت قم، فقام فقال:

إن الذوائبَ من فهرٍ وإخوتهم
قد بيّنوا سنناً للناس تتبع[3]
يرضى بها كل من كانت سريرته
تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا
قومٌ إذا حاربوا ضرّوا عدوهم
أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا[4]
سجيةٌ تلك منهم غيرُ محدثةٍ
إنَّ الخلائق فاعلمْ شرّها البدع
لو كان في الناس سبّاقون بعدهم
فكل سبقٍ لأدنى سبقهم تبع
لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم
عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا
ولا يضنّون عن جارٍ بفضلهم
ولا يمسّهم في مطمعٍ طمع[5]
خذ منهم ما أتوا عفواً إذا عطفوا
ولا يكن همّك الأمر الذي منعوا
أكرمْ بقومٍ رسول الله شيعتهم
إذا تفرّقت الأهواء والشيع

فقال التميميون عند ذلك: وربكم إن خطيب القوم أخطب من خطيبنا وإن شاعرهم أشعر من شاعرنا، وما انتصفنا ولا قاربنا.

وقال شاعر من بني تميم:

أيبغي آل شدادٍ علينا
وما يرعى لشدادٍ فصيل
فإن تغمد مناصلنا نجدها
غلاظاً في أنامل من يصول

وقال سالم بن أبي وابصة:

عليك بالقصد فيما أنت فاعله
إن التخلق يأتي دونه الخلق
وموقفٍ مثل حد السيف قمت به
أحمي الذمار وترميني به الحدق[1]
فما زلقتُ ولا أبديتُ فاحشةً
إذا الرجال على أمثالها زلقوا[2]

وأما التفاضل والتفاوت:

فقد روي أن رسول الله ﷺ كان إذا نظر لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل قال: يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، لأنهما كانا من خيار الصحابة وأبواهما أعدى عدو لله ولرسوله ﷺ[3].

ومن كلام علي رضي الله عنه لمعاوية رضي الله عنه: أما قولك إنّا بنو عبد مناف فكذلك نحن، ولكن ليس أمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب.

وقال أحمد بن سهل: الرجال ثلاثة: سابق ولاحق وماحق، فالسابق الذي سبق بفضله، واللاحق الذي لحق بأبيه في شرفه، والماحق الذي محق شرف آبائه.

وقيل: إن عائشة بنت عثمان كفلت أبا الزناد صاحب الحديث، وأشعب الطماع وربتهما، قال أشعب: فكنت أسْفُلُ وكان يعلو حتى بلغت أنا وهو هاتين الغايتين.

وقال أبو العواذل زكريا بن هارون:

عليّ وعبد الله بينهما أبٌ
وشتّان ما بين الطبائع والفعل
ألم تر عبد الله يلحى على الندى
علياً ويلحاه عليٌّ على البخل[4]

---

(١) العبيط: الدم والمراد الذبائح.
(٢) الكوم ج كوماء وهي الناقة العظيمة السنام.
(٣) الذوائب شعر مقدمة الرأس، وذوائب القوم: وجوههم وساداتهم وفهر المراد بها قريش وذؤابتها العظمى رسول الله ﷺ.
(٤) أشياعهم: أتباعهم.
(٥) يضنون: يبخلون.

(١) ترميني به الحدق: تنظر فيه إلي عيون الناس.
(٢) زلقت: زللت.
(٣) لأن والد خالد هو الوليد بن المغيرة وعكرمة والده أبو جهل.
(٤) يلحى: يلوم.

وحج أبو الأسود الدؤلي بامرأته وكانت شابة جميلة فعرض لها عمر بن أبي ربيعة، فغازلها، فأخبرت أبا الأسود، فأتاه فقال:

وإني ليَنهاني عن الجهل والخنا
وعن شتم أقوام خلائق أربع[١]
حياءٌ وإسلامٌ وتقوى وأنني
كريمٌ ومثلي من يضرّ وينفع
فشتّان ما بيني وبينك إنني
على كلِّ حالٍ أستقيمُ وتضلع[٢]

وقال ربيعة الرقّي:

لشتان ما بين اليزيدين في الندى
يزيد سُلَيمٍ والأغرّ بن حاتم
يزيد سليمٍ سالم المال والفتى
فتى الأزد للأموال غير مسالم[٣]
فَهَمّ الفتى الأزدي إتلافُ ماله
وهمّ الفتى القيسي جمع الدراهم
فلا يحسب القيسيّ أني هجوتُهُ
ولكنني فضلت أهلَ المكارم

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر في أخيه الحسين:

يقول أنا الكبير فعظّموني
ألا ثكلتك أمُّكَ من كبير
إذا كان الصغير أعمّ نفعاً
وأجلد عند نائبة الأمور
ولم يأت الكبير بيوم خيرٍ
فما فضلُ الكبير على الصغير

والله أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب التاسع والعشرون

في الشرف والسؤدد وعلو الهمة

قال رسول الله ﷺ: من رزقه الله مالاً فبذل معروفه وكف أذاه فذلك السيد.

(١) الخنا: الفاحشة.
(٢) تضلع: تعوجُ اعوجاج الضلع.
(٣) غير مسالم للأموال: منفق لها.

وقيل لقيس بن عاصم: بمَ سدت قومك؟ قال: لم أخاصم أحداً إلا تركت للصلح موضعاً. **وقال سعيد بن العاص:** ما شاتمت رجلاً مذ كنت رجلاً لأني لا أشاتم إلا أحد رجلين إما كريم، فأنا أحق أن أُجِلّه، وإمّا لئيم فأنا أولى أن أرفع نفسي عنه.

وقالوا: من نعت السيد أن يكون يملأ العين جمالاً، والسمع مقالاً. **وقيل:** قدم وفد من العرب على معاوية وفيهم الأحنف بن قيس، فقال الحاجب: إن أمير المؤمنين يعزم عليكم أن لا يتكلم منكم أحد إلا لنفسه، فلما وصلوا إليه قال الأحنف: لولا عزم أمير المؤمنين لأخبرته أن رادفة ردفت[١] ونازلة نزلت[٢]، ونائبة نابت، الكل بهم حاجة إلى المعروف من أمير المؤمنين، فقال له معاوية: حسبك يا أبا بحر، فقد كفيت الشاهد والغائب.

وقال رجل للأحنف: بمَ سدت قومك، وما أنت بأشرفهم بيتاً، ولا أصبحهم وجهاً، ولا أحسنهم خلقاً؟ فقال: بخلاف ما فيك، قال: وما ذاك؟ قال: تركي من أمرك ما لا يعنيني، كما عناك من أمري ما لا يعنيك.

وقيل: السيد من يكون للأولياء كالغيث الغادي[٣]، وعلى الأعداء كالليث العادي.

وكان سبب ارتفاع عرابة الأوسي وسؤدده أنه قدم من سفر، فجمعه والشماخ بن ضرار المزني الطريق، فتحادثا، فقال له عرابة: ما الذي أقدمك المدينة يا شماخ؟ قال: قدمتها لأمتار[٤] منها، فملأ له عرابة رواحله بِرّاً وتمراً وأتحفه بتحف غير ذلك، فأنشد يقول:

رأيت عرابةَ الأوسيّ يسمو
إلى الخيرات منقطع القرينِ
إذا ما رايةٌ رفعت لمجدٍ
تلقاها عرابة باليمينِ

وأما علو الهمة فهو أصل الرياسة

فممن علت همته وشرفت نفسه عمارة بن حمزة، قيل: إنه دخل يوماً على المنصور، وقعد في مجلسه، فقام رجل، وقال: مظلوم يا أمير المؤمنين، قال: من ظلمك؟

(١) الرادفة: الزلزلة.
(٢) النازلة: المصيبة كالقحط والجدب.
(٣) الغيث الغادي: المطر الهاطل صباحاً.
(٤) أمتار من الامتيار وهو شراء الميرة أي الطعام من حنطة وتمر إلخ...

قال: عمارة بن حمزة غصبني ضيعتي، فقال المنصور: يا عمارة قم، فاقعد مع خصمك، فقال: ما هو لي بخصم إن كانت الضيعة له، فلست أنازعه فيها، وإن كانت لي فقد وهبتها له، ولا أقوم من مقام شرفني به أمير المؤمنين ورفعني، وأقعد في أدنى منه لأجل ضيعة.

وتحدث السفاح هو وأم سلمة يوماً في نزاهة نفس عمارة وكبره، فقالت له: ادع به وأنا أهب له سبحتي هذه، فإن ثمنها خمسون ألف دينار، فإن هو قبلها علمنا أنه غير نزه النفس، فوجه إليه فحضر، فحادثته ساعة، ثم رمت إليه بالسبحة، وقالت: هي من الطُرَفِ[1] وهي لك، فجعلها عمارة بين يديه، ثم قام وتركها، فقالت: لعله نسيها، فبعثت بها إليه مع خادم فقام للخادم: هي لك، فرجع الخادم فقال: قد وهبها لي، فأعطت أم سلمة للخادم ألف دينار واستعادتها منه.

وأهدى عبيد الله بن السري إلى عبد الله بن طاهر لما ولي مصر مائة وصيف مع كل وصيف ألف دينار، ووجه إليه بذلك ليلاً فرده وكتب إليه لو قبلت هديتك ليلاً لقبلتها نهاراً ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾[2].

وكان سبب فتح المعتصم عمورية أن امرأة من الثغر سبيت، فنادت وامحمداه وامعتصماه، فبلغه الخبر، فركب لوقته وتبعه الجيش فلما فتحها قال: لبيك أيتها المنادية.

وكان سعيد بن عمرو بن العاص ذا نخوة وهمة، قيل له في مرضه: إن المريض يستريح إلى الأنين وإلى شرح ما به إلى الطبيب، فقال: أما الأنين، فهو جزع وعار، والله لا يسمع الله مني أنيناً، فأكون عنده جزوعاً، وأما وصف ما بي إلى الطبيب، فوالله لا يحكم غير الله في نفسي إن شاء أمسكها، وإن شاء قبضها.

ومن كبر النفس ما روي عن قيس بن زهير أنه أصابته الفاقة واحتاج فكان يأكل الحنظل[3] حتى قتله، ولم يخبر أحداً بحاجته.

ومن الشرف والرياسة حفظ الجوار، وحمى الذمار. وكانت العرب ترى ذلك ديناً تدعو إليه وحقاً واجباً تحافظ عليه، وكان أبو سفيان بن حرب إذا نزل به جار قال: يا هذا إنك اخترتني جاراً أو اخترت داري داراً، فجناية يدك عَلَيَّ دونك وإن جنت عليك يد، فاحتكم حكم الصبي على أهله.

وكان الفرزدق يجير من عاذ بقبر أبيه غالب بن صعصعة، فمن استجار بقبر أبيه فأجاره امرأة من بني جعفر بن كلاب خافت لما هجا الفرزدق بني جعفر أن يسميها وينسبها، فعاذت بقبر أبيه، فلم يذكر لها اسماً ولا نسباً، ولكن قال:

عجوز تصلي الخمسَ عاذت بغالبٍ
فلا والذي عاذت به لا أضيرها[1]

وقال مروان بن أبي حفصة:

هم يمنعون الجار حتى كأنما
لجارهم بين السماكين منزل[2]

وقال ابن نباتة:

ولو يكون سواد الشعر في ذمم
ما كان للشيب سلْطانٌ على القمم

وقيل: إن الحجاج أخذ يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وعذبه واستأصل موجوده وسجنه، فتوصل يزيد بحسن تلطفه وأرغب السجان واستماله، وهرب هو والسجان، وقصد الشام إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان، وكان الخليفة في ذلك الوقت الوليد بن عبد الملك، فلما وصل يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك أكرمه وأحسن إليه، وأقامه عنده، فكتب الحجاج إلى الوليد يعلمه أن يزيد هرب من السجن وأنه عند سليمان بن عبد الملك أخي أمير المؤمنين، وولي عهد المسلمين وأن أمير المؤمنين أعلى رأياً. فكتب الوليد إلى أخيه سليمان بذلك، فكتب سليمان إلى أخيه يقول: يا أمير المؤمنين إني ما أجرت يزيد بن المهلب إلا لأنه هو وأبوه وإخوته من صنائعنا قديماً وحديثاً، ولم أجر عدواً لأمير المؤمنين، وقد كان الحجاج فصده وعذبه وأغرمه أربعة آلاف ألف درهم ظلماً، ثم طالبه بعدها بثلاثة آلاف ألف درهم وقد صار إلي واستجار بي، فأجرته وأنا أغرم عنه هذه الثلاثة آلاف ألف درهم، فإن رأى أمير المؤمنين، أن لا يخزيني في ضيفي فليفعل، فإنه أهل الفضل والكرم.

فكتب إليه الوليد إنه لا بد أن ترسل إليَّ يزيد مغلولاً

(١) الطرف: التحف والأشياء الثمينة النادرة.
(٢) سورة النمل، الآية (٣٦).
(٣) الحنظل: نبت شديد المرارة.

(١) لا أضيرها: لا أضرها ولا أظلمها ولا أؤذيها.
(٢) السماكين: مجموعة من النجوم.

مقيداً، فلما ورد ذلك على سليمان أحضر ولده أيوب فقيده ودعا يزيد بن المهلب فقيده، ثم شد قيد هذا إلى قيد هذا بسلسلة وغلهما جميعاً بغلين وأرسلهما إلى أخيه الوليد، وكتب إليه: أما بعد، يا أمير المؤمنين فقد وجهت إليك يزيد وابن أخيك أيوب بن سليمان، ولقد هممت أن أكون ثالثهما، فإن هممت يا أمير المؤمنين بقتل يزيد، فبالله عليك إبدأ بأيوب من قبله، ثم اجعل يزيد ثانياً واجعلني إذا شئت ثالثاً والسلام.

فلما دخل يزيد بن المهلب وأيوب بن سليمان في سلسلة واحدة أطرق الوليد استحياءه وقال: لقد أسأنا إلى أبي أيوب إذ بلغنا به هذا المبلغ، فأخذ يزيد ليتكلم ويحتج لنفسه فقال له الوليد: ما يحتاج إلى كلام فقد قبلنا عذرك وعلمنا ظلم الحجاج. ثم إنه أحضر حداداً وأزال عنهما الحديد وأحسن إليهما ووصل أيوب ابن أخيه بثلاثين ألف درهم ووصل يزيد بن المهلب بعشرين ألف درهم وردهما إلى سليمان، وكتب كتاباً إلى الحجاج يقول له: لا سبيل لك على يزيد بن المهلب فإياك أن تعاودني فيه بعد اليوم. فسار يزيد إلى سليمان بن عبد الملك وأقام عنده في أعلى المراتب وأرفع المنازل.

وحكي: أن رجلاً من الشيعة كان يسعى في فساد الدولة فجعل المهدي لمن دل عليه أو أتى به مائة ألف درهم، فأخذه رجل من بغداد فأيس من نفسه فمر به معن بن زائدة فقال له: يا أبا الوليد أجرني أجارك الله.

فقال معن للرجل: مالك وماله؟ فقال: إن أمير المؤمنين طالبه قال: خل سبيله، قال: لا أفعل، فأمر معن غلمانه فأخذوه غصباً وأردفه بعضهم خلفه. ومضى الرجل فأخبر أمير المؤمنين المهدي بالقصة، فأرسل خلف معن فأحضره فلما دخل عليه قال له: يا معن أتجير علي، قال: نعم يا أمير المؤمنين قتلت في يوم واحد في طاعتكم خمسة آلاف رجل هذا مع أيام كثيرة تقدمت فيها طاعتي أفما ترونني أهلاً أن تجيروا إلي رجلاً واحداً استجار بي، فاستحيا المهدي وأطرق طويلاً ثم رفع رأسه وقال: قد أجرنا من أجرت يا أبا الوليد، قال: إن رأى أمير المؤمنين أن يصل من استجار بي فيكون قد أجاره وحباه، قال: قد أمرت له بخمسين ألف درهم. فقال معن: يا أمير المؤمنين ينبغي أن تكون صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية وإن ذنب الرجل عظيم فإن رأى أمير المؤمنين أن يجزل صلته فليفعل، قال: قد أمرت له بمائة ألف درهم، فرجع معن إلى منزله ودعا بالرجل ودفع له المال ووعظه وقال له: لا تتعرض لمساخط الخلفاء.

وكان جعفر بن أبي طالب يقول لأبيه: يا أبت إني لأستحي أن أطعم طعاماً وجيراني لا يقدرون على مثله، فكان أبوه يقول إني لأرجو أن يكون فيك خلف من عبد المطلب.

وسقط الجراد قريباً من بيت بعض العرب فجاء أهل الحي فقالوا: نريد جارك فقال: أما إذ جعلتموه جاري فوالله لا تصلون إليه، وأجاره حتى طار فَسُمِّيَ مجير الجراد، وقيل هو أبو حنبل.

والحكايات في معنى ذلك كثيرة والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثلاثون

في الخير والصلاح وذكر السادة الصحابة وذكر الأولياء والصالحين رضي الله تعالى عنهم أجمعين

اعلم. أن أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم أجمعين، وفضائلهم أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر، وإني والله أحبهم وأحب من يحبهم، وأسأل الله أن يميتني على محبة النبي محمد ﷺ ومحبتهم وأن يحشرنا في زمرتهم وتحت ألويتهم إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

شعر:

إني أحب أبا حفص[١] وشيعته
كما أحب عتيقاً صاحب الغار[٢]
وقد رضيت علياً قدوة علماً
وما رضيت بقتل الشيخ في الدار[٣]
كل الصحابة ساداتي ومعتقدي
فهل علي بهذا القول من عار

---

(١) أبو حفص هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) عتيق هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه قيل هو اسمه وقيل اسمه عبد الله وهذا لقب له.

(٣) الشيخ المراد عثمان بن عفّان رضي الله عنه.

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ من أصبح منكم اليوم صائماً؟ فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ فمن أطعم اليوم منكم مسكيناً؟ فقال أبو بكر: أنا، قال فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟ قال أبو بكر: أنا. فقال رسول الله ﷺ: ما اجتمعن في أحد إلا دخل الجنة.

وقال ﷺ: لو كان بعدي نبي لكان عمر، وقال له النبي ﷺ: والذي بعثني بالحق بشيراً ما سلكت وادياً إلا سلك الشيطان وادياً غيره، ولما أسلم رضي الله عنه قال: يا رسول الله ألسنا على الحق، قال: بلى، قال: والذي بعثك بالحق نبياً لا نعبد الله سراً بعد هذا اليوم.

ولما قدم عمر رضي الله عنه الشام وقف على طور سيناء فأرسل البطريق عظيماً لهم وقال: أنظر إلى ملك العرب فرآه على فرس وعليه جبة صوف مرقعة مستقبل الشمس بوجهه ومخلاته في قربوس السرج وعمر يدخل يده فيها ويخرج فلق خبز يابس يمسحها من التبن ويلوكها، فوصفه البطريق فقال: لا ترى بمحاربة هذا طاقة أعطوه ما شاء.

وأما أمير المؤمنين عثمان رضي الله تعالى عنه ففضائله كثيرة ومناقبه شهيرة فهو جامع القرآن، ومن استحيت منه ملائكة الرحمن رضي الله عنه.

وقال جميع بن عمير: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت لها: أخبريني من كان أحب الناس إلى رسول الله ﷺ قالت: فاطمة. قلت: إنما أسألك عن الرجال قالت: زوجها، فوالله لقد كان صواماً قواماً. ولقد سالت نفس رسول الله ﷺ في يده فردها إلى فيه، قلت: فما حملك على ما كان فأرسلت خمارها على وجهها وبكت وقالت: أمر قضي عَلَيّ.

وقال معاوية لضرار بن حمزة الكناني: صف لي علياً فاستعفى فألح عليه فقال: أما إذن فلا بد إنه والله كان بعيد المدى شديد القوى يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير العبرة طويل الفكرة يقلب كفه ويعاتب نفسه، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن، وكان والله يجيبنا إذا سألناه، ويأتينا إذا دعوناه، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة له، يعظم أهل الدين ويحب المساكين، لا يطمع القويّ في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله، فَأَشْهدُ الله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه وقد مثل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ الخائف ويبكي بكاء الحزين، فكأني الآن أسمعه يقول: يا دنيا إلي تعرضت أم إلي تشوقت هيهات غُرّي غيري لقد أَبَنْتُكِ ثلاثاً لا رجعة لي فيك فعمرك قصير وعيشك حقير، وخطرك كبير، آه من قلة الزاد ووحشة الطريق، قال: فوكفت دموع معاوية حتى ما يملكها على لحيته وهو يمسحها وقد اختنق القوم بالبكاء، وقال: رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال حزني عليه والله حزن من ذبح ولدها في حجرها فلا ترقأ عبرتها ولا تسكن حيرتها ثم قام فخرج.

وقيل أول من سل سيفاً في سبيل الله تعالى الزبير بن العوام رضي الله عنه، وذلك أنه صاح على أهل مكة ليلاً صائح، فقال: قتل محمد، فخرج متجرداً وسيفه معه صلتاً فتلقاه رسول الله ﷺ فقال: ما لك يا زبير؟ قال: سمعت أنك قتلت، قال: فماذا أردت أن تصنع قال: أردت والله أن أستعرض على أهل مكة[1]. وروي: أحبط بسيفي من قدرت عليه فضمه رسول الله ﷺ وأعطاه إزاراً له فاستتر به وقال له: أنت حواريي ودعا له.

قال الأوزاعي: كان للزبير ألف مملوك يؤدون الضريبة لا يدخل بيت ماله منها درهم بل كان يتصدق بها، وباع داراً له بستمائة ألف درهم فقيل له يا أبا عبد الله غُبِنْت[2]، قال: كلا والله لم أغبن أشهدكم أنها في سبيل الله تعالى.

وهبط جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ يوم أحد فقال من حملك على ظهره؟ وكان حمله على ظهره طلحة حتى استقل على الصخر، قال: طلحة، قال: أقرئه السلام وأعلمه أني لا أراه يوم القيامة في هول من أهوالها إلا استنقذته منه. من هذا الذي عن يمينك؟ قال: المقداد بن الأسود، قال: إن الله يحبه ويأمرك أن تحبه. من هذا الذي بين يديك يتقي عنك؟ قال: عمار بن ياسر قال: بشره بالجنة حرمت النار عليه. ومر أبو ذر على النبي ﷺ ومعه جبريل عليه السلام في صورة دحية الكلبي فلم يسلم، فقال جبريل: هذا أبو ذر لو سلم لرددنا عليه فقال: أتعرفه يا جبريل؟ قال: والذي بعثك بالحق نبياً لهو في ملكوت السموات السبع أشهر منه في الأرض، قال: بم نال هذه المنزلة؟ قال: بزهده في هذه الحطام الفانية. وقال ابن عمر رضي الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن

---

(١) أي أتعرض لهم فأقاتلهم فأقتل منهم ويقتلوني.
(٢) أي غُلِبْتَ في البيع والمراد أنها تساوي أكثر من ذلك.

الله ليدفع بالمسلم الصالح عن ألف بيت من جيرانه البلاء، ثمّ قرأ ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾[1] الآية.

وقال أبو بكر السفاح لأبي بكر الهذلي: بم بلغ الحسن ما بلغ قال: جمع كتاب الله تعالى وهو ابن اثنتي عشرة سنة لم يجاوز سورة إلى غيرها حتى يعرف تأويلها، ولم يقلب درهماً قط في تجارة ولم يَلِ عملاً لسلطان ولم يأمر بشيء حتى يفعله ولم ينه عن شيء حتى يدعه، قال السفاح: بهذا بلغ.

وقال الجاحظ: كان الحسن يستثنى من كل غاية فيقال فلان أزهد الناس إلا الحسن وأفقه الناس إلا الحسن وأفصح الناس إلا الحسن وأخطب الناس إلا الحسن.

وقال بعضهم: كان عمر بن عبد العزيز أزهد من أويس لأن عمر ملك الدنيا فزهد فيها وأويس لم يملكها، فقيل: لو ملكها لفعل كما فعل عمر فقال: ليس من لم يجرب كمن جرب.

وقال أنس في ثابت البناني: إن للخير مفاتيح وإن ثابتاً من مفاتيح الخير. وكان حبيب الفارسي من أخيار الناس وهو الذي اشترى نفسه من ربه أربع مرات بأربعين ألفاً، كان يخرج البدرة فيقول: يا رب اشتريت نفسي منك بهذه ثم يتصدق بها.

وكان أيوب السختياني من أزهد الناس وأورعهم، ذكر عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى فقال: رحم الله أيوب لقد شهدت منه مقاماً عند منبر النبي ﷺ لا أذكر ذلك المقام إلا اقشعر جلدي.

وقال سفيان الثوري: جهدت جهدي على أن أكون في السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك فلم أقدر.

وكان الخليل بن أحمد النحوي من أزهد الناس وأعلاهم نفساً وكان الملوك يقصدونه ويبذلون له الأموال فلا يقبل منها شيئاً، وكان يحج سنة ويغزو سنة حتى مات رحمه الله.

وقال ابن خارجة: جالست ابن عون عشرين سنة فما أظن الملكين كتبا عليه شيئاً، وروى أنه غسل كرز بن وبرة فلم يوجد على جسده مثقال لحم.

وعن محمد بن الحسن[2] قال: كان أبو حنيفة واحد زمانه، لو انشقت عنه الأرض لانشقت عن جبل من الجبال في العلم والكرم والزهد والورع.

وحج وكيع بن الجراح أربعين حجة ورابط في عبادان أربعين ليلة وختم بها القرآن أربعين ختمة وتصدق بأربعين ألفاً وروى أربعة آلاف حديث، وما رؤي واضعاً جنبه قط.

ووقف عمر بن عبد العزيز على عطاء بن أبي رباح وهو أسود مفلفل الشعر، يفتي الناس في الحلال والحرام فتمثل يقول: تلك المكارم لا قعبان من لبن[1].

ومن مشايخ الرسالة رضوان الله عليهم أجمعين سيدي أبو عبد الله محمد بن إسماعيل المغربي أستاذ إبراهيم بن شيبان، كان عجيب الشأن لم يأكل مما وصلت إليه أيدي بني آدم سنين كثيرة وكان أكله من أصول العشب شيئاً تعود أكله.

ومنهم سيدي فتح بن شحرف بن داود: يكنى أبا نصر من الزاهدين الورعين، لم يأكل الخبز ثلاثين سنة، قال أحمد بن عبد الجبار: سمعت أبي يقول: صحبت فتح بن شحرف ثلاثين سنة فلم أرَهُ رفع رأسه إلى السماء، ثم رفعها يوماً فقال: طال شوقي إليك فعجِّل قدومي عليك. وقال محمد بن جعفر: سمعت إنساناً يقول غسلنا فتح بن شحرف فرأينا مكتوباً على فخذه لا إله إلا الله فتوهمناه مكتوباً وإذا هو عرق داخل الجلد، ومات ببغداد فَصُلِّيَ عليه ثلاثاً وثلاثين مرة أقل قوم كانوا يصلون عليه كانوا نحو من خمسة وعشرين ألفاً إلى ثلاثين ألفاً.

ومنهم سيدي فتح بن سعيد الموصلي: يكنى أبا نصر من أقران بشر الحافي وسري السقطي كبير الشأن في باب الورع والمجاهدات. قال إبراهيم بن نوح الموصلي: رجع فتح الموصلي إلى أهله بعد صلاة العتمة وكان صائماً فقال: عشوني فقالوا: ما عندنا شيء نعشيك به، فقال: ما بالكم جلوس في الظلمة؟ فقالوا: ما عندنا شيء نسرج به، فجعل يبكي من الفرح ويقول: إلهي مثلي يترك بلا عشاء ولا سراج بأي يد كانت مني، فما زال يبكي إلى الصباح. وقال فتح: رأيت بالبادية غلاماً لم يبلغ الحلم وهو يمشي وحده ويحرك شفتيه فسلمت عليه فرد علي السلام، فقلت: إلى أين؟ فقال: إلى بيت ربي عز وجل فقلت: بماذا تحرك شفتيك؟ قال أتلو كلام ربي، فقلت: إنه لم يجر عليك قلم التكليف؟ قال: رأيت الموت يأخذ من هو

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢٥١).

(٢) هو محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة، سمع الموطأ من الإمام مالك وله نسخة من روايته (صدرت بتحقيقنا عن دار البحار).

(١) شطر من بيت شعر على الأرجح والمراد أن مكارم الغنى ليست شيئاً أمام هذه.

أصغر سناً مني، فقلت: خطاك قصيرة وطريقك بعيدة، فقال: إنما علي نقل الخطا وعليه البلاغ، فقلت: أين الزاد والراحلة؟ قال: زادي يقيني وراحلتي رجلاي، فقلت: أسألك عن الخبز والماء، قال: يا عماه أرأيت لو دعاك مخلوق إلى منزله أكان يجمل بك أن تحمل زادك إلى منزله، قلت: لا، فقال: إن سيدي دعا عباده إلى بيته وأذن لهم في زيارته فحملهم ضعف يقينهم على حمل أزوادهم وإني استقبحت ذلك فحفظت الأدب معه، أفتراه يضيعني؟ فقلت: حاشا وكلا ثم غاب عن بصري فلم أره إلا بمكة فلما رآني قال: أيها الشيخ بعدك على ذلك الضعف من اليقين؟

ومنهم سيدي أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الحيري: صحب شاه الكرماني ويحيى بن معاذ الرازي وكان يقال: في الدنيا ثلاثة لا رابع لهم، أبو عثمان الحيري بنيسابور والجنيد ببغداد وأبو عبد الله الحلاج بالشام، ومن كلامه: لا يكمل الرجل حتى يستوي في قلبه أربعة أشياء: المنع والعطاء والعز والذل، وقال: منذ أربعين سنة ما أقامني الله تعالى في حال فكرهته، ولا نقلني إلى شيء فسخطته.

ومنهم سيدي سليمان الخواص: يكنى أبا تراب كان أحد الزهاد المعروفين والعباد الموصوفين سكن الشام ودخل بيروت وكان أكثر مقامه بيت المقدس. قيل: اجتمع حذيفة المرعشي وإبراهيم بن أدهم ويوسف بن أسباط فتذاكروا الفقر والغنى وسليمان ساكت، فقال بعضهم: الغني من كان له بيت يسكنه وثوب يستره وسداد من عيش يكفه عن فضول الدنيا، وقال بعضهم: الغني من لم يحتج إلى الناس. فقيل لسليمان: ما تقول أنت في ذلك فبكى وقال: رأيت جوامع الغنى في التوكل ورأيت جوامع الفقر في القنوط[1] والغنى حق الغنى من أَسْكَنَ اللَّهُ في قلبِهِ من غناه يقيناً ومن معرفته توكلاً، ومن قسمته رضا فذلك الغني حق الغنى وإن أمسى طاوياً[2] وأصبح معوزاً[3] فبكى القوم من كلامه.

ومنهم سيدي أبو سليمان بن عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الداراني: أحد رجال الطريقة قدس الله سره، كان من أجل السادات وأرباب الجد في المجاهدات. ومن كلامه: من أحسن في نهاره كفي في ليله ومن أحسن في ليله كفي في نهاره، ومن صدق في ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه، والله تعالى أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له، وقال: لكل شيء علامة وعلامة الخذلان ترك البكاء، وقال: لكل شيء صدأ وصدأ نور القلب شبع البطن. وقال أحمد بن أبي الحواري: شكوت إلى أبي سليمان الوِسْوَاس فقال: إذا أردت أن ينقطع عنك فأي وقت أحسست به فافرح فإنك إذا فرحت به انقطع عنك لأنه لا شيء أبغض إلى الشيطان من سرور المؤمن، وإذا اغتممت به زادك. وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى: اجتمعوا ليلاً على أبي سليمان الداراني فسمعوه يقول: يا رب إن طالبتني بسريرتي طالبتك بتوحيدك، وإن طالبتني بذنوبي طالبتك بكرمك، وإن جعلتني من أهل النار أخبرت أهل النار بحبي إياك.

وقال علي بن الحسين الحداد: سألت أبا سليمان بأي شيء تعرف الأبرار؟ قال: بكتمان المصائب وصيانة الكرامات.

وروي عنه أن قال: نمت ليلة عن وردي فإذا حوراء تقول لي: أو تنام وأنا أربَّى لك في الخدور منذ خمسمائة عام.

ومنهم سيدي أبو محمد عبد الله بن حنيف: من زهاد المتصوفة كوفي الأصل ولكنه سكن انطاكية. ومن كلامه: لا تغتم إلا من شيء يضرك غدا ولا تفرح إلا بشيء يسرك غداً، وله كرامات ظاهرة وبركات متواترة.

ومنهم سيدي أبو عبد الله محمد بن يوسف البناء: أصبهاني الأصل كتب عن ستمائة شيخ ثم غلب عليه الانفراد والخلوة إلى أن خرج إلى مكة بشرط التصوف وقطع البادية على التجريد، وكان في ابتداء أمره يكسب في كل يوم ثلاثة دراهم وثلثاً فيأخذ من ذلك لنفسه دانقاً ويتصدق بالباقي، ويختم مع العمل كل يوم ختمة فإذا صلى العتمة في مسجده خرج إلى الجبل إلى قريب الصبح ثم يرجع إلى العمل، وكان يقول في الجبل: يا رب إما أن تهب لي معرفتك أو تأمر الجبل أن ينطبق علي فإني لا أريد الحياة بلا معرفتك.

ومنهم سيدي يحيى بن معاذ الرازي قدس الله سره يكنى أبا زكرياء أحد رجال الطريق كان أوحد وقته، ومن كلامه: لا تكن ممن يفضحه يوم موته ميراثه، ويوم حشره ميزانه، وقال: ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال: إن لم تنفعه فلا تضره وإن لم تسره فلا تغمه وإن لم تمدحه فلا تذمه،

---

(١) القنوط: اليأس وسرعة الاستحسار والمراد القنوط من رحمة الله.

(٢) طاوياً: جائعاً لم يأكل شيئاً.

(٣) معوزاً: فقيراً لا يملك شيئاً.

وقال: الصبر على الخلوة من علامات الإخلاص، وقال: بئس الصديق صديقاً يحتاج إلى أن يقال له إذكرني في دعائك، وقال: على قدر حبك لله يحبك الخلق وعلى قدر خوفك من الله تهابك الخلق وعلى قدر شغلك بالله تشتغل في أمرك الخلق، وقال: من كان غناه في كيسه لم يزل فقيراً، ومن كان غناه في قلبه لم يزل غنياً، ومن قصد بحوائجه المخلوقين لم يزل محروماً.

وروي أنه قدم شيرازاً فجعل يتكلم على الناس في علم الأسرار، فأتته امرأة من نسائها فقالت: كم تأخذ من هذه البلدة؟ قال: ثلاثون ألفاً أصرفها في دين علي بخراسان، فقالت: لك علي ذلك على أن تأخذها وتخرج من ساعتك فرضي بذلك فحملت إليه المال فخرج من الغد فعوتبت تلك المرأة فيما فعلت فقالت: إنه كان يظهر أسرار أولياء الله تعالى للسوقة والعامة فغرت على ذلك.

ومنهم سيدي يوسف بن الحسين الرازي: يكنى أبا يعقوب كان وحيد وقته في إسقاط التصنع، عالماً أديباً صحب ذا النون المصري وأبا تراب النخشبي. من كلامه: إذا أردت أن تعلم العاقل من الأحمق فحدثه بالمحال فإن قبل فاعلم أنه أحمق. وقال: إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص فاعلم أنه لا يجيء منه شيء، وقال: لأن ألقى الله تعالى بجميع المعاصي أحب من أن ألقاه بذرة من التصنع، وقال أبو الحسن الدارج: قصدت زيارة ابن الرازي من بغداد فلما دخلت بلده سألت عن منزله فكل من سألته يقول: أي شيء تريد من هذا الزنديق فضيقوا صدري حتى عزمت على الانصراف، فبت تلك الليلة في مسجد ثم قلت في نفسي: جئت هذه البلدة فلا أقل من زيارته فلم أزل أسأل عنه حتى وصلت إلى مسجده فوجدته جالساً في المحراب وبين يديه مصحف يقرأ فيه فدنوت منه وسلمت عليه فرد علي السلام وقال: من أين؟ قلت: من بغداد، فقال: أتحسن من قولهم شيئاً؟ قلت: نعم، وأنشدته:

رأيتك تبني دائماً في قطيعتي
ولو كنت ذا حزم لَهَدَّمْتَ ما تبني

فأطبق المصحف ولم يزل يبكي حتى ابتلت لحيته وثوبه ورحمته من كثرة بكائه ثم التفت إلي وقال: يا بني أتلوم أهل البلد على قولهم يوسف بن الحسين زنديق وها أناذا من وقت صلاة الصبح أقرأ القرآن ولم تقطر من عيني قطرة وقد قامت علي القيامة بهذا البيت.

ومنهم سيدي حاتم بن علوان الأصم قدس الله سره: يكنى أبا عبد الرحمن من أكابر مشايخ خراسان صاحب شقيق البلخي، ومن كلامه: إلزم خدمة مولاك تأتك الدنيا راغمة والآخرة راغبة، وقال: من ادعى ثلاثاً بغير ثلاث فهو كذاب، من ادعى حب الله تعالى من غير ورع عن محارمه فهو كذاب، ومن ادعى محبة النبي ﷺ من غير محبة الفقر فهو كذاب، ومن ادعى حب الجنة من غير إنفاق ماله فهو كذاب. وسأله رجل: علام بنيت أمرك في التوكل على الله عز وجل قال: على أربع خصال: علمت أن رزقي لا يأكله غيري فاطمأنت به نفسي، وعلمت أن عملي لا يعمله غيري فأنا مشغول به، وعلمت أن الموت يأتيني بغتة فأنا أبادره، وعلمت أني لا أخلو من عين الله عز وجل حيث كنت فأنا أستحي منه.

وسبب تسميته بالأصم ما حكاه أبو علي الدقاق أن امرأة جاءت تسأله عن مسألة، فاتفق أنه خرج منها صوت ريح فخجلت المرأة، فقال حاتم: ارفعي صوتك وأراها أنه أصم فسرت المرأة بذلك وقالت: إنه لم يسمع الصوت، فغلب عليه هذا الاسم رحمة الله تعالى عليه.

ومنهم الحسن بن أحمد الكاتب: من كبار مشايخ المصريين صحب أبا بكر المصري وأبا علي الروذباري وكان أوحد مشايخ وقته، من كلامه: روائح نسيم المحبة تفوح من المحبين وإن كتموها وتظهر عليهم دلائلها وإن أخفوها وتدل عليهم وإن ستروها، وأنشدوا في هذا المعنى:

إذا ما أسَرَّتْ أنفسُ الناس ذكرَهُ
تبيّنه فيهم ولم يتكلموا
تطيبُ به أنفاسهمْ فتذيعها
وهل سرّ مسكٍ أودِعَ الريح يُكتمُ

ومن كلامه أيضاً: إذا انقطع العبد إلى الله تعالى بالكلية، فأول ما يفيده الاستغناء عن الناس. وقال: صحبة الفساق داء ودواؤها مفارقتهم، وقال: إذا سكن الخوف في القلب لا ينطق اللسان بما لا يعنيه.

ومنهم سيدي جعفر بن نصر الخلدي: يكنى بأبي محمد، بغدادي المنشأ والمولد، صحب الجنيد وانتمى إليه وحج قريباً من ستين حجة، روي أنه مر بمقبرة الشونيزية وامرأة على قبر تندب وتبكي بكاء بحرقة، فقال لها: ما لكِ تبكين؟ فقالت: ثكلى ولدي، فأنشأ يقول:

يقولون ثكلى ومن لم يذق
فراق الأحبّة لم يُثكلِ

لـقـد جـرّعـتـنـي لـيـالـي الـفـراق
شـرابـاً أمـرّ مـن الـحـنـظـلِ

وروي أنه كان له فص فوقع منه يوماً في الدجلة، وكان عنده دعاء مجرب لرد الضالة إذا دعا به عادت، فدعا به فوجد الفص في وسط أوراق كان يتفحصها، وصورة الدعاء أن تقول: يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه إجمع عليّ ضالتي. وقد روي أنه يقرأ قبله سورة الضحى ثلاثاً، وروى الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخه قال: ودعت في بعض حجاتي المزين الكبير الصوفي، فقلت: زودني شيئاً فقال: إن فقدت شيئاً أو أردت أن يجمع الله بيني وبينك أو بينك وبين إنسان، فقل: يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيني وبين كذا، فإن الله يجمع بينك وبين ذلك الشيء أو الإنسان.

ومنهم سيدي معروف بن فيروز الكرخي. قدس الله سره: يكنى أبا محفوظ من كبار المشايخ مجاب الدعوة وهو أستاذ السرّي، وكان أبواه نصرانيين، فأسلماه إلى مؤدبهم وهو صبي، فكان المؤدب يقول له: قل هو ثالث ثلاثة، فيقول: بل هو الواحد الصمد، فضربه المؤدب على ذلك ضرباً وجيعاً، فهرب منه، فكان أبواه يقولان: ليته يرجع إلينا على أي دين شاء، فنوافقه عليه، فرجع إلى أبويه، فدق الباب فقيل: من بالباب، فقال: معروف، فقيل: على أي دين، فقال: على دين الإسلام، فأسلم أبواه، وكان مشهوراً بإجابة الدعوة، ومن كلامه رضي الله عنه: إذا أراد الله بعبد خيراً فتح له باب العمل، وأغلق باب الفترة والكسل، وكان يعاتب نفسه ويقول: يا مسكين كم تبكي وتندب أخلص تخلص، وقال سري: سألت معروفاً عن الطائعين لله بأي شيء قدروا على الطاعات لله عز وجل؟ قال: بخروج حب الدنيا من قلوبهم ولو كانت في قلوبهم لما صحت لهم سجدة، ومن إنشاداته:

الماءُ يَغْسِلُ ما بالثوبِ من درنٍ(١)
وليس يغسل قلبَ المذنبِ الماءُ

وقال إبراهيم الأطروش: كان معروف قاعداً يوماً على الدجلة ببغداد، فمر بنا صبيان في زورق يضربون بالملاهي ويشربون، فقال له أصحابه: أما ترى هؤلاء يعصون الله تعالى على هذا الماء؟ فادع عليهم، فرفع يديه إلى السماء وقال: إلهي وسيدي كما فرحتهم في الدنيا أسألك أن تفرحهم في الآخرة، فقال له أصحابه: إنما سألناك أن تدعو عليهم، ولم نقل لك ادع لهم، فقال: إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا ولم يضركم ذلك.

وقال سري: رأيت معروفاً في المنام كأنه تحت العرش والله تعالى يقول لملائكته: من هذا؟ فقالوا: أنت أعلم يا رب، قال: هذا معروف الكرخي سكر بحبي لا يفيق إلا بلقائي، وقيل له في مرضه: أوص، فقال: إذا مت فتصدقوا بقميصي هذا، فإني أحب أن أخرج من الدنيا عرياناً كما دخلتها عرياناً. وقال أبو بكر الخياط: رأيت في المنام كأني دخلت المقابر، فإذا أهل القبور جلوس على قبورهم وبين أيديهم الريحان، وإذا أنا بمعروف الكرخي بينهم يذهب ويجيء، فقلت: يا أبا محفوظ؛ ما فعل الله بك؟ أو ليس قد مت؟ قال: بلى. ثم أنشد يقول:

موتُ التقيّ حياةٌ لا نفادَ لها
قد مات قومٌ وهمْ في الناس أحياءُ

ومنهم قاسم بن عثمان الكرخي: يكنى أبا عبد الملك من أجلاء المشايخ صحب أبا سليمان الداراني وغيره، وكان من أقران السري والحارث المحاسبي، وكان أبو تراب النخشبي يصحبه، ومن كلامه: من أصلح فيما بقي من عمره غفر له ما مضى وما بقي، ومن أفسد فيما بقي من عمره أخذ بما مضى وما بقي.

وقال: السلامة كلها في اعتزال الناس، والفرح كله في الخلوة بالله عز وجل، وسئل عن التوبة، فقال: التوبة رد المظالم وترك المعاصي وطلب الحلال وأداء الفرائض.

وقال لأصحابه: أوصيكم بخمس: إن ظلمتم فلا تظلموا، وإن مدحتم فلا تفرحوا، وإن ذممتم فلا تحزنوا، وإن كُذِّبتم فلا تغضبوا، وإن خانوكم فلا تخونوا.

وقال محمد بن الفرج: سمعت قاسم بن عثمان يقول: إن لله عباداً قصدوا الله بهممهم فأفردوه بطاعتهم واكتفوا به في توكلهم، ورضوا به عوضاً عن كل ما خطر على قلوبهم من أمر الدنيا، فليس لهم حبيب غيره، ولا قرة عين إلا فيما قرب إليه، وكان يقول: قليل العمل مع المعرفة خير من كثير العمل بلا معرفة، ثم قال: اعرف وضع رأسك ونم، فما عبد الله الخلقُ بشيء أفضل من المعرفة.

وروي عنه أنه قال: رأيت في الطواف حول البيت رجلاً فتقربت منه، فإذا هو لا يزيد على قوله: اللهم قضيت حاجة المحتاجين وحاجتي لم تقض، فقلت له: ما لكَ لا تزيد على هذا الكلام؟ فقال: أحدثك، كنا سبعة رفقاء

---

(١) درنٍ: وَسَخٍ وَقَذَرٍ.

من بلاد شتى غزونا أرض العدو فاستأسرونا كلنا، فاعتزل بنا لتضرب أعناقنا، فنظرت إلى السماء، فإذا سبعة أبواب مفتحة عليها سبع جوار من الحور العين في كل باب جارية، فقدم رجل منا فضربت عنقه، فرأيت جارية في يدها منديل قد هبطت إلى الأرض، فضربت أعناق الستة وبقيت أنا، وبقي باب وجارية، فلما قدمت لتضرب عنقي استوهبني بعض خواص الملك، فوهبني له، فسمعتها تقول: بأي شيء فاتك هذا يا محروم؟ وأغلقت الباب، فأنا يا أخي متحسر على ما فاتني قال قاسم بن عثمان: أراه أفضلهم لأنه رأى ما لم يروا وترك يعمل على الشوق.

ومنهم سيدي أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي: كان جليل القدر مالكي المذهب، عظيم الشأن. صحب الجنيد، ومن في عصره، وكان يبالغ في تعظيم الشرع المطهر، وكان إذا دخل شهر رمضان المعظم جد في الطاعات، ويقول: هذا شهر عظمه ربي، فأنا أولى بتعظيمه. وسئل عن قول النبي ﷺ: خير عمل المرء كسب يمينه، فقال: إذا كان الليل، فخذ ماء وتهيأ للصلاة، وصل ما شئت، ومد يديك، وسل الله عز وجل، فذلك كسب يمينك، ولما حج ورأى مكة المشرفة شرفها الله تعالى وقع مغشياً عليه، فلما أفاق أنشد يقول:

هذه دارهم وأنت محب ... ما بقاء الدموع في الآماقِ

وروي أنه قال: كنت يوماً جالساً، فجرى في خاطري أني بخيل، فقلت: مهما فتح الله عليّ به اليوم أدفعه إلى أول فقير يلقاني، قال: فبينما أنا متفكر إذ دخل عليّ شخص ومعه خمسون ديناراً، فقال: اجعل هذه في مصالحك، فأخذتها وخرجت، وإذا أنا بفقير مكفوف بين يدي مزين يحلق رأسه، فتقدمت إليه وناولته الصرة، فقال لي: ادفعها للمزين، فقلت له: إنها دنانير، فقال: إنك لبخيل، قال: فناولتها للمزين، فقال المزين: إن من عاداتنا أن الفقير إذا جلس بين أيدينا لا نأخذ منه أجراً، قال: فرميتها في الدجلة، وقلت: ما أعزك أحد إلا أذله الله تعالى.

ومنهم سيدي زرقان بن محمد أخو ذي النون المصري صاحب سياحة كان بجبل لبنان.

حكي عن يوسف بن الحسين الرازي قال: بينما أنا بجبل لبنان أدور إذ أبصرت زرقان أخا ذي النون المصري جالساً على عين ماء وقت صلاة العصر، فسلمت عليه وجلست من ورائه، فالتفت إليّ وقال: ما حاجتك؟ فقلت: بيتا شعر سمعتهما من أخيك ذي النون المصري أعرضهما عليك، فقال: قل. فقلت سمعته يقول:

قد بقينا مذبذبين حيارى ... نطلب الوصلَ ما إليه سبيلُ

فدواعي الهوى تخفّ علينا ... وخلاف الهوى علينا ثقيلُ

فقال زرقان ولكني أقول:

قد بقينا مذهّلين حيارى ... حسبُنا ربّنا ونعم الوكيلُ

حيثما الفوز كان ذاك منانا ... وإليه في كل أمرٍ نميلُ

فعرضت أقوالهما على طاهر المقدسي، فقال: رحم الله ذا النون المصري. رجع إلى نفسه، فقال ما قال، ورجع زرقان إلى ربه، فقال ما قال. وقال أبو عبد الرحمن السلمي: زرقان بن محمد أخو ذي النون المصري، وأظن أنه أخوه مؤاخاة لا أخوة نسب، وكان من أقرانه ورفقائه.

ومنهم: سيدي أبو عبد الله النباجي سعيد بن بريد: كان من أقران ذي النون المصري، ومن أقران أستاذي أحمد بن أبي الحواري، له كلام حسن في المعرفة وغيرها، روي عنه أنه قال: أصابني ضيق وشدة فبت وأنا مفكر في المسير إلى بعض أخواني، فسمعت قائلاً يقول لي في النوم: أيجمل بالحر المريد إذا وجد عند الله ما يريد أن يميل بقلبه إلى العبيد، فانتبهت وأنا من أغنى الناس.

ومنهم: سيدي بشر بن الحارث قدس الله روحه يكنى أبا نصر أحد رجال الطريقة، أصله من مرو وسكن بغداد وكان من كبار الصالحين وأعيان الأتقياء المتورعين، صحب الفضيل بن عياض، وروى عن سري السقطي وغيره.

ومن كلامه: لا تكون كاملاً حتى يأمنك عدوك، وكيف يكون فيك خير وأنت لا يأمنك صديقك. وقال: أول عقوبة يعاقبها ابن آدم في الدنيا مفارقة الأحباب، وقال: غنيمة المؤمن غفلة الناس عنه وخفاء مكانه عنهم. وقال: التكبر على المتكبر من التواضع. وسئل عن الصبر الجميل، فقال: هو الذي لا شكوى فيه إلى الناس. وقيل: إنه لقي رجلاً سكران، فجعل الرجل يقبل يد بشر ويقول: يا سيدي يا أبا نصر، وبشر لا يدفعه عن نفسه، فلما ولّى الرجل تغرغرت عينا بشر وجعل يقول: رجل أحب رجلاً على خير توهمه لعل المحب قد نجا والمحبوب لا يدري

ما حاله، وروي أن امرأة جاءت إلى أحمد بن حنبل تسأله، فقالت: إني امرأة أغزل بالليل والنهار، وأبيعه ولا أبين غزل الليل من غزل النهار، فهل على ذلك شيء؟ فقال: يجب أن تبيني، فلما انصرفت قال أحمد لابنه: اذهب، فانظر أين تدخل، فرجع، فقال: دخلت دار بشر، فقال: قد عجبت أن تكون هذه السائلة من غير بيت بشر. ولما مرض مرضه الذي مات فيه قال له أهله: نرفع ماءك إلى الطبيب قال: أنا بعين الطبيب يفعل بي ما يريد، فألحوا عليه، فقال لأخته: ادفعي إليهم الماء فدفعته إليهم في قارورة، وكان بالقرب منهم طبيب نصراني، فدفعوا إليه القارورة، فقال: حركوا الماء، فحركوه، فقال: ضعوه فوضعوه، فقالوا له: ما بهذا وصفت لنا. قال: وبماذا وصفت لكم؟ قالوا: وصفت بأنك أحذق أهل زمانك في الطب، قال: هو كما وصفت لكم إن هذا الماء إن كان ماء نصراني، فهو ماء راهب قد فتت الخوف كبده وإن كان ماء مسلم، فماء بشر الحافي لأن ما في زمانه أخوف منه، قالوا: هو ماء بشر، فقال: أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فلما رجعوا إلى بشر قال لهم: أسلم الطبيب. قالوا له: ومن أعلمك بهذا؟ قال: لما خرجتم من عندي نوديت يا بشر ببركة مائك أسلم الطبيب. توفي سنة سبع وعشرين ومائتين.

ومنهم سيدي أبو زيد طيفور بن عيسى البسطامي: من أجلّ المشايخ كبير الشأن، ومن كلامه: ما زلت أسوق إلى الله تعالى نفسي وهي تبكي إلى أن سقتها وهي تضحك. وسئل: بأي شيء وجدت هذه المعرفة؟ فقال: ببطن جائع وبدن عار، وقيل له: ما أشد ما لقيت في سبيل الله تعالى؟ فقال: لا يمكن وصفه، فقيل له: ما أهون ما لقيته نفسك منك؟ فقال: أما هذا فنعم دعوتها إلى شيء من الطاعات، فلم تجبني، فمنعتها الماء سنة، وقال: الناس كلهم يهربون من الحساب، ويتجافون عنه، وأنا أسأل الله تعالى أن يحاسبني، فقيل له: لِمَ؟ فقال لعله يقول فيما بين ذلك يا عبدي، فأقول لبيك، فقوله لي عبدي أحب إليّ من الدنيا وما فيها، ثم بعد ذلك يفعل بي ما يشاء. وقال له رجل: دلني على عمل أتقرب به إلى ربي، فقال: أحب أولياء الله ليحبوك فإن الله تعالى ينظر إلى قلوب أوليائه، فلعله ينظر إلى إسمك في قلب وليّ، فيغفر لك. وسئل عن المحبة، فقال: استقلال الكثير من نفسك واستكثار القليل من حبيبك. توفي سنة إحدى وستين ومائتين رحمه الله تعالى.

ومنهم شيخ الطائفة سيدي أبو القاسم الجنيد بن محمد القواريري: شيخ وقته وفريد عصره، أصله من نهاوند ومولده ومنشؤه ببغداد صحب جماعة من المشايخ، وصحب خاله السري، والحارث المحاسبي ودرس الفقه على أبي ثور، وكان يفتي في مجلسه بحضرته وهو ابن عشرين سنة. ومن كلامه رضي الله عنه: علامة إعراض الله تعالى عن العبد أن يشغله بما لا يعنيه، وقال: الأدب أدبان: أدب السر وأدب العلانية، فأدب السر طهارة القلوب، وأدب العلانية حفظ الجوارح من الذنوب. ورؤي في يده يوماً سبحة، فقيل له: أنت مع تمكنك وشرفك تأخذ بيدك سبحة؟ فقال: نعم سبب وصلنا به إلى ما وصلنا لا نتركه أبداً. وقال حسن بن محمد السراج: سمعت الجنيد يقول: رأيت إبليس في منامي، وكأنه عريان، فقلت له: ألا تستحي من الناس؟ فقال: بالله هؤلاء عندك من الناس لو كانوا من الناس ما تلاعبت بهم كما يتلاعب الصبيان بالكرة، ولكن الناس عندي ثلاثة نفر: فقلت: ومن هم؟ قال: في مسجد الشونيزي قد أضنوا قلبي وأنحلوا جسمي كلما هممت بهم أشاروا إلى الله عز وجل، فأكاد أن أحرق، قال الجنيد: فانتبهت من نومي، ولبست ثيابي وجئت إلى مسجد الشونيزي بليل، فلما دخلت أخرج أحدهم رأسه وقال: يا أبا القاسم أنت كلما قيل لك شيء تقبل. قيل: إن الثلاثة الذين كانوا في مسجد الشونيزي أبو حمزة، وأبو الحسن الثوري، وأبو بكر الدقاق رضي الله عنهم، وقال محمد بن قاسم الفارسي: بات الجنيد ليلة العيد في الموضع الذي كان يعتاده في البرية، فإذا هو وقت السحر بشاب ملتف في عباءة وهو يبكي ويقول:

بحرمةِ غربتي كم ذا الصدودُ
ألا تحنوا عليّ ألا تجودوا
سرور العيد قد عمّ النواحي
وحزني في ازديادٍ لا يبيدُ
فإن كنت اقترفت خِلال سوءٍ
فعذري في الهوى أن لا أعود

توفي الجنيد رحمه الله تعالى سنة سبع وتسعين ومائتين ببغداد وصلى عليه نحو ستين ألفاً رضوان الله عليهم أجمعين. وممن صحبته وانتفعت بصحبته وفاضت الخيرات عليّ ببركته سيدي الشيخ الإمام العالم العامل أبو المعالي وأبو الصدق أبو بكر بن عمر الطريني المالكي

قدس الله سره وروحه ونور ضريحه، كان أوحد زمانه في الزهد والورع قامعاً لأهل الضلال والبدع، وله أسرار ظاهرة وبركات متواترة. قد أطاع أمره الخلائق عجماً وعرباً، وانتشر ذكره في البلاد شرقاً وغرباً وأتت الملوك إلى بابه واختاروا أن يكونوا من جملة أصحابه، ما أتاه مكروب إلا فرج الله كربته ولا طالب حاجة إلا قضى الله حاجته، كان محافظاً على النوافل ملازماً للفرض، وكان أكثر أكله من المباح من نبات الأرض، لم يمنع نفسه في الدنيا بالمآكل والمشارب اللذيذة بل قيل: إنه غضب على نفسه مرة فمنعها شرب الماء شهوراً عديدة، وكان رضي الله عنه كثير الشفقة والحنو على أصحابه نصوحاً لجميع خلق الله من أعدائه وأحبابه، يدخل عليه أعدى عدوه، فيقبل ببشره وبره عليه، فيخرج عنده وهو أحب الناس إليه، كما قال بعضهم:

وإنـي لألـقـى الـمـرءَ أعـلـمُ أنّـه
عدوي وفي أحشائه الضغنُ كامنُ

فـأمـنـحـه بـشـري فـيـرجـع قـلـبُـهُ
سليماً وقد ماتت لديه الضغائن

وكانت حملة أهل زمانه عليه وأحوالهم في كل أمر راجعة إليه، وكنت كثيراً ما أسمعه يتمثل بهذا البيت:

وما حـمّـلـوني الـضـيـمَ إلاّ حـمـلـتـه
لأنـي مـحـبٌ والـمـحـبّ حـمـول

وكان رضي الله عنه كثير المصافاة عظيم الموافاة، شأنه الحلم والستر لم يهتك حرمة مسلم ولا فضحه، وما استشاره أحد في أمر إلا أرشده إلى الخير ونصحه، صحبتُه رضي الله عنه نحو خمس عشرة سنة، فكأنها من طيبها كانت سنة، ما قطع بره يوماً واحداً عني حتى كنت أظن أن ليس عنده أخص مني، وكان ذلك فعله مع جميع أصحابه قاطبة. بيّض الله وجهه في القيامة، وبلغه من فضل ربه مآربه، وكان رضي الله عنه فقيهاً في مذهب الإمام مالك، إمام كبيرٌ لم ير له في زمانه من شبيه ولا نظير، وله في علم الحقيقة أقوال، وكم رأينا له من مكاشفات وأحوال ولو تتبعت مناقبه لا تسع الكلام، ولكني أقول: كان أوحد عصره والسلام.

عاش رضي الله عنه نيفاً وستين سنة، وكان الناس في زمانه في عيشة راضية، وأحوال حسنة، وكان رضي الله عنه كثير الأمراض والأسقام حصل له في آخر عمره ضعف شديد أقام به نحو سنة، ثم تزايد مرضه في العشر الأول من ذي الحجة الحرام، فلما كانت ليلة الحادي عشر اشتد به الأمر واحتضر، ولم يزل في النزع إلى ثلث الليل الأول من الليلة المذكورة، ثم توفي رحمه الله تعالى سعيداً حميداً في ليلة الجمعة حادي عشر ذي الحجة الحرام سنة سبعة وعشرين وثمانمائة، ولما أخبر الناس بوفاته عَظُم مصابه على المسلمين، ووقع النوح والبكاء والأسف في أقطار البلدان حتى طوائف المخالفين للملة من النصارى وغيرهم، وصاروا يبكون ويتوجعون ويتأسفون على فراقه، وكيف لا، وهو إمام العصر، علامة الدهر حق فيه قول القائل:

حـلـف الـزمـان لـيـأتـيـن بـمـثـلـه
حـنـثـتْ يـمـيـنـك يـا زمـانُ فـكـفّـر

رضي الله عنه ورضي عنا به، ونفعنا ببركته في الدين والدنيا والآخرة، فشرعوا في تجهيزه وغسله، فكنت ممن حضر غسله، ولكن لم يكن ذهني معي في تلك الساعة لما جرى علينا من المصيبة بفقده، كيف لا، وقد كان والداً شفوقاً وباراً محسناً عشوقاً، فلما انتهى غسله رضي الله عنه جاء القضاة والنواب والكشاف والولاة وحملوه على أعناقهم ومضوا به إلى جامع الخطبة بالمحلة فضاق بهم الجامع على سعته، وضاقت بهم الشوارع والسكك والطرقات من كثرة الناس، فلم ير أكثر جمعاً ولا أغزرها دمعاً من ذلك اليوم، وهذا دليل على أنه كان قطب أهل زمانه.

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: بيننا وبينهم الجنائز. يريد بذلك اجتماع الناس، والله أعلم. فارتفع نعشه على أعناقهم وتقدم للصلاة شيخه العارف بالله تعالى سيدي سليمان الدواخلي نفعنا الله ببركته، ودفن يوم الجمعة بزاويته التي أنشأها بسندفا مع والده الشيخ الإمام العالم العلامة مفتي المسلمين سراج الدين أبي حفص عمر الطريني المالكي في قبر واحد. نفعنا الله ببركته، وجعل الجنة منقلبه ومثواه، وحشرنا وإياه في زمرة سيد الأولين والآخرين محمد خاتم النبيين، وأفضل المسلمين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، ونسأله لنا التوفيق والإعانة، وأن يمتع المسلمين بطول بقاء أخيه سيدنا ومولانا الشيخ شمس الدين محمد الطريني أدام الله أيامه للمسلمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الباب الحادي والثلاثون

في مناقب الصالحين وكرامات الأولياء رضي الله عنهم

إعلم أن كرامات الأولياء لا تنكر ومناقبهم أكثر من أن تحصر، نسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم في زمرة نبينا محمد ﷺ يوم المحشر إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

حكاية:

قال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: احتبس عنا المطر بالبصرة فخرجنا نستسقي مراراً، فلم نر للإجابة أثراً، فخرجت أنا وعطاء السلمي، وثابت البناني، ويحيى البكاء، ومحمد بن واسع، وأبو محمد السختياني، وحبيب الفارسي، وحسان بن ثابت بن أبي سنان، وعتبة الغلام، وصالح المزني، حتى إذا صرنا إلى المصلى بالبصرة خرج الصبيان من المكاتب[1]، ثم استسقينا، فلم نر للإجابة أثراً حتى انتصف النهار وانصرف الناس وبقيت أنا، وثابت البناني بالمُصَلى، فلما أظلم الليل إذا أنا بعبد أسود مليح رقيق الساقين عليه جبة صوف قَوَّمْتُ[2] ما عليه بدرهمين، فجاء بماء فتوضأ، ثم جاء إلى المحراب، فصلى ركعتين خفيفتين، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: إلهي وسيدي ومولاي إلى كم تَرُدُّ عبادك فيما لا ينفعك، أَنَفَذَ ما عندك أم نقص ما في خزائنك، أقسمت عليك بحبك لي إلا ما أسقيتنا غيثك الساعة. قال: فما تم كلامه حتى تغيمت السماء وجاءت بمطر كأفواه القرب.

قال مالك: فتعرضت له، وقلت له: يا أسود أما تستحي مما قلت؟

قال: وما قلت؟ قلت قولك بحبك لي وما يدريك أنه يحبك؟

قال: تنح عني يا من اشتغل عنه بنفسه، أفتراه بدأني بذلك إلا لمحبته إياي؟ ثم قال: محبته لي على قدره، ومحبتي له على قدري.

فقلت له: يرحمك الله إرفق قليلاً.

فقال: إني مملوك وعليَّ فرض من طاعة مالكي الصغير. قال: فانصرف وجعلنا نقفوا أثره[1] على البعد حتى دخل دار نخَّاس[2].

فلما أصبحنا أتينا النخاس، فقلت: يرحمك الله. أعندك غلام تبيعه منا للخدمة؟ قال: نعم عندي مائة غلام للبيع، فجعل يعرض علينا غلاماً بعد غلام حتى عرض علينا سبعين غلاماً، فلم ألق حبيبي فيهم، فقال عودا إليَّ في غير هذا الوقت، فلما أردنا الخروج من عنده دخلنا حجرة خربة خلف داره، وإذا بالأسود قائم يصلي، فقلت: حبيبي ورب الكعبة.

فجئت إلى النخاس، فقلت له: بعني هذا الغلام، فقال: يا أبا يحيى: هذا الغلام ليست له همة في الليل إلا البكاء، وفي النهار إلا الخلوة والوحدة، فقلت له: لا بد من أخذه منك ولك الثمن، وما عليك منه، فدعاه، فجاء وهو يتناعس، فقال: خذه بما شئت بعد أن تبرئني من عيوبه كلها، فاشتريته منه بعشرين ديناراً، وقلت له: ما اسمك؟ قال: ميمون، فأخذت بيده أريد المنزل، فالتفت إليَّ وقال: يا مولاي الصغير: لماذا اشتريتني، وأنا لا أصلح لخدمة المخلوقين؟

فقلت له: والله يا سيدي إنما اشتريتك لأخدمك بنفسي، قال: ولِمَ ذلك؟ فقلت: ألست صاحبنا البارحة بالمصلى؟ قال: بلى، وقد أطلعتَ على ذلك، قلت: نعم، وأنا الذي عارضتك البارحة في الكلام بالمصلى. قال: فجعل يمشي حتى أتى إلى مسجد، فاستأذنني ودخل المسجد، فصلى ركعتين خفيفتين، ثم رفع طرفه إلى السماء، وقال: إلهي وسيدي ومولاي، سرٌ كان بيني وبينك أطلعت عليه غيرك، فكيف يطيب الآن عيشي. أقسمت عليك بك إلا ما قبضتني إليك الساعة، ثم سجد، فانتظرته ساعة، فلم يرفع رأسه، فجئت إليه وحركته، فإذا هو قد مات رحمة الله تعالى عليه.

قال: فمددت يديه ورجليه، فإذا هو ضاحك مستبشر، وقد غلب البياض على السواد ووجهه كالقمر ليلة البدر، وإذا شاب قد دخل من الباب، وقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أعظم الله أجورنا وأجوركم في أخينا ميمون، هاكم الكفن، فناولني ثوبين ما رأيت مثلهما قط، فغسلناه وكفناه فيهما ودفناه. قال مالك بن دينار: فبقبره

(١) المكاتب ج مكتب وكانت تطلق على أمكنة تعليم الأولاد.
(٢) قَوَّمْتُ: قَدَّرْتُ قِيمَةَ شَيْءٍ.

(١) نقفوا أثره: نتابعه عن بعد.
(٢) النّخاس: بائع الرقيق.

نستسقي إلى الآن، ونطلب الحوائج من الله تعالى رحمة الله عليه.

وحكى عن حذيفة المرعشي رضي الله عنه، وكان خدم إبراهيم الخواص[1] رضي الله عنه وصحبه مدة، فقيل له: ما أعجب ما رأيت منه؟ فقال: بقينا في طريق مكة أياماً لم نأكل طعاماً، فدخلنا الكوفة، فأوينا إلى مسجد خرب، فنظر إليّ إبراهيم وقال: يا حذيفة أرى بك أثر الجوع، فقلت: هو كما ترى، فقال: عليّ بدواة وقرطاس، فأحضرتهما إليه، فكتب بسم الله الرحمن الرحيم، أنت المقصود بكل حال، والمشار إليه بكل معنى ثم قال:

أنا حامدٌ أنا شاكرٌ أنا ذاكرٌ
أنا جائعٌ أنا ضائعٌ أنا عاري
هي ستةٌ وأنا الضمين لنصفها
فكن الضمينَ لنصفها يا باري
مدحي لغيرك لهبُ نارٍ خضتها
فأجِرْ عبيدك من لهيب النار

قال حذيفة: ثم دفع إليّ الرقعة، وقال: اخرج بها ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى، وادفعها إلى أول من يلقاك، قال: فخرجت، فأول من لقيني رجل على بغلة، فناولته الرقعة، فأخذها، فقرأها وبكى، وقال: ما فعِلَ بصاحب هذه الرقعة؟

قلت: هو في المسجد الفلاني، فدفع إليّ صرة فيها ستمائة درهم، فأخذتها ومضيت، فوجدت رجلاً، فسألته من هذا الراكب على البغلة؟ فقال: هو رجل نصراني، قال: فجئت إبراهيم وأخبرته بالقصة، فقال: لا تمس الدراهم، فإن صاحبها يأتي الساعة، فلما كان بعد الساعة أقبل النصراني راكباً على بغلته، فترجل على باب المسجد، ودخل، فأكب على إبراهيم يقبل رأسه ويديه ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال: فبكى إبراهيم الخواص فرحاً به وسروراً، وقال الحمد لله الذي هداك للإسلام وشريعة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

وحكي أن بعضهم كان ملاّحاً ببحر النيل المبارك بمصر، قال: كنت أُعَدّي[2] من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي، ومن الشرقي إلى الجانب الغربي، فبينما أنا ذات يوم في الزورق إذا بشيخ مشرق الوجه عليه مهابة، فقال: السلام عليكم، فرددت عليه السلام، فقال: أتحملني إلى الجانب الغربي لله تعالى، فقلت: نعم، فطلع إلى الزورق وعديت به إلى الجانب الغربي، وكان على ذلك الفقير مرقعة وبيده ركوة وعصا، فلما أراد الخروج من الزورق قال: إني أريد أن أحملك أمانة، قلت وما هي؟ قال: إذا كان غداً وقت الظهر تجدني عند تلك الشجرة ميتاً وستنسى، فإذا أُلْهِمْتَ، فأتني وغسلني وكفني في الكفن الذي تجده عند رأسي، وصلِّ عليّ وادفني تحت الشجرة، وهذه المرقعة والعصا والركوة يأتيك من يطلبها منك، فادفعها إليه، ولا تحتقره.

قال الملاح: ثم ذهب وتركني، فتعجبت من قوله، وبت تلك الليلة، فلما أصبحت انتظرت الوقت الذي قال لي، فلما جاء وقت الظهر نسيت، فما تذكرت إلا قريب العصر، فسرت بسرعة، فوجدته تحت الشجرة ميتاً ووجدت كفناً جديداً عند رأسه تفوح منه رائحة المسك، فغسلته وكفنته فلما فرغت من غسله حضر عندي جماعة عظيمة لم أعرف منهم أحداً فصلينا عليه، ودفنته تحت الشجرة، كما عهد إليّ ثم عدت إلى الجانب الشرقي، وقد دخل الليل، فنمت.

فلمّا طلع الفجر وبانت الوجوه إذ أنا بشاب قد أقبل عليّ، فحققت النظر في وجهه، فإذا هو من صبيان الملاهي كان يخدمهم، فأقبل وعليه ثياب رقاق، وهو مخضوب الكفين وَطَارُهُ تحت إبطه، فسلم عليّ، فرددت عليه السلام، فقال: يا ملاح أنت فلان بن فلان. قلت نعم. قال: هات الوديعة التي عندك. قلت: من أين لك هذا[1]؟ قال: لا تسأل، فقلت لا بد أن تخبرني، فقال لا أدري. إلا أني البارحة كنت في عرس فلان التاجر، فسهرنا نرقص ونغني إلى أن ذكر الله الذاكرون على المآذن، فنمت لأستريح، وإذا برجل قد أيقظني وقال: إن الله تعالى قد قبض فلاناً الولي وأقامك مقامه، فسر إلى فلان بن فلان صاحب الزورق، فإن الشيخ أودع لك عنده كيت وكيت، قال: فدفعتها له، فخلع أثوابه الرقاق ورمى بها في الزورق، وقال: تصدق بها على من شئت، وأخذ

---

(١) قد تقدمت ترجمته في الفصل السابق.

(٢) أي كان يعمل على مَعَدِّيَةٍ لنقل الركاب من ضفة النهر إلى الضفة الأخرى إذ لم يكن هناك جسور يعبرها الناس فوق النهر.

(١) أي أنت معروف بأنك من أهل الملاهي والطار تحت إبطك يزيد المرء علماً بعملك فكيف جئت تطلب شيئاً هو لأحد العبّاد الصالحين؟

الركوة والعصا ولبس المرقعة وسار، وتركني أتحرق وأبكي لما حرمت من ذلك، وأقمت يومي ذلك أبكي إلى الليل، ثم نمت فرأيت رب العزة جل جلاله في النوم، فقال: يا عبدي أثقل عليك إن مننت على عبد عاص بالرجوع إليَّ، إنما ذلك فضلي أوتيه من أشاء من عبادي، وأنا ذو الفضل العظيم.

وحكى أبو إسحاق الصعلوكي قال: خرجت سنة إلى الحج، فبينما أنا في البادية تائه، وقد جن الليل وكانت ليلة مقمرة إذ سمعت صوت شخص ضعيف يقول: يا أبا إسحاق قد انتظرتك من الغداة، فدنوت منه فإذا هو شاب نحيف الجسم قد أشرف على الموت، وحوله رياحين كثيرة منها ما أعرف ومنها ما لا أعرف، فقلت له: من أنت، ومن أين أنت؟ قال: من مدينة شمشاط كنت في عزة ورفعة، فطالبتني نفسي بالغربة والعزلة، فخرجت، وقد أشرفت الآن على الموت فدعوت الله تعالى أن يقيض لي ولياً من أوليائه وأرجو أن تكون أنت هو.

فقلت: ألك حاجة؟ قال: نعم لي والدة وأخوة وأخوات، فقلت: هل اشتقت إليهم قط؟ قال: لا. إلا اليوم اشتقت أن أشم ريحهم، فهممت أريدهم فاحتوشتني السباع[1] والهوام وبكين معي، وحملوا إليَّ هذه الرياحين التي تراها.

قال أبو إسحاق: فبينما أنا معه يرق له قلبي وإذا بحية عظيمة في فمها باقة نرجس كبيرة، فقالت: دع ولي الله تعالى، فإن الله يغار على أوليائه، قال: فغشي عليه، وغشي عليَّ، فما أفقت إلا وهو قد خرجت روحه رحمه الله، قال: فدخلت مدينة شمشاط بعدما حججت فاستقبلتني امرأة بيدها ركوة ما رأيت أشبه بالشاب منها، فلما رأتني نادت: يا أبا إسحاق ما شأن الشاب الغريب الذي مات غريباً، فإني منتظرتك منذ كذا[2]؟

فذكرت لها القصة إلى أن قلت لها أشم ريحهم، فصاحت أواه أواه قد بلغ والله الشم، ثم شهقت شهقة خرجت روحها فخرج إليها بنات أتراب عليهن مرقعات ومروط[3]، فكفلن أمرها وتولين دفنها وهن مستترات رضوان الله على الجميع.

(شعر):

(١) احتوشتني السباع: اجتمعت حولي وأحاطت بي.

(٢) منذ كذا: أي وذكرت له مدة معينة.

(٣) المروط ج مرط وهو نوع من أثواب النساء.

يا نسيماً هبَّ من وادي قبا
خبريني كيف حال الغربا
كم سألت الدهر أن يجمعنا
مثل ما كنا عليه فأبى

وحكي أن رجلاً كان يعرف بدينار العَيَّار[1] وكان له والدة صالحة تعظه وهو لا يتعظ، فمر في بعض الأيام بمقبرة، فأخذ منها عظماً، فتفتت في يده، ففكر في نفسه وقال: ويحك يا دينار كأني بك وقد صار عظمك هكذا رفاتاً والجسم تراباً، فندم على تفريطه وعزم على التوبة، ورفع رأسه إلى السماء وقال: إلهي وسيدي ألقيت إليك مقاليد أمري فاقبلني وارحمني.

ثم أقبل نحو أمه متغير اللون منكسر القلب، فقال: يا أماه ما يصنع بالعبد الآبق[2] إذا أخذه سيده؟ قالت: يخشن ملبسه ومطعمه ويغل يديه وقدميه، فقال: أريد جبة من صوف وأقراصاً من شعير، وغلِّين وافعلي بي كما يفعل بالعبد الآبق لعل مولاي يرى ذلي فيرحمني ففعلت به ما أراد، فكان إذا جَنَّ عليه الليل أخذ في البكاء والعويل ويقول لنفسه: ويحك يا دينار ألك قوة على النار؟ كيف تعرضت لغضب الجبار، ولا يزال كذلك إلى الصباح.

فقالت له أمه: يا بني أرفق بنفسك، فقال: دعيني أتعب قليلاً لعلي أستريح طويلاً، يا أماه إن لي غداً موقفاً طويلاً بين يدي رب جليل ولا أدري أيؤمر بي إلى ظل ظليل أو إلى شر مقيل، قالت: يا بني خذ لنفسك راحة، قال: لست للراحة أطلب، كأنك يا أماه غداً بالخلائق يساقون إلى الجنة وأنا أساق إلى النار مع أهلها، فتركته وما هو عليه.

فأخذ في البكاء والعبادة وقراءة القرآن، فقرأ في بعض الليالي ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾[3]. ففكر فيها وجعل يبكي حتى غشي عليه، فجاءت أمه إليه، فنادته، فلم يجبها، فقالت له: يا حبيبي وقرة عيني أين الملتقى؟ فقال بصوت ضعيف يا أماه: إن لم تجديني في عرصات[4] القيامة، فاسألي مالكاً خازن النار عني، ثم شهق شهقة، فمات رحمه الله تعالى.

فغسلته أمه وجهزته، وخرجت تنادي: أيها الناس هلموا

(١) العيارون: نوع من أنواع اللصوص.

(٢) العبد الآبق: العبد العاصي الفار من سيدة.

(٣) سورة الحجر، الآيتان (٩٢ ـ ٩٣).

(٤) العرصات ج عرصة وهي الأرض لا بناء فيها.

إلى الصلاة على قتيل النار، فجاء الناس من كل جانب، فلم ير أكثر جمعاً ولا أغزر دمعاً من ذلك اليوم فلما دفنوه نام بعض أصدقائه تلك الليلة، فرآه يتبختر في الجنة وعليه حلة خضراء، وهو يقرأ الآية ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾[1]، ويقول: وعزته وجلاله سألني ورحمني وغفر لي وتجاوز عني ألا أخبروا عني والدتي بذلك.

وحكي عن الحسن البصري قال: نزل سَائِلٌ[2] بمسجد، فسأل الناس أن يطعموه كسرة، فلم يطعموه، فقال الله تعالى لملك الموت: اقبض روحه، فإنه جائع، فقبض روحه، فلما جاء المؤذن رآه ميتاً، فأخبر الناس بذلك، فتعاونوا على دفنه، فلما دخل المؤذن المسجد وجد الكفن في المحراب مكتوباً عليه: هذا الكفن مردود عليكم بئس القوم أنتم استطعمكم فقير، فلم تطعموه حتى مات جوعاً، من كان من أحبابنا لا نَكِلُهُ إلى غيرنا.

وحكى أبو علي المصري قال: كان لي جار شيخ يغسل الموتى فقلت له يوماً: حدثني أعجب ما رأيت من الموتى، فقال: جاءني شاب في بعض الأيام مليح الوجه حسن الشباب، فقال لي: أتغسل لنا هذا الميت؟ قلت: نعم. فتبعته حتى أوقفني على باب، فدخل هنيهة، فإذا بجارية هي أشبه الناس بالشاب قد خرجت وهي تمسح عينيها، فقالت: أنت الغاسل؟ قلت: نعم. قالت: بسم الله أدخل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فدخلت الدار وإذا أنا بالشاب الذي جاءني يعالج سكرات الموت، وروحه في لبته، وقد شخص بصره، وقد وضع كفنه وحنوطه عند رأسه، فلم أجلس إليه حتى قبض، فقلت: سبحان الله هذا ولي من أولياء الله تعالى حيث عرف وقت وفاته، فأخذت في غسله، وأنا أرتعد، فلما أدرجته أتت الجارية وهي أخته، فقبلته، وقالت: أما إني سألحق بك عن قريب، فلما أردت الانصراف شكرت لي، وقالت: أرسل إلي زوجتك إن كانت تحسن ما تحسنه أنت، فارتعدتُ من كلامها وعلمت أنها لاحقة به.

فلما فرغت من دفنه جئت أهلي فقصصت عليها القصة وأتيت بها إلى تلك الجارية، فوقفت بالباب واستأذنت، فقالت: بسم الله تدخل زوجتك، فدخلت زوجتي وإذا بالجارية مستقبلة القبلة وقد ماتت، فغسلتها زوجتي

---

(١) سورة الحجر، الآيتان (٩٢ ـ ٩٣).
(٢) سائل: فقير يتكفف أيدي الناس.

وأنزلتها على أخيها رحمة الله عليهما.

(شعر):

أأحبابَنا بنتم عن الدار فاشتكتْ
لِبُعدكُم آصالها وضحاها[1]

وفارقتم الدار الأنيسة فاستوتْ
رسومُ مبانيها وفاح كلاها[2]

كأنكُم يوم الفراق رحلتم
بنومي فعيني لا تصيبُ كراها[3]

وكنت شحيحاً من دموعي بقطرةٍ
فقد صرت سمحاً بعدكم بدماها

يراني بسّاماً خليلي يظنّ بي
سروراً وأحشائي السّقام ملاها

وكم ضحكةٍ في القلب منها حرارة
يشبّ لظاها لو كشفت غطاها[4]

رعى الله أياماً بطيب حديثكم
تقضّت وحيّاها الحيا وسقاها[5]

فما قلت إيهاً بعدها لمسامرٍ
من الناس إلا قال قلبي آها[6]

وحكي سري السقطي رحمه الله تعالى قال: أرقت ليلة ولم أقدر على النوم فلما طلع الفجر صليت، فلما أصبحت دخلت المارستان[7] فإذا أنا بجارية مقيدة مغلولة[8] وهي تقول:

تُغَلُّ يدي إلى عنقي
وما خانت وما سرقتْ

وبين جوانحي كَبِدٌ
أحسّ بها قد احترقت

---

(١) بنتم من البين وهو البعد وآصال ج أصيل وهو قبيل الغروب بقليل.
(٢) استوت رسوم مبانيها: لم يعد فيها شيء يعجب العين، فاح كلاها: فاحت رائحة أعشابها.
(٣) كَرَاهَا: نعاسها.
(٤) يشب لظاها: تشتعل نيرانها ويرتفع لهيبها.
(٥) الحيا: المطر الخفيف تشربه التربة فتحييها.
(٦) المسامر: زائر المساء يُحدِّث بالأحاديث والأخبار المسلية.
(٧) المارستان: المستشفى وأكثر ما تطلق على مستشفى المجانين أما المستشفيات العادية فتسمى: البيمارستان أو المشفى.
(٨) أي قيدت رجلاها بالسلاسل وجعل في عنقها طوق من حديد مشدود إلى سلسلة.

قال، فقلت للقيم[1]: ما هذه الجارية؟ قال: هذه جارية اختلّ عقلها، فحبست لعلها تصلح، فلما سمعت كلامه تبسمت وقالت:

معشر الناس ما جننت ولكنْ
أنا سكرانةٌ وقلبيَ صاحي
لمْ غلَلْتُم يدي ولم آت ذنباً
غير هتكي في حبّه وافتضاحي
أنا مفتونةٌ بحبِّ حبيبِ
لست أبغي عنْ بابه من براحِ[2]
ما على من أحَبُّ مولى الموالي
وارتضاه لنفسه من جناح[3]

قال: فلما سمعت كلامها بكيت بكاءاً شديداً، فقالت: يا سري هذا بكاؤك من الصفة، فكيف لو عرفته حق المعرفة؟ قال: فبينما هي تكلمني إذ جاء سيدها، فلما رآني عظمني، فقلت: والله هي أحق مني بالتعظيم، فلِمَ فعلت بها هذا؟ قال: لتقصيرها في الخدمة، وكثرة بكائها وشدة حنينها وأنينها كأنها ثكلى[4] لا تنام ولا تدعنا ننام، وقد اشتريتها بعشرين ألف درهم لصناعتها فإنها مطربة، قلت: فما كان بدء أمرها؟ قال: كان العود في حجرها يوماً، فجعلت تقول:

وحقّكَ لا نقضتُ الدّهرَ عهداً
ولا كدّرت بعد الصفو ودّا
ملأتَ جوانحي والقلب وجداً
فكيف أقرّ يا سكني وأهدا
فيا من ليس لي مولىً سواهُ
تُراك رضيتني بالباب عبدا

فقلت لسيدها: أطلقها وعليّ ثمنها، فصاح وافقراه من أين لك عشرون ألفاً يا سري؟ فقلت: لا تعجل عليّ، فقال: تكون في المارستان حتى توفيني ثمنها، فقلت: نعم، قال سري: فانصرفت وعيني تدمع وقلبي يخشع، وأنا والله ما عندي درهم من ثمنها، فبت طول ليلتي أتضرع إلى الله تعالى، فإذا بطارق يطرق الباب، ففتحت، فدخل عليّ رجل ومعه ستة من الخدم ومعهم خمس بدر[5]، فقال: أتعرفني يا سري؟ قلت: لا، قال: أنا أحمد بن المثنى كنت نائماً، فهتف بي هاتف وقال لي: يا أحمد هل لك في معاملتنا؟ فقلت: ومن أولى مني بذلك؟ فقال: احمل إلى سري السقطي خمس بدر من أجل الجارية الفلانية، فإن لنا بها عناية، قال سري: فسجدت لله شكراً وجلست أتوقع طلوع الفجر، فلما طلع صلينا وذكرنا، وانصرفنا نحوها، فسمعناها تقول:

قد تصبّرت إلى أنْ
عيل من حبّك صبري[1]
ضاق من غلّي وقيدي
وامتهاني منك صدري
ليس يخفى عنك أمري
يا منى قلبي وذخري
أنت قد تُعتِقُ رِقّي
وتفكُّ اليوم أسري

قال سري: فبينما أنا أسمعها، وإذا بمولاها قد جاء وهو يبكي، فقلت: لا بأس عليك قد جئناك برأس مالك وربح عشرة آلاف درهم، فقال: والله لا فعلت ذلك. قلت: نزيدك. قال: والله لو أعطيتني ما بين الخافقين[2] ما فعلت، وهي حرة لوجه الله تعالى، فقال: فتعجبت من ذلك، وقلت: ما كان هذا كلامك بالأمس، فقال: حبيبي لا توبخني فالذي وقع لي من التوبيخ كفاني، وأشهدك أني قد خرجت من جميع مالي صدقة في سبيل الله تعالى، وإني هارب إلى الله تعالى، فبالله لا تردني عن صحبتك، فقلت نعم. ثم التفت، فرأيت صاحب المال يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ قال: يا أستاذي ما قبلني مولاي لما ندبني إليه ورد عليّ ما بذلت أشهدك أني قد خرجت من جميع ما أملكه لله تعالى في سبيل الله، وكل عبد أملكه وجارية أحرار لوجه الله تعالى.

قال سري: فقلت: ما أعظم بركتك يا جارية. قال: فنزعنا الغل من عنقها، والقيد من رجلها، وأخرجناها من المارستان، فنزعت ما كان عليها من ناعم الثياب، ولبست خماراً من صوف ومُدَرَّعة[3] من شعر وولت، وقال

(١) القيم: المسؤول أو القائم على أمور المستشفى.
(٢) البراح: المبارحة أي ترك المكان ومغادرته.
(٣) ما عليه من جناح: ما عليه ذنب ولا عتب.
(٤) الثكلى: المرأة التي فقدت ولدها.
(٥) بدر ج بدرة وهي كيس لحفظ المبالغ الكبيرة من النقد.

(١) عيل صبري: زاد عن حد الاحتمال.
(٢) ما بين الخافقين: أي ما بين المشرق والمغرب والمراد لو أعطيتني مال الدنيا.
(٣) المدرعة: ثوب مفتوح من الأمام كالقمصلة إلا أنه طويل يلبس فوق الثياب.

سري: فتوجهت أنا ومولاها وصاحب المال إلى مكة، فبينما نحن نطوف إذ سمعنا صوتاً، فتبعناه فإذا هي امرأة كالخيال، فلما رأتني قالت: السلام عليك يا سري، فقلت لها: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته مَنْ أنتِ؟ فقالت: لا إله إلا الله وقع الشك بعد المعرفة، فتأملتها، فإذا هي الجارية، فقلت لها: ما الذي أفادك الحق بعد انفرادك عن الخلق؟

فقالت: أنسي به ووحشتي من غيره، ثم توجهت إلى البيت، وقالت: إلهي كم تخلفني في دار لا أرى فيها أنيساً، قد طال شوقي، فعجل قدومي عليك، ثم شهقت شهقة وخرّت ميتة رحمة الله تعالى عليها، فلما نظر إليها مولاها بكى وجعل يدعو ويضعف كلاماً إلى أن خرّ إلى جانبها ميتاً، رحمة الله عليه، فدفناهما في قبر واحد.

شعر:

بحرمة ما قد كان بيني وبينكم
من الودّ إلا ما رجعتم إلى وصلي
ولا تحرموني نظرةً من جمالكم
فلن تجدوا عبداً ذليلاً لكم مثلي
فوالله ما يهوي فؤادي سواكمُ
ولو رشقوه بالأسنة والنبل

وحكي أنه كان في زمن بني إسرائيل رجل من العباد الموصوفين بالزهد، وكان قد سخر الله له سحابة تسير معه حيث يسير، فاعتراه فتور في بعض الأيام، فأزال الله عنه سحابته وحجب إجابته، فكثر لذلك حزنه وشجونه، وطال كمده وأنينه، وما زال يشتاق إلى زمن الكرامة ويبكي ويتأسف ويتحسر ويتلهف، فقام ليلة من الليالي، فصلى ما شاء الله وبكى وتضرّع[1] ودعا الله تعالى ونام.

فقيل له في المنام: إذا أردت أن يرد الله تعالى عليك سحابتك، فائتِ الملك الفلاني في بلد كذا واسأله أن يدعو الله لك أن يرد عليك سحابتك، قال: فسار الرجل يقطع الأرض حتى وصل إلى تلك البلد التي ذكرت له في المنام، فدخلها وسأل من يرشده إلى قصر الملك، فجاء إلى القصر وإذا عند بابه غلام جالس على كرسي عظيم من الذهب الأحمر مرصع بالدر والجوهر والناس بين يديه يسألونه حوائجهم، وهو يصرف الناس، فوقف الرجل الصالح بين يديه وسلم عليه، فقال له الغلام: من أين أنت، وما حاجتك؟ فقال من بلاد بعيدة، وقصدي

(١) تضرّع: رفع صوته بالبكاء والدعاء معاً.

الاجتماع بالملك، فقال له الغلام: لا سبيل لك اليوم، فسل حاجتك أقْضِهَا لك إن استطعت، فقال: إن حاجتي لا يقضيها إلا الملك، فقال الغلام: إن الملك ليس له إلا يوم واحد في الجمعة يجتمع إليه الناس فيه، فاذهب حتى يأتي ذلك، فانصرف الرجل إلى مسجد داثر[1]، وأقام يعبد الله تعالى فيه، وأنكر على الملك لاحتجابه عن الناس، فلما كان ذلك اليوم الذي يجلس فيه الملك جاء إلى القصر، فوجد خلقاً كثيراً عند الباب ينتظرون الإذن، فوقف مع جملة الناس.

فلما خرج الوزير أذن للناس في الدخول، فدخل أرباب الحوائج، ودخل صاحب السحابة معهم، وإذا بالملك جالس وبين يديه أرباب دولته على قدر مراتبهم، فجعل رأس النوبة يقدم الناس واحداً بعد واحد حتى وصلت النوبة لصاحب السحابة، فلما نظر إليه الملك قال: مرحباً بصاحب السحابة، اجلس حتى أفرغ من حوائج الناس، وأنظر في أمرك. قال: فتحير صاحب السحابة في أمره، فلما فرغ الملك من حوائج الناس قام من مجلسه، فأخذ بيد صاحب السحابة وأدخله معه إلى قصره، ثم مشى به في دهليز القصر، فلم يجد في طريقه إلا مملوكاً واحداً، فسار به حتى انتهى إلى باب من جريد، وإذا به بناء مهدوم وحيطان مائلة، وبيت خرب فيه برش[2] وليس هناك ما يساوي عشرة دراهم إلا سَجّادة خلقة. وقدح للوضوء وحصيرة رثة وشيء من الخوص[3] فانخلع الملك من ثياب الملك، ولبس مرقعة من صوف وجعل على رأسه قلنسوة من شعر، ثم جلس وأجلس صاحب السحابة، ونادى يا فلانة، قالت: لبيك. قال: أتدرين من هو الليلة ضيفنا؟ قالت: نعم صاحب السحابة، فدعا بها لحاجة، فخرجت، فإذا هي امرأة كالشن البالي[4] عليها مِسْحٌ من شعر خشن[5]، وهي شابة صغيرة، قال الرجل: فالتفت إلى الملك، وقال يا أخي نطلعك على حالنا، أو نقضي حاجتك وتنصرف.

فقلت: والله لقد شغلني حالكما عما جئت بسببه، فقال الملك: الله يعلم أنه كان لي في هذا الأمر آباء كرام صالحون يتوارثون المملكة كابراً عن كابر، فلما توفوا إلى

(١) مسجد داثر: أي مسجد خَرِب.
(٢) البرش: دكة من حجر مرتفعة قليلاً للنوم.
(٣) الخوص: ورق النخل.
(٤) الشن البالي: القربة من الجلد القديم.
(٥) المسح: ثوب طويل من صوف أو شعر يرتديه النساك.

رحمة الله تعالى، ووصل الأمر إليّ بغُص الله إليّ الدنيا وأهلها فأردت أن أسيح في الأرض[1] وأترك الناس ينظرون لهم من يسوس[2] أمرهم، فيملكونه عليهم، فخفت عليهم دخول الفتنة، وتضييع الدين، والشرائع، وتبديل شمل الدين فبايعوني وأنا والله كاره، فتركت أمورهم على ما كانت عليه، وجعلت السِّمَاط على عادته، والحراس على حالها، والمماليك على دأبها، ولم أغيِّر شيئاً، وأقعدت المماليك على الأبواب بالسلاح إرهاباً لأهل الشرور وردعاً عن أهل الخير وتركت القصر مزيناً على حاله وفتحت له باباً وهو الذي رأيته يوصلني إلى هذه الخربة، فأدخل فيها وأنزع ثياب الملك وألبس هذا، وأضفر الخوص وأبيعه، وأتقوت من ثمنه أنا وزوجتي هذه التي رأيتها هي ابنة عمي زهدت في الدنيا كزهدي واجتهدت حتى صارت كالشن البالي، والناس لا يعلمون ما نحن فيه ثم إني أقمت لي نائباً ينوب عني طول الجمعة، وعلمت أني مسؤول، فجعلت لي يوماً في الجمعة أبرز للناس فيه وأكشف مظالمهم كما رأيت، وأنا على هذه الحالة مدة، فأقم عندنا يرحمك الله حتى نبيع خويصاتنا ونبتاع من ثمنها طعاماً وتفطر معنا، وتبيت عندنا الليلة ثم تنصرف بحاجتك إن شاء الله تعالى.

فلما كان آخر النهار دخل علينا غلام خماسي العمر، فأخذ ما عملاه من خوص وسار به إلى السوق، فباعه واشترى من ثمنه خبزاً وفولاً واشترى بباقي ثمنه خوصاً، فلما كان عند الغروب أفطرا وأفطرت معهما وبت عندهما. قال: فقاما في نصف الليل يصليان ويبكيان، فلما كان السحر قال الملك: اللهم إن عبدك هذا يطلب منك رد سحابته وإنك قد دللته علينا، اللهم اردها عليه إنك على كل شيء قدير، والمرأة تؤمِّن على دعائه، وإذا بالسحابة قد طلعت من قبل السماء فقال لي: لك البشارة بقضاء حاجتك وتعجيل إجابتك. قال: فودعتهما وانصرفت والسحابة معي كما كانت، فأنا بعد ذلك لا أسأل الله تعالى بسرهما شيئاً إلا أعطاني إياه رحمة الله تعالى عليهما.

شعر:

استعمل الصبر تجني بعده العسلا
ولازِم البابَ حتى تبلُغَ الأملا
ومَرِّغِ الخدَّ في أعتابه سحراً
واحمل لمرضاته في الحبّ كلَّ بلا
فما يفوز بوصلٍ يا أخيَّ سوى
صَبٌّ لثقل الهوى والوجد قد حملا
هذا الحبيب ينادي في الدّجى سحراً
فانهض وكن رجلاً بالسعي قد وصلا

وحكي عن مالك بن دينار[1] رحمه الله تعالى قال: خرجت إلى مكة حاجاً، فبينما أنا سائر إذ رأيت شاباً ساكتاً لا يذكر الله تعالى، فلما جن الليل رفع وجهه نحو السماء وقال: يا من لا تسره الطاعات، ولا تضره المعاصي، هب لي ما لا يسرك، واغفر لي ما لا يضرك. ثم رأيته بذي الحليفة وقد لبس إحرامه والناس يلبون وهو لا يلبي، فقلت هذا جاهل، فدنوت منه، فقلت له يا فتى، قال: لبيك، قلت له: لِمَ لا تلبي؟ فقال يا شيخ: وما تغني التلبية، وقد بارزته بذنوب سالفات وجرائم مكتوبات، والله أني لأخشى أن أقول لبيك، فيقول لا لبيك ولا سعديك لا أسمع كلامك، ولا أنظر إليك، فقلت له: لا تقل ذلك، فإنه حليم إذا غضب رضي، وإذا رضي لم يغضب، وإذا وعد وفى ومتى توعَّد عفا، فقال يا شيخ أتشير عليَّ بالتلبية؟ قلت: نعم، فبادر إلى الأرض واضطجع ووضع خده على التراب وأخذ حجراً فوضعه على خده الآخر، وأسبل دموعه وقال: لبيك اللهم لبيك قد خضعت لك وهذا مصرعي بين يديك، فأقام كذلك ساعة، ثم مضى، فما رأيته إلا بمنى وهو يقول: اللهم إن الناس ذبحوا ونحروا، وتقربوا إليك، وليس لي شيء أن أتقرب به سوى نفسي، فتقبلها مني ثم شهق شهقة وخرّ ميتاً رحمة الله تعالى عليه.

وحكي أنه كان بمدينة بغداد رجل يعرف بأبي عبد الله الأندلسي، وكان شيخاً لكل من بالعراق وكان يحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ﷺ، وكان يقرأ بجميع الروايات، فخرج في بعض السنين إلى السياحة، ومعه جماعة من أصحابه مثل الجنيد والشبلي وغيرهما من مشايخ العراق. قال الشبلي: فلم نزل في خدمته، ونحن مكرمون بعناية الله تعالى إلى أن وصلنا إلى قرية من قرى الكفار فطلبنا ماء نتوضأ به، فلم نجد، فجعلنا ندور بتلك القرية، وإذا نحن بكنائس وبها شمامسة، وقساوسة

(١) أسيح في الأرض: أطوف الأرض متعبداً لله.
(٢) يسوس الناس: يقوم بسياستهم، أي يدبِّر أمورهم.

(١) من رواة الحديث، كان ورعاً يعيش من كد يمينه ويعمل في كتابة المصاحف، توفي في البصرة عام ١٣١ للهجرة.

ورهبان، وهم يعبدون الأصنام، والصلبان، فتعجبنا منهم ومن قلة عقلهم.

ثم انصرفنا إلى بئر في آخر القرية، وإذ نحن بِجَوَارٍ يستقين الماء على البئر وبينهن جارية حسنة الوجه ما فيهن أحسن ولا أجمل منها وفي عنقها قلائد الذهب.

فلما رآها الشيخ تغير وجهه، وقال: هذه ابنة مَنْ؟ فقيل له: هذه ابنة ملك هذه القرية، فقال الشيخ: فلِمَ لا يدللها أبوها ويكرمها ولا يدعها تستقي الماء؟ فقيل له: أبوها يفعل ذلك بها حتى إذا تزوجها رجل أكرمته وخدمته ولا تعجبها نفسها، فجلس الشيخ ونكس رأسه، ثم أقام ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب، ولا يكلم أحداً، غير أنه يؤدي الفريضة، والمشايخ واقفون بين يديه، ولا يدرون ما يصنعون، قال الشبلي: فتقدمت إليه، وقلت له: يا سيدي إن أصحابك ومريديك يتعجبون من سكوتك ثلاثة أيام وأنت ساكت لم تكلم أحداً، قال: فأقبل علينا، وقال: يا قوم: إعلموا أن الجارية التي رأيتها بالأمس قد شغفت بها حباً، واشتغل بها قلبي، وما بقيت أقدر أفارق هذه الأرض.

قال الشبلي، فقلت يا سيدي: أنت شيخ أهل العراق ومعروف بالزهد في سائر الآفاق، وعدد مريديك اثنا عشر ألفاً، فلا تفضحنا وإياهم بحرمة الكتاب العزيز. فقال يا قوم: جرى القَلَم بما حَكَم، ووقعت في بحار العَدَم وقد انحلت عني عرى الولاية، وطويت عني أعلام الهِدَايَة، ثم إنه بكى بكاء شديداً، وقال يا قوم: انصرفوا، فقد نفذ القضاء والقدر، فتعجبنا من أمره، وسألنا الله تعالى أن يجيرنا من مكره، ثم بكينا وبكى حتى أروى التراب.

ثم انصرفنا عنه راجعين إلى بغداد، فخرج الناس إلى لقائه، ومريدوه في جملة الناس، فلم يروه، فسألوا عنه، فعرفناهم بما جرى، فمات من مريديه جماعة كثيرة حزناً عليه وأسفاً، وجعل الناس يبكون ويتضرعون إلى الله تعالى أن يرده عليهم وغلقت الرباطات، والزوايا والخوانق، ولحق الناس حزن عظيم فأقمنا سنة كاملة، وخرجت مع بعض أصحابي نكشف خبره، فأتينا القرية، فسألنا عن الشيخ، فقيل لنا: إنه في البرية يرعى الخنازير، قلنا: وما السبب في ذلك؟ قالوا: إنه خطب الجارية من أبيها، فأبى أن يزوجها إلا ممن هو على دينها ويلبس العباءة ويشد الزنار، ويخدم الكنائس ويرعى الخنازير، ففعل ذلك كله، وهو في البرية يرعى الخنازير.

قال الشبلي: فانصدعت قلوبنا، وانهملت بالبكاء عيوننا، وسرنا إليه، وإذا به قائم قدام الخنازير، فلما رآنا نكس رأسه، وإذا عليه قلنسوة النصارى، وفي وسطه زنار، وهو متوكىء على العصا التي كان يتوكأ عليها إذا قام إلى المحراب، فسلمنا عليه، فرد علينا السلام، فقلنا: يا شيخ ما ذاك وماذا وما هذه الكروب والهموم بعد تلك الأحاديث والعلوم؟ فقال: يا إخواني وأحبابي ليس لي من الأمر شيء، سيدي تصرف في كيف شاء، وحيث أراد أبعدني عن بابه بعد إن كنت من جملة أحبابه، فالحذر الحذر يا أهل وداده من صده وإبعاده، والحذر الحذر يا أهل المودة والصفاء من القطيعة والجفاء، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: يا مولاي ما كان ظني فيك هذا، ثم جعل يستغيث ويبكي ونادي: يا شبلي اتعظ بغيرك.

فنادى الشبلي بأعلى صوته: بك المستعان وأنت المستغاث، وعليك التكلان. إكشف عنا هذه الغمة بحلمك، فقد دهمنا أمر لا كاشف له غيرك، قال: فلما سمعت الخنازير بكاءهم، وضجيجهم أقبلت إليهم وجعلت تمرغ وجوهها بين أيديهم وزعقت زعقة واحدة دويت منها الجبال.

قال الشبلي: فظننت أن القيامة قد قامت، ثم إن الشيخ بكى بكاء شديداً. قال الشبلي: فقلنا له هل لك أن ترجع معنا إلى بغداد؟ فقال: كيف لي بذلك، وقد استرعيت الخنازير بعد أن كنت أرعى القلوب؟ فقلت يا شيخ كنت تحفظ القرآن وتقرأه بالسبع فهل بقيت تحفظ منه شيئاً؟ فقال: نسيته كله إلا آيتين، فقلت: وما هما؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[1]. والثانية قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[2]. فقلت: يا شيخ كنت تحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ﷺ، فهل تحفظ منها شيئاً؟ قال: حديثاً واحداً، وهو قوله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه».

قال الشبلي: فتركناه، وانصرفنا، ونحن متعجبون من أمره، فسرنا ثلاثة أيام وإذا نحن به أمامنا قد تطهر من نهر وطلع، وهو يشهد شهادة الحق، ويجدد إسلامه، فلما رأيناه لم نملك أنفسنا من الفرح والسرور، فنظر إلينا، وقال: يا قوم اعطوني ثوباً طاهراً، فأعطيناه ثوباً، فلبسه،

---

(١) سورة الحج، الآية (١٨).

(٢) سورة البقرة، الآية (١٠٨).

ثم صلى وجلس، فقلنا له: الحمد لله الذي ردك علينا، وجمع شملنا بك، فصف لنا ما جرى لك، وكيف كان أمرك؟ فقال يا قوم: لما وليتم من عندي سألته بالوداد القديم، وقلت له يا مولاي أنا المذنب الجاني، فعفا عني بجوده، وبستره غطاني، فقلنا له: بالله نسألك هل كان لمحنتك من سبب؟ قال: نعم. لما وردنا القرية، وجعلتم تدورون حول الكنائس قلت في نفسي: ما قدر هؤلاء عندي، وأنا مؤمن مُوَحِّد، فنوديت في سري ليس هذا منك، ولو شئت عَرَّفناك، ثم أحسست بطائر قد خرج من قلبي، فكان ذلك الطائر هو الإيمان.

قال الشبلي: ففرحنا به فرحاً شديداً، وكان يوم دخولنا يوماً عظيماً مشهوداً، وفتحت الزوايا، والرباطات والخوانق، ونزل الخليفة للقاء الشيخ، وأرسل إليه الهدايا، وصار يجتمع عنده لسماع علمه أربعون ألفاً، وأقام على ذلك زماناً طويلاً ورد الله عليه ما كان نسيه من القرآن والحديث، وزاده على ذلك.

فبينما نحن جلوس عنده في بعض الأيام بعد صلاة الصبح، وإذا نحن بطارق يطرق باب الزاوية، فنظرت من الباب، فإذا شخص ملتف بكساء أسود، فقلت له: ما الذي تريد؟ فقال: قل لشيخكم إن الجارية الرومية التي تركتها بالقرية الفلانية قد جاءت لخدمتك.

قال: فدخلت فعرفت الشيخ، فاصفر لونه وارتعد، ثم أمر بدخولها، فلما دخلت عليه بكت بكاء شديداً، فقال لها الشيخ: كيف كان مجيئك، ومن أوصلك إلى ههنا؟

قالت: يا سيدي لما وليت من قريتنا جاءني من أخبرني بك، فبت ولم يأخذني قرار، فرأيت في منامي شخصاً وهو يقول: إن أحببت أن تكوني من المؤمنات، فاتركي ما أنت عليه من عبادة الأصنام، واتبعي ذلك الشيخ، وادخلي في دينه، فقلت: وما دينه؟ قال: دين الإسلام، قلت: وما هو؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فقلت: كيف لي بالوصول إليه؟ قال: اغمضي عينيك، واعطيني يدك، ففعلت، فمشى قليلاً، ثم قال: افتحي عينيك، ففتحتهما، فإذا أنا بشاطىء الدجلة، فقال: امضي إلى تلك الزاوية، واقرئي مني الشيخ السلام، وقولي له إن أخاك الخضر يسلم عليك، قال: فأدخلها الشيخ إلى جواره، وقال: تعبدي ههنا. فكانت أعبد أهل زمانها تصوم النهار وتقوم الليل حتى نحل جسمها، وتغير لونها، فمرضت مرض الموت، وأشرفت على الوفاة، ومع ذلك لم يرها الشيخ، فقالت: قولوا للشيخ يدخل عليَّ قبل الموت، فلما بلغ الشيخ ذلك دخل عليها، فلما رأته بكت، فقال لها: لا تبكي، فإن اجتماعنا غداً في القيامة في دار الكرامة، ثم انتقلت إلى رحمة الله تعالى، فلم يلبث الشيخ بعدها إلا أياماً قلائل حتى مات رحمة الله تعالى عليه.

قال الشبلي: فرأيته في المنام، وقد تزوج بسبعين حوراء وأول ما تزوج بالجارية، وهما مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، ذلك الفضل من الله، وكفى بالله عليماً. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثاني والثلاثون
في ذكر الأشرار والفجار
وما يرتكبون من الفواحش
والوقاحة والسفاهة

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«قبل قيام الساعة يرسل الله ريحاً باردة طيبة، فتقبض روح كل مؤمن ويبقى شرار الخلق يتهارجون تهارج الحمير، وعليهم تقوم الساعة». وقال مالك بن دينار** رحمه الله تعالى: كفى بالمرء شراً أن لا يكون صالحاً ويقع في الصالحين.

وقال لقمان لابنه: يا بني كذب من قال الشر يطفىء الشر، فإن كان صادقاً فليوقد نارين ثم ينظر هل تطفىء إحداهما الأخرى، وإنما يطفىء الشر الخيرُ كما يطفىء الماءُ النارَ. ووصف بعضهم رجلاً من أهل الشر فقال: فلان عَرِيَ من حلة التقوى ومحي عنه طابع الهدى، لا تثنيه يد المراقبة، ولا تكفه خيفة المحاسبة، وهو لدعائم دينه مضيع ولدواعي شيطانه مطيع.

شعر:

كأنه التيسُ قد أودى به هرمٌ
فلا لحمٌ ولا صوفٌ ولا ثمرُ

وقيل: مَن فعل ما شاء لقي ما ساء. وقيل: زنى رجل بجارية فأحبلها، فقالوا له: يا عدو الله هلاّ إذا ابتليت بفاحشة عزلت؟ قال: قد بلغني أن العزل مكروه، قالوا: فما بلغك أن الزنا حرام؟

وقيل لأعرابي كان يتعشق قينة: ما يضرك لو اشتريتها ببعض ما تنفق عليها، قال: فمن لي إذ ذاك بلذة الخلسة ولقاء المسارقة وانتظار الموعد.

وقال أبو العيناء: رأيت جارية مع النخاس وهي تحلف أن لا ترجع لمولاها، فسألتها عن ذلك، فقالت: يا سيدي إنه يواقعني من قيام، ويصلي من قعود، ويشتمني بإعراب، ويلحن في القرآن، ويصوم الخميس والاثنين، ويفطر رمضان، ويصلي الضُحى، ويترك الفرض. فقلت: لا أكثر الله في المسلمين مثله.

وكانت ظَلْمَةُ القوّادة وهي صغيرة في المكتب تسرق دويات الصبيان وأقلامهم، فلما شبت زنت، فلما كبرت قادت. وقال صاحب المسالك والممالك إن عامة ملوك الهند يرون الزنا مباحاً، خلا ملك قَمَار، قال الزمخشري رحمه الله: أقمت بقمار سنين، فلم أر ملكاً أغير منه، وكان يعاقب على الزنا وشرب الخمر بالقتل. وقمار ينسب إليها العود القماري كما ينسب إلى مندل، قال مسكين الدارمي:

ولا ذنبَ للعودِ القماريِّ إنّه
يُحرّق إن نمَّتْ عليه روائحه[1]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: عهدت الناس وهواهم تبع لأديانهم، وإن الناس اليوم أديانُهم تبعٌ لأهوائهم. وقال رسول الله ﷺ: «حسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

ما جاء في الوقاحة والسفاهة وذكر الغوغاء:

قال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت»، وفي ذلك قيل:

إذا لم تصنْ عرضاً ولم تخشَ خالقاً
وتستحِ مخلوقاً فما شئت فاصنع

وقال ابن سلام: العاقل شجاع القلب والأحمق شجاع الوجه. وذم رجل قوماً، فقال: وجوههم وأيديهم حديد أي وقاح بخلاء. ووصف رجل وقحاً فقال: لو دق الحجارة بوجهه لرضها ولو خلا بأستار الكعبة لسرقها.

قال الشاعر:

لو أن لي من جلد وجهك رقعةً
لجعلت منها حافراً للأشهب[2]

(١) نمت عليه: أخبرت عنه ودلّت عليه.

(٢) أي أن وجهه من حديد والمراد أنه وقح لا يعرف الخجل.

وقال آخر:

إذا رُزِق الفتى وجهاً وقاحاً
تقلّب في الأمور كما يشاء

وقال أنو شروان: أربعة قبائح وهي في أربعة أقبح، البخل في الملوك والكذب في القضاة، والحسد في العلماء، والوقاحة في النساء. ويقال من جسر أيسر ومن هاب خاب.

قال الشاعر:

لا تكونَنّ في الأمور هيوباً
فإلى هيبةٍ يصير الهيوب

وقال عليّ رضي الله عنه: إذا هبْتَ أمراً فقع فيه، فإنّ شرّ تَوَقّيهِ أعظم مما تخاف منه[1]. وقال رضي الله عنه: الغوغاء إذا اجتمعوا ضروا، وإذا افترقوا نفعوا، فقيل: قد علمنا مضرة اجتماعهم فما منفعة افتراقهم؟ قال: يرجع أهل المهن إلى مهنهم، فينتفع الناس بهم كرجوع البنّاء إلى بنائه والنسّاج إلى منسجه، والخبّاز إلى مخبزه.

وقال بعض السلف: لا تسبُوا الغوغاء، فإنهم يطفئون الحريق ويخرجون الغريق. وقال الأحنف: ما قل سفهاء قوم إلا ذلوا. وقال حكيم: لا يخرجن أحد من بيته إلا وقد أخذ في حجره قيراطين من جهل، فإن الجاهل لا يدفعه إلا الجهل أراد السفه.

قال الشاعر:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا
فنجهل فوق جهلِ الجاهلينا[2]

وقيل: الجاهل من لا جاهل له. أي: من لا سفيه له يدفع عنه. وقيل: بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالس، إذ جاء أعرابي، فَلَطَمَهُ، فقام إليه واقد بن عمرو، فجلد به الأرض، فقال عمر: ليس بعزيز من ليس في قومه سفيه.

وقال الشاعر:

ولا يلبث الجهّال أن يتهضّموا
أخا الحلم ما لم يستعنْ بجهول[3]

وقال صالح بن جناح:

(١) أي أن توقع الشر أشدُّ من وقوعه.

(٢) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم.

(٣) يتهضموا: أي يبخسوه حقه.

إذا كنت بين الجهل والحلم قاعداً
وخُيِّرت أنّى شئت فالحلم أفضلُ

ولكن إذا أنصفت من ليس منصفاً
ولم يرض منك الحلم فالجهل أمثلُ

وقال الأحنف بن قيس[1]:

وذي ضغنٍ أبَيْتُ القولَ عنه
بحلم فاستمرّ على المقالِ

ومن يحلمْ وليس لَه سفيهٌ
يلاقِ المعضلاتِ من الرجالِ

وقال آخر:

فإن كنتُ محتاجاً إلى الحلم إنّني
إلى الجهل في بعض الأحايين أحوجُ

ولي فرسٌ للخير بالخير ملجمٌ
ولي فرسٌ للشرّ بالشرّ مسرجُ

فمن رام تقويمي فإنّي مقوّمٌ
ومن رام تعويجي فإنّي معوّج

وقال آخر:

فإن قيل حلمٌ قلت للحلم موضعٌ
وحلم الفتى في غير موضعه جهل

اللهم إنا نعوذ بك أن نجهل أو يجهل علينا برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثالث والثلاثون

في الجود والسخاء والكرم ومكارم الأخلاق واصطناع المعروف وذكر الأمجاد وأحاديث الأجواد

اعلم أن الجود بذل المال، وأنفعه ما صرف في وجه استحقاقه، وقد ندب الله تعالى إليه في قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1].

قيل: إن الجود والسخاء والإيثار بمعنى واحد. وقيل: من أعطى البعض وأمسك البعض فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر فهو صاحب جود، ومن آثر غيره بالحاضر، وبقي هو في مقاساة الضرر فهو صاحب إيثار. وأصل السخاء هو السماحة، وقد يكون المعطي بخيلاً إذا صعب عليه البذل، والممسك حياً إذا كان لا يستصعب العطاء.

فمن الإيثار ما حكي عن حذيفة العدوي أنه قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي في القتلى ومعي شيء من الماء، وأنا أقول، إن كان به رمق سقيته، فإذا أنا به بين القتلى، فقلت له: أسقيك، فأشار إليّ أن نعم، فإذا برجل يقول: آه، فأشار إليّ ابن عمي أن انطلق إليه وأسقِهِ، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك، فأشار إليّ أن نعم. فسمع آخر يقول: آه، فأشار إليّ أن انطلق إليه، فجئته، فإذا هو قد مات. فرجعت إلى هشام، فإذا هو قد مات. فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات.

ومن عجائب ما ذكر في الإيثار:

ما حكاه أبو محمد الأزدي قال: لما احترق المسجد بمرو، ظن المسلمون أن النصارى أحرقوه، فأحرقوا خاناتهم، فقبض السلطان على جماعة من الذين أحرقوا الخانات، وكتب رقاعاً فيها القطع والجلد والقتل ونثرها عليهم، فمن وقع عليه رقعة فعل به ما فيها. فوقعت رقعة فيها القتل بيد رجل، فقال: والله ما كنت أبالي لولا أمّ لي. وكان بجنبه بعض الفتيان، فقال له: في رقعتي الجلد وليس لي أم، فخذ أنت رقعتي وأعطني رقعتك. ففعل، فقتل ذلك الفتى وتخلص هذا الرجل.

وقيل لقيس بن سعد: هل رأيت قط أسخى منك؟ قال: نعم، نزلنا بالبادية على امرأة، فجاء زوجها، فقالت له: إنه نزل بنا ضيفان، فجاءنا بناقة فنحرها، وقال: شأنكم. فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها، وقال: شأنكم، فقلنا: ما أكلنا من التي نحرت البارحة إلا القليل، فقال إني لا أطعم ضيفاني البائت. فبقينا عنده أياماً، والسماء تمطر وهو يفعل كذلك، فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته، وقلنا للمرأة اعتذري لنا إليه ومضينا، فلما ارتفع النهار إذا برجل يصيح خلفنا: قفوا أيها الركب اللئام،

---

(١) هو الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المري السعدي المنقري التميمي أبو بحر سيد تميم وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الفاتحين، ولد في البصرة وأدرك النبي ولم يره ووفد على عمر وشهد صفين مع علي واشتهر بالحلم وله سير وأخبار كثيرة توفي سنة ٧٢ هـ.

(١) سورة آل عمران، الآية (٩٢).

أعطيتمونا ثمن قِرَانا[1]، ثم إنه لحقنا، وقال: خذوها وإلا طعنتكم برمحي هذا، فأخذناها وانصرفنا.

وقال بعض الحكماء: أصل المحاسن كلها الكرم، وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام وسخاؤها بما تملك على الخاص والعام، وجميع خصال الخير من فروعه.

وقال رسول الله ﷺ: «تجاوزوا عن ذنب السخي فإن الله آخذ بيده كلما عثر وفاتح له كلما افتقر».

وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط، فقال لا. وعنه ﷺ أنه قال: «السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة قريب من النار، ولَجاهلٌ سخيٌ أحب إلى الله من عابد بخيل». وقال بعض السلف: منع الموجود سوء ظن بالمعبود. تلا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[2]. **وقال الفضيل**: ما كانوا يعدون القرض معروفاً. **وقال أكثم بن صيفي**: صاحب المعروف لا يقع وإن وقع وجد له متكأ. **وقيل للحسن بن سهل**: لا خير في السَرَف[3]، فقال: لا سرف في الخير، فقلب اللفظ واستوفى المعنى.

ووجد مكتوباً على حجر: «انتهز الفرص عند إمكانها ولا تحمل نفسك هم ما لم يأتك، واعلم أن تقتيرك على نفسك توفير لخزانة غيرك، فكم من جامع لبعل حليلته»[4].

وقال علي رضي الله تعالى عنه: ما جمعت من المال فوق قوتك فإنما أنت فيه خازن لغيرك. **وقال النعمان بن المنذر** يوماً لجلسائه: من أفضل الناس عيشاً وأنعمهم بالاً وأكرمهم طباعاً، وأجلهم في النفوس قدراً؟ فسكت القوم، فقام فتى فقال: أبيت اللعن، أفضل الناس من عاش الناس من فضله. فقال: صدقت.

وكان أسماء بن خارجة يقول: ما أحب أن أرد أحداً عن حاجة، لأنه إن كان كريماً أصون عرضه أو لئيماً أصون عنه عرضي. **وكان مورق العجلي** يتلطف في إدخال السرور والرفق على إخوانه، فيضع عند أحدهم البدرة، ويقول له

(١) القِرَى: طعام الضيف.
(٢) سورة سبإ، الآية (٣٩).
(٣) المراد: الإسراف في الكرم أي تجاوز الحد فيه.
(٤) أي يموت فترثه وتنفق الميراث مع زوجها الجديد.

أمسكها حتى أعود إليك، ثم يرسل يقول له أنت منها في حل.

وقال الحسن رضي الله عنه: باع طلحة بن عثمان رضي الله تعالى عنه أرضاً بسبعمائة ألف درهم، فلما جاء المال قال: إن رجلاً يبيت هذا عنده لا يدري ما يَطرُقه لغرير بالله تعالى ثم قسمه في المسلمين.

ولما دخل المنكدر على عائشة رضي الله عنها قال لها: يا أم المؤمنين أصابتني فاقة[1] فقالت: ما عندي شيء، فلو كان عندي عشرة آلاف درهم لبعثت بها إليك. فلما خرج من عندها جاءتها عشرة آلاف درهم من عند خالد بن أسيد فأرسلت بها إليه في أثره، فأخذها ودخل بها السوق، فاشترى جارية بألف درهم، فولدت له ثلاثة أولاد، فكانوا عُبَّاد المدينة، وهم: محمد وأبو بكر، وعمر بنو المنكدر.

وأكرم العرب في الإسلام طلحة بن عبيد الله رضي الله تعالى عنه، جاء إليه رجل، فسأله برحم بينه وبينه، فقال هذا حائطي بمكان كذا وكذا، وقد أعطيت فيه مائة ألف درهم، يراح إلي المال بالعشية، فإن شئت فالمال، وإن شئت فالحائط. **وقال زياد بن جرير**: رأيت طلحة بن عبيد الله فرّق مائة ألف في مجلس وإنه ليخيط إزاره بيده.

وذكر الإمام أبو علي القالي في كتاب الأمالي أن رجلاً جاء إلى معاوية رضي الله تعالى عنه فقال له: سألتك بالرحم التي بيني وبينك إلا ما قضيت حاجتي، فقال له معاوية: أمن قريش أنت؟ قال: لا، قال: فأي رحم بيني وبينك؟ قال: رحم آدم عليه السلام. قال: رحم مجفوة[2] والله لأكونن أول من وصلها، ثم قضى حاجته.

وروي أن الأشعث بن قيس أرسل إلى عدي بن حاتم يستعير منه قدوراً كانت لأبيه حاتم، فملأها مالاً وبعث بها إليه، وقال: إنا لا نعيرها فارغة. **وكان الأستاذ أبو سهل الصعلوكي** من الأجواد، ولم يناول أحداً شيئاً وإنما كان يطرحه في الأرض، فيتناوله الآخذ من الأرض، وكان يقول: الدنيا أقل خطراً من أن ترى من أجلها يد فوق يد أخرى. **وقد قال النبي ﷺ**: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**».

وسأل معاوية الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهم، عن الكرم فقال: هو التبرع بالمعروف قبل السؤال، والرأفة

(١) الفاقة: الفقر الشديد والحاجة الملحة.
(٢) أي رحم لم يصلها أحد.

بالسائل مع البذل. وقدم رجل من قريش من سفر، فمر على رجل من الأعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر وأضرّ به المرض، فقال له: يا هذا أعنا على الدهر، فقال لغلامه: ما بقي معك من النفقة، فادفعه إليه، فصب في حجره أربعة آلاف درهم فهمّ ليقوم، فلم يقدر من الضعف فبكى، فقال له الرجل: ما يبكيك لعلك استقللت ما دفعناه إليك؟ فقال: لا والله ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني.

وقال بعضهم: قصد رجل إلى صديق له فدق عليه الباب، فخرج إليه وسأله عن حاجته، فقال: علي دين كذا وكذا، فدخل الدار وأخرج إليه ما كان عليه، ثم دخل الدار باكياً، فقالت له زوجته: هلا تعللت حيث شَقّت عليك الإجابة(١)، فقال: إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله حتى احتاج إليّ أن سألني.

ويروى أن عبد الله بن أبي بكر، وكان من أجود الأجواد، عطش يوماً في طريقه، فاستسقى من منزل امرأة، فأخرجت له كوزاً، وقامت خلف الباب وقالت: تنحوا عن الباب، وليأخذه بعض غلمانكم، فإنني امرأة عزب مات زوجي منذ أيام، فشرب عبد الله الماء وقال: يا غلام احمل إليها عشرة آلاف درهم، فقالت: سبحان الله أتسخر مني؟ فقال: يا غلام احمل إليها عشرين ألفاً، فقالت: أسأل الله العافية، فقال: يا غلام احمل إليها ثلاثين، فما أمست، حتى كثر خطابها. وكان رضي الله تعالى عنه ينفق على أربعين داراً من جيرانه عن يمينه، وأربعين عن يساره، وأربعين أمامه، وأربعين خلفه، ويبعث إليهم بالأضاحي والكسوة في الأعياد، ويعتق في كل عيد مائة مملوك رضي الله تعالى عنه.

ولما مرض قيس بن سعد بن عبادة استبطأ إخوانه في العيادة، فسأل عنهم فقيل له: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين. فقال: أخزى الله مالاً يمنع عني الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً ينادي من كان لقيس عنده مال، فهو منه في حِل. فكسرت عتبة بابه بالعشي لكثرة العواد.

وكان عبد الله بن جعفر من الجود بالمكان المشهود وله فيه أخبار يكاد سامعها ينكرها لبعدها عن المعهود، وكان معاوية يعطيه ألف ألف درهم في كل سنة، فيفرقها في الناس ولا يرى إلا وعليه دين.

وسمّن رجل بهيمة ثم خرج بها ليبيعها، فمر بعبد الله بن جعفر رضي الله تعالى عنه، فقال: يا صاحب البهيمة أتبيعها؟ قال: لا، ولكنها هي لك هبة، ثم تركها له، وانصرف إلى بيته، فلم يلبث إلا يسيراً، وإذا بالحمالين على بابه عشرين نفراً. عشرة منهم يحملون حنطة، وخمسة لحماً وكسوة، وأربعة يحملون فاكهة ونقلاً، وواحد يحمل مالاً، فأعطاه جميع ذلك، واعتذر إليه رضي الله تعالى عنه.

ولما مات معاوية رضي الله تعالى عنه، وفد عبد الله بن جعفر على يزيد ابنه، فقال: كم كان أمير المؤمنين معاوية يعطيك، فقال: كان رحمه الله يعطيني ألف ألف، فقال يزيد قد زدناك لترحمك عليه ألف ألف. فقال: بأبي وأمي أنت، فقال، ولهذه ألف ألف، فقال: أما أني لا أقولها لأحد بعدك، فقيل ليزيد: أعطيت هذا المال كله من مال المسلمين لرجل واحد، فقال: والله ما أعطيته إلا لجميع أهل المدينة، ثم وكّل به يزيد من صحبه وهو لا يعلم لينظر ما يفعل، فلما وصل المدينة فرّق جميع المال حتى احتاج بعد شهر إلى الدين.

وخرج رضي الله تعالى عنه وهو والحسنان، وأبو دحية الأنصاري رضي الله تعالى عنهم من مكة إلى المدينة، فأصابتهم السماء بمطر، فلجئوا إلى خباء أعرابي، فأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى سكنت السماء(١)، فذبح لهم الأعرابي شاة، فلما ارتحلوا قال عبد الله للأعرابي: إن قدمت المدينة، فسل عنا، فاحتاج الأعرابي بعد سنين، فقالت له امرأته: لو أتيت المدينة، فلقيت أولئك الفتيان، فقال: قد نسيت أسماءهم، فقالت: سل عن ابن الطيار، فأتى المدينة، فلقي سيدنا الحسن رضي الله تعالى عنه، فأمر له بمائة ناقة بفحولها ورعاتها، ثم أتى الحسين رضي الله تعالى عنه، فقال: كفانا أبو محمد مؤونة الإبل، فأمر له بألف شاة، ثم أتى عبد الله بن جعفر رضي الله تعالى عنه، فقال: كفاني أخواني الإبل والشياه، فأمر له بمائة ألف درهم. ثم أتى أبا دحية رضي الله تعالى عنه، فقال: والله ما عندي مثل ما أعطوك، ولكن ائتني بابلك، فأوقرها لك تمراً. فلم يزل اليسار في عقب الأعرابي من ذلك اليوم.

وقال الحسن والحسين يوماً لعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم: إنك قد أسرفت في بذل المال، فقال: بأبي أنتما. إن الله عز وجل عوّدني أن يتفضّل عليّ، وعودته أن أتفضل على عباده، فأخاف أن أقطع العادة، فيقطع عني المادة.

---

(١) شقت علي الإجابة: صعبت عليك ووجدت فيها مشقة.

(١) أي حتى توقف المطر وصفا الجو.

وامتدحه نصيبٌ، فأمر له بخيل، وأثاث، ودنانير ودراهم. فقال له رجل: مثل هذا الأسود تعطي له هذا المال؟ فقال: إن كان أسود فإن ثناه أبيض، ولقد استحق بما قال أكثر مما نال، وهل أعطيناه إلا ثياباً تبلى ومالاً يفنى، وأعطانا مدحاً يروى وثناء يبقى؟

وخرج عبد الله رضي الله تعالى عنه يوماً إلى ضيعة له، فنزل على حائط به نخيل لقوم، وفيه غلام أسود يقوم عليه، فأتي بقوته ثلاثة أقراص، فدخل كلب، فدنا من الغلام، فرمى إليه بقرص، فأكله، ثم رمى إليه بالثاني والثالث، فأكلهما. وعبد الله ينظر إليه، فقال: يا غلام. كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت؟ قال: فلمَ آثرت هذا الكلب؟ قال: أرضنا ما هي بأرض كلاب، وأنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً، فكرهت أن أرده، قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوي يومي هذا، فقال عبد الله بن جعفر: ألام على السخاء، وإن هذا لأسخى مني، فاشترى الحائط، وما فيه من النخيل والآلات واشترى الغلام، ثم أعتقه، ووهبه الحائط بما فيه من النخيل، والآلات. فقال الغلام: إن كان ذلك لي فهو في سبيل الله تعالى، فاستعظم عبد الله ذلك منه، فقال: يجود هذا وأبخل أنا؟ لا كان ذلك أبداً.

وكان عبيد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما من الأجواد، أتاه رجل وهو بفناء داره، فقام بين يديه، قال: يا ابن عباس إن لي عندك يداً وقد احتجت إليها، فصعد فيه بصره، فلم يعرفه، فقال: ما يدك؟ قال: رأيتك واقفاً بفناء زمزم وغلامك يمتح لك من مائها[1]، والشمس قد صهرتك، فظللتك بفضل كسائي حتى شربت، فقال: أجل إني لأذكر ذلك، ثم قال لغلامه: ما عندك؟ قال: مائتا دينار، وعشرة آلاف درهم. فقال: إدفعها إليه، وما أراها تفي بحق يده.

وقدم عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما على معاوية مرة، فأهدى إليه من هدايا النوروز حللاً كثيرة ومسكاً، وآنية من ذهب وفضة، ووجهها إليه مع حاجبه، فلما وضعها بين يديه نظر إلى الحاجب، وهو ينظر إليها، فقال له: هل في نفسك منها شيء؟ قال: نعم، والله إن في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب من يوسف عليهما الصلاة والسلام، فضحك عبد الله، وقال: خذها، فهي لك، قال: جعلت فداءك أخاف أن يبلغ ذلك معاوية، فيحقد عليّ، قال: فاختمها بخاتمك، وسلمها إلى الخازن، فإذا كان وقت خروجنا حملناها إليك ليلاً، فقال الحاجب: والله لهذه الحيلة في الكرم أكثر من الكرم.

وحبس معاوية عن الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما صِلاتَهُ[1]، فقيل: لو وجهت إلى ابن عمك عبد الله بن عباس، فإنه قدم بنحو ألف ألف، فقال الحسين وأنى تقع ألف ألف من عبد الله، فوالله لهو أجود من الريح إذا عصفت، وأسخى من البحر إذا زخر، ثم وجه إليه مع رسوله بكتاب يذكر فيه حبس معاوية صلاته عنه، وضيق حاله وأنه يحتاج إلى مائة ألف درهم، فلما قرأ عبد الله كتابه انهملت عيناه، وقال: ويلك يا معاوية أصبحت لين المهاد، رفيع العماد، والحسين يشكو ضيق الحال، وكثرة العيال؟ ثم قال لوكيله: أحمل إلى الحسين نصف ما أملكه من ذهب وفضة ودواب، وأخبره أني شاطرته[2]، فإن كفاه وإلا أحمل إليه النصف الثاني، فلما أتاه الرسول قال: إنا لله وإنا إليه راجعون. ثقلت والله على ابن عمي، وما حسبت أنه يسمح لنا بهذا كله. رضوان الله عليهم أجمعين.

وجاء رجل من الأنصار إلى عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما فقال له: يا ابن عم محمد ﷺ إنه ولد لي في هذه الليلة مولود، وإني سميته باسمك تبركاً بك، وإن أمه ماتت، فقال له: بارك الله لك في الهبة، وآجرك على المصيبة، ثم دعا بوكيله، وقال له: انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه، وادفع لأبيه مائتي دينار لينفقها على تربيته، ثم قال للأنصاري: عد إلينا بعد أيام، فإنك جئتنا، وفي العيش يبس وفي المال قلة، فقال الأنصاري: جعلت فداءك لو سبقت حاتماً بيوم ما ذكرته العرب.

وقال أبو جهم بن حذيفة يوماً لمعاوية: أنت عندنا يا أمير المؤمنين كما قال ابن عبد كلال:

يقيناً ما نخاف وإنْ ظننّا
به خيراً أراناه يقينا

نميل على جوانبه كأنّا
إذا ملنا نميل على أبينا

(١) يمتح لك من مائها: أي يأتيك بشيء من مائها، كأن يملأ له قربة أو وعاء، وينزل فيها دلواً ليرفع له فيه الماء.

(١) أي ما يستحق له من الفيء.
(٢) شاطرته: أي أعطيته تشطر ما عندي، والشطر: النصف.

نـقـلّـبـه لـنـخـبـر حـالـتـيـه
فـنـخـبـر مـنـهـمـا كـرمـاً ولـيـنـا

فأمر له بمائة ألف درهم، وأنشده عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما:

بـلـوت الـنـاس قـرنـاً بـعـد قـرن
فـلـم أر غـيـر خـتّـال وقـالِ[1]

ولـم أر فـي الـخـطـوبِ أشـدّ وقـعـاً
وأمـضـى مـن مـعـاداة الـرجـالِ[2]

وذقــت مــرارةَ الأشــيــاء طــرّاً
فـمـا شـيء أمـرّ مِـنَ الـسـؤالِ[3]

فأعطاه مائة ألف درهم.

ودخل عليه الحسن يوماً وهو مضطجع على سريره، فسلم عليه، وأقعده عند رجليه وقال: ألا تعجب من قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تزعم أني لست للخلافة أهلاً، ولا لها موضعاً؟ فقال الحسن: أوعجباً مما قالت؟ قال: كل العجب. قال الحسن: وأعجب من هذا كله جلوسي عند رجليك، فاستحيا معاوية، واستوى جالساً، ثم قال: أقسمت عليك يا أبا محمد إلا ما أخبرتني كم عليك ديناً؟ قال: مائة ألف درهم، فقال يا غلام: أعط أبا محمد ثلاثمائة ألف يقضي بها دينه، ومائة ألف يفرقها على مواليه، ومائة ألف يستعين بها على نوائبه، وسوّغها إليه الساعة[4].

وكان معن بن زائدة من الأجواد وكان عاملاً على العراق بالبصرة، قيل: إنه أتى إليه بعض الشعراء، فأقام ببابه مدة يريد الدخول عليه، فلم يتهيأ له ذلك، فقال يوماً لبعض الخدم: إذا دخل الأمير البستان، فعرّفني، فلما دخل أعلمه بذلك، فكتب الشاعر بيتاً ونقشه على خشبة وألقاها في الماء الذي يدخل البستان، وكان معن جالساً على القناة، فلما رأى الخشبة أخذها، وقرأها فإذا فيها بيت مفرد:

أيا جودَ معنٍ نَاجِ معناً بحاجتي
فليس إلى معنٍ سواك شفيعُ[5]

فقال: مَن الرجل صاحب هذه؟ فأتي به إليه، فقال: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشر بدر، فأخذها وانصرف. ووضع معن الخشبة تحت بساطه، فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط ونظر فيها، وقال: عليّ بالرجل صاحب هذه، فأتي به، فقال له: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشر بدر، فأخذها وانصرف. ووضع معن الخشبة تحت بساطه، فلما كان في اليوم الثالث أخرجها، ونظر فيها، وقال: عليّ بالرجل صاحب هذه، فأتي به إليه، فقال له: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشر بدر، فأخذها وتفكر في نفسه وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه، فخرج من البلد بما معه، فلما كان في اليوم الرابع طلب الرجل فلم يجده، فقال معن: لقد ساء والله ظنه، ولقد هممت أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم، ولا دينار. وفيه يقول القائل:

يـقـولـون مـعـنٌ لا زكـاةَ لـمـالـه
وكـيـف يـزكّـي الـمـالَ مـن هـو بـاذلـه

إذا حـال حَـوْلٌ لـم تـجـدْ فـي ديـاره
مـن الـمـال إلا ذِكْـرَهُ وجـمـائـلـه

تـراه إذا مـا جـئـتـه مـتـهـلـلاً
كـأنـك تـعـطـيـه الـذي أنـت نـائـلـه

تـعـوّد بـسـط الـكـف حـتـى لـو أنـه
أراد انـقـبـاضـاً لـم تـطـعـه أنـامـلـه

فـلـو لـم يـكـن فـي كـفّـه غـيـر نـفـسـه
لـجـاد بـهـا فـلـيـتـقِ الـلّـهَ سـائـلـه

ومن قول معن:

دعـيـنـي أنـهـب الأمـوال حـتـى
أعـفّ الأكـرمـيـن عـن الـلـئـام

وكان يزيد بن المهلب من الأجواد الأسخياء، وله أخبار في الجود عجيبة. من ذلك ما حكاه عقيل بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: لما أراد يزيد بن المهلب الخروج إلى واسط أتيته، فقلت: أيها الأمير إن رأيت أن تأذن لي، فأصحبك، قال: إذا قدمت واسط، فائتنا إن شاء الله تعالى، فسافر، وأقمت، فقال لي بعض إخواني إذهب إليه، فقلت: كان جوابه فيه ضعف، قالوا: أتريد من يزيد جواباً أكثر مما قال؟ قال: فسرت حتى قدمت عليه، فلما كان في الليل دعيت إلى السمر، فتحدث القوم حتى ذكروا الجواري، فالتفت إلى يزيد، وقال: إيه يا عقيل، فقلت:

أفـاضَ الـقـومُ فـي ذكـر الـجـواري
فـأمـا الأعـزبـون فـلـن يـقـولـوا

---

(١) الختال: المخادع والقالي: الهاجر والقاطع لحبل المودة.
(٢) الخطوب: الملمات والمصائب.
(٣) السؤال: الطلب من الآخرين أو الاستجداء.
(٤) أي سلمها إليه فوراً.
(٥) ناج معناً بحاجتي: أخبره بها سراً.

قال: إنك لم تبق عزباً. فلما رجعت إلى منزلي إذا أنا بخادم قد أتاني ومعه جارية وفرش بيت وبدرة عشرة آلاف درهم، وفي الليلة الثانية كذلك، فمكثت عشر ليالي، وأنا على هذه الحالة، فلما رأيت ذلك دخلت عليه في اليوم العاشر، فقلت أيها الأمير: قد والله أغنيت وأقنيت، فإن رأيت أن تأذن لي في الرجوع، فأكبت عدوي وأسر صديقي، فقال: إنما أخيرك بين خلتين إما أن تقيم فنوليك، أو ترحل فنغنيك. فقلت: أولمْ تغنني أيها الأمير؟ قال: إنما هذا أثاث المنزل، ومصلحة القدوم، فنالني من فضله ما لا أقدر على وصفه.

وحدث أبو اليقظان عن أبيه قال: حج يزيد بن المهلب، فطلب حلاقاً يحلق رأسه، فجاءه بحلاق، فحلق رأسه، فأمر له بخمسة آلاف درهم، فتحير الحلاق ودهش، وقال: آخذ هذه الخمسة الآلاف وأمضي إلى أم فلان أخبرها أني قد استغنيت؟ فقال: أعطوه خمسة آلاف أخرى، فقال: امرأته طالق إن حلقت رأس أحد بعدك.

وقيل: إن الحجاج حبسه على خَراج وجب عليه، مقداره مائة ألف درهم، فجمعت له، وهو في السجن، فجاءه الفرزدق يزوره، فقال للحاجب: أستأذن لي عليه، فقال: إنه في مكان لا يمكن الدخول عليه فيه، فقال الفرزدق: إنما أتيت متوجعاً لما فيه، ولم آت ممتدحاً، فأذن له، فلما أبصره قال:

أبا خالدٍ ضاقتْ خراسانُ بعدكم
وقال ذوو الحاجات أين يزيدُ

فما قطرتْ بالشرق بعدك قطرةٌ
ولا أخضرَ بالمَرْوَيْنِ بعدك عود[1]

وما لسرور بعد عزِّك بهجةٌ
وما لجوادٍ بعد جودك جودُ

فقال يزيد للحاجب: إدفع إليه المائة ألف درهم التي جمعت لنا ودع الحجاج ولحمي يفعل فيه ما يشاء، فقال الحاجب للفرزدق: هذا الذي خفت منه لما منعتك من دخولك عليه، ثم دفعها إليه، فأخذها وانصرف.

ومر يزيد بن المهلب عند خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه، بعجوز أعرابية، فذبحت له عنزاً، فقال لابنه: ما معك من النفقة؟ قال: مائة دينار. قال: ادفعها إليها، فقال: هذه يرضيها اليسير وهي لا تعرفك. قال: إن كان يرضيها اليسير، فأنا لا أرضى إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي.

وقال مروان بن أبي الحبوب الشاعر: أمر لي المتوكل بمائة وعشرين ألفاً وخمسين ثوباً، ورواحل كثيرة، فقلت أبياتاً في شكره، فلما بلغت قولي:

فأمسكْ ندى كفيْك عني ولا تزدْ
فقد خفتُ أن أطغى وأن أتجبرا

فقال: والله لا أمسك حتى أغرقك بجودي، وأمر له بضياع تقوَّم بألف ألف.

وقال أبو العيناء: تذاكروا السخاء، فاتفقوا على آل المهلب في الدولة المروانية، وعلى البرامكة في الدولة العباسية، ثم اتفقوا على أن أحمد بن أبي داود أسخى منهم جميعاً وأفضل.

وسئل إسحاق الموصلي عن سخاء أولاد يحيى بن خالد، فقال: أما الفضل فيرضيك فعله، وأما جعفر، فيرضيك قوله، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد، وفي يحيى يقول القائل:

سألت الندى هل أنت حرّ فقال لا
ولكنني عبدٌ ليحيى بن خالدِ

فقلت شراءٌ قال لا بل وراثةٌ
توارثني من والدٍ بعد والدِ

وفي الفضل يقول القائل:

إذا نزل الفضل بن يحيى ببلدةٍ
رأيتَ بها غيثَ السماحة ينبُتُ

فليس بسعَّالٍ إذا سيل حاجةً
ولا بِمُكِبٍّ في ثرى الأرض ينكت

وفي محمد يقول القائل:

سألت الندى والجود مالي أراكما
تبدلتما عزاً بذل مؤبدِ

وما بال ركنِ المجد أمسى مهدّماً
فقال أصبْنا بابن يحيى محمدِ

فقلت فهلا مُتمَّاً بعد موته
وقد كنتما عبديه في كل مشهدِ

فقالا أقمنا كي نعزي بفقده
مسافة يومٍ ثم نتلوه في غدِ[1]

(١) المروين: مرو وخراسان وهذا من باب تسمية الشيئين باسم أحدهما كالأسودين للتمر والماء.

(١) مسافة يوم: هنا المراد لمدة يوم.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكرم الله وجهه: من كانت له حاجة فليرفعها إليّ في كتاب لأصون وجهه عن المسألة. وجاءه رضي الله تعالى عنه أعرابي، فقال يا أمير المؤمنين: إن لي إليك حاجة، الحياء يمنعني أن أذكرها، فقال: خطها في الأرض، فكتب إني فقير فقال: يا قنبر اكسه حلتي، فقال الأعرابي:

كسوتني حلّةً تبلى محاسنها
فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن نلت حسن الثنا قد نلت مكرمةً
وليس تبغي بما قدمته بدلا
إن الثناء ليحيي ذكر صاحبه
كالغيث يحي نداهُ السهلَ والجبلا
لا تزهدِ الدهرَ في عرفٍ بدأت به
كلّ امرىءٍ سوف يجزى بالذي فعلا

فقال: يا قنبر زده مائة دينار، فقال يا أمير المؤمنين: لو فرقتها في المسلمين لأصلحت بها من شأنهم. فقال رضي الله تعالى عنه: صه يا قنبر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: أشكروا لمن أثنى عليكم وإذا أتاكم كريم قوم، فأكرموه.

ولعبد الله بن جدعان:

إني وإن لم ينل مالي مداخلتي
وهّابُ ما ملكت كفّي من المال
لا أحبسُ المالَ إلا حيث أنفقُهُ
ولا يُغيّرني حالٌ إلى حال[1]

وقال بعض العرب لولده: يا بني لا تزهدن في معروف فإن الدهر ذو صروف فكم راغب كان مرغوباً إليه، وطالب كان مطلوباً ما لديه، وكن كما قال القائل:

وعُدّ من الرحمن فضلاً ونعمةً
عليك إذا ما جاء للخير طالبُ
ولا تمنعنْ ذا حاجةٍ جاء راغباً
فإنّك لا تدري متى أنت راغب

وقال بعضهم:

أبيتُ خميصَ البطن عريان طاوياً
وأوثر بالزاد الرفيق على نفسي
وأمنحه فرشي وأفترشُ الثرى
وأجعل سترَ الليل من دونه لبسي[1]
حذارِ أحاديثَ المحافلِ في غدٍ
إذا ضمّني يوماً إلى صدره رمسي[2]

وقال يحيى البرمكي: أعط من الدنيا وهي مقبلة، فإن ذلك لا ينقصك منها شيئاً، واعط منها وهي مدبرة فإن منعك لا يبقي عليك منها شيئاً، فكان الحسن بن سهل يتعجب من ذلك، ويقول: لله دره ما أطبعه على الكرم، وأعلمه بالدنيا، وقد أمر يحيى من نظمه فقال:

لا تبخلنّ بدنيا وهي مقبلةٌ
فليس ينُقِصها التبذير والسرفُ
فإنْ تولتْ فأحرى أن تجود بها
فليس تبقى ولكن شكرها خلف

وقال يحيى لولده جعفر: يا بني ما دام قلمك يرعد فأمطره معروفاً وقال بعضهم:

لا تكثري في الجود لائمتي
وإذا بخلت فأكثري لومي
كفّي فلست بحاملٍ أبداً
ما عشتُ همّ غدٍ إلى يومي

وقال علي رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه: لا تستح من عطاء القليل، فالحرمان أقل منه. وسئل إسحاق الموصلي عن المخلوع[3]، فقال: كان أمره كله عجباً، كان لا يبالي أين يقعد مع جلسائه، وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر. كان عنده سليمان بن أبي جعفر يوماً، فأراد الرجوع إلى أهله، فقال له: سفر البر أحب إليك أم سفر البحر؟ قال: البحر ألين عليّ. فقال: أوقروا له زورقه ذهباً وأمر له بألف ألف درهم.

وشكا سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان، موسى شهوات إلى سليمان بن عبد الملك، وقال: قد هجاني يا أمير المؤمنين، فاستحضره سليمان، وقال: لا أم لك أتهجو سعيداً؟ قال يا أمير المؤمنين: أخبرك الخبر عشقت جارية مدنية، وأتيت سعيداً، فقلت إني أحب هذه الجارية وإن مولاتها أعطيت فيها مائتي دينار وقد أتيتك، فقال لي:

---

(٢) أي لا تمنعني قلة المال من العطاء ولا تدفعني كثرته إلى التجبر.

(١) اجعل ستر الليل لبسي: أي وأعطي ملابسي أيضاً والبس ستر الليل.
(٢) الرمس: القبر.
(٣) أي عن محمد الأمين وقد خلعه أخاه المأمون.

بورك فيك، فقال سليمان: ليس هذا موضع بورك فيك. قال: فأتيت يا أمير المؤمنين سعيد بن خالد، فذكرت له حالي، فقال: يا جارية هاتي مطرفاً، فأتته بمطرف خز، فصر لي في كل زاوية مائتي دينار، فخرجت وأنا أقول:

أبا خالدٍ أعني سعيدَ بنَ خالدٍ
أخا العرف لا أعني ابنَ بنت سعيد
ولكنني أعني ابنَ عائشة الذي
أبو أبويه خالد بن أسيد
عقيدُ الندى ما عاش يرضى به الندى
فإن مات لم يرضَ الندى بعقيدِ
ذروه ذروه إنكم قد رقدتموا
وما هو عن إحسانكم برقود

فقال سليمان: قل ما شئت. وكتب كلثوم بن عمر إلى بعض الكرماء رقعة فيها:

إذا تكرّهت أن تعطي القليل ولم
تقدر على سعةٍ لم يظهر الجود
بُثّ النّوال ولا تمنعكَ قلّتُهُ
فكلّ ما سدّ فقراً فهو محمود

فشاطره ماله حتى بعث إليه بنصف خاتمه وفردة نعله. وباع عبد الله بن عتبة بن مسعود أرضاً بثمانين ألفاً، فقيل له: لو اتخذت لولدك من هذا المال ذخراً؟ فقال: بل اجعله ذخراً لي، وأجعل الله ذخراً لولدي، وقسمه بين ذوي الحاجات.

وكان ابن مالك القشيري من الأجواد، قيل أنه أنهب الناس ماله بعكاظ ثلاث مرات، فعاتبه خاله، فقال:

يا خالُ ذرني وما لي ما فعلت به
وخذ نصيبك منه إنني مودي[1]
فلن أطيعك إلاّ أنْ تُخلّدَني
فانظر بكيدك هل تستطيع تخليدي[2]
الحمدُ لا يشترى إلا بمكرمةٍ
ولن أعيش بمالٍ غير محمود

وقال المهلب: عجبت لمن يشتري المماليك بماله كيف لا يشتري الأحرار بفعاله. ونزل بأبي البحتري وهب بن

(١) أي خذ نصيبك منه قبل أن أتلفه بإعطائه لمن يطلبه أو يحتاجه.
(٢) أي أن العطاء سيخلدني بما يتحدث به عني الناس فهل تستطيع بتدبيرك أن تخلدني؟.

وهب القرشي ضيفاً، فسارع عبيده إلى إنزاله وخدموه أحسن خدمة، وفعلوا به كل جميل، فلما همّ بالرحيل لم يقربه أحد منهم وتجنبوه، فأنكر ذلك عليهم، فقالوا: نحن إنما نعين النازل على الإقامة ولا نعينه على الرحيل.

ووفدت ليلى الأخيلية[1] على الحجاج، فقالت فيه:

إذا ورد الحجاج أرضاً مريضةً
تتبّع أقصى دائها فشفاها[2]
شفاها من الداءِ العضال الذي بها
غلامٌ إذا هزّ القناة سقاها

فقال: لا تقولي غلام، ولكن قولي همام. يا غلام: أعطها خمسمائة فقالت: أيها الأمير اجعلها نعماً، فجعلها إبلاً إناثاً، وقال أبو الفياض الطبري:

والعزّ ضيفٌ لا يراه بربعه
من لا يرى بذلَ التلاد تلادا[3]
والجود أغلى كَعْبُ كَعْبٍ قبلنا
فمضى جواداً يوم مات جوادا

وقال آخر:

أيقنت أن من السماح شجاعةً
وعلمت أنّ من السماحة جودا

وقال أحمد بن حمدون النديم: عملت أم المستعين بساطاً على صورة كل حيوان من جميع الأجناس، وصورة كل طائر من ذهب، وأعينهم يواقيت وجواهر، أنفقت عليه مائة ألف ألف دينار وثلاثين ألف دينار، وسألته أن يقف عليه، وينظر إليه، فكسل ذلك اليوم عن رؤيته. قال أحمد بن حمدون: فقال لي، ولأترجة الهاشمي: اذهبا، فانظرا إليه، وكان معنا الحاجب، فمضينا ورأيناه، فوالله ما رأينا في الدنيا شيئاً أحسن منه، ولا شيئاً حسناً إلا وقد عمل فيه، فمددت أنا يدي إلى غزال من ذهب عيناه ياقوتتان، فوضعته في كمي، ثم جئناه، فوصفنا له حسن ما رأيناه، فقال أترجة: يا أمير المؤمنين: إنه قد سرق منه شيئاً، وغمزه على كمي، فأريته الغزال، فقال: بحياتي عليكما ارجعا، فخذا ما أحببتما، فمضينا، فملأنا أكمامنا

(١) هي ليلى بنت عبد الله الأخيلية شاعرة فصيحة، اشتهرت بحبها لتوبة بن الحمير، توفيت في ساوة بالري سنة ٨٠ هـ.
(٢) الأرض المريضة: الأرض التي تتنازعها الفتن وشفاؤه لها: قضاؤه على الفتن.
(٣) التلاد: كل مال موروث.

وأقبيتنا وأقبلنا نمشي كالحبالى، فلما رآنا ضحك، فقال بقية الجلساء: ونحن فما ذنبنا يا أمير المؤمنين؟ فقال: قوموا، فخذوا ما شئتم، ثم قام، فوقف على الطريق ينظر كيف يحملون ويضحك.

ونظر يزيد المهلبي سطلاً من ذهب مملوءاً مسكاً، فأخذه بيده وخرج، فقال له المستعين: إلى أين؟ فقال: إلى الحمام يا أمير المؤمنين. فضحك من قوله، وأمر الفراشين والخدم أن ينتهبوا الباقي، فانتهبوه، فوجهت إليه أمه تقول: سَرَّ الله أمير المؤمنين لقد كنت أحب أن يراه قبل أن يفرقه، فإنني أنفقت عليه مائة ألف ألف وثلاثين ألف دينار، فقال: يحمل إليها مثل ذلك حتى تعيد مثله، ففعلت، ومضى حتى رآه، وفعل به كفعله بالأول.

ودخل طلحة بن عبد الله بن عوف السوق يوماً، فوافق فيه الفرزدق، فقال يا أبا فراس: اختر عشراً من الإبل، ففعل، فقال ضم إليها مثلها، فلم يزل يقول مثل ذلك حتى بلغت مائة، فقال: هي لك، فقال:

يا طلح أنت أخو الندى وعقيدُهُ
إن الندى ما مات طلحةَ ماتا
إن الندى ألقى إليك رحالَهُ
فبحيثُ بتَّ من المنازل باتا

وقدم زياد الأعجم على عبد الله بن الحشرج بنيسابور، فأكرمه، وأنعم عليه، وبعث إليه بألف دينار، فقال:

إن السماحة والمروءة والندى
في قُبَّةٍ ضربتْ على ابن الحشرجِ

فقال: زدني، فقال: كل شيء وثمنه. ووفد أبو عطاء السدي على نصر بن سيار بخراسان مع رفيقين له، فأنزله، وأحسن إليه، وقال: ما عندك يا أبا عطاء؟ فقال: وما عسى أن أقول، وأنت أشعر العرب غير أني قلت بيتين. قال: هات ما قلت فقال:

يا طالب الجود إمّا كنت تطلبُهُ
فاطلبْ على بابه نصرَ بنَ سيّارِ
الواهبُ الخيلَ تغدو في أعنّتها
مع القيان وفيها ألف دينارِ

فأعطاه ألف دينار، ووصائف، وكساه كسوة جميلة، فقسم ذلك بين رفيقيه، ولم يأخذ منه شيئاً، فبلغ ذلك نصراً، فقال: يا له، قاتله الله من سيد، ما أضخم قدره، ثم أمر له بمثله.

وقال العتبي: أشرف عمرو بن هبيرة يوماً من قصره، فإذا هو بأعرابي يرقل قلوصه، فقال عمرو لحاجبه: إن أرادني هذا الأعرابي، فأوصله إليّ، فلما وصل الأعرابي سأله الحاجب، فقال: أردت الأمير، فدخل به إليه، فلما مثل بين يديه قال له: ما حاجتك؟ فأنشد الأعرابي يقول:

أصلحك الله قَلَّ ما بيدي
ولا أطيق العيال إذ كثروا
أناخَ دهري عليَّ كلكَلَهُ
فأرسلوني إليك وانتظروا

فأخذت عمر الأريحية، فجعل يهتز في مجلسه ثم قال: أرسلوك إليّ وانتظروا إذن والله لا تجلس حتى ترجع إليهم، ثم أمر له بألف دينار. وقيل: أراد ابن عامر أن يكتب لرجل بخمسين ألف درهم، فجرى القلم بخمسمائة ألف، فراجعه الخازن في ذلك، فقال: انفذه، فما بقي إلا نفاذه، وإن خروج المال أحب إليّ من الاعتذار. فاستشرفه الخازن فقال: إذا أراد الله بعبد خيراً صرف القلم عن مجرى إرادة كاتبه إلى إرادته، وأنا أردت شيئاً وأراد الجواد الكريم أن يعطي عبده عشرة أضعافه، فكانت إرادة الله الغالبة، وأمره النافذ.

ووقف أعرابي على ابن عامر، فقال: يا قمر البصرة، وشمس الحجاز، ويا ابن ذروة العرب، وابن بطحاء مكة، برحت بي الحاجة، وأكدّت بي الآمال إلا بفنائك، فامنحني بقدر الطاقة لا بقدر المجد والشرف والهمة، فأمر له بمائتي ألف درهم. وسمع المأمون قول عمارة بن عقيل:

أأترك إن قلّت دراهمُ خالدٍ
زيارته إني إذاً للئيم

فقال: أوَقلت دراهم خالد إحملوا إليه مائة ألف درهم، فبعثها خالد بن يحيى إلى عمارة بن عقيل، وقال: هذه قطرة من سحابك. ولما عزل عبد الرحمن بن الضحاك عن المدينة بكى، ثم قال: والله ما بكائي جزعاً من العزل، ولا أسفاً على الولاية، ولكن أخاف على هذه الوجوه أن يلي أمرها من لا يعرف لها حقاً.

وأراد الرشيد أن يخرج إلى بعض المتفرجات، فقال يحيى بن خالد لرجاء بن عبد العزيز وكان على نفقاته: ما عند وكلاتنا من الأموال؟ قال: سبعمائة ألف درهم. قال: فاقبضها إليك يا رجاء. فلما كان من الغد دخل عليه رجاء، فقبل يده وعنده منصور بن زياد، فلما خرج رجاء

قال يحيى لمنصور: قد ظننت أن رجاء توهم أنا قد وهبناه المال، وإنما أمرناه بقبضه من الوكلاء ليحفظه علينا لحاجتنا إليه في وجهنا هذا، فقال منصور: أنا استخبر لك هذا. فقال يحيى: إذن يقول لك: قل له يقبل يدي كما قبلت يده، فلا تقل له شيئاً، فقد تركتها له.

وقيل: إن الرشيد وصل في يوم واحد بألف ألف وثلاثمائة ألف وخمسين ألفاً. ووصل المنصور في يوم واحد لبني هاشم، ووجوه قواده بعشرة آلاف ألف دينار على ما ذكر.

وعن الأخفش الصغير قال: كان أسيد بن عنقاء الفزاري من أكبر أهل زمانه قدراً وأكثرهم أدباً، وأفصحهم لساناً، وأثبتهم جناناً، فطال عمره ونكبه دهره[١]، فخرج عشية يتنفل لأهله[٢]، فمر به عميلة الفزاري، فسلم عليه، وقال: ما أصارك يا عم إلى ما أرى؟ فقال: بخل مثلك بماله وصون وجهي عن مسألة الناس، قال: والله لئن بقيت إلى غد لأغيرن ما أرى من حالك، فرجع ابن عنقاء إلى أهله، فأخبرها بما قال له عميلة، فقالت له: لقد غرك كلام غلام في جنح الليل. قال: فكأنما ألقمت فاه حجراً وبات متململاً بين رجاء ويأس، فلما كان وقت السحر سمع رغاء الإبل وصهيل الخيل تحت الأموال، فقال: ما هذا؟ قالوا: عميلة قد قسم ماله شطرين، وبعث إليك بشطره، فأنشأ يقول:

رآني على ما بي عميلة فاشتكى
إلى ماله حالي فواسى وما هجر
ولما رأى المجد استُعيرت ثيابُه
تردّى رداءَ سابغ الذيل واتزر[٣]
غلامٌ حباه الله بالحسن يافعاً
له سيمياءُ لا تشقّ على البصر
كأنّ الثريا عُلّقت في جبينه
وفي أنفه الشعرى وفي جيده القمر[٤]

وكان عمر بن عبيد الله بن معمر التميمي من الأجواد. قيل: إنه كان لرجل جارية يهواها، فاحتاج إلى بيعها، فابتاعها منه ابن معمر بمال جزيل، فلما قبض ثمنها أنشأت تقول:

هنيئاً لك المال الذي قد قبضته
ولم يبق في كفّيَّ غير التَّحَسُّرِ
أبوءُ بحزنٍ من فراقك موجع
أناجي به صدراً طويل التَّفَكُّرِ

فأجابها بقوله:

ولولا قعود الدهر بي عنكِ لم يكنْ
يفرقُنا شيءٌ سوى الموت فاعذري
عليكِ سلامٌ لا زيارة بيننا
ولا وصلَ إلاّ أن يشاءَ ابن معمر

فقال ابن معمر: قد شئت وقد وهبتك الجارية وثمنها، فخذها وانصرف.

ووفد أبو الشمقمق إلى مدينة سابور يريد محمد بن عبد السلام فلما دخلها توجه إلى منزله، فوجده في دار الخراج يطالب، فدخل عليه يتوجع له، فلما رآه محمد قال:

وقد قدمتُ على رجالٍ طالما
قدم الرجال عليهم فتموّلوا
أخنى الزمانُ عليهم فكأنّما
كانوا بأرضٍ أقفرت فتحوّلوا

فقال أبو الشمقمق:

الجودُ أفلسهم وأذهبَ مالهم
فاليوم إن راموا السماحةَ يبخلوا

قال: فخلع محمد ثوبه وخاتمه ودفعهما إليه، فكتب بذلك مستوفي الخراج إلى الخليفة، فوقع إلى عامله بإسقاط الخراج عن محمد بن عبد السلام في تلك السنة، وإسقاط ما عليه من البقايا، وأمر له بمائة ألف درهم معونة على مروءته.

وقال أبو العيناء: حصلت لي ضيقة شديدة، فكتمتها عن أصدقائي، فدخلت يوماً على يحيى بن أكثم القاضي، فقال إن أمير المؤمنين جلس للمظالم، وأخذ القصص، فهل لك في الحضور؟ قلت: نعم، فمضيت معه إلى دار أمير المؤمنين، فلما دخلنا عليه أجلسه وأجلسني، ثم قال: يا أبا العيناء، بالألفة والمحبة ما الذي جاء بك في هذه الساعة؟ فأنشدته:

---

(١) نكبه وهره: أصابه دهره بنكبة ذهبت بماله.
(٢) يتنفل: يطلب النفل أي العطاء.
(٣) تردّى رداء: لبس رداء، سابغ الذيل: طويلاً، واتزر: اتخذ إزاراً.
(٤) الثريا: مجموعة من الكواكب، مرتفعة جداً في قبة الفلك يضرب المثل بارتفاعها فيقال: أين الثريا من الثرى. والشعرى مجموعتان: الشعرى اليمانية والشعرى العبور، والجيد: العنق.

لقد رجوتك دونَ النّاس كلّهم
وللرجاءِ حقوقٌ كلّها تجبُ
إن لم يكن لي أسبابٌ أعيشُ بها
ففي العلا لكَ أخلاقٌ هي السبب

فقال: يا سلامة أنظر أي شيء في بيت مالنا دون مال المسلمين، فقال: بقية من مال. قال: فادفع له منها مائة ألف درهم، وابعث له بمثلها في كل شهر. فلما كان بعد أحد عشر شهراً مات المأمون، فبكى عليه أبو العيناء، حتى تقرّحت أجفانه، فدخل عليه بعض أولاده، فقال: يا أبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء، فأنشأ أبو العيناء يقول:

شيئان لو بكت الدماءُ عليهما
عيناي حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما
فقدُ الشباب وفرقةُ الأحبابِ

وكان أحمد بن طولون كثير الصدقة، وكان راتبه منها في الشهر ألف دينار سوى ما يطرأ عليه من نذر أو صلة، وسوى ما يطبخ في دار الصدقة. وكان الموكل بصدقته سليم الخادم، فقال له سليم يوماً: أيها الأمير إني أطوف القبائل، وأدق الأبواب لصدقاتك، وإن اليد تمد إليّ، وفيها الحناء، وربما كان فيها الخاتم الذهب والسوار الذهب، أفأعطي أم أرد؟ قال: فأطرق طويلاً، ثم قال: كل يد امتدت إليك فلا تردها.

وقال سلمة بن عياش في جعفر بن سليمان:

وما شمّ أنفي ريحَ كف شممتُها
من الناس إلاّ ريحُ كفّك أطيبُ

فأمر له بألف دينار ومائة مثقال مسك ومائة مثقال عنبر.

وكان عبد العزيز بن عبد الله جواداً. مضيافاً، فتعذى عنده أعرابي يوماً، فلما كان من الغد مر على بابه، فرأى الناس في الدخول على هيئتهم بالأمس، فقال: أوَكل يوم يطعم الأمير الناس؟ قالوا: نعم، فأنشأ يقول:

أكلّ يومٍ كأنّه عيدُ أضحى
عند عبد العزيز أو عيدُ فطرِ
وله ألفُ جفنةٍ مترعاتٍ
كل قدر يمدها ألف قدر[1]

(١) الجفنة: وعاء كبير يسكب فيه الطعام لمجموعة من الناس والمترعات ج مترعة أي ملأى.

وتعشّى الناس ليلة عند سعيد بن العاص، فلما خرجوا بقي فتى من الشام قاعداً، فقال له سعيد: ألك حاجة؟ وأطفأ الشمعة كراهة أن يخجل الفتى، فذكر أن أباه مات، وخلف ديناً وعيالاً، وسأله أن يكتب له كتاباً إلى أهل دمشق ليقوموا ببعض إصلاح حاله، فدفع له عشرة آلاف دينار وقال له: لا أدعك تقاسي الذل على أبوابهم.

ودخل رجل على علي بن سليمان الوزير، فقال له: سألتك بالله العظيم ونبيه الكريم إلا ما أجرتني من خصمي، فقال: ومَن خصمك حتى أجيرك منه؟، فقال: الفقر، فأطرق الوزير ساعة، وقال: قد أمرت لك بمائة ألف درهم، فأخذها وانصرف. فبينما هو في الطريق إذ أمر الوزير برده إليه، فلما رجع قال له: سألتك بالله العظيم ونبيه الكريم متى أتاك خصمك معنّفاً، فارجع إلينا متظلماً.

وقال الأعمش: كانت عندي شاة، فمرضت، وفقدت الصبيان لبنها، فكان خيثمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشي ويسألني. هل أسوفت علفها؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها، وكانت تحتي لبد أجلس عليه، فكان إذا خرج يقول: خذ ما تحت اللبد حتى وصل من علة الشاة أكثر من ثلاثمائة دينار من بره حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ.

وحكى أبو قدامة القشيري قال: كنا مع يزيد بن مزيد يوماً، فسمع صائحاً يقول: يا يزيد بن مزيد، فطلبه فأتي به إليه، فقال: ما حملك على هذا الصياح؟ قال: فقدت دابتي ونفدت نفقتي، وسمعت قول الشاعر:

إذا قِيلَ مَنْ للجودِ والمجد والندى
فنادي بصوتٍ يا يزيد بن مزيدِ

فأمر له بفرس أبلق كان معجباً به، وبمائة دينار، وخلعة سنية فأخذها وانصرف.

وحكي: أن قوماً من العرب جاءوا إلى قبر بعض أسخيائهم يزورونه فباتوا عند قبره، فرأى رجل منهم صاحب القبر في المنام وهو يقول له: هل لك أن تبيعني بعيرك بنجيبي[1]؟ وكان الميت قد خلف نجيباً، وكان للرائي بعير سمين، فقال: نعم، وباعه في النوم بعيره بنجيبه، فلما وقع بينهما عقد البيع عمد صاحب القبر إلى البعير، فنحره في النوم، فانتبه الرائي من نومه، فوجد الدم يسيح من نحر بعيره، فقام وأتم نحره وقطع لحمه وطبخوه وأكلوا، ثم رحلوا وساروا، فلما كان اليوم الثاني وهم في

(١) النجيب: الفتي القوي من الإبل.

الطريق سائرون استقبلهم ركب، فتقدم منهم شاب، فنادى، هل فيكم فلان ابن فلان؟ فقال صاحب البعير: نعم ها أنا فلان ابن فلان فقال: هل بعت من فلان الميت شيئاً؟ قال: نعم. بعته بعيري بنجيبه في النوم، فقال: هذا نجيبه، فخذه، وأنا ولده، وقد رأيته في النوم، وهو يقول: إن كنت ولدي، فادفع نجيبي إلى فلان. فانظر إلى هذا الرجل الكريم كيف أكرم أضيافه بعد موته[1].

وروي عن الهيثم بن عدي أنه قال: تمارى ثلاثة نفر في الأجواد، فقال رجل: أسخى الناس في عصرنا هذا عبد الله بن جعفر، فقال الآخر: أسخى الناس: قيس بن سعيد بن عبادة، فقال الآخر: بل أسخى الناس اليوم عرابة الأوسي، فتنازعوا بفناء الكعبة، فقال لهم رجل: لقد أفرطتم في الكلام، فليمض كل واحد منكم إلى صاحبه يسأله حتى ننظر بما يعود، فنحكم على العيان. فقام صاحب ابن جعفر فوافاه، وقد وضع رجله في ركاب راحلته يريد ضيعة له، فقال الرجل: يا ابن عم رسول الله ﷺ ابن سبيل ومنقطع به، قال: فأخرج رجله، وقال: ضع رجلك واستو على الناقة، وخذ ما في الحقيبة، وكان فيها مطارف خز وأربعة آلاف دينار. ومضى صاحب قيس، فوجده نائماً فقالت له جارية لقيس: ما حاجتك؟ فقال: ابن سبيل ومنقطع به، فقالت له الجارية: حاجتك أهون من إيقاظه، هذا كيس فيه سبعمائة دينار ما في دار قيس اليوم غيرها، وامض إلى معاطن الإبل[2]، فخذ راحلة من رواحله، وما يصلحها، وعبداً، وامض لشأنك، قيل: إن قيساً لما انتبه أخبرته الجارية بما صنعت، فأعتقها، ولو لم تعلم أن ذلك يرضيه ما جسرت أن تفعله، فخلق خدم الرجل مقتبس من خلقه. قال بعض الشعراء:

وإذا ما اختبرتَ ودّ صديقٍ
فاختبر ودّه من الغلمانِ

ومضى صاحب عرابة، فوجده قد خرج من منزله يريد الصلاة، فقال: يا عرابة ابن سبيل ومنقطع به. وكان معه عبدان، فصفق بيده اليمنى على اليسرى، وقال: أواه أواه، والله ما أصبح ولا أمسى الليلة عند عرابة شيء، ولا تركت له الحقوق مالاً، ولكن خذ هذين العبدين، فقال الرجل: والله ما كنت بالذي يسلبك عبديك، فقال: إن أخذتهما، وإلا فهما حران لوجه الله تعالى، فإن شئت، فأعتق، فأخذ الرجل العبدين ومضى. ثم اجتمعوا وذكروا قصة كل واحد، فحكموا لعرابة لأنه أعطى على جهد.

قيل: إن شاعراً قصد خالد بن يزيد، فأنشده شعراً يقول فيه:

سألت الندى والجود حرّان أنتُما
فقالا يقيناً إننا لعبيدُ
فقلت ومن مولاكما فتطاولا
إليّ وقالا خالدٌ ويزيد

فقال: يا غلام أعطه مائة ألف درهم، وقل له: إن زدتنا زدناك فأنشد يقول:

كريمٌ كريمِ الأمهات مهذّبٌ
تدفّقُ يمناه الندى وشمائله
هو البحرُ من أي الجهاتِ أتيته
فلجّتُهُ المعروفُ والجود ساحله
جوادٌ بسيط الكف حتى لو أنه
دعاها لقبضٍ لم تجبه أنامله

فقال يا غلام: أعطه مائة ألف درهم، وقل له إن زدتنا زدناك، فأنشد يقول:

تبرّعتَ لي بالجود حتى نعشتني
وأعطيتني حتى حسبتك تلعبُ
وأنبتَّ ريشاً في الجناحين بعدما
تساقط مني الريش أو كاد يذهب
فأنت الندى وابن الندى وأخو الندى
حليف الندى ما للندى عنك مذهبُ

فقال يا غلام: اعطه مائة ألف درهم وقل له: إن زدتنا زدناك، فقال: حسب الأمير ما سمع، وحسبي ما أخذت وانصرف.

وأما الذين انتهى إليهم الجود في الجاهلية

فهو حاتم بن عبد الله الطائي، وهرم ابن سنان، وخالد بن عبيد الله وكعب بن أمامة الأيادي. وضرب المثل بحاتم وكعب، وحاتم أشهرهما، فأما كعب، فجاد بنفسه، وآثر رفيقيه بالماء في المفازة، ومات عطشاً، وليس له خبر مشهور. وأما خالد بن عبيد الله، فإنه جاء إليه بعض الشعراء ورجله في الركاب يريد الغزو، فقال له: إني قلت فيك بيتين من الشعر، فقال: في مثل هذا الحال؟ قال: نعم، فقال: هاتهما، فأنشده يقول:

(١) تروى هذه الحكاية عن حاتم الطائي وجماعة نزلوا قرب قبره.
(٢) معاطن الإبل: مواضع بروكها.

يـــا واحـــد الـــعـــرب الـــذي
مـــا فـــي الأنـــام لـــه نـــظـــيـــرُ
لـــو كـــان مـــثـــلـــك آخـــرٌ
مـــا كـــان فـــي الـــدنـــيـــا فـــقـــيـــر

فقال يا غلام: أعطه عشرين ألف دينار، فأخذها وانصرف. وأما حاتم، فأخباره كثيرة، وآثاره في الجود شهيرة، ويكنى أبا سفانة وأبا عبدي، وكان يسير في قومه بالمرباع والمرباع ربع الغنيمة، وكان ولده عدي يعادي النبي ﷺ، فبعث النبي ﷺ علياً إلى طي، فهرب عدي بأهله وولده ولحق بالشام، وخلف أخته سفانة، فأسرتها خيل رسول الله ﷺ، فلما أُتي بها إلى النبي ﷺ قالت: يا محمد هلك الوالد، وغاب الرافد، فإن رأيت أن تخلي عني، ولا تشمت بي أحياء العرب، فإن أبي كان سيد قومه يفك العاني، ويقتل الجاني، ويحفظ الجار، ويحمي الذمار، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ويحمل الكل، ويعين على نوائب الدهر، وما أتاه أحد في حاجة فرده خائباً، أنا بنت حاتم الطائي، فقال لها النبي ﷺ: يا جارية هذه صفات المؤمنين حقاً، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه. خلوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق. وقال فيها: ارحموا عزيزاً ذل وغنياً افتقر، وعالماً ضاع بين جهال. فأطلقها ومنّ عليها، فاستأذنته في الدعاء له، فأذن له، وقال لأصحابه اسمعوا وعوا، فقالت: أصاب الله ببرك مواقعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة عن كريم قوم إلا وجعلك سبباً في ردها عليه. فلما أطلقها ﷺ رجعت إلى قومها، فأتت أخاها عدياً وهو بدومة الجندل، فقالت له يا أخي: ائت هذا الرجل قبل أن تعلقك حبائله، فاني قد رأيت هدياً ورأياً سيغلب أهل الغلبة رأيت خصالاً تعجبني. رأيته يحب الفقير، ويفك الأسير ويرحم الصغير ويعرف قدر الكبير، وما رأيت أجود ولا أكرم منه ﷺ. وإني أرى أن تلحق به، فإن يك نبياً فللسابق فضله، وإن يك ملكاً فلن يذل في عز اليمن.

فقدم عدي إلى النبي ﷺ فألقى له وسادة محشوة ليفاً، وجلس النبي ﷺ على الأرض، فأسلم عدي بن حاتم، وأسلمت أخته سفانة بنت حاتم المتقدم ذكرها، وكانت من أجود نساء العرب، وكان أبوها يعطيها الضريبة من إبله فتهبها وتعطيها الناس، فقال لها أبوها: يا بنية إن الكريمين إذا اجتمعا في المال أتلفاه، فأما أن أعطي وتمسكي، وأما أن أمسك وتعطي، فإنه لا يبقى على هذا شيء، فقالت له: منك تعلمت مكارم الأخلاق. قال ابن الأعرابي: كان حاتم الطائي من شعراء الجاهلية، وكان جواداً يشبه جوده شعره ويصدق قوله فعله، وكان حيثما نزل عرف منزله، وكان مظفراً إذا قاتل غلب، وإذا سئل وهب، وإذا سابق سبق وإذا أسر أطلق، وكان إذا أهلّ رجب الذي كانت تعظمه مضر في الجاهلية نحر كل يوم عشراً من الإبل وأطعم الناس، واجتمعوا إليه.

وكان قد تزوج ماوية بنت عفير، وكانت تلومه على إتلاف المال، فلا يلتفت لقولها. وكان لها ابن عم يقال له مالك، فقال لها يوماً: ما تصنعين بحاتم، فوالله لئن وجد مالاً ليتلفنّهُ، وإن لم يجد ليتكلّفن ولئن مات ليتركنّ أولاداً عالة على قومك. فقالت ماوية: صدقت إنه كذلك.

وكانت النساء يطلِّقن الرجال في الجاهلية وكان طلاقهن أن يكن في بيوت من شعر، فإن كان باب البيت من قِبل المشرق حولته إلى المغرب، وإن كان من قِبل المغرب حولته إلى المشرق، وإن كان من قِبل اليمن حولته إلى الشام، وإن كان من قِبل الشام حولته إلى اليمن، فإذا رأى الرجل ذلك علم إنها طلقته، فلم يأتها، ثم قال لها ابن عمها: طلقي حاتماً وأنا أتزوجك، وأنا خير لك منه، وأكثر مالاً، وأنا أمسك عليك، وعلى ولدك. فلم يزل بها حتى طلَّقته، فأتاها حاتم وقد حولت باب الخباء، فقال حاتم لولده: يا عدي ما ترى ما فعلت أمك؟ فقال: قد رأيت ذلك. قال: فأخذ ابنه وهبط بطن واد، فنزل فيه، فجاءه قوم، فنزلوا على باب الخباء كما كانوا ينزلون، وكان عدتهم خمسين فارساً، فضاقت بهم ماوية ذرعاً وقالت لجاريتها: اذهبي إلى ابن عمي مالك، وقولي له: إن أضيافاً لحاتم قد نزلوا بنا وهم خمسون رجلاً، فأرسل إلينا بشيء نقريهم ولبن نسقيهم، وقالت لها: انظري إلى جبينه وفمه، فإن شافهك بالمعروف فاقبلي منه، وإن ضرب بلحيته على زوره[1]، ولطم رأسه، فاقبلي ودعيه. فلما أتته وجدته متوسداً وطباً من لبن[2] فأيقظته وأبلغته الرسالة وقالت له: إنما هي الليلة حتى يعلم الناس مكان حاتم، فلطم رأسه بيده وضرب بلحيته، وقال: اقرئيها السلام وقولي لها: هذا الذي أمرتك أن تطلقي حاتماً لأجله، وما عندي لبن يكفي أضياف حاتم.

فرجعت الجارية، فأخبرتها بما رأت وبما قال لها،

---

(١) أي أحنى رأسه حتى أصابت لحيته أعلى صدره.
(٢) أي قد جعل وعاء اللبن وسادة له.

فقالت لها: اذهبي إلى حاتم وقولي له إن أضيافك قد نزلوا بنا الليلة ولم يعلموا مكانك فأرسل إلينا بناقة نقريهم ولبن نسقيهم.

فأتت الجارية حاتماً، فصاحت به، فقالت: لبيك قريباً دعوت، فأخبرته بما جاءت بسببه، فقال لها: حباً وكرامة، ثم قام إلى الإبل، فأطلق اثنتين من عقالهما وصاح بهما حتى أتيا الخباء، ثم ضرب عراقيبهما[1]، فطفقت ماوية تصيح: هذا الذي طلقتك بسببه. نترك أولادنا وليس لهم شيء. فقال لها: ويحك يا ماوية الذي خلقهم وخلق الخلق متكفل بأرزاقهم.

وكان إذا اشتد البرد وغلب الشتاء أمر غلمانه بنار فيوقدونها في بقاع الأرض لينظر إليها من ضل عن الطريق ليلاً، فيقصدها، ولم يكن حاتم يمسك شيئاً ما عدا فرسه وسلاحه، فإنه كان لا يجوز بهما، ثم جاد بفرسه في سنة مجدبة.

حكي أن ملكان ابن أخي ماوية قال: قلت لها يوماً: يا عمة حدثيني ببعض عجائب حاتم وبعض مكارم أخلاقه، فقالت: يا ابن أخي أعجب ما رأيت منه أصابت الناس سنة أذهبت الخف والظلف[2]، وقد أخذني وإياه الجوع وأسهرنا، فأخذت سفانة، وأخذ عدياً، وجعلنا نعللهما حتى ناما، فأقبل عليّ يحدثني ويعللني بالحديث حتى أنام، فرفقت به لما به من الجوع، فأمسكت عن كلامه لينام، فقال لي: أنمت؟ فلم أجبه.

فسكت ونظر في فناء الخباء، فإذا شيء قد أقبل، فرفع رأسه، فإذا امرأة فقال: ما هذا؟ فقالت: يا أبا عدي أتيتك من عند صبية يتعاوون كالكلاب أو كالذئاب جوعاً، فقال لها: أحضري صبيانك، فوالله لأشبعنهم، فقامت سريعة لأولادها، فرفعت رأسي وقلت له يا حاتم: بماذا تشبع أطفالها، فوالله ما نام صبيانك من الجوع إلا بالتعليل، فقال: والله لأشبعنك وأشبعن صبيانك وصبيانها، فلما جاءت المرأة نهض قائماً، وأخذ المدية بيده وعمد إلى فرسه، فذبحه، ثم أجج ناراً ودفع إليها شفرة، وقال: قطعي واشوي وكلي واطعمي صبيانك، فأكلت المرأة وأشبعت صبيانها، فأيقظت أولادي وأكلت وأطعمتهم، فقال: والله إن هذا لهو اللؤم تأكلون وأهل الحي حالهم مثل حالكم، ثم أتى الحي بيتاً بيتاً يقول لهم انهضوا بالنار، فاجتمعوا حول الفرس، وتقنّع حاتم بكسائه وجلس ناحية، فوالله ما أصبحوا وعلى وجه الأرض منها قليل ولا كثير إلا العظم والحافر، ولا والله ما ذاقها حاتم، وإنه لأشدهم جوعاً.

وأخباره كثيرة مشهورة ومن شعره:

أمــاويّ إنّ الــمــال غــادٍ ورائــحٌ
ويبقى من المال الأحاديث والذكرُ
وقـد عـلـم الأقـوام لـو أنّ حـاتـمـاً
أراد ثـراء الـمـال كـان لـه وفـرُ[1]

وأغار قوم على طيء، فركب حاتم فرسه وأخذ رمحه ونادى في جيشه وأهل عشيرته، ولقي القوم، فهزمهم وتبعهم، فقال له كبيرهم: يا حاتم هب لي رمحك، فرمى به إليه، فقيل لحاتم: عرضت نفسك للهلاك، ولو عطف عليك لقتلك. فقال: قد علمت ذلك، ولكن ما جواب من يقول هب لي؟

ولما مات عظم على طيء موته، فادعى أخوه أنه يخلفه، فقالت له أمه: هيهات شتان والله ما بين خلقتيكما، وضعته، فبقي والله سبعة أيام لا يرضع حتى ألقمت إحدى ثديي طفلاً من الجيران، وكنت أنت ترضع ثدياً ويدك على الآخر، فأنى لك ذلك. قال الشاعر:

يـعـيـش الـنـدى مـا عـاش حـاتـمُ طـيّءٍ
وإن مـات قـامـت لـلـسـخـاء مـآتـمُ

وكانت العرب تسمي الكلب داعي الضمير، ومتمم النعم، ومشيد الذكر لما يجلب من الأضياف بنباحه. والضمير: الغريب، وكانوا إذا اشتد البرد وهبت الرياح، ولم تُشبّ النيران فرقوا الكلاب حوالي الحي وربطوها إلى العمد لتستوحش فتنبح، فتهتدي الضلاّل وتأتي الأضياف على نباحها.

والحكايات في ذكر الأجواد والكرماء والأسخياء وأهل المعروف وما كانوا عليه من السخاء والكرم أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر. ففي مثل هذه المناقب فليتنافس المتنافسون ولمثلها فليعمل العاملون، فإن فيها عز الدنيا وشرف الآخرة، وحسن الصيت وخلود جميل الذكر، فإنا لم نجد شيئاً يبقى على ممر الدهر إلا الذكر حسناً كان أو قبيحاً.

---

(١) العراقيب ج عرقوب وهو عصب غليظ فوق العقب في مؤخر القدم، وإنما ضرب العراقيب لتبرك الإبل فيذبحها.
(٢) الخف: الإبل والظلف: الماعز والضأن.

(١) وما نقرأه الآن إثبات صدق ما فعله حاتم فما زالت أخبار كرمه تتداولها الأجيال إلى يومنا هذا.

وقد قال الشاعر:

ولا شيءَ يدوم فكنْ حديثاً
جميلَ الذكر فالدنيا حديثُ

فانتهز فرصة العمر ومساعدة الدنيا ونفوذ الأمر وقدم لنفسك كما قدموا، تذكر بالصالحات كما ذكروا، وادَّخِر نفسك في القيامة كما ادَّخروا، واعلم أن المأكول للبدن والموهوب للمعاد والمتروك للعدو، فاختر أي الثلاث شئت.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الرابع والثلاثون

في البخل والشح وذكر البخلاء وأخبارهم وما جاء عنهم

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[1] الآية.

وقال رسول الله ﷺ: «إيّاكم والشُّحّ فإن الشح أهلك من كان قبلكم» وعنه ﷺ أنه قال: «البخل جامع لمساوىء القلوب وهو زمام يقاد به إلى كل سوء». وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنهما: إن البخل لو كان قميصاً ما لبسته أو كان طريقاً ما سلكته.

وقيل: بخلاء العرب أربعة: الحطيئة وحميد الأرقط وأبو الأسود الدؤلي وخالد بن صفوان. فأما الحطيئة فَمَرَّ به إنسان وهو على باب داره وبيده عصا، فقال: أنا ضيف فأشار إلى العصا وقال: لكعاب الضيفان أعددتها. وأما حميد الأرقط، فكان هجاءً للضيفان فحّاشاً عليهم، نزل به مرة أضياف، فأطعمهم تمراً، وهجاهم وذكر أنهم أكلوه بنواه. وأما أبو الأسود، فتصدَّق على سائل بتمرة، فقال له: جعل الله نصيبك من الجنة مثلها. وكان يقول: لو أطعنا المساكين في أموالنا كنا أسوأ حالاً منهم. وأما خالد بن صفوان، فكان يقول للدرهم إذا دخل عليه: يا عَيَّار كم تعير وكم تطرف وتطير، لأطيلن حبسك. ثم يطرحه في الصندوق ويقفل عليه. وقيل له: لِمَ لا تنفق، ومالك عريض؟ فقال: الدهر أعرض منه.

(١) سورة النساء، الآية (٣٧).

وأنشد بعضهم:

وهَبْني جمعت المالَ ثم خزنته
وحانت وفاتي هل أُزادُ به عمرا

إذا خَزَن المالَ البخيلُ فإنه
سيورثه غمّاً ويعقبه وِزرا[١]

واستأذن حنظلة على صديق له بخيل، فقيل: هو محموم، فقال: كلوا بين يديه حتى يعرَق. وكتب سهل بن هارون كتاباً في مدح البخل وأهداه إلى الحسن بن سهل فوقع على ظهره، «قد جعلنا ثوابك عليه ما أمرت به فيه»[٢].

وقال ابن أبي فنن:

ذريني وإتلافي لمالي فإنني
أحبّ من الأخلاق ما هو أجملُ

وإنّ أحقّ الناس باللوم شاعرٌ
يلوم على البخل الرجال ويبخل

وكان عمر بن يزيد الأسدي بخيلاً جداً، أصابه القولنج[٣] في بطنه فحقنه الطبيب بدهن كثير فانحل ما في بطنه في الطست، فقال لغلامه: اجمع الدهن الذي نزل من الحقنة وأسرج به. وكان المنصور شديد البخل جداً، مر به مسلم الحادي في طريقه إلى الحج، فحدا له يوماً بقول الشاعر:

أغرُّ بَيْنَ الحاجبين نورُهُ
يزينه حياؤه وخيرُهُ[٤]

ومسكه يشوبه كافوره
إذا تغذّى رُفعت ستورُهُ[٥]

فطرب حتى ضرب برجله المحمل ثم قال: يا ربيع أعطه نصف درهم، فقال مسلم: نصف درهم! يا أمير المؤمنين، والله لقد حدوت لهشام، فأمر لي بثلاثين ألف درهم. فقال: تأخذ من بيت مال المسلمين ثلاثين ألف درهم، يا ربيع: وَكِّلْ به من يستخلص منه هذا المال. قال

(١) أي يستحمل وزر كنزه وعدم إنفاقه في زكاة أو صدقة أو عيال أو على نفسه.
(٢) أي لم يعطه شيئاً، فقد أمر فيه بالبخل.
(٣) هو ما يسمى ريح السُّدد، ينتفخ منه بطن المريض بسبب احتقان الريح والثفل.
(٤) أغرُّ: أبيض الغُرّة: والمراد هنا أبيض الجبين.
(٥) وإنما يرفع ليشاركه من يدخل.

الربيع: فما زلت أمشي بينهما وأروضه حتى شرط مسلم على نفسه أن يحدو له في ذهابه وإيابه بغير مؤنة.

وكان أبو العتاهية، ومروان بن أبي حفصة بخيلين يضرب ببخلهما المثل، قال مروان: ما فرحت بشيء أشد مما فرحت بمائة ألف درهم وهبها لي المهدي، فوزنتها فرجحت درهماً، فاشتريت به لحماً. واشترى يوماً لحماً بدرهم، فلما وضعه في القدر دعاه صديقه، فرد اللحم على القصاب بنقصان دانقين، فجعل القصاب ينادي على اللحم ويقول: هذا لحم مروان، واجتاز يوماً بأعرابية، فأضافته، فقال: إن وهب لي أمير المؤمنين مائة ألف درهم وهبت لك درهماً، فوهبه سبعين ألف درهم، فوهبها أربعة دوانق.

ومن الموصوفين بالبخل: أهل مرو، يقال إن عادتهم إذا ترافقوا في سفر أن يشتري كل واحد منهم قطعة لحم ويشكها في خيط ويجمعون اللحم كله في قدر، ويمسك كل واحد منهم طرف خيطه، فإذا استوى جر كل منهم خيطه وأكل لحمه وتقاسموا المرق.

وقيل لبخيل: من أشجع الناس؟ قال: من سمع وقع أضراس الناس على طعامه ولم تنشق مرارته. **وقيل لبعضهم**: أما يكسوك محمد بن يحيى؟ فقال: والله لو كان له بيت مملوء إبراً، وجاء يعقوب ومعه الأنبياء شفعاء والملائكة ضمناء يستعير منه إبرة ليخيط بها قميص يوسف الذي قُدَّ من دبر[1]، ما أعاره إياها، فكيف يكسوني؟ وقد نظم ذلك من قال:

لو أن دارك أنبتتْ لك واحتشتْ
إبراً يضيق بها فناءُ المنزلِ
وأتاك يوسُفُ يستعيرك إبرةً
ليخيطَ قُدَّ قميصهِ لم تفعلِ

وكان المتنبي بخيلاً جداً مدحه إنسان بقصيدة، فقال له: كم أمَّلْتَ منا على مدحك؟ قال: عشرة دنانير. قال له: والله لو ندفت قطن الأرض بقوس السماء على جباه الملائكة ما دفعت لك دانقاً.

وقال دعبل: كنا عند سهل بن هارون، فلم نبرح حتى كاد يموت من الجوع، فقال: ويلك يا غلام آتنا غداءنا، فأتي بقصعة فيها ديك مطبوخ تحته ثريد قليل، فتأمل الديك فرآه بغير رأس، فقال لغلامه: وأين الرأس؟ فقال:

(١) قد من دبر: شُقّ من الخلف.

رميته، فقال: والله إني لأكره من يرمي برجله، فكيف برأسه؟ ويحك أما علمت أن الرأس رئيس الأعضاء ومنه يصيح الديك ولولا صوته ما أريد، وفيه فرقه الذي يتبرك به وعينه التي يضرب بها المثل، فيقال: شراب كعين الديك، ودماغه عجيب لوجع الكلية، ولم نر عظماً أهش تحت الأسنان من عظم رأسه، وهبك ظننت أني لا آكله، أما قلت عنده من يأكله. أنظر في أي مكان رميته فأتني به. فقال: والله لا أدري أين رميته، فقال: ولكني أنا أعرف أين رميته. رميته في بطنك، الله حسبك.

وقيل: من الناس من يبخل بالطعام ويجود بالمال وبالعكس. قال بعضهم في أبي دلف:

أبو دلفٍ يُضيِّعُ ألفَ ألفٍ
وَيَضْرِبُ بالحُسَامِ على الرَّغِيفِ
أبو دلفٍ لمطبخه قُتارٌ
ولكن دونه سلّ السيوف[1]

واشتكى رجل مروزي صدره من سعال، فوصفوا له سويق اللوز فاستثقل النفقة، ورأى الصبر على الوجع أخف عليه من الدواء، فبينما هو يماطل الأيام ويدافع الآلام إذ أتاه بعض أصدقائه، فوصف له ماء النّخالة، وقال: إنه يجلو الصدر، فأمر بالنخالة فطبخت له وشرب من مائها، فجلا صدره ووجده يعصم[2]، فلما حضر غداؤه أمر به، فرفع إلى العشاء، وقال لامرأته: اطبخي لأهل بيتنا النخالة فإني وجدت ماءها يعصم ويجلو الصدور. فقالت: لقد جمع الله لك بهذه النخالة بين دواء وغذاء، فالحمد لله على هذه النعمة[3].

وعن خاقان بن صبح قال: دخلت على رجل من أهل خراسان ليلاً فأتانا بمسرجة فيها فتيلة في غاية الرقة، وقد علق فيها عوداً بخيط، فقلت له: ما بال هذا العود مربوطاً؟ قال: قد شرب الدهن وإذا ضاع ولم نحفظه احتجنا إلى غيره، فلا نجد إلا عوداً عطشاناً، ونخشى أن يشرب الدهن.

قال: فبينما أنا أتعجب وأسأل الله العافية إذ دخل علينا شيخ من أهل مرو، فنظر إلى العود، فقال الرجل: يا فلان

(١) أي دون رائحة دخان طعامه سلُّ السيوف وهذه مبالغة إلا أن المراد أنه لا يسمح لأحد بدخول مطبخه.

(٢) أي يرد الجوع أيضاً.

(٣) هذه القصة وأكثر قصص البخلاء المذكورة في هذا الباب مصدرها كتاب البخلاء للجاحظ.

لقد فررت من شيء ووقعت فيما هو شر منه، أما علمت أن الريح والشمس يأخذان من سائر الأشياء وينشفان هذا العود، لمَ لا اتخذت مكان هذا العود إبرة من حديد، فإن الحديد أملس وهو مع ذلك غير نشاف، والعود أيضاً ربما يتعلق به شعرة من قطن الفتيلة فينقصها. فقال له الرجل الخراساني: أرشدك الله، ونفع بك، فلقد كنت في ذلك من المسرفين.

وقال الهيثم بن عدي: نزل على أبي حفصة الشاعر رجل من اليمامة، فأخلى له المنزل ثم هرب مخافة أن يلزمه قراه في هذه الليلة فخرج الضيف واشترى ما احتاج إليه، ثم رجع وكتب إليه:

يا أيها الخارجُ من بيته
وهارباً من شدة الخوفِ

ضيفك قد جاء بزادٍ له
فارجع وكن ضيفاً على الضيف

واشترى رجل من البخلاء داراً وانتقل إليها، فوقف ببابه سائل فقال له: فتح الله عليك. ثم وقف ثان، فقال له مثل ذلك، ثم وقف ثالث، فقال له مثل ذلك، ثم التفت إلى ابنته، فقال لها: ما أكثر السُّؤَّال في هذا المكان. قالت: يا أبت ما دمت مستمسكاً لهم بهذه الكلمة فما تبالِ كثروا أم قلوا. **وألأم اللئام وأبخلهم** حميد الأرقط الذي يقال له هَجَّاء الأضياف، وهو القائل في ضيف له يصف أكله بهذا البيت من قصيدة له:

ما بين لقمته الأولى إذا انحدرت
وبين أخرى تليها قيد أظفور

وقال فيه أيضاً:

تُجهز كفّاهُ ويحدر حلقُه
إلى الزور ما ضُمَّت عليه الأنامل[1]

وأكل أعرابي مع أبي الأسود رطباً فأكثر، ومد أبو الأسود يده إلى رطبة ليأخذها فسبقه الأعرابي إليها فسقطت منه في التراب، فأخذها أبو الأسود وقال: لا أدعها للشيطان يأكلها، فقال الأعرابي: والله ولا لجبريل وميكائيل لو نزل من السماء ما تركها.

وقال أعرابي لنزيل نزل به: نزل بواد غير ممطور ورجل بك غير مسرور، فأقم بعدمٍ أو ارحل بندم.

وللحمدوني:

رأيتُ أبا زرارة قَالَ يوماً
لحاجبه وفي يده الحسامُ

لئن وُضِع الخوان ولاح شخصٌ
لاختطفن رأسك والسلام

فقال سوى أبيك فذاك شيخ
بغيضٌ ليس يردعه الكلام

فقام وقال من حنق إليه
ببيت لم يُرد فيه القيام

أبي وَابْنَا أبي والكلبُ عندي
بمنزلةٍ إذا حضر الطعام

وقال له أبن لي يا ابن كلبٍ
على خبزي أصادر أو أضام

إذا حضر الطعام فلا حقوقٌ
على لوالديَّ ولا ذمام

فما في الأرض أقبحُ من خوان
عليه الخبز يحضره الزحام

فأين هذا من القائل:

بخيل يرى في الجودِ عاراً وإنما
يرى المرء عاراً أن يضنّ ويبخلا

إذا المرء أثرى ثم لم يُرْجَ نفعه
صديقٌ فلاقته المنية أوّلا

وقال آخر:

وآمرةٌ بالبخل قلت لها اقصري
فليس إليه ما حييت سبيلُ

أرى الناس إخوان الكريم وما أرى
بخيلاً له في العالمين خليل

وقالوا: إذا سألت لئيماً شيئاً فعاجله ولا تدعه يفكر، فإنه كلما فكَّر ازداد بعداً وقال ربعي الهمداني:

جمعت صنوف المال من كلِّ وجهةٍ
وما نلتها إلاّ بكفٍّ كريم

وإني لأرجو أن أموت وتنقضي
حياتي وما عندي يدٌ للئيم

وأنشد الجاحظ لأبي الشمقمق:

ممَّن تعلمتَ هذا
أن لا تجود بشي

---

(١) أي يحضر اللقمة الثانية أثناء ابتلاع الأولى. والأنامل: الأصابع.

أما مررت بعبدة
لعبد حاتم طي

ومما قاله الشعراء في البخلاء وطعامهم، فمن أهجى ما قيل فيهم بيت جرير في بني تغلب:

والتغلبي إذا تنحنح للقرى
حكّ أسته وتمثّل الأمثالا

وله أيضاً فيهم:

قومٌ إذا أكلوا أخفوا كلامهم
واستوثقوا من رتاج الباب والدار

قوم إذا استنبح الضيفان كلبَهُمُ
قالوا لأمّهم بولي على النار

فتمنع البولَ شحّاً أن تجود به
وما تبول لهم إلاّ بمقدار

والخبز كالعنبر الهندي عندهم
والقمح خمسون إردباً بدينار

فأين هؤلاء من الذي قال فيه الشاعر:

أبلجُ بين حاجبيه نوره
إذا تغدى رفعت ستوره

وقال بعضهم في بخيل:

أتانا بخيلٌ بخبزٍ له
كمثل الدراهم في رقته

إذا ما تنفس حول الخوان
تطاير في البيت من خِفَّتِهِ

وقال آخر:

تراهم خشية الأضياف خُرساً
يقيمون الصلاة بلا أذان

وقال آخر وقد بات عند بخيل:

فبتنا كأنّا بينهُمُ أهْلُ مأتم
على ميّتٍ مستَودعٍ بطن ملحد

يحدّث بعضاً بعضنا بمصابه
ويأمر بعضاً بعضنا بالتجلد[١]

وقال آخر:

وجيرةٍ لا ترى في الناس مثلَهُمُ
إذا يكون لهم عيدٌ وإفطارُ

(١) التجلد: التَّصَبُّر عند وقوع المصيبة أما مصيبتهم هنا فهي الجوع.

إن يوقدوا يوسعونا من دخانهم
وليس يبلغنا ما تطبخ النارُ

وقال آخر وأجاد:

فَصَدِّقْ أَيْمَانَهُ إن قال مجتهداً
لا والرغيف فذاك البَرُّ من قسمه

فإن هممت به فاعبث بخبزته
فإنّ موقعها من لحمه ودمه

قد كان يعجبني لو أنّ غيرته
على جرادقه[١] كانت على حُرَمِه

وقال آخر:

ذهب الكرام فلا كرام
وبقي العَضَارِيطُ اللِّئام

من لا يُقبل ولا ينب
ل ولا يُشَمّ له طعام

وقال آخر:

خليلي من كعبٍ أعينا أخاكما
على دهره إنّ الكريم معين

ولا تبخلا بُخْلَ ابن قزعة إنه
مخافة أن يرجى نداه حزين

إذا جئته في حاجة سدّ بابه
فلم تلقهُ إلاّ وأنت كمين[٢]

وقال آخر:

له يومان يوم ندى ويومٌ
يسل السيفَ فيه من القراب[٣]

فأما جوده فعلى قِحَابٍ
وأما سيفه فعلى الكلاب

وقال آخر:

زففتُ إلى نبهانٍ من صفو فكرتي
عروساً غدا بطنُ الكتاب لها صَدْرا

فقبّلَهَا عشراً وهام بحبها
فلما ذكرتُ المهر طَلَّقَهَا عَشْرا

(١) جرادقه: رغيفه.
(٢) أي تكمن له فلا يراك، وإلا فلا مجال للقائه إن عرف بمجيئك أو رآك من بعيد.
(٣) القراب: غمد السيف.

وقال آخر:

لو عبَرَ البحر بأمواجه
في ليلة مظلمة باردة
وكفّه مملوءة خردلاً
ما سقطت من كفّه واحدة[1]

وقال آخر:

يا قائماً في دارِهِ قاعِداً
مِنْ غَيْرِ مَعْنىً لاَ وَلاَ فائِدَة
قَدْ مَاتَ أضْيَافُكَ مِنْ جُوعِهِم
فَاقْرأ عَلَيْهِم سُورَةَ المَائِدَة

وقال آخر:

نوالك دونه شوك القتاد
وخبزك كالثريا في البعاد[2]
فلو أبصرت ضيفاً في منام
لحرمت الرقاد إلى العباد

وقال آخر:

لا تعجبنّ لخبز زلّ من يده
فالكوكب النحس يسقي الأرض أحياناً

وقال ابن أبي حازم:

وقالوا قد مدحت فتىً كريماً
فقلتُ وكيفَ لي بفتىً كريمِ
بلوتُ ومرّ بي خمسون حولاً
وحسبك بالمجرب من عليمِ
فلا أحدٌ يعدّ ليوم خيرٍ
ولا أحدٌ يجود على عديم[3]

ومن رؤساء أهل البخل

محمد بن الجهم، وهو الذي قال: وددت لو أن عشرة من الفقهاء وعشرة من الخطباء وعشرة من الشعراء وعشرة من الأدباء تواطأوا على ذمي واستسهلوا شتمي حتى ينتشر ذلك في الآفاق، فلا يمتد إلي أمل آمل ولا يبسط نحوي رجاءُ راجٍ. وقال له أصحابه يوماً إنَّا نخشى أن نقعد عندك فوق مقدار شهوتك، فلو جعلت لنا علامة نعرف بها وقت استثقالك لمجالستنا، فقال: علامة ذلك أن أقول يا غلام هات الغداء.

وقال عمر بن ميمون مررت ببعض طرق الكوفة فإذا أنا برجل يخاصم جاراً له، فقلت: ما بالكما؟ فقال أحدهما: إن صديقاً لي زارني فاشتهى رأساً فاشتريته وتغدينا وأخذت عظامه فوضعتها على باب داري أتجمل بها فجاء هذا فأخذها ووضعها على باب داره يوهم الناس أنه هو الذي اشترى الرأس.

قال رجل من البخلاء لأولاده: اشتروا لي لحماً، فاشتروه، فأمر بطبخه فلما استوى أكله جميعه حتى لم يبق في يده إلا عظمة، وعيون أولاده ترمقه[1]. فقال ما أعطي أحداً منكم هذه العظمة حتى يحسن وصف أكلها. فقال ولده الأكبر: أمشمشها يا أبت وأمصها حتى لا أدع للذر[2] فيها مقيلاً[3] قال: لست بصاحبها.

فقال الأوسط: ألوكها يا أبت وألحسها حتى لا يدري أحد لعام هي أم لعامين. قال لست بصاحبها.

فقال الأصغر: يا أبت أمصها ثم أدقها وأسفها سفاً. قال: أنت صاحبها، وهي لك زادك الله معرفة وحزماً.

ووقف أعرابي على باب أبي الأسود وهو يتغدى، فسلم فرد عليه ثم أقبل على الأكل ولم يعزم عليه، فقال له الأعرابي: أما أني قد مررت بأهلك، قال: كذلك كان طريقك. قال: وامرأتك حبلى، قال: كذلك كان عهدي بها. قال: قد ولدت، قال: كان لا بد لها أن تلد. قال: ولدت غلامين. قال: كذلك كانت أمها. قال: مات أحدهما. قال: ما كانت تقوى على إرضاع اثنين. قال: ثم مات الآخر. قال: ما كان ليبقى بعد موت أخيه. وقال: ماتت الأم. قال: حزناً على ولديها. قال: ما أطيب طعامك. قال: لأجل ذلك أكلته وحدي ووالله لا ذقته يا أعرابي.

وقيل: خرج أعرابي قد ولاّه الحجاج بعض النواحي فأقام بها مدة طويلة، فلما كان في بعض الأيام ورد عليه أعرابي من حيه فقدم إليه الطعام وكان إذ ذاك جائعاً، فسأله عن أهله وقال: ما حال ابني عمير؟ قال: على ما تحب قد

---

(١) حب الخردل حب صغير جداً يتفلّت من بين الأصابع فهو يصفه هنا بأنه غاية في البخل لدرجة أن حبة الخردل لا تقع من يده ولو كان يعبر البحر.

(٢) نوالك: عطاؤك، القتاد: نبت شوكي شوكه قاسٍ شديد الإيذاء.

(٣) عديم: مُعْدَم أي شديد الفقر لا يملك شيئاً.

---

(١) ترمقه: تنظر إليه.

(٢) الذر: صغار النمل ونوع من النمل صغير جداً.

(٣) مقيلاً: مكاناً للقيلولة.

ملأ الأرض والحي رجالاً ونساء. قال: فما فعلت أم عمير؟ قال: صالحة أيضاً. قال: فما حال الدار؟ قال: عامرة بأهلها. قال: وكلبنا إيقاع؟ قال: قد ملأ الحي نبحاً، قال: فما حال جملي زريق؟ قال: على ما يسرك. قال: فالتفت إلى خادمه وقال: ارفع الطعام فرفعه ولم يشبع الأعرابي ثم أقبل عليه يسأله وقال: يا مبارك الناصية أعد علي ما ذكرت، قال: سل عما بدا لك، قال: فما حال كلبي إيقاع؟ قال: مات. قال: وما الذي أماته؟ قال: اختنق بعظمة من عظام جملك زريق فمات. قال: أو مات جملي زريق؟ قال: نعم. قال: وما الذي أماته؟ قال: كثرة نقل الماء إلى قبر أم عمير. قال: أو ماتت أم عمير؟ قال: نعم. قال: وما الذي أماتها؟ قال: كثرة بكائها على عمير. قال: أو مات عمير؟ قال: نعم. قال: وما الذي أماته؟ قال: سقطت عليه الدار. قال: أو سقطت الدار؟ قال: نعم. قال: فقام له بالعصا ضارباً فولى من بين يديه هارباً.

وحكي بعضهم قال: كنت في سفر فضللت عن الطريق فرأيت بيتاً في الفلاة فأتيته، فإذا به أعرابية فلما رأتني قالت: من تكون؟ قلت: ضيف. قالت: أهلاً ومرحباً بالضيف، إنزل على الرحب والسعة، قال: فنزلت فقدمت لي طعاماً فأكلت، وماء فشربت، فبينما أنا على ذلك إذ أقبل صاحب البيت فقال: من هذا؟ فقالت: ضيف. فقال: لا أهلاً ولا مرحباً ما لنا وللضيف، فلما سمعت كلامه ركبت من ساعتي وسرت فلما كان من الغد رأيت بيتاً في الفلاة فقصدته، فإذا فيه أعرابية فلما رأتني قالت: من تكون؟ قلت: ضيف، قالت: لا أهلاً ولا مرحباً بالضيف ما لنا وللضيف؟ فبينما هي تكلمني إذ أقبل صاحب البيت فلما رآني قال: من هذا؟ قالت: ضيف. قال: مرحباً وأهلاً بالضيف. ثم أتى بطعام حسن فأكلت وماء فشربت فتذكرت ما مر بي بالأمس فتبسمت، فقال: مم تبسمك؟ فقصصت عليه ما اتفق لي مع تلك الأعرابية وبعلها وما سمعت منه ومن زوجته، فقال: لا تعجب إن تلك الأعرابية التي رأيتها هي أختي وإن بعلها أخو امرأتي هذه، فغلب على كلٍّ طبعُ أهله.

وحكايات هؤلاء وأمثالهم كثيرة وأخبارهم ونوادرهم شهيرة، وفيما ذكرته كفاية. وأسأل الله تعالى التوفيق والهداية إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الخامس والثلاثون

في الطعام وآدابه والضيافة وآداب المضيف وأخبار الأكلة وما جاء عنهم وغير ذلك

أما إباحة الطيب من المطاعم

فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[3] وقال رسول الله ﷺ: «مُحَرِّمُ الحَلاَلِ كَمُحَلِّلِ الحَرَامِ».

وقال عليه الصلاة والسلام: إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده في مأكله ومشربه. **وكان الحسن** رضي الله تعالى عنه يقول: ليس في اتخاذ الطعام سرف. **وسئل الفضيل** عمن يترك الطيبات من اللحم والخبيص[4] للزهد، فقال: ما للزهد وأكل الخبيص؟ ليتك تأكل وتتقي الله إن الله لا يكره أن تأكل الحلال إذا اتقيت الحرام، أنظر كيف برك بوالديك وصلتك للرحم وكيف عطفك على الجار وكيف رحمتك للمسلمين وكيف كظمك للغيظ وكيف عفوك عمن ظلمك وكيف إحسانك إلى من أساء إليك وكيف صبرك واحتمالك للأذى، أنت إلى إحكام هذا أحوج من ترك الخبيص.

وأما نعوت الأطعمة وما جاء في فيها

فقد نقل عن الرشيد أنه سأل أبا الحارث عن الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب، فقال: يا أمير المؤمنين لا أقضي على غائب. فأحضرهما إليه، فجعل يأكل من هذا لقمة ومن هذا لقمة ثم قال: يا أمير المؤمنين كلما أردت أن أقضي لأحدهما أتى الآخر بحجته.

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٧٢).
(٢) سورة المائدة، الآية (٤).
(٣) سورة الأعراف، الآية (٣٢).
(٤) الخبيص: الحلواء المخبوصة من التمر والسمن يطبخان معاً.

واختلف الرشيد وأم جعفر في الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب فحضر أبو يوسف القاضي فسأله الرشيد عن ذلك فقال: يا أمير المؤمنين لا يقضى على غائب فأحضرهما فأكل حتى اكتفى، فقال له الرشيد: احكم. قال: قد اصطلح الخصمان يا أمير المؤمنين. فضحك الرشيد وأمر له بألف دينار، فبلغ ذلك زبيدة فأمرت له بألف دينار إلا ديناراً.

وسمع الحسن البصري رجلاً يعيب الفالوذج فقال: لباب البر بلعاب النحل بخالص السمن ما أظن عاقلاً يعيبه. وقال الأصمعي: أول من صنع الفالوذج عبد الله بن جدعان. وأتي أعرابي بفالوذج فأكل منه لقمة فقيل له: هل تعرف هذا؟ فقال: هذا وحياتك الصراط المستقيم.

وكان أحب الطعام إلى رسول الله ﷺ اللحم. وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم. وكان ﷺ يقول: هو سيد الطعام في الدنيا والآخرة وهو يزيد في السمع ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل. وكان ﷺ يحب الدُّبّاء[1] ويقول: يا عائشة إذا طبختي قدراً فأكثروا فيها من الدباء فأنها تشد القلب الحزين وهي شجرة أخي يونس.

وعنه ﷺ أنه قال: عليكم بالقرع فإنه يشد الفؤاد ويزيد في الدماغ، وعليكم بالعدس فإنه يرق القلب ويغزر الدمعة.

وعن أبي رافع قال: كان أبو هريرة رضي الله تعالى عنه يقول: أكل التمر أمان من القولنج وشرب العسل على الريق أمان من الفالج، وأكل السفرجل يحسن الولد وأكل الرمان يصلح الكبد والزبيب يشد العصب ويذهب بالنصب والوصب[2] والكرفس يقوي المعدة ويطيب النكهة، وأطيب اللحم الكتف. وكان يديم أكل الهريسة[3] وكان يأكل على سماط معاوية ويصلي خلف علي ويجلس وحده. فسئل عن ذلك فقال: طعام معاوية أدسم، والصلاة خلف علي أفضل، وهو أعلم والجلوس وحدي لي أسلم. وسميت المتوكلية بالمتوكل والمأمونية بالمأمون[1].

وقال الحسن بن سهل يوماً على مائدة المأمون: الأرز يزيد في العمر فسأله المأمون عن ذلك فقال: يا أمير المؤمنين أن طب الهند صحيح وهم يقولون أن الأرز يُري منامات حسنة، ومن رأى مناماً حسناً كان في نهارين. فاستحسن قوله ووصله.

وقال أبو صفوان: الأرز الأبيض بالسمن والسكر[2] ليس من طعام أهل الدنيا. وقيل لأبي الحارث: ما تقول في الفالوذجة؟ قال: وددت لو أنها وملك الموت اعتلجا في صدري، والله لو أن موسى لقي فرعون بالفالوذجة لآمن ولكنه لقيه بعصا. وكانت العرب لا تعرف الألوان إنما كان طعامهم اللحم بطبخ بالماء والملح، حتى كان زمن معاوية رضي الله تعالى عنه فاتّخذ الألوان.

ويقال للمرقة المسخنة، بنت نارين وكان بعض المترفهين يقول: جنبوا مائدتي بنت نارين. وقالوا: كل طعام أعيد عليه التسخين مرتين فهو فاسد[3]. وقيل إذا ألقي اللحم في العسل ثم أخرج بعد شهر طرياً فإنه لا يتغير[4].

ويقال للسكباج سيد المرق وشيخ الأطعمة وزين الموائد. ويقال إذا طبخت اللحم بالخل فقد ألقيت عن معدتك ثلث المؤنة، ويقال للخبز ابن حبة. قال بعضهم:

فـي حـبّـةِ الـقـلـب مـنـي
زرعــت حُــبُّ ابــن حــبــه

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما رفعه: «أكرموا الخبز» قالوا: وما كرامته يا رسول الله؟ قال لا ينتظر به الأدام إذا وجدتم الخبز فكلوه حتى تؤتوا بغيره. وفي

---

(١) الدُّبّاء: اليقطين، والبعض يسميه القرع أيضاً، والمقصود القرع الكبير، البعض يصنع منه المربّى مع السكر، والبعض يطبخه مع المرق ويكون بديلاً عن اللحم في ألوان عديدة من الأطعمة.

(٢) النصب والوصب: التعب والمرض والمراد حالات الضعف الشديد أو الإنهاك.

(٣) الهريسة المقصودة طعام يتخذ من القمح المقشور واللحم والبعض يزيد الأبازير ويكثرها.

(١) المتوكلية لا نعرفها أما المأمونية فحلوى تتخذ من الزبد والسكّر والطحين ويطبخ بعد قليه.

(٢) هي حلوى تعرف عندنا باسم حلاوة الأرز.

(٣) وهذا صحيح طبياً حسب العلوم الطبية المعروفة في أيامنا لأن الفيتامينات تتبخر: وتفسد عند درجة حرارة معينة وبعض الأملاح المعدنية تفسد بتكرار التسخين.

(٤) والعسل إن كان عسل زهور برية حقاً يحفظ اللحم لمدة طويلة أكثر من المذكور هنا والقمح المحفوظ في العسل أخرج من آثار المصريين القدامى في أيامنا ثم زرع فأنبت سنابل كالقمح الجديد.

الحديث: «من داوم على اللحم أربعين يوماً قسا قلبه ومن تركه أربعين يوماً ساء خلقه»، وقيل: المائدة التي أنزلت على بني إسرائيل كان عليها كل البقول إلا الكُرَّاث، وسمكة عند رأسها خل وعند ذنبها ملح وسبعة أرغفة على كل واحد زيتون وحب رمان.

ودخل ابن قزعة يوماً على عز الدولة وبين يديه طبق فيه موز فتأخر عن استدعائه، فقال ما بال مولانا ليس يدعوني إلى الفوز بأكل الموز؟ فقال: صفه حتى أطعمك منه فقال: ما الذي أصف من حسن لونه، فيه سبائك ذهبية كأنها حشيت زبداً وعسلاً، أطيب الثمر كأنه مخ الشحم، سهل المقشر لين المكسر عذب المطعم بين الطعوم، سلس في الحلقوم، ثم مد يده وأكل.

وسمع رجلاً يذم الزبد فقال له: ما الذي ذممت منه سواد لونه أم بشاعة طعمه أم صعوبة مدخله أم خشونة ملمسه؟

وقيل له: ما تقول في الباذنجان فقال: أذناب المحاجم وبطون العقارب وبزور الزقوم. قيل له أنه يحشى باللحم فيكون طيباً، فقال لو حشي بالتقوى والمغفرة ما أفلح.

وصنع الحجاج وليمة واحتفل فيها ثم قال لزاذان: هل عمل كسرى مثلها؟ فاستعفاه، فأقسم عليه فقال: أولم عبدٌ عند كسرى فأقام على رؤوس الناس ألف وصيفة، في يد كل واحد إبريق من ذهب. فقال الحجاج: أف والله ما تركت فارس لمن بعدها من الملوك شرفاً.

وأهدى رجل إلى آخر فالوذجة زنخة وكتب إليه: إني اخترت لعملها السكر السوسي والعسل المارداني والزعفران الأصبهاني، فأجابه: والله العظيم ما عملت إلا قبل أن توجد أصبهان وقبل أن تفتح السوس وقبل أن يوحي ربك إلى النحل.

وقيل أن أبا جهنم بن عطية كان عيناً لأبي مسلم الخولاني على المنصور، فأحس المنصور بذلك فطاوله الحديث يوماً حتى عطش، فاستسقى فدعا له بقدح من سويق اللوز فيه السم فناوله إياه فشرب منه فما بلغ داره حتى مات، فقيل في ذلك:

تجنَّبْ سويقَ اللوز لا تقربنَّهُ
فشُربُ سويق اللوز أردى أبا جهم

وقال أبو طالب المأموني:

فما حملت كفّ أمرىءٍ متطعما
ألذّ وأشهى من أصابع زينبِ

وأصابع زينب[1] ضرب من الحلوى يعمل ببغداد، يشبه أصابع النساء المنقوشة. ودخل السائب على علي رضي الله تعالى عنه في يوم شات، فناوله قدحاً فيه عسل وسمن ولبن، فأباه[2] فقال أما أنك لو شربته لم تزل دفئاً شبعان سائر يومك.

وعن نافع بن أبي نعيم قال: كان أبو طالب يعطي علياً قدحاً من اللبن يصبه على اللات، فكان علي يشرب اللبن ويبول على اللات.

وأما الزهد في المآكل:

فقد زهد فيه كثير من الأخيار مع القدرة عليه، ومنهم من لا يقدر عليه. قالت عائشة رضي الله تعالى عنها، والذي بعث محمداً ﷺ بالحق ما كان لنا منخل ولا أكل رسول الله ﷺ خبزاً منخولاً منذ بعثه الله تعالى إلى أن قبض، قيل: فكيف كنتم تأكلون الشعير؟ قالت: كنا نقول أف أف.

وعن جابر رضي الله تعالى عنه رفعه: نعم الأدم الخل وكفى بالمرء سرفاً أن يتسخط ما قرب إليه. وقال عمر رضي الله تعالى عنه: ما اجتمع عند رسول الله ﷺ أدَمَان إلا أكل أحدهما وتصدق بالآخر. وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها ما كان يجتمع لونان في لقمة في فم رسول الله ﷺ إن كان لحماً لم يكن خبزاً وإن كان خبزاً لم يكن لحماً.

وعن النبي ﷺ أنه قال: يا علي ابدأ بالملح واختم به فإن فيه شفاء من سبعين داء. وروي أن نبياً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام شكا إلى الله الضعف فأمره أن يطبخ اللحم باللبن فإن القوة فيهما. وسنذكر فضل الزهد في المآكل والمشارب في باب مدح الفقراء إن شاء الله تعالى.

وأما ما جاء في آداب الأكل

فقد قال رسول الله ﷺ: «من قال عند مطعمه ومشربه بسم الله خير الأسماء بسم الله رب الأرض والسماء لم يضره ما أكل وما شرب». وكان ﷺ إذا وضع بين يديه الطعام قال: بسم الله اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وعليك خلفه.

---

(١) هي حلوى ما زالت تصنع إلى أيامنا وتسمى عندنا: «أصابع الست»» وهو ضرب من عجين الحلوى يحشى بالقشدة ويجعل على شكل أصابع ثم يقلى في السمن ويوضع في السكر المذاب ثم يصفف حتى يبرد.

(٢) أباه: رفضه.

وقال ﷺ: من أكل طعاماً فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن لبس ثوباً فقال: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه.

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: قال رسول الله ﷺ: إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى، فإن نسي في أوله فليقل بسم الله أوله وآخره. **وفي حديث ابن عمر** رضي الله تعالى عنهما، قال رسول الله ﷺ: إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب، وقال ﷺ الأكل في السوق دناءة.

وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ زجر عن الشرب قائماً قال: فسألناه عن الأكل قائماً فقال: هو شر من الشرب.

وأوصى رجل من خدم الملوك ابنه فقال إذا أكلت فضم شفتيك، ولا تلتفتن يميناً ولا شمالاً ولا تلقمن بسكين ولا تجلس فوق من هو أشرف منك وأرفع منزلة، ولا تبصق في الأماكن النظيفة. ومن هذا ما رواه الزهري أن النبي ﷺ نهى عن النفخ في الطعام والشراب.

وقال علي رضي الله تعالى عنه: نهى رسول الله ﷺ أن يؤكل الطعام حارّاً. **وفي الصحيحين** عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: ما عاب النبي ﷺ طعاماً قط إن اشتهاه أكله وإلا تركه. **وقال عمر بن هبيرة**: عليكم بمباكرة الغداء فإن مباكرته تطيب النكهة وتعين على المروءة، قيل وما إعانته على المروءة؟ قال: أن لا تتوق نفسك إلى طعام غيرك.

وعن النبي ﷺ قال: من أكل من سقط المائدة عاش في سعة وعوفي في ولده وولد ولده من الحمق، **وعنه ﷺ**: من سقط شيئاً من الطعام فأكله حرم الله جلده على النار. **وكان الحارث بن كلدة** يقول: إذا تغدى أحدكم فلينم على غدائه، وإذا تعشى فَلْيَخْطُ أربعين خطوة. **وقيل**: خير الغداء بواكره وخير العشاء سوافره[1].

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ أن يتبع الرجل بصره لقمة أخيه. **وقال الحجاج** لأعرابي يوماً على سماطه: أرفق بنفسك، فقال:

(١) سوافره: أي ما أكل قبل أن يعم الظلام والمراد قبل النوم بفترة كافية فلا يأكل وينام فوراً.

وأنت يا حجاج اغضض من بصرك. **وقال معاوية** لرجل على مائدته: خذ الشعرة من لقمتك فقال: وإنك تراعيني مراعاة من يرى الشعرة في لقمتي، لا أكلت لك طعاماً أبداً. **ووضع معاوية** بين يدي الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما دجاجة، ففكها، فقال معاوية: هل بينك وبين أمها عداوة؟ فقال الحسن: فهل بينك وبين أمها قرابة؟ أراد معاوية أن الحسن يوقر مجلسه كما توقر مجالس الملوك، والحسن أعلم منه بالآداب والرسوم المستحسنة رضي الله تعالى عنهما.

وأُحْضِرَ أَعْرَابِيٌّ على مائدة بعض الخلفاء فقدم جدي مشوي فجعل الأعرابي يسرع في أكله منه، فقال له الخليفة أراك تأكله بِحَرَدٍ كأن أمه نطحتك، فقال: أراك تشفق عليه كأن أمه أرضعتك.

وأما ما جاء في كثرة الأكل

فقد روي عن حذيفة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ: **من قل طعامه صح بطنه وصفا قلبه، ومن كثر طعامه سَقُمَ بطنه[1] وقسا قلبه**. وعنه ﷺ: **لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب كالزرع إذا كثر عليه الماء مات**.

وقال ﷺ: ما زين الله رجلاً بزينة أفضل من عفاف بطنه. **وقال عمرو بن عبيد**: ما رأيت الحسن ضاحكاً إلا مرة واحدة، قال رجل من جلسائه ما آذاني طعام قط، فقال له آخر: أنت لو كانت في معدتك الحجارة لطحنتها.

وقال علي كرم الله وجهه: «البطنة[2] تذهب الفطنة». **وقال ابن المقفع**: كانت ملوك الأعاجم إذا رأت الرجل نهماً شرهاً أخرجوه من طبقة الجدّ إلى باب الهزل، ومن باب التعظيم إلى باب الاحتقار. **وتقول العرب أقلل طعاماً** تحمد مناماً، وكانت العرب تعير بعضها بكثرة الأكل وأنشدوا:

لست بأكّالٍ كأكل العبدِ
ولا بنوامٍ كنوم الفهد

وأنشد الأصمعي لرجل من بني فهد:

إذا لم أزر إلا لآكلَ أكلةً
فلا رفعت كفي إلي طعامي
فما أكلةٌ إن نلتها بغنيمةٍ
ولا جوعةٌ إن جعتها بغرام[3]

(١) أي أصيب بمرض في معدته.
(٢) البطنة: الأكل إلى حد التخمة.
(٣) غرامٌ: غُرْمٌ.

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: أراد رسول الله ﷺ أن يشتري غلاماً فألقى بين يديه تمراً فأكل فأكثر فقال ﷺ: إن كثرة الأكل شؤم. وقالوا: الوحدة خير من الجليس السوء، والجليس السوء خير من الأكيل السوء. وشكا أبو العيناء إلى صديق له سوء الحال، فقال: أشكر، فإن الله قد رزقك الإسلام والعافية، قال: أجل، ولكن بينهما جوع يقلقل الكبد.

ودعت أبا الحارث حبيبة له، فحادثته ساعة، فجاع فطلب الأكل فقالت له: أمّا في وجهي ما يشغلك عن الأكل، قال: جعلت فداءك لو أن جميلاً وبثينة قعدا ساعة لا يأكلان لبصق كل منهما في وجه صاحبه وافترقا.

وأما أخبار الأكلة

فقد قيل إن وهب بن جرير سأل ميسرة البراش عن أعجب ما أكل، فقال: أكلت مائة رغيف بمكوك بلح. وَمَرَّ ميسرة المذكور يوماً بقوم وهو راكب حماراً، فدعوه للضيافة، فذبحوا له حماره وطبخوه، وقدموه له، فأكله كله، فلما أصبح طلب حماره ليركبه، فقيل له: هو في بطنك.

وقال المعتمر بن سليمان: قلت لهلال المازني: ما أكلة بلغتني عنك، قال: جعت مرة ومعي بعير لي، فنحرته وشويته وأكلته، ولم أبقِ منه إلا شيئاً يسيراً حملته على ظهري، فلما كان الليل أردت أن أجامع أمة لي، فلم أقدر أن أصل إليها، فقالت كيف تصل إليّ وبيننا جمل، فقلت له: كم تكفيك هذه الأكلة، فقال: أربعة أيام.

وقال الأصمعي أن سليمان بن عبد الملك كان شرهاً نهماً وكان من شرهه أنه إذا أتي بالسفود وعليه الدجاج السمين المشوي لا يصبر إلى أن يبرد، ولا أن يؤتى بمنديل، فيأخذ بكمه، فيأكل واحدة واحدة حتى يأتي عليها، فقال الرشيد: ويحك يا أصمعي ما أعلمك بأخبار الناس إني عرضت على جباب سليمان، فرأيت فيها آثار الدهن، فظننته طيباً حتى حدثتني، ثم أمر لي بجبة منها، فكنت إذا لبستها أقول هذه جبة سليمان بن عبد الملك.

وقال الشمردل وكيل عمرو بن العاص: قدم سليمان بن عبد الملك الطائف، فدخل هو وعمر بن عبد العزيز إليّ، وقال: يا شمردل: ما عندك ما تطعمني؟ قلت: عندي جدي كأعظم ما يكون سمناً، قال: عجّل به فأتيته به كأنه عكة سمن[1]، فجعل يأكل منه ولا يدعو عمر حتى إذا لم يبق منه إلا فخذاً قال: هلم يا أبا جعفر، فقال: إني صائم فأكله، ثم قال: يا شمردل: ويلك أما عندك شيء؟ قلت: ست دجاجات كأنهن أفخاذ نَعَام، فأتيته بهن فأتى عليهن، ثم قال: يا شمردل أما عندك شيء؟ قلت: سويق كأنه قراضة الذهب، فأتيته به، فعبه حتى أتى عليه، ثم قال يا غلام: أفرغت من غذائنا؟ قال: نعم. قال: ما هو؟ قال: نيف وثلاثون قدراً، قال: ائتني بقدر قدر، فأتاه بها ومعه الرقاق، فأكل من كل قدر ثلثه، ثم مسح يده واستلقى على فراشه وأذن للناس فدخلوا، وصف الخوان، فقعد وأكل مع الناس. وكان هلال بن الأسعر يضع القمع على فيهِ ويصب اللبن أو النبيذ، وكان غليظاً عتلاً[1]. وقال أعرابي لرجل رآه سميناً: أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك.

وقال المحمر الأعرابي: كانت لي بنت تجلس على المائدة فتبرز كفاً كأنها صلفة[2] في ذراع كأنه جمارة[3]، فلا تقع عينها على لقمة نفيسة إلا خصتني بها، فكبرت وزوجتها، وصرت أجلس على المائدة مع ابن لي فيبرز كفاً كأنها كرنافة[4]، فوالله لن تسبق عيني إلى لقمة طيبة إلا سبقت يده إليها.

وقال مسلم بن قتيبة: عددت للحجاج أربعة وثمانين رغيفاً مع كل رغيف سمكة. ويقال: فلان يحاكي حوت يونس في جودة الالتقام، وعصا موسى في سرعة الالتهام.

وقيل لأبي مرة: أي الطعام أحب إليك؟ قال: لحم سمين وخبز سميد أضرب فيه ضرب ولي السوء في مال اليتيم. وقال صدقة بن عبيد المازني: أولم لي أبي لما تزوجت، فعمل عشر جفان ثريد من جزور، فكان أول من جاءنا هلال المازني، فقدمنا له جفنة مترعة، فأكلها، ثم أخرى، فأكلها، حتى أتى على الجميع، ثم أتى بقربة مملوءة من النبيذ، فوضع طرفها في شدقه وفرغها في جوفه، ثم قام فخرج واستأنفنا عمل الطعام. وكان عبيد الله بن زياد يأكل في كل يوم خمس أكلات، فخرج يوماً يريد الكوفة، فقال له رجل من بني شيبان: الغداء أصلح الله الأمير، فنزل، فذبح له عشرين طائراً من الأوز، فأكلها، ثم قدم الطعام، فأكل، ثم أتي بزنبيلين في أحدهما تين، وفي الآخر بيض، فجعل يأكل من هذا تينة، ومن

(١) العكة: وعاء جلدي لحفظ السمن.

(١) عتلاً: جافياً.
(٢) الصلفة: خوافي قلب النخلة.
(٣) الجُمّار: لب النخلة.
(٤) الكرنافة: أصول قضبان النخل.

هذا بيضة حتى أتى على ذلك جميعه، ثم رجع وهو جائع. وكان ميسرة البراش يأكل الكبش العظيم ومائة رغيف، فذكر ذلك للمهدي، فقال: دعوت يوماً بالفيل وأمرت، فألقي إليه رغيف رغيف، فأكل تسعة وتسعين، وألقي إليه تمام المائة، فلم يأكله.

وحدث الشيخ نبيه الدين الجوهري أنه سمع الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام يقول: إن معاوية بن أبي سفيان كان يأكل في كل يوم مائة رطل بالدمشقي ولا يشبع. ونزل رجل بصومعة راهب، فقدم إليه الراهب أربعة أرغفة، وذهب ليحضر إليه العدس، فحمله وجاء، فوجده قد أكل الخبز، فذهب، فأتى بخبز فوجده قد أكل العدس، ففعل معه ذلك عشر مرات، فسأله الراهب: أين مقصدك؟ قال: إلى الأردن. قال: لماذا؟ قال: بلغني أن بها طبيباً حاذقاً أسأله عما يصلح معدتي، فإني قليل الشهوة للطعام، فقال له الراهب: إن لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قال: إذا ذهبت وأصلحت معدتك، فلا تجعل رجوعك عليّ.

وأما المهازلة على الطعام:

فقد روي عن يحيى بن عبد الرحمن رضي الله تعالى عنه قال: قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كان عندي رسول الله ﷺ، وسودة فصنعت حريرة، فجئت به، فقلت لسودة: كلي، فقالت: لا أحبه، فقلت: والله لتأكلين أو لألطخن وجهك، فقالت: ما أنا بذائقته، فأخذت من الصحفة شيئاً، فلطخت به وجهها ورسول الله ﷺ جالس بيني وبينها، فتناولت من الصحفة شيئاً، فلطخت به وجهها، وجعل رسول الله ﷺ يضحك.

واشترى غندر يوماً سمكاً وقال لأهله: أصلحوه، ونام، فأكل عياله السمك ولطخوا يده، فلما انتبه قال: قدّموا إليّ السمك، قالوا: قد أكلتَ. قال: لا، قالوا: شم يدك، ففعل، فقال: صدقتم، ولكن ما شبعت. ودخل الحمدوني على رجل وعنده أقوام بين أيديهم أطباق الحلوى ولا يمدون أيديهم، فقال: لقد ذكرتموني ضيف إبراهيم وقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾[1] ثم قال: كلوا رحمكم الله فضحكوا، وأكلوا. والحكايات في ذلك كثيرة.

وأما الضيافة وإطعام الطعام:

فقد قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾[1] وقال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ولا يؤذ جاره». وقال ﷺ: «من أكل وذو عينين ينظر إليه ولم يواسه ابتلي بداء لا دواء له». وقال الحسن: كنا نسمع أن إحدى مواجب الرحمة إطعام الأخ المسلم الجائع. وقيل لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام: بم اتخذك الله خليلاً؟ قال: بثلاث: ما خيرت بين شيئين إلا اخترت الذي لله على غيره، ولا اهتممت بما تكفل لي به، ولا تغديت ولا تعشيت إلا مع ضيف. ويقولون: ما خلا مضيف الخليل عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا ليلة واحدة من ضيف.

وكان الزهري إذا لم يأكل أحد من أصحابه من طعامه حلف لا يحدثه عشرة أيام. وقالوا: المائدة مرزوقة. أي من كان مضيافاً وسع الله عليه، وقالوا: أول من سن القرى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وأول من ثرد الثريد وهشمه هاشم، وأول من أفطر جيرانه على طعامه في الإسلام عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما، وهو أول من وضع موائده على الطريق، وكان إذا خرج من بيته طعام لا يعود منه شيء، فإن لم يجد من يأكله تركه على الطريق.

وقيل لبعض الكرماء: كيف اكتسبت مكارم الأخلاق، والتأدب مع الأضياف؟ فقال: كانت الأسفار تحوجني إلى أن أفد على الناس، فما استحسنته من أخلاقهم اتبعته وما استقبحته اجتنبته.

وأما آداب المضيف

فهو أن يخدم أضيافه ويظهر لهم الغنى وبسط الوجه.

فقد قيل: البشاشة في الوجه خير من القرى، قالوا: فكيف بمن يأتي بها وهو ضاحك؟ وقد ضمن الشيخ شمس الدين البديوي رحمه الله هذا الكلام بأبيات، فقال:

إذا المرء وافى منزلاً منك قاصداً
قراك وأرْمَتْهُ لديك المسالكُ
فكن باسماً في وجهه متهللاً
وقل مرحباً أهلاً ويومٌ مباركُ
وقدِّم له ما تستطيع من القرى
عجولاً ولا تبخل بما هو هالكُ
فقد قيل بيتٌ سالفٌ متقدِّمٌ
تداوله زيدٌ وعمروٌ ومالكُ

(١) سورة هود، الآية (٧٠).

(١) سورة الذاريات، الآية (٢٤).

بشاشة وجهِ المرءِ خيرٌ من القرى
فكيف بمن يأتي به وهو ضاحكُ

وقالت العرب: تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة وإطالة الحديث عند المؤاكلة، **وقال حاتم الطائي**:

سلي الطارقَ المعتَّر يا أمَّ مالك
إذا ما أتاني بين ناري ومجزري[1]
أأبسط وجهي إنه أول القِرَى
وأبذل معروفي له دون منكري

وقال آخر في عبد الله بن جعفر:

إنك يا ابن جعفر خير فتىً
وخيرهم لطارقٍ إذا أتى[2]

ولله در القائل:

الله يعلم أنه ما سرّني
شيءٌ كطارقة الضيوف النزّلِ
ما زلت بالترحيب حتى خلتني
ضيفاً له والضيف ربُّ المنزلِ

أخذه من قول الشاعر:

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا
نحن الضيوف وأنت ربُّ المنزل

وما أحسن ما قال سيف الدولة بن حمدان:

منزلنا رحبٌ لمن زاره
نحن سواءٌ فيه والطارقُ
وكلّ ما فيه حلالٌ له
إلاّ الذي حرّمه الخالقُ

وقال الأصمعي: سألت عيينة بن وهب الدارمي عن مكارم الأخلاق فقال: أو ما سمعت قول عاصم بن وائل:

وإنّا لنقري الضيفَ قبل نزوله
ونشبعه بالبِشرِ من وجه ضاحك

وقال بعض الكرام:

أضاحك ضيفي قبل أن أنزل رحله
ويخصب عندي والمحلّ جديبُ
وما الخصب للأضياف أن تكثر القرى
ولكنما وجه الكريم خصيبُ

(١) المعتر: الفقير، والمجزر مكان النحر والذبح.
(٢) الطارق: الضيف الآتي ليلاً على غير انتظار.

وقال آخر:

عودت نفسي إذا ما الضيف نبّهني
عقرَ العشارِ على عسرٍ وإيسار[1]

ومن آداب الضيف أن يتفقد دابة ضيفه ويكرمها قبل إكرام الضيف قال الشاعر:

مطية الضيف عندي تلو صاحبها
لن يأمن الضيف حتى تكرم الفرسا

وقال علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما: من تمام المروءة خدمة الرجل ضيفه كما خدمهم أبونا إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه بنفسه وأهله. أما سمعت قول الله عز وجل؟ ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾[2]. ومن آداب المضيف أن يحدث أضيافه بما تميل إليه نفوسهم، ولا ينام قبلهم، ولا يشكو الزمان بحضورهم، ويبش عند قدومهم، ويتألم عند وداعهم، وأن لا يحدث بما يروعهم به.

كما حكى بعضهم قال: استدعاني إسحاق بن إبراهيم الطاهري إلى أكل هريسة في بكرة نهار فدخلت، فأحضرت لنا الهريسة فأكلنا، فإذا شعرة قد جاءت على لقمة غفل عنها طباخه، فاستدعى خادمه، فأسر إليه شيئاً لم نعلمه، فعاد الخادم ومعه صينية مغطاة، فكشف عن الصينية، فإذا يد الطباخ مقطوعة تختلج، فتكدر علينا عيشنا وقمنا من عنده ونحن لا نعقل. فيجب على المضيف أن يراعي خواطر أضيافه كيفما أمكن ولا يغضب على أحد بحضورهم، ولا ينغص عيشهم بما يكرهونه، ولا يعبس بوجهه ولا يظهر نكداً، ولا ينهر أحداً ولا يشتمه بحضرتهم، بل يدخل على قلوبهم السرور بكل ما أمكن.

كما حكي عن بعض الكرام أنه دعا جماعة من أصحابه إلى بستانه وعمل لهم سماطاً وكان له ولد جميل الطلعة، فكان الولد في أول النهار يخدم القوم ويأنسون به، ففي آخر النهار صعد إلى السطح، فسقط فمات لوقته، فحلف أبوه على أمه بالطلاق الثلاث أن لا تصرخ ولا تبكي إلى أن تصبح، فلما كان الليل سأله أضيافه عن ولده، فقال: هو نائم، فلما أصبحوا وأرادوا الخروج قال لهم: إن رأيتم أن نصلي على ولدي، فإنه بالأمس سقط من على السطح، فمات لساعته، فقالوا له: لِمَ لا أخبرتنا حين سألناك؟

(١) العشار: ج عشراء وهي الناقة الحامل.
(٢) سورة هود، الآية (٧١).

فقال: ما ينبغي لعاقل أن ينغص على أضيافه في التذاذهم ولا يكدر عليهم في عيشهم، فتعجبوا من صبره وتجلده، ومكارم أخلاقه، ثم صلوا على الغلام وحضروا دفنه وبكوا عليه وانصرفوا.

وعلى المضيف أن يأمر غلمانه بحفظ نعال أضيافه وتفقد غلمانهم بما يكفيهم، ويسهل حجابه وقت الطعام ولا يمنع وارداً.

وقيل لبعض الأمراء الكرام: لا بأس بالحجاب لئلا يدخل من لا يعرفه الأمير ويحترز عن العدو، فقال: إن عدواً يأكل طعامنا ولا ينخدع لا يُمَكِّنُهُ الله منا، الأليق بالكريم الرئيس أن يمنع حاجبه من الوقوف ببابه عند حضور الطعام، فإنه ذلك أول الشناعة عليه، وعليه أن يسهر مع أضيافه ويؤانسهم بلذيذ المحادثة وغريب الحكايات، وأن يستميل قلوبهم بالبذل لهم من غرائب الطرف إن كان من أهل ذلك، وأن يري أضيافه مكان الخلاء[1]، فقد قيل عن ملك الهند أنه قال: إذا ضافك أحد فَأَرِهِ الكنيف[2] فإني ابتليت به مرة، فوضعته في قلنسوتي. وقالوا لا بأس أن يدخل دار أخيه يستطعم للصداقة الوكيدة.

وقد قصد النبي ﷺ والشيخان منزل الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري، وكذلك كانت عادة السلف رضي الله تعالى عنهم. وكان لعون بن عبد الله المسعودي ثلاثمائة وستون صديقاً، فكان يدور عليهم في السنة، ولا بأس أن يدخل الرجل بيت صديقه، فيأكل وهو غائب، فقد دخل رسول الله ﷺ دار بريرة رضي الله عنها، فأكل طعامها وهي غائبة.

وكان الحسن رضي الله عنه يوماً عند بقال، فجعل يأخذ من هذه الجونة[3] تينة ومن هذه فستقة فيأكلها، فقال له هشام: ما بدا لك يا أبا سعيد في الورع؟ فقال له: يا لُكَع اتل عليّ آية الأكل، فتلا: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾[4] إلى قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾[4] فقال الصديق: من استروحت إليه النفس واطمأن إليه القلب، وعلى المضيف الكريم أن لا يتأخر عن أضيافه ولا يمنعه عن ذلك قلة ما في يده بل يحضر إليهم ما وجد. فقد جاء عن أنس وغيره من الصحابة رضي الله تعالى عنهم أنهم كانوا يقدمون الكسرة اليابسة وحشف التمر. ويقولون: ما ندري أيهما أعظم وزراً الذي يحتقر ما قدم إليه أو الذي يحتقر ما عنده أن يقدمه. وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من ألقم أخاه لقمة حلوة صرف الله عنه مرارة الموقف».

حكي عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه كان نازلاً عند الزعفراني ببغداد، فكان الزعفراني يكتب في كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويدفعها إلى الجارية، فأخذها الشافعي منها يوماً وألحق فيها لوناً آخر، فعرف الزعفراني ذلك، فأعتق الجارية سروراً بذلك، وكانت سنّة السلف رضي الله عنهم أن يقدموا جملة الألوان دفعة ليأكل كل شخص ما يشتهي. ومن السنّة أن يشيع المضيف الضيف إلى باب الدار، وعلى المضيف إذا قدم الطعام إلى أضيافه أن لا ينتظر من يحضر من عشيرته، فقد قيل: ثلاثة تضني: سراج لا يضيء ورسول بطيء ومائدة ينتظر لها من يجيء، ونزل الإمام الشافعي رضي الله عنه بالإمام مالك رضي الله عنه، فصب بنفسه الماء على يديه وقال له: لا يرعك ما رأيت مني، فخدمة الضيف على المضيف فرض:

أعرض طعامك وابذله لمن أكلا
واحلف على من أبى واشكر لمن فعلا
ولا تكن سابري العرض محتشماً
من القليل فلست الدهر محتفلا

ومن البلاء من يعزم على الضيف، فيعتذر له، فيمسك عنه بمجرد الاعتذار، كأنه تخلص من ورطة، وقيل لبعض البخلاء: ما الفرج بعد الشدة؟ قال: أن يعتذر الضيف بالصوم. ومن البخلاء من يعجبه طعامه ويصف زبادية ويشتهي أن تبقى على حالها، ومنهم من يحضر طعامه فإذا رآه ضيوفه أمر بأن يرفع منها أطيبها وأشهاها إلى النفوس، ويعتذر أن في أصحابه من يحضر بالغداة عنده.

وحكي عن بعض البخلاء أنه استأذن عليه ضيف وبين يديه خبز وزبدية فيها عسل نحل، فرفع الخبز وأراد أن يرفع العسل، فدخل الضيف من قبل أن يرفعه، فظن البخيل أن ضيفه لا يأكل العسل بلا خبز، فقال له: ترى أن تأكل عسلاً بلا خبز، قال: نعم، وجعل يلعق العسل لعقة بعد لعقة، فقال له البخيل: مهلاً يا أخي والله أنه يحرق القلب، قال: نعم صدقت، ولكنه قلبك.

وحكي عن بعضهم أنه قال: غلب عليّ الجوع مرةً،

---

(١) أي أن يرشدهم إلى مكانه.
(٢) الكنيف: بيت الخلاء.
(٣) الجونة: سلة صغيرة.
(٤) سورة النور، الآية (٦١).

فقلت: أمضي إلى دار فلان لأتغدى عنده، فجئت إلى باب بيته، فوجدت غلامه، فقلت له: أين سيدك؟ فقال، والله لا قلت لك عليه إلا أن أعطيتني كسرة، قال: فرجعت هارباً. ومن البخل تقديم الشيء اليسير وتفخيمه.

حكي عن بعض البخلاء أنه حلف يوماً على صديقه، وأحضر له خبزاً وجبناً وقال له: لا تستقل الجبن، فإن الرطل منه بثلاثة دراهم، فقال له ضيفه: أنا أجعله بدرهم ونصف، قال: وكيف ذلك؟ قال: آكل لقمة بجبن ولقمة بلا جبن، فأين هؤلاء من الذي يقول:

قالت أما ترحلُ تبغي الغنى
قلت فمن للطارق المعتمِ
قالت فهل عندك شيءٌ له
قلت نعمْ جهد الفتى المعدمِ
فكم وحق الله من ليلةٍ
قد أطعمُ الضيفَ ولم أُطعم
إنّ الغنى بالنفس يا هذهِ
ليس الغنى بالمال والدرهمِ

وقال بعض البخلاء:

سرى نحونا يبغي القرى طاوي الحشى
لقد علمت فيه الظنون الكواذب
فبات له منا إلى الصُّبح شاتمٌ
يعدد تطفيل الضيوف وضارب

فشتان ما بين القائلين.

وأما آداب الضيف

فهو أن يبادر إلى موافقة المضيف في أمور منها: أكل الطعام، ولا يعتذر بشبع بل يأكل كيف أمكن. فقد حكي أنه ورد على بعض الأعراب ضيف، فدخل به إلى بيته وقدم له الطعام، فقال الضيف لست بجائع، وإنما أحتاج إلى مكان أبيت فيه، فقال الأعرابي: إذا كان هذا، فكن ضيف غيري، فإني لا أرى أن تمدحني في البلاد وتهجوني فيما بيني وبينك.

وحكي عن بعض التجار قال: استدعاني أبو حفص محمد بن القاسم الكرخي لأعرض عليه قماشاً من تجارتي، فبينما أنا بين يديه، وإذا بأطباق الفاكهة قد حضرت فقمت من مجلسه، فقال: يا فلان. ما هذا الخلق العامي؟ اجلس، فجلست وتحققت كرمه وجعلت آكل الكمثراة في لقمة والتفاحة في لقمة، ثم قدم الطعام وكنت جائعاً فأكلت جيداً ثم انصرفت، فلم أشعر في اليوم الثاني إلا وقد جاءني غلامه ببغلته، فاستدعاني إليه، فقال: يا فلان إني قليل الأكل بطيء الهضم، ولقد طابت لي مؤاكلتك بالأمس، فأريد أن لا تنقطع بعدها عني، قال، فكنت متى انقطعت حضر غلامه في طلبي، فحصل له بقربي منه مال كثير وجاه عريض.

ومن آداب الضيف أيضاً أن لا يسأل صاحب المنزل عن شيء من داره سوى القِبْلَةَ، وموضع قضاء الحاجة، وأن لا يتطلع إلى ناحية الحريم وأن لا يخالفه إذا أجلسه في مكان وأكرمه به، وأن لا يمتنع من غسل يديه. وإذا رأى صاحب المنزل قد تحرك بحركة فلا يمنعه منها. فقد نقل في بعض المجاميع أن بعض الكرماء كان عربيداً على أضيافه سيىء الخلق بهم، فبلغ ذلك بعض الأذكياء، فقال: الذي يظهر لي من هذا الرجل أنه كريم الأخلاق، وما أظن سوء أخلاقه إلا لسوء أدب الأضياف، ولا بد أن أتطفل عليه لأرى حقيقة أمره، قال: فقصدته وسلمت عليه، فقال: هل لك أن تكون ضيفي. قلت: نعم، فسار بين يدي إلى أن جاء إلى باب داره، فأذن لي، فدخلت، فأجلسني في صدر مجلسه، فجلست حيث أجلسني، وأعطاني مسنداً، فاستندت إليه، فأخرج لي شطرنجاً، وقال: أتتقن شيئاً؟ قلت: نعم. فلعبت معه، فلما حضر الطعام جعل يقدم لي ما استطابه، وأنا آكل، فلما فرغنا قدم طستاً وإبريقاً وأراد أن يسكب الماء على يدي، فلم أمنعه من ذلك، وأراد الخروج من بين يدي بعد أن قدم نعلي، فلم أرده عن ذلك، فلما أراد الرجوع. قلت: يا سيدي أنشدك الله إلا فرجت عني كربة؟ قال: وما هي؟ فأخبرته الخبر، فقال: والله ما يحوجني لذلك إلا سوء أدبهم، يصل الضيف إلى داري، فأجلسه في الصدر، فيأبى ذلك، ثم أقدم إليه الطعام، فلا أتحفه بشيء مستظرف إلا رده عليَّ، ثم أريد أن أصب الماء على يديه عند الغسل، فيحلف بالطلاق الثلاث ما تفعل، ثم أريد أن أشيعه، فلا يمكنني من ذلك، فأقول في نفسي لا يحكم الإنسان على نفسه حتى في بيته، فعند ذلك أشتمه وألعنه وأضربه.

وفي معنى ذلك يقول بعضهم:

لا ينبغي للضيف أن يعترضْ
إن كان ذا حزمٍ وطبعٍ لطيف
فالأمر للإنسان في بيته
إن شاء أن ينصف أو أن يحيف

ومما يعاب على الضيف أمور منها كثرة الأكل المفرط، إلا أن يكون بدوياً، فإنها عادته، ومنها أن يتتبع طريق الشرهين كمن يتخذ معه خريطة مشمعة يقلب فيها الزبادي والأمراق والحلوى وغير ذلك، ومنها أن يأخذ معه ولده الصغير ويعلمه أن يبكي وقت الانصراف من الطعام ليعطى على اسم ولده الصغير.

ومنها قبح المؤاكلة، وقد عد فيها عيوب كثيرة، فمنها: المنشاوف والعداد والجراف والرشاف والنفاض والقراض والبهات واللتات والعوام والقسام والمخلل والمزبد والمرنخ والمرشش والمفتش والمنشف والملبب والصباغ والنفاخ والحامي والمجنح والشطرنجي والمهندس والمتمني والفضولي.

فأما المنشاوف: فهو الذي يستحكم جوعه قبل فراغ الطعام، فلا تراه إلا متطلعاً لناحية الباب يظن أن ما دخل هو الطعام.

وأما العداد، فهو الذي يستغرق في عد الزبادي ويعد على أصابعه، ويشير إليه، وينسى نفسه.

والجراف: هو الذي يجعل اللقم في جانب الزبدية ويجرف بها إلى الجانب الآخر.

والرشّاف: هو الذي يجعل اللقمة في فيه ويرتشفها، فيسمع لها حين البلع حس لا يخفى على جلسائه، وهو يلتذ بذلك.

والنفّاض: هو الذي يقرض اللقمة بأطراف أسنانه حتى يهذبها ويضعها في الطعام بعد ذلك.

والبهات: هو الذي يبهت في وجوه الآكلين حتى يبهتهم، ويأخذ اللحم من بين أيديهم.

واللتات: هو الذي يلت اللقمة بأطراف أصابعه قبل وضعها في الطعام.

والعوام: هو الذي يميل ذراعيه يمنة ويسرة لأخذ الزبادي.

والقسام: هو الذي يأكل نصف اللقمة ويعيد باقيها في الطعام من فيه.

والمخلل: هو الذي يخلل أسنانه بأظفاره،

والمزبد: هو الذي يحمل معه الطعام.

والمرنخ: هو الذي يرنخ اللقمة في الأمراق، فلا يبلغ الأولى حتى تلين الثانية.

والمرشش: هو الذي يفسخ الدجاج بغير خبرة فيرش على مؤاكليه.

والمفتش: هو الذي يفتش على اللحم بأصابعه.

والمنشف: هو الذي ينشف يديه من الدهن باللقم ثم يأكلها.

والملبب: هو الذي يملأ الطعام لباباً.

والصباغ: هو الذي ينقل الطعام من زبدية إلى زبدية ليبرده.

والنفاخ: هو الذي ينفخ في الطعام.

والحامي: هو الذي يجعل اللحم بين يديه فيحميه من مؤاكليه.

والمجنح: هو الذي يزاحم مؤاكليه بجناحيه حتى يفسح له في المجلس، فلا يشق عليه الأكل.

والشطرنجي: هو الذي يرفع زبدية ويضع زبدية أخرى مكانها.

والمهندس: هو الذي يقول لمن يضع الزبادي ضع هذه هنا وهذه ههنا، حتى يأتي قدامه ما يحب.

والمتمني: هو الذي يقول: ليتني لم يكن معي من يأكل.

والفضولي: هو الذي يقول لصاحب المنزل عند فراغ الطعام، إن كان قد بقي عندك في القدور شيء، فأطعم الناس، فإن فيهم من لم يأكل.

ومن الأضياف من لا يلذ له حديث إلا وقت غسل يديه، فيبقى الغلام واقفاً والإبريق في يده والناس ينتظرونه. ومنهم من يغسل يديه بالأشنان مرة واحدة، فإذا اجتمع الوسخ والزفر تسوك بهما. ومنهم من يدخل الدار فيبتدىء بالهندسة أولاً، فيقول كان ينبغي أن يكون باب المجلس من ههنا، والإيوان كان ينبغي أن يكون من ههنا، وينتقل من الهندسة إلى ترتيب المجلس، فينقل الفاكهة من موضعها إلى موضع آخر، وإن كان قد استحكم جوعه استعفى من الطعام، وذهل عن بقية الأضياف وشدة جوعهم. ومنهم من يخرج فيطوف على أصدقاء صاحب الدعوة، فيتألم عن انقطاعهم ويستوحش من غيبتهم ويسلطهم على عرض صاحبهم.

ولقد حكي عن مغن غير مجيد أنه لم يبطل ولا ليلة واحدة، وما ذاك إلا أنه كان إذا سئل أين كنت قال: كنت عند الناس، وإذا قيل له: أين أكلت؟ قال: أكلت في بطني، وإذا قيل له: أين شربت؟ قال: شربت في فمي.

ومنهم من يفهم عن صاحب الدعوة أنه يقول لغلامه اشتر كذا، فيقول، والله العظيم أو الطلاق الثلاث يلزمه ما يشتري شيئاً فأذوقه، فيعجز صاحب المنزل ويخجله إذا لم

يكن في بيته شيء موجود، وليت شعري إذا كان لا يأكل فلأي شيء حضر.

ومنهم من يرى صاحب البيت قد أسرّ إلى صديقه شيئاً، فيقول: ما الذي قال المولى لصاحبنا، وهو لا يريد أن يعلمه، ومنهم من يستعجل صاحب المنزل بالأكل ويشكو الجوع ويظن أن ذلك بسط مكارم أخلاق، وإنما ذلك يكون في بيته لا في بيوت الناس.

ومنهم من يقول لصاحب الدعوة: من يغني لنا، فيقول فلان، فيقول له: غلطت لمَ لا دعوت فلاناً.

ومنهم من يسأل صاحب البيت، كيف قوته في النكاح، فيقول له: أنا رجل كبير قد ضعفت قوتي وشهوتي، أو يقول ما لي قوة طائلة في ذلك، فيقول: أنا والله كلما مر عليَّ عام تزايدت شهوتي وكثر لهذا الفن تشوُّفي[1]، ويعلن بذلك حتى تسمعه صاحبة البيت.

ومنهم من يشكو حاله مع أهل بيته ويذكر نفقته عليهن وكسوته لهن وكثرة إنعامه وإحسانه إليهن، وما عليه زوجته من سوء الأخلاق وكبر النفس، لتستقل زوجة صاحب البيت ما هي فيه مع زوجها، وربما كان ذلك سبباً لفراقها منه.

ومنهم من تعجبه نفسه ويستحسن لباسه، ويستطيب رائحته، وإذا سمع الغناء تواجد، وأظهر الطرب، وحرك رأسه، ويقوم قائماً يتمايل حتى يرى أهل الرجل أنه لطيف الشكل بديع الحركات، ويظن في نفسه أنه يُعْشَقُ وأن رسول صاحبة البيت لا يبطىء عنه.

ومنهم من يقال له: إلعب الشطرنج، فيأباه ويشتغل بالدندنة، فيقع في الفضول. ومنهم من يتأمر على غلمان صاحب البيت ويهين أولاده، ويظن أنه يدل عليهم[2].

ومنهم من يقول له صاحب البيت كلْ، فيقول: ما آكل إلا أنا ورفيقي. ومنهم من يسمع السائل على الباب، فيتصدق عليه من مال صاحب البيت بغير إذنه أو يقول للسائل فتح الله عليك.

ومنهم من يدعو الناس لصاحب الوليمة بغير إذنه ويقلده بذلك المنن وأكثر الناس واقع في ذلك

نسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا وأن يعيذنا من شرور أنفسنا بمنه وكرمه إنه جواد كريم رؤوف رحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) تشوفي: رغبتي فيه وحبي له.
(٢) أي أن له دالة عليهم وأنه من أهل البيت ويحق له ذلك.

الباب السادس والثلاثون

في العفو والحلم والصفح وكظم الغيظ والاعتذار وقبول المعذرة والعتاب وما أشبه ذلك

قد ندب الله عز وجل نبيه ﷺ إلى الصفح والعفو بقوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[1]. قيل: هو الرضا بلا عتب. وقال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾[4] ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[5].

وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت قصوراً مشرفة على الجنة، فقلت: يا جبريل لمن هذه؟ قال: للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس».

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قال: ما زال جبريل عليه السلام يوصيني بالعفو، فلولا علمي بالله لظننت أنه يوصيني بترك الحدود.

وقال الحسن بن أبي الحسن إذا كان يوم القيامة نادى مناد، من كان له على الله أجر فليقم، فلا يقوم إلا العافون عن الناس، وتلا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[6].

وقال علي كرم الله وجهه: أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة. وكان المأمون رحمه الله تعالى يحب العفو ويؤثره، ويقول: لقد حبب إليَّ العفو حتى أني أخاف أن لا أثاب عليه، وكان يقول: لو علم أهل الجرائم لذتي في العوف لارتكبوها، وقال: لو علم الناس حبي للعفو لما

---

(١) سورة الحجر، الآية (٨٥).
(٢) سورة الأعراف، الآية (١٩٩).
(٣) سورة آل عمران، الآية (١٣٤).
(٤) سورة الشورى، الآية (٤٣).
(٥) سورة الشورى، الآية (٤٣).
(٦) سورة الشورى، الآية (٤٠).

تقربوا إليّ إلا بالجنايات.

وقال علي كرم الله وجهه: إذا قدرت على عدوك، فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه، وقال رضي الله تعالى عنه: أقيلوا ذوي المروءات عثراتهم، فما يعثر منهم عاثراً إلا ويده بيد الله يرفعه، وقال رضي الله عنه: إن أول عوض الحليم عن حلمه، إن الناس أنصار له على الجاهل.

وقال المنتصر: لذة العفو يلحقها حمد العاقبة، ولذة التشفي[1] يلحقها ذم الندم.

وقال ابن المعتز: لا تُشِن وجه العفو بالتقريع به[2].

وقيل: ما عفا عن الذنب من قرَّع به. وقال رجل لرجل سبه: إياك أعني، فقال له، وعنك أعرض.

وكان الأحنف رحمه الله تعالى كثير العفو والحلم وكان يقول: ما آذاني أحد إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث: إن كان فوقي عرفت له فضله، وإن كان مثلي تفضلت عليه، وإن كان دوني أكرمت نفسي عنه. وكان مشهوراً بين الناس بالحلم وبذلك ساد عشيرته، وكان يقول: وجدت الاحتمال أنصر لي من الرجال. وقيل له: ممن تعلمت الحلم؟ فقال: من قيس بن عاصم. كنا نختلف إليه في الحلم كما يختلف إلى الفقهاء في الفقه، ولقد حضرت عنده يوماً، وقد أتوه بأخ له قد قتل ابنه، فجاءوا به مكتوفاً، فقال: ذعرتم أخي أطلقوه، واحملوا إلى أم ولدي ديته، فإنها ليست من قومنا، ثم أنشأ يقول:

أقول للنفس تصبيراً وتعزيةً
إحدى يديَّ أصابتني ولم تردِ
كلاهما خلف من فقدِ صاحبه
هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

وقيل: من عادة الكريم إذا قدر غفر، وإذا رأى زلة ستر. وقالوا: ليس من عادة الكرام سرعة الغضب والانتقام. وقيل: من انتقم فقد شفى غيظه، وأخذ حقه، فلم يجب شكره، ولم يحمد في العالمين ذكره. والعرب تقول: لا سؤدد مع الانتقام، والذي يجب على العاقل إذا أمكنه الله تعالى أن لا يجعل العقوبة شيمته[3]، وإن كان ولا بد من الانتقام، فليرفق في انتقامه إلا أن يكون حداً من حدود الله تعالى.

وقال المنصور لِجَانٍ عجز عن العذر: ما هذا الوجوم وعهدي بك خطيباً لَسِناً؟ فقال: يا أمير المؤمنين، ليس هذا موقف مباهاة، ولكنه موقف توبة، والتوبة بالاستكانة والخضوع، فرق له وعفا عنه.

وسعي إلى المنصور برجل من ولد الأشتر النخعي، ذكر له عنه أنه يميل إلى بني علي والتعصب لهم، فأمر بإحضاره، فلما مثل بين يديه قال: يا أمير المؤمنين، ذنبي أعظم من نقمتك، وعفوك أعظم من ذنبي، ثم قال:

فهبني مسيئاً كالذي قلت ظالماً
فعفواً جميلاً كي يكون لك الفضلُ
فإن لم أكن للعفو منك لسوء ما
أتيت به أهلاً فأنت له أهل

فعفا عنه، وأمر له بصلة.

وأُحْضِرَ إلى المأمون رجل قد أذنب ذنباً، فقال له: أنت الذي فعلت كذا وكذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أنا ذاك الذي أسرف على نفسه واتكل على عفوك، فعفا عنه وخلى سبيله.

وأُحْضِرَ إلى الهادي رجل من أصحاب عبد الله بن مالك، فوبخه على ذنب، فقال: يا أمير المؤمنين، إن إقراراي يلزمني ذنباً لم أفعله، ويلحق بي جرماً لم أقف عليه، وإنكاري رد عليك، ومعارضة لك، ولكني أقول:

فإن كنت تبغي بالعقاب تشفياً
فلا تزهدن عند التجاوز في الأجرِ

فقال: لله درك من معتذر بحق أو باطل، ما أمضى لسانك، وأثبت جنانك وعفا عنه وخلى سبيله.

وركب يوماً عمرو بن العاص رضي الله عنه بغلة له شهباء، ومر على قوم فقال بعضهم: من يقوم للأمير، فيسأله عن أمه وله عشرة آلاف؟ فقال واحد منهم: أنا، فقام وأخذ بعنان بغلته، وقال: أصلح الله الأمير، أنت أكرم الناس خيلاً، فلمَ ركبت دابة أشهابٌ وجهها؟ فقال: إني لا أمل دابتي حتى تملني، ولا أمل رفيقي حتى يملني. فقال: أصلح الله الأمير، أما العاص فقد عرفناه وعلمنا شرفه، فمن الأم؟ قال: على الخبير سقطت. أمي النابغة بنت حرملة بن عزة سبتها رماح العرب، فأتي بها سوق عكاظ، فبيعت، فاشتراها عبد الله بن جدعان، ووهبها للعاص بن وائل، فولدت، وأنجبت، فإن كان قد جعل لك جُعْلٌ، فارجع وخذه، وأرسل عنان الدابة. وقيل: إن أمه كانت بغياً عند عبد الله بن جدعان، فوطئها في طهر واحد أبو لهب وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب،

(١) التشفي: الانتقام والسرور بما يصيب عدوك من أذى.
(٢) أي لا تسيء إلى العفو باستعماله وسيلة للتأنيب.
(٣) الشيمة: العادة والصفة الغالبة عليه.

والعاص بن وائل، فولدت عمراً، فادعاه كلهم، فحكمت فيه أمه، فقالت: هو للعاص، لأن العاص هو الذي كان ينفق عليها. وقالوا: كان أشبه بأبي سفيان.

وكان الواثق يتشبه بالمأمون في أخلاقه وحلمه، وكان يقال له: المأمون الصغير. نقل عنه أنه دخلت عليه ابنة مروان بن محمد، فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال: لست به، فقالت: السلام عليك أيها الأمير، فقال لها، وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، فقالت: ليسعنا عدلكم، فقال: إذاً لا يبقى على وجه الأرض منكم أحد لأنكم حاربتم علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه، ومنعتم حقه، وسممتم الحسن رضي الله عنه، ونقضتم شرطه، وقتلتم الحسين رضي الله عنه، وسبيتم أهله، ولعنتم علي بن أبي طالب رضي الله عنه على منابركم وضربتم علي بن عبد الله ظلماً بسياطكم، فعدلنا لا يبقي منكم أحداً، فقالت: فليسعنا عفوكم، قال: أما هذا، فنعم، وأمر برد أموالها عليها، وبالغ في الإحسان إليها.

وكان معاوية رضي الله عنه يعرف بالحلم، وله فيه أخبار مشهورة وآثار مذكورة، وكان يقول: إني لآنف أن يكون في الأرض جهل لا يسعه حلمي، وذنب لا يسعه عفوي، وحاجة لا يسعها جودي، وهذه مروءة عالية المرتبة. **وقال له رجل يوماً**: ما أشبه أستك بإست أمك، فقال: ذاك الذي أعجب أبا سفيان منها.

وكتب معاوية إلى عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه يعتذر إليه من شيء جرى بينهما، يقول: من معاوية بن أبي سفيان إلى عقيل بن أبي طالب أما بعد، يا بني عبد المطلب، فأنتم والله فروع قصي ولباب عبد مناف وصفوة هاشم، فأين أخلاقكم الراسية وعقولكم الكاسية؟ وقد والله أساء أمير المؤمنين ما كان جرى، ولن يعود لمثله إلى أن يُغَيَّب في الثرى، فكتب إليه عقيل يقول:

صدقت وقلت حقاً غير أني
أرى أن لا أراك ولا تراني

ولست أقول سوءاً في صديقي
ولكنّي أصد إذا جفاني

فركب إليه معاوية رضي الله عنه، وناشده في الصفح عنه، واستعطفه حتى رجع.

وحكي عنه رضي الله عنه أنه لما ولي الخلافة، وانتظمت إليه الأمور وامتلأت منه الصدور، وأذعن لأمره الجمهور، وساعده في مراده القدر المقدور، استحضر ليلة خواص أصحابه وذاكرهم وقائع أيام صفين، ومن كان يتولى كبر الكريهة من المعروفين، فانهمكوا في القول الصحيح والمريض وآل حديثهم إلى من كان يجتهد في إيقاد نار الحرب عليهم بزيادة التحريض، فقالوا: امرأة من أهل الكوفة تسمى الزرقاء بنت عدي كانت تتعمد الوقوف بين الصفوف وترفع صوتها صارخة: يا أصحاب علي، تسمعهم كلاماً كالصوارم، مستحثة لهم بقول لو سمعه الجبان لقاتل، والمدبر لقابل، والمسلم لحارب، والفار لكرّ، والمتزلزل لاستقر.

فقال لهم معاوية رضي الله عنكم. أيكم يحفظ كلامها؟ فقالوا: كلنا نحفظه، قال: فما تشيرون عليَّ فيها؟ قالوا: نشير بقتلها، فإنها أهل لذلك. فقال لهم معاوية رضي الله عنه: بئسما أشرتم، وقبحاً لما قلتم. أيحسن أن يشتهر عني أنني بعدما ظفرت وقدرت قتلت امرأة قد وفت لصاحبها، إني إذاً للئيم، لا والله لا فعلت ذلك أبداً. ثم دعا بكاتبه فكتب كتاباً إلى واليه بالكوفة أن أنفذ إليَّ الزرقاء بنت عدي مع نفر من عشيرتها وفرسان من قومها، ومهّد لها وطاء ليناً ومركباً ذلولا، فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها وقرأ عليها، فقالت بعد قراءة الكتاب: ما أنا بزائغة عن الطاعة، فحملها في هودج، وجعل غشاءه خزاً مبطناً، ثم أحسن صحبتها، فلما قدمت على معاوية قال لها: مرحباً وأهلاً خير مقدم قدمه وافد، كيف حالك يا خالة، وكيف رأيت سيرك؟ قالت: خير مسير، **فقال**: هل تعلمين لمَ بعثت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى. **قال**: ألست راكبة الجمل الأحمر يوم صفين، وأنت بين الصفوف توقدين نار الحرب، وتحرضين على القتال؟ **قالت**: نعم، **قال**: فما حملك على ذلك؟ **قالت** يا أمير المؤمنين: إنه قد مات الرأس وبتر الذنب، والدهر ذو غِيَر[1] ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر. **فقال**: صدقت، فهل تعرفين كلامك، وتحفظين ما قلت؟ **قالت**: لا والله، **قال**: لله أبوك، فلقد سمعتك تقولين: أيها الناس إن المصباح لا يضيء في الشمس، وأن الكواكب لا تضيء مع القمر، وأن البغل لا يسبق الفرس، ولا يُقطع الحديد إلا بالحديد، ألا من استرشدنا أرشدناه، ومن سألنا أخبرناه إن الحق كان يطلب ضالة فأصابها، فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار، فكأنكم وقد التأم شمل الشتات،

---

(١) أي لا يبقي أمراً على حاله ولا يصفو لأحد.

وظهرت كلمة العدل وغلب الحق باطله، فإنه لا يستوي المحق والمبطل، فمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون، فالنزال النزال، والصبر الصبر، ألا وإن خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء، والصبر خير الأمور عاقبة، ائتوا الحرب غير ناكصين، فهذا يوم له ما بعده. يا زرقاء. أليس هذا قولك وتحريضك؟

قالت: لقد كان ذلك، **قال:** لقد شاركت علياً في كل دم سفكه، **فقالت:** أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين، وأدام سلامتك. مثلك من يبشر بخير ويسر جليسه، **فقال معاوية:** أوَقد سرك ذلك؟ **قالت:** نعم، والله لقد سرني قولك وأنى لي بتصديقه، فقال لها معاوية: والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب إليّ من حبكم له في حياته، فاذكري حوائجك تقض.

فقالت يا أمير المؤمنين إني آليت على نفسي أن لا أسأل أحداً بعد علي حاجة، فقال: قد أشار عليّ بعض من عرفك بقتلك، فقالت: لؤم من المشير، ولو أطعته لشاركته، **قال:** كلا بل نعفو عنك ونحسن إليك ونرعاك، **فقالت:** يا أمير المؤمنين كرم منك، ومثلك من قدر فعفا، وتجاوز عمن أساء وأعطى من غير مسألة، **قال:** فأعطاها كسوة ودراهم، وأقطعها ضيعة تغل كل سنة عشرة آلاف درهم، وأعادها إلى وطنها سالمة، وكتب إلى والي الكوفة بالوصية بها وبعشيرتها.

وقيل: كان لعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أرض وكان له فيها عبيد يعملون فيها، وإلى جانبها أرض لمعاوية وفيها أيضاً عبيد يعملون فيها، فدخل عبيد معاوية في أرض عبد الله بن الزبير، فكتب عبد الله كتاباً إلى معاوية يقول له فيه أما بعد، يا معاوية: إن عبيدك قد دخلوا في أرضي، فانههم عن ذلك، وإلا كان لي ولك شأن، والسلام. فلما وقف معاوية على كتابه، وقرأه دفعه إلى ولده يزيد، فلما قرأه قال له معاوية: يا بني ما ترى؟ قال: أرى أن تبعث إليه جيشاً يكون أوله عنده وآخره عندك يأتونك برأسه. فقال: بل غير ذلك خير منه يا بني، ثم أخذ ورقة، وكتب فيها جواب كتاب عبد الله بن الزبير، يقول فيه: أما بعد، فقد وقفت على كتاب وَلَدِ حواري رسول الله ﷺ، وساءني ما ساءه، والدنيا بأسره هينة عندي في جنب رضاه، نزلت عن أرضي لك فأضفها إلى أرضك بما فيها من العبيد والأموال والسلام. فلما وقف عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما على كتاب معاوية رضي الله عنه، كتب إليه: قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، ولا أعدمه الرأي الذي أحله من قريش هذا المحل والسلام.

فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله بن الزبير، وقرأه رمى به إلى ابنه يزيد، فلما قرأه تهلل وجهه، وأسفر، فقال له أبوه: يا بني من عفا ساد، ومن حلم عظم، ومن تجاوز استمال إليه القلوب، فإذا ابتليت بشيء من هذه الأدواء فداوِ بمثل هذا الدواء.

ولما دخل الفيل من دمشق واجتمع الناس لرؤيته صعد معاوية في مكان مرتفع ينظر إليه، فبينما هو كذلك إذ نظر في بعض الحجر من قصره رجلاً مع بعض حرمه، فأتى الحجرة ودق الباب، فلم يكن من فتحه بد، فوقعت عينه على الرجل، فقال له: يا هذا في قصري، وتحت جناحي تهتك حرمتي، وأنت في قبضتي، ما حملك على هذا؟ قال: فبهت[1] الرجل، وقال: حلمك أوقعني، فقال له معاوية، فإن عفوت عنك تسترها عليّ، قال: نعم. فعفا عنه وخلّى سبيله. وهذا من الحلم الواسع أن يطلب الستر من الجاني، وهو عروض قول الشاعر:

إذا مرضتم أتيناكم نعودكم
وتذنبون فنأتيكم ونعتذرُ

وحكي عن الربيع مولى الخليفة المنصور قال: ما رأيت رجلاً أربط جأشاً، وأثبت جناناً من رجل سُعِيَ به إلى المنصور، أن عنده ودائع وأموالاً لبني أمية، فأمرني بإحضاره، فأحضرته إليه، فقال له المنصور: قد رفع إلينا خبر الودائع، والأموال التي عندك لبني أمية، فأخرج لنا منها، وأحضرها، ولا تكتم منها شيئاً، فقال يا أمير المؤمنين، وأنت وارث بني أمية، قال: لا، قال: فوصي لهم في أموالهم ورباعهم؟ قال: لا، قال: فما مسألتك عما في يدي من ذلك؟ قال: فأطرق المنصور، وتفكر ساعة، ثم رفع رأسه وقال: إن بني أمية ظلموا المسلمين فيها، وأنا وكيل المسلمين في حقوقهم، وأريد أن آخذ ما ظلموا المسلمين فيه، فاجعله في بيت أموالهم. فقال: يا أمير المؤمنين، فيحتاج إلى إقامة بيّنة عادلة أن ما في يدي لبني أمية مما خانوه وظلموه، فإن بني أمية قد كانت لهم أموال غير أموال المسلمين. قال: فأطرق المنصور ساعة، ثم رفع رأسه وقال: يا ربيع: ما أرى الشيخ إلا قد صدق، وما يجب عليه شيء، وما يسعنا إلا أن نعفو عما قيل عنه، ثم قال: هل لك من حاجة؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أن

---

(١) بهت: أصابته الدهشة وعُقِلَ لسانه فما يحير جواباً.

تجمع بيني وبين من سعى بي إليك، فوالله الذي لا إله إلا هو ما في يدي لبني أمية مال ولا وديعة، ولكنني لما مثلت بين يديك وسألتني عما سألتني عنه قابلت بين هذا القول الذي ذكرته الآن، وبين ذلك القول الذي ذكرته أولاً، فرأيت ذلك أقرب إلى الخلاص والنجاة. فقال: يا ربيع اجمع بينه وبين من سعى به، فجمعت بينهما، فلما رآه قال: هذا غلامي اختلس لي ثلاثة آلاف دينار من مالي وأبق مني وخاف من طلبي له، فسعى بي عند أمير المؤمنين. قال: فشدد المنصور على الغلام وخوفه، فأقر بأنه غلامه، وأنه أخذ المال الذي ذكره وسعى به كذباً عليه وخوفاً من أن يقع في يده، فقال له المنصور: سألتك أيها الشيخ أن تعفو عنه، فقال: قد عفوت عنه، وأعتقته ووهبته الثلاثة آلاف التي أخذها وثلاثة آلاف أخرى أدفعها إليه. فقال له المنصور: ما على ما فعلت من مزيد؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين إن هذا كله لقليل في مقابلة كلامك لي وعفوك عني، ثم انصرف. قال الربيع: فكان المنصور يتعجب منه، وكلما ذكره يقول: ما رأيت مثل هذا الشيخ يا ربيع.

وغضب الرشيد على حميد الطوسي، فدعا له بالنطع[1] والسيف فبكى، فقال له: ما يبكيك؟ فقال، والله يا أمير المؤمنين: ما أفزع من الموت لأنه لا بد منه، وإنما بكيت أسفاً على خروجي من الدنيا، وأمير المؤمنين ساخط عليّ، فضحك وعفى عنه، وقال: إن الكريم إذا خادعته انخدع.

وأمر زياد بضرب عنق رجل، فقال: أيها الأمير إن لي بك حرمة، قال: وما هي؟ قال: إني جارك بالبصرة، قال: ومن أبوك؟ قال: يا مولاي إني نسيت اسم نفسي، فكيف لا أنسى اسم أبي؟ فرد زياد كمه على فمه، وضحك وعفا عنه.

وأمر الحجاج بقتل رجل فقال: أسألك بالذي أنت غداً بين يديه أذل موقفاً مني بين يديك إلا عفوت عني، فعفا عنه. **ولما ضرب الحجاج** رقاب أصحاب ابن الأشعث أُتي برجل من بني تميم، فقال: والله يا حجاج لئن كنا أسأنا في الذنب ما أحسنت في العفو، فقال الحجاج: أف لهذه الجيف! أما كان فيهم من يحسن الكلام مثل هذا؟ وعفا عنه وخلّى سبيله.

وكان إبراهيم بن المهدي يقول: والله ما عفا عني

(١) النطع: قطعة من الجلد.

المأمون تقرباً إلى الله تعالى، ولا صلة الرحم، ولكن له سوق في العفو يكره أن تكسد بقتلي[1]. وسئل الفضل عن الفتوة، فقال: الصفح عن عثرات الأخوان. وفي بعض الكتب المنزلة. إن كثرة العفو زيادة في العمر. وأصله قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[2]. وقال يزيد بن مزيد: أرسل إليّ الرشيد ليلاً يدعوني، فأوجست منه خيفة، فقال لي: أنت القائل: أنا ركن الدولة والثائر لها، والضارب أعناق بغاتها؟ لا أم لك، أي ركن، وأي ثائر أنت؟ قلت يا أمير المؤمنين: ما قلت هذا، إنما قلت: أنا عبد الدولة، والثائر لها، فأطرق وجعل ينحلُّ غضبه عن وجهه، ثم ضحك، فقلت أحسن من هذا قولي:

خِلاَفَةُ اللَّهِ فِي هَارُونَ ثَابِتَةٌ
وَفِي بَنِيهِ إِلَى أَنْ يُنْفَخَ الصُّورُ

فقال: يا فضل أعطه مائتي ألف درهم قبل أن يصبح.

وأمر مصعب بن الزبير بقتل رجل، فقال: ما أقبح بي أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة، ووجهك هذا الذي يستضاء به، فأتعلق بأطواقك وأقول: أي رب سل مصعباً لِمَ قتلني؟ فقال: أطلقوه، فلما أطلقوه، قال: أيها الأمير اجعل ما وهبت لي من حياتك في خفض عيش. قال قد أمرت لك بمائة ألف درهم، فقال:

أيا المذنب الخطّاءُ والعفو واسعٌ
ولو لم يكن ذنبٌ لما عُرِفَ العفوُ

وتغيظ عبد الملك بن مروان على رجل، فقال: والله لئن أمكنني الله منه لأفعلن به كذا وكذا، فلما صار بين يديه قال رجاء بن حيوة: يا أمير المؤمنين قد صنع الله ما أحببت، فاصنع ما أحب الله، فعفا عنه وأمر له بصلة.

وقال الحسن: إن أفضل رداء تردّى به الإنسان الحلم. وهو والله عليك أحسن من برد الحبر. وفيه قال أبو تمام:

رقيقُ حواشي الحلم لو أن حلمه
بكفَّيْك ما ماريت في أنه بُرْدُ[3]

ويقال: الحليم سليم، والسفيه كليم. **وقال محمد بن عجلان**: ما شيء أشد على الشيطان من عالم معه حلم، إن تكلم تكلم بعلم، وإن سكت سكت بحلم، يقول

(١) أي قد اشتهر حبه في العفو، ولا يريد أن يعرف عنه خلاف ذلك فيقاتله من يقاتله قتال المستميت.
(٢) سورة الرعد، الآية (١٧).
(٣) البرد: ثوب مربع يلتف به كالكساء.

الشيطان: سكوته عليَّ أشد من كلامه.

شعر:

إذا كنت تبغي شيمةً غير شِيْمَةٍ
طُبِعْتَ عليها لم تطعك الضرائبُ

وعن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما: أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب. **وفي التوراة:** اذكرني إذا غضبت أذكرك إذا غضبت، فلا أمحقك فيما أمحق، وإذا ظلمت فاصبر، وارض بنصرتي، فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك.

وكان ابن عون إذا غضب على إنسان قال له: بارك الله فيك، وكانت له ناقة كريمة، فضربها الغلام فأندر عينها[1]. فقالوا: إن غضب ابن عون، فإنه يغضب اليوم، فقال للغلام: غفر الله لك.

وقال رجل لرسول الله ﷺ: أي شيء أشد؟ قال: غضب الله. قال: فما يباعدني من غضب الله؟ قال: أن لا تغضب ويقال: من أطاع الغضب أضاع الأرب.

قال أبو العتاهية:

ولم أر في الأعداء حين اختبرتُهم
عدواً لعقل المرء أعدى من الغضب

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ليس الشديد بالصُرَعَة[2] إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب. **وقال ابن مسعود** رضي الله عنه: كفى بالمرء إثماً أن يقال له: اتق الله فيغضب، ويقول: عليك نفسك.

وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عامل من عماله: أن لا تعاقب عند غضبك، وإذا غضبت على رجل، فاحبسه، فإذا سكن غضبك فأخرجه، فعاقبه على قدر ذنبه، ولا تجاوز به خمسة عشر سوطاً. وقيل لابن المبارك رحمه الله تعالى: اجمع لنا حسن الخلق في كلمة واحدة. قال: ترك الغضب.

وقال المعتمر بن سليمان: كان رجل ممن كان قبلكم يغضب، ويشتد غضبه، فكتب ثلاث صحائف، فأعطى كل صحيفة رجلاً. وقال للأول: إذا اشتد غضبي، فقم إليَّ بهذه الصحيفة وناولنيها، وقال للثاني: إذا سكن بعض غضبي فناولنيها، وقال للثالث: إذا ذهب غضبي، فناولنيها. وكان في الأول: «اقصر، فما أنت وهذا الغضب، إنك لست بإله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضاً». وفي الثانية: «ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء». وفي الثالثة: «احمل عباد الله على كتاب الله، فإنه لا يصلحهم إلا ذاك». روي أنه أنوشروان.

وكان الشعبي أولع شيء بهذا البيت:

ليست الأحلام في حال الرضا
إنما الأحلام في حال الغضب

وعن معاذ بن جبل، عن أنس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: «مَنْ كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره في أي الحورِ شاء»، وروي: ملأه الله أمناً وإيماناً.

وقال ابن السماك: أذنب غلام لامرأة من قريش، فأخذت السوط، ومضت خلفه حتى إذا قاربته رمت بالسوط وقالت: ما تركت التقوى أحداً يشفي غيظه. **وقال أبو ذر** لغلامه: لِمَ أرسلت الشاة على علف الفرس؟ قال: أردت أن أغيظك، قال: لأجمعن مع الغيظ أجراً أنت حر لوجه الله تعالى. **واستأذن** رهط من اليهود على رسول الله ﷺ، فأذن لهم، فقالوا: السام عليك يا محمد، فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: بل السام عليكم، واللعنة، فقال: يا عائشة: إن الله يحب الرفق في الأمر كله، فقالت: ألم تسمع ما قالوا، قال: قد قلت: وعليكم.

ورفع إلى عبد الملك بن مروان أعرابي يقال له حمزة، سرق، وقامت عليه البينة، فهمّ عبد الملك بقطع يده، فكتب إليه حمزة من السجن يقول (شعر):

يدي يا أمير المؤمنين أعيذها
بعفوك أن تلقى مقاماً يشينُها

فلا خير في الدنيا وكانت خبيثةً
إذا ما شمالٌ فارقتها يمينُها

قال: فأبى عبد الملك إلا قطعه، فدخلت عليه أم حمزة وقالت: يا أمير المؤمنين بني وكاسبي وواحدي، فقال لها عبد الملك: بئس الكاسب لك، هذا حد من حدود الله تعالى، فقالت يا أمير المؤمنين: اجعله أحد ذنوبك التي تستغفر الله منها، فقال عبد الملك: ادفعوه إليها، وخلى سبيله (شعر):

إذا ما طاشَ حلمك عن عدوٍ
وهان عليك هجران الصديقِ[1]

---

(١) أندر عينها: خرجت عينها من مكانها لشدة الضربة.
(٢) الصرعة: الذي يصرع خصمه في النزال.

(١) طاش حلمك: بَعُدَ ولم يُصِبْ.

فلستَ إذاً أخا عفوٍ وصفحٍ
ولا لأخٍ على عهدٍ وثيقِ
إذا زلَّ الرفيقُ وأنتَ ممّن
بلا رفقٍ بقيتَ بلا رفيقِ
إذا أنت اتّخذت أخاً جديداً
لما أنكرت من خلقٍ عتيقِ
فما تدري لعلّك مستجيرٌ
من الرمضاءِ فرّ إلى الحريقِ[1]
فكم من سالكٍ لطريقٍ أمنٍ
أتاه ما يحاذر في الطريقِ

وشتم رجل رجلاً فقال له: يا هذا لا تغرق في شتمنا ودع للصلح موضعاً[2]، فإني أبيت مشاتمة الرجال صغيراً، فلن أجيئها كبيراً، وإني لا أكافىء من عصى الله فيَّ بأكثر من أن أطيع الله فيه.

وحكي عن جعفر الصادق رضي الله عنه: أن غلاماً له وقف يصب الماء على يديه، فوقع الإبريق من يد الغلام في الطست، فطار الرشاش في وجهه، فنظر جعفر إليه نظر مغضب، فقال يا مولاي: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾[3] قال: قد كظمت غيظي، قال: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾[3] قال: قد عفوت عنك، قال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3] قال: إذهب، فأنت حر لوجه الله تعالى.

وقيل: لما قدم نصر بن منيع بين يدي الخليفة، وكان قد أمر بضرب عنقه، قال: يا أمير المؤمنين، إسمع مني كلمات أقولها. قال: قل، فأنشأ يقول:

زعموا بأن الصقر صادف مرةً
عصفور بَرٍّ ساقه التقديرُ
فتكلم العصفورُ تحت جناحه
والصقر منقضٌّ عليه يطيرُ
إنّي لمثلك لا أتمّم لقمةً
ولئن شُويتُ فإنني لحقيرُ
فتهاون الصقر المُدَلُّ بصيده
كرماً وأفلت ذلك العصفور

قال فعفا عنه وخلى سبيله.

قال الشاعر:

أقرر بذنبك ثم اطلبْ تجاوزهُم
عنهُ فإن جحود الذنبِ ذنبان[1]

وقال بعضهم:

يستوجب العفو الفتى إذا اعترفْ
وتاب عمّا قد جناه واقترفْ
لقوله قل للذين كفروا
إن ينتهوا يُغفَر لهم ما قد سلف

وقال آخر:

إذا ذكرت أياديك التي سلفت
مع قبحِ فعلي وزلاّتي ومجترمي
أكاد أقتلُ نفسي ثم يدركني
علمي بأنك مجبولٌ على الكرمِ

وروي أن عمر رضي الله تعالى عنه رأى سكران، فأراد أن يأخذه ليعزره، فشتمه السكران، فرجع عنه، فقيل له يا أمير المؤمنين: لما شتمك تركته، قال: إنما تركته لأنه أغضبني، فلو عزرته لكنت قد انتصرت لنفسي، فلا أحب أن أضرب مسلماً لحمية نفسي.

وغضب المنصور على رجل من الكتّاب، فأمر بضرب عنقه، فأنشأ يقول:

وإنا الكاتبونا وإن أسأنا
فهبنا للكرام الكاتبينا

فعفا عنه وخلى سبيله وأكرمه.

وقال الرشيد لأعرابي: بمَ بلغ فيكم هشام بن عروة هذه المنزلة؟ قال: بحلمه عن سفيهنا، وعفوه عن مسيئنا، وحمله عن ضعيفنا. لا منّان إذا وهب، ولا حقود إذا غضب، رحب الجنان سمح البنان، ماضي اللسان، قال: فأومأ الرشيد إلى كلب صيد كان بين يديه، وقال: والله لو كانت هذه في هذا الكلب لاستحق بها السؤدد.

وقيل لمعن بن زائدة: المؤاخذة بالذنب من السؤدد؟ قال: لا، ولكن أحسن ما يكون الصفح عمّن عظم جرمه، وقلّ شفعاؤه، ولم يجد ناصراً[2].

---

(١) الرمضاء: حر الظهيرة عندما تسخن رمال الصحراء ويصعب السير عليها حتى للإبل.

(٢) وروي أن رسول الله ﷺ قال: أحبب حبيبك هوناً ما فربما صار عدوك يوماً ما وابغض عدوك هوناً ما فربما صار حبيبك يوماً ما.

(٣) سورة آل عمران، الآية (١٣٤).

(١) جحود الذنب: نكرانه مع علم الآخر بثبوته دليل على الإصرار عليه فلذلك هو ذنبان.

(٢) لأن العفو عمن كان صغير الجرم، عفو لا يؤبه به، ومن عفا لأجل الشفعاء والمناصرين فإنما عفوه تقرب إليهم أو كرامة لهم وليس عفواً ولا حلماً.

وقال محمود الوراق:

سألزم نفسي الصفح عن كلّ مذنب
وإنْ عظمتْ منهُ عليَّ الجرائم

فما الناس إلا واحدٌ من ثلاثةٍ
شريفٌ ومشروفٌ ومثلٌ مقاوم

فأما الذي فوقي فأعرف قدرَه
وأتبع فيه الحقَّ والحق لازمُ

وأما الذي دوني فإن قال صُنْتُ عن
إجابته نفسي وإن لام لائم

وأما الذي مثلي فإن زلّ أو هفا
تفضّلت إنّ الحرّ بالفضل حاكم

وقال الأحنف بن قيس لابنه: يا بني إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه، فإن أنصفك، وإلا فاحذره[1].

قال الشاعر:

إذا كنت مختصاً لنفسك صاحباً
فمن قبل أن تلقاه بالودّ أغضبْهُ

فإن كان في حال القطيعة منصِفاً
وإلا فقد جرّبته فتجنّبْهُ

ومن أمثال العرب: إحلم تسد.

قال الشاعر:

لن يبلغ المجد أقوامٌ وإن شرفوا
حتى يذلّوا وإن عزّوا لأقوامِ

ويشتموا فترى الألوان مسفرةً[2]
لا صفح ذل ولكن صفحَ إكرام

وقال آخر:

وجهلٍ رددناه بفضل حلومنا[3]
ولو أننا شئنا رددناه بالجهل

وقال الأحنف: إياكم ورأي الأوغاد، قالوا: وما رأي الأوغاد؟ قال: الذين يرون الصفح والعفو عاراً.

وقال رجل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: لأسبنك سباً يدخل معك قبرك، فقال: معك والله يدخل لا معي. وقيل: إن الأحنف سبّه رجل وهو يماشيه في الطريق، فلما قَرُبَ من المنزل وقف الأحنف وقال له: يا هذا إن كان قد بقي معك شيء، فهات، وقله ههنا، فإني أخاف أن يسمعك فتيان الحي فيؤذوك، ونحن لا نحب الانتصار لأنفسنا.

وقال لقمان لابنه: يا بني ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة: لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا أخوك إلا عند الحاجة إليه.

ومن أشعر بيت قيل في الحلم قول كعب بن زهير:

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنا[1]
أصبت حليماً أو أصابك جاهل

وقال آخر:

وإذا بغى باغٍ عليك بجهله
فاقْتُلْهُ بالمعروف لا بالمنكرِ

وقال آخر:

قل ما بدا لك من صدقٍ ومن كذبٍ
حلمي أصم وأذني غيرُ صماءِ

ويروى في بعض الأخبار، أن ملكاً من الملوك أمر أن يصنع له طعام، وأحضر قوماً من خاصته فلما مد السماط[2] أقبل الخادم وعلى كفه صحن فيه طعام، فلما قَرُبَ من الملك أدركته الهيبة فعثر فوقع من مرق الصحن شيء يسير على طرف ثوب الملك، فأمر بضرب عنقه، فلما رأى الخادم العزيمة على ذلك عمد بالصحن فصب جميع ما كان فيه على رأس الملك، فقال له: ويحك ما هذا؟ فقال: أيها الملك إنما صنعت هذا شحاً على عرضك، لئلا يقول الناس إذا سمعوا ذنبي الذي به تقتلني: قتله في ذنب خفيف لم يضره وأخطأ فيه العبد، ولم يقصده، فتنسب إلى الظلم والجور. فصنعت هذا الذنب العظيم لتعذر في قتلي وترفع عنك الملامة. قال: فأطرق الملك ملياً ثم رفع رأسه إليه وقال: يا قبيح الفعل يا حسن الاعتذار، قد وهبنا قبيح فعلك وعظيم ذنبك لحسن اعتذارك، إذهب فأنت حر لوجه الله تعالى.

وحكي عن أمير المؤمنين المأمون وهو المشهود له بالاتفاق على علمه، والمشهور في الآفاق بعفوه وحلمه،

---

(١) أي أن من لا ينصفك حين الغضب لا يتخذ أخاً وصديقاً ولو كان شقيقاً.
(٢) مسفرة: ظاهرة واضحة.
(٣) الحلوم: ج حلم وهو العفو، وتطلق على العقل أيضاً.

(١) الخنا: الفاحشة والزنا بالأقارب وتطلق على كل عمل وضيع وحقير.
(٢) السماط: ما يمد على الأرض ليوضع فوقه الطعام، أو طاولة الطعام.

أنه لما خرج عمه إبراهيم المهدي عليه وبايعه العباسيون بالخلافة ببغداد وخلعوا المأمون، وكان المأمون إذ ذاك بخراسان فلما بلغه الخبر قصد العراق فلما بلغ بغداد اختفى إبراهيم بن المهدي وعاد العباسيون وغيرهم إلى طاعة المأمون ولم يزل المأمون متطلباً[١] لابراهيم حتى أخذه وهو متنقب[٢] مع نسوة، فحبس ثم أحضر حتى وقف بين يدي المأمون فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

فقال المأمون: لا سلم الله عليك ولا قرب دارك، استغواك[٣] الشيطان حتى حدثتك نفسك بما تنقطع دونه الأوهام[٤]. فقال له إبراهيم: مهلاً يا أمير المؤمنين فإنْ ولي الثأر محكّم في القصاص والعفو أقرب للتقوى، ولك من رسول الله ﷺ شرف القرابة وعدل السياسة وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب كما جعل كل ذي ذنب دونك، فإن أخذت فبحقك وإن عفوت فبفضلك، والفضل أولى بك يا أمير المؤمنين ثم قال هذه الأبيات:

ذنبي إليك عظيمْ
وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أو لا
فاصفح بعفوك عنهُ
إن لم أكن في فعالي
من الكرام فكُنهُ

فلما سمع المأمون كلامه وشعره ظهرت الدموع في عينيه وقال: يا إبراهيم الندم توبة وعفو الله تعالى أعظم ما تحاول وأكثر مما تأمل، ولقد حبب إلي العفو حتى خفت أن لا أؤجر عليه، لا تثريب[٥] عليك اليوم. ثم أمر بفك قيوده وإدخاله الحمام وإزالة شعثه[٦] وخلع عليه ورد أمواله جميعها إليه فقال فيه مخاطباً:

رددت مالي ولم تبخل عليّ به
وقبل ردّك مالي قد حقنت دمي

(١) متطلباً له: ساعياً وطالباً لإلقاء القبض عليه.
(٢) متنقب: وضع على وجهه نقاباً كالنساء.
(٣) استغواك: قادك بغوايته أي أضلّك.
(٤) أي حتى رغبت بالحصول على ما لا يمكنك الوصول إليه أو الحصول عليه.
(٥) التثريب: اللوم والعقاب.
(٦) ما تشعث من شعره وامتلأ بالتراب والغبار وما اتسخ من ملابسه.

فإن جحدتك ما أوليت من كرم
إني لبالـلـؤم أولى منك بالكرم

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يأمره أن يبعث إليه برأس عباد بن أسلم البكري، فقال له عباد: أيها الأمير أنشدك الله لا تقتلني، فوالله إني لأعول أربعاً وعشرين امرأة ما لهن كاسب غيري. فرق لهن واستحضرهن وإذا واحدة منهن كالبدر، فقال له الحجاج: ما أنت منه؟ قالت: أنا بنته فاسمع يا حجاج مني ما أقول ثم قالت:

أحجاجُ إمّا أن تمنّ بتركه
علينا وإما أن تقتّلنا معاً
أحجاج لا تفجع به إنْ قتلته
ثماناً وعشراً واثنتين وأربعا
أحجاج لا تترك عليه بناته
وخالاته يندبنه الدهر أجمعا

فبكى الحجاج ورق له واستوهبه من أمير المؤمنين عبد الملك وأمر له بصلة.

ولما قدم عيينة بن حصن على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر رضي الله عنه، وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً. فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير[١] فاستأذن لي عليه، فاستأذن، فأذن له عمر فلما دخل قال: هيه يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل[٢] ولا تحكم فينا بالعدل، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله سبحانه وتعالى قال لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝﴾[٣] وإن هذا من الجاهلين فوالله ما جاوزها عمر رضي الله عنه حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله تعالى.

وحكي أن رجلاً زوّر ورقة عن خط الفضل بن الربيع، تتضمن أنه أطلق له ألف دينار ثم جاء بها إلى وكيل الفضل، فلما وقف الوكيل عليها لم يشك أنها خط الفضل فشرع في أن يزن له الألف دينار، وإذا بالفضل قد حضر ليتحدث مع وكيله في تلك الساعة في أمر مهم فلما جلس أخبره الوكيل بأمر الرجل وأوقفه على الورقة فنظر الفضل

(١) أي أنت مقبول في مجلسه، ويسمع منك إن حدثته.
(٢) الجزل: العطاء الكثير.
(٣) سورة الأعراف، الآية (١٩٩).

فيها ثم نظر في وجه الرجل فرآه كاد يموت من الوجل[١] والخجل فأطرق الفضل[٢]، بوجهه ثم قال للوكيل: أتدري لم أتيتك في هذا الوقت؟ قال: لا، قال: جئت لأستنهضك حتى تعجل لهذا الرجل إعطاء المبلغ الذي في هذه الورقة.

فأسرع عند ذلك الوكيل في وزن المال وناوله الرجل فقبضه وصار متحيراً في أمره فالتفت إليه الفضل وقال له: طب نفساً وامض إلى سبيلك آمناً على نفسك فقبل الرجل يده وقال له سترتني سترك الله في الدنيا والآخرة، ثم أخذ المال ومضى.

فيجب على الإنسان أن يتأسى بهذه الأخلاق الجميلة والأفعال الجليلة ويقتفي سنة نبيه عليه الصلاة والسلام، فقد كان أكثر الناس حلماً وأحسنهم خلقاً وأكرمهم خلقاً وأكثرهم تجاوزاً وصفحاً وأبرهم للمعتر عليه نجحاً، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

وأما ما جاء في العتاب

فقد قيل العتاب خير من الحقد ولا يكون العتاب إلا على زلة. وقد مدحه قوم فقالوا: العتاب حدائق المتحابين ودليل على بقاء المودة وقد قال أبو الحسن بن منقذ شعراً:

أسطو عليه وقلبي لو تمكّن من
يديّ غلّهما غيظاً إلى عنقي[٣]

وأستعير له من سطوتي حنقاً
وأين ذل الهوى من عزة الحنق[٤]

وذمه بعضهم، قال إياس بن معاوية: خرجت في سفر ومعي رجل من الأعراب فلما كان في بعض المناهل[٥] لقيه ابن عم فتعانقا وتعاتبا وإلى جانبهما شيخ من الحي فقال لهما: أنعما عيشاً إن المعاتبة تبعث التجني والتجني يبعث المخاصمة والمُخاصَمَة تبعث العداوة ولا خير في شيء ثمرته العداوة.

قال الشاعر:

فدعْ ذكر العتاب فربَّ شرٍّ
طويلٍ هاجَ أوّلُه العتابُ

(١) الوجل: الخوف الشديد.
(٢) أطرق الرجل: أحنى رأسه خجلاً أو تفكراً.
(٣) غلّهما: قيّدَهما.
(٤) الحنق: شدة الغضب.
(٥) المناهل ج منهل: وهو موضع استقاء الماء.

وقيل: العتاب من حركات الشوق، وإنما يكون هذا بين المتحابين. قال الشاعر:

علامة ما بين المحبين في الهوى
عتابهم في كل حقٍّ وباطلِ

وكتب بعضهم يعاتب صديقه على تغير حاله معه يقول:

عرضنا أنفساً عزّت علينا
عليكم فاستخف بها الهوانُ

ولو أنّا رفعناها لعزّتْ
ولكن كل معروضٍ مهانُ

وقال آخر يعاتب صديقه:

وكنت إذا ما جئت أدنيتَ مجلسي
ووجهُك من تلك البشاشة يقطرُ

فمنْ ليَ بالعين التي كنتُ مرّةً
إليّ بها في سالف الدهر تنظر

وقال أبو الحسن بن منقذ:

أخلاقك الغُرُّ السجايا[١] ما لها
حملت قذى الواشين وهي سلاف[٢]

ومرآة رأيك في عبيدك ما لها
صدئت وأنت الجوهر الشفاف

وقال آخر يعاتب صديقه على كتاب أرسله إليه وفيه حط عليه:

اقرأ كتابك واعتبره قريباً
فكفى بنفسك لي عليك حسيبا

أكذا يكون خطاب إخوان الصفا
إن أرسلوا جعلوا الخطاب خطوبا

ما كان عذري أن أجبت بمثله
أو كنت بالعتب العنيف مجيبا

لكنني خفت انتقاص مودّتي
فيُعد إحساني إليك ذنوبا

وقال آخر:

أراك إذا ما قلت قولاً قبلته
وليس لأقوالي لديك قبولُ

وما ذاك إلا أنّ ظنّك سيّىءٌ
بأهل الوفا والظن فيك جميل

(١) الغرُّ: البيض والسجايا: الطباع والأخلاق، والأخلاق البيضاء: الحسنة.
(٢) القذى: القَذَر والسلاف: الخمر الصافية اللون.

فكن قائلاً قول الحماسي تائهاً
بنفسك عجباً وهو منك قليل
وننكر إن شئنا على الناس قولهم
ولا ينكرون القول حين نقول

وكان لمحمد بن الحسن بن سهل صديق فنالته إضاقة[1] ثم ولي عملاً فأثرى فقصده محمد مسلماً فرأى منه تغيراً فكتب إليه:

لئن كانت الدنيا أنالتك ثروة
فأصبحت ذا يسرٍ وقد كنتَ ذا عسرِ
فقد كشف الإثراء منك خلائقاً
من اللؤم كانت تحت ثوبٍ من الفقر

وقال آخر في المعنى:

دعوت الله أن تسمو وتعلو
علوَّ النجم في أفقِ السماءِ
فلما أن سموت بُعدتَ عنّي
فكان إذاً على نفسي دعائي

وكان ابن عرادة السعدي مع سلم بن زياد بخراسان وكان له مكرماً وابن عرادة يتجنى عليه ففارقه وصاحب غيره ثم ندم ورجع إليه وقال:

عتبت على سلم فلمّا فقدته
وصاحبت أقواماً بكيت على سلمِ
رجعت إليه بعد تجريب غيره
فكان كَبِرْءٍ بعد طولٍ من السقم

وقال مسلم بن الوليد:

ويرجعني إليك إذا نأت بي
ديارك عنك تجربةُ الرجال

وقال أبو الحسن القابسي:

إذا أنا عاتبت الملوم فإنّما
أخطّ بأقلامي على الماء أحرفا[2]
وهبه ارعوى بعد العتاب ألم تكن
مودته طبعاً فصارت تكلفا[3]

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: معاتبة الصديق أهون من فقده. **وما أحسن ما قيل في العتاب:**

وفي العتاب حياةٌ بين أقوام
وهو المحكّ لذي لَبْسٍ وإبهامِ[1]

فما ثم شيء أحسن من معاتبة الأحباب ولا ألذ من مخاطبة ذوي الألباب والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السابع والثلاثون
في الوفاء بالوعد وحفظ العهد ورعاية الذمم

أرجح دليل يتمسك به الإنسان كتاب الله تعالى الذي من تمسك به هداه ومن استدل به أرشده هداه، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾[2]. وقال جل ذكره وتقدس اسمه: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠﴾[3]. وقال جل وعلا: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾[4]. وقال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾[5]. والآيات في ذلك كثيرة ومن أشدها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣﴾[6].

وروي في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«آية المنافق ثلاث، إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان»**. فالوفاء من شيم النفوس الشريفة والأخلاق الكريمة والخلال الحميدة، يعظم صاحبه في العيون وتصدق فيه خطرات الظنون، ويقال الوعد والإنجاز محاسنه، والوعد سحابه

(١) نالته إضاقة: أصابه ضيق وحاجة.
(٢) أخط على الماء: أي أقوم بعمل لا يبقى.
(٣) هبه أرعوى: لنفرض أنه عاد عمّا قال أو فعل.

(١) كما أن المحك يعرف به الذهب من النحاس كذلك تعرف النفوس بالعتاب فمن أصر على الباطل كان من أهل العداوة ومن اعترف بذنبه ورجع عنه ولم يغضب لمعاتبته كان من أهل الصداقة والبر.
واللبس: ما يلتبس فلا تعرف حقيقته من باطله.
والإبهام: ما غَمُضَ فلم تعرف حقيقته.
(٢) سورة المائدة، الآية (١).
(٣) سورة الرعد، الآية (٢٠).
(٤) سورة النحل، الآية (٩١).
(٥) سورة الإسراء، الآية (٣٤).
(٦) سورة الصف، الآيتان (٢ ـ ٣).

والإنجاز مطره. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لكل شيء رأس ورأس المعروف تعجيله.

وأنشدوا:

إذا قلتَ في شيءٍ نعم فأتمّهُ
فإنَّ نَعَمْ دينٌ على الحُرِّ واجبُ
وإلاّ فقل لا، تسترحْ وتُرِحْ بها
لئلاَّ يقول الناس أنّك كاذب[١]

وقال آخر:

لا كلّف الله نفساً فوق طاقتها
ولا تجود يدٌ إلاّ بما تجدُ،
فلا تعِدْ عِدَةً إلاّ وفيت بها
واحذر خلاف مقالٍ للذي تعدُ

وقال أعرابي: وعد الكريم نقد وتعجيل ووعد اللئيم مطل وتعليل.

وقال أعرابي أيضاً: العذر الجميل خير من المطل الطويل. ومدح بشار خالد بن برمك فأمر له بعشرين ألفاً فأبطأت عليه فقال لقائده[٢]: أقمني حيث يمر فأقامه فمر فأخذ بلجام بغلته وأنشأ يقول:

أظلت علينا منك يوماً سحابةٌ
أضاء لها برقٌ وأبطا رشاشها[٣]
فلا غيمها يجلى فييأس طامعٌ
ولا غيثُها يأتي فتروي عُطاشها

فقال: لا تبرح حتى تؤتى بها.

وقال صالح اللخمي:

لئن جَمَعَ الآفات فالبخلُ شرُّها
وشرٌّ من البخل المواعيد والمطل
ولا خير في وعدٍ إذا كان كاذباً
ولا خير في قولٍ إذا لم يكن فعل

وقيل ماتت للهذلي أم ولد، فأمر المنصور الربيع أن يعزيه ويقول له: إن أمير المؤمنين مُوَجِّهٌ إليك جارية نفيسة لها أدب وظُرْفٌ يسليك بها، وأمر لك معها بفرس وكسوة وصلة. فلم يزل الهذلي يتوقع وعد أمير المؤمنين ونسيه

(١) لأن من يقول نعم وهو يريد لا فهو من الكاذبين، ومن يقول لا وهو سيفعل لاحقاً فهو من المتكبرين يريد من الناس أن يرجوه.
(٢) أي من يقوده لأن بشاراً كان أعمى.
(٣) أبطأ رشاشها: تأخر هطولها.

المنصور، فحج المنصور ومعه الهذلي فقال المنصور وهو بالمدينة: إني أحب أن أطوف الليلة المدينة فاطلب لي من يطوف بي. فقال الهذلي: أنا لها يا أمير المؤمنين فطاف به حتى وصل بيت عاتكة، فقال: يا أمير المؤمنين وهذا بيت عاتكة الذي يقول فيه الأحوص:

يا بيت عاتكة الذي أتعزل
حذر العدا وبه الفؤاد موكّلُ
إني لأمنحك الصدودَ وإنّني
قسماً إليك مع الصدود لأميل

فكره المنصور ذكر بيت عاتكة من غير أن يسأله عنه فلما رجع المنصور أمَرَّ القصيدة على قلبه[١] فإذا فيها:

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم
مَذق اللسان[٢] يقول ما لا يفعل

فذكر المنصور الوعد الذي كان وعد به الهذلي فأنجزه له واعتذر إليه.

وقال الشاعر:

تعجيل وعد المرء أكرومةٌ
تنشر عنه أطيب الذكر
والحرّ لا يمطل معروفه
ولا يليق المطل بالحرّ

وقال آخر:

ولقد وعدتَ وأنتَ أكرمُ واعدٍ
لا خير في وعدٍ بغير تمام
أنعم عليّ بما وعدت تكرُّماً
فالمطل يُذهب بهجةَ الإنعامِ

وقال آخر:

لعبدك وعدٌ قد تقدم ذكره
فأوله حمدٌ وآخره شكر
وقد جمعت فيك المكارم كلها
فما لك عن تأخير مكرمةٍ عذر

وقال آخر:

وميعاد الكريم[٣] عليه دينٌ
فلا تزد الكريم على السلام

(١) أمَرَّ القصيدة على قلبه: أي راجعها في ذاكرته.
(٢) مذق اللسان: يقول بلسانه ما لا ينوي فعله.
(٣) ميعاد: وعد.

يذكره سلامك ما عليه
ويغنيك السلام عن الكلام

وقال آخر:

شكاك لساني ثم أمسكت نصفه
فنصف لساني بامتداحك ينطقُ
فإن لم تنجز ما وعدت تركتني
وباقي لساني بالمذمة مطلق

وقال آخر:

باتت لوعدك عيني غير راقدةٍ
والليلُ حي الدياجي منبتُ السحرِ
هذا وقد بت من وعدٍ على ثقةٍ
فكيف لو بت من هجرٍ على حذر

وقال آخر:

نذكر بالرقاع إذا نسينا
ويأبى الله أن تنسى الكرام

وأما الوفاء بالعهد ورعاية الذمم

فقد نقل فيه من عجائب الوقائع وغرائب البدائع ما يطرب السامع ويشنف المسامع، كقضية الطائي وشريك نديم النعمان بن المنذر، وتلخيص معناها أن النعمان كان قد جعل له يومين يوم بؤس من صادفه فيه قتله وأرداه[1]، ويوم نعيم من لقيه فيه أحسن إليه وأغناه.

وكان هذا الطائي قد رماه حادث دهره بسهام فاقته وفقره، فأخرجته الفاقة من محل استقراره ليرتاد شيئاً لصبيته وصغاره، فبينما هو كذلك إذ صادفه النعمان في يوم بؤسه فلما رآه الطائي علم أنه مقتول وأن دمه مطلول[2]، فقال: حيا الله الملك إن لي صبية صغاراً وأهلاً جياعاً وقد أَرَقْتُ ماء وجهي في حصول شيء من البُلْغَةِ[3] لهم، وقد أقدمني سوء الحظ على الملك في هذا اليوم العبوس وقد قربت من مقر الصبية والأهل وهم على شفا تلف من الطوى، ولن يتفاوت الحال في قتلي بين أول النهار وآخره، فإن رأى الملك أن يأذن لي في أن أوصل إليهم هذا القوت وأوصي بهم أهل المروءة من الحي لئلا يهلكوا ضياعاً ثم أعود إلى الملك وأسلم نفسي لنفاذ أمره.

---

(١) أرداة: أهلكه.

(٢) دم مطلول: دم لا يُثأرُ له.

(٣) البلغة: الكفاف من الطعام.

فلما سمع النعمان صورة مقاله وفهم حقيقة حاله ورأى تلهفه على ضياع أطفاله رقَّ له ورثي لحاله، غير أنه قال له: لا آذن لك حتى يضمنك رجل معنا فإن لم ترجع قتلناه، وكان شريك بن عدي بن شرحبيل نديم النعمان معه فالتفت الطائي إلى شريك وقال له:

يا شريك بن عُدِيٍ
ما من الموت انهزام
من لأطفالٍ ضعاف
عدموا طعمَ الطعامِ
بين جوعٍ وانتظار
وافتقارٍ وسقام
يا أخا كلِّ كريم
أنت من قومٍ كرام
يا أخا النعمان جُدْ لي
بضمانٍ والتزام
ولك الله بأني
راجعٌ قبل الظلام

فقال شريك بن عدي: أصلح الله الملك، عليّ ضمانه فمر الطائي مسرعاً وصار النعمان يقول لشريك: إن صدر النهار قد ولّى ولم يرجع، وشريك يقول: ليس للملك علي سبيل حتى يأتي المساء. فلما قرب المساء قال النعمان لشريك: قد جاء وقتك قم فتأهب للقتل. فقال شريك: هذا شخص قد لاح مقبلاً وأرجو أن يكون الطائي فإن لم يكن فأمر الملك ممتثل.

قال فبينما هم كذلك وإذا بالطائي قد اشتد عدوه في سيره مسرعاً حتى وصل. فقال: خشيت أن ينقضي النهار قبل وصولي. ثم وقف قائماً وقال: أيها الملك مر بأمرك فأطرق النعمان ثم رفع رأسه وقال: والله ما رأيت أعجب منكما أما أنت يا طائي فما تركت لأحد في الوفاء مقاماً يقوم فيه ولا ذكراً يفتخر به، وأما أنت يا شريك فما تركت لكريم سماحة يذكر بها في الكرماء. فلا أكون أنا الأم الثلاثة ألا وإني قد رفعت يوم بؤسي عن الناس ونقضت عادتي كرامة لوفاء الطائي وكرم شريك.

فقال الطائي:

ولقد دعتني للخلاف عشيرتي
فعددت قولهمو من الإضلال
إني امرؤٌ مني الوفاء سجية
وفعالُ كلِّ مهذبٍ مفضال

فقال له النعمان: ما حملك على الوفاء وفيه إتلاف نفسك؟ فقال ديني فمن لا وفاء فيه لا دين له. فأحسن إليه النعمان ووصله بما أغناه وأعاده مكرماً إلى أهله وأناله ما تمناه.

ومن ذلك..

ما حكي أن الخليفة المأمون لما ولّى عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر والشام وأطلق حكمه، دخل على المأمون بعض إخوانه يوماً فقال: يا أمير المؤمنين إن عبد الله بن طاهر يميل إلى ولد أبي طالب وهواه مع العلويين وكذلك كان أبوه قبله، فحصل عند المأمون شيء من كلام أخيه من جهة عبد الله بن طاهر فتشوش فكره وضاق صدره، فاستحضر شخصاً وجعله في زي الزهاد والنساك الغزاة ودسه إلى عبد الله بن طاهر، وقال له: امض إلى مصر وخالط أهلها وداخل كبراءها واستملهم إلى القاسم بن محمد العلوي. واذكر مناقبه، ثم بعد ذلك اجتمع ببعض بطانة[1] عبد الله بن طاهر ثم اجتمع بعبد الله بن طاهر بعد ذلك وادْعُهُ إلى القاسم بن محمد العلوي واكشف باطنه وابحث عن دفين نِيّتِهِ، وائتني بما تسمع.

ففعل ذلك الرجل ما أمره به المأمون وتوجه إلى مصر ودعا جماعة من أهلها، ثم كتب ورقة لطيفة ودفعها إلى عبد الله بن طاهر وقت ركوبه، فلما نزل من الركوب وجلس في مجلسه خرج الحاجب إليه وأدخله على عبد الله بن طاهر وهو جالس وحده فقال له: لقد فهمت ما قصدت فهات ما عندك، فقال: ولي الأمان؟ قال: نعم. فأظهر له ما أراده ودعاه إلى القاسم بن محمد، فقال له عبد الله: أوَ تنصفني فيما أقوله لك؟ قال: نعم. قال: فهل يجب شكر الناس بعضهم لبعض عند الإحسان والمنة؟ قال: نعم، قال: فيجب عليّ وأنا في هذه الحالة التي تراها من الحكم والنعمة والولاية ولي خاتم في المشرق وخاتم في المغرب، وأمري فيما بينهما مطاع وقولي مقبول، ثم إني التفت يميناً وشمالاً فأرى نعمة هذا الرجل غامرة وإحسانه فائضاً عليّ، أفتدعوني إلى الكفر بهذه النعمة وتقول أغدر وجَانِبِ الوفاء. والله لو دعوتني إلى الجنة عَيَاناً لما غدرت، ولما نكثت بيعته وتركت الوفاء له، فسكت الرجل، فقال له عبد الله: والله ما أخاف إلا على نفسك، فارحل من هذا البلد. فلمّا يئس الرجل منه وكشف باطنه وسمع كلامه رجع إلى المأمون، فأخبره بصورة الحال، فسره ذلك، وزاد في إحسانه إليك، وضاعف إنعامه عليه.

ومما يعد من محاسن الشيم ومكارم أخلاق أهل الكرم ويحث على الوفاء بالعهود ورعاية الذمم ما رواه حمزة بن الحسين الفقيه في تاريخه. قال: قال لي أبو الفتح المنطيقي، كنا جلوساً عند كافور الأخشيدي، وهو يومئذ صاحب مصر والشام، وله من البسطة والمكنة، ونفوذ الأمر وعلو القدر وشهرة الذكر ما يتجاوز الوصف والحصر، فحضرت المائدة والطعام، فلما أكلنا نام وانصرفنا، ولما انتبه من نومه طلب جماعة منا، وقال أمضوا الساعة إلى عقبة النجارين، وسلوا عن شيخ منجم أعور كان يقعد هناك، فإن كان حياً، فأحضروه، وإن كان قد توفي فسلوا عن أولاده، واكشفوا أمرهم. قال: فميضنا إلى هناك، وسألنا عنه، فوجدناه قد مات، وترك بنتين إحداهما متزوجة، والأخرى عاتق[1].

فرجعنا إلى كافور وأخبرناه بذلك، فسيّر في الحال واشترى لكل واحدة منهما داراً وأعطاهما مالاً جزيلاً وكسوة فاخرة، وزوّج العاتق، وأجرى على كل واحدة منهما رزقاً وأظهر أنهما من المتعلقين به لرعاية أمورهما، فلما فعل ذلك وبالغ فيه ضحك وقال: أتعلمون سبب هذا؟ قلنا لا، فقال: اعلموا أني مررت يوماً بوالدهما المنجم، وأنا في ملك ابن عباس الكاتب، وأنا بحالة رَثّة، فوقفت عليه، فنظر إليّ واستجلبني وقال: أنت تصير إلى رجل جليل القدر، وتبلغ منه مبلغاً كبيراً، وتنال خيراً، ثم طلب مني شيئاً، فأعطيته درهمين كانا معي، ولم يكن معي غيرهما، فرمى بهما إليّ وقال: أبشرك بهذه البشارة وتعطيني درهمين؟ ثم قال: وأزيدك أنت والله تملك هذا البلد وأكثر منه، فاذكرني إذا صرت إلى الذي وعدتك به ولا تنس. فقلت له: نعم، فقال: عاهدني أنك تفي لي ولا يشغلك ذلك عن افتقادي، فعاهدته، ولم يأخذ مني الدرهمين.

ثم إني شغلت عنه بما تجدد لي من الأمور والأحوال وصرت إلى هذه المنزلة ونسيت ذلك، فلما أكلنا اليوم ونمت رأيته في المنام قد دخل عليّ، وقال لي: أين الوفاء بالعهد الذي بيني وبينك، وإتمام وعدك؟ لا تغدر، فيغدر بك، فاستيقظت وفعلت ما رأيتم، ثم زاد في إحسانه إلى

(١) بطانة الحاكم: حاشيته والمقربون منه.

(١) العاتق: الفتاة اليافعة.

بنات المنجم وفاء لوالدهما بما وعده، والله أعلم.

ومما أسفرت عنه وجوه الأوراق وأخبرت به الثقات في الآفاق، وظهرت روايته بالشام والعراق وضرب به الأمثال في الوفاء بالاتفاق، حديث السموأل بن عاديا، وتلخيص معناه، أن امرأ القيس الكندي لما أراد المضي إلى قيصر ملك الروم أودع عند السموأل دروعاً وسلاحاً وأمتعة تساوي من المال جملة كثيرة، فلما مات امرؤ القيس أرسل ملك كندة يطلب الدروع والأسلحة المودعة عند السموأل، فقال السموأل: لا أدفعها إلا لمستحقها وأبى أن يدفع إليه منها شيئاً. فعاوده، فأبى وقال: لا أغدر بذمتي ولا أخون أمانتي ولا أترك الوفاء والواجب عليّ. فقصده ذلك الملك من كندة بعسكره، فدخل السموأل في حصنه وامتنع به، فحاصره ذلك الملك. وكان ولد السموأل خارج الحصن، فظفر به ذلك الملك، فأخذه أسيراً ثم طاف حول الحصن وصاح بالسموأل، فأشرف عليه من أعلى الحصن، فلما رآه قال له: إن ولدك قد أسرته، وها هو معي، فإن سلمت إليّ الدروع والسلاح التي لامرىء القيس عندك رحلت عنك وسلمت إليك ولدك، وإن امتنعت من ذلك ذبحت ولدك وأنت تنظر، فاختر أيهما شئت. فقال له السموأل: ما كنت لأخفر ذمامي وأبطل وفائي. فاصنع ما شئت، فذبح ولده وهو ينظر، ثم لما عجز عن الحصن رجع خائباً. واحتسب السموأل ذبح ولده وصبر محافظة على وفائه، فلما جاء الموسم وحضر ورثة امرىء القيس سلّم إليهم الدروع والسلاح، ورأى حفظ ذمامه ورعاية وفائه أحب إليه من حياة ولده وبقائه، فسارت الأمثال في الوفاء تضرب بالسموأل، وإذا مدحوا أهل الوفاء في الأنام ذكروا السموأل في الأول. وكم أعلى الوفاء رتبة من اعتقله بيديه وأغلى قيمة من جعله نصب عينيه، واستنطق الأفواه لفاعله بالثناء عليه، واستنطق الأيدي المقبوضة عنه بالإحسان إليه.

ومما وضع في بطون الدفاتر واستحسنته عيون البصائر ونقلته الأصاغر عن الأكابر وتداولته الألسنة من الأوائل والأواخر، ما رواه خادم أمير المؤمنين المأمون، قال: طلبني أمير المؤمنين ليلة، وقد مضى من الليل ثلثه فقال لي: خذ معك فلاناً وفلاناً وسمّاهما: أحدهما علي بن محمد، والآخر دينار الخادم، واذهب مسرعاً لما أقوله لك، فإنه قد بلغني أن شيخاً يحضر ليلاً إلى دور البرامكة، وينشد شعراً ويذكرهم ذكراً كثيراً ويندبهم ويبكي عليهم، ثم ينصرف، فامض الآن أنت وعلي ودينار حتى تروا هذه الخرابات، فاستتروا خلف بعض الجدران، فإذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد شيئاً، فائتوني به. قال: فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرابات، وإذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساط وكرسي حديد، وإذا شيخ وسيم له جمال وعليه مهابة ووقار قد أقبل، فجلس على الكرسي وجعل يبكي وينتحب ويقول:

ولما رأيت السيفَ جندلَ جعفراً ... ونادى منادٍ للخليفة في يحيى

بكيت على الدنيا وزاد تأسفي ... عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطالها ورددها، فلما فرغ قبضنا عليه، وقلنا له: أجب أمير المؤمنين، ففزع فزعاً شديداً، وقال: دعوني حتى أوصي وصية، فإني لا أوقن بعدها بحياة. ثم تقدم إلى بعض الدكاكين، فاستفتح، وأخذ ورقة، وكتب فيها وصية ودفعها إلى غلامه، ثم سرنا به، فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين زجره، وقال له: من أنت، وبماذا استوجبت البرامكة منك ما تفعله في خرائب دورهم وما تقوله فيها؟ قال الخادم: ونحن وقوف نسمع، فقال: يا أمير المؤمنين إن للبرامكة عندي أياد خطيرة، أفتأذن لي أن أحدثك حديثي معهم؟ قال: قل. قال: يا أمير المؤمنين أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك، وقد زالت عني نعمتي كما تزول عن الرجال، فلما ركبني الدين، واحتجت إلى بيع مسقط رأسي ورؤوس أهلي، أشاروا عليّ بالخروج إلى البرامكة، فخرجت من دمشق ومعي نيف وثلاثون امرأة وصبياً وصبية، وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب حتى دخلنا بغداد ونزلنا في بعض المساجد، فدعوت بثويبات لي كنت قد أعددتها لأستمنح بها الناس، فلبستها وخرجت وتركتهم جياعاً لا شيء عندهم، ودخلت شوارع بغداد أسأل عن دور البرامكة، فإذا أنا بمسجد مزخرف وفيه مائة شيخ بأحسن زي وزينة وعلى الباب خادمان، فطمعت في القوم وولجت المسجد وجلست بين أيديهم وأنا أقدم وأؤخر والعرق يسيل مني لأنها لم تكن صناعتي[1]، وإذا بخادم قد أقبل فدعا القوم، فقاموا وأنا معهم، فدخلوا دار يحيى بن خالد، ودخلت معهم، وإذا بيحيى جالس على دكة له في وسط بستان، فسلمنا، وهو يعدنا مائة وواحد وبين يديه عشرة من ولده،

(١) لأنه ليس ممن يستجدي أو يسأل الناس.

وإذا غلام أمرد[١] عذاراه خداه[٢] قد أقبل من بعض المقاصير بين يديه مائة خادم ممنطقون في وسط كل خادم منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال، ومع كل خادم مجمرة من ذهب في كل مجمرة قطعة من عود كهيئة الفهر[٣]، قد قرن بها مثلها من العنبر السلطاني، فوضعوه بين يدي الغلام إلى جنب يحيى، ثم قال يحيى للقاضي: تكلم وزوج بنتي عائشة من ابن عمي هذا. فخطب القاضي، وزوّجه، وشهد أولئك الجماعة، وأقبلوا علينا بالنثار[٤] ببنادق المسك والعنبر، فالتقطت، والله يا أمير المؤمنين ملء كمي، ونظرت، فإذا نحن في المكان ما بين يحيى والمشايخ وولده والغلام مائة وإثنا عشر رجلاً، فخرج إلينا مائة وإثنا عشر خادماً مع كل خادم صينية من فضة عليها ألف دينار، فوضعوا بين يدي كل رجل منا صينية، فرأيت القاضي والمشايخ يصبون الدنانير في أكمامهم ويجعلون الصواني تحت آباطهم، ويقوم الأول فالأول، حتى بقيت وحدي بين يدي يحيى لا أجسر على أخذ الصينينة، فغمزني الخادم، فجسرت وأخذتها، وجعلت الذهب في كمي، وأخذت الصينية في يدي وقمت، وجعلت ألتفت إلى ورائي مخافة أن أمنع من الذهاب بها، فبينما أنا كذلك في صحن الدار ويحيى يلحظني إذ قال للخادم ائتني بذلك الرجل. فرددت إليه، فأمر بصب الدنانير والصينية وما كان في كمي، ثم أمرني بالجلوس، فجلست فقال لي: ممن الرجل؟ فقصصت عليه قصتي، فقال للخادم ائتني بولدي موسى، فأتي به، فقال له: يا بني هذا رجل غريب، فخذه إليك واحفظه بنفسك وبنعمتك. فقبض موسى على يدي وأدخلني إلى دار من دوره، فأكرمني غاية الإكرام، وأقمت عنده يومي وليلتي في ألذ عيش، وأتم سرور، فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال: إن الوزير قد أمرني بالعطف على هذا الرجل، وقد علمت اشتغالي في دار أمير المؤمنين فاقبضه إليك، وأكرمه، ففعل ذلك وأكرمني غاية الإكرام، فلما كان من الغد تسلمني أخوه أحمد، ثم لم أزل في أيدي القوم يتداولوني عشرة أيام لا أعرف خبر عيالي وصبياني أفي الأموات هم أم في الأحياء. فلما كان اليوم الحادي عشر جاءني خادم ومعه جماعة من الخدم، فقالوا لي: قم، فاخرج إلى عيالك بسلام. فقلت: واويلاه سلبت الدنانير والصينية، وأخرج إلى عيالي في هذه الحالة. إنّا لله وإنّا إليه راجعون فرفع الستر الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، ثم الرابع، فلما رفع الخادم الستر الأخير قال لي: مهما كان لك من الحوائج، فارفعها إلي فإنني مأمور بقضاء جميع ما تأمرني به، فلما رفع الستر رأيت حجرة كالشمس حسناً ونوراً واستقبلني منها رائحة الند والعود ونفحات المسك، وإذا بصبياني وعيالي يتقلبون في الحرير والديباج، وحمل إلي ألف ألف درهم وعشرة آلاف دينار ومنشورين بضيعتين، وتلك الصينية التي كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق، وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أمِنَ البرامكة أنا أم رجل غريب اصطنعوني، فلما جاءتهم البلية، ونزل بهم من أمير المؤمنين الرشيد ما نزل، أجحفني عمرو بن مسعدة وألزمني في هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفي دخلهما به، فلما تحامل عليّ الدهر كنت في أواخر الليل أقصد خرابات القوم، فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم إليّ وأشكرهم على إحسانهم.

فقال المأمون: عليّ بعمرو بن مسعدة، فلما أُتي به قال: يا عمرو: أتعرف هذا الرجل؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة، قال: كم ألزمته في ضيعته؟ قال: كذا وكذا، قال: رد له كل ما أستأديته منه في مدته، ووقع له بهما ليكونا له ولعقبه من بعده، قال: فعلا نحيب الرجل وبكاؤه، فلما رأى المأمون كثرة بكائه قال: يا هذا قد أحسنا إليك، فلمَ تبكي؟ قال: يا أمير المؤمنين وهذا أيضاً من صنائع البرامكة، إذ لو لم آت خراباتهم، فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبري بأمير المؤمنين، ففعل ما فعل، فمن أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين.

قال إبراهيم بن ميمون، فلقد رأيت المأمون قد دمعت عيناه، وظهر عليه حزنه وقال: لعمري هذا من صنائع البرامكة، فعليهم فَابكِ، وإياهم فأشكر، ولهم فأوف ولإحسانهم فاذكر.

وقيل: إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل، ودوام عهده، فانظر إلى حنينه إلى أوطانه وتشوقه إلى إخوانه وكثرة بكائه على ما مضى من زمانه قال الشاعر:

---

(١) أمرد: شاب لم تنبت لحيته بعد.

(٢) عذاراه: سَالِفَاه.

وعذاراه خداه: أي صغير السن لم يظهر له سالف بعد.

(٣) الفهر: الحجر المستطيل.

(٤) النثار: ما ينثر أو يوزع على المدعوين في حفل الزفاف أو عقد القران.

سقى الله أطلالَ الوفاءِ بكفه
فقد دَرَسَتْ أعلامه ومنازله[1]

وقال آخر:

أشدُدْ يديك بمن بلوت وفاءه
إنَّ الوفاء من الرجال عزيز

وقال مالك بن عمارة اللخمي: كنت جالساً في ظل الكعبة أيام الموسم عند عبد الملك بن مروان، وقبيصة بن ذؤيب، وعروة بن الزبير، وكنا نخوض في الفقه مرة، وفي المذاكرة مرة، وفي أشعار العرب، وأمثال الناس مرة، فكنت لا أجد عند أحد ما أجده عند عبد الملك بن مروان من الاتساع في المعرفة والتصرف في فنون العلم، وحسن استماعه إذا حُدِّث، وحلاوة لفظه إذا حَدَّث، فخلوت معه ليلة، فقلت له: والله إني لمسرور بك لما شاهدته من كثرة تصرفك وحسن حديثك، وإقبالك على جليسك، فقال: إن تعش قليلاً، فسترى العيون طامحة إليّ، والأعناق نحوي متطاولة، فإذا صار الأمر إليّ، فلعلك أن تنقل إلي ركابك[2]، فلأملأن يديك. فلما أفضت إليه الخلافة، توجهت إليه، فوافيته[3] يوم الجمعة، وهو يخطب على المنبر، فلما رآني أعرض عني، فقلت: لعله لم يعرفني، أو عَرِفَني وأظهر لي نكره، فلما قضيت الصلاة ودخل بيته لم ألبث أن خرج الحاجب، فقال: أين مالك بن عمارة؟ فقمت، فأخذ بيدي، وأدخلني عليه، فمد إلي يده وقال: إنك تراءيت لي في موضع لا يجوز فيه إلا ما رأيت، فأما الآن، فمرحباً وأهلاً، كيف كنت بعدي؟ فأخبرته، فقال: أتذكر ما كنت قلت لك؟ قلت: نعم، فقال: والله ما هو بميراث وَعَيْنَاهُ، ولا أثَرِ رويناه، ولكني أخبرك بخصال مني سمت بها نفسي إلى الموضع الذي ترى. ما خنت ذا وِدٍّ قط، ولا شمتُّ بمصيبةِ عدوٍّ قط، ولا أعرضت عن محدث حتى ينتهي حديثه، ولا قصدت كبيرة من محارم الله تعالى متلذذاً بها، فكنت أؤمل بهذه أن يرفع الله تعالى منزلتي وقد فعل.

ثم دعا بغلام، فقال له يا غلام: بوئه منزلاً[4] في الدار، فأخذ الغلام بيدي، وأفرد لي منزلاً حسناً، فكنت في ألذ حال، وأنعم بال، وكان يسمع كلامي وأسمع كلامه، ثم أدخل عليه في وقت عشائه، وغدائه، فيرفع منزلتي ويقبل عليّ ويحادثني، ويسألني مرة عن العراق ومرة عن الحجاز حتى مضت لي عشرون ليلة، فتغديت يوماً عنده، فلما تفرق الناس نهضت قائماً، فقال: على رسلك[1]، فقعدت، فقال: أي الأمرين أحب إليك المقام عندنا مع النصفة لك في المعاشرة، أو الرجوع إلى أهلك ولك الكرامة، فقلت يا أمير المؤمنين: فارقت أهلي وولدي على أني أزور أمير المؤمنين، وأعود إليهم، فإن أمرني أمير المؤمنين اخترت رؤيته على الأهل والولد، فقال: لا، بل أرى لك الرجوع إليهم والخيار لك بعد في زيارتنا، وقد أمرنا لك بعشرين ألف دينار، وكسوناك وحملناك. أتراني قد ملأت يديك؟ فلا خير فيمن ينسى إذا وعد وعداً، وزرنا إذا شئت، صحبتك السلامة.

ومن ذلك: ما روي عن أبي بكار الأعمى، وكان قد انقطع إلى آل برمك، قال مسرور الكبير: لما أمرني الرشيد بقتل جعفر بن يحيى دخلت عليه، فوجدت عنده أبا بكار الأعمى يغنيه ويقول:

فلا تحزن فكل فتىً سيأتي
عليه الموتُ يطرقُ أو يغادي[2]

فقلت: في هذا والله قد أتيتك، ثم أمسكت بيد جعفر وأقمته، وضربت عنقه، فقال أبو بكار: ناشدتك الله إلا ما ألحقتني به، فقلت له: ما الذي حملك على هذا؟ فقال: أغناني عن الناس، فقلت: حتى استأمر الرشيد، ثم أحضرت الرأس إلى الرشيد، وأخبرته بخبر أبي بكار، فقال: هذا رجل فيه مصطنع اضممه إليك، وانظر ما كان يجري عليه جعفر فأدفعه إليه. وكان يحيى بن خالد إذا أكَّد في يمينه قال: لا والذي جعل الوفاء أعز ما يرى.

قال أبو فراس بن حمدان الشاعر:

بمن يثِّقي الإنسانُ فيما ينوبُهُ
ومن أين للحرِّ الكريمِ صحابُ
وقد صار هذا الناس إلاَّ أقلَّهُم
ذئاباً على أجسادهن ثيابُ

وسأل المنصور بعض بطانة هشام عن تدبيره في الحروب، فقال: كان رحمه الله تعالى يفعل كذا وكذا، فقال المنصور: عليك لعنة الله تطأ بساطي وتترحم على

---

(١) درست أعلامه: انمحت وزالت معالمها.
(٢) تنقل إليَّ ركابك: تسافر للقائي.
(٣) وافيته: وجدته والتقيت به.
(٤) بوئه: أسكنه وأنزله.

(١) على رسلك: على مهلك أي ابق مكانك.
(٢) يطرق: يأتي ليلاً، يغادي: يأتي غدوة أي صباحاً.

عدوي؟ فقال: إن نعمة عدوك لقلادة في عنقي لا ينزعها إلا غاسلي، فقال له المنصور ارجع يا شيخ، فإني أشهد أنك لوفي حافظ للخير، ثم أمر له بمال، فأخذه، ثم قال: والله لولا جلالة أمير المؤمنين وإمضاء طاعته ما لبست لأحد بعد هشام نعمة، فقال له المنصور: لله درك، فلو لم يكن في قومك غيرك لكنت قد أبقيت لهم مجداً مخلداً.

وخرج سليمان بن عبد الملك، ومعه يزيد بن المهلب في بعض جبابين الشام، فإذا امرأة جالسة على قبر تبكي، قال سليمان: فرفعت البرقع عن وجهها، فحكت شمساً عن متون غمامة، فوقفنا متحيرين ننظر إليها، فقال لها يزيد بن المهلب: يا أمة الله: هل لكِ في أمير المؤمنين بعلاً؟ فنظرت إلينا، ثم أنشأت تقول:

فإن تسألاني عن هواي فإنه
يحولُ بهذا القبرِ يا فتيان

وإني لأستحييه والترب بيننا
كما كنتُ أستحييه وهو يراني

ومن ذلك: ما روي عن نائلة بنت القرافصة بن الأحوص الكلبي زوج عثمان رضي الله عنهما، أن عثمان لما قتل أصابتها ضربة على يدها، وخطبها معاوية، فردته، وقالت: ما يعجب الرجل مني؟ قالوا: ثناياك[1]، فكسرت ثناياها، وبعثت بها إلى معاوية، فكان ذلك مما رغّب قريشاً في نكاح نساء بني كلب.

ولما أحس مصعب بن الزبير بالقتل دفع إلى مولاه زياد فص ياقوت قيمته ألف ألف، وقال له: إنج بهذا فأخذه زياد ودقه بين حجرين، وقال: والله لا ينتفع به أحد بعدك.

ولما قدم هدبة بن الخشرم للقتل بحضرة مروان بن الحكم، قالت زوجته: إن لهدبة عندي وديعة، فامهله حتى آتيك بها، فقال: أسرعي، فإن الناس قد كثروا، وكان مروان قد جلس لهم بارزاً عن داره، فمضت إلى السوق، وأتت إلى قصاب، فقالت: أعطني شفرتك، وخذ هذين الدرهمين، وأنا أردها عليك، فأخذتها وقربت من حائط وأرسلت ملحفها على وجهها، ثم جدعت أنفها من أصله، وقطعت شفتيها وردت الشفرة إلى القصاب. ثم أقبلت حتى دخلت بين الناس، فقالت: أتراني يا هدبة متزوجة بعد ما ترى، فقال: الآن طابت نفسي بالموت، فجزاك الله من حليلة وفية خيراً.

ولنجعل لهذا الباب من القضايا ختاماً هو أوجزها كلاماً، وأحسنها نظاماً، وأبينها حكماً وإحكاماً، وهي قضية جمعت الأمرين: وفاء وغدراً، وعرفاً ونكراً، وخيراً وشراً، ونفعاً وضراً، واشتملت على حال شخصين أحدهما وفى بعهده ففاز ونجا وحاز من مقترحات مناه ما أمل ورجا، وغدر الآخر، فلم يجد له من جزاء غدره إلى النجاة فرجاً، ولم يلق له من ضيق الغدر مخرجاً. وهو ما ذكره عبد الله بن عبد الكريم، وكان مطلعاً على أحوال أحمد بن طولون عارفاً بأموره عالماً بوروده وصدوره، فقال ما معناه:

إن أحمد بن طولون وجد عند سقايته طفلاً مطروحاً، فالتقطه ورباه وسماه أحمد وشهره باليتيم، فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاء وفطنة، وأحسنهم زياً وصورة، فصار يرعاه ويعلمه حتى تهذب وتمرن، فلما حضرت أحمد بن طولون الوفاة أوصى ولده أبا الجيش خمارويه به، فأخذه إليه، فلما مات أحمد بن طولون أحضره الأمير أبو الجيش إليه، وقال له: أنت عندي بمكانة أرعاك بها، ولكن عادتي إني آخذ العهد على كل من أصرفه في شيء أنه لا يخونني فعاهده، ثم حكمه في أمواله وقدمه في أشغاله، فصار أحمد اليتيم مستحوذاً على المقام حاكماً على جميع الحاشية الخاص والعام، والأمير أبو الجيش بن طولون يحسن إليه، فلما رأى خدمته متصفة بالنصح ومساعيه متسمة بالنجح ركن إليه، واعتمد في أمور بيوته عليه، فقال له يوماً: يا أحمد أمض إلى الحجرة الفلانية ففي المجلس حيث أجلس سبحة جوهر، فائتني بها، فمضى أحمد، فلما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الأمير وحظاياه مع شاب من الفراشين ممن هو من الأمير بمحل قريب، فلما رأياه خرج الفتى وجاءت الجارية إلى أحمد وعرضت نفسها عليه، ودعته إلى قضاء وطره، فقال لها: معاذ الله أن أخون الأمير وقد أحسن إليّ وأخذ العهد عليّ، ثم تركها، وأخذ السبحة وانصرف إلى الأمير وسلمها إليه. وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد بعدما أخذ السبحة، وخرج من الحجرة لئلا يذكرها للأمير، فأقامت أياماً لم تجد من الأمير ما غيّره عليها. ثم اتفق أن الأمير اشترى جارية وقدمها على حظاياه، وغمرها بعطاياه، واشتغل بها عمن سواها، وأعرض لشغفه بها عن كل من عنده حتى كاد لا يذكر جارية غيرها، ولا يراها، وكان أولاً مشغولاً بتلك الجارية الخاسرة الخائنة الخائبة الغادرة العائبة العاهرة الفاسقة الفاجرة، فلما أعرض عنها اشتغالاً بالجارية

---

(١) الثنايا: أسنان مقدم الفم التي تظهر عند الابتسام والمراد بسمتها.

الجديدة الممجدة السعيدة الحامدة المحمودة الوصيفة الموصوفة الأليفة المألوفة العارفة المعروفة، وصرف لبهجة محاسنها وكثرة آدابها وجهه من ملاعبة أترابها، وشغلته بعذوبة رضابها عن ارتشاف رضاب أضرابها، وكانت تلك الجارية الأولى لحسنها متأمرة على تأميره لا تخاف من وليه ولا نصيره، فكبر عليها إعراضه عنها، ونسبت ذلك إلى أحمد اليتيم لاطلاعه على ما كان منها، فدخلت على الأمير وقد ارتدت من الكآبة بجلباب نكرها، وأعلنت بالبكاء بين يديه لإتمام كيدها ومكرها، وقالت: إن أحمد اليتيم راودني عن نفسي.

فلمّا سمع الأمير ذلك استشاط غيظاً وغضباً، وهمّ في الحال بقتله، ثم عاوده حاكم عقله، فتأنى في فعله، واستحضر خادماً يعتمد عليه، وقال له: إذا أرسلت إليك إنساناً ومعه طبق من ذهب، وقلت لك على لسانه املأ هذا الطبق مسكاً، فاقتل ذلك الإنسان واجعل رأسه في الطبق، وأحضره مغطى، ثم إن الأمير أبا الجيش جلس لشربه، وأحضر عنده ندماءه الخواص، وأدناهم لمجلس قربه، وأحمد اليتيم واقف بين يديه آمن في سربه لم يخطر بخاطره شيء، ولا هجس هاجس في قلبه، فلما مثل بين يدي الأمير، وأخذ منه الشراب شرع في التدبير، فقال يا أحمد: خذ هذا الطبق وامض به إلى فلان الخادم، وقل له يقول لك أمير المؤمنين املأ هذا الطبق مسكاً.

فأخذه أحمد اليتيم ومضى، فاجتاز في طريقه بالمغنين وبقية الندماء، والخواص، فقاموا إليه وسألوه الجلوس معهم، فقال: أنا ماض في حاجة للأمير أمرني بإحضارها في هذا الطبق، فقالوا له: أرسل من ينوب عنك في إحضارها وخذها أنت وأدخل بها على الأمير، فأدار عينيه، فرأى الفتى الفراش الذي كان مع الجارية، فأعطاه الطبق، وقال له: إمض إلى فلان الخادم وقل له يقول لك الأمير إملأ هذا الطبق مسكاً، فمضى ذلك الفراش إلى الخادم، فذكر له ذلك، فقتله، وقطع رأسه وغطاه وجعله في الطبق، وأقبل به، فناوله لأحمد اليتيم، فأخذه وليس عنده علم من باطن الأمر، فلما دخل به على الأمير كشفه وتأمله وقال: ما هذا؟ فقص عليه خبره وقعوده مع المغنين وبقية الندماء وسؤالهم له الجلوس معهم، وما كان من إنفاذ الطبق، وإرساله مع الفراش، وأنه لا علم عنده غير ما ذكره. قال: أتعرف لهذا الفراش خبر يستوجب به ما جرى عليه؟

فقال: أيها الأمير: إن الذي تم عليه بما ارتكبه من الخيانة، وقد كنت رأيت الإعراض عن إعلام الأمير بذلك، وأخذ أحمد يحدثه بما شاهده وما جرى له من حديث الجارية من أوله إلى آخره، لما أنفذه لإحضار السبحة الجوهر، فدعا الأمير أبو الجيش بتلك الجارية واستقررها، فأقرت بصحة ما ذكره أحمد، فأعطاه إياها، وأمره بقتلها، ففعل، وازدادت مكانة أحمد عنده، وعلت منزلته لديه وضاعف إحسانه إليه، وجعل أزمة جميع ما يتعلق به بيديه.

فأنظر رحمك الله إلى آثار الوفاء كيف تحمي من المعاطب، وتنجي من قبضة التلف بعد إمضاء القواضب، ويفضي بصاحبه إلى ارتقاء غوارب المراتب، فهذا الغلام لما وفى لمولاه بعهده، وهو بشر مثله، وليس في الحقيقة بعبده، واطلع الله عز وجل على صدق نيته وقصده دفع عنه هذه القتلة الشنيعة بلطف من عنده، فإذا كان العبد مع خالقه ورازقه وافياً في طاعته بعقده كيف لا يفيض عليه من ألطاف مواهب بره ورفده ويفتح له من أنواع رحمته وأقسام نعمته ما لا ممسك له من بعده، وقالوا: ليس شيء أوفى من القمرية إذا مات ذكرها لم تقرب آخر بعده ولا تزال تنوح عليه إلى أن تموت. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

الباب الثامن والثلاثون

في كتمان السر وتحصينه وذم إفشائه

قال الله تعالى حكاية عن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾(1) الآية، فلما أفشى يوسف عليه السلام رؤياه بمشهد امرأة يعقوب أخبرت إخوته، فحل به ما حل. ومن شواهد الكتاب العزيز في السر قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝﴾(2). وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝﴾(3). أي بمتهم.

وفي الحديث: «استعينوا على قضاء حوائجكم

(1) سورة يوسف، الآية (٥).
(2) سورة النجم، الآية (١٠).
(3) سورة التكوير، الآية (٢٤).

بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود». وقال علي رضي الله عنه وكرم وجهه: سرك أسيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره، واعلم أن أمناء الأسرار أقل وجوداً من أمناء الأموال، وحفظ الأموال أيسر من كتمان الأسرار، لأن إحراز الأموال منيعة بالأبواب والأقفال، وإحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق. وحمل الأسرار أثقل من حمل الأموال فإن الرجل يستقل بالحمل الثقيل، فيحمله ويمشي به، ولا يستطيع كتم السر. وإن الرجل يكون سره في قلبه، فيلحقه من القلق والكرب ما لا يلحقه من حمل الأثقال، فإذا أذاعه استراح قلبه، وسكن خاطره، وكأنما ألقى عن نفسه حملاً ثقيلاً. وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: القلوب أوعية والشفاه أقفالها، والألسن مفاتيحها، فليحفظ كل إنسان مفتاح سره. ومن عجائب الأمور أن الأموال كلما كثرت خزائنها كان أوثق لها، وأما الأسرار فإنها كلما كثرت خزائنها كان أضيع لها، وكم من إظهار سر أراق دم صاحبه ومنعه من بلوغ مآربه ولو كتمه أمن سطواته. وقال أنو شروان: من حصن سره، فله بتحصينه خصلتان، الظفر بحاجته، والسلامة من السطوات. وقيل: كلما كثرت خزان الأسرار، زادت ضياعاً. وقيل: انفرد بسرك لا تودعه حازماً فيزل، ولا جاهلاً فيخون.

وقال كعب بن سعد الغنوي:

ولست بمبدٍ للرجال سريرتي
ولا أنا عن أسرارهم بسؤول[1]

وقال أبو مسلم صاحب الدولة:

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت
عنه ملوك بني مروان إذ جهدوا

ما زلت أسعى عليهم في ديارهم
والقومُ في غفلةٍ بالشام قد رقدوا

حتى ضربتُهُم بالسيف فانتبهوا
من نومةٍ لم ينمها قبلهمْ أحدُ

ومن رعا غنماً في أرضٍ مسبعةٍ
ونام عنها تولّى رعيها الأسد[2]

وأسرّ رجل إلى صديقه حديثاً، ثم قال له أفهمت؟ قال: بل جهلت. ثم قال له: أحفظت؟ قال: بل نسيت. وقيل لبعضهم: كيف كتمانك للسر؟ قال: أجحد المخبر، وأحلف للمستخبر. وقال المهلب: أدنى أخلاق الشريف كتمان السر وأعلى أخلاقه نسيان ما أسرّ إليه.

ومن أحسن ما قيل في كتمان السر قول الشاعر:

ولها سرائر في الضمير طويتها
نسي الضمير بأنها في طيِّهِ

وقد أجازه الشيخ شمس الدين البدوي فقال:

إنّي كتمتُ حديث ليلى لم أبحْ
يوماً بظاهره ولا بخفيّهِ

وحفظت عهد ودادها متمسّكاً
في حبِّها برشاده أو غيِّه

ولها سرائر في الضمير طويتُها
نسي الضمير بأنّها في طيِّه

وقيل: كتمان الأسرار يدل على جواهر الرجال، وكما أنه لا خير في آنية لا تمسك ما فيها، فكذلك لا خير في إنسان لا يمسك سره.

قال الشاعر:

ومستودعي سرّاً كتمت مكانه
عن الحسّ خوفاً أن ينمّ به الحس[1]

وخفّفت عنه من هوى النفس شهوة
فأودعته من حيث لا يبلغ الحس

وقال قيس بن الحطيم:

أجود بمكنون التلاد وإنّني
بسري عمّن يسألني ضنين

وإن ضيّع الأقوام سري فإنّني
كتومٌ لأسرار العشير أمين

وقال جعفر بن عثمان:

يا ذا الذي أودعني سرّهُ
لا ترجُ أن تسمعه منّي

لم أجره قطّ على فكرتي
كأنه لم يجر في أذني

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ما أفشيت سري إلى أحد قط، فأفشاه، فلمته إذ كان صدري به أضيق. وقال الأحنف بن قيس: يضيق صدر الرجل

---

(١) أي لا أبدي سرّي لأحد ولا أسأل عن أسرار الناس.
(٢) الأرض المسبعة: الأرض التي تكثر فيها السّباع.

(١) ينم به: يفشوه ويتحدث به.

بسره، فإذا حدث به أحداً قال: اكتمه عليّ.

قال الشاعر:

إذا المرء أفشى سرّه بلسانه
ولام عليه غيرَهُ فهو أحمقُ

إذا ضاق صدرُ المرء عن سر نفسه
فصدر الذي يُستودع السر أضيقُ

وقال آخر:

إذا ما ضاق صدرك عن حديثٍ
وأفشته الرجال فمن تلوم

وإن عاتبتُ من أفشى حديثي
وسري عنده فأنا الملوم

وقال صالح بن عبد القدوس: لا تودع سرك إلى طالبه، فالطالب للسر مذيع، ولا تودع مالك عند من يستدعيه، فالطالب للوديعة خائن. وقيل لأعرابي: ما بلغ من حفظك للسر؟ قال: أفرقه تحت شغاف قلبي ثم أجمعه وأنساه كأني لم أسمعه. وكان أحزم الناس من لا يفشي سره إلى صديقه مخافة أن يقع بينهما شر، فيفشيه عليه.

وقال حكيم: قلوب الأحرار قبور الأسرار، وقيل: الطمأنينة إلى كل أحد قبل الاختبار حمق.

وقال بعضهم:

إذا ما غفرتُ الذنبَ يوماً لصاحبٍ
فلست معيداً ما حييت له ذكرا

ولست إذا ما صاحبٌ خان عهده
وعندي له سرٌ مذيعاً له سرا

وأين هذا من قول القائل:

ولا تودع الأسرار أذني فإنما
تصبّنّ ماءً في إناءٍ مثلّم[1]

أو القائل:

ولا أكتم الأسرار لكن أذيعها
ولا أدع الأسرار تعلو على قلبي

وإن قليل العقل من بات ليلةً
تقلّبُهُ الأسرار جنباً إلى جنبِ

وقال آخر:

وإنك كلما استودعت سرّاً
أنمّ من النسيم على الرياض

(١) مثلّم: فيه شقوق أي لا أحفظ السر.

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي:

أناسٌ أمناهم فنموا حديثنا
فلما كتمنا السرّ عنهم تقوّلوا[1]

ولله در المتنبي حيث قال:

وللسرّ مني موضعٌ لا يناله
نديمٌ ولا يُفضي إليه شراب[2]

وقد اقتصرنا من ذلك على هذا القدر اليسير، وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

الباب التاسع والثلاثون

في الغدر والخيانة والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد

وفيه فصول

الفصل الأول

في الغدر والخيانة

قال رسول الله ﷺ: «أعجل الأشياء عقوبة البغي». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المكر والخديعة والخيانة في النار». وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ثلاث من كن فيه كنّ عليه. البغي والنكث والمكر.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾[3]. وقال تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[5]. وكم أوقع الغدر في المهالك من غادر، وضاقت عليه من موارد الهلكات فسيحات المصادر، وطوقه غدره طوق خزي، فهو على فكّه غير قادر، وأوقعه في خطة خسف وورطة

(١) أي لـمّا لم يعرفوا شيئاً من أسرارنا ليتحدثوا بها، اخترعوا أحاديث ونشروها.
(٢) أي لا يجعله الشراب يبوح بالأسرار.
(٣) سورة يونس، الآية (٢٣).
(٤) سورة الفتح، الآية (١٠).
(٥) سورة فاطر، الآية (٤٣).

حتف، فما له من قوة ولا ناصر، ويشهد لصحة هذه الأسباب ما أحاطت به علوم ذوي الألباب من قصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري، وتلخيص معناها أن ثعلبة هذا كان من أنصار النبي ﷺ فجاءه يوماً وقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال له رسول الله ﷺ ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه. ثم أتاه بعد ذلك مرة أخرى، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال رسول الله ﷺ: يا ثعلبة أما لك في رسول الله أسوة حسنة، والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت. ثم أتاه بعد ذلك مرة ثالثة، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، والذي بعثك بالحق نبياً لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه. وعاهد الله تعالى على ذلك، فقال رسول الله ﷺ: اللهم ارزق ثعلبة ما قال.

فاتخذ ثعلبة غنماً فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة، فتنحى عنها، ونزل وادياً من أوديتها، وهي تنمو كما ينمو الدود، وكان ثعلبة لكثرة ملازمته للمسجد يقال له حمامة المسجد، فلما كثرت الغنم وتنحّى صار يصلي مع رسول الله ﷺ الظهر والعصر، ويصلي بقية الصلوات في غنمه، فكثرت ونمت حتى بَعُدَ عن المدينة، فصار لا يشهد إلا الجمعة، ثم كثرت ونمت فتباعد أيضاً عن المدينة حتى صار لا يشهد جمعة ولا جماعة، فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس ويسألهم عن الأخبار، فذكره رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: ما فعل ثعلبة؟ قالوا: يا رسول الله اتخذ غنماً ما يسعها واد، فقال رسول الله ﷺ يا ويح ثعلبة. فأنزل الله تعالى آية الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلين رجل من بني سليم، ورجل من جهينة وكتب لهما أنصاب[1] الصدقة، وكيف يأخذانها، وقال لهما: مرّا بثعلبة بن حاطب، وبرجل آخر من بني سليم، فخذا صدقاتهما. فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة، وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية، أو ما هذه إلا أخت الجزية؟ انطلقا حتى تفرغا، ثم عودا إليّ، فانطلقا، وسمع بهما السلمي، فنظر إلى خيار إبله، فعزلها للصدقة، ثم استقبلهما بها، فلما رأيا قالا: ما هذا؟ قال: خذاه، فإن نفسي به طيبة، فمرا على الناس

(١) أنصاب الصدقة: الأنصبة التي تؤخذ منها الصدقة، مثال الغنم يؤخذ مما بلغ عدد كذا، كذا وما بلغ عدده كيت، كيت إلخ. وهي مذكورة في كتب الفقه.

وأخذا الصدقات، ثم رجعا إلى ثعلبة، فقال: أروني كتابكما، فقرأه، ثم قال: ما هذه إلا جزية، أو ما هذه إلا أخت الجزية؟ إذهبا حتى أرى رأياً. قال: فذهبا من عنده، وأقبلا على رسول الله ﷺ، فلما رآهما قال قبل أن يتكلما: يا ويح ثعلبة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝٧٧ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝٧٨﴾[1]. وكان عند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة، فسمع ذلك، فخرج حتى أتاه، فقال: ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ، فسأله أن يقبل صدقته، فقال: إن الله تعالى منعني أن أقبل منك صدقة، فجعل ثعلبة يحثو التراب على رأسه ووجهه فقال رسول الله ﷺ: هذا عملك قد أمرتك، فلم تطعني، فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته رجع إلى منزله، وَقُبِضَ[2] رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئاً، ثم أتى إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين استخلف فقال: قد علمت منزلتي من رسول الله ﷺ وموضعي من الأنصار، فأقبل صدقتي، فقال أبو بكر رضي الله عنه: لم يقبلها رسول الله ﷺ منك، فلا أقبلها أنا، فقبض أبو بكر رضي الله تعالى عنه، ولم يقبلها، فلما ولي عمر رضي الله عنه أتاه، فقال: يا أمير المؤمنين إقبل صدقتي، فلم يقبلها منه، وقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر رضي الله عنه، فأنا لا أقبلها؟ وقبض عمر رضي الله عنه، ولم يقبلها، ثم ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه، فسأله أن يقبل صدقته، فقال له: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر رضي الله عنهما، فأنا لا أقبلها. ثم هلك ثعلبة في خلافة عثمان رضي الله عنه.

فانظر إلى سوء عاقبة غدره كيف أذاقه وبال أمره[3] ووسمه بِسِمَةِ عَارٍ[4] قضت عليه بخسره، وأعقبه نفاقاً يخزيه يوم فاقته وفقره، فأي خزي أرجح من ترك الوفاء بالميثاق، وأي سوء أقبح من غدر يسوق إلى النفاق، وأي

(١) سورة التوبة، الآيات: (٧٥ ـ ٧٨).
(٢) قُبِضَ: تُوُفِّيَ.
(٣) وبال أمره: عاقبته السيئة.
(٤) السِّمَة: العلامة التي لا تمحى.

عار أفضح من نقض العهد إذا عدت مساوىء الأخلاق، وكان يقال: لم يغدر غادر قط إلا لصغر همته عن الوفاء واتّضاع قدره عن احتمال المكاره في جنب نيل المكارم.

قال الشاعر:

غدرتَ بأمرٍ كنت أنت جذبتنا
إليه وبئس الشيمةُ الغدرُ بالعهد[1]

ولما حلف محمد الأمين للمأمون في بيت الله الحرام، وهما وليا عهد، طالبه جعفر بن يحيى أن يقول: خذلني الله إن خذلته، فقال ذلك ثلاث مرات، فقال الفضل بن الربيع: قال لي الأمين في ذلك الوقت عند خروجه من بيت الله: يا أبا العباس أجد نفسي أن أمري لا يتم، فقلت له: ولِمَ ذلك، أعز الله الأمير؟ قال: لأني كنت أحلف وأنا أنوي الغدر وكان كذلك لم يتم أمره.

وورد في أخبار العرب أن الضيزن بن معاوية بن قضاعة، كان ملكاً بين دجلة والفرات وكان له هناك قصر مشيد يعرف بالجوسق وبلغ ملكه الشام فأغار على مدينة سابور ذي الأكتاف، فأخذها وأخذ أخت سابور وقتل منهم خلقاً كثيراً، ثم إن سابور جمع جيوشاً وسار إلى ضيزن فأقام على الحصن أربع سنين لا يصل منه إلى شيء، ثم أن النضيرة بنت الضيزن عركت أي حاضت فخرجت من الربض وكانت من أجمل أهل دهرها، وكذلك كانوا يفعلون بنسائهم إذا حضن، وكان سابور من أجمل أهل زمانه، فرآها ورأته فعشقها وعشقته وأرسلت إليه تقول ما تجعل لي إن دللتك على ما تهدم به هذه المدينة وتقتل أبي؟ فقال: أَحَكِّمُكِ. فقالت: عليك بحمامة مطوقة ورقاء فاكتب عليها بحيض جارية ثم أطلقها فإنها تقعد على حائط المدينة فتتداعى المدينة كلها، وكان ذلك طلمساً لا يهدمها إلا هو، ففعل ذلك.

فقالت له: وأنا أسقي الحرس الخمر فإذا صرعوا فاقتلهم، ففعل ذلك، فتداعت المدينة وفتحها سابور عنوة وقتل الضيزن، واحتمل ابنته النضيرة وأعرس بها[2]، فلما دخل بها لم تزل ليلتها تتضرّر وتتململ في فراشها وهو من حرير محشو بريش النعام، فالتمس ما كان يؤذيها فإذا هو ورقة آس التصقت بعكنتها[3] وأثرت فيها، وقيل: كان ينظر إلى مخ عظمها من صفاء بشرتها، ثم إن سابور بعد

(١) الشيمة: الخصلة والصّفة.

(٢) أعرس بها: تزوجها ودخل بها.

(٣) العكنة: طيّة اللّحم في الخاصرة.

ذلك غدر بها وقتلها. قيل إنه أمر رجلاً فركب فرساً جموحاً وضفر غدائرها بذنبه، ثم استركضه فقطعها، قطعاً قطعه الله ما أغدره.

وتقول العرب جزاني جزاء سنّمار، وهو أن أزدجرد بن سابور لما خاف على ولده بهرام وكان قبله لا يعيش له ولد سأل عن منزل صحيح مريء فَدُلَّ على ظهر الجزيرة، فدفع ابنه بهرام إلى النعمان وهو عامله على أرض العرب وأمره أن يبني له جوسقاً فامتثل أمره، وبنى له جوسقاً كأحسن ما يكون وكان الذي بنى الجوسق رجلاً يقال له سنّمار، فلما فرغ من بنائه عجبوا من حسنه فقالوا: لو علمت أنكم توفوني أجرته لبنيته بناء يدور مع الشمس حيث دارت، فقالوا وإنك لتبني أحسن من هذا ولم تبنه، ثم أمر به فطرح من أعلى الجوسق فتقطع، فكانت العرب تقول جزاني جزاء سنمار.

وممن غدر عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله، غدر بعلي رضي الله عنه وقتله. وعمرو بن جرموز غدر بالزبير بن العوام رضي الله عنه وقتله، وأبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة لعنه الله، غدر بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقتله. وجعل المنصور العهد إلى عيسى بن موسى ثم غدر به وأخره وقدم المهدي عليه، فقال عيسى:

أينسى بنو العبّاس ذبّي عنهُمُ
بسيفي ونار الحرب زاد سعيرها
فتحت لهم شرق البلاد وغربها
فذلّ معاديها وعزّ نصيرها
أُقَطِّعُ أرحاماً عليَّ عزيزةً
وأبدي مكيداتٍ لها وأثيرُها
فلما وضعت الأمر في مستقرهِ
ولاحت له شمسٌ تلألأ نورها
دُفعت عن الأمر الذي أستحقّهُ
وأوسق أوساقاً من الغدر عيرُها[1]

وخرج قوم لصيد فطردوا ضبعة حتى ألجأوها إلى خباء أعرابي فأجارها وجعل يطعمها ويسقيها، فبينما هو نائم ذات يوم إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وهربت، فجاء ابن عمه يطلبه، فوجده ملقى فتبعها حتى قتلها، وأنشد يقول:

ومن يصنعِ المعروف مع غير أهله
يلاقي كما لاقى مجيرُ أمّ عامر

(١) الأوساق: ج وسق وهو (٦٠) صاعاً والمراد حمل إبلاً عيرها: إبلها.

أعدُّ لها لما استجارت ببيته
أحاليب ألبانِ اللقاح الدوائرِ
وأسمنها حتى إذا ما تمكّنت
فرّته بأنيابٍ لها وأظافرِ
فقل لذوي المعروف هذا جزاء من
يجود بمعروفٍ على غير شاكرِ

وحكى بعضهم قال: دخلت البادية فإذا أنا بعجوز بين يديها شاة مقتولة وإلى جانبها جرو ذئب. فقالت: أتدري ما هذا؟ فقلت: لا، قالت: هذا جرو ذئب أخذناه صغيراً وأدخلناه بيتنا وربيناه، فلما كبر فعل بشاتي ما ترى، وأنشدت:

بقرتَ شويهتي وفجعت قومي
وأنت لشاتنا ابنٌ ربيب[1]
غُذيت بدرها ونشأت معها
فمن أنباك أنّ أباك ذيبُ
إذا كان الطباع طباع سوءٍ
فلا أدبٌ يفيد ولا أديب

اللهم إنّا نعوذ بك من البغي وأهله، ومن الغادر وفعله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفصل الثاني

في السرقة والسراق

قيل: مر عمر بن عبيد بجماعة وقوف فقال: ما هذا؟ قيل: السلطان يقطع سارقاً، فقال: لا إله إلا الله سارق العلانية يقطع سارق السر.

وأمر الإسكندر بصلب سارق، فقال: أيها الملك إني فعلت ما فعلت، وأنا كاره. فقال: وتصلب أيضاً وأنت كاره. وسرق مدني قميصاً، فأعطاه لابنه يبيعه، فسرق منه، فجاء له، فقال: بكم بعته؟ قال: برأس المال. **وقال أكتل السلمي، وكان لصاً فاتكاً:**

وإني لأستحي من الله أن أرى
أجرجر حبلي ليس فيه بعيرُ
وأن أسأل المرء الدنيء بعيرَهُ
وأجمالُ ربّي في البلاد كثيرُ

قال الفرزدق:

وإنّ أبا الكرشاء ليس بسارقٍ
ولكنْ متى ما يسرق القومُ يأكُلِ

(١) الابن الربيب: الولد الذي تربيه وليس من صُلبك.

وكان لعمرو بن دويرة البجلي أخ قد كلف ببنت عم له، فتسور عليها الدار ذات ليلة، فأخذه أخوتها وأتوا به خالد بن عبد الله القسري، وجعلوه سارقاً، فسأله خالد، فصدقهم ليدفع الفضيحة عن الجارية، فهمّ خالد بقطعه، **فقال عمرو أخوه:**

أخالد قد والله أوطئت عشوةً
وما العاشق المظلوم فينا بسارق[1]
أقرّ بما لم يأته المرء إنّه
رأى القطع خيراً من فضيحة عاشق

فعفا عنه خالد وزوجه الجارية.

الفصل الثالث

فيما جاء في العداوة والبغضاء

قد ذكر الله عز وجل العداوة والبغضاء في كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[4]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾[5].

وقال رسول الله ﷺ: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك». وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: العداوة تتوارث، **وقال زياد بن عبد الله:**

فلو أنّي بليت بهاشمي
خؤولته بنو عبد المدانِ
صبرت على عداوته ولكنْ
تعالوا فانظروا بمن ابتلاني

وبث رجل في وجه أبي عبيدة مكروهاً، فأنشأ يقول:

فلو أنّ لحمي إذ وهى لَعِبَتْ به
سباعٌ كرامٌ أو ضباعٌ وأذؤب
لهوّن وجدي أو لسلّى مصيبتي
ولكنما أودى بلحميَ أكلُبُ

وقيل لكسرى: أي الناس أحب إليك أن يكون عاقلاً؟

(١) العشوة: الأمر المظلم لا تعرف حقيقته.
(٢) سورة المائدة، الآية (٦٤).
(٣) سورة يوسف، الآية (٥).
(٤) سورة فاطر، الآية (٦).
(٥) سورة التغابن، الآية (١٤).

قال: عدوي، قيل: كيف ذلك؟ قال: لأنه إذا كان عاقلاً كنت منه في عافية وأمن. وقيل: كونوا من المرء الدغل[1] أخوف من الكاشح[2] المعلن، فإن مداواة أهل العلل الظاهرة أهون من مداواة ما خفي وبطن. وقالوا: إياك أن تعادي من إذا شاء طرح ثيابه، ودخل مع الملك في لحافه.

وقال أبو العتاهية:

تنحّ عن القبيح ولا تردْهُ
ومن أوليته حسناً فزده

ستلقى من عدوك كل كيدٍ
إذا كان العدوّ ولم تكده

وكانت جليلة بنت مرة أخت جساس تحت كليب، فقتل أخوها زوجها وهي حبلى بهجرس بن كليب، فلما كبر وشب قال:

أصاب أبي خالي وما أنا بالذي
أميل وأمري بين خالي ووالدي

وأورث جساس بن مرة غصةً
إذا ما اعترتني حرّها غير بارد

ثم قال بعد ذلك:

يا للرجال لقلبٍ ماله جَلَدٌ[3]
كيف العزاء وثاري عند جساس

ثم حمل على خاله فقتله وقال:

ألم ترني ثأرت أبي كليباً
وقد يرجى المرشح للدخول

غسلت العار عن جسم ابن بكرٍ
بجساس بن مرة ذي البتول

بيت:

سَنَّ العداوةَ آباءٌ لنا سلفوا
فلن تبيد وللآباء أبناء

ويقال: دَارِ عدوك لأحد أمرين: إما لصداقة تؤمنك، أو لفرصة تمكنك.

وكتب سويد إلى مصعب:

فبلّغ مصعباً عني رسولي
وهل تلقى النصيح بكل واد

تعلّم أنّ أكثر من تناجي
وإن ضحكوا إليك هم الأعادي

ويقال: فلان كثير المراق مر المذاق. وقال الحجاج لخارجي: والله إني لأبغضك، قال: أدخل الله الجنة أشدنا بغضاً لصاحبه. ولما أراد أنو شروان أن يقلّد ابنه هرمز ولاية العهد استشار عظماء مملكته، فأنكروا عليه، وقال بعضهم: إن أمه تركية وقد علمت في أخلاقهم ما علمت، فقال: إن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات، وكانت أم قباذ تركية، وقد رأيتم من حسن سيرته ما رأيتم، فقيل: هو قصير وذلك يذهب ببهاء الملك، فقال: إن قِصَرَهُ من رجليه ولا يكاد يرى إلا جالساً أو راكباً، فلا يستبين ذلك فيه. فقيل: هو بغيض في الناس، فقال: أوّاه هلك ابني هرمز، فقد قيل: إذا كان في الإنسان خير واحد ولم يكن ذلك الخير المحبة إلى الناس فلا خير فيه، وإذا كان فيه عيب واحد ولم يكن ذلك العيب البغض في الناس فلا عيب فيه:

ولست براءٍ عيب ذي الود كلّه
ولا بغضَ ما فيه إذا كنت راضيا

فعين الرضا عن كل عيبٍ كليلةٌ
كما أن عين السخط تبدي المساويا

وفي المعنى قيل:

وعينُ البغض تُبرزُ كلَّ عيبٍ
وعينُ الحب لا تجد العيوبا

وعن أبي حيان قال: قال لقمان: نقلت الصخور وحملت الحديد، فلم أر شيئاً أثقل من الدَّين، وأكلت الطيبات وعانقت الحسان، فلم أر شيئاً ألذ من العافية. وأنا أقول لو نزحوا البحار وكنسوا القفار لوجدوها أهون من شماتة الأعداء خصوصاً إذا كانوا مساهمين في نسب أو مجاورين في بلد. اللهم إنّا نعوذ بك من تتابع الإثم وسوء الفهم وشماتة ابن العم.

وقيل لأيوب عليه السلام: أي شيء كان عليك في بلائك أشد؟ قال: شماتة الأعداء.

وأنشد الجاحظ:

تقول العاذلات تسلَّ عنها
وداو عليلَ قلبك بالسلو[1]

---

(١) الدغل: الذي يظهر المودة ويضمر البغضاء.

(٢) الكاشح: العدو الذي يظهر عداوته.

(٣) جلد: صبر وقدرة احتمال.

(١) السلو: التّسَلّي عن الأمر بغيره، ونسيان الحب.

وكيف ونظرة منها اختلاساً
ألذُّ من الشماتة بالعدو

وقال ابن أبي جهينة المهلبي:

كل المصائب قد تمر على الفتى
فتهون غير شماتة الأعداء

وقال الجاحظ: ما رأيت سناناً أنفذ من شماتة الأعداء.

وقيل: لما قبض رسول الله ﷺ سمع بموته نساء من كندة وحضرموت، فخضبن أيديهن وضربن بالدفوف، فقال رجل منهم:

أبلغ أبا بكر إذا ما جئتَهُ
أنَّ البغايا من بني مزام
أظهرن في موت النبي شماتةً
وخضبن أيديهن بالغُلاَّمِ(١)
فاقطعْ هُديت أكفهنّ بصارم
كالبرق أومض في متون غمامِ

فكتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى المهاجر عامله، فأخذهن وقطع أيديهن.

ويقال: فلان يتربص بك الدوائر ويتمنى لك الغوائل، ولا يؤمل صلاحاً إلا في فسادك ولا رفعة إلا في سقوط حالك. **وقال حكيم:** لا تأمن عدوك وإن كان ضعيفاً، فإن القناة قد تقتل، وإن عدمت السنان. **قال الشاعر:**

فلا تأمنْ عدوّك لو تراه
أقلَّ إذا نظرتَ من القُرَاد(٢)
فإن الحرب ينشأ من جبانٍ
وإن النار تُضرَمُ من رماد

بيت مفرد:

فمن لم يكن منكم مسيئاً فإنه
يشدّ على كف المسيء فيجلبُ

وقال عبد الله بن سليمان بن وهب:

كفاية الله خير من توقّينا
وعادة الله في الماضين تكفينا
كاد الأعادي فلا والله ما تركوا
قولاً وفعلاً وتلقيناً وتهجينا
ولم نزد نحن في سر وفي علنٍ
على مقالتنا يا ربّنا اكفينا

(١) الغلام: نوع من الحناء.
(٢) القراد: حشرة تعلق بجلد البعير.

فكان ذاك وردّ الله حاسدنا
بغيظه لم ينل تقديره فينا

الفصل الرابع

في الحسد

قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾(١) **وقال رسول الله ﷺ: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود». وقال علي** رضي الله عنه: الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له.

وقيل: المحسود غضبان على القدر. **ويقال:** ثلاثة لا يهنأ لصاحبها عيش. الحقد والحسد وسوء الخلق. **وقيل:** بئس الشعار الحسد. **وقيل لبعضهم:** ما بال فلان يبغضك؟ قال: لأنه شقيقي في النسب، وجاري في البلد، وشريكي في الصناعة، فذكر جميع دواعي الحسد.

وقال أعرابي: الحسد داء منصف يفعل في الحاسد أكثر من فعله في المحسود، وهو مأخوذ من الحديث: **«قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله».**

وقال الفقيه أبو الليث السمرقندي، رحمة الله تعالى عليه: يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود، **أولاها:** غم لا ينقطع. **الثانية:** مصيبة لا يؤجر عليها، **الثالثة:** مذمة لا يحمد عليها، **الرابعة:** سخط الرب، **الخامسة:** يغلق عنه باب التوفيق.

ومن ذلك ما حكي: أن رجلاً من العرب دخل على المعتصم فقرّبه وأدناه وجعله نديمه، وصار يدخل على حريمه من غير استئذان. وكان له وزير حاسد فغار من البدوي وحسده، وقال في نفسه: إن لم أحتل على هذا البدوي في قتله أخذ بقلب أمير المؤمنين، وأبعدني منه، فصار يتلطف بالبدوي حتى أتى به إلى منزله، فطبخ له طعاماً، وأكثر فيه من الثوم، فلما أكل البدوي منه قال له: احذر أن تقترب من أمير المؤمنين، فيشم منك رائحة الثوم، فيتأذى من ذلك فإنه يكره رائحته، ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين، فخلا به وقال: يا أمير المؤمنين إن البدوي يقول عنك للناس إن أمير المؤمنين أبخر(٢) وهلكت من رائحة فمه. فلما دخل البدوي على أمير المؤمنين جعل كمه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم، فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستر فمه بكمه قال: إن

(١) سورة النساء، الآية (٥٤).
(٢) أبخر: كريه رائحة الفم.

الذي قاله الوزير عن هذا البدوي صحيح، فكتب أمير المؤمنين كتاباً إلى بعض عماله يقول فيه: إذا وصل إليك كتابي هذا، فاضرب رقبة حامله، ثم دعا البدوي ودفع إليه الكتاب، وقال له: امض به إلى فلان واتتني بالجواب. فامتثل البدوي ما رسم به أمير المؤمنين وأخذ الكتاب وخرج به من عنده، فبينما هو بالباب إذ لقيه الوزير، فقال: أين تريد؟ قال: أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان، فقال الوزير في نفسه: إن هذا البدوي يحصل له من هذا التقليد مال جزيل، فقال له: يا بدوي ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب الذي يلحقك في سفرك، ويعطيك ألفي دينار؟ فقال: أنت الكبير، وأنت الحاكم، ومهما رأيته من الرأي إفعل. قال: أعطني الكتاب، فدفعه إليه، فأعطاه الوزير ألفي دينار، وسار بالكتاب إلى المكان الذي هو قاصده، فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير. فبعد أيام تذكر الخليفة في أمر البدوي، وسأل عن الوزير، فأخبر بأن له أياماً ما ظهر، وأن البدوي بالمدينة مقيم، فتعجب من ذلك وأمر بإحضار البدوي، فحضر، فسأله عن حاله، فأخبره بالقصة التي اتفقت له مع الوزير من أولها إلى آخرها، فقال له: أنت قلت عني للناس أني أبخر؟ فقال: معاذ الله يا أمير المؤمنين أن أتحدث بما ليس لي به علم، وإنما كان ذلك مكراً منه وحسداً، وأعلمه كيف دخل به إلى بيته وأطعمه الثوم وما جرى له معه.

فقال أمير المؤمنين: قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله. ثم خلع على البدوي واتخذه وزيراً وراح الوزير بحسده.

وقال المغيرة شاعر آل المهلب:

آل المهلب قومٌ إن مدحتَهُمُ ... كانوا الأكارم آباءً وأجدادا
إن العرانين تلقاها محسّدة ... ولا ترى للئام الناس حسّادا[1]

وقال عمر رضي الله عنه: يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك وقال مالك بن دينار: شهادة القراء مقبولة في كل شيء إلا شهادة بعضهم على بعض، فإنهم أشد تحاسداً من التيوس. وعن أنس رضي الله تعالى عنه رفعه: «إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب». وقال منصور الفقيه:

منافسة الفتى فيما يزول ... على نقصان همّته دليلُ
ومختار القليل أقل منه ... وكل فوائد الدنيا قليل

يقول الله عز وجل: الحاسد عدو نعمتي متسخّط لفعلي غير راض بقسمتي التي قسمت لعبادي.

قال الشاعر:

أيا حاسداً لي على نعمتي ... أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في حكمه ... لأنك لم ترضَ لي ما وهبْ
فأخزاكَ ربّي بأن زادني ... وسدّ عليك وجوه الطلب

وقال الأصمعي: رأيت أعرابياً قد بلغ عمره مائة وعشرين سنة، فقلت له: ما أطول عمرك؟ فقال: تركت الحسد فبقيت. وقالوا: لا يخلو السيد من ودود يمدح وحسود يقدح. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ألا لا تعادوا نعم الله، قيل: ومن يعادي نعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله. وقيل لعبد الله بن عروة: لِمَ لزمت البدو، وتركت قومك؟ فقال: وهل بقي إلا حاسد على نعمة أو شامت على نكبة.

وقال الشاعر:

يا طالب العيش في أمنٍ وفي دعةٍ ... رغداً بلا قترٍ صفواً بلا رنق
خلّص فؤادك من غل ومن حسدٍ ... فالغل في القلب مثل الغلّ في العنق

وقال آخر:

اصبر على حسد الحسو ... د فإن صبرك قاتلُهْ
كالنار تأكل بعضَها ... إن لم تجد ما تأكُلُهْ

وفي نوابغ الحكم: الحسد حسك من تعلق به هلك.

ولبعضهم:

إني حسدت فزاد الله في حسدي ... لا عاش من عاش يوماً غير محسود

وقال نصار بن سيار:

إني نشأت وحسّادي ذوو عُددٍ ... يا ذا المعارج لا تنقصْ لهم عددا

---

(١) العرانين ج عرنين وهو طرف الأنف ويكنى به عن العزّة والكرامة فالعرانين: كرام الناس ووجوههم.

إن يحسدوني على ما بي لما بهم
فمثل ما بيَ ممّا يجلب الحسدا

وكان عمر رضي الله عنه يقول: نعوذ بالله من كل قدر وافق إرادة حاسد. **وقيل لأرسطاطاليس**: ما بال الحسود أشد غماً؟ قال: لأنه أخذ بنصيبه من غموم الدنيا، ويضاف إلى ذلك غمه لسرور الناس. والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

الباب الأربعون
في الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها وفضل الجهاد وشدة البأس والتحريض على القتال

وفيه فصلان

الفصل الأول
في فضل الجهاد في سبيل الله وشدة البأس

قد أثنى الله تعالى على الصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، ووصف المجاهدين فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾(1). وندب إلى جهاد الأعداء ووعد عليه أفضل الجزاء. والرأي في الحرب أمام الشجاعة. قال رسول الله ﷺ: «الحرب خدعة». وقال ﷺ: «**ما من قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دم في سبيله أو قطرة دمع في جوف ليل من خشيته**». وسمع رجل عبد الله بن قيس رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ إن الجنة تحت ظلال السيوف، فقال: يا أبا موسى أنت سمعت رسول الله ﷺ يقوله، قال: نعم، فرجع إلى أصحابه، فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن سيفه(2)، فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو، فضرب به حتى قتل.

وكتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد: إعلم أن عليك عيوناً من الله ترعاك وتراك، فإذا لقيت العدو فاحرص على الموت توهب لك السلامة، ولا تغسل الشهداء من دمائهم، فإن دم الشهيد يكون له نوراً يوم القيامة.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ حين انتهينا إلى خيبر، الله أكبر خربت خيبر، إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين. وعنه رفعه: لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها».

وعن ابن مسعود رفعه: «إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل». **وقيل**: إن أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضي الله عنه لم يشهد بدراً، فلم يزل متحسراً يقول: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غيبت عنه، فلما كان يوم أحد قال: واهاً لريح الجنة دون أحد. فقاتل حتى قتل، فوجد في بدنه بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته الربيع بنت النضر: فما عرفت أخي إلا ببنانه.

وعن فضالة بنت عبيد رفعه: «كل ميت يختم على عمله إلا المرابط فإنه ينمّي له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتنة القبر. **وعن سهل بن حنيف رفعه**: «من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه». فنسأل الله أن يرزقنا الشهادة، ويجعلنا من الذين أحسنوا فلهم الحسنى وزيادة.

الفصل الثاني
في الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها

إعلم أن الشجاعة عماد الفضائل، ومن فقدها لم تكمل فيه فضيلة. ويعبر عنها بالصبر وقوة النفس.

قال الحكماء، وأصل الخير كله في ثبات القلب والشجاعة عند اللقاء على ثلاثة أوجه: **الوجه الأول**: إذا التقى الجمعان وتزاحف العسكران، وتكالحت الأحداق بالأحداق، برز من الصف إلى وسط المعترك يحمل ويكر وينادي: هل من مبارز. **والثاني**: إذا نشب القوم واختطوا ولم يدر أحد منهم من أين يأتيه، يكون رابط الجأش ساكن القلب حاضر اللب لم يخالطه الدهش ولا تأخذه الحيرة، فيتقلب تقلب المالك لأموره القائم على نفسه. **والثالث**: إذا انهزم أصحابه يلزم الساقة(1) ويضرب في وجوه القوم

(1) سورة الصف، الآية (٤).
(2) جفن السيف: غمده.

(1) الساقة: مؤخرة الجيش، وكل جيش كان يتألف من مقدمة وساقة وقلب وجناحين لذلك يقال له الخميس، لأنه مؤلف من خمس فرق.

ويحول بينهم وبين عدوهم، ويقوي قلوب أصحابه، ويرجّي الضعيف ويمدهم بالكلام الجميل، ويشجع نفوسهم، فمن وقع أقامه ومن وقف حمله ومن كبا به فرسه حماه، حتى ييأس العدو منهم، وهذا أحمدهم شجاعة. وعن هذا قالوا: إن المقاتل من وراء الفارين كالمستغفر من وراء الغافلين، ومن أكرم الكرم الدفاع عن الحُرَم.

وحكى سيدي أبو بكر الطرطوشي رحمة الله تعالى عليه في كتابه سراج الملوك قال: كان شيوخ الجند يحكون لنا في بلادنا، قالوا: دارت حرب بين المسلمين والكفار، ثم افترقوا، فوجدوا في المعترك قطعة خودة قدر الثلث بما حوته من الرأس، فقالوا: إنه لم ير قط ضربة أقوى منها ولم يسمع بمثلها في جاهلية ولا إسلام، فحملتها الروم وعلقتها في كنيسة لهم، فكانوا إذا عيّروا بانهزامهم يقولون: لقينا أقواماً هذا ضربهم، فيرحل أبطال الروم إليها ليروها.

قالوا: ومن الحزم أن لا يحتقر الرجل عدوه وإن كان ذليلاً، ولا يغفل عنه وإن كان حقيراً، فكم برغوث أسهر فيلاً، ومنع الرقاد ملكاً جليلاً. قال الشاعر:

فلا تحقرنْ عدواً رماك
وإنْ كان في ساعديه قِصَرْ
فإنّ السيوفَ تحز الرقاب
وتعجز عمّا تنال الإبر

واعلموا أن الناس قد وضعوا في تدبير الحروب كتباً ورتبوا فيها ترتيباً، ولنصف منها أشياء نبدأ منها بما ذكره الله تعالى في القرآن العظيم. قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[1] فقوله تعالى: ﴿مَّا اسْتَطَعْتُم﴾[1] مشتمل على كل ما هو مقدور البشر من العدة والآلة والحيلة. وفسّر النبيُّ ﷺ القوة حين مر على أناس يرمون، فقال: «ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي».

وأفضل العدة أن تقدم بين يدي اللقاء عملاً صالحاً من صدقة وصيام ورد المظالم وصلة الرحم ودعاء مخلص، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وأمثال ذلك. والشأن كل الشأن في استجادة القواد، وانتخاب الأمراء، وأصحاب الألوية، فقد قالت حكماء العجم: أسد يقود ألف ثعلب خير من ثعلب يقود ألف أسد. فلا ينبغي أن يقدم الجيش إلا الرجل ذو البسالة والنجدة، والشجاعة والجرأة، ثابت الجأش، صارم القلب، صادق البأس، ممن قد توسط الحروب، ومارس الرجال ومارسوه، ونازل الأقران وقارع الأبطال عارفاً بمواضع الفرص خبيراً بمواضع القلب والميمنة والميسرة من الحروب، فإنه إذا كان كذلك وصدر الكل عن رأيه كانوا جميعاً كأنهم مثله، فإنه إن رأى لقراع الكتائب وجهاً وإلاّ ردّ الغنم إلى الزريبة.

واعلم أن الحرب خدعة عند جميع العقلاء، وكان عظماء الترك يقولون: ينبغي للعاقل العظيم للقياد أن يكون فيه عدة أخلاق من البهائم، شجاعة الديك، وبحث الدجاجة، وقلب الأسد، وحملة الخنزير، وروغان الثعلب، وصبر الكلب على الجراح، وحراسة الكركي، وغارة الذئب، وسمن نغير، وهي دويبة تكون بخراسان تسمن على التعب والشقاء. وكان يقال: أشد خلق الله تعالى عشرة: الجبال، والحديد ينحت الجبال، والنار تأكل الحديد، والماء يطفىء النار، والسحاب يحمل الماء، والريح تصرف السحاب، والإنسان يتقي الريح بجناحيه، والسكر يصرع الإنسان، والنوم يذهب السكر، والهم يمنع النوم. فأشد خلق ربك الهم، اللهم إنا نعوذ بك من الهم والحزن.

ومن الحيل في الحرب أن يبث جواسيسه في عسكر عدوه ليستعلم أخبارهم، ويستميل قلوب رؤسائهم، وذوي الشجاعة منهم، فيدس إليهم، ويعدهم وعداً جميلاً. ويقوي أطماعهم في نيل ما عنده من الهبات الفخيمة والولايات السنية، وإن رأى وجهاً عاجلهم بالهدايا وسامهم إما الغدر بصحبهم، وإما الاعتزال وقت اللقاء، ويكتب على السهام أخباراً مزورة، ويرمي بها في جيوشهم. واعلم أن الحيلة لا ترد القضاء والقدر، وأن الدول إذا زالت صارت حيلتها وبالاً عليها، وإذا أذن الله تعالى في حلول البلاء كانت الآفة في الحيلة. وقال الحكماء: إذا نزل القضاء كان العطب في الحيلة.

ويغلب الضعف بإقبال دولته كما يغلب القوي ببقاء مدته، فمن الحزم المألوف عند سوّاس الحروب[1] أن تكون حماة الرجال، وكماة الابطال في القلوب، فإنه إذا انكسر الجناحان كانت العيون ناظرة إلى القلب، فإذا كانت

(١) سورة الأنفال، الآية (٦٠).

(١) سواس الحروب: قادتها والقائمون على سياستها.

رايته تخفق وطبوله تضرب كان حصناً للجناحين يأوي إليه كل منهزم، وإذا انكسر القلب تمزق الجناحان. مثال ذلك أن الطائر إذا انكسر أحد جناحيه ترجّى عودته ولو بعد حين، وإذا انكسر الرأس ذهب الجناحان.

وقلَّ عسكرٌ انكسر قلبه فأفلح أو تراجع، اللهم إلا أن تكون مكيدة من صاحب الجيش، فيخلي القلب قصداً وتعمداً، حتى إذا توسطه العدو، واشتغل بنهبه انطبق عليه الجناحان. فقد فعل ذلك رجال من أهل الحروب، ويقال: حبب إلى عدوك الفرار بأن لا تتبعهم إذا انهزموا.

ويقال: الشجاع محبب حتى إلى عدوه، والجبان مبغض حتى إلى أمه.

ولما أقبل كسرى بن هرمز إلى محاربة بهرام قال له صاحبه: أما تستعد؟ قال: عدتي ثبات قلبي، وإصابة رأيي، ونصل سيفي، ونصرة خالقي.

وخرج يزيد بن عبد الملك من بعض مقاصيره وعليه درع، وذلك في أيام قتال يزيد بن المهلب، فأنشده مسلمة قول الحطيئة:

قومٌ إذا حاربوا شدوا مآزرهم
دون النساء ولو باتت بأطهار

فقال يزيد: إنما ذاك إذا حاربنا أكفاءنا، وأما مثل هذا ونظرائه فلا. فقام إليه مسلمة، فقبله بين عينيه.

وقيل: لما مات ملك الفرس أرادوا أن يملّكوا عليهم رجلاً من آل ساسان، فوفد عليهم بهرام جور فقال: اعمدوا إلى أسدين جائعين، فاطرحوا بينهما التاج، فمن أخذه فهو الملك. ففعلوا، فدنا منهما فأهويا نحوه، فأخذ برأس أحدهما، فأدناه من رأس الآخر، ثم نطحه به فقتلهما جميعاً، وشد على التاج فأخذه ووضعه على رأسه، وملّكته الفرس عليهم.

وقيل: لم يكن في العجم أرمى[1] من الملك بهرام خرج يتصيد يوماً، وهو مردف حظيّة[2] له كان يعشقها، فعرضت له ظباء، فقال: في أي موضع تريدين أن أضع هذا السهم؟ فقالت: أريد أن تُشَبِّهَ ذكرانها بالإناث وأناثها بالذكران، فرمى ظبياً ذكراً بنشابة ذات شعبتين فاقتلع قرنيه، ورمى ظبية بنشابتين أثبتهما في موضع القرنين، ثم سألته أن يجمع بين ظلف الظبي وأذنه بنشابة، رمى أصل الأذن ببندقة ثم أهوى الظبي برجله إلى أذنه ليحتك، فرماه بنشابة فوصل أذنه بظلفه.

ويقال: إن من أعظم المكايد في الحرب الكمين، وذلك أن الفارس لا يزال على حمية في الدفاع وحمي الذمار حتى يلتفت فيرى وراءه بنداً منشوراً، ويسمع صوت الطبل، فحينئذ يكون همه خلاص نفسه.

وعليك بانتخاب الفرسان واختيار الأبطال ولا تنس قول الشاعر:

والناس ألفٌ منهم كواحدٍ
وواحدٌ كالألف إن أمْرٌ عَنى[1]

بل قد جرب ذلك، فوجد الواحد خيراً من عشرة آلاف، وسأحكي لك من ذلك ما ترى فيه العجب:

فمن ذلك: لما التقى المستعين بن هود مع الطاغية بن روميل النصراني على مدينة وشقة من ثغور بلاد الأندلس، وكان العسكران كالمتكافئين، كل واحد منهما يقارب عشرين ألف مقاتل خَيْلٌ وَرَجِلٌ[2]. فحدث من حضر الوقعة من الأجناد قال: لما دنا اللقاء. قال الطاغية بن روميل لمن يثق بعقله وممارسته للحروب من رجاله: استعلم لي من في عسكر المسلمين من الشجعان الذين نعرفهم كما يعرفوننا ومن غاب منهم ومن حضر، فذهب، ثم رجع، فقال له: فيهم فلان وفلان، فعد سبعة رجال. فقال له: انظر من في عسكري من الرجال المعروفين بالشجاعة، ومن غاب منهم، فعدهم، فوجدهم ثمانية رجال لا يزيدون، فقام الطاغية ضاحكاً مسروراً، وهو يقول: ما أبيضك من يوم. ثم ثارت الحرب بينهم، فلم تزل المضاربة بين الفريقين لم يول أحدهم دبره، ولا تزحزح عن مقامه، حتى فني أكثر العسكرين، ولم يفر واحد منهم، قال: فلما كان وقت العصر نظروا إلينا ساعة، ثم حملوا علينا جملة وداخلوا مداخلة، ففرقوا بيننا، وصرنا شطرين، وحالوا بيننا وبين أصحابنا، فكان ذلك سبب وهننا وضعفنا، ولم تقم الحرب إلا ساعة ونحن في خسارة معهم، فأشار مقدم العسكر على السلطان أن ينجو بنفسه، وانكسر عسكر المسلمين، وتفرق جمعهم، وملك العدو مدينة وشقة. فليعتبر ذو الحزم والبصيرة من جمع يحتوي على أربعين ألف مقاتل،

---

(١) أرمى: أمهر بالرماية.

(٢) الحظية: والمحظية: جارية مقرّبة من مالكها يتعشقها وأردفها: أركبها خلفه.

(١) عنى: من العناء أي إن اشتد الأمر، وقيل: عند النزال تعرف الرجال.

(٢) أي خَيَّالة ورجّالة.

ولم يحضره من الشجعان المعدودين إلا خمسة عشر نفراً، وليعتبر بضمان العلج[1] بالظفر واستبشاره بالغنيمة لما زاد في أبطاله رجل واحد.

وحكى سيدي أبو بكر الطرطوشي رحمة الله تعالى عليه قال: سمعت أستاذنا القاضي أبا الوليد يحيى قال: بينما المنصور بن أبي عامر في بعض غزواته إذ وقف على نشز من الأرض مرتفع، فرأى جيوش المسلمين من بين يديه، ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله قد ملأوا السهل والجبل، فالتفت إلى مُقَدِّم العسكر، وهو رجل يعرف بابن المضجعي، فقال له: كيف ترى هذا العسكر أيها الوزير؟ قال: أرى جمعاً كثيراً وجيشاً واسعاً كبيراً، فقال له المنصور: ما ترى هل يكون في هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والنجدة والبسالة؟ فسكت ابن المضجعي.

قال له المنصور: ما سكوتك، أليس في هذا الجيش ألف مقاتل؟ قال: لا.

فتعجب المنصور. ثم قال فهل فيهم خمسمائة مقاتل من الأبطال المعدوين؟ قال: لا، فحنق المنصور، ثم قال: أفيهم مائة رجل من الأبطال؟ قال: لا.

قال: أفيهم خمسون رجلاً من الأبطال؟ قال: لا. قال: فسبه المنصور، وأغلظ عليه، وأمر به، فأخرج على أسوأ حال، فلما توسطوا بلاد الروم اجتمعت الروم، وتصافّ الجمعان، فبرز علج من الروم بين الصفين شاكي السلاح[2]، وجعل يكر ويفر ويقول: هل من مبارز، فبرز إليه رجل من المسلمين، فتجاولا ساعة، فقتله العلج، ففرح المشركون، وصاحوا، واضطرب المسلمون لها، ثم جعل العلج يموج بين الصفين وينادي: هل من مبارز اثنين لواحد، فبرز إليه رجل من المسلمين، فتجاولا ساعة، فقتله العلج، وجعل يكر ويحمل، وينادي ويقول: هل من مبارز؟ ثلاثة لواحد، فبرز إليه رجل من المسلمين، فقتله العلج، فصاح المشركون، وذل المسلمون، وكادت أن تكون كسرة، فقيل للمنصور: ما لها إلا ابن المضجعي؟فبعث إليه، فحضر. فقال له المنصور: ألا ترى ما صنع هذا العلج الكلب منذ اليوم؟ فقال: لقد رأيته، فما الذي تريد؟ قال: أن تكفي المسلمين شره. قال: الآن يُكْفَى المسلمون شره إن شاء الله تعالى، ثم قصد إلى رجال يعرفهم، فاستقبله رجل من أهل الثغور على فرس قد تهرت أوراكها هزالاً، وهو حامل قربة ماء بين يديه على الفرس، والرجل في حليته، ونفسه غيرمتصنع، فقال له ابن المضجعي: ألا ترى ما يصنع هذا العلج منذ اليوم قال: قد رأيته، فما الذي تريد؟ قال: أريد أن تكفي المسلمين شره. قال: حباً وكرامة.

ثم إنه وضع القربة بالأرض، وبرز إليه غير مكترث به، فتجاولا ساعة، فلم ير الناس إلا المسلم خارجاً إليهم يركض ولا يدرون ما هناك، وإذا برأس العلج يلعب بها في يده، ثم ألقى الرأس بين يدي المنصور، فقال له ابن المضجعي: عن هؤلاء الرجال أخبرتك. قال: فرد ابن المضجعي إلى منزلته، وأكرمه ونصر الله جيوش المسلمين وعساكر الموحدين.

حكي أنه كان للعرب فارس يقال له: ابن فتحون، وكان أشجع العرب والعجم في زمانه، وكان المستعين يكرمه ويعظمه ويجري له في كل عطية خمسمائة دينار، وكانت جيوش الكفار تهابه، وتعرف منه الشجاعة، وتخشى لقاءه. فيحكى أن الرومي كان إذا سقى فرسه ولم يشرب يقول له: ويلك لِمَ لا تشرب؟ هل رأيت ابن فتحون في الماء.

فحسده نظراؤه على كثرة العطاء، ومنزلته من السلطان، فوشوا به عند المستعين، فأبعده ومنعه من عطائه. ثم إن المستعين أنشأ غزوة إلى بلاد الروم، فتقابل المسلمون والمشركون صفوفاً، ثم برز علج إلى وسط الميدان، ونادى وقال: هل من مبارز؟ فبرز إليه فارس من المسلمين، فتجاولا ساعة، فقتله الرومي، فصاح المشركون سروراً، وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل الكلب الرومي يجول بين الصفين وينادي: هل من اثنين لواحد؟ فخرج إليه فارس من المسلمين، فقتله الرومي، فصاح الكفار سروراً، وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل الكلب يجول بين الصفين وينادي ويقول: ثلاثة لواحد، فلم يجترىء أحد من المسلمين أن يخرج إليه. وبقي الناس في حيرة، فقيل للسلطان: ما لها إلا أبو الوليد بن فتحون، فدعاه، وتلطف به، وقال له: يا أبا الوليد: أما ترى ما يصنع هذا العلج؟ فقال: ها هو بعيني، قال: فما الحيلة فيه؟ قال: الساعة أكفي المسلمين شره، فلبس قميص كتان، واستوى على سرج فرسه بلا سلاح، وأخذ بيده سوطاً طويلاً، وفي طرفه عقدة معقودة، ثم برز إليه،

---

(١) لفظة تحقير تطلق على غير العربي وبعد الإسلام صارت تطلق على الكافر من غير العرب.

(٢) شاكي السلاح: أي مدجج بالسلاح، قد لبس الحديد وتدرع بالحديد وحمل سيفاً ورمحاً إلخ..

فتعجب منه النصراني، ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه فلم تخط طعنة النصراني سرج ابن فتحون، وإذا ابن فتحون متعلق برقبة الفرس ونزل إلى الأرض لا شيء منه في السرج، ثم انقلب في سرجه وحمل على العلج وضربه بالسوط، فالتوى على عنقه، فجذبه بيده من السرج، فاقتلعه، وجاء به يجره حتى ألقاه بين يدي المستعين، فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ في صنعه مع أبي الوليد بن فتحون، فاعتذر إليه. وأكرمه، وأحسن إليه، وبالغ في الإنعام عليه، ورده إلى أحسن أحواله، وكان من أعز الناس إليه.

وينبغي لقائد الجيش أن يخفي العلامة التي هو مشهور بها. فإن عدوه قد يستعلم حيلته وألوان خيله ورايته، ولا يلزم خيمته ليلاً ولا نهاراً، وليبدل زيه ويغيِّر خيمته كي لا يلتمس عدوه غرة منه، وإذا سكن الحرب، فلا يمشي في النفر اليسير من قومه خارج عسكره، فإن عيون عدوه متجسسة عليه، وبهذا الوجه كسر المسلمون جيوش أفريقية عند فتحها، وذلك أن الحرب سكنت وسط النهار، فجعل مقدم العدو يمشي خارج عسكره يتميز عساكر المسلمين، فجاء الخبر إلى عبد الله بن أبي السرح وهو نائم في قبته، فخرج فيمن وثق به من رجاله، وحمل على العدو، فقتل الملك، وكان الفتح.

وبمثل هذا قهر ألب أرسلان ملك الترك، ملك الروم وقمعه وقتل رجاله وأباد جمعه. وكانت الروم قد جمعت جيوشاً يقل أن يجمع لغيرهم من بعدهم مثلها، وكان قد بلغ عددهم ستمائة ألف، كتائب متواصلة، وعساكر مترادفة، وكراديس[1] يتلو بعضها بعضاً، لا يدركهم الطرف ولا يحصيهم العدد، وقد استعدوا من الكراع والسلاح والمجانيق[2]، والآلات المعدة للحروب، وفتح الحصون بما لا يحصى، وكانوا قد قسموا بلاد المسلمين الشام والعراق، ومصر، وخراسان، وديار بكر، ولم يشكوا أن الدولة قد دارت لهم، وأن نجوم السعود قد خدمتهم، ثم استقبلوا بلاد المسلمين فتواترت أخبارهم إلى بلاد المسلمين، واضطربت لهم ممالك أهل الإسلام، فاحتشد للقائهم الملك ألب أرسلان، وهو الذي يسمى

(١) كراديس ج كردوس وهو يجمع عدة كتائب أشبه بما نسميه اليوم بالفوج.

(٢) المجانيق ج منجنيق وهي آلة ترمي الحجارة المشتعلة أشبه بمدافع هذه الأيام بالفعل وإن اختلف الشكل.

الملك العادل، وجمع جموعه بمدينة أصبهان، واستعد بما قدر عليه، ثم خرج يؤمهم[1]، فلم يزل العسكران يتدانيان إلى أن عادت طلائع المسلمين إلى المسلمين، وقالوا لألب أرسلان: غداً يتراءى الجمعان، فبات المسلمون ليلة الجمعة، والروم في عدد لا يحصيهم إلا الله الذي خلقهم، وما المسلمون فيهم إلا أكلة جائع، فبقي المسلمون وجلين لما دهمهم، فلما أصبحوا صباح يوم الجمعة نظر بعضهم إلى بعض، فهال المسلمين ما رأوا من كثرة العدو، فأمر ألب أرسلان أن يعد المسلمين، فبلغوا اثني عشر ألفاً فكانوا كالشامة البيضاء في الثور الأسود، فجمع ذوي الرأي من أهل الحرب والتدبير والشفقة على المسلمين، والنظر في العواقب، واستشارهم في استخلاص أصوب الرأي، فتشاوروا برهة، ثم اجتمع رأيهم على اللقاء، فتوادع القوم وتحاللوا وناصحوا الإسلام وأهله، وتأهبوا أهبة اللقاء، وقالوا لألب أرسلان: بسم الله نحمل عليهم.

فقال ألب أرسلان: يا معشر أهل الإسلام أمهلوا، فإن هذا يوم الجمعة، والمسلمون يخطبون المنابر، ويدعون لنا في شرق البلاد وغربها، فإذا زالت الشمس، وعلمنا أن المسلمين قد صَلُّوا، ودعوا الله أن ينصر دينه حملنا عليهم إذ ذاك، وكان ألب أرسلان قد عرف خيمة ملك الروم وعلامته وزيه وزينته وفرسه، ثم قال لرجاله: لا يتخلف أحد منكم أن يفعل كفعلي، ويتبع أثري، ويضرب بسيفه، ويرمي سهمه حيث أضرب بسيفي، وأرمي بسهمي، ثم حمل برجاله حملة رجل واحد إلى خيمة ملك الروم، فقتلوا من كان دونها، ووصلوا إلى الملك، فقتلوا من كان دونه، وجعلوا ينادون بلسان الروم قتل الملك قتل الملك، فسمعت الروم أن ملكهم قد قتل فتبددوا، وتمزقوا كل ممزق، وعمل السيف فيهم أياماً، وأخذ المسلمون أموالهم، وغنائمهم، وأتوا بالملك أسيراً بين يدي ألب أرسلان والحبل في عنقه.

فقال له ألب أرسلان: ماذا كنت تصنع بي لو أسرتني؟ قال: وهل تشك أنني كنت أقتلك، فقال له ألب أرسلان: أنت أقل في عيني من أن أقتلك اذهبوا به، فبيعوه لمن يزيد فيه، فكان يقاد والحبل في عنقه، وينادى عليه من يشتري ملك الروم، وما زالوا كذلك يطوفون به على الخيام، ومنازل المسلمين، وينادون عليه بالدراهم والفلوس، فلم

(١) أي يقصدهم.

يدفع فيه أحد شيئاً، حتى باعوه من إنسان بكلب، فأخذه الذي ينادي عليه، وأخذ الكلب، وأتى بهما إلى ألب أرسلان، وقال: قد طفت به جميع العسكر، وناديت عليه، فلم يبذل أحد فيه شيئاً سوى رجل واحد دفع فيه هذا الكلب، فقال: قد أنصفك إن الكلب خير منه، ثم أمر ألب أرسلان بعد ذلك بإطلاقه وذهب إلى القسطنطينية، فعزلته الروم، وكحّلوه بالنار.

فانظر ماذا يأتي على الملوك إذا عرفوا في الحرب من الحيلة والمكيدة. اللهم انصر جيوش المسلمين وعساكر الموحدين، وأهلك الكفرة، والمشركين، وانصر المسلمين نصراً عزيزاً برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

الباب الحادي والأربعون
في ذكر أسماء الشجعان
وذكر الأبطال وطبقاتهم وأخبارهم
وذكر الجبناء وأخبارهم وذم الجبن

(الطبقة الأولى: الذين أدركوا الجاهلية والإسلام):

حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه عم رسول الله ﷺ، أسد الله وأسد رسوله ﷺ. قتل في غزاة أحد، رماه وحشي مولى جبير بن مطعم بحربة فقتله. وكان فارس قريش غير مدافع، وبطلها غير ممانع، وعظم قتله على النبي ﷺ ونذر أن يقتل به سبعين رجلاً من قريش، وكبّر عليه في الصلاة سبعين تكبيرة.

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه. آية من آيات الله، ومعجزة من معجزات رسول الله ﷺ، ومؤيد بالتأييد الإلهي، كاشف الكروب ومجليها، ومثبت قواعد الإسلام ومرسيها، وهو المتقدم على ذوي الشجاعة كلهم بلا مرية ولا خلاف. **روي عنه** رضي الله عنه أنه قال: والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون عليّ من موتة على فراش. **وقال بعض العرب**[1] ما لقينا كتيبة فيها علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلا أوصى بعضنا على بعض[1]. **وقال رضي الله عنه لمعاوية**: قد دعوت الناس إلى الحرب، فدع الناس جانباً واخرج إليّ ليعلم أينا المُرَانُ على قلبه، والمُغَطّى على بصره، وأنا أبو الحسن قاتل جدك وخالك وأخيك شدخاً[2] يوم بدر، وذلك السيف معي، وبذلك القلب ألقى عدوي.

وقيل له كرم الله وجهه: إذا جالت الخيل، فأين نطلبك؟ قال: حيث تركتموني. **وقيل له**: كيف تقتل الأبطال؟ قال: لأني كنت ألقى الرجل، فأقدر أني أقتله، ويقدر هو أني قتلته، فأكون أنا ونفسه عوناً عليه.

وقال مصعب بن الزبير: كان علي رضي الله عنه حذراً في الحروب شديد الروغان لا يكاد أحد يتمكن منه، وكانت درعه صدراً لا ظهر لها، فقيل له: أما تخاف أن تؤتى من قبل ظهرك، فقال: إذا مَكَّنْتُ عدوي من ظهري، فلا أبقى الله عليه إن أبقى عليّ.

قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي لعنة الله تعالى عليه، غدره وهو في صلاة الصبح. وسبب ذلك أن عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله تزوج بقطام بنت علقمة، وكانت خارجية، فقالت له: لا أقنع إلا بصداق[3] أسميه وهو ثلاثة آلاف درهم، وعبد وأمة، وأن تقتل علي بن أبي طالب، فقال لها: لك ما سألت إلا علي بن أبي طالب، وكيف لي به؟ قالت: تغتاله، فإن سلمت أرحت الناس من شره، وأقمت مع أهلك، وإن أصبت دخلت الجنة. فقال:

ثلاثة آلافٍ وعبدٍ وقينةٍ
وضربِ عليٍّ بالحسامِ المخذّمِ
فلا مهرَ أغلى من عليٍّ وإن علا
ولا فتكَ إلا دونَ فتكِ ابنِ ملجمِ

قيل أنه طعنه وهو داخل المسجد في الغلس[4]، وذلك في تاسع عشر رمضان المعظم سنة أربعين[5]. كفن رضي الله عنه في ثلاثة أثواب، ودفن في الرحبة مما يلي باب كندة من أبواب المسجد[6]. قالوا: ولما ضربه ابن ملجم لعنه الله، ثار الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضي

---

(١) أي إما من المشركين قبل الفتح أو ممن قاتله يوم الجمل وما بعدها.

(١) أوصى بعضنا: أي أوصى بماله وبمن يقوم بأمر أهله.
(٢) قتله شدخاً: أي بِشَقّ رأسه.
(٣) الصداق: مهر المرأة.
(٤) الغلس: عتمة الصبح.
(٥) الأرجح أن ذلك كان في السابع عشر من رمضان.
(٦) في مكان دفنه روايات عدة فهو غير معروف على وجه الدقة والتحقيق.

الله عنهم، فاحتضنوه، وقام المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، فأخذه، فأومأ علي رضي الله عنه إلى المغيرة أن صَلِّ بالناس، فصلى بهم الفجر وأقبلت همدان، فدخلوا على علي، فقالوا يا أمير المؤمنين: لا تقوم لهم قائمة إن شاء الله تعالى، فقال: لا تفعلوا إنما النفس بالنفس. قال: ثم إن الحسن رضي الله عنه صلى الفجر وصعد المنبر، فأراد الكلام، فخنقته العبرة، ثم نطق، فقال: الحمد لله على ما أحببنا وكرهنا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ «وإني أحتسب عند الله عز وجل مصابي بأفضل الآباء رسول الله القائل ﷺ من أصيب بمصيبة فليتسل بمصيبته فيّ، فإنها أعظم المصائب»، والله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل على عبده الفرقان، لقد قبض في هذه الليلة رجل ما سبقه الأولون بعد رسول الله ﷺ ولا يدركه الآخرون. فعند الله نحتسب ما دخل علينا وعلى جميع أمة محمد ﷺ. فوالله لا أقول اليوم إلا حقاً، لقد دخلت مصيبة اليوم على جميع العباد والبلاد، والشجر، والدواب. ولقد قبض في الليلة التي رفع فيها عيسى بن مريم عليهما السلام إلى السماء، وقبض فيها موسى بن عمران، ويوشع بن نون عليهما السلام وأنزل فيها القرآن على محمد ﷺ، ولقد كان رسول الله ﷺ يبعثه في السرية، ويسير جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فما يرجع حتى يفتح الله عز وجل على يديه. وما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله، ألا أن أمور الله تعالى تجري على أحوالها، فما أحسنها من الله، وأسوأها من أنفسكم. ألا أن قريشاً أعطت أزِمَّتَهَا[1] شياطينها، فقادتها بأعنتها إلى النار، فمنهم من قاتل رسول الله ﷺ حتى أظهره الله تعالى عليه، ومنهم من أسرّ الضغينة حتى وجد على النفاق أعواناً. رفع الكتاب، وجف القلم، وأمور تقضى في كتاب قد خلا. ثم أطرق الحسن، فبكى الناس بكاء شديداً، ثم نزل، فجرد سيفه، ودعا بابن ملجم، فأقبل يخطر[2] واضعاً شعره على أذنيه حتى قام بين يديه، فقال: يا حسن إني ما عاهدت الله تعالى على عهد قط إلا وفيت به. عاهدت الله تعالى على أن أقتل أباك وقد قتلته، فإن تخلني أقتل معاوية، فإن أنا قتلته أضع يدي على يدك، وإن أُقتل، فهو الذي تريد.

(١) أعطت أزمتها: أسلمت أمرها.

(٢) يخطر: يختال في مشيته.

فقال الحسن رضي الله عنه: أما والله لا سبيل إلى بقائك، ثم قام إليه فضربه بالسيف، فاتقاه ابن ملجم بيد، ثم أسرع بالسيف فيه فقتله.

ومن الأبطال خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي رضي الله عنه. سيف الله وسيف رسوله ﷺ بطل مذكور، وفارس مشهور في الجاهلية والإسلام. قتل مالك بن نويرة، وقتل مسيلمة الكذاب لعنه الله. وكان الفتح لخالد يوم اليمامة، وهو الذي فتح دمشق، وأكثر بلاد الشام، وله وقائع عظيمة في الروم. أيّد الله بها الإسلام. مات على فراشه، وكان يقول: لقد شهدت كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه أثر طعنة أو ضربة أو رمية. وها أنا أموت على فراشي لا نامت عين الجبان[3]. وكان ينشد ويرتجز ويقول:

لا ترعبونا بالسيوف المبرقةْ
إنّ السّهامَ بالردى مفرّقةْ
والحرب دونها العقالُ مُطلقةْ
وخالدٌ من دينه على ثقةْ

رضي الله عنه.

الزبير بن العوام رضي الله عنه حواري رسول الله ﷺ وابن عمته بطل شجاع لا يماري، وشهم لا يحاول. قتله عمرو بن جرموز، إغتاله وهو في الصلاة.

عمرو بن معديكرب الزبيدي فارس من فرسان الجاهلية، وله مواقف مذكورة، ومواطن مشهورة، وأسلم ثم ارتد، ثم عاد إلى الإسلام، وشهد حروب الفرس، وكان له فيها أفعال عظيمة، وأحوال جسيمة، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رآه قال: الحمد لله الذي خلقنا وخلق عمراً. وروي عنه رضي الله عنه أنه سأله يوماً، فقال له: يا عمرو أي السلاح أفضل في الحرب؟ قال: فعن أيها تسأل؟ قال: ما تقول في السهام؟ قال: منها ما يخطىء ويصيب. قال: فما تقول في الرمح؟ قال: أخوك وربما خانك. قال: فما تقول في الترس؟ قال: هو الدائر، وعليه تدور الدوائر، قال: فما تقول في السيف؟ قال: ذلك العدة عند الشدة.

وقيل: إنه نزل يوم القادسية على النهر، فقال لأصحابه: إنني عابر على هذا الجسر قال: فإن أسرعتم مقدار جزر الجزور وجدتموني وسيفي بيدي أقاتل به تلقاء وجهي،

(٣) اللفظ الأشهر لهذه العبارة الأخيرة: وها أنذا أموت على فراشي موت البعير فلا نامت أعين الجبناء.

وقد عرفني القوم، وأنا قائم بينهم. وإن بطأتم وجدتموني قتيلاً بينهم. ثم انغمس فحمل على القوم، فقال بعضهم لبعض: يا بني زبيد علام تدعون صاحبكم، والله ما نظن أنكم تدركونه حياً، فحملوا فانتهوا إليه، وقد صُرِعَ عن فرسه[1]، وقد أخذ برجل فرس رجل من العجم، فأمسكها والفارس يضرب فرسه، فلم تقدر أن تتحرك، فلما رآنا أدركناه رمى الرجل نفسه وخلى فرسه، فركبه عمرو وقال: أنا أبو ثور كدتم والله تفقدونني. فقالوا: أين فرسك؟ فقال: رمي بنشابة، فغار وشب فصرعني. ويروى أنه حمل يوم القادسية على رستم وهو الذي كان قدمه يزدجرد ملك الفرس يوم القادسية على قتال المسلمين، فاستقبله عمرو وكان رستم على فيل، فضرب عمرو الفيل، فقطع عرقوبه، فسقط رستم وسقط الفيل عليه مع خرج كان فيه أربعون ألف دينار، فقتل رستم وانهزمت العجم. وقتل عمرو بنهاوند في وقعة الفرس بعد أن عمّر حتى ضعف. وكان من الشعراء المعدودين، وفيه يقول العباس بن مرداس:

إذا مات عمرو قلت للخيل أوطئي
زبيداً فقد أودى بنجدتها عمرو

ومنهم طلحة الأسدي رضي الله عنه، كان من أكبر الشجعان جاهلية وإسلاماً، ثم ارتد وتنبأ، وجمع جمعاً عظيماً ففل خالد بن الوليد جمعه وكان يتكهن، ثم عاد إلى الإسلام، وشهد حرب القادسية وغيرها من الفتوح.

والمقداد بن الأسود رضي الله عنه كان من أشجع الفرسان شديد البأس قوي الجنان رابط الجأش، وله في الشجعان اسم مشهور ووصف مذكور يعجز الواصف عن وصف صفاته رضي الله عنه وأرضاه.

وسعد بن أبي وقاص الزهري الأنصاري رضي الله عنه كان فارساً بطلاً رامياً، وهو أول من رمى في سبيل الله بسهم، ولما قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه اعتزل، ولم يشهد الحرب بعده ومات حتف أنفه.

أبو دجانة الأنصاري رضي الله عنه الذي خرج يتبختر بين الصفين، فقال عليه الصلاة والسلام: إنها لمشية يبغضها الله تعالى إلا في هذا الموضع.

والمثنى بن حارثة الشيباني رضي الله عنه هو أول من فتح حرب الفرس. **وأبو عبيد بن مسعود الثقفي** رضي الله عنه، قاتل القوم يوم قس الناطف في حرب القادسية.

(١) أي قد أصيب فرسه فرماه عن ظهره.

وعمار بن ياسر رضي الله عنه. صاحب رسول الله ﷺ الذي قال فيه رسول الله ﷺ: الحق يدور مع عمّار حيث دار، وأخبر أنه تقتله الفئة الباغية، فقتل بصفين مع علي رضي الله عنه.

هاشم بن عتبة رضي الله عنه من أكابر الشجعان، صاحب راية علي رضي الله عنه بصفين، **مالك بن الحارث** النخعي الأشتر رضي الله عنه، مات مسموماً في شربة من عسل، فقال معاوية: إن لله جنوداً منها العسل. **القعقاع بن عمرو** طاعن الفيل في عشية القادسية رضي الله عنه.

(الطبقة الثانية):

عبد الله بن الزبير بن العوام رضي الله عنه، قاتل جرجير ملك إفريقية الذي كان يرى أنه أشجع أهل عصره. قال عمر ابن عبد العزيز لابن أبي مليكة: صف لي عبد الله بن الزبير، فقال: والله ما رأيت جلداً قط ركب على لحم ولا لحماً على عصب ولا عصباً على عظم مثل جلده، ولحمه وعصبه، ولا رأيت نفساً بين جنبين مثل نفس ركبت بين جنبيه. ولقد قام يوماً إلى الصلاة، فمر حجر من حجارة المنجنيق بين لحييه وصدره، فوالله ما خشع له بصره ولا قطع له قراءته، ولا ركع دون الركوع الذي كان يركع. قتله الحجاج بعد أن حوصر بمكة، وأسلمه أصحابه وعشيرته وصلبه الحجاج، ألا إلى الله تصير الأمور.

أبو هاشم محمد بن علي بن أبي طالب، ابن الحنفية رضي الله عنه، كان أبوه يلقيه في الوقائع ويتقي به العظائم، وهو شديد البأس، ثابت الجنان. قيل له يوماً: ما بال أمير المؤمنين علي كرم الله وجهك يقحمك الحروب[1] دون الحسن والحسين رضي الله عنهما؟ فقال: لأنهما كانا عينيه وكنت أنا يديه، فكان يتقي عينيه بيديه. وقيل: إن أباه علياً رضي الله عنه اشترى درعاً فاستطالها، فأراد أن يقطع منها، فقال له محمد: ياأبت علِّم موضع القطع، فعلم على موضع منها، فقبض محمد بيده اليمنى على ذيلها، وبالأخرى على موضع العلامة، ثم جذبها، فقطعها من الموضع الذي حدّه أبوه. وكان عبد الله بن الزبير مع تقدمه في الشجاعة يحسده على قوته، وإذا حدّث بهذا الحديث غضب. مات حتف أنفه[2] بشعب رضوى[3].

(١) يقحمك الحروب: يدفعك في وسطها.

(٢) أي مات على فراشه.

(٣) رضوى: اسم صخرة كبيرة في مكة.

عبد الله بن حازم السلمي رضي الله عنه والي خراسان شجيع مضر وفارسها في عصره، قتله وكيع بن أبي سويد بخراسان في الفتنة. وكيع بن أبي سويد قاتل عبد الله بن حازم المتقدم ذكره، شجاع فاتك أهوج ولي خراسان. قيل: لما قتل عبد الله بن حازم، ولم يتم أمره لهوجه مات حتف أنفه.

مصعب بن الزبير بن العوام شجاع بطل جواد، جاد بماله وبنفسه، قتله عبيد الله بن زياد في الحروب التي كانت بينه وبين عبد الملك بن مروان. **عمير بن الحباب السلمي** فارس الإسلام قتله بنو تغلب في الحرب التي كانت بينهم وبين قيس. **مسلمة بن عبد الملك بن مروان**، فحل بني أمية وفارسها ووالي حروبها، قيل أنه جلس يوماً ليقضي بين الناس بمصر، فكلمته امرأة، فلم يقبل عليها، فقالت: ما رأيت أقل حياء من هذا قط، فكشف عن ساقه فإذا فيها أثر تسع طعنات. فقال لها: هل ترين أثر هذا الطعن، والله لو أخرت رجلي قيد شبر ما أصابتني واحدة منهن، وما منعني من تأخيرها إلا الحياء، وأنت تنحليني قلّته[1].

المعتصم بطل شجاع، فارس صنديد لم يكن في بني العباس أشجع منه ولا أشد قلباً. قال ابن أبي داود: كان المعتصم يقول لي: يا أبا عبد الله عض على ساعدي بأكثر قوتك، فأقول والله يا أمير المؤمنين ما تطيب نفسي بذلك، فيقول: إنه لا يضرني، فأروم ذلك، فإذا هو لا تعمل فيه الأسنّة، فكيف تعمل فيه الأسنان. ويقال أنه طعنه بعض الخوارج، وعليه درع، فأقام المعتصم ظهره فقصم الرمح نصفين. وكان يشد يده على كتابة الدينار فيمحوها، ويأخذ عمود الحديد فيلويه حتى يصير طوقاً في العنق.

إبراهيم بن الأشتر النخعي كان من الشجعان المعدودين، حارب عبيد الله بن زياد وهو في أربعة آلاف، وعبيد الله في سبعين ألفاً، فظهر به وقتله بيده وهزم جيشه. **عبد الله بن الحر الجعفي**، شجاع شاعر فاتك له وقائع عظيمة هائلة، وأخباره في الشجاعة مشهورة.

جحدر بن ربيعة العكلي، كان بطلاً شجاعاً فاتكاً مغيراً شاعراً، قهر أهل اليمامة، وأبادهم، فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف، فكتب إلى عامله يوبخه بتغلب جحدر عليه، ويأمر بالتجرد له حتى يقتله، أو يحمله إليه أسيراً، فوجّه العامل إليه فتية من بني حنظلة، وجعل لهم جعلاً عظيماً إن

(١) أي تتهمينني بقلة الحياء.

هم قتلوا جحدراً أو أتوا به أسيراً، فتوجه الفتية في طلبه حتى إذا كانوا قريباً منه أرسلوا يقولون له أنهم يريدون الانقطاع إليه والارتفاق به، فوثق بذلك منهم، وسكن إلى قولهم، فبينما هو معهم يوماً إذ وثبوا عليه فشدوه وثاقاً، وقدموا به على العامل، فوجه به إلى الحجاج معهم، فلما قدموا به عليه ومثل بين يديه قال له: أنت جحدر؟ قال: نعم، أصلح الله الأمير. قال: ما جرأك علي ما بلغني عنك؟ قال: أصلح الله الأمير: كَلَبُ الزمان[1]، وجفوة السلطان وجرأة الجنان. قال: وما بلغ من أمرك؟ قال: لو ابتلاني[2] الأمير، وجعلني مع الفرسان لرأى مني ما يعجبه، قال: فتعجب الحجاج من ثبات عقله، ومنطقه، ثم قال: يا جحدر إني قاذف بك في حاجر فيه أسد عظيم، فإن قتلك كفانا مؤنتك، وإن قتلته عفونا عنك. قال: أصلح الله الأمير قَرُبَ الفرج إن شاء الله تعالى، فأمر به، فصفدوه بالحديد، ثم كتب إلى عامله أن يرتاد له أسداً ويحمله إليه، فتحيل العامل وارتاد له أسداً كان كاسراً خبيثاً قد أفنى عامة المواشي، فتحيلوا حتى أخذوه وصيروه في تابوت وسحبوه على عجل، فلما قدموا به على الحجاج أمر به فألقي في الحاجر ولم يطعم شيئاً ثلاثة أيام حتى جاع واستكلب، ثم أمر بجحدر أن ينزلوه إليه، فأعطوه سيفاً وأنزلوه إليه مقيداً، وأشرف الحجاج والناس حوله ينظرون إلى الأسد ما هو صانع بجحدر، فلما نظر الأسد إلى جحدر نهض ووثب وتمطّى وزعق زعقة دويت منها الجبال، وارتاعت أهل الأرض، فشد عليه جحدر، وهو ينشد ويقول:

ليثٌ وليثٌ في مجالٍ ضنكِ
كلاهما ذو قوةٍ وسفك
وصولةٍ وبطشةٍ وفتكِ
إن يكشف الله قناع الشكْ
فأنت لي في قبضتي وملكي

ثم دنا منه وضربه بسيفه ففلق هامته، فكبّر الناس وأعجب الحجاج ذلك، وقال: لله درك ما أنجبك، ثم أمر به، فأخرج من الحاجر وفك عنه قيوده وقال له: اختر إما أن تقيم معنا فنكرمك، ونقرب من منزلتك وإما أن نأذن لك، فتلحق ببلادك وأهلك على أن تضمن لنا أن لا تحدث بها حدثاً، ولا تؤذي بها أحداً، قال: بل أختار

(١) كَلَبُ الزمان أي الفقر والحاجة.
(٢) أي لو جرّبني.

صحبتك أيها الأمير، فجعله من سمّاره وخواصه، ثم لم يلبث أن ولاه على اليمامة. وكان من أمره ما كان.

المهلب بن أبي صفرة كان من الشجعان، ومن الأبطال المعدودة، وأولاده كلهم أنجاد أبطال إلا أن المغيرة من بينهم كان أشد تمكناً، وكان المهلب يقول: ما شهد معي المغيرة حرباً إلا رأيت البشرى في وجهه. وحمل عليه بعض الشجعان، وفي يديه شجرة، فلما رآها نكس رأسه على قربوس السرج، وحمل من تحتها فبراها بسيفه. وكان المهلب يقول: أشجع الناس ثلاثة: ابن الكلبية[1]، وأحمر قريش، وراكب البغلة، فابن الكلبية[1] مصعب بن الزبير، وأحمر قريش عمر بن عبيد الله بن معمر ما لقي خيلاً قط إلا فرّقها. وراكب البغلة عباد بن الحصين ما كان قط في كربة إلا فرجها وهو من الإسلام. وكان للمهلب في الحروب مكايد مشهورة ووقائعه أبادت الخوارج بعد أن كانوا قد استولوا على المسلمين، وكان سيداً كريماً، مات حتف أنفه، وكذلك ابنه المغيرة، وفيه يقول زياد الأعجم:

مات المغيرة بعد طول تعرّض
للقتل بين أسنّةٍ وصفائحِ

وكان في الخوارج فوارس مشهورة لا تثبت لهم الرجال، وذكرهم يطول، ويخرج عما أردناه. فمنهم: **أبو بلال مرداس** خرج في أربعين فهزم ألفين. **وشبيب الخارجي** الذي غرق في الفرات، نذرت امرأته غزالة أن تصلي في جامع الكوفة ركعتين تقرأ في الأولى البقرة وفي الثانية آل عمران، فعبر بها جسر الفرات وأدخلها الجامع، ووقف على بابه يحميها حتى وفت بنذرها، والحجاج في الكوفة في خمسين ألفاً. **ومنهم قطري بن الفجاءة** كان رأس الخوارج، وخاطبوه بأمير المؤمنين، وعظموه وبجلوه، وأشعاره في الشجاعة تدل على مكانه منها، قُتل في بعض وقائع الخوارج.

(الطبقة الثالثة):

معن بن زائدة الشيباني قتله الخوارج بسجستان في أيام المهدي. **الوليد بن طريف الشيباني** قتله يزيد بن مزيد. **عمرو بن حنيف** كان من الفرسان المعدودة، نقل عنه أنه كان يتصيد، فتتبع حمار وحش وما زال يركض إلى أن حاذاه، فجمع رجليه ووثب من على فرسه وصار على ظهر حمار الوحش، وصار يحز عنقه بسيف أو سكين في يده حتى قتله.

(١) لأن أمه كانت من بني كلب.

أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي فارس بطل شاعر نديم جامع لما تفرق في غيره، طعن فارسين رديفين، فأنفذ الرمح من ظهريهما، وحمل برمحه أربعة نفر، وفيه يقول بكر بن النطاح:

قالوا وينظم فارسين بطعنة
يوم اللقاء ولا يراه جليلا

لا تعجبوا لو كان مدّ قناتِهِ
ميلاً إذا نظم الفوارس ميلا[1]

وسأله يوماً رجل شيئاً، فقال له: أتسأل وجَدُّك القائل:

ومن يفتقر منّا يعش بحسامِهِ
ومن يفتقر من سائر الناس يسألِ

وإنّا لنلهو بالسيوف كما لهتْ
فتاةٌ بعقدٍ أو سحاب قرنفلِ

فخرج الرجل، فجرد سيفه، فلم يصادفه في طريقه إلا وكيل لأبي دلف ومعه مال جزيل، فاستلبه منه وقتله، فبلغ الخبر أبا دلف فقال: دعوه، فإني علّمته على نفسي.

بكر بن النطاح بطل شجاع فارس فاتك له أشعار مشهورة، وأخبار مذكورة.

ومما جاء في مدح السيف:

قال رسول الله ﷺ: «الخير في السيف والخير مع السيف والخير بالسيف». وكان صمصام عمرو أشهر سيوف العرب، وممن تمثل به نهشل، فقال:

أخٌ ماجدٌ ما خانني يوم مشهدٍ
كما سيف عمروٍ لم تخنه مضاربُه

ولما وهبه عمرو لخالد بن سعيد بن العاص عامل رسول الله ﷺ على اليمن قال:

خليلي لم أخنه ولم يخنّي
إذا ما صاب أوساط العظامِ

خليلي لم أهَبْهُ من قِلاهُ
ولكنّ المواهب للكرامِ

حبوت به كريماً من قريشٍ
فسُرّ به وصِينَ عن اللئامِ

وودّعت الصّفِيّ صَفِيّ نفسي
على الصمصام أضعاف السلامِ

(١) أي كان شكهم جيماً في رمحه كأنه سفود وهم فيه كقطع اللحم.

ولم يزل في آل سعيد حتى اشتراه خالد بن عبد الله القسري بمال جزيل لهشام، وكان قد كتب إليه فيه، فلم يزل عند بني مروان، ثم طلبه السفاح والمنصور والمهدي، فلم يجدوه، فجد الهادي في طلبه حتى ظفر به، وكان مكتوباً عليه هذا البيت:

ذكرٌ على ذكرٍ يصول بصارمٍ
ذكرٌ يمانٍ في يمين يماني

وقال ابن الرومي:

لم أر شيئاً حاضراً نفعه
للمرء كالدرهم والسيفِ[1]
يقضي له الدرهم حاجاته
والسيف يحميه من الحيفِ[2]

وقال زيد بن علي رضي الله عنهما:

السيف يعرفُ عزمي عند هزَّته
والرمح بي خبرٌ والله لي وَزَرْ[3]
إنا لنأمل ما كانت أوائلنا
من قبلُ تأمله إن ساعد القدر

وقال عبد الله بن طاهر:

يبيت ضجيعي السيف طوراً وتارةً
يعض بهامات الرجال مضاربه
أخو ثقةٍ أرضاهُ في الروع صاحباً
وفوق رضاه إنني أنا صاحبه
وليس أخو العَلياء إلا فتىً له
بها كلفٌ ما تستقر ركائبه

وقدم عروة بن الزبير على عبد الملك بن مروان بعد قتل أخيه عبد الله، فطلب منه سيف الزبير، وقال له: رده عليَّ، فإنه السيف الذي أعطاه رسول الله ﷺ له يوم حنين، فقال له عبد الملك: أوَتعرفه؟ قال: نعم. قال: بماذا؟ قال: أعرفه بما لا تعرف به سيف أبيك[4]. أعرفه بقول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بهنّ فلولٌ من قراع الكتائبِ[1]

وقال الأجدع الهمداني:

لقد علمت نسوان همدان أنني
لهنّ غداة الروع غيرُ خذولِ
وأبذل في الهيجاء وجهي وإنني
له في سوى الهيجاء غيرُ بذولِ

وقال آخر:

عشرون ألف فتىً ما منهم أحدٌ
إلا كألف فتى مقدامة بطلِ
راحت مزاودهم مملوءةً أملاً
ففرّغوها وأوكوها من الأجلِ[2]

ومن أخبار الشجعان ما حكاه الفضل بن يزيد:

قال: نزل علينا بنو ثعلب في بعض السنين، وكنت مشغوفاً بأخبار العرب أن أسمعها وأجمعها، فبينما أنا أدور في بعض أحيائهم إذا أنا بامرأة واقفة في فناء خبائها، وهي آخذة بيد غلام قلّما رأيت مثله في حسنه وجماله، له ذؤابتان كالسبج[3] المنظوم، وهي تعاتبه بلسان رطب وكلام عذب تحن إليه الأسماع وترتاح له القلوب، وأكثر ما أسمع منها أي بني، وهو يبتسم في وجهها قد غلب عليه الحياء والخجل، كأنه جارية بكر لا يرد جواباً. فاستحسنت ما رأيت، واستحليت ما سمعت، فدنوت منه وسلمت، فرد عليَّ السلام، فوقفت أنظر إليها.

فقالت: يا حضري ما حاجتك؟ **فقلت:** الاستكثار مما أسمع والاستمتاع بما أرى من هذا الغلام.

فقالت يا حضري: إن شئت سقت إليك من خبره ما هو أحسن من منظره. **فقلت:** قد شئت يرحمك الله. **فقالت:** حملته والرزق عسر، والعيش نكد حملاً خفيفاً حتى مضت له تسعة أشهر، وشاء الله عز وجل أن أضعه، فوضعته خلقاً سوياً، فوربك ما هو إلا أن صار ثالث أبويه حتى أفضل الله عز وجل، وأعطى وأتى من الرزق بما كفى وأغنى، ثم أرضعته حولين كاملين، فلما استتم الرضاع نقلته من خرق المهد إلى فراش أبيه، فربي كأنه شبل أسدٍ أقيه برد الشتاء، وحر الهجير، حتى إذا مضت له خمس

---

(١) لأن نفعهما فوري، هذا يدفعه فيشتري ما يريد وهذا يقاتل به فيدفع عدواً أو يقتله.
(٢) الحيف: الظلم.
(٣) والله لي وزر: والله يشد أزري.
(٤) أي به علامات ليست في سيف أبيك وسيذكر هذه العلامات في الشعر بعده.

---

(١) أي به ثلمات لكثرة استعماله في القتال.
(٢) أوكوها: ربطوها.
(٣) السبج: الخرز الأسود.

سنين أسلمته إلى المؤدب، فحفّظه القرآن، فتلاه، وعلّمه الشعر فرواه، ورغب في مفاخر قومه وآبائه وأجداده، فلما أن بلغ الحلم واشتد عظمه وكمل خلقه حملته على عتاق الخيل فتفرّس[1] وتمرّس[2] ولبس السلاح ومشى بين بويتات الحي الخيلاء، فأخذ في قرى الضيف وإطعام الطعام، وأنا عليه وجلة أشفق عليه من العيون أن تصيبه، فاتفق أن نزلنا بمنهل[3] من المناهل بين أحياء العرب، فخرج فتيان الحي في طلب ثأر لهم، وشاء الله تعالى أن أصابته وعكة شغلته عن الخروج، حتى إذا أمعن القوم، ولم يبق في الحي غيره، ونحن آمنون وادعون، ما هو إلا أن أدبر الليل وأسفر الصباح حتى طلعت علينا غرر الجياد وطلائع العدو، فما هو إلا هنيهة حتى أحرزوا الأموال دون أهلها، وهو يسألني عن الصوت، وأنا أستر عنه الخبر إشفاقاً عليه وضناً به، حتى إذا علت الأصوات وبرزت المخدرات[4] رمى دثاره[5] وثار كما يثور الأسد، وأمر بإسراج فرسه، ولبس لأمة حربه، وأخذ رمحه بيده ولحق حماة القوم، فطعن أدناهم منه فرمى به، ولحق أبعدهم منه فقتله، فانصرفت وجوه الفرسان، فرأوه صبياً صغيراً لا مدد وراءه فحملوا عليه، فأقبل يؤم البيوت. ونحن ندعو الله عز وجل له بالسلامة، حتى إذا مدّهم وراءه وامتدوا في أثره عطف عليهم، ففرق شملهم وشتت جمعهم، وقلل كثرتهم ومزقهم كل ممزق، ومرق كما يمرق السهم، وناداهم: خلوا عن المال، فوالله لا رجعت إلا به، أو لأهلكن دونه، فانصرفت إليه الأقران، وتمايلت نحوه الفرسان، وتميزت له الفتيان، وحملوا عليه وقد رفعوا إليه الأسنة، وعطفوا عليه بالأعنة، فوثب عليهم وهو يهدر كما يهدر الفحل من وراء الإبل، وجعل لا يحمل على ناحية إلا حطمها، ولا كتيبة إلا مزقها حتى لم يبق من القوم إلا من نجا به فرسه، ثم ساق المال، وأقبل به، فكبّر القوم عند رؤيته، وفرح الناس بسلامته، فوالله ما رأينا قط يوماً كان أسمح صباحاً وأحسن رواحاً من ذلك اليوم، ولقد سمعته يقول في وجوه فتيان الحي هذه الأبيات:

(١) تفرّس: صار فارساً.

(٢) تمرس: صار من ذري المراس والجَلَد والقدرة على القتال.

(٣) المنهل: مكان استقاء الماء، كبئر أو بركة في واحة.

(٤) المخدرات: النساء في الخدور. والخدر: البيت والمخدرة: المرأة الحرة المصانة في دارها لا تخرج لبيع أو شراء أو حاجة.

(٥) الدثار: ما يلبس فوق الثياب.

تأمّلن فعلي هل رأيتُنّ مثلَهُ
إذا حشرجت نفس الجبان من الكرب[1]
وضاقت عليه الأرض حتى كأنه
من الخوف مسلوب العزيمة والقلب
ألم أعطِ كلاً حقه ونصيبه
من السمهري اللدن والمرهف العضب[2]
أنا ابن أبي هند بن قيس بن مالك
سليل المعالي والمكارم والسَّيْبِ[3]
أبى لي أن أعطي الظلامة مرهفٌ
وطرفٌ قويُّ الظهر والجوف والجنب
وعزمٌ صحيحٌ لو ضربت بحدّه الـ
ـجبال الرواسي لانحطَطْن إلى الترب
وعرضٌ نقي أتّقي أن أعيبه
وبيتٌ شريفٌ في ذرى ثعلب الغلب
فإن لم أقاتل دونكنّ وأحتمي
لكنْ وأحميكنّ بالطعن والضرب
فلا صدّق اللاتي مشين إلى أبي
يهنّئنه بالفارس البطل الندب[4]

وقال الشاعر:

آراؤهم ووجوههم وسيوفهم
في الحادثات إذا دجون نجوم[5]
منها معالم للهدى ومصابح
تجلو الدجى والأخريات رجوم[6]

وقال آخر:

فوارسُ قوّالون للخيل أقْدِمي
وليس على غير الرؤوس مجال
بأيديهِمُ سمرُ العوالي كأنما
تشيب على أطرافهن ذُبال

وقال آخر:

قومٌ إذا اقتحموا العجاج رأيتهم
شمساً وخلت وجوههم أقمارا

(١) حشرجت نفس الجبان: سمع لابتلاع ريقه صوت لشدة خوفه.

(٢) السمهري: الرمح، العضب: القاطع وهي من صفات السيف.

(٣) السيب: الكرم.

(٤) البطل الندب: الذي ينتدبونه للقتال والدفاع عنهم.

(٥) دجون: أظلمن، ودجت الخطوب: اشتدت.

(٦) رجوم: توقعات ورجم بالغيب.

لا يعدلون برفدهم عن سائلٍ
عَدَلَ الزمانُ عليهم أو جَارا
وإذا الصريخ دعاهم لملمّةٍ
بذلوا النفوس وفارقوا الأعمارا[1]

ذكر الجبن والجبناء وأخبارهم وما جاء عنهم

قد استعاذ سيدنا رسول الله ﷺ من الجبن، فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال». نعوذ بالله مما استعاذ منه سيد الخلق رسول الله ﷺ ويكفيك أن يقال في وصف الجبان، إن أحس بعصفور طار فؤاده، وإن طنت بعوضة طال سهاده، يفزع من صرير الباب، ويقلق من طنين الذباب، إن نُظِرَ إليه شزراً أغمي عليه شهراً يحسب خفوق الرياح قعقعة الرماح، قال الشاعر:

إذا صوّت العصفورُ طارَ فؤادُهُ
وليثٌ حديدُ النابِ عند الثرائد[2]

وكان حسان بن ثابت رضي الله عنه من الجبناء، روي عن ابن الزبير أنه قال: كان حسان في قاع أُطُم[3] مع النساء يوم الخندق، فأتاهم في ذلك اليوم يهوديٌ يطوف بالحصن، فقالت صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها: يا حسان إن هذا اليهودي كما ترى يطوف بالحصن، وإني والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءه من اليهود، فأنزل إليه فاقتله. فقال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب، لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قال: فاعتجرت صفية[4]، ثم أخذت عموداً ونزلت من الحصن، فضربته بالعمود حتى قتلته، ورجعت إلى الحصن، فقالت: يا حسان قم إليه فاسلبه، فإنه ما منعني من سلبه إلا أنه رجل، فقال: ما لي بسلبه من حاجة.

وقيل: كان لفتى من قريش جارية مليحة الوجه حسنة الأدب، وكان يحبها حباً شديداً، فأصابته إضاقة وفاقة، فاحتاج إلى ثمنها، فحملها إلى العراق، وكان ذلك في زمن الحجاج بن يوسف، فابتاعها منه الحجاج فوقعت منه بمنزلة، فقدم عليه فتى من ثقيف من أقاربه، فأنزله قريباً منه، وأحسن إليه، فدخل على الحجاج، والجارية تكبسه[5]، وكان الفتى جميلاً، فجعلت الجارية تسارقه النظر، ففطن الحجاج بها، فوهبها له، فأخذها وانصرف، فباتت معه ليلتها وهربت بغلس فأصبح لا يدري أين هي، وبلغ الحجاج ذلك، فأمر منادياً أن ينادي برئت الذمة ممن رأى وصيفة من صفتها كذا وكذا، أوَ لم يحضرها، فلم يلبث أن أُتي له بها، فقال لها الحجاج: يا عدوة الله كنت عندي من أحب الناس إليّ، فاخترت ابن عمي شاباً حسن الوجه، ورأيتك تسارقينه النظر، فعلمت أنك شغفت به، فوهبتك له، فهربت من ليلتك.

فقالت: يا سيدي، اسمع قصتي، ثم اصنع بي ما شئت. قال: هاتي ولا تخفي شيئاً. قالت: كنت للفتى القرشي، فاحتاج إلى ثمني، فحملني إلى الكوفة، فلما قربنا منها دنا مني فوقع عليّ، فسمع زئير الأسد، فوثب واخترط سيفه وحمل عليه، وضربه، فقتله، وأتى برأسه، ثم أقبل عليّ وما برد ما عنده، ثم قضى حاجته، وإن ابن عمك هذا الذي اخترته لي لما أظلم الليل قام إليّ، فلما علا بطني وقعت فأرة من السقف، فضرط، ثم غشي عليه، فمكث زماناً طويلاً وأنا أرش عليه الماء، وهو لا يفيق، فخفت أن يموت، فتتهمني به، فهربت فزعاً منك. فما ملك الحجاج نفسه من شدة الضحك، وقال: ويحك اكتمي هذا ولا تعلمي به أحداً. قالت: على أن لا تردني إليه. قال: لك ذلك.

وحدّث جار لأبي حنيفة النميري قال: كان لأبي حنيفة سيف ليس بينه وبين العصا فرق، وكان يسميه لُعَاب المنية، فأشرفت عليه ذات ليلة وقد انتضاه، وهو واقف على باب بيته، وقد سمع حساً في داره، وهو يقول: أيها المغتر بنا المجترىء علينا، بئس والله ما اخترت لنفسك خير قليل، وسيف صقيل، وهو لعاب المنية الذي سمعت به. أخرج بالعفو عنك قبل أن أدخل بالعقوبة عليك، ثم فتح الباب على وجل، فإذا كلب قد خرج، فقال: الحمد لله الذي مسخك كلباً وكفانا حرباً.

وخرج المعتصم يوماً إلى بعض متصيداته، فظهر له أسد، فقال لرجل من أصحابه أعجبه قوامه وسلاحه وتمام خلقه. أفيك خير يا رجل؟ قال: لا، فضحك المعتصم، وقال: قَبَّحَ الله الجبان.

(١) فارقوا الأعمار: لم يأبهوا للموت.
(٢) حديد الناب: شديد النهم عند الأكل، والثرائد: ج ثريدة وهي طعام يتخذ من خبز يثرد في المرق واللحم ويثرد: يكسر ويجعل في المرق حتى يصير طرياً ويتشبع من المرق.
(٣) الأطم: برج صغير من لِبْنٍ غير مشوي.
(٤) اعتجرت: لفت رأسها ووجهها بوشاحها كي لا تعرف.

(١) تكبسه: تُدَلِّك رجليه.

ورأى الإسكندر سَمِيّاً له لا يزال ينهزم، فقال له يا رجل: إما أن تغير فعلك، وإما أن تغير إسمك.

ووقع في بعض العساكر ضجة، فوثب خراساني إلى دابته ليلجمها، فصيّر اللجام في الذنب من الدهش، وقال يخاطب الفرس: هب جبهتك عرضت، فناصيتك كيف طالت.

وخرج أسلم بن زرعة الكلابي في ألفين لمحاربة أبي بلال مرداس، وكان مرداس في أربعين، فانهزم أسلم منه، فلاموه على ذلك، وذمه ابن أبي زياد، فقال: لأن يذمني ابن أبي زياد حياً أحب إليّ من أن يمدحني ميتاً. وكان أسلم بعد ذلك إذا خرج إلى السوق ومر بصبيان صاحوا به أبو بلال وراءك، فكبر ذلك عليه، فشكاهم إلى ابن أبي زياد، فأمر صاحب الشرطة أن يكفهم عنه. وفي ذلك يقول بعضهم شعراً:

يقول جبانُ القومِ في حال سكرِه
وقد شرب الصهباء هل من مبارزِ
وأين الخيول الأعوجيات في الوغى
أنازل منهم كلّ ليثٍ مناهز[1]
ففي السكر قيسٌ وابن معدي وعامر
وفي الصحو تلقاه كبعض العجائزِ

هذا ما انتهى إلينا من هذا الباب، والحمد لله الكريم الوهاب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطاهرين، والحمد لله رب العالمين.

الباب الثاني والأربعون

في المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة

وفيه فصول

الفصل الأول

في المــــدح والثنــــاء

المدح وصف الممدوح بأخلاق يمدح عليها صاحبها، يكون نعتاً حميداً، وهذا يصح من المولى في حق عبده، فقد قال الله تعالى في حق نبيه أيوب عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[1]. وقال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾[2] وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝﴾[3]. إلى آخر الآية، فعلى هذا يجوز مدح الإنسان بما فيه من الأخلاق الحميدة. وأما قوله ﷺ: «إذا رأيتم المادحين فاحثوا في وجوههم التراب»[4]! فقد قال العتبي: هو المدح الباطل والكذب، وأما مدح الرجل بما فيه فلا بأس به.

وقد مدح أبو طالب والعباس وحسان وكعب وغيرهم رسول الله ﷺ ولم يبلغنا أنه حثا في وجه مادح تراباً، وقد مدح هو ﷺ المهاجرين والأنصار رضي الله عنه.

وفي حثو التراب معنيان: أحدهما التغليظ في الرد عليه، والثاني كأنه يقال له: بِكَفَّيْكَ التراب. وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا مدح قال: اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يحسبون، واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون.

ومدح سارية الديلي رسول الله ﷺ وهو سارية الذي أمره عمر رضي الله عنه على السرية، وناداه في خطبته بقوله: يا سارية الجبل، فمن مدحه في رسول الله ﷺ قوله:

فما حملت من ناقةٍ فوق ظهرها
أبر وأوفى ذمةً من محمد

وهو أصدق بيت قالته العرب.

ومن أحسن ما مدحه به حسان رضي الله عنه قوله:

وأحسن منك لم تر قطُّ عيني
وأجمل منك لم تلد النساءُ
خلقت مبرأً من كل عيبٍ
كأنك قد خلقت كما تشاءُ

ومن أحسن ما مدحه به عبد الله بن رواحة الأنصاري رضي الله عنه قوله:

لو لم تكن فيه آياتٌ مبيّنةٌ
كانت بديهته تنبيك بالخبر

---

(١) الخيول الأعوجيات: نوع من أفضل الخيول. مناهز: مقاتل.

(١) سورة صٓ، الآية (٤٤).
(٢) سورة القلم، الآية (٤).
(٣) سورة المؤمنون، الآيتان (١ ـ ٢).
(٤) احثوا التراب: خذوه بقبضاتكم وأرموه.

ولما حججت وزرته ﷺ، تطفلت على جنابه المعظم وامتدحته بأبيات مطولة، وأنشدتها بين يديه بالحجرة الشريفة تجاه الصندوق الشريف وأنا مكشوف الرأس، وأبكي من جملتها:

يا سيد السادات جئتك قاصداً
أرجو رضاك وأحتمي بحماكا
والله يا خير الخلائق إنّ لي
قلباً مشوقاً لا يروم سواكا
وَوَحقِ جاهك إنني بك مغرم
والله يعلم إنني أهواكا
أنت الذي لولاك ما خُلقَ امرؤ
كلاً ولا خُلقَ الورى لولاكا
أنت الذي من نورك البدر اكتسى
والشمس مشرقةٌ بنور بهاكا
أنت الذي لمّا رفعت إلى السما
بك قد سمت وتزينت لسُرَاكا[١]
أنت الذي ناداك ربك مرحباً
ولقد دعاك لقربه وحباكا[٢]
أنت الذي فينا سألت شفاعةً
ناداك ربك لم تكن لسواكا
أنت الذي لمّا توسل آدمٌ
من ذنبه بك فاز وَهْوَ أباكَ
وبك الخليل دعا فعادت ناره
برداً وقد خمدت بنور سناكا[٣]
ودعاك أيوبٌ لضر مسّه
فأزيل عنه الضر حين دعاكا
وبك المسيح أتى بشيراً مخبراً
بصفات حسنك مادحاً لعلاكا
وكذاك موسى لم يزل متوسّلاً
بك في القيامة مرتجٍ لنداكا
والأنبياء وكلُّ خلقٍ في الورى
والرسل والأملاك تحت لواكا
لك معجزات أعجزت كل الورى
وفضائل جُلّت فليس تحاكى[٤]

(١) السرى: المسير ليلاً.
(٢) حباك: وهبك وأعطاك.
(٣) سناك: ضياؤك وبهاؤك.
(٤) تحاكى: تقلد أو يؤتى بمثلها.

نطق الذراع بسمّهِ لك معلناً
والضب قد لبّاك حين أتاكا
والذئب جاءك والغزالة قد أتت
بك تستجير وتحتمي بحماكا
وكذا الوحوش أتت إليك وسلّمت
وشكا البعير إليك حين رآكا
ودعوت أشجاراً أتتك مطيعةً
وسعت إليك مجيبةً لنداكا
والماء فاض براحتيك وسبّحت
صُمُّ الحصى بالفضل في يمناكا
وعليك ظلّلت الغمامة في الورى
والجذع حنّ إلى كريم لقاكا[١]
وكذاك لا أثرٌ لمشيك في الثرى
والصخر قد غاصت به قدماكا
وشفيت ذا العاهات من أمراضه
وملأت كلّ الأرض من جدواكا[٢]
ورددت عين قتادةٍ بعد العمى
وابن الحصين شفيته بشفاكا
وكذا حبيبٌ وابن عفرا عندما
جرحا شفيتهما بلمس يداكا
وعلي من رمدٍ به داويته
في خيبر فشفي بطيب لماكا[٣]
وسألت ربّك في ابن جابر بعدما
قد مات أحياه وقد أرضاكا
ومسست شاةً لأمّ معبد بعدما
نشفت فدرّت من شفا رقياكا
ودعوت عام المحل ربّك معلناً
فانهلّ قطر السحب عند دعاكا
ودعوت كلّ الخلق فانقادوا إلى
دعواك طوعاً سامعين نداكا
وخفضت دين الكفر يا علم الهدى
ورفعت دينك فاستقام هناكا

(١) هو الجذع الذي كان يستند إليه في المسجد النبوي وقد حنّ حنين الناقة إلى ولدها وسُمعَ له صوت حين اتخذ الرسول ﷺ المنبر وترك الاستناد إليه.
(٢) جدواك: كرمك.
(٣) اللمى: الريق.

أعداك عادوا في القليب بجهلهم
صرعى وقد حرموا الرضا بجفاكا[1]

في يوم بدرٍ قد أتتك ملائكٌ
من عند ربك قاتلت أعداكا

والفتح جاءك يوم فتحك مكةً
والنصرُ في الأحزاب قد وافاكا

هودٌ ويونس من بهاك تجمّلاً
وجمال يوسف من ضياء سناكا

قد فُقْتَ يا طه جميع الأنبيا
نوراً فسبحان الذي سوّاكا

والله يا ياسين مثلك لم يكن
في العالمين وحق من نبّاكا[2]

عن وصفك الشعراء يا مُدثرٌ
عجزوا وكلّوا عن صفات علاكا[3]

إنجيل عيسى قد أتى بك مخبراً
وأتى الكتاب لنا بمدح حلاكا

ماذا يقول المادحون وما عسى
أن يجمع الكتّاب من معناكا

والله لو أنَّ البحار مدادهم
والعشب أقلامٌ جعلن لذاكا

لم تقدر الثقلان تجمع ذرةً
أبداً وما استطاعوا له إدراكا

لي فيك قلبٌ مغرمٌ يا سيدي
وحشاشةٌ محشوةٌ بهواكا

فإذا سكتُّ ففيك صمتي كُلّهُ
وإذا نطقت فمادحٌ علياكا

وإذا سمعت فعنك قولاً طيباً
وإذا نظرت فلا أرى إلاكا

يا مالكي كن شافعي من فاقتي
إني فقيرٌ في الورى لغناكا

يا أكرم الثقلين يا كنز الورى
جُدْ لي بجودك وارضني برضاكا

أنا طامعٌ في الجود منك ولم يكن
لابن الخطيب من الأنام سواكا

فعساك تشفع فيه عند حسابه
فلقد غدا مستمسكاً بعراكا[1]

ولأنت أكرم شافعٍ ومشفعٍ
ومن التجا لحماك نال وفاكا

فاجعل قِرَاي شفاعةً لي في غدٍ
فعسى أرَى في الحشر تحت لواكا

صلّى عليك الله يا خيرَ الورى
ما حنّ مشتاقٌ إلى مثواكا

وعلى صحابتك الكرام جميعهم
والتابعين وكل من والاكا

وماذا عسى أن يقول المادحون في وصف من مدحه الله تعالى وأثنى عليه، وقد قال ﷺ: **«أنا سيد ولد آدم، ولا فخر»**، والله لو أن البحار مداد، والأشجار أقلام، وجميع الخلائق كُتّاب لما استطاعوا أن يجمعوا النزر اليسير من بعض صفاته، ولكلّوا عن الإتيان ببعض بعض وصف معجزاته ﷺ.

ومدح رجل هشام بن عبد الملك، فقال له: يا هذا إنه قد نهي عن مدح الرجل في وجهه، فقال: ما مدحتك، ولكن ذَكَّرْتُكَ نِعَمَ الله عليك لتجدد لها شكراً، فقال له هشام: هذا أحسن من المدح، ووصله وأكرمه.

وكتب رجل إلى عبد الله بن يحيى بن خاقان: رأيت نفسي فيما أتعاطى من مدحك كالمخبر عن ضوء النهار الباهر، والقمر الزاهر، وأيقنت أني حيث انتهي من القول منسوب إلى العجز مقصر عن الغاية، فانصرفت عن الثناء عليك إلى الدعاء لك، ووكلت الإخبار عنك إلى علم الناس بك.

وقال الحارث بن ربيعة في رجل من آل المهلب:

فتىً دهرُهُ شطران فيما ينوبه
ففي بأسه شطرٌ وفي جوده شطرُ

فلا مِنْ بُغاةِ الخير في عينه قذىً
ولا من زئير الحرب في أذنه وَقْرُ[2]

وقال أعرابي لرجل: لا يُذَمُّ بلد أنت تأويه، ولا يُشْتَكى زمان أنت فيه. **وكان الحجاج** يستثقل زياد بن عمرو العكلي، فلما قدم على عبد الملك بن مروان قال: يا أمير

---

(١) القليب: البئر.
(٢) نبّاك: نبّأك: أي جعلك نبياً.
(٣) المدثر: الملتف بدثاره.

(١) العرى: ج عروة وهي العقدة في الحبل والرسول ﷺ هو العروة الوثقى من تمسّك بها نجا ومن تركها هلك.
(٢) الوقر: ضعف السمع وثقله.

فـإذا ولّـى أبـو دلـف
ولت الدنيا على أثره

فبكى أبو دلف حتى جرت دموعه، فقال له معقل: ما لك يا أخي تبكي؟ فقال: لأني لم أقض حق الذي قال هذا. قال: أوَلم تعطه مائة ألف درهم؟ قال: والله ما في نفسي حسرة إلا لكوني لم أعطه مائة ألف دينار. ويقال: هذه المدحة، فأين المنحة؟

قال بعضهم:

إذا ما المدح صار بلا نوالِ
من الممدوح كان هو الهجاءُ

وامتدح محمد بن سلطان المعروف بابن جيوش، محمد بن نصر صاحب حلب، فأجازه بألف دينار، ثم مات محمد بن نصر، وقام ولده نصر مقامه، فقصده محمد بن سلطان بقصيدة مدحه بها منها:

تباعدت عنكم حرمةً لا زهادةً
وسرت إليكم حين مسَّنِيَ الضرُّ
فجاء أبو نصر بألف تصرّمت
وإني عليمٌ أنّ سيخلفها نصر

فلما فرغ من إنشادها، قال نصر: والله لو قال: سيضعفها نصر لأضعفتها له، وأعطاه ألف دينار في طبق فضة.

ومدح بعض الشعراء وقيل: هو البديع الهمداني إنساناً فقال:

يكاد يحكيه صَوْبُ الغيث منسكباً
لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا[1]
والدهر لو لم يخنْ والشمس لو نطقتْ
والليث لو لم يصدْ والبحر لو عذبا

وقال آخر:

أخو كرمٍ يفضي الورى من بساطه
إلى روض مجدٍ بالسماح مجوّد
وكم لجباه الراغبين لديه من
مجال سجود في مجالس جود

ويقال: فلان رفيق الجود ودخيله، وزميل الكرم ونزيله، وغرّة الدهر وتحجيله، مواهبه الأنواء، وصدره الدهناء. عونه موقوف على اللهيف، وغوثه مبذول للضعيف، يطفو جوده على موجوده، وهمته على قدرته، ينابيع الجود تتفجر من أنامله، وربيع السماح يضحك عن فواضله. إن طلبت كريماً في جوده مُتَّ قبل وجوده، أو ماجداً في أخلاقه مُتَّ ولم تلاقه[1]، باسل تعود الأقدام حيث تزل الأقدام، وشجاع يرى الإحجام عاراً لا تمحوه الأيام، له خلق لو مازج البحر لنفى ملوحته[2]. وصفّى كدورته. خلق كنسيم الأشجار على صفحات الأنهار، وأطيب من زمن الورد في الأيام، وأبهج من نور البدر في الظلام، خلق يجمع الأهواء المتفرقة على محبته ويؤلف الآراء المتشتتة في مودته، هو ملح الأرض إذا فسدت وعمارة الدنيا إذا خربت، يحل دقائق الأشكال، ويزيل جلائل الإشكال. البيان أصغر صفاته والبلاغة عنوان خطراته، كأنما أوحي التوفيق إلى صدره وحبس الصواب بين طبعه وفكره، فهو يبعث بالكلام ويقوده بألين زمام حتى كأن الألفاظ تتحاسد في التسابق إلى خواطره، والمعاني تتغاير في الامتثال لأوامره، يوجز فلا يخل ويطنب فلا يمل، كلامه يشتد مرة حتى تقول الصخر أو أيْبَس ويلين تارة حتى تقول الماء أو أسْلَس، فهو إذا أنشا وشّى وإذا عبّر جبّر، وإذا أوجز أعجز، تاهت به الأيام وباهت في يمينه الأقلام، له أدب لو تصور شخصاً لكان بالقلوب مختصاً.

قال الشاعر:

له خُلُقٌ على الأيام يصفو
كما تصفو على الزمن العقار[3]

وقال آخر:

لو كان يحوي الروض ناضر خُلقِهِ
ما كان يذبل نَوْرَه بشتائه[4]
أو قابل الأفلاك طالع سعده
ما صار نحسٌ في نجوم سمائه

وقال آخر:

---

(١) يحكيه: يشبهه، صوب الغيث: ماء المطر أي كان ماء المطر يشبهه لو كان المطر طلق المحيا كالممدوح ويمطر الذهب كما يعطي الممدوح.

(١) أي لا يوجد من يماثله في أخلاقه وكرمه ولذا تقضي عمرك في البحث عن مثيل له ولا تجده.
(٢) لشدة حلاوة أخلاقه وطباعه.
(٣) أي له خلق كلما زاد مَرُّ الأيام صار أصفى كما يزداد صفاء العقار أي الخمر بمرور الأيام.
(٤) نَوْرَه: زهره.

ووجهك بدرٌ في الغياهب مشرقٌ
وكفّك في شُهْبِ السنين غمامُ[1]

عجيبٌ لبدرٍ لا يزال أمامه
سحابٌ ولا يغشاه منه ظلام

وأعجب من هذا غمامٌ إذا سطا
تلظّى مكان البرق منه حسام

وقال الحسين بن مطير الأسدي:

له يوم بؤسٍ فيه للناس أبؤسٌ
ويوم نعيمٍ فيه للناس أنعمُ

فيمطر يوم الجود من كفّه الندى
ويمطرُ يوم البؤس من كفّه الدم

فلو أنّ يوم البؤس خلّى عقابه
على الناس لم يصبح على الأرض مجرم

ولو أنّ يوم الجود خلّى يمينه
عن المال لم يصبحْ على الأرض معدمُ

وللشيخ جمال الدين بن نباتة:

والله ما عجبي لقدرك إنه
قدرٌ على باغي مداه بعيد[2]

إلاّ لكونك لست تشكو وحشةً
في هذه الدنيا وأنت وحيد[3]

ولصفي الدين الحِلّي:

أثني فتثنيني صفاتك مظهراً
عيّاً وكم أعيتْ صفاتُكَ خاطبا

لو أنني والخلق جمعاً أَلسُنٌ
نثني عليك لما قضينا الواجبا

وللشيخ برهان الدين القيراطي:

أوصافكم تجري أحاديثها
مجرى النجوم الزُّهرِ في الأفقِ

كما أحاديثُ الندى عنكمُ
تسندها الركبانُ من طرقِ[4]

وللشيخ جمال الدين بن نباتة:

روت عنك أخبار المعالي محاسناً
كَفَتْ بلسان الحال عن ألسن الحمد

فوجهك عن بشرٍ وكفّك عن عطا
وخلقك عن نبلٍ ورأيك عن سعد

وقال غيره:

من زار بابك لم تبرحْ جوارحُهُ
تروي أحاديث ما أوليت من مننِ

فالعين عن قرةٍ والكفّ عن صلةٍ
والقلب عن جابرٍ والسمع عن حسن

ولأبي فراس بن حمدان:

لئن خُلِقَ الأنامُ لحب كأسٍ
ومزمارٍ وطنبور[1] وعودِ

فلم يخلق بنو حمدان إلاّ
لمجدٍ أو لبأسٍ أو لجود

وقال آخر:

إنّ الهِبَاتِ التي جاد الكرام بها
مطروقةٌ وندى كفّيك مبتكرٌ[2]

ما زلت تسبق حتى قال حاسدكمْ
له طريقٌ إلى العلياء مقتصر

ولمحمد بن مناذر في آل برمك:

أتانا بنو الأملاك من آل برمكٍ
فيا طيب أخبارٍ ويا حسنَ منظر

لهم رحلةٌ في كل عام إلى العدا
وأخرى إلى البيت العتيق المنوّرِ

إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقتْ
بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر

فما خُلِقت إلاّ لجود أكُفُّهُمْ
وأقدامُهُم إلاّ لسعي مطفّرِ

إذا رام يحيى الأمرَ ذُلّتْ صِعَابُهُ
وناهيك من داعٍ له ومدبّرِ

ولما عزل إبراهيم بن المنذر عن صدقات البصرة تلقاه مجنون وأنشد:

---

(١) شهب: ج شهباء، والسنة الشهباء: سنة القحط والجدب.

(٢) أي لا يقدر أحد على بلوغ مداه.

(٣) إذ ليس لك مثيل يؤنسك.

(٤) أي تروى عنكم من طرق عدة، أي برواية كثير من الناس وكل واحد خبره عن شخص مختلف.

(١) الطنبور هو الآلة المعروفة في أيامنا باسم «البُزُق».

(٢) أي طريقتهم في العطاء مماثلة لمن سبقهم وطريقتك جديدة لا مثيل لها.

المؤمنين، إن الحجاج سيفك الذي لا ينبو، وسهمك الذي لا يَطيش، وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم. فلم يكن بعد ذلك على قلب الحجاج أخَفُّ منه.

وقال رجل آخر: أنت بستان الدنيا، فقال له: وأنت النهر الذي يُسقى منه ذلك البستان. وقال رجل لأبي عمرو الزاهد صاحب كتاب الياقوتة في اللغة: أنت والله عين الدنيا، فقال له: وأنت والله نور تلك العين. وقال القاسم بن أمية بن أبي الصلت الثقفي:

قومٌ إذا نزل الغريبُ بدارهم
تركوه ربَّ صواهلٍ وقيانِ[1]

وإذا دعوتهم ليوم كريهةٍ
سدّوا شعاع الشمس بالفرسانِ

وقال أوس بن حاتم الطائي:

فإن تنكحي مارية الخير حاتماً
فما مثله فينا ولا في الأعاجم

فتىً لا يزال الدهر أكبر همّه
فِكاكُ أسيرٍ أو معونة غارم

وقال ابن حمدون في آل المهلب:

آل المهلب معشرٌ أمجادُ
ورثوا المكارمَ والوفاءَ فسادوا

شاد المهلب ما بنى آباؤه
وأتى بنوه ما بناه فشادوا

وكذاك من طابتْ مغارسُ نبته
وبنى له الآباء والأجداد

وكان الفرزدق هَجّاءَ لعمر بن هبيرة، فلما سجن ونقب له السجن وسار هو وبنوه تحت الأرض، قال الفرزدق:

ولما رأيت الأرض قد سدّ ظهرها
ولم يبقَ إلاّ بطنَها لك مخرجا

دعوت الذي ناداه يونس بعدما
ثوى في ثلاثِ مظلماتٍ ففرجا

فقال ابن هبيرة: ما رأيت أشرف من الفرزدق هجاني أميراً ومدحني أسيراً.

وقال سري بن عبد الرحمن الرفّاء في خالد بن حاتم:

يا واحدَ العرب الذي دانت له
قحطان قاطبةً وساد نزارا

إني لأرجو إن لقيتُك سالماً
أن لا أعالج بعدك الأسفارا[1]

وقال كعب بن مالك الأنصاري في آل هاشم:

يا آل هاشم الإله حباكم
ما ليس يبلغه اللسانُ المفصلُ

قومٌ لأصلهم السيادةُ كلّها
قدماً وفرعُهُمُ النبي المرسل

وقال الحسين بن دعبل الخزاعي:

ملكَ الأمور بجوده وحسامه
شرفاً يقود عدوّهُ بزمامه

فأطاع أمر الجود في أمواله
وأطاع أمر الله في أحكامه

وقال آخر:

يلقى السيوف بصدره وبنحره
ويقيم هامته مقامَ المغفر[2]

ويقول للطرف اصطبرْ لسني القنا
فعقرت ركن المجد إن لم تعقر[3]

وإذا تراءى شخص ضيفٍ مقبلٍ
متسربلٍ أثوابَ محلٍ أغبرِ

أومى إلى الكوماء هذا طارقٌ
نَحَرَتْنيَ الأعداء إن لم تنحرِ[4]

وقال شاعر بني تميم:

إذا لبسوا عمائمهم طووها
على كرمٍ وإن سفروا أناروا

يبيع ويشتري لهُمُ سواهمْ
ولكنْ بالطعان هُمُ تجارُ

إذا ما كنت جار بني تميم
فأنت لأكرم الثقلين جار

وقالت امرأة، من بني نمير، وقد حضرتها الوفاة، وأهلها مجتمعون: من ذا الذي يقول:

---

(١) الصواهل: الخيل، والقيان: الجواري. أي أغنوه بما أعطوه.

(١) أي أن تعطيني ما يكفيني فلا أحتاج بعدها للسفر إلى أي مكان أو إنسان طلباً لعطاء.
(٢) المغفر: الدرع.
(٣) الطرف: النظر، وسنا القنا: التماع شفرات الرماح والسيوف.
(٤) الكوماء: الناقة العظيمة السنام.

لعمري ما رماح بني نمير
بطائشة الصدور ولا قصار

قالوا: زياد الأعجم. قالت: أشهدكم أن له الثلث من مالي، وكان مالاً كثيراً.

وأثنى رجل على رجل، فقال: هو أفصح أهل زمانه إذا حدّث، وأحسنهم استماعاً إذا حُدّث وأمسكهم عن الملاحاة إذا خولف، يعطي صديقه النافلة ولا يسأله الفريضة، له نفس عن الفحشاء محصورة وعلى المعالي مقصورة كالذهب الإبريز الذي يعز كل أوان والشمس المنيرة التي لا تخفى بكل مكان، هو النجم المضيء للحيران، والمنهل البارد العذب للعطشان.

وقال الحسن بن هانيء(1):

إذا نحن أثنينا عليك بصالح
فأنت كما نثني وفوق الذي نثني
وإن جرتِ الألفاظ يوماً بمدحه
لغيرك إنساناً فأنت الذي نعني

وله في الفضل بن الربيع:

لقد نَزَلْتَ أبا العباس منزلةً
ما إن ترى خلفها الأبصار مطّرحا
وكلت بالدهر عيناً غير غافلة
بجود كفك تأسو كلَّ ما جرحا

وقال زياد الأعجم في محمد بن القاسم الثقفي:

إنَّ المنابر أصبحت مختالةً
بمحمد بن القاسم بن محمد
قادَ الجيوشَ لسبعَ عشرة حُجّةٍ
يا قرب سَوْرَةَ سُؤددٍ من مولد(2)

ومن بدائع مدائح المتنبي قوله:

ليت المدائحَ تستوفي مناقبه
فما كليبٌ وأهل الأعصر الأوَلِ
خذ ما تراه ودعْ شيئاً سمعت به
في طلعة البدر ما يغنيك عن زحلِ

(1) هو أبو نواس الشاعر المعروف.

(2) أي قاد الجيوش وهو في السابعة عشر من عمره، فسيره إلى المجد قريب من تاريخ مولده، وهو أصغر قائد عمراً فيما قرأنا، وقد فتح بلاداً وأهلك جيوشاً في عمر ما زال أمثاله فيه في المكتب يقرأون وفي الحي يلعبون.

وقد وجدت مكان القول ذا سعةٍ
فإن وجدت لساناً قائلاً فقل

ومدح أبو العتاهية عمرو بن العلاء، فأعطاه سبعين ألفاً وخلع عليه خلعاً سنية حتى أنه لم يستطع أن يقوم، فغار الشعراء منه، فجمعهم وقال: ياالله العجب ما أشد حسد بعضكم لبعض إن أحدكم يأتينا ليمدحنا فيتغزل في قصيدته بخمسين بيتاً، فما يبلغنا حتى يذهب رونق شعره، وقد تشبب أبو العتاهية بأبيات يسيرة ثم قال:

إني أمنتُ من الزمان وصرفِهِ
لما علِقْتُ من الأمير حبالا
لو يستطيع الناس من إجلاله
جعلوا له حرّ الوجوه نعالا
إن المطايا تشتكيك لأنها
قطعت إليك سباسباً ورمالا(1)
فإذا وردن بنا وردن خفائفاً
وإذا صدرن بنا صدرن ثقالا(2)

ووفد أبو نواس على الخصيب بمصر، فأذن له وعنده الشعراء، فأنشد الشعراء أشعارهم، فلما فرغوا قال أبو نواس: أنشد أيها الأمير قصيدة هي كعصا موسى تلقف ما صنعوا. قال: أنشدها، فأنشده قصيدته التي منها قوله:

إذا لم تزرْ أرضَ الخصيب ركابنا
فأي فتىً بعد الخصيب نزورُ
فتىً يشتري حسن الثناء بماله
ويعلم أن الدائراتِ تدورُ
فما فاته جودٌ ولا ضلّ دونه
ولكنْ يسيرُ الجودُ حيث يسيرُ

فاهتز الخصيب لها طرباً، وأمر له بألف دينار ووصيف ووصيفة.

وحكي: أن أبا دلف سار يوماً مع أخيه معقل، فرأيا امرأتين تتماشيان فقالت إحداهما للأخرى: هذا أبو دلف؟ قالت: نعم الذي يقول فيه الشاعر:

إنما الدنيا أبو دلفٍ
بين باديه ومحتضره(3)

(1) سباسباً ورمالاً: قفاراً وصحارى.

(2) وردن بنا خفائفاً: قدمن بنا وحملهن خفيف.
صدرن ثقالاً: رجعن بأحمال ثقيلة من عطاياك.

(3) البادي: ساكن البادية.
والمحتضر: ساكن الحاضرة أي المدينة.

ليت شعري أي قوم أجدبوا
فأغيثوا بك من بعد العجف[1]
نظر الله لهم من بيننا
وحرمناك بذنب قد سلف
يا أبا إسحاق سر في دِعَةٍ[2]
وامض مصحوباً فما منك خلف
إنما أنت ربيع باكرٌ
حيثما صرّفه الله انصرف

وقال آخر:

لو كان يقعد فوق الشمس وارتفعوا
قومٌ لقيل اقعدوا يا آل عباس
ثم ارتقوا في شعاع الشمس وارتفعوا
إلى السماء فأنتم سادة الناس

وللحسين بن مطير الأسدي في المهدي:

لو يعبدُ الناسُ يا مهدي أفضلهم
ما كان في الناس إلا أنت معبود
أضحت يمينك من جودٍ مصورةً
لا بل يمينك منها صوّر الجود
لو أنّ من نوره مثقال خردلةٍ
في السود طرّاً إذن لابيضت السود

وقال آخر:

أوليتني نعماً وفضلاً زائداً
وبررتني حتى رأيتك والدا[3]
أقسمت لو جاز السجود لمنعم
ما كنت إلا راكعاً لك ساجدا

وقال آخر:

ثناؤك في الدنيا من المسك أعطرُ
وحظك في الدنيا جزيلٌ مُوقَرُ[4]
وكفك بحرٌ والأنامل أنهرُ
رعى الله كفاً فيه بحرٌ وأنهرُ
أعيذك بالرحمن من كل حاسدٍ
فلا زالت الحساد تغبى وتصغر[5]

---

(١) العجف: الهزال الناتج عن الجوع والفقر.
(٢) دعة: أمن وسلام.
(٣) أحسنت إليّ إحسان الوالد لولده.
(٤) موقر: كثير، يقال: إبل موقرة: أي محملة بأحمال كبيرة.
(٥) تغبى: من الغباء وهو الضباب، أي تصبح غير مرئية، وتصغر: تحقر.

لساني قصيرٌ في مديحك سيدي
لأني فقيرٌ والفقير مقصّرُ

الفصل الثاني من هذا الباب

في شكر النعمة

أما الشكر الواجب على جميع الخلائق فشكر القلب، وهو أن يعلم العبد أن النعمة من الله عز وجل، وأن لا نعمة على الخلق من أهل السموات والأرض إلا وبدايتها من الله تعالى حتى يكون الشكر لله عن نفسك، وعن غيرك والدليل على أن الشكر محله القلب وهو المعرفة. قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[1]. أيقنوا أنها من الله.

وقيل: الشكر معرفة العجز عن الشكر وقد روي أن داود عليه السلام قال: إلهي كيف أشكرك وشكري لك نعمة من عندك، فأوحى الله تعالى إليه: الآن قد شكرتني. وفي هذا يقال الشكر على الشكر أتم الشكر.

ولمحمود الوراق:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة
عليّ له في مثلها يجب الشكرُ
فكيف بلوغُ الشكرِ إلاّ بفضله
وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مسّ بالسرّاء عمّ سرورها
وإن مسّ بالضراء أعقبها الأجر
فما منهما إلاّ له فيه نعمةٌ
تضيق بها الأوهام والسر والجهر

وفي مناجاة موسى عليه السلام: إلهي خلقت آدم بيدك، وفعلت وفعلت، فكيف أشكرك؟ فقال: إعلم إن ذلك مني، فكانت معرفته بذلك شكره لي. وأما شكر اللسان، فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾[2].

ويروى عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بالنعم شكر».

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: تذكروا النعم، فإن ذكرها شكر. وأما الشكر الذي في الجوارح، فقد قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾[3] الآية، فجعل العمل شكراً.

---

(١) سورة النحل، الآية (٥٣).
(٢) سورة الضحى، الآية (١١).
(٣) سورة سبأ، الآية (١٣).

وروي أن النبي ﷺ قام حتى تورمت قدماه، فقيل له: يا رسول الله: أتفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً لله شكوراً.

وقال أبو هارون: دخلت على أبي حازم، فقلت له: يرحمك الله ما شكر العينين: قال: إذا رأيت بهما خيراً ذكرته، وإذا رأيت بهما شراً سترته، قلت: فما شكر الأذنين؟ قال: إذا سمعت بهما خيراً حفظته، وإذا سمعت بهما شراً نَسَيْتَهُ.

وفي حكمة إدريس عليه الصلاة والسلام: لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نعمة بمثل الإنعام على خلقه ليكون صانعاً إلى الخلق مثل ما صنع الخالق إليه، فإذا أردت أن تحرس دوام النعمة من الله تعالى عليك، فأدم مواساة الفقراء. وقد وعد الله تعالى عباده بالزيادة على الشكر، فقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1]. وقد جعل لعباده علامة يعرف بها الشاكر، فمن لم يظهر عليه المزيد علمنا أنه لم يشكر، فإذا رأينا الغني يشكر الله تعالى بلسانه، وماله في نقصان علمنا أنه قد أخلّ بالشكر، إما أنه لا يزكي ماله أو يزكيه لغير أهله، أو يؤخره عن وقته، أو يمنع حقاً واجباً عليه من كسوة عريان، أو إطعام جائع أو شبه ذلك، فيدخل في قول النبي ﷺ: «لو صدق السائل ما أفلح من رده».

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2]. وإذا غيروا ما بهم من الطاعات غيّر الله ما بهم من الإحسان.

وقال بعض الحكماء من أعطي أربعاً لم يمنع من أربع، من أعطي الشكر لا يمنع المزيد، ومن أعطي التوبة لا يمنع القبول، ومن أعطي الاستخارة لم يمنع الخيرة، ومن أعطي المشورة لم يمنع الصواب.

وقال المغيرة بن شعبة: أشكر من أنعم عليك وأنعم على من شكرك، فإنه لا بقاء للنعم إذا كفرت، ولا زوال لها إذا شكرت.

وكان الحسن يقول: ابن آدم متى تنفك[3] من شكر النعمة وأنت مرتهن بها[4]، كلما شكرت نعمة تجد ذلك

(١) سورة إبراهيم، الآية (٧).
(٢) سورة الرعد، الآية (١١).
(٣) أي أن ما ترزقه من نعمة مرتبط بالشكر.
(٤) أي وأنت بحاجة لهذه النعمة.

بالشكر أعظم منها عليك، فأنت لا تنفك بالشكر من نعمة إلا إلى ما هو أعظم منها[1].

وروي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه دعي إلى أقوام ليأخذهم على ريبة، فافترقوا قبل أن يأخذهم عثمان، فأعتق رقبة شكراً لله تعالى إذ لم يجر على يديه فضيحة مسلم.

ويروى أن نملة قالت لسليمان بن داود عليهما السلام: يا نبي الله أنا على قدري أشكر لله منك، وكان راكباً على فرس ذلول[2] فخرّ ساجداً لله تعالى، ثم قال: لولا أني أبجلك لسألتك عن أن تنزع مني ما أعطيتني.

وقال صدقة بن يسار: بينما داود عليه السلام في محرابه إذ مرت به دودة، فتفكر في خلقها، وقال: ما يعبأ الله بخلق هذه، فأنطقها الله تعالى له، فقال له: يا داود تعجبك نفسك، وأنا على قدر ما آتاني الله تعالى أذكر لله وأشكر له منك على ما آتاك.

وقال علي رضي الله عنه: احذروا إنفار النعم[3] فما كل شاردٍ مردود. وعنه عليه السلام: إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا اتصالها بقلة الشكر. وقيل: إذا قصرت يداك عن المكافأة، فليطل لسانك بالشكر. وقال حكيم: الشكر ثلاث منازل: ضمير القلب، ونشر اللسان[4] ومكافأة اليد. قال الشاعر:

أفادتكم النعماءُ مني ثلاثة
يدي ولساني والضمير المحجّبا

وقال ابن عائشة: كان يقال ما أنعم الله على عبد نعمة، فظلم بها إلا كان له حقاً على الله تعالى أن يزيلها عنه، وأنشد أبو العباس بن عمارة في المعنى:

أعارك ماله لتقوم فيه
بواجبه وتقضي بعض حقه
فلم تقصد لطاعته ولكنْ
قويت على معاصيه برزقه

وقال آخر:

ولو أنّ لي في كل منبتِ شعرةٍ
لساناً يطيل الشكر كنت مقصّرا

(١) قال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾، وقيل «وبالشكر تدوم النعم».
(٢) فرس ذلول: فرس مروّض، يريح راكبه ويطيعه.
(٣) إنفار النعم: تنفيرها وإبعادها.
(٤) وقال تعالى: ﴿وأما بنعمة ربك فحدّث﴾.

وقال محمد بن حبيب الراوية: إذا قل الشكر خسر المن. **وروي**: إذا جحدت الصنيعة خسر الامتنان. **وسئل بعض الحكماء**: ما أضيع الأشياء؟ قال: مطر الجود في أرض سبخة لا يجف ثراها[1]، ولا ينبت مرعاها، وسراج يوقد في الشمس[2]، وجارية حسناء تزف إلى أعمى[3]، وصنيعة تسدى إلى من لا يشكرها.

وقال عبد الأعلى بن حماد: دخلت على المتوكل، فقال: يا أبا يحيى: قد هممنا أن نصلك بخير فتدافعته الأمور، فقلت: يا أمير المؤمنين بلغني عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال: من لم يشكر الهمة لم يشكر النعمة. وأنشدته:

لأشكرن لك معروفاً هممت به
فإنّ همُّك بالمعروف معروف
ولا ألومك إن لم يُمْضِهِ قَدَرٌ
فالشرُّ بالقدر المحتوم مصروف

وقال أبو فراس بن حمدان:

وما نعمةٌ مكفورة قد صنعتها
إلى غير ذي شكرٍ تمانعني أخرى
سآتي جميلاً ما حييت فإنّني
إذا لم أفدْ شكراً أُفدت به أجرا

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من امتطى الشكر بلغ به المزيد. **وقيل**: من جعل الحمد خاتمة النعمة جعله الله فاتحة للمزيد. **وقال ابن السماك**: النعمة من الله تعالى على عبده مجهولة، فإذا فقدت عرفت. **وقيل**: من لم يشكر على النعمة فقد استدعى زوالها. **وكان يقال**: إذا كانت النعمة وسيمة، فاجعل الشكر لها تميمة.

وقال حكيم: لا تصطنعوا ثلاثة، اللئيم فإنه بمنزلة الأرض السبخة، والفاحش فإنه يرى أن الذي صنعت إليه إنما هو لمخافة فحشه، والأحمق فإنه لا يعرف قدر ما أسديت إليه. وإذا اصطنعت الكريم فازرع المعروف واحصد الشكر. ودخل أبو نخيلة على السفاح لينشده، فقال: ما عسيت أن تقول بعد قولك لمسلمة:

أمسلمةٌ يا فخر كلّ خليفةٍ
ويا فارس الدنيا ويا جبل الأرضِ
شكرتك إنّ الشكر دينٌ على الفتى
وما كلُّ من أوليته نعمة يقضي
وأحييت لي ذكري وما كان خاملاً
ولكنّ بعض الذكر أنبهُ من بعض

وسمعه الرشيد فقال: هكذا يكون شعر الأشراف مدح صاحبه، ولم يضع نفسه.

وعن نصر بن سيار عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَن أنعم على رجل نعمة فلم يشكر له فدعا عليه استجيب له**». ثم قال نصر: اللهم إني أنعمت على بني سام فلم يشكروا، اللهم اقتلهم، فقتلوا كلهم.

وعن علي بن الحسين رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن المؤمن ليشبع من الطعام، فيحمد الله تعالى، فيعطيه من الأجر ما يعطي الصائم القائم، إن الله شاكر يحب الشاكرين**».

وعن محمد بن علي: ما أنعم الله على عبد نعمة، فعلم أنها من الله إلا كتب الله له شكرها قبل أن يحمده عليها، ولا أذنب عبد ذنباً فعلم أن الله قد أطلع عليه إن شاء غفر له وإن شاء أخذه قبل أن يستغفره إلا غفر الله له قبل أن يستغفره.

وأولى رجل رجلاً أعرابياً خيراً، فقال: لا أبلاك الله ببلاء يعجز عنه صبرك، وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك.

وأنشد بعضهم وأجاد:

سأشكر لا أني أجازيك منعماً
بشكري ولكنْ كي يزاد لك الشكرُ
وأذكر أياماً لديّ اصطنعتها
وآخر ما يبقى على الشاكر الذكر

وقال آخر:

أوليتني نعماً أبوح بشكرها
وكفيتني كلّ الأمور بأسرها
فلأشكرنّك ما حييت وإن أمتْ
فلتشكرنّكَ أعظمي في قبرها

وقال آخر:

أيا ربّ قد أحسنت عوداً وبدأةً
إليّ فلم ينهض بإحسانك الشكرُ
فمن كان ذا عذرٍ لديك وحجةٍ
فعذري إقراري بأن ليس لي عذرُ

---

(١) الأرض السبخة: الأرض المالحة لا تنبت شيئاً، لا يجف ثراها: أي لا يجف ترابها بل تستنقع.

(٢) أي حيث لا فائدة لضوئه.

(٣) هي ضائعة عنده لأنه لا يرى جمالها ليستمتع به.

وقال محمود الوراق:

إلهي لك الحمد الذي أنت أهله
على نعمٍ ما كنت قط لها أهلا
إنْ زدتُ تقصيراً تزدني تفضّلاً
كأنّي بالتقصير أستوجبُ الفضلا

وقد أحسن نصيب في وصف الثناء والشكر بقوله:

فعاجوا وأثنوا بالذي أنت أهله
ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب[1]

وقال رجل من غطفان:

الشكر أفضل ما حاولت ملتمساً
به الزيادة عند الله والناس

وقيل: أشكر المنعم عليك وأنعم على الشاكر لك تستوجب من ربك الزيادة ومن أخيك المناصحة.

الفصل الثالث من هذا الباب

في المكافأة

قال رسول الله ﷺ: «مَن أسدى إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تقدروا فادعوا له». ولما قدم وفد النجاشي على رسول الله ﷺ، قام يخدمهم بنفسه، فقيل له يا رسول الله: لو تركتنا كفيناك، فقال: كانوا لأصحابي مكرمين[2]. وقيل: أتى رجل من الأنصار إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال:

أذكر صنيعي إذ فاجأك ذو سفهٍ
يوم السقيفة والصّدّيق مشغول

فقال عمر بأعلى صوته: ادن مني، فدنا منه، فأخذ بذراعه حتى استشرفه الناس[3] وقال: ألا إن هذا ردّ عني سفيهاً من قومه يوم السقيفة ثم حمله على نجيب وزاد في عطائه، وولاه صدقة قومه وقرأ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝﴾[4]، وقال رجل لسعيد بن العاص، وهو أمير الكوفة: لي يدٌ عندك بيضاء. قال: وما هي؟ قال: كبت بك فرسك[5]، فتقدمت إليك قبل غلمانك، فأخذت بعضدك وأركبتك، وأسقيتك ماء، قال: فأين كنت إلى الآن؟ قال: حجبت عن الوصول إليك، قال: قد أمرنا لك بمائتي ألف درهم، وبما يملكه الحاجب إذ حجبك عنا.

وقال قطري بن الفجاءة الخارجي: وكان قد أسره الحجاج ثم مَنّ عليه، فأطلقه، فقيل له: عاود قتال عدو الله، فقال: هيهات شدّ يداً مطلقها وأرقّ رقبة معتِقَهَا، ثم قال:

أأقاتلُ الحجاجَ عن سلطانه
بيدٍ تقر بأنّها مولاتُه
ماذا أقول إذا وقفت إزاءه
في الصف واحتجّت له فعلاته
أأقول جار عليّ؟ لا إنّي إذاً
لأحق من جارت عليه ولاتُه
وتحدّث الأقوام أنّ صنائعاً
غرست لديّ فحنظلت نخلاتُه[1]

واجتاز الشافعي رحمه الله تعالى بمصر في سوق الحدادين، فسقط سوطه، فقام إنسان، فأخذه ومسحه وناوله إياه، فقال لغلامه: كم معك؟ قال: عشرة دنانير، قال: ادفعها إليه واعتذر له.

واستنشد عبد الملك عامر الشعبي، فأنشده لغير ما شاعر حتى أنشد لحسان:

من سرّه شرفُ الحياة فلم يزل
في عصبة من صالحي الأنصار
البائعين نفوسهم لنبيِّهم
بالمشرفيّ وبالقنا الخطّار[2]
الناظرين بأعينٍ محمرّةٍ
كالجمر غير كليلة الأبصار[3]

فقام أنصاري، فقال: يا أمير المؤمنين: استوجب عامر الصلة على ستون من الإبل كما أعطينا حسان يوم قالها، فقال عبد الملك: وله عندي ستون ألفاً، وستون من الإبل.

وعن علي كرم الله وجهه: أحسنوا في عقب غيركم تحفظوا في عقبكم. وقال المدائني: رأيت رجلاً يطوف بين الصفا والمروة على بغلة، ثم رأيته ماشياً في سفر،

---

(١) عاجوا: طافوا، الحقائب: أي حقائب الإبل التي جعلت فيها وعليها عطاياك.
(٢) أي أكرموا من هاجر إليهم من المسلمين.
(٣) أي حتى تطلع الناس إليه.
(٤) سورة الرحمن، الآية (٦٠).
(٥) كبت بك فرسك: أي أوقعتك عن ظهرها.

---

(١) حنظلت نخلاته: أي أنبتت نخلاته الحنظل، والحنظل نبت شديد المرارة أو صار ثمر نخلاته مرّاً كالحنظل.
(٢) القنا الخطار: الرماح القوية التي تخترق أجساد الأعداء.
(٣) كليلة الأبصار: ضعيفة الرؤيا.

فسألته عن ذلك فقال: ركبت حيث يمشي الناس، فكان حقاً على الله أن يرجلني حيث يركب الناس.

ومما جاء في المكافأة

ما حكي عن الحسن بن سهل قال: كنت يوماً عند يحيى بن خالد البرمكي وقد خلا في مجلسه لإحكام أمر من أمور الرشيد، فبينما نحن جلوس إذ دخل عليه جماعة من أصحاب الحوائج، فقضاها لهم، ثم توجهوا لشأنهم، فكان آخرهم قياماً أحمد بن أبي خالد الأحول، فنظر يحيى إليه والتفت إلى الفضل ابنه، وقال: يا بني إن لأبيك مع أبي هذا الفتى حديثاً، فإذا فرغت من شغلي هذا، فاذكرني أحدثك به، فلما فرغ من شغله، وَطَعِمَ[1] قال له ابنه الفضل: أعزك الله يا أبي، أمرتني أن أذكرك حديث أبي خالد الأحول، قال: نعم يا بني. لما قدم أبوك من العراق أيام المهدي كان فقيراً لا يملك شيئاً، فاشتد بي الأمر إلى أن قال لي من في منزلي: إنا قد كتمنا حالنا وزاد ضررنا ولنا اليوم ثلاثة أيام ما عندنا شيء نقتات به، قال: فبكيت يا بني لذلك بكاء شديداً، وبقيت ولهان وحيران مطرقاً مفكراً، ثم تذكرت منديلاً كان عندي، فقلت لهم: ما حال المنديل؟ فقالوا: هو باق عندنا، فقلت ادفعوه لي، فأخذته، ودفعته إلى بعض أصحابي وقلت له: بعه بما تيسر، فباعه بسبعة عشر درهماً، فدفعتها إلى أهلي، وقلت: أنفقوها إلى أن يرزق الله غيرها.

ثم بكرت من الغد إلى باب أبي خالد وهو يومئذ وزير المهدي، فإذا الناس وقوف على داره ينتظرون خروجه، فخرج عليهم راكباً، فلما رآني سلم عليَّ، وقال: كيف حالك؟ فقلت: يا أبا خالد ما حال رجل يبيع من منزله بالأمس منديلاً بسبعة عشر درهماً، فنظر إليَّ نظراً شديداً، وما أجابني جواباً.

فرجعت إلى أهلي كسير القلب، وأخبرتهم بما اتفق لي مع أبي خالد، فقالوا: بئس والله ما فعلت. توجهت إلى رجل كان يرتضيك لأمر جليل، فكشفت له سرك وأطلعته على مكنون أمرك، فأزريت عنده بنفسك وصغرت عنده منزلتك بعد أن كنت عنده جليلاً، فما يراك بعد اليوم إلا بهذه العين.

فقلت: قد قضي الأمر الآن بما لا يمكن استدراكه، فلما كان من الغد بكرت إلى باب الخليفة، فلما بلغت الباب استقبلني رجل، فقال لي: قد ذكرت الساعة بباب أمير المؤمنين، فلم ألتفت لقوله، فاستقبلني آخر، فقال لي، كمقالة الأول، ثم استقبلني حاجب أبي خالد، فقال لي: أين تكون قد أمرني أبو خالد بإجلاسك إلى أن يخرج من عند أمير المؤمنين. فجلست حتى خرج، فلما رآني دعاني، وأمر لي بمركب، فركبت وسرت معه إلى منزله، فلما نزل قال: عليَّ بفلان وفلان الحَنَاطين[1]، فأحضرا، فقال لهما: ألم تشتريا مني غِلات السواد بثمانية عشر ألف ألف درهم؟ قالا: نعم، قال: ألم أشترط عليكما شركة رجل معكما؟ قالا: بلى، قال: هو هذا الرجل الذي اشترطت شركته لكما، ثم قال لي: قم معهما، فلما خرجنا قالا لي: ادخل معنا بعض المساجد حتى نكلمك في أمر يكون لك فيه الربح الهنيء، فدخلنا مسجداً، فقالا لي: إنك تحتاج في هذا الأمر إلى وكلاء وأمناء وكيالين وأعوان ومؤن لم تقدر منها على شيء، فهل لك أن تبيعنا شركتك بمال نعجله، فتنتفع به، ويسقط عنك التعب والكلف؟ فقلت لهما: وكم تبذلان لي؟ فقالا: مائة ألف درهم، فقلت لا أفعل، فما زالا يزيداني وأنا لا أرضى إلى أن قالا لي: ثلاثمائة ألف درهم ولا زيادة عندنا على هذا، فقلت: حتى أشاور أبا خالد. قالا: ذلك لك. فرجعت إليه وأخبرته، فدعا بهما، وقال لهما: هل وافقتماه على ما ذكر؟ قال: نعم. قالا: اذهبا، فاقبضاه المال الساعة.

ثم قال لي: أصلح أمرك وتهيأ فقد قلدتك العمل. فأصلحت شأني وقلدني ما وعدني به، فما زلت في زيادة حتى صار أمري إلى ما صار. ثم قال لولده الفضل: يا بني فما تقول في ابن من فعل بأبيك هذا الفعل، وما جزاؤه؟ قال: حق لعمري وجب عليك له، فقال: والله يا ولدي ما أجد له مكافأة غير أني أعزل نفسي وأوليه، ففعل ذلك رضي الله عنه، وهكذا تكون المكافأة.

ومن ذلك ما حكي عن العباس صاحب شرطة المأمون قال: دخلت يوماً مجلس أمير المؤمنين ببغداد وبين يديه رجل مكبل بالحديد، فلما رآني قال له: عباس، قلت لبيك يا أمير المؤمنين، قال: خذ هذا إليك فاستوثق منه، واحتفظ به، وبكر به إليَّ في غد واحترز عليه كل الاحتراز.

قال العباس: فدعوت جماعة، فحملوه ولم يقدر أن يتحرك فقلت في نفسي مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معي في بيتي، فأمرتهم، فتركوه في مجلس لي في داري، ثم

---

(١) طعم: أي تناول طعامه.

(١) الحناطين: تُجار الحنطة.

أخذت أسأله عن قضيته، وعن حاله، ومن أين هو، فقال: أنا من دمشق، فقلت جزى الله دمشق وأهلها خيراً، فمن أنت من أهلها؟ قال: وعمن تسأل؟ قلت: أتعرف فلاناً؟ قال: ومن أين تعرف ذلك الرجل؟ فقلت: وقع لي معه قضية. فقال: ما كنت بالذي أعرفك خبره حتى تعرفني قضيتك معه.

فقال: ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق، فبغى أهلها وخرجوا علينا حتى أن الوالي تدلى في زنبيل من قصر الحجاج، وهرب هو وأصحابه، وهربت في جملة القوم، فبينما أنا هارب في بعض الدروب، وإذا بجماعة يعدون خلفي، فما زلت أعدو أمامهم حتى فتهم، فمررت بهذا الرجل الذي ذكرته لك، وهو جالس على باب داره، فقلت: أغثني أغاثك الله، قال: لا بأس عليك أدخل الدار، فدخلت، فقالت زوجته: أدخل تلك المقصورة فدخلتها، ووقف الرجل على باب الدار، فما شعرت إلا وقد دخل والرجال معه يقولون هو والله عندك، فقال: دونكم الدار، ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة وامرأته فيها، فقالوا: هو ههنا، فصاحت بهم المرأة ونهرتهم فانصرفوا، وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة وأنا قائم أرجف ما تحملني رجلاي من شدة الخوف، فقالت المرأة: اجلس لا بأس عليك، فجلست، فلم ألبث حتى دخل الرجل، فقال: لا تخف قد صرف الله عنك شرهم، وصرت إلى الأمن والدعة إن شاء الله تعالى. فقلت له: جزاك الله خيراً.

فما زال يعاشرني أحسن معاشرة وأجملها، وأفرد لي مكاناً في داره، ولم يحوجني إلى شيء، ولم يفتر عن تفقد أحوالي، فأقمت عنده أربعة أشهر في أرغد عيش وأهنئه إلى أن سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها، فقلت له: أتأذن لي في الخروج حتى أتفقد حال غلماني، فلعلي أقف منهم على خبر، فأخذ عليّ المواثيق بالرجوع إليه، فخرجت وطلبت غلماني، فلم أر لهم أثراً، فرجعت إليه، وأعلمته الخبر، وهو مع هذا كله لا يعرفني، ولا يسألني، ولا يعرف اسمي، ولا يخاطبني إلا بالكنية، فقال: علام تعزم؟ فقلت: عزمت على التوجه إلى بغداد، فقال: القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج، وها أنا أقد أعلمتك. فقلت له: إنك تفضلت عليّ هذه المدة، ولك عليّ عهد الله أني لا أنسى لك هذا الفضل، ولأوفينك مهما استطعت، قال: فدعا غلاماً له أسود، وقال له: أسرج الفرس الفلاني، ثم جهز آلة السفر، فقلت في نفسي: أظن أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة أو ناحية من النواحي، فأقاموا يومهم ذلك في كد وتعب.

فلما كان يوم خروج القافلة جاءني السحر، وقال لي: يا فلان قم فإن القافلة تخرج الساعة، وأكره أن تنفرد عنها، فقلت في نفسي: كيف أصنع، وليس معي ما أتزود به ولا ما أكري به مركوباً[1]، ثم قمت، فإذا هو وامرأته يحملان بقجة من أفخر الملابس وخفين جديدين وآلة السفر، ثم جاءني بسيف، ومنطقة، فشدهما في وسطي، ثم قدم بغلاً، فحمل عليه صندوقين وفوقها فرش، ودفع إلي نسخة ما في الصندوقين، وفيهما خمسة آلاف درهم، وقدم إلي الفرس الذي كان جهزه، وقال: اركب، وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس مركوبك. وأقبل هو وامرأته يعتذران إلي من التقصير في أمري، وركب معي يشيعني، وانصرفت إلى بغداد، وأنا أتوقع خبره لأفي بعهدي له في مجازاته ومكافأته، وأشغلت مع أمير المؤمنين، فلم أتفرغ أن أرسل إليه من يكشف خبره، فلهذا أنا أسأل عنه.

فلما سمع الرجل الحديث قال: لقد أمكنك الله تعالى من الوفاء، ومكافأته على فعله ومجازاته على صنيعه بلا كلفة عليك، ولا مؤنة تلزمك، فقلت: وكيف ذلك؟ قال: أنا ذلك الرجل، وإنما الضر الذي أنا فيه غيّر عليك حالي، وما كنت تعرفه مني، ثم لم يزل يذكر لي تفاصيل الأسباب حتى أثبت معرفته. فما تمالكت أن قمت وقبّلت رأسه، ثم قلت له: فما الذي أصارك إلى ما أرى؟

فقال: هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التي كانت في أيامك، فنسبت إليّ، وبعث أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد، وأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت، وقيدت وبعث بي إلى أمير المؤمنين، وأمري عنده عظيم وخطبي لديه جسيم، وهو قاتلي لا محالة، وقد أخرجت من عند أهلي بلا وصية، وقد تبعني من غلماني من ينصرف إلى أهلي بخبري، وهو نازل عند فلان، فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لي أن ترسل من يحضره لي حتى أوصيه بما أريد، فإن أنت فعلت ذلك، فقد جاوزت حد المكافأة وقمت لي بوفاء عهدك.

قال العباس: قلت: يصنع الله خيراً. ثم أحضر حداداً في الليل فك قيوده، وأزال ما كان فيه من الأنكال[2] وأدخله حمام داره، وألبسه من الثياب ما احتاج إليه، ثم

---

(١) أكري به مركوباً: استأجر به دابة أركبها.

(٢) أي أزال السلاسل التي كان مربوطاً بها.

سيَّر من أحضر إليه غلامه، فلما رآه جعل يبكي ويوصيه، فاستدعى العباس نائبه، وقال: عليَّ بالفرس الفلاني، والفرس الفلاني والبغل الفلاني، والبغلة الفلانية حتى عد عشرة ثم عشرة من الصناديق ومن الكسوة كذا وكذا، ومن الطعام كذا وكذا قال ذلك الرجل: وأحضر لي بدرة عشرة آلاف درهم، وكيساً فيه خمسة آلاف دينار، وقال لنائبه في الشرطة: خذ هذا الرجل وشيِّعه إلى حد الأنبار[1]. فقلت له: إن ذنبي عند أمير المؤمنين عظيم، وخطبي جسيم. وإن أنت احتججت بأني هربت بعث أمير المؤمنين في طلبي كل من على بابه فأُرد وأُقتل. فقال لي: أنج بنفسك ودعني أدبر أمري، فقلت: والله ما أبرح من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك، فإن احتجت إلى حضوري حضرت، فقال لصاحب الشرطة: إن كان الأمر على ما يقول فليكُن في موضع كذا، فإن أنا سلمت في غداة غد أعلمته، وإن أنا قتلت، فقد وقيته بنفسي كما وقاني بنفسه، وأنشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم، وتجتهد في إخراجه من بغداد.

قال الرجل: فأخذني صاحب الشرطة وصيرني في مكان أثق به، وتفرغ العباس لنفسه، وتحنط وجهَّز له كفناً. قال العباس: فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا وأرسل المأمون في طلبي ويقولون: يقول لك أمير المؤمنين هات الرجل معك وقم. قال: فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين، فإذا هو جالس وعليه ثيابه وهو ينتظرنا. قال: أين الرجل؟ فسكت، فقال: ويحك أين الرجل؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، إسمع مني، فقال: لله عليَّ عهد لئن ذكرت إنه هرب لأضربنَّ عنقك. فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين ما هرب. ولكن اسمع حديثي وحديثه، ثم شأنك ما تريد أن تفعله في أمري قال: قل.

فقلت: يا أمير المؤمنين كان من حديثي معه كيت وكيت وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته أنني أريد أن أفي له وأكافئه على ما فعله معي، وقلت: أنا وسيدي ومولاي أمير المؤمنين بين أمرين: إما أن يصفح عني، فأكون قد وفيت وكافأت، وإما أن يقتلني فأقيه بنفسي. وقد تحنطت وها كفني يا أمير المؤمنين، فلما سمع المأمون الحديث قال: ويلك لا جزاك الله عن نفسك خيراً إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة، وتكافئه بعد المعرفة، والعهد بهذا

(١) الأنبار: مدينة على الطريق من بغداد إلى دمشق، ويطلق الاسم الآن على المنطقة التي كانت فيها هذه المدينة، وإنما أوصى بإيصاله إلى حد الأنبار ليسهل عليه الفرار إلى الشام.

لا غير. هلاَّ عرفتني خبره فكنا نكافئه عنك ولا نقصر في وفائك له، فقلت: يا أمير المؤمنين إنه ههنا قد حلف أن لا يبرح حتى يعرف سلامتي، فإن احتجت إلى حضوره حضر. فقال المأمون، وهذه منه أعظم من الأولى إذهب الآن إليه، فطيِّب نفسه وسكِّن ورعه وائتني به حتى أتولَّى مكافأته.

قال العباس: فأتيت إليه، وقلت له: لِيَزِل خوفك، إن أمير المؤمنين قال كيت وكيت. فقال الحمد لله الذي لا يحمد على السراء والضراء سواه، ثم قام، فصلى ركعتين ثم ركب وجئنا، فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين أقبل عليه وأدناه من مجلسه، وحدثه حتى حضر الغداء، وأكل معه وخلع عليه، وعرض عليه أعمال دمشق، فاستعفى، فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولجمها وعشرة أبغال بآلاتها وعشر بدر وعشرة آلاف دينار، وعشرة مماليك بدوابهم، وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به، وإطلاق خراجه، وأمره بمكاتبته بأحوال دمشق، فصارت كتبه تصل إلى المأمون، وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لي: يا عباس هذا كتاب صديقك. والله تعالى أعلم.

ومن عجائب هذا الأسلوب وغرائبه:

ما أورده محمد بن القاسم الأنباري رحمه الله تعالى، أن سواراً صاحب رحبة سوار وهو من المشهورين، قال: انصرفت يوماً من دار الخليفة المهدي، فلما دخلت منزلي دعوت بالطعام، فلم تقبله نفسي، فأمرت به، فرفع، ثم دعوت جارية كنت أحبها وأحب حديثها وأشتغل بها فلم تطب نفسي، فدخل وقت القائلة[1]، فلم يأخذني النوم، فنهضت وأمرت ببغلة، فأُسْرِجَتْ وَأُحْضِرَتْ فركبتها، فلما خرجت من المنزل استقبلني وكيل لي ومعه مال، فقلت: ما هذا؟ فقال: ألفا درهم جبيتها من مستَغَلِّكَ الجديد، قلت: أمسكها معك واتبعني.

فأطلقت رأس البغلة حتى عبرت الجسر، ثم مضيت في شارع دار الرقيق حتى انتهيت إلى الصحراء، ثم رجعت إلى باب الأنبار، وانتهيت إلى باب دار نظيف عليه شجرة، وعلى الباب خادم، فعطشت، فقلت للخادم: أعندك ماء تسقينيه؟ قال: نعم، ثم دخل وأحضر قلة نظيفة طيبة الرائحة عليها منديل فناولني، فشربت، وحضر وقت العصر، فدخلت مسجداً على الباب فصليت فيه، فلما

(١) القائلة: ساعة القيلولة عند الظهر.

قضيت صلاتي إذ أنا بأعمى يلتمس، فقلت: ما تريد يا هذا؟ قال: إياك أريد. قلت: فما حاجتك؟ فجاء حتى جلس إلى جانبي، وقال: شممت منك رائحة طيبة، فظننت أنك من أهل النعيم فأردت أن أحدثك بشيء، فقلت: قل.

قال: ألا ترى إلى باب هذا القصر؟ قلت: نعم، قال: هذا قصر كان لأبي، فباعه، وخرج إلى خراسان وخرجت معه فزالت عنا النعم التي كنا فيها، وعَمِيت، فقدمت هذه المدينة، فأتيت صاحب هذا الدار لأسأله شيئاً يصلني به وأتوصل إلى سوار، فإنه كان صديقاً لأبي، فقلت: ومن أبوك؟ قال: فلان بن فلان، فعرفته، فإذا هو كان من أصدق الناس إليّ، فقلت له: يا هذا إن الله تعالى قد أتاك بسوار، منعه من الطعام والنوم والقرار، حتى جاء به، فأقعده بين يديك، ثم دعوت الوكيل، فأخذت الدراهم منه، فدفعتها إليه، وقلت له: إذا كان الغد فسر إلى منزلي.

ثم مضيت، وقلت: ما أُحَدِّث أمير المؤمنين بشيء أظرف من هذا، فأتيته، فاستأذنت عليه فأذن لي، فلما دخلت عليه حدثته بما جرى لي فأعجبه ذلك وأمر لي بألفي دينار، فَأُحْضِرَتْ، فقال: إدفعها إلى الأعمى، فنهضت لأقوم، فقال: إجلس، فجلست، فقال: أعليك دين؟ قلت: نعم. قال: كم دينك؟ قلت: خمسون ألفاً، فحادثني ساعة، وقال امض إلى منزلك، فمضيت إلى منزلي فإذا بخادم معه خمسون ألفاً، وقال: يقول لك أمير المؤمنين اقض بها دينك. قال: فقبضت منه ذلك، فلما كان من الغد أبطأ علي الأعمى، وأتاني رسول المهدي يدعوني فجئته، فقال: قد فكرت البارحة في أمرك، فقلت: يقضي دينه، ثم يحتاج إلى القرض أيضاً، وقد أمرت لك بخمسين ألفاً أخرى، قال: فقبضتها وانصرفت، فجاءني الأعمى، فدفعت إليه الألفي دينار، وقلت له: قد رزقك الله تعالى بكرمه، وكافأك على إحسان أبيك، وكافأني على إسداء المعروف إليك، ثم أعطيته شيئاً آخر من مالي، فأخذه وانصرف. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومما هو أوضح حسناً وأرجح معنى

ما حكاه القاضي يحيى بن أكثم رحمة الله عليه قال: دخلت يوماً على الخليفة هارون الرشيد ولد المهدي وهو مطرق مُفَكِّرٌ، فقال لي: أتعرف قائل هذا البيت؟:

الخيرُ أبقى وإن طال الزمان به
والشر أخبثُ ما أوعيت من زاد

فقلت يا أمير المؤمنين: إن لهذا البيت شأناً مع عبيد بن الأبرص فقال: عليَّ بعبيد، فلما حضر بين يديه قال له: أخبرني عن قضية هذا البيت، فقال: يا أمير المؤمنين، كنت في بعض السنين حاجاً، فلما توسطت البادية في يوم شديد الحر سمعت ضجة عظيمة في القافلة ألحقت أولها بآخرها، فسألت عن القصة، فقال لي رجل من القوم: تقدم تر ما بالناس، فتقدمت إلى أول القافلة، فإذا أنا بشجاع[1] أسود فاغر فاه كالجذع وهو يخور كما يخور الثور ويرغو كرغاء البعير، فهالني أمره وبقيت لا أهتدي إلى ما أصنع في أمره، فعدلنا عن طريقه إلى ناحية أخرى، فعارضنا ثانياً، فعلمت أنه لسبب ولم يجسر أحد من القوم أن يقربه، فقلت: أفدي هذا العالم بنفسي وأتقرب إلى الله تعالى بخلاص هذه القافلة من هذا، فأخذت قربة من الماء، فتقلدتها وسللت سيفي وتقدمت. فلما رآني قربت منه سكن، وبقيت متوقعاً منه وثبة يبتلعني فيها، فلما رأى القربة فتح فاه، فجعلت فم القربة فيه، وصببت الماء كما يصب في الإناء، فلما فرغت القربة تسيب في الرمل ومضى، فتعجبت من تعرضه لنا وانصرافه عنَّا من غير سوء لحقنا منه. ومضينا لحجنا ثم عدنا في طريقنا ذلك وحططنا في منزلنا ذلك في ليلة مظلمة مدلهمة، فأخذت شيئاً من الماء وعدلت إلى ناحية عن الطريق، فقضيت حاجتي ثم توضأت وصليت، وجلست أذكر الله تعالى، فأخذتني عيني[2]، فنمت مكاني، فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حساً، وقد ارتحلوا وبقيت منفرداً لم أر أحداً، ولم أهتد إلى ما أفعله، وأخذتني حيرة وجعلت أضطرب وإذا بصوت هاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه يقول:

يا أيها الشخص المُضِلُّ مَرْكَبُه
ما عنده من ذي رشادٍ يصحبُهْ
دونك هذا البِكْرُ[3] منّا تركبه
وبكرك الميمون حقاً تُجْنِبُه[4]
حتى إذا ما الليل زال غيهبه[5]
عند الصباح في الفلا تسيبه[6]

---

(١) شجاع: ثعبان ضخم.
(٢) أخذتني عيني: نعست.
(٣) البكر: الفتي القوي من الإبل.
(٤) تجنبه: تجعله إلى جانب بعيرك.
(٥) زال غيهبه: زالت عتمته.
(٦) تسيبه: تتركه يرحل.

فنظرت، فإذا أنا ببكر قائم عندي، وبكري إلى جانبي، فأنخته وركبته وجنّبتُ بكري، فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لي القافلة، وانفجر الفجر، ووقف البكر، فعلمت أنه قد حان نزولي فتحولت إلى بكري وقلت:

يا أيها البكر قد أنجيت من كربِ
ومن هموم تضلّ المُدْلِجَ الهادي[1]
ألا تخبّرني بالله خالقنا
من ذا الذي جاد بالمعروف في الوادي
وارجع حميداً فقد بلّغتنا مِنَناً
بوركت من ذي سنام رائح غادي

فالتفت البكر إليّ وهو يقول:

أنا الشجاع الذي ألفيتني رَمِضاً
والله يكشف ضرّ الحائر الصادي[2]
فجدت بالماء لما ضنّ حامله
تكرّماً منك لم تمنن بإنكادِ
فالخير أبقى وإن طال الزمان به
والشرّ أخبث ما أوعيتَ من زاد
هذا جزاؤك مني لا أَمُنُّ به
فأذهب حميداً رعاك الخالق الهادي

فعجب الرشيد من قوله وأمر بالقصة والأبيات، فكتبت عنه، وقال: لا يضيع المعروف أين وضع، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

الباب الثالث والاربعون
في الهجاء ومقدماته

القصد من الهجاء الوقوف على ملحه وما فيه من ألفاظ فصيحة ومعان بديعة، لا التشفي بالأعراض والوقوع فيها. وليس الهجاء دليلاً على إساءة المهجو ولا صدق الشاعر فيما رماه به، فما كل مذموم بذميم، وقد يهجى الإنسان بهتاناً وظلماً أو عبثاً أو ارهاباً.

قال المتوكل لأبي العيناء: كم تمدح الناس وتذمهم، قال: ما أحسنوا وأساءوا. وقد رضي الله تعالى على عبد من عبيده فمدحه، فقال: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[3]، وغضب على آخر، فقال: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝﴾[1] قيل الزنيم: الملصق بالقوم وليس منهم.

وقال دعبل في المأمون بعد البيعة له وقتل الأمين.

إنّي من القوم الذين همو همو
قتلوا أخاك وشرّفوك بمقعد
شادوا لذكرك بعد طول خموله
واستنقذوك من الحضيض الأوهد[2]

فقال المأمون: ما أبهته[3] ليت شعري متى كنت خاملاً، وفي حجر الخلافة ربيت وبدَرّها غذيت.

ولما قتل جعفر بن يحيى بكى عليه أبو نواس، فقيل له: أتبكي على جعفر وأنت هجوته؟ فقال: كان ذلك لركوب الهوى، وقد بلغه والله أني قلت:

ولست وإن أطنبتُ[4] في وصف جعفرٍ
بأول إنسان خري في ثيابه

فكتب: يدفع إليه عشرة آلاف درهم يغسل بها ثيابه.

ومن العبث بالهجو ما روي أن الحطيئة همّ بهجاء، فلم يجد من يستحقه فقال:

أبت شفتاي اليوم إلاّ تكلّماً
بسوءٍ فلا أدري لمن أنا قائلُهْ
أرى بي وجهاً قبّح الله خلقه
فقبّح من وجهٍ وقبّح حاملُهْ

وعبث بأمه فقال:

تنحّي فاجلسي عنّا بعيداً
أراح الله منك العالمينا
أغربالاً إذا استودعت سرّاً
وكانوناً على المتحدّثينا
حياتك ما علمت حياة سوءٍ
وموتك قد يسر الصالحينا

وقال رجل: ما أبالي أهجيت أم مدحت، فقال له الأحنف: أرحت نفسك من تعب الكرام. وأنا أقول: إنما يخشى من الهجو من يخاف على عرضه وأما من لا يخاف

---

(١) المدلج: السائر في الدلجة أي ليلاً.
(٢) رمضاً: أصابني الحر وأحرقني. الصادي: العطشان.
(٣) سورة ص، الآية (٣٠) والآية (٤٤).

(١) سورة القلم، الآيتان (١٢ ـ ١٣).
(٢) الأوهد: الأكثر انخفاضاً.
(٣) البهتان: اغتياب المرء بما ليس فيه.
(٤) أطنب: أطال وأكثر.

على عرضه فقد يستوي عنده المدح والذم وبئس الرجل ذاك. وكان الرجل من نمير إذا قيل له: ممن الرجل؟ يقول: من نمير وأمال بها عنقه، فلما هجاهم جرير بقوله:

فغض الطرف إنك من نمير
فلا كعباً بلغت ولا كلابا

صار إذا قيل لأحدهم: ممن الرجل: يقول من بني عامر، وما لقيت قبيلة من العرب بهجو ما لقيت نمير بهجو جرير.

وهجا ابن سام رجلاً فقال:

يا طلوع الرقيب من غير إلفِ
يا غريماً أتى على ميعادِ

يا ركوداً في وقت غيم وصيفِ
يا وجوه التجار يوم كسادِ

وقصد ابن عيينة قبيصة المهلبي، واستماحه[1]. فلم يسمح له بشيء[2]، فانصرف مغضباً، فوجه إليه داود بن يزيد بن حاتم، فترضاه، وأحسن إليه، فقال في ذلك:

داود محمودٌ وأنت مذمّمٌ
عجباً لذاك وأنتما من عود

ولربّ عودٍ قد يشقّ لمسجدٍ
نصفاً وباقيه لحشّ[3] يهودي

فالحشُّ أنت له وذاك بمسجد
كم بين موضع مسلحٍ[3] وسجود

هذا جزاؤك يا قبيص لأنه
جادت يداه وأنت قبلُ حديد

وله هجاء في خالد:

أبوك لنا غيث يغيث بوبله
وأنت جرادٌ لست تبقي ولا تذر

له أثرٌ في المكرمات يسرنا
وأنت تعفّي دائماً ذلك الأثر[4]

وقال المبرد في حقه: لم يجتمع لأحد من المحدثين في بيت واحد هجاء رجل ومدح أبيه إلا له. ولما قعد حماد عجرد لتأديب ولد الأمين، قال بشار بن برد:

قل للأمين جزاك الله صالحه
لا يجمع الله بين السخل والذيب[1]

السخل يعلم أن الذئب آكله
والذئب يعلم ما بالسخل من طيب

فشاعت الأبيات، فأمر الأمين بإخراج حماد.

وقال رجل لأخيه لأبويه[2]: لأهجونك هجاء يدخل معك في قبرك، قال: كيف تهجوني وأبوك أبي، وأمك أمي؟ قال أقول:

بني أمية هُبُّوا طال نومكمو
إنّ الخليفة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا
خليفة الله بين الماء والعود

فدخل يعقوب على المهدي، فأخبره أن بشاراً هجاه، فاغتاظ المهدي وانحدر إلى البصرة لينظر في أمرها، فسمع أذاناً في ضحى النهار فقال: انظروا ما هذا، وإذا به بشار وهو سكران، فقال له: يا زنديق عجب أن يكون هذا من غيرك، ثم أمر به فضربه سبعين سوطاً حتى أتلفه بها وألقي في سفينة، فقال: عين الشمقمق تراني حيث يقول:

إن بشار بن بردٍ
تيس أعمى في سفينة

فلما مات أُلقيت جثته في الماء، فحمله الماء، فأخرجه إلى الدجلة، فجاء بعض أهله، فحملوه إلى البصرة، وأُخرجت جنازته، فما تبعه أحد، وتباشر عامة الناس بموته لما كان يلحقهم من الأذى منه.

وخاصم أبو دلامة رجلاً، فارتفعا إلى عافية القاضي، فلما رآه أبو دلامة أنشد يقول:

لقد خاصمتني دهاة الرجال
وخاصمتها سنّةً وافية

فَمَا أدحض الله لي حُجّةً
ولا خيّبَ الله لي قافية

ومن خفت من جوره في القضاء
فلست أخافك يا عافية

---

(١) استماحه: طلب سماحه أي عطاءه.
(٢) أي فلم يعطه شيئاً.
(٣) الحش والمَسْلَحُ: موضع قضاء الحاجة.
(٤) تعفي الأثر: تزيله وتمحوه.

(١) السخل: صغير الماعز، والذيب: الذئب ولا يمكن أن يجتمعا لأن الذئب لا بد أن يأكل السخل، وقوله هنا إشارة إلى أن حماداً لوطي يخشى منه على ولد الأمين.
(٢) أي لشقيقه.

فقال عافية: لأشكونك إلى أمير المؤمنين ولأعلمنه أنك هجوتني. قال له أبو دلامة: إذاً والله يعزلك. قال: ولِمَ؟ قال: لأنك لا تعرف الهجاء من المدح، قال: فبلغ ذلك المنصور، فضحك وأمر له بجائزة.

ودخل أبو دلامة على المهدي وعنده إسماعيل بن علي، وعيسى بن موسى والعباس بن محمد، وجماعة من بني هاشم، فقال له المهدي: والله لئن لم تهج واحداً ممن في هذا البيت لأقطعن لسانك. فنظر إلى القوم وتحير في أمره، وجعل ينظر إلى كل واحد، فيغمزه بأن عليه رضاه، قال أبو دلامة، فازددت حيرة، فما رأيت أسلم لي من أن أهجو نفسي، فقلت:

ألا أبــلــغ لــديــك أبــا دلامــة
فــلــســت مــن الــكــرام ولا كــرامــه
جــمــعــت دمــامــةً وجــمــعــت لــؤمــاً
كــذاك الــلــؤم تــتــبــعــه الــدمــامــه
إذا لــبــس الــعــمــامــة قــلــتُ قــرداً
وخــنــزيــراً إذا نــزع الــعــمــامــه

فضحك القوم ولم يبق منهم أحداً إلا أجازه.

وقال ابن الأعرابي: إن أهجى بيت قاله المحدثون قول محمد بن وهب في محمد بن هاشم:

لم تندَ كفاك من بذل النوال كما
لم يند سيفك مذ قُلِّدتَهُ بدم[(١)]

وهجا بعضهم القمر، فقال: يهدم العمر ويوجب أجرة المنزل[(٢)] ويشجب الألوان، ويقرض الكتان، ويضل الساري ويعين السارق ويفضح العاشق.

ولابن منقذ في أبي طليب المصري وقد احترقت داره:

أنظر إلى الأيام كيف تسوقنا
قسراً إلى الأقدار بالأقدار
ما أوقد ابن طليب قط بداره
ناراً وكان خرابها بالنار[(٣)]

وكان للوجيه بن صورة المصري دلال الكتب، دار بمصر موصوفة بالحسن فاحترقت، فقال فيها ابن المنجم:

أقول وقد عاينت دار ابن صورةٍ
وللنار فيها وهجة تتضرّمُ
فما هو إلا كافر طال عمرهُ
فجاءته لمّا استبطأته جهنّمُ

وقد أحسن الأديب كمال الدين علي بن محمد بن المبارك الشهير بابن الأعمى في ذم دار كان يسكنها حيث قال:

دار سكنت بها أقلّ صفاتها
أنْ تكثر الحشرات في جنباتها
الخير عنها نازح متباعد
والشر دانٍ من جميع جهاتها
من بعض ما فيها البعوض عدمته
كم أعدم الأجفان طيب سناتها[(١)]
وتبيت تسعدها براغيث متى
غنّت لها رقصت على نغماتها
رقصٌ بتنقيطٍ ولكن قافه
قد قدّمت فيه على أخواتها
وبها ذبابٌ كالضباب يسد عينَ
الشمسِ ما طربي سوى غنّاتِها
أين الصوارمُ والقنا من فتكها
فينا وأين الأسْدُ من وثباتها
وبها من الخطّاف ما هو معجز
أبصارنا عن وصف كيفياتها
وبها خفافيشٌ تطير نهارها
مع ليلها ليست على عاداتها[(٢)]
وبها من الجرذان ما قد قصّرت
عنه العتاق الجرد في حملاتها[(٣)]
وبها خنافس كالطنافس أفرشت
في أرضها وعلت على جنباتها
لو شمّ أهلُ الحرب منتنَ فسوها
أردى الكماة الصيد عن صهواتها[(٤)]
وبنات وردانٍ وأشكالٍ لها
مما يفوت العين كنه ذواتها

---

(١) أي أنت بخيل وجبان.
(٢) لأن الأشهر تحسب بالأهلّة.
(٣) ما أوقد بداره ناراً: أي ما طبخ طعاماً وهذا يراد منه الهجاء لأنه كناية عن البخل.

(١) سناتها: نعاسها.
(٢) لأن عادة الخفافيش أن تطير ليلاً فقط.
(٣) العتاق الجرد: الخيل السوابق.
(٤) الكماة: الفرسان.

أبداً تمص دماءنا فكأنها
حجّامة لبدت على كاساتها

وبها من النمل السليماني ما
قد قلّ ذرُّ الشمس عن ذراتها

ما راعني شيءٌ سوى وزغانها
فتعوذوا بالله من لدغاتها[1]

سجعت على أوكارها فظننتها
ورقُ الحمام سجعن في شجراتها

وبها زنابير تظن عقارباً
حر السموم أخف من زفراتها

وبها عقارب كالأقارب رتّعُ
فينا حمانا الله لدغ حماتها

كيف السبيل إلى النجاة ولا نجاة
ولا حياة لمن رأى حيّاتها

منسوجةٌ بالعنكبوت سماؤها
والأرض قد نسجت على آفاتها

فضجيجها كالرعد في جنباتها
وترابها كالرمل في خشناتها

والبوم عاكفةٌ على أرجائها
والدود يبحث في ثرى عرصاتها[2]

والجنُّ تأتيها إذا جنّ الدّجى
تحكي الخيول الجرد في حملاتها

والنار جزءٌ من تلهّب حرها
وجهنّمٌ تعزى إلى لفحاتها

شاهدت مكتوباً على أرجائها
ورأيت مسطوراً على جنباتها

لا تقربوا منها وخافوها ولا
تلقوا بأيديكم إلى هلكاتها

أبداً يقول الداخلون ببابها
يا ربّ نجّ الناسَ من آفاتها

قالوا إذا ندب الغراب منازلاً
يتفرّق السّكان من ساحاتها

وبدارنا ألفا غراب ناعقٍ
كذب الرواة فأين صدقُ رواتها

صبراً لعلّ الله يعقبُ راحةً
للنفس إذ غلبت على شهواتها

دارٌ تبيت الجنّ تحرس نفسها
فيها وتندب باختلاف لغاتها

كم بت فيها مفرداً والعين من
شوق الصباح تسح من عبراتها[3]

وأقول يا ربَّ السموات العلا
يا رازقاً للوحش في فلواتها

أسكنتني بجهنّم الدنيا ففي
أخراي هبْ لي الخلد في جناتها

واجمعْ بمن أهواه شملي عاجلاً
يا جامع الأرواح بعد شتاتها

ولبعضهم في بلأن[4]:

أشكوا إلى الله بلاناً[4] بليت به
مشت أنامله ظهري فأدماني

فلا يدلّك تدليكاً بمعرفة
ولا يسرّح تسريحاً بإحسان

وللشيخ شمس الدين البدوي في بلأن أيضاً:

وبلانٌ له ظهرٌ يباهي
به حدّ الشفار المرهفات

هرى جسمي فألبسه نجيعاً
على حلل الستور السابلاتِ

ورام يلين أعضائي برفقٍ
فأيبسها وكسر فوقحاتي[5]

ولم أنظر له أبداً حميلاً
وذلك من عظيم المهلكاتِ

وأعمى مقلتي بصنان إبطٍ
يفوح به على كل الجهات[6]

فلا تجعل إلهي مثل هذا
يغسّلني إذا حانت وفاتي

ولبعضهم في حمام:

وحمّامٍ دخلناه لأمرٍ
حكى سقراً وفيها المجرمونا

---

(١) الوزغان ج وزغ وهو سام أبرص.
(٢) العرصات ج عرصة وهي الأرض التي لا بناء فيها.

(١) تسح من عبراتها: تجري دموعها كالمطر.
(٢) البلان: المُدَلِّكُ ومُسَرِّحُ الشَّعْرِ في الحَمّامِ.
(٣) فوقحاتي: يداي.
(٤) صنان الإبط: رائحته المنتنة.

فيصطرخوا يقولوا أخرجونا
فإن عدنا فإنا ظالمونا

وللشريف أبي يعلى الهاشمي البغدادي في نظام الملك يهدده بالهجاء يقول:

أيجمل يا نظام الملك أنّي
أعاود من ذراك كما قدمتُ
وأصدر عن حياضك[١] وهي نهبٌ
بأفواه السقاة وما وردتُ[٢]
يدل على فعالك سوءُ حالي
ويخبر عن نوالك إن كتمتُ[٣]
إذا استخبرت ماذا نلت منه
وقد عمّ الورى كرماً سَكَتُّ

وممن عرض بالهجو في شعره الخوارزمي قال في أبي جعفر:

أبا جعفر لست بالمنصفِ
ومثلك إن قال قولاً يفي
فإن أنت أنجزت لي ما وعدت
وإلا هجيت وأدخلت في
وقد علم الناس ما بعد في
فغط الحديث ولا تكشفِ

ومدح السراج الوّراق إنساناً فلم يجزه فكتب يعرض له بالهجاء ويهدده، يقول:

أعدْ مدحي عليَّ وخذْ سواه
فقد أتعبتني يا مستريحُ
ولا تغضب إذا أنشدت يوماً
سواه وقيل لي هذا صحيحُ[٤]

وله أيضاً يقول:

أعدْ مدحاً كذبت عليك فيه
وقد عوفيت بالحرمان عنه
ولكنّي سأصدق فيك قولاً
فلا يصعبْ عليك الحقّ منه

وقال بعضهم في حُجّاجٍ قدموا ولم يهدوا إليه شيئاً:

مضوا ليحجّوا والوجوه كأنّها
تكاد لفرط البشر أن توضح السُّبلا
وعادوا كأنّ القار فوق وجوههم[١]
فلا مرحباً بالقادمين ولا سَهْلا
وجاءوا وما جادوا بعود أراكةٍ[٢]
ولا وضعوا في كف طفلٍ لنا نقلا[٣]

وقال آخر:

إذا رمتُ هجواً في فلانٍ تصدني
خلائقُ قبحٍ عنه لا تتزحزح
تجاوز قدر الهجو حتى كأنّه
بأقبح ما يهجى به المرء يمدحُ

وهجا بعضهم امرأة فقال:

لها جسم برغوثٍ وساق بعوضةٍ
ووجهٍ كوجه القرد بل هو أقبحُ
تُبَرِّقُ عينيها إذا ما رأيتها
وتعبس في وجه الضجيع وتكلح
لها منظرٌ كالنار تحسب أنها
إذا ضحكت في أوجه الناس تلفح
إذا عاين الشيطان صورة وجهها
تعوّذ منها حين يمسي ويصبح

ولبعضهم في عظيم أنفٍ:

لك وجهٌ وفيه قطعة أنفٍ
كجدارٍ قد دعّموه ببغله
وهو كالقبر في المثال ولكن
جعلوا نصفه على غير قبله

وفيه أيضاً:

رأينا للزكي جدار أنفٍ
يضاهي في تشامخه الجبالا
تصدّى للهلال لكي يراهُ
فلولا عظمه لرأى الهلالا

ولصفي الدين الحلي:

---

(١) الحياض: ج حوض وهو مكان مياه الشرب.
(٢) أي وهي مشاعة للناس وكل طالب نوال.
(٣) أي أن حالتي تخبر الناس عن فعلك ولو سكتُ ولم أخبر أحداً.
(٤) أي لا تلمني إذا هجوتك وصدق الناس هجائي.

(١) أي عادوا بوجوه مسودّة كأن الزفت يغطيها.
(٢) الأراكة واحدة الأراك وهو الشجر الذي تتخذ من عيدانه المساويك.
(٣) النقل: الحلوى.

رأى فرسي اصطبل عيسى فقال لي
[قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزلِ]
به لم أذق طعم الشعير كأنني
[بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ]
تقعقع من برد الشتاء أضالعي
[لما نسجتها من جنوبٍ وشمألِ[1]]

وله أيضاً:

ليهنك إنَّ لي ولداً وعبداً
سواءً في المقال وفي المقام
فهذا سابقٌ من غير سبقٍ
وهذا عاقلٌ من غير لام[2]

وله في طبيب يدعى إسحاق:

مباضع إسحق الطبيب كأنها
لها بفناء العالمين كفيلُ
معوّدةٌ أن لا تسلَّ نصالها
فتغمد حتى يستباح قتيلُ

وله في أحمق طويل اللسان:

لو أنّ قوّة وجهه في قلبه
قنص الأسودَ وجندل الأبطالا
أو كان طول لسانه بيمينه
أفنى الكنوز وأنفذ الأموالا

وهجا أعرابي رجلاً ثم مدحه فقال:

إنيّ مدحتك من فساد قريحتي
وعلمت أن المدح فيك يضيعُ
لكن رأيت المسك عند فساده
يدني إلى بيت الخلا فيَضُوعُ

قيل لبعضهم: ما تقول في فلان وفلان؟ قال: هما الخمر والميسر إثمهما أكبر من نفعهما.

وقيل لرجل: كيف وجدت فلاناً؟ قال: طويل اللسان في اللؤم قصير الباع في الكرم، وثاباً على الشر منّاعاً للخير.

وسمع أعرابي قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾[1]. فانتفض، ثم سمع قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾[2]. فقال: الله أكبر هجانا ثم مدحنا، وكذلك قال الشاعر:

هجوت زهيراً ثم إني مدحته
وما زالت الأشراف تُهجى وتُمدح

وقال أبو زيد العبدي:

ولقد قتلتك بالهجاء فلم تمت
إنّ الكلاب طويلة الأعمار

وقال المتوكل لأبي العيناء: ما بقي أحد في المجلس إلاّ هجاك، وذمك غيري فقال:

إذا رضيت عني كرامُ عشيرتي
فلا زال غضباناً عليّ لِئامُهَا

الباب الرابع والأربعون
في الصدق والكذب
وفيه فصلان

الفصل الأول
في الصدق

قال الله تعالى مبشراً للصادقين: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾[4] فمدحهم وبين لهم المغفرة والأجر العظيم.

وقال عمر رضي الله عنه: عليك بالصدق وإن قتلك.

وما أحسن ما قيل في ذلك:

عليك بالصدق ولو أنه
أحرقك الصدق بنار الوعيدِ
وابغِ رضا المولى فأغبى الورى
من أسخط المولى وأرضى العبيد

وقال إسماعيل بن عبيد الله: لما حضرت أبي الوفاة جمع بنيه، فقال لهم: يا بني عليكم بتقوى الله وعليكم بالقرآن، فتعاهدوه، وعليكم بالصدق حتى لو قتل أحدكم قتيلاً، ثم سئل عنه أقرّ به. والله ما كذبت كذبة قط مذ قرأت القرآن.

(١) لقد ضمّن أبياته ثلاثة شطور من مطلع معلقة امرىء القيس التي تبدأ بقوله:
«قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزلي
بسقط اللوى بين الدخول فحومل»
وقد جعلنا ما لامرىء القيس بين حاصرتين.
(٢) أي العبد آبِقٌ والولد عَاقّ.

(١) سورة التوبة، الآية (٩٧).
(٢) سورة التوبة، الآية (٩٩).
(٣) سورة المائدة، الآية (١١٩).
(٤) سورة الأحزاب، الآية (٣٥).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ: بمَ يعرف المؤمن؟ قال: بوقاره ولين كلامه، وصدق حديثه. وقيل: لكل شيء حلية وحلية النطق الصدق.

وقال محمود الوراق:

الصدق منجاةٌ لأربابه
وقربة تدني من الرب

وقيل: الصدق عمود الدين، وركن الأدب، وأصل المروءة، فلا تتم هذه الثلاثة إلا به. وقال أرسطاطاليس: أحسن الكلام ما صدق فيه قائله، وانتفع به سامعه.

وقال المهلب بن أبي صفرة: ما السيف الصارم في يد الشجاع بأعزّ له من الصدق. وكان يقال على الصدوق: فلان وقف لسانه على الصدق. ويقال: الصدق محمود من كل أحد إلا من الساعي. ويقال: لو صدق عبد فيما بينه وبين الله تعالى حقيقة الصدق لأطلع على خزائن الغيب، ولكان أميناً في السماوات والأرض.

وقيل: من لزم الصدق وعوّد لسانه به وفق. ويقال: الصدق بالحر أحرى. وقال عتبة بن أبي سفيان: إذا اجتمع في قلبك أمران لا تدري أيهما أصوب، فانظر أيهما أقرب إلى هواك، فخالفه، فإن الصواب أقرب إلى مخالفة الهوى. وقال أرسطاطاليس: الموت مع الصدق خير من الحياة مع الكذب. وكان نقش خاتم ذي يزن، «وضع الخد للحق عز».

وامتدح ابن ميادة جعفر بن سليمان، فأمر له بمائة ناقة، فقبل يده، وقال: والله ما قبلت يد قرشي غيرك إلا واحد، فقال: أهو المنصور؟ قال: لا والله، قال: فمن هو؟ قال: الوليد بن يزيد. قال: فغضب، وقال: والله ما قبلتها لله تعالى، فقال: والله ولا يدك ما قبلتها لله تعالى، ولكن قبلتها لنفسي، فقال: والله لا ضرك الصدق عندي أعطوه مائة أخرى.

وقال عامر العدواني في وصيته: إني وجدت صدق الحديث طرفاً من الغيب فاصدقوا، يعني من لزم الصدق وعوّد لسانه وُفّق، فلا يكاد ينطق بشيء يظنه إلا جاء على ظنه.

وخطب بلال لأخيه امرأة قرشية، فقال لأهلها: نحن من قد عرفتم، كنا عبدين، فأعتقنا الله تعالى، وكنا ضالين، فهدانا الله تعالى، وكنا فقيرين، فأغنانا الله تعالى، وأنا أخطب إليكم فلانة لأخي، فإن تنكحوها له فالحمد لله تعالى، وإن تردونا، فالله أكبر. فأقبل بعضهم على بعض، فقالوا: بلال ممن عرفتم سابقته، ومشاهده ومكانه من رسول الله ﷺ، فزوجوا أخاه، فزوجوه، فلما انصرفوا قال له أخوه: يغفر الله لك أما كنت تذكر سوابقنا ومشاهدنا مع رسول الله ﷺ وتترك ما عدا ذلك، فقال: مه يا أخي صدقت فأنكحك الصدق.

وخطب الحَجّاجُ فأطال، فقام رجل، فقال: الصلاة، فإن الوقت لا ينتظرك والرب لا يعذرك، فأمر بحبسه، فأتاه قومه زعموا أنه مجنون وسألوه أن يخلي سبيله، فقال: إن أقر بالجنون خَلّيْتُه[1]، فقيل له، فقال: معاذ الله لا أزعم أن الله ابتلاني وقد عافاني. فبلغ ذلك الحجاج، فعفا عنه لصدقه.

الفصل الثاني من هذا الباب

في الكذب وما جاء به

قال الله تعالى في الكاذبين: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾[3]. وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، وتحروا الصدق فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة».

وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كذب العبد كذبة تباعد الملكان عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به». ويقال: راوي الكذب أحد الكذابين. ويقال: رأس المآثم الكذب وعمود الكذب البهتان[4]. وقيل: أمران لا ينفكان من الكذب، كثرة المواعيد، وشدة الاعتذار.

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[5]. وهي لكل واصف كذب إلى يوم القيامة. وقال الأصمعي: قلت لكذاب أصدقت قط؟ قال: لولا أني أخاف أصدق في هذا لقلت لك لا، فتعجب.

وقال محمود بن أبي الجنود:

لي حيلة فيمن ينم
وليس في الكذاب حيلة

---

(١) أي أطلقت سراحه لأنه كان قد اعتقله وسجنه.
(٢) سورة البقرة، الآية (١٠).
(٣) سورة الزمر، الآية (٦٠).
(٤) البهتان: أن تتحدث عن المرء بما ليس فيه.
(٥) سورة الأنبياء، الآية (١٨).

مـن كـان يـخـلـقُ مـا يـقـولُ
فـحـيـلـتـي فـيـه قـلـيـلـة

ويقال: فلان أكذب من لمعان السراب، ومن سحاب تمّوز[1] وكان بفارس محتسب يعرف بجراب الكذب، وكان يقول: إن مُنِعْتُ الكذب انشقت مرارتي، وإني والله لأجد به مع ما يلحقني من عاره من المسرة ما لا أجده بالصدق مع ما ينالني من نفعه. **وقال فيلسوف:** من عرف من نفسه الكذب لم يصدِّق الصادق فيما يقوله.

ولبعضهم:

حـسـب الـكـذوب مـن الـبـلـيـة
بـعـض مـا يـحـكـى عـلـيـهِ
فـمـتـى سـمـعـت بـكـذبـةٍ
مـن غـيـره نـسـبـت إلـيـهِ

وأضاف[2] صيرفي قوماً، فأقبل يحدثهم، فقال بعضهم: نحن كما قال تعالى: ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾[3].

وعن عبد الله بن السدي قال: قلت لابن المبارك حدثنا حديثاً، قال: ارجعوا، فلست أحدثكم، فقيل له: إنك لم تحلف، فقال: لو حلفت لكفّرت وحدثتكم، ولكن لست أكذب، فكان هذا أحب إلينا من الحديث.

وقال مجاهد: يكتب على ابن آدم كل شيء حتى أنينه في سقمه، وحتى أن الصبي ليبكي، فتقول له أمه: أسكت وأشتري لك كذا، ثم لا تفعل، فتكتب كذبة.

وقال الفضيل: ما من مضغة[4] أحب إلى الله تعالى من اللسان إذا كان صدوقاً، ولا مضغة أبغض إلى الله تعالى من اللسان إذا كان كذوباً. **وعن ابن مسعود** رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: «أعظم الخطايا اللسان الكذوب».

قال الشاعر:

لا يـكـذب الـمـرء إلاّ مـن مـهـانـتـه
أو فـعـلـه الـسـوء أو مـن قـلّـة الأدبِ
لـبـعـضُ جيفةِ كـلـبٍ خـيـر رائـحـةً
من كَـذبة المرء في جد وفي لعب

ولما نصب معاوية رضي الله تعالى عنه ابنه يزيد لولاية العهد أقعده في قبة حمراء وجعل الناس يسلمون على معاوية، ثم يسلمون على يزيد، حتى جاء رجل، ففعل ذلك، ثم رجع إلى معاوية فقال: يا أمير المؤمنين اعلم إنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها، والأحنف ساكت، فقال معاوية: مالك لا تقول يا أبا بحر؟ فقال: أخاف الله تعالى إن كذبت وأخافكم إن صدقت. فقال جزاك الله خيراً عما تقول، ثم أمر له بألوف، فلما خرج الأحنف لقيه ذلك الرجل بالباب، فقال له: يا أبا بحر إني لأعلم أن هذا من شرار خلق الله تعالى، ولكنهم استوثقوا من الأموال بالأبواب، والأقفال، فلسنا نطمع في إخراجها إلا بما سمعت، فقال له الأحنف: يا هذا أمسك، فإن ذا الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجيهاً.

وقيل: إن الكذب يحمد إذا وصل بين المتقاطعين أو أصلح بين الزوجين، ويذم الصدق إذا كان غيبة. وقد رُفع الحرج عن الكاذب في الحرب، وعن المصلح بين المرء وزوجه. وكان المهلب في حرب الخوارج يكذب لأصحابه يقوي بذلك جأشهم، فكانوا إذا رأوه مقبلاً إليهم، قالوا: جاءنا بكذب.

وقال يحيى بن خالد: رأينا شارب خمر نزع ولصاً أقلع وصاحب فواحش رجع، ولم نر كذاباً صار صادقاً. وكان عمر بن معد يكرب مشهوراً بالكذب. **وقيل لخلف الأحمر** وكان شديد التعصب لليمن: أكان ابن معد يكرب يكذب؟ فقال: كان يكذب في المقال، ويصدق في الفعال. قيل: إن بلالاً لم يكذب مذ أسلم رضي الله تعالى عنه، والحمد لله وحده.

الباب الخامس والاربعون
في بر الوالدين وذم العقوق وذكر الأولاد وما يجب لهم وعليهم وصلة الرحم والقرابات وذكر الأنساب

وفيه فصول

الفصل الأول
في بر الوالدين وذم العقوق

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا

(١) لأن سحاب تموز لا يمطر.
(٢) أضاف قوماً: إستضافهم.
(٣) سورة المائدة، الآية (٤٢).
(٤) المضغة: القطعة من اللحم.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[2]. وقال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[4]. **وعن علي** رضي الله تعالى عنه: لو علم الله شيئاً في العقوق أدنى من أف لحرمه، فليعمل العاق ما شاء أن يعمل، فلن يدخل الجنة، وليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار. **وقيل**: إنَّ رضا الرب في رضا الوالدين وسخط الرب في سخط الوالدين.

وحكى أبو سهل عن أبي صالح، عن أبي نجيح، عن ربيعة، عن عبد الرحمن، عن عطاء بن أبي مسلم أن رسول الله ﷺ قال: **«من حج عن والده بعد وفاته كتب الله لوالده حجة وكتب له براءة من النار»**.

وقال رسول الله ﷺ: «إياكم وعقوق الوالدين فإن ريح الجنة يوجد من مسيرة خمسمائة عام، ولا يجد ريحها عاق».

وكان رجل من النساك يُقبِّل كل يوم قدم أمه، فأبطأ يوماً على إخوانه، فسألوه، فقال: كنت أتمرغ في رياض الجنة، فقد بلغنا أن الجنة تحت أقدام الأمهات، وبلغنا أن الله تعالى كلم موسى عليه السلام ثلاثة آلاف وخمسمائة كلمة فكان آخر كلامه، يا رب أوصني قال: أوصيتك بأمك حسناً، قال له سبع مرات. قال حسبي، ثم قال: يا موسى ألا إن رضاها رضاي، وسخطها سخطي.

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه لابن مهران: لا تأتين أبواب السلاطين، وإن أمرتهم بمعروف أو نهيتهم عن منكر، ولاتخلون بامرأة وإن علمتها سورة من القرآن، ولا تصحبن عاقاً، فإنه لن يقبلك وقد عق والديه. **وقال فيلسوف**: من عقّ والديه عقه ولده.

وقال المأمون: لم أر أحداً أبر من الفضل بن يحيى بأبيه، بلغ على بره له أنه كان لا يتوضأ إلا بماء سخن، فمنعهم السجان من الوقود في ليلة باردة، فلما أخذ يحيى مضجعه قام الفضل إلى قمقم نحاس فملأه ماء وأدناه من المصباح، فلم يزل قائماً وهو في يده إلى المصباح حتى استيقظ يحيى من منامه.

وقيل: طلب بعضهم من ولده أن يسقيه ماء، فلما أتاه بالشربة نام أبوه، فما زال الولد واقفاً بالشربة في يده إلى الصباح حتى استيقظ أبوه من منامه.

وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: إن لي أماً بلغ منها الكبر أنها لا تقضي حاجتها إلا وظهري لها مطية، فهل أديت حقها؟ قال: لا. لأنها كانت تصنع بك ذلك وهي تتمنى بقاءك، وأنت تصنعه وتتمنى فراقها.

وقال ابن المنكدر: بت أكبس رجل أبي وبات آخر يصلي ولا يسرني ليلته بليلتي. **وقيل**: إن محمد بن سيرين كان يكلم أمه كما يكلم الأمير الذي لا ينتصف منه. **وقيل لعلي بن الحسين** رضي الله تعالى عنه: إنك من أبر الناس ولا تأكل مع أمك في صحفة، فقال: أخاف أن تسبق يدي يدها ما تسبق عيناها إليه، فأكون قد عققتها.

الفصل الثاني

في الأولاد وحقوقهم وذكر النجباء والأذكياء والبلداء والأشقياء

قال رسول الله ﷺ: «الولد ريحانة من الجنة». **وقال الفضل**: ريح الولد من الجنة. **وكان يقال**: ابنك ريحانتك سبعاً ثم حاجبك سبعاً، ثم عدو أو صديق.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قلت لسيدي رسول الله ﷺ: يا رسول الله هل يولد لأهل الجنة؟ قال: والذي نفسي بيده إن الرجل يشتهي أن يكون له ولد، فيكون حمله ووضعه وشبابه الذي ينتهي إليه في ساعة واحدة.

وقيل: من حق الولد على والده أن يوسع عليه حاله كي لا يفسق. **وقال عمر** رضي الله تعالى عنه: إني لأُكرِهُ نفسي على الجماع رجاء أن يخرج الله مني نسمة تسبِّحه وتذكره. **وقال** رضي الله تعالى عنه: أكثروا من العيال، فإنكم لا تدرون بمن ترزقون.

وقال شبيب بن شبة: ذهب اللذات إلا من ثلاثة: شم الصبيان، وملاقاة الأحزان، والخلوة مع النسوان.

ودخل عمرو بن العاص على معاوية وعنده ابنته عائشة فقال: من هذه يا أمير المؤمنين؟ قال: هذه تفاحة القلب، فقال: انبذها عنك، فإنهن يلدن الأعداء، ويقربن البعداء ويورثن الضغائن. قال: لا تقل يا عمرو ذلك. فوالله ما مرّض المرضى، ولا ندب الموتى، ولا أعان على

---

(١) سورة النساء، الآية (٣٦).
(٢) سورة الإسراء، الآية (٢٣).
(٣) سورة لقمان، الآية (١٤).
(٤) سورة الإسراء، الآيتان (٢٣ ـ ٢٤).

الاخوان إلا هن. فقال عمرو: يا أمير المؤمنين إنك حببتهن إليّ.

وقيل لرجل: أي ولدك أحب إليك؟ قال: صغيرهم حتى يكبر، ومريضهم حتى يبرأ، وغائبهم حتى يحضر.

وقال ابن عامر لامرأته أمامة بنت الحكم الخزاعية: إن ولدت غلاماً فلك حكمك، فلما ولدت قالت: حكمي أن تطعم سبعة أيام كل يوم على ألف خوان من فالوذج، وإن تعق بألف شاة[1]، ففعل لها ذلك.

وغضب معاوية على يزيد، فهجره، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين أولادنا ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا، ونحن لهم سماء ظليلة وأرض ذليلة وبهم نصول على كل جليلة، فإن غضبوا فأرضهم، وإن سألوا فأعطهم، وإن لم يسألوا فابتدئهم، ولا تنظر إليهم شزراً، فيملوا حياتك ويتمنوا وفاتك. فقال معاوية: يا غلام إذا رأيت يزيد فاقرأه السلام، واحمل إليه مائتي ألف درهم، ومائتي ثوب، فقال يزيد: مَنْ عِنْدَ أمير المؤمنين؟ فقيل له: الأحنف. فقال يزيد بن معاوية: عليّ به، فقال: يا أبا بحر كيف كانت القصة؟ فحكاها له، فشكر صنيعه، وشاطره الصلة.

حكى الكسائي أنه دخل على الرشيد يوماً فأمر بإحضار الأمين والمأمون ولديه، قال: فلم يلبث قليلاً أن أقبلا ككوكبي أفق يزينهما هداهما ووقارهما وقد غضّا أبصارهما[2] حتى وقفا في مجلسه، فسلما عليه بالخلافة، ودعوا له بأحسن الدعاء، فاستدناهما، وأسند محمداً عن يمينه وعبد الله عن يساره، ثم أمرني أن ألقي عليهما أبواباً من النحو، فما سألتهما شيئاً إلا أحسنا الجواب عنه، فسره ذلك سروراً عظيماً، وقال كيف تراهما؟ فقلت:

أرى قمريّ أفقٍ وفرعين شامة ... يزينهما عرقٌ كريمٌ ومحتدُ
سليلي أمير المؤمنين وحائزي ... مواريث ما أبقى النبي محمد
يسدّان أنفاق النفاق بشيمةٍ ... يزينهما حزمٌ وسيفٌ مهندُ

ثم قلت: ما رأيت ـ أعز الله أمير المؤمنين ـ أحداً من أبناء الخلافة ومعدن الرسالة وأغصان هذه الشجرة الزلالية آدب منهما ألسناً، ولا أحسن ألفاظاً، ولا أشد اقتداراً على الكلام روية وحفظاً منهما، أسأل الله تعالى أن يزيد بهما الإسلام تأييداً وعزاً، ويدخل بهما على أهل الشرك ذلاً وقمعاً. وأمّن الرشيد على دعائه، ثم ضمهما إليه، وجمع عليهما يديه، فلم يبسطهما حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره، ثم أمرهما بالخروج وقال: كأني بهما وقد دهم القضاء، ونزلت مقادير السماء، وقد تشتّت أمرهما، وافترقت كلمتهما بسفك الدماء، وتهتك الستور[1].

وكان يقال بنو أُمية دن خل أخرج الله منه زقّ عسل، يعني عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه.

وسب **أعرابي** ولده وذكر له حقه، فقال: يا أبتاه إن عظيم حقك عليّ لا يبطل صغير حقي عليك.

قال سيدي عبد العزيز الديريني رحمه الله تعالى:

أحب بنيتي ووددت أني ... دفنت بنيتي في قاع لحدِ
وما بي أن تهون عليّ لكنْ ... مخافة أن تذوق الذلّ بعدي
فإن زوّجتها رجلاً فقيراً ... أراها عنده والهم عندي
وإن زوّجتها رجلاً غنيّاً ... فيلطم خدّها ويسبّ جدّي
سألت الله يأخذها قريباً ... ولو كانت أحبَّ الناس عندي

وقال هارون بن علي بن يحيى المنجم:

أرى ابني تشابه من علي ... ومن يحيى وذاك به خليقٌ[2]
وإن يشبههما خُلقاً وخَلقاً ... فقد تسري إلى الشبْه العروق

وقال أبو النصر مولى بني سليم:

ونفرح بالمولود من آل برمك ... ولا سيما إن كان من ولد الفضلِ

وقال الحسن بن زيد العلوي:

---

(١) العقيقة: ما يذبح عن الولد في اليوم السابع من ولادته.
(٢) غض بصره: نظر إلى الأرض احتراماً وتقديراً لمن يقف أمامه.

(١) وهذا ما كان فقد خلع الأمينُ المأمونَ من ولاية العهد فخرج المأمون عليه وساعده الفرس لأن أمه فارسية ثم تقدم حتى حاصر بغداد، فلما سقطت قتلوا الأمين ونهبوا المدينة.
(٢) أي يشبه جَدَّهُ وجَدُّ أبيه.

قالوا عقيم[1] لم يولد له ولدٌ
والمرء يخلفه من بعده الولدُ
فقلت من علقت بالحرب همته
عاف النساء ولم يكثر له عدد

وكان الزبير بن العوام رضي الله عنه يرقص ولده ويقول:

أزهرٌ من آل بني عتيقِ
مباركٌ من ولد الصّديق
ألذه كما ألذ ريقي

وكانت إعرابية ترقص ولدها وتقول:

يا حبذا ريح الولد
ريح الخزامى في البلد[2]
أهكذا كل ولد
أم لم يلد مثلي أحد

وكان أعرابي يرقص ولده ويقول:

أحبّه حبّ الشحيح ماله
قد ذاق طعم الفقر ثم ناله
إذا أراد بذله بدا له

وكان لإعرابي امرأتان، فولدت احداهما جارية والأخرى غلاماً، فرقصته أمه يوماً وقالت معايرة لضرتها:

الحمد لله الحميد العالي
أنقذني العام من الجوالي
من كل شوهاء كشن بالي
لا تدفع الضيم عن العيال

فسمعتها ضرتها فأقبلت ترقص ابنتها وتقول:

وما عليّ أن تكون جاريه
تغسل رأسي وتكون الغاليه
وترفع الساقط من خماريه
حتى إذا ما بلغت ثمانيه

أزرتها بنقبةٍ يمانيه
أنكحتها مروان أو معاويه
أصهار صدقٍ ومهورٍ غاليه

قال: فسمعها مروان، فتزوجها على مائة ألف مثقال، وقال إن أمها حقيقة أن لا يكذب ظنها ويخان عهدها، فقال معاوية: لولا مروان سبقنا إليها لأضعفنا لها المهر ولكن لا نحرم الصلة، فبعث إليها بمائتي ألف درهم والله أعلم.

ومما جاء في الأولاد البلداء القليلي التوفيق:

قيل: نظر أعرابي إلى ولد له قبيح المنظر، فقال له: يا بني إنك لست من زينة الحياة الدنيا. وقال رجل لولده وهو في المكتب: في أي سورة أنت؟ قال: لا أقسم بهذا البلد ووالدي بلا ولد، فقال: لعمري من كنت أنت ولده، فهو بلا ولد، وأرسل رجل ولده يشتري له رشاء للبئر طوله عشرون ذراعاً، فوصل إلى نصف الطريق، ثم رجع فقال: يا أبت عشرون في عرض كم؟ قال: في عرض مصيبتي فيك يا بني.

وكان لرجل من الأعراب ولد اسمه حمزة، فبينما هو يوماً يمشي مع أبيه إذا برجل يصيح بشاب يا عبد الله، فلم يجبه ذلك الشاب، فقال: ألا تسمع؟ فقال: يا عم كلنا عبيد الله، فأي عبد تعني، فالتفت أبو حمزة إليه وقال: يا حمزة ألا تنظر إلى بلاغة هذا الشاب؟ فلما كان من الغد إذا برجل ينادي شاباً يا حمزة، فقال حمزة بن الأعرابي كلنا حماميز الله، فأي حمزة تعني، فقال له أبوه ليس يعنيك يا من أخمد الله به ذكر أبيه.

وكان لمحمد بن بشير الشاعر ابن جسيم، فأرسله في حاجته، فأبطأ عليه، ثم عاد ولم يقضها، فنظر إليه ثم قال:

عقله عقلُ طائرٍ
وهو في خلقة الجملْ

فأجابه:

مشبَّهٌ بك يا أبي
ليس لي عنك منتقل

ومما جاء في صلة الرحم:

قال رسول الله ﷺ: «صلة الرحم منهاة للولد مثراة للمال». وقيل: وجد حجر حين حفر إبراهيم الخليل عليه السلام أساس البيت، مكتوب عليه بالعبرانية، أنا الله ذوبكة خلقت الرحم وشققت لها اسماً من أسمائي، فمن

---

(١) العقيم: الذي لا يولد له أولاد لمرض به، وهي تقال للذكر والأنثى كما تستعمل للريح: ريح عقيم أي تحطم كل شيء وتقضي على الزرع والنسل.

(٢) ريح الخزامى: رائحة الخزامى والخزامى من الزهور ذات الرائحة الطيبة وكانت النساء إلى عهد قريب يضعنه في خزائن الملابس مجففاً ليعطيها رائحة طيبة. ورائحة الخزامى تدوم ولا تتبخر بسرعة كروائح الزهور الأخرى، ويسمى أيضاً اللاوند ومنه أسماء الغربيون بلغاتهم (lavande).

وصلها وصلته ومن قطعها بته أي قطعته[1].

وقال رسول الله ﷺ: «أعجل الخير ثواباً صلة الرحم».

وحدثنا أبو سهل عن صالح بن جرير بن عبد الحميد عن منصور، عن عطاء بن أبي مروان عن أبيه كعب الأحبار أنه قال: والذي فلق البحر لموسى بن عمران إن في التوراة لمكتوباً، يا ابن آدم اتق ربك وبر والديك وصل رحمك، أزد في عمرك، وأيسر لك في يسيرك، وأصرف عنك عسيرك.

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفيء غضب الرب جَلَّ وعلا، وصلة الرحم تزيد في العمر». وذكر تمام الحديث.

الفصل الثالث من هذا الباب

في ذكر الأنساب والأقارب والعشيرة

قال عمر رضي الله عنه: تعلموا أنسابكم تعرفوا بها أصولكم، فتصلوا بها أرحامكم. وقيل: لو لم يكن من معرفة الأنساب إلا اعتزازها من صولة الأعداء، وتنازع الأكفاء، لكان تعلمها من أحزم الرأي، وأفضل الثواب، ألا ترى إلى قول قوم شعيب عليه السلام حيث قالوا: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾[2]، فأبقوا عليه لرهطه. وقال عمر رضي الله عنه: تعلموا العربية، فإنها تزيد في المروءة، وتعلموا النسب، فربّ رحم مجهولة قد وصلت بعرفان نسبها.

وسئل عيسى عليه السلام: أي الناس أشرف؟ فقبض قبضتين من تراب، وقال: أي هاتين أشرف؟ ثم جمعهما وطرحهما، وقال: الناس كلهم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

كان أبو كبشة جد رسول الله ﷺ من قبل أمه، فلما خالف رسول الله ﷺ دين قريش قالوا: نزعه عرق أبي كبشة، حيث خالفهم في عبادة الشعرى[1].

وقال خالد بن عبد الله القشيري: سألت واصل بن عطاء عن نسبه فقال: نسبي الإسلام الذي من ضيعه، فقد ضيع نسبه، ومن حفظه فقد حفظ نَسَبَهُ، فقال خالد: وَجْهُ عَبْدٍ وَكَلَامُ حُرٍّ.

ومن كلام علي كرم الله وجهه: أكرم عشيرتك، فإنهم جناحك الذي به تطير، فإنك بهم تصول وبهم تطول وهم العدة عند الشدة، أكرم كريمهم وعُدْ سقيمهم، وأشركهم في أمورك، ويسر عن معسرهم.

وكان يقال: إذا كان لك قريب، فلم تمشِ إليه برجلك ولم تعطه من مالك، فقد قطعته.

ويقال: حق الأقارب إعظام الأصغر للأكبر، وحنو الأكبر على الأصغر. قال رسول الله ﷺ: «حق كبير الأخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده».

قال بعضهم:

وإذا رزقت من النوافل ثروةً
فامنح عشيرتك الأداني فضلها
واعلم بأنك لم تسوّد فيهم
حتى تُرَى دَمِثَ الخلائق سَهْلَهَا

الباب السادس والأربعون

في الخلق وصفاتهم وأحوالهم وذكر الحسن والقبيح والقصر والألوان والثياب وما أشبه ذلك

وفيه فصول

الفصل الأول

في الحسن ومحاسن الأخلاق

وإلى سيدنا محمد رسول الله ﷺ ينتهي الحسن

---

(1) ذوبكة: صاحب بكة أي مالكها وبكة قيل هو اسم مكة كلها لأن العرب تقلب الميم باء والباء ميماً في كثير من الكلمات مثال: لازب ولازم إلخ وقيل: بكة موضع المسجد الحرام في مكة، قلت: الرواية كلها كما هو ظاهر رواية إسرائيلية موضوعة فليس ثمة لغة عبرانية عرفت بهذا الإسم قبل موسى عليه السلام فلغة إبراهيم عليه السلام ومن قبله كانت العرمية (الآرامية) وما يسمى العبرية أو العبرانية ليس إلا لهجة عامية ضعيفة من لهجات العرمية، والعرمية هي اللغة العربية القديمة ومن لهجاتها العامية القديمة أيضاً ما يعرف اليوم باسم «السريانية» و«الآثورية» إلخ وهؤلاء الأقوام أخذوا هذه اللهجات الضعيفة وما زالوا عليها في الوقت الذي تطورت فيه اللغة العربية، واكتملت بلاغتها وكان أعظم تشريف لها نزول القرآن الكريم بها.

(2) وذكر الله سبحانه وتعالى قولهم هذا في سورة هود، الآية (91).

(1) الشعرى، مجموعة من النجوم من المجموعات التي سمّاها العرب قديماً.

والجمال. كان سيدنا محمد ﷺ: ربعة من القوم لا بائناً من طول ولا تقتحمه عين من قصر، أبيض اللون مشرباً بحمرة، أدعج العينين[1]، مفلج الثنايا[2]، دقيق المسربة[3]، أزهر الجبين[4]، واضح الخد[5]، أقنى الأنف[6]، كأن عنقه إبريق فِضّة، ظاهر الوضاءة يتلألأ وجهه تلألؤ القمر، شثن[7] الكفين مُسَبَّحَ القدمين[8]، واسع الصدر، من لبّته إلى سرته شعر يجري كالقضيب، ليس في بطنه ولا صدره شعر، غير أشعر الذراعين والمنكبين، لم يبلغ شيبه في رأسه ولحيته عشرين شعرة، ضخم الكراديس[9]، أنور المتجرد، إذا مشى كأنما ينحط من صبب، وإذا التفت التفت جميعاً، بين كتفيه خاتم النبوة، كأنه زر حجلة أو بيض حمامة، لونه كلون جسده، أبلج الوجه، حسن الخلق وسيما قسيماً في جبينه زجج وفي عينيه دعج، وفي عنقه سطع، وفي لحيته كثافة، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد وأحسنهم وأكملهم من قريب، كأنما منطقه خرزات نظم يتحدرن.

قال أنس رضي الله عنه: ما رأيت من ذي لمة سوداء في حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ.

ومدحه ﷺ حسان بن ثابت رضي الله عنه فقال:

وأحسن منك لم تر قطُّ عيني
وأجمل منك لم تلد النساءُ
خُلقت مبرّأً من كل عيبٍ
كأنك قد خلقت كما تشاء

---

(١) العين الدعجاء: العين الواسعة.
(٢) الثنايا: أسنان مقدم الفم التي ترى عند الابتسام ومفلج الثنايا: ثناياه متباعدة عن بعضها قليلاً وهو من علامات الجمال، قال الشاعر:
مفلجة الأسنان لو أن ريقها
يداوى به الموتى لقاموا من القبر
(٣) المسربة: الشعر المستدق الذي يأخذ من الصدر إلى السُّرة.
(٤) الجبين الأزهر: الجبين الواسع الأبيض تخالطه حمرة.
(٥) واضح الخد: خدُّه أبيض ظاهر نقي.
(٦) الأنف الأقنى هو الأنف الذي ارتفع وسط قصبته وضاق منخراه.
(٧) الشثن: الغليظ الخشن.
(٨) المسبح: القوي الشديد.
(٩) الكراديس ج كردوس وهو كل عظمين التقيا في مفصل نحو الكتفين والركبتين والوركين.

اللهم صل وسلم عليه واجعله شفيعاً لمن يصلي عليه.

وقال ﷺ: «ما حسن الله خلق عبد وخلقه إلا استحيا أن يطعم لحمه النار». وقد كان المتوكل رحمه الله من أحسن الخلفاء العباسية وجهاً وأبهاهم منظراً.

وكان مصعب بن الزبير من أحسن الناس وجهاً. حكي إنه كان جالساً بفناء داره يوماً بالبصرة، إذ جاءت امرأة فوقفت تنظر إليه، فقال لها: ما وقوفك يرحمك الله؟ فقالت: طفىء مصباحنا، فجئنا نقتبس من وجهك مصباحاً.

وقيل لإعرابية ظريفة: ما بال شفتيك مشققة؟ فقالت: إن التين إذا حلا تشقق والورد يتشقق إذا مسه الندى.

وكانت لبابة بنت عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهم من أجمل الناس وجهاً، وكانت عند الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، فكانت تقول: ما نظرت وجهي في مرآة مع إنسان إلا رحمته من حسن وجهي، إلا الوليد، فكنت إذا نظرت إلى وجهي مع وجهه رحمت وجهي من من حسن وجهه.

قال الشاعر:

ولو أنها في عهد يوسف قطّعت
قلوب رجالٍ لا أكفّ نساءِ

وقال كثير:

لو أن عزة حاكمت شمس الضحى
في الحسن عند موفقٍ لقضى لها

ومما جاء في محاسن الخلق منظوماً على الترتيب من الفرق إلى القدم:

ما قيل في الشعر: كان يقال من تزوج امرأة أو اتخذ جارية فليتحسن من شعرها، فإن الشعر الحسن أحد الوجهين.

قال بكر بن النطاح:

بيضاءُ تسحب من قيام شعرها
وتغيب فيه وهو وجةٌ أسحم[1]
فكأنها فيه نهار ساطع
وكأنه ليلٌ عليها مظلم

---

(١) أسحم: شديد السواد، وتسحب شعرها من قيام أي هو طويل تجره خلفها وهي واقفة وهو لكثافته يمكن أن يغطيها فتختفي بين خصلاته.

وللمتنبي:

نشرت ثلاث ذوائب من شعرها
في ليلةٍ فأرَتْ ليالي أربعا
واستقبلت قمرَ السماءِ بوجهها
فأرتني القمرين في وقت معا[1]

وله أيضاً:

لبسن الوشي[2] لا متجملات
ولكنْ كي يصنّ به الجمالا
وضَفَّرنَ الغدائر لا لحسنٍ
ولكنْ خفن في الشعر الضلالا

وقال الصفدي:

لولا شفاعة شعره في صبه
ما كان زار ولا أزال سقاما
لكن تنازل في الشفاعة عنده
فغدا على أقدامه يترامى

وقال ابن الصائغ:

ثنى غصناً ومدّ عليه فرعاً
كحظي حين أطلب منه وصلا
ويميله على الأرداف منه
فلم أر مثل ذاك الفرع أصلا

وقال آخر:

أرخى ثلاثاً يوم حمامه
ذوائباً تعبق منها الغوالِ[3]
فقلت والقصد ذؤاباته
واسهري في ذي الليالي الطوالِ

وقال آخر:

بدت ثريا قرطها وشعرها
متصلٌ بكعبها كما ترى
يا عجباً لشعرها لما ابتدى
من الثريا فانتهى إلى الثرى

وقال ابن المعتز:

(١) أي وجهها أبيض كالقمر وشعرها أسود كالليل ومن كانت هذه صفتها عند ولادتها سميت «ليلى» ولذا كنوا عن الكعبة أيضاً بـ «ليلى» لأنها بيضاء وكساؤها أسود يجللها.

(٢) الوشي: الملابس الموشاة بالحرير والمطرزة.

(٣) الغوالي: ج الغالية: وهو نوع من العطور الثمينة.

توارت عن الواشي بليل ذوائب
لها من محيا واضحٍ تحته فجرُ
يغطّي عليها شعرها بظلامه
وفي الليلة الظلماء يفتقد البدرُ

ومما قيل في الأصداغ:

قال ابن المعتز:

ريمٌ يتيه بحسن صورته
عبث النعاس بلحظ مقلته
وكأنّ عقرب صدغه وقفت
لمّا دنتْ من ورد وجنته

وقال العادلي:

وعهدي بالعقارب حين تشتو
يخفف لدغها ويقلّ ضرّاً
فما بال الشتاء أتى وهذي
عقارب صدغها تزداد شرّاً

وقال آخر:

وما ضره نارٌ بخديه ألهبت
ولكن بها قلبُ المحب يعذبُ
عناقيد صدغيه بخديّه تلتوي
وأمواج ردفيه بخصريه تلعب
شربت الهوى صرفاً زلالاً وإنّما
لواحظه تسقي وقلبي يشربُ

(ومما قيل في مدح العذار).

قال أبو فراس بن حمدان:

يا من يلوم على هواه جهالةً
انظرْ إلى تلك السوالف تَعْذُرِ
حسنت وطاب نسيمها فكأنها
مسكٌ تساقط فوق خدٍ أحمرِ

وقال محمد بن وهب:

صدودك والهوى هتكا استتاري
وساعدني البكاء على اشتهاري
وكم أبصرت من حسن ولكنْ
عليك لشقوتي وقع اختياري
ولم أخلع عذاراً فيك إلاّ
لما عاينت من خلع العذارِ[1]

(١) عاين الشيء معاينة: رآه عياناً ظاهراً جلياً.

وقال آخر:

ومـعـذّر رقّـت حـواشـي خـده
فـقـلـوبـنـا وجـداً عـلـيـه رقـاقُ
لـم يَكْسُ عـارضـه الـسـواد وإنـمّـا
نـفـضـت عـلـيـه سـوادهـا الأحـداق

وقال آخر:

ومـهـفـهـفٍ راقـت نـضـارة وجـهـه
والعيـن تـنـظـر مـنـه أحـسـن مـنـظـر
أصـلـى بـنـار الـخـد عـنـبـر خـالـه
فـبـدا الـعـذار دخـان ذاك الـعـنـبـر

وقال آخر:

أصبحتَ سُلطانَ القلوب مِلاحةً
وجـمـال وجـهـك لـلـبـريـة عـسـكـرُ
طـلـعـت طـلائـع وجـنـتـيـك مـغـيـرةً
بـالـنـصـر يـقـدمـهـا الـلـواء الأخـضـرُ

وقال آخر:

يـا ذا الـذي خـط الـعـذار بـخـده
خـطـيـن هـاجـا لـوعـةً وبـلابـلا(١)
مـا صـح عـنـدي أن لـحـظـك صـارمٌ
حـتـى حـمـلـت بـعـارضـيـك حـمـائـلا(٢)

وقال آخر:

من لا رأى كعبة الحسن التي حرست
بالنمل حيث مقام النحل في فمه(٣)
فلينظر النمل أضحى فوق عارضه
يطوف سبعاً وسبعاً حول مبسمهِ

وقال بدر الدين الدماميني:

تـحـدث لـيـلُ عـارضـهِ بـأنـي
سـأسـلـوه ويـنـصـرم الـمـزارُ
فـأشـرق صـبـحُ غـرتـه يـنـادي
حـديـث الـلـيـل يـمـحـوه الـنـهـار

وقال: سيدي أبو الفضل بن أبي الوفاء:

عـلـى وجـنـتـيـه جـنـةٌ ذاتُ بـهـجـةٍ
ترى لـعـيـون الـنـاس فـيـهـا تـزاحـمـا
حـمـى ورد خـديـه حـمـاة عـذاره
فيا حسن ريحان العذار حَمَى حِمَى

وقال ابن نباتة:

وبـمـهـجـتـي رشـأ يـمـيـس قـوامـه
فـكـأنـه نـشـوان مـن شـفـتـيـه(١)
شـغـف الـعـذار بـخـده ورآه قـد
نـعـسـت لـواحـظـه فـدبَّ عـلـيـه

وقال الموصلي:

لـحـديـثِ نـبـتِ الـعـارضـيـن حـلاوةٌ
وطـلاوةٌ هـامـت بـهـا الـعـشـاق
فـإذا نـهـانـي الـمـرء قـلـت تـرّفـقـوا
فـإلـيـكـم هـذا الـحـديـث يـسـاق

وقال آخر:

أصبحتُ مكسوراً بسهم لحاظه
ومـقـيـداً مـن صـدغـه ولـسـانـه
حـتـى بـدا سـيـف الـعـذار مـجـرداً
فـخـشـيـت يـقـتـلـنـي وذا مـن شـأنـه

ومما قيل في الجبين والحواجب:

قال خالد الكاتبُ:

لها من ظباء الرمل عينٌ مريضةٌ
ومن ناضر الريحان خضرة حاجبِ
ومـن يـانـع الأغـصـان قـدٌ وقـامـةٌ
ومن حالك الحبر اسوداد الذوائب

وقال آخر:

غزاني الهوى في جيشه وجنوده
وهبَّ علي الجيش من كلّ جانب
بـمـيـسـرة أجـنـادهـا أعـيـن الـمـهـا
وميمنةٍ تقضي بزجّ الحواجب

وقال آخر:

أيـا قـمـراً تـبـسّـم عـن أقـاحِ
ويـا غـصـنـاً يـمـيـل مـع الـريـاحِ
جـبـيـنـك والـمـقـبّـل والـثـنـايـا
صـبـاحٌ فـي صـبـاح فـي صـبـاح

---

(١) البلابل ج بلبلة وبلبالاً أي ما يوقع المرء في الحيرة والاضطراب والوسواس.
(٢) أين عينك سيف وعارضيك حائل هذا السيف.
(٣) مقام النحل في فمه: أي أن ريقه عَسَلٌ.

(١) الرشأ: الغزال، يميس قوامه: يتمايل في مشيه غِنَجاً ودلالاً.

ومما قيل في العيون:

قال الأصمعي: ما وصف أحد العيون بمثل ما وصف أحمد بن الرقاع في قوله:

وكأنها دون النساء أعارها
عينيه أحور من جآذر جاسم[(1)]
وَسْنَانَ أَقْصَدَهُ النعاس تلاعبت
في جفنه سِنَةٌ وليس بنائم

وقال ابن المعتز:

عليمٌ بما تحت العيون من الهوى
سريعٌ بكسر اللحظ والقلب جازع
فيجرح أحشائي بعينٍ مريضةٍ
كما لانَ متن السيف والحدّ قاطع

وقال الأخطل:

ولا تلمم بدار بني كليبٍ
ولا تقرب لها أبداً رحالا
ترى فيها بوارق مرهفاتٍ
يَكَدْنَ يكِدْنَ بالحرق الرجالا

وقال أبو فراس وأحسن.

وبيضٍ بألحاظ العيون كأنما
هززن سيوفاً واستللن خناجرا
تصدين لي يوماً بمنعرج اللوى
فغادرن قلبي بالتصبر غادرا
سفرن بدوراً والتقين أهلة
ومَيسنَ غصوناً والتفتن جآذرا

وقال آخر:

ومريض جفن ليس يصرف طرفه
نحو امرىء إلا رماه بحتفه
قد قلت إذ أبصرته متمايلاً
والردف يجذب خصره من خلفه
يا من يسلم خصره من ردفه
سَلِّمْ فؤادَ مُحِبِّهِ من طرفه

وقال أبو هتان:

أخو دنفٍ رمته فأقصدته
سهامٌ من جفونك لا تطيشُ[(2)]

فَوَاتِكُ لا يقال سوى احورار
بهن ولا سوى الأهداب ريشُ
أصبن فؤاد مهجته فأضحى
سقيماً لا يموت ولا يعيشُ
كئيباً إن تَرَحَّل عنه جيش
من البلوى أناخ به جيوش

وقال آخر:

جاءوا إليه بالتعاويذ والرّقى
فصبّوا عليه الماء من شدّة النكسِ
وقالوا به من أعين الجن نظرةٌ
ولو أنصفوا قالوا به أعين الأنس

وقال عز الدين الموصلي:

لها عينٌ لها غزوٌ وغزلٌ
مكحلةٌ ولي عينٌ تباكتْ
وحاكت في فعائلها المواضي
فيا لك مقلةٌ غزلت وحاكت

وقال برهان الدين القيراطي:

شبّه السيف والسنان بعيني
من لقتلي بين الأنام استحلاّ
فأتى السيف والسنان وقالا
حدّثنا دون ذاك حاشى وكلاّ

وله أيضاً:

بأبي أهيف المعاطف لدنٌ
حسد الأُسمرُ المثقفُ قَدَّه[(1)]
ذو جفون مذ رمت منها كلاماً
كلمتني سيوفهن بَحَدِّه

وقال الشيخ عز الدين الموصلي:

يا مقلة الحبّ مهلاً
فقد أخذت بثاركْ
وأنتِ يا وجنتيه
لا تحرقيني بناركْ

وقال ابن الصائغ:

لمثلي من لواحظها سهامٌ
لها في القلب فتكٌ أيّ فتك

---

(1) جآذر ج جؤذر وهو نوع من البقر الوحشي، وجآذر جاسم: نوع من البقر الوحشي اشتهرت بجمال عيونها.

(2) أخو دنف: مريض من العشق والهوى. أقصدته: استهدفته فأصابته. لا تطيش: لا تخيب رمايتها أي هي صائبة لهدفها.

(1) الأسمر المثقف: الرمحُ رُكّبَ فيه نصله.

إذا رامت تشك به فؤاداً
يموت المستهام بغير شكّ

وقال الصلاح الصفدي:

يا عاذلي على عينٍ محجبةٍ
خفْ سحر ناظرها فالسحر فيه خَفِي[1]
وخذ فؤادي ودعه نُصْبَ مقلتها
لا ترم نفسك بين السهم والهدف

وقال الآخر:

بسهم أجفانه رماني
فذبتُ من هجره وبينه
إن متّ ما لي سواه خصمٌ
لأنّه قاتلي بعينه

وقال آخر:

سهام الجفن كم قتلت لنفس
مُبَرَّأةً من السلوى زكية
فما أقوى جفونك وهي مرضى
وأقدرها على قتل البرية

ومما قيل في الخال:

للصلاح الصفدي:

بروحي خَده المحمر أضحى
عليه شامةً شرط المحبه
كأن الحسن يعشقه قديماً
فنقّطه بدينار وحبّه

ولابن الصائغ:

بروحي أفدي خاله فوق خدّه
ومن أنا في الدنيا فأفديه بالمالِ
تبارك من أخلى من الشعر خدّه
وأسكن كل الحسن في ذلك الخال

للشيخ جمال الدين بن نباتة:

لله خالٌ على خدِ الحبيب له
في العاشقين كما شاء الهوى عبث
أورثته حبّة القلب القتيل به
وكان عهدي بأنّ الخالَ لا يرثُ

وقال آخر:

يا سالباً قمر السماء جماله
ألبستني في الحزن ثوب سمائه
أحرقت قلبي فارتمى بشرارةٍ
علقت بخدّك فانطفت في مائه

للشيخ تقي الدين بن حجة:

قلت للخال إذ بدا
في نقا جيده السعيد
فزت يا عبد قال لي
أنا عبدٌ لكل جيد[1]

وقال ابن أيبك:

في الجانب الأيمن من خدها
نقطة مسك أشتهي شمّها
حسبته لما بدا خالها
وجدته من حسنها عمّها

وقال الحسين بن الضحاك:

يا صائد الطير كم ذا
باللحظ تضني وتسبي
نصبتَ نقطةَ خالٍ
فصدتَ طائرَ قلبي

ومما قيل في الخدود:

قال ابن المعتز:

صل بخدي خديك تلقَ عجيباً
من معان يحار فيها الضميرُ
فبخديك للربيع رياضٌ
وبخدّيَّ للدموع غدير[2]

وقال آخر:

ورد الخدود ونرجس اللحظات
وتصافح الشفتين في الخلوات
شيٌ أسرُ به وأعلم أنه
وحياته أحلى من الملذات

ومما قيل في الثغور:

قال يوسف بن مسعود الصواف:

بروحي من ولى فولى بمهجتي
وولى منامي وهو كالوصل شاردُ

---

(١) العاذل: اللائم على الحب.

(١) الجيد: العنق الطويل الحَسَنُ.
(٢) الغدير: نبع ماء يتجمع ماؤه فيما يشبه البركة.

حمى ثغره مني بسيف لحاظه
وحتّام يحمي ثغره وهو بارد

وقال آخر:

أنفقت كنز مدامعي في ثغره
وجمعت فيه كل معنى شاردِ
وطلبت منه جزاء ذلك قبلة
فمضى وراح تغزلي في البارد

وقال آخر:

رأى ثغر من أهوى عذولي فقال لي
ولم يدر أن اللوم في خده يغري
شغلت بهذا وارتبطت بحسنه
وأحسن ما كان الرباط على ثغر

وقال ابن ريان:

لاحت على مبسمه المشتهى
ثلاث شامات غدت في التثام
لا تعجبوا إن كثرت حوله
فالمنهل العذب كثير الزحام

ومما قيل في حسن الحديث:

قال البحتري:

ولما التقينا والنقا موعدٌ لنا
تعجب رائي الدر حسناً ولاقطه[1]
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها
ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه[2]

وقال ابن الرومي:

يمسي ويصبح معرضاً فكأنه
ملكٌ عزيزٌ قاهر سلطانه
ليست إساءته بناقصة له
درّ يساقطه إليّ لسانه

وما أحسن هذه الأبيات:

وهي من طارف الشعر ووافره وناقده وجيد الكلام وبارع الوصف:

وكلّ حديث الناس إلا حديثها
رجيع وفيما حدثتك الطرائف

(١) النقا: الكثيب أو التل الصغير الرملي.
(٢) اللؤلؤ الأول هو أسنانها، والثاني: حديثها العذب.

جرحن بأعناق الظباء وأعين الـ
ـمجآذر وارتجت بهن الروادف
رجحن بأرداف ثقال وأسوق
جزالٍ وأعضاءٍ عليها المطارف

ومما قيل في رقة البشرة:

قال ابن المعتز:

نضت عنها القميص لصبّ ماءٍ
فورّد خدّها فرط الحياء[1]
وقابلت الهواء وقد تعرت
بمعتدل أرقّ من الهواء[2]
ومدت راحة كالماء منها
إلى ماء عتيدٍ في إناء[3]
فلما أنْ قضت وطراً وهمّت
على عجل إلى أخذ الرداء
رأت شخص الرقيب على تدانٍ
فأسبلت الظلام على الضياء[4]
فغاب الصبح منها تحت ليلٍ
وظلّ الماء يقطر فوق ماء

وقال آخر:

تغيّر عن مودته وحالا
وكان مواصلاً فطوى الوصالا
وعلّمه التدلل كيف هجري
فليت الوصل كان له دلالا
ترى من فوق حقويه قضيباً
إذ ما حركته خُطاه مالا[5]

وقال بشار:

وما ظفرت عيني غداة لقيتها
بشيء سوى أطرافها والمحاجر
كحوراء من حور الجنان غريرةٍ
يرى وجهه في وجهها كلُّ ناظر[6]

(١) أي استحت من نفسها لرؤية جسدها عارياً.
(٢) أي أن بشرتها أرق من الهواء.
(٣) في رواية أخرى: مُعَدٌ بدل «عتيد».
(٤) أي أسبلت شعرها الأسود على بدنها فغطاها.
(٥) الحقو: موضع عقد الإزار عند الخصر.
(٦) أي أن خديها مصقولان كالمرآة.

ومنه أخذ أبو نواس قوله:

نظرت إلى وجهه نظرةً
فأبصرت وجهي في وجهه

وقال آخر:

توهمه قلبي فأصبح خدّه
وفيه مكان الوهم من نظري أثَرْ

ومر بفكري جسمه فجرحته
ولم ار جسماً قط تجرحه الفِكَرْ

وقال آخر:

سقى الله روضاً قد تبدى لناظرٍ
به شادنٌ كالغصن يلهو ويمرح

وقد نضحت خداه من ماء ورد
وكل إناءٍ بالذي فيه ينضح

وقال آخر:

وأهيف خدّه كُسيَ احمراراً
وحاز الحسن فهو بلا شَبيهِ

فلو أخجلته بالقول جهدي
لحمرة خدّه ما بانَ فيه[1]

وَمما قيل في التقبيل:

لمظفر الأعمى:

قبلته فتلظى جمر وجنته
وفاح من عارضيه العنبر العبق

وجال بينهما ماءٌ ولا عجبٌ
لا ينطفي ذا ولا ذا منه يحترق

وقال آخر:

سألته في ثغره قبلةً
فقال ثغري لم يجزْ لثمه

فهاكها في الخد واقنع بها
ما قارب الشيء له حكمه

وقال صاحب حماة:

قال الذي تيمني
قولوا لمن خبّلته

يروم مني قبلةً
لو مات مما قبلته

(١) أي لشدة إحمرار الخد طبيعة، إذا احمرَّ خجلاً لا تظهر حمرة الخجل في وجنتيه.

وللشيخ عز الدين الموصلي:

كالزرد المنظوم أصداغه
وخدّه كالورد لما ورد

بالغت في اللثم وقبلته
في الخد تقبيلاً يفكُّ الزرد

وقال آخر:

رأيت الهلال على وجهه
فلم أدر أيهما أنورُ

سوى أن ذاك بعيد المزار
وهذا قريبٌ لمن ينظرُ

وذاك يغيب وذا حاضرٌ
وما من يغيب كمن يحضر

ونفع الهلال قليلٌ لنا
ونفع الحبيب لنا أكثر

وقال ابن صابر:

قبلْتُ وجنته فألفتَ جيدَهُ
خجلاً وماس بعطفه المياسِ

فانهلّ من خديه فوق عذاره
عرقٌ يحاكي الطلّ فوق الآس[1]

فكأنني استقطرت ورد خدوده
بتصاعد الزفرات من أنفاسي

وقال آخر:

قبْلت رجلَ حبيبي
فازْوَرّ واحمرّ خدّا

وقال تلثم رجلي
لقد تنازلت جِدّا

فقلت ما جئت بدعاً
ولا تجاوزت حَدّا

رجلٌ سعت بك نحوي
حقوقها لا تؤدى[2]

ومما قيل في الوجه الحسن:

(١) يحاكي: يماثل ويشابه، الطل: الندى، الآس: المراد ورق الآس ويسمى أيضاً الريحان أي أن العرق الذي تصبّب من خديه أشبه بالندى فوق ورق الريحان.

(٢) أي مهما فعلت لا يمكنني أن أؤدي حقها علي لسعيها بك إليّ.

قال ابن نباتة:

إنسيةٌ في مثال الجن تحسبها
شمساً بدت بين تشريق وتغميم
شقّت لها الشمس ثوباً من محاسنها
فالوجه للشمس والعينان للريم

وقال عبد الله بن أبي خبيص:

تصدّ من غير علة
بالعزّ أضحت مذلّة
كأنها حين تدنو
شمسٌ عليها مِظلّة
وان أضاءت بليلِ
تفوق نور الأهِلّة

وقال آخر:

أقسم بالله وآياته
ما نظرت عيني إلى مثله
ولا بدا وجهه طالعاً
إلاّ سألت الله من فضله[(١)]

وقال آخر:

أقيمي مكان البدر إن أفل البدر
وقومي مقام الشمس قد أمّها الفَجْرُ
ففيك من الشمس المنيرة نورها
وليس لها منك التبسُّمُ والثّغرُ

وقال عمر بن أبي ربيعة:

ذاتُ حسنٍ إن تغبْ شمس الضحى
فلنا من وجهها عنها خلف
أجمع الناس على تفضيلها
وهواهم في سوى هذا اختلف

أخذ أبو تمام هذا المعنى فرده إلى المدح فقال:

لو أن إجماعنا في فضل سؤدده
في الدين لم يختلف في الأمة اثنان

وقال آخر:

يا مفرداً في الحسنِ والشكلِ
من دَلّ عينيك على قتلي
البدر من شمس الضحى نوره
والشمس من نورك تستملي

(١) وإنما يسأل المرء الله من فضله إذا بدا الهلال.

وقال آخر:

ففي أربعٍ منيّ حلت منك أربع
فما أنا أدري أيها هاج لي كربي
أوجهك في عيني أم الريق في فمي
أم النطق في سمعي أم الحبّ في قلبي

فلما سمعه إسحاق بن يعقوب الكندي قال هذا تقسيم فلسفي وجعله العلوي خمسة فقال:

وفي خمسة منيّ حلت منك خمسةٌ
فريقك منها في فمي طيّب الرشف
ووجهك في عيني ولمسك في يدي
ونطقك في سمعي وعرفك في أنفي[(١)]

وقال ابن نباتة:

أيها العاذل الغبيّ تأمل
من غدا في صفاته القلب ذائبْ
وتعجّب لطرةٍ وجبين
إنّ في الليل والنهار عجائبْ

وقال محمود المخزومي:

رأيتك في الشمس المنيرة غدوةً
فكنت على عينيّ أبهى من الشمس
لأنك تزهو إن بدا الليل بهجةً
وشمس الضحى ليست تضيء إذا تُمْسِي

ومما قيل في البنان المخضب:

قال ابن الرومي:

وقفتْ وقفةً بباب الطاق
ظبيةٌ من من مخدرات العراق[(٢)]
بنت سبع وأربع وثلاثٍ
أسرت قلب صبّها المشتاق
قلت من أنت يا غزال فقالت
أنا من لطف صنعة الخلاّق
لا ترم وصلنا فهذا بنانٌ
قد صبغناه من دم العشّاق

(١) العرف: الرائحة ولا تقال إلا للرائحة الطيبة.
(٢) باب الطاق: موضع في بغداد، والمخدرة: الفتاة إذا بلغت الحلم ولم تخرج للخدمة أو العمل بل تبقى في خِدْرها أي في غرفتها.

وقال الراضي بالله:

قالوا الرحيل فأنشبت أظفارها
في خدّها وقد اعتلقت خطابها
فظننت أن بنانها من فضةٍ
قطفت بنور بنفسجٍ عنابها

وقال آخر:

لما اعتنقنا للوداع وأعربت
عبراتنا عنّا بدمعٍ ناطق
فرقن بين محاجر ومعاجر
وجمعن بين بنفسج وشقائق

وقال آخر:

ولما تلاقينا رأيت بنانها
مخضبةً تحكي عصارة عندم
فقلت خضبت الكفّ بعدي أهكذا
يكون جزاء المستهام المتيّم
فقالت وأذكت في الحشى لاعج الجوى
مقالة من بالوّد لم يتبرم
بكيت دماً يوم النوى فمسحته
بكفيّ فاحمرّت بناني من دمي

وقال آخر:

دنوتِ عشية التوديع منّي
ولي عينان بالدمّ تجريان
فلم يمسحن إكراماً جفوني
ولكن رمْنَ تخضيب البنانِ

ومما قيل في النحور:

قال دعبل:

أتاح لك الهوى بيضاً حساناً
تباهى بالعيون وبالنحور
نظرت إلى النحور فكدت تقضي
فكيف إذا نظرت إلى الخصور

ومما قيل في نعت النهود:

قال العباس بن الأحنف:

والله لو أن القلوب كقلبها
ما رقّ للولد الضعيف الوالد
جال الوشاح على قضيبِ زانه
تفاح صدرٍ ما حوته ناهد

وقال عمرو بن كلثوم:

تراك إذا دخلت على خلاءٍ
قد امتدت عيون الكاشحينا[1]
لنهدٍ مثل حقّ العاج حسناً
حصيناً من أكف اللامسينا[2]

وقال آخر:

صدور فوقهن حقاق عاجٍ
ودرٌ زانه حسن اتساق
يقول الناظرون إذا رأوه
أهذا الحلي من هذي الحقاق
وما تلك الحقاق سوى ثدي
جعلن من الحقاق على وفاق
نواهد لا يعدّ لهن عيبٌ
سوى منع المحب من العناق

وقال آخر:

لقد فتكت عيون الغيد فينا
ببيضٍ مرهفاتٍ وهي سودُ
وتطعننا القدود إذا التقينا
بسمرٍ من أسنّتها النهود

ومما قيل في المعاصم:

قال عمر بن أبي ربيعة:

حسروا الوجوه بأذرع ومعاصم
ورنوا بنُجلٍ للقلوب كوالم[3]
حسروا الأكمّة عن سواعد فضةٍ
فكأنما انتصبت متون صوارمِ

ومما قيل في اعتدال القوام:

قال صلاح الدين الصفدي:

تقول له الأغصان مذ هزّ عطفه
أتزعم أنّ اللّينَ عندك ما ثوى
فقم نحتكم للروضِ عند نسيمه
لتقضي على من مال منا إلى الهوى

وقيل: ليس لأحد من شعراء العرب في نعت محاسن

---

(١) الكاشح: العدو المبغض.
(٢) الحق: وعاء لحفظ العطور.
(٣) كوالم ج كالم أي جارح.

النساء من الأوصاف البارعة مع جودة السبك ورقة اللفظ ما لذي الرمة حتى كأنه حضري من أهل المدن لا من أهل الوبر.

وقال آخر:

ومُــخــكِــم أعــطــافــه
في قــتــل صــب مــا غــوى
فــاعــجــب لــمــعــادل قــدّه
في الــنــفــس يــحــكــم بــالــهــوى

وقال آخر:

ومُهَفْهَفٍ عني يميل ولم يملْ
يوماً إليّ فَصِحْتُ من ألم الجوى
لِمَ لا تميل إليّ يا غصن النقا
فأجاب كيف وأنت من أهل الهوى

ومما قيل في الساق:

قال ذو الرمّة:

لم أنسه إذ قام يكشف عامداً
عن ساقه كاللؤلؤ البرّاقِ
لا تعجبوا إنْ قام فيه قيامتي
إنّ القيامة يوم كشف السّاقِ

وقال آخر:

جاءت بساقٍ أبيضٍ أملسٍ
كلؤلؤٍ يبدو لعشاقها

وقال ابن منقذ:

بــدرٌ ولــكــنــه قــريــبٌ
ظــبــيٌ ولــكــنــه أنــيــسُ
إن لــم يــكــن قــدّه قــضــيــبــاً
فــمــا لأعــطــافــه تــمــيــسُ[1]

ومما قيل في مشي النساء:

قال بعضهم:

يهززن للمشي أطرافاً مخضّبة
هزّ الشمال ضحى عيدان نسرين
أو كاهتزازِ رُدَيني تداوله
أيدي الرجال فزاد المتن في اللين[2]

(١) أي أن أعطافه تميل كميل الغصن الرطيب أو قضيب الخيزران.
(٢) الرديني: نوع من الرماح.

وقال آخر:

يمشين مشي قطا البطاح تأوداً[1]
قبّ البطون[2] رواجح الأكفالِ[3]
فكأنهن إذا أردن زيارةً
يقلعن أرجلهنّ من أوحالِ

ومما قيل في العناق وطيبه:

لابن المعتز:

ما أقصر الليل على الراقد
وأهون السقم على العائد
كأنني عانقت ريحانةً
تنفسّت في ليلها البارد
فلو ترانا في قميص الدّجى
حسبتنا في جسدٍ واحد

وقال آخر:

وموشحٍ نازعت فضل وشاحه
وأعرته من ساعديّ وشاحا
بات الغيور يشقّ جلدة وجهه
وأمال أعطافاً عليّ ملاحا

وقال ابن المعدل:

أقول وجَنحُ الدّجى مسبلُ
واللّيل في كلّ فجٍ يدُ
ونحن ضجيعان في مسجدٍ
فلله ما ضمّنا المسجد
أيا غدُ إنْ كنت لي محسناً
فلا تدنُ من ليلتي يا غدُ
ويا ليلة الوصل لا تقصري
كما ليلة الهجر لا تنفد

وقال آخر:

ليلٌ رقيق الطرتين تظلمّت
كواكبه من بدره المتألق[4]

(١) القطا: نوع من الطيور الصحراوية تبني أعشاشها في الرمل وقطا البطاح سمينة فلذا هي بطيئة الخطو.
(٢) أي ضامرات البطون دقيقات الخصور.
(٣) أكفالهن ضخمة.
(٤) أي رقيق المبتدى والمنتهى.

لهونا بغزلان الصريمة تحته
نميت الهوى ما بين صدرٍ ومرفق

قال ابن المعتز:

وكم عناقٍ لنا وكم قبلٍ
مختلساتٍ حذار مرتقبِ
نقر العصافير وهي خائفةٌ
من النواطير يانع الرطبِ

وقال ديك الجن:

ومعدولةٍ مهما أمالت ازارها
فغصنٌ وأما قدّها فقضيبُ
لها القمر الساري شقيقٌ وإنها
لتطلع أحياناً له فيغيب
أقول لها والليل مرخٍ سدوله
وغصن الهوى غضُّ النبات رطيب
لأنت المنى يا زين كل مليحةٍ
وأنت الهوى أدعى له فأجيبُ

وقال آخر:

يا ليل دُمْ لي لا أريد براحاً
حسبي بوجه معذبي مصباحاً
حسبي بمضحكه إذا استضحكته
مستغنياً عن كل نجمٍ لاحا
طوّقته طوق العناق بساعدٍ
وجعلت كفّي للشام وشاحا
هذا هو اليوم النعيم فخلنا
متعانقين فلا نريد براحاً

وقال آخر:

ولم أنس ضمّي للحبيب على رضاً
ورشفي رضاباً كالرحيق المسلسلِ
ولا قوله لي عند تقبيل خدّه
تنقّلْ فلذّات الهوى في التنقّلِ

ومما قيل في السمن:

قال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول: ما رأيت سميناً عاقلاً إلا محمد بن الحسن.

قال الشاعر:

لا أعشق الأبيض المنفوخ من سمنٍ
لكنني أعشق السُّمر المهازيلا
إني امرؤٌ أركب المهر المضمّر في
يوم الرهانِ وغيري يركب الفيلا

ومما قيل في مدح الألوان والثياب:

مدح البياض: قال رسول الله ﷺ: «**البياض نصف الحسن**». وكان ﷺ أبيض أزهر اللون مشرباً بحمرة.

قال الشاعر:

بيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابهم
شمّ الأنوف من الطراز الأولِ

ومما قيل في مدح السواد:

قيل لبعضهم: ما تقول في السواد؟ قال: النور في السواد. أراد بذلك نور العينين في سوادهما.

وقال بعضهم:

قالوا تعشّقتها سوداء قلت لهم
لون الغوالي ولون المسك والعودِ
إني امرؤ ليس شأن البيض مرتفعاً
عندي ولو خلت الدنيا من السود

وقال الحيقطان:

لئن كنت جعد الرأس اللون فاحمٌ
فأني بسيط الكف والعرض أزهرُ[1]
وإن سواد اللون ليس بضائري
إذا كنت يوم الروع بالسيف أخطر

دخل إبراهيم بن المهدي على المأمون فقال: إنك لنعم الخليفة الأسود، فقال إبراهيم: نعم، فتمثل المأمون ببيت نصيب، فقال:

إن كنت عبداً فنفسي حرّةٌ كرماً
أو أسود اللون إني أبيض الخلق

ثم قال يا عم: أخرجنا الهزل إلى الجد، فأنشد إبراهيم:

ليس يزري السواد بالرجل الشهم
ولا بالفتى الأريب الأديب
إن يكن للسواد فيك نصيبٌ
فبياض الأخلاق منك نصيبي

وقال آخر:

لام العواذل في سوداء فاحمةٍ
كأنها في سواد القلب تمثال

---

(١) بسيط الكف: كريم، العرض أزهر: العرض مُصَانٌ أَبْيَضُ لا تشوبه شائبة.

وهام في الخال أقوامٌ وما علموا
أني أهيم بشخص كله خَالُ[١]

وقيل لمدني: كيف رغبتم في السواد؟ فقال: لو وجدنا بيضاء لسوَّدناها.

وقال آخر:

يكون الخال في خد قبيح
فيكسوه الملاحة والجمالا
فكيف يلام ذو عشقٍ على من
يراها كلها في الخد خالا

وقال آخر:

فاستحسنوا الخال في خد فقلت لهم
إني عشقت مليحاً كله خال

وقال أبو حاتم المدني ينشد:

ومن يك معجباً ببنات كسرى
فإني معجباً ببنات حام[٢]

وتفاخرت حبشية ورومية، فقالت الرومية: أنا حبة كافور، وأنت عدل فحم[٣]، فقالت الحبشية: أنا حبة مسك، وأنت عدل ملح.

وقد قال الشاعر:

أُحب لحبِّها السودان حتى
أُحب لحبها سود الكلاب

وقال آخر:

أشبهك المسك وأشبهته
قائمةً في لونه قاعده
لا شكَّ إذ لونكما واحدٌ
أنكما من طينةٍ واحده

ومما قيل في الصفرة:

قال الشاعر:

أصفراءَ كان الهجر منك مزاحاً
ليالي كان الود منك مباحا
كأنَّ نساء الحي ما دمت فيهمُ
قباحاً فلمّا غبت صرن ملاحا[٤]

وقال آخر:

قالوا به صفرةٌ شانت محاسنه
فقلت ما ذاك من عيبٍ به نزلا
عيناه مطلوبةٌ في ثار من قتلتْ
فلست تلقاه إلاّ خائفاً وجلا

ومما قيل في طول اللحية:

قيل: إن اللحية الطويلة عش البراغيث. ونظر يزيد الشيباني إلى رجل ذي لحية عظيمة تلتف على صدره وإذا هو خاضب[١]، فقال له: يا هذا إنك من لحيتك في مؤنة، فقال: أجل، ولذلك أقول:

لها درهمٌ للدهن في كل جمعةٍ
وآخر للحنَّاء ينتدبان
ولولا نوالٌ من يزيد بن مزيدٍ
لأصبح في حافاتها الحمنان[٢]

وقال إسحاق بن خلف في قصبر طويل اللحية:

ماشيت داود فاستضحكتُ من عجب
كأنّه والدٌ يمشي بمولود
ما طول داود إلا طول لحيته
يظن داود فيها غير موجود

وقال ابن المقفع:

تأملت أسواق العراق فلم أجدْ
دكاكينهم إلاّ عليها المواليا
جلوساً عليها ينفضون لحاهم
كما نفضت عجف البغال المخاليا[٣]

ومما جاء في عظم الخلقة والطول والقصر:

قيل: خرب القهندز[٤] فبرزت منه جماجم أموات، فتصدعت جمجمة فانتشرت أسنانها، فوزن السن منها. فكان وزنها أربعة أرطال، فأتي بها إلى ابن المبارك، فجعل يقلبها ويتعجب من عظمتها، ثم قال:

---

(١) أي كله أسود اللون، لأن الخال يكون عادة مائلاً إلى السواد.
(٢) لأنهم يقولون إن العرق الأسود من البشر من أبناء حام بن نوح.
(٣) العدل: الكيس.
(٤) أي أن جمال نساء الحي لا يقارن بجمالك فلا يبدون جميلات إلا في حال غيابك.

(١) أي قد خضب لحيته بالحنّاء.
(٢) الحمنان: صغار حشرة القُراد.
(٣) المخالي: ج مخلاة وهي ما يعلّق في عنق الحمير والبغال ويوضع فيها الشعير.
(٤) القهندز: اسم القلعة أو الحصن في وسط المدينة وهو في مواضع كثيرة: منها قهندز بخارى وقهندز بلخ وقهندز نيسابور وغيرها.

إذا مـا تـذكـرت أجـسـامـهـم
تـصـاغـرت الـنـفـس حـتـى تـهـون

وأراد ملك الروم أن يباهي أهل الإسلام فبعث إلى معاوية رجلين أحدهما طويل والثاني قصير شديد القوة، فدعا للطويل بقيس بن سعد بن عبادة فنزع قيس سراويله ورمى بها إليه، فلبسها الطويل فبلغت ثدييه، فلاموا قيساً على نزع السراويل، فقال:

أردت لـكـيـمـا يـعـلـم الـنـاس أنـهـا
سـراويـل قـيـسٍ والـوفـود شـهـود
وكـي لا يـقـولـوا خـان قـيـسٌ وهـذه
سـراويـل عـاد أحـرزتـهـا ثـمـود
وإنـيّ مـن الـقـوم الـيـمـانـيـن سـيّـدٌ
ومـا الـنـاس إلا سـيـدٌ ومـسـود

ثم دعا معاوية للرجل الشديد في قوته بمحمد بن الحنفية، فخيره بين أن يقعد فيقيمه أو يقوم فيقعده، فغلبه في الحالتين وانصرفا مغلوبين.

وقيل: كان سلمة بن مرة الناموسي أسر امرأ القيس بن النعمان اللخمي الملك، وكان الناموسي قصيراً مقتحماً، واللخمي طويلاً جسيماً، فقالت بنت امرىء القيس: يا هذا القصير أطلق أبي، فسمعه سلمة بن مرة، فقال:

لقد زعمت بنت امرىء القيس أنني
قـصـيـرٌ وقـد أعـيـا أبـاهـا قـصـيـرهـا
وربَّ طـويـلٍ قـد نـزعـت سـلاحـه
وعـانـقـتـه والـخـيـل تـدمـى نـحـورهـا

وقالوا: عِظَمُ اللحية يدل على البله وعرضها على قلة العقل وصغرها على لطف الحركة، وإذا وقع الحاجب على العين دل على الحسد، والعين المتوسطة في حجمها تدل على الفطنة، وحسن الخلق والمروءة، والتي يطول تحديقها تدل على الحمق، والتي تكسر طرفها تدل على خفة وطيش. والشعر على الأذن يدل على جودة السمع، والأذن الكبيرة المنتصبة تدل على حمق وهذيان.

ومما قيل في القبح والدمامة:

أراد رجل أن يكتب كتاباً لبعض أصحابه فلم يجد من يرسله معه إلا رجلاً وحش الصورة بشع المنظر، فلم يقدر على تحليته لفرط دمامته، فكتب إلى صاحبه يأتيك بهذا الكتاب آية على آيات الله تعالى وقَدَرِه، فدعه يذهب إلى نار الله وسَقَرِه.

ومر أبو الأسود الدؤلي بمجلس لبني بشير فقال: بعض فتيانهم كأن وجهه وجه عجوز راحت إلى أهلها بطلاقها.

وقال الجاحظ: ما أخجلني قط إلا امرأة مرت بي إلى صائغ، فقالت له: اعمل مثل هذا، فبقيت مبهوتاً، ثم سألت الصائغ، فقال: هذه المرأة أرادت أن أعمل صورة شيطان.

فقلت: لا أدري كيف أصوره، فأتت بك إليّ لأصوره على صورتك.

وفي الجاحظ يقول الشاعر:

لو يُمسخ الخنزير مسخاً ثانياً
مـا كـان إلاّ دون قـبـح الـجـاحـظِ
رجلٌ ينوب عن الجحيم بوجهه
وهـو الـعـمـى فـي عـيـن كلِّ مـلاحـظ
ولـو أنّ مـرآة جـلـت تـمـثـالـه
ورآه كـان لـه كـأعـظـم واعـظ

وقال الأصمعي: رأيت بدوية من أحسن الناس وجهاً ولها زوج قبيح، فقلت: يا هذه أترضين أن تكوني تحت هذا؟ فقالت: يا هذا لعله أحسن فيما بينه وبين ربه، فجعلني ثوابه، وأسأت فيما بيني وبين ربي، فجعله عذابي، أفلا أرضى بما رضي الله به.

وحج مخنث، فرأى رجلاً قبيح الوجه يستغفر، فقال: يا حبيبي ما أراك أن تبخل بهذا الوجه على جهنم. وقال بعضهم لرجل: طلع لي دمل في أقبح المواضع، فقال له: كذبت هذا وجهك ليس فيه شيء. وخرج رجل قبيح الوجه إلى المتجر، فدخل اليمن، فلم ير فيها أحسن منه وجهاً، فقال:

لـــم أر وجـــهـــاً حـــســـنـــا
مـــنـــذ دخـــلـــت الـــيـــمـــنـــا
فـسـيـبـا شـــقـــاء بـــلـــدة
أحـــســـن مـــن فـــيـــهـــا أنـــا

وخطب رجل عظيم الأنف امرأة، فقال لها: قد عرفت أني رجل كريم المعاشرة محتمل المكاره، فقالت: لا شك في احتمالك المكاره مع حملك هذا الأنف أربعين سنة.

وقال الشاعر في رجل كبير الأنف:

لـك وجـهٌ وفـيـه قـطـعـة أنـفٍ
كـجـدار قـد أدعـمـوه بـبـغـلـه
وهـو كـالـقـبـر فـي الـمـثـال ولـكـن
جـعـلـوا نـصـبـه عـلـى غـيـر قـبـلـه

وقال آخر:

لك أنف من أنوف
أنفت منه الأنوف[1]
أنت في القدس تصلي
وهو في البيت يطوف

ومما جاء في الثقلاء:

قال مطيع بن إياس:

قلت لعباس أخينا
يا ثقيل الثقلاء
أنت في الصيف سموم[2]
وجليدٌ في الشتاء
أنت في الأرض ثقيلٌ
وثقيلٌ في السماء

ومما جاء في الملابس وألوانها والعمائم ونحوها:

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝﴾[3]. وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[4].

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده». وقال ﷺ: «تعمموا تزدادوا جمالاً». وقال ﷺ: «العمائم تيجان العرب». وكان الزبير بن العوام يقاتل يوم بدر وعليه عمامة صفراء، فنزلت الملائكة، وعليهم عمائم صفر قد أرخوها. وبعث رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل، فتخلف عن الجيش، وأتى إلى رسول الله ﷺ وعليه عمامة سوداء من خز، فنقضها رسول الله ﷺ وعممه بيده وأسدلها بين كتفيه قدر شبر، وقال: هكذا اعتم يا ابن عوف. وبعث ملك الروم إلى النبي ﷺ جبة ديباج، فلبسها ثم كساها عثمان.

وكان سعيد بن المسيب يلبس الحلة بألف درهم ويدخل المسجد، فقيل له في ذلك، فقال: إني أُجالس ربي. وقيل: المروءة الظاهرة الثياب الطاهرة. وقيل: البس البياض والسواد، فإن الدهر هكذا بياض نهار وسواد ليل:

ومما قيل في لبس السواد قول أبي قيس:

رأيتك في السواد فقلت بدراً
بدا في ظلمة الليل البهيمِ
وألقيت السواد فقلت شمس
محت بشعاعها ضوء النجوم

وقدم تاجر إلى المدينة يحمل من خُمُر العراق، فباع الجميع إلا السود، فشكا إلى الدارمي ذلك، وكان الدارمي قد نسك وتعبد، فعمل بيتين، وأمر من يغني بهما في المدينة، وهما هذان البيتان:

قل للمليحة في الخمار الأسود
ماذا فعلت بزاهدٍ متعبِّد
قد كان شمّر للصلاة إزاره
حتى قعدت له بباب المسجد

قال: فشاع الخبر في المدينة أن الدارمي رجع عن زهده وتعشق صاحبة الخمار الأسود، فلم يبق في المدينة مليحة إلا اشترت لها خماراً أسود، فلما أنفذ التاجر ما كان معه رجع الدارمي إلى تعبده وعمد إلى ثياب نسكه فلبسها.

وقال آخر في لابسة الأحمر:

وشمس من قضيبٍ في كثيبٍ
تبدّت في لباس جلناري
سقتني ريقها صرفاً وحيّت
بوجنتها فهاجت جلّ ناري

وقال آخر في لابسة ثوب خمري:

في ثوبها الخمري قد أقبلت
بوجنةٍ حمراء كالجمر
فملت سكراً حين أبصرتها
لا تنكروا سكري من الخمر

وقال الصنوبري في لابسة أخضر:

وجارية أدبتها الشطاره
ترى الشمس من حسنها مستعاره
بدت في قميصٍ لها أخضرٍ
كما ستر الورق الجلناره
فقلت لها ما اسم هذا اللباس
فأبدت جواباً لطيف العباره
شققنا مرائر قومٍ به
فنحن نسمّيه شقّ المراره

وقال حكيم لابنه: إياك أن تلبس ما يديم الملك نظره إليك به، واعلم أن الوشي لا يلبسه إلا الأحمق أو ملك. وعليك بالبياض.

وقيل: لباس البخلاء الاستبرق لطول بقائه، ولباس المترفين السندس لقلة بقائه، ولباس المقتصدين الديباج لتوسط بقائه.

---

(١) روي الشطر الأول بلفظ: «لك أنف يا ابن عيسى».
(٢) السموم: رياح صيفية حارة مواذية.
(٣) سورة الضحى، الآية (١١).
(٤) سورة الأعراف، الآية (٣١).

وقال بعض الأمراء لحاجبه: أدخل عليّ عاقلاً، فأتاه برجل، فقال: بم عرفت عقله؟ فقال: رأيته يلبس الكتان في الصيف والقطن في الشتاء. والملبوس في الحر، والجديد في البرد.

وقيل: كان لأبرويز عمامة طولها خمسون ذراعاً إذا اتسخت ألقاها في النار فيحترق الوسخ ولا تحترق، وكان له رداء حسن يتلون كل ساعة وسراويل مجوهرة، وتكة من أنابيب الزمرد. وقيل: الأقبية لباس الفرس، والقراطق لباس الهند، والأزر لباس العرب. **وسئل بعض العرب** عن الثياب، فقال: الصفر أشكل، والحمر أجمل، والخضر أقبل، والسود أهول، والبيض أفضل.

وقال أفلاطون: الصبغ الشقائقي، والروائح الزعفرانية تسكن الغضب، والصبغ الياقوتي والروائح الوردية تحرك السرور، وإذا قرب اللون الأحمر إلى اللون الأصفر تحركت القوة العشقية، وإذا مزجت الحمرة بالصفرة تحركت القوة الغريزية، وإذا مزجت التفاحية بالحمرة تحركت الطبائع كلها.

وكان مصعب بن الزبير يقول: لكل شيء راحة، وراحة البيت كنسه، وراحة الثوب طيه. **وقال بعض الأعراب**: رأيت في البصرة بروداً كأنها نسجت بأنواع الربيع. **ودخل بعض العذريين** على معاوية وعليه عباءة، فازدراه، فقال يا أمير المؤمنين: إن العباءة لا تكلمك وإنما يكلمك من فيها.

ومما قيل فيمن رذل لبسه وعرف نفسه:

قال الأصمعي: رأيت أعرابياً فاستنشدته، فأنشدني أبياتاً، وروى أخباراً، فتعجبت من جماله وسوء حاله، فسكت سكتة ثم قال:

أأخيّ إن الحادثا
تِ عركنني عرك الأديم
لا تنكرنْ أن قد رأيت
أخاك في طمري عديم[(١)]
إن كان أثوابي رثاث
فإنهنّ على كريم

قال بعضهم وقيل للشافعي رحمه الله تعالى:

عليّ ثيابٌ لو تقاس جميعها
بفلسٍ لكان الفلس منهنّ أكثرا
وفيهنّ نفسٌ لو يقاس ببعضها
نفوس الورى كانت أجلّ وأكبرا
وما ضرّ نصلُ السيف إخلاق غمده
إذا كان عضباً حيث وجّهه برى[(١)]

ودخل بعضهم على الرشيد فازدراه، فأنشده:

ترى الرجل الخفيف فتزدريه
وفي أثوابه أسدٌ هصور
ويعجبك الطرير فتبتليه
فيخلف ظنّك الرجل الطرير
لقد عظم البعير بغير لب
فلم يستغن بالعظم البعير
يصرّفه الصبي بغير وجهٍ
ويحبسه على الخسف الجرير
وتضربه الوليدة بالهراوي
فلا عارٌ عليه ولا نكير
فإن أك في شراركمو قليلاً
فإني في خياركمو كثير

ويقال: كُلْ ما تشتهيه نفسك والْبِسْ ما تشتهيه الناس وقد نظمه من قال:

إنّ العيون رمتك إذ فاجأتها
وعليك من مهنِ الثياب لباسُ
أمّا الطعام فكل لنفسك ما اشتهت
واجعل لباسك ما اشتهته الناسُ

وفي هذا القدر كفاية والله أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السابع والأربعون
في التختم والحلي والمصوغ والطيب والتطيب وما أشبه ذلك

ما جاء في التختم:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يتختم في يمينه، وقبض عليه الصلاة والسلام والخاتم في يمينه.

---

(١) طمري عديم: ثوبي فقير معدم أي في ثوبين باليين.

(١) إخلاق غمده: أي إن كان غمده خَلِق قديم مُقَطّع وعضباً: قاطعاً، حاد الشفرة.

قال بعض من مدحه عليه الصلاة والسلام:

كف الرسالة ليس يخفى حسنها
وتمام حسن الكفّ لبس الخاتم

وذكر السلامي أن رسول الله ﷺ كان يتختم في يمينه، والخلفاء بعده، فنقله معاوية رضي الله تعالى عنه إلى اليسار، وأخذ الأموية بذلك، ثم نقله السفاح إلى اليمين، فبقي إلى أيام الرشيد رضي الله تعالى عنه، فنقله إلى اليسار، وأخذ الناس بذلك.

وعن علي رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ **«تختموا بخواتيم العقيق، فإنه لا يصيب أحدكم غم ما دام عليه ذلك»**. **وبلغ عمر بن عبد العزيز** رضي الله تعالى عنه أن ابنه اشترى فص خاتم بألف دينار، فكتب إليه عزمت عليك إلا ما بعت خاتمك بألف دينار وجعلتها في بطن جائع، واستعمل خاتماً من ورق[1] وانقش عليه: رحم الله امرأ عرف قدر نفسه.

وكان خاتم علي رضي الله عنه من ورق، ونقشه: نِعمَ القادر الله. وكان لأبي نواس خاتمان أحدهما عقيق مربع وعليه مكتوب:

تعاظمني ذنبي فلما قرنته
بعفوك ربّي كان عفوك أعظما

والآخر حديد صيني عليه: أشهد أن لا إله إلا الله مخلصاً، وأوصى عند موته أن يغسل الفص ويجعل في فمه.

قال جعفر بن محمد رضي الله تعالى عنه: ما افتقرت يد تختمت بخاتم فيروزج. وقيل: الخواتم أربعة: الياقوت للعطش، والفيروزج للمال، والعقيق للسنة، والحديد الصيني للحرز. وقيل للخوف، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر ما جاء في الحلي:

قيل: إن قرطي مارية بنت ظالم بن وهب بن الحرث بن معاوية كان فيهما درتان كبيض الحمام لم ير مثلهما، ولم يدر قيمتهما.

وقال محمد: بعثني يوسف بن عمر إلى هشام بياقوتة حمراء يخرج طرفاها من كفي، كانت للرائقة جارية خالد بن عبد الله القسري اشترتها بثلاثة وسبعين ألف دينار، وحبة لؤلؤ أعظم ما يكون من الحب، فدخلت عليه بهما فقال: اكتب معك بوزنهما، فقلت يا أمير المؤمنين: هما أعظم من أن يكتب بوزنهما، فقال: صدقت:

وبعث معاوية إلى عائشة رضي الله تعالى عنها طوقاً من ذهب فيه جوهرة قومت بمائة ألف دينار، فقسمته بين أزواج النبي ﷺ، وكان ملك العرب كلما مرت عليه سنة من سني ملكه زيدت في تاجه خرزة، وكان يقال لها خرزات الملك.

ذكر ما جاء في الطيب والتطيب:

قال رسول الله ﷺ: «أطيب الطيب المسك».

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كأني أنظر إلى وبيص الطيب[1] في مفارق رسول الله ﷺ وهو محرم.

وعن سهل بن سعد يرفعه: «إن في الجنة لمرعى من مسك مثل مراعي دوابكم هذه». **وعن أنس** رضي الله تعالى عنه قال: دخل علينا رسول الله ﷺ، فنام فعرق فجاءت أمي بقارورة، فجعلت تسلت العرق فيها فاستيقظ وقال: يا أم سليم: ما هذا الذي تصنعين؟ فقالت: هذا عرقك نجعله في طيبنا، وهو من أطيب رائحة الطيب.

وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال: لو كنت تاجراً ما اخترت على العطر إن فاتني ربحه لم يفتني ريحه. وناول المتوكل فتى فارة المسك فقال:

لئن كان هذا طيبنا وهو طيبٌ
لقد طيّبته من يديك الأنامل

وأهدى عبد الله بن جعفر لمعاوية قارورة من الغالية، فسأله: كم أنفق عليها، فذكر مالاً جزيلاً، فقال: هذه غالية فسميت بذلك. وشمها مالك بن سليمان بن خارجة من أخته هند بنت أسماء فقال: علميني كيف تصنعين طيبك؟ فقالت: لا أفعل، تريد أن تعلمه جواريك، هو لك مني كلما أردته، ثم قالت: والله إني ما تعلمته إلا من شعرك حيث تقول:

أطيبُ الطيبِ عَرْفُ أم أبانِ
فار مسكٍ بعنبرٍ مسحوق

قال أبو قلابة: كان ابن مسعود رضي الله تعالى عنه إذا خرج من بيته إلى المسجد عرف جيران الطريق أنه مر من طيب ريحه، وعن الحسن بن زيد الهاشمي، عن أبيه قال: رأيت ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يطلي جسده، فإذا مرّ في الطريق قال الناس: أمرّ ابن عباس أم مر المسك؟

(١) مِنْ وَرِقٍ: أي من فِضَّةٍ.

(١) وبيص الطيب: التماعه، لأن الطيب زيتي القوام.

وعنه، عن أبيه قال: رأيت ابن عباس رضي الله تعالى عنهما حين أحرم والغالية على صدغيه كأنها لزقة.

وقال أبو الضحى: رأيت على رأس الزبير من المسك ما لو كان لي لكان رأس مالي. وقيل: لما بنى عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه بفاطمة بنت عبد الملك، أسرج في مسارجه تلك الليلة بالغالية.

وقال الشعبي: الرائحة الطيبة تزيد في العقل.

وقال علي كرم الله تعالى وجهه: تشمموا النرجس ولو في العام مرة، فإن في قلب الإنسان حالة لا يزيلها إلا النرجس. وكان الشعبي يقول: إذا ورد الورد صدر البرد. وكانت الصحابة رضي الله تعالى عنهم يستحبون إذا قاموا من الليل أن يمسوا لحاهم بالطيب. وكان من اختلف في طرقات المدينة وجد عرفاً طيباً، قيل: ولذلك سميت طيبة. وأقول: والله ما طابت طيبة إلا بالقلب الطاهر ﷺ وما أحسن ما قيل:

إذا لم أطب في طيبةٍ عند طيبٍ
به طيبةٌ طابت فأين أطيب

وقيل: إن فارة المسك دويبة شبيهة بالخشف تصاد لسرتها، فإذا صادها الصياد عصب السرة بعصابة شديدة، فيجتمع فيها دمها ثم يذبحها، ثم يأخذ السرة فيدفنها في الشعير حتى يستحيل الدم المجتمع فيها مسكاً ذكياً بعد أن كان لا يرام نتناً. وقد يوجد جرذان سود يقال لها فارات المسك ليس عندها إلا رائحة لازمة لها.

وحكي أن العنبر يأتي على طفاوة الماء لا يدري أحد معدنه، فلا يأكله شيء إلا مات ولا ينقره طائر إلا بقي منقاره فيه، ولا يقع عليه حيوان إلا نصلت أظفاره فيه، والتجار والعطارون ربما وجدوا أظفاراً فيه.

وقال الزمخشري عفا الله عنه: سمعت ناساً من أهل مكة يقولون: هو من زبد بحر سرنديب. وأجود العنبر الأشهب، ثم الأزرق، وأدونه الأسود.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في العنبر زكاة إنما هو شيء نثره البحر. وأما العود، فأجوده المندلي وهو منسوب إلى مندل قرية من قرى الهند. وأجوده أصلبه وامتحان رطبه أن تطبع فيه نقش الخاتم، فإن انطبع، فرطب وإلا فلا، ومن خصائصه أن رائحته تطبع في الثوب أسبوعاً فلا يقمل ما دامت فيه. وأما الكافور فهو ماء شجر بجزيرة الكافور يخزونه بالحديد، فإذا خرج ظاهراً وضربه الهواء انعقد كالصموغ الجامدة على الأشجار، وأما الند فمصنوع وهو العود المستقطر والعنبر واللبان:

لو كنت أحمل جمراً حين زرتكم
لم ينكر الكلب أني صاحبُ الدارِ
لكنْ أتيت وريح المسك يقدمني
والعنبر الندّ مشبوبٌ على النار

وكانت ملوك الفرس تأمر برفع الطيب أيام الورد. وكان المتوكل يلبس أيام الورد الثياب الموردة ويفرش الورد في مجلسه، ويطيب جميع آلاته بالورد. وقال الحسن بن سهل: أمهات الرياحين تقوى بأمهات الطيب، فالنرجس يقوى بالورد، والورد يقوى بالمسك، والبنفسج يقوى بالعنبر، والريحان يقوى بالكافور، والنسرين يقوى بالعود.

وقال جالينوس: المسك يقوي القلب، والعنبر يقوي الدماغ، والكافور يقوي الرئة، والعود يقوي المعدة، والغالية تحل الزكام، والصندل يحل الأورام.

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تردوا الطيب فإنه طيب الريح خفيف المحمل». تبخر بعض الأمراء وعنده أعرابي، ففرطت من الأمير ريح خفيفة، فأراد أن يعلم هل فطن بها الأعرابي أم لا؟ فقال: ما أطيب هذا المثلث! قال: نعم، ولكنك ربعتها.

وقال الأحنف: إن شم رائحة المسك يحيي القلب. وقال سلمة لابن عباس وعنده جعفر بن سليمان: ما شمّت أنفي من ريح مسك شممته من الناس إلا ريح كفك أطيب. فأمر له بألف دينار، ومائة مثقال مسك، ومائة مثقال عنبر(1)، والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثامن والاربعون

في الشباب والصحة والعافية وأخبار المعمرين وما أشبه ذلك

وفيه فصول

الفصل الأول

في الشباب وفضله

روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: ما بعث الله نبياً إلا شاباً ولا أوتي العلم عالماً إلا شاباً، ثم تلا

(1) المثقال يساوي ٣,٥ جرام تقريباً.

هـــــذه الآيــــــة: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝﴾[1]. وقد أخبر الله تعالى به، ثم آتى يحيى بن زكريا الحكمة. وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[2]. وقال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾[5].

وقال أنس رضي الله تعالى عنه: قبض رسول الله ﷺ وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء. وقد قدم رسول الله ﷺ أسامة بن زيد على جميع الأنصار وكبار المهاجرين على حداثة سنه، وعتاب بن أسيد ولاه مكة وبها أكابر قريش، وعبد الله بن عباس على جلالة قدره وحفظه من العلم.

وقال بعض البلغاء: الشباب باكورة الحياة، وأطيب العيش أوائله كما أن أطيب الثمار بواكيرها. والشباب أبلغ الشفعاء عند النساء وأكثر الوسائل لقلوبهن. **ولذلك قال الشاعر:**

أحلى الرجال مع النساء مواقعاً
من كان أشبههم بهن خدودا

وما بكت العرب على شيء ما بكت على الشباب، ولو لم يكن هذا الشباب حميداً وزمانه حبيباً لوسامة صورته وبهجة منظره وجمال خلقته واعتدال قامته لما جاور الله في جنات خلده الشباب، **كما قال رسول الله ﷺ: «جرداً مرداً أبناء ثلاثين»**. وقد جاء في ذلك أشياء كثيرة ليس هذا موضع بسطها.

الفصل الثاني
في الشيب وفضله

أول من شاب سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام. وفي الخبر أن الله تعالى يقول: **«الشيب نوري وأنا أستحي أن أحرقه بناري»**. وعن جعفر بن محمد، عن أبيه قال: جاء رجلان إلى النبي ﷺ شيخ وشاب، فتكلم الشاب قبل أن يتكلم الشيخ، فقال عليه الصلاة والسلام: **«كبّر كبّر»**. وبهذه الرواية: من وقر كبيراً لكبر سنه آمنه الله من فزع يوم القيامة.

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: **«يقول الله تعالى وعزتي وجلالي وفاقة خلقي إليّ أني لأستحي من عبدي وأمتي يشيبان في الإسلام أن أعذبهما»**. ثم بكى، فقيل له: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: أبكي ممن يستحي الله منه وهو لا يستحي من الله. **وقال**: من بلغ ثمانين من هذه الأمة حرمه الله على النار. **وقال**: إذا بلغ المؤمن ثمانين سنة فإنه أسير الله في الأرض تكتب له الحسنات وتمحى عنه السيئات.

وقيل: كان الرجل فيمن كان قبلكم لا يحتلم حتى يبلغ ثمانين سنة. **وقال ابن وهب**: إن أصغر من مات من ولد آدم ابن مائتي سنة، فبكته الانس والجن لحداثة سنه. **وقال النخعي**: كان يقال إذا بلغ الرجل أربعين سنة على خلق لم يتغير عنه حتى يموت. **وعن ابن عباس** رضي الله عنهما رفعه: **«من أتى عليه أربعون سنة ثم لم يغلب خيره على شره فليتجهز إلى النار»**. وعن أنس رضي الله عنه قال: قال ملك الموت لنوح عليه الصلاة والسلام، يا أطول النبيين عمراً كيف وجدت الدنيا ولذتها؟ قال: كرجل دخل في بيت له بابان، فقام وسط البيت ساعة ثم خرج من الباب الثاني. **ويقال**: أطع أكبر منك ولو بليلة. **وقال عبد العزيز بن مروان**: من لم يتعظ بثلاث لم ينته بشيء: الإسلام، والقرآن، والشيب.

قال الشاعر:

يا عامر الدنيا على شيبه
فيك أعاجيبٌ لمن يعجبُ
ما عذر من يعمر بنيانه
وعمره منهدمٌ يخربُ

وقال الشعبي: الشيب علة لا يعاد منها ومصيبة لا يعزى عليها، **وقال الفرزدق:**

ويقول كيف يميل مثلك للظبا
وعليك من عظم المشيب عذارُ
والشيب ينقص في الشباب كأنه
ليلٌ يصيح بعارضيه نهار

وقال أبو دلف في بياض اللحية:

تكوّنني همٌ لبيضاء نابته
لها بغضةٌ في مضمر القلب ثابته
ومن عجبٍ أني إذا رمت قصّها
قصصت سواها وهي تضحك نابته

---

(١) سورة الأنبياء، الآية (٦٠).
(٢) سورة مريم، الآية (١٢).
(٣) سورة الكهف، الآية (١٠).
(٤) سورة الكهف، الآية (١٣).
(٥) سورة الكهف، الآية (٦٠).

وقال أيضاً:

أرى شيب الرجال من الغواني
بمبلغ شيبهن من الرّجال

وقال ابن المعتز:

فظللت أطلب وصلها بتذلّلٍ
والشيب يغمزها بأنْ لا تفعلي

قيل: صاح شاب بشيخ أحدب، بكم ابتعت هذا القوس يا عماه؟ فقال: يا بني إني أعطيتها بغير ثمن. ومر رجل أشمط[1] بامرأة عجيبة في الجمال، فقال: يا هذه إن كان لك زوج فبارك الله لك فيه، وإلا فأعلمينا. فقالت كأنك تخطبني؟ قال: نعم، فقالت: إن فيَّ عيباً، قال: وما هو؟ قالت: شيب في رأسي، فثنى عنان دابته، فقالت: على رسلك، فلا والله ما بلغت عشرين سنة ولا رأيت في رأسي شعرة بيضاء، ولكنني أحببت أن أعلمك أني أكره منك مثل ما تكره مني، فأنشد، ويقال إنه لابن المعتز:

رأين الغواني الشيب لاح بمفرقي
فأعرضن عني بالخدود النواضر

وقال آخر:

سألتها قبلةً يوماً وقد نظرت
شيبي وقد كنت ذا مالٍ وذا نعم

فأعرضت ومالت وهي قائلةٌ
لا والذي أوجد الأشياء من عدم

ما كان لي في بياض الشيب من أرب
أفي الحياة يكون القطن حشو فمي

وقال آخر:

قالت أرى مسكة الشعر البهيم غدت
كافورة قد أحالتها يد الزمنِ

فقلت طيبٌ بطيبٍ والتنقُّل في
معادن الطيب أمرٌ غير ممتهن

قالت صدقت وما أنكرت ذاك بذا
ألمسك للشم والكافور للكفن[2]

وقال آخر:

قالت أراك خضبت الشيب قلت لها
سترته عنك يا سمعي ويا بصري

فقهقهت ثم قالت من تعجبها
تكاثر الغش حتى صار في الشعر

وقال ابن نباتة:

تبسُّم الشيب بوجه الفتى
يوجب سحّ الدمع من جفنه

وكيف لا يبكي على نفسه
من ضحك الشيب على ذقنه

وقال ابن المعتز:

فما أقبح التفريط في زمن الصبا
فكيف به والشيب في الرأس شامل

وكان المأمون يتمثل بقول الشاعر:

رأت وضحاً في الرأس مني فراعها
فريقان مبيضٌّ به وبهيم[1]

تفاريق شيبٍ في السواد لوامعٌ
فيا حسن ليلٍ لاح فيه نجوم

ويقال في الرجل: إذا شاب ليله عسعس وصبحه تنفس:

إذا نازع الشيب الشباب فأصلتا
بسيفيهما فالشيب لا شكّ غالب

وقال آخر:

ألا إن شيب العبد من نقرة القفا
وشيب كرام الناس شيب المفارق

وقال العتبي:

قالت عهدتك مجنوناً فقلت لها
إنّ الشباب جنونٌ برؤه الكبر

وقال علي بن ربيع:

كبرت ودقّ العظم مني وعقني
بنيّ وزالت عن فراشي العقائد

وأصبحت أعشى أخبط الأرض بالعصا
يقودونني بين البيوت الولائد[2]

وقال آخر:

عريت من الشباب وكنت غصناً
كما يعرى من الورق القضيب

ونحت على الشباب بدمع عيني
فما نَفَعَ البكاء ولا النحيب

---

(١) الأشمط: الرجل إذا خالط سواد شعره بياضه.
(٢) شبهت سواد شعره بالمسك وبياضه بالكافور.

(١) الوضح: البياض.
(٢) الأعشى: ضعيف البصر ليلاً.

فيا ليت الشباب يعود يوماً
فأخبره بما فعل المشيب

وقال ابن النقيب:

وكم كان من عينٍ عليَّ وحافظٍ
وكم كان من واشٍ لها ورقيب
فلما بدا شيبي اطمأنّت قلوبهم
ولم يحفظوني واكتفوا بمشيبي

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: ما شبهت الشباب إلا كشيء كان في كمي فسقط. **قال الشاعر:**

شيئان لو بكت الدماء عليهما
عيناك حتى يؤذنا بذهابِ
لم يبلغا المعشار من حقّيهما
فَقْدُ الشبابِ وفرقة الأحبابِ

وقال الجاحظ:

أترجو أن تكون وأنت شيخٌ
كما قد كنت في زمن الشباب
لقد كَذَبَتْكَ نفسك ليس ثوبٌ
دريس كالجديد من الثياب[1]

ومما جاء في الخضاب:

قال ﷺ: «عليكم بالخضاب فإنه أهيب لعدوكم وأعجب لنسائكم». وعن أبي عامر الأنصاري رضي الله عنه: رأيت أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يغير بالحناء والكتم. **وقيل:** خضاب الحناء يصفي البصر ويذهب بالصداع ويزيد في البهاء.

تسوّد أعلاها وتأبى أصولها
وليس إلى رد الشباب سبيلُ

وقيل: وفد عبد المطلب بن هاشم على سيف بن ذي يزن. فقال له: لو خضبت شعرك، فلما رجع إلى مكة اختضب. فقالت امرأته نبيلة: ما أحسن هذا لو دام. فقال:

ولو دام لي هذا الخضاب حمدته
وكان بديلاً من خليلٍ قد انصرم
تمتّعت منه والحياة قصيرةٌ
ولا بدّ من موتٍ نبيلة أو هرم

وقال آخر:

يا خاضب الشيب الذي
في كلّ ثالثةٍ يعود

(١) دريس: دارس، والمراد بالٍ.

إن الخضاب إذا نضا
فكأنه شيبٌ جديد[1]
فدع المشيب وما يريـ
ـد فلن يعود كما تريد

وقال محمود الوراق:

فما منك الشباب ولست منهُ
إذا سامتْكَ لحيتك الخضابا

الفصل الثالث

في العافية والصحة

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إليك انتهت الأماني يا صاحب العافية»**. **وعنه ﷺ أنه قال: «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة أن يقال له ألم أصح بدنك وأروك بالماء البارد»؟ وقال علي** رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾[2]. هو الأمن والصحة والعافية.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: يسأل الله العباد عن الأبدان والأسماع والأبصار فيم استعملوها وهو أعلم بذلك. **وقال ابن عيينة:** من تمام النعمة طول الحياة في الصحة والأمن والسرور. **وقالت عائشة** رضي الله تعالى عنها: لو رأيت ليلة القدر ما سألت الله إلا العفو والعافية. **وقال قبيصة بن ذؤيب:** كنا نسمع نداء عبد الملك بن مروان من وراء الحجرة في مرضه: يا أهل النعم لا تستقلوا شيئاً من النعم مع العافية. **ويقال:** البحر لا جوار له، والملك لا صديق له، والعافية لا ثمن لها[3].

قال ابن الرومي:

إذا ما كساك الدهر سربال صحةٍ
ولم تخل من قوتٍ يحلّ ويقرب
فلا تغبطنّ أهل الكثير فإنّما
على قدر ما يعطيهم الدهر يسلب

ويقال: صحة الجسم أوفر القسم. **وذكر بعضهم العافية فقال:** وأي وطاء وأي عطاء. **وقال حكيم:** إن كان شيء فوق الحياة، فالصحة وإن كان شيء مثل الحياة فالغنى، وإن كان شيء فوق الموت، فالمرض وإن كان شيء مثل الموت فالفقر.

(١) إذا نضا الخضاب: نصل لونه وزال عن الشعر.
(٢) سورة التكاثر، الآية (٨).
(٣) لا ثمن لها: أي لا تقدر بمال.

وقال علي رضي الله تعالى عنه: ما المبتلي الذي اشتد به البلاء بأحوج إلى الدعاء من المعافى الذي لا يأمن البلاء. وقيل: إن فأرة البيوت رأت فأرة الصحراء في شدة ومحنة، فقالت لها: ما تصنعين ههنا؟ اذهبي معي إلى البيوت التي فيها أنواع النعيم والخصب، فذهبت معها وإذا صاحب البيت الذي كانت تسكنه قد هيأ لها الرصد لبنة تحتها شحمة، فاقتحمت لتأخذ الشحمة فوقعت عليها اللبنة فحطمتها، فهربت الفأرة البرية وهزت رأسها متعجبة وقالت: أرى نعمة كثيرة وبلاء شديداً إلا وإن الفقر والعافية أحب إليّ من غنى يكون فيه الموت، ثم فرت إلى البرية. وكان عند رومي خنزير فربطه إلى أسطوانة ووضع العلف بين يديه ليسمنه، وكان بجنبه أتان لها جحش، وكان ذلك الجحش يلتقط من العلف ما يتناثر، فقال لأمه: يا أماه ما أطيب هذا العلف لو دام. فقالت له: يا بني لا تقربه، فإن وراءه الطامة الكبرى[1]، فلما أراد الرومي أن يذبح الخنزير ووضع السكين على حلقه جعل يضرب وينفخ، فهرب الجحش وأتى إلى أمه، وأخرج لها أسنانه وقال: ويحك يا أماه أنظري هل بقي في خلال أسناني شيء من ذلك العلف فاقلعيه. فما أحسن القنع مع السلامة، والله أعلم بالصواب.

الفصل الرابع

في أخبار المعمرين في الجاهلية والإسلام

قال الحسن رضي الله تعالى عنه: أفضل الناس ثواباً يوم القيامة المؤمن المعمر. وقال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخياركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: أطولكم أعماراً في الإسلام إذا سدّدوا».

وزعموا أن تبعاً الفزازي كان من المعمرين، وأنه دخل على بعض خلفاء بني أمية، فسأله عن عمره، فقال: عشت أربعمائة وعشرين سنة في فترة عيسى بن مريم عليه السلام في الجاهلية، وستين في الإسلام. قال له: أخبرني عما رأيت في سالف عمرك قال: رأيت الدنيا ليلة في أثر ليلة ويوماً في أثر يوم، ورأيت الناس بين جامع مال مفرق ومفرق مال مجموع، وبين قوي يظلم وضعيف يظلم، وصغير يكبر وكبير يهرم، وحي يموت وجنين يولد، وكلهم بين مسرور بموجود ومحزون بمفقود. وقد قال ابن الجوزي: إن آدم عليه السلام عاش ألف سنة، وعاش ابنه شيث تسعمائة سنة، وعاش ابنه مهلاييل ثمانمائة وخمساً وتسعين سنة، وعاش ابنه إدريس ثلثمائة وخمساً وتسعين سنة، وعاش ابنه هود تسعمائة واثنتين وستين سنة، وعاش ابنه متوشلخ تسعمائة وستين سنة، وأما ابنه نوح عليه السلام، فروي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: عاش نوح عليه السلام ألفاً وأربعمائة وخمسين عاماً. وأما الخضر عليه السلام واسمه خضرون فهو أطول بني آدم عمراً.

وذكر أن لقمان عليه السلام عاش ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة. وكانت العرب لا تعد من الأعمار إلا ما بلغ مائة وعشرون سنة فما فوقها. وعاش أكثم بن صيفي ثلاثمائة وستين سنة وأدرك الإسلام، وعاش سطيح سبعمائة سنة، وعاش قس بن ساعدة الأيادي سبعمائة سنة، وكان من حكماء العرب. وعاش لبيد بن ربيعة الشاعر مائة وعشرين سنة، وأدرك الإسلام. وعاش دريد بن الصمة مائة وسبعين سنة حتى سقط حاجباه على عينيه وأدرك الإسلام ولم يسلم.

ومن المعمرين عدي بن حاتم الطائي وزهير بن جنادة عاشا مائتين وعشرين سنة. ومن المعمرين ذو الأصابع العذري عاش مائتين وعشرين سنة، وهو أحد حكماء العرب في الجاهلية. ومن المعمرين: عمرو بن معديكرب الزبيدي، ومن المعمرين: عبد المسيح بن نفيلة عاش ثلاثمائة وعشرين سنة وأدرك الإسلام، وقد رأيت رجلاً من أهل محلة مسير بالغربية، وذكر أنه بلغ من العمر مائة وأربعين سنة، وإن امرأته بلغت من العمر كذلك، ولقد رأيت منه ما لم أر من بعض شبان هذا العصر في القوة وشدة البأس، ورأيت له ولداً شيخاً هو أشد قوة من ولده، وذلك في صفر سنة تسع وعشرين وثمانمائة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الباب التاسع والأربعون
في الأسماء والكنى والألقاب وما استحسن منها

فأشرف الأسماء وأعظمها بسم الله الرحمن الرحيم قال الله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[1].

(١) أي بعده السمن وبعد السمن الذبح وهو الطامة أي المصيبة الكبرى.

(١) سورة مريم، الآية (٦٥).

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، عن رسول الله ﷺ: «من رفع قرطاساً من الأرض مكتوباً عليه بسم الله الرحمن الرحيم إجلالاً له ولاسمه عن أن يداس كان عند الله من الصديقين، وخفف عنه وعن والديه العذاب وإن كانا مشركين».

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لم يرن إبليس لعنه الله قط إلا ثلاث رنات، رنة حين لعن وأخرج من ملكوت السموات والأرض. ورنة حين ولد محمد ﷺ، ورنة حين أنزلت سورة الحمد وفي أولها بسم الله الرحمن الرحيم.

وعن رسول الله ﷺ: «لا يرد دعاء أوله بسم الله الرحمن الرحيم، وإن أمتي يأتون يوم القيامة يقولون بسم الله الرحمن الرحيم فتثقل حسناتهم في الميزان. فتقول الأمم: ما أثقل موازين أمة محمد، فتقول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ابتداء كلامهم ثلاثة أسماء من أسماء الله تعالى لو وضعت في كفة الميزان ووضعت سيئات الخلق في كفة لرجحت كفة الأسماء».

وأما الأسماء والكنى:

ففي صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «أحب أسمائكم إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها حارث وهمام وأقبحها حرب ومرة، وينبغي أن تنادي من لا تعرف اسمه بعبارة لطيفة لا يتأذى بها ولا يكون فيها كذب كقولك يا فقيه، يا أخي، يا فقير، يا سيدي، يا صاحب الثوب الفلاني أو البغل الفلاني أو الفرس الفلاني أو السيف الفلاني وما أشبه ذلك».

ودخل عبادة على المتوكل وبين يديه جام من ذهب فيه ألف مثقال، فقال له: أسألك عن شيء إن أجبتني عنه ابتداء من غير أن تفكر فلك الجام بما فيه، فقال: سل يا أمير المؤمنين، قال أسألك عن شيء له اسم ولا كنية له، وعن شيء له كنية ولا اسم له، قال: المنارة، وأبو رياح، فعجب المتوكل وأعطاه الجام بما فيه.

وقيل: لعثمان «ذو النورين» رضي الله عنه لأنه هو ورقية كانا أحسن زوجين في الإسلام، وقيل: لأنه تزوج برقية ثم بأم كلثوم ابنتي رسول الله ﷺ، ولم يوجد من تزوج بابنتي نبي غيره.

وكان قتادة بن النعمان الأنصاري رضي الله تعالى عنه أصيب في عينه يوم أحد فسقطت على خده فردها رسول الله ﷺ، فكانت أحسن وأصح من الأخرى، فكانت تعتل أي ترمد عينه الباقية، ولا تعتل عينه المردودة، فقيل له: ذو العينين.

وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: كنيت بهرة صغيرة كنت أحملها في حجري فألعب بها، وكان رسول الله ﷺ يقول: يا أبا هريرة، واختلف في اسمه، فقيل: عبد الرحمن، وقيل عبد شمس، وقيل عمير، وقيل سليمان.

وقال الشعبي رضي الله تعالى عنه كنيت الدجال أبو يوسف. ذو الشهرة أبو دجانة الأنصاري رضي الله تعالى عنه كان له شهرة يلبسها بين الصفين. ذو الرياستين الفضل بن سهل لأنه دبّر أمر السيف والقلم وولي رياسة الجيوش والدواوين، ودخل عليه شاعر يوم المهرجان وبين يديه الهدايا، فقال:

والـيـومُ يـومُ الـمـهـرجـانِ
هـديـتـي فـيـه الـلـسـان
لـك دولـتـان حـديـثـة
وقـديـمـة وريـاسـتـانِ
لـك فـي الـورى مـن هـاشـم
نـبـتٌ وبـيـتٌ خـسـروانِ
عـلـم الـخـلـيـفـة كـيـف أنـ
ـت فـصـرت فـي هـذا الـمـكـان

فأمر له بجميع الهدايا.

المطيبون بنو عبد مناف وبنو أسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب، ونعيم بن مرة، والحارث بن فهر غمسوا أيديهم في خلوق[1] ثم تحالفوا.

شيبة هو عبد المطلب لقب بشيبة كانت في رأسه حين ولد، قال حذافة: بنو شيبة الحمد الذي كان وجهه يضيء ظلام الليل كالقمر البدر، وقيل له: عبد المطلب لأن عمه المطلب مر به في سوق مكة مردوفاً له[2] فجعلوا يقولون: من هذا الذي وراءك فيقول: عبدٌ لي.

سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه اسمه عبد الله ولقباه العتيق والصديق لجماله وتصديقه بخبر الإسراء أو لأنه من صدّق رسول الله ﷺ. سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه لقب بالفاروق لأنه قال يوم أسلم:

(١) الخلوق طيب زيتي مُزِجَ بالزعفران فهو طيب له رائحة ولون.
(٢) أي قد أركبه خلفه على الدابّة.

لا يُعبد الله اليوم سراً، فظهر به الإسلام، وفرق بين الحق والباطل. **الكامل** سعد بن عبادة رضي الله تعالى عنه، لأنه كان يكتب ويحسن الرمي والعوم. **طلحة** بن عبد الله رضي الله تعالى عنه كان يقال له طلحة الخير، وطلحة الفياض، وطلحة الطلحات لسخائه.

رشح الحجر، وأبو الريان عبد الملك بن مروان لقب بذلك لبخله وبخره. **عكة العسل** سعيد بن العاص رضي الله تعالى عنه. **الحبر** عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنه لقب بذلك لعلمه، كان يقال له: مرة الحبر ومرة البحر. **الأشدق** عمرو بن سعيد لأنه كان مائل الشدق. **الفيّاض** عكرمة بن ربعي لقب بذلك لسخائه. **المصطلق** خزيمة بن سعد الخزاعي قيل له المصطلق لحسن صوته وشدته، وكان أول من غنى من خزاعة.

راح يكذب لقب به المهلب لأنه كان يضع الحديث أيام الخوارج فيحدث به، فإذا رأوه قالوا: راح يكذب. **واصل الغزّال** كان يكثر الجلوس في سوق الغزّالين وكان يتتبع العجائز فيتصدق عليهم ولم يكن غزّالاً. **سليمان التيمي** كان داره ومسجده في بني تميم ولم يكن منهم وهو شيباني. **أبو عمرو الشيباني** لم يكن من بني شيبان، وإنما كان يعلم يزيد بن مزيد الشيباني. **اليزيدي** كان يعلم يزيد بن منصور الحميري فنسب إليه. **ذو القروح** امرؤ القيس كان ملك الروم كساه العباءة المسمومة فقرحته، وقالوا: لم تكن الكنى لأحد من الأمم إلا العرب، وهي مفاخرهم، وقال بعضهم:

أكنيه حين أناديه لأكرمه
ولا ألقبه والسوءة اللقب

وقيل في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾[1] أي كنياه، ولما ضرب موسى عليه الصلاة والسلام البحر ولم ينفلق أوحى الله تعالى إليه أن كنه، فقال: انفلق أبا خالد، فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم.

وأما الألقاب:

فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾[2]. سماه الله تعالى فسوقاً. **واتفق العلماء** رضي الله تعالى عنهم على جواز ذلك على وجه التعريف لمن لا يعرف إلا بذلك. كالأعمش والأعمى والأعرج والأحول والأفطس والأقرع ونحو ذلك، وقلّ من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب. ولم يزل في الأمم كلها يجري في المخاطبات والمكاتبات من غير نكير. غير أنها كانت تطلق على حسب الموسومين، وأما ما استحسن من تلقيب السفلة بالألقاب العلية حتى زال الفضل وذهب التفاوت وانقلب النقص والشرف شرعاً واحداً فمنكر، وهبْ أن العذر مبسوط في ذلك، فما العذر في تلقيب من ليس من الدين في دبير ولا قبيل ولا له فيه ناقة ولا فصيل بل هو محتو على ما يضاد الدين، وينافي كمال الدين وشرف الإسلام، وهي لعمر الله الغصة التي لا تساغ والغبن الذي يعجز الصبر دونه فلا يستطاع. نسأل الله تعالى إعزاز دينه وإعلاء كلمته، وأن يصلح فسادنا ويوقظ غافلنا.

الرجل يكنى باسم ولده والمرأة كذلك، وإذا كنوا من لم يكن له ولد فعلى جهة التفاؤل وبناء الأمر على رجاء أن يعيش فيولد له، **وقد يكنون بما يلائم** المكنى من غير الأولاد كقول رسول الله ﷺ في علي رضي الله تعالى عنه أبو تراب، وذلك أنه نام في غزوة ذي العشيرة، فذهب به النوم، فجاء رسول الله ﷺ وهو متمرغ في التراب، فقال له: اجلس أبا تراب، وكان أحب أسمائه إليه. **وكقولهم** أبي لهب لحمرة خديه ولونه.

وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: وسمعتهم يكنون الكبير الرأس، والعمامة بأبي الرأس وأبي العمامة، وسمعت العرب ينادون الطويل اللحية يا أبا الطويلة، وسمعت عرب البحيرة يكنون بأسماء بناتهم، كأبي زهو، وأبي سلطانة، وأبي ليلى ونحو ذلك، ولا حرج في ذلك، وقد تكنى جماعة من أفاضل الصحابة بأبي فلانة منهم سيدنا عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه كان له ثلاث كنى أبو عمرو، وأبو عبد الله، وأبو ليلى، **ومنهم أبو أمامة**، وأبو رقية تميم الداري، وأبو كريمة المقداد بن معد يكرب، وكثير من الصحابة ومن التابعين رضوان الله عليهم أجمعين: أبو عائشة مسروق بن الأجدع، وكان لأنس أخ صغير وله نُغَير[1] يلعب به فمات، فدخل رسول الله ﷺ فرآه حزيناً، فقال: ما شأنه؟ فقالوا: مات نغيره، فقال: يا أبا عمير ما فعل النُّغير. ونظر المأمون إلى غلام حسن في الموكب، فسأله عن اسمه، فقال: لا أدري، فقال:

تسميْتَ لا أدري فإنك لا تدري
بما فعل الحب المبرّح في صدري

---

(١) سورة طه، الآية (٤٤).
(٢) سورة الحجرات، الآية (١١).

(١) النغير تصغير النغر وهو طائر صغير أحمر.

وعن علي رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ: «إذا سميتم الولد محمداً فأكرموه ووسعوا له في المجلس ولا تقبحوا له وجهاً». وعنه: ما من قوم كان بينهم مشورة فحضر من اسمه محمداً أو أحمد فأدخلوه في مشورتهم إلا كان خيراً لهم، وما من مائدة وضعت فحضر عليها من اسمه محمد أو أحمد إلا قدس الله ذلك المنزل في كل يوم مرتين كل ذلك ببركة هذا الاسم الشريف.

ومما جاء في مدح الأسماء منظوماً:

قال بعضهم في مليح اسمه إبراهيم:

رأيت حبيبي في المنام معانقي
وذلك للمهجور مرتبة عليا

وقد رقّ لي من بعد هجرٍ وقسوةٍ
وما ضرّ إبراهيم لو صدّق الرؤيا

وفيه أيضاً:

لا زال بابك كعبةً محجوجةً
وترابها فوق الجباه وسيم[1]

حتى ينادى في البقاع بأسرها
هذا المقام وأنت إبراهيم

وفيه أيضاً:

يا سمّي الخليل إنّ فؤادي
فيه من لوعة الغرام جحيم

وعجيبٌ يا قاتلي أنّ قلبي
فيه نارٌ وأنت فيه مقيم

ولبعضهم في مليح اسمه عمر:

يا أعدل الناس اسماً كم تجور على
فؤاد مضناك بالهجران والبين

أظنهم سرقوك القاف من قمر
وأبدلوها بعينٍ خيفة العين

وفيه أيضاً:

ما عليهم في الهوى لو نظروا
حين سمّوك فقالوا عمر

أبدلوا قافك عيناً غلطاً
أخطأوا ما أنت إلاّ قمر

ولبعضهم في مليح اسمه يوسف:

(١) وسيم: موسوم أي يترك أثراً كالوسم في الجلد.

يا من سبى الشعراء نمل عذاره
النجم يشهد لي بأني مدنف

صيّرت قلبي من صدودك فاطراً
فامنن عليّ بزورةٍ يا يوسف[1]

وللصفي الحلي فيمن اسمه داود:

وثقت بأنّ قلبي من حديدٍ
وفيه على الهوى بأسٌ شديد

فلان على هواك ولا عجيبٌ
إذا داود لانَ له الحديد

وله فيمن اسمه موسى:

أتى موسى بآية خالِ خد
حوته صوارم الحدق المراض

فآية ذا بياضٌ في سوادٍ
وآية ذا سوادٌ في بياض

فجاء بضدّ ما قد جاء موسى
كليم الله في الحقب المواضي

وللقيراطي في مليح اسمه بدر:

سموه بدراً وذاك لمّا
أن فاق في حسنه وتمّا

وأجمع الناس إذا رأوه
بأنه اسمٌ على مسمّى

ولمؤلفه رحمه الله تعالى في قاضي القضاة علم الدين صالح البقليني:

وعظ الأنام أمامنا الحبر الذي
سكب العلوم كبحر فضلٍ طافح

فشفى القلوب بعلمه وبوعظه
والعلم يشفي إن يكن من صالح

وتوجهت مرة إلى بلناج لأجتمع بالحاج خليل بن منصور في ضرورة فلم أجده ولم يقم أحد من أخوته بقضاء ما توجهت بسببه فقلت:

خصال خليلٍ كلّهنّ حميدةٌ
وأوصافه تزري بكل جميلِ

فلا خير في بلتاج إن لم يكن بها
ولا خير في الدنيا بغير خليلِ

(١) زورة: زيارة.

وقال آخر في مقبل:

يا من تحجّب عن محب صادقٍ
ما زال عنه كلَّ يومٍ يسأل
من لي بيوم فيه تسمح باللقا
ويُقال لي هذا حبيبُكَ مقبل

ولبعضهم في مليح اسمه محسن:

وأهيف يعلو على عشاقه
برتبةٍ من الجمال نالها
واسمه وهو العجيب محسنٌ
وكم دموعٍ في الهوى أسالها

صفي الدين الحلي في اسم حسين:

حبيبي وافرٌ والشوق منّي
طويلٌ والهوى عندي مديد
واعجب أنني أهوى حسيناً
وشوقٌ في محبّته يزيد

ومما قيل في أسماء النساء:

في فاطمة:

عجبت من فاتنةٍ لم تزلْ
لمرتجى الوصل لها فاطمة
تنكر ما ألقاه من وَجدِها
وهي بشوقي والجوى عالمة

ابن مكانس في اسم عائشة:

يا دهر خبِّرني بحقك واشفني
فسهام فكري في أمورك طائشة[1]
أيحلّ أني في المحبة ميّتٌ
وحبيبتي من بعد موتي عائشة

شمس الدين البديري في اسم حليمة:

ولما رأتني في هواها متيّماً
أكابد من حرّ الغرام أليمَه
فجادت بطيب الوصل منها ولم تَجُر
ومن أين تدري الجور وهي حليمه

ولبعضهم في اسم بركة دو بيت:

لمّا نصب الهوى لقلبي شَرَكَهْ
ناديت وقلبي تارك من تركه

(١) طائشة: أي لا تصيب الهدف.

يا قلب أفِقْ ولا تمل لشركه
تغنيك سنين ساعة من بركه

مردوفاً أيضاً:

لما نصب الهوى لقلبي شركه
في كل طريق
ناديت وقلبي تارك من تركه
لو كان يفيق
يا قلب أفق ولا تمل للشركه
ما الشرك يليق
تغنيك سنين ساعةٍ من بركه
عن كلِّ صديق

ولو تتبعت هذا المعنى لاحتجت إلى مجلدات ولكن فيما ذكرته كفاية والله الموفق وأسأله العناية وصلى الله على سيدنا ومحمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الخمسون

فيما جاء في الأسفار والاغتراب وما قيل في الوداع والفراق والحث على ترك الإقامة بدار الهوان وحب الوطن والحنين إليه

أما ما جاء في الاسفار والحث على ترك الإقامة بدار الهوان.

فقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾[1] الآية. وفي الأثر: سافروا تغنموا، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم الناس رحمة الله للمسافر لأصبح الناس على ظهر سفر، وهو ميزان الأخلاق، إن الله بالمسافر رحيم». ويقال: الحركة ولود والسكون عاقر.

وقال حكيم: السفر يسفر[2] عن أخلاق الرجال. وكان بعضهم يريد السفر فيمنعه والده إشفاقاً عليه، فقال يوماً:

(١) سورة الملك، الآية (١٥).
(٢) يسفر: يكشف الأمر ويظهره سافراً لا يستره شيء.

ألا خلّني لشاني ولا أكن
على الأهل كَلاً إن ذا لشديدُ[1]

تهيّبني ريب المنون ولم أكنْ
لأهرب عمّا ليس منه محيد

فلو كنت ذا مالٍ لقرّب مجلسي
وقيل إذا أخطأت أنت رشيد

فدعني أجول الأرض عمري لعلّه
يُسَرُّ صديقٌ أو يغاظ حسود

وقال رسول الله ﷺ: «عليكم بالدلجة[2] فإن الأرض تطوى بالليل ولا تطوى بالنهار». وقال كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه: كان رسول الله ﷺ يكره أن يسافر الرجل في غير رفقة، وقال ﷺ: «الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب».

وقال ﷺ: «إذا خرج ثلاثة في ركب فليؤمروا أحدهم».

وقيل: أغار حذيفة بن بدر على هجان النعمان بن المنذر بن ماء السماء وسار في ليلة مسافة ثماني ليال، فَضُرِبَ به المثل، وقال قيس بن الحطيم:

هممنا بالإقامة ثم سرنا
مسيرَ حذيفة الخير بن بدر

وسار ذكوان مولى عمر رضي الله تعالى عنه من مكة إلى المدينة في يوم وليلة. وقال المأمون: لا شيء ألذ من السفر في كفاية وعافية، لأنك تحل كل يوم في محلة لم تحل فيها، وتعاشر قوماً لم تعرفهم.

ومما قيل في ترك الإقامة بدار الهوان:

قال الفرزدق:

وفي الأرض عن دار القِلى متحوّلٌ
وكلّ بلاد أوطنتك بلاد[3]

وقال آخر:

وما هي إلاّ بلدة مثل بلدتي
خيارهما ما كان عوناً على دهر

وقال آخر:

وإذا البلاد تغيّرت عن حالها
فدعِ المقام وبادر التحويلا

ليس المقام عليك فرضاً واجباً
في بلدةٍ تدع العزيز ذليلا

وقال الصفي الحلي:

تنقّل فلذّات الهوى في التنقُّل
وَرِدْ كلَّ صافٍ لا تقف عند منهل[1]

ففي الأرض أحباب وفيها منازل
فلا تبك من ذكرى حبيب ومنزل

ولا تستمع قول امرىء القيس إنّه
مضلٌ ومن ذا يهتدي بمضلّلِ[2]

وقال عبد الله الجعدي:

فإن تجف عني أو تزرني إهانةً
أجد عنك في الأرض الفريضة مذهبا

ومما قيل في الوداع والفراق والشوق والبكاء:

قال جرير:

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم
يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل

وقيل لعمارة بن عقيل بن بلال بن جرير ما كان جدك صانعاً في قوله فعلت ما لم أفعل؟ قال: كان يقلع عينيه حتى لا يرى مظعن أحبابه ثم أنشد يقول:

وما وجدُ مغلولٍ بصنعاء موثقٍ
بساقيه من ماء الحديد كبول[3]

قليل الموالي مسلمٌ بجريرة
له بعد نومات العيون أليل[4]

يقول له الحداد أنت معذبٌ
غداة غدٍ أو مُسْلَمٌ فقتيلُ

بأكبر مني لوعةً يوم راعني
فراق حبيبٍ ما إليه سبيل

وقال الشاعر:

وما أم خشف طول يوم وليلةٍ
ببلقعةٍ بيداء ظمآن صاديا[5]

تهيم ولا تدري إلى أين تبتغي
مولهةً حزناً تجوز الفيافيا

---

(١) كَلاً: عَالَةً.
(٢) الدلجة: السفر والمسير ليلاً.
(٣) دار القلى: دار العداوة والبغضاء.
أوطنتك: سهّلت نزولك فيها.

(١) المنهل: مورد الماء العذب.
(٢) لأنه سُمّيَ: «الملك الضليل».
(٣) كبول: قيود.
(٤) أليل: أنين.
(٥) ظمآن صادياً: عطشان عطشاً شديداً.

أضرّ بها حر الهجير فلم تجد
لغلّتها من باردِ الماء شافيا
إذا أُبعدت عن خشفها انعطفت له
فألفته ملهوف الجوانح طاويا(١)
بأوجع مني يوم شدوّا حمولهم
ونادى منادِ البينِ أن لا تلاقيا

وقال عبد العزيز الماجشون وهو من فقهاء المدينة: قال لي المهدي يا ماجشون ما قلت حين فارقت أحبابك؟ قال: قلت يا أمير المؤمنين:

لله باكٍ على أحبابه جزعا
قد كنت أحذر هذا قبل أن يقعا
ما كان والله شؤم الدهر يتركني
حتى يجرّعني من بعدهم جُرَعا(٢)
إن الزمان رأى إلف السرور لنا
فدبّ بالبين فيما بيننا وسعى
فليصنع الدهر بي ما شاء مجتهداً
فلا زيادة شيء فوق ما صنعا

فقال: والله لأعيننك فأعطاه عشرة آلاف دينار.

وقال آخر:

وقفت يوم النوى منهم على بعدِ
ولم أودّعهم وَجْداً وإشفاقا
إني خشيت على الأظعان من نفسي
ومن دموعي إحراقاً وإغراقا

وقال عمر بن أحمد:

أنى الرحيل فحين جدّ ترحلت
مهجُ النفوس له عن الاجساد(٣)
من لم يبت والبين يصدعُ قلبه
لم يدر كيف تفتّت الاكباد

وحكي بعضهم قال: دخلنا إلى دير هرقل فنظرنا إلى مجنون في شباك وهو ينشد شعراً فقلنا له: أحسنت، فأومأ بيده إلى حجر يرمينا به وقال: ألمثلي يقال أحسنت، ففررنا منه فقال: أقسمت عليكم إلا ما رجعتم حتى أنشدكم فإن أحسنتُ فقولوا أحسنتَ وان أنا أسأتُ فقولوا أسأتَ. فرجعنا إليه فأنشد يقول:

(١) طاوياً: جائعاً.
(٢) جرعاً ج جرعة أي شربة.
(٣) أنى الرحيل: إلى أين الرحيل.

لما أناخوا قبيل الصبح عيسهمو
وحمّلوها وسارت بالدُمَى الإبلُ(١)
وقلبّت بخلاف السجف ناظرها
يرنو إلي ودمع العين ينهمل(٢)
وودعت ببنان زانه عنمٌ
ناديت لا حملت رجلاك يا جمل(٣)
يا حادي العيس عرّج كي أودعهم
يا حادي العيس في ترحالك الأجل
إني على العهد لم أنقض مودّتهم
يا ليت شعري لطول البعد ما فعلوا

فقلنا له: ماتوا. فقال: والله وأنا أموت! ثم شهق شهقة فإذا هو ميت رحمه الله تعالى.

وقال آخر:

لما علمت بأن القوم قد رحلوا
وراهب الدير بالناقوس مشتغلُ
شكبت عشري على رأسي وقلت له
يا راهب الدير هل مرّت بك الإبل
فحنّ لي وبكى ورقّ لي ورثى(٤)
وقال لي يا فتى ضاقت بك الحيلُ
إنّ الخيام التي قد جئت تطلبهم
بالأمس كانوا هنا والآن قد رحلوا

وقال الشيخ الأكبر سيدي محي الدين بن عربي رحمه الله تعالى:

ما رحَلوا يوم ساروا البُزّلَ العيسا
إلا وقد حملوا فيها الطواويسا(٥)
من كلّ فاتكة الألحاظ مالكةٍ
تخالها فوق عرش الدّر بلقيسا
إذا تمشت على صرح الزّجاج ترى
شمساً على فلكٍ في حجر إدريسا
أسقفة من بنات الروم عاطلةٍ
ترى عليها من الأنوار ناموسا(٦)

(١) العيس: الإبل، والدمى: النساء.
(٢) السجف: ستارة الهودج.
(٣) بنان زانه عنم: أي بأصابع قد جمّلها الخضاب بالعنم وهو نبت زهره قرمزي يتخذ منه صباغ.
(٤) وروي أيضاً: ورق لي وشكا.
(٥) البزل ج بازل وهي الناقة قد أتمت عامها السابع وبزلت أسنانها.
(٦) عاطلة: لا تلبس الحلي.

وحشيةٌ ما لها أنسٌ قد اتخذت
في بيت خلوتها للذكر ناووسا
إن اومأت تطلب الإنجيل تحسبهم
قساقساً أو بطاريقاً شماميسا
ناديت إذ رحلوا للبين ناقتها
يا حادي العيس لا تحدو بها العيسا
غيّبت أجناد صبري يوم بينهم
على الطريق كراديساً كراديسا
ساروا وأصبحت أنعي الربع بعدهمو
والوجد في القلب لا ينفك مغروسا

وقال آخر:

ولما تبدتّ للرحيل جِمَالُنا
وجدّ بنا سيرٌ وفاضت مدامع
تبدّت لنا مذعورة من خبائها
وناظرها باللؤلؤ الرطب دامعُ
أشارت بأطراف البنان وودّعت
وأومت بعينيها متى أنت راجع
فقلت لها والله ما من مسافرٍ
يسير ويدري ما به الله صانع
فشالت نقاب الحسن من فوق وجهها
فسالت من الطرف الكحيل مدامع
وقالت إلهي كن لي عليه خليفةً
فيا ربّ ما خابت لديك الودائع

وقال آخر:

يا راحلاً وجميلُ الصبر يتبعه
هل من سبيل إلى لقياك يتفق
ما أنصفتك دموعي وهي داميةٌ
ولا وفى لك قلبي وهو يحترق

وقال البغدادي:

قالت وقد نالها للبين أوجعه
والبين صعبٌ على الأحباب موقعه
إجعل يديك على قلبي فقد ضعفت
قواه عن حمل ما فيه وأضلعه
واعطف عليّ المطايا ساعة فعسى
من شقه الهوى بالبين يجمعه
كأنني يوم ولّت حسرةً وأسىً
غريق بحرٍ يرى الشاطي ويمنعه

وقال ابن البديري:

قفا حاديا ليلى فإني وامقٌ
وتعجّلا يوماً على من يفارق
وزمّا مطاياها قبيل مسيرها
ليلتذ منها بالتزود عاشق
ولا تزجرا بالسوق أظعان عيسها
فإن حبيبي للظعائن سائق
ولما التقينا والغرام يذيبنا
ونحن كلانا في التفكر غارق
وقفنا ودمع العين يحجب بيننا
تسارقني في نظرةٍ وأسارق
فلا تسألا ما حلّ بالبين بيننا
ولا تعجبا أنّا مشوقٌ وشائق

وقال أيضاً:

تذكّرت ليلى حين شطّ مزارها[(١)]
وعادت منازلها خليات بلقع[(٢)]
بكرت عليها والقنا يقرع القنا
وسمر العوالي للمنايا تشرَّع
وخالفت لوامي عليها وعذّلي
وخالفت سهدي والخليُّون هجّع
ولم أستطع يوم النوى ردّ عبرة
فؤادي أسىً من حرّها يتقطعُ
فقال خليلي إذ رأى الدمع دائماً
يفيض دماً من مقلتي ليس يدفع
لئن كان هذا الدمع يجري صبابةً
على غير ليلى فهو دمع مضيّع

وقال آخر:

مددت إلى التوديع كَفاً ضعيفةً
وأخرى على الرمضاء فوق فؤادي
فلا كان هذا آخر العهد منكمو
ولا كان ذا التوديع آخر زادي

وقال آخر:

ولما وقفنا للوداع عشيةً
وطرفي وقلبي دامعٌ وخفوق

---

(١) شط مزارها: بعد دارها ونأى.
(٢) أي أصبح الموضع الذي كانت تنزل فيه خالياً.

بكيت فأضحكت الوشاة شماتةً
كأني سحابٌ والوشاة بروق

ولمؤلفه رحمه الله تعالى:

يا سادةً في سويد القلب مسكنكم
وفي منامي أرى أني أعانقهم
أوحشتمونا وعزّ الصبر بعدكمو
يا من يعزّ علينا أن نفارقهمْ

وقال آخر:

لو أنّ مالك عالمٌ بذرى الهوى
ومحله من أضلع العشّاقِ
ما عذب العشّاق إلاّ بالهوى
وإذا استغاثوا غاثهم بفراق

وقال ابن الوردي:

دهرنا أضحى ضنينا
باللقا حتى ضنينا[1]
يا ليالي الوصل عودي
إجمعينا أجمعينا

وقال الشريف الرضي:

عللاني بذكرهم واسقياني
وامزجا لي دمعي بكأسٍ دهاق[2]
وخذا النوم من جفوني فإني
قد خلعت الكرى على العشّاق

وقال آخر عند ذلك:

قالوا أترقدُ إذ غبنا فقلت لهمْ
نعم وأشفق من دمعي على بصري
ما حقّ طرفٍ هداني نحو حسنكمو
أني أعذّبه بالدّمع والسهر

وقال الموصلي:

فسدتْ لطول بعادكم أحلامنا
وعقولنا وجفا الجفونَ منام
والطيفُ قد وعد الجفون بزورةٍ
يا حبّذا إن صحّت الأحلامُ

(١) أي أصبح دهرنا بخيلاً باللقاء علينا حتى أصابنا الضنى أي المرض والتعب.
(٢) كأس دهاق: كأس طافحة.

ومما قيل في البكاء:

قال الشاعر:

رجوت طيف خياله
وكيف لي بهجوع
والذاريات جفوني
والمرسلات دموعي

وقال آخر:

إرحم رحمت للوعتي
وابعث خيالك في الكرى[1]
ودموع عيني لا تسل
عن حالها يا ما جرى

وقال آخر:

إن عيني مذ غاب شخصك عنها
يأمر السّهد في كراها وينهى
بدموعٍ كأنهن الغوادي
لا تسل ما جرى على الخدّ منها

وقال آخر:

يا قلب صبراً على الفراق ولو
رُوّعت ممّن تحب بالبين
وأنت يا دمع إن ظهرت بما
أخفيه من قلبي سقطت من عيني

وقال آخر:

خاض العواذل في حديث مدامعي
ممّا غدا كالبحر سرعة سيره
خبّأته لأصون سرّ هواكمو
حتى يخوضوا في حديث غيره

وقال ابن المواز:

رحت يوم الفراق أجري دموعي
حسرةً إذ قضى الفراق ببيني[2]
قيل كم إذا تجري دموعك تعمى
أوقف الدمع قلت من بعد عيني

وقال آخر:

لما لبست لبعده ثوب الضّنى
وغدوت من ثوب اصطباري عاريا

(١) أي إبعث خيالك يزورني في منامي.
(٢) ببيني: بفراقي وبعدي عنك.

أجريت وقف مدامعي من بعده
وجعلته وقف عليه جاريا

وقال آخر:

ولم أر مثلي غارّ من طول ليله
عليه كأنّ الليل يعشقه معي
وما زلت أبكي في دجى الليل صبوةً
من الوجد حتى ابيضّ من فيض أدمعي

وقال الموصلي:

عين أفاضت دموعي
لطول صد وبينِ
ووجنةُ الخدِّ قالت
رأيت غسلي بعيني

وقال آخر:

وما فارقت ليلى من مرادٍ
ولكنْ شقوةٌ بلغت مداها
بكيت نعم بكيت وكلُّ إلفٍ
إذا ماتت حبيبته بكاها

وفي بعض الكتب السماوية: إن مما عاقبت به عبادي أن ابتليتهم بفراق الأحبة.

ومما جاء في الحنين إلى الوطن:

أما محبة الوطن فمستولية على الطباع مستدعية أشد الشوق إليها. روي أن أبان قدم على النبي ﷺ فقال يا أبان كيف تركت مكة؟ قال: تركت الأذخر وقد أعذق والنمام وقد أورق[1]، فاغرورقت عينا رسول الله ﷺ، **وقال بلال** رضي الله تعالى عنه:

ألا ليت شعري هل أبيتَنّ ليلةً
بوادٍ وحولي أذخرٌ وجليل
وهل أرِدَنْ يوماً مياهَ مجنَّةٍ
وهل يبدون لي شامةٌ وطفيل[2]

وقيل: من علامة الرشد أن تكون النفس إلى بلدها تواقة وإلى مسقط رأسها مشتاقة.

(١) الأذخر: نبت طيب الريح كان أهل مكة يستعملونه لسقوفهم ولموتاهم وأعذق: عقد زهره وامتلأ حباً، والنمام نبت زهره شديد البياض يجلله.

(٢) شامة وطفيل: جبلان في مكة.

ومن حب الوطن:

ما حكي أن سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام أوصى بأن يحمل تابوته إلى مقابر آبائه، فمنع أهل مصر أولياءه من ذلك، فلما بعث موسى عليه الصلاة والسلام وأهلك الله تعالى فرعون لعنه الله حمله موسى إلى مقابر آبائه، فقبره بالأرض المقدسة.

وأوصى الإسكندر رحمه الله تعالى أن تحمل رمته في تابوت من ذهب إلى بلاد الروم حباً لوطنه.

واعتل سابور ذو الأكتاف وكان أسيراً ببلاد الروم، فقالت له بنت الملك، وكانت قد عشقته، ما تشتهي؟ قال: شربة من ماء دجلة وشمة من تراب اصطخر، فأتته بعد أيام بشربة من ماء وقبضة من تراب وقالت له: هذا من ماء دجلة ومن تربة أرضك، فشرب واشتم بالوهم فنفعه من علته.

وقال الجاحظ: كان النفر في زمن البرامكة إذا سافر أحدهم أخذ معه من تربة أرضه في جراب يتداوى به، وما أحسن ما قال بعضهم:

بلادٌ ألفناها على كلِّ حالةٍ
وقد يؤلَف الشيءُ الذي ليس بالحسن
ونستعذب الأرض التي لا هوى بها
ولا ماؤها عذبٌ ولكنها وطن

ووصف بعضهم بلاد الهند، فقال: بحرها در وجبالها ياقوت، وشجرها عود، وورقها عطر. وقال عبد الله بن سليمان في نهاوند: أرضها مسك، وترابها الزعفران، وثمارها الفاكهة، وحيطانها الشهد. وقال الحجاج لعامله على أصبهان: قد وليتك على بلدة حجرها الكحل، وذبابها النحل، وحشيشها الزعفران. وكان يقال: البصرة خزانة العرب وقبة الإسلام لانتقال قبائل العرب إليها واتخاذ المسلمين بها وطناً ومركزاً. وكان أبو إسحاق الزجاج يقول: بغداد حاضرة الدنيا وما سواها بادية. وأنا أقول مصر كنانة الله في أرضه والسلام.

ومما جاء في ذم السفر:

قيل لرجل: السفر قطعة من العذاب، فقال: بل العذاب قطعة من السفر، **وقال بعضهم**:

كل العذاب قطعةٌ من السفر
يا ربّ فارددنا على خير الحضرْ

وقيل لإعرابي: ما الغبطة؟ قال: الكفاية مع لزوم

الأوطان. ومرّ إياس بن معاوية بمكان، فقال: أسمع صوت كلب غريب، فقيل له: بم عرفت ذلك؟ قال: بخضوع صوته، وشدة نباح غيره. وأراد أعرابي السفر، فقال لامرأته:

عدّي السنين لغيبتي وتصبّري
وذري الشهور فإنّهنّ قصار

فأجابته:

فاذكر صبابتنا إليك وشوقنا
وارحم بناتك إنّهنّ صغار[1]

فأقام وترك السفر. ويقال: رب ملازم لمهنته فاز ببغيته.

وقال ابن الهيثم:

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها
ولكنّ أخلاق الرجال تضيق

وفيما ذكرته كفاية، وأسأل الله التوفيق والهداية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الحادي والخمسون
في ذكر الغنى وحب المال والافتخار بجمعه

قال الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[2]. وقيل: الفقر رأس كل بلاء وداعية إلى مقت الناس، وهو مع ذلك مسلبة للمروءة مذهبة للحياء، فمتى نزل الفقر بالرجل لم يجد بداً من ترك الحياء ومن فَقَدَ حياءه فَقَدَ مروءته، ومن فَقَدَ مروءته مقت، ومن مقت ازدري به، ومن صار كذلك كان كلامه عليه لا له.

وقال رسول الله ﷺ: «إنك إن تذر[3] ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»[4]. وفي الحديث: «لا خير فيمن لا يحب المال ليصل به رحمه، ويؤدي به أمانته، ويستغني به عن خلق ربه».

وقال علي كرم الله تعالى وجهه: الفقر الموت الأكبر.

وقد استعاذ رسول الله ﷺ من الكفر والفقر وعذاب القبر.

وقيل: من حفظ دنياه حفظ الأكرمين دينه وعرضه.

قال الشاعر:

لا تلمني إذا وقيت الأواقي
بالأواقي لماء وجهي واقي[1]

وقال لقمان لابنه: يا بني أكلت الحنظل وذقت الصبر، فلم أر شيئاً أمر من الفقر، فإن افتقرت فلا تحدث به الناس كيلا ينتقصوك، ولكن اسأل الله تعالى من فضله، فمن ذا الذي سأل الله فلم يعطه أو دعاه فلم يجبه أو تضرع إليه فلم يكشف ما به.

وكان العباس رضي الله تعالى عنه يقول: الناس لصاحب المال ألزم من الشعاع للشمس، وهو عندهم أعذب من الماء وأرفع من السماء وأحلى من الشهد وأزكى من الورد، خطؤه صواب وسيئاته حسنات وقوله مقبول، يرفع مجلسه ولا يملّ حديثه، والمفلس عند الناس أكذب من لمعان السراب، وأثقل من الرصاص، لا يسلم عليه إن قدم ولا يسأل عنه إن غاب، إن حضر أردوه، وإن غاب شتموه، وإن غضب صفعوه، مصافحته تنقض الوضوء، وقراءته تقطع الصلاة.

وقال بعضهم: طلبت الراحة لنفسي فلم أجد لها أروح من ترك ما لا يعنيها، وتوحشت في البرية فلم أر وحشة أقر من قرين السوء، وشهدت الزحوف وغالبت الأقران فلم أر قريناً أغلب للرجل من المرأة السوء، ونظرت إلى كل ما يذل القوي ويكسره فلم أر شيئاً أذل له ولا أكبر من الفاقة.

وكل مقل حين يغدو لحاجةٍ
إلى كلّ ما يلقى من الناس مذنبُ
وكانت بنو عميّ يقولون مرحباً
فلما رأوني معدماً مات مرحبُ

وقال آخر:

المال يرفع سقفاً لا عماد له
والفقر يهدم بيت العزّ والشرف

وقال آخر:

جروح الليالي ما لهنّ طبيبُ
وعيشُ الفتى بالفقر ليس يطيبُ

---

(١) صبابتنا: الشوق والحنين.
(٢) سورة الكهف، الآية (٤٦).
(٣) تذر: تترك.
(٤) يتكففون: يستجدون أيدي المحسنين.

(١) الأواقي (الأولى) المكاره، والأواقي (الثانية) ج أوقية أي بالدراهم والأموال، وواقي: حامٍ وحافظ.

وحسبك أنّ المرء في حال فقره
تحمّقه الأقوامُ وهو لبيبُ
ومن يغترز بالحادثات وصرفها
يبتْ وهو مغلوب الفؤاد سليبُ
وما ضرّني إن قال أخطأت جاهلٌ
إذا قال كلّ الناس أنت مصيبُ

وقال آخر:

الفقر يزري بأقوامٍ ذوي حسبٍ
وقدْ يسود بغير السيد المال

وقال آخر:

لعمرك إنّ المال قد يجعل الفتى
سنيّاً وأنّ الفقر بالمرء قد يزري
وما رفع النفس الدنيّة كالغنى
ولا وضع النفس النفيسة كالفقر

وقال آخر:

إذا قلّ مال المرء لانت قناته
وهان على الأدنى فكيف الأباعد

وقال ابن الأحنف:

يمشي الفقير وكل شيءٍ ضده
والناس تغلق دونه أبوابها
وتراه مبغوضاً وليس بمذنب
ويرى العداوة لا يرى أسبابها
حتى الكلاب إذا رأت ذا ثروةٍ
خضعت لديه وحرّكت أذنابها
وإذا رأت يوماً فقيراً عابراً
نبحت عليه وكشّرت أنيابها

وقال آخر:

فقر الفتى يذهب أنواره
مثل اصفرار الشمس عند المغيب
والله ما الإنسان في قومه
إذا بُلِيَ بالفقر إلاّ غريب

وقال آخر:

إن الدراهم في الموطن كلّها
تكسو الرجال مهابةً وجمالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحةً
وهي السّلاح لمن أراد قتالا[1]

---

(١) وجاء في مطلع هذه القصيدة:

من كان يملك درهمين تعلمت
شفتاه أنواع الكلام فقالا
إن الغني إذا تكلم كاذباً
قالوا صدقت وما نطقت محالا
أما الفقير إذا تكلم صادقاً
قالوا كذبت وفنّدوا ما قالا

وقال آخر:

ما الناس إلاّ مع الدنيا وصاحبها
فكلّما انقلبت يوماً به انقلبوا
يعظّمون أخا الدنيا فإن وثبتْ
يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا

وقال بعض الفرس: من زعم أنه لا يحب المال فهو عندي كذاب.

وقال الكناني:

أصبحت الدنيا لنا عبرة
فالحمد لله على ذلكا
قد أجمع الناس على ذمّها
وما أرى منهمْ لها تاركا

وقال الزمخشري:

وإذا رأيت صعوبةً في مطلبٍ
فاحملْ صعوبته على الدينار
وابعثه فيما تشتهيه فإنه
حجرٌ يليّن قوّة الأحجار

قال الثوري رحمه الله تعالى: لأن أخلف عشرة آلاف درهم يحاسبني الله عليها أحب إليّ من أن أحتاج إلى لئيم[1].

وفي هذا المعنى قال الشاعر:

احفظ عرى مالك تحظى به
ولا تفرّط فيه تبقى ذليل[2]
وإن يقولوا باخلٌ بالعطا
فالبخل خيرٌ من سؤال البخيلْ
واحفظ على نفسك من زلةٍ
يُرَى عزيز القوم فيها ذليلْ

---

(١) هذا يقال في زمن قلّ فيه الإخاء والتواد بين الناس، فما تقول في زمننا الذي ضاع فيه الإخاء وصار واحدهم عبداً لما يملك، يملكه ماله وتستعبده النساء إلا من رحم ربي؟

(٢) العرى: ج عروة وهي هنا عقدة كيس المال.

وأما ما جاء في الاحتراز على الأموال:

فقد قالوا: ينبغي لصاحب المال أن يحترز ويحتفظ عليه من المطمعين والمبرطحين والمحترفين والموهمين والمتنسمين.

فأما المطمعون: فهم الذين يتلقون أصحاب الأموال بالبشر والإكرام والتحية والإعظام إلى أن يأنسوا بهم ويعرفوهم بالمشاهدة، وربما قضوا ما قدروا عليه من حوائجهم إلى أن يألفوها ويحصل بينهم سبب الصداقة، ثم إن أحدهم يذكر لصاحب المال في معرض المقال أنه كسب فائدة كثيرة في معيشته، ثم يمشي معه في الحديث إلى أن يقول إني فكرت فيما عليك من المؤن والنفقات، وهذا أمر يعود ضرره في المستقبل إن لم تساعد بالمكاسب، وغرضي التقرب إليك ونصحك وخدمتك، وأريد أن أوجه إليك فائدة من المتجر بشرط أن لا أضع يدي لك على مال بل يكون مالك تحت يدك أو تحت يد أحد من جهتك. ويخرج له في صفة الناصحين المشفقين، فإذا أجابه إلى ذلك كان أمره معه على قسمين: إن ائتمنه، وجعل المال بيده أعطاه اليسير منه على صفة أنه من الربح، وطاول به الأوقات ودفع إليه في المدة الطويلة الشيء اليسير من ماله، ثم يحتج عليه ببعض الآفات ويدعي الخسارة، فإن لزمه صاحب المال قابحه، وبرطل من جملة المال صاحب جاه، فيدفعه ويقول هذا راباني، فإن روعي صاحب المال وفق بينهما على أن يكتب عليه ببقية المال وثيقة، فلا يستوفي ما فيها إلا في الآخرة، وإن هو لم يأتمنه وعول أن يكون القبض بيده، والمتاع مخزوناً لديه، واطأ عليه البائعين والمشترين وحصل لنفسه وعمل ما يقول به، فإن حصل لصاحب المال أدنى ربح أوهَمَهُ أن مفاتيح الأرزاق بيده، وإن كسد المشتري أو رخص أحال الأمر على الأقدار وقال ليس لي علم بالغيب.

ومن أشد المطمعين المتعرضون لصنعة الكيمياء وهم الطماعون المطمعون في عمل الذهب والفضة من غير معدنها، فيجب أن يحذر التقرب منهم والاستماع لهم في شيء من حديثهم، فإن كذبهم ظاهر، وذلك أنهم يوهمون الغير أنهم ينيلونهم خيراً ويطلعونهم على صنعتهم ابتداء منهم لا لحاجة، وهذا يستحيل. ويحتجون بأن ما يلجئهم إلى ذلك إلا عدم الامكان وتعذر المكان.

فمنهم من يكون شوقه إلى أن يدخل إلى مكان ويترك عنده عدة لها قيمة، فيأخذها وينسحب.

ومنهم من يشترط أن عمله لا ينتهي إلى مدة فيقنع في تلك المدة بالأكل غدوة وعشية وسبيله بعد ذلك إن كان معروفاً قال: فسد عليَّ العمل من جهة كيت وكيت، ويقول للذي ينفق عليه: هل لك في المعاودة؟ فإن حمله الطمع ووافقه كان هذا له أتم غرض، ثم يحتال آخر المدة على الفراق بأي سبب كان. وإن كان منكوراً غافل صاحب المكان وخرج هارباً.

ومن المطمعين قوم يجعلون في الجبال أمارات من ردم وحجر ويأتون إلى أصحاب الأموال ويقولون: إنا نعرف علم كنز فيه من الإمارات كيت وكيت ثم يوقفونهم على ورقة متصنعة ويقولون: نريد أن تأخذ لنا عدة تنفق علينا ومهما حصل من فضل الله تعالى لنا ولك، فيوافقهم على ذلك، ويوطن نفسه على أن المدة تكون قريبة، فيعملون يوماً أو يومين فيظهر لهم أكثر الامارات فيزداد طمعاً ويعتقد الصحة، ثم يدرجونه إلى أن ينفق عليهم ما شاء الله تعالى، ويكون آخر أمرهم كصاحب الكيمياء. وإن كانوا منكورين ورغبتهم الطمعة في قماشه أو في العدة التي معه، فربما قتلوه هناك لأجل ذلك ومضوا، فهذا أمر المطمعين.

وأما المبرطحون: فهم من الخونة والناس بهم أكثر غرراً، وذلك أنهم إذا ندب صاحب المال أحد منهم لشراء حاجة سارع فيها واحتاط في جودتها وتوفير كيلها أو وزنها أو درعها ووضع من أصل ثمنها شيئاً وزنه من عنده حتى يبيض وجهه عند صاحب المال، ويعتقد نصحه وأمانته ونجح مساعيه، وكذلك إن ندبه لشيء يبيعه استظهر واستجاد النقد ولا يزال هكذا دأبه حتى يلقي مقاليد أموره إليه فيستعطفه، ويفوز به، ثم يغير الحال الأول في الباطن. فينبغي لصاحب المال أن لا يغفل عنه.

وأما المحترفون الموهمون: فهم الذين يتعرضون لذوي الأموال فيظهرون لهم الغنى والكفاية ويباسطونهم مباسطة الأصدقاء، ويعتمدون جودة اللباس ويستعملون كثيراً من الطيب، ثم إن أحدهم يذكر أنه يربح الأرباح العظيمة، فيما يعانيه ويذكر ذلك مع الغير، ولا يزال كذلك حتى يثبت ويستقر في ذهن صاحب المال أنه يكتسب في كل سنة الجمل الكثيرة من المال، وأنه لا يبالي إذا أنفق أو أكل أو شرب، فتشره نفس صاحب المال لذلك فيقول له على سبيل المداعبة يا فلان: تريد الدنيا كلها لنفسك. لمَ لا تشركنا في متاجرك هذه وأرباحك؟ فيقول له: أنت جبان يعز عليك إخراج الدينار، وتظن أنك إن أظهرته

خطف منك، ولا تدري أنه مثل البازي إن أرسلته أكل وأطعمك، وإن أمسكته لم يصد شيئاً واحتجت إلى أن تطعمه، وإلا مات، وأنا والله لو كان عندي علم أنك تنبسط لهذا كنت فعلت معك خيراً كثيراً ولكن ما كان إلا هكذا، وما كان لا كلام فيه والعمل في المستأنف، فيشكره صاحب المال ويسأله أخذ المال فيمطله بتسليمه، فيزداد فيه رغبة إلى أن يسلمه إليه. فيكون حاله كحال المطمع إذا صار المال تحت يده.

وأما المتنسمون: فهم أهل الرياء المظهرون التعفف والنسك ومجانبة الحرام ومواظبة الصلاة والصيام لكي يشتهر ذكرهم عند الخاص والعام، ثم يلقون ذوي الأموال بالبشر والاكرام والتلطف في المقال، ويمشون إلى أبواب الملوك على صفة التهاني بالأعياد، وربما يأتي معه بأحد من الأولاد، ويظهرون النزاهة والغنى، ويجعلون الدين سلماً إلى الدنيا، وأكثر أغراضهم أن تودع عندهم الأموال وتفوض إليهم الوصايا، ويجلهم العوام، وتقبل شهادتهم الحكام وتندبهم الملوك إلى الوصايا والأموال، وهؤلاء أشر من اللصوص والقطاع، وذلك أن شهرة اللصوص والقطاع تدعو إلى الاحتراز منهم، وتشبه هؤلاء بأهل الخير يحمل الناس على الاغترار بهم.

قال الشاعر:

صلّى وصام لأمر كان أمّله
حتى حواه فما صلّى ولا صاما

وقيل: لا فقير أفقر من غني يأمن الفقر.

قال الشاعر:

ألم تر أن الفقر يُرجى له الغنى
وأن الغنى يخشى عليه من الفقر

وأوصى بعض الحكماء ولده فقال له: يا بني عليك بطلب العلم، وجمع المال، فإن الناس طائفتان خاصة وعامة، فالخاصة تكرمك للعلم والعامة تكرمك للمال.

وقال بعض الحكماء: إذا افتقر الرجل اتهمه من كان به موثقاً، وأساء به الظن من كان ظنه حسناً. ومن نزل به الفقر والفاقة لم يجد بداً من ترك الحياء، ومن ذهب حياؤه ذهب بهاؤه، وما من خلة هي للغنى مدح إلا وهي للفقير عيب، فإن كان شجاعاً سمي أهوج، وإن كان مؤثراً سمي مفسداً، وإن كان حليماً سمي ضعيفاً، وإن كان وقوراً سمي بليداً، وإن كان لسناً سمي مهذاراً، وإن كان صموتاً سمي عيياً.

قال ابن كثير:

الناس أتباع من دامت له نعم
والويل للمرء إن زلّت به القدمُ
المال زينٌ ومن قلّت دراهمه
حي كمن مات إلاّ أنّه صنم
لما رأيت إخلائي وخالصتي
والكل مستترٌ عنيّ ومحتشمُ
أبدوا جفاءً وإعراضاً فقلت لهم
أذنبت ذنباً فقالوا ذنبك العَدَمُ(١)

وكان ابن مقلة وزيراً لبعض الخلفاء، فزوّر عنه يهودي كتاباً إلى بلاد الكفار وضمنه أموراً من أسرار الدولة، ثم تحيل اليهودي إلى أن وصل الكتاب إلى الخليفة فوقف عليه، وكان عند ابن مقلة حظية هويت هذا اليهودي، فأعطته درجاً بخطه، فلم يزل يجتهد حتى حاكى خطه ذلك الخط الذي كان في الدرج، فلما قرأ الخليفة الكتاب أمر بقطع يد ابن مقلة، وكان ذلك يوم عرفة، وقد لبس خلعة العيد ومضى إلى داره وفي موكبه كل من في الدولة، فلما قطعت يده وأصبح يوم العيد لم يأت أحد إليه ولا توجع له. ثم اتضحت القضية في أثناء النهار للخليفة أنها من جهة اليهودي والجارية فقتلهما أشر قتلة ثم أرسل إلى ابن مقلة أموالاً كثيرة وخلعاً سنية وندم من فعله واعتذر إليه، فكتب ابن مقلة على باب داره يقول:

تحالف الناس والزمانُ
فحيث كان الزمان كانوا
عاداني الدهر نصف يوم
فانكشف النّاس لي وبانوا
يا أيها المعرضون عنّي
عودوا فقد عاد لي الزمانُ

ثم أقام بقية عمره يكتب بيده اليسرى. قال بعضهم:

إنما قوة الظهور النقود
وبها يكمل الفتى ويسود
كم كريم أزرى به الدهر يوماً
ولئيم تسعى إليه الوفود

والأطباء يعلمون أمراضاً من علاجها اللعب بالدينار وشرب الأدوية والمساليق التي يغلى فيها الذهب.

---

(١) العدم: الفقر الشديد.

قال الشاعر:

إحرِصْ على الدرهم والعين ... تسلم من العِيلَةِ والدَّيْنِ[1]

فقوة العين بإنسانها ... وقوة الإنسان بالعين[2]

واعلم أن القلب عمود البدن، فإذا قوي القلب قوي سائر البدن، وليس له قوة أشد من المال. وبالضد إذا ضعف الفقر ضعف له البدن.

حكي أن ملكاً رأى شيخاً قد وثب وثبة عظيمة على نهر فتخطاه، والشاب يعجز عن ذلك، فعجب منه، فاستحضره، فحادثه في ذلك، فأراه ألف دينار مربوطة على وسطه.

وقال لقمان لابنه: يا بني شيئان إذا أنت حفظتهما لا تبالي ما صنعت بعدهما، دينك لمعادك ودرهمك لمعاشك. والكلام في هذا المعنى كثير. وقد اقتصرت منه على النزر اليسير. وقد كان في الناس من يتظاهر بالغنى ويراه مروءة وفخراً.

فمن ذلك: ما حكي عن أحمد بن طولون أنه دخل يوماً بعض بساتينه فرأى النرجس وقد تفتح زهره فاستحسنه، فدعا بغدائه فتغدى، ثم دعا بشرابه فشرب، فلما انتشى قال: عليّ بألف مثقال من المسك، فنثره على أوراق النرجس[3]. ولنذكر الآن نبذة من الذخائر والتحف.

حكي الرشيد بن الزبير في كتابه الملقب بالعجائب والطرف: أن أبا الوليد ذكر في كتابه المعروف بأخبار مكة أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة عام الفتح في سنة ثمان من الهجرة، وجد في الجب الذي كان في الكعبة سبعين ألف أوقية من الذهب مما كان يُهدى للبيت، قيمتها ألف ألف وتسعمائة ألف وتسعون ألف دينار.

وباع زهرة التميمي يوم القادسية منطقة كان قد قَتَلَ صاحبها بثمانين ألف دينار، ولبس سلبه وقيمته خمسمائة ألف وخمسون ألفاً.

وأصاب رجل يوم القادسية راية كسرى فعوِّض عنها ثلاثين ألف دينار، وكانت قيمتها ألف ألف دينار ومائتي ألف.

ووجد المستورد بن ربيعة يوم القادسية أبريق ذهب مرصعاً بالجوهر، فلم يدر أحد ما قيمته، فقال رجل من الفرس: أنا آخذه بعشرة آلاف دينار، ولم يعرف قيمته، فذهب إلى سعد بن أبي وقاص، فأعطاه إياه وقال: لا تبعه إلا بعشرة آلاف دينار، فباعه سعد بمائة ألف دينار.

ولما أتت الترك إلى عبد الله بن زياد ببخارى في سنة أربع وخمسين كان مع ملكهم امرأته خاتون، فلما هزمهم الله تعالى أعجلوها عن لبس خفها فلبست إحدى فردتيه ونسيت الأخرى، فأصابها المسلمون، فقومت بمائتي ألف دينار.

ولما فتح قتيبة بن مسلم بخارى في سنة تسع وثمانين وجد فيها قدر ذهب ينزل إليها بسلالم.

ودفع مصعب بن الزبير حين أحس بالقتل إلى زياد مولاه فصاً من ياقوت أحمر، وقال له انج به، وكان قد قوم ذلك الفص بألف ألف درهم، فأخذه زياد ورضه بين حجرين وقال: والله لا ينتفع به أحد بعد مصعب.

وذكر مصعب بن الزبير أن بعض عمال خراسان في ولايته ظهر على كنز، فوجد فيه حلة كانت لبعض الأكاسرة مصوغة من الذهب مرصعة بالدر والجواهر، والياقوت الأحمر والأصفر والزبرجد، فحملها إلى مصعب بن الزبير، فخرج من قَوَّمها[1] فبلغت قيمتها ألفي ألف دينار، فقال: إلى من أدفعها؟ فقيل: إلى نسائك وأهلك. فقال: لا، بل إلى رجل قدم عندنا يداً، وأولانا جميلاً. ادع لي عبد الله بن أبي دريد، فدفعها إليه.

ولما صار موجود عماد الدولة في قبضة أمير الجيوش وجد في جملته دملج ذهب فيه جوهرة حمراء كالبيضة وزنها سبعة عشر مثقالا، فأنفذها أمير الجيوش إلى المستنصر، فقومت بتسعين ألف دينار.

ووجد في بستان العباس بن الحسن الوزير مما أُعد له من آلة الشرب يوم قتُل، سبعمائة صينية من ذهب وفضة، ووجد له مائة ألف مثقال عنبر.

وترك هشام بن عبد الملك بعد موته اثني عشر ألف قميص وشي، وعشرة آلاف تكة حرير، وحملت كسوته لما حج على سبعمائة جمل، وترك بعد وفاته أحد عشر ألف ألف دينار، ولم تأت دولة بني العباس إلا وجميع

---

(١) العين: الأموال العينية كالأراضي والعقارات، والعيلة: الحاجة.

(٢) إنسان العين: بؤبؤها، بالعين: هنا بالمال.

(٣) قلت: هذا وأمثاله من الأعمال من البطر بالنعمة لأن ريح النرجس الطيب لا يحتاج إلى مسك يُحسِّنهُ.

(١) قوّمها: قدّر قيمتها.

أولاده فقراء لا مال لواحد منهم، وبين الدولة العباسية ووفاة هشام سبع سنين.

ولما قتل الأفضل بن أمير الجيوش في شهر رمضان سنة خمس عشرة وخمسمائة، خلف بعده مائة ألف ألف دينار، ومن الدراهم مائة وخمسين أردباً وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج ودواة من الذهب قوم ما عليها من الجواهر واليواقيت بمائتي ألف دينار، وعشرة بيوت في كل بيت منها مسمار ذهب قيمته مائة دينار على كل مسمار عمامة لوناً، وخلف كعبة عنبر يجعل عليه ثيابه إذا نزعها، وخلف عشرة صناديق مملوءة من الجوهر الفائق الذي لا يوجد مثله، وخلّف خمسمائة صندوق كبار لكسوة حشمه وخلف من الزبادي الصيني والبلور المحكم وسق مائة جمل، وخلّف عشرة آلاف معلقة فضة، وثلاثة آلاف معلقة ذهب، وعشرة آلاف زبابة فضة كبار وصغار، وأربع قدور ذهباً كل قدر وزنها مائة رطل، وسبعمائة جام ذهباً بفصوص زمرد، وألف خريطة مملوءة دراهم خارجاً عن الأرادب في كل خريطة عشرة آلاف درهم، وخلّف من الخدم والرقيق والخيل والبغال والجمال وحلي النساء ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى، وخلّف ألف حسكة ذهباً وألفي حسكة فضة، وثلاثة آلاف نرجسة ذهباً، وخمسة آلاف نرجسة فضة، وألف صورة ذهباً وألف صورة فضة منقوشة عمل المغرب، وثملاثمائة تور ذهباً، وأربعة آلاف تور فضة، وخلّف من البسط الرومية والأندلسية ما ملأ به خزائن الإيوان وداخل قصر الزمرد، وخلّف من البقر والجاموس والأغنام ما يباع لبنه في كل سنة بثلاثين ألف دينار، وخلّف من الحواصل المملوءة من الحبوب ما لا يحصى.

ولما احتوى الناصر على ذخائر قصر العاضد وجد فيه طبلاً كان بالقرب من موضع العاضد محتفظاً به، فلما رأوه سخروا منه، فضرب عليه إنسان فضرط، فضحكوا منه، ثم أمسكه آخر وضربه، فضرط فضحكوا عليه، فكسروه استهزاء وسخرية، ولم يدروا خاصيته، وكان الفائدة فيه أنه وضع للقولنج، فلما أخبروا بخاصيته ندموا على كسره. وقد جمعت الملوك من الأموال والذخائر والتحف كنوزاً لا تحصى، وبعد ذلك ماتوا ونفذت ذخائرهم، وفنيت أموالهم، فسبحان من يدوم ملكه وبقاؤه.

قال بعضهم:

هبِ الدنيا تقاد إليك عفواً
أليس مصيرُ ذلك للزوالِ

فضمنت أنا هذا البيت وقلت:

أيا من عاش في الدنيا طويلا
وأفنى العمر في قيلٍ وقالِ
وأتعب نفسه فيما سيفني
وجمّع من حرامٍ أو حلال
هبِ الدنيا تقاد إليك عفواً
أليس مصير ذلك للزوال[1]

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثاني والخمسون
في ذكر الفقر ومدحه

قد دلّ قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝﴾[2] على ذم الغنى إن كان سبب الطغيان. وسُئل أبو حنيفة رحمه الله تعالى عن الغنى والفقر فقال: وهل طغى من طغى من خلق الله عز وجل إلا بالغنى وتلا هذه الآية المتقدمة.

والمحققون يرون الغنى والفقر من قبل النفس لا في المال. وكان الصحابة رضي الله تعالى عنهم يرون الفقر فضيلة. وحدث الحسن رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بأربعين عاماً»**، فقال جليس للحسن: أمن الأغنياء أنا أو من الفقراء؟ فقال: هل تغديت اليوم؟ قال: نعم، قال: فهل عندك ما تتعشى به؟ قال: نعم. قال: فإذاً أنت من الأغنياء.

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كان النبي ﷺ يبيت طاوياً[3] ليالي ما له ولا لأهله عشاء، وكان عامة طعامه الشعير، وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع،

---

(١) وأقول: ليت من يقرأ هذا الكلام يتعظ، وليت من يملكون الأموال العظام يؤدون حق الله فيها لأنهم لو فعلوا لحصّلوا خير الدارين وما بقي في أمة لا إله إلا الله فقير أو محتاج، ولله في خلقه شؤون فسبحان من يرزق من يشاء بغير حساب. والرزق إن عمل المرء فيه بما أمرنا به الله وسنّه لنا رسوله كان نعمة أما إن عمل فيه بالمعاصي فهو نقمة وابتلاء فليتفكر كل امرىء بما قدمت يداه ولله الحمد من قبل ومن بعد.

(٢) سورة العلق، الآيتان (٦ ـ ٧).

(٣) طاوياً: جائعاً.

وكان ﷺ يأكل خبز الشعير غير منخول. هذا وقد عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض، فأبى أن يقبلها صلوات الله وسلامه عليه، وكان يقول: «اللهم توفني فقيراً ولا تتوفني غنياً واحشرني في زمرة المساكين».

وقال جابر رضي الله تعالى عنه: دخل النبي ﷺ على ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وهي تطحن بالرحى، وعليها كساء من وبر الإبل، فبكى وقال: «تجرعي يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة».

قال الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝﴾[1]. وقال ﷺ: «الفقر موهبة من مواهب الآخرة وهبها الله تعالى لمن اختاره، ولا يختار إلا أولياء الله تعالى».

وفي الخبر إذا كان يوم القيامة يقول الله عز وجل لملائكته: أدنوا إلي أحبائي، فتقول الملائكة: ومَن أحباؤك يا إله العالمين؟ فيقول: فقراء المؤمنين أحبائي، فيدنونهم منه، فيقول: يا عبادي الصالحين إني ما زويت الدنيا عنكم لهوانكم عليّ ولكن لكرامتكم تمتعوا بالنظر إليّ وتمتعوا ما شئتم. فيقولون: وعزتك وجلالك لقد أحسنت إلينا بما زويت عنا منها، ولقد أحسنت بما صرفت عنا، فيأمر بهم، فيكرمون ويجبرون ويزفون إلى أعلى مراتب الجنان.

وقال ﷺ: «هل تُنصَرُون إلا بفقرائكم وضعفائكم، والذي نفسي بيده ليدخلن فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام، والأغنياء يحاسبون على زكاتهم».

وقال عليه الصلاة والسلام: «رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به لو أقسم على الله تعالى لأبره»، أي لو قال اللهم إني أسألك الجنة لأعطاه الجنة، ولم يعطه من الدنيا شيئاً.

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به، الذين إذا استأذنوا على الأمير لا يؤذن لهم، وإن خطبوا النساء لم ينكحوا، وإذا قالوا لَم ينصت لهم. حوائج أحدهم تتلجلج في صدره، لو قسم نوره على الناس يوم القيامة لوسعهم».

وروي عن خالد بن عبد العزيز أنه قال: كان حيوة بن شريح من البكائين، وكان ضيق الحال جداً، فجلست إليه ذات يوم وهو جالس وحده يدعو، فقلت له: يرحمك الله لو دعوت الله تعالى ليوسع عليك في معيشتك، قال: فالتفت يميناً وشمالاً فلم ير أحداً، فأخذ حصاة من الأرض وقال: اللهم اجعلها ذهباً، فإذا هي تبرة في كفه ما رأيت أحسن منها، قال: فرمى بها إليّ وقال: هو أعلم بما يصلح عباده، فقلت: ما أصنع بهذه؟ قال: انفقها على عيالك، فهبته والله أن أردها عليه.

وقال عون بن عبد الله: صحبت الأغنياء فلم أجد فيهم أحداً أكثر مني هماً لأني كنت أرى ثياباً أحسن من ثيابي ودابة أحسن من دابتي، ثم صحبت الفقراء بعد ذلك، فاسترحت.

قال بعضهم:

وقد يهلك الإنسان كثرة ماله
كما يذبح الطاوسُ من أجل ريشِهِ

وقال عبد الله بن طاهر:

ألم ترَ أن الدهر يهدم ما بنى
ويأخذ ما أعطى ويفسد ما أسدى[1]
فمن سرّه أن لا يرى ما يسوءه
فلا يتخذْ شيئاً ينال به فقدا

وكان من دعاء السلف رضي الله تعالى عنهم: «اللهم إني أعوذ بك من ذل الفقر وبطر الغنى». وقيل: مكتوب على باب مدينة الرقة: ويلٌ لمن جمع المال من غير حقه، وويلان لمن وَرَّثَهُ لمن لا يحمده وقدم على من لا يعذره.

ولما فتحت بلخ في زمن عمر رضي الله تعالى عنه وُجِدَ على بابها صخرة مكتوب فيها: إنما يتبين الفقير من الغني بعد الانصراف من بين يدي الله تعالى أي: بعد العرض.

قال الشاعر:

ومن يطلب الأعلى من العيش لم يزل
حزيناً على الدنيا رهين غبونها[2]
إذا شئت أن تحيا سعيداً فلا تكنْ
على حالةٍ إلا رضيت بدونها

وقال آخر:

ولا ترهبن الفقر ما عشت في غدٍ
لكلِّ غدٍ رزقٌ من الله واردُ

وقال هارون بن جعفر الطالبي:

---

(١) سورة الضحى، الآية (٥).

(١) أسدى: أحكم سداته أي أحكم نسجه وصنعه، لأن النسيج لحمة وسدى.

(٢) غبون ج غبن: وهو الظلم أو النقص.

بوعدت همّتي وقُوربَ مالي
ففعالي مقصّرٌ عن مقالي

ما اكتسى الناس مثل ثوب اقتناع
وهو من بين ما اكتسوا سربالي

ولقد تعلم الحوادث أنّي
ذو اصطبارٍ على صروف الليالي

وقال أعرابي: من ولد في الفقر أبطره الغنى، ومن ولد في الغنى لم يزده إلا تواضعاً، فما أحسن الفقر وأكثر ثوابه وأعظم أجر من رضي به، وصبر عليه، اللهم اجعلنا من الصابرين برحمتك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الباب الثالث والخمسون
في التلطف في السؤال
وذكر من سئل فجاد

روى الإمام مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**أعطوا السائل ولو جاء على فرس**». وما سُئل عليه السلام شيئاً قط، فقال لا.

وأتى إعرابي إلى علي رضي الله تعالى عنه، فسأله شيئاً، فقال: والله ما أصبح في بيتي شيء فضل عن قوتي، فولى الإعرابي وهو يقول: والله ليسألنك الله عن موقفي بين يديك يوم القيامة، فبكى علي رضي الله تعالى عنه بكاء شديداً، وأمر برده، وقال يا قنبر: ائتني بدرعي الفلانية، فدفعها إلى الإعرابي، وقال: لا تخدعن عنها فطالما كشفت بها الكروب عن وجه رسول الله ﷺ، فقال قنبر: يا أمير المؤمنين كان يجزيه عشرون درهماً، فقال: يا قنبر والله ما يسرني أن لي زنة الدنيا ذهباً وفضة، فتصدقت به، وقبل الله مني ذلك، وإنه يسألني عن موقف هذا بين يدي.

وقال علي رضي الله تعالى عنه: إن لكل شيء ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح. **وقال مسلمة لنصيب**: سلني. فقال: كفك بالعطية أبسط من لساني بالمسألة، فقال لحاجبه: إدفع إليه ألف دينار.

وسأل رجل الحسن رضي الله تعالى عنه فقال له: ما وسيلتك؟ قال: وسيلتي أني أتيتك عام أول فبررتني، فقال: مرحباً بمن توسل إلينا بنا، ثم وصله وأكرمه.

ويقال: الكريم إذا سُئل ارتاح واللئيم إذا سُئل ارتاع.

ولما وفد المهدي من الري إلى العراق امتدحه الشعراء، فقال أبو دلامة:

إنـي نـذرت لئن رأيتك قادماً
أرض العراق وأنت ذو وفر(١)

لتصلين على النبيّ محمدٍ
ولتملأنّ دراهماً حجري

فقال المهدي: صلى الله على محمد، فقال أبو دلامة: ما أسرعك للأولى وأبطأك عن الثانية، فضحك وأمر له ببدرة، فصبت في حجره. **وسمع الرشيد أعرابية بمكة تقول**:

طحطحتنا كلاكلُ الأعوام
وبرتنا طوارق الأيام(٢)

فأتيناكمو نمدُّ أكفاً
لالتقام من زادكم والطعام

فاطلبوا الأجر والمثوبة فينا
أيها الزائرون بيت الحرام(٣)

فبكى الرشيد، وقال لمن معه: سألتكم بالله تعالى إلا ما دفعتم إليها صدقاتكم، فألقوا عليها الثياب حتى وارتها كثرة، وملأوا حجرها دارهم ودنانير.

وسأل اعرابي بمكة وأحسن في سؤاله، فقال: أخ في الله وجار في بلد الله وطالب خير من عند الله، فهل من أخ يواسيني في الله.

قال الشاعر:

ليس في كلّ وهلةٍ وأوانٍ
تتهيا صنائع الإحسانِ

فإذا أمكنت فبادرْ إليها
حذراً من تعذُّر الإمكان

وقال البصري:

أضحت حوائجنا إليك مناخةً
معقولةً برحابك الوصّالِ(٤)

---

(١) أي وأنت سالم غانم.
(٢) كلاكل الأيام: ثقلها وشدتها، وقد شبهها هنا بكلاكل الإبل وطوارق الأيام: مصائبها التي تأتي على غير توقع.
(٣) أي تصدقوا علينا لتنالوا الأجر والثواب.
(٤) إليك مناخة: قد أناخت أي قعدت في فنائك معقولة: قد ربطت إلى بابك، الوصّال: الكثير الوصل والعطاء.

أطلق فديتك بالنجاح عقالها
حتى تثور بنا بغير عقالِ

وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: يا كميل مر أهلك أن يروحوا في كسب المكارم ويدلجوا في حاجة من هو نائم، فوالذي وسع سمعه الأصوات ما من أحد أودع قلباً سروراً إلا خلق الله تعالى من ذلك السرور لطفاً، فإذا نابته نائبة جرى إليها كالماء في انحداره حتى يطردها عنه كما تطرد غريبة الابل. وقال لجابر بن عبد الله: يا جابر من كثرت نعم الله تعالى عليه كثرت حوائج الناس إليه، فإذا قام بما يجب لله فيها فقد عرضها للدوام والبقاء، ومن لم يقم بما يجب لله فيها عرض نعمه لزوالها.

وكان لبيد رحمه الله تعالى آلى على نفسه كلما هبت الصبا أن ينحر ويطعم، وربما ذبح العتاق[1] إذا ضاق الخناق، فخطب الوليد بن عتبة يوماً فقال: قد علمت ما جعل أبو عقيل على نفسه فأعينوه على مروءته، ثم بعث إليه بخمس من الإبل وبهذه الأبيات:

أرى الجزار يشحذُ مديتيه
إذا هبّت رياح بني عقيل
طويلُ الباعِ أبلج جعبريٌ[2]
كريم الجدِّ كالسيف الصقيل
وفى ابن الجعبري بما نواه
على العلات بالمال القليل

فدعا لبيد بنتاً له خماسية وقال: يا بنية إني تركت الشعر، فأجيبي الأمير عني فقالت:

إذا هبّت رياح بني عقيلِ
تداعينا لهبّتها الوليدا
طويل الباع أبلج عبشميٍ[3]
أعان على مروءته لبيدا
بأمثال الهضاب كأنّ رعياً
عليها من بني حامٍ قعودا
أبا وهبٍ جزاك الله خيراً
نحرناها وأطعمنا الثريدا
فعد إنّ الكريم له معادٌ
وظنّي في ابن عتبة أن يعودا

فقال: لقد أحسنت والله يا بنية لولا أنك سألت وقلت عد، فقالت: يا أبت إن الملوك لا يستحيا منهم في المسألة، فقال: والله لأنت في هذا أشعر مني. ووفد رجل من بني ضبة على عبد الملك، فأنشده:

والله ما ندري إذا ما فاتنا
طلبٌ إليك من الذي نتطلّب
ولقد ضربنا في البلاد فلم نجدْ
أحداً سواك إلى المكارم ينسب
فاصبر لعادتك التي عوّدتنا
أولا فأرشدنا إلى من نذهب

فأمر له بألف دينار، فعاد إليه من قابل، وقال يا أمير المؤمنين: إن الروي لينازعني وإن الحياء يمنعني، فأمر له بألف دينار وقال: والله لو قلت حتى تنفد بيوت الأموال لأعطيتك.

وقيل: إن رجلاً عرض للمنصور، فسأله حاجة فلم يقضها، فعرض له بعد ذلك، فقال له المنصور: أليس قد كلمتني مرة قبل هذه؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، ولكن بعض الأوقات أسعد من بعض وبعضُ البقاع أعز من بعض، فقال: صدقت، وقضى حاجته وأحسن إليه.

وروي أن أبا دلامة الشاعر كان واقفاً بين يدي السفاح في بعض الأيام فقال له: سلني حاجتك. فقال: كلب صيد، فقال: أعطوه إياه، فقال: ودابة أصيد عليها، فقال: أعطوه دابة، فقال: وغلاماً يقود الكلب ويصيد به. قال: أعطوه غلاماً، قال: وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه. قال: أعطوه جارية، فقال: هؤلاء يا أمير المؤمنين عيال ولا بد لهم من دار يسكنونها. قال: أعطوه داراً تجمعهم، قال: فإن لم يكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون؟ قال: قد أقطعته عشر ضياع عامرة وعشرة ضياع غامرة، فقال: ما الغامرة يا أمير المؤمنين؟ قال: ما لا نبات فيها. قال: قد أقطعتك يا أمير المؤمنين مائة ضيعة غامرة من فيافي بني أسد، فضحك وقال: إجعلوها كلها عامرة. فانظر إلى حذقه بالمسألة، ولطفه فيها كيف ابتدأ بكلب صيد فسهّل القضية، وجعل يأتي بمسألة بعد مسألة على ترتيب وفكاهة حتى سأل ما سأله، ولو سأل ذلك بديهة لما وصل إليه.

وحكي عن المأمون أنه قال ليحيى بن أكثم يوماً: سر بنا نتفرج، فسارا، فبينما هما في الطريق وإذا بمقصبة خرج منها رجل بقصبة للمأمون يتظلم له، فنفرت دابته، فألقته على الأرض صريعاً، فأمر بضرب عنق ذلك الرجل، فقال يا أمير المؤمنين: إن المضطر يرتكب الصعب من الأمور وهو عالم به، ويتجاوز حد الأدب وهو كاره لتجاوزه، ولو

---

(١) العتاق: الخيول الجياد.
(٢) طويل الباع: طويل اليد والمراد كثير العطاء.
(٣) عبشمي: من بني عبد شمس وهم بطن من قريش.

أحسنت الأيام مطالبتي لأحسنت مطالبتك ولأنت علي ما لم تفعل أقدر مني على رد ما قد فعلت. قال: فبكى المأمون وقال: بالله أعد عليّ ما قلت، فأعاده، فالتفت المأمون إلى يحيى بن أكثم وقال: أما تنظر إلى مخاطبة هذا الرجل بأصغريه[1]؟ والنبي ﷺ يقول: «المرء بأصغريه قلبه ولسانه». والله لا وقفت لك إلا وأنا قائم على قدمي، فوقف وأمر له بصلة جزيلة واعتذر إليه، فلما همّ المأمون بالانصراف قال الرجل يا أمير المؤمنين: بيتان قد حضراني، ثم أنشد يقول:

ما جاد بالوفرِ إلاّ وهو معتذرٌ
ولا عفا قطّ إلاّ وهو مقتدرُ
وكلّما قصدوه زاد نائله
كالنار يؤخذ منها وهي تستعرُ

وقيل: إن بعض الحكماء لزم باب كسرى في حاجة دهراً، فلم يوصل إليه، فكتب أربعة أسطر في ورقة ودفعها للحاجب، فكان في السطر الأول: العديم لا يكون معه صبر على المطالبة، وفي السطر الثاني: الضرورة والأمل أقدماني عليك، وفي السطر الثالث: الانصراف من غير فائدة شماتة الأعداء، وفي السطر الرابع: أما نعم فمثمرة، وأما لا فمريحة. فلما قرأها كسرى دفع له في كل سطر ألف دينار.

وحكي أن رجلاً كان جاراً لابن عبيد الله، فأصاب الناس قحط بالعراق حتى رحل أكثر الناس عنه، فعزم جار ابن عبيد الله على الخروج من البلاد في طلب المعيشة، وكانت له زوجة لا تقدر على السفر، فلما رأت زوجها تهيأ للسفر قالت له: إذا سافرت من الذي ينفق علينا؟ قال: إن لي على ابن عبيد الله دينار ومعي به أشهاد عليه شرعي، فخذي الأشهاد وقدميه إليه، فإذا قرأه أنفق عليك مما عنده حتى أحضر، ثم ناولها رقعة كتب فيها هذه الأبيات يقول:

قالت وقد رأت الأحمال محدجَةً
والبينُ قد جمّع المشكوّ والشاكي
من لي إذا غِبتَ في ذا المَحْلِ[2] قلت لها
الله وابن عبيد الله مولاكِ

فمضت إليه المرأة وحكت له ما قال زوجها، وأخبرته بسفره، وناولته الرقعة، فقرأها، وقال: صدق زوجك، وما زال ينفق عليها ويواصلها بالبر والإحسان إلى أن قدم زوجها فشكره على فضله وإحسانه.

وحكي أن مطيع بن أياس مدح معن بن زائدة بقصيدة حسنة، ثم أنشدها بين يديه، فلما فرغ من إنشاده أراد معن أن يباسطه، فقال يا مطيع: إن شئت أعطيناك وإن شئت مدحناك كما مدحتنا، فاستحيا مطيع من اختيار الثواب وكره اختيار المدح وهو محتاج، فلما خرج من عند معن أرسل إليه بهذين البيتين:

ثناءٌ من أميرٍ خيرُ كسبٍ
لصاحب نعمةٍ وأخي ثراءِ
ولكنّ الزمان برى عظامي
ومالي كالدراهم من دواءِ

فلما قرأها معن ضحك وقال: ما مثل الدراهم من دواء. وأمر له بصلة جزيلة ومال كثير.

قال الشاعر:

هززتك لا إنّي جعلتك ناسياً
لأمري ولا إنّي أردت التقاضيا
ولكن رأيت السيف من بعد سلّه
إلى الهزّ محتاجاً وإن كان ماضيا[1]

وقال آخر:

ماذا أقول إذا رجعت وقيل لي
ماذا لقيت من الجواد الأفضلِ
إن قلت أعطاني كذبت وإن أقل
بخل الجواد بماله لم يجمل[2]
فاختر لنفسك ما أقول فإنني
لا بدّ أخبرهم وإن لم أسألِ

وقال آخر:

لنوائب الدنيا خبأتك فانتبهْ
يا نائماً من جملة النوّام
أعَلى الصراط تزيل لوعة كربتي
أم في المعاد تجود بالإنعام

ومما يستحسن إلحاقه بهذا الباب:

ذكر شيء مما جاء في ذم السؤال والنهي عنه:

روي عن عبد الرحمن بن عوف بن مالك الأشجعي

---

(١) أي قلبه الثابت فلم يتلجلج رغم الأمر بقطع عنقه، ولسانه الذي تحدث عن حاجته ببلاغة وحسن بيان.
(٢) المَحْلُ: الجدب والقحط.

(١) سل السيف: أخرجه من غمده، ماضياً: قاطعاً.
(٢) لم يجمل: لم يَحْسُن.

رضي الله تعالى عنه قال: كُنّا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: ألا تبايعون رسول الله ﷺ؟ فبسطنا أيدينا وكنا حديثي عهد بالمبايعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام يا رسول الله نبايعك؟ قال: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وتقيموا الصلوات الخمس، وتطيعوا الله، وأسرّ كلمة خفية وهي: ولا تسألوا الناس شيئاً، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحداً يناوله إياه، رواه مسلم.

وقال رجل لابنه: إياك أن تريق ماء وجهك عند من لا ماء في وجهه.

وكان لقمان يقول لولده: يا بني إياك والسؤال فإنه يذهب ماء الحياء من الوجه، وأعظم من هذا استخفاف الناس بك. وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: لأن تدخل يدك فم التنين إلى المرفق خير لك من أن تبسطها إلى غني قد نشأ في الفقر.

وقيل لأعرابي: ما السقم الذي لا يبرأ والجرح الذي لا يندمل؟ قال: حاجة الكريم إلى اللئيم.

وقال أبو محلم السعدي:

إذا رماكَ الدهر في الضيق فانتجع
قديم الغنى في الناس إنك حامدهْ[1]
ولا تطلبنّ الخير ممّن أفاده
حديثاً ومن لا يورث المجدَ والدهْ

وقال رسول الله ﷺ: **«مسألة الناس من الفواحش ما أُحِلَ من الفواحش غيرها»**. وقال عليه الصلاة والسلام: **«لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه»**.

قال الشاعر:

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله
عوضاً ولو نال الغنى بسؤالِ
وإذا السؤال مع النوال وزنته
رجح السؤال وخفّ كل نوالِ

وقال أحمد الأنباري:

لموت الفتى خير من البخل للغنى
وللبخل خير من سؤال بخيلِ

(١) وقد جاء في الأثر: كل من يد افتقرت بعد غنى فإن العز فيها باق ولا تأكل من يد اغتنت بعد فقر فإن الذل فيها باق، انتجع: أقصُد.

لعمرك ما شيء لوجهك قيمةٌ
فلا تلق إنساناً بوجه ذليلِ

وقال سلم الخاسر:

إذا أذِنَ الله في حاجةٍ
أتاك النجاح على رسله
فلا تسأل الناس من فضلهم
ولكن سل الله من فضله

ويقال: أحب الناس إلى الله من سأله وأبغض الناس إلى الناس من احتاج إليهم وسألهم، وفي هذا المعنى قيل:

لا تسألنّ من ابن آدم حاجةً
وسلِ الذي أبوابه لا تحجب[1]
الله يغضب إن تركت سؤاله
وبُنَيّ آدم حين يُسأل يغضب

وقال محمود الوراق:

شاد الملوك قصورهم وتحصنوا
من كل طالب حاجة أو راغبِ
فارغب إلى ملك الملوك ولا تكنْ
ياذا الضراعة طالباً من طالبِ

وقال ابن دقيق العيد:

وقائلةٍ مات الكرام فمن لنا
إذا عضّنا الدهر الشديد بنابه
فقلت لها من كان غاية قصده
سؤالاً لمخلوق فليس بنابه
إذا مات من يُرجى فمقصودنا الذي
ترجّيه باقٍ فلوذي ببابه

وقال بعض أهل الفضل:

لما افتقرت لصحبي ما وجدتهمو
لجأت لله لبّاني وأغناني
واهاً على بذل وجهي للورى سفهاً
فلو بذلت إلى مولاي والاني

وسأل رجل رجلاً حاجة فلم يقضها فقال: سألت فلاناً حاجة أقل من قيمته، فردني رداً أقبح من خلقته.

وسأل عروة مصعباً حاجة فلم يقضها فقال: علم الله تعالى أن لكل قوم شيخاً يفزعون إليه وأنا أفزع منك[2].

(١) أي سل الذي أبواب عطائه مفتوحة دائماً وهو الله عز وعلا.
(٢) فزع إليه: لجأ إليه، وفزع منه: فر وهرب من وجهه.

ويقال: لا شيء أوجع للأخيار من الوقوف بباب الأشرار.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

بلوت بني الدنيا فلم أر فيهم
سوى من غدا والبخل ملء إهابه(١)
فجردت من غمد القناعة صارماً
قطعت رجائي منهم بذبابه(٢)
فلا ذا يراني واقفاً في طريقه
ولا ذا يراني قاعداً عند بابه
غنيٌ بلا مالٍ عن الناس كلّهم
وليس الغنى إلاّ عن الشيء لا به
إذا مَا ظَالِمٌ اَستَحْسَن الظلم مذهباً
ولجّ عتواً في قبيح اكتسابه(٣)
فكله إلى صرف الليالي فإنها
ستبدي له ما لم يكنْ في حسابه(٤)
فكَم قد رأينا ظالماً متمرداً
يرى النجم تيهاً تحت ظلّ ركابه(٥)
فعمّا قليلٌ وهو في غفلاته
أناخت صروف الحادثات ببابه
فأصبح لا مالٌ ولا جاه يرتجى
ولا حسناتٌ تلتقي في كتابه
وجُوزيَ بالأمر الذي كان فاعلاً
وصبَّ عليه الله سَوْطَ عذابه

وقال آخر:

لا تسألنّ إلى صديقٍ حاجةً
فيحول عنك كما الزمان يحول
واستغن بالشيء القليل فإنّه
ما صان عرضك لا يقال قليل
من عفّ خفّ على الصديق لقاؤه
وأخو الحوائج وجهه مملول
وأخوك من وفّرت ما في كفّه
ومتى علقت به فأنت ثقيل

وقال آخر:

ليس جوداً أعطيته بسؤالٍ
قد يهزّ السؤال غير جوادِ
إنما الجود ما أتاك ابتداءً
لم تذق فيه ذلّة الترداد

وقال آخر:

لا تحسبن الموت موت البلى
إنما الموت سؤال الرجالِ
كلاهما موتٌ ولكنّ ذا
أخفّ من ذاك لذلّ السؤالِ

وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه:

قنعت بالقوت من زماني
وصنت نفسي عن الهوان
خوفاً من الناس أن يقولوا
فضل فلانٍ على فلانِ
من كنت عن ماله غنيّاً
فلا أبالي إذا جفاني
ومن رآني بعين نقص
رأيته بالتي رآني
ومن رآني بعينِ تم
رأيته كامل المعاني

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الرابع والخمسون
في ذكر الهدايا والتحف وما أشبه ذلك

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾(١) فسرها بعضهم بالهدية.

وقال ﷺ: **«تهادوا تحابوا فإنها تجلب المحبة وتذهب الشحناء»**. **وقال ﷺ: «الهدية مشتركة». وقال ﷺ: «من**

(١) الإهاب: الجلد.
(٢) ذباب السيف: حدُّه، والصارم: القاطع.
(٣) لَجَّ عُتُواً: أصرّ وتجاوز الحد في خصومته وعداوته واستكبر متجبراً.
(٤) كله: أوكل به، صرف الليالي: صروفها: أي مصائبها.
(٥) تيهاً: تكبراً وضلالاً، والركاب للسرج: ما توضع فيه الرِّجْلُ وهما ركابان والمراد أنه لتكبره يرى النجم أدنى من موضع قدميه.

(١) سورة النساء، الآية (٨٦).

سألكم بالله فأعطوه ومن استعاذكم فأعيذوه ومن أهدى إليكم كراعاً[1] فاقبلوه». وكان ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها ما هو خير منها. وفي الأثر: الهدية تجلب المودة إلى القلب والسمع والبصر.

ومن الأمثال: إذا قدمت من سفر فأهد أهلك ولو حجراً. وقال الفضل بن سهل: ما استرضي الغضبان، ولا استعطف السلطان، ولا سلبت السخائم[2] ولا دُفعت المغارم، ولا استميل المحبوب، ولا توقي المحذور بمثل الهدية.

وأتى فتح الموصلي بهدية وهي خمسون ديناراً فقال: حدثنا عطاء، عن النبي ﷺ: أنه قال «من أتاه الله رزقاً من غير مسألة ورده فكأنما رده على الله تعالى».

وأهدى رسول الله ﷺ هدية إلى عمر، فردها، فقال: يا عمر لِمَ رددت هديتي؟ فقال رضي الله تعالى عنه: إني سمعتك تقول خيركم من لم يقبل شيئاً من الناس. فقال: يا عمر إنما ذاك ما كان عن ظهر مسألة، فإما إذا أتاك من غير مسألة فإنما هو رزق ساقه الله إليك.

وقالت أم حكيم الخزاعية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تهادوا فإنه يضاعف الحب ويذهب بغوائل[3] الصدور». ويقال: في نشر المهاداة طي المعاداة.

ذكر أنواع الهدايا للخلفاء وغيرهم ممن قصرت به قدرته فاهدى اليسير وكتب معه مكاتبة يعتذر بها:

أُهدي إلى سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ثمانية أشياء متباينة في يوم واحد. فيلة من ملك الهند، وجارية من ملك الترك، وفرس من ملك العرب، وجوهر من ملك الصين، واستبرق من ملك الروم، ودرة من ملك البحر، وجرادة من ملك النمل، وذرة من ملك البعوض. فتأمل ذلك، وقال: سبحان القادر على جمع الأضداد.

وأهدى ملك الروم إلى المأمون هدية، فقال المأمون: أهدوا له ما يكون ضعفها مائة مرة ليعلم عز الإسلام ونعمة الله تعالى علينا، ففعلوا ذلك، فلما عزموا على حملها قال: ما أعز الأشياء عندهم؟ قالوا: المسك والسمور. وقال: وكم في الهدية من ذلك؟ قالوا: مائتا رطل مسكاً ومائتا فروة سمور.

(١) الكراع: مستدق الساق من الغنم والبقر.

(٢) السخائم ج سخيمة وهي البغضاء والشحناء.

(٣) الغوائل: ج غائلة وهو ما ترسَّخ في النفس من العداوة.

وأهدت قطر الندى إلى المعتضد بالله في يوم نيروز في سنة اثنتين وثمانين ومائتين هدية كان فيها عشرون صينية ذهب في عشرة منها مشام عنبر وزنها أربعة وثمانون رطلاً، وعشرون صينية فضة في عشر منها مشام صندل زنتها نيف وثلاثون رطلا، وخمس خلع وشي قيمتها خمسة آلاف دينار، وعملت شمامات ليوم النيروز بلغت النفقة عليها ثلاثة عشر ألف دينار.

أهدى يعقوب بن الليث الصفار إلى المعتمد على الله هدية في بعض السنين من جملتها عشر بازات منها باز أبلق لم ير مثله، ومائة مهر، وعشرون صندوقاً على عشر بغال فيهم طرائف الصين وغرائبه، ومسجد فضة بدرابزين يصلي فيه خمسة عشر إنساناً ومائة رطل من مسك، ومائة رطل عود هندي، وأربعة آلاف ألف درهم.

وأهدت ثريا بنت الأوباري ملكة افرنجة وما والاها إلى المكتفي بالله في سنة ثلاث وسبعين ومائتين. خمسين سيفاً وخمسين رمحاً وعشرين ثوباً منسوجاً بالذهب، وعشرين خادماً صقلبياً، وعشرين جارية صقلبية، وعشر كلاب كبار لا تطيقها السباع، وست بازات، وسبع صقور، ومضرب حرير متلون بجميع الألوان كلون قوس قزح، يتلون في كل ساعة من ساعات النهار، وثلاثة أطيار من الأطيار الإفرنجية إذا نظرت إلى الطعام أو الشراب المسموم صاحت صياحاً منكراً وصفقت بأجنحتها حتى يعلم ذلك، وخرزاً يجذب النصول بعد نبات اللحم عليها بغير وجع، وحمارة وحشية عظيمة الخلقة في قدر البغل، وآذانها شبه آذان البغل، وهي مخططة تخطيطاً عاماً لجميع خلقتها.

وأهدى قسطنطين ملك الروم إلى المستنصر بالله في سنة سبع وثلاثين وأربعمائة هدية عظيمة اشتملت قيمتها على ثلاثين قنطاراً من الذهب الأحمر كل قنطار منها عشرة آلاف دينار عربية قيمة ذلك ثلاثمائة ألف دينار عربية.

وحكي أن الخيزران جارية المهدي كانت أديبة شاعرة، فعزم المهدي على شرب دواء، فأنفذت إليه جام بلور[1] فيه شراب اختارته له مع وصيفة بكر بارعة الجمال، وكتبت إليه تقول:

إذا خــرج الإمــام مــن الــدواءِ
وأعــقــب بــالــسـلامـة والــشــفــاء

(١) الجام: وعاء كالكأس ولا يكون إلا من زجاج أو بلور.

وأصلح حاله من بعد شربِ
بهذا الجام من هذا الطلاء[1]
فنعم للتي قد أنفذته
إليه بزورةٍ بعد العشاءِ

فسرّ بذلك ووقعت الجارية منه أعظم موقع، وزار الخيزران وأقام عندها يومين.

وأهدى الصابي إلى عضد الدولة أسطرلابا في يوم المهرجان وكتب إليه يقول:

أهدى إليك بنو الأملاك واحتفلوا
في مهرجانٍ جديدٍ أنت تبليهِ
لكنّ عبدك إبراهيم حين رأى
سموّ قدرك عن شيءٍ يدانيهِ
لم يرض بالأرض يهديها إليك وقد
أهدى لك الفلكَ الأعلى بما فيه

وأهدى رجل إلى المتوكل قارورة ذهب وكتب معها بأن الهدية إذا كانت من الصغير إلى الكبير فكلما لطفت ودقت كانت أبهى وأحسن، وإذا كانت من الكبير إلى الصغير فكلما عظمت وجلّت كانت أوقع وأنفع.

وأهدى مرة أبو الهذيل إلى موسى بن عمران دجاجة ووصفها له بصفات جليلة، ثم لم يزل يذكرها، وكلما ذكر شيء بجمال أو سمن قال: هو أحسن أو أسمن من الدجاجة التي أهديتها إليكم، وإن ذكر حادث قال: ذلك قبل أن أهدي لكم الدجاجة بشهر، وما كان بين ذلك وبين إهداء الدجاجة إلا أيام قلائل، فصارت مثلا لمن يستعظم الهدية، ويذكرها[2]. قال الشاعر:

وإن امرأ أهدى إليّ صنيعةً
وذكّرنيها مرّةً للئيمُ

وقال سفيان الثوري: إذا أردت أن تتزوج فأهد للأم.

وكان سفيان يروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: من أهديت إليه هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها، فأهدى إليه صديق له ثياباً من ثياب مصر وعنده قوم، فذكروا الخبر، فقال: إنما ذلك فيما يؤكل ويشرب أما في ثياب مصر فلا.

وكتب الحمدوني إلى جارية اسمها برهان، وقد حج مواليها، فقال:

حجوا مواليك يا برهان واعتمروا
وقد أتتك الهدايا من مواليكِ

(١) الطلاء: شراب كثيف القوام كالدبس.
(٢) القصة مُفصّلةً جاءت في كتاب البخلاء للجاحظ.

فأطرفيني بما قد أطرفوك به
ولا تكن طرفتي غير المساويك
ولست أقبل إلاّ ما جلوت به
ثنيتيك وما ردّدت في فيك

وكتب بعضهم إلى صديقه وقد أهدى إليه هدية يسيرة يقول:

تفضّلْ بالقبول عليّ إني
بعثت بما يقلّ العبد عندك

وأهدى بعضهم إلى صديقه هدية في يوم نيروز، وكتب إليه يقول: هذا يوم جرت فيه العادة بألطاف العبيد للسادة، وقدر الأمير يجل عما تحيط به المقدرة، وفي سؤدده ما يوجب التفضل ببسط المعذرة، وقد وجهت ما حضر علماً بأنه لا يستكثر ما جل ولا يستقل لعبده ما قل، فإن رأى أن يتطول بقبول القليل كتطوله بإهداء الجزيل فعل، وجعل يقول:

رأيت كثير ما يُهدَى إليكم
قليلاً فاقتصرت على الدعاءِ

وبلغ الحسن بن عمارة أن الأعمش يقع فيه ويقول: ظالم وَلِيَ المظالم، فأهدى إليه هدية فمدحه الأعمش بعد ذلك وقال: الحمد لله الذي ولي علينا من يعرف حقوقنا، فقيل له: كنت تذمه ثم الآن تمدحه، فقال: حدثني خيثمة عن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «**جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها**».

وقال عبد الملك بن مروان: ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها، الكتاب يدل على عقل كاتبه، والرسول يدل على عقل مرسله، والهدية تدل على عقل مهديها. والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الخامس والخمسون
في العمل والكسب والصناعات والحرف وما أشبه ذلك

أما العمل:

فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل العمل أدومه وإن قل». وقال علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه:

قليلٌ مدامٌ عليه خير من كثير مملول. **وفي التوراة**: حرك يدك افتح لك باب الرزق.

وكان إبراهيم بن أدهم[1] يسقي ويرعى ويعمل بالكراء ويحفظ البساتين والمزارع ويحصد بالنهار ويصلي بالليل.

وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: ما ينفي عني حجة العلم؟ قال: العمل. **وعنه ﷺ أنه قال: «الكيّس**[2] **من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني».**

وقال الأوزاعي: إذا أراد الله بقوم سوءاً أعطاهم الجدل ومنعهم العمل. وأنشد يقول:

وما المرء إلاّ حيث يجعل نفسه
ففي صالح الأعمال نفسك فاجعلِ

وقال بعض الحكماء: لا شيء أحسن من عقل زانه حلم، ومن عمل زانه علم، ومن حلم زانه صدق. **ودخل بعض الخواص** على إبراهيم بن صالح وهو أمير فلسطين فقال له: عظني. فقال له الولي: بلغني رحمك الله أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم الموتى، فانظر ماذا تعرض على رسول الله ﷺ من عملك. فبكى إبراهيم حتى سالت دموعه.

وقيل: من جدّ وجد، وأنشدوا في المعنى:

إنّي رأيت وفي الأيام تجربةٌ
للصبر عاقبةٌ محمودةُ الأثرِ
وقلّ من جدّ في أمرٍ يحاوله
واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

وتقول العرب: فلان وثّاب على الفرص.

وقال بعضهم:

وإنّي إذا باشرت أمراً أريده
تدانت أقاصيه وهان أشده

(١) إبراهيم بن أدهم: هو السلطان إبراهيم، أحد الزهاد المشهورين في بلخ، جال في بغداد والشام والحجاز، أخذ كثيراً عن علماء هذه الأقطار، وكان يلبس في الشتاء فرواً لا قميص تحته ولا يتعمم في الصيف ولا يحتذي. يصوم في السفر والإقامة. من الراجح أنه مات ودفن في سوفنن «حصن من بلاد الروم» كما ورد في تاريخ إبن عساكر، سنة ١٦١ هـ وذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة وروى كثيراً من أخباره.

(٢) الكيّس: الفَطِنُ اللَّبِيبُ.

وعن أنس رضي الله تعالى عنه: يتبع الميت ثلاث. فيرجع إثنان، ويبقى واحد، يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ولا يرجع عمله. **وقال بعضهم**: العمل سعي الأركان إلى الله، والنية سعي القلوب إلى الله، والقلب ملك والأركان جنود ولا يحارب الملك إلا بالجنود، ولا الجنود إلا بالملك. **وقيل**: الدنيا كلها ظلمات إلا موضع العلم، والعلم كله هباء إلا موضع العمل، والعمل كله هباء إلا موضع الإخلاص، هذا هو العمل.

وأما الكسب: فقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾[1] أي دروع من الحديد، وذلك أن داود عليه الصلاة والسلام كان يدور في الصحاري فإذا رأى من لا يعرفه تحدث معه في أمر داود، فإذا سمعه عابه بشيء يصلحه من نفسه، فسمع يوماً من يقول: إني لا أجد في داود عيباً إلا أنه يأكل من غير كسبه، فعند ذلك صلى داود عليه الصلاة والسلام في محرابه وتضرع بين يدي الله تعالى وسأله أن يعلمه ما يستعين به على قوته، فعلمه الله تعالى صنعة الحديد وجعله في يده كالشمع، فاحترفها واستعان بها على أمره وصار يحكم منها الدروع.

وقال رسول الله ﷺ: «جعل رزقي تحت ظل رمحي فكانت حرفته الجهاد». وقال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب العبد المحترف». وقال ﷺ: «إن الله تعالى يبغض العبد الصحيح الفارغ». وقال عليه الصلاة والسلام: «من اكتسب قوته ولم يسأل الناس لم يعذبه الله تعالى يوم القيامة». ولو تعلمون ما أعلم من المسألة لما سأل رجل رجلاً شيئاً وهو يجد قوت يومه، وليس عند الله أحب من عبد يأكل من كسب يده إن الله تعالى يبغض كل فارغ من أعمال الدنيا والآخرة.

وعن أنس رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ: **«من بات كالاً في طلب الحلال أصبح مغفوراً له»**. وعن الحسن رحمه الله: كسب الدرهم الحلال أشد من لقاء الزحف.

وقيل لمحمد بن مهران: إن ههنا أقواماً يقولون نجلس في بيوتنا وتأتينا أرزاقنا، فقال: هؤلاء قوم حمقى إن كان لهم مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن فليفعلوا.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة. **وقال أيضاً**: إني لأرى

(١) سورة الأنبياء، الآية (٨٠).

الرجل فيعجبني، فأقول: أله حرفة، فإن قالوا لا. سقط من عيني.

واشترى سليمان وسقاً من طعام وهو ستون صاعاً فقيل له في ذلك فقال: إن النفس إذا أحرزت رزقها أطمأنت.

قال بعضهم في السعي:

خاطرْ بنفسك كي تصيبَ غنيمةً
إنّ الجلوس مع العيال قبيح

وقيل: إن أول من صنع لسان الميزان عبد الله بن عامر، وكان الناس إنما يزنون بالشاهيني. **وعن أنس** رضي الله عنه قال: غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ، فقالوا يا رسول الله: سَعِّرْ لنا، فقال: إن الله الخالق القابض المسعر الرازق، وإن لأرجو أن ألقى الله تعالى وليس أحد يطلبني بمظلمة ظلمته بها في أهل ولا مال.

وأما ما جاء في العجز والتواني:

فقد روي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال: من أطاع التواني ضيع الحقوق، ومن العجز طلب ما فات مما لا يمكن استدراكه وترك ما أمكن مما تحمد عواقبه.

قال الشاعر:

على المرء أن يسعى ويبذل جهده
ويقضي إله الخلق ما كان قاضيا

ومثله قوله:

على المرء أن يسعى ويبذل نفعه
وليس عليه أن يساعده الدهر

وقيل: احذر مجالسة العاجز، فإنه من سكن إلى عاجز أعداه من عجزه، وأمده من جزعه وعوده قلة الصبر، ونسّاه ما في العواقب، وليس للعجز ضدّ إلا الحزم.

وقال بعض العلماء: من الخذلان مسامرة الأماني ومن التوفيق بغض التواني. **وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «باكروا في طلب الرزق والحوائج فإن الغدو بركة ونجاح»**.

وقال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه: احرص على ما ينفعك، ودع كلام الناس فإنه لا سبيل إلى السلامة من ألسنة الناس. **وقال علي** رضي الله تعالى عنه: التواني مفتاح البؤس، وبالعجز والكسل تولدت الفاقة ونتجت الهلكة، ومن لم يطلب لم يجد وأفضى إلى الفساد.

وقال حكيم: من دلائل العجز كثرة الإحالة على المقادير. **وقال بعض الحكماء**: الحركة بركة والتواني هلكة والكسل شؤم، وكلب طائف خير من أسد رابض ومن لم يحترف لم يعتلف. **وقيل**: من العجز والتواني تنتج الفاقة. **قال هلال بن العلاء الرّقاء** هذين البيتين من جملة أبيات:

كأنّ التواني أنكح العجز بنته
وساق إليها حين زوّجها مهرا
فراشاً وطيئاً ثم قال لها اتكي
فإنكما لا بدّ أن تلدا الفقرا

وقال آخر:

توكل على الرحمن في الأمر كلّه
ولا ترغبن في العجز يوماً عن الطلبْ
ألم تر أنّ الله قال لمريم
وهزّي إليك الجذع يسّاقط الرّطبْ
ولو شاء أن تجنيه من غير هزّه
جنته ولكنْ كلّ رزقٍ له سببْ

وسأل معاوية رضي الله عنه سعيد بن العاص عن المروءة فقال: العفة والحرفة. **وكان أيوب السختياني** يقول: يا فتيان احترفوا فإني لا آمن عليكم أن تحتاجوا إلى القوم، يعني الأمراء. **وقال رجل للحسن**: إني أنشر مصحفي فاقرأه بالنهار كله، فقال: اقرأه بالغداة والعشي ويكون يومك في صنعتك وما لا بد منه. ومر رحمه الله تعالى بإسكاف، فقال يا هذا: اعمل وكل، فإن الله يحب من يعمل ويأكل ولا يحب من يأكل ولا يعمل.

وقال أبو تمام:

أعاذلتي ما أحسن الليل مركباً
وأحسن منه في الملمّاتِ راكبُهْ
ذريني وأهوال الزمان أقاسِهَا
فأهواله العظمى تليها رغائبه
أرى عاجزاً يدعى جليداً لقسمه
ولو كلّف المقوى لكلّت مضاربه[1]
وعفّاً يُسمى عاجزاً بعفافه
ولولا التقى ما أعجزته مذاهبُهْ
وليس بعجز المرء أخطأه الغنى
ولا باحتيالٍ أدرك المال كاسبُهْ

وقال آخر:

فلا تركنْ إلى كسلٍ وعجزٍ
يحيل على المقادرِ والقضاء[2]

---

(١) جليداً: جَلْداً قَوِيّاً، كَلّت: تعبت وأصابها الوَهَنُ والضعف.
(٢) ركن إلى الشيء: اطمأن إليه وقنع به ولم يجاوزه إلى غيره.

وقال أعرابي: العاجز هو الشاب القليل الحيلة الملازم للأماني المستحيلة. ويقال: فلان يخدعه الشيطان عن الحزم، فيمثل له التواني في صورة التوكل، ويريه الهوينا بإحالته على القدر. وقال لقمان لابنه: يا بني إياك والكسل والضجر، فإنك إذا كسلت لم تؤد حقاً وإذا ضجرت لم تصبر على حق.

وقال أبو العتاهية:

إذا وضع الراعي على الأرض صدره
فحقٌ على المعزى بأن تتبدّدا

فالتواني: هو الكسل وتضييع الحزم وعدم القيام على مصالح النفس وترك التسبب والاحتراف والإحالة على المقادير، وهذا من أقبح الأفعال.

وأما التأني:

فإنه خلاف التواني، وهو الرفق ورفض العجلة والنظر في العواقب. وقد قيل: من نظر في عواقب الأمور سلم من آفات الدهور. ومما جاء في ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «من أعطي حظه من الرفق أعطي حظه من الدنيا والآخرة». وقال عليه الصلاة والسلام لعائشة: «عليك بالرفق فإن الرفق لا يخالط شيئاً إلا زانه ولا يفارق شيئاً إلا شانه». وفي التوراة: الرفق رأس الحكمة. وقالوا: العقل أصله التثبت وثمرته السلامة. ووجد على سيف مكتوباً: التأني فيما لا يخاف فوته أفضل من العجلة في إدراك الأمل.

وقال بعض الحكماء: إذا شككت فاجزم وإذا استوضحت فاعزم. وقالوا: يد الرفق تجني ثمرة السلامة، ويد العجلة تغرس شجرة الندامة.

وأنشدوا في ذلك:

قد يُدرك المتأنّي بعض حاجتِهِ
وقد يكون مع المستعجل الزلل

وقالوا: التأني حصن السلامة والعجلة مفتاح الندامة. وقالوا: إذا لم يدرك الظفر بالرفق والتأني، فبماذا يدرك؟ وقال المهلب: أناة في عواقبها درك خير من عجلة في عواقبها فوت. وقالوا: من تأنّى نال ما تمنّى. والرفق مفتاح النجاح. وقال بعض الحكماء إياك والعجلة فإنها تكنّى أم الندامة، لأن صاحبها يقول قبل أن يعلم ويجيب قبل أن يفهم، ويعزم قبل أن يفكر، ويحمد قبل أن يجرب ولن تصحب هذه الصفة أحداً إلا صحب الندامة وجانب السلامة.

وأما الصناعات والحرف وما يتعلق بها:

فقد روي عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عمل الأبرار من الرجال الخياطة، وعمل الأبرار من النساء الغزل» وكان ﷺ يخيط ثوبه ويخصف نعله[1] ويحلب شاته، ويعلف ناضحه[2].

وقال سعيد بن المسيب: كان لقمان الحكيم خياطاً، وقيل: كان إدريس عليه السلام خياطاً، ووقف علي بن أبي طالب كرم الله وجهه على خياط، فقال له: يا خياط ثكلتك الثواكل، صلّب الخيط ودقّق الدروز، وقارب الغروز، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله الخياط الخائن وعليه قميص ورداء مما خاط وخان فيه، واحذر السقاطات، فإن صاحب الثوب أحق بها، ولا تتخذ بها الأيادي وتطلب المكافأة».

وقال فيلسوف: إن من القبيح أن يتولى امتحان الصناع من ليس بصانع. وفي الحديث: «أكذب أمتي الصواغون الصباغون وكذب الدلاّل مثل». وقالوا: لكل أحد رأس مال ورأس مال الدلال الكذب[3].

وقال عبد الرحمن بن شبل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «التجار هم الفجّار، فقيل: أليس الله تعالى قد أحل البيع: قال: نعم. ولكن يحدثون فيكذبون، ويحلفون فيحنثون».

وقال الفضيل: بخس الموازين سواد في الوجه يوم القيامة، وإنما أهلكت القرون الأولى لأنهم أكلوا الربا وعطلوا الحدود ونقصوا الكيل والميزان.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾[4]. قيل هم الحاكة والأساكفة. وقيل: إن حائكاً سأل إبراهيم الحربي: ما تقول فيمن صلى العيد ولم يشتر ناطفاً[5] ما الذي يجب عليه؟ فتبسم إبراهيم، ثم قال: يتصدق بدرهمين، فلما مضى قال: ما علينا أن نفرح المساكين من مال هذا الأحمق.

---

(١) سورة طه، الآية (١١٤).

(١) يخصف نعله: يرقعه.
(٢) الناضح: البعير يجلب عليه الماء.
(٣) قلت: وبئس المهنة رأسمالها الكذب.
(٤) سورة الشعراء، الآية (١١١).
(٥) الناطف: نوع من الحلوى يتخذ من جذور الحلاوة والسُكّر يطبخان معاً.

وقيل لرجل: هل فيكم حائك؟ قال: لا. قيل: فمن ينسج لكم ثيابكم؟ قال: كلّ منا ينسج لنفسه في بيته.

وكان أردشير بن بابك لا يرتضي لمنادمته ذا صناعة رديئة كحائك وحجام، ولو كان يعلم الغيب مثلاً. وقال كعب: لا تستشيروا الحاكة، فإن الله تعالى سلب عقولهم ونزع البركة من كسبهم، لأن مريم عليها السلام مرت بجماعة من الحياكين، فسألتهم عن الطريق فدلوها على غير الطريق، فقالت: نزع الله البركة من كسبكم.

وقال أبو العتاهية:

ألا إنما التقوى هي العز والكرمْ
وحبُّك للدنيا هو الذل والسقمْ
وليس على عبدٍ تقي نقيصةٌ
إذا صحّح التقوى وإن حاك أو حجم

وهذا ما أردناه سياقة في هذا الباب. والله الموفق للصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السادس والخمسون
في شكوى الزمان وانقلابه بأهله والصبر على المكاره والتسلي عن نوائب الدهر

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول
في شكوى الزمان وانقلابه بأهله

روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: ما من يوم ولا ليلة ولا شهر ولا سنة إلا والذي قبله خير منه سمعت ذلك من نبيكم ﷺ. وكان معاوية رضي الله تعالى عنه يقول: معروف زماننا منكر زمان قد مضى، ومنكره معروف زمان لم يأت.

وكانت ناقة رسول الله ﷺ العضباء لا تُسبق، فجاء أعرابي فسبقها، فشق ذلك على الصحابة رضي الله عنهم، فقال ﷺ: «إن حقاً على الله أن لا يرفع شيئاً من هذه الدنيا إلا وضعه».

وحكي عن شيخ من همدان قال: بعثني أهلي في الجاهلية إلى ذي الكلاع الحميري بهدايا، فمكثت شهراً لا أصل إليه، ثم بعد ذلك أشرف أشرافة من كوة، فخرّ له من حول القصر سجداً، ثم رأيته من بعد ذلك وقد هاجر إلى حمص واشترى بدرهم لحماً، وسمطه خلف دابته وهو القائل هذه الأبيات:

أف للدنيا إذا كانت كذا
أنا منها في بلاءٍ وأذى
إن صفا عيش امرىءٍ في صبحها
جرعته ممسياً كأس الردى
ولقد كنت إذا ما قيل من
أنعم العالم عيشاً قيل ذا

وقال يونس بن ميسرة: لا يأتي علينا زمان إلا بكينا منه ولا يتولى عنا زمان إلا بكينا عليه. ومن ذلك قوله:

ربَّ يوم بكيت منه فلما
صرت في غيره بكيت عليه

ومثله:

وما مرّ يومٌ أرتجي فيه راحةً
فأخبره إلاّ بكيت على أمسي

ومن كلام ابن الأعرابي:

عن الأيام عدّ فعن قليلِ
ترى الأيام في صوَرِ الليالي

وقال رضي الله عنه: ما قال الناس لشيء طوبى إلا وقد خبأ له الدهر يوم سوء.

قال الشاعر:

فما الناس بالناس الذين عهدتهم
ولا الدار بالدار التي كنت أعهدُ

ودخل داود عليه الصلاة والسلام غاراً، فوجد فيه رجلاً ميتاً وعند رأسه لوح مكتوب فيه، أنا فلان ابن فلان الملك عشت ألف عام، وبنيت ألف مدينة، وافتضضت ألف بكر، وهزمت ألف جيش، ثم صار أمري إلى أن بعثت زنبيلاً من الدراهم في رغيف فلم يوجد، ثم بعثت زنبيلاً من الجواهر فلم يوجد، فدققت الجواهر واستفيتها فمت مكاني، فمن أصبح وله رغيف وهو يحسب أن على وجه الأرض أغنى منه أماته الله كإماتتي.

وذكر أن عبد الرحمن بن زياد لما ولي خراسان حاز من الأموال ما قدر لنفسه أنه إن عاش مائة سنة ينفق في كل يوم

ألف درهم على نفسه أنه يكفيه، فرؤي بعد مدة وقد احتاج إلى أن باع حلية مصحفه وأنفقها.

وقال هيثم بن خالد الطويل: دخلت على صالح مولى منارة في يوم شات وهو جالس في قبة مغشاة بالسمور، وجميع فروشها سمور، وبين يديه كانون فضة يبخر فيه بالعود، ثم رأيته بعد ذلك في رأس الجسر وهو يسأل الناس.

ولما قتل عامر بن إسماعيل مروان بن محمد ونزل في داره وقعد على فرشه، دخلت عليه عبدة بنت مروان فقالت: يا عامر: إن دهراً أنزل مروان عن فرشه وأقعدك عليه قد أبلغ في عظتك.

وقال مالك بن دينار: مررت بقصر تضرب فيه الجواري بالدفوف ويقلن:

ألا يــا دار لا يــدخــلْــكِ حــزنٌ
ولا يـغـدرْ بـصـاحـبـك الـزمـانُ
فـنـعـم الـدارُ تـأوي كـلّ ضـيـفٍ
إذا مـا ضـاق بـالـضـيـف الـمـكـانُ

ثم مررت عليه بعد حين وهو خراب وبه عجوز فسألتها عما كنت رأيت وسمعت، فقالت: يا عبد الله إن الله يغيِّر ولا يتغيَّر والموت غالب كل مخلوق، قد والله دخل بها الحزن وذهب بأهلها الزمان.

وقال أبو العتاهية:

لئن كنتَ في الدنيا بصيراً فإنّما
بـلاغُـك مـنـهـا مـثـل زاد الـمـسـافـرِ
إذا أبقت الدنيا على المرء دينه
فـمـا فـاتـه مـنـهـا فـلـيـس بـضـائـر

وقال عبد الملك بن عمير: رأيت رأس الحسين رضي الله عنه بين يدي ابن زياد في قصر الكوفة، ثم رأيت رأس زياد بين يدي المختار، ثم رأيت رأس المختار بين يدي مصعب، ثم رأيت رأس مصعب بين يدي عبد الملك، قال سفيان، فقلت له: كم كان بين أول الرؤوس وآخرها؟ قال: اثنتا عشرة سنة.

إنَّ لـلـدّهـر صـرعـةً فـاحـذرنـهـا
لا تـبـيـتـنّ قـد أمـنـت الـشـرورا
قـد يـبـيـت الـفـتـى مـعـافـى فـيـردى
ولـقـد كـان آمـنـاً مـسـرورا

وكان محمد بن عبد الله بن طاهر في قصره على الدجلة ينظر، فإذا هو بحشيش في وسط الماء وفي وسطه قصبة على رأسها رقعة، فدعا بها فإذا فيها مكتوب شعراً وهو للشافعي رضي الله تعالى عنه:

تـاه الأعـيـرج واسـتـعـلـى بـه الـبـطـرُ
فقل له خير ما استعملته الحذرُ
أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت
ولم تخفْ سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها
وعند صفو الليالي يحدث الكدر

قال: فما انتفع بنفسه.

وأعجب ما وجد في السيَر خبر القاهر أحد الخلفاء وقلعه من الملك وخروجه إلى الجامع في بطانة جبة بغير ظهارة، ومد يده يسأل الناس بعد أن كان ملكه لأقطار الأرض، فتبارك الله يعز من يشاء ويذل من يشاء.

وقيل: كان لمحمد المهلبي قبل اتصاله بالسلطان حال ضعيف، فبينما هو في بعض أسفاره مع رفيق له من أصحاب الحرث والمحراث إلا أنه من أهل الأدب إذ أنشده يقول:

ألا مـوتٌ يـبـاع فـأشـتـريـه
فـهـذا الـعـيـش مـا لا خـيـرَ فـيـه
ألا رحـم الـمـهـيـمـن نـفـس حـر
تـصـدّق بـالـوفـاة عـلـى أخـيـه

قال: فرثى له رفيقه وأحضر له بدرهم ما سدّ به رمقه، وحفظ الأبيات وتفرقا، ثم ترقّى المهلبي إلى الوزارة، وأخنى الدهر على ذلك الرجل الذي كان رفيقه، فتوصل إلى إيصال رقعة إليه مكتوب فيها:

ألا قـل لـلـوزيـر فـدتـه نـفـسـي
مـقـال مـذكّـر مـا قـد نـسـيـه
أتـذكـر إذ تـقـول لـضـنـك عـيـش
ألا مـوت يـبـاع فـأشـتـريـه

فلما قرأها تذكر، فأمر له بسبعمائة درهم ووقّع تحت رقعته: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾[1]. ثم قلده عملاً يرتزق منه.

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢٦١).

ودخل مسلمة بن زيد بن وهب على عبد الملك بن مروان فقال له: أي الزمان أدركته أفضل، وأي الملوك أكمل؟ فقال: أما الملوك فلم أر إلا حامداً وذاماً، وأما الزمان فيرفع أقواماً ويضع آخرين، وكلهم يذكر أنه يبلي جديدهم ويفرق عديدهم ويهرم صغيرهم ويهلك كبيرهم.

وقال حبيب بن أوس:

لم أبكِ من زمنٍ لم أرض خلّته
إلاّ بكيت عليه حين ينصرمُ[1]

وقال آخر:

يا معرضاً عنّي بوجهٍ مدبرٍ
ووجوه دنياه عليه مقبلة
هل بعد حالك هذه من حالةٍ
أو غايةٍ إلاّ انحطاط المنزلة

وقال عبد الله بن عروة بن الزبير:

ذهب الذين إذا رأوني مقبلاً
بشّوا إليّ ورحبوا بالمقبل
وبقيت في خلفٍ كأنّ حديثهم
ولغُ الكلاب تهارشتْ في المنزل[2]

وقال آخر في معناه:

يا منزلاً عبث الزمان بأهله
فأبادهم بتفرّقٍ لا يجمع
أين الذين عهدتهم بك مرةً
كان الزمان بهم يضر وينفع
أيام لا يغشى لذكرك مربعٌ
إلاّ وفيه للمكارم مرتعُ
ذهب الذين يُعاشُ في أكنافهم
وبقي الذين حياتهم لا تنفع

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي:

وإنّي رأيت الدهر منذ صحبته
محاسنُه مقرونة ومعايبُهْ
إذا سرّني في أوّل الأمر لم أزلْ
على حذر من أن تذمّ عواقبه

(١) خِلّته: صحبته والخلة أيضاً: الحاجة.
(٢) يقال ولغ الكلب: إذا شرب من وعاء لأنه يدخل فمه كله في السوائل، وتهارش الكلاب: لعبها ومصارعتها لبعضها البعض.

وقال بعضهم:

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم
والمنكرون لكل أمرٍ منكر
وبقيت في خلفٍ يزيّن بعضه
بعضاً ليدفع معورٌ عن معور[1]
حلف الزمان ليأتين بمثلهم
حنثت يمينك يا زمان فَكَفِّر[2]

وكان يقال: إذا أدبر الأمر أتي الشر من حيث يأتي الخير.

وكان يقال: بتقلب الدهر تعرف جواهر الرجال. **ويقال:** زمام العافية بيد البلاء ورأس السلامة تحت جناح العطب. **وقال بعضهم:** نحن في زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدباراً والشر إلا إقبالاً والشيطان في هلاك الناس إلا طمعاً، اضرب بطرفك حيث شئت هل تنظر إلا فقيراً يكابد فقراً، أو غنياً بدّل نعمة الله كفراً، أو بخيلاً اتخذ بحق الله وفراً، أو متمرداً كأن بسمعه عن سماع المواعظ وقراً.

وقال آخر: نحن في زمان إذا ذكرنا الموتى حييت القلوب، وإذا ذكرنا الأحياء ماتت القلوب[3]. ويؤيد ذلك قوله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر أخيه فيقول يا ليتني مكانه»**.

ويقال: لا يقاوم عز الولاية بذل العزل.

بيت:

ما من مسيءٍ وإن طالت إساءته
إلا ويكفيك يومٌ من مساويه

وقال الأمين:

يا نفس قد حُقّ الحذرْ
أين المفر من القدرْ
كلّ امرىءٍ مما يخا
ف ويرتجيه على خطرْ
من يرتشفْ صفو الزما
ن يغص يوماً بالكدر

وقال بعضهم:

(١) المعور، من الرجال: القبيح السيرة.
(٢) أي لم تف بيمينك التي أقسمتها فوجبت عليك كفّارة اليمين.
(٣) لأنه ليس في صفات الأحياء ما يفرح القلب بل فيهم ما يحزن ويدمي القلوب والنفوس من الصفات المستقبحة.

وقائلة ما بال وجهك قد نضت
محاسنه والجسم بان شحوبه[1]
فقلت لها هاتي من الناس واحداً
صفا وقته والنائبات تنوبه[2]

وللأمير أبي علي بن منقذ:

أما والذي لا يملك الأمرَ غيره
ومنْ هو بالسرّ المكتَّم أعلمُ
لئن كان كتمانُ المصائب مؤلماً
لإعلانها عندي أشد وأعظم
وبي كلُّ ما يبكي العيون أقلّه
وإن كنت منه دائماً أتبسَّم

وقال علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه: وأيم الله ما كان قوم قط في خفض عيش فزال عنهم إلا بذنوب اقترفوها، لأن الله تعالى ليس بظلام للعبيد، ولو أن الناس حين ينزل بهم الفقر ويزول عنهم الغنى فزعوا إلى ربهم بصدق نياتهم لرد عليهم كل شارد وأصلح لهم كل فاسد.

قال الشاعر:

يقولون الزمان به فسادٌ
وهم فسدوا وما فسد الزمانُ

وكفى بالقرآن واعظاً.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[3]، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل الثاني

في الصبر على المكاره ومدح التثبت وذم الجزع

قد مدح الله تعالى الصبر في كتابه العزيز في مواضع كثيرة، وأمر به، وجعل أكثر الخيرات مضافاً إلى الصبر، وأثنى على فاعله، وأخبر أنه سبحانه وتعالى معه، وحث على التثبت في الأشياء، ومجانبة الاستعجال فيها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[4]. فبدأ بالصبر قبل الصلاة، ثم جعل نفسه مع الصابرين دون المصلين. **قوله تعالى:** ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1]. ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾[2]. **وقوله تعالى:** ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾[3]. وبالجملة، فقد ذكر الله سبحانه وتعالى الصبر في كتابه العزيز في نيف وسبعين موضعاً. وأمر نبيه ﷺ به فقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[4]. وقد روي عن النبي ﷺ في ذلك أخبار كثيرة، فمن ذلك قوله ﷺ: **«النصر في الصبر»**. **وقوله عليه الصلاة والسلام: «بالصبر يتوقع الفرج»**. **وقوله: «الأناة من الله تعالى والعجلة من الشيطان، فمن هداه الله تعالى بنور توفيقه ألهمه الصبر في مواطن طلباته والتثبت في حركاته وسكناته، وكثيراً ما أدرك الصابر مرامه أو كاد، وفات المستعجل غرضه أو كاد»**. **وقال الأشعث بن قيس:** دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه فوجدته قد أثر فيه صبره على العبادة الشديدة ليلاً ونهاراً، فقلت يا أمير المؤمنين: إلى كم تصبر على مكابدة هذه الشدة؟ فما زادني إلا أن قال:

اصبر على مضض الإدلاج في السحر
وفي الرواح إلى الطاعات في البكَرِ
إني رأيت وفي الأيام تجربةٌ
للصبر عاقبةٌ محمودةُ الأثر
وقلّ من جدّ في أمرٍ يؤمّلُهُ
واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

فحفظتها منه وألزمت نفسي الصبر في الأمور، فوجدت بركة ذلك.

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: **«ما يصيب المسلم من نصب[5] ولا وصب[6] ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها، إلا حط الله بها من خطاياه»**.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أراد الله بعبد الخير عجّل له العقوبة في**

---

(١) نضت محاسنه: زالت عنه، يقال نضا الثوب أي خلعه، بان: ظهر.
(٢) تنوبه: تأتيه متتابعة الواحدة بعد الأخرى.
(٣) سورة الرعد، الآية (١١).
(٤) سورة البقرة، الآية (١٥٣).

(١) سورة الزمر، الآية (١٠).
(٢) سورة السجدة، الآية (٣٢).
(٣) سورة الأعراف، الآية (١٣٧).
(٤) سورة الأحقاف، الآية (٣٥).
(٥) النصب: التعب والشدّة.
(٦) الوصب: المرض.

الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة».

وقال ﷺ: «إن أعظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط». رواه الترمذي، وقال حديث حسن.

وعن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، عن أنس بن مالك قال: قال النبي ﷺ: «الضرب على الفخذ عند المصيبة يحبط الأجر، والصبر عند الصدمة الأولى، وعظم الأجر على قدر المصيبة، ومن استرجع[1] بعد مصيبته جدد الله له أجرها كيوم أصيب بها».

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: احفظوا عني خمساً. اثنتين واثنتين وواحدة. لا يخافن أحدكم إلا ذنبه، ولا يرجو إلا ربه، ولا يستحي أحد منكم إذا سئل عن شيء وهو لا يعلم أن يقول لا أعلم، وأعلموا أن الصبر من الأمور بمنزلة الرأس من الجسد إذا فارق الرأس الجسد فسُدَ الجسد، وإذا فارق الصبر الأمور فسدت الأمور، وأيما رجل حبسه السلطان ظلماً، فمات في حبسه مات شهيداً فإن ضربه فمات، فهو شهيد.

وروي في الخبر لما نزل قوله تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾[2].

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه يا رسول الله: كيف الفرح بعد هذه الآية؟ فقال رسول الله ﷺ: غفر الله لك يا أبا بكر، ألبس تمرض، ألبس يصيبك الأذى، ألبس تحزن، قال: بلى يا رسول الله. قال: فهذا ما تجزون به يعني جميع ما يصيبك من سوء يكون كفّارة لك، وبهذا اتضح لك أن العبد لا يدرك منزلة الأخيار إلا بالصبر على الشدة والبلاء.

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة وأبو جهل وأصحابه جلوس، وقد نحرت جزور[3] بالأمس فقال أبو جهل لعنه الله: أيكم يقوم إلى سلا الجزور[4] فيلقيه على كتفي محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم فأخذه وأتى به، فلما سجد ﷺ وضع بين كتفيه السلا والفرث[5] والدم، فضحكوا ساعة وأنا قائم انظر، فقلت: لو كان لي منعة لطرحته عن ظهر رسول الله ﷺ، والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق انسان، فأخبر فاطمة رضي الله عنها، فجاءت فطرحته عن ظهره، ثم أقبلت عليهم فسبتهم، فلما قضى ﷺ الصلاة رفع يديه فدعا عليهم فقال: اللهم عليك بقريش، ثلاث مرات، فلما سمع القوم صوته ودعاءه ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته فقال: اللهم عليك بأبي جهل، وعتبة، وشيبة، وربيعة والوليد، وأمية بن خلف، فقال علي رضي الله عنه: والذي بعث محمداً بالحق رأيت الذين سماهم صرعى يوم بدر.

وكان الصالحون يفرحون بالشدة لأجل غفران الذنوب لأن فيها كفارة السيئات ورفع الدرجات.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثلاث من رزقهن فقد رزق خيري الدنيا والآخرة. الرضا بالقضاء، والصبر على البلاء، والدعاء في الرخاء».

وحكي أن امرأة من بني إسرائيل لم يكن لها إلا دجاجة، فسرقها سارق، فصبرت وردت أمرها إلى الله، ولم تدع عليه، فلما ذبحه السارق، ونتف ريشها نبت جميعهن في وجهه، فسعى في إزالته فلم يقدر على ذلك إلى أن أتى حبراً من أحبار بني إسرائيل، فشكا له، فقال: لا أجد لك دواء إلا أن تدعو عليك هذه المرأة، فأرسل إليها من قال لها: أين دجاجتك؟ فقالت: سرقت، فقال: لقد آذاك من سرقها. قالت: قد فعل، ولم تدع عليه. قال: وقد فجعك في بيضها. قالت هو كذلك، فما زال بها حتى أثار الغضب منها، فدعت عليه، فتساقط الريش من وجهه، فقيل لذلك الحبر: من أين علمت ذلك؟ قال: لأنها لما صبرت ولم تدع عليه انتصر الله لها، فلما انتصرت لنفسها ودعت عليه سقط الريش من وجهه. فالواجب على العبد أن يصبر على ما يصيبه من الشدة، ويحمد الله ويعلم أن النصر مع الصبر وأن مع العسر يسرا، وأن المصائب والرزايا إذا توالت أعقبها الفرج والفرح عاجلاً.

ومن أحسن ما قيل في ذلك من المنظوم:

وإذا مسّك الزمان بضر
عظمت دونه الخطوب وجلّت
وأتت بعده نوائب أخرى
سئمت نفسك الحياة وملّت
فاصطبر وانتظر بلوغ الأماني
فالرّزايا إذا توالت تولّت

---

(١) استرجع: ذكر قوله تعالى: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾.
(٢) سورة النساء، الآية (١٢٣).
(٣) لا يقال جزور إلا للجمل الصغير إذا ذبح.
(٤) سلا الجزور: أحشاؤه كالكرش وما أشبه ذلك.
(٥) الفرث: ما يكون في كرش الحيوان وأمعائه.

وإذا أوهنت قواك وجلّت
كشفت عنك جملة وتخلّت

ولمحمد بن بشر الخارجي:

إن الأمور إذا اشتدت مسالكُها
فالصبر يفتح منها كلّ ما ارتتجا
لا تيأسنّ وإن طالت مطالبه
إذا استعنت بصبرٍ أن ترى فرجا

ولزهير بن أبي سلمى:

ثلاثٌ يعز الصبر عند حلولها
ويذهل عنها عقل كلّ لبيبِ
خروج اضطرارٍ من بلاد يحبّها
وفرقة أخوانٍ وفقْدُ حبيبِ

وقال بعضهم:

عليك بإظهار التجلُّد للعدا
ولا تظهرن منك الذبول فتحقرا
أما تنظر الريحان يشمم ناضراً
ويطرح في البيدا إذا ما تغيّرا

ولابن نباتة:

صبراً على نوب الزما
ن وإنْ أبى القلب الجريح
فلكلّ شيء آخرٌ
إمّا جميلٌ أو قبيح

وقال أبو الأسود وأجاد:

وإنّ امرءاً قد جرّب الدهر لم يخفْ
تقلّب عصريه لغير لبيبِ
وما الدهر والأيام إلا كما ترى
رزيّةَ مالٍ أو فراق حبيبِ

ومن كلام الحكماء: ما جوهد الهوى بمثل الرأي، ولا استنبط الرأي بمثل المشورة، ولا حفظت النعم بمثل المواساة، ولا اكتسبت البغضاء بمثل الكبر، وما استنجحت الأمور بمثل الصبر.

وقال نهشل:

ويومٍ كأنّ المصطلين بحرّه
وإن لم يكن نارٌ قيامٌ على الجمر
صبرنا له صبراً جميلاً وإنّما
تُفرّج أبواب الكريهةِ بالصبرِ

قال ابن طاهر:

حذّرتني وذا الحذر
ليس يغني من القدر
ليس من يكتم الهوى
مثل من باح واشتهر
إنما يعرف الهوى
من على مُره صبر
نفس يا نفس فاصبري
فاز بالصبْر من صبر

وكان يقال: من تبصّر تصبّر. **وكان يقال:** إن نوائب الدهر لا تدفع إلا بعزائم الصبر. وكان يقال: لا دواء لداء الدهر إلا بالصبر.

ولله در القائل:

الدهر أدّبني والصبر ربّاني
والفوت أقنعني واليأس أغناني
وحنكتني من الأيام تجربةٌ
حتى نهيت الذي قد كان ينهاني

وما أحسن ما قال محمود الوراق:

إني رأيت الصبر خير معوّلٍ
في النائبات لمن أراد معوّلا[1]
ورأيت أسباب القناعة أكّدت
بعرى الغنى فجعلتها لي مَعقلا[2]
فإذا نبا بي منزلٌ جاوزته
وجعلت منه غيره لي منزلا
وإذا غلا شيءٌ عليّ تركته
فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

وقال بعضهم:

إذا ما أتاك الدهر يوماً بنكبةٍ
فأفرغ لها صبراً ووسّع لها صدرا
فإن تصاريف الزمان عجيبةٌ
فيوماً ترى يسراً ويوماً ترى عسرا

وقال بعضهم:

---

(١) المَعوَلُ: المستعان به والمُعوّلُ عليه ما يتكل المرء عليه مما أو ممن يرجو إعانتهم له.

(٢) معقلاً: حصناً أحتمي به.

وما مسّني عسرٌ ففوّضت أمره
إلى الملك الجبّار إلاّ تيسّرا

وما أحسن ما قيل:

الدهر لا يبقى على حالةٍ
لا بدّ أن يقبلَ أو يدبر
فإن تلقّاك بمكروهة
فاصبر فإنّ الدهر لا يصبر

ونقل عن محمد بن الحسن رحمه الله قال: كنت معتقلاً بالكوفة، فخرجت يوماً من السجن مع بعض الرجال وقد زاد همي وكادت نفسي أن تزهق وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، وإذا برجل عليه آثار العبادة قد أقبل عليَّ ورأى ما أنا فيه من الكآبة فقال: ما حالك؟ فأخبرته القصة، فقال: الصبر الصبر، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**الصبر ستر الكروب وعون على الخطوب**». وروي عن ابن عمه علي رضي الله تعالى عنه أنه قال: الصبر مطية لا تدبر وسيف لا يكل، وأنا أقول:

ما أحسن الصبر في الدنيا وأجمله
عند الإله وأنجاه من الجزعِ
من شدّ بالصبر كفاً عند مؤلمهِ
ألوت يداه بحبلٍ غير منقطع

فقلت: بالله عليك زدني، فقد وجدت بك راحة. فقال: ما يحضرني شيء عن النبي ﷺ. ولكني أقول:

أما والذي لا يعلم الغيب غيره
ومن ليس في كلّ الأمور له كفو
لئن كان بدءُ الصبر مرّاً مذاقه
لقد يجتنى من بعده الثمر الحلو

ثم ذهب، فسألت عنه، فما وجدت أحداً يعرفه ولا رآه أحد قبل ذلك في الكوفة، ثم أُخرجت في ذلك اليوم من السجن، وقد حصل لي سرور عظيم بما سمعت منه وانتفعت به، ووقع في نفسي أنه من الأبدال الصالحين قيضه الله تعالى لي يوقظني ويؤدبني ويسليني.

وقيل: إن رجلاً كان يضرب بالسياط ويجلد جلداً بليغاً، ولم يتكلم ويصبر ولم يتأوه، فوقف عليه بعض مشايخ الطريقة فقال له: أما يؤلمك هذا الضرب الشديد؟ فقال: بلى، قال: لِمَ لا تصيح؟ فقال: إن في هؤلاء القوم الذين وقفوا عليَّ صديقاً لي يعتقد فيَّ الشجاعة والجلادة وهو يرقبني بعينه، فأخشى إن ضجيت يذهب ماء وجهي عنده ويسوء ظنه بي، فأنا أصبر على شدة الضرب وأحتمله لأجل ذلك.

قال الشاعر:

على قدر فضل المرء تأتي خطوبُه
ويحمد منه الصبْر مما يصيبه
فمنْ قلّ فيما يلتقيه اصطباره
لقد قلّ فيما يرتجيه نصيبه

وقال رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله تعالى عنها: يا عائشة إن الله تعالى لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر ولم يكلفني إلا ما كلفوا به، فقال عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[1]. وإني والله لأصبرن كما صبروا. فإن النبي ﷺ لما صبر كما أمر أسفر وجه صبره عن ظفره ونصره، وكذلك الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين الذين هم أولو العزم لما صبروا ظفروا وانتصروا، وقد اختلف أهل العلم فيهم على أقوال كثيرة، فقال مقاتل رضي الله تعالى عنه: هم نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويونس وأيوب صلوات الله عليهم، وقال قتادة: هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، ويقال: ما الذي صبروا عليه حتى سماهم الله تعالى أولي العزم؟ فأقول: ذكر ما صبروا عليه.

أما نوح عليه الصلاة والسلام:

فقد قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كان نوح عليه الصلاة والسلام يُضرب ثم يُلف في لبد ويُلقى في بيته يرون أنه قد مات، ثم يعود ويخرج إلى قومه ويدعوهم إلى الله تعالى، ولما أيس منهم ومن إيمانهم جاءه رجل كبير يتوكأ على عصاه ومعه ابنه، فقال لابنه: يا بني انظر إلى هذا الشيخ واعرفه ولا يغرك، فقال له ابنه: يا أبت مكّني من العصا، فأخذها من أبيه وضرب بها نوحاً عليه الصلاة والسلام ضربة شج بها رأسه، وسال الدم على وجهه، فقال: رب قد ترى ما يفعل بي عبادك، فإن يكن لك فيهم حاجة فاهدهم، وإلا فصبرني إلى أن تحكم، فأوحى الله تعالى إليه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾[2]. قال: يا رب، وما الفلك؟ قال: بيت من خشب يجري على وجه الماء أنجي فيه أهل طاعتي وأغرق أهل معصيتي، قال: يا رب، وأين الماء؟ قال: أنا على كل شيء قدير، قال: يا رب، وأين الخشب؟ قال: اغرس

(١) سورة الأحقاف، الآية (٣٥).
(٢) سورة هود، من الآيتين (٣٦ ـ ٣٧).

الخشب، فغرس الساج[1] عشرين سنة. وكفّ عن دعائهم وكفّوا عن ضربه، إلا أنهم كانوا يستهزئون به، فلما أدرك الشجر، أمره ربه، فقطعها وجففها، وقال: يا رب كيف أتخذ هذا البيت؟ قال: اجعله على ثلاث صور، وبعث الله له جبريل فعلمه، وأوحى الله تعالى إليه أن عجّل بعمل السفينة، فقد اشتد غضبي على من عصاني، فلما فرغت السفينة جاء أمر الله سبحانه وتعالى بانتصار نوح ونجاته، وإهلاك قومه، وعذابهم إلا من آمن معه. وفار التنور وظهر الماء على وجه الأرض، وقذفت السماء بأمطار كأفواه القرب، حتى عظم الماء وصارت أمواجه كالجبال، وعلا فوق أعلى جبل في الأرض أربعين ذراعاً، وانتقم الله سبحانه وتعالى من الكافرين ونصر نبيه نوحاً عليه الصلاة والسلام. وفي تمام قصته وحديث السفينة كلام مبسوط لأهل التفسير ليس هذا موضع شرحه وبسطه، فهذا زبدة صبر نوح عليه الصلاة والسلام وانتصاره على قومه.

وأما إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

فإنه لما كسر أصنام قومه التي كانوا يعبدونها، لم يروا في قتله ونصرة آلهتهم أبلغ من إحراقه، فأخذوه وحبسوه ببيت ثم بنوا حائزاً كالحوش طول جداره ستون ذراعاً في سفح جبل عال ونادى منادي ملكهم أن احتطبوا لإحراق إبراهيم ومن تخلف عن الاحتطاب أحرقه، فلم يتخلف منهم أحد، وفعلوا ذلك أربعين يوماً ليلاً ونهاراً حتى كاد الحطب يساوي رؤوس الجبال، وسدوا أبواب ذلك الحائز، وقذفوا فيه النار، فارتفع لهبها حتى كان الطائر يمر بها فيحترق من شدة لهبها، ثم بنوا بنياناً شامخاً، وبنوا فوقه منجنيقاً، ثم رفعوا إبراهيم على رأس البنيان، فرفع إبراهيم عليه الصلاة والسلام طرفه إلى السماء ودعا الله تعالى وقال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[2]. وقيل: كان عمره يومئذ ستة وعشرين سنة، فنزل إليه جبريل عليه الصلاة والسلام، وقال يا إبراهيم: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، فقال جبريل: سل ربك، فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي. فقال الله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[3]. فلما قذفوه فيها نزل معه جبريل عليه الصلاة والسلام، فجلس به على الأرض وأخرج الله

(١) الساج: نوع من الشجر عظيم الجذع صلب الخشب.
(٢) سورة آل عمران، الآية (١٧٣).
(٣) سورة الأنبياء، الآية (٦٩).

له ماء عذباً. قال كعب: ما أحرقت النار غير أكتافه[1]، وأقام في ذلك الموضع سبعة أيام، وقيل: أكثر من ذلك، ونجاه الله تعالى، ثم أهلك نمرود وقومه بأخس الأشياء وانتقم منهم وظفر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بهم، فهذه ثمرة صبره على مثل هذه الحالة العظمى، ولم يجزع منها وصبر وفوّض أمره إلى الله تعالى في ذلك، وتوكل عليه ووثق به. ثم جاءته قصة ذبح ولده، وأمره الله تعالى بذلك فقابل أمره بالتسليم والامتثال، وسارع إلى ذبحه من غير إهمال ولا إمهال، وقصته مشهورة، وتفاصيل القصة في كتب التفسير مسطورة، فلما ظهر صدقه ورضاه ومبادرته إلى طاعة مولاه وصبره على ما قدره وقضاه عوّضه الله تعالى عن ذبح ولده أن فداه، واتخذه خليلاً من بين خلقه واجتباه، وأما الذبيح صلوات الله وسلامه عليه، فإنه صبر على بلية الذبح.

وتلخيصها أن الله تعالى لما ابتلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بذبح ولده قال: إني أريد أن أقرب قرباناً، فأخذ ولده والسكين والحبل، وانطلق، فلما دخل بين الجبال قال ابنه: أين قربانك يا أبت؟ قال: إنّ الله تعالى قد أمرني بذبحك، فانظر ماذا ترى. ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2]، يا أبت أشدد وثاقي كي لا أضطرب وأجمع ثيابك حتى لا يصل إليها رشاش الدم فتراه أمي فيشتد حزنها، وأسرع إمرار السكين على حلقي ليكون أهون للموت عليّ وإذا لقيت أمي، فأقرأ السلام عليها، فأقبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام وعلى ولده يقبله ويبكي ويقول: نعمَ العون أنت يا بني على ما أمر الله تعالى، قال مجاهد: لما أمرّ السكين على حلقه انقلبت السكين، فقال يا أبتِ: اطعن بها طعناً. وقال السدي: جعل الله حلقه كصحيفة من نحاس لا تعمل فيها السكين شيئاً، فلما ظهر فيهما صدق التسليم نودي أن يا إبراهيم هذا فداء ابنك، فأتاه جبريل عليه السلام بكبش أملح، فأخذه وأطلق ولده وذبح الكبش، فلا جرم أن جعل الذبيح نبياً بصبره وامتثاله لأمره.

وأما يعقوب عليه الصلاة والسلام:

فإنه لما ابتلي بفراق ولده وذهاب بصره واشتداد حزنه قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[3]. وكذلك يوسف صلوات الله

(١) أي إلا وثاقه الذي شدوه به وربطوه.
(٢) سورة الصافات، الآية (١٠٢).
(٣) سورة يوسف، الآية (١٨) والآية (٨٣).

وسلامه عليهم أجمعين لما ابتلاه الله تعالى بالقائه في ظلمة الجب وبيعه كما تباع العبيد، وفراقه لأبيه، وإدخاله السجن، وحبسه فيه بضع سنين، وأنه تلقى ذلك كله بصبره وقبوله، فلا جرم أورثهما صبرهما جمع شملهما واتساع القدرة بالملك في الدنيا مع ملك النبوة في الآخرة.

وأما أيوب عليه الصلاة والسلام:

فإنه ابتلاه الله تعالى بهلاك أهله وماله، وتتابع المرض المزمن والسقم المهلك حتى أفضى أمره إلى ما تضعف القوى البشرية من حمله. ولنذكر شيئاً مختصراً من ذلك وهو أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل كان يظلم الناس، فنهاه جماعة من الأنبياء عن الظلم وسكت عنه أيوب عليه الصلاة والسلام، فلم يكلمه ولم ينهه لأجل خيل كانت له في مملكته، فأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه الصلاة والسلام تركت نهيه عن الظلم لأجل خيلك، لأطيلن بلاءك، فقال إبليس لعنه الله: يا رب سلطني على أولاده وماله، فسلطه، فبث إبليس مردته من الشياطين، فبعث بعضهم إلى دوابه، ورعاتها، فاحتملوها جميعاً وقذفوها في البحر، وبعث بعضهم إلى زرعه وجنّاته فأحرقوها، وبعث بعضهم إلى منازله وفيها أولاده وكانوا ثلاثة عشر ولداً وخدمه وأهله، فزلزلوها فهلكوا، ثم جاء إبليس إلى أيوب عليه الصلاة والسلام، وهو يصلي، فتمثل له في صورة رجل من غلمانه فقال: يا أيوب أنت تصلي ودوابك ورعاتك قد هبت عليها ريح عظيمة، وقذفت الجميع في البحر، وأحرقت زرعك وهدمت منازلك على أولادك وأهلك، فهلك الجميع، ما هذه الصلاة؟ فالتفت إليه وقال: الحمد لله الذي أعطاني ذلك كله، ثم قبله مني. ثم قام إلى صلاته، فرجع إبليس ثانياً، فقال: يا رب سلطني على جسده، فسلطه، فنفخ في إبهام رجله فانتفخ ولا زال يسقط لحمه من شدة البلاء إلى أن بقي أمعاؤه تبين وهو مع ذلك كله صابر محتسب مفوض أمره إلى الله تعالى، وكان الناس قد هجروه واستقذروه وألقوه خارجاً عن البيوت من نتن ريحه، وكان زوجته رحمة بنت يوسف الصديق قد سلمت فترددت إليه متفقدة، فجاءها إبليس يوماً في صورة شيخ ومعه سخلة[1] وقال لها: ليذبح أيوب هذه السخلة على اسمي فيبرأ، فجاءته، فأخبرته، فقال لها: إن شفاني الله تعالى لأجلدنك مائة جلدة. تأمريني أن أذبح لغير الله تعالى، فطردها عنه، فذهبت وبقي. ليس له من يقوم به،

(١) السخلة: ولد الماعز.

فلما رأى أنه لا طعام له ولا شراب ولا أحد من الناس يتفقده خر ساجداً لله تعالى وقال: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝﴾[1]، فلما علم الله تعالى منه ثباته على هذه البلوى طوّل هذه المدة وهي على ما قيل ثمان عشرة سنة، وقيل غير ذلك، وإنه تلقى جميع ذلك بالقبول وما شكا إلى مخلوق ما نزل به. عاد الله تعالى بألطافه عليه، فقال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾[2]. وأفاض عليه من نعمه، ما أنساه بلوى نقمه، ومنحه من أقسام كرمه أن أفتاه في يمينه تحلة قسمه، ومدحه في نص الكتاب، فقال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝﴾[3]. فلو لم يكن الصبر من أعلى المراتب وأسنى المواهب لما أمر الله تعالى به رسله ذوي الحزم وسمّاهم بسبب صبرهم أولي العزم، وفتح لهم بصبرهم أبواب مرادهم وسؤالهم ومنحهم من لدنه غاية أمرهم ومأمولهم ومرامهم، فما أسعد من اهتدى بهداهم واقتدى بهم، وإن قصر عن مداهم. وقيل: العسر يعقبه اليسر، والشدة يعقبها الرخاء، والتعب يعقبه الراحة، والضيق يعقبه السعة، والصبر يعقبه الفرج، وعند تناهي الشدة تنزل الرحمة، والموفق من رزقه صبراً وأجراً، والشقي من ساق القدر إليه جزعاً ووزرا.

ومما شنف السمع من نجح هذه الإشارة، وأتحف النفع في نهج هذه العبارة، ما روي عن الحسن البصري رضي الله تعالى عنه قال: كنت بواسط، فرأيت رجلاً كأنه قد نبش من قبر، فقلت: ما دهاك يا هذا؟ فقال: أكتم علي أمري، حبسني الحجاج منذ ثلاث سنين، فكنت في أضيق حال، وأسوأ عيش، وأقبح مكان، وأنا مع ذلك كله صابر لا أتكلم، فلما كان بالأمس أخرجت جماعة كانوا معي، فضربت رقابهم، وتحدث بعض أعوان السجن أن غداً تضرب عنقي، فأخذني حزن شديد وبكاء مفرط، وأجرى الله تعالى على لساني فقلت: إلهي اشتد الضر وفقد الصبر وأنت المستعان، ثم ذهب من الليل أكثره، فأخذتني غشية، وأنا بين اليقظان والنائم إذ آتاني آت فقال لي: قم فصل ركعتين وقل: يا من لا يشغله شيء عن شيء، يا من

(١) سورة الأنبياء، الآية (٨٣).
(٢) سورة الأنبياء، الآية (٨٤).
(٣) سورة صٓ، الآية (٤٤).

أحاط علمه بما ذرأ وبرأ وأنت عالم بخفيات الأمور ومحصي وساوس الصدور، وأنت بالمنزل الأعلى، وعلمك محيط بالمنزل الأدنى، تعاليت علواً كبيراً، يا مغيث أغثني، وفكّ أسري، واكشف ضري، فقد نفذ صبري، فقمت وتوضأت في الحال وصليت ركعتين وتلوت ما سمعته منه، ولم تختلف عليّ منه كلمة واحدة، فما تم القول حتى سقط القيد من رجلي ونظرت إلى أبواب السجن فرأيتها قد فتحت. فقمت، فخرجت ولم يعارضني أحد، فأنا والله طليق الرحمن، وأعقبني الله بصبري فرجاً، وجعل لي من ذلك الضيق مخرجاً، ثم ودعني وانصرف يقصد الحجاز.

وفيما يروى عن الله تعالى أنه أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام، يا داود من صبر علينا وصل إلينا.

وقال بعض الرواة: دخلت مدينة يقال لها: دقار، فبينما أنا أطوف في خرابها إذا رأيت مكتوباً بباب قصر خرب بماء الذهب واللازورد هذه الأبيات:

يا من ألحّ عليه الهمُّ والفكر
وغيّرت حاله الأيام والغِيَر[1]

أما سمعت لما قد قيل في مثلٍ
عند الإياس فأين الله والقدر[2]

ثمّ الخطوب إذا أحداثها طرقت
فاصبر فقد فاز أقوامٌ بما صبروا[3]

وكلّ ضيقٍ سيأتي بعده سعةٌ
وكلّ فوتٍ وشيكٌ بعده الظفر

ولما حُبس أبو أيوب في السجن خمس عشرة سنة ضاقت حيلته، وقلّ صبره، فكتب إلى بعض إخوانه يشكو إليه طول حبسه وقلة صبره، فرد عليه جواب رقعته يقول:

صبراً أبا أيوب صبرَ مُبرِّح
وإذا عجزت عن الخطوب فمن لها

إنّ الذي عقد الذي انعقدتْ به
عقد المكاره فيك يملك حلّها

صبراً فإن الصبر يعقب راحةً
ولعلّها أن تنجلي ولعلّها

(١) الغِيَر: غِيَرُ الدهر: أحواله وأحداثه المتغيرة.
(٢) الأياس: اليأس.
(٣) طرقت: جاءت على غير انتظار كالطارق الآتي ليلاً.

فأجابه أبو أيوب يقول:

صبّرتني ووعظتني وأنا لها
وستنجلي بل لا أقول لعلّها

ويحلّها من كان صاحب عقدها
كرماً به إذ كان يملك حلّها

فما لبث بعد ذلك أياماً حتى أطلق مكرماً:

وأنشدوا:

إذا ابتليتَ فثقْ بالله وارضَ به
إنّ الذي يكشف البلوى هو الله

اليأس يقطع أحياناً بصاحبه
لا تيأسنّ فإنّ الصانع الله

إذا قضى الله فاستسلم لقدرته
فما ترى حيلةً فيما قضى الله

الفصل الثالث من هذا الباب

في التأسي في الشدة والتسلي عن نوائب الدهر

قال الثوري رحمه الله تعالى: لم يفقه عندنا من لم يعد البلاء نعمة، والرخاء مصيبة. **وقيل**: الهموم التي تعرض للقلوب كفارات للذنوب. **وسمع حكيم رجلاً يقول** لآخر: لا أراك الله مكروهاً، فقال: كأنك دعوت عليه بالموت، فإن صاحب الدنيا لا بد أن يرى مكروهاً. وتقول العرب: ويلٌ أهون من ويلين.

وقال ابن عيينة: الدنيا كلها غموم، فما كان فيها من سرور فهو ربح. **وقال العتبي**: إذا تناهى الغم إنقطع الدمع بدليل أنك لا ترى مضروباً بالسياط ولا مقدماً لضرب العنق يبكي.

وقيل: تزوج مُغَنٍّ بنائحة فسمعها تقول: اللهم أوسع لنا في الرزق، فقال لها: يا هذه إنما الدنيا فرح وحزن وقد أخذنا بطرفي ذلك، فإن كان فرح دعوني، وإن كان حزن دعوك.

وقال وهب بن منبه: إذا سلك بك طريق البلاء سلك بك طريق الأنبياء. **وقال مطرف**: ما نزل بي مكروه قط فاستعظمته إلا ذكرت ذنوبي فاستصغرته. **وعن جابر بن عبد الله** رضي الله تعالى عنه يرفعه: «يود أهل العافية يوم القيامة أن لحومهم كانت تقرض بالمقاريض لما يرون من ثواب الله تعالى لأهل البلاء». **وروى أبو عتبة** عن النبي ﷺ قال: «**إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه**».

قالوا: وما الثناء؟ قال: لا يترك له مالاً ولا ولداً.

ومر موسى عليه الصلاة والسلام برجل كان يعرفه مطيعاً لله عز وجل قد مزقت السباع لحمه وأضلاعه وكبده ملقاة على الأرض، فوقف متعجباً، فقال: أي رب عبدك ابتليته بما أرى، فأوحى الله تعالى إليه أنه سألني درجة لم يبلغها بعمله، فأحببت أن أبتليه لأبلغه تلك الدرجة.

وكان عروة بن الزبير صبوراً حين ابتلي. حكي أنه خرج إلى الوليد بن يزيد فوطىء عظماً، فما بلغ إلى دمشق حتى بلغ به كل مذهب، فجمع له الوليد الاطباء، فأجمع رأيهم على قطع رجله، فقالوا له: اشرب مرقّداً، فقال: ما أحب أن أغفل عن ذكر الله تعالى، فأحمى له المنشار، وقطعت رجله، فقال ضعوها بين يدي ولم يتوجع، ثم قال: لئن كنت ابتليت في عضو فقد عوفيت في أعضاء. فبينما هو كذلك إذ أتاه خبر ولده أنه أطلع من سطح على دواب الوليد، فسقط بينها فمات. فقال: الحمد لله على كل حال لئن أخذت واحداً لقد أبقيت جماعة. وقدم على الوليد وفد من عبس فيهم شيخ ضرير، فسأله عن حاله وسبب ذهاب بصره فقال: خرجت مع رفقة مسافرين ومعي مالي وعيالي، ولا أعلم عبسياً يزيد ماله على مالي، فعرسنا في بطن واد، فطرقنا سيل، فذهب ما كان لي من أهل ومال وولد غير صبي صغير وبعير، فشرد البعير، فوضعت الصغير على الأرض ومضيت لآخذ البعير، فسمعت صيحة الصغير، فرجعت إليه فإذا رأس الذئب في بطنه وهو يأكل فيه، فرجعت إلى البعير، فحطم وجهي برجليه، فذهبت عيناي، فأصبحت بلا عينين ولا ولد ولا مال ولا أهل، فقال الوليد: إذهبوا إلى عروة ليعلم أن في الدنيا من هو أعظم مصيبة منه.

وقيل: الحوادث الممضة[1] مكسبة لحظوظ جليلة، أما ثواب مدخر أو تطهير من ذنب أو تنبيه من غفلة أو تعريف لقدر النعمة.

قال البحتري: يسلّي محمد بن يوسف على حبسه:

وما هذه الأيام إلاّ منازل
فمن منزلٍ رحبٍ إلى منزل ضنك[2]
وقد دهمتك الحادثات وإنما
صفا الذهب الابريز قبلك بالسّبك

(١) الحوادث الممضة: الحوادث الشاقة المؤلمة التي يتحملها الإنسان مكرهاً.
(٢) منزل ضنك: منزل ضيّق.

أما في نبي الله يوسف اسوةٌ
لمثلك محبوسٌ عن الظلم والافك[1]
أقام جميل الصبرِ في السجن برهةً
فآل به الصبر الجميل إلى الملك

وقال علي بن الجهم لما حبسه المتوكل:

قالوا حبست فقلت ليس بضائري
حبسي وأي مهندٍ لا يغمد
والشمسُ لولا أنها محجوبةٌ
عن ناظريك لما أضاء الفرقد
والنار في أحجارها مخبوءةٌ
لا تصطلى إن لم تثرها الأزند
والحبس ما لم تغشه لدنيّةٍ
شنعاء نعم المنزل المتوذد
بيتٌ يُجدد للكريم كرامةً
ويُزار فيه ولا يزور ويحمد
لو لم يكن في الحبس إلاّ أنه
لا تستذلّك بالحجاب الأعبد
غرّ الليالي باديات عوّدٌ
والمال عاريةٌ يعار وينفد
ولكل حيٍّ معقبٌ ولربما
أجلى لك المكروه عمّا يحمد
لا يؤيسنك من تفرّج نكبةٍ
خطبٌ رماك به الزمان الأنكد
كم من عليلٍ قد تخطّاه الردى
فنجا ومات طبيبه والعوّدُ[2]
صبراً فإن اليوم يعقبه غدٌ
ويد الخلافة لا تطاولها يدُ

قال: وأنشد إسحاق الموصلي في إبراهيم بن المهدي حين حبس:

هي المقادير تجري في أعنّتها[3]
فاصبر فليس لها صبرٌ على حال[4]

(١) الإفك: الكذب والباطل.
(٢) العوّد: الذين يعودونه أي يزورونه في حال مرضه وضعفه.
(٣) الأعنة ج عنان وهو سير اللجام للدابة والمراد أن المقادير تجري فيما قدر لها الله سبحانه.
(٤) أي أن حالها في تغير دائم.

يوماً تريك خسيس الأصل ترفعه
إلى العلاء ويوماً تخفض العالي

فما أمسى حتى وردت عليه الخلع السنية من المأمون رضي الله عنه، وقال إبراهيم بن عيسى الكاتب في إبراهيم بن المدني حين عزل.

ليهن أبا إسحاق أسباب نعمةٍ
مجددةٍ بالعزل والعزل أنبلُ
شهدت لقد منّوا عليك وأحسنوا
لأنك يوم العزل أعلى وأفضل

وقال آخر:

قد زاد ملك سليمان فعاوده
والشمس تنحطُّ في المجرى وترتفع

وقال أبو بكر الخوارزمي لمعزول: الحمد لله الذي ابتلى في الصغير وهو المال، وعافى في الكبير وهو الحال:

ولا عار إن زالت عن الحر نعمةٌ
ولكنّ عاراً أنْ يزول التجمُّل(١)

وقيل: المال حظ ينقص ثم يزيد، وظل ينحسر ثم يعود. **وسئل بزرجمهر** عن حاله في نكبته فقال: عولت على أربعة أشياء: **أولها** أني قلت القضاء والقدر لا بد من جريانهما، **الثاني:** أني قلت إن لم أصبر فما أصنع، **الثالث:** أني قلت قد كان يجوز أن يكون أعظم من هذا، **الرابع:** أني قلت لعل الفرج قريب، والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السابع والخمسون

ما جاء في اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة والفرح والسرور ونحو ذلك مما يتعلق بهذا الباب

فمما يليق بهذا الباب من كتاب الله عز وجل **قوله تعالى:** ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾(٢). **وقوله تعالى:** ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾(٣). **وقوله تعالى:** ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾(١).

(١) التجمل: التَّصَبُّر.
(٢) سورة الطلاق، الآية (٧).
(٣) سورة الشورى، الآية (٢٨).

ويروى عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: لو كان العسر في حجر لدخل عليه اليسر حتى يخرجه. **وقال عليه الصلاة والسلام: «عند تناهي الشدة يكون الفرج، وعند تضايق البلاء يكون الرخاء».**

وقال علي رضي الله عنه، وعن النبي ﷺ: «أفضل عبادة أمتي انتظارها فرج الله تعالى». **وقال الحسن:** لما نزل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾(٢)، **قال النبي ﷺ: «أبشروا فلن يغلب عسر يسرين».**

ومن كلام الحكماء: إن تيقنت لم يبق هم.

وقال أبو حاتم:

إذا اشتملت على البؤس القلوبُ
وضاق بما به الصدر الرحيبُ
وأوطنت المكاره واطمأنت
وأرست في مكامنها الخطوب
ولم نر لانكشاف الضرّ وجهاً
ولا أغنى بحيلته الأريب(٣)
أتاك على قنوطٍ منك غوثٌ
يمن به اللطيف المستجيبُ(٤)

وقال آخر:

عسى الهمُّ الذي أمسيت فيه
يكون وراءه فرجٌ قريب
فيأمن خائفٌ ويفاث عانٍ
ويأتي أهله النائي الغريب(٥)

وقال آخر:

تصبّرْ أيها العبد اللبيب
لعلك بعد صبرك ما تخيب
وكل الحادثات إذا تناهت
يكون وراءها فرجٌ قريب

وقال إبراهيم بن العباس:

ولرب نازلةٍ يضيق بها الفتى
ذرعاً وعند الله منها المخرج

(١) سورة يوسف، الآية (١١٠).
(٢) سورة الإنشراح، الآيتان (٥ ـ ٦).
(٣) الأريب: الذكي الماهر.
(٤) القنوط: اليأس.
(٥) العاني: الأسير ومن كان في ضيق.

ضاقت فلمّا استحكمت حلقاتها
فرجت وكان يظنّها لا تفرج

وقال آخر:

لئن صدّع البين المشتّت شملنا
فللبين حكمٌ في الجموع صدوع[1]
وللنجم من بعد الرجوع استقامة
وللشمس من بعد الغروب طلوع
وإن نعمةٌ زالت عن الحرّ وانقضت
فإنّ بها بعد الزوال رجوع
فكن واثقاً بالله واصبر لحكمه
فإن زوال الشرّ عنك سريع

ولنذكر نبذة ممن حصل له الفرج بعد الشدة:

روي أن الوليد بن عبد الملك كتب إلى صالح بن عبد الله عامله على المدينة المنورة، أن أخرج الحسن بن الحسن بن علي من السجن وكان محبوساً واضربه في مسجد رسول الله ﷺ خمسمائة سوط. فأخرجه إلى المسجد واجتمع الناس، وصعد صالح يقرأ عليهم الكتاب ثم نزل يأمر بضربه، فبينما هو يقرأ الكتاب إذ جاء علي بن الحسين عليه السلام، فأفرج له الناس حتى أتى إلى جنب الحسن، فقال يا ابن العم مالك ادع الله تعالى بدعاء الكرب يفرج الله عنك، قال: ما هو يا ابن العم؟ فقال: لا إله إلا الحليم الكريم لا إله إلا الله العلي العظيم، سبحان رب السموات ورب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، ثم انصرف عنه، وأقبل الحسن يكررهما فلما فرغ صالح من قراءة الكتاب ونزل قال: أراه في سجنه مظلوماً أخرجوه وأنا أراجع أمير المؤمنين في أمره، فأطلق بعد أيام وأتاه الفرج من عند الله تعالى.

وقال الربيع: لما حبس المهدي موسى بن جعفر، رأى في المنام علياً رضي الله تعالى عنه وهو يقول: يا محمد ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾[2]، قال الربيع، فأرسل المهدي إليّ ليلاً فراعني ذلك، فجئته، فإذا هو يقرأ هذه الآية، وكان حسن الصوت، فقص عليّ الرؤيا ثم قال: ائتني بموسى بن جعفر، فجئته به فعانقه وأجلسه إلى جانبه، وقال يا أبا الحسن رأيت أمير المؤمنين يقرأ عليّ كذا فعاهدني أن لا تخرج عليّ ولا على أحد من ولدي، فقال: والله ما ذاك من شأني، فقال: صدقت، ثم قال يا ربيع أعطه ثلاث آلاف دينار ورده إلى أهله بالمدينة، قال الربيع: فأحكمت أمره ليلاً، فما أصبح إلا على الطريق.

وقال إسماعيل بن بشار:

وكلُّ حر وإن طالت بليتُهُ
يوماً تفرّج غمّاه وتنكشفُ

وقال مسلم بن الوليد: كنت يوماً جالساً عند خياط بازاء منزلي فمر بي إنسان أعرفه، فقمت إليه وسلمت عليه وجئت به إلى منزلي لأضيفه وليس معي درهم بل كان عندي زوج أخفاف، فأرسلتها مع جاريتي لبعض معارفها فباعهما بتسعة دراهم واشترت بها ما قلته لها من الخبز واللحم، فجلسنا نأكل وإذا بالباب يطرق فنظرت من شق الباب وإذا بإنسان يسأل هذا منزل فلان؟ ففتحت الباب وخرجت، فقال أنت مسلم بن الوليد، قلت: نعم، واستشهدت له بالخياط على ذلك فأخرج لي كتاباً وقال هذا من الأمير يزيد بن مزيد، فإذا فيه: قد بعثنا لك بعشرة آلاف درهم لتكون في منزلك وثلاثة آلاف درهم تتجمل بها لقدومك علينا، فأدخلته إلى داري وزدت في الطعام واشتريت فاكهة وجلسنا فأكلنا ثم وهبت لضيفي شيئاً يشتري به هدية لأهله وتوجهنا إلى باب يزيد بالرقة فوجدناه في الحمام، فلما خرج استؤذن لي عليه فدخلت، فإذا هو جالس على كرسي وبيده مشط يسرح به لحيته فسلمت عليه فرد أحسن رد وقال: ما الذي أقعدك عنا؟ قلت: قلة ذات اليد وأنشدته قصيدة مدحته بها، قال: أتدري لم أحضرتك؟ قلت: لا أدري، قال: كنت عند الرشيد منذ ليال أحادثه فقال لي يا يزيد من القائل فيك هذه الأبيات:

سلّ الخليفة سيفاً من بني مضر
يمضي فيخترق الأجسام والهاما
كالدهر لا ينثني عمّا يهمّ به
قد أوسع الناس إنعاماً وإرغاما

فقلت: والله لا أدري يا أمير المؤمنين، فقال سبحان الله، أيقال فيك مثل هذا ولا تدري من قاله؟ فسألتُ فقيل لي هو مسلم بن الوليد، فأرسلت إليك فانهض بنا إلى الرشيد فسرنا إليه واستؤذن لنا فدخلنا عليه فقبلت الأرض وسلمت فرد على السلام فأنشدته ما لي فيه من شعر، فأمر

(٦) صدوع: فعول من صدع أي شديد الصدع، والصدع: التفريق.
(٧) سورة محمد، الآية (٢٢).

لي بمائتي ألف درهم وأمر لي يزيد بمائة وتسعين ألف درهم وقال: ما ينبغي لي أن اساوي أمير المؤمنين في العطاء فانظر إلى هذا التيسير الجسيم بعد العسر العظيم.

وما أحسن ما قيل:

الأمـن والـخـوف أيـامٌ مـداولـةٌ
بـيـن الانـام وبـعـد الـضـيـقِ تـتـسـع

ولما وجه سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد إلى العراق ليطلق أهل السجون ويقسم الأموال، ضيق على يزيد بن أبي مسلم فلما ولي يزيد بن عبد الملك الخلافة ولي يزيد بن أبي مسلم أفريقية، وكان محمد بن يزيد والياً عليها فاستخفى محمد بن يزيد فطلبه يزيد بن أبي مسلم وشدَّد في طلبه فأتي به إليه في شهر رمضان عند المغرب وكان في يد يزيد بن أبي مسلم عنقود عنب فقال لمحمد بن يزيد حين رآه: يا محمد بن يزيد، قال: نعم، قال: طالما سألت الله أن يمكنني منك، فقال: وأنا والله طالما سألت الله أن يجيرني منك، فقال: والله ما أجارك ولا أعانك، وإن سبقني ملك الموت إلى قبض روحك سبقته، والله لا آكل هذه الحبة العنب حتى أقتلك. ثم أمر به فكتف ووضع في النطع وقام السياف فأقيمت الصلاة، فوضع العنقود من يده وتقدم ليصلي، وكان أهل أفريقية قد أجمعوا على قتله فلما رفع رأسه ضربه رجل بعمود على رأسه فقتله، وقيل لمحمد بن يزيد: اذهب حيث شئت فسبحان من قتل الأمير وفك الأسير.

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: رأيت رسول الله ﷺ في النوم وهو يقول أطلق القاتل، فارتعت لذلك ودعوت بالشموع ونظرت في أوراق السجن وإذا ورقة إنسان ادُّعِيَ عليه بالقتل وأقرَّ به، فأمرت بإحضاره فلما رأيته وقد ارتاع فقلت له: إن صدقتني أطلقتك، فحدثني أنه كان هو وجماعة من أصحابه يرتكبون كل عظيمة، وأن عجوزاً جاءت لهم بامرأة فلمَّا صارت عندهم صاحت الله الله وغشي عليها، فلما أفاقت قالت: أنشدك الله في أمري فإن هذه العجوزة غرتني وقالت إن في هذه الدار نساء صالحات وأنا شريفة، جدي رسول الله ﷺ وأمي فاطمة وأبي الحسين بن علي فاحفظوهم فيّ، فقمت دونها وناضلت عنها فاشتد عليّ واحد من الجماعة، وقال لا بد منها وقاتلني فقتلته، وخلصت الجارية من يده، فقالت: سترك الله كما سترتني وسمع الجيران الصيحة فدخلوا علينا فوجدوا الرجل مقتولاً والسكين بيدي فأمسكوني وأتوا بي إليك وهذا أمري، فقال إسحاق: قد وهبتك لله ولرسوله فقال: وحق اللذين وهبتني لهما لا أعود إلى معصية أبداً.

وأمر الحجاج بإحضار رجل من السجن فلما حضر أمر بضرب عنقه فقال: أيها الأمير أخرني إلى غد، قال وأي فرج لك في تأخير يوم واحد؟ ثم أمر برده إلى السجن فسمعه الحجاج في السجن يقول:

عـسـى فـرجٌ يـأتـي بـه الله إنّـه
لـه كـلّ يـوم فـي خـلـيـقـتـه أمـر

فقال الحجاج: والله ما أخذه إلا من كتاب الله وهو قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[1] وأمر بإطلاقه.

وقال بعض جلساء المعتمد، كنا بين يديه ليلة فخفق رأسه بالنعاس فقال: لا تبرحوا، حتى أغفى سويعة، فغفا ساعة ثم أفاق جزعاً مرعوباً وقال: امضوا إلى السجن وائتوني بمنصور الجمال، فجاءوا به فقال له: كم لك في السجن؟ قال: سنة ونصف، قال: على ماذا؟ قال: أنا جمال من أهل الموصل وضاق عليَّ الكسب ببلدي فأخذت جملي وتوجهت إلى بلد غير بلدي لأعمل عليه فوجدت جماعة من الجند قد ظفروا بقوم غير مستقيمي الحال وهم مقدار عشرة أنفس وجدوهم يقطعون الطريق فدفع واحد منهم شيئاً للأعوان فأطلقوه وأمسكوني عوضه وأخذوا جملي فناشدتهم الله فأبوا وسجنت أنا والقوم، فأطلق بعضهم ومات بعضهم وبقيت أنا فدفع له المعتمد خمسمائة دينار وأجرى له ثلاثين ديناراً في كل شهر وقال: اجعلوه على جمالنا، ثم قال: أتدرون ما سبب فعلي هذا؟ قلنا: لا. قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو يقول أطلق منصوراً الجمال من السجن وأحسن إليه.

وأخذ الطاعون أهل بيت فَسُدَّ بابه، ففضل فيه طفل يرضع لم يشعر به أحد ففتح الباب بعد شهر فوجدوا الطفل قد عطف الله عليه كلبة ترضعه مع جرو لها، فسبحان القادر على كل شيء لا إله غيره ولا معبود سواه.

قال الشاعر:

إذا تـضـايـق أمرٌ فـانـتـظـرْ فـرجـاً
فـأضْـيَـقُ الأمـرِ أدنـاه إلـى الـفـرجِ

وقال آخر:

فلا تـجـزعـنْ إن أظـلـم الـدهـر مـرّة
فـإنّ اعـتـكـارَ الـلـيـل يـؤذن بـالـفـجـرِ

---

(١) سورة الرحمن، الآية (٢٩).

وقال آخر:

لعمرك ما كلّ التعاطيل ضائراً
ولا كلّ شغلٍ فيه للمرء منفعه
إذا كانت الأرزاق في القرب والنوى
عليك سواءً فاغتنمْ لذّة الدّعه[1]
فإن ضقت فاصبر يفرج الله ما ترى
ألا ربَّ ضيقٍ في عواقبه سعه

وقال الرياشي: ما اعتراني هم فأنشدت قول أبي العتاهية حيث قال:

هي الأيام والغِيَرُ
وأمر الله يُنتظرُ
أتيأس أن ترى فرجاً
فأين الله والقَدَرُ

إلاّ سرّى عني وهبت ريحَ الفرج.

ويروى أن سلطان صقلية أرق ذات ليلة ومنع النوم، فأرسل إلى قاعد البحر وقال له: انفذ الآن مركباً إلى أفريقية يأتوني بأخبارها، فعمد القائد إلى مقدم مركب وأرسله فلما أصبحوا إذا بالمركب في موضعه كأنه لم يبرح، فقال الملك لقائد البحر: أليس قد فعلت ما أمرتك به؟ قال: نعم، قد امتثلت أمرك وأنفذت مركباً فرجع بعد ساعة وسيحدثك مقدم المركب، فأمر بإحضاره فجاء ومعه رجل فقال له الملك: ما منعك أن تذهب حيث أمرت؟ قال: ذهبت بالمركب فبينما أنا في جوف الليل والرجال يجدفون إذا بصوت يقول: يا الله يا الله يا غياث المستغيثين يكررها مراراً، فلما استقر صوته في أسماعنا ناديناه مراراً لبيك لبيك وهو ينادي يا الله يا ألله يا غياث المستغيثين، فجدفنا بالمركب نحو الصوت فلقينا هذا الرجل غريقاً في آخر رمق من الحياة فطلعنا به المركب وسألناه عن حاله فقال: كنا مقلعين من أفريقية فغرقت سفينتنا منذ أيام وأشرفت على الموت وما زلت أصيح حتى أتاني الغوث من ناحيتكم، فسبحان من أسهر سلطاناً وأرقه في قصره لغريق في البحر حتى استخرجه من تلك الظلمات الثلاث ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة الوحدة، فسبحانه لا إله غيره ولا معبود سواه.

وحكى سيدي أبو بكر الطرطوشي في كتابه سراج الملوك قال: أخبرني أبو الوليد الباجي عن أبي ذر قال: كنت أقرأ على الشيخ أبي حفص عمر بن أحمد بن شاهين ببغداد جزأ من الحديث في حانوت رجل عطار، فبينما أنا جالس معه في الحانوت إذ جاء رجل من الطوافين ممن يبيع العطر في طبق يحمله على يده، فدفع إليه عشرة دراهم وقال له: أعطني بها أشياء سماها له من العطر فأعطاه إياها فأخذها في طبقه وأراد أن يمضي فسقط الطبق من يده فانكب جميع ما فيه فبكى الطواف وجزع حتى رحمناه فقال أبو حفص لصاحب الحانوت: لعلك تعينه على بعض هذه الأشياء، فقال سمعاً وطاعة، فنزل وجمع له ما قدر على جمعه منها ودفع له ما عدم منها، وأقبل الشيخ على الطواف يصبره ويقول له لا تجزع فأمر الدنيا أيسر من ذلك فقال الطواف: أيها الشيخ ليس جزعي لضياع ما ضاع لقد علم الله تعالى أني كنت في القافلة الفلانية فضاع لي هميان[1] فيه أربعة آلاف دينار ومعها فصوص قيمتها كذلك فما جزعت لضياعها حيث كان لي غيرها من المال، ولكن ولد لي ولد في هذه الليلة فاحتجنا لأمه ما تحتاج النفساء ولم يكن عندي غير هذه العشرة دراهم فخشيت أن أشتري بها حاجة النفساء فأبقى بلا رأس مال، وأنا قد صرت شيخاً كبيراً لا أقدر على التكسب، فقلت في نفسي أشتري بها شيئاً من العطر فأطوف به صدر النهار فعسى أستفضل شيئاً أسد به رمق أهلي ويبقى رأس المال أتكسب به، واشتريت هذا العطر فحين انكب الطبق علمت أنه لم يبق لي إلا الفرار منهم، فهذا الذي أوجب جزعي. قال أبو حفص وكان رجل الجند جالساً إلى جانبي يستوعب الحديث فقال للشيخ أبي حفص: يا سيدي أريد أن تأتي بهذا الرجل إلى منزلي، فظننا أن يعطيه شيئاً، قال: فدخلنا إلى منزله فأقبل على الطواف وقال له: عجبت من جزعك، فأعاد عليه القصة فقال له الجندي: وكنت في تلك القافلة؟ قال: نعم وكان فيها فلان وفلان فعلم الجندي صحة قوله فقال: وما علامة الهميان وفي أي موضع سقط منك؟ فوصف له المكان والعلامة، قال الجندي إذا رأيته تعرفه، قال: نعم. فأخرج الجندي له همياناً ووضعه بين يديه فحين رآه صاح وقال: هذا همياني والله وعلامة صحة قولي أن فيه من الفصوص ما هو كيت وكيت ففتح الهميان فوجده كما ذكر، فقال الجندي خذ مالك بارك الله لك فيه. فقال الطواف إن هذه الفصوص قيمتها مثل الدنانير وأكثر فخذها وأنت في حل

(١) الدعة: الاستقرار والاطمئنان والقبول بما هو كائن.

(١) الهميان: كيس للنفقة يشد في الوسط.

منها ونفسي طيبة بذلك، فقال الجندي ما كنت لآخذ على أماتني مالاً، وأبى أن يأخذ شيئاً ثم دفعها للطواف جميعها فأخذها ومضى ودخل الطواف وهو من الفقراء وخرج وهو من الأغنياء، اللهم أغن فقرنا ويسر أمرنا برحمتك يا أرحم الراحمين.

وحكي: أن الملك ناصر الدولة من آل حمدان كان يشكو وجع القولنج حتى أعيا الأطباء دواؤه لم يجدوا له شفاء، فدسوا على قتله وأرصدوا له رجلاً ومعه خنجر فلما كان في بعض دهاليز القصر وثب عليه ذلك الرجل وضربه بالخنجر فجاءت الضربة أسفل خاصرته فلم تخط المعى الذي فيه القولنج فخرج ما فيه من الخلط فعافاه الله تعالى وبرىء أحسن ما كان. ويعضد هذا ما حكاه أبو بكر الطرطوشي قال: حدثنا القاضي أبو مروان الداراني بطرطوشة قال: نزلت قافلة بقرية خربة من أعمال دانية فأووا إلى دار خربة هناك فاستكنوا فيها من الرياح والأمطار واستوقدوا نارهم وسووا معيشتهم، وكان في تلك الخربة حائط مائل قد أشرف على الوقوع، فقال رجل منهم: يا هؤلاء لا تقعدوا تحت هذا الحائط ولا يدخلن أحد في هذه البقعة فأبوا إلا دخولها فاعتزلهم ذلك الرجل وبات خارجاً عنهم ولم يقرب ذلك المكان، فأصبحوا في عافية وحملوا على دوابهم، فبينما هم كذلك إذ دخل ذلك الرجل إلى الدار ليقضي حاجته فخر عليه الحائط فمات لوقته. قال وأخبرني أبو القاسم بن حبيش بالموصل قال: لقد جرت في هذه الدار وأشار إلى دار هناك، قضية عجيبة، قلت: وما هي؟ قال: كان يسكن هذه الدار رجل من التجار ممن يسافر إلى الكوفة في تجارة الخز، فاتفق أنه جعل جميع ما معه من الخز في خرج وحمله على حماره وسار مع القافلة، فلما نزلت القافلة أراد انزال الخرج عن الحمار فثقل عليه فأمر انساناً هناك فأعانه على إنزاله، ثم جلس يأكل فاستدعى ذلك الرجل ليأكل معه فسأله عن أمره فأخبره أنه من أهل الكوفة وأنه خرج لحاجة عرضت له بغير نفقة ولا زاد، فقال له الرجل: كن رفيقي آنس بك وتعينني على سفري ونفقتك ومؤنتك عليّ، فقال له الرجل: وأنا أيضاً أختار صحبتك وأرغب في مرافقتك، فسار معه في سفره وخدمه أحسن خدمة إلى أن وصلا إلى تكريت، فنزل الرفقة خارج المدينة ودخل الناس إلى قضاء حوائجهم، فقال التاجر لذلك الرجل: احفظ حوائجنا حتى أدخل المدينة وأشتري ما نحتاج إليه، ثم دخل المدينة وقضى جميع حوائجه ورجع فلم يجد القافلة ولا صاحبه، ورحلت الرفقة ولم ير أحداً فظن أنه لما رحلت الرفقة رحل ذلك الخادم معهم فلم يزل يسير ويجد في السير في المشي إلى أن أدرك القافلة بعد جهد عظيم وتعب شديد، فسألهم عن صاحبه فقالوا ما رأيناه ولا جاء معنا ولكنه ارتحل على أثرك فظننا أنك أمرته، فكرّ الرجل راجعاً إلى تكريت وسأل عن الرجل فلم يجد له أثراً ولا سمع له خبراً، فيئس منه ورجع إلى الموصل مسلوب المال فوصلها نهاراً فقيراً جائعاً عرياناً مجهوداً فاستحى أن يدخلها نهاراً فتشمت به الأعداء، نعوذ بالله من شماتتهم، وخشي أن يحزن الصديق إذا رآه على تلك الحالة، فاستخفى إلى الليل ثم عاد إلى داره فطرق الباب فقيل له: من هذا؟ قال: فلان، يعني نفسه، فأظهروا له سروراً عظيماً وحاجة إليه وقالوا: الحمد لله الذي جاء بك في هذا الوقت على ما نحن فيه من الضرورة والحاجة، فإنك أخذت مالك معك وما تركت لنا نفقة كافية، وأطلت سفرك واحتجنا وقد وضعت زوجتك اليوم والله ما وجدنا ما نشتري به شيئاً للنفساء، فأتنا بدقيق ودهن نسرج به علينا فلا سراج عندنا، فلما سمع ذلك ازداد غماً على غمه وكره أن يخبرهم بحاله فيحزنهم بذلك فأخذ وعاء للدهن ووعاء للدقيق وخرج إلى حانوت أمام داره وكان فيه رجل يبيع الدقيق والزيت والعسل ونحو ذلك، وكان البياع أطفأ سراجه وأغلق حانوته ونام، فناداه فعرفه فأجابه، وشكر الله على سلامته، فقال له: افتح حانوتك واعطنا ما نحتاج إليه من دقيق وعسل ودهن، فنزل البياع إلى حانوته وأوقد المصباح ووقف يزن له ما طلب، فبينما هو كذلك إذ حانت من التاجر التفاتة إلى قعر الحانوت فرأى خرجه الذي هرب به صاحبه فلم يملك نفسه أن وثب إليه والتزمه، وقال يا عدو الله ائتني بمالي، فقال له البياع: ما هذا يا فلان؟ والله ما علمتك متعدياً وأنا أبداً ما جنيت عليك ولا على غيرك فما هذا الكلام، قال: هذا خرجي هرب به خادم كان يخدمني وأخذ حماري وجميع مالي، فقال البياع: والله ما لي علم غير أن رجلاً ورد علي بعد العشاء واشترى مني عشاءه وأعطاني هذا الخرج فجعلته في حانوتي وديعة إلى حين يصبح، والحمار في دار جارنا والرجل في المسجد نائم، قال له: أحمل معي الخرج وامض بنا إلى الرجل فرفع الخرج على عاتقه ومضى معه إلى المسجد فإذا الرجل نائم في المسجد فوكزه برجله فقام الرجل مرعوباً، فقال مالك؛ قال: أين مالي يا خائن؟ قال: ها هو في خرجك فوالله ما أخذت منه ذرة، قال:

فأين الحمار وآلته؟ قال: هو عند هذا الرجل الذي معك، فعفا عنه وخلى سبيله ومضى بخرجه إلى داره فوجد متاعه سالماً فوسع على أهله وأخبرهم بقصته فازداد سرورهم وفرحهم وتبركوا بذلك المولود فسبحان من لا يخيب من قصده ولا ينسى من ذكره.

ولنلحق بهذا الباب ذكر شيء مما جاء في التهنئة والبشائر.

كتب بعضهم إلى أخيه وقد أتاه خبراً استبشر به: سمعت عنك خبراً ساراً كتب في الألواح وامتزج بالأرواح، وعد في جملة البشائر العظام، وجرى في العروق وتمشى في العظام. وكان خالد بن عبد الله القسري أخا هشام بن عبد الملك من الرضاع وكان يقول له: إني لأرى فيك آثار الخلافة ولا تموت حتى تليها، فقال له: إن أنا وليتها فلك العراق فلما ولي أتاه فقام بين الصفين، وقال يا أمير المؤمنين أعزك الله بعزته وأيدك بملائكته وبارك لك فيما ولاك ورعاك فيما استرعاك وجعل ولايتك على أهل الإسلام نعمة وعلى أهل الشرك نقمة، لقد كانت الولاية إليك أشوق منك إليها، وأنت لها أزين منها لك، وما مثلها ومثلك إلا كما قال الأحوص هذه الأبيات:

وإنِ الـدرُّ زاد حـسـن وجـوه
كـان لـلـدرِّ حـسـن وجـهـك زيـنـا
وتـزيـدنُ أطـيـب الـطـيـب طـيـبـاً
إن تـمـسـه أيـن مـثـلـك أيـنـا

ودخل على المهدي أعرابي فقال له: فيم جئت؟ قال: أتيتك برسالة قال: هاتها. قال: أتاني آت في منامي فقال: إئت أمير المؤمنين فأبلغه هذه الأبيات:

لـكـم أرث الـخـلافـة مـن قـريـش
تُـزَفُّ إلـيـكـمـو أبـداً عـروسـا
إلـى هـارون تُـهـدى بـعـد مـوسـى
تـمـيـس ومـا لـهـا أن لا تـمـيـسا(١)

فقال المهدي: يا غلام، عليَّ بالجواهر، فحشا فاه حتى كاد ينشق، ثم قال: اكتبوا هذه الأبيات واجعلوها في بخانق صبياننا.

قال إبراهيم الموصلي في تهنئة الرشيد بالخلافة:

ألـم تـر أنَّ الـشـمـسَ كـانـت مـريـضـةً
فـلـمـا أتـى هـارون أشـرق نـورهـا
تـلـبَّـسـت الـدنـيـا جـمـالاً بـمـلـكـه
فـهـارون والـيـهـا ويـحـيـى وزيـرهـا

وغنّاهُ بهما من وراء الحجاب، فوصله بمائة ألف دينار ويحيى بخمسين ألفاً.

ودخل عطاء بن أبي صيفي على يزيد بن معاوية وهو أول من جمع بين التهنئة والتعزية، فقال: رزئت خليفة الله وأعطيت خلافة الله قضى معاوية نحبه فغفر الله ذنبه، ووليت الرئاسة وكنت أحق بالسياسة، فاحتسب عند الله أعظم الرزية واشكر الله على أعظم العطية.

ومر عمر بن هبيرة بعد إطلاقه من السجن بالرقة، فإذا امرأة من بني سليم على سطح لها تحادث جارة لها ليلاً وهي تقول: لا والذي أسأله أن يخلص عمر بن هبيرة مما هو فيه ما كان كذا، فرمى إليها بصرة فيها مائة دينار وقال: قد خلص الله عمر بن هبيرة، فطيبي نفساً وقري عيناً. والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثامن والخمسون
في ذكر العبيد والإماء والخدم
وفيه فصلان

الفصل الأول
في مدح العبيد والاماء والاستيصاء بهم خيراً

عن علي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من يدخل الجنة شهيدٌ وعبدٌ أحسن عبادة ربه، ونصح لسيده. وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما (رفعه): إن العبد إذا نصح لسيده وأحسن عبادة ربه فله أجره مرتين».

وكان زيد بن حارثة خادماً لخديجة رضي الله تعالى عنها، اشتري لها بسوق عكاظ، فوهبته لرسول الله ﷺ، فجاءه أبوه يريد شراءه منه، فقال رسول الله ﷺ إن رضي بذلك فعلت، فسئل زيد فقال: ذل الرق مع صحابة رسول الله ﷺ أحب إليَّ من عز الحرية مع مفارقته. فقال رسول الله ﷺ إذا اختارنا اخترناه، فأعتقه وزوجه أم أيمن، وبعدها زينب بنت جحش.

وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: كان آخر كلام

(١) تميس: تتمايل تمايل الغصن الرطيب.

رسول الله ﷺ: «أوصيكم بالصلاة واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم».

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي. وعن ابن مسعود الأنصاري قال: ضربت غلاماً لي فسمعت من خلفي صوتاً: «اعلم يا أبا مسعود إن الله أقدر عليك منك عليه». فالتفت فإذا هو النبي ﷺ، فقلت يا رسول الله: هو حر لوجه الله تعالى، فقال: أما إنك لو لم تفعل للفحتك النار.

وروي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كم تعفو عن الخادم؟ ثم أعاد عليه فصمت، فلما كانت الثالثة قال له: أعفو عنه كل يوم سبعين مرة.

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: حدثني أبو القاسم نبي التوبة ﷺ «من قذف مملوكه وهو بريء مما قال جلد له يوم القيامة حداً». وقيل: أراد رجل بيع جاريته فبكت، فقال لها: مالك؟ فقالت: لو ملكت منك ما ملكت مني ما أخرجتك من يدي، فأعتقها وتزوجها.

وقال أبو اليقظان: إن قريشاً لم تكن ترغب في أمهات الأولاد حتى ولدن ثلاثة هم خير أهل زمانهم، علي بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وذلك أن عمر رضي الله تعالى عنه أتى ببنات يزدجرد بن شهريار بن كسرى مسبيات، فأراد بيعهن فأعطاهن للدلال ينادي عليهن بالسوق، فكشف عن وجه إحداهن فلطمته لطمة شديدة على وجهه فصاح: واعمراه، وشكا إليه، فدعاهن عمر وأراد أن يضربهن بالدرة، فقال علي رضي الله تعالى عنه يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال: «أكرموا عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر». إن بنات الملوك لا يبعن، ولكن قوموهن، فقومهن وأعطاه أثمانهن، وقسمهن بين الحسن بن علي ومحمد بن أبي بكر وعبد الله بن عمر، فولدن هؤلاء الثلاثة.

وقيل: إستبق بنو عبد الملك فسبقوا مسلمة وكان ابن أمة، فتمثل عبد الملك بقول عمرو العبدي:

نهيتكموا أن تحملوا فوقَ خيلكم
هجيناً لكم يوم الرهان فيدرك[1]

فتعثر كفّاه ويسقط سوطه
ويخدر ساقاه فما يتحرك

وهل يستوي المرآن هذا ابن حرّةٍ
وهذا ابن أخرى ظهرها مُتَشَرِّكُ[1]

فقال له مسلمة: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ليس هذا مثلي، ولكن كما قال ابن المعمر هذه الأبيات:

فما أنكحونا طائعين بناتهم
ولكن خطبناهم بأرماحنا قسرا

فما زادنا فيها السباء مذلةً
ولا كلّفت خبزاً ولا طبخت قدرا

وكم قد ترى فينا من ابن سبيةٍ
إذا لقيَ الأبطال يطعنهم شزراً[2]

ويأخذ ريّان الطعان بكفّه
فيوردها بيضاً ويصدرها حمرا

فقبل رأسه وعينيه وقال: أحسنت يا بني ذاك والله أنت، وأمر له بمائة ألف درهم مثل ما أخذ السابق والله أعلم.

الفصل الثاني

في ذم العبيد والخدم

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بئس المال في آخر الزمان المماليك». وقال مجاهد: إذا كثرت الخدم كثرت الشياطين. وقال لقمان لابنه: لا تأمنن امرأة على سرّ ولا تطأ خادماً تريدها للخدمة. ووصف بعضهم عبداً فقال: يأكل فارها[3] ويعمل كارهاً ويبغض قوماً ويحب نوماً.

وقيل لبعضهم: ألك غلام؟ فقال:

ومالي غلامٌ فادعوا به
سوى من أبوه أخو عمتي

وقال أكثم:

الحر حرٌ وإن مسه الضرُ
والعبد عبد وإن ألبسته الدرُ

ودعا بعض أهل الكوفة إخوانه وله جارية فقصرت فيما ينبغي لهم من الخدمة فقال:

إذا لم يكن في منزل المرء حرّةٌ
رأى خللاً فيما تولى الولائد

---

(١) الهجين: المختلط النسب، ففي الحيوان يقال للفرس إن كانت أمها من الخيل العراب وأباها من غير العراب وفي البشر إن كان الأب حراً والأم أمة.

(١) أي قد اشترك في امتلاكها عدة رجال لأن الأمة تنتقل من يد ليد ومن مشتر لآخر.
(٢) أي يطعنهم وهو ينظر إليهم بطرف عينه مغضباً.
(٣) أي يأكل أفضل الطعام لأنه هو من يعده.

فلا يتخذ منهن حرٌ قعيدة
لهن لعمر الله بئس القعائد

وكان لرجل غلام من أكسل الناس، فأرسله يوماً يشتري له عنباً وتيناً، فأبطأ عليه حتى عيل صبره، ثم جاء بأحدهما فضربه وقال: ينبغي لك إذا استقضيتك حاجة أن تقضي حاجتين، فمرض الرجل، فأمر الغلام أن يأتيه بطبيب، فغاب ثم جاء بالطبيب ومعه رجل آخر، فسأله عنه فقال: أما ضربتني وأمرتني أن أقضي حاجتين في حاجة، فجئتك بالطبيب، فإن شفاك الله تعالى، وإلا حفر لك هذا قبرك، فهذا طبيب وهذا حفّار.

وقيل: كان عمرو الأعجمي يلي حكم السند، فكتب إلى موسى الهادي: إن رجلاً من أشراف أهل الهند من آل المهلب ابن أبي صفرة اشترى غلاماً أسود فرباه وتبناه، فلما كبر وشب اشتد به هوى مولاته فراودها عن نفسها، فأجابته، فدخل مولاه يوماً على غفلة منه من حيث لا يعلم، فإذا هو على صدر مولاته، فعمد إليه فجب ذكره وتركه يتشحط في دمه، ثم أدركته عليه رقة وندم على ذلك فعالجه إلى أن برىء من علته، فأقام الغلام بعدها مدة يطلب أن يأخذ ثأره من مولاه ويدبر عليه أمراً يكون فيه شفاء غليله، وكان لمولاه ابنان أحدهما طفل والآخر يافع كأنهما الشمس والقمر، فغاب الرجل يوماً عن منزله لبعض الأمور فأخذ الأسود الصبيين فصعد بهما على ذروة سطح عال، فنصبهما هناك وجعل يعللهما بالمطعم مرة وباللعب أخرى إلى أن دخل مولاه، فرفع رأسه فرآه في شاهق مع الغلام فقال: ويلك عرضت ابني للموت، قال: أجل والله الذي لا يحلف العبد بأعظم منه لئن لم تجب ذكرك مثل ما جببتني لأرمين بهما، فقال: الله الله يا ولدي في تربيتي لك، قال: دع هذا عنك، فوالله ما هي إلا نفسي وإني لأسمح بها في شربة ماء، فجعل يكرر عليه ويتضرع له، وهو لا يقبل ذلك ويذهب الوالد يريد الصعود إليه، فيدليهما من ذلك الشاهق، فقال: أبوهما: ويلك، فاصبر حتى أخرج مدية وأفعل ما أمرت، ثم أسرع وأخذ مدية فجب نفسه وهو يراه، فلما رأى الأسود ذلك رمى الصبيين من ذلك الشاهق فتقطعا، وقال: إن جبك لنفسك ثأري، وقتل أولادك زيادة فيه، فأخذ الأسود وكتب بخبره لموسى الهادي، فكتب موسى لصاحب السند عمرو الأعجمي بقتل الغلام، وقال: ما سمعت بمثل هذا قط، وأمر أن يخرج من مملكته كل أسود، فما ترى أردأ من العبيد ولا أقل خيراً منهم. وأكثرهم رداءة المولدون لو أحسنت إلى أحدهم الدهر كله بكل ما تصل يدك إليه أنكره، كأن لم ير منك شيئاً، وكلما أحسنت إليه تمرّد، وإن أسأت إليه خضع وذل وقد جربت أنا ذلك كثيراً. وما أحسن ما قيل:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا[1]

وقيل: إن العبد إذا شبع فسق، وإن جاع سرق. وكان جدي لأمي يقول: شر المال تربية العبيد، والمولدون منهم الأم من الزنوج وأرداً، لأن المولد لا يعرف له أباً وربما يعرف الزنجي أبويه. ويقال في المولد: بغل لأنه مجنس والبغل تكون أمه فرساً وأبوه حماراً، وبالعكس فلا تثق بمولد لأنه قل أن يكون فيه خير وإن كان فذاك نادر والنادر لا حكم له، وأنا أستغفر الله العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب التاسع والخمسون

في أخبار العرب الجاهلية وأوابدهم وذكر غرائب من عوائدهم وعجائب من أكاذيبهم

للعرب أوابد وعوائد كانوا يرونها فضلاً، وقد دل على بعضها القرآن العظيم وأكذب الله دعاويهم فيها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[2].

قال أهل اللغة: البحيرة ناقة كانت إذا نتجت خمسة أبطن وكان الأخير ذكراً بحروا أذنها أي شقوا أذنها وامتنعوا من ذكاتها ولا تمنع من ماء ولا مرعى. وكان الرجل إذا أعتق عبداً وقال هو سائبة فلا عقد بينهما ولا ميراث. وأما الوصيلة ففي الغنم، كانت الشاة إذا ولدت أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكراً جعلوه لآلهتهم، فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها فلا يذبح الذكر لآلهتهم. وأما الحام، فالذكر من الإبل، كانت العرب إذا نتج من صلب الفحل

(١) البيت من قصيدة لأبي الطيب المتنبي في مدح سيف الدولة الحمداني.
(٢) سورة المائدة، الآية (١٠٣).

عشرة أبطن قالوا: حمي ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1]، فالخمر ما خامر العقل، ومنه سميت الخمر خمراً، والميسر القمار، والأنصاب حجارة كانت لهم يعبدونها وهي الأوثان واحدها نصب، والأزلام سهام كانت لهم مكتوب على بعضها أمرني ربي وعلى بعضها نهاني ربي، فإذا أراد الرجل سفراً أو أمراً يهتم به ضرب بتلك القداح فإذا خرج الأمر مضى لحاجته وإذا خرج النهي لم يمض. ومن أوابدهم وأد البنات أي دفنهن أحياء، كانوا في الجاهلية إذا رزق أحدهم أنثى وأدها وإذا بشر بها ضاق صدره وكظم وجهه وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾[3]. وقد قيل: إنهم كانوا يقتلونهن خوف العار. وبمكة جبل يقال له: أبو دلامة كانت قريش تئد فيه البنات. وقيل: إن صعصعة جد الفرزدق كان يشتري البنات ويفديهن من القتل كل بنت بناقتين عشراوين وجمل. وفاخر الفرزدق رجلاً عند بعض خلفاء بني أمية فقال: أنا ابن محي الموتى، فأنكر الرجل ذلك، فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[4].

وأما الرفادة في الحج:

فكانت خرجاً تخرجه قريش في كل موسم من أموالهم إلى قصي، فيصنع به طعاماً للحاج، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد، وذلك أن قصياً فرضه على قريش، فقال لهم حين أمرهم به: يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم، وإن الحجاج ضيوف الله، وزوار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم، ففعلوا وكانوا يخرجون ذلك كل عام من أموالهم، فيدفعونه إليهم. وقيل: أول من أقام الرفادة عبد المطلب وهو الذي حفر بئر زمزم وكانت مطمومة، واستخرج منها الغزالين الذهب اللذين عليهما الدر والجوهر وغير ذلك من الحلي وسبعة أسياف وخمسة دروع سوابغ، فضرب من الأسياف باب الكعبة وجعل أحد الغزالين الذهب صفائح الذهب وجعل الآخر في الكعبة.

واعلم وفقني الله وإياك إنه لم يسمع بعُجْب[1] أعظم من عجب سعيد بن زرارة وعبد الله بن زياد التميمي وابن سماك الأسدي الذين ضرب بهم المثل. فأما سعيد بن زرارة فقيل: إنه مرت به امرأة فقالت له: يا عبد الله كيف الطريق إلى مكان كذا، فقال لها: يا هنتاه مثلي يكون من عبيد الله؟ وأما عبد الله بن زياد التميمي، فقيل: إنه خطب الناس بالبصرة فأحسن وأوجز، فنودي من نواحي المسجد كثّر الله فينا مثلك، فقال: لقد كلفتم الله شططاً. وأما ابن سماك، فإنه أضل راحلته فالتمسها فلم توجد فقال: والله لئن لم يرد راحلتي عليّ لا صليت له أبداً. فوجدت وقد تعلق زمامها ببعض أغصان الشجر، فقيل له: قد رد الله عليك راحلتك فصل. فقال: إنما كانت يميني يميناً قصداً. فانظر رحمك الله إلى هذا العجب كيف ذهب بهم حتى أفضى بهم إلى الكفر وصاروا حديثاً مستبشعاً ومثلاً بين العالمين مستشنعاً، نعوذ بالله من الخذلان المؤدي إلى النيران ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

حكي عن الحجاج بن يوسف الثقفي أنه قيل له: كيف وجدت منزلك بالعراق؟ قال: خير منزل إن الله أظفرني بأناس بلغني الأمل فيهم، وأعانني على الانتقام منهم، فكنت أتقرب إليه بدمائهم، فقيل له: من هم؟ فذكر هؤلاء الثلاثة وذكر حديثهم ولا محالة أنها من محاسن الحجاج، وإن قلّت في جنب سيئاته. والله تعالى أعلم.

ذكر أديان العرب في الجاهلية:

كانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاعة، وكانت اليهودية في نمير وبني كنانة وبني الحرث بن كعب وكندة، وكانت المجوسية في بني تميم منهم زرارة بن عدي وابنه علي وكان تزوج ابنته ثم ندم، ومنهم الأقرع بن حابس كان مجوسياً. وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الجزيرة وكانت بنو حنيفة اتخذوا في الجاهلية صنماً من حيس[2] فعبدوه دهراً طويلاً، ثم أدركتهم مجاعة فأكلوه.

وقد قيل: إن أول من غيّر الحنيفية عمرو بن لحي أبو خزاعة، وهو أنه رحل إلى الشام فرأى العماليق يعبدون الأصنام، فأعجبه ذلك، فقال: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدونها؟ قالوا: هذه أصنام نستمطرها فتمطرنا،

(١) سورة المائدة، الآية (٩٠).
(٢) سورة النحل، الآية (٥٨).
(٣) سورة الإسراء، الآية (٣١).
(٤) سورة المائدة، الآية (٣٢).

(١) العجب: الخيلاء والكِبْر.
(٢) الحيس: طعام من سمن وتمر.

ونستنصرها فتنصرنا. فقال: أعطوني منها صنماً أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه فأعطوه صنماً يقال له هبل، فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

وقيل: إن أول ما كانت عبادة الأحجار في بني إسماعيل، وسبب ذلك أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حتى ضاقت عليهم وتفرقوا في البلاد، وما من أحد إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، وأفضى ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحسنوه من الحجارة، ثم خلفت الخلوف ونسوا ما كانوا عليه من دين إسماعيل، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلال. وكانت قريش قد اتخذت صنماً على بئر في جوف الكعبة يقال له هُبل، وأيضاً اتخذوا أسافاً ونائلة على موضع زمزم فينحرون عندها ويطعمون. وكان أساف ونائلة رجلاً وامرأة، فوقع أساف على نائلة في الكعبة فمسخهما الله حجرين.

واتخذ أهل كل دار في دراهم صنماً يعبدونه فإذا أراد الرجل سفراً تمسح به حين يركب، وكان ذلك آخر ما يصنع إذا توجه إلى سفره. وإذا قدم من سفره بدأ به قبل أن يدخل إلى أهله.

واتخذت العرب الأصنام وانهمكوا على عبادتها وكانت لقريش وبني كنانة العزى، وكان حجابها بني شيبة. وكانت اللات لثقيف بالطائف، وكان حجابها بني مغيث من ثقيف. وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم.

وأما يغوث ويعوق ونسر، فقيل إنهم كانوا أسماء أولاد آدم عليه الصلاة والسلام وكانوا أتقياء عباداً فمات أحدهم فحزنوا عليه حزناً شديداً، فجاءهم الشيطان وحسن لهم أن يصوروا صورته في قبلة مسجدهم ليذكروه إذا نظروه، فكرهوا ذلك، فقال: اجعلوه في مؤخر المسجد، ففعلوا وصوروه من صفر ورصاص. ثم مات آخر، ففعلوا ذلك إلى أن ماتوا كلهم، فصورهم هناك، وأقام من بعدهم على ذلك إلى أن تركوا الدين وحسن لهم الشيطان عبادة شيء غير الله، فقالوا له: من نعبد؟ قال: آلهتكم المصورة في مصلاكم فعبدوها إلى أن بعث الله نوحاً عليه الصلاة والسلام، فنهاهم عن عبادتها، فقالوا: كما أخبر الله عنهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾[1] الآية.

ولما عم الطوفان الأرض طمها وعلا عليها التراب زماناً طويلاً، فأخرجها الشيطان لمشركي العرب فعبدوها.

وذكر الواحدي في الوسيط أن هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح عليهما الصلاة والسلام، فسول الشيطان لقومهم بعد موتهم أن يصوروا صورهم ليكون أنشط وأشوق للعبادة كلما رأوهم ففعلوا، ثم نشأ بعدهم قوم جهال بالأحوال فحسن لهم عبادتها. وأن من سبقهم من قومهم عبدوها فسموها بأسمائهم. وقال الواقدي: كان ود على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر، والله تعالى أعلم أي ذلك كان.

ذكر أوابدهم:

الرتم: شجر معروف كانت العرب إذا خرج أحدهم إلى سفر عمد إلى شجرة منه فيعقد غصناً منها، فإذا عاد من سفره ووجده قد انحل قال: قد خانتني امرأتي، وإن وجده على حالته قال: لم تخني.

الرثيمة: ناقة كانت العرب إذا مات واحد منهم عقلوا ناقته عند قبره وسدوا عينيها حتى تموت. يزعمون أنه إذا بعث من قبره ركبها.

التعمية والتفقئة: كان الرجل إذا بلغت إبله ألفاً قلع عين الفحل. يقولون إن ذلك يدفع عنها العين، فإذا ازدادت على الألف فقأ عينه الأخرى.

العرداء: يصيب الإبل شبه الجرب، كانوا يكوون السليمة ويزعمون أن ذلك يبرىء داء العر.

ضرب الثور عن البقر، كانت البقر إذا امتنعت عن الشرب ضربوا الثور، يزعمون أن الجن يركبون الثيران فيصدون البقر عن الشرب.

الهامة: كانوا يزعمون أن الإنسان إذا قتل ولم يؤخذ بثأره يخرج من رأسه طائر يسمى الهامة وهو كالبومة، فلا يزال يصيح على قبره: «اسقوني» إلى أن يؤخذ بثأره.

وكان للعرب مذاهب في الجاهلية في النفس وتنازع في كيفياتها، فمنهم من زعم أن النفس هي الدم وأن الروح الهواء الذي في باطن جسم الإنسان الذي منه نفسه. وقالوا: إن الميت لا يوجد فيه الدم وإنما يوجد في الحياة مع الحرارة والرطوبة، لأن كل حي فيه حرارة ورطوبة، فإذا مات ذهبت حرارته وحل به اليبس والبرودة. وطائفة منهم يزعمون أن النفس طائر ينشط من جسم الإنسان إذا مات أو قتل، ولا يزال متصوراً في صورة الطائر يصرخ

---

(١) سورة نوح، الآية (٢٣).

على قبره مستوحشاً له وفي ذلك يقول بعضهم:

سُلِّطَ الموتُ والمنونُ عليهم
فلهم في صدى المقابر هامُ

ثم جاء الإسلام، والعرب ترى صحة أمر الهام، حتى قال النبي ﷺ «لا عدوى ولا طيرة ولا صفر ولا هام». وزعموا أن هذا الطائر يكون صغيراً ويكبر حتى يصير كضرب من البوم ويتوحش ويصرخ، ويوجد في الديار المعطلة والنواويس ومصارع القتلى، ويزعمون أن الهامة لا تزال عند ولد الميت لتعلم ما يكون من خبره فتخبر الميت. والصفر زعموا أن الإنسان إذا جاع عض على شرسرفه الصفر وهي حية تكون في البطن. تثنية الضربة: زعموا أن الحية تموت في أول ضربة، فإذا ثنيت عاشت.

الغيلان والتغول للعرب:

في الغيلان والتغول أخبار وأقاويل، يزعمون أن الغول يتغول لهم في الخلوات في أنواع الصور فيخاطبونها وتخاطبهم، وزعمت طائفة من الناس أن الغول حيوان مشؤوم وأنه خرج منفرداً لم يستأنس وتوحش، وطلب القفار، وهو يشبه الإنسان والبهيمة ويتراءى لبعض السفار[1] في أوقات الخلوات وفي الليل.

وحكي أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رآه في سفره إلى الشام فضربه بالسيف. **وقال الجاحظ**: الغول كل شيء يتعرض للسيارة ويتلون في ضروب من الصور والثياب وفيه خلاف، وقالوا: إنه ذكر وأنثى إلا أن أكثر كلامهم أنه أنثى. **وأما القطرب في قولهم**، فهو نوع من الأشخاص المتشيطنة يعرف بهذا الاسم فيظهر في أكناف اليمن وصعيد مصر في أعاليه، وربما أنه يلحق الإنسان فينكحه، فيدود دبره فيموت. وربما نزا على الإنسان وأمسكه فيقول أهل تلك النواحي التي ذكرناها: أمنكوح هو أو مذعور؟ فإن كان قد نكحه أيسوا منه، وإن كان قد ذعر سكن روعه وشجع قلبه، وإذا رآه الإنسان وقع مغشياً عليه، ومنهم من يظهر له فلا يكترث به لشهامته وثبات قلبه[2].

ذكر الهواتف:

أما الهواتف: فقد كانت كثرت في العرب وكان أكثرها أيام ولد سيدنا رسول الله ﷺ وإن من حكم الهواتف أن تهتف بصوت مسموع وجسم غير مرئي.

ومن عجيب ما حكي من أمر الهواتف:

ما حكاه أبو عمرو بن العلاء قال: خرجنا حجاجاً، فصاحبنا رجل وجعل يقول في طريقه:

ليت شعري هل بغث علي. فلما انصرفنا من مكة قالها في بعض الطريق، فأجابه صوت في الظلام: نعم نعم مع حجية. وهو رجل أحمر ضخم في قفاه كية. فسكت الرجل، فلما سرنا إلى البصرة أخبرنا ذلك الرجل قال: دخل جيراني يسلمون عليّ فإذا فيهم رجل أحمر ضخم في قفاه كية، فقلت لأهلي من هذا؟ قالت: رجل كان ألطف جيراننا بنا، فجزاه الله خيراً، فسألتها عن اسمه، فقالت حجية، فقلت: إلحقي بأهلك.

وأما بكاء المقتول، فكانت النساء لا يبكين المقتول حتى يؤخذ بثأره فإذا أخذ بثأره بكينه.

وأما رمي السن، فكانوا يزعمون أن الغلام إذا ثغر، فرمى سنه في عين الشمس بسبابته وإبهامه، وقال: أبدليني بأحسن منها، فإنه يأمن من على أسنانه العوج والفلج.

وأما خضاب النحر، فكانوا إذا أرسلوا الخيل على الصيد، فسبق واحد منها خضبوا صدره بدم الصيد علامة.

وأما نصب الراية: فكانت العرب تنصب الرايات على أبواب بيوتها لتعرف بها.

وأما جز النواصي[1]: فكانوا إذا أسروا رجلاً ومنُّوا عليه، وأطلقوه جزوا ناصيته.

وأما الالتفات: فكانوا يزعمون أن من خرج في سفر والتفت وراءه لم يتم سفره، فإن التفت تطيروا له.

وكانوا يقولون: من علق عليه كعب الأرنب لم تصبه عين ولا سحر، وذلك أن الجن تهرب من الأرانب لأنها تحيض وليست من مطايا الجن.

ويزعمون أن المرأة إذا أحبت رجلاً وأحبها ثم لم يشق عليها رداءه وتشق عليه برقعها فسد حبهما.

ويزعمون أن الرجل إذا قدم قرية، فخاف وباءها، فوقف على بابها قبل أن يدخلها ونهق كما تنهق الحمير لم يصبه وباؤها.

ويزعمون أن الحرقوص وهو دويبة أكبر من البرغوث تدخل في فروج الأبكار فتفتضهن.

---

(١) السفار: المسافرين.

(٢) قلت: لعله نوع من القرود أو مجنون تعرض لقوم فازدادت تفاصيل الرواية عند انتقالها من فم لفم كعادة الناس في تناقل الأخبار.

(١) النواصي: ج ناصية وهي شعر مقدم الرأس.

ويزعمون أن الرجل إذا ضل، فقلب ثيابه اهتدى.

وكانوا يزعمون أن الناقة إذا نفرت وذكر اسم أمها فإنها تسكن.

وكانت لهم خرزة يزعمون أن العاشق إذا حكها وشرب ما يخرج منها صبر وتسمى السلوان. ونكاح المقت من سنتهم وهو أن الرجل إذا مات قام ولده الأكبر فألقى ثوبه على امرأة أبيه فورث نكاحها، فإن لم يكن له بها حاجة زوجها لبعض أخوته بمهر جديد، فكانوا يرثون المال[1]. ولهم حكايات عجيبة وأحوال غريبة، والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الستون

في الكهانة والقيافة والزجر والعرافة والفأل والطيرة والفراسة والنوم والرؤية وما أشبه ذلك

أما الكهانة:

فكانت فاشية في الجاهلية حتى جاء الإسلام، فلم يسمع فيه بكاهن، وكان ذلك من معجزات النبوة وآياتها وللكهنة أخبار.

فمنهم: سطيح، وَرَدَ عليه عبد المسيح وهو يعالج الموت وأخبره على ما يزعمون بما جاء لأجله، وذلك أن الموبذان رأى إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها، فلما أصبح أعلم كسرى بذلك، فتصبّر كسرى تشجعاً، ثم رأى أن لا يكتم ذلك عن وزرائه ورؤساء مملكته، فلبس تاجه وقعد على سريره وجمع وزراءه ورؤساء مملكته فأخبرهم بالخبر، فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النيران وارتجاس الإيوان فازدادوا غماً على غمهم، فكتب كسرى كتاباً إلى النعمان بن المنذر: أما بعد: فوجه إليّ رجلاً عالماً بما أريد أن أسأله عنه. فوجه إليه عبد المسيح الغساني، فقال له كسرى أعندك علم بما أريد أن أسألك عنه؟ قال: ليخبرني الملك فإن كان عندي علم منه وإلا أخبرته بمن يعلمه به، فأخبره بما رآه الموبذان، فقال: علم ذلك عند كاهن يسكن مشارف الشام يقال له سطيح. قال: فأته فاسأله عما سألتك وائتني بالجواب، فركب عبد المسيح وتوجه إلى سطيح فوجده قد أشرف على الضريح، فسلم عليه وحياه ولم يخبر عبد المسيح بما جاء بسببه غير أنه أنشده شعراً يذكر فيه أنه جاء برسالة من قبل ملك العجم ولم يذكر له السبب فرفع رأسه، وقال: عبد المسيح على جمل يسيح إلى سطيح، بعثك ملك بني ساسان لارتجاس الإيوان وخمود النيران ورؤيا الموبذان، رأى إبلا صعاباً تقود خيلاً عراباً قطعت الدجلة وانتشرت في بلادها، يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة وفاض وادي سماوة وغاضت بحيرة ساوة وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شاماً ولا العجم لعبد المسيح مقاماً، يرتفع أمر العرب وأظن أن وقت ولادة محمد قد اقترب، يملك منهم ملوكاً وملكات بعدد الشرافات وكل ما هو آتٍ آت. ثم قضى سطيح مكانه، فثار عبد المسيح إلى راحلته وعاد فأخبر كسرى بذلك.

وحكي.. أن ربيعة بن مضر اللخمي رأى مناماً هاله فأراد تفسيره فقال له أهل مملكته: ما يفسره لك إلاّ شق وسطيح فأحضرهما، وقال لسطيح إني رأيت مناماً هالني فإن عرفته فقد أصبت تفسيره، فقال: رأيت جمجمة خرجت من ظلمة فوقعت بأرض نهمة فأكل منها كل ذات جمجمة، فقال له الملك: ما أخطأت شيئاً، ما تفسيره، قال: ليهبطن بأرضك الحبش وتملك ما بين أبين إلى جرش، فقال الملك: إن هذا لغائظ موجع فمتى هو كائن أفي زماني أم بعده؟ قال: بل بعده بحين أكثر من ستين أو سبعين تمضي من السنين ثم يقتتلون بها أجمعين ويخرجون منها هاربين، قال: ومن ذا الذي يملك بعدهم؟ قال: أراه ذا يزن يخرج عليهم من عدن فما يترك منهم أحداً باليمن. قال الملك: فيدوم ذلك أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع قال: ومن يقطعه؟ قال: نبي زكي يأتيه الوحي من العلي، قال: وممن يكون هذا النبي؟ قال: من ولد عدنان بن فهر بن مالك بن النضر يكون في قومه الملك إلى آخر الدهر. قال: وهل للدهر من آخر؟ قال: نعم، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ويسعد فيه المحسنون ويشقى المسيئون. قال: أو حق ما تخبر؟ قال: والشفق والقمر إذا اتسق أن ما أنبأتك به لحق. ثم دعا بشق فقال مثل ما قال سطيح.

ومن ذلك ما حكي أن أمية بن عبد شمس دعا هاشم بن

(١) قوله: «يزعمون» في هذه الأخبار يعني أنه يذكرها كأخبار فقط ولا وجه لها من الصحة.

عبد مناف إلى المفاخرة، فقال له هاشم: أفاخرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة، فرضي أمية بذلك وجعل بينهما الخزاعي الكاهن حكماً، فخبأوا له شيئاً وخرجا إليه ومعهما جماعة من قومهما فقالوا: قد خبأنا لك خبياً فإن علمته تحاكمنا إليك، وإن لم تعلمه تحاكمنا إلى غيرك. فقال لقد خبأتم لي كيت وكيت، قالوا: صدقت أحكم بين هاشم بن عبد مناف وبين أمية بن عبد شمس أيهما أشرف بيتاً ونسباً، فقال: والقمر الباهر والكوكب الزاهر والغمام الماطر وما بالجو طائر وما اهتدى بعلم مسافر لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر ولأمية أواخر، فأخذ هاشم الإبل ونحرها وأطعمها من حضر وخرج أمية إلى الشام وأقام بها عشر سنين، ويقال إنها أول عداوة وقعت بين بني هاشم وبني أمية.

وحكي.. أن هند بنت عتبة بن ربيعة كانت تحت الفاكه بن المغيرة[1] وكان الفاكه من فتيان قريش وكان له بيت ضيافة خارجاً عن البيوت تغشاه الناس من غير إذن، فخلا البيت ذات يوم واضطجع فيه هو وهند، ثم نهض لحاجة فأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولجه، فلما رأى هنداً رجع هارباً، فلما نظره الفاكه دخل عليها فضربها برجله وقال لها: من هذا الذي خرج من عندك؟ قالت: ما رأيت أحداً قط وما انتبهت حتى أنبهتني، قال: فارجعي إلى بيت أبيك وتكلم الناس فيها فقال أبوها: يا بنية إن الناس قد أكثروا فيك الكلام فإن يكن الرجل صادقاً دسّيت عليه من يقتله لينقطع كلام الناس، وإن يك كاذباً حاكمته إلى بعض كهان اليمن. فقالت له: لا والله ما هو علي بصادق.

فقال له: يا فاكه إنك قد رميت ابنتي بأمر عظيم فحاكمني إلى بعض كهان اليمن، فخرج الفاكه في جماعة من بني مخزوم وخرج أبوها في جماعة من بني عبد مناف ومعهم هند ونسوة، فلما شارفوا البلاد قالوا: غداً نرد على هذا الرجل فتغيرت حالة هند فقال لها أبوها: إني أرى حالك قد تغير وما هذا إلا لمكروه عندك، فقالت: لا والله، ولكن أعرف أنكم تأتون بشراً يخطىء ويصيب ولا آمنه أن يسمني[2] بسيما تكون علي سبّة[3]. فقال لها:

(١) كانت تحته أي كان زوجها.

(٢) السمة: العلامة، والوسم هو أن تحمي الحديدة في النار ثم تكوي بها الدابة أما هنا فيسمها أي يحكم عليها بحكم أخطأ فيه فيصير حكمه عاراً تحمله.

(٣) السبة: العار وما يسب المرء لأجله ويعيّر به.

لا تخشي فسوف أختبره، فصفر لفرسه حتى أدلى ثم أدخل في إحليله حبة حنطة وربطه فلما أصبحوا قدموا على الرجل فأكرمهم، ونحر لهم فلما تغدوا قال له عتبة: قد جئناك في أمر وقد خبأنا لك خبيئة نختبرك بها، قال: خبأتم لي ثمرة في كمرة. قال: إني أريد أبين من هذا. قال: حبة بر في إحليل مهر، قال: فانظر في أمر هؤلاء النسوة، فجعل يأتي إلى كل واحدة منهن ويضرب بيده على كتفها ويقول لها: انهضي حتى بلغ هنداً فقال: انهضي غير رسحاء[1] ولا زانية وستلدين ملكاً اسمه معاوية، فنهض إليها الفاكه فأخذ بيدها، فجذبت يدها من يده وقالت: إليك عني فوالله إني لأحرص أن يكون ذلك من غيرك. فتزوجها أبو سفيان فولدت منه أمير المؤمنين معاوية رضي الله تعالى عنه.

وأما القيافة:

فهي على ضربين قيافة البشر وقيافة الأثر. فأما قيافة البشر فالاستدلال بصفات أعضاء الإنسان وتختص بقوم من العرب يقال لهم بنو مدلج، يعرض على أحدهم مولود في عشرين نفراً فيلحقه بأحدهم.

وحكي عن بعض أبناء التجار أنه كان في بعض أسفاره راكباً على بعيره يقوده غلام أسود فمر بهؤلاء القبيلة فنظر إليه واحد منهم وقال: ما أشبه الراكب بالقائد، قال ولد التاجر: فوقع في نفسي من ذلك شيء فلما رجعت إلى أمي ذكرت لها القصة فقالت: يا ولدي إن أباك كان شيخاً كبيراً ذا مال وليس له ولد فخشيت أن يفوتنا ما له فمكنت هذا الغلام من نفسي فحملت بك، ولولا أن هذا شيء ستعلمه غداً في الدار الآخرة لما أعلمتك به في الدنيا.

وأما قيافة الأثر فالاستدلال بالأقدام والحوافر والخفاف وقد اختص به قوم من العرب أرضهم ذات رمل إذا هرب منهم هارب أو دخل عليهم سارق تتبعوا آثار قدمه حتى يظفروا به. ومن العجب أنهم يعرفون قدم الشاب من الشيخ والمرأة من الرجل والبكر من الثيب والغريب من المستوطن. ويذكر أن في قطبة وثغر البرلس أقواماً بهذه الصفة وقد وقعت من قريش حين خرج النبي ﷺ وأبو بكر إلى الغار على صخر صلد وأحجار صم ولا طين ولا تراب تبين فيه الأقدام فحجبهم الله تعالى عن نبيه ﷺ بما كان من نسيج العنكبوت وما لحق القائف من الحيرة، وقوله: إلى ههنا انتهت الأقدام. هذا ومعهم الجماعة من قريش

(١) الرسحاء: المرأة الخفيفة العجز.

أبصارهم سليمة ولولا أن هناك لطيفة لا يتساوى الإنسان فيها يعني في علمها لما استأثر بعلم ذلك طائفة دون أخرى.

وقيل القيافة لبني مدلج في أحياء مضر. واختلف رجلان من القافة في أمر بعير وهما بين مكة ومنى فقال أحدهما: هو جمل، وقال الآخر: هي ناقة، وقصدا يتبعان الأثر حتى دخلا شعب بني عامر فإذا بعير واقف فقال أحدهما لصاحبه: أهو ذا؟ قال: نعم، فوجداه خنثى فأصابا جميعاً.

ومنهم من كان يخط الرمل في الأرض ويقول فيوافق قوله ما يأتي بعد.

وقال رجل شردت لي إبل فجئت إلى خراش فسألته عنها، فأمر بنته أن تخط لي في الأرض فخطت ثم قامت فضحك خراش ثم قال: أتدري قيامها لأي شيء؟ قلت: لا، قال: قد علمت أنك تجد إبلك وتتزوجها، فاستحيت ثم خرجت فوجدت إبلي ثم تزوجتها.

وخرج عمرو بن عبد الله بن معمر ومعه مالك بن خراش الخزاعي غازيين، فمرا بامرأة وهي تخط للناس في الأرض فضحك منها مالك هزواً وقال: ما هذا؟ فقالت: أما والله لا تخرج من سجستان حتى تموت ويتزوج عمرو هذا زوجتك فكان كما ذكرت.

وأما الزجر والعرافة:

فأحسنه ما روي أن كسرى أبرويز بعث إلى النبي ﷺ حين بعث زاجراً ومصوراً، فقال للزاجر: أنظر ما ترى في طريقك وعنده، وقال للمصور: ائتني بصورته، فلما عاد إليه أعطاه المصور صورته ﷺ فوضعها كسرى على وسادته ثم قال للزاجر: ماذا رأيت؟ قال: ما رأيت ما أزجر به إلا أنه سيعلوا أمره عليك لأنك وضعت صورته على وسادتك.

وبعث صاحب الروم إلى النبي ﷺ رسولاً وقال له: أنظر إليه ومل إلى جانبه وأنظر إلى ما بين كتفيه حتى ترى الخاتم والشامة، فقدم الرسول فرأى النبي ﷺ على نشز عال واضعاً قدميه في الماء وعن يمينه علي رضي الله عنه فلما رآه رسول الله ﷺ قال له: تحول فانظر ما أمرت به، فنظر الرسول فلما رجع إلى صاحبه أخبره الخبر، فقال: ليعلون أمره وليملكن ما تحت قدمي، فتفاءل بالنشز العلو وبالماء الحياة.

وقال المدايني وقع الطاعون بمصر في ولاية عبد العزيز بن مروان، حين أتاها، فخرج هارباً ونزل بقرية من قرى الصعيد، فقدم عليه حين نزلها رسول لعبد الملك بن مروان فقال للرسول: ما اسمك؟ قال: طالب بن مدرك، فقال: أواه ما أظن أني أرجع إلى الفسطاط. فمات ولم يرجع.

وكانت نائلة بنت عمار الكلبي تحت معاوية فقال لفاختة بنت قرظة: اذهبي فانظري إليها، فذهبت ونظرت فقالت: ما رأيت مثلها ولكني رأيت تحت سرتها خالاً ليوضعن معه رأس زوجها في حجرها فطلقها معاوية، وتزوجها بعده رجلان حبيب ابن مسلمة والنعمان بن بشير فقتل أحدهما ووضع رأسه في حجرها.

وبينما مروان بن محمد جالس في إيوانه يتفقد الأمور إذ تصدعت زجاجة من الإيوان فوقعت منها الشمس على منكب مروان، وكان هناك عراف وقيل قياف، فقام فتبعه ثوبان مولى مروان فسأله فقال: صدع الزجاج صدع السلطان ستذهب الشمس بملك مروان بقوم من الترك أو خراسان ذلك عندي واضح البرهان، فما مضى غير شهرين حتى مضى ملك مروان.

وروي المدايني أن علياً رضي الله عنه بعث معقلاً، في ثلاثة آلاف ليقيم بالرقة وذلك في وقعة صفين، فسار حتى نزل الحديبية فبينما هو ذات يوم جالساً إذ نظر إلى كبشين ينتطحان فجاء رجلان فأخذ كل واحد منهما كبشاً فذهب به، فقال شداد بن أبي ربيعة الخثعمي الزاجر: إنكم لتصرفون من موجهكم هذا لا تغلبون ولا تغلبون أما ترى الكبشين كيف انتطحا حتى حجز بينهما فتفرقا ولا فضل لأحدهما على الآخر.

وحكي: أن الاسكندر ملك بعض البلاد فدخل فيها فوجد امرأة تنسج ثوباً فلما رأته قالت له: أيها الملك قد أعطيت ملكاً ذا طول وعرض ثم دخل عليها بعد ذلك فقالت: ستعزل من الملك، قال: فغضب عند ذلك فقالت له: لا تغضب فإنك في المرة الأولى دخلت علي والشقة بيدي أدير طولها وعرضها، ودخلت علي الآن والشقة في يدي أريد قطعها لأني قد فرغت من نسجها فلا تغضب فإن النفوس تعلم أشياء بعلامات. قال الراوي: فكان كذلك.

وحكي: أن سيف بن ذي يزن لما استنجد كسرى على قتال الحبشة بعث إليه بجيش عظيم، فخرج إليهم ملك الحبشة وهو مسروق بن أبرهة في مائة ألف من الحبشة، وكان بين عينيه ياقوتة حمراء بعلاقة من الذهب على تاجه تضيء كالنور وهو على فيل عظيم، قال: وكان في عسكر ذي يزن رجل يقال له زهير فتأمل ذلك منه ثم قال لأميره

اصبر لتنظر ما يكون من أمره، فقال فتحول مسروق من الفيل إلى جمل فقال: أصبر، فتحول بعد ذلك إلى فرس ثم إلى بغل ثم إلى حمار وكأنه أنف من مقاتلتهم على شيء من ذلك إلا على حمار لما أنه استصغرهم وأستحقرهم، وتفرس ذلك الرجل فيه من الانتقال من أعلى إلى أدنى وقال: إحملوا عليهم فإن ملكهم قد ذهب فإنه انتقل من كبير إلى صغير فحملوا عليهم فكسروهم وقتل الملك.

وحكي: أنه كان عراف من الطرقيين ببغداد يخبر بما يسأل عنه فلم يخطىء فسأله رجل عن شخص محبوس هل ينطلق، قال: نعم ويخلع عليه. قال: فقلت له: بأي شيء عرفت ذلك؟ فقال: إنك لما سألتني التفت يميناً وشمالاً فوجدت رجلاً على ظهره قربة ماء ففرغها ثم حملها على كتفه فأولت الماء بالمحبوس وتفريغه بالانطلاق، ووضعها على كتفه بالخلعة، قال: وكان الأمر كذلك.

وأما الفأل:

فقد روي أن النبي ﷺ كان يحب الفأل الصالح والاسم الحسن. وروي أنه ﷺ لما نزل المدينة على كلثوم دعا غلامين له يا بشار ويا سالم فقال ﷺ لأبي بكر رضي الله تعالى عنه: أبشر يا أبا بكر فقد سلمت لنا الدار.

وقال الأصمعي: سألت ابن عون عن الفأل فقال: هو أن يكون مريض فيسمع يا سالم أو طالب حاجة فيسمع يا واجد وما أشبه ذلك.

وأما الطيرة:

فقد كان ﷺ يحب الفأل ويكره الطيرة. وقيل: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: من عرض له من هذه الطيرة شيء، فليقل اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وعنه ﷺ أنه قال: ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما (رفعه): من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: من أتى كاهناً فصدقه فيما يقول أو أتى امرأته حائضاً في دبرها فقد بريء مما نزل على محمد ﷺ.

وأنشد المبرد هذه الأبيات يقول:

(١) الشعبة من الشيء: جزء منه أو ناحية من نواحيه.

لا يعلم المرء ليلاً ما يصبّحه
إلا كواذب ما يجري به الفالُ
والفال والزجر والكهان كلُّهم
مضللون ودون الغيب أقفالُ

وقال لبيد:

لعمري ما تدري الطوارق بالحصى
ولا زاجرات الطير ما الله صانعُ

وقال آخر

تعلّم أنّه لا طير إلاّ
على متطير وهو الثبور
بلى شيء يوافق بعض شيء
أحايينا وباطله كثير[1]

وكانت العرب تتطير بأشياء كثيرة منها العطاس. وسبب تطيرهم منه أن دابة يقال لها العاطوس كانوا يكرهونها وكانوا إذا أرادوا سفر خرجوا من الغلس والطير في أوكارها على الشجر فيطيرونها، فإن أخذت يميناً أخذوا يميناً وإن أخذت شمالاً أخذوا شمالاً[2]. ومنه قول امرىء القيس:

وقد اغتدي والطير في وكناتها
بمنجردٍ قيدِ الأوابد هيكلِ
مكر مفر مقبلٍ مدبرٍ معاً
كجلمود صخرٍ حطّه السيل من عَلِ

والعرب أعظم ما يتطيرون منه الغراب، فالقول فيه أكثر من أن يطلب عليه شاهد ويسمونه حاتماً لأنه يحتم عندهم بالفراق، ويسمونه الأعور على جهة التطير بصراً، وفيه يقول بعضهم:

إذا ما غراب البين صاح فقل له
ترفّق رماك الله يا طيرُ بالبعدِ
لأنتَ على العشّاق أقبح منظرٍ
وأبشع في الأبصار من رؤية اللّحد
تصيح ببينٍ ثم تعثر ماشياً
وتبرز في ثوبٍ من الحزن مسودّ

(١) أي إن أصاب الكاهن أو المتطير بشيء فإنما الأمر صدفة وليس معرفة منه.

(٢) الصحيح: أنهم كانوا إذا أخذت جهة اليمن تيامنوا وتفاءلوا وإن طارت لجهة الشام تشاءموا وتطيروا ورجعوا ولم يسافروا.

متى صحت صحّ البين وانقطع الرجا
كأنك من يوم الفراق على وعد

وأعرض بعضهم عن الغراب وتطير بالإبل، وسبب ذلك لكونها تحمل أثقال من ارتحل. وفي ذلك قال بعضهم مفرداً أجاد:

زعموا بأن مطيّهم سبب النوى
والمؤذنات بفرقة الأحباب

وقالوا: من تطير من شيء وقع فيه.

وحكي عن إبراهيم بن المهدي قال: أرسل إلى محمد بن زبيدة[1] في ليلة من ليالي الصيف مقمرة يقول: يا عم إني مشتاق إليك فاحضر الآن عندنا، فجئته وقد بسط له على سطح زبيدة وعنده سليمان بن أبي جعفر وجاريته نعيم فقال لها: غنينا شيئاً فقد سررت بعمومتي فغنت وهي تقول هذه الأبيات:

همو قتلوهُ كي يكونوا مكانه
كما فعلتْ يوماً بكسرى مرازبه[2]

بني هاشمٍ كيف التواصلُ بيننا
وجند أخيه سيفه ونجائبه

قال: فغضب وتطير وقال لها ما قصتك ويحك انتبهي وغني ما يسرني. فغنت تقول:

كليبٌ لعمري كان أكثر ناصراً
وأكثر حزماً منك ضرّج بالدم

فقال لها: ويحك ما هذا الغناء في هذه الليلة غنيّ غيره فغنت تقول هذه الأبيات:

ما زال يعدو عليهم ريب دهرهم
حتى تفانوا وريب الدهر عدّاءُ

تبكي فراقهم عيني فأرّقها
إنّ التفرّق للمشتاق بكّاءُ

قال: فانتهرها وقال لها: قومي إلى لعنة الله فقالت: والله يا مولاي لم يجر على لساني غير هذا وما ظننت إلا أنك تحبه. ثم إنها قامت من بين يديه وكان بين يديه قدح بلور وكان أبوه يحبه فأصابه طرف ردائها فانكسر. قال إبراهيم بن المهدي: فالتفت إلي وقال: يا عمي أرى أن هذا آخر أمرنا، فقلت: كلا بل يبقيك الله يا أمير المؤمنين ويسرك فسمعت هاتفاً يقول: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[1]. فقال لي: أسمعت ما سمعت يا عم؟ فقلت: ما سمعت شيئاً وما هذا إلا توهم فإذا الصوت قد علا فقال: يا عم إذهب إلى بيتك فمحال أن يكون بعد هذا اجتماع. قال: فانصرفت من عنده وكان هذا آخر عهدي به.

وخرج أبو الشمقمق مع خالد بن يزيد بن مزيد وقد تقلد الموصل، فلما أراد الدخول إليها اندق لواؤه في أول درب منها فتطير لذلك فأنشده أبو الشمقمق يقول:

ما كان مندقّ اللواء لريبةٍ
تخشى ولا أمرٍ يكون مبذّلا

لكنّ هذا الرمح ضعّف متنه
صغر الولاية فاستقلّ الموصلا

فسر خالد وأمر لأبي الشمقمق بعشرة آلاف درهم.

ودخل الحجاج الكوفة متوجهاً إلى عبد الملك فصعد المنبر فانكسر تحت قدمه فعلم أنهم قد تطيروا له بذلك، فالتفت إلى الناس قبل أن يحمد الله تعالى فقال: شاهت الوجوه وتبت الأيدي وبؤتم بغضب من الله إذا انكسر عود جذع ضعيف تحت قدم أسد شديد تفاءلتم بالشؤم، وإني على أعداء الله تعالى لأنكد من الغراب الأبقع وأشأم من يوم نحس مستمر، وإني لأعجب من لوط وقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[2]، فأي ركن أشد من الله تعالى أو ما علمتم ما أنا عليه من التوجه إلى أمير المؤمنين وقد وليت عليكم أخي محمد بن يوسف وأمرته بخلاف ما أمر به رسول الله ﷺ معاذاً في أهل اليمن فإنه أمره أن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، وقد أمرته أن يسيء إلى محسنكم وأن لا يتجاوز عن مسيئكم، وأنا أعلم أنكم تقولون بعدي لا أحسن الله له الصحابة، وأنا معجل لكم الجواب لا أحسن الله عليكم الخلافة، أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم لي ولكم.

وخرج بعض ملوك الفرس إلى الصيد فأول من استقبله أعور فضربه وأمر بحبسه، ثم ذهب للصيد فاصطاد صيداً كثيراً فلمّا عاد استدعى بالأعور فأمر له بمال فقال: لا حاجة لي به ولكن الإذن لي في الكلام، فقال: تكلم، فقال: أيها الملك إنك تلقيتني فضربتني وحبستني وتلقيتك

(١) هو الخليفة محمد الأمين الذي خلعه أخاه المأمون.
(٢) المرازبة: رؤساء القوم عند الفرس.

(١) سورة يوسف، الآية (٤١).
(٢) سورة هود، الآية (٨٠).

فصدت وسلمت فأينا أشأم صباحاً على صاحبه؟ فضحك منه وأمر له بصلة.

وحكي أيضاً أن صاحب قرطبة أصابه وجع فأمر بعض جواريه أن تغنيه ليلهو عن وجهه فقالت:

هذي الليالي علمنا أنْ ستطوينا
فشمشمينا بماء المزن واسقينا

قال: فتطير من ذلك وأمرها بالانصراف ولم يقم بعد ذلك غير خمسة أيام ومات.

وحكي: أن نور الدين محموداً وهمام الدين ركبا في يوم عيد وخرجا للتفرج، فتجاولا في الكلام ثم قال محموداً: يا من درى هل نعيش إلى مثل هذا اليوم؟ فقال له همام الدين: قل هل نعيش إلى آخر هذا الشهر، فإن العام كثير. قال: فأجرى الله على منطقهما ما كان مقدراً في الأزل فمات أحدهما قبل تمام الشهر ومات الآخر قبل تمام العام.

وأما الفراسة:

فلقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾(١). وقال رسول الله ﷺ «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله». وقال علي رضي الله تعالى عنه: ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه. وقيل: أشار ابن عباس رضي الله تعالى عنهما على علي رضي الله تعالى عنه بشيء فلم يعمل به، ثم ندم فقال: يرحم الله ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق.

وحكى أبو سعيد الخراز أنه كان في الحرم فقير ليس عليه إلا ما يستر عورته فأنفت نفسي منه، فتفرس ذلك مني فقرأ ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾(٢) فندمت واستغفرت الله في قلبي فتفرس ذلك أيضاً فقرأ ﴿هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾(٣).

وحكي عن الشافعي ومحمد بن الحسن أنهما رأيا رجلاً فقال أحدهما: إنه نجار وقال الآخر: إنه حداد، فسألاه عن صنعته فقال: كنت حداداً وأنا الآن نجار.

وحكي أن شخصاً من أهل القرآن سأل بعض العلماء مسألة فقال له: إجلس فإني أشم من كلامك رائحة الكفر، فاتفق بعد ذلك أنه سافر السائل فوصل إلى القسطنطينية فدخل في دين النصرانية قال من رآه: ولقد

(١) سورة الحجر، الآية (٧٥).
(٢) سورة البقرة، الآية (٢٣٥).
(٣) سورة الشورى، الآية (٢٥).

رأيته متكئاً على دكة وبيده مروحة يروح بها عليه، فقلت: السلام عليكم يا فلان، فسلم علي وتعارفنا ثم قلت له بعد ذلك: هل القرآن باق على حاله أم لا؟ فقال: لا أذكر منه إلا آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾(١). قال: فبكيت عليه وتركته وانصرفت.

وكان الحسن بن السقاء من موالي بني سليم ولم يكن في الأرض أحزر منه، كان ينظر إلى السفينة فيحزر ما فيها فلا يخطىء وكان حزره للمكيول والموزون والمعدود سواء. كان يقول في هذه الرمانة كذا وكذا حبة وزنتها كذا وكذا ويأخذ العود الآس فيقول فيه كذا وكذا ورقة فلا يخطىء.

وقالوا: إذا رأيت الرجل يخرج بالغداة ويقول لشيء ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾(٢) فاعلم أن في جواره وليمة ولم يدع إليها، وإذا رأيت قوماً يخرجون من عند قاض وهم يقولون ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾(٣)، فاعلم أن شهادتهم لم تقبل.

وإذا قيل للمتزوج صبيحة البناء على أهله: كيف ما تقدمت عليه؟ فقال: الصلاح خير من كل شيء، فاعلم أن امرأته قبيحة، وإذا رأيت إنساناً يمشي ويلتفت، فاعلم أنه يريد أن يحدث. وإذا رأيت فقيراً يعدو ويهرول فاعلم أنه في حاجة غني. وإذا رأيت رجلاً خارجاً من عند الوالي وهو يقول ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾(٤) فاعلم أنه صفع.

ويقال: عين المرء عنوان قلبه. وكانوا يقولون عظم الجبين يدل على البله، وعرضه يدل على قلة العقل وصغره يدل على لطف الحركة، وإذا وقع الحاجب على العين دل على الحسد، والعين المتوسطة في حجمها دليل الفطنة، وحسن الخلق والمروءة، والتي يطول تحديقها يدل على السمع، والإذن الكبيرة المنتصبة تدل على حمق وهذيان، وكانت الفرس تقول إذا فشا الموت في الوحوش دل علي ضيقة، وإذا فشا في الفأر دل على الخصب، وإذا نعق غراب فجاوبته دجاجة عمر الخراب، وإذا قوقت دجاجة فجاوبها غراب خرب العمار. والله أعلم بكل شيء عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً أو عنده مفاتح الغيب

(١) سورة الحجر، الآية (٢).
(٢) سورة القصص، الآية (٦٠).
(٣) سورة يوسف، الآية (٨١).
(٤) سورة الفتح، الآية (١٠).

لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين.

وأما النوم والسهر وما جاء فيهما:

فقد روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن الرسول الله ﷺ أنه قال: «**أشراف أمتي حملة القرآن وأصحاب الليل**».

وروي أن أم سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام قالت: يا بني لا تكثر النوم بالليل فإن صاحب النوم يجيء يوم القيامة مفلساً، وكان زمعة بن صالح ليلاً طويلاً فإذا أسحر نادى أهله:

يا أيها الركب المعرّسونا
أكلّ هذا الليل ترقدونا[١]

فيتواثبون بين باك وداع ومتضرع فإذا أصبح نادى: عند الصباح يحمد القوم السرى.

(وأنشدوا):

يا أيها الراقد كم ترقدُ
قم يا حبيبي قد دنا الموعدُ
وخذ من الليل وساعاته
حظاً إذا ما هجع الرقدُ
من نام حتى ينقضي ليله
لم يبلغ المنزل أو يجهد
قل لذوي الألباب أهل التقى
قنطرة الحشر لكم موعد

وقيل: أن نومة الضحى تورث الغم والخوف، ونومة العصر تورث الجنون.

وأنشد بعضهم:

ألا إن نومات الضحى تورث الفتى
غموماً ونومات العصير جنون

وعن العباس بن عبد المطلب أنه مرّ يوماً بابنه وهو نائم نومة الضحى فوكزه برجله وقال له: قم لا أنام الله عينك أتنام في ساعة يقسم الله تعالى فيها الرزق بين العباد؟ أو ما سمعت ما قالت العرب أنها مكسلة مهزلة منسية للحاجة. والنوم على ثلاثة أنواع: نومة الخرق ونومة الخلق ونومة الحمق، فنومة الخرق نومة الضحى ونومة الخلق هي التي أمر النبي ﷺ بها أمته فقال: قيلوا فإن الشياطين لا تقيل[١]، ونومة الحمق النومة بعد العصر لا ينامها إلا سكران أو مجنون. وكان هشام بن عبد الملك يقول لولده: لا تصطبح بالنوم فإنه شؤم ونكد.

وقال الثوري لطبيب: دلني على شيء إذا أردت النوم جاءني، فقال: ادهن رأسك وأكثر من ذلك واتق الله. وكان طاوس يقول: لأن تختلف السياط على ظهري أحب إليّ من أن أنام يوم الجمعة، والإمام يخطب. وكان شداد بن أوس يتلوى على فراشه كالحبة على المقلى ويقول: اللهم إن النار منعتني النوم.

وأنشدوا في المعنى:

غيرت موضع مرقدي
يوماً ففارقني السكونُ
قل لي فأوّل ليلتي
في حفرتي أنى أكونُ

وأنشد أبو دلف:

أمالكتي رذّي علىّ رقاديا
ونومي فقد شرّدْتِهِ عن وساديا
أما تتقين الله في قتل عاشقٍ
أمتّ الكرى عنه فأحيا اللياليا

وأنشد أبو غانم الثقفي:

رقدت رقاد الهيم حتى لو انني
يكون رقادي مغنماً لغنيت[٢]

فقيل: لمن هذا؟ فقال: لرقاد من رقاد العرب. **وقيل:** إن نوم عبود يضرب به المثل، وكان عبود هذا عبداً أسود قيل إنه نام اسبوعاً وقيل إنه تماوت على أهله وقال اندبوني لأعلم كيف تندبوني إذا أنا مت فسجي ونام وندب فإذا هو قد مات.

وأما الرؤيا:

فقد قيل فيها أقاويل وهو أنهم قالوا: إن النوم هو اجتماع الدم وانحداره إلى الكبد، ومنهم من رأى أن ذلك هو سكون النفس وهدوء الروح. **ومنهم** من زعم أن ما يجده الإنسان في نومه من الخواطر إنما هو من الأطعمة والأغذية والطبائع. **وذهب جمهور الأطباء** إلى أن الأحلام

---

(٥) المعرسون: النازلون للراحة والنوم أثناء السفر.

(١) قيلوا، وتقيل من القيلولة، وهي الاستلقاء أو النوم عند الهجير وشدة الحر.

(٢) الهيم: الإبل التي أصابها داء الهيام فهي تشرب ولا ترتوي، وتنتفخ بطونها من الماء وهي تطلب المزيد.

من الأخلاط وأن ذلك بقدر مزاج كل واحد منها وقوته، فالذي يغلب عليه الصفراء يرى بحوراً وعيوناً ومياهاً كثيرة ويرى أنه يسبح ويصيد سمكاً، ومن غلبت على مزاجه السوداء رأى في منامه أجداثاً وأمواتاً مكفنين بسواد وبكاء وأشياء مفزعة، ومن غلب على مزاجه الدم رأى الخمر والرياحين وأنواع الملاهي والثياب المصبغة.

والذي يقع عليه التحقيق أن الرؤيا الصالحة كما قد جاء جزء من ستين جزء من النبوة، وكان النبي ﷺ أول ما بدىء به من الوحي الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. والرؤيا على ضربين فمنهم من يرى رؤيا فتجيء على حالها لا تزيد ولا تنقص، ومنهم من يرى الرؤيا في صورة مثل ضرب له.

فمن ذلك ما حكي:

أن النبي ﷺ رأى في الجنة غرفاً فقال: لمن هذه؟ فقيل لأبي جهل بن هشام فقال: ما لأبي جهل والجنة والله لا يدخلها أبداً. قال: فأتاه عكرمة ولده مسلماً، فتأولها به وكذلك تأول في قتل الحسين لما رأى أن كلباً أبقع[1] يلغ في دمه، وكان ذلك بعد رؤياه عليه الصلاة والسلام بخمسين عاماً.

وكذلك حين قال لأبي بكر رضي الله تعالى عنه: «إني رأيت كأني رقيت أنا وأنت درجاً في الجنة فسبقتك بدرجتين ونصف، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله أقبض بعدك بسنتين ونصف.

ورأت عائشة رضي الله تعالى عنها سقوط ثلاثة أقمار في حجرتها فأولها أبوها بموته وموت النبي ﷺ وموت عمر رضي الله تعالى عنهما ودفنهم في حجرتها فكان الأمر كذلك.

وحكي: أن أم الشافعي رضي الله تعالى عنه لما حملت به رأت كأن المشتري خرج من فرجها وانقض بمصر ثم تفرق في كل بلد قطعة، فأول بعالم يكون بمصر وينتشر علمه بأكثر البلاد فكان كذلك.

وحكي أيضاً: أن عاملاً أتى عمر رضي الله تعالى عنه فقال: رأيت الشمس والقمر اقتتلا، فقال له عمر: مع من كنت؟ قال: مع القمر، فقال: مع الآية الممحوة والله لا وليت لي عملاً فعزله. ثم اتفق أن علياً رضي الله تعالى عنه وقع بينه وبين معاوية ما وقع فكان ذلك الرجل مع معاوية.

وأما من مهر في تعبير الرؤيا فهو ابن سيرين. جاءه رجل فقال له: رأيت كأني أسقي شجرة زيتون زيتاً، فاستوى جالساً فقال: ما التي تحتك؟ قال: علجة اشتريتها، وفي رواية جارية، وأنا أطأها فقال: أخاف أن تكون أمك فكشف عنها فوجدها أمه.

وجاءه رجل فقال: رأيت كأن في يدي خاتماً أختم به فروج النساء وأفواه الرجال، فقال له: أنت مؤذن تؤذن بالليل فتمنع الرجال والنساء من الأكل والوطء. وجاءه رجل فقال: رأيت جارة لي قد ذبحت في بيت من دارها، فقال: هي امرأة نكحت في ذلك البيت، وكانت امرأة لصديق ذلك الرجل فاغتم لذلك ثم بلغه أن الرجل قدم في تلك الليلة وجامع زوجته في ذلك البيت.

وجاءه رجل معه جراب فقال له: رأيت في النوم كأني أسد الزقاق سداً وثيقاً شديداً، فقال له: أنت رأيت هذا؟ قال: نعم، فقال لمن حضره: ينبغي أن يكون هذا الرجل يخنق الصبيان وربما تكون في جرابه آلة الخنق، فوثبوا عليه وفتشوا الجراب فوجدوا فيه أوتاراً وحلقاً فسلموه إلى السلطان.

وجاءته امرأة وهو يتغدى فقالت له: رأيت في النوم كأن القمر دخل في الثريا، ونادى مناد من فوق أن ائتِ ابن سيرين فقصي عليه، فتقلصت يده وقال: ويلك كيف رأيتِ هذا؟ فأعادت عليه فقال لأخته: هذه تزعم أني أموت لسبعة أيام وأمسك يده على فؤاده وقام يتوجع ومات بعد سبعة أيام.

وجاءه رجل فقال: رأيت كأني آخذ البيض وأقشره فآكل بياضه وألقي صفاره، فقال: إن صدق منامك فأنت نباش الموتى فكان ذلك.

وحكي: أن ابن سيرين رأى الجوزاء قد تقدمت على الثريا فجعل يوصي، وقال: يموت الحسن وأموت بعده. وهو أشرف مني فمات الحسن ومات بعده بمائة يوم.

وحكي: أن رجلاً رأى عيسى عليه السلام فقال له: يا نبي الله صلبك حق، قال: نعم، فعبره على بعضهم، فقال تكذب رؤياك بقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[1]. ولكن هو عائد على الرائي فكان كذلك.

وأتى ابنة مغيث آت في المنام فقال لها:

لك البشيرى بولد ... أشبه شيء بالأسد
إذا الرجال في كبد

---

(١) الأبقع: الذي في جلده بقع من لونين أو أكثر.

(١) سورة النساء الآية (١٥٧).

تـغـالـبـوا عـلـى بـلـد كـان لـه حـظ الأسـد

فولدت المختار بن أبي عبيد وذلك في عام الهجرة.

وقال رجل لسعيد بن المسيب: رأيت كأني بلت خلف المقام أربع مرات. قال: كذبت لست صاحب هذه الرؤيا، قال: هو عبد الملك، فقال: يلي أربعة من صلبه الخلافة.

وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه: رأيت علياً رضي الله تعالى عنه في المنام فقال لي: ناولني كتبك فناولته إياها فأخذها وبددها فأصبحت أخا كآبة، فأتيت الجعد فأخبرته فقال: سيرفع الله شأنك وينشر علمك.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: من رآني في منامه فقد رآني حقاً، فإن الشيطان لا يتمثل بي، **وجاء إلى النبي** ﷺ **فقال**: رأيت كأن رأسي قد قطع وأنا أنظر إليه فضحك رسول الله ﷺ وقال: بأي عين كنت تنظر إلى رأسك فلم يلبث رسول الله ﷺ أن توفي وأولوا رأسه بنبيه ونظره إليه باتباع سنته.

وقال رجل لعلي بن الحسين: رأيت كأني أبول في يدي، فقال: تحتك محرم فنظروا فإذا بينه وبين امرأته رضاع. **وقال أبو حنيفة** رضي الله عنه: رأيت كأني نبشت قبر رسول الله ﷺ فضممت عظامه إلى صدري فهالني ذلك فسألت ابن سيرين، فقال: ما ينبغي لأحد من أهل هذا الزمان أن يرى هذه الرؤيا، قلت: أنا رأيتها. قال: إن صدقت رؤياك لتحيين سنة نبيك ﷺ.

وقال النبي ﷺ الرؤيا الصالحة بشارة للمؤمن بما له عند الله من الكرامة في الدنيا والآخرة. **وعن ابن عمر** رضي الله عنهما قال: تضرعت إلى ربي سنة أن يريني أبي في النوم حتى رأيته وهو يمسح العرق عن جبينه، فسألته فقال: لولا رحمة الله لهلك أبوك. إنه سألني عن عقال بعير للصدقة، فسمع بذلك عمر بن عبد العزيز فصاح وضرب بيده على رأسه وقال: فعل هذا بالتقي الطاهر فكيف بالمقترف عمر بن عبد العزيز. رضي الله عنهم أجمعين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله صحبه وسلم.

الباب الحادي والستون

في الحيل والخدائع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد والتيقظ والتبصر

الحيلة من فوائد الآراء المحكمة وهي حسنة ما لم يستبح بها محظور، وقد سئل بعض الفقهاء عن الحيل في الفقه فقال: علمكم الله ذلك فإنه قال: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾[1] وكان ﷺ إذا أراد غزوة، ورّى بغيرها[2]، وكان يقول: «**الحرب خدعة**».

ولما أراد عمر رضي الله عنه قتل الهرمزان استسقى ماء فأتوه بقدح فيه ماء، فأمسكه في يده واضطرب فقال له عمر لا بأس عليك حتى تشربه، فألقى القدح من يده فأمر عمر بقتله: فقال: أولم تؤمني؟ قال: كيف أمنتك. قال: قلت لا بأس عليك حتى تشربه وقولك لا بأس عليك أمان ولم أشربه، فقال عمر: قاتلك الله أخذت مني أماناً ولم أشعر.

وقيل: كان دهاة العرب أربعة، كلهم ولدوا بالطائف: معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، والسائب بن الأقرع.

وكان يقال: الحاجة تفتح أبواب الحيل. وكان يقال: ليس العاقل الذي يحتال للأمور إذا وقع فيها، بل العاقل الذي يحتال للأمور أن لا يقع فيها. **وقال الضحاك بن مزاحم** لنصراني: لو أسلمت، فقال: ما زلت محباً للإسلام إلا أنه يمنعني منه حبي للخمر، فقال: أسلم وأشربها، فلما أسلم قال له: قد أسلمت، فإن شربتها حديناك وإن ارتددت قتلناك، فاختر لنفسك، فاختار الإسلام وحسن إسلامه، فأخذه بالحيلة.

وقيل: دليت من السماء سلسلة في أيام داود عليه الصلاة والسلام عند الصخرة التي في وسط بيت المقدس، وكان الناس يتحاكمون عندها فمن مد يده إليها وهو صادق نالها ومن كان كاذباً لم ينلها إلى أن ظهرت فيهم الخديعة، فارتفعت، وذلك أن رجلا أودع رجلاً جوهرة، فخبأها في مكانه في عكازة، ثم إن صاحبها طلبها من الذي أودعها عنده فأنكرها، فتحاكما عند السلسلة، فقال المدعي: اللهم إن كنت صادقاً فلتدن مني السلسلة، فدنت منه فمسها، فدفع المدعى عليه العكازة للمدعي وقال: اللهم إن كنت تعلم أني رددت الجوهرة إليه، فلتدن مني السلسلة، فدنت منه فمسّها، فقال الناس: قد سوت السلسلة بين الظالم والمظلوم، فارتفعت بشؤم الخديعة، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: «أن احكم بين الناس بالبينة واليمين». فبقي ذلك إلى قيام الساعة.

---

(١) سورة صَ، الآية (٤٤).

(٢) أي أظهر أنه يريد غزو مكان آخر غير المكان المقصود فعلاً.

وكان المختار بن أبي عبيدة الثقفي من دهاة ثقيف وثقيف دهاة العرب، قيل: أنه وجه إبراهيم بن الأشتر إلى حرب عبيد الله بن زياد، ثم دعا برجل من خواصه، فدفع إليه حمامة بيضاء وقال له: إن رأيت الأمر عليكم فأرسلها، ثم قال للناس: إني لأجد في محكم الكتاب، وفي اليقين والصواب أن الله ممدكم بملائكة غضاب صعاب، تأتي في صور الحمام تحت السحاب. فلما كادت الدائرة تكون على أصحابه عمد ذلك الرجل إلى الحمامة، فأرسلها، فتصايح الناس: الملائكة الملائكة وحملوا، فانتصروا وقتلوا ابن زياد.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: خرجت امرأتان ومعهما صبيان فعدا الذئب على صبي إحداهما فأكله، فاختصما في الصبي الباقي إلى داود عليه الصلاة والسلام فقال: كيف أمركما؟ فقصتا عليه القصة، فحكم به للكبرى منهما، فاختصما إلى سليمان عليه الصلاة والسلام فقال: ائتوني بسكين أشق الغلام نصفين لكل منهما نصف، فقالت الصغرى أتشقه يا نبي الله؟ قال: نعم، قالت: لا تفعل ونصيبي فيه للكبرى، فقال: خذيه، فهو ابنك، وقضى به لها[(١)].

وجاء رجل إلى سليمان بن داود عليه الصلاة والسلام، وقال: يا نبي الله إن لي جيراناً يسرقون أوزي، فلا أعرف السارق، فنادى الصلاة جامعة، ثم خطبهم وقال في خطبته: وإن أحدكم ليسرق أوز جاره، ثم يدخل المسجد والريش على رأسه، فمسح الرجل رأسه، فقال سليمان: خذوه، فهو صاحبكم.

وخطب المغيرة بن شعبة وفتى من العرب امرأة، وكان شاباً جميلاً، فأرسلت إليهما أن يحضرا عندها، فحضرا وجلست بحيث تراهما وتسمع كلامهما، فلما رأى المغيرة ذلك الشاب، وعاين جماله علم أنها تؤثره عليه، فأقبل على الفتى وقال: لقد أوتيت جمالاً، فهل عندك غير هذا؟ قال: نعم. فعدد محاسنه ثم سكت. فقال له المغيرة: كيف حسابك مع أهلك؟ قال: ما يخفى عليّ منه شيء وإني لأستدرك منه أدق من الخردل. فقال المغيرة: لكني أضع البدرة في بيتي، فينفقها أهلي على ما يريدون فلا أعلم بنفادها حتى يسألوني غيرها. فقالت المرأة: والله لهذا الشيخ الذي لا يحاسبني أحب إليّ من هذا الذي يحصي علي مثقال الذرة، فتزوجت المغيرة.

وبلغ عضد الدولة أن قوماً من الأكراد يقطعون الطريق، ويقيمون في جبال شامخة ولا يقدر عليهم، فاستدعى بعض التجار ودفع إليه بغلاً عليه صندوقان فيهما حلوى مسمومة كثيرة الطيب في ظروف فاخرة، ودنانير وافرة، وأمره أن يسير مع القافلة ويظهر أن هذه هدية لإحدى نساء الأمراء، ففعل التاجر ذلك، وسار أمام القافلة، فنزل القوم، فأخذوا الأمتعة والأموال، وانفرد أحدهم بالبغل، وصعد به الجبل، فوجد به الحلوى، فقبح على نفسه أن ينفرد بها دون أصحابه، فاستدعاهم، فأكلوا على مجاعة، فماتوا عن آخرهم، وأخذ أرباب الأموال أموالهم.

وأُتي لبعض الولاة برجلين قد اتهما بسرقة، فأقامهما بين يديه، ثم دعى بشربة ماء، فجيء له بكوز، فرماه بين يديه، فارتاع أحدهما وثبت الآخر، فقال للذي ارتاع: اذهب إلى حال سبيلك، وقال للآخر: أنت أخذت المال، وتلذذت به، وتهدده فأقر، فسئل عن ذلك، فقال: إن اللص قوي القلب، والبريء يجزع ولو تحرك عصفور لفزع منه.

وقصد رجل الحج، فاستودع إنساناً مالاً، فلما عاد طلبه منه، فجحده المستودع، فأخبر بذلك القاضي أياساً، فقال: أعَلِمَ بأنك جئتني؟ قال: لا، قال: فعد إليّ بعد يومين، ثم إن القاضي إياساً بعث إلى ذلك الرجل، فأحضره، ثم قال له: إعْلَمْ أنه قد تحصلت عندي أموال كثيرة لأيتام وغيرهم وودائع للناس وإني مسافر سفراً بعيداً وأريد أن أودعها عندك لما بلغني من دينك وتحصين منزلك، فقال: حباً وكرامة. قال: فاذهب وهيىء موضعاً للمال وقوماً يحملونه، فذهب الرجل وجاء صاحب الوديعة، فقال له القاضي إياس: امض إلى صاحبك، وقل له إدفع إليّ مالي وإلا شكوتك للقاضي أياس، فلما جاء، وقال له ذلك دفع إليه ماله واعتذر إليه، فأخذه وأتى إلى القاضي إياس وأخبره. ثم بعد ذلك أتى الرجل ومعه الحمالون لطلب الأموال التي ذكرها له القاضي، فقال له القاضي بعد أن أخذ الرجل ماله منه: بدا لي ترك السفر امض لشأنك لا أكثر الله في الناس مثلك.

ولما أراد شيرويه قتل أبيه ابرويز قال إبرويز للداخل عليه ليقتله: إني لأدلك على شيء فيه غناك لوجوب حقك عليّ. قال: وما هو؟ قال: الصندوق الفلاني فلما قتله وذهب إلى شيرويه وأخبره الخبر، فأخرج الصندوق فإذا فيه حقٌ فيه حب، ورقعة مكتوب فيها: من تناول منه حبة

(١) لأن الولد لم يكن ابن الكبرى ولذلك رضيت بشقه لتفقد الصغرى ولدها كما فقدت هي ولدها أما الصغرى فلم يطاوعها قلبها لأنه ابنها حقاً.

واحدة افتض عشرة أبكار. وكان لشيرويه غرام في الباه، فتناول منه حبة فهلك من ساعته، فكان أبرويز أول مقتول أخذ بثأره من قاتله.

ولما بايع الرشيد لأولاده الثلاثة بولاية العهد تخلف رجل مذكور من الفقهاء، فقال له الرشيد: لِمَ تخلفت؟ فقال: عاقني عائق، فقال: اقرأوا عليه كتاب البيعة، فقال يا أمير المؤمنين: هذه البيعة في عنقي إلى قيام الساعة، فلم يفهم الرشيد ما أراد، وظن أنه إلى قيام الساعة يوم الحشر، وما أراد الرجل إلا قيامه من المجلس.

وقال المغيرة بن شعبة: لم يخدعني غير غلام من بني الحرث بن كعب، فإني ذكرت امرأة منهم لأتزوجها، فقال: أيها الأمير لا خير لك فيها، فقلت: ولِمَ؟ قال: رأيت رجلاً يقبلها، فاعرض عنها، فتزوجها الفتى، فلمته، وقلت ألم تخبرني أنك رأيت رجلاً يقبلها؟ قال: نعم رأيت أباها يقبلها. وأتى رجل إلى الأحنف، فلطمه، فقال: ما حملك على هذا؟ فقال: جُعِل لي جعل على أن ألطم سيد بني تميم، فقال: لست بسيدهم عليك بحارثة بن قدامة، فإنه سيدهم، فمضى إليه، فلطمه، فقطعت يده.

وقال الشعبي: وجهني عبد الملك إلى ملك الروم، فقال لي: مِن أهل بيت الخلافة أنت؟ قلت: لا، ولكني رجل من العرب، فكتب إلى عبد الملك رقعة ودفعها إليّ، فلما قرأها عبد الملك قال لي: أتدري ما فيها؟ قلت: لا، قال فيها: «العجب لقوم فيهم مثل هذا كيف يولون أمرهم غيره». قال: أتدري ما أراد بهذا؟ قلت: لا، قال: حسدني عليك، فأراد أن أقتلك، فقلت: إنما كبرت عنده يا أمير المؤمنين لأنه لم يترك شيئاً إلا سألني عنه، وأنا أجيبه، فبلغ ملك الروم ما قاله عبد الملك للشعبي. فقال: لله أبوه ما عدا ما في نفسي.

ولما وَلّى عبد الملك بن مروان أخاه بشراً الكوفة، وكان شاباً ظريفاً غزلاً، بعث معه روح بن زنباع وكان شيخاً متورعاً، فثقل على بشر مرافقته، فذكر ذلك لندمائه، فتوصل بعض ندمائه إلى أن دخل بيت روح بن زنباع ليلاً في خفية، فكتب على حائط قريب في مجلسه هذه الأبيات:

يا روحُ من لبنيّاتٍ وأرملةٍ
إذا نعاكَ لأهلِ المغرب الناعي

إن ابن مروان قد حانت منيّته
فاحتلْ بنفسك يا روح بن زنباع

فتخوف من ذلك وخرج من الكوفة، فلما وصل إلى عبد الملك أخبره بذلك، فاستلقى على قفاه من شدة الضحك، قال: ثقلت على بشر وأصحابه، فاحتالوا لك.

ومن الحيل الطريفة:

ما حكي أن النبي ﷺ لما فتح خيبر وأعرس بصفية، وفرح المسلمون جاءه الحجاج بن علاط السلمي، وكان أول من أسلم في تلك الأيام وشهد خيبر، فقال يا رسول الله: إن لي بمكة مالاً عند صاحبتي أم شيبة ولي مال متفرق عند تجار مكة، فأذن لي يا رسول الله في العود إلى مكة عسى أسبق خبر إسلامي إليهم، فإني أخاف إن علموا بإسلامي أن يذهب جميع مالي بمكة، فأذن لي لعلي أخلصه، فأذن له رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني أحتاج إلى أن أقول، فقال له رسول الله ﷺ: قل، وأنت في حل، قال الحجاج: فخرجت، فلما انتهيت إلى الثنية ثنية البيضاء وجدت بها رجالاً من قريش يتسمعون الأخبار، وقد بلغهم أن رسول الله ﷺ سار إلى خيبر، فلما أبصروني قالوا: هذا لعمر الله عنده الخبر، أخبرنا يا حجاج، فقد بلغنا أن القاطع يعنون محمداً ﷺ قد سار إلى خيبر، قال: قلت إنه سار إلى خيبر وعندي من الخبر ما يسركم، قال: فأحدقوا حول ناقتي يقولون إيه يا حجاج؟ قال: فقلت هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط، وأسر محمد وقالوا: لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة، فيقتلونه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم. قال: فصاحوا بمكة قد جاءكم الخبر وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم، فيقتل بين أظهركم.

قال: فقلت: أعينوني على جمع مالي من غرمائي فإني أريد أن أقدم خيبر، فأغنم من ثقل محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى هناك، فقاموا معي، فجمعوا لي مالي كأحسن ما أحب، فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر أقبل عليّ حتى وقف إلى جانبي، وأنا في خيمة من خيام التجار، فقال: يا حجاج ما هذا الخبر الذي جئت به؟

قال: فقلت وهل عندك حفظ لما أودعه عندك من السر؟ فقال: نعم والله قال: قلت: استأخر عني حتى ألقاك على خلاء، فإني في جمع مالي كما ترى، فانصرف عني حتى إذا فرغت من جمع كل شيء كان لي بمكة، وأجمعت على الخروج، لقيت العباس، فقلت له: احفظ عليّ حديثي يا أبا الفضل، فإني أخشى أن يتبعوني، فاكتم علي ثلاثة أيام، ثم قل ما شئت. قال: لك عليّ ذلك. قال: قلت والله ما تركت ابن أخيك إلا عروساً على ابنة ملكهم يعني صفية، وقد افتتح خيبر، وغنم ما فيها، وصارت له ولأصحابه. قال: أحق ما تقول يا حجاج؟ قال: قلت أي

والله، ولقد أسلمت، وما جئت إلا مسلماً لآخذ مالي خوفاً من أن أغلب عليه، فإذا مضت ثلاثة، فاظهر أمرك فهو والله على ما تحب، قال: فلما كان في اليوم الرابع لبس العباس حلة له وتخلق بالطيب، وأخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى الكعبة، فطاف بها، فلما رأوه قالوا: يا أبا الفضل هذا والله هو التجلد لحر المصيبة، قال: كلا والذي حلفتم به لقد افتتح محمد خيبر وترك عروساً على ابنة ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيهم، فأصبحت له ولأصحابه، قالوا: مَن جاءك بهذا الخبر؟ قال: الذي جاءكم بما جاءكم به، ولقد دخل عليكم مسلماً وأخذ ماله وانطلق ليلحق محمداً وأصحابه ليكون معهم. قالوا: تفلت عدو الله أما والله لو علمنا به لكان لنا وله شأن. قال: ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك، فتوصل الحجاج بفطنته واحتياله إلى تخليصه وتحصيل ماله.

ولما اجتمعت الأحزاب على حرب رسول الله ﷺ عام الخندق، وقصدوا المدينة، وتظاهروا وهم في جمع كثير وجم غفير من قريش وغطفان، وقبائل العرب وبني النضير، وبني قريظة من اليهود، ونازلوا رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، واشتد الأمر، واضطرب المسلمون، وعظم الخوف على ما وصفه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾[1]. فجاء نعيم بن مسعود بن عامر الغطفاني إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله: إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال له رسول الله: خذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان نديماً لهم في الجاهلية، فقال: يا بني قريظة: قد علمتم ودي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم. قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، فإن البلد بلدكم وبه أموالكم، وأبناؤكم، ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه وأموالهم، وأولادهم ونساؤهم بغير بلدكم، وليسوا مثلكم لأنهم إن رأوا فرصة اغتنموها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديهم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً، قالوا: أشرت بالرأي، ثم أتى قريشاً، فقال لأبي سفيان بن حرب: وكان إذ ذاك قائد المشركين من قريش ومن معه من كبراء قريش: قد علمتم ودي لكم، وفراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمر وأحببت أن أبلغكموه نصحاً لكم، فاكتموه عليّ. قالوا: نعم، قال: اعلموا أن معشر يهود بني قريظة قد ندموا على ما فعلوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه يقولون: إنّا قد ندمنا على نقض العهد الذي بيننا وبينك، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم، فنسلمهم إليك، فتضرب رقابهم، ثم نكون معك على من بقي منهم، فنستأصلهم، فأرسل يقول نعم. فإن بعث إليكم يهود بني قريظة يلتمسون منكم رهائن من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً، ثم خرج حتى أتى غطفان، فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم، فلما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان رءوس بني غطفان إلى بني قريظة يقولون لهم: إنّا لسنا بدار مقام، وقد هلك الخف والحافر، فاعتدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ فيما بيننا وبينه، فأرسلوا يقولون لهم: إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً، فإنّا نخشى إن دهمتكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجال في بلدنا ولا طاقة لنا به، فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: والله إن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود لحق، فأرسلوا إلى بني قريظة يقولون: إنّا لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال، فاخرجوا وقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل: إن الكلام الذي ذكره نعيم بن مسعود لحق، وما يريد القوم إلا أن تقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك شمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان إنّا لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً، فأبوا عليهم، فخذل الله تعالى بينهم، وأرسل عليهم الريح، فتفرقوا وارتحلوا. وكان هذا من لطف الله تعالى أن ألهم نعيم بن مسعود هذه الفتنة وهداه إلى اليقظة التي عمّ نفعها وحسن وقعها.

وأما ما جاء في التيقظ والتبصر في الأمور:

فقد قالت الحكماء: من أيقظ نفسه وألبسها لباس

(١) سورة الأحزاب، الآيتان (١٠ ـ ١١).

التحفظ أيس عدوه من كيده له وقطع عنه أطماع الماكرين به. **وقالوا**: اليقظة حارس لا ينام وحافظ لا ينسام، وحاكم لا يرتشي، فمن تدرع بها أمن من الاختلال والغدر والجور والكيد والمكر.

وقيل: إن كسرى أنو شروان كان أشد الناس تطلعاً في خفايا الأمور، وأعظم خلق الله تعالى في زمانه تفحصاً وبحثاً عن أسرار الصدور، وكان يبث العيون على الرعايا والجواسيس في البلاد ليقف على حقائق الأحوال، ويطلع على غوامض القضايا، فيعلم المفسد فيقابله بالتأديب، والمصلح فيجازيه الإحسان، ويقول: متى غفل الملك عن تعرف ذلك، فليس له من الملك إلا اسمه، وسقطت من القلوب هيبته.

وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ليلة من الليالي يطوف يتفقد أحوال المسلمين، فرأى بيتاً من الشعر مضروباً، لم يكن قد رآه بالأمس، فدنا منه، فسمع فيه أنين امرأة، ورأى رجلاً قاعداً، فدنا منه وقال له: مَن الرجل؟ فقال له: رجل من البادية قدمت إلى أمير المؤمنين لأصيب من فضله، قال: فما هذا الأنين؟ قال: امرأة تتمخض قد أخذها الطلق قال: فهل عندها أحد؟ قال: لا، فانطلق عمر فجاء إلى منزله، فقال لامرأته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب بنت فاطمة الزهراء رضي الله عنهما: هل لك في أجر قد ساقه الله تعالى لك؟ قالت: وما هو؟ قال: امرأة تتمخض ليس عندها أحد. قالت: إن شئت، قال: فخذي معك ما يصلح للمرأة من الخرق والدهن، وائتني بقدر وشحم وحبوب. فجاءت به، فحمل القدر، ومشت خلفه حتى أتى البيت، فقال: ادخلي إلى المرأة، ثم قال للرجل: أوقد لي ناراً، ففعل، فجعل عمر ينفخ النار ويضرمها والدخان يخرج من خلال لحيته حتى أنضجها وولدت المرأة، فقالت أم كلثوم رضي الله عنها: بشّر صاحبك يا أمير المؤمنين بغلام، فلما سمعها الرجل تقول يا أمير المؤمنين ارتاع وخجل، وقال: واخجلتاه منك يا أمير المؤمنين أهكذا تفعل بنفسك؟ قال: يا أخا العرب: من ولي شيئاً من أمور المسلمين ينبغي له أن يتطلع على صغير أمورهم وكبيره، فإنه عنها مسؤول، ومتى غفل عنها خسر الدنيا والآخرة. ثم قام عمر رضي الله عنه، وأخذ القدر من على النار وحملها إلى باب البيت، وأخذتها أم كلثوم، وأطعمت المرأة، فلما استقرت وسكنت طلعت أم كلثوم، فقال عمر رضي الله عنه للرجل: قم إلى بيتك وكُل ما في البرمة، وفي غدٍ ائت إلينا، فلما أصبح جاءه، فجهزه بما أغناه به وانصرف.

وكان رضي الله عنه من شدة حرصه على تعرف الأحوال وإقامة قسطاس العدل وإزاحة أسباب الفساد وإصلاح الأمة يعس[1] بنفسه، ويباشر أمور الرعية سراً في كثير من الليالي، حتى أنه في ليلة مظلمة خرج بنفسه فرأى في بعض البيوت ضوء سراج، وسمع حديثاً، فوقف على الباب يتجسس، فرأى عبداً أسود قدامه إناء فيه مزر وهو يشرب ومعه جماعة، فهمّ بالدخول من الباب، فلم يقدر من تحصين البيت، فتسور على السطح ونزل إليهم من الدرجة، ومعه الدرة، فلما رأوه قاموا، وفتحوا الباب وانهزموا فأمسك الأسود، فقال له يا أمير المؤمنين: قد أخطأت وإني تائب، فاقبل توبتي، فقال: أريد أن أضربك على خطيئتك. فقال يا أمير المؤمنين: إن كنت قد أخطأت في واحدة، فأنت قد أخطأت في ثلاث: فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾[2] وأنت تجسست، وقال تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾[3] وأنت أتيت من السطح، وقال تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾[4]، وأنت دخلت وما سلمت، فهب هذه لهذه، وأنا تائب إلى الله تعالى على يدك أن لا أعود، فاستتابه، فاستحسن كلامه.

وله رضي الله تعالى عنه وقائع كثيرة مثل هذه.

وكان معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه قد سلك طريق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في ذلك، وكان زياد بن أبيه يسلك مسلك معاوية في ذلك حتى نقل عنه أن رجلاً كلمه في حاجة له وجعل يتعرف إليه ويظن أن زياداً لا يعرفه، فقال: أنا فلان ابن فلان فتبسم زياد وقال له: أتتعرف إليّ، وأنا أعرف بك منك بنفسك؟. والله إني لأعرفك وأعرف أباك وأعرف أمك، وأعرف جدك وجدتك، وأعرف هذه البردة التي عليك وهي لفلان، وقد أعارك إياها. فبهت الرجل وارتعد، حتى كاد يغشى عليه.

ثم جاء بعدهم من اقتدى بهم وهو: عبد الملك بن مروان، والحجاج، ولم يسلك بعدهما ذلك الطريق،

---

(١) العس: الحراسة والطواف ليلاً لتفقد الأحوال.
(٢) سورة الحجرات، الآية (١٢).
(٣) سورة البقرة، الآية (١٨٩).
(٤) سورة النور، الآية (٢٧).

واقتفى آثار ذلك الفريق إلا المنصور ثاني خلفاء بني العباس ولي الخلافة بعد أخيه السفاح، وهي في غاية الاضطراب فنصب العيون، وأقام المتطلعين، وبث في البلاد والنواحي من يكشف له حقائق الأمور والرعايا، فاستقامت له الأمور، ودانت له الجهات ولقد ابتلي في خلافته بأقوام نازعوه، وأرادوا خلعه، وتمردوا عليه، وتكاثروا، فلولا أن الله تعالى أعانه بتيقظه وتبصره ما ثبت له في الخلافة قدم، ولا رفع له مع قصد أولئك القاصدين علم، لكنه بث العيون فعرف من انطوى على خلافه فعالجه باتلافه، واطلع على عزائم المعاندين فقطع رؤوس عنادهم بأسيافه، وكان بكمال يقظته يتلقى المحذور بدفعه دون رفعه، ويعاجل المخوف بتفريق شمله قبل جمعه، فذلت له الرقاب ولانت لخلافته الصعاب، وقرر قواعدها وأحكمها بأوثق الأسباب.

فمن آثار يقظته وفطنته ما نقله عنه عقبة الأزدي قال: دخلت مع الجند على المنصور فارتابني، فلما خرج الجند أدناني وقال لي: من أنت؟ فقلت: رجل من الأزد، وأنا من جند أمير المؤمنين قدمت الآن مع عمر بن حفص. فقال: إني لأرى لك هيبة وفيك نجابة، وإني أريدك لأمر وأنا به معنّى، فإن كفيتنيه رفعتك، فقلت: إني لأرجو أن أصدق ظن أمير المؤمنين. فقال: أخف نفسك واحضر في يوم كذا. قال: فغبت عنه إلى ذلك اليوم، وحضرت، فلم يترك عنده أحداً، ثم قال لي: اعلم أن بني عمنا هؤلاء قد أبوا إلا كيد ملكنا واغتياله ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا يكاتبونهم ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم وألطاف بلادهم، فخذ معك عيناً[1] من عندي، وألطافاً[2]، وكتباً، واذهب حتى تأتي عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فاقدم عليه متخشعاً، والكتب على ألسنة أهل تلك القرية والألطاف من عندهم إليه، فإذا رآك، فإنه سيردك ويقول لا أعرف هؤلاء القوم، فاصبر عليه وعاوده وقل له: قد سيروني سراً، وسيروا معي ألطافاً وعيناً، وكلما جبهك، وأنكر أصبر عليه، وعاوده، واكشف باطن أمره، قال عقبة: فأخذت كتبه والعين والألطاف، وتوجهت إلى جهة الحجاز حتى قدمت على عبد الله بن الحسن، فلقيته بالكتب، فأنكرها ونهرني وقال: ما أعرف هؤلاء القوم قال عقبة: فلم أنصرف، وعاودته القول وذكرت له اسم القرية وأسماء أولئك القوم، وأن معي ألطافاً، وعيناً، فأنس بي، وأخذ الكتب وما كان معي. قال عقبة: فتركته ذلك اليوم، ثم سألته الجواب، فقال: أما كتاب، فلا أكتب إلى أحد، ولكن أنت كتابي إليهم، فاقرئهم السلام وأخبرهم أن ابني محمداً وإبراهيم خارجان لهذا الأمر وقت كذا وكذا، قال عقبة: فخرجت من عنده، وسرت حتى قدمت على المنصور فأخبرته بذلك، فقال لي المنصور: إني أريد الحج، فإذا صرت بمكان كذا وكذا وتلقاني بنو الحسن وفيهم عبد الله، فإني أعظمه وأكرمه وأرفعه، وأحضر الطعام، فإذا فرغ من أكله، ونظرت إليه، فتمثل بين يدي، وقف قدامه، فإنه سيصرف وجهه عنك، فدر حتى تقف من ورائه واغمز ظهره بإبهام رجلك حتى يملأ عينيه منك، ثم انصرف عنه، وإياك أن يراك وهو يأكل. ثم خرج المنصور يريد الحج حتى إذا قارب البلاد تلقاه بنو الحسن، فأجلس عبد الله إلى جانبه وحادثه، فطلب الطعام للغداء فأكلوا معه، فلما فرغوا أمر برفعه، فرفع، ثم أقبل على عبد الله بن الحسن وقال: يا أبا محمد قد علمت أن مما أعطيتني من العهود والمواثيق أنك لا تريدني بسوء ولا تكيد لي سلطاناً، قال: فأنا على ذلك يا أمير المؤمنين. قال عقبة: فلحظني المنصور بعينه، فقمت حتى وقفت بين يدي عبد الله بن الحسن، فأعرض عني، فدرت من خلفه وغمزت ظهره بإبهام رجلي، فرفع رأسه وملأ عينيه مني ثم وثب حتى جثى بين يدي المنصور وقال: أقلني يا أمير المؤمنين أقالك الله. فقال له المنصور: لا أقالني الله إن لم أقتلك، وأمر بحبسه وجعل يتطلب ولديه محمد وإبراهيم ويستعلم أخبارهما. قال علي الهاشمي صاحب غدائه، دعاني المنصور يوماً فإذا بين يديه جارية صفراء، وقد دعا لها بأنواع العذاب وهو يقول لها: ويلك إصدقيني، فوالله ما أريد إلا الألفة، ولئن صدقتيني لأصلن رحمه ولأتبعن البر إليه. وإذا هو يسألها عن محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وهي تقول: لا أعرف له مكاناً، فأمر بتعذيبها، فلما بلغ العذاب منها أغمي عليها، فقال: كفوا عنها، فلما رأى أن نفسها كادت تتلف قال: ما دواء مثلها؟ قالوا: شم الطيب وصب الماء البارد على وجهها وأن تسقى السويق، ففعلوا بها ذلك، وعالج المنصور بعضه بيده، فلما أفاقت سألها عنه، فقالت: لا أعلم، فلما رأى إصرارها على الجحود قال لها: أتعرفين فلانة الحجامة، فلما سمعت منه ذلك تغيّر وجهها وقالت: نعم يا أمير المؤمنين تلك من بني سليم قال:

---

(١) العين: الجاسوس، والعين: الأموال النقدية.
(٢) ألطافاً: هدايا خفيفة الوزن ذات قيمة.

صدقت. هي والله أمتي إبتعتها بمالي ورزقي يجري عليها في كل شهر، وكسوة شتائها وصيفها من عندي سيرتها، وأمرتها أن تدخل منازلكم وتحجمكم وتتعرف أحوالكم وأخباركم، ثم قال لها: أتعرفين فلاناً البقال؟ قالت: نعم يا أمير المؤمنين هو في بني فلان، قال: صدقت هو والله غلامي دفعت إليه مالاً، وأمرته أن يبتاع به ما يحتاج إليه من الأمتعة، وأخبرني أن أمة لكم يوم كذا وكذا جاءت إليه بعد صلاة المغرب تسأله حناء، وحوائج، فقال لها: ما تصنعين بهذا؟ قالت: كان محمد بن عبد الله بن الحسن في بعض الضياع بناحية البقيع، وهو يدخل الليلة، وأردنا هذا ليتخذ النساء ما يحتجن إليه عند دخول أزواجهن من المغيب. فلما سمعت الجارية هذا الكلام من المنصور ارتعدت من شدة الخوف، وأذعنت له بالحديث وحدثته بكل ما أراد. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثاني والستون

في ذكر الدواب والوحوش والطير والهوام والحشرات وما أشبه ذلك مرتباً على حروف المعجم

(حرف الهمزة):

(الأسد) من السباع، والأنثى أسدة، وله أسماء كثيرة، فمن أشهرها: أسامة، والحرث، وقسورة، والغضنفر، وحيدرة، والليث، والضرغام. ومن كناه: أبو الأبطال، وأبو شبل، وأبو العباس، وهو أنواع. منها ما وجهه وجه إنسان، وشكل جسده كالبقر، وله قرون سود نحو شبر، ومنها ما هو أحمر كالعناب وغير ذلك، وتلده أمه قطعة لحم، وتستمر تحرسه ثلاثة أيام، ثم يأتي أبوه فينفخ فيه، فتنفرج أعضاؤه وتتشكل صورته، ثم ترضعه، وتستمر عيناه مغلوقة سبعة أيام، ثم تفتتح ويقيم على تلك الحالة بين أبيه وأمه إلى ستة أشهر، ثم يتكلف الكسب بعد ذلك وله صبر على الجوع والعطش وعنده شرف نفس يقال أنه لا يعاود فريسته، ولا يأكل من فريسة غيره، ولا يشرب من ماء ولغ فيه كلب وفي ذلك يقول بعضهم:

سأترك حبّكم من غير بغض
وذاك لكثرة الشركاء فيه
إذا وقع الذباب على طعام
رفعتُ يدي ونفسي تشتهيه
وتجتنب الأسودَ ورود ماءٍ
إذا كان الكلاب يلغن فيه

وإذا أكل نهش نهشاً، وريقه قليل جداً، ولذلك يوصف بالبخر[1]، وعنده شجاعة وجبن وكرم، فمن شجاعته الإقدام على الأمور، وعدم الإكتراث بالغير، **ومن جبنه**: أنه يفر من صوت الديك والسنور، والطست، ويتحير عند رؤية النار. **ومن كرمه**: أنه لا يقرب المرأة خصوصاً إذا كانت حائضاً. **وقيل**: أربع عيون تضيء بالليل، عين الأسد، وعين النمر، وعين السنور، وعين الأفعى.

وروي أنه لما تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ①﴾[2] قال عتبة بن أبي لهب: كفرت برب النجم يعني نفسه، فقال رسول الله ﷺ: اللهم سلّط عليه كلباً من كلابك ينهشه، فخرج مع أصحابه في عير[3] إلى الشام حتى إذا كانوا بمكان يقال له الزرقاء، زأر الأسد، فجعلت فرائصه ترتعد، فقالوا له: من أي شيء ترتعد فرائصك، فوالله ما نحن وأنت إلا سواء؟ فقال: إن محمداً دعا عليّ: ووالله ما أظلّت السماء من ذي لهجة أصدق من محمد. ثم وضعوا العشاء، فلم يدخل يده فيه، ثم جاء النوم، فحاطوا أنفسهم بمتاعهم، وجعلوه بينهم، وناموا، فجاء الأسد يتهمس وشمهم رجلاً رجلاً حتى انتهى إليه، فضغطه ضغطة كانت إياها، فسمع وهو بآخر رمق يقول: ألم أقل لكم إن محمداً أصدق الناس.

ولبعضهم في الأسد:

عبوس شموس مصلخدٌ مكابدٌ
جريءٌ على الأقران للقرن قاهر[4]
براثنه شثنٌ وعيناه في الدجى
كجمر الغضى في وجهه الشرُّ ظاهر[5]

---

(١) البخر: رائحة الفم المتغيرة الكريهة.
(٢) سورة النجم، الآية (١).
(٣) عير: قافلة.
(٤) مصلخد: قوي شديد.
الأقران: ج قرن وهو الند والمثيل في القوة.
(٥) الشثن: الغليظ السميك.
والغضى: شجر سريع الاشتعال.

يـديـل بـأنـيـاب حـدادٍ كـأنّـهـا
إذا قـلّـص الأشـداق عـنـهـا خـنـاجـر

فائدة: إذا أقبلت على وادٍ مسبع، فقل أعوذ بدانيال والجب من شر الأسد، وسبب ذلك على ما قيل: إن بختنصر رأى في نومه أن هلاكه يكون على يد مولود، فجعل يأمر بقتل الأطفال، فخافت أم دانيال عليه، فجاءت إلى بئر، فألقته فيه، فأرسل الله له أسداً يحرسه، وقيل: إن بختنصر توهم ذلك في دانيال، فضرى له أسدين وجعلهما في الجب وألقاه عليهما، فلم يؤذياه، وصار يبصبصان حوله، ويلحسانه، فأقام ما شاء الله تعالى أن يقيم، ثم اشتهى الطعام والشراب، فأوحى الله تعالى إلى أرمياء بالشأم أن إذهب إلى أخيك دانيال بجب كذا بمكان كذا. قال أرمياء: فسرت إلى ذلك الموضع، فلما وقفت على رأس الجب ناديته، فعرفني فقال: من أرسلك إليّ؟ قلت: أرسلني الله إليك بطعام وشراب، فقال: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره، والحمد لله الذي لا يخيب من قصده، والحمد لله الذي من وثق به لا يكله إلى غيره، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً وبالصبر نجاة وغفراناً، والحمد لله الذي يكشف ضرنا بعد كربنا والحمد لله الذي هو ثقتنا حين تسوء ظنوننا بأعمالنا، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا. قال: ثم صعد به أرمياء من الجب، وأقام عنده مدة، ثم فارقه ورجع.

وحكي أن يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام مرّ بقبر دانيال عليه الصلاة والسلام، فسمع منه صوتاً يقول: سبحان من تعزز بالقدرة وقهر العباد بالموت. قال بعض الصالحين: من قال هذه الكلمات استغفر له كل شيء.

وحكي أن إبراهيم بن أدهم كان في سفره ومعه رفقة، فخرج عليهم الأسد، فقال لهم: قولوا أللهم احرسنا بعينك التي لا تنام واحفظنا بركنك الذي لا يرام، وارحمنا بقدرتك علينا، فلا نهلك وأنت رجاؤنا يا ألله يا الله يا ألله. قال: فولى الأسد هارباً.

وقيل: لما حمل نوح عليه الصلاة والسلام في سفينته من كل زوجين اثنين قال أصحابه: كيف نطمئن ومعنا الأسد؟ فسلّط الله عليه الحمى، وهي أول حمّى نزلت في الأرض، ثم شكوا إليه العذرة، فأمر الله تعالى الخنزير، فعطس فخرج منه الفأر، فلما كثر زاد ضرره، فشكوا ذلك لنوح عليه الصلاة والسلام، فأمر الله سبحانه وتعالى الأسد، فعطس، فخرج منه الهر، فحجب الفأر عنهم، ويحرم أكل السبع لنهيه عليه الصلاة والسلام عن أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير.

خواصه: فمن خواصه أن صوته يقتل التماسيح، وشحمه من طلى به يده لم يقربه سبع، ومرارة الذكر منه تحل المعقود، ولحمه ينفع من الفالج، وإذا وضعت قطعة من جلده في صندوق لم يقربه سوس ولا أرضة، وإذا وضع على جلد غيره من السباع تساقط شعره، وهو من الحيوان الذي يعيش ألف سنة على ما ذكر[1]، وعلامة ذلك كثرة سقوط أسنانه.

(الإبل) قيل: ما خلق الله شيئاً من الدواب خيراً من الإبل. إن حملت أثقلت، وإن سارت أبعدت، وإن حلبت أروت، وإن نحرت أشبعت. وفي الحديث: «الإبل عز لأهلها والغنم بركة، والخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة»، وهي من الحيوان العجيب، وإن كان عجبه قد سقط لكثرة مخالطته الناس، وقد أطاعها الله للآدمي وغيره حتى قيل: إن قطاراً كان ببعض حبله دهن، فمرت فأرة، فجذبته، فسار معها القطار بواسطة جذبها له، وهي مراكب البر، ولذلك قرنها الله تعالى بالسفن فقال تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾[2]. ولما كانت مراكب البر والبر فيه ما ماؤه قليل، وما ماؤه كثير جعل الله تعالى لها صبراً على العطش حتى قيل: إنه يرتع ظمؤها إلى عشر. وفي الحديث: «لا تسبوا الإبل فإنها من نفس الله تعالى أي مما يوسع به على الناس». حكاه ابن سيده. والذي يعرف: لا تسبوا الريح فإنها من نفس الرحمن.

قال أصحاب الكلام في طبائع الحيوان: ليس لشيء من الطحول مثل ما للجمل عند هيجانه، فإنه يسوء خلقه، فيظهر زبده، ويقل رغاؤه فلو حُمِّل عليه ثلاثة أضعاف عادته حمل، ويقل أكله، ويخرج له عند رغائه شقشقة لا تعرف من أي شيء هي من أجزائه، وهو من الأحرار حتى قيل: إنه لا ينزو لا على أمه ولا على أخته حتى قيل: إن بعض العرب ستر ناقته بثوب ثم أرسل عليها ولدها، فلما عرف ذلك عمد إلى إحليله، فأكله، ثم حقد على صاحبه حتى قتله، وليس له مرارة، ولذلك كثر صبره. وقيل: يوجد على كبده شيء رقيق يشبه المرارة ينفع الغشاوة في العين كحلاً، وفي معدته قوة حتى أنها تهضم الشوك وتستطيبه، ويحل أكله بالنص والاجماع، وأما

---

(١) هذه من الأساطير ولا صحة لها.
(٢) سورة غافر، الآية (٨٠) وسورة المؤمنون، الآية (٢٢).

تحريم يعقوب عليه الصلاة والسلام أكلها فباجتهاد منه، وذلك أنه كان يسكن البوادي، فاشتكى عرق النسا، فلم يجد ما يلائمه إلا ترك أكل لحومها، فلذلك حرمها. وأما انتقاض الوضوء بأكل لحمها، فاختلف العلماء في ذلك، فذهب الأكثرون إلى أنه لا ينقض، وعليه الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وأبي، وابن عباس، وأبو الدرداء، وأبو طلحة، وعامر بن ربيعة، وأبو أمامة، وجماهير التابعين، وبه أخذ مالك، والشافعي، وأبو حنيفة، وأصحابهم، وخالف في ذلك أحمد وإسحاق، ويحيى بن يحيى، وابن المنذر، وابن خزيمة، واختاره البيهقي، وهو مذهب الشافعي القديم.

خواصه: قال ابن زهير وغيره: أكل لحمه يزيد في الباه[1] وفي الإنعاظ بعد الجماع، وبوله يفيق السكران، ووبره إذا أحرق وذر على دم سائل قطعه، وقراده إذا ربط على كم عاشق يزول عشقه.

(الأرضة) بفتح الهمزة والراء دويبة صغيرة كنصف العدسة تأكل الخشب والورق، ولما كان فعلها في الأرض أضيف اسمها إليها. قال القزويني: إذا أتى على الأرضة سنة نبت لها جناحان طويلان تطير بهما، ويقال: إنها الدابة التي دلّت الجن على موت سليمان عليه الصلاة والسلام، ومن شأنها أنها تبني لنفسها بيتاً من عيدان تجمعها مثل بيت العنكبوت مخرطاً من أسفله إلى أعلاه، وله في إحدى جهاته باب مربع، ومنه تعلم الأوائل وضع النواويس لموتاهم، والنمل عدوها، وهو أصغر منها، فيأتي من خلفها ويحتملها ويمشي بها إلى حجره لأنه إذا أتاها مستقبلاً لا يغلبها.

(الأرنب) حيوان شبه العناق قصير اليدين طويل الرجلين يطأ الأرض على مؤخر قدميه، وهو اسم يطلق على الذكر والأنثى وله شدة شبق وربما تسفد وهي حبلى، ويكون عاماً ذكراً وعاماً أنثى. ومن عجائبها أنها تنام وعيناها مفتوحتان، فيأتي الصياد، فيظنها مستيقظة. قيل: من رأى أرنباً عند خروجه من بيته أول ما يخرج أو رآه عند قيامه من نومه، واصطبح به لم تقض له حاجة في ذلك اليوم. ومن عجيب أمره أن تحمل الأنثى منه باثنين وثلاثة وأربعة، ولا تلد إلا تحت الأرض خوفاً على أولادها من الإنسان، وتحفر تحت الأرض الحفائر القوية حتى أنها تخرب الجدران، وعند ولادتها ينتحل شعرها وهي تحضن الأولاد إلى عشرين يوماً، ومن طبعه أنه أبله، وفيه قوة وشدة وفي سفاده حالة نزوة يصرخ الذكر والأنثى كالسنانير، فإذا وقع منه الإنزال وقع على الأرض قليل الحركة، وعند سفاده تدير له وجهها فإذا ملكها بعد ذلك فإنها تجري به وهو راكب عليها ويجري معها.

فائدة: ذكر ابن الأثير في الكامل أن صديقاً له أصطاد أرنباً وله أنثيان وذكر وفرج[1]. **وقيل**: التقطت الأرنب تمرة فاختلسها الثعلب، فأكلها، فانطلقا يتخاصمان إلى الضب، فقالت الأرنب: يا أبا حسل، فقال: سميعاً دعوت. قالت: أتيناك لنختصم قال: عادلاً وحكيماً. قالت: فاخرج إلينا، قال: في بيته يؤتى الحكم. قالت: إني وجدت تمرة حلوة قال: فكليها. قالت: اختلسها الثعلب. قال: لنفسه بغى الخير. قالت: فلطمته. قال: بحقك أخذت، قالت: فلطمني. قال: اقتص. قالت: فاقض بيننا. قال: قد قضيت، فذهبت أقواله أمثالاً.

ومن ذلك ما حكي أن عدي بن أرطأة أتى شريحاً القاضي في مجلس حكمه، فقال له: أين أنت؟ قال: بينك وبين الحائط. قال: فاسمع مني. قال: للاستماع جلست. قال: إني تزوجت امرأة. قال: بالرفاه والبنين، قال: فشرط أهلها أن لا أخراجها من بينهم، قال: أوف لهم بالشرط. قال: فأنا أريد الخروج. قال: الشرط أملك. قال: أريد أن أذهب. قال: في حفظ الله. قال: فاقض بيننا. قال: قد فعلت. قال: فعلى من قضيت؟ قال: على ابن أمك. قال: بشهادة من؟ قال: بشهادة ابن أخت خالك.

الخواص: قال الجاحظ من علق عليه كعب أرنب لم تضره عين ولا سحر، وأكل دماغه يبرىء من الارتعاش العارض من البرد، وإن شربت المرأة الحامل أنفحة الذكر، ولدت ذكراً، وإن شربت أنفحة الأنثى ولدت أنثى، وإن علقت عليها زبلها لم تحمل، والأرنب البحري من السموم فلا يحل أكله.

(سقنقور) دابة شكلها كالوزغة إذا أخذت وسلخت وملحت وشربت منها مقدار مثقال زاد في الباه وهو من الأشياء النفيسة عند أهل الهند يقال: إنه يهدى إليهم فيذبحونه بسكين من الذهب، ويحشونه من ملح مصر، فإذا وضعوا منه مثقالا على لحم أو بيض نفع نفعاً عظيماً.

(الأفعى) الأنثى من الحيات والذكر أفعوان، وهو يعيش

---

(١) الباه: القدرة على الجماع.

(١) لعل هذان توأمان متداخلان.

ألف سنة على ما يقال، ويعرف بالشجاع، والأسود، وهو أشر الحيات وأشرها حيات وأفاعي سجستان، ومن عجيب ما يحكى عنها أنها لدغت إنساناً في رجله فانصدعت جبهته.

وحكي أنها نهشت ناقة وفصيلها يرضع، فمات قبل أمه، وقيل: لما دخل شبيب بن شبة على المنصور قال له: يا شبيب أدخلت سجستان؟ فقال له: نعم. قال: صف لي أفاعيها. قال: يا أمير المؤمنين، هي دقائق الأعناق، صغار الأذناب، مقلصة الرؤوس، رقش برش، كأنما كسين أعلام الحبرات، كبارهن حتوف، وصغارهن سيوف.

وقيل: إنها تتدفن في التراب أربعة أشهر في البرد[1]، ثم تخرج، وقد أظلمت عيناها فتمر بشجر الرازيانج وهو الشمر الأخضر، فتحك عينيها به، فيرجع إليها بصرها، فسبحان من ألهمها ذلك.

وقال الزمخشري: إذا عميت الأفعى بعد ألف سنة ألهمها الله تعالى أن تأتي البساتين وتلقي نفسها على هذه الشجرة، وتحك عينيها بها فتبصر. وقيل: إذا قطع ذنبها عاد كما كان[2] وإذا قُلع نابها عاد بعد ثلاثة أيام، وهي أعدى عدو للإنسان، وقال بعضهم: رأيت حية قد ابتلعت كبشاً عظيم القرنين، فجعلت تضرب به الحجارة يميناً ويساراً حتى كسرت القرنين، وابتلعته وقرنيه والله تعالى أعلم، **وقيل**: إذا قطع ذنب الحية تعيش إن سلمت من الذر، وقيل: إن بالحبشة حيات لها أجنحة تطير بها، **وقيل**: إن جلدها ينسلخ عنها في كل سنة مرة **وقيل**: إن الجلد لا ينسلخ، وإنما الذي ينسلخ قشر فوق الجلد، وغلاف يخلق لها كل عام، وهي تبيض على عدد أضلاعها. أي ثلاثين بيضة، فيجتمع عليها النمل، فيفسدها بقدرة الله تعالى إلا نادراً. ومن عجيب أمرها أنها لا ترد الماء ولا ترده ولكنها إذا شمّت رائحة الخمر، فلا تكاد تصبر عنه مع أنه سبب هلاكها لأنها إذا شربت سكرت، فتعرضت للقتل، والذكر لا يقيم في الموضع، وإنما تقيم الأنثى لأجل فراخها حتى تكتسب قوة، فإذا قويت أخذتهم وانسابت، فأي حجر وجدته دخلت فيه، وأخرجت صاحبه منه، وعينها لا تدور وإذا قلعت عادت. ومن عجيب أمرها أنها تهرب من الرجل العريان وتفرح بالنار وتقرب منها، وتحب اللبن حباً شديداً، وإذا دخلت بصدرها في حجر لا يستطيع أقوى الناس على إخراجها منه، ولو قطعت قطعاً وليس لها قوائم ولا أظفار وإنما تقوى بظهرها لكثرة أضلاعها.

وحكي عمر بن يحيى العلوي قال: كنا في طريق مكة، فأصاب رجلاً منا استسقاء، فاتفق العرب أن سرقوا منا، فطار جمال على أحدها ذلك الرجل قال: ثم بعد أيام جمعتنا المقادير، فوجدته قد برىء، فسألناه عن حاله، فقال: إن العرب لما أخذوني جعلوني في أواخر بيوتهم، فكنت في حالة أتمنى فيها الموت، وبينما أنا كذلك إذ اتوا يوماً بأفاعي اصطادوها وقطعوا رؤوسها وأذنابها وشووها بعد ذلك، فقلت: في نفسي: هؤلاء اعتادوها، فلا تضرهم، فلعلي إن أكلت منها مت، فاسترحت، فاستطعمتهم، فأطعموني واحدة، فلما استقرت في بطني أخذني النوم، فنمت نوماً ثقيلاً، ثم استيقظت، وقد عرقت عرقاً شديداً، واندفعت طبيعتي نحو مائة مرة، فلما أصبحت وجدت بطني قد ضمر، وقد انقطع الألم، فطلبت منهم مأكولا، فأكلت، وأقمت عندهم أياماً، فلما نشطت، ووثقت من نفسي بالحركة أخذت في الطريق مع بعضهم وأتيت الكوفة.

فائدة: قيل إن الريحان الفارسي لم يكن قبل كسرى، وإنما وجد في زمانه، وسببه أن كسرى كان ذات يوم جالساً في بعض متفرجاته إذا جاءته حية، فانسابت بين يديه، وتمرغت وصارت تتقلّب مثل الذي يشتكي، فأراد بعض الجند قتلها، فمنعهم الملك، ثم قال لهم: انظروا أمرها، فلما سمعت ذلك انسبات بين يديه، فأمرهم أن يتبعوها إلى المكان الذي تريده، قال: فجاءت إلى بئر وصارت تنظر فيه قال: فنظروا فإذا فيه حية عظيمة وعلى ظهرها عقرب أسود فنخسها بعضهم برمح، فقتلها، وتركوها ورجعوا، فأخبروا الملك بذلك، فلما كان الغد جاءت الحية للملك وفي فمها بزر فنثرته بين يدي الملك، وذهبت، فقال الملك: إنها أرادت مكافأتنا اجعلوه في الأرض لننظر ما يكون من أمره قال: ففعلوا ذلك، فطلع منه الريحان قال فلما انتهى أمره أتوا به إلى الملك قال وكان به زكام، فشمه فبرىء.

لطيفة: من غريب ما اتفق لعماد الدولة أنه لما ملك شيراز اجتمع عليه أصحابه وطلبوا منه مالاً، ولم يكن

(١) هو السبات الشتوي، وهناك العديد من الحيوانات التي تنام طيلة فصل الشتاء كالدب وغيره.

(٢) لا يرجع ذيلها كما كان إنما لا تموت الزحافات كالحيات وما ماثلها بقطع ذيلها.

عندهم ما يرضيهم به، فاغتم لذلك ونام مستلقياً على قفاه مفكراً في ذلك، وإذا بحية عظيمة خرجت من سقف ذلك المجلس ودخلت في سقف آخر قال: فطلب سلماً وصعد لينظر المكان الذي خرجت منه، فلما رآه وجد كوة فنظر في داخلها، فإذا هي مطمورة، فدخلها، فوجد فيها صندوقاً فيه خمسمائة ألف دينار، فأمر بإخراجه وإنفاقه على عسكره.

ومن ألطف ما اتفق له أيضاً:

أنه كان بتلك البلد خياط أطروش، وكان الملك الذي قبله قد أودع عنده وديعة مال قال، فطلبه عماد الدولة ليخيط له على عادته لأنه هو الذي يخيط للملوك قال: فتوهم الاطروش أنه غمز عليه بسبب الوديعة فلما حضر بين يدي عماد الدولة قال له: إن فلاناً الملك لم يدع عندي سوى اثني عشر صندوقاً، ولم أدر ما فيها، فأمر بإحضارها، فأحضرها فأخذها عماد الدولة، ووسع بها على جنده، وتعجب من هاتين القضيتين فكانت هذه الأسباب من دلائل السعادة له. وأمر النبي ﷺ بقتل الحيات بعد أن تنذر ثلاث مرات، وقيل: ثلاثة أيام، وأما سكان البيوت، فالإنذار لها متعين. وفي الحديث: «من قتل حية فكأنما قتل مشركاً ومن لبس خفاً فلينفضه، ومن آوى إلى فراشه فلينظفه».

الخواص: يقال أن دمها يجلو البصر وقلبها إذا علق على إنسان لا يؤثر فيه السحر وضرسها إذا علق على من به وجع الضرس سكن. الأيمن للأيمن والأيسر للأيسر، ولحمها قال بقراط الحكيم: من أكله أمن من الأمراض الصعبة.

(الأنيس) وتسميه الرماة الأنيسة لأنه من طيور الواجب عندهم وهو طير له لون حسن غذاؤه الفاكهة ومأواه الأنهار والبساتين والغياض وله صوت حسن كالقمري.

(الأوز) طير السباحة وفراخه تخرج من البيضة تسبح.

الخواص: في جوفه حصاة تنفع المبطون ودهنه ينفع من ذات الجنب وداء الثعلب إذا طلي به، ولسانه ينفع لقطار البول وغذاؤه جيد إلا أنه بطيء الهضم.

(الإيل) بتشديد الياء المكسورة ذكر الوعل وله أسماء باختلاف اللغات، وهو يشبه بقر الوحش وإذا خاف من الصياد رمى بنفسه من رأس الجبل ولا يتضرر بذلك، وإذا لسعته حية ذهب إلى البحر فأكل السرطان فيشفى.

خواصه: إن السمك يحب رؤيته وهو يحب ذلك، ولذلك أكثر ما يكون بقرب البحر والصيادون يعرفون ذلك، فيلبسون جلده ليراهم السمك، فيأتي لهم وهو مولع بأكل الحيات وربما لسعته، فتسيل دموعه تحت محاجر عينيه حتى تصير نفرتين من كثرة ذلك، ثم تجمد تلك الدموع فتصير كالشمع، فتؤخذ وتجعل دواء للسم، وهو الذي يسمى بالبنزهير الحيواني، وأجوده الأصفر، وأكثر ما يكون ببلاد الهند والسند وفارس وإذا وضع على لسعة الحيات أبرأها وإن وضعه الملسوع في فيه نفعه، وهذا الحيوان لا تنبت قرناه إلا بعد سنتين وينبتان في أول الأمر مستقيمين، ثم بعد ذلك يحصل فيهما التشعب ولا يزال يزيد إلى ست سنين، فحينئذٍ يصيران كنخلتين، ثم بعد ذلك يلقيهما في كل سنة مرة، ثم ينبتان. قال أرسطو: وهذا النوع يصاد بالصفير والأصوات المطربة، فإنه يحب الطرب والصيادون يشغلونه بذلك ويأتونه من ورائه، فإذا رأوه قد استرخت أذناه وثبوا عليه، وقرنه مصمت وإحليله من عصب لا عظم فيه ولا لحم وهو من الحيوان الذي يزيد في السمن، فإذا حصل له ذلك فر من مكانه خوفاً من الصيادين وحكمه حل أكله.

الخواص: إذا بخر بقرنه البيت طرد الهوام التي فيه، وإذا أحرق واستاك به الذي به صفرة الاسنان زال ذلك عنه، ومن علق عليه شيء منه ذهب نومه، ومن خواصه: أن دمه يفتت الحصاة التي بالمثانة شرباً، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(حرف الباء الموحدة):

(باز) كنيته أبو الأشعث وهو من أشد الحيوان تكبراً، وأضيقها خلقاً، قال القزويني: إنها لا تكون إلا أنثى وذكرها من غيرها إما من جنس الحدأة أو الشواهين، ولأجل ذلك تختلف ألوانها وهو أصناف منها البازي، والباشق، والشاهين، والبيدق، والبقر، والبازي آخرها مزاجاً لأنه لا يصبر على العطش، فلذلك لا يفارق الماء والأشجار المتسعة والظل والظليل، وهو خفيف الجناح سريع الطيران تكثر أمراضه من كثرة طيرانه، لأنه كلما طار انحط لحمه وهزل، وأحسن أنواعه ما قلّ ريشه، واحمرت عيناه مع حدة فيهما قال الشاعر:

لو استضاء المرء في إدلاجه
بعينه كفته عن سراجه[1]

---

(١) الإدلاج: المسير ليلاً.

ودونه الأزرق الأحمر العينين والأصفر دونهما. ومن صفاته المحمودة: أن يكون طويل العنق، عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين، شديد الانحطاط من الجو، غليظ الذراعين مع قصر فيهما.

لطيفة: من عجيب أمره أن الرشيد خرج ذات يوم للصيد، فأرسل بازاً، فغاب قليلاً ثم أتي وفي فمه سمكة، فأحضر الرشيد العلماء وسألهم عن ذلك، فقال مقاتل يا أمير المؤمنين: روينا عن جدك ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: إن الجو معمور بأمم مختلفة الخلق، وفيه دواب تبيض وتفرخ على هيئة السمك لها أجنحة ليست بذوات ريش، فأجاز مقاتلاً على ذلك وأكرمه.

(باله)[1] سمكة عظيمة. قال القزويني: يقال إن طولها يبلغ خمسمائة ذراع، وقال غيره: خمسون، ويقال لها: العنبر وهي تظهر في بعض الأحايين لأصحاب المراكب، فإذا رأوها طبلوا بالطبول حتى أنها تنفر لأن لها جناحين كالقناطر إذا نشرتها أغرقتهم، فإذا بغت على حيوان البحر وزاد شرها أرسل الله عليها سمكة نحو الذراع تلتصق بأذنها ولا خلاص لها منها، فتنزل إلى قعر البحر وتضرب رأسها به حتى تموت ثم تطفو بعد ذلك، فيقذفها الريح إلى الساحل، فيأخذها أهله ويشقون جوفها ويستخرجون منها العنبر.

(ببغاء) هي أصناف كثيرة منها الأخضر والرمادي والأصفر والأبيض يتخذها الملوك والرؤساء لحسن لونها وصوتها وفصاحتها.

حكي: أنه أهدي لمعز الدولة درة بيضاء سوداء الرجلين والمنقار ويقال إن نوعاً منها يقرأ القرآن.

الخواص: من أكل لسانها تفصح وإذا جفف دمها وجعل بين الصديقين حصلت بينهما الخصومة وزبلها يخلط بماء الحصرم ويكتحل به ينفع من الرمد وظلمة البصر.

(بجع): طائر أبيض اللون يميل إلى الصفرة طويل المنقار كبير البطن أكثر أكله السمك.

(بج): طائر لطيف يأوي أطراف الماء وهو خلقة شريفة لم يوجد غالباً إلا اثنين فقط.

(براق): هو الدابة التي ركبها النبي ﷺ وهو دون البغل وفوق الحمار أبيض اللون.

(برذون): نوع من الخيل دون الفرس العربي وفي الحديث أن النبي ﷺ ركبه وكذا عمر رضي الله تعالى عنه فلما ركبه عمر جعل يتخلخل به فنزل عنه وضرب وجهه وقال: لا أعلم والله علمك هذه الحيلاء ولم يركب برذوناً قبله ولا بعده وكنيته أبو الأخطل لطول ذنبه وأنشد السراج الوراق في ذم البراذين[1] يقول:

لصاحب الأحباس برذونة
بعيدة العهد عن القرط
إذا رأت خيلاً على مربط
تقول سبحانك يا معطي
تمشي إلى خلفٍ إذا ما مشت
كأنما تكتب بالقبطي

الخواص: إذا شربت امرأة دمه لم تحبل أبداً وزبله يخرج المشيمة والجنين الميت وإذا جفف وذر منه على من به الرعاف انقطع رعافه وكذا الجرح.

(برغوث): تفتح منه الباء وتضم وكنيته أبو طامر وأبو عدي وأبو وثاب وهو يثب إلى ورائه.

حكي: أنه يعرض له الطيران كالنمل وهو يطيل السفاد ويبيض ويفرخ وأصله أولاً من التراب لا سيما في الأماكن المظلمة وسلطانه في أواخر الشتاء وأول فصل الربيع ويقال أنه على صورة الفيل وله أنياب وخرطوم، وقال بعضهم دبيبها من تحتي أشد من عضها وليس ذلك بدبيب ولكن البرغوث خبيث يستلقي على ظهره ويرفع قوائمه فيزغزغ بها فيظن من لا علم له أنه يمشي تحت جنبيه وكان أبو هريرة رضي الله تعالى عنه يفلي ثوبه فيلتقط البراغيث ويدع القمل، فقال له انس في ذلك فقال: أبدأ بالفرسان وأكر على الرجالة وأنشد أعرابي:

ليلُ البراغيثِ أعياني وأنصبني
لا بارك الله في ليل البراغيث
كأنهن وجلدي إذ خلون به
أيتام سوءٍ أغاروا في المواريث

وقال أبو الرماح الازدي:

تطاول بالفسطاط ليلي ولم يكن
بوادي الغضى ليلي عليَّ يطول
تؤرقني حدبٌ قصارٌ أذلةٌ
وإن الذي يؤذينه لذليل

(١) هي الحوت الأزرق المعروف وهو من أضخم الحيتان.

(١) من الخيل غير العراب أشبه بالبغل ضخامة.

إذا جلت بعض الليل منهنّ جولةً
تعلقن في رجليّ حيث أجولُ
إذا ما قتلناهن أضعفن كثرةً
علينا ولا ينعى لهنّ قتيلُ
ألا ليت شعري هل ابيتنّ ليلة
وليس لبرغوثٍ عليّ سبيلُ

وقال ابن أيبك الصفدي:

أشكو إلى الرحمن ما نالني
من البراغيث الخفاف الثقالِ
تعصبوا بالليل لما دروا
أني تقنعت بطيف الخيالِ

ولا يسب البرغوث لما ورد أن النبي ﷺ سمع رجلاً يسب برغوثاً فقال لا تسبه فإنه أيقظ نبياً إلى الصلاة الفجر.

فائدة: سئل مالك عن البرغوث من يقبض روحه فقال أله نفس، قيل: نعم. قال الله: يتوفى الانفس حين موتها. ولقد شكا عامل افريقية إلى عمر بن عبد العزيز شر الهوام فكتب إليه إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليقرأ ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾[1]. الآية. وقال حنين بن إسحاق الحيلة في دفع البرغوث أن تأخذ شيئاً من الكبريت فتدخن به في البيت فإنها تفر من ذلك وقيل يرش البيت بماء السذاب، وقيل: مشاق المراكب يحرق في البيت مع قشور النارنج.

(بعوض): قيل إنه أكثر أعضاء منه فإن للفيل أربعة أرجل وللبعوض ستة ويزيد عليه بأربعة أجنحة وله خرطوم مجوف نافذ فإذا طعن به جسد إنسان استقي الدم وقذف به إلى جوفه فهو له كالبلعوم والحلقوم ومما ألهمه الله تعالى أنه إذا جلس على عضو انسان يتبع مسام العروق فإنها أرق وأسرع له في إخراج الدم وعنده شره في مصه حتى قيل إنه لا يمص شيئاً فيتركه باختياره إلى أن ينشق أو يطار. ومن عجيب أمره أنه ربما قتل البعير وغيره من ذوات الأربع فيتركه طريحاً. وقال الجاحظ من علم البعوض إن وراء جلد الجاموس دماً وأن ذلك الدم غذاء لها وأنها إذا طعنت في ذلك الجلد الغليظ نفذ فيه خرطومها مع ضعفه ولو أنك طعنت فيه بمسلات شديدة المتن رهيفة الحد لانكسرت فسبحان من رزقها على ضعفها بقوته وقدرته. قال بعضهم:

أقول لنازل البستان طوبى
لعيشك لم تشك فيه البعوض

(١) سورة إبراهيم، الآية (١٢).

يململه فليس له قرارٌ
ويشخنه فليس له نهوض
حماه قرصه وطنينه أن
يبيت وعينه فيها غموض
كأنك حين تهدى بالأغاني
تكر وفي مسامعك العروضُ

ومن الحكم التي أودعها الله تعالى إياها أن جعل الله فيها قوة الحافظة والفكر وحاسة اللمس والبصر والشم ومنفذ الغذاء وجوفاً وعروقاً ومخاً وعظاماً فسبحان من قدر فهدى ولم يترك شيئاً سدى.

وقال الزمخشري في تفسير سورة البقرة في ذلك:

يا من يرى مد البعوض جناحها
في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها في نحرها
والمخ من تلك العظام النُّحَّل[1]
ويرى خرير الدم في أوداجها
متنقلاً من مفصلٍ في مفصل
ويرى وصول غذا الجنين ببطنها
في ظلمة الأحشا بغير تمقّل[2]
ويرى مكان الوطء من أقدامها
في سيرها وحثيثها المستعجل
ويرى ويسمع حسّ ما هو دونها
في قاع بحر مظلم متهوّل
امنن عليَّ بتوبةٍ تمحو بها
ما كان مني في الزمان الأول

(بغل): معروف وكنيته أبو قموص وأبو حرون وله كنى غير ذلك كثيرة وهو مركب من الفرس والحمار ولذلك صار له صلابة الحمار وعظم الخيل وهو عقيم لا نسل له.

روى ابن عساكر في تاريخ دمشق عن علي كرم الله وجهه أنها كانت تتناسل فدعا عليها إبراهيم الخليل لأنها كانت تسرع في نقل الحطب لنار المنجنيق فقطع الله نسلها وهو أشر الطباع لأنه تجاذبه الاعراق المتضادة والاخلاق المتباينة والعناصر المتباعدة، ومن العجيب أن كل عضو فرضته منه كان بين الفرس والحمار.

الخواص: يقال إن حافر البغلة السوداء ينفع لطرد الفار

(١) النُّحَّل: الشديدة النحول.
(٢) بغير تمقل: أي بغير نظر.

إذا بخر به البيت وإذا سحق حافره بعد حرقه وخلط بدهن الآس وجعل على رأس الاقرع نبت شعره وزبله إذا شمه المزكوم زال زكامه على ما ذكر.

(بقر): هو حيوان شديد القوة خلقه الله تعالى لمنفعة الإنسان وهو أنواع الجواميس وهي أكثر ألباناً وكل حيوان اناثه أرق أصواتاً من ذكوره إلا البقر وأنثاه يضربها الفحل في السنة مرة وإذا اشتد شبقها تركت المرعى وذهبت وإذا طلع عليها الفحل التوت تحته إذا أخطأ المجرى لشدة صلابة ذكره. قال المسعودي رأيت بالري البقر تحمل كالبعير فتبرك على ركبتيها ثم تثور بالحمل.

(عجيبة): حكي في الأحياء إن شخصاً كان له بقرة وكان يشوب لبنها بالماء ويبيعه، فجاء السيل في بعض الأودية وهي واقفة ترعى فمر عليها فغرقها، فجلس صاحبها يندبها فقال له بعض بنيه: يا أبت لا تندبها فإن المياه التي كنا نخلطها بلبنها اجتمعت فغرقتها.

فائدة: ذكر ابن الفضل في كتابه عن وهب ابن منبه أنه قال؛ لما خلق الله تعالى الأرض ماجت واضطربت كالسفينة، فخلق الله تعالى ملكاً في نهاية العظم والقوة وأمره أن يدخل تحتها ويجعلها على منكبيه فدخل وأخرج يداً من المشرق ويداً من المغرب وقبض على أطراف الأرض وأمسكها ثم لم يكن لقدميه قرار فخلق الله تعالى صخرة من ياقوتة حمراء في وسطها سبعة آلاف ثقب فخرج من كل ثقب بحر لا يعلم عظمه إلا الله تعالى ثم أمر الصخرة أن تدخل تحت قدمي الملك ثم لم يكن للصخرة قرار فخلق الله تعالى ثوراً عظيماً يقال له كيوثاء له أربعة آلاف عين ومثلها أنوف وآذان وأفواه وألسنة وقوائم ما بين كل قائمتين منها مسيرة خمسمائة عام، وأمر الله تعالى هذا الثور فدخل تحت الصخرة وحملها على ظهره وقرونه ثم لم يكن للثور قرار فخلق الله تعالى حوتاً يقال له يهموت ثم أمره الله تعالى أن يدخل تحته ثم جعل الحوت على ماء ثم جعل الماء على الهواء ثم جعل الهواء على ماء أيضاً ثم جعل الماء على الثرى على الظلمة ثم انقطع علم الخلائق.

الخواص: شحم البقر إذا خلط بزرنيخ أحمر طرد العقارب وإذا طلي به إناء اجتمعت البراغيث إليه وإذا شرب لبنها زاد في الانعاظ وقرنها إذا سحق وجعل في طعام صاحب الحمى فأكله زالت الحمى ومرارتها إذا خلطت بماء الكراث نفعت من البواسير طلاء وإذا طلي به على الأثر الأسود في البدن ازاله وخصية الفحل إذا جففت وسحقت وجعلت في عسل وأكلت فإنها تزيد في الباه وشعرها إذا أحرق واستيك به نفع من وجع الأسنان وإذا خلط مع السكنجبين وشرب نفع من الطحال على ما ذكر.

(بومة): وكنيتها أم الخراب وأم الصبيان ومن طبعها أن تدخل على كل طير في وكره وتأكل أفراخه ولمعاداة الطيور لها يجعلها الصيادون في أشراكهم حتى يقع عليها الطير ونقل المسعودي عن الجاحظ أن البومة لا تخرج بالنهار خوفاً من العين لأنها تظن أنها حسناء وهي أصناف وكلها تحب الخلوة بنفسها.

الخواص: من خواصها أنها تنام بإحدى عينيها والأخرى مفتوحة فإذا أخذت المفتوحة وجعلت تحت فص خاتم، فمن لبسه لم ينم ما دام في يده وعكسها المغموضة وإذا أردت معرفة ذلك فالقهما في الماء فالراسبة للنوم والطافية لليقظة وإذا أخذ قلب البومة وجعل على اليد اليسرى من المرأة وهي نائمة تحدثت بجميع ما فعلته في نومها.

(بوقير): طير أبيض يأتي منه في كل سنة طائفة إلى جبل بالصعيد يقال له جبل الطير، فيه كوة، فتدخل من تلك الكوة فيمسك منها شيء فإن أمسكت واحدة كان ذلك العام متوسط الخصب، وإن أمسكت اثنتين كان كثير الخصب، وإن لم تمسك شيئاً كانت السنة مجدبة وأهل تلك الناحية تعرف ذلك وهذا الجبل بالقرب من بلدة مارية أم إبراهيم ولد النبي ﷺ.

(حرف التاء):

(تمساح): حيوان عجيب على صورة الضب له فم واسع وفيه ستون ناباً، وقيل: ثمانون وبين كل نابين سن صغيرة وهي انثى في ذكر إذا أطبق فمه على شيء لا يفلته حتى يخلعه من موضعه وله لسان طويل وظهر كالسلحفاة ولا يعمل الحديد فيه وله أربعة أرجل وذنب طويل وهو لا يوجد إلا بنيل مصر.

وقال المسافرون: أنه يوجد ببحر الهند وطوله في الغالب ستة أذرع إلى عشرة في عرض ذراعين أو ذراع ويقيم في البحر تحت الماء أربعة أشهر لا يظهر وذلك في زمن الشتاء ويتغوط من فيه في الغالب، ويحصل في فيه الدود فيؤذيه فيلهمه الله تعالى فيخرج إلى بعض الجزائر ويفتح فاه فيرسل الله تعالى له طيراً يقال له القطقاط فيدخل في فيه فيأكل ما فيه من الدود فيحصل له راحة فعند ذلك يطبق فمه على الطير ليأكله فيضربه بريشتين خلقهما الله تعالى في جناحيه كريشة الفصاد فيؤلمه فيفتح فاه فيخرج ولذلك يضرب به المثل فيقال جازاه مجازاة التمساح،

وزعم بعض الباحثين عن أحوال التمساح أن له ستين ناباً وستين عرقاً ويسفد ستين مرة ويبيض ستين بيضة ويحضن ذلك ستين يوماً ويعيش ستين سنة فإذا أفرخ فما صعد الجبل صار ورلاً وما نزل البحر صار تمساحاً[1] وفكه الأسفل لا يستطيع تحريكه لأن فيه عظماً متصلاً بصدره وإذا أراد السفاد أخذ انثاه وطلع بها إلى البر وقلبها وجامعها فإذا قضى حاجته قلبها ثانياً لأنه لو تركها على تلك الحالة بقيت حتى تموت وما ذلك إلا أنها لا تستطيع الانقلاب ليبوسة ظهرها وصلابته، وقد سلط الله تعالى عليه أضعف الحيوان وهو كلب الماء يقال أنه يتبلط بالطين ويغافل التمساح ويقذف بنفسه في فيه فيبتلعه لنعومته فإذا حصل في جوفه ذاب ما عليه من سخونة بطنه فيعمد إلى أمعائه فيقطعها ويقطع مراق بطنه فيقتله.

الخوص: عينه تشد على من به رمد اليمنى لليمنى واليسرى لليسرى وشحمه إذا قطر في أذن من به صم نفعه.

(تنين): ضرب من الحيات وهو طويل كالنخلة السحوق وجسده كالليل أحمر العينين لهما بريق واسع الفم والجوف يبتلع الحيوان وأول أمره يكون حية متمردة ثم تطغى وتتسلط على حيوان البر فيستغيث منها فيأمر الله تعالى ملكاً فيحملها ويلقيها في البحر فتقيم فيه مدة ثم تتسلط على حيوانه أيضاً فيستغيث منها إلى ربه فيأمر الله تعالى بإلقائها في النار فيعذب بها الكافرين وقيل يأمر الله تعالى بإلقائها على يأجوج ومأجوج.

وروى ابن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يسلط الله على الكافر في قبره تسعة وتسعين تنيناً تنهشه وتلدغه حتى تقوم الساعة ولو أن تنيناً نفخ على الأرض ما نبتت فيها خضراء.

(حرف الثاء):

(ثعلب): وهو معروف ذو مكر وخديعة وله حيل في طلب الرزق. فمن ذلك أنه يتماوت وينفخ بطنه ويرفع قوائمه حتى يظن أنه مات فإذا قرب منه حيوان وثب عليه وصاده وحيلته هذه لا تتم على كلب الصيد. ومن حيلته إنه إذا تعرض للقنفذ نفش القنفذ شوكه فيسلح هو عليه فيلم شوكه فيقبض على مراق بطنه ويأكله وسلحه أنتن من سلح الحبارى.

ومن لطيف أمره أنه إذا تسلطت عليه البراغيث حملها وجاء إلى الماء وقطع قطعة من صوفه وجعلها في فيه ونزل في الماء والبراغيث تطير قليلاً قليلاً حتى تجتمع في تلك الصوفة فيلقيها في الماء ويخرج. وفروه أدفى الفراء وفيه الأبيض والرمادي وغير ذلك، وذكر في عجائب المخلوقات أنه أهدى إلى أبي منصور الساماني ثعلب له جناحان من ريش إذا قرب الإنسان منه نشرهما وإذا بعد لصقهما..

لطيفة: ذكر ابن الجوزي في آخر كتاب الأذكياء والحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء عن الشعبي أنه قال: مرض الأسد فعادته السباع والوحوش ما خلا الثعلب فنم عليه الذئب فقال الأسد: إذا حضر فأعلمني فلما حضر الثعلب أعلمه الذئب بذلك وكان قد أخبر بما قاله الذئب فقال الأسد: أين كنت يا أبا الفوارس؟ قال: كنت أتطلب لك الدواء. قال: وأي شيء أصبته؟ قال: قيل لي خرزة في عرقوب أبي جعد. قال: فضرب الأسد بيده في ساق الذئب فأدماه ولم يجد شيئاً فخرج ودمه يسيل على رجله وانسل الثعلب فمر به الذئب فناداه: يا صاحب الخف الأحمر إذا قعدت عند الملوك فانظر ما يخرج منك فإن المجالس بالإمانات.

وقيل: خرج الأسد والثعلب والذئب يتصيدون فاصطادوا حمار وحش وضباً وغزالاً ثم جلسوا يقتسمون فقال الأسد للذئب اقسم علينا فقال حمار الوحش لي والغزال لأبي الحرث والضب للثعلب فضربه الأسد في رأسه فرضخها فقال الثعلب: أنا أقسم حمار الوحش لأبي الحرث يتغدى به والغزال لأبي الحرث يتعشى به والضب لأبي الحرث يتنقل به فيما بين ذلك فقال له الأسد: لله درك من فرضي، ما أعلمك بالفرائض من علمك هذا. قال: علمني التاج الأحمر الذي ألبسه هذا، وأشار إلى الذئب.

وحكي: أن الثعلب مر في السحر بشجرة فرأى فوقها ديكاً فقال له: أما تنزل نصلي جماعة؟ فقال: إن الإمام نائم خلف الشجرة فأيقظه فنظر الثعلب فرأى الكلب فضرط وولى هارباً فناداه: أما تأتي لنصلي؟ فقال: قد انتفض وضوئي فاصبر حتى أجدد لي وضوءاً وأرجع.

ومن العجيب في قسمة الأرزاق أن الذئب يصيد الثعلب فيأكله والثعلب يصيد القنفذ فيأكله والقنفذ يصيد الأفعى فيأكلها والأفعى تصيد العصفور والعصفور يصيد الجراد والجراد يصيد الزنابير والزنابير تصيد النحل والنحل تصيد الذباب والذباب يصيد البعوض والبعوض يصيد النمل والنمل يأكل كل ما تيسر من صغير وكبير فتبارك الله الذي أتقن ما صنع.

---

(١) هذه أساطير، فالورل نوع آخر مختلف.

الخواص: رأسه إذا ترك في برج حمام هرب الحمام منه ونابه يشهد على الصبي بحسن خلقه ومرارته تجعل منها في أنف المصروع يبرأ ولحمه ينفع من اللقوة والجذام وخصيته تشد على الصبي تنبت أسنانه وفروه أنفع شيء للمربوط ودمه إذا جعل على رأس أقرع نبت شعره إذا كان دون البلوغ، وطحاله يشد على من به وجع الطحال يبرأ.

(ثعبان): هو الكبير من الحيات ذكراً كان أو انثى وهو عجيب الشأن في هلاك بني آدم يلتوي على ساق الإنسان فيكسرها وليس له عدو إلا النمس ولولا النموس لأكلت الثعابين أهل مصر.

لطيفة: قيل إن عبد الله بن جدعان كان في ابتداء أمره صعلوكاً وكان شريراً يفتك ويقتل وكان أبوه يعقل عنه فضجر من ذلك وأراد قتله فخرج هارباً على وجهه فتوصل لجبل فوجد فيه شقاً فدخل فيه فوجد في صدره شيئاً كهيئة الثعبان فدنا منه وقال لعله يثب علي فيقتلني وأستريح، قال: فدنا منه فوجده مصنوعاً من ذهب وعيناه ياقوتتان ثم وجد من داخله بيتاً فيه جثث طوال بالية على أسرة الذهب والفضة وعند رؤسهم لوح مكتوب فيه تاريخهم وإذا بهم رجال من جرهم وفي وسط البيت كوم من الياقوت الأحمر والزمرد والذهب والفضة واللؤلؤ فأخذ منه قدر ما يحمل وعلم الشق وذهب إلى قومه فأغناهم ورجع فلم يدر مكان الشق قال رسول الله ﷺ: لقد كنت أستظل بجفنة عند عبد الله بن جدعان من الهجير، قالت عائشة: يا رسول الله.. هل ينفعه ذلك شيئاً؟ قال: لا، لأنه لم يقل رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين.

(حرف الجيم):

(جراد): حيوان معروف وليس له جهة مخصوصة وإنما يكون هائماً هارباً وإذا أراد أن يبيض ذهب إلى بعض الصخور فضربها بذنبه فتنفرج له فيلقي بيضه فيها وله ستة أرجل وطرفا أرجله كالمنشار وهو ألوان عديدة وفيه خلقة عشرة من الجبابرة وجه فرس وعينا فيل وعنق ثور وقرنا إيِّل وصدر أسد وبطن عقرب وجناحا نسر وفخذ جمل ورجلا نعامة وذنب حية وهو من الحيوان الذي ينقاد إلى رئيسه كالعسكري إذا طار أميره تتابع خلفه.

وفي الحديث أن جرادة وقعت بين يدي رسول الله ﷺ فإذا مكتوب على جناحها بالعبرانية نحن جند الله الأكبر ولنا تسعة وتسعون بيضة ولو تمت لنا المائة لأكلنا الدنيا بما فيها فقال عليه الصلاة والسلام: «اللهم اقتل كبارها وأمت صغارها وأفسد بيضها وسد أفواهها عن مزارع المسلمين وعن معايشهم إنك سميع الدعاء» قال: فجاء جبريل فقال: إنه قد استجيب لك في بعضها.

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: إن الله تعالى خلق ألف أمة ستمائة منها في البحر وأربعمائة في البر وإن أول هلاك هذه الأمة الجراد فإذا هلك الجراد تتابعت الأمم مثل الدر إذا قطع سلكه.

قيل: كان طعام يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام الجراد وقلوب الشجر وكان يقول: من أنعم منك يا يحيى وقد أجمع المسلمون على أكل لحمه ومن خواصه إن الإنسان إذا تبخر به نفعه من عسر البول.

(جرو): بكسر الجيم وفتحها وضمها وهو الصغير من أولاد الكلاب والسباع، وقد كان ﷺ أمر بقتل الكلاب وسببه أن جبريل عليه السلام وعده ليأتيه فتأخر، قال: فلقيه النبي ﷺ بعد ذلك فقال: ما أخرك عن وعدك فقال: ما تأخرت ولكن لا ندخل بيتاً فيه صورة ولا كلب فأمر بقتلها وروى مسلم والطبراني عن خولة بزيادة ولفظها أن جرواً دخل تحت سرير في بيته ﷺ فمات فمكث النبي ﷺ أياماً لا يأتيه الوحي قال: لعله حدث في البيت شيء فخرج للمسجد فنزل عليه الوحي قالت خولة فقمت للبيت فوجدت الكلب تحت السرير.

عجيبة: حكي أن رجلاً لم يولد له ولد فكان يأخذ أولاد الناس فيقتلهم فنهته زوجته عن ذلك وقالت: يؤاخذك الله بذلك فقال: لو آخذ لفعل في يوم كذا وصار يعدد أفعاله لها فقالت له: إن صاعك لم يمتلىء ولو امتلأ آخذك قال: فخرج ذات يوم وإذا بغلامين يلعبان ومعهما جرو فأخذهما الرجل ودخل البيت فقتلهما وطرد الجرو قال: فطلبهما أبوهما فلم يجدهما فانطلق إلى نبي لهم فأخبره بذلك فقال: ألهما لعبة كانا يلعبان بها قال: جرو كلب قال: ائتني به فأتاه به فجعل خاتمه بين عينيه ثم قال له: اذهب خلفه فأي بيت دخله ادخل معه فإن أولادك فيه قال: فجعل الجرو يجوب الدروب والحارات حتى دخل بيت القاتل فدخل الناس خلفه وإذا بالغلامين متعفران بدمهما وهو قائم يحفر لهما مكاناً يدفنهما فيه فأمسكوه وأتوا به لنبيهم فأمر بصلبه فلما رأته زوجته على الخشبة قالت: ألم أحذرك من هذا اليوم فتقول ما تقول، الآن امتلأ صاعك. وسيأتي الكلام على الكلب في حرف الكاف إن شاء الله تعالى.

(جعل): دويبة معروفة تسمى أبا جعران والزعقوق يعض البهائم في وجهها فتهرب منه وهو أكبر من الخنفساء

شديد السواد في بطنه لون حمرة وللذكر قرنان. يوجد كثيراً في مراح البقر والجاموس قيل إنه يتولد من أخثائها ومن شأنه جمع الروث وادخاره ومن عجيب أمره أنه إذا شم الورد مات ويعيش بعوده للروث، وله جناحان لا يكادان يريان إلا إذا طار، وله ستة أرجل وسنام مرتفع جداً وهو يمشي القهقرى ومن طبعه أنه يحرس النيام فإذا قام أحدهم يتغوط تبعه ليأكل من رجيعه وذلك من شدة شهوته للغائط.

(حرف الحاء):

(حجل): طير فوق الحمامة أغبر اللون أحمر المنقار والرجلين يسمى دجاج البر وهو صنفان نجدي وتهامي، النجدي أغبر والتهامي أبيض وله شدة الطيران وإذا تقاتل ذكران تبعت الأنثى الغالب. له شدة شبق وأفراخه تخرج من البيض كاسية ويعمر في الغالب عشرين سنة وإذا قوي على غيره أخذ بيضه فحضنه ومن سر الله تعالى أنه إذا أفرخ ذلك البيض تبع الفرخ أمه التي باضته ومن طبعه أنه يخدع غيره في قرقرته ولذلك يتخذه الصيادون في أشراكهم.

غريبة: قيل أن أبا نضر بن مروان أكل مع بعض مقدمي الأكراد فأتى على سماطه بحجلتين مشويتين فلما رآها ضحك فقال: مم تضحك قال: كنت أقطع الطريق في عنفوان شبابي فمر بي تاجر فأخذته فلما أردت قتله تضرع إلي فلم أقيله، فلما علم أنه لا بد لي من قتله التفت يميناً وشمالاً فرأى حجلتين كانتا بقربنا فقال: اشهدا لي أنه قاتلي ظلماً فقتلته، فلما رأيت هاتين الحجلتين تذكرت حمقه في استشهاده بهما فقال أبو نصر والله لقد شهدتا عليك عند من أقادك بالرجل ثم أمر به فضربت عنقه.

الخواص: لحمها جيد معتدل الهضم، ومرارتها تنفع الغشاوة في العين، وإذا سعط بها إنسان في كل شهر مرة جاد ذهنه وقل نسيانه وقوي بصره.

(حدأة): بكسر الحاء وفتح الدال مع همزة. أخس الطير وتبيض بيضتين وربما باضت ثلاثاً وتحضن عشرين يوماً ومن ألوانها الأسود والرمادي وهي لا تصيد إلا خطفاً وفي طبعها أنها تقف في الطيران وهي أحسن الطير مجاورة لأنها إذا جاعت لا تأكل أفراخ جارها ويقال إنها طرشاء وفي طبعها أنها لا تخطف من الجهة اليمنى لأنها عسراء وهي سنة ذكر وسنة أنثى كالأرنب.

(عجيبة): روى الحافظ السلفي في فضائل الأعمال أن عاصم بن أبي النجود شيخ القراء في زمانه قال: أصابتني خصاصة فجئت إلى بعض إخواني فأخبرته بأمري فرأيت في وجهه الكراهة فخرجت من منزله إلى الجبانة فصليت ما شاء الله ثم وضعت رأسي على الأرض وقلت: يا سامع الأصوات يا مجيب الدعوات يا قاضي الحاجات اكفني بحلالك عن حرامك واغنني بفضلك عمن سواك، قال: فوالله ما رفعت رأسي حتى سمعت وقعة بقربي فإذا بحدأة قد طرحت كيساً أحمر فقمت فأخذته فإذا فيه ثمانون ديناراً وجوهرة ملفوفة في قطن قال فاتجرت بذلك واشتريت لي عقاراً وتزوجت.

الخواص: مرارتها تجفف في الظل وتنقع في إناء زجاج فمن لسع قطر منها في ذلك الموضع واكتحل مخالفاً لجهة اللسع ثلاثة أميال أبرأته ودسمها إذا خلط بقليل من المسك وماء الورد وشرب على الريق نفع من ضيق النفس وإذا وضع في بيت لم تدخله حية ولا عقرب.

(حرباء): دويبة صغيرة على هيئة السمك ورأسها تشبه رأس العجل إذا رأت الإنسان انتفشت وكبرت ولها أربعة أرجل وسنام كهيئة الجمل ولها كنى كثيرة منها أم قرة ويقال لها جمل اليهود وهي أبداً تطلب الشمس فمن أجل ذلك يقال أنها مجوسية وتستقبلها بوجهها وتدور معها كيفما دارت فإذا غابت الشمس أخذت في كسبها ومعاشها ويقال إن لسانها طويل نحو ذراع وهو مطوي في حلقها فذلك تخطف به ما بعد عنها من الذباب وتبتلعه والأنثى من هذا النوع تسمى أم حبين ويقال أن الصبيان ينادونها أم حبين انشري برديك إن الأمير ناظر إليك وضارب بسوطه جنبيك فإذا ازدادوا عليها نشرت جناحيها وانتصبت على رجليها فإذا ازدادوا عليها أيضاً نشرت أجنحة أحسن من تلك ملونة وإذا مشت تطأطىء برأسها وتتلون ألواناً ولذا يقال يتلون كالحرباء.

(حمار أهلي): معروف ليس في الحيوان من ينزو على غير جنسه إلا هو والفرس ونزوه بعد تمام ثلاثين شهراً وكنيته أبو محمود وأبو جحش وغير ذلك وهو أنواع فمنه ما هو لين الأعطاف سريع الحركة ومنه ما هو بضد ذلك ويوصف بالهداية إلى سلوك الطريق.

لطيفة: في الحديث عن النبي ﷺ أنه لما فتح خيبر أصاب حماراً أسود فكلمه فقال: ما اسمك فقال: يزيد بن شهاب أخرج الله تعالى من نسل جدي ستين حماراً كلها لا يركبها إلا نبي ولم يبق من الأنبياء غيرك وكنت أتوقعك لتركبني وأنا عند يهودي يجيع بطني ويضرب ظهري وكنت أعثر به عمداً فسماه النبي ﷺ يعفوراً وقال له: أتشتهي

الإناث؟ قال: لا. وكان ﷺ يركبه في حوايجه وإذا أراد حاجة عند إنسان أرسله إليه فيدفع الباب برأسه فيخرج صاحب البيت فيعرفه ويقضي حاجته. فلما مات النبي ﷺ ذهب إلى بئر كانت لأبي الهيثم فتردى فيها جزعاً على النبي ﷺ فكانت قبره وقيل هذا الحديث منكر وقد ذكره السهيلي في التعريف والإعلام وللناس في ذمه ومدحه أقوال متباينة بحسب الأغراض. فمن مدحه أن أبا صفوان وجد راكباً على حمار فقيل له في ذلك فقال: عير هي من نسل الأكراد يحمل الرحل ويبلغ العقبة ويمنعني أن أكون جباراً في الأرض وقال آخر: وأقل الدواب مؤنة وأكثرها معونة وأخفضها مهوى وأقربها مرتعاً وكان حمار أبي يسارة مثلاً في الصحة والقوة وهو حمار أسود حمل الناس عليه من منى إلى المزدلفة أربعين سنة وكان خالد بن صفوان والفضل بن عيسى الرقاشي يختاران ركوب الحمار ويجعلان أبا يسارة قدوة لهما وحجة. ومن ذمه ما نقل عن عبد الحميد الكاتب أنه قال: لا تركب الحمار فإنه إن كان فارهاً أتعب يدك وإن كان بليداً أتعب رجلك وقيل: ما ينبغي لمركب الدجال أن يكون مركباً للرجال. وقال أعرابي: الحمار بئس المطية إن أوقفته أدلى وإن تركته ولى كثير الروث قليل الغوث سريع إلى الفرارة بطيء في الغارة لا ترقى به الدماء ولا تمهر به النساء ولا يحلب في الإناء، قال الزمخشري:

إنّ الــحــمــار ومــن فــوقــه
حــمــاران شــرّهــمــا الــرّاكــبُ

ومن العرب من لا يركبه أبداً ولو بلغت به الحاجة والجهد.

قيل: كان لرجل بالبادية حمار وكلب وديك فالديك يوقظه للصلاة والكلب يحرسه إذا نام والحمار يحمل أثاثه إذا رحل قال: فجاء الثعلب فأكل الديك فقال: عسى أن يكون خيراً ثم أصيب الكلب بعد ذلك، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم عسى أن يكون خيراً ثم جاء الذئب فبقر بطن الحمار فقال: عسى أن يكون خيراً، قال: ثم إن جيرانه من الحي أغير عليهم فأخذوا فأصبح ينظر إلى منازلهم وقد خلت، فقيل له: إنما أخذوا بأصوات دوابهم فقال: إنما كانت الخيرة في هلاك ما عندي فمن عرف لطف الله رضي بفعله.

(حمام): هو أنواع كثيرة والكلام في الذي ألف البيوت وهو قسمان أحدهما بري وهو الذي يوجد في القرى والآخر أهلي وهو أنواع وأشكال فمنه الرواعب والمراعيش والشداد والغلاب والمنسوب ومن طبعه أنه يطلب وكره ولو كان في مسافة بعيدة ولأجل ذلك يحمل الأخبار ومنه من يقطع عشرة فراسخ في يوم واحد وربما صيد وغاب عن وطنه عشر سنين وهو على ثبات عقله وقوة حفظه حتى يجد فرصة فيطير ويعود إلى وطنه وسباع الطير تطلبه أشد الطلب وخوفه من الشاهين أشد من غيره وهو أطير منه لكن إذا أبصره يعتريه ما يعتري الحمار إذا رأى الأسد والشاة إذا رأت الذئب والفأر إذا رأى الهر ومن طبعه أنه لا يريد إلا ذكره إلى أن يهلك أو يفقد أحدهما ويحب الملاعبة والتقبيل ويسفد لتمام أربعة أشهر ويحمل أربعة عشر يوماً ويبيض بيضتين ويحضن عشرين يوماً ويخرج من إحدى البيضتين ذكر والأخرى أنثى واتخاذها في البيوت لا بأس به غير أنه لا يجوز تطييرها والاشتغال بها والارتقاء بها على الأسطحة وعليه حمل أهل العلم قوله عليه الصلاة والسلام: **«شيطان يتبع شيطانة حين رأى شخصاً يتبع حمامة»**، فإن لم يحصل شيء مما ذكر جاز اتخاذها، قال رسول الله ﷺ: **«اتخذوا الحمام في بيوتكم فإنها تلهي الجن عن صبيانكم واللعب بها من عمل قوم لوط»**. وقال النخعي: من لعب بالحمام لم يمت حتى يذوق ألم الفقر ولم يوجد شيء أبله من الحمام، فإنه تؤخذ أفراخه، فتذبح في مكان ثم يعود في ذلك المكان ويبيض فيه ويفرخ.

وقال الجاحظ: وللحمام من الفضيلة والفخر أن الحمامة قد تبتاع بخمسمائة دينار، ولم يبلغ ذلك القدر شيء من الطير وغيره، وهو الهادر الذي جاوز الغاية قالوا: ولو دخلت بغداد والبصرة وجدت ذلك بلا معاناة ولو حدثت أن برذوناً أو فرساً بيع بخمسمائة دينار لكان ذلك سمراً، وقد تباع البيضة الواحدة من بيض ذلك الحمام بخمسة دنانير، والفرخ بعشرين، فمن كان له زوج منه قام في الغلة مقام ضيعة وأصحابه ينون من أثمانه الدور والحوانيت وهو مع ذلك ملهى عجيب ومنظر أنيق.

الخواص: دمه ينفع الجراحات العارضة للعين والغشاوة، ويقطع الرعاف ويبرىء حرق النار إذا خلط بالزيت منه، وزبل الأحمر ينفع للسع العقرب إذا وضع عليه وإذا شرب منه مقدار درهمين مع ثلاثة دراهم دار صيني نفع من الحصاة.

(حرف الخاء):

(الخطاف): أنواع كثيرة، فمنه نوع دون العصفور رمادي اللون يسكن ساحل البحر ومنه ما لونه أخضر

وتسميه أهل مصر الخطار، ونوع طويل الأجنحة رقيق يألف الجبال ونوع أصفر يألف المساجد يسميه الناس السنونو، وزعم بعضهم أنه الطير الأبابيل، ويقال: أن آدم عليه الصلاة والسلام لما أهبط إلى الأرض حصل له وحشة، فخلق الله له هذا الطير يؤنسه، فلأجل ذلك لا تجدها تفارق البيوت وهي تبني بيتها في أعلى مكان بالبيت وتحكم بنيانه وتطينه، فإن لم تجد الطين ذهبت إلى البحر فتمرغت في التراب والماء وأتت فطينته وهي لا تزبل داخله بل على حافته أو خارجاً عنه وعنده ورع كثير لأنه وإن ألف البيوت لا يشارك أهلها في أقواتهم ولا يلتمس منهم شيئاً، ولقد أحسن واصفه حيث يقول:

كن زاهداً فيما حوته يدُ الورى
تبقى إلى كلّ الانام حبيبا
وانظُرْ إلى الخطاف حرّم زادهم
أضحى مقيماً في البيوت ربيبا

ومن شأنه أنه لا يفرخ في عش عتيق بل يجدد له عشاً وأصحاب اليرقان يلطخون أفراخه بالزعفران، فيذهب، فيأتي بحجر اليرقان، ويلقيه في عشه لتوهمه أن اليرقان حصل لأولاده وهو حجر صغير فيه خطوط يعرفه غالب الناس فعند ذلك يأخذه من به اليرقان ويحكه ويستعمله ومن عجيب أمره أنه يكاد يموت من صوت الرعد وإذا عمي ذهب إلى شجرة يقال لها عين شمس فيتمرغ فيها، فيفيق من غشوته ويفتح عينيه.

لطيفة: قيل: إن خطافاً وقف على قبة سليمان وتكلم مع خطافة، وراودها عن نفسها، فامتنعت، فقال لها: تتمنعين مني ولو شئت قلبت هذه القبة. قال: فسمع سليمان، فدعاه وقال: ما حملك على ما قلت؟ فقال: يا نبي الله إن العشاق لا يؤاخذون بأقوالهم.

الخواص: مرارته تسود الشعر ولحمه يورث السهر وقلبه يهيج الباه إذا أُكل جافاً ودمه يسكن الصداع.

(خفاش): طير يوجد في الأماكن المظلمة وذلك بعد الغروب وقبل العشاء لأنه لا يبصر نهاراً ولا في ضوء القمر وقوته البعوض، وهذا الوقت هو الذي يخرج فيه البعوض أيضاً لطلب رزقه، فيأكله الخفاش، فيتسلط طالب رزق على طالب رزق وهو من الحيوان الشديد الطيران. قيل إنه يطير الفرسخين في ساعة وهو يعمر مثل النسر وتعاديه الطيور فتقتله، لأنه قيل إن عيسى عليه الصلاة والسلام لما سأله النصارى في طير لا عظم فيه صنع لهم ذلك بإذن الله تعالى فهي تكرهه لأنه مباين لخلقتها ومن طبعه الحنو على ولده حتى قيل إنه يرضعه وهو طائر.

(خنزير): حيوان معروف وله كنى كثيرة منها أبو جهم وأبو زرعة وأبو دلف وهو مشترك بين البهيمة والسبع لأنه ذو ناب ويأكل العشب والعلف وهو كثير الشبق حتى قيل أنه يجامع الأنثى وهي سائرة فيرى في مشيها ستة أرجل، فيتوهم الرائي أنه حيوان بستة أرجل وليس كذلك والذكر مثله، فمن غلب استقل بالنزو على الأنثى وتحرك أذنابها في زمن هيجانها وتطأطىء رأسها وتغير أصواتها وتحمل من نزوة واحدة، وتحمل ستة أشهر وتضع عشرين ولداً وينزو الذكر إذا بلغ ستة أشهر، وقيل: أربعة باختلاف البلاد وقيل: ثمانية، وإذا بلغت الأنثى خمس عشرة سنة لا تحمل، وهذا الجنس أفسد الحيوان والذكر أقوى الفحول وليس لذوات الأربع ما للخنزير في نابه من القوة حتى قيل إنه يضرب به السيف والرمح فينقطع ما لاقاه وإذا التقى ناباه من الطول مات لأنهما حينئذٍ يمنعانه من الأكل. ومن عجيب أمره أنه يأكل الحيات ولا يؤثر فيه سمها وإذا عض كلباً سقط شعره، وإذا مرض وأطعم السرطان يفيق، ومن عجيب أمره أنه إذا ربط على ظهره حمار وبال الحمار وهو على ظهره مات ولا يسلخ جلده إلا بالقلع مع شيء من لحمه على ما ذكروا.

(خنفساء): دويبة تتولد من عفونات الأرض وبينها وبين العقرب مودة، وكنيتها أم فسو، لأن كل من وضع يده عليها يشم رائحة كريهة.

فائدة: قيل إن رجلاً رأى خنفساء، فقال: ما يَصنع الله بهذه، فابتلاه الله تعالى بقرحة عجز الأطباء فيها، فبينما هو ذات يوم إذا بطرقي يقول من به وجع كذا إلى أن قال: من به قرحة، فخرج إليه ذلك الرجل فلما رأى ما به. قال: ائتوني بخنفساء، فضحك منه الحاضرون، فقال: ائتوه بالذي يطلب، فأتوه بها، فأخذها، فأحرقها، وأخذ رمادها، وجعل منه على تلك القرحة فبرئت، فعلم ذلك المقروح أن الله تعالى ما خلق شيئاً سدى وأن في أخس المخلوقات أهم الأدوية، فسبحان القادر على كل شيء.

الخواص: إذا قطعت رؤوس الخنافس وجعلت في برج الحمام كثر الحمام في ذلك البرج والاكتحال بما في جوفها من الرطوبة يحد البصر ويجلو الغشاوة والبياض، وإذا بخر المكان بورق الدلب هربت منه الخنافس على ما ذكر.

(خيل): جماعة الأفراس وسميت بذلك لأنها تختال في مشيتها، وهي من الحيوان المشرف، ولقد مدحها الله تعالى

ووصى بها النبي عليه الصلاة والسلام، فقال: «**الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة**». وقال: «**عليكم بإناث الخيل، فإن ظهورها عز وبطونها كنز**»، وروي عن ابن عباس أو علي رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: لما أراد الله تعالى خلق الخيل أوحى إلى الريح الجنوب، وقال: إني خالق منك خلقاً، فاجتمعي، فاجتمعت، فأتى جبريل، فأخذ منها قبضة، فخلق الله منها فرساً كميتاً، وقال: خلقتك عربياً وفضلتك على سائر البهائم، فالرزق بناصيتك، والغنائم تقاد على ظهرك، وبصهيلك أرهب المشركين وأعز المؤمنين، ثم وسمه بغرة وتحجيل، فلما خلق الله تعالى آدم قال: يا آدم اختر أي الدابتين: الفرس أو البراق، فقال: الفرس يا رب، فقال الله تعالى: اخترت عزك وعز أولادك، وفي الحديث: «ما من فرس إلا ويقول في كل يوم: اللهم من جعلتني له فاجعلني أحب أهله إليه». وقيل: الخيل ثلاثة: فرس للرحمن، وهي المغزو عليها، وفرس لك وهي التي تسابق عليها، وفرس للشيطان وهي التي جعلت للخيلاء. وفي الحديث: «**إن الملائكة لا تحضر شيئاً من اللهو إلا في مسابقة الخيل وملاعبة الرجل أهله**». ولقد سابق النبي ﷺ على الخيل، وقيل: إن الذكر من الخيل أقوى من الأنثى، ولا يرد علينا ركوب جبريل في قصة موسى وفرعون الأنثى لأن ذلك من حكمة الله تعالى حتى تبعتها أحصنهم، فأغرقوا لأن الحصان إذا رأى الحجرة تبعها، وقيل: إن الله تعالى أمر نبيه موسى عليه الصلاة والسلام أن يعبر البحر فعبره، وهم خلفه، فأعمى أعينهم عن الماء، فكانوا يرون بلقعاً، والخيل تراه ماء، فلولا دخول جبريل البحر بفرسه لما دخلت خيلهم، وهي أصناف منها: الصافنات، وهي التي إذا ربطت في مكان وقفت على إحدى رجليها وقلبت بعض الأخرى في الوقوف، وقيل غير ذلك وكانت الصافنات ألف فرس لسليمان عليه الصلاة والسلام، فعرضها يوماً ففاتته الصلاة، قبل صلاة العصر، فأمر بعقرها فعوضه الله عنها الريح، فكانت فرسه وقيل: إنما عقرها على وجه القربى كالهدي وقيل: إن الفرس لا يحب الماء الصافي ولا يضرب فيه بيده كما يضرب بها في الماء الكدر، فرحاً به، فإنه يرى شخصه في الماء الصافي فيفزعه، ولا يراه في الماء الكدر، وقد قيل في الحث على حب الخيل:

أحبّوا الخيل واصطبروا عليها
فإنّ العزّ فيها والجمالا

إذا ما الخيل ضيّعها أناسٌ
ربطناها فأشركت العيالا

نقاسمها المعيشة كل يوم
وتكسبنا الأباعر والجمالا[1]

(حرف الدال):

(دابة): اسم لكل ما دب على الأرض وأما التي ذكرها الله تعالى في سورة سبأ، فقيل: الأرضة، وقيل السوسة، وسبب ذلك أن سليمان عليه الصلاة والسلام كان قد أمر الجن ببناء صرح فبنوه، ودخل فيه وأراد أن يصفو له يوم واحد من دهره، فدخل عليه شاب، فقال له: كيف دخلت من غير استئذان؟ فقال: أذن لي رب البيت، فعلم سليمان أن رب البيت هو الله تعالى، وإن الشاب ملك الموت أرسل ليقبض روحه فقال: سبحان الله هذا اليوم طلبت فيه الصفاء فقال: طلبت ما لم يخلق قال: وكان قد بقي من بناء المسجد الأقصى بقيّة، فقال له: يا أخي يا عزرائيل أمهلني حتى يفرغ قال ليس في أمر ربي مهلة قال: فقبض روحه، وكان من عادته الانقطاع في التعبد شهرين وثلاثة، ثم يأتي، فينظر ما صنعت الجن، فلما قبض كان متوكئاً على عصاه، واستمر ذلك مدة، والجن تتوهم أنه مشرف عليها، فتعمل كل يوم بقدر عشرة أيام حتى أراد الله ما أراد، فسلط على العصا الأرضة فأكلتها، فخرّ ميتاً، فتفرقت الجن عنه، وقيل إن واحداً منهم مر عليه، فسلم، فلم يجبه فدنا منه، فلم يجد له نفساً، فحركه، فسقطت العصا، فإذا هو ميت. قال: وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة، والعصا التي اتكأ عليها من خرنوب قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾[2]. قال: فشكرت الجن الأرضة حتى قيل أنهم كانوا يأتونها بالماء حيث كانت.

وأما الدابة التي من أشراط الساعة، فاختلف في أمرها، فقيل: تخرج من الصفا، وهو الصحيح، وقيل: من الطائف، وقيل من الحجر وطولها ستون ذراعاً ذات قوائم، وهي مختلفة الألوان وذلك في ليلة يكون الناس مجتمعين بمنى أو سائرين إلى منى ومعها عصا موسى وخاتم سليمان لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب تلحق المؤمن، فتضربه بالعصا فتكتب في وجهه مؤمن وتدرك الكافر، فتسمه بالخاتم وتكتب في وجهه كافر. وروي أنها

---

(١) الأباعر: ج بعير.
(٢) سورة سبأ، الآية (١٤).

تخرج إذا انقطع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقل الخير.

(داجن): وهو ما يربيه الناس في البيوت من صغار الغنم والحمام والدجاج وغير ذلك، وفي حديث الأفك: ما نعلم لها قضية غير أنها جارية حديثة السن تعجن وتنام فتأتي الداجن، فتأكل العجين.

(دب): من السباع وكنيته أبو جهل وأبو جهينة وغير ذلك، ولا يخرج زمن الشتاء حتى يطيب الهواء وإذا جاع يمص يديه ورجليه، فيندفع جوعه، وهو كثير الشبق وينعزل بأنثاه، وتضع جرواً واحداً، وتصعد به إلى أعلى شجرة خوفاً عليه من النمل لأنها تضعه قطعة لحم، ثم لا تزال تلحسه وترفعه في الهواء حتى تنفرج أعضاؤه وتخشن ويصير له جلد، وفي ولادتها صعوبة وربما ماتت منها وقد تلده ناقص الخلق شوقاً منها للسفاد وهي من الحيوان الذي يدعو الإنسان للفعل به، وقيل: إن الدب يقيم أولاده تحت شجرة الجوز، ثم يصعد فيرمي بالجوز إليها إلى أن تشبع، وربما قطع من الشجر الغصن العتل الضخم الذي لا يقطع إلا بالفأس، والجهد، ثم يشد به على الفارس فلا يضرب أحداً إلا قتله.

(دجاجة): وكنيتها أم ناصر الدين وأم الوليد وغير ذلك، وإذا هزمت لم يبق لبيضها مح، وتوصف بقلة النوم. قيل أن نومها بقدر ما تتنفس وعندها خوف في الليل، ولأجل ذلك تطلب وقت الغروب مكاناً عالياً وتخشى الثعلب. قيل إنها إذا رأته ألقت نفسها إليه من شدة الخوف ولا تخشى من بقية السباع، وقيل: يعرف الذكر من الأنثى بإمساك منقاره، فإن تحرك فذكر وإلا فأنثى، ومن الدجاج ما يبيض في اليوم مرتين وهو من أسباب موتها ويستكمل خلق البيضة في بطن الدجاجة في عشرة أيام، وفي الحديث أن النبي ﷺ أمر باتخاذ الغنم للأغنياء وباتخاذ الدجاج للفقراء، ومن العجيب في صنعة الله تعالى أن خلق الفروج من البياض، وجعل الصفار غذاء له كما خلق الطفل من المني وجعل دم الحيض غذاء له، فتبارك الله أحسن الخالقين.

الخواص: لحم الدجاج الفتي يزيد في العقل ويصفي اللون، ويزيد في المني ويقيم الباه والمداومة عليه تورث النقرس والبواسير على ما ذكر.

(دج): طير كبير أغبر يكون بساحل البحر كثيراً وبالقرب من الإسكندرية والناس يصطادونه ويأكلونه.

(دود): إسم جنس، ومنه دود القز ويقال لها الهندية. ومن عجيب أمرها أنها تكون أولا مثل بزر التين ثم تصير دوداً، وذلك في أوائل فصل الربيع ويكون عند خروجه مثل الذر في قدره ولونه، ويخرج في الأماكن الدافئة إذا كان مصروراً في حق، وربما تأخر خروجه فتجعله النساء تحت ثديهن بصرته، فيخرج وغذاؤه ورق التوت الأبيض. قال: ولا يزال يكبر حتى يصير بقدر أصبع، وينتقل السواد إلى البياض وكل ذلك في مدة ستين يوماً. قال: ثم يأخذ في النسج بما يخرجه من فيه إلى أن ينفذ ما في جوفه ثم يخرج شيئاً كهيئة الفراش له جناحان لا يسكنان من الاضطراب، وعند خروجه يهيج إلى السفاد ويلصق الذكر مؤخره إلى مؤخر الأنثى ويلتحمان مدة، ثم يفترقان. قال ويكون قد فرش لهما خرقة بيضاء فينثران البزر عليها، ثم يموتان هذا إذا أريد منهما البزر وإن أريد الحرير تركا في الشمس بعد فراغهما من النسج، فيموت وهو سريع العطب حتى إنه ليخشى عليه من صوت الرعد والعطاس ومس المرأة الحائض والرجل الجنب، ورائحة الدخان والحر الشديد والبرد الشديد، ونحو ذلك قال أبو الفتح البستي:

ألم تر أن المرء طول حياته
معنّىً بأمرٍ لا يزال يعالجُهْ
كذلك دود القزّ ينسج دائماً
ويهلك غمّاً وسط ما هو ناسجُهْ

وقال آخر:

يفنى الحريص بجمع المال مدّتَهُ
وللحوادث ما يبقى وما يدعُ
كدودة القزِّ ما تبنيه يهلكها
وغيرها بالذي تبنيه ينتفع

(ديك): وكنيته أبو حسان وأبو حماد وغير ذلك، ويسمى الأنيس والمؤانس ومن طبعه لا يألف زوجة واحدة، وهو أبله الطبيعة لأنه إذا سقط من بيت أصحابه لا يهتدي إلى الرجوع إليه، وفيه من الخصال الحميدة ما لا يحصر منها أنه يساوي بين أزواجه في الطعمة، ويذكر الله تعالى في الليل حتى قيل إنه ليوقته ويقسمه، وربما لا يخرم في توقيته، وفي الصحيح: إذا سمعتم صياح الديك، فاذكروا الله تعالى، فإنه يصيح بصياح ديك العرش.

وروى الغزالي عن ميمون بن مهران أن لله ملكاً تحت العرش على صورة الديك، فإذا مضى ثلث الليل الأول

ضرب بجناحيه، وقال: ليقم المسلمون، فإذا مضى الثلث الثاني ضرب بجناحيه وقال: ليقم الذاكرون، فإذا كان السحر وطلع الفجر ضرب بجناحيه وقال: ليقم الغافلون، وعليهم أوزارهم.

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «إن لله ديكاً أبيض له جناحان موشحان بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ جناح بالمشرق، وجناح بالمغرب، ورأسه تحت العرش وقوائمه في الهواء، فإذا كان ثلث الليل الأول خفق بجناحيه وقال: سبحان الملك القدوس، فإذا كان الثلث الثاني خفق بجناحيه وقال: قدوس، فإذا كان الثلث الثالث خفق بجناحيه وقال: ربنا الرحمن الرحيم لا إله إلا هو».

وروى الثعلبي بإسناده عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة أصوات يحبها الله تعالى: صوت الديك، وصوت قارىء القرآن، وصوت المستغفر بالأسحار».

وفي الحديث: «لا تسبوا الديك، فإنه يؤقت للصلاة». وزعم أهل التجربة أن الرجل إذا ذبح الديك الأبيض الأفرق لم يزل ينكب في أهله وماله.

نادرة: قيل كان لإبراهيم بن مزيد ديك، وكان كريماً عليه، فجاء العيد وليس عنده شيء يضحي عليه، فأمر امرأته بذبحه واتخاذ طعام منه وخرج إلى المصلّى، فأرادت المرأة أن تمسكه، ففر، فتبعته، فصار يخترق من سطح إلى سطح، وهي تتبعه، فسألها جيرانها وهم هاشميون عن موجب ذبحه، فذكرت لهم حال زوجها، فقالوا: ما نرضى أن يبلغ الاضطرار بأبي إسحاق إلى هذا القدر، فأرسل إليه هذا شاة وهذا شاتين وهذا بقرة وهذا كبشاً حتى امتلأت الدار، فلما جاء ورأى ذلك قال: ما هذا؟ فقصت عليه زوجته القصة، فقال: إن هذا الديك لكريم على الله، فإن إسماعيل نبي الله فدي بكبش واحد، وهذا فدي بما أرى.

(حرف الذال):

(ذباب) وكنيته أبو جعفر وهو أصناف كثيرة يتولد من العفونة ومن عجيب أمره أنه يلقي رجيعه على الأبيض يسود وعلى الأسود يبيض ولا يقعد على شجرة الدباء، وفي الحديث: «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم، فليغمسه، فإن في إحدى جناحيه دواء وفي الأخرى داء»، وإن من طبعه أن يلقي نفسه بالجناح الذي فيه الداء.

وحكي أن المنصور كان جالساً، فألح عليه الذباب حتى أضجره، فقال: انظروا من بالباب من العلماء، فقالوا: مقاتل بن سليمان، فدعا به، ثم قال له: هل تعلم لأي حكمة خلق الله الذباب؟ قال: ليذل به الجبابرة. قال: صدقت، ثم أجازه، ومن خصائص النبي ﷺ أنه كان لا يقع عليه ذباب قط، وقال المأمون: قالوا أن الذباب إذا دلك به موضع لسعة الزنبور سكن ألمه، فلسعني زنبور، فحككت على موضعه أكثر من عشرين ذبابة، فما سكن له ألم، فقالوا: هذا كان حتفاً قاضياً، ولولا هذا العلاج لقتلك. وقال الجاحظ: من منافع الذباب أنها تحرق وتخلط بالكحل، فإذا اكتحلت به المرأة كانت عينها أحسن ما يكون، وقيل: إن المواشط تستعمله ويأمرن به العرائس، وقيل: إن الذباب إذا مات وألقي عليه برادة الحديد عاش، وإذا بخر البيت بورق القرع هرب منه الذباب.

(ذئب): حيوان معروف وكنيته أبو جعدة وأبو جاعد، وأبو ثمامة لونه رمادي وهو من الحيوان الذي ينام بإحدى عينيه ويحرس بالأخرى حتى تمل، فيغمضها، ويفتح الأخرى كما قال بعض واصفيه:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي
بأخرى المنايا فهو يقظان هاجعُ(1)

وإذا أراد السفاد اختفى، ويطول في سفاده كالكلب، وإذا جاع عوى، فتجمع الذئاب حوله، فمن هرب منها أكلوه وإذا خاف منه الإنسان طمع فيه، وليس في الأرض أسد يعض على عظم إلاّ ويسمع لتكسيره صوت بين لحييه إلا الذئب، فإن لسانه يبري العظم بري السيف ولا يسمع له صوت، وقيل: إذا أدماه الإنسان، فشم الذئب رائحة الدم لا يكاد ينجو منه، وإن كان أشد الناس قلباً وأتمهم سلاحاً، كما أن الحية إذا خدشت طلبها الذر فلا تكاد تنجو منه، وكالكلب إذا عض الإنسان يطلبه الفأر فيبول عليه، فيكون في ذلك هلاكه، فيحتال له بكل حيلة، وقيل: لا يعرف الالتحام عند السفاد إلا في الكلب والذئب، وإذا هجم الصياد على الذئب والذئبة وهما يتسافدان قتلهما كيف شاء، والله أعلم.

(حرف الراء):

(رخ): طير عظيم الخلقة يوجد بجزائر الصين، قال أبو حامد الأندلسي: ذكر لي بعض المسافرين في البحر أنهم أرسوا بجزيرة، فلما أصبحوا وجدوا في طرفها لمعاناً وبريقاً، فتقدموا إليه، وإذا هم بشيء مثل القبة قال: فجعلوا يضربون فيه بالفؤوس إلى أن كسروه، فوجدوه كهيئة البيضة، وفيه فرخ عظيم قال، فتعلقوا بريشه

---

(1) أي صاح نائم في آن واحد.

وجروه، ونصبوا القدور، وخرجوا يحتطبون من تلك الجزيرة حطباً يقال له حطب الشباب فلما أكلوا ذلك الطعام اسودت لحية ولمة كل ذي شيب قال، فلما أصبحوا جاءهم الرخ، فوجدهم قد صنعوا بفرخه ما صنعوا، فذهب، وأتى في رجليه بحجر عظيم وتبعهم بعدما ساروا في البحر وألقاه على سفينتهم، فسبقت السفينة، وكانت مشروعة بتسع قلوع، ووقع الحجر في البحر، فنجاهم الله تعالى منه، وكان ذلك من لطف الله تعالى بهم قال: وقد كان بقي معهم أصل ريشة قيل إنهم كانوا يجعلون فيها الماء فتسع مقدار قربة، فسبحان الخالق الأكرم.

(رخم): طير أغبر أصفر المنقار معروف وهو من أشر الطيور ويقال: إنها صماء وسبب ذلك ما قيل في بعض الحكايات: إن موسى عليه الصلاة والسلام لما مات تكلمت بموته، وكانت تعرف مكانه، فأصمها الله تعالى حتى لا ترشد أحداً إلى موضعه.

(حرف الزاي):

(زرافة): حيوان غريب الخلقة، ولما كان مأكولها ورق الشجر خلق الله تعالى يديها أطول من رجليها، وهي ألوان عجيبة يقال: إنها متولدة من ثلاث حيوانات الناقة الوحشية والبقرة الوحشية والضبع فينزو الضبع على الناقة فيأتي بذكر فينزو ذلك الذكر على البقرة فتتولد منه الزرافة، والصحيح أنها خلقة بذاتها ذكر وأنثى كبقية الحيوانات لأن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا بحكمة.

(زنبور): حيوان فوق النحل له ألوان وقد أودعه الله حكمة في بنيانه بيته وذلك أنه يبنيه مربعاً له أربعة أبواب كل باب مستقبل جهة من الرياح الأربع، فإذا جاء الشتاء دخل تحت الأرض ويبقى إلى أيام الربيع، فينفخ الله تعالى فيه الروح فيخرج ويطير وفي طبعه التهافت على الدم واللحم ومن خاصيته أنه إذا وضع في الزيت مات وفي الخل عاش، ولسعته تزال بعصارة الملوخية.

(حرف السين):

(سعلاة) نوع من المتشيطنة. قال السهلي: هو حيوان يتراءى للناس بالنهار ويغول بالليل، وأكثر ما يوجد بالغياض، وإذا انفردت السعلاة بإنسان وأمسكته صارت ترقصه وتلعب به كما يلعب القط بالفأر قال: وربما صادها الذئب وأكلها وهي حينئذٍ ترفع صوتها وتقول: أدركوني فقد أخذني الذئب، وربما قالت: من ينقذني منه وله ألف دينار، وأهل تلك الناحية يعرفون ذلك، فلا يلتفتون إلى كلامها.

(سمندل) حيوان يوجد بأرض الصين، ومن عجيب أمره أنه يبيض في النار، ويفرخ فيها ويؤخذ وبره، فينسج ويجعل منه المناشف، وهذه المناشف إذا اتسخت جعلت في النار، فتأكل النار وسخها ولا تحرقها.

حكي أن شخصاً بلّ واحدة من هذه المناشف بالزيت وجعلت في النار، وأوقدت ساعة ولم تحترق.

(سنجاب) حيوان كهيئة الفأر يوجد في بلاد الترك على قدر اليربوع إذا أبصر الإنسان هرب منه، وشعره كشعر الفأر وهو ناعم، فيؤخذ ويسلخ جلده ويجعل فرواً يلبس وطبعه موافق لكل طبع وأحسنه الأزرق.

(سنور) حيوان متواضع ألوف خلقه الله تعالى لدفع الفأر والحشرات كناه وأسماؤه كثيرة.

حكي أن أعرابياً صاد سنوراً، فرآه شخص، فقال: ما تصنع بهذا القط، ولقيه آخر، فقال: ما تصنع بهذا الخيدع؟ ولقيه آخر، فقال: ما تصنع بهذا الخيطل؟ ولقيه آخر، فقال: ما تصنع بهذا الهر؟ قال: أبيعه. قال: بكم؟ قال: بمائة درهم، فقال: إنه يساوي نصف درهم قال: فرمى به، وقال: لعنه الله ما أكثر أسماءه وأقل قيمته.

وهذا الحيوان يهيج في زمان الشتاء في شهرين منه وتراهن يترددن صارخات في طلب السفاد، فكم من حرة خجلت وذي غيرة هاجت حميته، وعزب تحركت شهوته، وطيب فم السنور كطيب فم الكلب في النكهة، وقيل: أن الهرة تحمل خمسين يوماً، وهو يجمع بين العض بالناب والخمش بالمخلاب، وليس كل سبع كذلك، وهو يناسب الإنسان في بعض الأحوال، فيعطس ويتمطى، ويغسل وجهه بلعابه ويلطخ وبر ولده بلعابه حتى يصير كأن الدهن يسري في جلده، وقيل: إذا بال الهر شم بوله ودفنه قيل: لأجل الفأر، فإذا شمه علم أن هناك هراً، فلم يخرج، وأما سنور الزباد، فهو الفهد بالهند ويوجد الزباد تحت إبطيه وفخذيه.

(سوس) هو دود الحبوب والفاكهة. ومن الفوائد التي تكتب في الحبوب فلا تسوس أسماء الفقهاء السبعة الذين كانوا بالمدينة وقد نظمها بعضهم، فقال:

ألا كلُّ من لا يقتدي بأئمة
فقسمته ضيزى عن الحق خارجه(١)

فخذهم عبيد الله عروة قاسمٌ
سعيدٌ أبو بكرٍ سليمانُ خارجه

---

(١) قسمة ضيزى: قسمة ظالمة لا عدل فيها ولا إنصاف.

(حرف الشين):

(شاد هوار) حيوان يوجد بأرض الترك يقال أن له قرناً عليه اثنتان وسبعون شعبة مجوفة، فإذا هبت الريح سمع لها تصويت عجيب يكاد يدهش وربما قيل إن فيه شعبة يورث سماعها البكاء والحزن، وأخرى تورث الفرح والضحك، وأنه أهدي إلى بعض الملوك شيء من شعبها، فرأى فيه ذلك، ويقال إن من الحيوان شيئاً يوجد بالغياض في قصبة أنفه إثنا عشر ثقباً إذا تنفس يسمع له صوت كصوت المزمار، فتأتيه الحيوانات لتسمعه، فتدهش، فيغفل بعضها من الطرب، فيثب عليه، فيأخذه، ويأكله، وهي تعلم ذلك منه وتحترز، فإذا لم يمسك منها شيئاً ضاق خلقه وصاح بها صيحة، فتهرب وتتركه.

(شاهين) طير يكون كهيئة الصقر إلا أنه عظيم واسع العينين، ومزاجه أيبس من مزاج الصقر، وحركته من العلو إلى أسفل أقوى، ولذلك ينقض على الطير بشدة، فربما يخطئه فيضرب نفسه بالأرض بشدة، فيموت، وقيل: أول من صاد به قسطنطين، وذلك أنه قد جعل له الحكماء الشواهين تظله من الشمس إذا سار، فاتفق في بعض الأيام أنه ركب فدارت الشواهين عليه، وسار. قال: فطار واحد منها وانقض على صيد، فأخذه، فأعجب الملك ذلك وصار يتصيد به.

(شحرور) طير أسود فوق العصفور يصوت بأصوات مطربة.

(حرف الصاد):

(صرد) حيوان يسمى الصرصار على قدر الخنفساء له جناحان ويقال له الصوام لأنه أول طير صام يوم عاشوراء.

(صعو) طير من صغار العصافير أحمر الرأس.

(حرف الضاد):

(ضأن) نوع من الحيوانات ذوات الأربع، وهو من الحيوانات المباركة تحمل الأنثى منه بواحد واثنين، وفيها البركة، وغيرها تحمل بالسبعة والتسعة، وليس فيها بركة وإذا رعت زرعاً نبت عوضه، وذلك لبركتها بخلاف ذوات الشعر، ومن عجيب أمرها أنها إذا رأت الذئب تخور وتخاف منه ولا يخاف من سائر السباع.

قال بعض القُصاص: مما أكرم الله تعالى به الكبش أن خلقه مستور العورة من قبل ومن دُبر، ومما أهان به التيس أن خلقه مهتوك الستر مكشوف العورة من قُبُل ومن دُبُر، ويقال: الضأن من دواب الجنة، وهي صفوة الله من البهائم، ويقال في المدح: هو كبش من الكباش وفي الذم هو تيس من التيوس، وأهدى بعضهم إلى صديقه شاة هزيلة فقال:

تقول لي الأخوان حين طبختها
أتطبخ شطرنجاً عظاماً بلا لحم

ومن العجب أنه يأتي غنم من الهند للكبش منها ألية في صدره وأليات في كتفيه، وألية على ذنبه، وربما تكبر ألية الضأن حتى تمنعه من المشي ومن عجيب أمرها أنها إذا تسافدت وقت المطر لا تحمل وعند هبوب الريح إن كانت شمالية حملت ذكراً، وجنوبية حملت أنثى، والله أعلم.

ومن خواصها: أن لحمها ينفع للسوداء، ويزيد في المني والباه، وإذا تحملت المرأة بصوفها قطع حبلها، وإذا غطي إناء العسل بصوف الضأن الأبيض منع وصول النمل إليه، وإذا دفن قرن كبش تحت شجرة كثر حملها على ما ذكر والله أعلم.

(ضب) حيوان يجعل جحره في الأرض الصلدة وعنده بلم، فربما لا يهتدي لجحره إذا خرج منه، فلذلك لا يحفره إلا بقرب كودية أو أشارة، وهو من الحيوان الذي يعمر. قيل: إنه يعيش سبعمائة سنة، ومن طبعه أنه يصبر على الماء يقال: إنه لا يشرب، فإنه يبول في كل أربعين يوماً قطرة، والأنثى تبيض سبعين بيضة وأكثر، وتجعلها في الأرض، وتتعاهدها في كل يوم إلى أربعين يوماً، فيخرج، وبيضها قدر بيض الحمام، وهذا الحيوان شديد الخوف من الآدمي، ولذلك يجعل العقارب في جحره حتى يمتنع بها، ويخرج من جحره كليل البصر، فيستقبل الشمس، فيحصل له بذلك حدة في بصره، وإذا عطش نشق النسيم فيروى، وبينه وبين الأفاعي مناسبة، وذلك أنه لا يخرج زمن الشتاء.

فائدة: قيل أن أعرابياً أتى النبي ﷺ وفي كمه ضب قد صاده، وقال: لولا أن تسميني العرب عجولاً لقتلتك، وسررت الناس بقتلك فقال عمر: دعني يا رسول الله أقتله، فقال عليه الصلاة والسلام: مهلاً يا عمر أما علمت أن الحليم كاد أن يكون نبياً؟ قال: ثم أقبل الأعرابي على النبي ﷺ وقال: والله لاآمنت بك إلا أن يؤمن بك هذا الضب، وأخرجه من كمه قال: فعند ذلك قال النبي ﷺ يا ضب: فأجابه بلسان فصيح لبيك وسعديك يا رسول رب العالمين، فقال: من تعبد؟ قال: الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي البحر سبيله، وفي

الجنة رحمته، وفي النار عذابه، فقال: من أنا يا ضب؟ قال: رسول رب العالمين قد أفلح من صدقك وقد خاب من كذبك، قال، فقال الأعرابي عند ذلك: يا ويلاه ضب اصطدته بيدي من البرية يشهد لك بالرسالة. أنا أولى منه بذلك، هات يدك أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله حقاً، ولقد أتيتك وما على وجه الأرض أحد أكثر بغضاً مني إليك، ولقد صرت الآن أذهب من عندك وما على وجه الأرض أحداً أكثر محبة مني إليك، ولأنت الساعة أحب إليّ من أهلي وولدي وما تملك يدي، فقد آمن بك شعري وبشري وداخلي وخارجي وسري وعلانيتي، فقال النبي ﷺ: الحمد لله الذي هداك لهذا الدين الذي يعلو ولا يعلى عليه، ولكن لا يقبله الله إلا بصلاة، ولا يقبل الصلاة إلا بقراءة. قال: فعلمني يا حبيبي. قال: فعلمه سورة الفاتحة، وسورة الإخلاص، وقال: من قرأها ثلاث مرات، فكأنما قرأ القرآن. قال: لهذا يقبل اليسير ويعفو عن الكثير، ثم سأله: ألك مال؟ فقال: يا حبيبي ليس في بني سليم أفقر مني، فقال لأصحابه: أعطوه، فأعطوه حتى أثقلوه، فقال عبد الرحمن بن عوف يا رسول الله: عندي ناقة عشارية أعطيها له، فقال: إن الله يعطيك ناقة في الجنة من درة قوائمها من الزبرجد الأخضر وعيناها من الياقوت الأحمر، وعليها هودج من السندس تخطفك من الصراط كالبرق. قال: فخرج الأعرابي من عنده، فتلقاه ألف فارس من المشركين كلهم يريدون قتل النبي ﷺ، فأخبرهم بقصته، فأسلموا عن آخرهم، وأمر النبي ﷺ خالد بن الوليد عليهم، وهذه القصة ذكرها الدارقطني بتمامها، والبيهقي والحاكم، وابن عدي.

الخواص: قلبه يذهب الحزن والخفقان، وشحمه يطلى به الذكر يزيد في الباه، وكعبه يشد على وجع الضرس يبرأ، وإذا جعل على وجه فرس لا يسبقه شيء، وبعره يذهب البرص والكلف طلاء، ومن أكل لحمه لا يعطش زماناً طويلاً.

(ضبع) حيوان معروف ومن كناه أم عامر ومن طبعه حب لحم الآدمي حتى قيل: إنه ينبش القبور وإذا مر بإنسان نائم حفر تحت رأسه ووثب عليه وبقر بطنه وشرب دمه.

الخواص: من شرب دمه ذهب وسواسه، ومن علّق عليه عينه أحبه الناس، وإذا جعلها في خل سبعة أيام ثم جعلها تحت فص خاتم فكل من كان به سحر، وجعل الخاتم في قليل ماء وشربه زال سحره.

(ضفدع) حيوان يتولد من المياه الضعيفة الجري، ومن العفونات وعقيب الأمطار وأول ما يظهر مثل الحب الأسود، ثم ينمو، ثم تتشكل له الأعضاء، وإذا نق جعل فكه الأسفل في الماء والأعلى من خارج وفي صوته حدة. قال سفيان: ليس من الحيوان أكثر ذكراً لله تعالى من الضفدع، وفي الآثار أن داود عليه الصلاة والسلام قال: لأسبحن الله تعالى بتسبيح ماسبحه أحد قبلي، فنادته ضفدعة يا داود تمنّ علي الله تعالى بتسبيحك، وأنا لي تسعون سنة ما جف لساني عن ذكر الله تعالى قال: فما تقولين في تسبيحك قالت أقول: سبحان من هو مسبح بكل لسان، سبحان من هو مذكور بكل مكان، فقال داود: ما عسى أن أقول. وقال بعضهم: إنها كانت تأخذ الماء بفيها وتجعله على نار إبراهيم الخليل، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(حرف الطاء):

(طاووس) طير مليح ذو ألوان عجيبة وعنده الزهو في نفسه والعجب، ومن طبعه العفة وهو من الطير كالفرس من الحيوان، والأنثى تبيض حين يمضي لها من العمر ثلاث سنين وفي ذلك الأوان يكمل ريش الذكر ويتم لونه، وتبيض الأنثى مرة واحدة في كل شهر، ففي السنة اثنتا عشرة بيضة أو أقل أو أكثر، ويسفد الذكر في أيام الربيع، ويرمي ريشه في أيام الخريف، كالشجر فإذا بدأ طلوع الورق طلع ريشه، ومدة حضنه ثلاثون يوماً.

فائدة: قيل: إن آدم لما غرس الكرمة جاء إبليس لعنه الله، فذبح عليها طاووساً، فشربت دمه، فلما طلعت أوراقها ذبح عليها قرداً، فشربت دمه، فلما طلعت ثمرتها ذبح عليها أسداً، فشربت دمه، فلما انتهت ثمرتها ذبح عليها خنزيراً، فشربت دمه، فمن أجل ذلك تجد شارب الخمر أول ما يشربها وتدب فيه يزهو بنفسه، ويميس عجباً كالطاووس، فإذا جاء مبادىء السكر لعب وصفق بيديه كالقرد، فإذا قوي سكره قام وعربد، كهيئة الأسد، فإذا انتهى سكره انقبض كما ينقبض الخنزير، ثم يطلب النوم والناس تتشاءم بإقامته بالدور، **قيل**: لأنه كان سبباً لدخول إبليس الجنة وخروج آدم منها، والله على كل شيء قدير[1].

---

(٢) قلت: واليزيدية عبدة الشيطان يسمون إبليس: «طاووس ملك» وهم يسكنون أطراف الجبال في سوريا والعراق وبعض نواحي إيران، وقد انتقل بعضهم إلى أميركا فنشر مذهبهم هناك وهو الآن ينتشر بين الضالين والكفرة في كثير من البلاد.

(حرف الظاء):

(ظبي) واحد الغزلان، وهو ثلاثة أصناف الأول الآرام، وهو ظباء الرمل ولونها رمادي وهي سمينة العنق.

والثاني: العفر ولونها أحمر وهي قصيرة العنق.

والثالث: الأدم وهي طويلة العنق وتوصف بحدة البصر وقيل: إن الظبي يقضم الحنظل ويمضغه مضغاً وماؤه يسيل من شدقيه ويَرِدُ الماء الملح فيشرب الماء الأجاج ويغمس خرطومه فيه كما تغمس الشاة لحييها في العذب، فأي شيء أعجب من حيوان يستعذب ملوحة البحر ويستحلي مرارة الحنظل.

الخواص: لسانه يجفف ويطعم للمرأة السليطة تزول سلاطتها، وبعره وجلده يحرقان ويسحقان ويجعلان في طعام الصبي يزيد ذكاؤه ويصير فصيحاً ذلقاً حافظاً.

(ظربان) دويبة فوق جرو الكلب منتنة الريح تزعم العرب أن من صادها وفست في ثوبه لا تزول الرائحة منه حتى يبلى الثوب ويحكى من شؤمها أنها تأتي بيت الظبي، فتفسو فيه ثلاث مرات فتقتل ما فيه، وتأكله بعد ذلك.

(حرف العين):

(عجل): حيوان معروف وهو ذكر البقر وسمي بذلك لاستعجال بني اسرائيل بعبادته والسبب في ذلك أن موسى علي الصلاة والسلام وقت الله له ثلاثين ليلة ثم أتمها بعشر وكان فيهم شخص يسمى موسى بن ظفر السامري في قلبه من حب عبادة البقر شيء فابتلى الله به بني اسرائيل فقال: ائتوني بحلي قال: فأتوه بجميع حليهم فصنع منه عجلاً جسداً وألقى عليه قبضة من التراب أخذه من أثر فرس جبريل عليه السلام فصار له خوار كما أخبر الله تعالى، فعكفوا على عبادته من دون الله تعالى، وكانوا يأتون إليه ويرقصون حوله ويتواجدون فيخرج منه تصويت كهيئة الكلام فيتعجبون من ذلك ويظنون أنه تكلم، وإنما فعل ذلك بإغواء إبليس لعنه الله حتى يطغيهم.

فائدة: نقل القرطبي عن سيدي أبو بكر الطرطوشي رحمهما الله أنه سئل عن قوم يجتمعون في مكان فيقرأون من القرآن ثم ينشد لهم الشعر فيرقصون ويطربون، ثم يضرب لهم بعد ذلك بالدف والشبابة هل الحضور معهم حلال أم حرام فقال: مذهب الصوفية أن هذه بطالة وجهالة وضلالة وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذوا العجل فهذه الحالة هي حالة عبّاد العجل وإنما كان النبي ﷺ مع أصحابه في جلوسهم كأنما على رؤسهم الطير مع الوقار والسكينة فينبغي لولاة الأمر وفقهاء الإسلام أن يمنعوهم من الحضور في المساجد وغيرها ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ولا يعينهم على باطلهم هذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل رحمهم الله تعالى.

(عقرب): هو من الحشرات. قال الجاحظ: إنها تلد من فيها مرتين[1] وتحمل أولادها على ظهرها وهم كهيئة القمل كثير العدد وقال غيره إذا حملت تسلط عليها أولادها فأكلوا بطنها وخرجوا[2] كهيئة الذر ثم يكثرون ويطوفون بالأرض ولها ثمانية أرجل ومن عجيب أمرها أنها لا تضرب النائم إلا إذا تحرك شيء منه والخنافس تأوي إليها وربما لسعت التنين العظيم فقتلته.

(غريبة): قال ذو النون المصري بينما أنا في بعض سياحتي إذ مررت بشاطىء البحر فرأيت عقرباً أسود قد أقبل إلى أن جاء إلى شاطىء البحر، فظننت أنه يشرب فقمت لأنظر فإذا بضفدع قد خرج من الماء وأتاه فحمله على ظهره وذهب به إلى ذلك الجانب، قال ذو النون فاتزرت بمئزري وعمت خلفه حتى إذا صعد من ذلك الجانب صعدت وسرت وراءه فما زال حتى جاء إلى شجرة، فوجدت تحتها غلاماً نائماً من شدة السكر قد أقبل عليه تنين عظيم، قال: فلصقت العقرب برأس التنين ولسعته فقتلته ثم رجعت إلى ظهر الضفدع فعبر بها إلى الماء وسار بها إلى المكان الذي جاءت منه قال ذو النون فتعجبت من ذلك وأنشدت:

يا راقداً والجليلُ يحفظه
من كل سوءٍ يكون في الظلمِ
كيف تنامُ العيونُ عن ملكٍ
يأتيك منه فوائدُ النعم

ثم أيقظت الغلام وأخبرته بذلك قال: فلما سمع ذلك قال: أشهدك على إني قد تبت عن هذه الخصلة ثم جررنا ذلك التنين ورميناه في البحر ولبس ذلك الغلام مسحاً وساح إلى أن مات رحمة الله تعالى عليه، وما أحسن ما قال بعضهم:

إذا لم يسالمك الزمان فحاربِ
وباعدْ إذا لم تنتفع بالأقاربِ

---

(١) قد أخطأ رغم انتقاده لمن روى الأساطير.

(٢) وهو الصحيح.

ولا تحتقر كيد الضعيف فربما
تموت الأفاعي من سموم العقارب
فقد هدّ قدماً عرش بلقيس هدهدٌ
وخرّب فأرٌ قبل ذا سدّ مأرب
إذا كان رأس المال عمرك فاحترز
عليه من التضييع في غير واجب
فبين اختلاف الليل والصبح معركٌ
يكرُّ علينا جيشه بالعجائب[1]

فائدة: إذا لدغ أحد فاقرأ عليه هذه الكلمات وهي: سلام على نوح في العالمين وصلى الله على سيدنا محمد في المرسلين أعيذك من حاملات السم أجمعين لا دابة بين السماء والأرض إلا ربي آخذ بناصيتها كذلك يجزي عباده المحسنين إن ربي على صراط مستقيم نوح قال لكم من ذكرني لا تلدغوه إن ربي بكل شيء عليم وصلى الله على سيدنا محمد الكريم.

وقال بعض العلماء: من قال: عقدت زبان العقرب ولسان الحية ويد السارق بقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ أمن من العقرب والحية والسارق.

وفي البخاري أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله ماذا لقيت من عقرب لدغتني البارحة فقال له النبي ﷺ: أما إنك لو قلت إذا أمسيت أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرك.

وروى الترمذي أن من قال حين يمسي أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ثلاث مرات ثم قال سلام على نوح في العالمين لم تضره الحية والعقرب والسر في ذكر نوح دون غيره هو أنه لما ركب في السفينة سألته الحية والعقرب أن يحملها معه فشرط عليهما أنهما لا يضران من ذكر اسمه بعد ذلك فشرطا له ذلك.

الخواص: من بخر البيت بزرنيخ أحمر وشحم بقر هربت منه العقارب، ومن شرب مثقالين من حب الأترج أبرأه من سمها، ومن علق عليه شيء من ورق الزيتون برىء أيضاً لوقته.

(عقعق): طير ذو لونين طويل الذنب قدر الحمامة على شكل الغراب وجناحاه أكبر من جناحي الحمامة وهو لا يأوي إلا الأماكن العالية وإذا باض جعل حول بيضه ورق الدلب خوفاً عليه من الخفاش لا يفسده.

(١) معرك: زمان اعتراك وقتال.

الخواص: دمه إذا جعل على قطن وألصق على موضع النصل والشوكة الغائبة في البدن أخرجه.

(علق): دود أحمر وأسود يكون بالماء يعلق بالخيل والآدمي فإذا علقت بك فرش عليها ماء وملحاً وإذا علقت بفرس فبخره بوبر الثعلب فإنها تنفصل من رائحة دخانه. ومن خواصه أن البيت إذا بخر به هرب ما فيه من البق والبعوض وإذا جفف وسحق وقلع الشعر وطلي به مكانه منع نباته.

(عنقاء): اختلف فيها فقال بعضهم: هو طائر عظيم الخلقة له وجه إنسان وفيه من كل حيوان لون وقال بعضهم هو طير غريب الشكل يبيض بيضاً كالجبال ويبعد في طيرانه وسميت بذلك لأنه كان في عنقها طوق أبيض، قال القزويني: إنها تخطف الفيلة لعظمها وكبر جثتها كما تخطف الحدأة الفأر قال: وكانت في قديم الزمان بين الناس إلى أن خطفت عروساً بحليها فذهب أهلها إلى نبي ذلك الزمان فشكوها إليه فدعا عليها فذهب بها إلى بعض الجزائر التي خلف خط الاستواء وهي جزيرة لا يصل إليها أحد وجعل لها فيها ما تقتات به من السباع كالفيل والكركند وغير ذلك وقال أصحاب التواريخ إن هذا الطير يعمر حتى قيل إنه يعيش ألفي سنة ويتزوج إذا مضى عليه خمسمائة.

وحكى الزمخشري في ربيع الأبرار، أن الله تعالى خلق في زمن موسى عليه الصلاة والسلام طيراً يقال له: العنقاء له وجه كوجه الإنسان، وأربعة أجنحة من كل جانب وخلق له أنثى مثله ثم أوحى الله تعالى إلى موسى إني خلقت خلقاً كهيئة الطير وجعلت رزقه الوحوش والطير التي حول بيت المقدس قال: فتناسلا وكثر نسلهما فلما توفي موسى عليه الصلاة والسلام انتقلت إلى نجد والعراق، فلم تزل تأكل الوحوش وتخطف الصبيان إلى أن تنبأ خالد بن سنان العبسي، فشكوها له، فدعا عليها، فانقطعت وانقطع نسلها وانقرضت[1].

(عنكبوت) دويبة لها ثمانية أرجل وستة عيون وهي من الحيوان الذي صيده الذباب وولده يخرج قوياً على النسج من غير تعليم ولا تلقين ويخرج أولاده دوداً صغيراً ثم يتغير وتصير عنكبوتاً وتكمل صورته.

فائدة: قيل إن امرأة ولدت جارية، ثم قالت لخادم لها

(١) الأرجح أنها من الديناصورات الطائرة، وقد انقرضت قديماً وبقيت أخبارها.

إقتبس لنا ناراً، فخرج، فوجد بالباب سائلاً، فقال له: ما ولدت سيدتك؟ فقال: بنتاً، فقال: لا تموت حتى تبغي بألف رجل ويتزوجها خادمها ويكون موتها بالعنكبوت، فقال الخادم، وأنا أصبر لهذه حتى يحصل منها ما يحصل، فصبر حتى قامت أمها لتقضي بعض شؤونها وعمد إلى البنت. فشق بطنها بسكين، وهرب، قال فجاءت أمها، فوجدتها على تلك الحالة، فدعت بمن يعالجها حتى شفيت، فلما كبرت بغت، قال: ثم إنها سافرت وأتت مدينة على ساحل من سواحل البحر، فأقامت هناك تبغي قال، وأما الرجل فإنه صار من التجار، وقدم لتلك المدينة ومعه مال كثير، فقال لامرأة عجوز هنال أخطبي لي امرأة حسنة أتزوج بها قال، فوصفتها له وقالت ليس هنا أحسن منها، ولكنها تبغي، فقال العجوز ائتني بها قال، فذهبت وأخبرتها بالقصة، فقالت لها: حباً وكرامة، فإني قد تبت عن البغي، فتزوج الرجل بها، وأحبها حباً شديداً وأقام معها أياماً، وكان يود أن يراها متجردة، فلم يمكنه ذلك حتى إذا كان في بعض الأيام خرج على عادته لقضاء أشغاله ودخلت هي الحمام، وعرضت له حاجة، فرجع إلى الدار، وصعد إلى قصرها، فلم يرها، فسأل عنها، فقيل له هي في الحمام، فدخل عليها، فرآها متجردة، ورأى في بطنها أثراً كالخياطة، فقال: ما هذا؟ قالت: لا أعلم إلا أن أمي أخبرتني أنه كان لنا خادم وأنه يوم ولادتي غافل أمي وشق بطني بسكين وهرب وأنها حين رأتني كذلك دعت بعض الأطباء، فخاط بطني وعالجني حتى أندمل جرحي، وشفيت، وبقي هذا الأثر، فقال لها: أنا ذلك الخادم، وحكى لها السبب، وأن ذلك السائل أخبره أنها تموت بالعنكبوت، ثم إنه اهتم بأمرها وجمع مهندسي البلدة التي هم فيها وسألهم أن يبنوا له بناء لا ينسج عليه العنكبوت، فقالوا كل بناء ينسج عليه إلا أن يكون البلور لنعومته لا ينسج عليه، فأمرهم أن يصنعوا لها قصراً من البلور، وبذل لهم ما أرادوا، فعملوه وفرشه وأمرها أن تقيم فيه لا تخرج منه خوفاً عليها من العنكبوت، قال: فبينما هو ذات يوم إذ رأى عنكبوتاً قد نسج في ذلك القصر، فقام إليه، فرماه وقال لها هذا الذي يكون موتك منه قال: فداسته بإبهامها وقالت كالمستهزئة: أهذا الذي يقتلني، فشدخته، فتعلق بطرف إبهامها من مائه شيء فعمل بها حتى ورمت ساقها، ثم وصل الورم إلى قلبها، فقتلها، فما أفاده قصره ولا صرحه شيئاً. قال الله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[1] الآية.

فائدة: نسج العنكبوت على ثلاثة مواضع: على غار النبي ﷺ، وعلى غار عبد الله بن أنيس لما بعثه النبي ﷺ لخالد الهذلي، فقتله، وحمل رأسه، ودخل به في غار خوفاً من أهله، ونسج على عورة زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم لما صلب عرياناً، وقيل إنها نسجت مرتين على داود حين كان جالوت يطلبه.

الخواص: نسجها إن وضع على الجراح الطرية يقطع دمها، ويجلو الفضة إذا دلكت به والذي يوجد من نسجها في بيت الخلاء ينفع المحموم إذا تبخر به.

(ابن عرس) حيوان معروف وهو بأرض مصر كثير ويسمى العرسة وهو عدو للفأر وعنده الجِبَل، قيل: إنه عدا خلف فأر، فصعد منه على شجرة، فصعد خلفه، وأمر أنثاه أن تقف تحت الشجرة، ثم قطع الغصن الذي كان عليه الفأر، فسقط، فأخذته أنثاه. ومما يحكى عنه أنه يحب الذهب فيسرقه ويلد عليه.

عجيبة: قيل إن رجلاً صاد فرخاً من أولاده وحبسه تحت طاسة، فجاء أبوه، فوجده، فذهب وأتى بدينار، فوضعه، فلم يفلته، ثم ذهب وأتى بآخر وما زال كذلك حتى أتى بخمسة دنانير، فلم يفلته، ثم أتى بخرقة، فلم يفلته، فأراد ابن عرس أن يأخذ ما برطله به فلما علم الرجل ذلك فهم أنه لم يبق عنده شيء، فأفلته له.

(حرف الغين):

(غراب) وكنيته أبو حاتم وله كنى غير ذلك، وهو أنواع كثيرة منها الأكحل، وغراب الزرع، والأزرق وهذا النوع يحكي جميع ما سمعه، والعرب تتفاءل بصياح الغراب، فتقول: إذا صاح مرتين فشر، وإذا صاح ثلاثة فخير، وهو كالإنسان عند الجماع، وفي طبعه الاستتار عن الناس عند مجامعته، والأنثى تبيض ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، وتحضن ذلك والأب يسعى في طعمتها إلى أن تفرخ، فإذا فرخت خرجت أفراخها قبيحة المنظر، فتفرق منها وتتركها وتغيب فيرسل الله لها البعوض فتتغذى به ثم لا تزال تتعاهدها حتى ينبت لها الريش فتأتيها ومنه قول الحريري[2]:

---

(١) سورة النساء، الآية (٧٨).

(٢) هو القاسم بن علي أبو محمد الحريري البصري، صاحب المقامات الحريرية. من كتبه «درة الغواص في أوهام الخواص» و«ملحة الإعراب». ولد بالمشان بلدة قرب البصرة، وتوفي بالبصرة.

يـا رازق الـنـعـاب فـي عـشـه
وجابر العظم الكسير المهيض

ومن طبعه أنه لا يتعاطى الصيد بل إن وجد رمة أكل منها ويقم من الأرض ما وجد ويسمى بالفاسق لأنه لما أرسله نوح عليه السلام ليكشف عن الماء، وجد في طريقه رمة فسقط عليها وترك ما أرسل إليه، ويسمى بالبين لأنه إذا رحل العرب من مكان نزل فيه وزعق في أثرهم. ومن الغرائب أن بين الغراب وبين الذئب إلفة وذلك إنه إذا رأى الذئب بقر بطن شاة سقط وأكل منها ومعه الذئب لا يضره.

الخواص: إذا غمس الغراب في الخل ثم جفف وسحق ريشه وطلي به الشعر سوده، وإذا علق منقاره على إنسان زالت عنه العين، وزبل الغراب الأبقع ينفع الخوانيق والخنازير طلاء، وإن صر في خرقة على من به السعال زال.

(غرغر) دجاج بني إسرائيل يقال إن فرقة من بني إسرائيل كانت بتهامة، فطغت وبغت وتجبرت وكفرت، فعاقبهم الله تعالى بأن جعل رجالهم القردة وكلابهم الأسود وعنبهم الأراك وجوزهم المقل ودجاجهم الغرغر، وهو دجاج الحبشة فلا ينفع لحمه لرائحته الكريهة، وهذا مشاهد في زماننا هذا الآن على ما نقل، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(حرف الفاء):

(فاختة) طير أغبر من ذوات الأطواق بقدر الحمام لها حسن الصوت يحكى أن الحيات تهرب من صوتها، وفي طبعها الأنس، فمن أجل ذلك تتخذ بيتها في البيوت، وهي من الحيوان الذي يعمر وقد ظهر منها ما عاش خمساً وعشرين سنة.

الخواص: دمها ينفع من الآثار في العين من ضربة أو قرحة إذا قطر فيها.

(فأرة) وكنيتها أم خراب وغير ذلك وتسمى بالفويسقة، وذلك أن النبي ﷺ انتبه ليلة، فوجدها قد جذبت الفتيلة، وأحرقت طرف سجادته، فقتلها، وأمر بقتلها، وهي التي قطعت حبل سفينة نوح، وأذاها لا يكاد ينحصر ومنه: أنها تأتي إلى إناء الزيت، فتشرب منه، فإذا نقص صارت تشرب بذنبها، فإذا لم تصل إليه ذهبت وأتت في فيها بماء وأفرغتها فيه حتى يعلو لها الزيت، فتشربه، وربما وضعت فيه حجراً، فكسرته، ويقال إنها بقايا الممسوخين الذين كانوا يهوداً ومن أراد أن يعلم ذلك فليضع لها لبن ناقة في إناء، فإن لم تشربه فهي منهم.

الخواص: عنيه تشد على الماشي يسهل تعبه، وإذا بخر البيت بزبل الذئب أو الكلب ذهب منه الفأر.

(فرس البحر) حيوان غليظ أفطس الوجه ناصيته كالفرس ورجلاه كالبقر وذنبه قصير يشبه ذنب الخنزير، وجلده يوجد بالنيل، ووجهه أوسع من وجه الفرس يصعد البر ويرعى الزرع، وربما قتل الإنسان وغيره.

(فهد) حيوان شرس الأخلاق. قال أرسطو: هو متولد من الأسد والنمر في طبعه مشابهة بطبع الكلب، ونومه ثقيل، وفي طبعه الحنو على أنثاه وقيل: أول من صاد به كليب بن وائل وأول من حمله على الخيل يزيد بن معاوية وأكثر من اشتهر باللعب به أبو مسلم الخراساني.

(فيل) حيوان يوجد بأرض الهند، وكنيته أبو الحجاج، والأنثى أم سبل وهو ينزو على أنثاه إذا بلغ من العمر خمس سنين، وتحمل أنثاه سنتين ثم تضع ولا يقربها الذكر في مدة حملها، ولا بعده بثلاث سنين ولا يلقح إلا ببلاده وإذا أرادت الوضع دخلت النهر لأن رجليها لاينثنيان، فتخاف عليه، والذكر يحرسها خوفاً على ولده من الحيات، فإنها تأكله، وهو عند شدة غلمته كالجمل، ويهيج في زمن الربيع، وزعم أهل الهند أن لسانه مقلوب، ولولا ذلك لكان يتكلم لشدة ذكائه، **وقيل**: إن ثدييه في صدره كالإنسان، وهو أضخم الحيوان، وأعظمه جرماً، وما ظنك بخلق ربما كان نابه أكثر من ثلاثمائة سن، وهو مع ذلك أملح وأظرف من كل نحيف الجسم رشيق، وربما مر الفيل مع عظم بدنه خلف القاعدة فلا يشعر برجله ولا يحس بمروره لخفة همسه، واحتمال بعض جسده لبعض، وأهل الهند يزعمون أن أنياب الفيل، وقرناه يخرجان مستبطنين حتى يخرقان وخرطوم أنفه يده وبه يتناول الطعام إلى جوفه وبه يقاتل وبه يصيح وصياحه ليس في مقدار جرمه. **وقيل**: إن الفيل جيد السباحة وإذا سبح رفع خرطومه كما يغيب الجاموس جميع بدنه، إلا منخريه ويقوم خرطومه مقام عنقه والخرق الذي في خرطومه لا ينفذ، وإنما هو وعاء إذا ملأه من طعام أو ماء أولجه في فيه لأنه قصير العنق لا ينال ماء ولا مرعى، وأهل الهند تجعله في القتال وهو أيضاً يقاتل مع جنسه، فمن غلب دخلوا تحت أمره. **وقيل**: جعل الله في طبع الفيل الهرب من السنور.

حكي عن هارون مولى الأزد أنه خبأ معه هراً ومضى بسيف إلى الفيل فلما دنا منه رمى بالهر في وجهه فأدبر

هارباً وكبر المسلمون، وظنوا أنه هرب منه. قال أبو الشمقمق:

يا قومُ إني رأيت الفيل بعدكم
تبارك الله لي في رؤية الفيلِ

رأيت بيتاً له شيءٌ يحركه
فكدت أفعل شيئاً في السراويل

وقيل: إذا اغتم الفيل لم يكن لسواسه هم إلا الهرب بأنفسهم ويتركونه. ومن عجيب أمره أن سوطه الذي به يحث ويضرب محجن حديد أحد طرفيه في جبهته والآخر في يد راكبه، فإذا أراد شيئاً غمزه به في لحمه وأول شيء يؤدبون به الفيل يعلمونه السجود للملك.

قيل: خرج كسرى أبرويز لبعض الأعياد وقد صفوا له ألف فيل وأحدق به ثلاثون ألف فارس، فلما رأته الفيلة سجدت له، فما رفعت رؤوسها حتى جذبت بالمحاجن وراضتها الفيالون، وتزعم أهل الهند أن جبهة الفيل تعرق كل عام عرقاً غليظاً سائلاً أطيب من رائحة المسك، ولا يعرض ذلك العرق إلا في بلادها خاصة، وإن عظام الفيل كلها عاج إلا أن جوهر نابه أكرم وأثمن ولولا شرف العاج وقدره لما فخر الأحنف بن قيس على أهل الكوفة في قوله: نحن أكثر منكم عاجاً وساجاً وديباجاً وخراجاً، وقيل أن الفيلة لا تتسافد في غير بلادها.

فائدة: من قرأ سورة الفيل ألف مرة في كل يوم عشرة أيام متوالية، ثم جلس على ماء جار، وقال: اللهم أنت الحاضر المحيط بمكنونات الضمائر، اللهم عز الظالم وقلّ الناصر، وأنت المطلع العالم اللهم إن فلاناً ظلمني وأساءني ولا يشهد بذلك غيرك أنت مالكه فأهلكه، اللهم سربله سربال الهوان، وقمصه قميص الردى، اللهم اقصفه ست مرات، اللهم اخفضه مرتين، فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق، فإن الله يستجيب له ما لم يكن ظالماً.

الخواص: جلده إذا بخر به بيت هرب بقه وإذا سقي إنسان من وسخ أذنه نام نومة طويلة، وإذا علق من نابه شيء على شجرة لم تثمر، وإذا عمل من جلده ترس يكون أصلب من كل ترس.

(حرف القاف):

(قاقم) دويبة تشبه السنجاب إلا أنه أبرد منه مزاجاً، وهو أبيض يقق وجلده أعز قيمة من السنجاب.

(قاوند) طير يكون بساحل البحر يبيض في الرمل ويحضن بيضه سبعة أيام، ثم تخرج أفراخه بعد ذلك، فيزقها بعد سبعة أيام، ويقال ما يمسك الله البحر في هيجانه عن أن يفيض على الساحل إلا إكراماً له لأنه يقال أنه يبر والديه.

خواصه: أنه يقيم المقعد ويحلل البلاغم المزمنة وينفع الأمراض الباردة وأوجاع الأعصاب.

(قرد) حيوان معروف وكنيته أبو خالد، وغير ذلك، وهو قبيح المنظر، مليح الذكاء، سريع الفهم يتعلم الصنائع. قيل: إنه أُهدي للمتوكل قرد خياط، وآخر صائغ، وأهل اليمن يعلمون القرد البيع والجلوس في الدكاكين حتى قيل إنه يخرز النعل ويصر القرطاس، وهو ذو غيرة، وعنده لواط حتى قيل أنه يعدو خلف المليح من شدة المحبة، والتفت ابن الرومي يوماً إلى أبي الحسن الأخفش وهو يحاكي القرد فقال:

هنيئاً يا أبا الحسن المفدّى
بلغت من الفضائلِ كلَّ غاية

شركت القرد في قبح وسخفٍ
وما قصُرت عنه في الحكاية

(قنفذ) بالذال المعجمعة وكنيته أبو سفيان، ومن عجيب أمره أنه يصعد الكرم، فيرمي العنقود، ثم ينزل، فيأكل منه ما أطاق، فإن كان له أفراخ تمرغ في الباقي فيتعلق بشوكه، فيذهب به إلى أولاده، وهو مولع بأكل الأفاعي، فإذا لدغته لا يؤثر فيه سمها لدفع ذلك بشوكه، وإذا تأذى منها ذهب فأكل السعتر البري، فيزول أذاها، وهو الحيوان الذي يسفد مباطنة كالرجل وله خمسة أرجل.

(حرف الكاف):

(كركند)(1) حيوان يوجد ببلاد الهند والنوبة وهو دون الجاموس وله قرْن واحد عظيم لا يستطيع رفع رأسه منه لثقله، وهو مصمت قوي يقاتل به الفيل، فيغلبه، ولا تعمل نابان شيئاً معه وعرض قرنه شبران، وليس بطويل جداً، وهو محدد الرأس شديد الملامسة، وإذا نشر قرنه ظهرت في معاطفه صور عجيبة كالطواويس والغزلان، وأنواع الطير، والشجر وبني آدم، ولذلك يتخذ منه صفائح الأسرة والمناطق للملوك، ويتغالون في ثمنها بحيث تبلغ المنطقة أربعة آلاف أو أكثر، والأنثى تحمل ثلاث سنين ويخرج ولدها نابت الأسنان والقرون، قوي الحافر، ويقال

---

(1) ويسمى أيضاً: وحيد القرن.

إنها إذا قاربت الوضع أخرج الولد رأسه من بطنها وصار يرعى أطراف الشجر، فإذا شبع أدخل رأسه في بطن أمه، ويزعم أهل الهند أنه إذا كان ببلاد لم يدع فيها من الحيوان شيئاً حتى يكون بينها وبينه مائة فرسخ من جميع الجهات هيبة له وهرباً منه، ويسمى الحمار الهندي، وهو شديد العداوة للإنسان يتبعه إذا سمع صوته، فيقتله، ولا يأكل منه شيئاً.

(كروان) طير معروف لا ينام غالب الليل خصوصاً في القمر، وعنده ذكاء قيل: إنه يتكلم بجميع ما يبصره ولا يحتمل المغاينة.

(كركي) طير محبوب للملوك وله مشتى ومصيف، فمشتاه بأرض مصر، ومصيفه بأرض العراق، وهو من الحيوان الرئيس، قيل: إذا نزل بمكان اجتمع حلقة ونام، وقام عليه واحد يحرسه وهو يصوت تصويتاً لطيفاً حتى يفهم أنه يقظان، فإذا تمت نوبته أيقظ غيره لنوبته، قال القزويني: وإذا مشى وطىء الأرض بإحدى رجليه، وبالأخرى قليلاً خوفاً من أن يحس به، وإذا طار سار سطراً يقدمه واحد كهيئة الدليل، ثم تتبعه البقية.

(كلب) معروف وهو نوعان[1]: أهلي وسلوقي، وهذان النوعان سواء إلا أن أنثى السلوقي أسرع في التعلم من ذكره، وهذا الحيوان حليم، وعنده رياضة، وفي طبعه إكرام الأجلاء من الناس.

وحكي أن رجلاً عزم جماعة، فتخلف شخص منهم في منزله، ودخل على زوجة صاحب المنزل، فضاجعها، فوثب الكلب عليهما، فقتلهما، فرجع صاحب المنزل، فوجدهما قتيلين، فأنشد يقول:

وما زال يرعى ذمتي ويحوطني
ويحفظُ عهدي والخليل يخونُ

فواعجباً للخل يهتك حرمتي
وواعجباً للكلب كيف يصون[2]

وحكى أبو عبيدة قال: خرج رجل إلى الجبانة ومعه أخوه وجاره لينظروا إلى الناس، فتبعه كلب له، فضربه ورماه بحجر، فلم ينته، ولم يرجع، فلما قعد ربض الكلب بين يديه، فجاء عدو له في طلبه، فلما رآه خاف على نفسه، فإذا بئر هناك قريبة القعر، فنزل فيها وأمر أخاه وجاره أن يهيلا عليه التراب، ثم ذهب أخوه وجاره إلى سبيلهما، وصار الكلب ينبح حوله فلما انصرف العدو أتاه الكلب، فما زال يبحث في التراب إلى أن كشفه عن رأسه، فتنفس الرجل، ومر به أناس، فتناولوه وردوه إلى أهله، فلما مات ذلك الكلب عمل له قبراً ودفنه فيه، وجعل عليه قبة وسمى ذلك قبر الكلب وفي ذلك قيل:

تفرّق عنه جارُه وشقيقُه
وما حاد عنه كلبه وهو ضاربه

ومن ذلك ما حكي أن رجلاً قتل ودفن، وكان معه كلب فصار يأتي كل يوم إلى الموضع الذي دفن فيه، وينبح وينبش ويتعلق برجل هناك، فقال الناس: إن لهذا الكلب شأناً، فكشفوا عن ذلك وحفروا ذلك الموضع، فوجدوا قتيلاً، فقبضوا على ذلك الرجل الذي ينبح عليه الكلب وضربوه، فأقر بقتله، فقتل، وهو من الحيوان الذي يعرف الحسنة، وقيل: أن الأنثى تحيض في كل شهر سبعة أيام وأكثر ما تضع إثنا عشر جرواً، وذلك في النادر، والغالب خمسة أو ستة، وربما ولدت واحداً، ويعيش الكلب في الغالب عشر سنين، وربما بلغ عشرين سنة، ووصف للمتوكل كلب بأرمينية يفترس الأسد، فأرسل من جاء به إليه، فجوع أسداً وأطلقه عليه، فتهارشا وتواثبا حتى وقعا ميتين، وقيل: كلب الصياد يشبه به الفقير المجاور للغني لأنه يرى من نعمته وبؤس نفسه ما يفتت كبده، وقيل لرجل: ما بال الكلب يرفع رجله إذا بال؟ قال: يخاف أن يلوث ذراعيه. قيل: أوَ للكلب ذراعان؟ قال: هو يتوهم ذلك.

فائدة: حكي أن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه سمع شخصاً من وراء النهر يروي أحاديث مثلثة، فسار إليه، ودخل عليه فوجده يطعم كلباً، وهو مشتغل به. قال الإمام أحمد: فأخذت في نفسي، وأضمرت أن أرجع إذا لم يلتفت الرجل إليَّ، ثم قال: حدثني أبو الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«مَن قطع رجاء من ارتجاه قطع الله رجاءه يوم القيامة، فلم يلج الجنة، وإن أرضنا هذه ليست بأرض كلاب، وقد قصدني هذا الكلب، فخشيت أن أقطع رجاءه»**. قال، فقال الإمام أحمد رحمه الله: هذا الحديث يكفيني، ثم رجع قافلاً إلى أهله.

فائدة أخرى: قال الترمذي: لما أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض سلط عليه إبليس السباع، وكان أشدها الكلب، قال: فنزل عليه جبريل عليه السلام، وأمره أن يضع يده

---

(١) أنواع الكلاب أكثر من ذلك بكثير إلا أنها لم تكن معروفة في زمان المؤلف في بلادنا.

(٢) الخل: الصديق الوفي، وندر أن يوجد خل وفيّ حتى قالت العرب: المستحيلات ثلاث: الغول والعنقاء والخل الوفي.

عليه، ففعل، واطمأن إليه، وألفه وصار يحرسه، وبقيت الألفة فيه لأولاده إلى يوم القيامة، وقيل: إن أول من اتخذ الكلب بعد آدم نوح عليهما الصلاة والسلام، وذلك لأن قومه كانوا يعمدون بالليل، فيفسدون ما صنعه في السفينة بالنهار، فأمره الله أن يتخذ كلباً حارساً، ففعل، قال: فكان إذا أتاه مفسد قام عليه، فيستيقظ نوح عليه الصلاة والسلام فيدفعه.

فائدة أخرى: قيل: كان كلب أهل الكهف أسمر، واسمه قطمير، وقيل: أصفر، وقيل: خلنجي اللون وليس في الحيوان ما يدخل الجنة، إلا هو وكبش إسماعيل وناقة صالح وحمار العزير وبراق النبي ﷺ.

فائدة أخرى: إذا نبح عليك كلب، وخفت منه فاقرأ ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾[1]. وقل بعد ذلك: لا إله إلا الله، فإنك تكفاه.

(حرف اللام):

(لغلغ) طير معروف. قيل: إنه من طيور الفواخت ويأتي إلى أرض مصر في أيام الشتاء، فيأكل ما قسم الله له من الرزق، ويأكل منه من له فيه رزق، ثم يرحل إلى بلاده.

(حرف الميم):

(مالك الحزين) طير يوجد بالضحضاح غذاؤه السمك وسمي بذلك لأنه قيل: أنه لا يشرب حتى يروى خوفاً من أن ينقص الماء، وإذا نشف الضحضاح حزن لأنه لا يستطيع العوم، ونظيره دويبة بأرض فارس معروفة عندهم يقال: إن غذاءها التراب، فإذا أكلت لا تشبع خوفاً من أن يفرغ.

(حرف النون):

(نمل) قال عليه الصلاة والسلام: ألا تنظرون إلى صغير من خلق الله كيف أحكم خلقه وأتقن تركيبه، وفلق له السمع والبصر، وسوى له العظم والبشر. انظروا إلى النملة في صغر جثتها ولطافة هيئتها لا تكاد تنال بحلظ البصر ولا بمستدرك الفكر كيف دبت على الأرض، وسعت في مناكبها، وطلبت رزقها تنقل الحبة إلى جحرها تجمع في حرها لبردها وفي وردها لصدرها لا يغفل عنها المنان ولا يحرمها الديان، ولو فكرت في مجاري أكلها في علوها وسفلها وما في الجوف من شراسيف بطنها، وما في الرأس من عينها وأذنها لقضيت من خلقها عجباً، وللقيت من وصفها تعباً، فتعالى الذي أقامها على قوائمها، وبناها على دعائمها لم يشركه في فطرتها فاطر، ولم يعنه على خلقها قادر، لا إله إلا هو ولا معبود سواه. وقيل: إذا خافت على حبها أن يعفن أخرجته إلى ظهر الأرض ليجف، وقيل: إنها تفلق الحبة نصفين خوفاً من أن تنبت، فتفسد إلا الكزبرة، فإنها تفلقها أربعاً لأنها من دون الحب ينبت نصفها، وليس كل أرباب الفلاحة يعرف هذا، فسبحان من ألهمها ذلك، وقيل: إنها تشم رائحة الشيء من بعيد ولو وضعته على أنفك لم تجد له رائحة، وإذا عجزت عن حمل شيء استعانت برفقتها، فيحملونه جميعاً إلى باب جحرها، وقيل: إذا انفتح باب قرية النمل، فجعلت فيه زرنيخاً أو كبريتاً هجرتها، والله أعلم.

(نحل) حيوان ليس له نظر في العواقب وله معرفة بفصول السنة، وأوقاتها وأوقات المطر، وفي طبعه الطاعة لأميره والانقياد له، ومن شأنه في تدبير معاشه أنه يبني له بيتاً من الشمع شكلاً مسدساً لا يوجد فيه اختلاف كالقطعة الواحدة إذا طار ارتفع في الهواء وحط على الأماكن النظيفة، وأكل نوار الزهر، والأشياء الحلوة وشرب من الماء الصافي، وأتى، فأخرج ذلك، فأول ما يخرج الشمع ليكون كالوعاء، ثم العسل وقيل: إنه يقسم الأعمال، فبعضه يعمل البيوت، وبعضه يعمل الشمع، وبعضه يعمل العسل، وفي طبعه النظافة فيجعل رجيعه خارج الخلية، وما مات منه أخرجه ورماه، وعنده الطرب فيحب الأصوات اللذيذة، وله آفات تقطعه كالظلمة والغيم والريح، والمطر والدخان والنار، وكذلك المؤمن له آفات تقطعه منها ظلمة الغفلة، وغيم الشك، وريح الفتنة، ودخان الحرام ونار الهوى.

فائدة: قيل: مرض شخص، فقال: إئتوني بماء وعسل، فأتوه بذلك، فخلط الجميع وشربه فشفي. وروي أن شخصاً شكا إلى النبي ﷺ بطن أخيه، فأمره بشرب العسل، فشربه، ثم جاء ثانياً، فأمره بشربه، ثم جاء في الثالثة، فقال يا رسول الله: إن بطنه لم يزل، فقال رسول الله ﷺ: **«صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عملاً، فسقاه الثالثة فشفي»**.

نادرة: قيل إن بعضهم حضر مجلس المنصور، فقال بعض الحاضرين المراد من قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾[1]. أهل البيت فإنهم

---

(١) سورة الرحمن، الآية (٣٣).

(١) سورة النحل، الآية (٦٩).

النحل، والشراب القرآن، فقال له بعض من حضره من اللطفاء: جعل الله طعامك وشرابك ما يخرج من بطون بني هاشم، فضحك الحاضرون عليه، وأبهته.

الخواص: إذا خلط العسل الخالص بمسك خالص، واكتحل به نفع من نزول الماء في العين والتلطخ به يقتل القمل، ولعقه علاج لعضة الكلب، والمطبوخ منه نافع للمسموم[1].

(نسر) هو سيد الطيور ويعمر طويلاً. قيل أنه يعيش ألف سنة وله قوة على الطيران حتى قيل: أنه يقطع من المشرق إلى المغرب في يوم، وجثته عظيمة حتى قيل: أنه يحمل أولاد الفيلة، وله قوة حاسة الشم، حتى قيل: أنه يشم رائحة الجيفة من مسيرة أربعمائة فرسخ، وإذا سقط على جيفة تباعدت عنها الطيور هيبة له حتى يفرغ من الأكل وعنده شره، قيل: إنه يأكل حتى يضعف عن الحركة بحيث أن أضعف الناس لو أراد إمساكه في تلك الحالة أمسكه، وإذا باض ذهب وأتى بورق الدلب، فجعله في عشه خوفاً من الخفاش أن يفسد بيضه، وهو لا يحضن البيض، وإنما يبيض في الأماكن العالية ويبقيه في الشمس، فتكون حرارتها بمنزلة الحضن، ومن طبعه أنه لو شمّ الطيب مات، وعنده الحزن على فراق إلفه حتى قيل: إنه ليموت كمداً، ويقال للأنثى منه أم قشعم، وفي الحديث: «أتاني جبريل عليه السلام فقال يا محمد: لكل شيء سيد، فسيد البشر آدم، وسيد ولد آدم أنت، وسيد الروم صهيب، وسيد فارس سلمان، وسيد الحبش بلال، وسيد الطيور النسر، وسيد الشهور رمضان، وسيد الأيام الجمعة، وسيد الكلام العربي، وسيد العربي القرآن، وسيد القرآن سورة البقرة».

الخواص: إذا أخذ قلب النسر وجعل في جلد الذئب وعلق على شخص كان مهاباً عند الناس مقضي الحاجة، وإذا عسر على المرأة الوضع جعل تحتها من ريشه يسهل وضعها.

(نعام) يذكر ويؤنث وتسمى الأنثى بأم البيض والذكر بالظليم، ومن عجيب أمرها أنها تبيض بيضاً طوالاً متساوية القدر وتجعلها أثلاثاً ثلثاً للحضن وثلثاً تأكله في حضنها، وثلثاً تكسره وتفتحه فيتعفن ويدود فيكون منه غذاء أولادها، وعندها الحمق أنها تخرج من حضنها فتجد بيض غيرها، فتحضنه وتترك بيض نفسها.

فائدة: روى كعب الأحبار رضي الله تعالى عنه أن الله تعالى لما خلق القمح وأنزله على آدم كان على قدر بيض النعام، وقال له: هذا رزقك ورزق أولادك قم فاحرث وازرع، قال: ولم يزل الحب على ذلك مدة ثم نزل إلى بيض الدجاجة، ثم الحمامة، ثم النبق وكان في زمن العزيز على قدر الحمص، وقيل: كل حيوان إذا كسرت رجله مشى بالأخرى إلا النعام، فإنه يبرك إلى أن يموت، وخلق الله تعالى له قوة الشم البليغ حتى قيل: أنه يشم رائحة القناص من مسيرة نصف ميل، وهي لا تشرب الماء كالضب ويقال: إن القناص إذا أدركها أدخلت رأسها في شيء له شعب أو حجر تظن أنها قد استترت منه، ولها معدة قوية تقطع الحديد والصوان والجمر، وفي طبعها الأذى، يقال: أنها تخطف الحلق من أذن الصغير، وقيل أن الذئب لا يتعرض لبيض النعام وأفراخه ما دام الأبوان حاضرين لأنهما إذا رأياه ركضه الذكر إلى أن يسلمه إلى الأنثى، فتركضه إلى أن تسلمه إلى الذكر ولا يزالان به حتى يقتلاه أو يعجزهما هرباً، وقيل: أشد ما يكون عدوها إذا استقبلت الريح وتقول العرب صنفان من الحيوان أصمان لا يسمعان: النعام والأفاعي، وسأل أبو عمرو الشيباني بعض العرب عن الظليم هل يسمع، فقال: يعرف بعينيه وأنفه ولا يحتاج معهما إلى سمع.

(نمير) حيوان أغبر وكنيته أبو الصعب، وهو صنفان: صنف عظيم الجثة صغير الذنب، والآخر بالعكس. قال الجاحظ: وهو يحب الشراب وعنده شراسة في خلقه، ويقال: أن أنثاه لا تدع ولدها إلا مطوقاً بحية ولا يضرها نهشها، وذلك لأجل الصياد حتى لا يظفر به، وإذا مرض أكل الفأر فيبرأ، وفي طبعه عداوة الأسد وعنده شرف في نفسه يقال: أنه لا يأكل جيفة ولا يأكل من صيد غيره، ولا يملك نفسه عند الغضب، وأدنى وثبته عشرون ذراعاً وأكثرها أربعون.

الخواص: من حمل من جلده شيئاً صار مهاباً عند الناس، ومن كان به بواسير فجلس على جلده زالت بواسيره.

(حرف الهاء):

(هدهد) طير معروف، وهو من رسل سليمان عليه الصلاة والسلام وعنده حدة البصر حتى قيل أنه يرى الماء

---

(١) للعسل فوائد لا تحصى ولكل ما يخرج من بطون النحل نُسُمُها علاج لبعض الأمراض وغراؤها وخرؤها أيضاً (راجع كتابنا: «العسل شراب الشفاء»).

تحت الأرض وسبب غيابه عن خدمة سليمان عليه الصلاة والسلام حين سأل عنه ولم يجده هو أن هدهداً من سبأ أخبره أن عرش بلقيس صفته كذا وكذا، فذهب لينظره فدخلت الشمس من مكانه، فرآها سليمان عليه الصلاة والسلام، فتفقده وطلبه، فلما حضر قال: يا نبي الله إني رأيت كيت وكيت، وقص عليه القصة، ويقال أنه قال لسليمان عليه الصلاة والسلام لما أراد تعذيبه: يا نبي الله أذكر وقوفك بين يدي الله تعالى، فارتعد سليمان من هذا الكلام وأطلقه.

الخواص: إذا بخر البيت بريشه طرد الهوام عنه وعينه إذا علقت على صاحب النسيان ذكر ما نسيه وريشه إذا حمله إنسان وخاصم غلب خصمه وقضيت حاجته وظفر بما يريد ولحمه إذا أكل مطبوخاً نفع من القولنج، وإن بخر بمخه برج حمام لم يقربه شيء يوذيه، ومن علق عليه لحيه الأسفل أحبه الناس، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(حرف الواو):

(ورشان) طير يتولد بين الحمام والفاختة، وهو حسن شديد الحنو يقال إنه يكاد يقتل نفسه إذا أمسك القناص أولاده من شدة حنوه، وقال بعضهم: أنه يقول في صياحه: لدوا للموت وابنوا للخراب، والهدهد يقول: إذا نزل القضاء عمي البصر، والفاختة تقول: ليت هذا الخلق ما خلقوا وليتهم إذا خلقوا علموا لماذا خلقوا وليتهم عملوا لما علموا، والخطاف يقول: قدموا خيراً تجدوه عند ربكم، والحمامة تقول: سبحان ربي الأعلى، والبازي يقول: سبحان ربي وبحمده، والسرطان يقول: سبحان المذكور بكل لسان، والدراج يقول: الرحمن على العرش استوى، والعقاب يقول: البعد عن الناس رحمة، ومن الطيور من يقرأ الفاتحة كالدرة ويمد صوته في الضالين كالقارىء.

(حرف الياء):

(يأجوج ومأجوج): سموا بذلك لكثرتهم، وقيل: بل هو اسم أعجمي غير مشتق. قال مقاتل: وهم ولد يافث بن نوح عليه الصلاة والسلام، وقول من قال: إن آدم نام، فاحتلم، فالتصق منيه بالتراب، فتولد منه هذا الحيوان مردود بعدم احتلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي الحديث: **«يأجوج ومأجوج أمة عظيمة لا يموت أحدهم حتى يرى من صلبه ألف نسمة»** انتهى.

وهم أصناف منهم: ما طوله عشرون ذراعاً، وما طوله ذراع وأقل وأكثر. وعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أن لهم مخالب الطير، وأنياب السباع، وتداعي الحمام، وتسافد البهائم، ولهم شعور تقيهم الحر والبرد، وإذا مشوا في الأرض كان أولهم بالشام وآخرهم بخراسان، يشربون مياه المشرق إلى بحيرة طبرية، ويمنعهم الله تعالى من دخول مكة والمدينة وبيت المقدس، ويأكلون كل شيء يمرون به، ومن مات منهم أكلوه، ويقال: أن صنفاً منهم له أذنان إحداهما صلدة، والأخرى وبرة، فهو يلتحف بإحداهما ويفترش الأخرى.

وفي الحديث: أنه عليه الصلاة والسلام سُئِل هل بلغتهم الدعوة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: دعوتهم ليلة أُسري بي، فلم يجيبوا، فهم خلق النار. **وفي الحديث أيضاً**: إن الله عز وجل إذا كان يوماً القيامة قال: يا آدم أرسل بعث النار، فيقول يا رب، وما بعث النار؟ فيقول الله تعالى من كل ألف تسعمائة وتسعون للنار وواحدة للجنة، قال: فاشتد الأمر على المسلمين، فقال رسول الله ﷺ: أبشروا، فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنكم واحداً. وفي الحديث أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فأخبره بالردم، فقال: صفه، فقال يا رسول الله: انطلقت إلى أرض ليس لأهلها إلا الحديد يعملونه، فدخلت في بيت، فلما كان وقت الغروب سمعت ضجة عظيمة أفزعتني، فارتعدت منها قال، فقال صاحب البيت لا بأس عليك إن هذه الضجة أصوات قوم يذهبون هذه الساعة من خلف هذا الردم أتريد أن تنظر إليه فإذا لبنه مثل الصخرة ومساميره مثل جذوع النخل كله من حديد كأنه البرد المخبر، فقال رسول الله ﷺ من سره أن ينظر إلى من رأى الردم، فلينظر هذا الرجل، قال المفسرون: وهذا هو السد الذي بناه ذو القرنين، وهذه الأمة خلفه تطلب المجيء إلى هذه الجهة تنقبه كل يوم، فيعيده الله كما كان إلى أن يقضي الله أمره ثم يسلط الله عليهم بعد ذلك دوداً يطلع في حلاقيمهم، فيهلكهم الله به، والأخبار في ذلك كثيرة.

(يحمور) دابة وحشية لها قرنان طويلان كأنهما منشاران تنشر بهما الشجر، وقيل: هو كالأيل يلقي قرنيه في كل سنة، وهما صامتان. وقال الجوهري: هو الحمار الوحشي.

نادرة: قيل: ترافق رجلان في طريق، فلما قربا من مدينة من المدن قال أحدهما للآخر: قد صار لي عليك حق، وإني رجل من الجان ولي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قال: إذا وصلت إلى المكان الفلاني من هذه

المدينة، فهناك عجوز عندها ديك، فاشتره منها واذبحه، فقال له الآخر: وأنا أيضاً لي إليك حاجة. قال: وما هي؟ قال: إذا ركب الجني إنساناً ما يعمل له قال: تشد إبهاميه بسير من جلد اليحمور وتقطر في أذنيه من ماء السذاب في اليمنى أربعاً وفي اليسرى ثلاثاً، فإن الراكب له يموت تفرقاً ودخل الأنسي ففعل ما أمره به الجني من شراء الديك، وذبحه، فلم يشعر بعد أيام إلا وقد أحاط به أهل صبية من تلك البلدة وقالوا له: أنت ساحر، ومن حين ذبحت الديك سلبت من صبية عندنا عقلها، فلا نفلتك إلا إلى صاحب المدينة، قال: ائتوني بسير من جلد اليحمور وقليل من ماء السذاب، ودخلت على الصبية، فشددت وقطرت ماء السذاب في أذنيها، فسمعت صوتاً يقول: آه علمتك على نفسي، ثم مات من ساعته، وشفى الله تلك الشابة.

فصـــل

في خواص الطير والحيوان على الإجمال

الضب والخنزير لا يلقيان شيئاً من أسنانهما أبداً، وكل حيوان يعوم بالطبع. الإنسان والقرد وكل ذي عين، فإن أهداب عينه في الجهة العليا فقط إلا الإنسان من الجهتين، والفرس لا طحال له والبعير لا مرارة له والظليم لا مخ لعظمه، والحيات لا ألسنة لها، والسمكة لا رئة لها لأنها تتنفس من كبدها، وكل حيوان لا حافر له فله قرن وما لا قرن له فله حافر.

والحيوان المتهم باللواط: القرد والخنزير والحمار والسنور، والعيون التي تضيء بالليل عين الأسد والنمر والأفعى والسنور. والذي يدخر القوت من الحيوان: الإنسان والفأر والغراب والنحل والنمل. والذي يحيض من الحيوان: الإنسان والفرس والكلب والأرنب والضبع والخفاش، ويقال أيضاً: الرعاد من السمك فتبارك الله أحسن الخالقين، وهذا آخر ما قصدت إيراده في هذا الباب، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

الباب الثالث والستون

في ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم

ذكر المسعودي في كتابه عن بعض العلماء: أن الله سبحانه وتعالى خلق في الأرض قبل آدم ثمانياً وعشرين أمة على خلق مختلفة، وهي أنواع منها: ذوات أجنحة وكلامهم قرقعة، ومنها ما له أبدان كالأسود ورؤوس كالطير، ولهم شعور وأذناب وكلامهم دوي، ومنها ما له وجهان واحد من قبله والآخر من خلفه، وأرجل كثيرة، ومنها يشبه نصف الإنسان بيد ورجل وكلامهم مثل صياح الغرانيق، ومنها ما وجهه كالآدمي وظهره كالسلحفاة وفي رأسه قرن وكلامهم مثال عوي الكلاب ومنها ما له شعر أبيض وذنب كالبقر، ومنها ما له أنياب بارزة كالخناجر وآذان طوال.

ويقال: إن هذه الأمم تناكحت وتناسلت حتى صارت مائة وعشرين أمة، ولم يخلق الله تعالى أفضل ولا أحسن ولا أجمل من الإنسان.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خلق الله تعالى ألف أمة وعشرين أمة منها ستمائة في البحر، وأربعمائة وعشرون في البر، وفي الإنسان من كل خلق، فلذلك سخّر الله له جميع الخلق، واستجمعت له جميع اللذات وعمل بيده جميع الآلات، وله النطق والضحك، والبكاء، والفكرة، والفطنة، واختراعات الأشياء، واستنباط جميع العلوم، واستخراج المعادن، وعليه وقع الأمر والنهي والوعد والوعيد والنعيم والعذاب، وإياه خاطب وله قرب، وخلق الله تعالى إسرافيل عليه السلام على صورة الإنسان، وهو أقرب الملائكة إليه، وفي الحديث: «لا تضربوا الوجوه، فإنها على صورة إسرافيل». وآيات الله تعالى في البشر أكثر من أن تحصر: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[1].

وقال الشيخ عبد الله صاحب كتاب تحفة الألباب: دخلت إلى باشقرد فرأيت قبور عاد، فوجدت سن أحدهم طوله أربعة أشبار وعرضه شبران، وكان عندي في باشقرد نصف ثنية أخرجت لي من فك أحدهم الأسفل، فكان نصف الثنية شبرين ووزنها ألف ومائة مثقال، وكان دور فك ذلك العادي سبعة عشر ذراعاً وطول عظم عضد أحدهم ثمانية أذرع، وعرض كل ضلع من أضلاعهم ثلاثة أشبار كلوح الرخام. قال: ولقد رأيت في بلغار سنة ثلاثين وخمسمائة من نسل عاد رجلاً طويلاً طوله أكثر من سبعة وعشرين ذراعاً كان يسمى: دنقي أو ديقي وكان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الولد الصغير، وكان من قوته يكسر بيده ساق الفرس ويقطع جلده وأعضاءه كما يقطع

---

(١) سورة المؤمنون، الآية (١٤).

باقة البقل، وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعاً تحمل على عجلة وبيضة عادية لرأسه كأنها قطعة من جبل، وكان يأخذ في يده شجرة من، البلوط كالعصا لو ضرب بها الفيل لقتله، وكان خيراً متواضعاً، كان إذا لقيني يسلم عليّ ويرحب بي ويكرمني، وكان رأسي لا يصل إلى ركبتيه رحمة الله تعالى عليه، ولم يكن في بلغار حمام يمكنه دخولها إلا حمام واحدة، وكانت له أخت على طوله ورأيتها مرات في بلغار، وقال لي قاضي بلغار يعقوب بن النعمان: إن هذه المرأة العادية قتلت زوجها وكان اسمه آدم وكان أقوى أهل بلغار قيل: إنها ضمته إليها، فكسرت أضلاعه، فمات من ساعته.

وروي عن وهب بن منبه في عوج بن عناق أنه كان من أحسن الناس وأجملهم إلا أنه كان لا يوصف طوله، قيل: إنه كان يخوض في الطوفان، فلم يبلغ ركبتيه، ويقال إن الطوفان علا على رؤوس الجبال أربعين ذراعاً، وكان يجتاز بالمدينة فيتخطاها كما يتخطى أحدكم الجدول الصغير، وعمره الله دهراً طويلا حتى أدرك موسى عليه السلام، وكان جباراً في أفعاله يسير في الأرض براً وبحراً ويفسد ما شاء، ويقال: إنه لما حصر بنو إسرائيل في التيه ذهب فأتى بقطعة من جبل على قدرهم واحتملها على رأسه ليلقيها عليهم فبعث الله طيراً في منقاره حجر مدور فوضعه على الحجر الذي على رأسه، فانثقب من وسطه وانخرق في عنقه، وأخبر الله عز وجل نبيه موسى عليه الصلاة والسلام بذلك، فخرج إليه وضربه بعصا فقتله، ويقال: إن موسى عليه الصلاة والسلام كان طوله عشرة أذرع وعصاه عشرة أذرع، وقفز في الهواء عشرة أذرع، وضربه فلم يصل إلى عرقوبه، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ومن ذلك ما قيل عن أمه عناق بنت آدم عليه الصلاة والسلام، وكانت مفردة بغير أخ، وكانت مشوهة الخلقة لها رأسان، وفي كل يد عشرة أصابع، ولكل أصبع ظفران كالمنجلين. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: هي أول من بغى في الأرض وعمل الفجور، وجاهر بالمعاصي واستخدم الشياطين وصرفهم في وجوه السحر، وكان قد أنزل الله على آدم عليه الصلاة والسلام أسماء عظيمة تطيعه الشياطين بها وأمره أن يدفعها إلى حواء لتحترز بها، فغافلتها عناق وسرقتها واستخدمت بها الشياطين، وتكلمت بشيء من الكهانة، فدعا عليها آدم، وأمنت على ذلك حواء، فأرسل الله عليها أسداً أعظم من الفيل، فهجم عليها وقتلها، وذلك بعد ولادتها عوجاً بسنتين.

ومن ذلك ما حكي عن بعض فقهاء الموصل: أنه شاهد ببلاد الأكراد المحمدية في جبل من جبال الموصل إنساناً طوله تسعة أذرع وهو صبي لم يبلغ الحلم وكان يأخذ بيده الرجل القوي ويرميه خلف ظهره فأراد صاحب الموصل استخدامه، فقيل له في عقله خبل، فتركه.

وروي عن الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه قال: دخلت بلدة اليمن، فرأيت بها إنساناً من وسطه إلى أسفله بدن واحد، ومن وسطه إلى أعلاه بدنان مفترقان برأسين ووجهين وأربع أيد، وهما يأكلان ويشربان ويتقاتلان ويتلاطمان ويصطلحان. قال: ثم غبت عنهما قليلاً ورجعت، فقيل لي: أحسن الله عزاءك في أحد الشقين، فقلت: وكيف صنع به؟ فقيل: ربط في أسفله حبل وثيق وترك حتى ذبل، ثم قطع ورأيت الجسد الآخر بالسوق ذاهباً وراجعاً[1].

ومنه: ما أرسله بطارقة الأرمن إلى ناصر الدولة، وهو رجلان في جسد واحد، فأحضر الأطباء وسألهم عن انفصال أحدهما عن الآخر فسألوهما هل تجوعان معاً وتعطشان معاً؟ قال: نعم، فقالوا له: لا يمكن فصلهما، ويقال: إنه أحضر أباهما فسأله عن حالهما، فأخبر أنهما يختصمان في بعض الأحيان وأنه يصلح بينهما[1].

ومن ذلك: ما ذكر أنه أُهدي إلى أبي منصور الساماني فرس له قرنان، وثعلب له جناحان إذا قرب منه إنسان نشرهما، وإذا بعد ألصقهما. وذكر القاضي عياض رحمة الله تعالى عليه أنه ولد له مولود على أحد جنبيه مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهذا لا يبعد، فإنه يوجد كثيراً في السنور الدبركي وذكر أنه ولد بالقاهرة غلام له أربعة أرجل، ومثلها أيد وذكر أنه كان لبعض ولاة مصر مملوك يدعى طقطو، فولاه فوض من أعمال الصعيد فتزوج بها وولد له ولد، ثم انقلب امرأة فتزوج بها وولدت ولدين، وأما كبش بأربعة قرون ودجاجة بأربعة أرجل، وحيوان برأسين، والمخرج واحد، فكثير، وعجائب الله تعالى في مصنوعاته غير متناهية، فلله الحمد على ما أنعم به علينا لا نحصي ثناء عليه.

ومن ذلك: إنسان الماء وهو حيوان يشبه الآدمي، وفي بعض الأوقات يطلع ببحر الشام شيخ بلحية بيضاء، ويستبشر الناس برؤيته في تلك السنة بالخصب.

---

(١) قلت: لعل هذا من التوائم المتداخلة وقد رأيت صور العديد من أنواع التوائم الغريبة التلاصق والتداخل.

ومن ذلك: بنات الماء وهم أمة ببحر الروم يشبهن النساء ذوات شعور وثدي وفروج، وهن حسان ولهن كلام لا يفهم، وضحك ولعب، ولهن رجال من جنسهن ويقال: إن الصيادين يصطادونهن ويجامعونهن، فيجدون لذة عظيمة لا توجد في غيرهن من النساء، ثم يعيدوهن في البحور ثانياً، ويقال: إن هذا الصنف يوجد بالبرلس ورشيد على ما ذكر[1].

وحكي عن الشيخ أبي العباس الحجازي قال: حدثني بعض التجار أنه في سنة من السنين خرجت إليه سمكة عظيمة فنقبوا أذنها وجعلوا فيها الحبال، وأخرجوها، ففتحت أذنها، فخرجت جارية حسناء بيضاء سوداء الشعر حمراء الخدين كحلاء العينين من أحسن ما يكون من النساء ومن صرتها إلى نصف ساقيها شيء كالثوب يستر قبلها ودبرها ودائر عليها كالإزار، فأخذها الرجال إلى البر، فصارت تلطم وجهها وتنتف شعرها، وتعض يدها وتصيح كما تصيح النساء حتى ماتت في أيديهم فألقوها في البحر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وحكى القزويني عن بعض البحريين: أن الريح ألقتهم على جزيرة ذات أشجار، وأنهار، فأقاموا بها مدة وكانوا إذا جاء الليل يسمعون بها همهمة وأصواتاً وضحكاً ولعباً، فخرج من المركب جماعة وكمنوا في جانب البحر، فلما جاء الليل خرج بنات الماء على عادتهن، فوثبوا عليهن، فأخذوا منهن اثنتين، فتزوج بهما شخصان، فأما أحدهما، فوثق بصاحبته، فأطلقها، فوثبت في البحر، وأما الآخر فبقي مع صاحبته زماناً وهو يحرسها حتى ولدت له ولداً كأنه القمر، فلما طاب الهواء، وركبوا البحر ووثق بها، فأطلقها، فأغفلته وألقت نفسها في البحر، فتأسف عليها تأسفاً عظيماً، فلما كان بعد أيام ظهرت من البحر ودنت من المراكب وألقت لصاحبها صدفاً فيه در وجوهر، فباعه وصار من التجار.

ونظير هذه الحكاية: ما ذكره ابن زولاق في تاريخه أن رجلاً من الأندلس من الجزيرة الخضراء صاد جارية منهن حسناء الوجه سوداء الشعر حمراء الخدين نجلاء العينين كأنها البدر ليلة التمام كاملة الأوصاف فأقامت عنده سنين وأحبها حباً شديداً وأولدها ولداً ذكراً، وبلغ من العمر أربع سنين، ثم إنه أراد السفر فاستصحبها معه، ووثق بها، فلما توسطت البحر أخذت ولدها وألقت نفسها في البحر، فكاد أن يلقي نفسه خلفها حسرة عليها، فلم يمكنه أهل المركب من ذلك، فلما كان بعد ثلاثة أيام ظهرت له، ألقت له صدفاً كثيراً فيه در، ثم سلمت عليه وتركته، فكان ذلك آخر العهد بها، فتبارك الله ما أكثر عجائب خلقه، وما لم نشاهده ونسمع به أكثر، فسبحان القادر على كل شيء لا إله إلا هو ولا معبود سواه، فالعاقل يعرف الجائز، والمستحيل، ويعلم أن كل مقدور بالإضافة إلى قدرة الله تعالى قليل، وإذا سمع عجباً جائزاً استحسنه ولم يكذب قائله، والجاهل إذا سمع ما لم يشاهده قطع بتكذيب قائله، وتزييف ناقله، وذلك لقلة عقله. وقد وصف الله تعالى الجاهل بعدم العقل بقوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾[1] وقد أودع الله تعالى من عجائب المصنوعات في الآفاق والسماوات ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[2]. فلا تكن منكر العجائب، فكل الأشياء من آياته:

فيا عجباً كيف يُعصى الإلـ
ـهُ أم كيف يجحدُهُ الجاحدُ
وفي كلِّ شيءٍ له آية
تدلُّ على أنه الواحدُ

ومن شاهد حجر المغناطيس وجذبه للحديد، وكذلك حجر الماس الذي يعجز عن كسره الحديد ويكسره الرصاص ويثقب الياقوت والفولاذ ولا يقدر على ثقب الرصاص يعلم أن الذي أودعه هذا السر قادر على كل شيء، فلا تكن مكذباً بما لا تعلم وجه حكمته، فإن الله تعالى قال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾[3].

قال صاحب تحفة الألباب: إن في بلاد السودان أمة لا رؤوس لهم. وقد ذكرهم الشعبي في كتاب سير الملوك، وذكر في بلاد المغرب أمة من ولد آدم كلهم نساء، ولا يعيش في أرضهم ذكر، وأن هؤلاء النساء يدخلن في ماء عندهم، فيحبلن من ذلك، وتلد كل إمرأة منهن بنتاً ولا يلدن ذكراناً أبداً.

---

(١) وهذه الأساطير موجودة في كثير من الأمم لعلها من أخبار البحارة التي لعبت فيها المخيلة وأضافت لها الكثير من الإضافات حتى وصلت إلينا هكذا.

(١) سورة الفرقان، الآية (٤٤).
(٢) سورة يوسف، الآية (١٠٥).
(٣) سورة يونس، الآية (٣٩).

وقيل: إن ولد تبع اليماني وصل إليهم لما أراد أن يصل إلى الظلمات التي دخلها ذو القرنين، وإن ولد تبع هذا كان إسمه إفريقش، وهو الذي بنى إفريقية، وسماها باسمه، وأنه وصل إلى وادي السبت، وهو واد يجري فيه الرمل كما يجري فيه السيل لا يمكن أن يدخل فيه حيوان إلا هلك، فلما رآه استعجل الرجوع، وذو القرنين لما وصل إليه أقام إلى يوم السبت، فسكن جريانه فعبره إلى أن وصل إلى الظلمات، فيما يقال والله سبحانه وتعالى أعلم.

وتلك الأمة التي لا رؤوس لهم أعينهم في مناكبهم وأفواههم في صدورهم، وهم كثيرون كالبهائم يتناسلون ولا مضرة على أحد منهم.

وأما الملك العظيم والعدل الكثير والنعم الجزيلة والسياسة الحسنة، والرخاء والأمن الذي لا خوف معه، ففي بلاد الهند وبلاد الصين، وأهل الهند أعلم الناس بعلم الطب وعلم النجوم والهندسة والصناعات العجيبة التي لا يقدر أحد سواهم على أمثالها، وفي بلادهم وجزائرهم ينبت العود وشجر الكافور، وجميع أنواع الطيب كالقرنفل والسنبل والدارصيني[1]، والكبابة، والبسباسة، وأنواع العقاقير والأدوية، وعندهم حيوان المسك، وهو حيوان كالغزال يجتمع المسك في سرته، وعندهم حيوان الزباد وهو حيوان كالسنور يخرج منه عرق كالقطران أسود ثخين يسيل من جسده وتزيد رائحته بالتغرب بحيث تكون أذكى من المسك الأذفر، ويخرج من بلادهم أنواع اليواقيت، وأكثرها في جزيرة سرنديب، وعلى جبلها نزل آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة فيما يقال.

وحكي إنه كان ببابل سبع مدائن كل مدينة فيها أعجوبة كان في إحداها تمثال الأرض، فإذا التوى على الملك بعض أهل مملكته وامتنعوا عن القيام بالخراج خرج أنهارها عليهم في التمثال، فلا يطيق أهل تلك الناحية سد الماء حتى يعتدلوا، وما لم يسد التمثال لا يسد في ذلك البلد.

وفي الثانية حوض إذا أراد الملك أن يجمعهم لطعامه أتى كل واحد بما أحب من الشراب، فصبه ذلك الحوض، فاختلطت الأشربة، فكل من سقي من ذلك الحوض كان شرابه الذي جاء به.

وفي الثالثة طبل إذا أرادوا أن يعلموا حال الغائب عن أهله قرعوه، فإن كان حياً سمع له صوت وإن كان ميتاً لم يسمع له صوت.

وفي الرابعة مرآة إذا أرادوا أن يعلموا حال الغائب نظروا فيها، فأبصروه على أي حالة هو عليها، كأنهم يشاهدونه.

وفي الخامسة أوزة من نحاس، فإذا دخل الغريب صوتت الأوزة صوتاً يسمعه أهل المدينة.

وفي السادسة قاضيان جالسان على الماء فيأتي الخصمان، فيمشي المحق على الماء حتى يجلس مع القاضيين، ويقع المبطل في الماء.

وفي السابعة شجرة ضخمة لا تظل إلا ساقها، فإن جلس تحتها أحد أظلته إلى ألف شخص، فإذا زادوا على الألف واحداً جلسوا في الشمس كلهم.

ولو بسطت المقال في ذلك لا تسع المجال. وقد اقتصرت في ذلك على ما ذكرت والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الرابع والستون

في خلق الجان وصفاتهم

روي عن الشيخ عبد الله صاحب تحفة الألباب أنه قال: قرأت في بعض الكتب المتقدمة المأثورة عن العلماء رحمهم الله تعالى أن الله تعالى لما أراد أن يخلق الجان خلق نار السموم وخلق من مارجها خلقاً سماه جاناً، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝﴾[1] وقال الله تعالى في موضع آخر: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝﴾[2] وقيل: إن الله تعالى خلق الملائكة من نور النار، والجان من لهبها والشياطين من دخانها، وقد جاء في بعض الأخبار أن نوعاً من الجن في قديم الزمان قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام كانوا سكاناً في الأرض قد طبقوها براً وبحراً، سهلاً وجبلاً، وكان فيهم الملك والنبوة والدين والشريعة، وكانوا يطيرون إلى السماء، ويسلمون على الملائكة، ويستعلمون منهم خبر ما في السماء. وكثرت نعم الله عليهم إلى أن بغوا وطغوا وتركوا

---

(١) ويسمى أيضاً: «القرفة» وهو لحاء شجر.

(١) سورة الحجر، الآية (٢٧).

(٢) سورة الرحمن، الآية (١٥).

وصايا أنبيائهم، فأرسل الله تعالى عليهم جنداً من الملائكة فحصل بينهم مقتلة عظيمة، وغلبوا الجن وطردوهم إلى أطراف البحار وأسروا منهم أمماً كثيرة.

وذكر المسعودي أن الفرس واليونان قالوا: كان الجن بالأرض قبائل منهم من يسترق السمع، ومنهم من ينط مع لهب النار، ومنهم من يطير، ولكل قبيلة ملك، وكان من جملتهم إبليس لعنه الله، ثم بعد خمسة آلاف سنة افترقوا وملكوا عليهم ملوكاً، وأقاموا على ذلك مدة طويلة، ثم تحاسدوا على الملك، وأغار بعضهم على بعض وجرت بينهم وقائع وحروب، وكان إبليس لعنه الله يصعد إلى السماء ويختلط بالملائكة، فبعثه الله تعالى بجيوش من الملائكة، فهزم الجن، وقتلهم، وتملك الأرض مدة طويلة إلى أن خلق آدم عليه الصلاة والسلام واتفق له معه ما اتفق، وأهبط آدم إلى الأرض وعظم شأنه، فعند ذلك انتقل إبليس إلى البحر المحيط وسكن هناك، ثم ألقى عليه قوة شهوة السفاد فهو لا يلد لكنه يلقح كالطير، ويبيض ويفرخ.

قيل: إنه يخرج من كل بيضة ستون ألف شيطان، فيسلطهم على الخلق، وأقربهم إليه وأدناهم منه، ومن مجلسه، أكثرهم إيذاء للخلق.

وفي الحديث: أن إبليس لعنه الله قال يا رب أنزلتني إلى الأرض وطردتني وجعلتني رجيماً فاجعل لي مسكناً قال: مسكنك الأسواق قال: فاجعل لي طعاماً. قال: ما لم يذكر اسمي عليه. قال: فاجعل لي شراباً قال: كل مسكر. قال: فاجعل لي مؤذناً. قال: المزامير. قال: فاجعل لي صيداً، أو قال مصائد قال: النساء.

فصل
في مكايده لعنه الله

منها: أنه كان في بني إسرائيل عابد يدعى برصيصا وله جار له بنت فحصل لها مرض، فقال له جيرانه لو حملتها إلى جارك برصيصا ليدعو لها، قال فجاء إبليس إلى العابد، وقال إن لجارك عليك حق الجوار، وإن له بنتاً مريضة، فما ضرك لو جعلتها عندك في جانب البيت ودعوت الله لها عقب عبادتك، فعسى أن تشفى من مرضها. قال: فلما أتاه جاره بالبنت قال له العابد: دعها وانصرف. قال: فتركها عنده مدة حتى شفيت، فجاء له إبليس ووسوس له حتى وطئها، فحملت منه، فلما حملت جاء له إبليس لعنه الله فقال له: اقتلها لئلا تفتضح قال: فقتلها، ودفنها. قال: فعند ذلك ذهب الشيطان إلى أهلها وأعلمهم بذلك، فجاءوا إلى العابد وكشفوا عن قضيته، ثم أخذوه ومضوا ليقتلوه، فعارضه إبليس اللعين في الطريق، فقال له: إن سجدت لي خلصتك منهم، فسجد له، فعند ذلك تبرأ منه ومات الرجل كافراً. اللهم اعصمنا من مكائد الشيطان برحمتك يا أرحم الراحمين.

ومن ذلك ما اتفق أن بني إسرائيل اتخذوا شجرة وصاروا يعبدونها فجاء بعض عبادهم بفأس ليقطعها، فعارضه إبليس لعنه الله، وقال له: تركت عبادتك وجئت لشيء لا يعود عليه نفعه، ولم يزل به حتى تقاتل معه، فصرعه العابد، وجلس على صدره، ثم رجع ولم يزل يعمل معه ذلك في كل يوم إلى ثلاثة أيام، فلما رآه لا يرجع قال له: اترك قطعها، وأنا أجعل لك في كل يوم دينارين تستعين بهما على نفقتك وعبادتك، وعاهده على ذلك، فرجع. قال: فجعل له تحت وسادته دينارين، ثم دينارين، ثم دينارين، ثم قطع ذلك عنه، فأخذ العابد الفأس وذهب إلى قطع الشجرة، فعارضه إبليس في الطريق، وتحاور معه، وتجاذبا، فصرعه إبليس وجلس على صدره، وقال له: إن لم ترجع عن قطعها، وإلا ذبحتك، فقال له العابد: خل عني، واخبرني كيف غلبتني، فقال له: لما غضبت لله غلبتني، ولما غضبت لنفسك غلبتك.

ومنها أشياء كثيرة ليس هذا محل استيفائها. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝﴾[(١)].

فصل
في المتشيطنة وهم أنواع كثيرة

منها: الولهان يوجد في جزائر البحار على صورة الإنسان.

حكى بعض المسافرين أنه عرض لمركب وهو راكب على نعامة يريد أخذ المركب، وصاح بهم صيحة عظيمة خروا منها على وجوههم وأخذ بعض من في المركب.

ومنها السعلاة يحكى أن صنفاً منها يتزيا بزي النساء، ويتراءى للرجال.

وحكي أن بعضهم تزوج امرأة منهن وهو لا يعلم، فأقامت معه مدة وولدت منه أولاداً ذكوراً وأناثاً، فلما

---

(١) سورة الكهف، الآية (٥٠).

كانت ذات ليلة صعدت معه السطح، فنظرت، فرأت ناراً من بعد عند الجبانة، فاضطربت، وقالت: ألم تر نيران السعالي، وتغير لونها، وقالت: بنوك وبناتك أوصيك بهم خيراً، ثم طارت ولم تعد إليه، ومنها نوع يقال له: المذهب يخدم العباد ومقصوده بذلك أن يعجبوا بأنفسهم.

وحكي أن بعض العباد نزل صومعة يتعبد فيها، فأتاه شخص بسراج وطعام، فتعجب العابد من ذلك، فقال له شخص بالصومعة: إنه المذهب يريد أن يخيل لك أن ذلك من كرامتي، والله إني لأعلم أنه شيطان.

وقال بعض الصوفية: المذهب أصناف منهم من يحمل الفانوس بين يدي الشيخ، ومنهم من يأتيه بالطعام والشراب وغير ذلك، ومنهم من ينشد الشعر.

وقال بعض المسافرين: أبق لي غلام، فخرجت في أثره، فإذا أنا بأربعة يتناشدون شعر الفرزدق وجرير. قال: فدنوت منهم، وسلمت عليهم، فقالوا: ألك حاجة؟ فقلت: لا، فقال بعضهم: تريد غلامك؟ قلت: وما أعلمك بغلامي؟ قال: كعلمي بجهلك. قلت: أوَ جاهل أنا؟ قال: نعم، وأحمق. قال: ثم غاب وأتاني بالغلام مقيداً، فلما رأيته غشي عليَّ، فلما أفقت قال: أنفخ في يده، ففعلت، فانفرج القيد عنه وصرت لا أنفخ في شيء من ذلك ولا في وجع من الأوجاع إلا برىء وخلص صاحبه.

ومنها نوع يقال له: العفريت، يخطف النساء. يقال: إن رجلاً اختطفت ابنته في زمن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه. وقال بعض المسافرين: بينما نحن سائرون ذات ليلة إذ عرض لي قضاء الحاجة، فانفردت عن رفقتي، وضللت عنهم، فبينما أنا سائر في أثرهم إذ رأيت ناراً عظيمة وخيمة، فجئت إلى جانبها، وإذا أنا بجارية جميلة جالسة فيها، فسألتها عن حالها، فقالت: أنا من فزارة إختطفني عفريت يقال له ظليم وجعلني ههنا، فهو يغيب عني بالليل، ويأتيني بالنهار، فقلت لها امضي معي، فقالت: أهلك أنا وأنت، فإنه يتبعنا ويأتينا، فيأخذني ويقتلك، فقلت: لا يستطيع أخذك ولا قتلي، وما زلت أرددها الحديث حتى رضيت، فأنخت لها ناقتي، فركبتها، وسرت بها حتى طلع الفجر، فالتفت، فإذا أنا بشخص عظيم مهول قد أقبل ورجلاه تخطان في الأرض، فقالت: ها هو قد أتانا، فأنخت ناقتي وخططت حولها خطاً[1]،

(١) أي رسم حولها دائرة، ويقال، وهذه رواية لا سند لها لنعرف

وقرأت آيات من القرآن، وتعوذت بالله العظيم، فتقدم وأنشد يقول:

يا ذا الذي للحين يدعوه القدر[1]
خل عن الحسناء[2] ثم سر
وإن تكن ذا خبرةٍ فينا اصطبر[3]

قال، فأجبته:

يا ذا الذي للحين يدعوه الحمق
خل عن الحسناء رسلاً وانطلقْ[4]
ما أنت في الجن بأوّل من عشق

قال: فتبدى لي في صورة أسد، وجاذبني وجاذبته ساعة، فلم يظفر أحد منا بصاحبه، فلما أيس مني قال: هل لك في جز ناصيتي، أو إحدى ثلاث خصال؟ قلت: وما هن؟ قال: مائتان من الإبل، أو أخدمك أيام حياتي، أو ألف دينار الساعة، وخلِّ بيني وبين الجارية، فقلت لا أبيع ديني بدنياي، ولا حاجة لي بخدمتك، فاذهب من حيث أتيت. قال: فانطلق، وهو يتكلم بكلام لا أفهمه، وسرت بالجارية إلى أهلها، وتزوجت بها، وجاءني منها أولاد.

وقيل: لما سخر الله تعالى الجن لسليمان عليه الصلاة والسلام نادى جبريل عليه السلام: أيها الجن أجيبوا نبي الله سليمان بن داود بإذن الله تعالى، قال: فخرجت الجن والشياطين من الجبال والكهوف والغيران[5] والأودية والفلوات والآجام وهم يقولون: لبيك لبيك والملائكة تسوقهم سوق الراعي للغنم حتى حشرت بين يدي سليمان عليه الصلاة والسلام طائعة ذليلة، وكانوا إذا ذاك أربعاً وعشرين فرقة، فنظر إلى ألوانها، فإذا هي سود وشقر ورقط وبيض وصفر وخضر، وعلى صور جميع الحيوانات، ومنهم من رأسه رأس أسد وبدنه بدن الفيل،

صحتها، أن الجني أو الشيطان إذا رسم حوله دائرة لا يخرج منها وإن رسمت حول إنسي لا يقدر أن يدخلها، ومما روي أن ابن مسعود رضي الله عنه لما خرج مع الرسول ﷺ ليلة لقاء الجن خَطَّ الرسول ﷺ حوله خطاً وأمره أن لا يتخطاه وأنه ما دام فيه لم يصلوا إليه بِشَرٍّ.

(١) الحين: الموت.
(٢) أي دعها أو أطلقها.
(٣) أي تحمّل ما سيصيبك منا.
(٤) رسلاً: الرِّسْلُ: الذي فيه لين واسترخاء وتمهل، والرسل: الرفق والتؤدة.
(٥) الغيران: ج غار وهو المغارة.

ومنهم من له خرطوم وذنب، ومنهم من له قرون وحوافر، وغير ذلك من الأنواع قال: فعند ذلك تعجب نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام من هذه الأشكال، وسجد شكراً لله تعالى، وقال: إلهي ألبسني هيبة من عندك، وجعل يسألهم عن طباعهم، وعن طعامهم وشرابهم، وهم يجيبونه، ثم فرقهم في الصنائع: من قطع الصخور والأحجار والأشجار والغوص في البحار، وأبنية الحصون، وفي استخراج المعادن والجواهر. قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝﴾[1].

ونكتفي من ذلك بهذا القدر اليسير، والله المسؤول في تيسير كل عسير، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الخامس والستون

في ذكر البحار وما فيها من العجائب وذكر الأنهار والآبار

وفيه فصول

الفصل الأول

في ذكر البحار

روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: لما أراد الله تعالى أن يخلق الماء خلق ياقوتة خضراء لا يعلم طولها وعرضها إلا الله سبحانه وتعالى، ثم نظر إليها بعين الهيبة، فذابت وصارت ماء فاضطرب الماء، فخلق الريح ووضع عليها الماء، ثم خلق العرش ووضعه على متن الماء وعليه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾[2].

واعلم أن بحر الظلمات[3] لا يدخله شمس ولا قمر، وإن بحر الهند خليج منه[4]، وبحر اللاذقية خليج منه[5]، وبحر الصين خليج منه، وبحر الروم خليج منه[5]، وبحر

(١) سورة صٓ، الآية (٣٩).
(٢) سورة هود، الآية (٧).
(٣) هو المحيط الأطلسي وقد تجاوزوه وكانوا يظنون أنه آخر الأرض وبعده هاوية سحيقة.
(٤) هو المحيط الهندي ويبدو أن المؤلف لم يطلع على كتابات بحارة العرب وتآليفهم ولذا تراه يروي هنا أساطير العامة.
(٥) المراد البحر الأبيض المتوسط.

فارس خليج منه[1]، وكل هذه البحار التي ذكرتها أصلها من البحر الأسود الذي يقال له البحر المحيط[2]، وأما بحر الخزر[3] وبحر خوارزم[3]، وبحر أرمينية[4]، والبحر الذي عند مدينة النحاس، وغير ذلك من البحار الصغار فهي منقطعة عن البحر الأسود[5]، ولذلك ليس فيها جزر ولا مد.

وقيل سئل النبي ﷺ عن الجزر والمد، فقال: هو ملك عال قائم بين البحرين إن وضع رجله في البحر حصل له المد، وإذا رفعها حصل له الجزر[6].

وقيل: إنما سمي البحر الأسود لأن ماءه في رأى العين كالحبر الأسود، فإن أخذ منه الإنسان في يده شيئاً رآه أبيضاً صافياً إلا أنه أمرّ من الصبر مالح شديد الملوحة، فإذا صار ذلك الماء في بحر الروم تراه أخضر كالزنجار، والله تعالى يعلم لأي شيء ذلك.

وكذلك يرى في بحر الهند خليج أحمر كالدم، وبحر أصفر كالذهب، وخليج أبيض كاللبن تتغير هذه الألوان في هذه المواضع، والماء في نفسه أبيض صاف، وقيل: إن تغيُّر الماء بلون الأرض.

وأما ما يخرج من البحر من السمك وغيره فقد روي عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى ساحل البحر، وأمّر علينا أبا عبيدة رضي الله تعالى عنه نتلقى عير قريش، وزودنا جراباً من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة نمصها ثم نشرب عليها الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل، فأشرفنا على ساحل البحر، فرأينا شيئاً كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه، فإذا هو دابة من دواب البحر تدعى العنبر[7]، فأقمنا شهراً نأكل منها، ونحن ثلاثمائة حتى سمنّا، ولقد رأيتنا نغترف من الدهن الذي في وقب عينيها بالقلال، ونقطع منه القطعة كالثور، ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في وقب عينها، وأخذ

(١) هو الخليج العربي.
(٢) كانوا يظنون أن البحار والمحيطات كلها بحر واحد لاتصالها ببعضها البعض.
(٣) هو بحر قزوين وهو بحر مغلق لا اتصال له بالمحيطات.
(٤) هو البحر الأسود.
(٥) المراد بالبحر الأسود: المحيط الأطلسي والمحيط الهادي والمحيط الهندي لاتصالها ببعضها البعض.
(٦) هذا خبر لم تروه كتب الحديث المعتبرة.
(٧) هو الحوت الأزرق.

ضلعاً من أضلاعها، فأقامها، ثم رحّل أعظم بعير معنا، فمر من تحتها وتزودنا من لحمها، فلما قدمنا المدينة ذكرنا لرسول الله ﷺ ذلك، فقال: هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم شيء من لحمها، فتطعمونا، فأرسلنا له منه، فأكله.

وقيل: يخرج من البحر سمكة عظيمة، فتتبعها سمكة أخرى أعظم منها لتأكلها فتهرب منها إلى مجمع البحرين[1]، فتتبعها، فتضيق عليها مجمع البحرين، لعظمها وكبرها، فترجع إلى البحر الأسود، وعرض مجمع البحرين مائة فرسخ، فتبارك الله رب العالمين.

وقال صاحب تحفة الألباب: ركبت في سفينة مع جماعة، فدخلنا إلى مجمع البحرين، فخرجت سمكة عظيمة مثل الجبل العظيم، فصاحت صيحة عظيمة لم أسمع قط أهول منها ولا أقوى، فكاد قلبي ينخلع، وسقطت على وجهي أنا وغيري، ثم ألقت السمكة نفسها في البحر، فاضطرب البحر اضطراباً شديداً، وعظمت أمواجه، وخفنا الغرق، فنجانا الله تعالى بفضله، وسمعت الملاحين يقولون هذه سمكة تعرف بالبغل قال: ورأيت في البحر سمكة كالجبل العظيم، ومن رأسها إلى ذنبها عظام سود كأسنان المنشار كل عظم أطول من ذراعين وكان بيننا وبينها في البحر أكثر من فرسخ، فسمعت الملاحين يقولون: هذه السمكة تعرف بالمنشار إذا صادفت أسفل السفينة قصمتها نصفين، ولقد سمعت أنا من يقول أن جماعة ركبوا سفينة في البحر، فأرسوا على جزيرة فخرجوا إلى تلك الجزيرة، فغسلوا ثيابهم واستراحوا ثم أوقدوا ناراً ليطبخوا، فتحركت الجزيرة، وطلبت البحر، وإذا بها سمكة[2]، فسبحان القادر على كل شيء لا إله إلا هو، ولا معبود سواه.

وقيل: إن في البحر سمكة تعرف بالمنارة لطولها يقال: إنها تخرج من البحر إلى جانب السفينة، فتلقي نفسها عليها، فتحطمها، وتهلك من فيها، فإذا أحس بها أهل السفينة صاحوا وكبروا وضجوا وضربوا الطبول ونقروا الطسوت والسطول والأخشاب لأنها إذا سمعت تلك الأصوات ربما صرفها الله تعالى عنهم بفضله ورحمته.

---

(١) مجمع البحرين هو شط العرب ملتقى دجلة والفرات.

(٢) هذه من حكايات ألف ليلة وليلة ذكرت في مغامرات السندباد البحري، إلا أن هناك أنواعاً من السلاحف والأسماك الضخمة التي تبقى هادئة في الماء ويرى شيء كالعشب ثابتاً على جلدها إلا أن ما عرض منها في البرامج الوثائقية لا يصل إلى الحجم المذكور هنا.

وقال الشيخ عبد الله صاحب تحفة الألباب: كنت يوماً في البحر على صخرة، فإذا أنا بذنب حية صفراء منقطة بسواد طولها مقدار باع فطلبت أن تقبض على رجلي، فتباعدت عنها، فأخرجت رأسها كأنها رأس أرنب من تحت تلك الصخرة، فسللت خنجراً كبيراً كان معي فطعنت به رأسها، فغار فيه، فلم أقدر على خلاصه منها، فأمسكت نصابه بيدي جميعاً وجعلت أجره حتى ألصقتها بباب الجحر، فتركت الجحر، وخرجت من تحت الصخرة، فإذا هي خمس حيات في رأس واحد، فتعجبت من ذلك، وسألت من كان هناك عن اسم هذه الحية فقال: هذه تعرف بأم الحيات، وذكروا أنها تقبض على الآدمي في الماء، فتمسكه حتى يموت وتأكله، وأنها تعظم حتى تكون كل حية أكثر من عشرين ذراعاً وأنها تقلب الزوارق، وتأكل من قدرت عليه من أصحابها، وأن جلدها أرق من جلد البصل، ولا يؤثر فيها الحديد شيئاً[1].

قال: ورأيت مرة في البحر صخرة عليها شيء كثير من النارنج الأحمر الطري الذي كأنه قطع من شجرة، فقلت في نفسي: هذا قد وقع من بعض السفن، فذهبت إليه، فقبضت منه نارنجة، فإذا هي ملتصقة بالحجر، فجذبتها، فإذا هي حيوان يتحرك ويضرب في يدي، فلففت يدي بكم ثوبي، وقبضت عليه وعصرته، فخرج من فيه مياه كثيرة، وضمر، فلم أقدر أن أقلعه من مكانه، فتركته عجزاً عنه، وهو من عجائب خلق الله تعالى، وليس له عين ولا جارحة إلا الفم، والله سبحانه وتعالى أعلم لأي شيء يصلح ذلك.

قال: ولقد رأيت يوماً على جانب البحر عنقود عنب أسود كبير الحب أخضر العرجون كأنما قطف من كرمه، فأخذته، وكان ذلك في أيام الشتاء، وليس في تلك الأرض التي كنت فيها عنب، فرمت أن آكل منه، فقبضت على حبة منه، وجذبتها، فلم أقدر أن أقلعها من العنقود حتى كأنها من الحديد قوة وصلابة، فجذبتها جذبة أقوى من الأولى، فانقشرت قشرة من تلك الحبة كقشر العنب وفي داخلها عجم كعجم العنب، فسألت عن ذلك، فقيل لي: هذا من عنب البحر ورائحته كرائحة السمك.

وفي البحر أيضاً حيوان رأسه يشبه رأس العجل، وله أنياب كأنياب السباع، وجلده له شعر كشعر العجل، وله عنق وصدر وبطن، وله رجلان كرجل الضفدع، وليس له

---

(١) هو يصف هنا الأخطبوط والعجب منه كيف لم يعرف مع أن اسمه في كل اللغات قد أخذ من اسمه العربي.

يدان[1] يعرف بالسمك اليهودي، وذلك أنه إذا غابت الشمس ليلة السبت يخرج من البحر، ويلقي نفسه في البر ولا يتحرك، ولا يأكل، ولو قتل، ولا يدخل البحر حتى تغيب الشمس ليلة الأحد، فحينئذٍ يدخل البحر ولا تلحقه السفن لخفته وقوته وجلده يتخذ منه نعل لصاحب النقرس، فلا يجد له ألماً ما دام ذلك الجلد عليه، وهو من العجائب.

وقيل: إن في بحر الروم سمكاً طويلاً طول السمكة مائة ذراع، وأكثر، وله أنياب كأنياب الفيل تؤخذ وتباع في بلاد الروم، وتحمل إلى سائر البلاد، وهي أحسن، وأقوى من أنياب الفيل[2]، وإذا شق الناب منها يظهر فيه نقوش عجيبة، ويسمونه الجوهر، ويتخذون منه نصباً للسكاكين، وهو مع قوته وحسن لونه ثقيل الوزن كالرصاص.

وفي البحر أيضاً سمك يسمى الرعاد إذا دخل في شبكة، فكل من جر تلك الشبكة أو وضع يده عليها أو على حبل من حبالها تأخذه الرعدة حتى لا يملك من نفسه شيئاً كما يرعد صاحب الحمى، فإذا رفع يده زالت عنه الرعدة، فإن أعادها عادت إليه الرعدة[3]، وهذا أيضاً من العجائب، فسبحان الله جلت قدرته.

وقال صاحب تحفة الألباب: حدثني الشيخ أبو العباس الحجازي قال: حدثني رجل يعرف بالهاروني من ولد هارون الرشيد أنه ركب سفينة في بحر الهند، فرأى طاووساً قد خرج من البحر أحسن من طاووس البر وأجمل ألواناً. قال: فكبر بالحسنة فجعل يسبح وينظر لنفسه، وينشر أجنحته، وينظر إلى ذنبه ساعة، ثم غاص في البحر[4].

وفي البحر دابة يقال لها: الدرفين[5] تنجي الغريق لأنها تدنو منه حتى تضع يده على ظهرها، فيستعين بالإتكاء عليها، ويتعلق بها، فتسبح به حتى ينجيه الله بقدرته، فسبحان من دبّر هذا التدبير اللطيف، وأحكم هذه الحكمة البالغة.

(١) هو المعروف باسم عجل البحر ويدل وصفه على أن البحارة العرب وصلوا إلى أماكن بعيدة في رحلاتهم.
(٢) هذا من أنواع عجل البحر إلا أنه قد بالغ كثيراً في ذكر طوله.
(٣) سمك الرعاد معروف وهو يطلق شحنة كهربائية.
(٤) هذا أيضاً رأيناه في برنامج وثائقي عن عالم البحار ويعيش في المحيط الهندي أو بعض أطرافه.
(٥) هو الدلفين المعروف.

وزعموا أن السمك يتجه نحو الغناء والصوت الحسن، ويصبو لسماعه. وربما قيل إن بعض الصيادين يحفرون في البحر حفائر، ثم يجلسون، فيضربون بالمعازف وآلات الطرب، فيجتمع السمك، ويقع في تلك الحفائر.

وقيل: إن الدرفين وأنواع السمك إذا سمعت صوت الرعد هربت إلى قعر البحر، وقيل: إن خيل البحر توجد بنيل مصر، وهي صفة خيل البر.

وقيل: إنها تأكل التماسيح وربما خرجت فرعت الزرع، وإذا رأى أهل مصر أثر حوافرها حكموا أن ماء النيل ينتهي في طلوعه إلى ذلك المكان.

وقيل: إن في البحر المحيط شيئاً يتراءى كالحصون، فيرتفع على وجه الماء ويظهر منه صور كثيرة، ويغيب، ومن عجيب ما حكي أن فيه جزيرة فيها ثلاث مدن عامرة، وهي كثيرة الأمطار، وأهلها يحصدون زرعها قبل جفافه لقلة طلوع الشمس عندهم ويجعلونه في بيت ويوقدون حوله النيران حتى يجف. وعجائبه لا تحصى، ولا يمكن حصرها.

ويقال: إن الإسكندر لما سار إلى بحر الظلمات مر بجزيرة بها أمة رؤوسهم مثل رؤوس الكلاب يخرج من أفواههم مثل لهب النار، وخرجوا إلى مراكبه، وحاربوه، ثم تخلص منهم وسار، فرأى صوراً متلونة بألوان شتى وسمكاً طوله مائة ذراع، وأكثر، وأقل، فسبحان الله تعالى ما أكثر عجائب خلقه.

ويقال أنه مر في بعض الجزائر على قصر مصنوع من البلور على قلعة محكمة البناء وحولها قناديل لا تطفأ، ومن جزائر البحر جزيرة القمر[1] يقال إن بها شجراً طول الشجرة مائتا ذراع، ودور ساقها مائة وعشرون ذراعاً، وبها طوائف من السودان عرايا الأبدان يلتحفون بورق الشجر وهو ورق يشبه ورق الموز لكنه أسمك وأعرض وأنعم، ويقال: إن هذه الجزيرة بالقرب من نيل مصر، وإن هذه الأمة التي بها يتمذهبون بمذهب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه، وهم في غاية اللطافة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالقرب منهم معدن الذهب والياقوت وبها الفيلة البيض وحيوانات مختلفة الأشكال من الوحوش وغيرهما، وبها العود القماري والآبنوس والطواويس، وبها مدن كثيرة.

(١) وهي إحدى جزر دولة جزر القمر، الدولة الواحدة والعشرون في جامعة الدول العربية.

ومنها جزيرة الواق[1] خلف جبل يقال له: اصطفيون داخل البحر الجنوبي، ويقال إن هذه الجزيرة كانت ملكتها امرأة، وإن بعض المسافرين وصل إليها ودخلها ورأى هذه الملكة، وهي جالسة على سرير، وعلى رأسها تاج من ذهب وحولها أربعمائة وصيفة كلهن أبكار، وفي هذه الجزيرة من العجائب شجر يشبه شجر الجوز، وخيار الشنبر ويحمل حملاً كهيئة الإنسان، فإذا انتهى سمع له تصويت يفهم منه واق واق، ثم يسقط، وهذه الجزيرة كثيرة الذهب حتى قيل إن سلاسل خيمهم ومقاود كلابهم وأطواقها من الذهب.

ومنها جزيرة الصين يقال: إن بها ثلاثمائة مدينة ونيفاً سوى القرى والأطراف وأبوابها اثنا عشر باباً، وهي جبال في البحر بين كل جبلين فرجة، وهذه الجبال تمر بها المراكب مسيرة سبعة أيام، وإذا جاوزت السفينة الأبواب سارت في ماء عذب حتى تصل إلى الموضع الذي تريده، وفيها من الأودية والأشجار والأنهار ما لا يمكن وصفه، فتبارك الله رب العالمين.

وقيل: إن الاسكندر لما فرغ من بناء سده حمد الله تعالى وأثنى عليه ثم نام، وإذا بحيوان عظيم صعد من البحر إلى أعلى وسد الأفق، فظن من حول الملك أنه يريد ابتلاعهم، ففزعوا، فانتبه، فقال: ما لكم؟ فقالوا له؟ انظر ما حل بنا، فقال: ما كان الله ليأخذ نفساً قبل انقضاء أجلها، وقد منعني من العدو فلا يسلط عليّ حيواناً من البحر. قال: فإذا بالحيوان قد دنا من الملك، وقال: أيها الملك أنا حيوان من هذا البحر، وقد رأيت هذا السد بني وخرب سبع مرات، ولم يزد على ذلك، ثم غاب في البحر، فتبارك من له هذا الملك العظيم، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

وقيل: إن بجزيرة النسناس باليمن مدينة بين جبلين وليس لها ماء يدخل فيها إلا من المطر، وطولها نحو ستة فراسخ، وهي حصينة ذات كروم ونخيل، وأشجار، وغير ذلك، وإذا أراد إنسان الدخول فيها حثى على وجهه التراب، فإن أبى إلا الدخول خنق أو صرع، وقيل: إنها معمورة بالجان، وقيل: بخلق من النسناس، ويقال: إنهم من بقايا عاد الذين أهلكهم الله بالريح العقيم، وكل واحد منهم شق إنسان، ونقل عن بعض المسافرين أنه قال: بينما نحن سائرون إذ أقبل علينا الليل فبتنا بواد، فلما أصبح الصباح سمعنا قائلا يقول من الشجرة: يا أبا بجير الصبح قد أسفر، والليل قد أدبر، والقناص قد حضر، فالحذر الحذر. قال: فلما ارتفع النهار أرسلنا كلبين كانا معنا نحو الشجرة، فسمعت صوتاً يقول: ناشدتك. قال، فقلت لرفيقي: دعهما. قال: فلما وثقا بنا نزلا هاربين، فتبعهما الكلبان وجدًا في الجري، فأمسكا شخصاً منهما قال: فأدركناه وهو يقول:

الويل لي مما به دهاني
دهري من الهموم والأحزان
قفا قليلاً أيها الكلبان
إلى متى إليّ تجريان

قال: فأخذناه ورجعنا، فذبحه رفيقي وشواه، فعفته ولم آكل منه شيئاً، فتبارك الله ما أكثر عجائب خلقه. لا إله إلا هو ولا معبود سواه.

الفصل الثاني
في ذكر الأنهار والآبار والعيون

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾[1]. وقال المفسرون: هو المطر، ومعنى سلكه أدخله في الأرض، وجعله عيوناً ومسايل ومجاري كالعروق في الجسد، فمن الأنهار ما هو من الأمطار المجتمعة، ولهذا ينقطع عند فراغ مادته، ومنها ما ينبع من الأرض، وأطول ما يكون من الأنهار ألف فرسخ، وأقصره عشرة فراسخ إلى اثنين وثلاثة، وبين ذلك، وكلها تبتدىء من الجبال وتنتهي إلى البحار والبطائح، وفي ممرها تسقي المدن والقرى وما فضل منها ينصب في البحر المالح ويختلط به، ولا يمكن استيفاء عددها لكنا نشير إلى بعضها فنقول.

النيل المبارك: ليس في الأنهار أطول منه لأنه مسيرة شهرين في بلاد الإسلام، وشهرين في بلاد النوبة، وأربعة في الخراب، وقيل: إن مسافته من منبعه إلى أن ينصب في البحر الرومي ألف وسبعمائة فرسخ وثمانية وأربعون فرسخاً. قال ذلك صاحب مباهج الفكر ومناهج العبر[2].

---

(١) هذه من جزر أندونيسيا أو ماليزيا. وسميت بهذا الإسم نسبة لطير فيها يسمى بلغتهم «واق» والجمع بلغتهم بالتكرار «واق واق».

(١) سورة سورة الزمر، الآية (٢١).

(٢) وهذا يدل أنهم وصلوا إلى منابعه وأن زعم الانجليز أنهم أول من فعل ذلك من الأكاذيب والأباطيل كعادتهم في كل علم سرقوه من مخطوطات العلوم العربية.

واختلف في زيادته، فقيل إن الأنهار والعيون تمده في الوقت الذي يريده الله تعالى. وفي الحديث: «إنه من أنهار الجنة»، وقال أهل الأثر: إن الأنهار التي من الجنة تخرج من أصل واحد من قبة في أرض الذهب، ثم تمر بالبحر المحيط، وتشق فيه. قالوا ولولا ذلك لكانت أحلى من العسل وأطيب رائحة من الكافور.

نهر الفرات: يوجد بأرض أرمينية. فضائله كثيرة، والنيل أصدق حلاوة منه، وبه من السمك الأبيض ما تكون الواحدة قنطاراً بالدمشقي، وطول هذا النهر من حين يخرج من عند ملطية إلى أن يأتي إلى بغداد ستمائة وثلاثون فرسخاً، وفي وسطه مدن وجزائر تعد من أعمال الفرات.

جيحون: نهر عظيم تتصل به أنهار كثيرة، ويمر على مدن كثيرة حتى يصل إلى خوارزم، ولا ينتفع به شيء من البلاد سوى خوارزم لأنها منسفلة عنه، ثم يصب في بحيرة بينها وبين خوارزم ستة أيام، وهو يجمد في الشتاء خمسة أشهر، والماء يجري من تحت الجمد، فيحفر أهل خوارزم منه لهم أماكن ليستقوا منها، وإذا اشتد جموده مروا عليه بالقوافل والعجل المحملة، ولا يبقى بينه وبين الأرض فرق ويعلوه التراب ويبقى على ذلك شهرين.

سيحون: نهر عظيم. قيل: إن مبدأه من حدود الترك ويجري حتى يتصل ببلاد الفرغانة، وربما يجتمع مع جيحون في بعض الأماكن.

الدجلة: نهر بغداد. وله أسماء غير ذلك وماؤه أعذب المياه بعد النيل، وأكثرها نفعاً. قيل: مقداره ثلاثمائة فرسخ، وفي بعض الأوقات يفيض حتى قيل إنه يخشى على بغداد الغرق منه، وهو نهر مبارك كثيراً ما ينجو غريقه.

حكي إنه وجد به غريق فيه الروح، فلما أفاق سألوه عن حاله، فأخبرهم أنه لما غلب على نفسه رأى كأن أحداً يحمله ويصعد به، وروي في الأثر أن الله تعالى أمر دانيال عليه الصلاة والسلام أن يحفر لعباده ما يستقون منه وينتفعون به، فكان كلما مر بأرض ناشده أهلها أن يحفر ذلك عندهم إلى أن حفر دجلة والفرات.

وأما الأنهار الصغار فكثيرة ولكنا نذكر منها طرفاً فنقول:

نهر حصن المهدي: قال صاحب تحفة الألباب: إنه بين البصرة والأهواز، وإنه يرتفع منه في بعض الأوقات شيء يشبه صورة الفيل، ولا يعرف أحد شأنه.

نهر أذربيجان: قيل إن بالقرب منه نهراً يجري فيه الماء سنة، ثم ينقطع ثمان سنين، ثم يعود في التاسعة، وقيل إنه ينعقد حجراً ويستعمل منه اللبن ويبنى به. وقيل إن في تلك الأرض بحيرة تجف فلا يوجد فيها ماء ولا سمك، ولا طين سبع سنين، ثم يعود الماء والسمك والطين، فتبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

نهر صقلاب: يجري فيه الماء يوماً واحداً في كل أسبوع، ثم ينقطع ستة أيام.

نهر العاصي: بأرض حماة. وقيل: بحمص وهو نهر معروف. وفيه يقول بعضهم:

مدينة حمصٍ كعبةُ القصف أصبحت
يطوف بها الداني ويسعى لها القاصي[1]

بها روضة من حسنها سندسيةٌ
تعلق في أكناف أذيالها العاصي[2]

نهر العمود: بأرض الهند عليه شجرة نابتة من حديد، وقيل من نحاس وتحتها عمود من نحاس وقيل: من حديد طوله من فوق الماء نحو عشرة أذرع وعرضه ذراع، وعلى رأسه ثلاث شعب مسنونة محدودة، وعنده رجل يقرأ كتاب الله تعالى، ويقول: يا عظيم البركة طوبى لمن صعد هذه الشجرة وألقى بنفسه على هذا العمود، فيدخل الجنة، وقال أهل تلك الناحية: من يريد ذلك فيصعد على تلك الشجرة ويلقي نفسه، فيتقطع.

نهر باليمن: قال صاحب تحفة الألباب: إنه عند طلوع الشمس يجري من المشرق إلى المغرب، وعند غروبها يجري من المغرب إلى المشرق.

نهر ببلاد الحبشة والسودان: يجري إلى المشرق يشبه النيل في زيادته ونقصانه وأرضه بها الخصب والبركة وبها شجر كالأراك يحمل ثمراً كالبطيخ داخله شيء يشبه القند في الحلاوة، ولكن فيه بعض حموضة وهذا النهر يجري في بلادهم ثمانية أشهر، ثم ينصب في البحر المحيط فسبحان من دبّر هذا التدبير، وأحكم هذه الصنعة. لا إله إلا هو الحكيم الخبير.

الفصل الثالث

في ذكر الآبار

قال مجاهد: كنت أحب أن أرى كل شيء غريب، فسمعت أن ببابل بئر **هاروت وماروت**، فسرت إليها، فلما وصلت إلى ذلك المكان وجدت عنده بيوتاً، فدخلت في

---

(١) القصف: الأكل والشراب والغناء، ونهر العاصي ينبع من لبنان ثم يسير إلى سوريا وحماة.

(٢) السندس: نوع من القماش الأخضر.

بعضها، فوجدت شخصاً، فسلمت عليه، فرحب بي وسألني عن حاجتي، فذكرت له غرضي فأمر يهودياً يذهب معي، فيوقفني على البئر، ويطلعني على الملكين. قال، فسرنا إلى البئر، ففتح سرداباً ونزلنا، فأمرني أن لا أذكر اسم الله تعالى. قال: فلما رأيت الملكين رأيت شيئاً كالجبلين العظيمين منكسين على رؤوسهما الحديد من أعناقهما إلى ركبهما. قال مجاهد: فلما رأيت ذلك ذكرت الله تعالى. قال: فاضطربا اضطراباً شديداً حتى كادا يقطعان السلاسل. قال، ففر اليهودي، فتعلقت به، فقال: أما أمرتك أن لا تذكر اسم الله تعالى كدنا والله نهلك.

بئر برهوت: بقرب حضرموت، وهي التي قال النبي ﷺ إنها مجمع أرواح الكفار، قال علي كرم الله وجهه: أبغض البقاع إلى الله تعالى بئر برهوت ماؤها أسود منتن تأوي إليها الكفار، والموكل بها ملك يسمى دومة.

بئر عسفان: ماؤها يستشفى به. قيل إن النبي ﷺ تفل فيها. قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما: كنا نغسل المريض منها، فيعافى. وقيل: إن النبي ﷺ توضأ منها.

بئر معروفة بأرض حلب: خاصيتها أنها إذا شرب منها المكلوب زال كلبه ما لم يجاوز الأربعين. وبنيسابور آبار كثيرة، وهي معادن الفيروزج، وإنما يمنع الناس عنها كثرة عقاربها.

وبأرض فارس بئر ينبع منها ماء في وقت من السنة، فيرتفع على وجه الأرض لمحة واحدة ويجري، فينتفع به في سقي الزرع، ثم يعود إلى ما كان، وعجائب الله كثيرة لا تكاد تنحصر. لا إله إلا الله ولا معبود سواه.

الباب السادس والستون
في ذكر عجائب الأرض وما فيها من الجبال والبلدان وغرائب البنيان

وفيه فصول

الفصل الأول
في ذكر الأرض وما فيها من العمران

روى وهب بن منبه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: إن لله تعالى ثمانية عشر ألف عالم. الدنيا منها عالم واحد، وما العمران في الخراب إلا كخردلة في كف أحدكم. وقال رواة الأثر: إن لله عز وجل دابة في مرج من مروجه في غامض علمه رزقها في كل يوم بقدر رزق العالم بأسره، وجميع مدائن الدنيا أربعة آلاف مدينة وخمسمائة وست وخمسون مدينة، وقيل غير ذلك.

وأقاليم الأرض سبعة. الأقليم الأول الهند، والثاني الحجاز، والثالث: أقليم مصر. الرابع أقليم بابل. الخامس أقليم الروم والشام، السادس أقليم الترك، السابع أقليم الصين. وأوسط الأقاليم أقليم بابل، وهو أعمرها، وفيه جزيرة العرب، وفيه العراق الذي هو سرة الدنيا وبغداد في وسط هذا الأقليم فلاعتداله اعتدلت ألوان أهله، فسلموا من شقرة الروم وسواد الحبشة، وغلظ الترك، وجفاء أهل الجبال، ودمامة أهل الصين[1]. والممالك المشهورة التي ضبطت عدتها في زمن المأمون ثلاثمائة وثلاث وأربعون مملكة. أوسعها ثلاثة أشهر وأضيقها ثلاثة أيام.

وقال أهل الهيئة: إنه يكون عند خط الإستواء ربيعان وصيفان وخريفان وشتاءان في سنة واحدة، وأنه يكون في بعض البلاد ستة أشهر ليل وستة أشهر نهار[2] وبعضها حر وبعضها برد، فسبحان من خلق كل شيء، فأتقنه. لا إله إلا هو ولا معبود سواه.

الفصل الثاني
في ذكر الجبال

قيل: إن الله تعالى لما خلق الأرض ماجت واضطربت، فخلق الجبال وأرساها بها، فاستقرت، ومجموع ما عرف بالأقاليم السبعة من الجبال مائة وثمانية وتسعون جبلاً، فمنها ما طوله عشرون فرسخاً، ومنها ما طوله مائة فرسخ إلى ألف فرسخ. ولنذكر منها ما هو مشهور ومعروف بين الناس.

فمن أعجبها:

جبل سرنديب: وطوله مائتان ونيف وستون ميلاً وفيه أثر قدم آدم عليه الصلاة والسلام حين أهبط، وحوله

---

(١) كلامه هنا عن الأقاليم مأخوذ بكامله من «مروج الذهب» للمسعودي.

(٢) هذا في القطبين الشمالي والجنوبي للأرض وهذا يدل على مقدار ما وصل إليه علماء العرب وإن كانوا لم يصلوا بأشخاصهم إلى القطبين.

الياقوت وفي أوديته الماس الذي يقطع به الصخور ويثقب به اللؤلؤ، وفيه العود والفلفل ودابة المسك ودابة الزباد.

جبل الروم: الذي فيه السد طوله سبعمائة فرسخ وينتهي إلى بحر الظلمات.

جبل أبي قبيس: سمي بذلك لأن آدم عليه الصلاة والسلام كنّاه بذلك حين اقتبس منه النار التي بين أيدي الناس، وقيل غير ذلك.

جبل القدس: جبل شريف مبارك فيه غار يضيء بالليل من غير سراج، ويزوره الناس.

جبل أروند: بهمذان برأسه عين تخرج من صخرة أياماً معدودة في السنة تقصد من كل وجه يستشفى بها.

جبل الشام: لونه أسود كالفحم وترابه أبيض تبيض به الثياب.

جبل الأندلس: فيه غار إذا دهنت فتيلة وأدخلتها فيه أوقدت، وبها جبل به عينان إحداهما باردة والأخرى حارة، والمسافة التي بينهما مقدار شبر، وجبل به معدن الكبريت والزئبق والزنجفر.

جبل سمرقند: يقطر منه ماء في الصيف يصير جليداً وفي الشتاء يحرق من حرارته.

جبل الصور: بكرمان يكسر حجره، فيخرج منه كصور الآدميين قائمين وقاعدين ومضطجعين، وإذا سحق وطرح في الماء يرى كذلك.

جبل الأرجان: بطبرستان يقطر منه ماء كل قطرة تصير حجراً مسدساً أو مثمناً.

جبل هرمز: ينزل منه ماء إلى وهدة، فإن صاح إنسان صيحة وقف فإن ثنّى جرى.

جبل الطير: بإقليم الصعيد يجتمع عنده الطير في كل سنة مرة ويدخل في كوة هناك، فتمسك الكوة على واحدة، وتطير البقية، ويكون ذلك علامة الخصب في تلك السنة. ولنقتصر على ذلك، ومن أراد الوقوف على جميعها فعليه بتاريخ مرآة الزمان.

الفصل الثالث

في ذكر المباني العظيمة وغرائبها وعجائبها

قال أهل التواريخ، ونقلة الأخبار: إن أول بناء بني على وجه الأرض الصرح الذي بناه نمرود الأكبر بن كوش بن حام بن نوح عليه الصلاة والسلام وبقعته بكوثى من أرض بابل وبه إلى عصرنا أثر ذلك البناء كأنه جبال شاهقات. قالوا: كان طوله خمسة آلاف ذراع بناه بالحجارة والرصاص والشمع واللبان ليمتنع هو وقومه من طوفان ثان، فأخرب الله تعالى ذلك الصرح في ليلة واحدة بصيحة، فتبلبلت بها ألسنة الناس، فسميت أرض بابل.

إرم ذات العماد: التي لم يخلق مثلها في البلاد.

حكى الشعبي في كتاب سير الملوك: أن شداد بن عاد ملك جميع الدنيا وكان قومه قوم عاد الأولى زادهم الله بسطة في الأجسام وقوة حتى قالوا من أشد منا قوة. قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾(1). وأن الله تعالى بعث إليهم هوداً نبياً عليه الصلاة والسلام فدعاهم إلى الله تعالى، فقال له شداد: إن آمنت بإلهك فماذا لي عنده؟ قال: يعطيك في الآخرة جنة مبنية من ذهب ويواقيت ولؤلؤ وجميع أنواع الجواهر. قال شداد: أنا أبني مثل هذه الجنة ولا أحتاج إلى ما تعدني به. قال: فأمر شداد ألف أمير من جبابرة قوم عاد أن يخرجوا ويطلبوا أرضاً واسعة كثيرة الماء طيبة الهواء بعيدة من الجبال ليبني فيها مدينة من ذهب. قال: فخرج أولئك الأمراء، ومع كل أمير ألف رجل من خدمه وحشمه، فساروا في الأرض حتى وصلوا إلى جبل عدن، فرأوا هناك أرضاً واسعة طيبة الهواء، فأعجبتهم تلك الأرض، فأمروا المهندسين والبنائين، فخطوا مدينة مربعة الجوانب دورها أربعون فرسخاً من كل جهة عشرة فراسخ، فحفروا الأساس إلى الماء وبنوا الجدران بحجارة الجزع اليماني حتى ظهر على وجه الأرض ثم أحاطوا به سوراً ارتفاعه خمسمائة ذراع وغشوه بصفائح الفضة المموهة بالذهب فلا يكاد يدركه البصر إذا أشرقت الشمس، وكان شداد قد بعث إلى جميع معادن الدنيا، فاستخرج منها الذهب واتخذه لبناً، ولم يترك في أحد من الناس في جميع الدنيا شيئاً من الذهب إلا غصبه، واستخرج الكنوز المدفونة، ثم بنى داخل المدينة مائة ألف قصر بعدد رؤساء مملكته كل قصر على عمد من أنواع الزبرجد واليواقيت معقودة بالذهب طول كل عمود مائة ذراع، وأجرى في وسطها أنهاراً، وعمل منها جداول لتلك القصور والمنازل، وجعل حصاها من الذهب والجواهر واليواقيت وحلى قصورها بصفائح الذهب والفضة، وجعل على حافات الأنهار أنواع الأشجار جذوعها من الذهب وأوراقها وثمرها من أنواع الزبرجد واليواقيت واللآلىء. وطلى

---

(1) سورة فصلت، الآية (١٥).

حيطانها بالمسك والعنبر وجعل فيها جنة مزخرفة له وجعل أشجارها الزمرد واليواقيت وسائر أنواع المعادن، ونصب عليها أنواع الطيور المسموعة الصادح والمغرد، وغير ذلك، ثم بنى حول المدينة مائة ألف منارة برسم الحراس الذين يحرسون المدينة، فلما كمل بناؤها أمر في مشارق الأرض ومغاربها أن يتخذوا في البلاد بسطاً وستوراً وفرشاً من أنواع الحرير لتلك القصور والغرف، وأمر باتخاذ أواني الذهب والفضة، فاتخذوا جميع ما أمر به، فلما فرغوا من ذلك جميعه خرج شداد من حضرموت في أهل مملكته، وقصد مدينة إرم ذات العماد، فلما أشرف عليها ورآها قال: قد وصلت إلى ما كان هود يعدني به بعد الموت، وقد حصلت عليه في الدنيا، فلما أراد دخولها أمر الله تعالى ملكاً، فصاح بهم صيحة الغضب، وقبض ملك الموت أرواحهم في طرفة عين، فخروا على وجوههم صرعى. قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝﴾[1]. وذلك قبل هلاك عاد بالريح العقيم، وأخفى الله تعالى تلك المدينة عن أعين الناس، فكانوا يرون بالليل في تلك البرية التي بنيت فيها معادن الذهب والفضة واليواقيت تضيء كالمصابيح، فإذا وصلوا إليها لم يجدوا هناك شيئاً[2].

وقد نقل أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له عبد الله بن قلابة الأنصاري دخل إليها وذلك أنه ضلت له إبل، فخرج في طلبها، فوصل إليها فلما رآها دهش وبهت ورأى ما أذهله وحيره، وقال في نفسه: هذه تشبه الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين في الآخرة، فقصد باباً من أبوابها، فلما وصل إليه أناخ راحلته، ودخل المدينة، فرأى تلك القصور والأنهار والأشجار، ولم ير في المدينة أحداً. فقال: أرجع إلى معاوية وأخبره بهذه المدينة وما فيها، ثم حمل معه شيئاً من تلك الجواهر واليواقيت في وعاء، وجعله على راحلته وعلم على المدينة علامة، وقال قربها من جبل عدن كذا، ومن الجهة الفلانية كذا، ثم انصرف عنها بعدما ظفر بإبله، ثم دخل على معاوية رضي الله تعالى عنه بدمشق، وأخبره بجميع ما رآه، فقال له معاوية: في اليقظة رأيتها أم في المنام؟ قال: بل في اليقظة، وقد حملت من حصبائها وأخرج له شيئاً مما حمله من الجواهر واليواقيت فتعجب معاوية من ذلك، ثم أرسل إلى كعب الأحبار رضي الله تعالى عنه، فلما دخل عليه قال له معاوية يا أبا إسحاق: هل بلغك أن في الدنيا مدينة من ذهب؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، وقد ذكرها الله عز وجل في القرآن لنبيه ﷺ بقوله عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝﴾[1]. وقد أخفاها الله تعالى عن أعين الناس، وسيدخلها رجل من هذه الأمة يقال له عبد الله بن قلابة الأنصاري، ثم التفت، فرأى عبد الله بن قلابة فقال: ها هو يا أمير المؤمنين، وصفه واسمه في التوراة[2]، ولا يدخلها أحد بعده إلى يوم القيامة. وقيل: إن ذلك كان في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وأن الرجل الذي دخلها حكى ذلك لعمر بن الخطاب فلم ينكره ولا من كان حاضراً بل قال إن النبي ﷺ قال يدخلها بعض أمتي[3]، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومن **المباني العجيبة الخورنق**: الذي بناه النعمان بن امرىء القيس وهو النعمان الأكبر بناه في عشرين سنة، فلما انتهى أعجبه، فخشي أن يبنى لغيره مثله، فأمر أن يلقى بانيه من أعلاه، فألقوه فتقطع، واسم بانيه سنمار، فصارت العرب تضرب به المثل. يقولون جزاه جزاء سنمار. قال الشاعر:

جازى بنوه أبا الغيلان عن كبرٍ
وحسن فعلٍ كما يجزى سنمار

ومن **المباني العجيبة حائط العجوز**: واسمها دلوك القبطية، وسبب بنائها لذلك أنها ولدت ولداً، فأخذت له الرصد، فقيل لها يخشى عليه من التمساح، فلما شب الغلام خافت عليه، فبنت الحائط وجعلته من العريش إلى إسوان شاملاً لكورة مصر من الجانب الشرقي، وقيل: بنته خوفاً على مصر وأهلها بعد غرق فرعون أن يطمع الملوك فيها، وقد قيل إنها أرادت أن تخوف ولدها من التمساح حتى لا ينزل البحر، فصورت له صورة التمساح، فرآه شكلاً مهولاً، فأذهله، وأخذه الفزع والهم فضعف وانسل إلى أن مات. لا مفر من قضاء الله تعالى.

ومن **المباني العجيبة الأهرام**: وهي بالجانب الغربي من مصر مشاهدة في زماننا هذا. قيل أن دور الهرم الأكبر من

---

(١) سورة النجم، الآية (٥٠).
(٢) كشفت الأقمار الاصطناعية وجود مدينة غارقة في رمال الربع الخالي إلا أنه يصعب الوصول إلى مكانها أو الكشف عنها بسبب طبيعة الرمل في تلك الأرض، والله أعلم.

(١) سورة الفجر، الآيتان (٦ ـ ٨).
(٢) هذا غير صحيح ولم نجد شيئاً من ذلك في التوراة التي هي بين أيدي الناس اليوم، ولا طرفاً منه.
(٣) لعل هذا أقرب للصواب.

الثلاثة ألفا ذراع من كل جهة خمسمائة ذراع وعلوه خمسمائة ذراع، وقد ذهب المأمون إلى مصر حتى شاهدها على ما ذكر، وفتح منها هرماً، وتعجب من بنيانها وصفتها قيل: إن كل حجر من حجارتها ثلاثون ذراعاً في عرض عشرة أذرع، وقد أحكم إلصاقه ونحته وتسويته ولا يقدر النجار الصانع أن يتخذ من خشب صندوقاً صغيراً على إحكامه، وهي من عجائب الدنيا.

قال بعضهم:

أين الذي الهرمان من بنيانه
ما قومُهُ ما يومه ما المصرعُ
تتخلف الآثار عن سكانها
حيناً ويدركها الفناءُ فتصْرعُ

وزعم قوم أن الأهرام الموجودة بمصر قبور لملوك عظام أرادوا أن يتميزوا بها عن الناس بعد مماتهم كما تميزوا عنهم في حياتهم، ورجوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور وتراخي العصور. ولما وصل المأمون إلى مصر أمر بنقبها، فنقب أحدها بعد جهد شديد وعناء طويل، فوجد داخله مزاليق ومهاوي يهول أمرها ويعسر السلوك فيها، ووجد في أعلاه بيت وفي وسطه حوض من رخام مطبق، فلما كشف غطاؤه لم يوجد فيه إلا رمة بالية، فعند ذلك أمر المأمون بالكف عما سواه.

ويقال: إن الذي بناها اسمه سوريد بن سهراق بن سرياق لرؤيا رآها وهي آفة تنزل من السماء وهي الطوفان، فقالوا: إنه بناها في ستة أشهر وقال: قلْ لمن يأتي بعدنا يهدمها في ستمائة سنة، والهدم أيسر من البنيان، وكسوناها الديباج الملون، فليكسها حصراً، والحصر أهون من الديباج، والأمر فيها عجيب جداً، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومن المباني العجيبة منار الاسكندرية التي بناها ذو القرنين، قيل: إنها كانت مبنية بحجارة منهدمة مغموسة في الرصاص فيها نحو من ثلاثمائة بيت تصعد الدابة بحملها إلى كل بيت، وللبيوت طاقات تطل على البحر ويقال: إن طولها كان ألف ذراع، وفي أعلاها تماثيل من نحاس منها تمثال رجل قد أشار بيده إلى البحر، فإذا صار العدو على نحو ليلة منه سمع له تصويت يعلم به أهل المدينة مجيء العدو، فيستعدون له، ومنها تمثال كلما مضى من الليل ساعة صوّت تصويتاً مطرباً، ويقال: إنه كان بأعلاها مرآة من الحديد الصيني عرضها سبعة أذرع كانوا يرون فيها المراكب بجزيرة قبرص، وقيل: كانوا يرون فيها من يخرج من البحر من جميع بلاد الروم، فإن كانوا أعداء تركوهم حتى يقربوا من المدينة، فإذا مالت الشمس للغروب أداروا المرآة مقابلة الشمس، واستقبلوا بها السفن، فيقع شعاعها بضوء الشمس على السفن فتحرق في البحر، ويهلك كل من فيها، وكانت الروم تؤدي الخراج ليأمنوا بذلك من إحراق السفن، ولم تزل كذلك إلى زمن الوليد بن عبد الملك.

قال المسعودي: قيل إن ملكاً من الروم تحيل على الوليد وأظهر أنه يريد الإسلام، وأرسل إليه تحفاً، وهدايا، وأظهر له بواسطة حكماء كانوا عنده أن ببلاده دفائن، وأرسل له بذلك قسيسين من خواصه، وأرسل معهم أموالاً قيل إنهم حفروا بقرب المنارة ودفنوا تلك الأموال وقالوا للوليد: إن تحت المنارة كنوزاً لا تنفذ وبإزائها خبية بها كذا وكذا ألف دينار، فأمرهم باستخراج ما بالقرب من المنارة، فإن كان ذلك حقاً استخرجوا ما تحت المنارة بعد هدمها فحفروا واستخرجوا ما دفنوه بأيديهم، فعند ذلك أمر الوليد بهدم المنارة واستخراج ما تحتها فهدموها، فلم يجدوا تحتها شيئاً، وهرب أولئك القسيسون، فعلم الوليد أنها مكيدة عليه، فندم على ذلك غاية الندم، ثم أمر ببنائها بالآجر ولم يقدروا أن يرفعوا إليها تلك الحجارة، فلما أتموها نصبوا عليها المرآة كما كانت، فصدئت، ولم يروا فيها شيئاً مثل ما كانوا يرون أولاً، وبطل إحراقها، فندموا على ما فعلوا، وفاتهم من جهلهم وطمعهم نفع عظيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقد عملت الجن لسليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام في الإسكندرية مجلساً على أعمدة من الجزع اليماني المصقول كالمرآة إذا نظر الإنسان إليها يرى من يمشي خلفه لصفائها، وفي وسط ذلك المجلس عمود من الرخام طوله مائة وأحد عشر ذراعاً، وفي تلك الأعمدة عمود واحد يتحرك شرقاً وغرباً بطلوع الشمس وغروبها يشاهد الناس ذلك ولا يعلمون ما سببه.

وفي مدينة حمص مدينة أخرى تحت المدينة المسكونة العليا فيها من عجائب البنيان والبيوت والغرف والماء الجاري في كل طريق من طرقها ما لا يعلمه إلا الله تعالى.

وعند حوران مدينة عظيمة يقال لها: اللجاة فيها من البنيان ما يعجز عن وصفه ألسنة العقلاء. كل دار منها مبنية من الصخر المنحوت ليس في الدار[1] خشبة واحدة بل

---

(١) هي مدينة البتراء المعروفة في الأردن.

أبوابها وغرفها، وسقوفها وبيوتها من الصخر المنحوت الذي لا يستطيع أحد أن يعمله من الخشب، وفي كل دار بئر وطاحون، وكل دار مفردة لا يلاصقها دار أخرى، وكل دار كالقلعة الحصينة إذا خاف تلك النواحي من العدو دخلوا إلى تلك المدينة، فينزل كل إنسان في دار بجميع عياله وخيله، وغنمه وبقره، ويغلق بابه، ويجعل خلف الباب حصاة فلا يقدر أحد على فتح ذلك الباب لإحكامه، وفي هذه المدينة أكثر من مائتي ألف دار، فيما يقال، ولا يعلم أحد من بناها، وسمتها العرب اللجأة لأنهم يلجأون إليها عند الخوف.

ومن المباني العجيبة إيوان كسرى أنو شروان: بناه سابور ذو الأكتاف في نيف وعشرين سنة، وطوله مائة ذراع في عرض خمسين بناه بالآجر، والجص، وجعل طول كل شرافة من شراريفه خمسة عشر ذراعاً، ولما ملك المسلمون المدائن أحرقوا هذا الإيوان، فأخرجوا منه ألف دينار ذهباً.

وحكي أن المنصور لما أراد بناء بغداد عزم على هدمه وأن يجعل آلته في بنائه، فقيل له: إن نقضه يتكلف بقدر العمارة، فلم يسمع وهدم شرافة، وحسب ما أنفق عليه، فوجد الأمر كذلك، وقيل إن بعض رؤساء مملكته قال له لما أراد هدمه: هو آية الإسلام، فلا تهدمه.

وحكي أنه كان بمدينة قيسارية كنيسة بها مرآة إذا اتهم الرجل امرأته بزنا نظر في تلك المرآة، فيرى صورة الزاني، فاتفق أن بعض الناس قتل غريمه، فعمد أهله إليها، فكسروها والله سبحانه وتعالى أعلم، وقد اقتصرت من ذلك على هذا القدر اليسير، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السابع والستون

في ذكر المعادن والأحجار وخواصها

المعادن لا تكاد تحصى لكن منها ما يعرفه الناس ومنها ما لا يعرفونه وهي مقسومة إلى ما يذوب وإلى ما لا يذوب، والذي اشتهر بين الناس من المعادن سبعة: وهي الذهب والفضة والنحاس والحديد والقصدير والأسرب والخارصيني.

ولنبدأ أولاً بذكر (الذهب) فقيل طبعه حار لطيف لشدة اختلاط أجزائه المائية بالترابية. قيل: إن النار لا تقدر على تفريق أجزائه فلا يحترق ولا يبلى ولا يصدأ، وهو لين براق، حلو الطعم، أصفر اللون، فالصفرة من ناريته، والليونة من دهنيته، والبراقة من صفاء مائه.

خواصه: يقوي القلب ويدفع الصرع تعليقاً، ويمنع الفزع والخفقان ويقوي العين كحلاً ويجلوها إذا كان ميلاً، ويحسن نظرها وإذا ثقبت به الأذن لم تلتحم وإذا كوى به لم ينفط ويبرأ سريعاً، وإمساكه في الفم يزيل البخر.

(الفضة) قريبة منه وتصدأ وتحترق وتبلى بالتراب، وإذا أصابتها رائحة الرصاص والزئبق تكسرت أو رائحة الكبريت اسودت.

ومن خواصها: أنها تزيل البخر من الفم إذا وضعت فيه، وإذا أذيبت مع الزئبق وطلي بها البدن نفع ذلك من الحكة والجرب وعسر البول.

(النحاس) قريب منها لكنه أيبس، وأغلظ في الطبع.

ومن خواصه: إذا صدىء وطلي بالحامض زال صدؤه، والأكل في آنيته يولد أمراضاً لا دواء لها.

(الحديد) كثير الفائدة إذ ما من صنعة إلا وله فيها مدخل.

ومن خواصه: أنه يمنع غطيط النائم إذا علق عليه وحمله يقوي القلب ويزيل الخوف والأفكار والأحلام الرديئة، ويسر النفس، وصدؤه ينفع أمراض العين كحلا والبواسير تحملاً.

(القصدير) صنف من الفضة دخل عليه آفات من الأرض.

ومن خواصه: أنه إذا ألقي في قدر لم ينضج ما فيها.

(الأسرب) هو الرصاص. (ومن خواصه): أنه يكسر الماس، ومن خواص الماس الدخول في كل شيء، وإذا شد من الرصاص قطعة على الخنازير، والغدد أبرأتها.

(الخارصيني) حجر لونه أسود، لونه يعطي حمرة.

ومن خواصه: إذا عمل منه مرآة ونظر فيها في الظلمات نفعت للقوة وإذا نتف الشعر بملقاط منه لم ينبت.

الأحجار الجوهرية:

أصل الجوهر، وهو الدر على ما قيل أن حيواناً يصعد من البحر على ساحله وقت المطر ويفتح أذنه يلتقط بها المطر، ويضمها ويرجع إلى البحر، فينزل إلى قراره ولا يزال طابقاً أذناه على ما فيها خوفاً أن يختلط بأجزاء البحر

حتى ينضج ما فيها، ويصير دراً، فإن كانت القطرة صغيرة كانت الدرة صغيرة، وإن كانت كبيرة فكبيرة، فإن كان في بطن هذا الحيوان شيء من الماء المر كانت الدرة كدرة، وإن لم يكن كانت صافية، وقيل غير ذلك. والدر نوعان: كبير، وصغير. قيل إنه تصل الواحدة إلى مثقال[1].

خواصه: أنه يفرح القلب ويبسط النفس ويحسن الوجه، ويصفي دم القلب، وإذا خلط مع الكحل شد عصب العين.

(الياقوت) سيد الأحجار، وأصول ألوانه أربعة: الأحمر والأصفر والأزرق والإسمانجوني ويتولد منها ألوان كثيرة وأعدلها الأحمر الخالص الرماني الشبيه بحب الرمان الأحمر، ودونه الأحمر المشرب ببياض، ثم الوردي، ثم الخمري، ثم العصفري وأردؤه الأزرق، الذي لونه يشبه زهر السوسن وأقله قيمة الأبيض.

خواصه: أنه لا يعمل فيه الفولاذ ولا حجر الماس ولا تدنسه النار ويورث لابسه مهابة ووقاراً، ويسهل قضاء الحوائج ويدر الريق في الفم ويقطع العطش ويدفع السم ويقوي القلب، وجميعه ينفع للمصروع تعليقاً، والأبيض منه يبسط النفس، ويوجد من الأصفر ما وزنه ثلاثون مثقالاً على ما قيل.

(البلخش) هو مقارب الياقوت في القيمة ودونه في الشرف.

ومن خواصه: أنه يورث قبض النفس وسوء الخلق والحزن وهو ألوان أحمر وأخضر وأصفر.

(البنقش) أصناف أحمر مفتوح اللون صاف وأحمر قوي الحمرة، وأسود يعلوه حمرة مطوسة بزرقة خفيفة، ثم أصفر مفتوح اللون.

(عين الهر) حجر يتكون من معدن الياقوت، والغالب عليه البياض الناصع بإشراق مفرط ومائيته رقيقة شفافة وفي مائيته سر إذا حرك يميناً تحركت يساراً وبالعكس.

ومن خواصه: إذا علق على العين أمن عليها من الجدري على ما قيل.

(الماس) يوجد بواد بالهند يقال إنه مشحون بالحيات، فيأتي من يريد إستخراجه من ذلك الوادي فيضع في الوادي مرآة كبيرة، فتأتي الحيات فتنظر إلى خيالها في المرآة، فتفر من ذلك الجانب فينزل، فيأخذ ما له فيه رزق، وقيل إنهم ينحرون الجزر ويلقون لحمها في ذلك الوادي، فيلتصق الماس وغيره باللحم، فتأتي الطير، فتختطف اللحم وتصعد به إلى الجبال فتأكل اللحم وتترك الحجر، فيأخذه صاحب اللحم[1]، وقيل: إن الحيات لها مشتى ستة أشهر في مكان، ومصيف ستة أشهر في مكان آخر، فإذا ذهبت إلى مشتاها ومصيفها أخذ الحجر في غيبتها، والله أعلم بصحة ذلك. ومن عجيب أمره أنه إذا أريد كسره جعل في أنبونة قصب وضرب فإنه يتفتت وكذا إذا جعل في شمع أو قار، وإذا جعل عليه دم تيس وقرب من النار ذاب.

ومن خواصه: أن الملوك يتخذونه عندهم لشرفه، وهو من السموم القاتلة القطعة الصغيرة منه إذا حصلت في الجوف ولو بقدر السمسمة خرقت الأمعاء.

ومن خواصه الجليلة: أنه يعرق عند وجود السم أو الطعام المسموم.

(الزمرد) ويسمى الزبرجد وهو ألوان أخضر وزنجاري وصابوني، ويكون الحجر منه خمسة مثاقيل وأقل.

ومن **خواصه**: أنه يدفع العين ويفرح القلب ويقوي البصر، ويصفي الذهن وينشط النفس.

(الفيروزج) نوعان: إسحاقي، وخلنجي، وأجوده الإسحاقي الأزرق الصافي[2].

خواصه: النظر فيه يجلو البصر، ويقويه، وينشط النفس، ولا يصيب المتختم به آفة من قتل أو غرق، وقال جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه: ما افتقرت يد تختمت بفيروزج، وإذا مضى له بعد خروجه من معدنه عشرون سنة نقص لونه، ولا يزال كذلك حتى ينطفىء.

(العقيق) معدن بأرض صنعاء باليمن، وهو ألوان ويوجد عليه غشاوة ويحمى عليه ببعر الإبل، ثم يبرد ويكسر، وقيل: يوجد بالهند ولكن اليمن أجود.

خواصه: التختم به وحمله يورث الحمل والأناة، وتصويب الرأي ويسر النفس، ويكسب حامله وقاراً، وحسن خلق، ويسكن الحدة عند الخصومة. قال رسول الله ﷺ: **«من تختم بالعقيق لم يزل في بركة»**.

(الجزع) هو حجر أيضاً يؤتى به من اليمن والصين،

---

(١) هو يتحدث هنا عن اللؤلؤ لكن بكثير من الخيال والمثقال يساوي (٣,٥) جرام تقريباً.

(١) هذه من حكايات السندباد في ألف ليلة وليلة.
(٢) وهو المسمى بالفيروز الملكي.

وألوانه كثيرة، والناس يكرهونه لأنه يورث الهم والأحلام الرديئة، وسوء الخلق، وتعسر قضاء الحوائج، ويكثر بكاء الصبي وسيلان لعابه، ويثقل اللسان إذا سحق وشرب ماءه، وإذا وضع بين قوم لا علم لهم به حصلت بينهم العداوة لكنه يسهل الولادة تعليقاً.

(البلور) هو صنف من الزجاج يحكى أن ببلاد كيسان جبلين أحدهما بلور، وإذا أريد قطع البلور في ذلك الموضع قطع في الليل لأنه في النهار يكون له شعاع عظيم.

خواصه: النظر فيه يشرح القلب، ويبسط النفس، ويسكن وجع الضرس.

(المرجان) هو واسطة بين النبات والمعدن لأنه بتشجره يشبه النبات، وبتحجره يشبه المعدن، ولا يزال ليناً في معدنه، فإذا فارقه تحجر ويبس.

خواصه: النظر فيه يشرح الصدر ويبسط النفس ويفرح القلب، ويذهب بالداء المحتبس في العين، ويسكن الرمد، وسحاقته المخلوطة بالخل تجلو قلح الأسنان، وإذا وضع على الجرح منعه من الانتفاخ، وأنواعه كثيرة أحمر وأزرق وأبيض وأصله من البحر. قيل: إنه شجر ينبت. وقيل: إنه من حيوانه.

(حجر الماطليس) هو حجر هندي لا يعمل فيه الحديد، والبيت الذي يكون فيه لا يدخله السحر ولا الجن ولأجل ذلك كان الإسكندر يجعله في عسكره.

(الحجر الماهاني) من تختم به أمن من الروع والهم والحزن والغم، ولونه أبيض وأصفر، ويوجد بأرض خراسان.

(حجر مراد) يوجد بناحية الجنوب.

وخاصيته: إن الجن تتبع حامله وتعمل له ما أراد.

(الدهنج) خاصيته: أنه إذا سقي إنسان من محكه يفعل فعل السم، وإذا سقي شارب السم منه نفعه، وإذا مسح به موضع اللدغ سكن وينفع من خفقان القلب وإذا طلي بحكاكته بياض البرص أزاله، وإن علق على إنسان غلب عليه الباه.

(السبج) خواصه: أنه يقوي النظر الضعيف من الكبر أو نزول الماء ولبسه ينفع عسر البول وإدمان النظر فيه يحد البصر، وسحاقته تجلو البصر، وإذا علق على من به صداع زال عنه.

(المغناطيس) يوجد في بحر الهند، وهناك لا يتخذ في السفن حديد، ويوجد ببلاد الأندلس أيضاً وأجود أنواعه ما كان أسود يضرب إلى حمرة. خواصه: الاكتحال بسحاقته يورث ألفة بين المكتحل وبين من يحبه، ويسهل الولادة تعليقاً، ومن تختم به كانت حاجته مقضية، وتعليقه في العنق يزيد في الذهن، وإذا سحق وشرب من سحاقته من به سم بطل سمه، وإذا أصابته رائحة الثوم بطلت خاصيته، وإذا غسل بالخل عاد إلى حالته، وأجوده ما جذب نصف مثقال من الحديد.

(حجر الخطاف) الخطاف يوجد في عشه حجران. أحدهما أحمر، والآخر أبيض، فالأحمر إذا علق على من يفزع في نومه زال فزعه، والأبيض إذا علق على من به صرع زال عنه.

(حجر الزاج) إذا دخن البيت بسحاقته هرب منه الفأر والذباب.

(حجر الزنجفر) أصله من الزئبق واستحال. وخاصيته: أنه يدمل الجراحات وينبت اللحم.

(حجر الملح) هو أنواع، وأجوده ما يوجد بأرض سدوم بالقرب من بحر لوط، وقد جعله الله قواماً للدنيا.

ومن خاصيته: أنه يحسن الذهب، ويزيد في صفرته، وعن النبي ﷺ أنه قال: يا علي ابدأ بالملح واختم به، فإن فيه شفاء من سبعين داء.

(حجر النطرون) قال أرسطو: ينفع الأرحام التي غلبت عليها الرطوبة ينشفها ويقويها، وإذا ألقي في العجين طيبه وبيضه ونشفه، وهو نوعان: أبيض وأحمر.

(حجر اللازورد) مشهور. قال أرسطو: من تختم به عظم في أعين الناس، وينفع من السهر. والله أعلم. ومن أراد التعمق في ذلك، فعليه بالكتب الموضوعة له، ولكن قد ذكرنا ما هو معروف، والحمد لله على كل حال، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثامن والستون

في الأصوات والألحان وذكر الغناء واختلاف الناس فيه ومن كرهه ومن استحسنه

وما ذكرت ذلك إلا لأني كرهت أن يكون كتابي هذا بعد اشتماله على فنون الأدب والتحف والنوادر والأمثال عاطلاً من هذه الصناعة التي هي مراد السمع، ومرتع النفس، وربيع القلب، ومجال الهوى، ومسلاة الكئيب، وأنس

الوحيد، وزاد الراكب لعظم موقع الصوت الحسن من القلب، وأخذه بمجامع النفس.

فصـــل
في الصوت الحسن

قال بعض أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾[1] هو الصوت الحسن، وعن النبي ﷺ: أنه قال: أتدرون متى كان الحداء؟ قالوا: لا بأبينا أنت وأمنا يا رسول الله. قال: إن أباكم مضر خرج في طلب مال له، فوجد غلاماً قد تفرقت إبله، فضربه على يده بالعصا، فعدا الغلام في الوادي وهو يصيح: وايداه، فسمعت الإبل صوته، فعطفت عليه، فقال مضر: لو اشتق من الكلام مثل هذا لكان كلاماً تجتمع عليه الإبل، فاشتق الحداء.

وقال النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه لما أعجبه حسن صوته: لقد أوتيتَ مزماراً من مزامير آل داود، وقيل: إن داود عليه الصلاة والسلام كان يخرج إلى صحراء بيت المقدس يوماً في الأسبوع، وتجتمع عليه الخلق، فيقرأ الزبور بتلك القراءة الرخيمة، وكان له جاريتان موصوفتان بالقوة والشدة فكانتا تضبطان جسده ضبطاً شديداً خيفة أن تنخلع أوصاله مما كان ينتحب، وكانت الوحوش والطير تجتمع لاستماع قراءته.

قال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: بلغنا أن الله تعالى يقيم داود عليه الصلاة والسلام يوم القيامة عند ساق العرش، فيقول: يا داود مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم.

وقال سلام الحادي للمنصور، وكان يضرب المثل بحدائه: مر يا أمير المؤمنين بأن يظمأوا إبلاً ثم يوردوها الماء فإني آخذ في الحداء فترفع رؤوسها، وتترك الشرب.

وزعم أهل الطب أن الصوت الحسن يجري في الجسم مجرى الدم في العروق، فيصفو له الدم، وتنمو له النفس ويرتاح له القلب، وتهتز له الجوارح، وتخف له الحركات، ولهذا كرهوا للطفل أن ينام على أثر البكاء، حتى يرقص ويطرب، وزعمت الفلاسفة: أن النغم فصل بقي من النطق لم يقدر اللسان على استخراجه، فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع لا على التقطيع، فلما ظهر عشقته النفس وحنت إليه الروح. ألا ترى إلى أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملالة والفتور على أبدانهم ترنموا بالألحان، واستراحت إليها أنفسهم، وليس من أحد كائناً من كان إلا وهو يطرب من صوت نفسه، ويعجبه طنين رأسه، ولو لم يكن من فضل الصوت الحسن إلا أنه ليس في الأرض لذة تكتسب من مأكل ولا مشرب ولا ملبس ولا صيد إلا وفيها معاناة على البدن، وتعب على الجوارح ما خلا السماع، فإنه لا معاناة فيه على البدن ولا تعب على الجوارح، وقد يتوصل بالألحان الحسان إلى خيري الدنيا والآخرة، فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف، وصلة الأرحام، والذب عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب، وقد يبكي الرجل بها على خطيئته، ويتذكر نعيم الملكوت، ويمثله في ضميره، ولأهل الرهبانية نغمات، وألحان شجية يمجدون الله تعالى بها، ويبكون على خطاياهم، ويتذكرون نعيم الآخرة.

وكان أبو يوسف القاضي يحضر مجلس الرشيد، وفيه الغناء، فيجعل مكان السرور به بكاء، كأنه يتذكر نعيم الآخرة، وقد تحن القلوب إلى حسن الصوت حتى الطير والبهائم، وكان صاحب الفلاحات يقول: إن النحل أطرب الحيوان كله على الغناء.

قال الشاعر:

والطير قد يسوقه للموتِ
إصغاؤه إلى حنين الصوتِ

وزعموا أن في البحر دواب ربما زمرت أصواتاً مطربة، ولحوناً مستلذة يأخذ السامعين الغشي من حلاوتها، فاعتنى بها وضعة الألحان بأن شبهوا بها أغانيهم، فلم يبلغوا، وربما يغشى على سامع الصوت الحسن للطافة وصوله إلى الدماغ وممازجته القلب. ألا ترى إلى الأم كيف تناغي ولدها، فيقبل بسمعه على مناغاتها، ويتلهى عن البكاء، والإبل يزداد نشاطها وقوتها بالحداء، فترفع آذانها وتلتفت يمنة ويسرة، وتتبختر في مشيتها.

وزعموا أن السماكين بنواحي العراق يبنون في جوف الماء حفائر ثم يضربون عندها بأصوات شجية فتجتمع السمك في الحفائر، فيصيدونه وقد نبهت على ذلك في باب ذكر البحار، وما فيها من العجائب.

والراعي إذا رفع صوته، ونفخ في يراعته تلقته الغنم بآذانها، وجدّت في رعيها، والدابة تعاف الماء، فإذا سمعت الصفير بالغت في الشرب وليس شيء مما يستلذ به أخف مؤنة من السماع.

(١) سورة فاطر، الآية (١).

قال أفلاطون: من حزن فليسمع الأصوات الحسنة، فإن النفس إذا حزنت خمدت نارها، فإذا سمعت ما يطربها ويسرها اشتعل منها ما خمدت وما زالت ملوك فارس تلهي المحزون بالسماع، وتعلل به المريض، وتشغله عن التفكير، ومنهم أخذت العرب حتى قال ابن غيلة الشيباني:

وسماع مسمعة يعللنا
حتى ننام تناوم العجمِ

وحكي أن البعلبكي مؤذن المنصور رجع في أذانه ليلة وجارية تصب الماء على يد المنصور، فارتعدت حتى وقع الأبريق من يدها، فقال له المنصور: خذ هذه الجارية، فهي لك ولا تعد ترجع هذا الترجيع.

وقال عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمارة في قينة:

ألم ترَها لا أبعد الله دارها
إذا رجّعت في صوتها كيف تصنع
تدير نظام القول ثم تردّه
إلى صلصلٍ من صوتها يترجّع

وبعد، فهل خلق الله شيئاً أوقع بالقلوب، وأشد اختلاساً للعقول من الصوت الحسن لا سيما إذا كان من وجه حسن كما قال الشاعر:

ربَّ سماعٍ حسنٍ
سمعته من حسنِ
مقرّبٌ من فرحٍ
مبعّدٌ من حزنِ
لا فارقاني أبداً
في صحةٍ من بدنِ

وهل على الأرض من جبان مستطار الفؤاد يغني بقول جرير:

قلْ للجبان إذا تأخرَ سرجُه
هل أنت من شرك المنية ناجي

إلا وقد شجعت نفسه، وقوي قلبه.

أم هل على الأرض من بخيل قد انقبضت أطرافه يوماً يغني بقول حاتم الطائي:

يرى البخيلُ سبيل المال واحدةً
إنَّ الجواد يرى في ماله سُبُلا

إلا انبسطت أنامله، ورشحت أطرافه.

واختلف الناس في الغناء، فأجازه عامة أهل الحجاز، وكرهه عامة أهل العراق، فمن حجة من أجازه ما روي أن النبي ﷺ قال لحسان: «**اشن الغطاريف على بني عبد مناف، فوالله لشعرك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام**».

واحتجوا في أباحة الغناء، واستحسانه بقول النبي ﷺ لعائشة رضي الله تعالى عنها: «**أهديتم الفتاة إلى بعلها؟ قالت: نعم. قال: فبعثتم معها من يغني؟ قالت: لم نفعل. قال: أوَ ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم القول، ألا بعثتم معها من يقول:**

أتيناكم أتيناكم
فحيّونا نحييكم
ولولا الحبّةُ السمراءُ
لم نَحلُلْ بواديكم

ولا بأس بالغناء إذا لم يكن فيه أمر محرم، ولا يكره السماع عند العرس والوليمة والعقيقة وغيرها، فإن فيه تحريكاً لزيادة سرور مباح أو مندوب، ويدل عليه ما روي من إنشاء النساء بالدف والألحان عند قدوم النبي ﷺ حيث قلن:

طلع البدر علينا
من ثنيّات الوداع[1]
وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا
جئت بالأمر المطاع

ويدل عليه ما روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه، وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد الحرام حتى أكون أنا التي أسأمه.

ويدل عليه أيضاً ما روي في الصحيحين من حديث عقيل، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أبا بكر دخل عليها، وعندها جاريتان في أيام منى يدففان ويضربان والنبي ﷺ متغش بثوبه، فانتهرها أبو بكر، فكشف النبي ﷺ عن وجهه، وقال: دعهما يا أبا بكر، فإنها أيام عيد.

---

(١) الثنية: منعطف الطريق وثنيات الوداع موضع في المدينة المنورة عند أطراف الحرة كانوا عندها يودعون المسافر ومنها دخل الرسول ﷺ إلى المدينة.

وعن قرة بن خالد بن عبد الله بن يحيى قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه للنابغة الجعدي: أسمعني بعض ما عفا الله لك عنه من هناتك، فأسمعه كلمة، فقال له، وإنك لقائلها. قال: نعم. قال: طالما غنيت بها خلف جمال الخطاب.

وعن عبد الله بن عوف قال: أتيت باب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فسمعته يغني بالركابية يقول:

فكيف ثوائي بالمدينة بعدما
قضى وطراً منها جميلُ بنُ معمرِ

وكان جميل بن معمر من أخِصَّاء عمر قال، فلما استأذنت عليه قال لي: أسمعت ما قلت؟ قلت: نعم. قال: إذا خلونا قلنا ما يقول الناس في بيوتهم.

وقد أجازوا تحسين الصوت في القراءة والأذان، فإن كانت الألحان مكروهة، فالقراءة والأذان أحق بالتنزيه عنها، وإن كانت غير مكروهة، فالشعر أحوج إليها لإقامة الوزن، وما جعلت العرب الشعر موزوناً إلا لمد الصوت والدندنة، ولولا ذلك لكان الشعر المنظوم كالخبر المنثور.

ومن حجة من كره الغناء أنه قال: أنه ينفر القلوب، ويستفز العقول، ويبعث على اللهو، ويحض على الطرب، وهذا باطل في أصله وتأولوا في ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾(1). وأخطأ من أوّل هذا التأويل إنما نزلت هذه الآية في قوم كانوا يشترون الكتب من أخبار السير، والأحاديث القديمة ويضاهون بها القرآن، ويقولون: إنها أفضل منه، وليس من سمع الغناء يتخذ آيات الله هزواً.

وقال رجل للحسن البصري: ما تقول في الغناء يا أبا سعيد؟ فقال: نعم العون على طاعة الله تعالى يصل الرجل به رحمه ويواسي به صديقه. قال: ليس عن هذا أسألك. قال: وعم سألتني؟ قال: أن يغني الرجل. قال: وكيف يغني؟ فجعل الرجل يلوي شدقيه ويفتح منخريه، فقال الحسن: والله يا ابن أخي ما ظننت أن عاقلاً يفعل بنفسه هذا أبداً، فلم ينكر الحسن عليه إلا تشويه وجهه وتعويج فمه.

وسمع ابن المبارك سكران يغني هذا البيت:

(1) سورة لقمان، الآية (٦).

أذلني الهوى فأنا الذليلُ
وليس إلى الذي أهوى سبيلُ

قال: فأخرج دواة وقرطاساً، وكتب البيت، فقيل له: أتكتب بيت شعر سمعته من رجل سكران، فقال: أما سمعتم المثل: رب جوهرة في مزبلة.

وكان لأبي حنيفة جار من الكياليين مغرم بالشراب، وكان يغني على شرابه بقول العرجي:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

قال: فأخذه العسس ليلة وحبسه، ففقد أبو حنيفة صوته، واستوحش له، فقال لأهله: ما فعل جارنا الكيال؟ قالوا: أخذه العسس، وهو في الحبس، فلما أصبح أبو حنيفة توجه إلى عيسى بن موسى، فاستأذن عليه، فأسرع إذنه، وكان أبو حنيفة قليلاً ما يأتي أبواب الملوك، فأقبل عليه عيسى بن موسى، وسأله عما جاء بسببه، فقال: أصلح الله الأمير: إن لي جاراً من الكياليين أخذه عسس الأمير ليلة كذا، فوقع في حبسه، فأمر عيسى بن موسى بإطلاق كل من في الحبس إكراماً لأبي حنيفة، فأقبل الكيال على أبي حنيفة يتشكر له، فلما رآه أبو حنيفة قال له: هل أضعناك يا فتى؟ يعرض له بشعره الذي ينشده، قال: لا والله ولكنك بررت وحفظت.

وكان عروة بن أدية ثقة في الحديث روى عنه مالك بن أنس، وكان شاعراً مجيداً لبقاً غزلا، وكان يصوغ ألحان الغناء على شعره وينحلها للمغنين. قيل: إنه وقفت عليه إمرأة يوماً وحوله التلاميذ، فقالت له: أنت الذي يقال فيك الرجل الصالح، وأنت تقول:

إذا وَجَدْتُ أوارُ الحب في كبدي(1)
عمدتُ نحو سقاء القوم أبتردُ
هبني بَرَدْتُ ببرد الماء ظاهره
فمن لنارٍ على الأحشاء تتقدُ

وكان عبد الملك الملقب بالقس عند أهل مكة بمنزلة عطاء بن أبي رباح في العبادة. قيل: إنه مر يوماً بسلامة وهي تغني، فأقام يسمع غناءها فرآه مولاها، فقال له: هل

(1) الأوار: شدة الاشتعال، والعاشق يشتد احتراق المواد السكرية في كبده لحاجة الجسم إلى الطاقة فلذا يشعر بالحرارة تجتاح جسمه كله، وكذا عند الغضب وأي انفعال شديد ولذا أمر الرسول ﷺ الغضبان بالابتراد بالوضوء وشرب الماء.

لك أن تدخل، وتسمع، فأبى، فلم يزل به حتى دخل فغنته، فأعجبته، ولم يزل يسمعها، ويلاحظ النظر حتى شغف بها، فلما شعرت بلحظه إياها غنته:

ربَ رسوليـن لنـا بلـغـا
رسـالـةً مـن قبـل أن نـبرحـا
الطرف للطرف بعشناهما
فقضيا حاجةً وما صرّحا

قال: فأغمي عليه، وكاد يهلك، فقالت له: إني والله أحبك. قال: وأنا والله أحبك، قالت: وأحب أن أضع فمي على فمك. قال: وأنا والله كذلك. قالت: فما يمنعك من ذلك؟ قال: أخشى أن تكون صداقة ما بيني وبينك عداوة يوم القيامة. أما سمعت قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾[1]. ثم نهض وعاد إلى طريقته التي كان عليها، وأنشأ يقول:

قد كنت أعذل في السفاهة أهلها
فأعجبْ لما تأتي به الأيام
فاليوم أعذرهم وأعلم إنما
سبلُ الضلالةِ والهدى أقسامُ

وقدم عبد الله بن جعفر على معاوية بالشام، فأنزله في دار عياله، وأظهر من إكرامه ما يستحقه، فغاظ ذلك فاختة بنت قرظة زوج معاوية فسمعت ذات ليلة غناء عند عبد الله بن جعفر، فجاءت إلى معاوية، فقالت: هلم، فاسمع ما في منزلك الذي جعلته من لحمك ودمك، وأنزلته بين حرمك، فجاء معاوية، فسمع شيئاً حَرّكَهُ وأطربه، فقال: والله إني لأسمع شيئاً تكاد الجبال أن تخر له، ثم انصرف، فلما كان في آخر الليل سمع معاوية قراءة عبد الله بن جعفر، وهو قائم يصلي، فنبه فاختة، وقال لها: اسمعي مكان ما أسمعتني، هؤلاء قومي ملوك بالنهار رهبان بالليل.

ثم إن معاوية أرق ذات ليلة، فقال لخادمه: اذهب فانظر من عند عبد الله بن جعفر، وأخبره إني قادم عليه، فذهب وأخبره، فأقام عبد الله كل من كان عنده، فلما جاء معاوية لم ير في المجلس غير عبد الله، فقال: مجلس من هذا؟ قال عبد الله: هذا مجلس فلان يا أمير المؤمنين، فقال معاوية: مره، فليرجع إلى مجلسه حتى لم يبق إلا مجلس رجل واحد. قال: مجلس من هذا؟ قال: مجلس رجل يداوي الآذان يا أمير المؤمنين. قال: إن أذني عليلة، فمره

(١) سورة الزخرف، الآية (٦٧).

أن يرجع إلى مجلسه، وكان مجلس بديح المغنّي، فأمره عبد الله بن جعفر، فرجع إلى موضعه، فقال له معاوية: داوِ أذني من علتها، فتناول العود وغنى وقال:

وَدِّعْ سعاد فإنّ الرَّكْبَ مرتحلُ
وَهَلْ تطيق وداعاً أيها الرجلُ

قال: فحرك عبد الله بن جعفر رأسه، فقال له معاوية: لِمَ حركت رأسك يا ابن جعفر؟ قال: أريحية أجدها يا أمير المؤمنين لو لقيت لأبليت، ولو سئلت لأعطيت، وكان معاوية قد خضب. قال، فقال ابن جعفر لبديح: هات غير هذا، وكان عند معاوية جارية أعز جواريه عليه، وكانت تتولى خضابه، فغنى بديح وقال:

أليس عندك شكر للتي جعلت
ما ابيضّ من قادمات الرأس كالحمم[1]
وجددّت منك ما قد كان أخلَقَهُ
صرف الزمان وطول الدهر والقدم[2]

فطرب معاوية طرباً شديداً، وجعل يحرك رجله، فقال له ابن جعفر يا أمير المؤمنين إنك سألتني عن تحريك رأسي، فأجبتك وأخبرتك، وأنا أسألك عن تحريك رجلك، فقال: كل كريم طروب، ثم قام، وقال: لا يبرح أحد منكم حتى يأتي له إذني، ثم ذهب، فبعث إلى ابن جعفر بعشرة آلاف دينار ومائة ثوب من خاصة كسوته، وإلى كل رجل منهم بألف دينار، وعشرة أثواب.

وحدّث ابن الكلبي، والهيثم بن عدي قالا: بينما عبد الله بن جعفر في بعض أزقة المدينة إذ سمع غناء، فأصغى إليه، فإذا صوت رقيق لقينة تغني وتقول:

قل لكرام ببابنا يلجوا
ما في التَّصَابي على الفتى حرج[3]

فنزل عبد الله عن دابته، ودخل على القوم بلا إذن، فلما رأوه قاموا إجلالاً له، ورفعوا مجلسه، فأقبل عليه صاحب المجلس، وقال يا ابن عم رسول الله ﷺ: أتدخل مجلسنا بلا إذن، وليس هذا من شأنك؟ فقال عبد الله: لم أدخل إلا بإذن. قال: ومن أذن لك؟ قال: قينتك هذه سمعتها تقول: قل للكرام ببابنا يلجوا. فولجنا، فإن كنا كراماً، فقد أذن لنا، وإن كنّا لئاماً خرجنا مذمومين، فقبل صاحب المنزل يده، وقال: جعلت فداك، والله ما أنت إلا من أكرم

(١) الحمم: الحجارة السوداء، والفحم الأسود، وقادمات الرأس: شعر الناصية.
(٢) أخلقه: أبلاه.
(٣) التصابي: إظهار نزعات وعواطف الصبا والشباب.

الناس، فبعث عبد الله إلى جارية من جواريه، فحضرت ودعا بثياب وطيب، فكسا القوم، وطيبهم، ووهب الجارية لصاحب المنزل، وقال: هذه أحذق بالغناء من جاريتك.

وسمع سليمان بن عبد الملك مغنياً في عسكره، فقال: اطلبوه، فجاءوا به، فقال: أعد عليّ ما غنيت به، فغنى وأحفل[1]. وكان سليمان أغير[2] الناس، فقال لأصحابه: كأنها والله جرجرة الفحل في الشوك، وما أظن أنثى تسمع هذا إلاّ صبت[3] إليه، ثم أمر به فخصي.

أصل الغناء ومعدنه:

قال أبو المنذر هشام: الغناء على ثلاثة أوجه: النصب والسناد والهزج، فأما النصب، فغناء الفتيان والركبان، وأما السناد: فالثقيل الترجيع الكثير النغمات، وأما الهزج: فالخفيف كله وهو الذي يستفز القلوب ويهيج الحليم. وقيل: كان أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى، فاشياً ظاهراً، وهي المدينة والطائف وخيبر وفدك ووادي القرى، ودومة الجندل، واليمامة، وهذه القرى مجامع أسواق العرب.

ويقال: إن أول من صنع العود لامك بن قاين بن آدم، وبكى به على ولده، ويقال: إن صانعه بطليموس صاحب الموسيقى، وهو كتاب اللحون الثمانية، والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة ذلك، وحسبنا الله، ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب التاسع والستون

في ذكر المغنين والمطربين وأخبارهم ونوادر الجلساء في مجالس الرؤساء

قيل: إن أول من غنى في العرب قينتان للنعمان يقال لهما: الجرادتان ومن غنائهما:

ألا يا قينُ ويحك قمْ فهينمْ[4]
لعلّ الله يسقينا غماما

(١) أحفل: طرّب في غنائه ورجّع.
(٢) أغير: أشد غيرة.
(٣) صبت إليه: مالت إليه وأثار غناؤه شوقها للقياه.
(٤) الهينمة: الصوت تسمعه ولا تفقه ما يقول والهينمة أيضاً الدعاء بصوت خفيض، يقال هينم فلان: دعا الله، وتكلم وأخفى كلامه.

وإنما غنتا هذا حين حبس الله عنهم المطر.

وقيل: أول من غنّى في الإسلام الغناء الرقيق طويس وهو الذي علم ابن سريج والدلال نوبة الضحى، وكان يكنى أبا عبد النعيم، ومن غنائه، وهو أول صوت غنى به في الإسلام هذا البيت:

قد براني الشوق حتى
كدتُ من وجدي أذوبُ[1]

ثم نجم بعد طويس ابن طنبور، وأصله من اليمن، وكان أهزج الناس وأخفهم غناء، ومن غنائه:

وفتيان على شرب جميعاً
دلفتُ لهم بباطيةٍ هدورِ[2]
فلا تشربْ بلا طربٍ فإنّي
رأيت الخيل تشربُ بالصفير

ومنهم حكم الوادي، ومن غنائه:

إمدحِ الكأسَ ومَنْ أعملَها
واهجِ قوماً قتلونا بالعطش
إنما الراح ربيع باكر
فإذا ما وافت المرء انتعش

وكان لهارون الرشيد جماعة من المغنين منهم: إبراهيم الموصلي، وابن جامع السهمي وغيرهما، وكان له زامر يقال له: برصوما، وكان إبراهيم أشدهم تصرفاً في الغناء، وابن جامع أحلاهم نغمة، فقال الرشيد يوماً لبرصوما: ما تقول في ابن جامع؟ قال يا أمير المؤمنين، وما أقول في العسل الذي من حيثما ذقته فهو طيب. قال: فإبراهيم الموصلي؟ قال: بستان فيه جميع الأزهار والرياحين.

وكان ابن محرز يغني كل إنسان بما يشتهيه كأنه خلق من قلب كل إنسان. وغنى رجل بحضرة الرشيد بهذه الأبيات:

وأذكرُ أيام الحمى ثمّ أنثني
على كبدي من خشية أن تصدّعا
فليست عشيات الحمى برواجع
عليك ولكن خلِّ عينيك تدمعا

(١) براني: أنحلني كما تبري المبراة القلم فيصير نحيلاً.
(٢) جميعاً: مجتمعين، دلفت: دخلت. باطية: وعاء للشراب، هدور: تغلي اختماراً فيسمع صوت اختمارها كالهدير.

بكت عيني اليسرى فلما نهيتها
عن الجهل بعد الحلم أسبَلَتا معا[1]

قال: فاستخف الرشيد الطرب، فأمر له بمائة ألف درهم.

وحدّث ابن الكلبي عن أبيه قال: كان ابن عائشة من أحسن الناس غناء وأنبههم فيه، وكان من أضيق الناس خلقاً إذا قيل له غنِّ قال: لمثلي يقال غنِّ، عليَّ عتق رقبة إن غنيت يومي هذا، فلما كان في بعض الأيام سال وادي العقيق، فلم يبق في المدينة مخبأة ولا مخدرة ولا شاب ولا كهل إلا خرج يبصره، وكان فيمن خرج ابن عائشة المغني وهو معتجر[2] بفضل ردائه، فنظر إليه الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم، وكان الحسن فيمن خرج إلى العقيق وبين يديه عبدان أسودان كأنهما ساريتان يمشيان أمام دابته، فقال لهما: أقسم بالله إن لم تفعلا ما آمركما به لأنكلن بكما، فقالا يا مولانا قل ما أمرتنا به، فلو أمرتنا أن نقتحم النار فعلنا. قال: فاذهبا إلى ذلك الرجل المعتجر بفضل ردائه فأمسكاه، فإن لم يفعل ما آمره به وإلا فاقذفا به في العقيق. قال: فمضيا والحسن يقفوهما[3]، فلم يشعر ابن عائشة إلا وهما آخذان بمنكبيه، فقال: من هذا؟ فقال له الحسن: أنا هذا يا ابن عائشة، فقال: لبيك وسعديك بأبي أنت وأمي قال: اسمع مني ما أقول لك، واعلم أنك مأسور في أيديهما، وقد أقسمت إن لم تغن مائة صوت ليطرحانك في العقيق. قال: فصاح ابن عائشة: وواويلاه واعظم مصيبتاه، فقال له الحسن: دعنا من صياحك وخذ فيما ينفعنا. قال: اقترح وأقم من يحصي، ثم أقبل يغني، فترك الناس العقيق، وأقبلوا عليه، فلما تمت أصواته مائة كبّر الناس بلسان واحد تكبيرة ارتجت لها أقطار الأرض، وقالوا للحسن: صلى الله على جدك حياً وميتاً، فما اجتمع لأحد من أهل المدينة سرور قط إلا بكم أهل البيت، فقال له الحسن: ما فعلت هذا بك يا ابن عائشة إلا لأخلاقك الشرسة، فقال ابن عائشة: والله ما مرت بي شدة أعظم من هذه لقد بلغت أطراف أعضائي، فكان ابن عائشة بعد ذلك إذا قيل له: ما أشد يوم مر عليك؟ يقول: يوم العقيق.

(١) وهذه الأبيات ما زالت تغنى إلى أيامنا هذه، ويطرب لها الناس.
(٢) اعتجر بردائه: إلتف به.
(٣) يقفوها: يتبعهما.

وحدّث أبو جعفر البغدادي قال: حدثني عبد الله بن محمد كاتب بغداد عن أبي عكرمة قال: خرجت يوماً إلى المسجد الجامع، فمررت بباب أبي عيسى بن المتوكل، فإذا على بابه المشدود، وهو أحذق خلق الله تعالى بالغناء، فقال: أين تريد يا أبا عكرمة؟ قلت: المسجد الجامع لعلي أستفيد حكمة أكتبها، فقال: أدخل بنا إلى أبي عيسى. قلت: أمثل أبي عيسى في قدره، وجلالته يدخل عليه بلا إذن؟ فقال للحاجب: أعلم أمير المؤمنين بمكان أبي عكرمة، فما لبث إلا ساعة حتى خرج الغلمان إليَّ فحملوني حملاً، فدخلت إلى دار ما رأيت أحسن منها بناء، ولا أظرف منها هيئة فلما نظرت إلى أبي عيسى قال لي: ما يعيش من يحتشم اجلس، فجلست، فأتينا بطعام كثير، فلما انقضى أتينا بشراب، وقامت جارية تسقينا شراباً كالشعاع في زجاجة كأنها كوكب دري، فقلت: أصلح الله الأمير وأتم عليه نعمه ولا سلبه ما وهبه. قال: فدعا أبو عيسى بالمغنين وهم المشدود ودبيس ورقيق. ولم يكن في ذلك الزمان أحذق من هؤلاء الثلاثة بالغناء، فابتدأ المشدود وغنى يقول:

لـمـا استـقـلّ بـأرداف تـجـاذبُـه
واخضرّ فوق بياض الدرّ شاربُه
وأشرق الوردُ من نسرين وجنته
واهتزّ أعلاه وارتجّت حقائبه[1]
كـلّـمـتـه بجفون غير ناطقة
فكان من ردّه ما قال حاجبه

ثم سكت وغنّى دبيس:

الـحـبُّ حـلـو أمرّتـه عـواقـبُـهُ
وصاحبُ الحُبِّ صَبُّ القَلْبِ ذَائِبُهُ
استودع الله من بالطرف ودَّعني
يوم الفراق ودمعُ العين ساكبُهُ
ثم انصرفت وداعي الشوق يهتفُ بي
إرفقْ بقلبك قد عزت مَطَالِبُهُ[2]

ثم سكت وغنّى رقيق:

بـدر من الإنس حفّته كـواكبه
قـد لاح عـارضه وأخـضـرّ شَـارِبُـهُ

(١) حقائبه: أردافه.
(٢) عزّت مطالبه: صار ما يطلبه عزيزاً لا يمكن الوصول إليه ولا الحصول عليه.

إن يوعد الوعد يوماً فهو مخلفهُ
أو ينطق القول يوماً فهو كاذِبُهُ

ثم سكت، وابتدأ المشدود يقول:

يا ديرَ حَنَّةَ من ذات الأكيراح
من يصحُ عنك فإنّي لستُ بالصاحي

ثم سكت وغنى دبيس:

دع البساتين من آسٍ وتفاح
واعدل هديت إلى شيخ الأُكَيْرَاحِ
واعدلْ إلى فتيةٍ ذابت لحومهم
من العبادة إلاّ نِضْوَ أشْبَاحِ

ثم أقبل أبو عيسى على المشدود وقال له غَنِّ لي شِعْرِي فَغَنّاهُ:

يا لجّة الدمع هل للغمض مرجوعُ
أم للكرى من جفون العين ممنوعُ
ما حيلتي وفؤادي قائمٌ دنفٌ
بعقرب الصدغ من مولاي ملسوع
لا والذي تلفت نفسي بفرقته
فالقلب من فرق الأحزان مصدوع(١)
ما أرّق العينَ إلاّ حبُّ مبتدع
ثوبُ الجمالِ على خدّيه مخلوع

قال أبو عكرمة: فوالله لقد حضرت من المجالس ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى، فما حضرت مثل ذلك المجلس ولولا أن أبا عيسى قطعهم ما انقطعوا.

وحكي عن الرشيد أنه قال يوماً للفضل بن الربيع: من بالباب من الندماء؟ قال: جماعة فيهم هاشم بن سليمان مولى بني أمية، وأمير المؤمنين يشتهي سماعه. قال: فأذن له وحده، فدخل، فقال: هات يا هاشم، فغناه من شعر جميل حيث يقول:

إذا ما تراجعنا الذي كان بيننا
جرى الدمع من عيني بثينة بالكحلِ
فيا ويح نفسي حسب نفسي الذي بها
ويا ويح عقلي ما أصبت به أهلي
خليليّ فيما عشتما هل رأيتما
قتيلاً بكى من حبّ قاتله قبلي

قال: فطرب الرشيد طرباً شديداً، وقال: أحسنت لله أبوك، قَلّدهُ عِقْداً نفيساً. فما رآه هاشم ترقرقت عيناه بالدموع، فقال له الرشيد: ما يبكيك يا هاشم؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن لهذا العقد حديثاً عجيباً إن أذن لي أمير المؤمنين حدثته به، فقال: قد أذنت لك. قال يا أمير المؤمنين: قدمت يوماً على الوليد وهو على بحيرة طبرية، ومعه قينتان(١) لم ير مثلهما جمالاً وحسناً، فلما وقعت عينه عليّ قال: هذا إعرابي قد ظهر من البوادي أدعو به لنسخر به، فدعاني، فسرت إليه. ولم يعرفني، فغنت إحدى الجاريتين بصوت هو لي، فأخطأته الجارية، فقلت لها: أخطأت يا جارية، فضحكت، ثم قالت: يا أمير المؤمنين ألم تسمع ما يقول هذا الأعرابي يعيب علينا غناءنا؟ فنظر إليّ كالمنكر، فقلت يا أمير المؤمنين: أنا أبين لك الخطأ، فلتصلح، وتر كذا، ووتر كذا، ففعلت وغنت شيئاً ما سمع منها إلا في هذا اليوم، فقامت الجارية مكبة عليّ وقالت: أستاذي هاشم وربِّ الكعبة، فقال الوليد: أهاشم بن سليمان أنت؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، وكشفت عن وجهي، وأقمت معه بقية يومنا، فأمر لي بثلاثين ألف درهم، فقالت الجارية يا أمير المؤمنين أتأذن لي في بر أستاذي؟ فقال الوليد: ذلك إليك، فحلت يا أمير المؤمنين هذا العقد من عنقها ووضعته في عنقي، وقالت: هو لك، ثم قربوا إليه السفينة ليرجع إلى موضعه، فركب في السفينة، وطلعت معه إحدى الجاريتين، وتبعتها صاحبتي، فأرادت أن ترفع رجلها، وتطلع السفينة فسقطت في الماء، فغرقت لوقتها، وطلبت، فلم يقدر عليها، فاشتد جزع الوليد عليها، وبكى بكاء شديداً، وبكيت أنا عليها أيضاً بكاء شديداً، فقال لي يا هاشم: ما نرجع عليك مما وهبناه لك، ولكن نحب أن يكون هذا العقد عندنا نذكرها به، فبعني إياه، فعوضني عنه ثلاثين ألف درهم، فلما وهبتني العقد يا أمير المؤمنين تذكرت قضيته، وهذا سبب بكائي، فقال الرشيد: لا تعجب، فإن الله كما ورثنا مكانهم ورثنا أموالهم.

وقال علي بن سليمان النوفلي: غنى دحمان الأشقر عند الرشيد يوماً فأنشده:

إذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا(٢)
كفى لمطايانا(٣) برؤياك هاديا(٤)

---

(١) مصدوع: فيه صُدُوعٌ، والصدوع: الشقوق.

(١) قينتان: مثنى قينة. وهي الجارية المغنية.
(٢) أدلجنا: سرنا ليلاً، وأنت أمامنا: وأنت قائدنا.
(٣) المطايا ج مطية وهي الدّابّة المُعَدّة للركوب كالناقة أو الفرس.
(٤) هادياً: دليلاً.

إذا مـا طـواكِ الـدَّهـرُ يَـا أُمَّ مَـالِـكٍ
فَـشَـأنُ الـمَـنَـايَـا الـقَـاضِـيَـاتِ وَشَـانِـيـا

قال: فطرب الرشيد طرباً شديداً واستعاده منه مرات، ثم قال له: تمنّ عليّ. قال: أتمنى الهنيء والمريء. وهما ضيعتان غلتهما أربعون ألف دينار في كل سنة، فأمر له بهما، فقيل له يا أمير المؤمنين: إن هاتين الضيعتين من جلالتهما يجب أن لا يسمح بمثلهما، فقال الرشيد: لا سبيل إلى استرداد ما أعطيت، ولكن احتالوا في شرائهما منه، فساوموه فيهما حتى وقفوا معه على مائة ألف دينار، فرضي بذلك، فقال الرشيد: إدفعوها له، فقالوا: يا أمير المؤمنين في إخراج مائة ألف دينار من بيت المال طعن، ولكن نقطعها له، فكان يوصل بخمسة آلاف وثلاثة آلاف حتى استوفاها.

ومن ذلك ما حكى إسحاق الموصلي قال: كان الواثق بن المعتصم أعلم الناس بالغناء، وكان يضع الألحان العجيبة ويغني بها شعره، وشعر غيره، فقال له يوماً: يا أبا محمد لقد فقت أهل العصر في كل شيء، فغنني شعراً أرتاح إليه، وأطرب عليه يومي هذا.

قال إسحاق: فغنيته هذه الأبيات:

ما كنت أعلم ما في البين من حَرَقٍ
حتى تـنـادوا بـأن قـد جيء بـالـسـفـن
قـالـتْ تـودّعـنـي والـدمـع يـغـلـبـهـا
فهممتُ بعض ما قالت ولم تُبِنِ[1]
مـالـتْ إلـيّ وضـمـتّـنـي لـتـرشـفـنـي
كـمـا يـمـيـل نـسـيـم الـريـح بـالـغُـصُـنِ
وأعـرضـت ثـم قـالـت وهـي بـاكـيـة
يـا لـيـت مـعـرفـتّـي إيّـاك لـم تـكـنِ

قال: فخلع عليّ خلعة كانت عليه وأمر لي بمائة ألف درهم.

وقال وغنيته يوماً:

قـفـي ودّعـيـنـا يـا سـعـادُ بـنـظـرةٍ
فـقـد حـان مـنـا يـا سـعـاد رحـيـلُ
فـيـا جـنّـة الـدنـيـا ويـا غـايـة الـمـنـى
ويـا سـؤل نـفـسـي هـل إلـيـك سـبـيـلُ
وكـنـت إذا مـا جـئـت جـئـت لـعـلّـةٍ
فـأفـنـيـت عـلاّتـي فـكـيـف أقـول[2]

فـمـا كـل يـومٍ لـي بـأرضـك حـاجـة
ولا كـل يـومٍ لـي إلـيـك وصـول

فقال: والله لا سمعت يومي غيره وألقى عليّ خلعة من ثيابه، وأمر لي بصلة ما أمر لي قبلها بمثلها.

ومن حكايات الخلفاء ومكارم أخلاقهم:

ما حكي عن إبراهيم بن المهدي قال: قال جعفر بن يحيى يوماً لبعض ندمائه: إني قد استأذنت أمير المؤمنين في الخلوة غداً. فهل من مساعدة؟ فقلت: جعلت فداءك أنا أسعد بمساعدتك وأسر بمشاهدتك. فقال: بكر بكور الغراب.

قال: فأتيته عند الفجر، فوجدت الشموع قد أوقدت بين يديه وهو ينتظرني في الميعاد، فلما زلنا في أطيب عيش إلى وقت الضحى، فقدمت إلينا موائد الأطعمة عليها من أفخر الطعام وأطيبه، فأكلنا وغسلنا أيدينا، ثم خلعت علينا ثياب المنادمة، وضمخنا بالخلوق وانتقلنا إلى مجلس الطرب ومدت الستائر وغنت القينات فظللنا بأنعم يوم ثم إنه داخله الطرب. فدعا بالحاجب وقال له: إذا أتى أحد يطلبنا فأذن له ولو كان عبد الملك بن صالح بنفسه، فاتفق بالأمر المقدر أن عم الرشيد عبد الملك بن صالح قدم علينا في ذلك الوقت وكان صاحب جلالة وهيبة ورفعة، وعنده من الورع والزهد والعبادة ما لا مزيد عليه، وكان الرشيد إذا جلس مجلس لهو لا يطلعه على ذلك لشدة ورعه، فلما قدم دخل به الحاجب علينا فلما رأيناه رمينا ما في أيدينا وقمنا إجلالا له نقبل يده وقد ارتعنا لذلك وخجلنا وزاد بنا الحياء، فقال لا بأس عليكم كونوا على ما أنتم عليه، ثم صاح بغلام، فدفع له ثيابه، ثم أقبل علينا وقال: اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم قال: فما كان بأسرع من أن طرحت عليه ثياب خز معلم وقدمت إليه موائد الطعام والشراب، فطعم وشرب الشراب لساعته، ثم قال: خففوا عني فإنه شيء ما فعلته والله قط. قال: فتهلل وجه جعفر ثم التفت إلى عبد الملك، فقال له: جعلت فداءك قد علوت علينا وتفضلت، فهل من حاجة تبلغها مقدرتي وتحيط بها نعمتي فاقضيها لك مكافأة لك على ما صنعت؟

قال: بلى إن في قلب أمير المؤمنين بعض تغير عليّ، فتسأله الرضا عني، فقال جعفر: قد رضي عنك أمير المؤمنين قال: وعليّ عشرة آلاف دينار، فقال جعفر: هي حاضرة لك من مالي ولك من مال أمير المؤمنين مثلها. قال: أريد أن أشد ظهر ابني إبراهيم بمصاهرة من أمير المؤمنين قال: قد زوجه أمير المؤمنين بابنته الغالية. قال:

---

(١) لم تُبِن: لم توضح كلامها.
(٢) جئت لعلة: إدعيت حاجة أو اصطنعت سبباً.

وأحب أن تخفق الألوية على رأسه. قال: وقد ولاه أمير المؤمنين مصر. فانصرف عبد الملك بن صالح وبقيت متعجباً من إقدام جعفر على ذلك من غير استئذان وقلت: عسى أن يجيبه أمير المؤمنين إلى ما سأله من الولاية والمال والرضا إلا المصاهرة قال: فلما كان من الغد بكرت إلى باب الرشيد لأنظر ما يكون من أمرهم، فدخل جعفر فلم يلبث أن دعي بأبي يوسف القاضي ثم بابراهيم بن عبد الملك بن صالح فخرج إبراهيم وقد عقد نكاحه بالغالية بنت الرشيد، وعقد له على مصر الرايات والألوية تخفق على رأسه وخرج كل من في القصر معه إلى بيت عبد الملك بن صالح قال: ثم بعد ذلك خرج إلينا جعفر وقال: أظن أن قلوبكم تعلقت بحديث عبد الملك بن صالح وأحببتم سماع ذلك. قلنا هو كما ظننت.

قال: لما دخلت على أمير المؤمنين ومثلت بين يديه قال: كيف كان يومك يا جعفر بالأمس؟ فقصصت عليه القصة حتى بلغت إلى دخول عبد الملك بن صالح فكان متكئاً فاستوى جالساً، وقال: لله أبوك ما سألك؟ قلت: سألني رضاك عنه يا أمير المؤمنين، قال: بم أجبته؟ قلت: قد رضي عنك أمير المؤمنين. قال: قد رضيت عنه، ثم ماذا قلت، وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار. قال: فبم أجبته؟ قلت قد قضاها عنك أمير المؤمنين. قال: وقد قضيتها عنه، ثم ماذا قلت، ورغب أن يشد أمير المؤمنين ظهر ولده إبراهيم بمصاهرة منه قال: فبم أجبته؟ قلت: قد زوّجه أمير المؤمنين بابنته الغالية. قال: قد أجبته إلى ذلك. ثمّ ماذا قلت؟ قال: وأحب أن تخفق الألوية على رأسه. قال: فبم أجبته؟ قلت: قد ولاه أمير المؤمنين مصر. قال: قد وليته إياها، ثم نجز له جميع ذلك من ساعته.

قال إبراهيم بن المهدي: فوالله ما أدري أي الثلاثة أكرم وأعجب فعلاً ما ابتداه عبد الملك بن صالح من المنادمة ولم يكن فعل ذلك قط أم إقدام جعفر على الرشيد أم إمضاء الرشيد جميع ما حكم به جعفر، فهكذا تكون مكارم الأخلاق.

وحكى أبو العباس عن عمر الرازي قال: أقبلت من مكة أريد المدينة فجعلت أسير في جمد من الأرض، فسمعت غناء لم أسمع مثله، فقلت: والله لأتوصلن إليه، فإذا هو عبد أسود، فقلت له: أعد عليّ ما سمعت فقال: والله لو كان عند قرى أقريكه لفعلت، ولكني أجعله قراك، فإني والله ربما غنيت بهذا الصوت وأنا جائع فأشبع، وربما غنيته وأنا كسلان فأنشط، أو عطشان فأروى، ثم اندفع يغني ويقول:

وكنتُ إذا ما جئتُ سعدى أزورها
أرى الأرض تُطوى لي ويدنو بعيدُها
من الخفرات البيض ودَّ جليسها
إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

قال عمر: فحفظته منه، ثم تغنيت به على الحالات التي وصفها إليّ فإذا هي كما ذكر، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السبعون

في ذكر القينات والأغاني

حكى علي بن الجهم قال: لما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المتوكل أهدى إليه عبد الله بن طاهر من خراسان جارية يقال لها محبوبة كانت قد نشأت بالطائف فبرعت في الجمال والأدب وأجادت قول الشعر، وحذاقة الغناء، فشغف بها أمير المؤمنين المتوكل حتى كانت لا تفارق مجلسه ساعة واحدة، ثم أنه حصل منه عليها بعد ذلك جفاء، فهجرها.

قال علي بن الجهم، فبينما أنا نائم عنده ذات ليلة إذ أيقظني، فقال: يا علي، قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: قد رأيت الليلة في منامي كأني رضيت على محبوبة وصالحتها، فقلت: خيراً رأيت يا أمير المؤمنين أقرّ الله عينك إنما هي جاريتك والرضا والجفاء بيدك، فوالله إنا لفي حديثها إذ جاءت وصيفة فقالت: يا أمير المؤمنين سمعت صوت عود من حجرة محبوبة، فقال: قم بنا يا علي ننظر ما تصنع، فنهضنا حتى أتينا حجرتها فإذا هي تضرب بالعود وتقول:

أدور في القصر لا أرى أحداً
أشكو إليه ولا يكلمني
كأنني قد أتيت معصيةً
ليس لها توبةٌ تخلصني
فهل شفيعٌ لنا إلى ملكٍ
قد زارني في الكرى وصالحني
حتى إذا ما الصباح لاح لنا
عاد إلى هجره وصارمني [1]

(١) صارمني: قاطعني وعاداني.

قال: فصاح أمير المؤمنين، فلما سمعته تلقته، وأكبت على رجليه تقبلهما، فقال: ما هذا؟ قالت: يا مولاي رأيت في منامي هذه الليلة كأنك قد رضيت عني، فأنشدت ما سمعت. قال: وأنا والله رأيت مثل ذلك، ثم قال يا علي: هل رأيت أعجب من هذا الاتفاق، ثم أخذ بيدها ومضى إلى حجرتها وكان من أمرهما ما كان.

ومن ذلك ما حدث الشيباني قال: كان عند رجل بالعراق قينة، وكان أبو نواس يختلف إليها، وكانت تظهر له أنها لا تحب غيره وكان كلما دخل إليها وجد عندها شاباً يجالسها ويحادثها فقال فيها هذه الأبيات:

ومظهرة لخلق الله وداً
وتلقي بالتحية والسّلام

أتيت لبابها أشكوا إليها
فلم أخلصْ إليه من الزّحام

فيا من ليس يكفيها خليلٌ
ولا ألفا خليلٍ كلَّ عام

أراك بقيةً من قوم موسى
فهم لا يصبرون على طعام

وقال أبو سويد: حدثني أبو زيد الأسدي قال: دخلت على سليمان بن عبد الملك وهو جالس في إيوان مبلط بالرخام مفروش بالديباج الأخضر في وسط بستان ملتف قد أثمر وأينع وعلى رأسه وصائف كل واحدة منهن أحسن من صاحبتها، وقد غابت الشمس وغنت الأطيار فتجاوبت وصفقت الرياح على الأشجار فتمايلت. **فقلت**: السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته، وكان مطرقاً، فرفع رأسه، وقال: أبا زيد في مثل هذا حين تصاحبنا.

فقلت: أصلح الله الأمير أو قامت القيامة؟ **قال**: نعم على أهل المحبة، ثم أطرق ملياً ورفع رأسه **وقال**: أبا زيد ما يطيب في يومنا هذا؟ **قلت**: أصلح الله الأمير قهوة حمراء في زجاجة بيضاء تناولها غادة هيفاء مضمومة لفّاء أشربها من كفها وأمسح فمي بخدها، فلما رأت الوصائف ذلك تنحين عنه، ثم رفع رأسه، **فقال**: أبا زيد حضرت في يوم فيه انقضاء أجلك ومنتهى مدتك وتصرم عمرك والله لأضربن عنقك أو لتخبرني ما أثار هذه الصفة من قلبك؟.

قلت: نعم أصلح الله الأمير كنت جالساً عند دار أخيك سعيد بن عبد الملك، فإذا أنا بجارية قد خرجت من باب القصر كأنها غزال انفلت من شبكة صياد عليها قميص سكب اسكندراني يبين منه بياض بدنها وتدوير سرتها ونقش تكتها، وفي رجليها نعلان صراران قد أشرق بياض قدميها على حمرة نعليها بذؤابتين تضربان إلى حقويها لها صدغان كأنهما نونان وحاجبان قد قوسا على محاجر عينيها، وعينان مملوءتان سحراً، وأنف كأنه قصبة بلور، وفم كأنه جرح يقطر دماً وهي تقول: عباد الله من لي بدواء ما لا يشتكى وعلاج ما لا يسمى، طال الحجاب وأبطأ الجواب، والقلب طائر، والعقل عازب والنفس والهة، والفؤاد مختلس، والنوم محتبس. رحمة الله على قوم عاشوا تجلداً وماتوا كمداً، ولو كان إلى الصبر حيلة أو إلى ترك الغرام سبيل لكان أمراً جميلاً، ثم أطرقت طويلاً ورفعت رأسها، فقلت لها: أيتها الجارية إنسية أنت أم جنية، سماوية أنت أم أرضية؟ فقد أعجبني ذكاء عقلك واذهلني حسن منطقك، فسترت وجهها بكمها كأنها لم ترني، ثم قالت: أعذر أيها المتكلم فما أوحش الساعد بلا مساعد، والمقاساة لصب معاند، ثم انصرفت، فوالله ما أكلت طعاماً طيباً إلا غصصت به لذكرها، ولا رأيت حسناً إلا سمج في عيني لحسنها فقال سليمان: أبا زيد كاد الجهل يستفزني والصبا يعاودني والحلم يعزب عني لشجو ما سمعت. اعلم يا أبا زيد أن تلك التي رأيتها هي الذلفاء التي قيل فيها:

إنما الذلفاء ياقوتةٌ
أخرجت من كيس دهقان[1]

شراؤها على أخي ألف ألف درهم، وهي عاشقة لمن باعها والله إن مات ما يموت إلا بحبها ولا يدخل القبر إلا بغصتها، وفي الصبر سلوة وفي توقع الموت نهية. قم أبا زيد في دعة الله تعالى، ثم قال: يا غلام نفله ببدرة، فأخذتها وانصرفت.

وقال: فلما أفضت الخلافة إليه صارت الذلفاء إليه، فأمر بفسطاط[2]، فأخرج على دهناء الغوطة وضرب في روضة خضراء مونقة زهراء ذات حدائق بهجة تحتها أنواع الزهر ما بين أصفر فاقع وأحمر ساطع وأبيض ناصع.

وكان لسليمان مغن يقال له سنان، به يأنس وإليه يسكن فأمره أن يضرب فسطاطه بالقرب منه، وكانت الذلفاء قد خرجت مع سليمان إلى ذلك المتنزه، فلم يزل سنان يومه ذلك عند سليمان في أكمل سرور، وأتم حبور إلى أن انصرف من الليل إلى فسطاطه، فنزل به جماعة من إخوانه

---

(١) الدهقان: رتبة إقطاعية عند الفرس.

(٢) الفسطاط: خيمة كبيرة واسعة تقوم على أعمدة.

فقالوا له: نريد قِرىً[1] أصلحك الله. قال: وما قراكم؟ قالوا: أكل وشرب وسماع. قال: أما الأكل والشرب فمباحان لكم، وأما السماع فقد عرفتم شدة غيرة أمير المؤمنين ونهيه عنه إلا ما كان في مجلسه. قالوا: لا حاجة لنا بطعامك وشرابك إن لم تسمعنا. قال: فاختاروا صوتاً واحداً أغنيكموه. قالوا: غننا صوت كذا، فرفع صوته يغني بهذه الأبيات:

محجوبة سمعتْ صوتي فأرّقها
من آخر الليل لما نبّه السَّحَرُ
لم يحجب الصوت أحراس ولا غلق
فدمعها لطروق الصوت منحدر
لو مُكنت لمشت نحوي على قدم
تكاد من لينها في المشي تنفطر[2]

قال: فسمعت الذلفاء صوت سنان، فخرجت إلى صحن الفسطاط تسمع، فجعلت لا تسمع شيئاً من حسن خلق ولطافة قد إلا رأت ذلك كله في نفسها وهيئتها، فحرك ذلك ساكناً من قلبها، فهملت عيناها، وعلا نحيبها، فانتبه سليمان، فلم يجدها معه، فخرج إلى صحن الفسطاط فرآها على تلك الحال، فقال: ما هذا يا ذلفاء؟ فقالت:

ألا ربَّ صوتٍ رائعٍ من مُشَوَّهٍ
قبيحِ المحيا واضعِ الأبِ والجدِّ[3]
يروعك منه صوته ولعله
إلى أمَةٍ يُعزى معاً وإلى عبد

فقال سليمان: دعيني من هذا، فوالله لقد خامر قلبك منه ما خامر[4]، ثم قال: يا غلام عليّ بسنان، فدعت الذلفاء خادماً لها، فقالت له إن سبقت رسول أمير المؤمنين إلى سنان، فحذرته، فلك عشرة آلاف درهم، وأنت حر لوجه الله تعالى، فخرج الرسولان، فسبق رسول أمير المؤمنين سليمان، فلما أتى به قال يا سنان: ألم أنهك عن مثل هذا؟ قال يا أمير المؤمنين حملني على ذلك حلمك، وأنا عبد أمير المؤمنين، وغرس نعمته فإن رأى أمير المؤمنين أن يعفو عن عبده، فليفعل. قال: قد عفوت عنك ولكن أما

(١) القرى: طعام الضيف.
(٢) تنفطر القدم: تتشقق.
(٣) واضع: فاعل بمعنى فعيل: أي وضيع الأصل.
(٤) خامر القلب: شغله وأثار كوامنه.

علمت أن الفرس إذا صهل ودقت له الحجرة[1]، وأن الفحل إذا هدر ضبعت[2] له الناقة، وأن الرجل إذا تغنى أصغت له المرأة. إياك إياك والعود إلى ما كان منك، فيطول غمك.

وحكي أن الرشيد فصد يوماً فأرسلت إليه بعض حظاياه قدحاً فيه شراب مع وصيفة لها حسنة الوجه جميلة الطلعة بديعة المحيا، وغطته بمنديل مكتوب عليه هذه الأبيات:

فصدْتَ عرقاً تبتغي صِحّةً
ألبسك الله به العافية
فاشرب بهذا الكأس يا سيدي
واهنأ به من كفِّ ذي الجارية
واجعل لمن أنفذه خلوةً
تحظى بها في الليلة الآتية

قال: فنظر الرشيد إلى الوصيفة التي جاءت بالقدح فاستحسنها، فافتضها، ثم أرسلها فعلمت مولاتها بذلك، فكتبت إليه رقعة تقول فيها هذه الأبيات:

بعثتُ الرسولَ فأبطا قليلاً
على الرغم مني فصبراً جميلا
وكنت الخليلَ وكان الرسولُ
فصرت الرسولَ وصار الخليلا
كذا من يوجّه في حاجةٍ
إلى من يحبُّ رسولا جميلا

قال فاستحسن الرشيد ذلك منها وأرسل إليها: أنا عندك الليلة.

وأهدى داود بن روح المهلبي إلى المهدي جارية، فحظيت عنده، فواعدته المبيت عنده ليلة، فمنعها الحيض، فكتب إليها يقول:

لأهجرنّ حبيباً خان موعده
وكان منه لصفو العيش تكديرُ

فأرسلت إليه تجيبه:

لا تهجرنّ حبيباً خان موعده
ولا تذمنّ وعداً فيه تأخير
ما كان حبسي إلا من حدوث أذىً
لا يُستطاع له بالقول تفسيرُ

(١) الحجرة: الأنثى من الخيل، وودقت الحجرة ثارت رغبتها واستعدت للسفاد.
(٢) ضبعت للإبل كودقت للخيل، راجع الهامش السابق.

• وقال محمد بن مروان يصف جارية له:

أمست تُباع ولو تباعُ بوزنها
درّاً بكى أسفاً عليها البائع

وكان للمأمون جويرية[1] من أحسن الناس وأسبقهم إلى كل نادرة فحظيت عنده، فحسدها الجواري وقلن لا حسب لها، فنقشت على خاتمها حسبي حسني، فازداد بها المأمون عجباً، فسمتها الجواري، فماتت، فجزع عليها المأمون جزعاً شديداً وقال:

اختُلِستْ ريحانتي من يدي
أبكي عليها آخر الأبد
كانت هي الأنسُ إذا استوحشتْ
نفسي من الأقرب والأبعد
وروضةً كان بها مرتعي
ومنهلاً كان بها موردي
كانت يدي كان بها قوتي
فاختلس الدهر يدي من يدي

وللمتوكل في قينة:

أمازحها فتغضبُ ثم ترضى
فكلّ فعالها حسن جميل
فإن غضبت فأحسنُ ذي دلالٍ
وإن رضيت فليس لها عديل[2]

وحدّث أبو عبد الله بن عبد البر قال: حدثني إسحاق بن إبراهيم عن الهيثم بن عدي قال: كان في المدينة رجل من بني هاشم وكان له قينتان يقال لإحداهما رشا وللأخرى جؤذر وكان بالمدينة رجل مضحك لا يكاد يغيب عن مجلس المستظرفين، فأرسل الهاشمي إليه ذات يوم ليسخر به، فلما أتاه قال له: أصلحك الله إنك لفي لذتك ولا لذة لي قال: وما لذتك؟ قال: تحضر لي نبيذاً، فإنه لا يطيب لي عيش إلا به، فأمر الهاشمي بإحضار نبيذ وأمر أن يطرح فيه سكر العشر[3]، فلما شربه المضحك تحرك عليه بطنه فتناوم الهاشمي وغمز جاريتيه عليه، فلما ضاق عليه الأمر واضطر إلى التبرز قال في نفسه: ما أظن هاتين المغنيتين إلا يمانيتين وأهل اليمن يسمون الكنف بالمراحيض، فقال لهما: يا حبيبتي أين المرحاض؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غنياني

رَحَضْتِ فؤادي فخلّيتِني
أهيم من الحب في كل وادي[1]

فاندفعتا تغنيانه، فقال في نفسه: والله ما أظنهما فهمتا عني، وما أظنهما إلا مكيتين وأهل مكة يسمونها المخارج، فقال: يا حبيبتي أين المخرج؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت يقول غنياني:

خرجت لها من بطنه مكّة بعدما
أقام المنادي بالعشي فأعتما

فاندفعتا تغنيانه، فقال في نفسه: لم يفهما عني، وما أظنهما إلا شاميتين وأهل الشام يسمونها المذاهب، فقال: يا حبيبتي أين المذهب؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول حبيبنا؟ قالت: يقول غنياني

ذهبتِ من الهجران في كل مذهبِ
ولم يك حقاً كل هذا التَّجنبِ

فغنتاه الصوت، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لم يفهما عني، وما أظن القحبتين إلا مدنيتين، وأهل المدينة يسمونها بيت الخلاء، فقال: يا حبيبتي أين بيت الخلاء؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غنياني

خلا علي بقاع الأرض إذ ظعنوا
من بطن مكة واسترعاني الحزنُ

قال فغنتاه، فقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون ما أظن الفاسقتين إلا بصريتين، وأهل البصرة يسمونها الحشوش، فقال: يا حبيبتي أين الحشوش؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غنياني

أوحشوني وعزّ صبري فيهم
ما احتيالي وما يكون فعالي

قال فاندفعتا تغنيانه فقال: ما أراهما إلا كوفيتين، وأهل الكوفة يسمونها الكنف، فقال لهما: يا حبيبتي أين الكنيف؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: يعيش سيدنا ما رأيت أكثر أقتراحاً من هذا الرجل. قالت: ما يقول؟ قالت: يسأل أن تغني له

تكنفني الهوى طفلاً
فشيّبني وما اكتهلا

(١) الجويرية: تصغير جارية. أي جارية صغيرة السن.
(٢) العديل: المعادل والمساوي في المكانة.
(٣) سكر العشر: سكر يعطى كمسهل لمن يعاني من الإمساك الشديد.

(١) رحضت الفؤاد: ابتلته بالغرام وحطمت آماله.

فقال: واويلاه، وأعظم مصيبتاه، هذا والهاشمي يتقطع ضحكاً فقال لهما: يا زانيتان إن لم تعلماني به أنا أعلمكما ثم رفع ثيابه وسلح عليهما وعلى الفراش. فانتبه الهاشمي وقد غشي عليه من شدة الضحك، قال: ويلك ما هذا تسلح على وطائي[1]؟ فقال الرجل: حياة نفسي أعز عليّ من وطائك. وقيل إنه لما قيل له: ويلك ما هذا؟ قال المضحك هذه الأبيات:

تكنفني الملاحُ وأضجروني
على ما بي بنيّات الزواني
فلما قلّ عن ذاك اصطباري
قذفت به على وجه الغواني

قال، فانبسط الهاشمي ودفع إليه مالاً ومضى إلى سبيله.

قال علي بن الجهم قلت لقينة:

هل تعلمين وراء الحبّ منزلةً
تدني إليك فإنّ الحبّ أقصاني

قالت تأتي من باب الذهب وأنشدت:

إجعل شفيعك منقوشاً تُقدّمه
فلم يزل مدنياً من ليس بالدّاني

وكان أشعب يختلف إلى قينة بالمدينة[2]، فجلس عندها يوماً يطارحها الغناء فلما أراد الخروج قال لها: ناوليني خاتمك أذكرك به قالت: إنه من ذهب، وأخاف أن تذهب، ولكن خذ هذا العود، فلعلك أن تعود، وناولته عوداً من الأرض.

وكان بعض القينات من الجمال والحسن بجانب ثم أصابتها علة فتغير حالها، فكانت تنشد:

ولي كبد مقروحة مَنْ يبيعني
بها كبداً ليست بذات قروح
أباها عليّ الناس لا يشترونها
ومن يشتري ذا علةٍ بصحيحِ

وكان المعتصم يحب قينة من حظاياه فاتفق أنه خرج إلى مصر وتركها فذكرها في بعض الطريق، فاشتاق إليها، فغلبه الوجد، فدعا مغنياً له وقال: ويحك قد ذكرت جاريتي فلانة بنت فلانة، فأقلقني الشوق إليها فعسى أن تغنيني شيئاً في معنى ما ذكرته لك، فأطرق ملياً ثم غناه:

وددت من الشوق المبرّح أنني
أُعَارُ جناحيْ طائرٍ فأطيرُ
فما لنعيمٍ ليس فيه بشاشة
وما لسرور ليس فيه سرور
وإنّ امرأً في بلدٍ نصف قلبه
ونصف بأخرى غيرها لصبور

والحكايات في معنى ذلك كثيرة ولو أردت بسطها لاحتجت إلى مجلدات، ولكن ما قل وجل خير من كثير يمل، وفيما ذكرته كفاية، والله المسؤول أن يمدني منه باللطف والعناية ونسأله التوفيق والهداية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الحادي والسبعون
في ذكر العشق ومن بلي به والافتخار بالعفاف وأخبار من مات بالعشق وما في معنى ذلك

وفيه فصول

الفصل الأول
في وصف العشق

قال الجاحظ: العشق اسم لما فضل عن المحبة كما أن السرف اسم لما جاوز الجود. **وقال أعرابي**: العشق خفي أن يرى وجلي أن يخفى فهو كامن ككمون النار في الحجر إن قدحته أورى وإن تركته تواري، **وقيل**: أول العشق النظر وأول الحريق الشرر، وكان العشاق فيما مضى يشق الرجل برقع حبيبته، والمرأة تشق رداء حبيبها. ويقولان إنهما إذا لم يفعلا ذلك عرض البغض بينهما. **وقال عبد بني الحسحاس**:

وكم قد شققنا من رداءٍ محبّرٍ
ومن برقعٍ عن طَفْلةٍ غير عانس
إذا شُقّ برد شُقّ بالبرد برقع
من الحبّ حتى كلنا غير لابس

---

(١) الوطاء: الفراش.

(٢) يختلف إليه: يزوره من وقت لآخر، والقينة: الجارية المغنية.

وقيل لأعرابي: ما بلغ من حبك لفلانة؟ **قال**: إني لأذكرها وبيني وبينها عقبة الطائف، فأجد من ذكرها رائحة المسك.

وقيل: رأى شبيب أخو بثينة جميلاً عندها، فوثب عليه وآذاه، ثم إن شبيباً أتى مكة وجميل فيها، فقيل لجميل دونك شبيباً، فخذ بثأرك منه فقال:

وقالوا يا جميل أتى أخوها
فقلت أتى الحبيبُ أخو الحبيبِ

وأنشد الأخفش الحداد يقول:

مطارق الشوق منها في الحشى أثر
يطرقن سندان قلبٍ حشوه الفكر
ونار كور الهوى في الجسم موقدة
ومِبرد الحبُّ لا يبقي ولا يذر(١)

وفي الجليس الأنيس لأبي العالية الشامي قال: سأل أمير المؤمنين المأمون يحيى بن أكثم عن العشق ما هو؟ فقال: هو سوانح تسنح للمرء، فيهيم بها قلبه وتؤثرها نفسه، **وقال ثمامة**: العشق جليس ممتع، وأليف مؤنس وصاحب ملك مسالكه ضيقة ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائرة، ملك الأبدان وأرواحها، والقلوب وخواطرها، والعيون ونواظرها، والعقول وآراءها، وأعطي عنان طاعتها وقوة تصريفها، توارى عن الأبصار مدخله، وخفي في القلوب مسلكه.

وكان شيخ بخراسان له أدب وحسن معرفة بالأمور قال لسليمان بن عمرو ومن معه: أنتم أدباء، وقد سمعتم الحكمة ولكم حداء ونغم، فهل فيكم عاشق؟ قال: لا. قال: اعشقوا، فإن العشق يطلق اللسان، ويفتح جبلة البليد، والبخيل، ويبعث على التلطف وتحسين اللباس وتطييب المطعم، ويدعو إلى الحركة والذكاء، وتشريف الهمة.

وقال المجنون:

قالت جنُنِتَ على ذكري فقلت لها
الحبُّ أعظم ممّا بالمجانين
الحبُّ ليس يفيق الدهرَ صاحبُهُ
وإنّما يصرعُ المجنون في الحين

قال ذو الرياستين: إن بهرام جور كان له ابن وكان قد رشحه للأمر من بعده، فنشأ الفتى ناقص الهمة ساقط المروءة خامل النفس مسيء الأدب، فغمه ذلك، فوكل به من المؤدبين والمنجمين والحكماء من يلازمه ويعلمه وكان يسألهم عنه، فيحكون له ما يغمه من سوء فهمه وقلة أدبه إلى أن سأل بعض مؤدبيه يوماً، **فقال له المؤدب**: قد كنا نخاف سوء أدبه فحدث من أمره ما صيرنا إلى الرجاء في فلاحه، **قال**: وما ذاك الذي حدث؟ **قال**: رأى ابنة فلان المرزبان، فعشقها، فغلبت عليه، فهو لا يهدأ إلا بها ولا يتشاغل إلا بها، **فقال بهرام**: الآن رجوت فلاحه، ثم دعا بأبي الجارية، فقال له: إني مسر إليك سراً، فلا يعدوك، فضمن له ستره، فأعلمه ان ابنه قد عشق ابنته، وانه يريد أن ينكحها أياه، وأمره أن يأمرها بإطماعه في نفسها ومراسلته من غير أن يراها، وتقع عينه عليها، فإذا استحكم طمعه فيها تجتنبه وتهجره، فإن استعلمها أعلمته أنها لا تصلح إلا لملك، ثم لتعلمني خبرها وخبره، ولا تطلعهما على ما أسره إليك، فقبل أبوها ذلك منه، ثم قال للمؤدب، والموكل بأدبه حضه وشجعه على مراسلة المرأة، ففعل ذلك، وفعلت المرأة كما أمرها أبوها فلما انتهت إلى التجني عليه، وعلم الفتى السبب الذي كرهته لأجله أخذ في الأدب وطلب الحكمة والعلم والفروسية والرماية وضرب الصولجان حتى مهر في ذلك.

ثم رفع إلى أبيه أنه محتاج إلى الدواب والآلات والمطاعم والملابس والندماء، وما أشبه ذلك. فسر الملك بذلك، وأمر له بما طلب، ثم دعا مؤدبه، **فقال له**: إن الموضع الذي وضع به ابني نفسه من خبر هذه المرأة لا يدري به، فتقدم إليه وأمره أن يرفع أمرها إليّ ويسألني أن أزوجه إياها، ففعل المؤدب ذلك، فرفع الفتى ذلك لأبيه، فدعا بأبيها وزوجه إياها وأمر بتعجيلها إليه، **وقال**: إذا اجتمعت أنت وهي فلا تحدث شيئاً حتى أصير إليك، فلما اجتمعا صار إليه، **فقال**: يا بني لا يضعن قدرها عندك مراسلتها إياك، وليست في خبائك، فإني أمرتها بذلك وهي أعظم الناس منة عليك بما دعتك إليه من طلب الحكمة والتخلق بأخلاق الملوك حتى بلغت الحد الذي تصلح معه للملك من بعدي فزدها من التشريف والإكرام بقدر ما تستحق منك، ففعل الفتى وعاش مسروراً بالجارية، وعاش أبوه مسروراً به وأحسن ثواب أبيها، ورفع منزلته لصيانة سره، وأحسن جائزة المؤدب لامتثال ما أمر به.

---

(١) لقد استعمل في هذين البيتين ألفاظاً هي أسماء معدات الحداد: المطارق ج مطرقة والسندان وهو قطعة حديد يطرق الحديد فوقها، والكور: المنفاخ، والموقدة من الموقد، والمِبْرَد: أداة لإزالة زوائد الخشونة.

وكان عبد الله بن عبيدة الريحاني يهوى جارية، فزارته يوماً، فأقام يحدثها ويشكو إليها ألم الفراق، فحان وقت الظهر، فناداه إنسان الصلاة يا أبا الحسن، فقال له: رويدك حتى تزول الشمس أي حتى تقوم الجارية.

وقالت ليلى العامرية في قيسها:

لم يكن المجنون في حالةٍ
إلا وقد كنت كما كانا
لكنه باح بسرِّ الهوى
وإنني قد ذبتُ كتمانا

وقال أحمد بن عثمان الكاتب:

وإنّي ليرضيني الممر ببابها
وأقنع منها بالشتيمة والزجرِ

وقال الفتح بن خاقان صاحب المتوكل:

أيُّها العاشقُ المعذَّبُ صَبْراً
فخطايا أخي الهوى مغفورة
زفرة في الهوى أحط لذنبٍ
من غزاةٍ وحجّة مبرورة

وقال عمر بن أبي ربيعة: كنت بين امرأتين هذه تسارني وهذه تعضني فما شعرت بعضة هذه من لذة هذه، وأنشد شيبان العذري يقول:

لو حُزَّ بالسيف رأسي في محبّتها
لطار يهوي سريعاً نحوها رأسي

وقال يحيى بن معاذ الرازي: لو أمرني الله أن أقسم العذاب بين الخلق ما قسمت للعاشقين عذاباً.

الفصل الثاني من هذا الباب

فيمن عشق وعف والافتخار بالعفاف

روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ من عشق فعف، فمات، فهو شهيد، وقال ﷺ: عفوا تعف نساؤكم.

وقال بعضهم: رأيت امرأة مستقبلة البيت في غاية الضعف والنحافة رافعة يديها تدعو، فقلت لها: هل من حاجة؟ فقالت: حاجتي أن تنادي في الموقف بقولي:

تزوّد كلُّ الناس زاداً يقيهمُ
وماليَ زاد والسلامُ على نفسي

فناديت كما أمرتني، وإذا بفتى نحيل الجسم قد أقبل إليّ، فقال: أنا الزاد، فمضيت به إليها، فما زاد على النظر والبكاء، ثم قالت له: انصرف بسلام، فقلت: ما علمت أن لقاء كما يقتصر على هذا، فقالت: أمسك يا هذا، أما علمت أن ركوب العار ودخول النار شديد؟

قال إبراهيم بن محمد المهلبي:

كم قد ظفرت بمن أهوى فيمنعني
منه الحياء وخوفُ الله والحذرُ
وكم خلوتُ بمن أهوى فيقنعني
منه الفكاهة والتأنيس والنظر
أهوى الملاحَ وأهوى أن أجالسهم
وليس لي في حرامٍ منهم وطر[1]
كذلك الحبُّ لا إتيان معصيةٍ
لا خير في لذّةٍ من بعدها سقر[2]

وقال بعض بني كلب:

إن أكن طامح اللحاظ[3] فإنّي
والذي يملك الفؤادَ عفيفُ

ونحو ذلك قول القائل:

فقالت بحق الله إلاّ أتيتنا
إذا كان لون الليل شِبْهَ الطيالسِ
فجئت وما في القوم يقظان غيرها
وقد نام عنها كل واشٍ وحارسِ
فبتنا بليلٍ طيّبٍ نستلذهُ
جميعاً ولم أقلب لها كفَّ لامس

ونزل رجل على صديق له مستتراً خائفاً من عدو له، فأنزله في منزله وتركه فيه، وسافر لبعض حوائجه، وقال لامرأته: أوصيك بضيفي هذا خيراً، فلما عاد بعد شهر قال لها: كيف ضيفنا: قالت: ما أشغله بالعمى عن كل شيء، وكان الضيف قد أطبق عينيه، فلم ينظر إلى امرأة صاحبه ولا إلى منزله إلى أن عاد من سفره.

وكان عمر بن أبي ربيعة عفيفاً يصف ويعف ويحوم ولا يرد.

ودخلت بثينة على عبد الملك بن مروان، فقال لها يا بثينة: ما أرى فيك شيئاً مما كان يقوله جميل، فقالت: يا أمير المؤمنين، إنه كان يرنو إليّ بعينين ليستا في رأسك،

---

(١) الوطر: الرغبة والحاجة.
(٢) سقر: من أسماء النار وروي أيضاً أن سقر من دركات النار.
(٣) طامح اللحاظ: محباً للنظر إلى الجمال.

قال: فكيف رأيتيه في عشقه؟ قالت: كان كما قال الشاعر:

لا والـذي تـسـجـدُ الـجـبـاه لـهُ
مـالـي بـمـا تـحـت ذيـلـهـا خـبـرْ
ولا بـفـيـهـا ولا هـمـمـت بـهـا
مـا كـان إلا الـحـديـث والـنـظـرُ

وقد قدمت هذين البيتين في الجزء الأول، فيما جاء في الكتابة على سبيل الرمز

وعن أبي سهل الساعدي قال: دخلت على جميل وبوجهه آثار الموت، فقال لي: يا أبا سهل، إن رجلاً يلقى الله ولم يسفك دماً، ولم يشرب خمراً، ولم يأت فاحشة أفترجو له الجنة؟ قلت: أي والله، فمن هو؟ قال: إني لأرجو أن أكون ذلك، فذكرت له بثينة، فقال: إني لفي آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة لا نالتني شفاعة محمد ﷺ إن كنت حدثت نفسي بريبة قط.

وعن عبد الله بن عبد المطلب أبي النبي ﷺ أنه دعته بغي إلى نفسها، وبذلت له مالاً، وكانت تتكهن وتسمع بإتيان رسول الله ﷺ، وكانت جميلة، فأرادت أن تخدع عبد الله رجاء أن يكون النبي ﷺ منها للنور الذي رأته بين عينيه، فأبى وقال:

أمّـا الـحـرامُ فـالـحِـمـامُ دونـه
والـحـلُّ لا حِـلَّ فـنـسـتـبـيـنـهُ[1]
فـكـيـف بـالأمـر الـذي تـبـغـيـنـه
يـحـمـي الـكـريـم عـرضـه وديـنـه

وقال آخر:

وأحورَ مخضوب البنان مُخَجَّبٌ
دعاني فلم أعرف إلى ما دعا وجها
بخلت بنفسي عن مقام يشينها
ولست مُرِيداً ذاك طوعاً ولا كرهاً[2]

وراود شاب ليلى الأخيلية عن نفسها فاشمأزت، وقالت:

وذي حاجةٍ قلنا له لا تبحْ بها
فليس إليها ما حييت سبيلُ
لنا صاحب لا ينبغي أنْ نخونه
وأنتَ لأخرى صاحب وخليلُ

(١) جاء في الأصل: «والحل لا تأبى ونستدينه» وأثبتنا العجز كما جاء في كتب السيرة. والحِمَامُ: الموت.
(٢) يشينها: يعيبها.

وقال ابن ميادة:

موانع لا يعطين حبّة خردلٍ
وهنّ دوانٍ في الحديث أوانسُ[1]
ويكرهن أن يسمعن في اللهو ريبةً
كما كرهت صوت اللجام الشوامس[2]

وقال آخر:

حور حرائر ما هممن بريبةٍ
كظباء مكّة صيدهنّ حرامُ
يُحسبن من لين الكلام فواسقاً
ويصدّهن عن الخنى الإسلام[3]

وكان الأصمعي يستحسن بيتي العباس بن الأحنف:

أتأذنون لِصَبٍّ في زيارتكم
فعندكم شهوات السمع والبصرِ
لا يظهر الشوق إن طال الجلوس به
عفُّ الضمير ولكن فاسقُ النظر

واختفى إبراهيم بن المهدي في هربه من المأمون عند عمته زينب بنت أبي جعفر، فوكلت بخدمته جارية لها اسمها ملك، وكانت واحدة زمانها في الحسن والأدب طلبت منها بخمسمائة ألف درهم، فهويها إبراهيم، وكره أن يراودها عن نفسها، فغنى يوماً وهي قائمة على رأسه:

يـا غـزالاً لـي إلـيـه
شـافـع مـن مـقـلـتـيـه
أنـا ضـيـف وجـزاء الـ
ـضـيـف إحـسـان إلـيـه

ففهمت الجارية ما أراد، فحكت ذلك لمولاتها فقالت: إذهبي إليه، فأعلميه أني وهبتك له، فعادت إليه، فلما رآها أعاد البيتين، فأكبت عليه، فقال لها: كفى، فلست بخائن، فقالت: قد وهبتني لك مولاتي وأنا الرسول، فقال: أما الآن فنعم.

وأنشد المبرد:

ما إن دعاني الهوى لفاحشةٍ
إلاّ نهاني الحياءُ والكرمُ
فلا إلى فاحش مددتُ يدي
ولا مشت بي لزلةٍ قدمُ

(١) دوان: ج دان أو دانية أي قريبة.
(٢) الشوامس: الأفراس النافرات اللاتي لا ينقدن بسهولة.
(٣) الخنى: الفحشاء.

وقال آخر:

يقول لا تنظر فذاك بلية
بلى كل ذي عينين لا بدّ ناظر
وهل باكتحال العين بالعين ريبة
إذا عفّ فيما بينهنّ السرائر[(١)]

وكان بعض الخلفاء قد نذر على نفسه أن لا ينشد شعراً، ومتى أنشد بيت شعر فعليه عتق رقبة. قال: فبينما هو في الطواف يوماً إذ نظر إلى شاب يتحدث مع شابة جميلة الوجه، فقال له: يا هذا اتق الله أفي مثل هذا المكان؟ فقال يا أمير المؤمنين: والله ما ذاك لخنى، ولكنها ابنة عمي وأعز الناس عليّ وإن أباها منعني من تزوجها لفقري وفاقتي، وطلب مني مائة ناقة، ومائة أوقية من الذهب، ولم أقدر من ذلك. قال: فطلب الخليفة أباها، ودفع إليه ما اشترطه على ابن أخيه، ولم يقم من مقامه حتى عقد له عليها، ثم دخل الخليفة إلى بيته وهو يترنم ببيت من الشعر، فقالت له جارية من حظاياه: أراك اليوم ما مولاي تنشد الشعر، أفنسيت ما نذرت أم تراك قد هويت، فأنشد هذه الأبيات يقول:

تقول وليدتي لما رأتني
طربت وكنت قد أسليت حينا
أراك اليوم قد أحدثت عهداً
وأورثك الهوى داءً دفينا
بحقك هل سمعت لها حديثاً
فشاقك أو رأيت لها جبينا
فقلت شكا إليّ أخ محبٌّ
كمثل زماننا إذ تعلمينا
وذو الشجو القديم وإن تعزّى
محبٌّ حين يلقى العاشقينا

ثم عدّ الأبيات فإذا هي خمسة أبيات، فأعتق خمس رقاب، ثم قال: لله درك من خمسة أعتقت خمسة، وجمعت بين رأسين في الحلال[(٢)].

وروي عن عثمان الضحاك قال: خرجت أريد الحج فنزلت بخيمة بالأبواء فإذا بجارية جالسة على باب الخيمة، فأعجبني حسنها فتمثلت بقول نصيب.

بزينبَ ألممْ قبل أن يرحل الركب
وقل لا تملينا فما مَلَّكِ القلب

فقالت: يا هذا أتعرف قائل هذا البيت؟ قلت: بلى هو نصيب، فقالت: أتعرف زينبه؟ قلت: لا. قالت: أنا زينبه. قلت: حياك الله وحياك. قالت: أما والله إن اليوم موعده، وعدني العام الأول بالاجتماع في هذا اليوم، فلعلك أن لا تبرح حتى تراه. قال: فبينما هي تكلمني إذا أنا براكب قالت: ترى ذلك الراكب؟ قلت: نعم. قالت: إني لأحسبه إياه، فأقبل فإذا هو نصيب، فنزل قريباً من الخيمة، ثم أقبل فسلم، ثم جلس قريباً منها، فسألته أن ينشدها، فأنشدها، فقلت في نفسي: محبان قد طال التنائي بينهما، فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة، فقمت إلى بعيري لأشد عليه، فقال: على رسلك إني معك، فجلست حتى نهض معي فسرنا وتسامرنا، فقال لي: أقلت في نفسك محبان التقيا بعد طول تناء فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة. قلت: نعم قد كان ذلك. قال: ورب البيت منذ أحببتها ما جلست منها مجلساً هو أقرب من مجلسي هذا، فتعجبت لذلك، وقلت: والله هذه هي العفة في المحبة.

وعن محمد بن يحيى المدني قال: سمعت بعض المدنيين يقول: كان الرجل إذا أحب الفتاة يطوف حول دارها حولاً يفرح أن يرى من يراها، فإن ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار، واليوم هو يشير إليها، وتشير إليه ويعدها وتعده، فإن التقيا لم يتشاكيا حباً ولم يتناشدا شعراً بل يقوم إليها، ويجلس بين شعبتيها كأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة.

وقال الأصمعي: قلت لأعرابية: ما تعدون العشق فيكم؟ قالت: الضمة والغمزة والقبلة، ثم أنشأت تقول:

ما الحبُّ إلاّ قبلة
وغمزُ كفٍّ وعضدْ
ما الحبُّ إلاّ هكذا
إن نكحَ الحبُّ فسد

ثم قالت: كيف تعدون أنتم العشق؟ قلت: نمسك بقرنيها ونفرق بين رجليها. قالت: لست بعاشق أنت طالب ولد، ثم أنشأت تقول:

قد فسد العشق وهان الهوى
وصار من يعشق مستعجلا
يريد أن ينكح أحبابه
من قبل أن يُشهِد أو ينحلا

وقيل لرجل: وقد زفت عشيقته على ابن عم لها:

---

(١) السرائر: ج سريرة، ما يسره المرء في نفسه، وما يضمره.
(٢) روي الخبر في مصادر أخرى عن عمر بن أبي ربيعة.

أيسرك أن تظفر بها الليلة؟ قال: نعم والذي أمتعني بحبها وأشقاني بطلبها. قيل، فما كنت صانعاً بها قال: كنت أطيع الحب في لثمها وأعصي الشيطان في إثمها، ولا أفسد عشق عشرين سنة بما يبقى ذميم عاره، وينشر قبيح أخباره، إني إذن للئيم لم يلدني كريم.

ومر سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه في ليلة في بعض سكك المدينة، فسمع امرأة تقول:

ألا طال هذا الليل وازورّ جانبه[1]
وليس إلى جنبي خليلٌ ألاعبه
فوالله لولا الله تُخشى عواقبهُ
لحرك من هذا السرير جوانبه
مخافةُ ربّي والحياء يعفُّني
وإكرام بعلي أن تُنالَ مراتبُه

قال، فسأل عمر رضي الله تعالى عنه عنها، فقيل له: إنها امرأة فلان، وله في الغزاة ثمانية أشهر، فأمر عمر رضي الله تعالى عنه أن لا يغيب الرجل عن امرأته أكثر من أربعة أشهر.

ومن ذلك ما ذكره ابن الجوزي في كتاب تلقيح فهوم الأثر عن محمد بن عثمان بن أبي خيثمة السلمي عن أبيه عن جده قال: بينما عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يطوف ذات ليلة في سكك المدينة إذ سمع امرأة تقول:

هل من سبيل إلى خمرٍ فأشربها
أم من سبيلٍ إلى نصر بن حجاج
إلى فتى ماجدِ الأعراق مقتبلٍ
سهل المحيا كريم غير ملجاج[2]
تنميه أعراق صدقٍ حين تنسبه
أخي وفاءٍ عن المكروب فرّاج

فقال عمر رضي الله تعالى عنه: لا أرى معي بالمدينة رجلاً تهتف به العواتق[3] في خدورهن[4]. عليَّ بنصر بن حجاج، فلما أصبح أُتي بنصر بن حجاج، فإذا هو من أحسن الناس وجهاً وأحسنهم شعراً، فقال عمر: عزيمة من أمير المؤمنين لتأخذن من شعرك، فأخذ من شعره، فخرج من عنده وله وجنتان كأنهما شقتا قمر، فقال له: اعتم فاعتم، فافتتن الناس بعينيه، فقال له عمر: والله لا تساكنني في بلدة أنا فيها، فقال يا أمير المؤمنين: ما ذنبي؟ قال: هو ما أقول لك، ثم سيره إلى البصرة وخشيت المرأة التي سمع منها عمر ما سمع أن يبدر من عمر إليها شيء فدست إليه المرأة أبياتاً وهي:

قل للإمام الذي تخشى بوادره
مالي وللخمر أو نصر بن حجاج
لا تجعلِ الظنّ حقاً أن تبيّنه
إن السبيلَ سبيل الخائف الراجي
إن الهوى زمّ بالتقوى فتحبسه
حتى يقرّ بإلجام وإسراج

قال، فبكى عمر رضي الله تعالى عنه وقال: الحمد لله الذي زم الهوى بالتقوى قال: وطال مكث نصر بن حجاج بالبصرة، فخرجت أمه يوماً بين الأذان والإقامة متعرضة لعمر فإذا هو قد خرج في إزار ورداء وبيده الدرة، فقالت له: يا أمير المؤمنين والله لأقفن أنا وأنت بين يدي الله تعالى، وليحاسبك الله أيبيتن عبد الله وعاصم إلى جنبيك، وبيني وبين ابني الفيافي، والأودية، فقال لها: إن ابني لم تهتف بهما العواتق في خدورهن، ثم أرسل عمر إلى البصرة بريداً إلى عتبة بن غزوان فأقام أياماً ثم نادى عتبة من أراد أن يكتب إلى أمير المؤمنين، فليكتب، فإن البريد خارج، فكتب نصر بن حجاج: بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليك يا أمير المؤمنين أما بعد، فاسمع مني هذه الأبيات:

لعمري لئن سيرتني أو حرمتني
وما نلت من عرضي عليك حرام
فأصبحت منفياً على غير ريبةٍ
وقد كان لي بالمكّتين مقام
لئن غنت الذلفاء يوماً بمنيةٍ
وبعض أماني النساء غرام
ظننتَ بي الظن الذي ليس بعده
بقاءٌ ومالي جرمةٌ فألامُ
فيمنعني ممّا تقول تكرّمي
وآباءُ صدقٍ سالفون كرام
ويمنعها ممّا تقول صلاتها
وحالٌ لها في قومها وصيامُ
فهاتان حالانا فهل أنت راجعي
فقد جبّ مني كاهلٌ وسنام[1]

---

(١) أزور: مال عن الشيء وأدار له جانبه.

(٢) الملجاج: الكثير اللجاج، وغير الملجاج: هو السهل في التعامل مع أهله والناس.

(٣) العواتق ج عاتق وهي الفتاة التي جاوزت سن البلوغ.

(٤) الخدور ج خدر وهو غرفة المرأة في الدار.

(١) الجب: القطع والكاهل أعلى الكتف والسنام في الجمل وإنما يعني جب السنام في الإنسان انقصام الظهر.

قال، فلما قرأ عمر رضي الله تعالى عنه هذه الأبيات قال: أما ولي السلطان، فلا، وأقطعه داراً بالبصرة في سوقها، فلما مات عمر ركب راحلته وتوجه نحو المدينة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل الثالث من هذا الباب

في ذكر من مات بالحب والعشق

حدّث أبو القاسم بن إسماعيل بن عبد الله المأمون قال: حدثني أبي قال: كان بالمدينة قينة من أحسن الناس وجهاً وأكملهم عقلاً وأكثرهم أدباً قد قرأت القرآن وروت الأشعار وتعلمت العربية فوقعت عند يزيد بن عبد الملك فأخذت بمجامع قلبه فقال لها ذات يوم: ويحك أما لك قرابة أو أحد تحبين أن أضيفه وأسدي إليه معروفاً؟ قالت: يا أمير المؤمنين أما قرابة فلا ولكن بالمدينة ثلاثة نفر كانوا أصدقاء لمولاي وأحب أن ينالهم خير مما صرت إليه. فكتب إلى عامله بالمدينة في إحضارهم إليه وأن يدفع إلى كل واحد منهم عشرة آلاف درهم، فلما وصلوا إلى باب يزيد استؤذن لهم في الدخول عليه فأذن لهم وأكرمهم غاية الإكرام وسألهم عن حوائجهم فأما اثنان منهم فذكرا حوائجهما فقضاها، وأما الثالث فسأله عن حاجته فقال: يا أمير المؤمنين ما لي حاجة، قال: ويحك أو لست أقدر على حوائجك؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين ولكن حاجتي ما أظنك تقضيها فقال: ويحك فاسألني فإنك لا تسألني حاجة أقدر عليها إلا قضيتها، قال: بلى، فلي الأمان يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، إن رأيت يا أمير المؤمنين أن تأمر جاريتك فلانة التي أكرمتنا بسببها تغني ثلاثة أصوات أشرب عليها ثلاثة أرطال فافعل قال: فتغير وجه يزيد ثم قام من مجلسه فدخل على الجارية فأعلمها فقالت: وما عليك يا أمير المؤمنين فأمر بالفتى فأحضر وأمر بثلاثة كراسي من ذهب فنصبت فقعد يزيد على أحدها والجارية على الآخر والفتى على الثالث ثم دعا بصنوف الرياحين والطيب فوضعت ثم أمر بثلاثة أرطال فملئت ثم قال للفتى: سل حاجتك فقال: تأمرها يا أمير المؤمنين أن تغني بهذا الشعر:

لا أستطيع سلوّاً عن مودتها
أو يصنع الحبُّ بي فوق الذي صنعا
أدعو إلى هجرها قلبي فيسعدني
حتى إذا قلت هذا صادق نزعا[1]

فأمرها فغنت وشرب يزيد وشرب الفتى وشربت الجارية ثم أمر بالأرطال فملئت وقال للفتى سل حاجتك فقال: مرها يا أمير المؤمنين أن تغني بهذا الشعر:

تخيرت من نعمانَ عودَ أراكةٍ
لهند ولكن مَنْ يبلّغه هندا
ألا عَرِّجَا بي بارك الله فيكما
وإن لم تكن هند لأرضكما قصدا

فأمرها فغنت وشرب يزيد وشرب الفتى وشربت الجارية ثم أمر بالأرطال فملئت ثم قال للفتى سل حاجتك؟ قال: تأمرها يا أمير المؤمنين أن تغني بهذا الشعر:

منيّ الوصال ومنكم الهجرُ
حتى يفرّق بيننا الدّهرُ
والله لا أسلوكمو أبداً
ما لاح بدر أو بدا فجر

فأمرها فغنت قال: فلم تتم الأبيات حتى خرّ الفتى مغشياً عليه فقال يزيد للجارية: قومي أنظري ما حاله فقامت إليه فحركته فإذا هو ميت، فقال لها يزيد: ابكيه، فقالت: لا أبكيه يا أمير المؤمنين وأنت حي، فقال لها: ابكيه فوالله لو عاش ما انصرف إلا بك، فبكت الجارية وبكى أمير المؤمنين وأمر بالفتى فجهز ودفن، وأما الجارية فلم تمكث بعده إلا أياماً قلائل وماتت.

وحكي عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قدم على عبد الملك بن مروان فجلس ذات ليلة يسامره فتذاكرا الغناء والجواري المغنيات والعشق فقال عبد الملك لعبد الله: حدثني بأمر ما مر لك في هذه الأغاني وما رأيت من الجواري؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين اشتريت جارية مولدة بعشرة آلاف درهم وكانت حاذقة مطبوعة فوصفت ليزيد بن معاوية فكتب إلي في شأنها فكتبت إليه: والله لا تخرج مني ببيع ولا هبة فأمسك عني فكانت عندي على تلك الحالة لا أزداد فيها إلا حباً، فبينما أنا ذات ليلة إذ أتتني عجوز من عجائزنا فذكرت لي أن بعض أعراب المدينة يحبها وتحبه ويراها وتراه وإنه يجيء كل ليلة متنكراً فيقف بالباب فيسمع غناءها ويبكي شغفاً وحباً، فراعيت ذلك الوقت الذي قالت عليه العجوز فإذا به قد أقبل مقنعاً رأسه وقعد مستخفياً فلم أدع بها في تلك الليلة وجعلت أتأمل موضعها وموضعه فإذا بها تكلمه ويكلمها ولم أر بينهما إلا عتباً ولم يزالا كذلك حتى ابيض الصبح فدعوت بها وقلت لقيّمة الجواري أصلحي فلانة بما يمكنك فأصلحتها وزينتها، فلما جاءت بها قبضت على

---

(١) يسعدني: يساعدني ويؤيدني فيما أقول أو أطلب نزع رجع عمّا نواه.

يديها وفتحت الباب وخرجت فجئت إلى الفتى فحركته فانتبه مذعوراً فقلت: لا بأس عليك ولا خوف هي هبة مني إليك، فدهش الفتى ولم يجبني فدنوت إلى أذنه وقلت: قد أظفرك الله تعالى ببغيتك فقم وانصرف بها إلى منزلك فلم يرد جواباً فحركته فإذا هو ميت فلم أر شيئاً قط كان أعجب من أمره. قال عبد الملك: لقد حدثتني بعجب فما صنعت الجارية؟ قلت: ماتت والله بعده بأيام بعد نحول عظيم وتعليل وماتت كمداً ووجداً على الغلام. وقيل أن عبد الله بن عجلان الهندي رأى أثر كف عشيقته في ثوب زوجها فمات.

وذكر **محمد بن واسع الهيتي** أن عبد الملك بن مروان بعث كتاباً إلى الحجاج بن يوسف الثقفي يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عند عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف، أما بعد.. إذا ورد عليك كتابي هذا وقرأته فسير لي ثلاث جوار مولدات أبكاراً يكون إليهن المنتهى في الجمال وأكتب لي بصفة كل جارية منهن ومبلغ ثمنها من المال فلما ورد الكتاب على الحجاج دعا بالنخاسين وأمرهم بما أمره به أمير المؤمنين وأمرهم أن يسيروا إلى أقصى البلاد حتى يقعوا بالغرض وأعطاهم المال وكتب لهم كتباً إلى كل الجهات فساروا يطلبون ما أراد أمير المؤمنين فلم يزالوا من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم حتى وقعوا بالغرض ورجعوا إلى الحجاج بثلاث جوار مولدات ليس لهن مثيل قال: وكان الحجاج فصيحاً فجعل ينظر إلى كل واحدة منهن ومبلغ ثمنها فوجدهن لا يقام لهن بقيمة وأن ثمنهن ثمن واحدة منهن ثم كتب كتاباً إلى عبد الملك بن مروان يقول فيه بعد الثناء الجميل: وصلني كتاب أمير المؤمنين أمتعني الله تعالى ببقائه يذكر فيه أني أشتري له ثلاث جوار مولدات أبكاراً وأن أكتب له صفة كل واحدة منهن وثمنها فأما الجارية الأولى أطال الله تعالى بقاء أمير المؤمنين فإنها جارية عيطاء السوالف عظيمة الروادف كحلاء العينين حمراء الوجنتين قد أنهدت نهداها والتفت فخذاها كأنها ذهب شيب بفضة وهي كما قيل:

بيضاء فيها إذا استقبلتها دَعَجٌ
كأنها فضة قد شابها ذهبُ

وثمنها يا أمير المؤمنين ثلاثون ألف درهم، وأما الثانية فأنها جارية فائقة في الجمال معتدلة القدر والكمال تشفي السقيم بكلامها الرخيم وثمنها يا أمير المؤمنين ستون ألف درهم، وأما الثالثة، فإنها جارية فاترة الطرف لطيفة الكف عميمة الردف شاكرة للقليل مساعدة للخليل بديعة الجمال كأنها خشف الغزال وثمنها يا أمير المؤمنين ثمانون ألف درهم ثم أطنب في الشكر والثناء على أمير المؤمنين وطوى الكتاب وختمه ودعا النخاسين فقال لهم: تجهزوا للسفر بهؤلاء الجواري إلى أمير المؤمنين. فقال أحد النخاسين: أيد الله الأمير إني رجل كبير ضعيف عن السفر ولي ولد ينوب عني أفتأذن لي في ذلك؟ قال: نعم، فتجهزوا وخرجوا ففي بعض مسيرهم نزلوا يوماً ليستريحوا في بعض الأماكن فنامت الجواري فهبت الريح فانكشف بطن إحداهن وهي الكوفية فبان نور ساطع وكان اسمها مكتوم فنظر إليها ابن النخاس وكان شاباً جميلاً ففتن بها لساعته فأتاها على غفلة من أصحابه وجعل يقول:

أمكتوم عيني لا تملُّ من البكا
وقلبي بأسهام الأسى يترشّقُ
أمكتوم كم من عاشقٍ قتل الهوى
وقلبي رهين كيف لا أتعشّق

فأجابته تقول:

لو كان حقاً ما تقول لزرتنا
ليلاً إذا هجعت عيونُ الحُسّدِ

قال: فلما جن الليل انتضى الفتى ابن النخاس سيفه وأتى نحو الجارية فوجدها قائمة تنتظر قدومه فأخذها وأراد أن يهرب ففطن به أصحابه فأخذوه وكتفوه وأوثقوه بالحديد ولم يزل مأسوراً معهم إلى أن قدموا على عبد الملك بن مروان فلما مثلوا بالجواري بين يديه أخذ الكتاب ففتحه وقرأه فوجد الصفة وافقت اثنتين من الجواري ولم توافق الثالثة ورأى في وجهها صفرة وهي الجارية الكوفية فقال للنخاسين: ما بال هذه الجارية لم توافق حليتها التي ذكرها الحجاج في كتابه وما هذا الاصفرار الذي بها والانتحال فقالوا يا أمير المؤمنين نقول ولنا الأمان، قال: وإن كذبتم هلكتم. فخرج أحد النخاسين وأتى بالفتى وهو مصفّد بالحديد فلما قدموه بين يدي أمير المؤمنين بكى بكاه شديداً وأيقن بالعذاب ثم أنشأ يقول:

أمير المؤمنين أتيتُ رغماً
وقد شدّت إلى عنقي يديّا
مقرّاً بالقبيح وسوء فعلي
ولست بما رميت به بريّا
فإن تقتل فقوق القتل ذنبي
وأن تعفو فمن جودٍ عَلَيّا

فقال عبد الملك: يا فتى ما حملك على ما صنعت

استخفاف بنا أم هوى الجارية، قال: وحق رأسك يا أمير المؤمنين وعظم قدرك ما هو إلا هوى الجارية فقال: هي لك بما أعددته لها فأخذها الغلام بكل ما أعده لها أمير المؤمنين من الحلي والحلل وسار بها فرحاً مسروراً إلى نحو أهله حتى إذا كانا ببعض الطريق نزلاً بمرحلة ليلاً فتعانقا وناما فلما أصبح الصباح وأراد الناس السير نبهوهما فوجدوهما ميتين فبكوا عليهما ودفنوهما بالطريق ووصل خبرهما إلى عبد الملك فبكى عليهما وتعجب من ذلك.

ومن ذلك.. ما روي عن النبي ﷺ أنه أخرج خالد بن الوليد المخزومي رضي الله تعالى عنه إلى مشركي خزاعة قال خالد: فأخرجني إليهم رسول الله ﷺ في عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والبأس قال: فجد بنا المسير إليهم فسبق إليهم الخبر فخرجوا إلينا فقاتلناهم قتالاً شديداً حتى تعالى النهار وطار الشرار وهاجت الفرسان وتلاحمت الأقران فلولا الله تعالى أيدنا بنصره لكادت الدائرة أن تكون علينا ولكن تداركنا الله برحمة منه فهزمناهم وقتلناهم قتلاً ذريعاً ولم ندع لهم فارساً إلا قتلناه. ثم طلبنا البيوت فنهبنا وسبينا. فلما هدأ القتال والنهب أمرت أصحابي بجمع السبايا لنقدم بهن على رسول الله ﷺ. فلما خرجنا وأحصيناهم، خرج منهم غلام لم يراهق الحلم، ولم يجر عليه القلم، وهو ماسك بشابة جميلة فقلنا له: يا غلام انعزل عن النساء فصاح صيحة مزعجة وهجم علينا فوالله لقد قتل منا في بقية نهارنا مائة رجل، قال خالد: فرأيت أصحابي قد كرهوا قتاله، وتأخروا عنه فملك منهم جواداً وعلا على ظهره ونادى: البراز يا خالد قال: فبرزت إليه بنفسي بعد أن أنشدت شعراً فوالله لم يمهلني حتى أتم شعري بل حمل علي فتطاعنا حتى تكسرت القنا وتضاربنا بالسيوف حتى تفللت فوالله لقد اقتحمت الأهوال ومارست الأبطال فما رأيت أشد من حملاته ولا أسرع من هجماته فبينما نحن نعترك إذ كبا به فرسه فصار بين قوائمه فوثبت عليه وعلوت على صدره وقلت له: إفد نفسك بقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأنا أردك من حيث جئت، قال: يا خالد ما أنصفتني أتركني حتى أجد من نفسي القوة، قال خالد: فتركته، وقلت: لعله أن يسلم ثم شددته وثاقاً وصفدته بالحديد وأنا أبكي إشفاقاً على حسن شبابه ثم أوثقته على بعير لي فلما علم أن لا خلاص له قال: يا خالد سألتك بحق إلهك إلا ما شددت ابنة عمي على ناقة أخرى إلى جانبي؟ قال خالد: فأخذتها وشددتها على ناقة أخرى إلى جانبه ووكلت بهما جماعة من أشد القوم بالقواضب والرماح وسرنا، فلما استقامت مطاياهما جعل الغلام والجارية يتناشدان الأشعار ويبكيان إلى آخر الليل فسمعته يذكر قصيدة يسب فيها الإسلام ويذكر أن لا يسلم أبداً فأخذت السيف وضربته فرميت رأسه فصاحت الجارية وأكبت صارخة فحركتها فوجدتها ميتة فأبركنا الأباعر وحفرنا ودفناهما فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أقبلنا نحدثه بعجيب ما رأينا مع الغلام فقال: لا تحدثوني شيئاً أنا أحدثكم به فقلنا: من أعلمك به يا رسول الله؟ قال: أخبرني جبريل عليه السلام وتعجب رسول الله ﷺ من موافقتهما وموافقة أجلهما.

ومن ذلك، ما حكاه الثوري، قال: حدثني جبلة بن الأسود وما رأيت شيخاً أصبح ولا أوضح منه قال: خرجت في طلب إبل لي ضلت، فما زلت في طلبها إلى أن أظلم الظلام، وخفيت الطريق، فسرت أطوف وأطلب الجادة فلا أجدها فبينما أنا كذلك إذ سمعت صوتاً حسناً بعيداً وبكاء شديداً فشجاني حتى كدت أسقط عن فرسي، فقلت: لأطلبن الصوت ولو تلفت نفسي فما زلت أقرب إليه إلى أن هبطت وادياً فإذا راع قد ضم غنماً له إلى شجرة وهو ينشد ويترنم:

وكنت إذا ما جئت سعدى أزورها
أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها
من الخفرات البيض وَدّ جليسها
إذا ما انقضت أحدوثةً لو تعيدها

قال فدنوت منه وسلمت عليه فرد السلام وقال: من الرجل؟ فقلت: منقطع به الممالك، أتاك يستجير بك، ويستعينك، قال: مرحباً وأهلاً انزل على الرحب والسعة فعندي وطاء وطيء وطعام غير بطيء. فنزلت فنزع شملته وبسطها تحتي ثم أتاني بتمر وزبد ولبن وخبز ثم قال: اعذرني في هذا الوقت. فقلت: والله ان هذا لخير كثير. فمال إلى فرسي فربطه وسقاه وعلفه فلما أكلت توضأت وصليت واتكأت فإني لبين النائم واليقظان إذ سمعت حس شيء وإذا بجارية قد أقبلت من كبد الوادي فضحت الشمس حسناً فوثب قائماً إليها وما زال يقبل الأرض حتى وصل إليها وجعل يتحادثان. فقلت: هذا رجل عربي ولعلها حرمة له، فتناومت وما بي نوم فما زالا في أحسن حديث ولذة مع شكوى وزفرات إلا أنهما لا يهم أحدهما لصاحبه بقبيح فلما طلع الفجر عانقها وتنفسا الصعداء وبكى وبكت ثم قال لها: يا ابنة العم سألتك بالله لا تبطئي عني كما أبطأت الليلة، قالت: يا ابن العم أما علمت أني

أنتظر الواشين والرقباء حتى يناموا. ثم ودعته وسارت وكل واحد منهما يلتفت نحو الآخر ويبكي. فبكيت رحمة لهما وقلت في نفسي: والله لا أنصرف حتى أستضيفه الليلة وأنظر ما يكون من أمرهما فلما أصبحنا قلت له: جعلني الله فداءك، الأعمال بخواتيمها وقد نالني أمس تعب شديد فأحب الراحة عندك اليوم، فقال: على الرحب والسعة لو أقمت عندي بقية عمرك ما وجدتني إلا كما تحب؛ ثم عمد إلى شاة فذبحها وقام إلى نار فأججها وشواها وقدمها إلي فأكلت وأكل معي إلا أنه أكل أكل من لا يريد الأكل فلم أزل معه نهاري ذلك ولم أر أشفق منه على غنمه ولا ألين جانباً ولا أحلى كلاماً إلا أنه كالولهان ولم أعلمه بشيء مما رأيت فلما أقبل الليل وطأت وطائي فصليت وأعلمته أني أريد الهجوع لما مر بي من التعب بالأمس، فقال لي: نم هنيئاً، فأظهرت النوم ولم أنم فأقام ينتظرها إلى هنيهة من الليل فأبطأت عليه فلما حان وقت مجيئها قلق قلقاً شديداً وزاد عليه الأمر فبكى ثم جاء نحوي فحركني فأوهمته أني كنت نائماً فقال: يا أخي، هل رأيت الجارية التي كانت تتعهدني وجاءتني البارحة، قلت: قد رأيتها، قال: فتلك ابنة عمي وأعز الناس علي وإني لها محب ولها عاشق وهي أيضاً محبة لي أكثر من محبتي لها وقد منعني أبوها من تزويجها لي لفقري وفاقتي وتكبر علي فصرت راعياً بسببها فكانت تزورني في كل ليلة وقد حان وقتها الذي تأتي فيه واشتغل قلبي وتحدثني نفسي أن الأسد قد افترسها، ثم أنشأ يقول:

ما بال ميّة لا تأتي كعادتها
أعاقها طربٌ أم صدّها شغلُ
نفسي فداؤك قد أهللت بي سقماً
تكاد من حزنه الأعضاءُ تنفصلُ(1)

قال: ثم انطلق عني ساعة فغاب وأتى بشيء فطرحه بين يدي فإذا هي الجارية قد قتلها الأسد وأكل أعضاءها وشوه خلقتها ثم أخذ السيف وانطلق فأبطأ هنيهة وأتى ومعه رأس الأسد فطرحه ثم أنشأ يقول:

إلا أيها الليثُ المدلُّ بنفسه
هلكت لقد جرّيت حقاً لك الشرا
وخلفتني فرداً وقد كنت آنساً
وقد عادت الأيام من بعدها غبرا(2)

(1) أهل بالأمر: بدأ به.
(2) الغبراء: الأرض، والأيام الغبراء: أيام المصائب.

ثم قال: بالله يا أخي إلا ما قبلت ما أقول لك فإني أعلم أن المنية قد حضرت لا محالة فإذا أنا مت فخذ عباءتي هذه فكفني فيها وضم هذا الجسد الذي بقي منها معي، وادفنا في قبر واحد وخذ شويهاتي(1) هذه وجعل يشير إليها فسوف تأتيك امرأة عجوز هي والدتي فأعطها عصاي هذه وثيابي وشويهاتي وقل لها: مات ولدك كمداً بالحب فإنها تموت عند ذلك فادفنها إلى جانب قبرنا وعلى الدنيا مني السلام.

قال: فوالله ما كان إلا قليل حتى صاح ووضع يده على صدره ومات لساعته، فقلت: والله لأصنعن له ما أوصاني به فغسلته وكفنته في عباءته وصليت عليه ودفنته ودفنت باقي جسدها إلى جانبه وبت تلك الليلة باكياً حزيناً فلما كان الصباح أقبلت امرأة عجوز وهي كالولهانة فقالت لي: هل رأيت شاباً يرعى غنماً فقلت لها: نعم، وجعلت أتلطف بها ثم حدثتها بحديثه وما كان من خبره فأخذت تصيح وتبكي وأنا ألاطفها إلى أن أقبل الليل وما زالت تبكي بحرقة إلى أن مضى من الليل برهة فقصدت نحوها فإذا هي مكبة على وجهها وليس لها نفس يصعد ولا جارحة تتحرك فحركتها فإذا هي ميتة فغسلتها وصليت عليها ودفنتها إلى جانب قبر ولدها وبت الليلة الرابعة فلما كان الفجر قمت فشددت فرسي وجمعت الغنم وسقتها فإذا أنا بصوت هاتف يقول:

كنّا على ظهرها والدهرُ يجمعنا
والشملُ مجتمعٌ والدارُ والوطنُ
فمزّق الدهرُ بالتفريق ألفتَنا
وصار يجمعنا في بطنها الكفنُ

قال: فأخذت الغنم ومضيت إلى الحي لبني عمهم فأعطيتهم الغنم وذكرت لهم القصة فبكى عليهم أهل الحي بكاءً شديداً ثم مضيت إلى أهلي وأنا متعجب مما رأيت في طريقي.

ومن ذلك.. ما حكي أن زوج عزة أراد أن يحج بها فسمع كثير الخبر فقال: والله لأحجنّ لعلي أفوز من عزة بنظرة، قال: فبينما الناس في الطواف إذ نظر كثير لعزة وقد مضت إلى جمله فحيته ومسحت بين عينيه وقالت له: يا جمل فبادر ليلحقها ففاتته فوقف على الجمل وقال:

حيتّك عزة بعد الحجّ وانصرفت
فحيّ ويحك من حيّاك يا جملُ

(1) شويهاتي تصغير شياهي. والشاة: أنثى الماعز والضأن.

لو كنت حييّتها ما كنت ذا سرف
عندي ولا مسّك الإدلاج والعملُ

قال: فسمعه الفرزدق فتبسم وقال له: من تكون يرحمك الله قال: أنا كثير عزة فمن أنت يرحمك الله؟ قال: أنا الفرزدق بن غالب التميمي، قال: أنت القائل:

رحلتْ جمالهُمُ بكلّ أسيلةٍ
تركت فؤادي هائماً مخبولا(١)

لو كنت أملكهم إذاً لم يرحلوا
حتى أودعَ قلبي المتبولا(٢)

ساروا بقلبي في الحدوج وغادروا
جسمي يعالج زفرةً وعويلا(٣)

فقال الفرزدق: نعم، فقال كثير: والله لولا إني بالبيت الحرام لأصيحن صيحة أفزع هشام بن عبد الملك وهو على سرير ملكه، فقال الفرزدق: والله لأعرِّفن بذلك هشاماً ثم تودعا وافترقا فلما وصل الفرزدق إلى دمشق دخل إلى هشام بن عبد الملك فعرَّفه بما اتفق له مع كثير فقال له: اكتب إليه بالحضور عندنا لنطلق عزة من زوجها ونزوجه إياها، فكتب إليه بذلك فخرج كثير يريد دمشق فلما خرج من حيه وسار قليلاً رأى غراباً على بانة وهو يفلي نفسه وريشه يتساقط فاصفر لونه وارتاع من ذلك وجدّ في السير ثم إنه مال ليسقي راحلته من حي بني فهد وهم زجرة الطير فبصر به شيخ من الحي فقال: يا ابن أخي أرأيت في طريقك شيئاً فراعك؟ قال: نعم رأيت غراباً على بانة يتفلى وينتف ريشه فقال له الشيخ: أما الغراب فإنه اغتراب والبانة بين والتفلي فرقة، فازداد كثير حزناً على حزنه لما سمع من الشيخ هذا الكلام وجدّ في السير إلى أن وصل إلى دمشق ودخل من أحد أبوابها فرأى الناس يصلون على جنازة فنزل وصلى معهم، فلما قُضيت الصلاة صاح صائح لا إله إلا الله ما أغفلك يا كثير عن هذا اليوم، فقال: ما هذا اليوم يا سيدي؟ فقال: إن هذه عزة قد ماتت وهذه جنازتها فخر مغشياً عليه، فلما أفاق أنشأ يقول:

فما أعرف الفهدي لادرّ درهُ
وأزجره للطير لا عزّ ناصرهُ

رأيت غراباً قد علا فوق بانةٍ
ينتّف أعلى ريشه ويطايره

فقال غرابٌ واغترابٌ من النوى
وبانة بينٍ من حبيبٍ تعاشره

ثم شهق شهقة فارقت روحه الدنيا ومات من ساعته ودفن مع عزة في يوم واحد.

وحكى الأصمعي: قال: بينما أنا أسير في البادية إذ مررت بحجر مكتوب عليه هذا البيت:

أيا معشر العشّاقِ بالله خبروا
إذا حل عشقٌ بالفتى كيف يصنعُ

فكتبت تحته:

يداري هواه ثم يكتم سّره
ويخشع في كلّ الأمور ويخضعُ

ثم عدت في اليوم الثاني فوجدت مكتوباً تحته:

فكيف يداري والهوى قاتل الفتى
وفي كلّ يوم قلبُه يتقطعُ

فكتبت تحته:

إذا لم يجد صبراً لكتمان سّره
فليس له شيءٌ سوى الموت أنفعُ

ثم عدت في اليوم الثالث فوجدت شاباً ملقى تحت ذلك الحجر ميتاً لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وقد كتب قبل موته:

سمعنا أطعنا ثم متنا فبلغوا
سلامي على من كان للوصل يمنعُ

وحكي أيضاً عن الأصمعي رحمه الله تعالى أنه قال: بينما أنا نائم في بعض مقابر البصرة إذ رأيت جارية على قبر تندب وتقول:

بروحي فتىً أوفى البرية كلها
وأقواهمُ في الحبّ صبراً على الحب

قال: فقلت لها: يا جارية بم كان أوفى البرية وبم كان أقواها؟ فقالت: يا هذا، إنه ابن عمي هويني فهويته فكان إن أباح عنفوه وإن كتم لاموه فأنشد بيتي شعر وما زال يكررهما إلى أن مات؛ والله لأندبنه حتى أصير مثله في قبر إلى جانبه فقلت لها: يا جارية فما البيتان؟ قالت:

يقولون لي إن بحت قد غرّك الهوى
وإن لم أبحْ بالحبّ قالوا تَصَبَّرا

---

(١) أي حملت جمالهم كل امرأة جميلة ورحلت بهن وتركتني هائماً، مغرماً لا أعرف أين أذهب قد أصابني الخبال.

(٢) المتبول: المغرم.

(٣) الحدوج ج حدج: مركب يوضع على ظهر البعير للمرأة وهو أصغر من الهودج.

فما لامرىء يهوى ويكتم أمرهُ
من الحبّ إلاّ أن يموت فيعذرا

ثم إنها شهقت شهقة فارقت روحها الدنيا رحمة الله تعالى عليها والحكايات في ذلك كثيرة، وفي الكتب مشهورة ولولا الإطالة والخوف من الملالة لجمعنا في هذا المعنى أشياء كثيرة، ولكن اقتصرنا على هذه النبذة اليسيرة والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثاني والسبعون

في ذكر رقائق الشعر والمواليا والدوبيت وكان وكان والموشحات والزجل والحماق والقومة والألغاز ومدح الأسماء والصفات وما أشبه ذلك

وفيه فصول

الفصل الأول

في الشعر

قد قسم الناس الشعر خمسة أقسام:

مرقص كقول أبي جعفر طلحة وزير سلطان الأندلس:

والشمس لا تشربُ خمرَ الندى
في الروض إلا من كؤوس الشقيقِ

ومطر كقول زهير:

تراه إذا ما جئته متهلّلاً
كأنّك تعطيه الذي أنت سائله

ومقبول كقول طرفة بن العبد:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً
ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

ومسموع مما يقام به الوزن دون أن يمجه الطبع كقول ابن المعتز:

سقى المطيرةَ ذات الظلّ والشجر
ودير عبدون هطّال من المطر

ومتروك وهو ما كان كلاًّ على السمع والطبع كقول الشاعر:

تقلقلت بالهمّ الذي قلقل الحشى
قلاقل هَمّ كلّهنّ قلاقل[1]

وقد قسم الناس فنون الشعر إلى عشرة أبواب حسبما بوب أبو تمام في الحماسة، وقال عبد العزيز بن أبي الأصبع الذي وقع لي أن فنون الشعر ثمانية عشر فناً وهي: غزل ووصف وفخر ومدح وهجاء وعتاب واعتذار وأدب وزهد وخمريات ومراث وبشارة وتهاني ووعيد وتحذير وتحريض وملح، وباب مفرد للسؤال والجواب. ولنذكر إن شاء الله تعالى من ذلك ما تيسر على سبيل الاختصار.

ولنبدأ من ذلك بذكر الغزل المذكر (ابن نباتة):

أأغصان بانٍ ما أرى أم شمائلُ
وأقمار تم ما تضمّ الغلائل

وبيض رقاق أم جفون فواترٌ
وسمرٌ دقاقٌ أم قدودٌ قواتل

وتلك نبالٌ أم لحاظٌ رواشقٌ
لها هدفٌ منّي الحشى والمقاتل

بروحي أفدي شادناً قد ألفته
غدوت وبي شغل من الوجد شاغل

أميرٌ جَمَالٍ والمِلاَح جنوده
يجور علينا قدّه وهو عادلُ

له حاجبٌ عن مقلتي حجب الكـ
ـرى وناظره الفتّان في القلب عاملُ[2]

رفعت إليه قصّة الدمع شاكياً
فوقّع يجري فهو في الخد سائل

شكوت فما ألوي وقلت فما صغى
وجدّ بقلبي حبه وهو عازلُ

طويل التواني دلُّه متواترٌ
مديد التجنّي وافرُ الحسن كامل

أطارحه بالنحو يوماً تعلّلاً
فيبدو وللإعراب فيه دلائل

ويرفع وصلي وهو مفعول في الهوى
وينصب هجري عامداً وهو فاعل

تفقهت في عشقي له مثل ما غدا
خبيراً بأحكام الخلاف يجادل

(١) البيت للمتنبي.
(٢) حجب الكرى: منع النوم عني.

فيا مالكي ما ضرّ لو كنت شافعي
بوصلك فافعل بي كما أنت فاعل
فإني حنيفي الهوى متحنبلٌ
بعشقك لا أصغي وإن قال قائل[1]

كمال الدين بن النبيه:

الله أكبر كلُّ الحسن في العرب
كم تحت لمّة ذا التركي من عجب
صبح الجبين بليل الشعر منعقدٌ
والخد يجمع بين الماء واللّهب[2]
تنفّست عن عبير الراح ريقته
وافترّ مبسمه الشهدي عن حبب
لا في العذيب ولا في بارقٍ غزلي
بل في جنى فمه أو ريقه الشنبِ[3]
كأنه حين يرمي عن حنيته
بدرٌ رمى عن هلال الأفق بالشهب
يا جاذب القوس تقريباً لوجنته
والهائم الصبّ منها غير مقترب
أليس من نكد الأيام يحرمها
فمي ويلثمها سهمٌ من الخشبِ
من لي بأغيد قاسي القلب مبتسمٌ
لا عن رضا معرضٍ عني بلا غضب
فكم له في وجود الذنب من سببٍ
وليس لي في قيام العذر من سببِ
تميل أعطافه تيهاً بطرّته
كما تميل رماح الخط بالعذب[4]
أشار نحوي وجنح الليل معتكرٌ
بمعصم بشعاع الكأس مختضبِ
بكرٌ جلالها أبوها قبل ما جليت
في حجر لدنٍ أو في قشرة العنب

البها زهير:

يعاهدني لا خانني ثم ينكث
وأحلف لا كلمته ثم أحنث
وذلك دأبي لا يزال ودأبه
فيا معشر العشاق عنّا تحدثوا
أقول له صلني يقول نعم غداً
ويكسر جفناً هازئاً بي ويعبث
وما ضرّ بعض الناس لو كان زارني
وكنّا خلونا ساعة نتحدثُ
أمولاي إني في هواك معذّبٌ
وحتّام أبقى في الغرام وأمكث
فخذ مرة روحي ترحني ولا أرى
أموت مراراً في النهار وأبعثُ
فإنيّ لهذا الضيم منك لحاملٌ
ومنتظرٌ لطفاً من الله يحدثُ
أعيذك من هذا الجفاء الذي بدا
خلائقك الحسنى أرقُ وأدمث
تردّد ظن الناس فيّ فأكثروا
أحاديث فيها ما يطيب ويخبث
وقد كرمتْ في الحبّ منّي شمائلٌ
ويسأل عني من أراد ويبحث

النابلسي:

ما كنت أعلم والضمائر تَصْدُقُ
أن المسامعَ كالنواظر تعشقُ[1]
حتى سمعت بذكركم فهويتكم
وكذاك أسباب المحبّة تعلق
ولقد قنعت من اللقاء بساعةٍ
إن لم يكن لي بالدوام تطرّقُ[2]
قد ينعش العطشان بلّة ريقه
ويغص بالماء الكثير ويشرقُ
فعسى عيوني أن ترى لك سيدي
وجهاً يكاد الحسن فيه ينطق

أبو الحسين الجزار:

في خده من بقايا اللثم تخميشُ
وبي لتشويش ذاك الصدغ تشويشُ

---

(١) حنيفي الهوى: لا أحب إلا شخصاً واحداً ولا أشرك في محبته أحداً متنحبل: حنبلي.
(٢) صبح الجبين: جبينه الشديد البياض، بليل الشعر: شعره أسود كالليل منعقد: مجتمعان.
(٣) الشنب: العذب البارد.
(٤) رماح الخط: الرماح المصنوعة من الخَطّيّ وهو شجر تتخذ من عيدانه الرماح للدونتها.

(١) الأذن تعشق الأصوات الجميلة، وقد تعشق الصفات التي تسمعها قبل أن ترى صاحبها.
(٢) أي إن لم يكن ثمة طريقة تحفظ دوام الصلة.

ظبيٌ من الترك أغنته لواحظه
عما حوته من النبل التراكيش
إذا تثنّى فقلب الغصن منكسرٌ
وإن تبدّى فطرف البدر مدهوش
يا عاذلي إن تكن عن حسن صورته
أعمى فإني عما قلت أطروش
كم ليلةٍ بات يسقيني المدام على
روضٍ له بثياب الغيم ترقيشُ
والغيث كالجيش يرتج الوجود له
والبرق رايته والرعد جاويش
في مجلسٍ ضحكت أرجاؤه طرباً
لأنه ببديع الزّهر مفروشُ

سيدي أبو الفضل بن أبي الوفاء:

تُرى متى من فتور اللحظ ينتشطُ
من قلبُه بحبال الشعر مرتبطُ
قد رقّ لي خصره المضنى فناسبني
فقلت خير الأمور الأنسب الوسط
وقد خفى الردف عني من تثاقله
فقلت هذا على ضعفي هو الشطط
وصدره الرحب قد عانقته سحراً
والقلب منبعث الآمال منبسط
وفيه تلك النهود المشتهاة ترى
رمانها فيه قلبي أمره فرط
إنّ الصواب لتعجيل السرور فقمْ
قبل الفوات فأوقات الهنا غلط[1]

القاضي مجد الدين بن مكانس:

أهدى تحيته وجاد بوعده
أفديه من قمرٍ بدا في سعده
بدرٌ جرى ماء الحياة بثغره
وتردّدتْ فضلاته في خدّه
أسكنته قلبي فأوقد خدّه
نيران أحشائي عليه ووجده
من لي به حلو الشمائل أهيفٌ
روت العوالي عن مثقف قدّه[2]

(١) أي ثمر صدفة فلا ضابط يضبط مرورها وحضورها.
(٢) العوالي: الرماح، والمثقف: المعتدل المستوي والقد: القامة والمراد أن قامته منتصبة كالربح.

يا عاذلي في حبّه لو أبصرت
عيناك فوق الردف مسبل جعده[1]
لعذرت كلّ متيم في حبّه
وعلمت أن ضلاله في رشده
فو حق موتي في هواه صبابةً
وحياة مبسمه الشهي وبرده
ما جاد غيث الدمع إلا عن هوى
خلع القلوب ببرقه وبرعده
قم يا رسول وأبلغ العشاق ما
ألقاه من جور الحبيب وبعده
وإذا سألتك أن تؤدّي في الهوى
خبري فصفْ فعل الغرام وأبدِهِ

عز الدين الموصلي:

والصحيح أن هذه الأبيات لابن نباتة لأنها في ديوانه:

نفسٌ عن الحب ما أغفت وما غفلت
بأي ذنبٍ وقاك الله قد قتلتْ
دعها ومدمعها الجاري لقد لقيت
ما قدّمت من أسى قلبي وما عملتْ
أفديك من ناشط الأجفان في تلفي
والسحر يوهم لي أنها كسلت
وأوضح الحسن لو شاءت ذوائبه
في الأفق وصل دجا الظلماء لاتصلت
معسّلٌ بنعاس في لواحظه
أما تراها إلى كل القلوب حلت
من لي بألحاظ ظبي يدّعي كسلاً
وكم ثياب ضنىً حاكت وكم غزلت
وحمرةٌ فوق خدّيه ومرشفه
هذي محاسنها تزهو وذي ذبلت
أما كفاني تكحيل الجفون أسىً
حتى المراشف منه باللمى كحلت
أستودع الله أعطافاً شوت كبدي
وكلما رمت تجديد الوصال قلت[2]
ومهجة لي كم ألقت بمسمعها
إلى الملام ولا والله ما قبلت

غيره للفاضل:

(١) أي أن شعرها طويل يصل إلى ردفها.
(٢) قَلَتْ: هجرت.

شرخ الشباب بحبكم أفنيته
والعمر في كلفٍ بكم قضّيته[1]

وأنا الذي لو مرّ بي من نحوكمْ
داعٍ وكنت بحفرتي لبّيته[2]

كيف التعرّض للسلو وحبُّكم
حبٌّ بأيام الشباب شريته

لله داءٌ في الفؤاد أجنّه
يزداد نكساً كلما داويته[3]

قالوا حبيبك في التجنّي مسرفٌ
قاسٍ على العشاق قلت فديته

أأروم من كلفي عليه تخلّصاً
لا والذي بطحاء مكة بيته

ولو استطعت بكل إسم في الورى
من لذة الذكرى به سميته

وللشيخ بدر الدين الدماميني:

سلّ سيفاً من الجفون صقيلا
مذ تصدى جلاه رحت قتيلا

صح عن جفنه حديث فتور
وهو ما زال من قديم عليلا

مرّ أبدى لنا من الخصر ردفاً
فأرانا مع الخفيف ثقيلا[4]

ذو قوام كأنه الغصن لكنْ
بالهوى نحو وصلنا لن يميلا

فكامل الحسن وافرٌ ظل وجدي
فيه يا عاذلي مديداً طويلا[5]

فاتك الجفن ذو الجمال كثير
أتلف العاشقين إلاّ قليلا

قلت إذ لاح طرفه ولماهُ
فاتر اللحظ بكرةً وأصيلا

كيف حالي وهل لصب إليه
من سبيل فقال لي سل سبيلا

(١) شرخ الشباب: أوّله ونضارته، كَلِفَ بالأمر: احتمله على مشقة وعسر.
(٢) حفرتي: قبري.
(٣) أجنه: أستره وأخفيه.
(٤) الخفيف والثقيل: من الأوزان الموسيقية والشعرية.
(٥) الكامل والوافر والمديد والطويل: من أوزان الشعر.

وقال آخر:

لو أنّ قلبك لي يرق ويرحمُ
ما بتُّ من ألم الجوى أتألم

ومن العجائب أنني لا سهمَ لي
من ناظريك وفي فؤادي أسهُمُ[1]

يا جامع الضدين في وجناته
ماءٌ يرق عليه نارٌ تضرمُ

عجبي لطرفك وهو ماض لم يزل
فعلام يكسر عندما تتكلم

ومن المروءة أن تواصل مدنفاً
والدهر سمحٌ والحوادث نُوّم[2]

وقال آخر:

تصدّق بوعد إنّ دمعي سائلُ
وزوّدْ فؤادي نظرةً فهو راحل

فخدّك موجودٌ به التبر دائماً[3]
وحسنك معدومٌ لديه المماثل[4]

أيا قمراً من شمس طلعة وجهه
وظل عذاريه الدُّجى والأصائل

تنقلتُ من طرف مع القلب والهوى
وهاتيك للبدر المنير منازل

جعلتك للتمييز نصباً لخاطري
فهلاّ رفعت الهجر والهجر فاعل

وقال ابن صابر:

قبّلت وجنته فألفت جيده
خجلاً ومال بعطفه المياسِ

فانهلّ من خديه فوق عذاره
عرقٌ يحاكي الطلّ فوق الآس[5]

فكأنني استقطرت ورد خدوده
بتصاعد الزفرات من أنفاسي

وقال آخر:

وغزال كل من شبّهه
بهلالٍ أو ببدرٍ ظلمه

(١) لا سهم لي: لا حظّ لي ولا نصيب.
(٢) المدنف: العاشق المتيم.
(٣) التبر: الذهب الخام.
(٤) أي لا مثيل له.
(٥) الطل: الندى.

قال إذا قبّلت وهماً فمه
قد تعدّيت وأسرفت فمه[1]

وقال آخر:

بأبي غلامٌ لست غير غلامه
مذ جادَ لي بسلامه وكلامه
ذو حاجبٍ ما إن رأيت كنونه
أبداً وصدغٍ ما رأيت كلامه[2]

وقال جمال الدين بن مطروح:

ذكر الحمى فصبا وكان قد ارعوى
صبٌ على عرش الغرام قد استوى
تجري مدامعه ويخفق قلبه
مهما جرى ذكر العقيق مع اللوى
وإذا تألّق بارقٌ من بارقٍ
فهناك ينشر من هواه ما انطوى
فخذوا أحاديث الهوى عن صادقٍ
ما ضلَّ في شرع الغرام وما غوى
ويمهجتي رشأ أطالت عذّلي
فيه الملام وقد حوى ما قد حوى[3]
قالوا أفيه سوى رشاقة قدّه
وفتور عينيه وهل موتي سوى
ما أبصرته الشمس إلاّ واكتست
خجلاً ولا غصن النقا إلاّ التوى
يروي الأراك محاسناً عن ثغره
يا طيب ما نقل الأراك وما روى

وقال آخر:

عبث النسيم بقدّه فتأودا
وسرى الحياء بخده فتورّدا
رشأ تفرّد فيه قلبي بالهوى
لما غدا بجماله متفردا
تاسوه بالغصن الرطيب جهالةً
تالله قد ظلم المشبّه واعتدى
حسن الغصون إذا اكتست أوراقها
وتراه أحسن ما يكون مجردا

(١) مه: اسم فعل بمعنى كُفّ.
(٢) كنونه: أي يشبه أجمل حرف النون. كلامه: أي كحرف اللام أجمل ما يكون.
(٣) رشأ: غزال.

وقال غيره:

يا حسناً مالك لم تحسن
إلى قلوب في الهوى متعبة
رقّمت بالورد وبالسوسن
صفحة خد بالسنا مذهبّة
وقد أبى خدك أن أجتني
منه وقد ألسعني عقربه[1]
يا حسنه إذ قال ما أحسني
ويا لذاك اللفظ ما أعذبه
قلت له كلّك عندي سناً
وكل ألفاظك مستعذبه
ففوّق السهم ولم يخطني
ومذ رآني ميّتاً أعجبه[2]
وقال كم من عاشق أحبّني
وحبه إياي قد أتعبه
يرحمه الله على أنني
قتلي له لم أدر ما أوجبه

وقال آخر:

مليح يغار الغصنُ عند اهتزازه
ويخجل بدر التمّ عند شروقه
فما فيه معنىً ناقصٌ غير خصره
وما فيه شيءٌ باردٌ غير ريقه[3]

وقال يحيى بن أكثم:

دنا هاجري نحوي بمقلته الكحلا
فلما رأى ذلّي ثنى عطفه دلاّ
فتيّمني شوقاً وأنحلني أسىً
وأفقدني صبراً وأعدمني عقلا
شكوت فما ألوى وولّى وما لوى
وأعرض مزورّاً فسلّ الحشى سلا
إذا ما دعاه فرط سقمي لزورةٍ
يناديه فرطُ العجب من عطفه كلاّ

(١) عقرب الصدغ: السّالف المتدلي المائل تطرف قوس يشبه طرف العقرب الذي يلدغ به.
(٢) فوّق السهم: سدده.
(٣) هذا مدح بما يشبه الذم فنقصان الخصر نحوله وبرد الريق: عذوبته.

وقال أيضاً:

بأبي غزالاً غازلته مقلتي
بين العذيب وبين شطيْ بارق

وسألت منه زورةً تشفي الجوى
فأجابني عنها بوعدٍ صادق[1]

بتنا ونحن من الدجا في خيمةٍ
ومن النجوم الزهر تحت سرادق

عاطيته والليل يسحب ذيلُه
صهباء كالمسك الذكي لناشق

وضممته ضمّ الكميّ لسيفه
وذؤابتاه حمائلٌ في عاتقي[2]

حتى إذا مالت به سنة الكرى
زحزحته عني وكان معانقي

أبعدتهُ عن أضلع تشتاقه
كي لا ينام على فراشٍ خافق[3]

لما رأيت الليل آخر عمره
قد شاب في لمم له ومفارق

وَدّعت من أهوى وقلت تأسفاً
صعبٌ عليّ بأن أراك مفارقي

وقال ابن نباتة:

بدا ورنت لواحظه دلالا
فما أبهى الغزالة والغزالا

وأسفر عن سنا قمرٍ منيرٍ
ولكن قد وجدت به الضلالا

صقيل الخد أبصر من رآه
سواد العين فيه فخال خالا[4]

وممنوعُ الوصال إذا تبدّى
وجدت له من الألفاظ لالا

عجبت لثغره البسّام أبدى
لنا دراً وقد سكن الزّلالا

شهدت بشهد ريقته لأنّي
رأيت على سوالفه نمالا

فيا عجباً لحسنٍ قد حواه
وقد أهدى إلى قلبي الوبالا

سأشكو الحسن ما بقيت حياتي
وأشكر من صنائعه الجمالا

القاضي فخر الدين بن مكانس:

يا غصناً في الرياض مالا[1]
حملتني في هواك مالا

يا رائحاً بعد أن سباني
حسبك ربّ السمّا تعالى

وله أيضاً:

أجارك الله قد رثت لي
ممّا ألاقي عِداً وحسد

وعاذلي مذ رأى ضلوعي
تعدّ سقماً بكى وعدّد

ابن رفاعة:

يقولون هل مَنّ الحبيب بزورةٍ
ومنّاكُم المطلوب قلنا لهم منّا

فقالوا لنا غوصوا على قدّه وما
يحاكي إذا ما اهتز قلنا لهم غصنا

الشيخ برهان الدين القيراطي:

ووردي خدٌ نرجسيُ لواحظ
مشايخ علم السحر عن لحظه رووا

وواوت صدغيه حكين عقارباً
من المسك فوق الجلّنار قد التووا

ووجنته الحمرا تلوح كجمرةٍ
عليها قلوب العاشقين قد اكتووا

وُدي له باقٍ ولست بسامع
لقول حسودٍ والعواذل إذ عووا

ووالله ما أسلو ولو صرت رمّةً
فكيف وأحشائي على حبّه انطووا[2]

وللشيخ برهان الدين القيراطي أيضاً:

شبّه السيف والسنان بعيني
مَنْ لقتلي بين الأنام استحلاّ

---

(١) الجوى: شدة الوجد من عشق أو حزن.
(٢) الكمي: الفارس، والعاتق: الكتف.
(٣) لأن قلبه يخفق فيمنعه من النوم.
(٤) خال: ظنّ، خالاً: الخال الأسود الذي يكون في الخد.

---

(١) مال: الذي في صدر البيت: انحنى، ومالا: التي في عجز البيت: أي ما لا يحتمل.
(٢) الرِّمَّةُ: الجثة البالية.

فـأبـى الـسـيـف والـسّـنـانُ وقـالا
حـدّنـا دونَ ذاك حـاشـى وكـلا[1]

وله أيضاً:

بـأبـي أهـيـف الـمـعـاطـف لـدنٍ
حـسـد الأسـمـر الـمـثـقـفُ قـدّه
ذو جفونٍ مذ رمت منها كلاماً
كـلّـمـتـنـي سـيـوفـهـنّ مـحـدّه

وقال آخر:

تـمـلّـك رِقّـي شـادنٌ قـد هـويـتـه
من الهند معسول اللمى أهيف القد
أقول لصحبي حين يرنو بطرفه
خذوا حذركم قد سلّ صارمه الهندي

ومما قيل في الغزل المؤنث للشيخ شمس الدين بن البديري:

خيال سلمى عن الأجفان لم يَغِبِ
وطيفها عن عياني غير محتجبِ
وذكرها أنس روحي وهي نائيةٌ
والقلب ما زال عنها غير منقلب
لم أصغ فيها للاح راح يعذلني
ولا لواشٍ خلي بات يلعب بي
عذابها في الهوى عذبٌ ألذُّ به
ومرُّ هجرانها أحلى من الضَرب[2]
فإن نأت أو دنت وجدي كما علمت
تشيب فيه الليالي وهو لم يشب
دعها فأمر هوى المحبوب متّبعٌ
وغير طاعته في الحب لم يجب

وقال عفا الله عنه:

سقى طللاً حلته سلمى معاهدٌ
وحيّاه من دمعي مذابٌ وجامدُ
فربعٌ به سلمى مصيفٌ ومربعٌ
وأرضٌ نأت عنها قفارٌ جلامد
وحيث ثوت أرضاً فأعذب موردٍ
ولو كدّرتْ منها عليّ الموارد
رعى الله دهراً سالمتني صروفه
وظلّت لياليه بسلمى تساعد
وقد غفل الواشون عنّي ولم أزل
ويقظان طرفِ البين عنّي راقد
وأيامنا بالقرب بيضٌ أزاهرٌ
وأوقاتنا بالوصل خضرٌ أمالد
وأرواحنا ممزوجةٌ وقلوبنا
ونحن كأنا في الحقيقة واحد
وكم قد مرجنا في مروجِ صبابةٍ
ولم يطْرُدْ فينا من البين طارد
نجرُ ذيول اللهو في قُمص الهوى
تلوح علينا للغرام شواهد
ولم يخطر التفريق منا بخاطرٍ
ولم نحسبِ الأيّام فينا تعاند
فهل أنت يا سلمى وقد حكم الهوى
كما كنت لي أم حاد بالقلب حائد
وهل ردُّنا باقٍ وإلاّ تغيرت
على عادة الأيام منك العوائد
وهل محيت آثار رسم حديثنا
وأنساك حفظ الود هذا التباعد
وهل تذكرين العهد إذ نحن باللوى
وقولك لا عاش الخؤون المعاهد
وهل أنت غيّرت الذي أنا حافظٌ
وهل أنتِ أحللت الذي أنا عاقد
وهل بدّلت منك المودة بالجفا
وفيك يقيني بالوفا منك شاهد
وإنّي ما بدّلت عهدك في الهوى
ولا اختلفت فيما علمت العوائد
ولا بتُّ مسروراً وعيشك ليلةٍ
وكيف سُلُوّي والحبيب مباعد
فإن كنت حبل الود صرّمت طرفه
فودي طريفٌ في هواك وتالد[1]
وإن قلت إنّ الحب غيّره النوى
لعمري وجدي بالحشاشة واقد
وإن أوردوا يوماً صبابة عاشقٍ
فبي يضرب الأمثال من هو وارد

---

(١) أي أن قوامه أحدُّ من السيف وأمضى.
(٢) الضرب: العسل.

(١) صرمت: قطعت، الطريف: الجديد، والتالد: القديم.

فما شئتِ كوني إنّي بك مدنفٌ
صبورٌ على البلوى شكورٌ وحامد[1]
ومنك تساوى عندي الوصل والجفا
وفيك لقد هانت عليّ الشدائد
ولو رمت ألوي عن هواك أعنّتي
لقاد زمامي نحو حبّك قائد
نصبتِ شراك الحبّ صدتِ حشاشتي
فكيف خلاصي والهوى منك صائد
بعدتِ وقلت البين يسلي أخا الهوى
وهل يسلي ذا الأشجان هذا التباعد
وما غيّر التفريق ما تعهدينه
وسوق سلوي في المحبيّن كاسدُ
وجلّ مناي القرب منك وإنّما
إذا عظم المطلوب قلّ المساعد

وقال عفا الله عنه:

تهدّدني بتبريح وبينِ
وتوعدني بتفريقٍ وصد
وتحلف لي لتلبسني سقاماً
تهي جَلَدِي به وتذيب جِلْدِي[2]
وترميني بنبل من جفون
فتضنيني وتصميني وتردي[3]
وتحرقني بنار الصدّ حتى
تذيب حشاشتي كمداً وكبدي
فقلت لها ودمعي في انسكابٍ
يفيض دماً على صفحات خدّي
ومن لي أن يقال قتيل وجدٍ
واذكر في هواك ولو بصدّي

وقال عفا الله عنه:

سُلُوي عنك شيءٌ ليس يروى
وحبّي فيك سار مع الركّابِ
ولم يمرز سواك على ضميري
ووجدي فيك أيسره عذابي
ومالك عن سواد العين يوماً
وما لسواد قلبي من حجاب
وما اخضرّت دواعي الشوق إلاّ
هززت إليك أجنحة التصابي

وقال عفا الله عنه:

قفا نبك داراً شطّ عنّا مزارها
وأنحلنا بعد البعاد أدكارها[1]
وعوجا بأطلالٍ محتها يد النوى
فأظلم بالنأي المشت نهارها
فقدنا بها ريماً من الإنس إن رنت
بمقلتها يصمي القلوب أحورارها
تصيد قلوب العاشقين أنيسةً
ويحسن منها صدّها ونفارها
ويهزأ بالأغصان لين قوامها
إذا مال فوق الغصن منها خمارها
وليس لبدر التمّ قامة قدها
وما هو إلاّ حجلها وسوارها[2]
منازلها منّي الفؤاد وإن نأى
عن العين مثواها ففي القلب دارها
يمثّلها بالوهم فكري لناظري
وأكثر ما يضني النفوس افتكارها
وهيّج دمعي حرّ نار صبابتي
وما خمدت بالدمع منّي نارها
وساعدني بالأيك ليلاً حمائمٌ
تهاتف شجواً لا يقرّ قرارها
بكين ولم تسفح لهنّ مدامعٌ
وعينيَّ فاضت بالدموع بحارها

ولمؤلفه رحمه الله تعالى، وهو قول ضعيف على قدر حاله لكنه يسأل الواقف عليه من أفضاله ستر ما يراه من عيوبه وإن يدعو له بمغفرة ذنوبه:

نسيم الصبا بلّغ سليمى رسائلي
بلطف وقل عن حال صبّك سائلي
فقد صار بالأسقام صبّاً معذّباً
قريح جفونٍ من دموعٍ هوامل

---

(١) مدنف: مقيم شديد التعلق بمن يهوى.
(٢) تهي جلدي: توهي أي تضعفه وتوهنه. والجَلَدُ: التَّصَبُّرُ والقدرة على الاحتمال.
(٣) تردي: تقتل.

(١) شط: بعد وتناءى. أدكارها: تذكرها.
(٢) الحجل: الخلخال.

صبوراً على حر الغرام وبرده
حليف الضنى لم يصغ يوماً لعاذل
يبيت على جمر الغضي متقلّباً
يئن غراماً فارحميه وواصلي
ألا يا سليمى قد أضرّ بي الهوى
وهاجت بتبريح الغرام بلابلي[1]

رميت بسهم من لحاظك قاتلٍ
فلم يُخطِ قلبي والحشى ومقاتلي
كتمت غرامي في هواك ولم أبح
بسر فناحت أدمعي برسائلي
سليمى سلي ما قد جرى لي من النوى
فقد عاد لي حال له رقّ عاذلي
لعلّ تجودي للكئيب وتسمحي
بوعدٍ وبعد الوعد إن شئت ماطلي
عسى تنطفي بالوعد ناري وأشتفي
فبالسقم أعضائي وهت ومفاصلي
خفيت عن العوّاد لولا تأوّهي
وعظم أنيني لا يراني مسائلي
فرقّي فقد رقّت عداي لذلتي
وفاضت على حالي عيون عواذلي
قطعت زماني في عسى ولعلّها
وما فزت في الأيام منك بطائل
فما آن أن ترضي عليّ وترحمي
ضني جسدي فالوجدُ لا شك قاتلي
توسلّت بالمختار في جمع شملنا
نبي له فضل على كل فاضل

وله رحمه الله تعالى:

يا ربّة الحسن من بالصد أوصاكي
حتى قتلت بفرط الهجر مضناكِ
ويا فتاةً بفتّانِ القوام سبتْ
مَن في الورى يا ترى بالقتل أفتاكِ
لقد جننت غراماً مذ رأى نظري
في النوم طيف خيالٍ من محياكِ
ومذ رآه جفا طيب المنام وقد
أضحى عليلاً حزيناً لم يزل باكِ

---

(١) البلابل: الوساوس ج بلبال.

عذّبتني بالتجنّي وهو يعذِبُ لي
فهل ترى تسمحي يوماً برؤياكِ
إن كنت لم تذكرينا بعد فرقتنا
فالله يعلم أنّا ما نسيناكِ
ما آن أن تعطفي جوداً عليّ فقد
أضحى فؤادي أسيراً لحظ عيناكِ
ما كنت أحسب أنّ العشق فيه ضنًى
ولا عذاب نفوسٍ قبل أهواكِ
حتى تولّع قلبي بالغرام فما
أمسى أسيراً سوى في حسن معناكِ
رِقّي لعبدك جوداً واعطفي وذري
ولا تطيلي بحقّ الله جفواكِ
يا هند رفقاً بقلب ذاب فيك أسىً
ومهجةٍ تلفت ما هند أقساكِ
رقّ العذول لحالي في الهوى ورثى
وأنت يا هند لا ترثي لمضناكِ
والله لو متُّ ما أسلاك يا أملي
ولو فنيت غراماً لست أنساكِ

وقال آخر:

كأنّ فؤادي يوم سرت دليل
يسير أمام العيس وهو ذليل[1]
فصرت عقيب الظاعنين لكي أرى
فؤادي سرى في الركب وهو عجول
وقائلةٍ لي كيف حالك بعدنا
لتعلم ما هذا إليه يؤول
فقلت لها قد مُتُّ قبل ترحلي
فمن باب أولى أن يجدّ رحيل
وقلت فليلي طال همّاً فأنشدت
وما زال ليل العاشقين طويل
فقلت وجسمي لم يزل مترجّفاً
فقالت وجسم العاشقين نحيل
فقلت لها لو كنت أدري فراقنا
بيوم وداعٍ ما إليه سبيلُ
لقلعت عيني في هواك بأصبعي
لكيلا أرى يوماً عليّ ثقيل

---

(١) العيس: الإبل.

وقال الوأواء الدمشقي عفا الله عنه:

يا من نفت عنّي لذيذ رقادي
مالي ومالك قد أطلتِ سهادي[1]

فبأي ذنبٍ أم بأيّة حالةٍ
أبعدتني ولقد سكنت فؤادي

وصددت عنّي حين قد ملك الهوى
روحي وقلبي والحشا وقيادي

ملكتْ لحاظك مهجتي حتى غدا
قلبي أسيراً ما له من فادي

لا غرو إن قتلت عيونك مغرماً
فلكم صرعت بها من الآسادِ

يا من حوت كلّ المحاسن في الورى
والحسن منها عاكف في بادي

رفقاً بمن أسَرَتْ عيونك قلبه
ودعي السيوفَ تقرُّ في الأغماد

وتعطّفي جوداً عليَّ بقبلةٍ
فبميم مبسمكي شفاء الصّادي[2]

ماتت أطال الله عمرك سلوتي
ولقد فني صبري وعاش سهادي

ومن المنى لو دام لي فيك الضّنى
يا حبذا لأراك من عوّادي[3]

وأجيل منك نواظري في ناضرٍ
من خدّك المترقرق الوقّاد

وأقول ما شئت اصنعي يا منيتي
مالي سواك ولو حرمت مرادي

إلاّ مديح المصطفى هو عمدتي
وبه سألقى الله يوم ميعادي

وقال البها زهير:

إذا جنّ ليلي هام قلبي بذكركُمْ
أنوح كما ناح الحمام المطوّقُ[4]

وفوقي سحابٌ يمطر الهمّ والأسى
وتحتي بحارٌ بالجوى تتدفّقُ

سلوا أمّ عمروٍ كيف بات أسيرها
تُفَكّ الأسارى دونه وهو موثق

فلا أنا مقتولٌ ففي القتل راحةٌ
ولا أنا ممنونٌ عليه فيعتق

مجنون ليلى:

وقد خبّروني أنّ تيماء منزلٌ
لليلى إذا ما الليل ألقى المراسيا

فهذي شهور الصيف عنّا ستنقضي
فما للنوى يرمي بليلى المراميا

أعدّ الليالي ليلةً بعد ليلةٍ
وقد عشت دهراً لا أعدُّ اللّياليا

وأخرج من بين البيوت لعلّني
أحدث عنك النفس بالليل خاليا

ألا أيها الركب اليمانون عَرّجوا
علينا فقد أمسى هوانا يمانيا

يميناً إذا كانت يميناً فإن تكن
شمالاً ينازعني الهوى عن شماليا

أصلّي فما أدري إذا ما ذكرتها
اثنتين صلّيتُ الضّحى أم ثمانيا

خليليّ لا والله لا أملك الهوى
إذا علمٌ من أرض ليلى بداليا[1]

خليليّ لا والله لا أملك الذي
قضى الله في ليلى ولا ما قضى ليا

قضاها لغيري وابتلاني بحبّها
فهلاّ بشيءٍ غير ليلى ابتلانيا

ولو أنّ واشٍ باليمامة داره
وداري بأعلى حضرموت اهتدى ليا

وددت على حبّي الحياة لو انّهُ
يزاد لها في عمرها من حياتيا

على أنّني راض بأن أحمل الهوى
وأخلص منه لا عليّ ولا ليا

إذا ما شكوت الحبَّ قالت كذبتني
فمالي أرى الأعضاء منك كواسيا

---

(١) نفت عني الرقاد: أبعدت عني النوم فصار كأنه في منفى والسهاد: السهر والقلق.
(٢) الصادي: الظامىء الشديد العطش.
(٣) العواد ج عائد: وهو زائر المريض أثناء مرضه.
(٤) الحمام المطوق: نوع من الحمام في رقبته ريش داكن اللون كأنه طوق وهو كثير الهديل.

(١) علم: علامة أو شيء مميز يدل على المكان.

فلا حبّ حتى يلصقَ الجلد بالحشى
وتخرس حتى لا تجيبَ المناديا

وقال آخر:

قالت لطيف خيالٍ زارني ومضى
بالله صفه ولا تنقص ولا تزدِ
فقال خلّفته لو مات من ظمإٍ
وقلت قف عن ورود الماء لم يرد
قالت عهدت الوفا والصدق شميته
يا برد ذاك الذي قالت على كبدي[1]

كمال الدين بن النبيه:

أما وبياض مبسمك النقي
وسمرة مسكة اللمس الشهي
ورمّانٌ من الكافور تعلو
عليه طوابع الندّ الندي
وقدٌّ كالقضيب إذا تثنّى
خشيت عليه من ثقلِ الحلي
لقد أسقمت بالهجران جسمي
وأعطشني وصالك بعد ريّي
إلى كم أكتم البلوى ودمعي
يبوح بمضمر السر الخفي
وكم أشكو للاهيةٍ غرامي
فويلٌ للشجي من الخلي

صفي الدين الحلي:

أبتِ الوصالَ مخافة الرُقباء
وأتتك تحت مدارعِ الظلماء[2]
أصفتك من بعد الصدود مودةً
وكذا الدواء يكون بعد الداء
أحيت بزورتها النفوسَ وطالما
ضنّت بها فقضت على الأحياء
أمّت بليلٍ والنجوم كأنها
درٌّ بباطن خيمةٍ زرقاء
أمست تعاطيني المدام وبيننا
عتبٌ غنيت به عن الصهباء
آبت إلى جسدي لتنظر ما انتهت
من بعدها فيه يد البرحاء

ألفت به وقع الصفاح فراعها
جزعاً وما نظرت جراح حشائي[1]
أمصيبةٌ منّا بنبل لحاظها
ما أخطأته أسنّةُ الأعداء
أعجبتِ ممّا قد رأيت وفي الحشا
أضعاف ما عاينت في الأعضاء
أمسي ولست بسالم من طعنةٍ
نجلاء أو من مقلة نجلاء

وله رحمه الله تعالى:

قفي ودعينا قبل وشكِ التفرّق
فما أنا من يحيا إلى حين نلتقي
قضيت وما أودى الحمام بمهجتي
وشبت وما حلّ البياض بمفرقي
قنعت أنا بالذل في مذهب الهوى
ولم تفرقي بين المنعّم والشقي
قرنت الرضا بالسخط والقرب بالنوى
ومزّقت شمل الوصل كلّ ممزّق
قبلتِ وصايا الهجر من غير ناصح
وأحببت قول الهجر من غير مشفق
قطعت زماني بالصدود وزرتني
عشية زمّتْ للترحل أينقي[2]
قضى الدهر بالتفريق فاصطبري له
ولا تذممي أفعاله وترفقي

وقال عفا الله عنه:

جاءت لتنظر ما أبقت من النهج
فعطّرت سائر الأرجاء بالأرجِ[3]
جَلَت علينا محيًا لَوْ جَلَتْهُ لنا
في ظلمة الليل أغنتنا عن السُرُج[4]
حوريّة الخد تحمي ورد وجنتها
بحارسٍ من نبال الغنج والدّعج
جزت إساءة أفعالي بمغفرة
فكان غفرانها يُغني عن الحجج

---

(١) شيمته: خصلته وعادته.
(٢) المدارع: ج مدرع وهو الثوب الذي يغطي الجسم.

(١) الصفاح: السيوف العريضة النّصال.
(٢) زمّت: تهيأت وتجمعت، أينقي: نياقي.
(٣) الأرج: الرائحة الطيبة.
(٤) جلت: أظهرت.

جادت لعرفانها أنّي المريض بها
فما عليّ إذا أذنبت من حرج
جسّت يدي لترى ما بي فقلت لها
كفّي فذاك جوى لولاك لم يهج[1]
جفوتني فرأيت الصبر أجمل بي
والصمت في الحب أولى من اللهج
جارت لحاظك فينا غير راحمةٍ
ولذّة الحب جورُ الناظر الغنج

وقال ابن نباتة:

رقّت لنا حين همّ السّفرُ بالسّفَرِ
وأقبلت في الدُّجى تسعى على حذر[2]
راض الهوى قلبها القاسي فجادلنا
وكان أبخل من تموزَ بالمطر[3]
رأت غداة النوى نار الكليم وقد
شبّت فلم تبق من قلبي ولم تذرِ
رشيقةٌ لو تراها عندما سفرت
والبدر ساهٍ إليها سهو معتذر
رأيت بدرين من وجهٍ ومن قمرٍ
في ظل جنحين من ليلٍ ومن شعر
رشفت درّ الحميّا من مقبّلها
إذ نبّهتني إليها نسمة السَّحر
رنت نجوم الدجى نحوي فما نظرت
من يرشف الراح قبلي من فم القمر
راق العتاب وأبدتْ لي سرائرها
في ليلة الوصل بل في غرّة القمر

وقال ابن الساعاتي:

قبّلتها ورشفت خمرة ريقها
فوجدت نار صبابةٍ في كوثر
ودخلت جنّة وجهها فأباحني
رضوانها المرجوّ شرب المسكر

وقال آخر:

بَكَتْ للفراق وقد راعها
بكاء المحب لبعد الدِّيَارِ
كأنَّ الدموعَ على خدِّها
بقية طل على جلّنارِ

الوأواء الدمشقي تضمين:

قالت متى الظعن يا هذا فقلت لها
إمّا غداً زعموا أو لا فبعد غد
فأمطرت لؤلؤاً من نرجسٍ وسقت
ورداً وعضّت على العنّاب بالبرد

لابن نباتة:

عذولي لست أسمع منه قولاً
على غيداء مثل البدر تمّا
له طرفٌ ضريرٌ عن سناها
ولي أذنٌ عن الفحشاء صَمّا

وقال آخر:

وربّ ليالٍ في هواها سهرتها
أراعي نجوم الليل فيها إلى الفجر
حديثي عالٍ في السّهاد لأنني
رويت أحاديث السهاد عن الزّهر

السّرّاجُ الوَرّاقُ:

يا لائمي في هواها
أسرفت في اللوم جهلا
ما يعلم الشوق إلاَّ
ولا الصبابة إلاَّ

وقال آخر:

وعدتْ أن تزور ليلاً فألوت
وأتت في النهار تسحب ذيلا
قلت هلاً صدقت في الوعد قالت
كيف صدّقت أن ترى الشمس ليلا

لعز الدين الموصلي:

قد سلونا عن الغزال بخودٍ
ذات وجه بها الجمال تفنن
ورجعنا عن التهتك فيه
ودفعناه بالتي هي أحسن

وقال آخر:

قالت وناولتها سِوَاكا
شادَ بفيها على الأراكِ
سواي ما ذاق طعم ريقي
قلت لها ذاقه سواكي

---

(١) جَسّت يدي: أي جست نبضه لترى سرعته كدليل على حبه وانفعاله.

(٢) السّفْرُ: المسافرون.

(٣) رَاضَ: رَوض.

وقال آخر:

سألتها أن تعيد لفظاً
قالت محبٌ دعوه يعذر
حديثها سكر شهيٌّ
وأحسن السكر المكرّر

ابن نباتة:

وملولةٍ في الحب لما أن رأت
أثر السقام بجسمي المنهاض[1]
قالت تغيّرنا فقلت لها نعمْ
أنا بالسقام وأنت بالإعراض

وقال أبو الطيب المتنبي:

بأبي الشموس الجانحات غواربا
اللابسات من الحرير جلاببا
الناهبات عيوننا وقلوبنا
وجناتهنّ الناهبات الناهبا
الناعمات القاتلات المحييات
المبديات من الدلال غرائبا
حاولن تفديتي وخفن مراقباً
فوضعن أيديهنّ فوق ترائبا
ويسمن عن بردٍ خشيت أذيبه
من حر أنفاسي فكنت الذائبا
يا حبّذا المتحمّلون وحبّذا
وادٍ لثمت به الغزالة كاعبا
كيف الرجاء من الخطوب تخلّصاً
من بعد أن أنشبن فيّ مخالبا

وله أيضاً من جملة قصيدة:

ولما التقينا والنوى ورقيبنا
غفولان عنّا ظلت أبكي وتبسمُ
فلم أر بدراً ضاحكاً قبل وجهها
ولم تر قبلي ميّتاً يتكلمُ

الشريف الرضي:

وتميس بين مزعفرٍ ومعصفرٍ[2]
ومعنبرٍ وممسّك ومصندلٍ[3]

هيفاء إن قال الشباب لها انهضي
قالت روادفها أقعدي وتمهلي
وإذا سألت الوصل قال جمالها
جودي وقال دلالها لا تفعلي

ابن اسرائيل:

وعدتْ بوصلٍ والزمان مُسَوّفُ
حوراءُ ناظرها حسامٌ مرهفُ
نشوانةٌ خصباء منهل ثغرها
وَرْدٌ وريقتها سلافٌ قرقف
وتخال بين البدر منها والنقا
غصناً يميس به النسيم مهفهف
لا تحسبن الخلف شيمة مثلها
وعدت ولكنّ الزّمانَ يسوّفُ
يا بانةً قد أطلعت أغصانها
ورداً جنيّاً باللواحظ يقطف
وغزالةٌ بحكي الغزالة وجهها
ويعير ناظرها الحسام الأوطف
ما تأمرين لمغرم تسطو به
أجفانك المرضى ولا تستعطف
قسماً بوجهك وهو صبحٌ مشرقٌ
وسواد شعرك وهو ليلٌ مسدفٌ[1]
ويهز غصن البان منك على النقا
مالي إلى أحدٍ سواك تشوّف[2]

ولنذكر إن شاء الله تعالى في هذا الباب نبذة من ملح النظم ورقائق الشعر من غير تبويب ولا ترتيب.

للشيخ شمس الدين بن الريدي:

ولما نأت سلمى وشطّ بها النوى
وأيقنت أنّي بالغرام أذوبُ
علقتُ بأخرى غيرها متلاهياً
ليُطفي ضرامٌ في الحشا ولهيب
وكان هيامي والهوى وصبابتي
لمن هو في الأولى إليّ حبيب

---

(١) الذي أسرع إليه السقام وأمرضه فصار غير قادر على النهوض.

(٢) معصفر ومزعفر: ثوب مصبوغ بالعصفر الأصفر أو الزعفران وهو يجعل لون الثوب برتقالياً.

(٣) المعنبر: المعطر بالعنبر أو زيت العنبر الممسّك: المُجَمّرُ بالمسك، أي يجعل المسك فوق الجمر والثوب فوق دخان المسك والمصندل: المجمر ببخور الصندل وهو خشب شجر الصندل أو معطر بزيت الصندل.

(١) ليل مسدف: ليل شديد الظلمة.

(٢) تشوّفٌ: تطلّعٌ.

وله في المعنى:

تلاهيت عنها في الغرام بغيرها
وقلت لقلبي هذه هيَ زينبُ

وقبّلت فاهاً مبرداً لصبابتي
فأضرمت ناراً في الحشا تتلهّب

فكنت كمن هو ذا غريقاً بلجةٍ
تمسّك بالموج الذي يتقلّب

وقال أيضاً:

سألت القلبَ هل ميْلي لليلى
وهل عند الفؤاد لها التفات

فقال الآن لا لكنْ تأنّى
فقلت الحبّ فيه تقلّبُات

فإنّ الحبّ يهجم بعد يأسٍ
ويعتاد المحبّ تغيّراتُ

فلا تظهر لها يوماً سلوّاً
فتفضحك التصابي الواردات

وتُرمى بالصدود وبالتجنّي
وتنحلك الوعود الكاذبات

فكن جلِداً ولا تك ذا لجاج
فما يغنيك أنْ فات الفواتُ

وقال البيطار:

يقولون هذي أمّ عمروٍ قريبةٌ
دنت بك أرضٌ نحوها وسماء

ألا إنّما قرب الحبيب وبعده
إذا هو لم يوصل إليه سواء

وقال غيره:

وقالوا بغ حبيبك وابغ عنه
حبيباً آخراً تحيا سعيداً

إذا كان القديم هو المصافي
وخان فكيف آتمن الجديدا

وقال آخر:

لم أنس إذ قلت من وجدي لها غلطاً
ووجهها مشرق في حندس الظلم

سلوت عنك فقالت وهي ضاحكة
لتقرعنّ عليّ السنّ من ندم

وقال آخر:

أمِنَ المروءة أن أبيت مسهّداً
قلقاً أبلُّ ملابسي بدموعي

وتبيت ريّان الجفون من الكرى
وأبيت منك بليلةِ الملسوع

وقال آخر:

إلى الله أشكو جور أهيف شادِنٍ
وقعت فما لي من يديه خلاص

جرحت بعيني خدَّه وهو جارح
بعينيه قلبي والجروح قصاص

وقال آخر:

قد كنت أسمع بالهوى فأكذّب
وأرى المحبّ وما يقول فأعجب

حتى رميت بحلوه وبمره
من كان يتهم الهوى فيجرّب

وقال آخر:

سألتها التقبيل من خدّها
عشراً وما زاد يكون احتساب

فمذ تلاقينا وقبلتها
غلطت في العدّ وضاع الحساب

وقال آخر:

يا من سقامي من سقام جفونه
وسواد حظي من سواد عيونه

قد كنت لا أرضى الوصال وفوقه
واليوم أقنع بالخيال ودونه

وقال آخر:

صبّحته عند المساء فقال لي
تهزي بقدري أو تريد مزاحا

فأجبته إشراق وجهك غرّني
حتّى توهّمت المساء صباحا

أبو عبد الله الغواص:

من عذيري من عذولٍ في رشا
قامَرَ القلبُ هواه فقمر

قمر لم يبقِ مني حسنه
وهواه غير مقلوبٍ قمر

وقال آخر:

جاذبتها والريح تجذب برقعاً
من فوق خد مثل قلب العقرب

وطفقت ألثم ثغرها فتحجَّبت
وتسترت عني بقلب العقرب

وقال آخر:

ولو متُّ من كثرة الأشواق وانبدلت
مدامعي بدم من كثرة السهر
ما اخترت عنك سلواً لا ولا نظرت
عيني لغير محيًا وجهك القمر

إبراهيم بن العباس:

تمر الصبًا صفحاً بساكن ذي الغضى
ويسرع قلبي إذ يهبّ هبوبها
قريبة عهدٍ بالحبيب وإنّما
هوى كل نفسٍ أين حلّ حبيبها

وقال النوفلي:

إذا اختلجت عيني رأت من تحبُّه
فدام لعيني ما حييت اختلاجها
وما ذقت كأساً مذ علقت بحبها
فأشربه إلاّ ودمعي مزاجها

وقال آخر رحمه الله تعالى:

يا ذا الذي زار وما زارا
كأنه مقتبس نارا
قام بباب الدار من تيهه
ما ضرّه لو دخل الدارا

وقال آخر:

ولقد جعلتك في الفؤاد محدّثي
وأبحت منّي ظاهري لجليسي
فالكل مني للجليس مؤانس
وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

ابن نباتة:

أناشده الرحمن في جمع شملنا
فيقسم هذا لا يكون إلى الحشر
إذا ما غدا مثل الحديد فؤاده
فوالعصر إنّ العاشقين لفي خسر(١)

أمين الدين بن أبي الوفاء:

يا نازلاً منّي فؤاداً راحلا
ومن العجائب نازلاً في راحل
أضرمت قلب متيّم أهلكته
وسكنته والنار مثوى القاتلِ

وقال آخر:

يا عاذلي في هواه
إذا بدا كيف أسلو
يمرُّ بي كلّ وقتٍ
وكلّما مرّ يحلو

الحاجبي:

ملأت فؤادي من محبة فاتنٍ
أميل إليه وهو كالظبي رائغ
وقلت لقلبي قم لتعشق شادناً
سواه فقال القلب ما أنا فارغ

وقال ديك الجن:

ولي كبد حرّى ونفس كأنّها
بكفّ عدو ما يريد سراحها
كأنّ على قلبي قطاة تذكرت
على ظمإٍ ورداً فهزّت جناحها

وقال عبد الله بن طاهر:

أقامَ ببلدة ورحلت عنه
كلانا بعد صاحبه غريب
أقلُّ الناس في الدنيا سروراً
محبٌّ قد نأى عنه الحبيب

وقال آخر:

ما اخترت ترك وداعكم يوم النوى
والله لا مللاً ولا لتجنّبِ
لكن خشيت بأن أموت صبابة
فيقال أنت قتلته فتقاد بي(١)

وقال ابن المعتز:

هبْ لعيني رقادها
وانف عنها سهادها
وارحم المقلة التي
كنت فيها سوادها

---

(١) هذا ترصيع وتضمين لقوله تعالى: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر﴾.

(١) تقاد بي: تقتل بي قَوَداً.

كـن صـلاحـاً لـهـا كـمـا
كـنـت دهـراً فـسـادهـا

وقال آخر:

وقـالـوا دع مـراقـبـة الـثـريّـا
ونـم فـالـلـيـل مـسـعـود الـجـنـاح
فـقـلـت وهـل أفـاق الـقـلـب حـتـى
أفـرق بـيـن لـيـلـي والـصّـبـاح

وقال آخر:

ولـي فـؤاد إذا طـال الـنـزاع بـه
طـار اشـتـيـاقـاً إلـى لـقـيـا مـعـذبـه
يفديك بالنفس صبٌّ لو يكون له
أعـزّ مـن نـفـسـه شـيءٌ فـداك بـه

وقال آخر:

وما هجرتك النفسَ يا ميُّ إنها
قـلـتـكِ ولا أن قـلّ مـنـك نـصـيـبـهـا
ولكنهم يا أحسن الناس أولعوا
بـقـولٍ إذا مـا جـئـت هـذا حـبـيـبـهـا

وقال المحاربي:

إذا أنت لم توقن بما صنع الهوى
بأهل الهوى فافقد حبيباً وجَرّبِ
ترى حرقاتٍ يلدغ القلب حرّها
بأنضجَ من كي الغضى المتلهّب

وقال الأقرع بن معاذ:

أقـول لـمـفـتٍ ذات يـوم لـقـيـتـه
بـمـكـة والأنـضـاء مـلـقـى رحـالـهـا[1]
بحقّك أخبرني أما تأثم التي
أضـرّ بـجـسـمـي مـنـذ مـرّ خـيـالـهـا
فـقـال بـلـى والله أو سـيـصـيـبـهـا
مـن الله بـلـوى فـي الـزمـان تـنـالـهـا
فقلت ولم أملك سوابق عبرةٍ
سريع على جيب القميص انهمالها
عـفـا الله عـنـهـا كـلّ ذنـبٍ ولُـقّـيـت
مـنـاهـا وإن كـانـت قـلـيـلاً نـوالـهـا

(١) الأنضاء: دواب الركوب التي أنضاها أي أتعبها وأهزلها السفر.

وقال آخر:

بـالله ربـكـمـا عُـوَجـا عـلـى سـكـنـي
عـاتـبـاه لـعـلّ الـعـتـب يـعـطـفـه[1]
وَعَرِّضَا بي وقولاً في حديثكما
مـا ضـرّ لـو بـوصـالٍ مـنـك تـسـعـفـه
فـإن تـبـسّـم قـولا عـن مـلاطـفـةٍ
مـا بـال عـبـدك بـالـهـجـران تـتـلـفـه
وإن بـدا لـكـمـا مـن سـيـدي غـضـب
فـغـالـطـاه وقـولا لـيـس نـعـرفـه

وقال عبد الله بن أبي الشيص:

ومـعـرضـة تـظـنُّ الـهـجـر فـرضـاً
تـخـال لـحـاظـهـا لـلـضـعـف مـرضـى
كـأنـي قـد قـتـلـت لـهـا قـتـيـلاً
فـمـا مـنّـي بـغـيـر الـهـجـر تـرضـى

وقال الحسين بن الضحاك:

بـعـضـي بـنـار الـهـجـر مـات حـريـقـاً
والـبـعـض أضـحـى بـالـدمـوع غـريـقـا
لـم يـشـك عـشـقـاً عـاشـقٌ فـسـمـعـتـه
إلاّ ظـنـنـتـك ذلـك الـمـعـشـوقـا

وقال آخر:

وأجـيـل فـكـري فـي هـوا
ك بـلا لـسـان نـاطـقِ
أدعـو عـلـيـك بـحـرقـة
مـن غـيـر قـلـب صـادقِ

وقال آخر:

يـا ويـح مـن خَـبَـلَ الأحـبـة قـلـبـه
حـتـى إذا ظـفـروا بـه قـتـلـوه[2]
عـزّوا ومـال بـه الـهـوى فـأذلـه
إنّ الـعـزيـز عـلـى الـذلـيـل يـتـيـه
أنـظـر إلـى جـسـدٍ أضـرّ بـه الـهـوى
لـولا تـقـلّـب طـرفـه دفـنـوه
من كان خلواً من تباريح الهوى
فـأنـا الـهـوى وحـلـيـفـه وأخـوه

(١) عوجا على سكني: مُرّا به.
(٢) خبل الأحبة قلبه: أفسدوا عقله وأذهبوا قلبه.

وقال أحمد بن طاهر:

تقول العاذلات تسلّ عنها
وداوِ عليل صبرك بالسلو
فكيف ونظرةٌ منها اختلاساً
ألذ من الشماتة بالعدو

وقال إسحاق مولى المهلب:

هبيني يا معذبتي أساتُ
وبالهجران قبلكُمُ بداتُ
فأين الفضل منك فدتك نفسي
عليَّ إذا أسأتِ كما أساتُ

وقال أبو العتاهية:

يقول أناسٌ لو نعتّ لنا الهوى
ووالله ما أدري لهم كيف أنعتُ(١)
سقامٌ على جسمي كثيرٌ موسعٌ
ونومٌ على عيني قليل مفوّت
إذا اشتدّ ما بي كان أفضل حيلتي
له وضع كفي فوق خدي وأسكت

وقال بشار:

يا قرّة العين إني لا أسميكِ
أكني بأخرى أسمّيها واعنيكِ
أخشى عليك من الجارات حاسد
أو سهم غيران يرميني ويرميكِ
لولا الرقيبان إذ ودعت غادية
قبّلت فاك وقلت النفس تفديكِ
يا أطيب الناس ريقاً غير مختبرٍ
إلاّ شهادة أطراف المساويك
قد زرتنا مرّة في الدهر واحدة
بالله لا تجعليها بيضة الديك

وقال آخر:

ألم تعلمي يا أحسن الناس أنني
أحبُك حباً مستكناً وباديا
أحبّك ما لو كان بين قبائلٍ
من الناس أعداءً لجرّ التصافيا

وقال آخر:

أقول لشادنٍ في الحسن أضحى
يصيد بطرفه قلب الكمي
ملكت الحسن أجمع في نصابٍ
فأدّ زكاة منظرك البهيّ
وذاك بأن تجود لمستهام
برشفٍ من مقبّلك الشهيّ
فقال أبو حنيفة لي إمامٌ
يرى أن لا زكاة على الصبي

وقال آخر:

سقى الله ربعاً كنت أخلو بوجهكم
وثغر الهنا في روضة الحسن ضاحك
أقمنا زماناً والعيون قريرةٌ
وأصبحت يوماً والجفون سوافك

وقال آخر:

ألم تعلمي يا عذبة الماء أنني
أظلُّ إذا لم أُسقَ ماءك صاديا
وما زلت بي يا بينُ حتى لو أنني
من الوجد استبكي الحمام بكى ليا

أبو العباس الشهير بالنفيس:

يا راحلاً وجميل الصبر يتبعه
هل من سبيل إلى لقياك يتفقُ
ما أنصفتك جفوني وهي داميةٌ
ولا وفى لك قلبي وهو يحترقُ

الوزير ظهير الدين الملقب بأبي شجاع:

لأعذّبنّ العين غير مفكّرٍ
فيها بكت بالدمع أو فاضت دما
ولأهجرنّ من الرقاد لذيذهُ
حتى يعود على الجفون محرّما
هي أوقعتني في حبائل فتنةٍ
لو لم تكن نظرت لكنت مسلّما
سفكتْ دمي فلأسفحنّ دموعها
وهي التي بدأت فكانت أظلما

وقال العتبي:

أضحت بخدّي للدموع رسوم
أسفاً عليك وفي الفؤاد كلوم(١)

---

(١) نعت الهوى: وصفه.

(١) رسوم: آثار حفرتها الدموع لتكرار انسكابها وغزارته، كلوم: جِرَاحٌ.

والصبر يحمد في المواطن كلّها
إلاّ عليك فإنه مذموم

الرفاء الأندلسي:

ومهفهف كالغصن إلاّ أنه
تتحير الألباب عند لقائه
أضحى ينام وقد تكلّل خدّه
عرقاً فقلت الورد رُشّ بمائه

وقال آخر:

اخضرّ واصفرّ لاعتلالٍ
فصار كالنرجس المضعّف[1]
كأنّ نسرين وجنتيه
بشعر أصداغه مغلّف
يرشح منه الجبين ماءً
كأنّه لؤلؤ منضّف

وقال آخر:

ما زال ينهلُ من صرف الطلا قمري
حتى غدت وجنتاه البيضِ كالشفق
وقام يخطر والأرداف تُقعدهُ
طوراً وحاول أن يسعى فلم يطق
فعائلٌ فعلت فعل الشمول به
فعل النسيم بغصن البانة الوَرِق
جاذبته لعناقي فانثنى خجلا
وكلّلت وجنتاه الحمر بالعرق
وقال لي بفتورٍ من لواحظه
إنّ العناق حرامٌ قلت في عنقي

وقال آخر:

بأركان هذا البيت إنّي لطائفُ
وفي الكون أسرارٌ وفيه لطائف
رعى الله أياماً وناساً عهدتهم
جياداً ولكنّ الليالي صيارف
وبي ذهبيُّ اللون صيغ لمحنتي
يريد امتحاناتي وما أنا زائف
يذيب فؤاداً وهو لا غشّ عنده
فيا ذهبيّ اللون إنك خائف

(١) النرجس المضعف: نرجس مضاعف الأوراق ويسمى عندنا «المضعّف».

وقال آخر:

أسنى ليالي الدهر عنديَ ليلةٌ
لم أخلِ فيها الكاس من أعمالي
فرقت فيها بين جفني والكرى
وجمعت بين القرط والخلخال

ومما قيل في الرقباء:

لو أن لي في الحب أمراً نافذاً
وملكت بسط الأمر في التعذيب
لقطعت ألسنة العواذل كلّها
ولكنت أقلع عين كلّ رقيب

وقال أعرابي:

بسهم الحبِّ كِلَمٌ في فؤادي
ولا كالكلم من عين الرقيب
تمكّن ناظراه به وأضحى
مكان الكاتبين من الذنوب
ومن حذر الرقيب إذا التقينا
نسلّم كالغريب على الغريب
ولولاه تشاكينا جميعاً
كما يشكو المحبّ إلى الحبيب

وقال آخر:

من عاش في الدنيا بغير حبيبٍ
فحياته فيها حياة غريب
عين الرقيب غرقت في بحر العمى
لا أنت لا بل عين كلّ رقيب

وقال أحمد بن أبي سلمة:

يعذلني فيه جميع الورى
كأنّني جئت بأمرٍ عجيب
أظنّ نفسي لو تعشّقتها
بليت فيها بملام الرقيب
وأنا الغريب فلا ألام على البكا
إنّ البكا حسن بكلّ غريب

وقال آخر:

وما فارقت سعدى عن قلاها
ولكن شقوةٌ بلغت مداها
بكيت نعم بكيت كلُّ إلفٍ
إذا بانت حبيبته بكاها

وقال آخر:

وقائلة ما بال دمعك أبيض
فقلت لها يا علو هذا الذي بقي
ألم تعلمي أنَّ البكا طال عمره
فشابت دموعي عندما شاب مفرقي
وعمّا قليلٍ لا دموع ولا دماً
ولم يبق إلاَّ لوعتي وتحرّقي

وقال آخر:

ولم أر مثلي غار من طول ليله
عليه لأنَّ الليل يعشقه معي
وما زلت أبكي في دجى الليل صبوةً
من الوجد حتى ابيضَّ من فيض أدمعي

وقال آخر:

رجوت طيف خيالِ
وكيف لي بهجوع
والذاريات جفوني
والمرسلات دموعي(١)

وقال آخر:

يا نازح الطيف من نومي يعاودني
فقد بكيت لفرط النازحين دما
أوجبت غسلاً على عيني بأدمعها
فكيف وهي التي لم تبلغ الحلما

وقال آخر:

ارحم رحمت لوعتي
وابعث خيالك في الكرى
ودموع عيني لا تسلْ
عن حالها ياما جرى

وقال آخر:

أملت أن تتعطفوا بوصالكم
فرأيت من هجرانكم ما لا أرى
وعلمت أن فراقكم لا بدّ أن
يجري به دمعي دماً وكذا جرى

وقال آخر:

إنَّ عيني مذ غاب شخصك عنها
يأمر السهد في كراها وينهى
بدموعٍ كأنّهنّ الغوادي
لا تسل ما جرى على الخد منها

وقال آخر:

يقولون لي والدمع قرّح مقلتي
بنار أسىً من حبّة القلب تقدح
أدمعُكَ جمر قلت لا تتعجبوا
فكلُّ وعاءٍ بالذي فيه ينضح

وقال البدر الذهبي:

قالوا تباكى بالدموع وما بكى
بدمٍ على عيش تصرّم وانقضى
فأجبتهم هو من دمي لكنّه
لما تصاعد صار يقطر أبيضا

قال ابن مطروح في الغيرة:

ولو أمسى على تلفي مصرّاً
لقلت معذبي بالله زدني
ولا تسمح بوصلك لي فإني
أغار عليك منك فكيف منّي

وقال آخر:

أغار عليك من نظري ومنّي
ومنك ومن مكانك والزمانِ
ولو أنّي خَبَأتك في جفوني
إلى يوم القيامة ما كفاني

المظفر بن عمر الآمدي:

قولي لمن قد جفوني إذ لهجت بهمْ
دون الأنام وخير القول أصدقُهُ
أحبُكم وهلاكي في محبتّكم
كعابد النار يهواها وتحرقُهُ

وقال غيره:

لم أنسَ أيام الصبا والهوى
لله أيام النجا والنجاخ
ذاك زمان مرّ حلو الجنى
ظفرت فيه بحبيبٍ وراخ

الشريف الرضي:

علّلاني بذكركم واسقياني
وامزجا لي دمعي بكأسٍ دهاق(١)

---

(١) أي جفوني لا تغمض ولا تكف عن الحركة كأنها الرياح المرسلات ودموعي لا تكف عن الهطول.

(١) دهاق: مترعة.

وخذا النوم من جفوني فإني
قد خلعت الكرى على العشاق

وقال آخر:

قالوا أترقد مذ غبنا فقلت لهم
نعم وأشفق من دمعي على بصري
ما حقّ طرف هداني نحو حسنكم
أنّي أعذبه بالدمع والسهر

عز الدين الموصلي:

فَسُدَتْ لطول بعادكم أحلامنا
وعقولنا وجفا الجفون منامُ
والطيف قد وعد الجفون بزورةٍ
يا حبّذا إن صحّتِ الاحلام

ومما قيل في السهر وطول الليل ونحو ذلك:

قال الشاعر:

وربَّ ليلٍ سهرناه وقد طلعت
بقية البدر في أولى تسايره
كأنما أدهم الظلماء حين نجا
من أشهب الصبح ألقى نعل حافره(١)

وقال آخر:

ليل المحبين مطويٌّ جوانبه
مشمّرُ الذيل منسوب إلى القِصَرِ
ما ذاك إلاّ لأنّ الصبح نمّ بنا
فأطلع الشمس من غيظٍ على القمر

وقال غيره:

فلم أرَ مثل ليلِ ذوي التّصابي
وكلّ يشتكيه بكل حال
فيشكو طوله أهل التجافي
ويشكو قصره أهل الوصال

وقال آخر:

ليلي وليلى سواء في اختلافهما
قد صيّراني جميعاً في الهوى مثلا
يجود بالطول ليلي كلما بخلت
بالطول ليلى وإن جادت به بخلا

(١) الأدهم: الفرس الأسود.
والأشهب: الفرس الذي يغلب البياض على لونه.

وقال آخر:

إنّ الليالي للأنام مناهل
تطوى وتنشر بينها الأعمار(١)
فقصارهن مع الهموم طويلةٌ
وطوالهنّ مع السرور قصار

وقال غيره:

ربَّ ليلٍ لم أذق فيه الكرى
حظّ عيني فيه دمعٌ وسهرْ(٢)
كلما هيّج ليلي حرقي
صحت ياليل أما فيك سحرْ

وقال آخر:

يا ليل طِلْ أو لا تَطِلْ
لا بدّ لي من سهركْ
لو بات عندي قمري
ما بت أرعى قمرك

وقال بشار بن برد:

خليليّ ما بال الدُّجى لا يزحزح
وما بال ضوء الصبح لا يتوضَّحُ
أضلّ إليها المستنير طريقه
أم الدّهر ليلٌ كله ليس يبرح

وقال آخر:

كأنّ الثريا راحةٌ تشبر الدجى
ليعلم طال الليل أم قد تعرّضا
فليلٌ تراه بين شرقٍ ومغربٍ
يقاس بشبرٍ كيف يرجى له انقضا

وقال ابن منقذ:

لما رأيت النجم ساهٍ طرفه
والقطب قد ألقى عليه سباتا(٣)
وبنات نعشٍ في الحداد سوافرٌ(٤)
أيقنت أنّ صباحهم قد ماتا

(١) مناهل: ج منهل: وهو موضع شرب أو استقاء الماء.
(٢) الكرى: النوم.
(٣) السبات: النوم الطويل العميق.
(٤) بنات نعش: مجموعة من النجوم، سوافر: ج سافرة وهي التي تخرج بغير نقاب يستر وجهها.

وقال آخر في ليلة ممطرة:

أقـول والـلـيـل فـي امـتـدادِ
وأدمـع الـغـيـث فـي انـسـفـاح

أظـن لـيـلٌ بـغـيـر شـكٍ
قـد بـات يـبـكـي عـلـى الـصـبـاح

وقال أيضاً:

تـاب الـزمـان مـن الـذنـوب فـواتِ
واغـنـم لـذيـذ الـعـيـش قـبـل فـوات

تـمّ الـسـرور فـقـمْ يـا صـاحـبـي
نـسـتـدركُ الـمـاضـي بـنـهـب الآتـي

صفي الدين الحلي في عود:

وعُـودٍ بـه عـاد الـسـرور لأنـه
حوى اللهو قدماً وهو ريّان ناعم

يُـغـرّب فـي تـغـريـده فـكـأنـه
يـعـيـد لـنـا مـا لـقّـنـتـه الـحـمـائـم

وقال آخر في زامرة:

ونـاطـقـةٍ بـالـنـفـخ عـن روح بـهـا
تـعـبـر عـمّـا دونـنـا وتـتـرجـم

سكتنا وقالت للقلوب فاطربتْ
فـنـحـن سـكـوتٌ والـهـوى يـتـكـلـم

ومما قيل في فانوس لابن تميم:

أُنظرْ إلى الـفـانـوس تـلـقَ مـتـيّـمـاً
ذرفـتْ عـلـى فـقـد الـحـبـيـب دموعه

يـبـدو تـلـهُّـب جـسـمـه لـنـحـو لـه
وتُعَدُّ من تحت القميص ضلوعه

وقال لابن قزل:

وكأنـمـا الـفـانـوس في غسق الدجى
دنِـفٌ بـراه شـوقـه وسـهـاده

أضـلاعـه خـفـيـت ورقّ أديـمـهُ
وجـرت مـدامـعـه وذاب فـؤاده

ولبعضهم في شمعة:

حكتني وقد أودى بي السُقْم شمعة
وإن كـنـت صـبّـاً دونـهـا مـتـوجـعـا

ضـنـىً وسـهـاداً واصـفـراراً ورقّـة
وصـبـراً وصـمـتـاً واحـتـراقـاً وأدمـعـا

ومما قيل في الربيع والرياض والبساتين والمياه والنواعير ونحو ذلك.

قال الشاعر:

هـذا الـربـيـع وهـذه أزهـارُهُ
مـتـجـاوبٌ فـي أيـكـه أطـيـاره[1]

وبـدا الـبـنـفـسـج والـشـقـائـق مونقٌ
والـورد يـضـحـك بـيـنـهـا وبـهـاره

فاشرب على وجه الحبيب وغنّ لي
هـذا هـواك وهـذه آثـاره

وقال غيره:

غدونا على الروض الذي طلّه الندى
سحيراً وأوداج الأباريق تسفك[2]

فـلـم نـر شـيـئـاً كـان أحـسـن مـنـظـراً
من النَّورِ يجري دمعه وهو يضحك

وقال آخر:

أما ترى الأرض قد أعطتك زهرتها
بخضرةٍ واكتسى بالنَّوْر عاريها[3]

فـلـلـسـمـاء بـكـاة فـي جـوانـبـهـا
ولـلـربـيـع ابـتـسـامٌ فـي نـواحـيـهـا

وقال غيره:

إنّ الـسـمـاء إذا لـم تـبـك مـقـلـتـهـا
لم تضحك الأرض عن شيء من الزهر

والأرض لا تـنـجـلـي أنـوارهـا أبـداً
إلا إذا رمـدت مـن شـدّة الـمـطـر

وقال ابن قرناص:

أيـا حـسـنـهـا مـن ريـاضٍ غـدا
جـنـونـي فـنـونـاً بـأفـنـانـهـا

مـشـى الـمـاء فـيـهـا عـلـى رأسـه
لـتـقـبـيـل أقـدام أغـصـانـهـا

وقال آخر:

أنظر إلى الأغصان كيف تعانقتْ
وتـفـارقـتْ بـعـد الـتـعـانـق رُجّـعـا

---

(١) الأيك: الشجر الملتف الأغصان.

(٢) الأوداج: عروق الرقبة، وسفك أوداج الأباريق: سَكْبُ ما فيها.

(٣) النَّوْر: الزَّهر.

كالصبِّ حاول قبلةً من إلفه
فرأى المراقب فانثنى متوجّعا

وقال ابن تميم:

وحديقةٍ ينساب فيها جدولٌ
طرفي برونق حسنها مدهوشُ
يبدو خيال غصونها في مائه
فكأنما هو معصمٌ منقوشُ

وقال أيضاً عفا الله عنه:

لمَ لا أهيم إن الرياض وحسنها
وأظلُّ منها تحت ظل صافي
والزهر حيَّاني بثغرٍ باسم
والماء وافاني بقلبٍ صافي

وقال آخر:

قد سعينا نبغي زيارة دوحٍ
قد حبانا باللطف والإكرامِ
ناولتنا أيدي الغصون ثماراً
أخرجتها لنا من الأكمامِ

ومما قيل في الأزهار والثمار.

قال بعضهم في الورد:

يا راقداً ونسيمُ الصبح منتبهٌ
في روضة القصف والأطيار تنتحب
الورد ضيفٌ فلا تجهل كرامته
فهاتها قهوةً في الكاس تلتهب
سقياً له زائراً تحيا النفوس به
يجود بالوصل شهراً ثم يحتجب

وقال بعضهم:

ولقد رأيت الورد يلطم خدّه
ويقول وهو على البنفسج يحنقُ
لا تقربوه وإنْ تضوع نشرُهُ
من بينكم فهو العدوُّ الأزرق

ومما قيل في البنفسج.

قال ابن المعتز:

ولازورديةٍ وافتْ بزورتها
بين الرياض على زرق اليواقيت
كأنما فوق طاقاتٍ ضُعفن بها
أوائل النار في أطراف كبريت

وقال آخر:

إشربْ على زهر البنفسج قهوةً
تهدي السرور لكلّ صب مكمد
فكأنه قرصٌ بِخَدِّ مهفهفٍ
أو أعينِ زرقٍ كحلن بأثمد

ولبعضهم في الورد:

للورد فضل على زهر الربيع سوى
أنَّ البنفسج أزكى منه في المهج
كأنه وعيون الناس ترمقه
آثار قرصٍ يدٍ في خدِّ ذي غنج

وقال آخر:

يا مهدياً لي بنفسجاً أرِجاً
يرتاح صدري له وينشرح
بشّرتني عاجلاً مصحَّفة
بأنَّ ضيق الأمور ينفسح

وقال غيره في النرجس:

وقُضب زمرُّدٍ تعلو عليها
عيونٌ لم تذق طعم الغماض
توهّمت الغمام لها رقيباً
فنكّست الرؤوس إلى الرياض

قال آخر فيه:

أنت يا نرجس روضٌ
لزهورِ الأرض ستّ
ودليل القول فيك
أنَّ أوراقك ستّ

وقال آخر:

أقول وطرف النرجس الغصن شاخص
إليَّ وللنمّام حوليَّ إلمام
أيا رب حتى في الحدائق أعينٌ
علينا وحتى في الرياحين نمّام

وقال أيضاً فيه:

لما تمادى الورد في زهوه
وراح من إعجابه يرأس
تلوّن المنثور مما به
واصفرّ من غيظٍ به النرجس

ومما قيل في الليتوفر لابن المعز المصري:

وبركةٍ تزهو بلينوفرٍ
نسيمه يشبه نشر الحبيب[1]

---

(١) النشر: الرائحة الطيبة.

مـفـتّـحُ الأجـفـان فـي نـومـه
حتى إذا الشمس دنت للمغيب
أطـبـق جـفـنـيـه عـلـى خـدّه
وغاص في البركة خوف الرقيب[1]

وقال تميم بن المعز المصري:

رأيـت فـي الـبـركـة لـيـنـوفـر
فـقـلـت مـا شـأنـك وسـط الـبـرك
فـقـال لـي غـرقـت فـي أدمـعـي
وصـادنـي ظـبـيُ الـفـلا بـالـشّـرك
فـقـلـت مـا بـال اصـفـرار بـدا
فـيـك ومـا هـذا الـذي غـيّـرك
فـقـال لـي ألـوان أهـل الـهـوى
صـفـرٌ ولـو ذقـت الـهـوى صـفّـرك

ومما قيل في البان:

قـد أقـبـل الـصـيـف وولّـى الـشـتـا
وعـن قـلـيـلٍ تـسـأم الـحـرّا
أمـا تـرى الـبـان بـأغـصـانـه
قـد قـلـب الـفـرو إلـيّ تـبـرا

وقال آخر فيه:

أو ما ترى البان الذي يزهو على
كـل الـغـصـون بـقـده الـمـيّـاس
وافـى يـبـشّـر بـالـربـيـع وقـربـه
يـخـتـال في الـسـنـجـاب والـبـرطـاس

وقال في الشقيق:

حـيـيـتـه بـشـقـائـق فـي مـجـلـسٍ
ورأى الـرقـيـب فـشـق ذاك عـلـيـه
فـاحـمـرّ مـن خـجـلٍ فـأنـبـت خـدّه
أضـعـافَ مـا حـمـلـت يـداي إلـيـه

وقال آخر:

لـو لـم أعـانـق مـن أحـبّ بـروضـة
أحـداقُ نـرجـسـهـا إلـيـنـا تـنـظـر
ما انشق جيبُ شقيقها حسداً ولا
بـات الـنـسـيـم بـذيـلـه يـتـعـثـر

وقيل أن ابن الرومي زار قبر أخيه يوماً فوجد الشقائق قد نبتت على قبره فأنشد يقول:

قـالـت شـقـائـق قـبـره
ولـربّ أخـرس نـاطـقُ
فـارقـتـه ولـزمـتـه
فـأنـا الـشـقـيـقُ الـصـادقُ

وممّا قيل في المنثور:

تـخـال مـنـثـورهـا في الـدوح مـنـتـشـراً
كـأنـمـا صـيـغ مـن در وعـقـيـانِ
والطير ينشد في أغصانه سحراً
هـذا هـو الـعـيـش إلاّ أنـه فـانـي

وقال آخر:

قـد أقـبـل الـمـنـثـور يـا سـيـدي
كـالـدرّ والـيـاقـوت فـي نـظـمـه
ثـنـاك لا زال كـأنـفـاسـه
ومـخّ مـن يـشـنـاك مـثـل اسـمـه[1]

ولبعضهم فيه:

ولـقـد خـلـوت مـع الأحـبّـة مـرّةً
فـي روضـةٍ لـلـزهـر فـيـهـا مـعـرك
مـا بـيـن مـنـثـورٍ أقـام ونـرجـسٍ
مـع أقـحـوانٍ وصـفـه لا يـدرك
هـذا يـشـيـر بـأصـبـعٍ وعـيـون ذا
تـرنـو إلـيـه وثـغـر هـذا يـضـحـك

ومما قيل في الياسمين:

والأرض تـبـسـم عـن ثـغـور ريـاضـهـا
والأفـق يـسـفـر تـارةً ويـقـطّـب
وكـأنّ مـخـضـرّ الـريـاض مـلاءة
والـيـاسـمـيـن لـهـا طـراز مـذهـب

وقال آخر:

رأيـت الـفـال بـشّـرنـي بـخـيـرٍ
وقـد أهـدى إلـيّ الـيـاسـمـيـن
فـلا تـحـزنْ فـإنّ الـحـزن شـيـن
ولا تـيـأسْ فـإن الـيـأس مَـيْـن[2]

ومما قيل في السوسن للأخطل الأهوازي:

---

(١) لأن الليئوفر يطبق أوراقه عند غياب الشمس.

(١) يشناك: يشنأك: يكرهك ويَذُمُّكَ.
(٢) شين: عار، ومين: كذب.

سقياً لأرضٍ إذا ما نمتُ نبّهني
بعد الهدوّ بها قرع النواقيس
كأنّ سوسنها في كلّ شارقةٍ
على الميادين أذناب الطواويس

ومما قيل في الأقحوان لعبد القادر بن مهنا المغربي:

أفدي الذي زارني سرّاً فأتحفني
باقحوانٍ يُحاكي ثغر مبتسم
فبتُّ من فرحي أفني مقبله
لثماً وأرشف من ريقٍ له شبم[1]

ولبعضهم فيه:

إنّ فاه ثغر الأقاحي في تشبُّهه
بثغر حبّك واستولى به الطرب
فقل له عندما يحكيه مبتسماً
لقد حكيت ولكنْ فاتك الشنب

ومما قيل في الجلنار:

وجلنار مشرق
على أعالي شجره
كأنه في غصنه
أحمره وأصفره
قراضة من ذهبٍ
في خرقةٍ معصفره

ومما قيل في الآس:

أهديت مشبه قدّك المياس
غصناً نضيراً ناعماً من آس
فكأنما يحكيك في حركاته
وكأنما تحكيه في الأنفاس

ومما قيل في الريحان:

وغصن من الريحان أخضر ناضرٍ
نما بين غصني نرجسٍ وشقائقِ
يريك إذا كفُّ الصّبا عبثت به
شمائل معشوقٍ وذلة عاشقٍ

وقال آخر:

قضيب من الريحان شاكل لونه
إذا ما بدا للعين لون الزبرجد
فشبّهته لما بدا متجعّداً
عذار تبدّى في سوالف أغيد

ومما قيل في الفواكه والثمار على اختلافهما:

في الأترج[1] قال ابن الرومي:

كلُّ الخلال التي فيكم محاسنكم
تشابهت منكم الأخلاق والخلق
كأنكم شجرُ الأُترجِ طاب معاً
حملاً ونشراً وطاب العود والورق

ولبعضهم فيه:

حيّاك من تهوى بأترجةٍ
ناعمةٍ مقدودةٍ غضّة
فجلدها من ذهبٍ أصفرٍ
وجسمها الناعم من فضّة

وقال آخر:

يا حبذا أترجةٌ
تحدث للنفس الطربْ
كأنها كافورةٌ
لها غشاءٌ من ذهبْ

في الليمون.

قول أبي الحسن رئيس الرؤساء:

يا حسنَ ليمونةٍ حيّا بها قمر
حلو المقبّل ألمى بارد الشنب[2]
كأنها أكرة من فضّة خرطتْ
واستودعوها غلافاً صيغ من ذهب

وفيه أيضاً:

أما ترى الليمون في
غصنٍ من الزبرجد
كأكرة[3] من فضةٍ
مملوءة من عسجد

في النارنج.

---

(١) شبم: بارد.

(١) الأترج: الكُبّاد ويسمى عندنا نقلاً عن اسمه الأجنبي «بوملي» ويسمى في بعض البلاد «السندي» وهو أشبه شكلاً «بالكريب فروت».
(٢) ألمى: طيب الريق.
الشنب: أبيض الثغر بارد الريق.
(٣) الأكرة: كرة لها طرف تمسك منه كأكرة الباب أو الصولجان.

لعبدالله بن المعتز:

نظرت إلى نارنجةٍ في يمينه
كجمرة نارٍ وهي باردة اللمس
فقربها من خدّه فتألفت
فشبّهتها المريخ في دارة الشمس

وقال آخر:

ونارنجةٍ بين الرياض نظرتها
على غصنٍ رطبٍ كقامة أغيد
إذا ميّلتها الريح مالت كأكرةٍ
بدت ذهباً في صولجان زبرجد

وقال آخر:

ونارنجٍ يلوح على غصونٍ
ومنه ما نرى كالصولجان
أشبّهها ثُديّاً ناهداتٍ
غلائلها صبغن بزعفران

وقال آخر:

وأشجارِ نارنجٍ كأنّ ثمارها
حُقاقُ عقيقٍ قد مُلئن من الدر[1]
نطالعها بين الغصون كأنّها
قدود عذارى في ملاحفها الخضر
أتت كلَّ مشتاقٍ بِرَيّا حبيبه
فهاجت له الأشجان من حيث لا يدري

في التفاح.

لبعضهم:

ولما بدا التفاح أحمر مشرقاً
دعوت بكاسي وهي ملأى من الشفق
وقلت لساقيها أدرها فعندنا
خدود الأغاني قد جمعن على طبق

وقال آخر في تفاحة:

وتفاحة من سندسٍ صيغ نصفُها
ومن جلنّارٍ نصفُها وشقائق
كأن الهوى قد ضمّ من بعد فرقة
بها خدّ معشوق إلى خدّ عاشق

ولبعضهم فيه:

تفاحة كُسيت لونين خلتُهما
خدي محب ومحبوب قد التصقا
تعانقا فبدا واشٍ فراعهما
فاحمرّ ذا خجلاً واصفرّ ذا فرقا[1]

وقال آخر:

وتفاحةٍ ورديةٍ ذهبيةٍ
تُجلِي عن المهموم ليلَ همومه
كأنّ سلاف الخمر روّى أديمها
بخمرٍ فجاءت باحمرار أديمه
تذكرني شكلَ الحبيب وحسنه
وتوريد خدّيه وطيبَ نسيمه

وقال آخر:

حمرة التفاح في خضرته
أشبه الألوان من قوس قزحْ
فعلى التفاح فاشرب قهوةً
واسقنيها بنشاطٍ وفرح

وفيه أيضاً:

أهدى لنا التفاح من كفّه
من لم يزل يجنبه من خدّه
وخطّ بالمسك على بعضها
قد عطف المولى على عبده

وقيل في السفرجل:

حاز السفرجل لذات الورى فغدا
على الفواكه بالتفضيل مشهورا
كالراحِ طعماً وشمّ المسك رائحة
والتبر لوناً وشكل البدر تدويرا

وقال آخر:

سفرجلة صفراء تحكي بلونها
محياً شجاه للحبيب فراقُ
إذا شمّها المشتاق شبه ريحها
بريح حبيبٍ لذّ منه عناقُ
وطيّبةٍ عند المذاق فطعمها
كريق حبيبٍ طاب منه مذاقُ

وقال آخر:

---

(١) حقاق: ج حق، وعاء أو كيس توضع فيه الجواهر أو الطيب.

(١) راعه الشيء: أخافه، الفَرَق: الفَزَعُ والخوف الشديد.

سفرجلة جمعت أربعاً
فكان لها كلُّ معنىً عجيب
صفار النضار وطعم العقار
ولون المحبِّ وريح الحبيب

وقيل في الكمثرى:

وكُمثرى لذيذ الطعم حلو
شهي جاء من دوح الجنان
مناقير الطيور إذا اقتطلنا
مغبرة بلون الزعفران

ابن برغش متغزلا:

وكمثرى سباني منه طعم
كطعم الشهد شيبَ بماء ورد[1]
لذيذٌ خلقه لما أتانا
نهود السمر في معنىً وقدٌ

وما قيل في المشمش:

بدا مشمش الأشجار يذكو شهابه
على غصن أغصان من الروض مُيّد[2]
حكى وحكت أشجاره في اخضراره
جلاجلَ تبرٍ في قباب زبرجد[3]

ما قيل في الإجاص:

أنظر إلى شجر الإجاص قد حملت
أغصانه ثمراً ناهيك من ثمر
تراه في أخضر الأوراق مستتراً
كما اختبى الزنج في خضر من الأزر

ما قيل في الخوخ:

أهدى إليَّ الصديق خوخاً
منظره منظر أنيق
من كل مخصوصة بحسن
معناه في مثلها دقيق
حمراء صفراء مستعير
بهجتها التبرُ والعقيق
كوجنة مسّها خلوق[4]
فزال عن بعضها الخلوق[5]

وما قيل في الفستق:

تفكرت في معنى الثمار فلم أجد
لها ثمراً يبدو بحسن مجرّدِ
سوى الفستق الرطب الجني فإنّه
زها بمعان زيّنت بتجرّد
غلالة مرجان على جسم فضّة
وأحشاء ياقوت وقلب زبرجدِ

ومما قيل في البندق:

ولقد شربت مع الحبيب مدامةً
حمراء صافيةً بغير مزاجِ
فتفضل الظبي البهيّ ببندق
شبّهته ببنادق من ساجِ
فكسرته فوجدت ثوباً أحمراً
قد لفّ فيه بنادق من عاج

ومما قيل في النبق:

وسدرة كلّ يوم
من حسنها في فنون
كأنما النبق فيها
وقد حلا في العيون
جلاجل من نضار
قد علقت في الغصون

ومما قيل في اللوز:

ومهدٍ إلينا لوزةً قد تضمّنت
لمبصرها قلبين فيها تلاصقا
كأنهما حُبّان فازا بخلوة
على رقبةٍ في مجلسٍ فتعانقا

في العنب لبعضهم:

هدية شرّفتنا من أخٍ ثقةٍ
نعم الهدية إذ وافتك من يده
نوعان من عِنَبٍ جاءا على طبقٍ
كأنّ طيبهما من طيب محتده
فأبيض العين يحكي لون أبيضه
وأسود العين يحكي لون أسوده

وقال في قصب السكر:

ورماح لغير طعنٍ وضربٍ
بل لأكلٍ ومصّ لب ورشف

---

(١) شِيبَ: مُزِجَ.
(٢) مُيّد: متمايلاتٍ.
(٣) جلاجل: ج جلجل وهو جرس صغير.
(٤) خلوق: مُهَذّبٌ.
(٥) الخلوق: طيب زيتي مُزِجَ بزعفران.

كملت في استوائها واستقامت
باعتدالٍ وحسنِ قدّ ولطفِ

ومما قيل في البطيخ الأصفر:

أتانا غلامٌ فاق حسناً على الورى
ببطيخةٍ صفراء في لون عاشق
فشبّهته بدراً يقد أهلةً
من الشمس ما بين النجوم ببارق

وقال آخر:

وبطيخةٍ وافى بها فوق كفّهِ
إلينا غلامٌ فاق كلّ غلام
فخيّل لي شمس الأصيل أهلةً
يقطّعها بالبرق بدر تمام

ومما قيل في البطيخ الأخضر:

وظبيٍ أتى في الكف منه بمديةٍ
وقد لاح في خدّيه شبه شقيقِ
فمال إلى بطيخةٍ ثم شقّها
وفرّقها ما بين كل صديق
فشبهتها لما بدت في أكفّهم
وقد علمت فيهم كؤوس رحيق
صفائح بلّورٍ بدت في زبرجدٍ
مرصعةٌ فيها فصوص عقيق

وقال آخر:

وبطيخةٍ خضراء في كفّ أغيدٍ
أتانا بها فارتاح ذو الهمّ وابتهج
وأقبل يفريها بمديته وقد فرى
طرفه الساجي القلوب مع المهج(١)

ومما قيل في القثاء:

أنظر إليها أنابيباً منضّدةً
من الزمرّد خضراً ما لها ورق
إذا قلبت اسمها بانت ملاحتها
وصار في عكسه أني بكم أثق

ومما قيل في الباذنجان:

وكأنّما الابذنج سود حمائم
أوكاره خُمُل الرّبيع المبكر
نقرت مناقره الزمرّد سمسماً
فاستودعته حواصلاً من عنبر

ومما قيل في الأنهار والبرك والنواعير:

أما ترى البركة الغرّاء قد كُسيت
نوراً من الشمس في حافاتها طلعا
والنهر من فوقه يلهيك منظره
شهبٌ سماويةٌ فارتجّ والتمعا
كأنّه السيف مصقولاً يقلّبه
كفُّ الكمي إلى ضرب الكماة سعى

وقال آخر في البركة:

يا من يرى البركة الحسناء رؤيتها
والآنسات إذا لاحت مغانيها
فلو تمر بها بلقيس عن عرضٍ
قالت هي الصرح تمثيلا وتشبيها
كأنّها الفضّة البيضاء سائلةٌ
من السبائك تجري في مجاريها
إذا علتها الصَّبا أبدت لها حُبُكاً
مثل الجواشن مصقولا حواشيها
فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها
وريّق الغيث أحياناً يباكيها
إذا النجوم تراءت في جوانبها
ليلاً حسبت سماءً ركبّت فيها

وقال آخر:

وبركة للعيون تبدو
في غاية الحسن والصفاء
كأنها إذا صفت وراقت
في الأرض جزءٌ من السماء

وقال محمد بن سارة المغربي:

النهر قد رقّت غُلالة صبغه
وعليه من صبغ الأصيل طراز
تترقرق الأمواج فيه كأنّها
عكنُ الخصور تهزّها الأعجاز

وقال آخر:

يوم لقا بالنيل مختصراً
ولكل وقتِ مسرّةٍ قصرُ
فكأنّما أمواجه عكنٌ
وكأنّما داراته سرر

---

(١) يفري: يَقْطَع، المهج: النفوس.

وقال آخر في نهر يسبح فيه الغلمان:

خليجٌ كالحسام له صقالٌ
ولكن فيه للرائي مسّرة
رأيت به الملاح تجيد عوماً
كأنهم نجومٌ في المجرّه

وقال آخر في النيل:

النيل قال وقوله
إذ قال ملء مسامعي
في غيظ من طلب العلا
عمّ البلاد منافعي
وعيونهم بعد الوفا
قلّعتها بأصابعي

وقال آخر:

كأنّ النيل ذو فهم ولب
لما يبدو لعين الناس منه
فيأتي عند حاجتهم إليه
ويمضي حين يستغنون عنه

وقال آخر:

وفت أصابع نيلنا
وطغت وطافت في البلاد
وأتت بكل مسرة
ما ذي أصابع ذي أياد

وقال آخر:

سدّ الخليج بكسره جبر الورى
طرّاً فكلٌّ قد غدا مسرورا
والماء سلطانٌ فيكف تواترت
عنه البشائر إذ غدا مكسورا

وقال آخر:

ونهرٍ خالف الأهواء حتى
غدت طوعاً له في كلّ أمرِ
إذا عصفت على الأغصان ألقت
إليه بها فيأخذها ويجري

وقال آخر في ناعورة:

وكريمةٍ سقت الرياض بدرّها
فغدت تنوب عن الغمام الهامِعِ
بلسان محزونٍ ومدمع عاشقٍ
ومسير مشتاقٍ وأنّة جازعِ

وقال آخر:

وناعورةٍ قالت وقد حال لونها
وأضلعها كادت تعد من السُّقمِ
أدور على قلبي لأنّي فقدته
وأما دموعي فهي تجري على جسمي

وفيها أيضاً:

وحنّانة من غير شوقٍ ولا وجد
يفيض لها دمعٌ كمنتثر العقد
أحنُّ إذا حنّت وأبكي إذا بكت
فليس لنا من ذلك الفعل من بدّ
ولكنّها تبكي بغير صَبَابةٍ
وأبكي بإفراط الصبابة والوجدِ
وأدمعها من جدولٍ مستعارة
ودمعي من عيني يفيض على خدّي

وفيها أيضاً قال الخطيري:

ربّ ناعورة كأنّ حبيباً
فارقته فقد غدت لي تحكي
أبداً هكذا تئن بشجوٍ
وعلى إلفها تدور وتبكي

ابن تميم:

تأمل إلى الدولاب والنهر إذ جرى
ودمعها بين الرياض غديرُ
كأنّ نسيم الجوّ قد ضاع منهما
فأصبح ذا يجري وذاك يدورُ

فصل في الألغاز

في غزال:

إسم من قد هويته
ظاهر في صروفه
فإذا زال ربعه
زال باقي حروفه

في كوز فقاع:

ومحبوسٍ بلا ذنبٍ جناه
له في السجن ثوب من رصاص
إذا أطلقته وثب ارتفاعاً
يقبّل فاك من فرح الخلاص

في زر موزة:

مسطية فارسها راجل
تحمله وهو لها حامل
واقفة بالباب مزبولة
لا تشرب الدهر ولا تأكل

وقال في طاحون:

ومسرعةٍ في سيرها طول دهرها
تراها مدى الأيام تمشي ولا تتعب
وفي سيرها ما تقطع الأكل ساعةً
وتأكل مع طول المدى ولا تشرب
وما قطعت في السير خمسة أذرعٍ
ولا ثلث ثمنٍ من ذراعٍ وأقرب

في دواة:

ومرضعةٍ أولادها بعد ذبحهم
لها لبن ما لَذّ قط لشارب
وفي بطنها السكين والثدي رأسها
وأولادها مدخورة للنوائب

وفي دواة أيضاً:

وما أمٌّ يجامعها بنوها
وليس عليهم تجب الحدود
كأنهم إذا ولجوا حشاها
أفاعي في أماكنها رقودُ

في قلم:

وأهيف مذبوح على صدر غيره
يترجم عن ذي منطقٍ وهو أبكم
تراه قصيراً كلما طال عمره
ويضحي بليغاً وهو لا يتكلم

وفيه أيضاً:

بصير بما يوحى إليه وما له
لسان ولا قلب ولا هو سامعُ
كأنّ ضمير القلب باح بسره
إليه إذا ما حرّكته الأصابع

وفيه أيضاً:

وأصفر عارٍ أنحَلَ السقمُ جسمه
يشتّت شمل الخطب وهو جموع
حمى الجيش مفطوماً كما كان تحتمي
به الأسد في الغابات وهو رضيع

وقال أيضاً:

وذي نحولٍ راكع ساجد
أعمى بصير دمعه جاري
ملازم الخمس لأوقاتها
مجتهد في طاعة الباري

في مرملة[1]:

معشوقة لذوات العز قد صنعت
حزينة ما تراها قطّ تبتسمُ
كأنها من صروف الدهر خائفة
تبكي دماءً على ما سطّر القلم

في كتاب:

وذي أوجه لكنه غيرُ بائح
بسِرٍّ وذو الوجهين للسرّ يظهر
تناجيك بالأسرار أسرار وجهه
فتسمعها بالعين ما دمت تبصر

في سلطان حسن لابن أبي حجلة:

ما اسم محبّبٌ للقلوب لأنه
حسن الحروف يجود بالإحسان
تصحيفه أمسى حبيباً كلما
صُحِّفت أحرفهُ بحسن بيان
لو جاد لي يوماً برؤية وجهه
نلت المراد وعشت بالسلطان

في شبّابة:

وما صفراءُ شاحبة ولكنْ
تزيّنها النضارة والشباب
مكتّبة وليس لها بنان
منقّبة وليس لها نقاب
تصبح لها إذا قبّلت فاها
أحاديث تلذُّ وتستطاب
ويحلو المدح والتشبب فيها
وليست لاسعاد ولا الربابُ

وفيها أيضاً:

ومقروحة الأجفان مثلي شجيّةٌ
تناءت عن الأهلين أسقمها البعدُ

---

(١) وهي وعاء الرمل الذي كان يرش على حبر الرسائل ليجف.

تزوّجها عشرٌ وذاك محرّمٌ
ولا حرجٌ كلاّ ولا وجب الحدُّ
إذا وطئها قومٌ تصرُخُ صرخةً
يلين إليها كلّ قلبٍ ولو صلد

وفيها أيضاً:

منقبةٌ مهما خلت مع محبّها
يزوّدها لثماً وينظرها شزراً
وتصحيفها في كف حاملها فقل
إذا شئت في اليمنى وإن شئت في اليسرى

في دملج:

إلى النساء يلتجي
وعندهنّ يوجد
الجسم منه فضّةٌ
والقلب منه جلمد

في خلخال:

أيا عجباً من صابرٍ صامتٍ ولم
يفه بكلام قط في ساعة الضرب
أقام ولم يبرح مكاناً ثوى به
على أنه أضحى يدور على الكعب

في شعر اللحية:

وذي عددٍ كالرمل سام محلُّه
جميل على كل الملاح له حق
يحاذر من موسى ويرهب باسمه
وفي القلب هارون له الهلك والمحق

وفي التين:

أيُّ شيءٍ لذّ طعمه
ناعم الملمس ليِّن
كيف لا يبدو وضوحاً
وهو في التصحيف بيِّن

في الموز:

ما اسم لشيءٍ حسنٍ شكلُه
تلقاه عند الناس موزونا
تراه معدوداً فإن زدته
واواً ونوناً صار موزونا

في حمزة:

من لي بمعتدل القوام مهفهفٍ
أروى بغصن البان لينة قده
في فيه تصحيف اسمه وبخدّه
ويقلب عاشقه لشدّةٍ صدّه

وفيه أيضاً:

إسم الذي أنا أهواه وأعشقه
وطول دهري أخشى من تجنيه
تصحيفه في فؤادي دائماً أبداً
يبدو في خدّه أيضاً وفي فيه

في ساقية:

وجاريةٍ لولا الحوافر ما جرت
أشاهدها تجري وليس لها رجلُ
وترضع أطفالاً ولا هي أمُّهم
وليس لها ثدي وليس لها بعل

وفيها أيضاً:

وجاريةٍ تبكي إذا الليل جنها
بلا ألم فيها ولا ضرب ضاربِ
عليها رجال شُنّقوا بعد حرقهم
وما كان شنق القوم إلا بواجب

في زر وعروة:

وما أخت يجامعها أخوها
وليس عليهما فيه جناح
ترى بجوازه الحكام طرّاً
وفي أعناقهم ذاك النكاح

في راوية:

وسوداء تشرب من رأسها
وإن شئت تسقيك من فردِ يَدْ
ولونها مثل لون أختها
وثنتاهما واحد في العدد
وتحبل في الوقت هي وأختها
وفي ساعةٍ يضعان الولد

في شطرنج:

يا ذا النُّهى ما اسم له حالة
يحار فيها الذهن والفكر
له حروف خمسة إنما
ثلاثة منها له شطر

في فيل:

أيمّا اسم تركيبه من ثلاث
وهو ذو أربعٍ تعالى الإله

حيوانٌ والقلب منه نباتٌ
لم يكن عند جوعه يرعاه
فيك تصحيفهُ ولكن إذا ما
رِمتَ عكساً يكون لي ثلثاه

في بجع:

ما طائرٌ في قلبه
يلوح للناس عجب
منقاره في بطنه
والعين منه في الذنب

في نار:

وما اسمٌ ثلاثي به النفع والضرر
له طلعةٌ تغني عن الشمس والقمر
وليس له وجهٌ وليس له قفا
وليس له سمعٌ وليس له بصر
يمدُّ لساناً يختشي الرمح بأسه
ويهزأ يوم الضرب بالصارم الذكر
يموت إذا ما قمت تستقيه عامداً
ويأكل ما يلقى من النبت والشجر
فيا قارىء الأبيات دونك شرحها
وإلا فنم عنها ونبّه لها عمر

وفيها أيضاً:

وآكلةٌ بغير فم وبطن
لها الأشجار والحيوان قوت
إذا أطعمتها انتعشت وعاشت
وإن أسقيتها ماء تموت

في يد الهاون:

قل لي فما شيءٌ يُرى ناعماً
منتصب القامة طول الزمان
أطولَ من شبرٍ له حزّةٌ
مفيشل الرأس قوي الجنان
يسمع في القعر له رنةٌ
ويظهر الصفق بأعلى مكان

وفيه أيضاً:

خبروني أي شيءٍ
أوسع ما فيه فمه
وابنه في بطنه
يرفسه ويلكمه

وقد علا صياحه
ولم يجد من يرحمه

في خشخاش:

وما قبةٌ مبنيةٌ فوق شاهقٍ
لها علمٌ يحكي الملاحة بالظرف
وأولادها في بطنها في جماعة
يكونون ألفاً أو يزيدون عن ألف
ويأخذها الطفل الصغير بجهله
ويقلبها عسفا على راحة الكف

في كوز زير:

وذي أذن بلا سمعٍ
له قلبٌ بلا لبِّ
إذا استولى على صب
فقل ما شئت في الصب

في اسم علي:

اسم الذي أعشقه
أوله في ناظره
إن فاتني أوله
فإن لي في آخره

في موسى للصفدي:

وما شيءٌ له حدٌّ وخدٌّ
يكلّم من يلامسه بحلقه
وكلّ حلقه من تحت راسٍ
وهذا الراس صارت تحت حلقه

في حلب لابن الفارض رحمه الله تعالى:

ما بلدة بالشام قلب اسمها
تصحيفه أخرى بأرض العجم
وثلثه إن زال من قلبه
وجدته طيراً شجيّ النغم

وقال في سمرقند:

وما اسم سداسي إذا ما لمحته
ترى فيه أجزاءً تذم وتشكر
له ثلث يأتي به الموت فجاءةً
وثلث مع الكتاب يطوى وينشر
وثلث رعاك الله يا صاحبي له
على مدى الأيام نشر معطر

وفي نصفه لما تحرّك بعضه
حديث شهيٌّ في الليالي يذكر
وفي نصفه الثاني إذا ما أعدته
إلى النار للتحليل والعقد سُكر
ففسِّرْ لنا ذا اللغز إن كنت ذا حجى
فليس على ذي العقل لغز معسّر

وقال في كمون:

يا أيها العطار أعرب لنا
عن اسم شيءٍ قلَّ في سومكا
تراه بالعين في يقظةٍ
كما ترى بالقلب في نومكا

وقال في قالب الطوب:

وما آكل في قعدةٍ ألف لُقمةٍ
ولقمته أضعاف أضعاف وزنه
إذا نزل المأكول جنبيه لم يقم
سوى لحظةٍ أو لحظتين ببطنه

في العين:

وباسطةٍ بلا عَصَبٍ جناحا
وتسبق ما يطير ولا تطير
إذا ألقمتها الحجر اطمأنت
وتجزع أن يباشرها الحرير

ويكفي من ذلك ما أشرت إليه وما نبهت من هذا الفن عليه، وقد مضى القول من الفنون السبعة على فن الشعر القريض وما فيه من الفنون المتقدم ذكرها.

ولنذكر إن شاء الله تعالى بقية الفنون السبعة على وجه الاختصار والفنون السبعة المذكورة عند الناس هي الشعر القريض والموشح والدوبيت والزجل والمواليا والكان وكان، والقوما، ومنهم من جعل الحماق من السبعة وفي ذلك اختلاف وعند جمع المحققين أن هذه الفنون السبعة منها ثلاثة معربة أبدالا يغتفر اللحن فيها، وهي الشعر القريض والموشح والدوبيت، ومنها ثلاثة ملحونة أبدا، وهي: الزجل والكان وكان والقوما، ومنها واحد وهو البرزخ بينهما يحتمل الاعراب واللحن وهو المواليا، وقيل: لا يكون البيت منه بعض ألفاظه معربة وبعضها ملحونة، فإن هذا من أقبح العيوب التي لا تجوز وإنما يكون المعرب منه نوعان بمفرده، ويكون الملحون فيه ملحوناً لا يدخله الاعراب وقد أوضح قاعدة الجميع وأمثلتها صفي الدين أبو المحاسن الحلي في ديوانه، وسماه: «بالعاطل الحالي، والمرخص الغالي» ولو بسطت المقال لاتسع المجال وكثر المقال، ولكن الاختصار يذهب الأوجال، والحمد لله رب العالمين على كل حال.

فصل

في بيان الفن الثاني وهو الموشح

لابن المبارك:

قد أنحل الجسم أسمر أكحل
وأوجل القلب فيه مُذْ حَلّ

دور:

أميل له فلا يميل — يحول وعنه لا أحول
أقول إذا زاد بي النحول
أما حل عقد الصدود ينحل — وترحل عن نجم المزحل

دور:

كم أبعد وكم أبيت مكمد — ويعمد بهجره لا فقد
وأجهد لارتصاد من قد
تحمل والحاسدون رحل — تمحل والوعد منه ما حل

دور:

متوج بالحسن هذا الأبلج — مدبج عذاره البنفسج[٢]
مفلج وطرفه ذا الأدعج
مكحل وثغره منحل — مخلخل بعنبر معجل

دور:

برغمي من يستحل ظلمي — ويرمي بحربه لسلمي
وجسمي من التزام سقمي
منحل وقد غدا مرحل — فمن حل دمي وما حل

دور:

قلاني واشتط ذا الفلاني — غزاني بطرفه اليماني
تراني أنشد لمن يراني
قد أنحل الجسم أسمر أكحل — وأوحل القلب فيه مذ حل

لابن سناء الملك:

كلّلي يا سحب تيجان الربا بالحلي
واجعلي سوارك منعطف الجدول

دور:

---

(١) الأبلج: الشديد البياض.

يا سما فيك وفي الأرض نجوم وما
كلما أخفيت نجماً أظهرت أنجما
وهي ما تهطل إلا بالطلى والدما
فاهطلي على قطوف الكرم كي تمتلي
وانقلي للدن طعم الشهد والقرنفل

دور:
تنقد كالكوكب الدريّ للمرتصد
يعتقد فيها المجوسي بما يعتقد
فاتئد يا ساقي الراح بها واعتمد
وأجلُ لي حتى تراني عنك في معزل
قل لي فالراح كالعشق إن يزد يقتل

دور:
لا أليم في شرب صهبا وفي عشق ريم
فالنعيم عيش جديد ومدام قديم
لا أهيم إلا بهذين فقم يا نديم
واجل لي من أكؤس صيرت من فوفل
ألذ لي من نكهة العنبر والمندل

دور:
خذ هني واعطني كاسي مثل كاسك هني
واسقني على رضاب الفطن الملسن
والهني ببعض ما صيغ من الألسن
لو تلى مدح سناه مع رشا أكحل
لذلي على سنا الصهباء والسلسل

دور:
أزهرت ليلتنا بالوصل مذ أسفرت
أصدرت بزورة المحبوب إذ بشرت
أخرت فقلت للظلماء مذ قصرت
طولي يا ليلة الوصل ولا تنجلي
واسبلي سترك فالمحبوب في منزلي

دور:
من ظلم في دولة الحسن إذا ما حكم
فالألم يجول في باطنه والندم
والقلم يكتب فيه عن لسان الأمم
من ولي في دولة الحسن ولم يعدل
يعزى لألحاظ الرشا الأكحل

وله أيضاً:
ترى هل يشتفي منك الغليل
ويشفى من صبابته العليل

دور:
لقد أسرفت في هجري وصدي
بلا سببٍ سوى كلفي ووجدي
وماذا في سلو عنك يجدي
خضاب الوجد ليس له نصول
وأسياف الهوى فينا تصول

دور:
لئن شحيت عني بالسلام
وطيفك قد جفا لجفنا المنام
فقد جادت بأربعةٍ سجام
جفون بالبكا كادت تحول
على خد أسفّ به النحول

دور:
لقد أرسلت في طي النسيم
حديث هوىً عن الوجد القديم
فعادت وهي عاطرة الشميم
تخبّرُ أن ظعنهم نزول
بدارٍ لا يلمُّ لها نزيل

دور:
تلقته الموالي والموالي
بألحاظٍ وزرقٍ من نصال
وأعطافٍ وسمرٍ من عوالي

وله أيضاً:
شمس الحيا أم القمر
أم بارق الثغر بشر
أم البها حفه الخفر
بطرز خديك مستطر

سلسلة:
قم تباها بما تباها ولا تلاها

قفلة:
فكل أحبابنا حضروا
والعود يشجيك والوتر

والدور:
أفديك بالسمع والبصر
يا أهيف وصله وطري
بدر بدا في دجى الشعر
قد لذ في حبه سهري

سلسلة:

إذا تجلى وقد تجلى عليك يجلى

قفلة:

تحير في وصفه الفكر
والعقل والسمع والنظر

الدور:

فهاك حدّث عن الطرب
وعن سلاف ابنة العنب
إذا سقاها مع الضرب
بدر بأفق الجمال ربي

سلسلة:

في ظل بان على المثاني من غير ثاني

قفلة:

إلا الندامى إذا سكروا
والروض والماء والشجر

وقال رحمه الله تعالى:

وانسيمَ السحر هل لك خبر
عن عريب همو بالمنحنى
فارقوني ولم أقض الوطر
من لقاهم ولا نلت المنى
قلت يا قلب صبراً ما صبر
والنبي ما الهوى إلا عنا[1]
ما كتمت الهوى إلاّ ظهر
مع شهود المدامع والضنى

دور:

ليش تمنع وصالك يا حبيب
عن محبك وهو لا يعشق سواك
راقب الله وارجع من قريب
قبل يبلى جسمه في هواك
لست ألقى لدائي من طبيب
غير رشفي يا حبيبي من لماك
لو رأى حالي العاذل عذر
حينما ينظر جمالك والسنا

دور:

يا قمر فوق غصنٍ من نقا
أثخنتنا مطالك والصدود
يا رعى الله لويلات اللقا
ليتها يا خلُّ يوماً لي تعود
ليلة السعد ما فيها شقا
كيف تشقى وطالعها سعود
صفرها لا يمازجه كدر
بالمسرات وأوقات الهنا

غيره:

حملت مذ سارت الحمول
وجدٌ مضى العمر وهو باقي

دور:

ساروا وسار الفؤاد لكن
جسمي مقيم على المساكن
وعن الحبّ صار ظاعنُ
مالي إلى وصله وصول
لو سرت بالبرق والبراق

دور:

وغادة كالقضيب قدّا
والورد والياسمين خدّا
كأنها البدر إذ تبدى
وشعرها أسود طويل
كأنه ليلة الفراق

دور:

هونا أتتنا تميل ميلاً
سحابة كالسحاب ذيلاً
فقلت شمس تزور ليلاً
وما درى كاشح عذول
فذاك من أعجب اتفاق

دور:

وسدّتُها ساعدي لسعدى
وبتُّ أرعى رياض وردي
وخمر ريقِ كذوبِ شهد
لو ذاقها مدنف عليل
لعاش والروح في التراقي

(١) عنا: عناء، تعب ومشقة.

فصل
في الفن الثالث وهو الدو بيت

لسيدي شرف الدين بن الفارض رحمه الله تعالى:

أهوى قمراً له المعاني رق
من صبح جبينه أضاء الشرق
تدري بالله ما يقول البرق
ما بين ثناياه وبيني فرق

وقال أيضاً:

أهوى رشأ كلّ الاسى لي بعثا
مذ عاينه تصبري ما لبثا
ناديت وقد فكرت في خلقته
سبحانك ما خلقت هذا عبثا

وقال أيضاً:

عرّج بطويلع فلي ثَمّ هُوَيّ
واذكر خبر الغرام واسنده إليّ
واقصص قصصي عليهم وابك عليّ
قل مات ولم يحظ من الوصول بشيّ

وقال أيضاً:

روحي لك يا زائراً في الليل فدا
يا مؤنس وحدتي إذا الليل هدا
إن كان فراقنا مع الصبح بدا
لا أسفر بعد ذاك صبح أبدا

وقال آخر:

يا شمس ضحى جبينه وضاح
ساعات وصولك كلها أفراح
عشاقك لو فعلت ما شئت بهم
ماتوا كمداً وبالهوى ما باحوا

وقال آخر:

أهواه مهفهفاً ثقيل الردف
كالبدر يجلُّ حسنه عن وصف
ما أحسن واو صدغه حين بدت
يا رب عسى تكون واو العطف

وقال التلعفري:

قلبي ذهبت لبعدكم راحته
ما الصبر على بعادكم عادته
بنتُمْ فرني لما به شامته
لا كان فراقكم ولا ساعته

وقال المنشدي:

أحسانك طول الدهر لا أنساهُ
لا أذكر بعد خالقي إلا هو
إن أبعدك الزمان عني حسدا
مولاي خليفتي عليك اللّهُ

وقال آخر:

إن جئت ربا الحمى ولاحت نجدُ
فاذكر ولهي وما جناه البعدُ
قد كنت أقاسي الصدق حتى رحلوا
يا ليتهم عادوا وعاد الصدُّ

فصل
في الفن الرابع وهو الزجل

حمل للغباري:

قل للغزلان وادي مصر
والشام يقصروا ذا النفار
لهم اجعل حشاشتي
مرعى وفؤادي قفار

دور:

مصر والشام فيها ملاح أقمار بالمحاسن تسود
ذا أبيض وذا أحمر وذا مليح أسمر لو عيون نجل سود
ذا غزال صار يفوق على الغزلان ويصيد الأسود
وذا غصن بان أهيف قوام قد وقد الأغصان جهار
وذا بدر الكمال ظهر في الليل وذا شمس النهار

دور:

تدر بالله إيش قالت مليح الشام بعد ذاك الصدود
قد سمينا بصحة الأبدان واعتدال القدود
وتخضب تفاحنا الأحمر فوق بياض الخدود
وأنتم يا عشاق لكم قلنا والحسود راح بنار
أنتم التفاح وما نقصد منكم إلا الخيار

دور:

وملاح مصر قالت إحنا أصحاب الوجوه الملاح
والحلاوة وطيبة الأخلاق في الخلائق مباح
إحنا أقمار وإحنا بدور الليل وشموس الصباح

وفي الألفاظ والظرف والمعنى   ليس لنا حد صار

وورثنا الحسن من يوسف   واكتسبنا الفخار

دور :

حسن حبي الفرار جي فرحه بدر   في السعد لاح

فرخ ناجب خرج من القشرة   فاق ملاح الملاح

كلما أعمل على رضاه يفسد   بجفاه الصلاح

ومن البيضة قد خرج نافر   رد جفني بنار

وجفاني وخد بياض جسمي   خلطوا بالصفار

دور :

وقع الطل خط بالأبيض   في اخضرار الطروس

قم يا ساقي على بساط زهري   تحت ظل العروس

هاتها شمس راح شمول قرقف   بكر عذرا عروس

عروس لها صفو النسيم   ولطف الما وابتهاج الثمار

قد جلوها في كاس زجاج   أبيض فاكتسى باحمرار

دور :

فهو عطار عندي وشراب هندي   وبراني جفاه

كل من مص من لسانو ريقو   يلتقي فيه شفاه

ورد خد وحبتو سودا   شبه خال في صفاه

جبل آس عارضو أسر قلبي   والكبار والصغار

في المحب غاروا على حسنو   وكل من حب غار

دور :

دروني الملاح على كعبي   ونصوا نصوص

بلا دعوى التف لف اليسير   في هواهم خصوص

وعليا صار نقشهم قاعد   مثل نقش الفصوص

والبساط انطوى وحين ما رأوا اخلف   له همه ولو اصطبار

قمروني في عشق هذا القمر   والمحبة قمار

دور :

لحبيبي ثغر من جوهر   والشفيفات عقيق

وعوارض ما ضرهم عارض   غير نبات الشقيق

وخدود ورد من غير نمش   ووصفنا عن حقيق

يحرس الورد خال عنبر   تحت أهداب غزار

في صفا وجهو أنزه طرفي   عند خلع العذار

دور :

في رياض صفوف من الأزهار   قابلتها صفوف

كيف لا نرقص والنسيم بها موصول   وورقها دفوف

واعجب من النهر إذا صفق   لو من الموج كفوف

والغيوم نقطت وحين النسيم   طار أهل مطار

باختلاف الألحان سحر في الروض   صاح على عود طار

دور :

أشرف الخلق بين الإسلام   والهدى والضلال

والشرائع والحق والباطل   والحرام والحلال

نبي من بين أصابعه تحقيق   نبع الماء الزلال

ولو أن النبات جميعه أقلام   والمداد البحار

والخلايق تكتب مديحو تاه   كل كاتب وحار

دور :

خلف أستاذ في الفن ما ينطاق   ذاق عداه المنون

ما يعيبو في الفن غير ناقص   عقل زايد جنون

شيخ مصدر لبيب قيم   في جميع الفنون

باتضاعو مع الصغار مرفوع   فوق رؤوس الكبار

وأهل الفنون تجري وما تلحق   للغبارى غبار

غيره لناصر الغيطي :

كنز روضي طالبو بسعد يا خليع قم في دجى الأسحار

تلتقي در الندى يرهج فوق فصوص غرائب النوار

دور :

كنز روضي نزهة الطالب   جوهر وبين الندى يرهج

ولجين الما بيتكسر   يا خليع هيا تعا اتفرج

بين عنابر تلتقي الخلع   كل حد مع إلفو يدرج

وامش في عرض الرياض وارتع   بين أغصان وأطيار فوق

بساط زمرد ذو قضبان   كل وردة حكت لنا دينار

دور :

وترى الياسمين بحال فضه   ضربت لاهل النزه صلبان

والشحارير لابسين أسود   وقلانس كنهم رهبان

وكذا الكتان وهو أصفر   بعمائم زرق للمناس بان

وانجلت بين القسوس في ألحان   وعلينا دارها الخمار

والقطيع الراهبي يحكي   لشماس لابس الزنار

دور :

الفراق نار والوصال جنة   والخلائق بعضهم يعشق

دا حبيب قلبو عليه راضي   وذا محبوبو عليه يشفق

ولهيب الهجر يتوقد   والوصال من الملاح يشتق

المليح عندي وأنا مطمن وسط روضا   زهر لها معطار في نعيم

مع حور ومع ولدان والعذول   مسكين صح في نار

دور :

وعمل في الروض سماع باكر   بين الأغصان والزهور انغام

والنسيم شبب والغدير صفق   والخليع من كثر وجدو هام

والنخيل باكمامها ترقص   اقبل الريحان بحال أعجام

والعصافير شيخهم ريق   لو طريق بين الأزاهر طار

والبلبل بالغنا يشجي   فكأنوا ناي أو مزمار

دور ناصر الغيطي:

يا خلايا صحبت إنسان   أنكر الصحبة وعاداني

ويغضني حين بقيت مسمى   والإله بالفضل أسماني

في بلاد قبلي وأرض الشام   يشكروني ساير أقراني

والشجيع الشاطر المذكور   في جميع الأرض لو تذكار

والبلط يوقع لو تعلق   ما يحصل شي مع الشطار

للغباري:

جار حبيبي فقلت ذا الحجاج   جا يجور أو يزيد

لو عدل عشت بو مسرور   ويكون الرشيد

دور:

أقلع القلب في هوى العشاق   والدموع في انحدار

وبحور الهوى إذا هاجت   ليس لها من قرار

كنت أحسب قلبي معو   ريس غرتو ذا البحار

صحت لما وحلت يا محبوب   قلبي بحر عشقك يزيد

خفت فيه الغرق فقال افرح   من غرق مات شهيد

دور:

أنا يوم في الغبوق باتفرج   على شط الغدير

إذا رأيت على الشط واحد واقف   شب صياد صغير

نظرت مقلتي إلى منظر   ما لحسنو نظير

قلت يا عين إن غرك الصياد   بالجمال المصيد

يوقعك في فخاخ شباك عشقو   وكراكي يصيد

دور:

من نحبو جديد حبيب قلبي   يوم صدفتو صدف

قلت لين يا قاسي لمن دمعو   سال وحالو وقف

دار وقال لي ما الاسم بالانجيل   قلت اسمي خلف

قال علينا يكتب ومن يسمع   دا الكلام يستفيد

في الحقيقة من لا يكون داود   ما يلين لو الحديد

دور:

لك عوارض في الخد مرقومة   ليس لها من مثال

وجفاك صار حماق وباب وصلك   كان وكان يا غزال

وأنت دوبيت موشح القاما   يا عزيز الدلال

ولك ألفاظ صارت مواليا   بالزجل والنشيد

وبشعرك متوج القاما   وأنت بيت القصيد

دور:

عن محرم شرابنا ضمنا   ونفطر بالشمار

حين وجدنا سفرجل البستان   يذهب الاصفرار

وغنا الطير به الجماد يطرب   وكذا الجلنار

في ربيع حين رأى الثمر قاعد فيه   تعاليق عقبد

حسب الروض النص من شعبان   صار يقيد فيه وقيد

دور:

من لهيب مدمعي جرى   الطوفان للهيب ما طفى

وأنا هو الغباري في العشاق   ما جرى لي كفي

حين عليا بالصد والهجران   والبعد والجفا

جار حبيبي فقلت ذا الحجاج   جا يجوز أو يزيد

لو عدل عشت بو مسرور   ويكون الرشيد

غيره:

فحين سكنت القلب يا عيسى   أمسى من بعدك الحزين فرحان

وتقدس بك ولكنو   ما جرت فيه يا ابن عين سلوان

دور:

عارضوا لما عشق خدو   غرت من وجدي بقيت حاير

جيت إلى طرفو وناديت   لو أحرسوا وكون عليه ناظر

بعد حين نظرت في خدو   النقي العارض وهو داير

وعليه قد دب بالسرقة   جيت لطرفو قلت يا كسلان

هكذا في عادة الحراس   قال لي اعذرني أنا نعسان

دور:

بدر شعبان منيتي لما   في بروج السعد لاح نجمو

قلت لو أقضي بفيض دمعي   أطلقوا واجراه على رسمو

قلت لو دام الله إطلاقك   فالحزين قلبو المشوم قسمو

ايش قد أذنب حين قطرتو   دا يملغط قول بالبهتان

قال لي صوم عن الوصال ناديت   ليش أصوم يا بدر في شعبان

دور:

حين تدبج احمرار خدو   باخضرار العارض أسباني

ضحك فابيض واتبسم   واسوداد شعري وأبكاني

وحين أضحيت باصفرار لوني   أشعث أغبر في هواه عاني

قال لي لونك قد صبح حايل   وقد أبصر مدمعي طوفان

ذقت تبريح الغرام ناديت   في هواك ذقت الهوان ألوان

دور:

قلت لو حين عني تخلف   لله كن لي يا رشيد مهدي

قد تلون دمعي من بعدك   وتجري اليوم على خدي

دار إلى إنسان مقلتي قال   لو أنت ما عندك نظر بعدي

ما ترى ما قد جرى منك   على الخدود قال يا فنان

جرى الماء تحت من بعدك   راقب الله فينا يا إنسان

دور:

ذا الغزال النافر الأنسي للغزالة قد أعار النور
كسر قلبي كسير جفنوا فاعجبوا للكاسر المكسور
وبخمر الدن قد عربد وادعى إني أنا المخمور
وابتسم لي عن نقا ثغرو وخطر والبشر فيا بان
صحت يا قلبي صفا وردك أنت ما بين النقا والبان

للصفي الحلي:

فأنت يا قبلة الكرام زينة المال والبنين
الله يعطيك فوق ذا المقام ويعيدك على السنين

دور:

أنت شاما بين الأنام الله يحرس شمايلك
ويزيدك بالدوام كي نعيش في فواضلك
ما ينطوي ذكر الكرام لما تنشر فضايلك
ونهنيك لكل عام والخلائق تقول آمين
قد بقينا بك في أمان الله يحييك طول السنين

دور:

ما رأينا تحت ذا الفلك من ندى كفك أعم
كل من جاء ليسالك ليس تقول له سوى نعم
أملك أنت أو ملك ضاعف الله لك النعم
أنت في الجود كالغمام وسماك فوق ماردين
در غيثك في انسجام عم كل السائلين

دور:

لا عدمنا كل صوم ذا السحور فيك والهنا
كل ليلة وكل يوم ينشر الذكر والثنا
الله يحييك من خير قوم بالغ يقصد والمنى

دور:

حتى تقضي ذا الصيام ويليه باقي السنين
وتعيش يا ذا الهمام بين ولدان وعين

غيره:

خال عبد الرحيم حبر من غير قاف ولام،
واسم ثغر معشوقي الفتان نون وعين وميم
شال السعد فوق راسو عين ولام وميم
داللي قد هواه قلبي صاد ويا ويا
مليح ما رأيت مثله ظا ويا ويا
ما أحلاه عند ما يلبس قاف ويا ويا
ذقت من صدود حبي غين وصاد وصاد
لما رأيت صبري نون وقاف وصاد
النوم من جفون عيني خا ولام وصاد
وأصبحت وجود فكري عين ودال وميم
قلت يوم لمن كان لي سين ونون ودال
اعدل في الذي صبرو نون وفا ودال
ولا تهجر العشاق يا وعين ودال
ما أفلح قط يا ناس من ظا ولام وميم

جمل في الالغاز

المطلع في العين

وما طير أكلو الحجر يا كرام
وجوهر حبابه يفسد أهل الصلاح
ولمس الحرير يؤذيه وريش النعام
يصول بين جناحين سود كبيض الصفاح

دور في السراج:

وما بجر ما هو ما وفي الليل يزيد
وينقص ولا هو خوض ولا هو غريق
وفيه شيء صفات حيه بلا وكر استفيد
لها جوهره في فمها يا رفيق
بلا شك ينظره القريب والبعيد
ويخفي ويظهر كل يوم عن حقيق
يغيب في النهار لكن إذا جا الظلام
تشوفو يضيء بين الوجوه الصباح
ويسهر بحال عاشق حليف الغرام
قتيل الهوى بين الربا والبطاح

دور في جوزة الكنافة:

وما هي التي تركب على ستين ألف
وما مثل ذاك فسر لنا يا خبير
مليحه وقصيفه وتلبس ترف
وتحمل وتوضع كل يوم في السعير
لها عشرة أعوان حالهم مختلف
يشيلو أودها الكبير والصغير
لها فحل يخدمها عليه السلام
يحادي سراها في المجي والرواح
وأكثر تعبها في ليالي الصيام
وذا اللغز قلته ومن غير مزاح

دور في الغربال:

وما هو الذي يا سعد كله عيون
ولا يتعلم ضوء الظلام والضيا
وهو بين خشب مصلوب لتلك الفتون
وميت وهو يحيي أصول الحيا

إذا غاب عن أهله فرد يوم ما يهون
ولا حد يعوض موضعه لو عيا

وكم من رقيص في صنعته باهتمام
مكابد عجاجه في المسا والصباح

ويحتاج له الناس كل يوم في الدوام
على شان فنونه دول فنون ملاح

الفن الخامس في المواليا وله وزن واحد وأربع قوافي

فمن تلك الأربعة واحدة لصفي الدين الحلي:

يا طاعن الخيل والأبطال قد غارت
والمخصب الربع والأمواه قد غارت

هواطل السحب من كفيك قد غارت
والشهب مذ شاهدت أضواك قد غارت

وقال أيضاً:

سل مقلتيك الكحال عمن سلا سلها
ومرشفيك من رشف منها سلاسلها

وعارضيك التي مدت سلاسلها
كم من أسود ضواري في سلاسلها

وقال آخر:

قد أوعدونا الغضابا أننا نخلو
في ظل بستان حافف بالتمر نخلو

والطل من فوقنا قد بلنا نخلو
ومن كلام الأعادي قط ما نخلو

وقال آخر:

قسماً وبالله مفرقها وجامعها
ومن أمرنا بمسجدها وجامعها

لو حل مع بغيتي عايد وجامعها
كان أفتتن في محاسنها وجامعها

ومن اثنين واثنين قال آخر:

قوم اسقني ما تبقى في أباريقو
أما ترى الصبح قد لاحت أباريقو

مع شادنٍ كلما دارت أباريقه
سقى المداما وإن عزت سقى ريقو

وقال:

البارحة رأيت بعيني في الدجاجيين
اثنين مثل البدوره في الدجى جيين

ناديتهم فين كنتم يا خفا جيين
قالوا لمن قد وعدنا في الخفا جيين

وقال:

قد زدت هجرك فجد بالعفو عن صبك
ارحم خضوعي وخف في قتلتي ربك

يكفيك بهجر تكدر قلب من حبك
ما ظن في الناس أقسى قلب من قلبك

غيره خمري عاطل:

كاس الطلا لطلاها طال لما سر
وصار لما حوى حمرا مكلل در

مدام لو طعم كله حلو ما هو مر
ما حل مملوك إلا صار مالك حر

غيره حربي:

لك يا إمام الوغا في كل موقع حرب
سماع يطرب له السامع وينفي الكرب

هذا ولك كلما دارت رحاة الحرب
سيوف تفني وكفك لا يمل الضرب

الصفي الحلي في المدح:

أغنت وأقنت كفوفك في الندى والحرب
في القرب والبعد من شرقها والغرب

وفيض جودك وسيفك بالعطا والضرب
ذا الكرب فرج وهذا قد رمى في الكرب

وقال أيضاً:

من قال جودة كفوفك والحيا مثلين
أخطا القياس وفي قوله جمع ضدين

ما جدت إلا وثغرك مبتسم يا زين
وذاك ما جاد إلا وهو باكي العين

وقال في التهنئة:

رأيت ذا العيد أول يوم في عصرك
رأيت ذا اليوم مع ذا الشهر في نصرك

وديت ذا الشهر مع ذا العام طوع أمرك
والكل بالكل أول مبتدا عمرك

وفي المعاتبة:

عنا تسليت واسياف الجفا سليت
ومذ توليت عن طرق الوفا وليت

لما تمليت بالأعمال لي مليت
إذا تخليت تعرف قدر من خليت

وقال أيضاً:

يا قلب إن غدروا فاغدر وإن خانوا
فخن وإن هم قسوا فاقسا وإن لانو
فلِن وإن قربوا فاقرب وإن بانوا
فبن وكن لي معاهم كيفما كانوا

وقال آخر:

حلف عليا جكاره أن يقاطعني
وصد عني وأقسم ما يطاوعني
كم ذا يصد وكم يرجع يصدعني
إن كنت أنا هو المطلق لا يراجعني

وقال آخر هجواً:

قطع قفا ابن أخت خالك وابن أخو عمك
والحق يصفع أبو بنتك أو ابن أمك
وإن تكلمت تصفع بل يسيل دمك
وإن كنت تسكت يبول الكلب في فمك

وقال آخر:

إن ردت تسلم بطول الدهر ما تبرح
لا تيأسن ولا تقنط ولا تمرح
واستعمل الصبر لا تحزن ولا تفرح
وإن ضاق صدرك ففكر في ألم نشرح

وقال آخر:

إن كنت عاقل وربك بالتقي برك
إدفع أذاك وهات خيرك ودع شرك
وإن تعدى حسودك والحسد ضرك
ناديه يا أيها الإنسان ما غرك

وقال آخر:

يا قلب إن خانك المحبوب لا تدبر
عنو وعن قصة السلوان لا تخبر
واستعمل الصبر دائم للعدا تقهر
فإن والله ما خاب الذي يصبر

الفن السادس كان وكان

وله وزن واحد وقافية واحدة ولكن الشطر الأول من البيت أطول من الثاني فمنه هذه الوعظيات:

يا قاسي القلب مالك تستمع وما عندك خبر
ومن حرارة وعظي قد لانت الأحجار
أفنيت مالك وحالك في كل ما لا ينفعك
ليتك على ذي الحاله تقلع عن الأصرار
تحضر ولكن قلبك غايب وذهنك مشتغل
فكيف يا متخلف تحسب من الحضار
ويحك تنبه يا فتى وافهم مقالي واستمع
ففي المجالس محاسن تحجب عن الأبصار
يحصي دقائق فعلك وغمز لحظك يعلمه
وكيف تعزب عنه غوامض الأسرار
تلوت قولي ونصحي لمن تدبر واستمع
ما في النصيحة فضيحة كلا ولا إنكار

وقال أيضاً:

صرح بذكر المحبة ما في المعمى فائده
وقل نعم أنا عاشق صادق بلا تمويه
ودع حديث العواذل ليس الخبر مثل النظر
أنا عاشق لحبيب كل المعاني فيه
من أين للبدر حسن يحكيه أو شمس الضحى
حاشا لذاك المحيا من مشيه يحكيه
إن غبت فهو أنيسي وإن حضرت نديمي
وإن شربت مدامي فالكأس هو ساقيه
فمنه روحي وراحي إذا سكرت وراحتي
وفيه عزي وذلي بمهجتي أفديه
قولوا لمن يلحاني في الحب قصر واعتبر
هذا الذي قد عشقته قد حار وصفي فيه

الصفي الحلي:

شاهدت في الليل طيري وقمت حتى أنصب شرك
ما كل صيد يحصل بفرح الصياد
طيري الذي كان إلفي لو ردت مثله ما حصل
وهو عليّ معود وأنا عليه معتاد
قد كان شرطي وخلقي لبرج غيري ما عرف
كأننا في الصحبة جينا على ميعاد
من قبل ما أبصبص له يجي ويدخل قصوري
أنا أرصده في مطاره خالف عليه ينصاد

وقال آخر:

ما ذقت عمري جرعة أمر من طعم الهوى
الله يصبر قلبي على الذي يهواه
الناس تعلم مني حال الجلادة والقوى
وما أطيق التجلد على أليم جفاه
لي حب مثل الخوخة لو لون وطعم وريحة
ما أكثر مغابن حبيبي وما أقل وفاه
أنا عرفتو حظي وكل ما أحسن لو يسي
لو كنت أعشق ظلي ما كنت قط أراه

وله في الفراقيات:

يا سادة هجروني وهم نزول بخاطري   لا أوحش الله منكم في سائر الأوقات
أوحشتم العين مني وأنسكم في خاطري   والقلب في النور منكم والعين في ظلمات
قد انتهى الصبر مني وما بقي فيا رمق   هيهات إني أحيا من بعدكم هيهات
لم يبق غير خيالي يلوح كالشبح الخفي   أعد بين الأحياء وأنا مع الأموات
ودعتموني وسرتم والقلب يتبع ركبكم   إيش ضر لو كان جسمي من جملة التبعات
ما مر ما ريت ضدي يقول لي من فرحته   هنا تشق المراير وتكسب العبرات
لو لم أسلي روحي وارضِ نفسي بالمنى   لكان قلبي تقطع من بعدكم حسرات
وقفت لما رحلتم حيران بين أظعانكم   أخفض جناح المذلة وارفع الأصوات
طول الليل أساهر كني أريد الكيميا   أقطر الدموع مني وأصعد الزفرات
ما أطول ليالي جفاكم ساعتها مثل السنة   وما أقصر أيام وصلي كأنها ساعات
مالي أرى حسناتي بالسيئات تبدلت   وسيئات الأعادي اتبدلت حسنات
خالفتموني وعمري ما زلت أتبع أمركم   كذا العبيد تتابع أوامر السادات
أسكت وأصبر عنكم ويفعل الله ما يشا   والدهر من عاداته يقلب الحالات

الفن السابع في فن القوما

قيل أول من اخترعه ابن نقطة برسم الخليفة الناصر والصحيح أنه مخترع من قبله. وكان الناصر يطرب له، وكان لابن نقطة ولد صغير ماهر في نظم القوما، فلما مات أبوه أراد أن يعرف الخليفة بموت أبيه ليجريه على مفروضه. فتعذر عليه ذلك، فصبر إلى دخول شهر رمضان ثم أخذ أتباع والده من المسحرين ووقف أول ليلة من الشهر تحت الطيارة وغنى القوما بصوت رقيق، فأصغى الخليفة إليه وطرب له، فكان أول ما قاله قوله:

يا سيد السادات   لك بالكرم عادات
وأنا بني ابن نقطة   تعيش أبويا مات

فأعجب الخليفة منه هذا الإختصار، فاستحضره وخلع عليه وفرض له ضعفي ما كان لأبيه.

ومنها للصفي الحلي:

من كان يهوى البدور   ووصل بيض الخدور
بالبيض والصفر يسخو   وقد جلس في الصدور
من حب بيض الخدور   ورام لزوم الصدور
يسمح وإلا فيبقى   من بينهم مهدور
كم بين سجف الخدور   من عاشق مصدور
يرعى الكواكب تعلو   يرى جمال البدور
بين الحلل والخدور   وجوه مثل البدور
أشراقها في المعاجز   وغربها في الصدور
قد كنت فوق الصدور   بين الظبا والبدور
فصرت أحسد من أبصر   خيامهم والخدور
نوائب المقدور   مثل الكواكب تدور
من بعد طيب الخواطر   يقضي بضيق الصدور
غيري يلازم الصدور   أنا عليكم أدور
واصطلي الصد وأنا   من بينهم مهدور

وقال أيضاً:

حال الهوى مخبور   يريد جلد صبور
يصون سره وإلاّ   يبقى من أهل القبور
من كان هواه مستور   يحظى برفع الستور
ومن هتك سر حبو   يمحى من الدستور
أبذل لبيض النحور   أموال مثل البحور
إن أردت تملك وتظفر   ولدانهم والحور
قم فابذل المدخور   وفي العطا لا تجور
تريد هذي المحبه   قلوب مثل الصخور
كم حول تلك الخدور   من عاشق مذعور
مثل الدواليب تجري   دموعها وتدور
من يركب المحذور   هو في الهوى معذور
يظفر بحبه ويبلغ   قصده ويوفي النذور
كن بالهوى مسرور   ولا تبيت مغرور
واجعل تراب اعتابهم   لاجفان عينك درور
طرق المحبة وعور   كم بينها معذور
من فتك بيض السوالف   على سواد الشعور
كم عاشق مذعور   في حب بيض الثغور
يغار قلبه ولكن   مدامعه ما تغور
كم بينهم يعفور   كالظبي أنس نفور
من أهل بدر فديته   إيش ما عمل مغفور

ومن ذلك ما نظمه بعضهم ليسحر بعض الخلفاء في رمضان:

لا زال سعدك جديد ... دائم وجدك سعيد
ولا برحت مهني ... بكل صوم وعيد
في الدهر أنت الفريد ... وفي صفاتك وحيد
والخلق شعر منقح ... وأنت بيت القصيد
يا من جنابه شديد ... ولطف رأيه سديد
ومن يلاقي الشدائد ... بقلب مثل الحديد
لا زلت في تأبيد ... في الصوم والتعييد
ولا برحت مهني ... بكل عام جديد
نحن لذكرك نشيد ... بقولنا والنشيد
ونبعث أوصاف مدحك ... على خيول البريد
ظلك علينا مديد ... ما فوق جودك مزيد
وكم غمرت بفضلك ... قريبنا والبعيد
لا زلت في كل عيد ... تحظى بجد سعيد
عمرك طويل وقدرك ... وافر وظلك مديد
لا زال قدرك مجيد ... وظل جودك مديد
ولا برحت موقى ... كما يوقى الوليد
ما زال برك يزيد ... على أقل العبيد
وما برح جود كفك ... منا كحبل الوريد
لا زال برك مزيد ... دائم وبأسك شديد
ولا عدمنا نوالك ... في صوم فطر وعيد

ومما قيل في فن الحماق:

أنا ما عبوري الحمام ... لجسمي لكي ينظف
إلا لدمع جاري ... على الما ولا يوقف
وديك المجاري تجري ... ودمعي يسابقها
تقول الأنام في الحمام ... له أحباب فارقها

وقال آخر:

ترى كل من نعشقو ... علينا يقيم أنفه
فاسلاه واترك هواه ... وسد الطريق خلفه
وإن زاد على عشقوا ... وزاد بي الهوى والذل
تركتو ولو كان يحيي ... لأهل القبور الكل

وقد انتهى الكلام فيما أشرت إليه من الفنون السبعة وذكرت منها ما تبتهج به النفوس وتَقَرُّ به العيون، واختصرت ذلك إلى الغاية، فجاء بتوفيق الله في الحسن نهاية، وأسأل الله التوفيق بمنه وكرمه والمزيد من بره ونعمه، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثالث والسبعون

في ذكر النساء وصفاتهن ونكاحهن وطلاقهن وما يحمد ويذم من عشرتهن

وفيه فصول

الفصل الأول

في النكاح وفضله والترغيب فيه

قال الله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾[1] الآية. وقال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾[3] الآية.

وقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[4].

وقال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوار عندكم»، وقال رسول الله ﷺ: «تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة». وقال ﷺ: «سوداء ولود خير من حسناء عقيم».

وقال رسول الله ﷺ: «أحسن النساء بركة أحسنهن وجهاً وأرخصهن مهراً فينبغي للرجل إذا أراد أن يتزوج أن يرغب في ذات الدين وأن يختار الشرف والحسب».

كما حكي أن نوح بن مريم قاضي مرو أراد أن يزوج ابنته، فاستشار جاراً له مجوسياً، فقال: سبحان الله يستفتونك وأنت تستفتيني! قال: لا بد أن تشير عليَّ. قال: إن رئيسنا كسرى كان يختار المال، ورئيس الروم قيصر كان يختار الحسب والنسب، ورئيسكم محمد كان

(١) سورة النساء، الآية (٣).
(٢) سورة النور، الآية (٣٢).
(٣) سورة البقرة، الآية (٢٣٥).
(٤) وجاء: الرَّضُّ وهو نوع من الخِصَاء والمراد أنه يفعل فعل الخصاء بقطع الشهوة.

يختار الدين، فانظر أنت بأيهم تقتدي.

وقال رجل للحسن: إن لي ابنة فمن ترى أن أزوجها له؟ قال: زوجها ممن يتقي الله عز وجل، فإن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها.

وقيل لرجل من الحكماء: فلان يخطب فلانة، فقال: أموسر من عقل ودين؟ فقالوا: نعم. قال: فزوجوه إياها.

ويستحب أن يختار البكر لقوله ﷺ: **«عليكم بالأبكار فإنهن أطيب أفواهاً وأنتق أرحاماً»**. وقالوا: أشهى المطي ما لم يركب وأحب اللآلىء ما لم يثقب.

وأنشد بعضهم:

قالوا نكحت صغيرةً فأجبتُهُم
أشهى المطيّ إليّ ما لمْ يركبِ
كم بين حبة لؤلؤ مثقوبةٍ
نظمت وحبة لؤلؤ لم تثقبِ

فأجابته إمرأة:

إنَّ المطيّة لا يلذُّ ركوبُها
حتى تذلّل بالزّمام وتركبا
والدرُّ ليس بنافع أربابه
حتى يؤلف بالنظام ويثقبا

قال خالد بن صفوان:

عليك إذا ما كنت في الناس ناكحاً
بذات الثنايا الغرّ والأعين النجلِ

وقيل: استشار رجل داود عليه السلام في التزويج، فقال له: سل سليمان وأخبرني بجوابه، فصادفه ابن سبع سنين وهو يلعب مع الصبيان راكباً قصبة فسأله: فقال: عليك بالذهب الأحمر أو الفضة البيضاء، واحذر الفرس لا يضربك. فلم يفهم الرجل ذلك، فقال له داود عليه الصلاة والسلام: الذهب الأحمر البكر. والفضة البيضاء الثيب الشابة، ومن وراءهما كالفرس الجموح.

وقال رسول الله ﷺ: «تخيروا لنطفكم»، وقال ﷺ: «انظر في أي شيء تضع ولدك، فإن العرق دساس». وقال عليه الصلاة والسلام: «إياكم وخضراء الدمن[1]». قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله ﷺ؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء.

وأنشدوا فيه:

إذا تزوّجت فكن حاذقاً
واسأل عن الغصن وعن منبته

وقال بعضهم:

وأوّل خبثِ الماء خبثُ ترابه
وأول خبث القوم خبث المناكح

وعن علي رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا تسترضعوا الحمقاء ولا العمشاء فإن اللبن يعدي».

وقيل: إن جعفر بن سليمان بن علي عاب يوماً على أولاده، وأنهم ليسوا كما يحب، فقال له ولده أحمد بن جعفر: إنك عمدت إلى فاسقات مكة والمدينة وإماء الحجاز فأوعيت فيهن نطفك ثم تريد أن ينجبن وإنما نحن كصاحبات الحجاز، هلا فعلت في ولدك ما فعل أبوك فيك حين اختار لك عقيلة قومها، فزوجها منك.

وأنشدوا:

صفاتُ من يستحب الشرع خطبتها
جلوتها لأُولي الألباب مختصرا
صبيةٌ ذات دينٍ زانه أدبٌ
بكرٌ ولود حكت في نفسها القمرا
غريبة لم تكن من أهل خاطبها
تلك الصفات التي أجلو لمن نظرا
فيها أحاديثُ جاءت وهي ثابتةٌ
أحاط علماً بها من في العلوم قرا

وقال آخر:

مطيّات السرور فويق عشرٍ
إلى العشرين ثم قفِ المطايا
فإنْ جزت المسير فسرْ قليلاً
وبنت الأربعين من الرزايا

وقال آخر:

فإيّاك إيّاك العجوز ووطأها
فما هو إلاّ مثلُ سمّ الأراقم[1]

واعلم أن العيش كله مقصور على الحليلة الصالحة، والبلاء كله موكل بالقرينة السوء التي لا تسكن النفس إلى عشرتها ولا تقر العيون برؤيتها. وفي حكمة سليمان بن داود عليهما السلام: المرأة العاقلة تعمر بيت زوجها، والمرأة السفيهة تهدمه.

وروي أنه لما حضر أبو طالب نكاح رسول الله ﷺ على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، ومعه بنو هاشم

---

(١) الدمن ج الدمنة وهي: المزبلة.

(١) الأراقم: الأفاعي السّامة.

ورؤساء مضر، خطب فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخي من لا يوزن به رجل من قريش إلا رجح به براً وفضلاً وكرماً ومجداً ونبلا، فإن كان في المال قلّ، فالمال ظل زائل ورزق حائل، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما عاجله وآجله من مالي كذا وكذا، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل.

ولما خطب عمرو بن حجر الكندي إلى عوف بن محلم الشيباني ابنته أم إياس وأجابه إلى ذلك، أقبلت عليها أمها ليلة دخوله بها توصيها، فكان مما أوصتها به أن قالت: أي بنية إنك مفارقة بيتك الذي منه خرجت وعِشّك الذي منه درجت إلى رجل لم تعرفيه وقرين لم تألفيه، فكوني له أمة ليكون لك عبداً، واحفظي له خصالاً عشراً يكن لك ذخراً، فأما الأولى والثانية، فالرضا بالقناعة وحسن السمع له والطاعة، وأما الثالثة والرابعة: فالتفقد لمواقع عينيه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم أنفه منك إلا أطيب الريح، وأما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت طعامه ومنامه، فإن شدة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة، وأما السابعة والثامنة: فالإحراز لماله والإرعاء على حشمه وعياله، وأما التاسعة والعاشرة: فلا تعصي له أمراً، ولا تفشي له سراً، فإنك إن خالفت أمره أوغرت صدره، وإن أفشيت سره لم تأمني غدره، وإياك والفرح بين يديه إذا كان مهتماً، والكآبة لديه إذا كان فرحاً. فقبلت وصية أمها، فأنجبت وولدت له الحارث بن عمرو جد أمرىء القيس الملك الشاعر.

وعن الهيثم بن عدي الطائي عن الشعبي قال: لقيني شريح، فقال لي: يا شعبي عليك بنساء بني تميم، فإني رأيت لهن عقولاً، فقلت وما رأيت من عقولهن؟

قال: أقبلت من جنازة ظهراً، فمررت بدورهن وإذا أنا بعجوز على باب دار وإلى جانبها جارية كأحسن ما رأيت من الجواري، فعدلت إليها، واستسقيت وما بي عطش.

فقالت لي: أي الشراب أحب إليك؟

قلت: ما تيسر.

قالت: ويحك يا جارية ائتيه بلبن، فإني أظن الرجل غريباً.

فقلت للعجوز: ومن تكون هذه الجارية منك؟

قالت: هي زينب بنت جرير إحدى نساء بني حنظلة.

قلت: هي فارغة أم مشغولة؟

قالت: بل فارغة.

قلت: أتزوجينيها؟

قالت: إن كنت كفأ (ولم تقل كفوا)، وهي لغة بني تميم، فتركتها ومضيت إلى منزلي لأقيل فيه، فامتنعت مني القائلة، فلما صليت الظهر أخذت بيد إخواني من العرب الأشراف علقمة والأسود والمسيب، ومضيت أريد عمها، فاستقبلنا وقال: ما شأنك أبا أمية؟

قلت: زينب ابنة أخيك.

قال: ما بها عنك رغبة. فزوَّجنيها، فلما صارت في حبالي ندمت وقلت أي شيء صنعت بنساء بني تميم، وذكرت غلظ قلوبهن. فقلت أطلقها، ثم قلت: لا، ولكن أدخل بها، فإن رأيت ما أحب وإلا كان ذلك. فلو شهدتني يا شعبي وقد أقبلت نساؤها يهدينها حتى أدخلت علي. فقلت: إن من السنّة إذا دخلت المرأة على زوجها أن يقوم ويصلي ركعتين. ويسأل الله تعالى من خيرها ويتعوذ من شرها، فتوضأت. فإذا هي تتوضأ بوضوئي وصليت فإذا هي تصلي بصلاتي، فلما قضيت صلاتي أتتني جواريها فأخذن ثيابي وألبسنني ملحفة قد صبغت بالزعفران فلما خلا البيت دنوت منها، فمددت يدي إلى ناصيتها، فقالت: على رسلك أبا أمية، ثم قالت: الحمد لله أحمده وأستعينه، وأصلي على محمد وآله، وأما بعد، فإني امرأة غريبة لا علم لي بأخلاقك فبين لي ما تحب فآتيه، وما تكره فأجتنبه. فإنه قد كان لك منكح في قومك ولي في قومي مثل ذلك، ولكن إذا قضى الله أمراً كان مفعولاً، وقد ملكت، فاصنع ما أمرك الله تعالى به، إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولك ولجميع المسلمين.

قال: فأحوجتني والله يا شعبي إلى الخطبة في ذلك الموضع، فقلت: الحمد لله أحمده وأستعينه، وأصلي على محمد وآله أما بعد، فإنك قلت كلاماً إن ثبتِّ عليه يكن ذلك حظاً لي، وإن تدعيه يكن حجة عليك، أحب كذا وأكره كذا، وما رأيت من حسنة فابثثيها وما رأيت من سيئة فاستريها.

فقالت: كيف محبتك لزيارة الأهل؟ قلت: ما أحب أن يملّني أصهاري.

قالت: فمن تحب من جيرانك يدخل دارك آذن له، ومن تكرهه أكرهه.

قلت: بنو فلان قوم صالحون، وبنو فلان قوم سوء.

قال: فبت معها يا شعبي بأنعم ليلة، ومكثت معي حولاً لا أرى منها إلا ما أحب، فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء، وإذا أنا بعجوز في الدار تأمر وتنهى، قلت: من هذه؟ قالوا فلانة أم حليلتك، قلت: مرحباً وأهلا وسهلا، فلما جلست أقبلت العجوز، فقالت: السلام عليك يا أبا أمية.

فقلت: وعليك السلام ومرحباً بك وأهلاً قالت: كيف رأيت زوجتك قلت: خير زوجة وأوفق قرينة لقد أدبت فأحسنت الأدب، وريضت فأحسنت الرياضة، فجزاكي الله خيراً.

فقالت: أبا أمية إن المرأة لا يرى أسوأ حالاً منها في حالتين، قلت: وما هما؟ قالت: إذا ولدت غلاماً أو حظيت عند زوجها، فإن رابك مريب فعليك بالسوط، فوالله ما حاز الرجال في بيوتهم أشر من الروعاء المدللة، فقلت. والله لقد أدبت، فأحسنت الأدب، وريضت فأحسنت الرياضة.

قالت: كيف تحب أن يزورك أصهارك؟ قلت: ما شاءوا، فكانت تأتيني في رأس كل حول فتوصيني بتلك الوصية، فمكثت معي يا شعبي عشرين سنة لم أعب عليها شيئاً، وكان لي جار من كندة يفزع امرأته ويضربها، فقلت في ذلك:

رأيت رجالاً يضربون نساءهم
فشلّت يميني يوم تضربُ زينبُ
أأضربها من غير ذنب أتت بهِ
فما العدلُ منّي ضرب من ليس يذنب
فزينب شمسٌ والنساء كواكبُ
إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب

وخطب الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن جعفر ابنته أم كلثوم على ألفي ألف في السر وخمسمائة ألف في العلانية، فأجابه إلى ذلك، وحملها إلى العراق، فأقامت عنده ثمانية أشهر، فلما خرج عبد الله بن جعفر إلى عبد الملك بن مروان وافداً نزل بدمشق. فأتاه الوليد بن عبد الملك على بغلة، ومعه الناس، فاستقبله ابن جعفر بالترحيب فقال له الوليد: لكنك أنت لا مرحباً بك ولا أهلاً، قال: مهلاً يا ابن أخي، فلست أهلاً لهذه المقالة منك، قال: بلى والله، وبشر منها، قال: وفيم ذلك؟ قال: لأنك عمدت إلى عقيلة نساء العرب وسيدة نساء بني عبد مناف فعرضتها عبد ثقيف يتفخذها. قال: وفي هذا عتبت عليَّ يا ابن أخي؟ قال: نعم، فقال عبد الله: والله ما أحق الناس أن لا يلومني في هذا إلا أنت وأبوك، لأن من كان قبلكم من الولاة كانوا يصلون رحمي ويعرفون حقي، وإنك وأباك منعتماني رفدكما حتى ركبني الدين أما والله لو أن عبداً حبشياً مجدعاً أعطاني بها ما أعطاني عبد ثقيف لزوجتها منه إنما فديت بها رقبتي، فما راجعه كلمة حتى عطف عنانه ومضى حتى دخل على عبد الملك، فقال: ما لك يا أبا عباس؟ قال: إنك سلطت عبد ثقيف وملكته حتى تفخذ نساء بني عبد مناف، فأدركت عبد الملك غيرة، فكتب إلى الحجاج يقسم عليه أن لا يضع كتابه من يده حتى يطلقها ففعل. قال: ولم يكن يقطع الحجاج عنها رزقاً ولا كرامة يجريها عليها حتى خرجت من الدنيا وما زال واصلاً لعبد الله بن جعفر حتى مات. وما كان يأتي عليه حول إلا وعنده عير مقبلة من عند الحجاج عليها أموال وكسوة وتحف.

وحكي أن المغيرة بن شعبة لما ولي الكوفة سار إلى دير هند بنت النعمان وهي فيه عمياء مترهبة، فاستأذن عليها، فقالت: من أنت؟ قال: المغيرة بن شعبة الثقفي. قالت: ما حاجتك؟ قال: جئت خاطباً. قالت: إنك لم تكن جئتني لجمال ولا مال، ولكنك أردت أن تتشرف في محافل العرب. فتقول: تزوجت بنت النعمان بن المنذر، وإلا فأي خير في اجتماع عمياء وأعور. وكان عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قد تزوج عاتكة بنت عمرو بن نفيل، وكانت من أجمل نساء قريش، وكان عبد الرحمن من أحسن الناس وجهاً وأبرّهم بوالديه. فلما دخل بها غلبت على عقله وأحبها حباً شديداً، فثقل ذلك على أبيه، فمر به أبو بكر يوماً، وهو في غرفة له، فقال: يا بني إني أرى هذه المرأة قد أذهلت رأيك، وغلبت على عقلك، فطلقها، قال: لست أقدر على ذلك، فقال: أقسمت عليك إلا طلقتها، فلم يقدر على مخالفة أبيه فطلقها، فجزع عليها جزعاً شديداً، وامتنع من الطعام والشراب، فقيل لأبي بكر أهلكت عبد الرحمن. فمر به يوماً، وعبد الرحمن لا يراه وهو مضطجع في الشمس ويقول هذه الأبيات:

فوالله لا أنساك ما ذرّ شارقٌ
وما ناح قمريُّ الحمام المطوّقُ(١)

---

(١) ذر شار: أي ما نشرت الشمس ضوءها.

فلم أر مثلي طلّق اليوم مثلها
ولا مثلها في غير شيء يطلّقُ
لها خلقٌ عفٌ ودينٌ ومحتدٌ
وخلقٌ سويٌ في الحياء ومنطقُ

فسمعه أبوه فرقّ له وقال له: راجعها يا بني، فراجعها، وأقامت عنده حتى قتل عنها يوم الطائف مع رسول الله ﷺ أصابه سهم فقتله. فجزعت عليه جزعاً شديداً، وقالت ترثيه:

فآليت لا تنفكُّ نفسي حزينةً
عليك ولا ينفكُّ جلدي أغبرا
فتىً طول عمري ما أرى مثله فتىً
أكرّ وأحمى في الهياج وأصبرا
إذا شرعت فيه الأسنة خاضها
إلى القرن حتى يترك الرمح أحمرا[1]

ثم تزوجها بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته، ودعا الناس إلى وليمته، فأتوه، فلما فرغ من الطعام، وخرج الناس قال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين ائذن لي في كلام عاتكة حتى أهنيها، وأدعو لها بالبركة، فذكر عمر ذلك لعاتكة، فقالت: إن أبا الحسن فيه مزاح، فائذن له يا أمير المؤمنين، فأذن له، فرفع جانب الخدر، فنظر إليها فإذا ما بدا من جسدها مضمخ بالخلوق، فقال لها يا عاتكة: ألست القائلة:

فآليت لا تنفك نفسي حزينة
عليك ولا ينفك جلدي أغبرا

وقيل: إن عمر لما قتل عنها جزعت عليه جزعاً شديداً، وتزوجت بعده الزبير بن العوام، وكان رجلاً غيوراً، وكانت تخرج إلى المسجد كعادتها مع أزواجها، فشق ذلك عليه، وكان يكره أن ينهاها عن الخروج إلى الصلاة لحديث رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله» فعرض لها ليلة في ظهر المسجد وهي لا تعرفه، فضرب بيده عجيزتها ثم انصرف، فقعدت بعد ذلك عن الخروج إلى المسجد، وكان يقول لها: ألا تخرجين يا عاتكة؟ فتقول: كنا نخرج إذ الناس ناس وما بهم من باس، وأما الآن فلا. ثم قُتِلَ عنها الزبير قتله عمرو بن جرموز بوادي السباع وهو نائم، ثم تزوجها بعده محمد بن أبي بكر، فقتل عنها بمصر. فقالت: لا أتزوج بعده أبداً إني لأحسبني أني لو تزوجت جميع أهل الأرض لقتلوا عن آخرهم.

---

(١) القرن: الند والمثيل.

وحكي عن الحارث بن عوف بن أبي حارثة أنه قال لخارجة بن سنان: أترى أخطب إلى أحد فيردني، قال: نعم. قال: ومن هو؟ قال: أوس بن حارثة بن لام الطائي. قال: اركب بنا إليه، فركبنا إليه حتى أتينا أوس بن حارثة في بلاده، فوجدناه في فناء منزله، فلما رأى الحارث بن عوف قال: مرحباً بك يا حارث. ثم قال: ما جاء بك؟ قال: جئت خاطباً. قال: لست هناك. فانصرف ولم يكلمه، فدخل أوس على امرأته مغضباً، فقالت له: من الرجل الذي سلم عليك، فلم تطل معه الوقوف ولم تكلمه؟ فقال: ذلك سيد العرب الحارث بن عوف، فقالت: فما لك لا تستنزله؟ قال: إنه استهجنني. قالت: وكيف؟ قال: لأنه جاءني خاطباً، قالت: ألست تزعم أنه سيد العرب. قال: نعم. قالت: إذا لم تزوج سيد العرب في زمانه، فمن تزوج؟ قال: قد كان ذلك. قالت: فتدارك ما كان منك، قال: فبماذا؟ قالت: بأن تلحقه فترده. قال: وكيف، وقد فرط مني إليه ما فرط. قالت: تقول له إنك لقيتني وأنا مغضب لأمر، فلك المعذرة فيما فرط مني، فارجع ولك عندي كل ما طلبت، قال: فركب في أثرهما. قال خارجة بن سنان: فوالله إنا لنسير إذ حانت مني التفاتة فرأيته، فقلت للحارث وهو ما يكلمني هذا أوس في أثرنا، فقال: ما أصنع به، فلما رآنا لا نقف قال: يا حارث أربع عليّ. فوقفنا له. وكلمه بذلك الكلام. فرجع مسروراً. قال خارجة بن سنان: فبلغني أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته: ادعي لي فلانة، أكبر بناته. فأتته. فقال لها: أي بنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب جاءني خاطباً. وقد أردت أن أزوجك منه، فما تقولين؟ قالت: لا تفعل. قال: ولِمَ؟ قالت: لأن في خلقي رداءة وفي لساني حدة، ولست بابنة عمه، فيراعي رحمي ولا هو بجارك في البلد فيستحي منك، ولا آمن أن يرى مني ما يكره، فيطلقني. فيكون عليّ بذلك مسبة، قال لها: قومي بارك الله فيك، ثم دعا ابنته الأخرى، فقال لها مثل قوله لأختها، فأجابته بمثل جوابها، فقال لها: قومي بارك الله فيك، ثم دعا بالثالثة، وكانت أصغرهن سناً، فقال لها مثل ما قال لأختيها، فقالت له: أنت وذاك، فقال لها: إني عرضت ذلك على أختيك، فأبتاه، ولم يذكر لها مقالتهما. فقالت: والله إني الجميلة وجهاً الرفيعة خلقاً الحسنة رأياً، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه، فقال لها: بارك الله فيك. ثم خرج إليه، فقال: زوجتك يا حارث بابنتي هنيسة، قال: قد قبلت نكاحها، وأمر أمها

أن تهيئها له، وتصلح شأنها، ثم أمر ببيت فضرب له، وأنزله إياه، ثم بعثها إليه، فلما دخلت عليه لبث هنيهة ثم خرج إليّ، فقلت له: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله، قلت له: وكيف ذلك؟ قال: لما مددت يدي إليها قالت: مه أعند أبي وأخوتي هذا، والله لا يكون. ثم أمر بالرحلة فارتحلنا بها معاً وسرنا ما شاء الله. قال لي: تقدم، فتقدمت، فعدل عن الطريق، فما لبث أن لحقني، فقلت: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله، قلت ولِمَ؟ قال: قالت تفعل بي كما يفعل بالأمة السبية الأخيذة لا والله حتى تنحر الجزر والغنم وتدعو العرب وتعمل ما يعمل مثلك لمثلي، فقلت: والله إني لأرى همة وعقلاً، فقال: صدقت. قال: أرجو الله أن تكون المرأة النجيبة، فوردنا إلى بلادنا، فأحضر الإبل والغنم ونحر وأولم ثم دخل عليها وخرج إليّ، فقلت: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله. قلت: ولِمَ ذاك؟ قال: دخلت عليها أريدها، فقلت لها: أحضرت من المال ما تريدين. قالت: والله لقد ذكرت من الشرف بما ليس فيك، قلت: ولِمَ ذاك؟ قالت: أتستفرغ لنكاح النساء والعرب يقتل بعضها بعضاً، وكان ذلك في أيام حرب قيس وذبيان. قلت: فماذا تقولين؟ قالت: أخرج إلى القوم، فأصلح بينهم، ثم راجع إلى أهلك فلن يفوتك ما تريد، فقلت: والله إني لأرى عقلا ورأياً سديداً، قال: فاخرج بنا، فخرجنا حتى أتينا القوم، فمشينا بينهم بالصلح، فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى ثم تؤخذ الدية، فحملنا عنهما الديات فكانت ثلاثة آلآف بعير، فانصرفنا بأجمل ذكر، ثم دخل عليها، فقالت له: أما الآن، فنعم، فأقامت عنده في ألذ عيش وأطيبه، وولدت له بنين وبنات وكان من أمرهما ما كان، والله أعلم بالصواب.

وحكى الفضل أبو محمد الطيبي قال: حدثنا بعض أصحابنا أن رجلاً من بني سعد مرت به جارية لأمية بن خالد بن عبد الله بن أسد ذات ظرف وجمال، وكان شجاعاً فارساً، فلما رآها قال: طوبى لمن كان له امرأة مثلك، ثم أتبعها رسولا يسألها ألها زوج ويذكره لها وكان جميلاً، فقالت للرسول: وما حرفته، فأبلغه الرسول ذلك، فقال: ارجع إليها وقل لها:

وسائلة ما حرفتي قلت حرفتي
مقارعة الأبطال في كل شارق(١)

(١) مقارعة الأبطال: القتال، شارق: صباح.

إذا عرضت خيل لخيل رأيتني
أمام رعيل الخيل أحمي حقائقي
أصبّر نفسي حين لم أر صابراً
على ألم البيض الرقاق البوارق(١)

فلحقها الرسول، فأنشدها ما قال، فقالت له: ارجع إليه وقل له أنت أسد، فاطلب لك لبوة، فلست من نسائك، وأنشدته تقول:

ألا إنما أبغي جواداً بماله
كريماً محيّاه كثير الصدائق
فتىً همّه مذ كان خود خريدة
يعانقها في الليل فوق النمارق(٢)

وحدث يحيى بن عبد العزيز عن محمد بن عبد الحكم عن الإمام الشافعي رضي الله عنه قال: تزوج رجل امرأة جديدة على امرأة قديمة فكانت الجارية الجديدة تمر على بيت القديمة فتقول:

وما يستوي الرجلان رجل صحيحة
وأخرى رمى فيها الزمان فشلّت

ثم تعود وتقول:

وما يستوي الثوبان ثوبٌ به البلى
وثوبٌ بأيدي البائعين جديدُ

فمرت الجارية القديمة على باب الجديدة يوماً وقالت:

نقّل فؤادك ما استطعت من الهوى
ما الحبُّ إلاّ للحبيب الأولِ
كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى
وحنينه أبداً لأوّل منزل

وقال عمرو بن العلاء، وكان أعلم الناس بالنساء:

فإن تسألوني بالنساء فإنّني
بصيرٌ بأدواء النساء طبيبُ
إذا شاب رأس المرء أو قلّ مالُهُ
فليس له في ودّهن نصيبُ

وسئل المغيرة بن شعبة عن صفة النساء فقال: بنات العم أحسن مؤاساة، والغرائب أنجب. وما ضرب رؤوس الأقران مثل ابن السوداء. وقال عبد الملك بن مروان: من أراد أن يتخذ جارية للمتعة، فليتخذها بربرية، ومن أراد أن

(١) البيض الرقاق: السيوف الصفاح، البوارق: الملتمعة.
(٢) النمارق ج نمرقة: وهي السجادة أو البساط.

يتخذها للولد فليتخذها فارسية، ومن أراد أن يتخذها للخدمة فليتخذها رومية. قال الشاعر:

لا تشتمنّ امرأً ممّن يكون له
أمٌّ من الروم أو سوداء عجماء
فإنّما أمهات القوم أوعيةٌ
مستودعات وللأنساب آباءُ

وقال الأصمعي أتاني رجل من قريش يستشيرني في امرأة يتزوجها، فقلت: يا ابن أخي أقصيرة النسب أم طويلته؟ فلم يفهم عليّ، فقلت: يا ابن أخي: أما القصيرة النسب فالتي إذا ذكرت أباها اكتفت به، والطويلة النسب فهي التي لا تعرف حتى تطيل في نسبها، فإياك أن تقع مع قوم قد أصابوا كثيراً من الدنيا مع دناءة فيهم، فتضيع نسبك فيهم. وخرج رجل من أهل الكوفة في غزاة، فكسب جارية وفرساً وكان مملكاً على ابنة عمه، فكتب إليها يعيرها ويقول:

إلا بلّغوا أمّ البنين بأننا
غنينا وأغنتنا الغطارفة النجد[1]
بعيد مناط المنكبين[2] إذا جرى
وبيضاء كالتمثال زيّنها العقد
فهذا لأيام العدو وهذه
لحاجة نفسي حين ينصرف الجند

فلما ورد عليها كتابه وقرأته قالت يا غلام: هات الدواة، وكتبت جوابه تقول:

ألا فاقرء مني السلام وقل له
غنينا وأغنتنا الغطارفة المرد[3]
إذا شئت أغناني غلامٌ مرجّلٌ
ونازعته في ماء معتصر الورد
وإن شاء منهم ناشىء مدّ كفه
إلى عكنٍ ملساء أو كفلٍ نهدي[4]
فما كنتم تقضون حاجة أهلكم
شهوداً فتقضوها على النأي والبعد
فعجّل إلينا بالسّراح[5] فإنّهُ
مُنَانا ولا ندعو لك الله بالرد

(١) الغطارفة ج غطريف وهو السيد الكريم، النجد: الذين يهبون بسرعة للنجدة.
(٢) بعيد مناط المنكبين: فرس عريض الكتفين.
(٣) المرد ج أمرد وهو الشاب الصغير السن لم تنبت لحيته.
(٤) العكن: طيات البطن. كفل نهدي: كفل قاس كالنهد.
(٥) السراح: الطلاق.

فلا قفل الجند الذي أنت فيهم
وزادك رب الناس بعداً على بعد

فلما ورد عليه كتابها لم يزد على أن ركب الفرس وأردف الجارية خلفه ولحق بابنة عمه، فكان أول شيء بدأها به بعد السلام أن قال لها: بالله عليك هل كنت فاعلة ذلك، فقالت له: الله في قلبي أعظم وأجل وأنت في عيني أذل وأحقر من أن أعصي الله فيك، فكيف ذقت طعم الغيرة، فوهب لها الجارية، وانصرف إلى الغزاة، والله تعالى أعلم بالصواب.

الفصل الثاني

في صفات النساء المحمودة

كتب الحجاج إلى الحكم بن أيوب أن اخطب لعبد الملك بن مروان امرأة جميلة من بعيد، مليحة من قريب، شريفة في قومها، ذليلة في نفسها، مؤاتية لبعلها. فكتب إليه قد أصبتها لولا عظم ثديها، فكتب إليه لا يكمل حسن المرأة حتى يعظم ثديها، فتدفي الضجيع، وتروي الرضيع.

وقال عبد الملك بن مروان لرجل من غطفان: صف لي أحسن النساء؟ قال: خذها يا أمير المؤمنين ملساء القدمين، ردماء الكعبين، ناعمة الساقين، ضخماء الركبتين، لفاء الفخذين، ضخمة الذراعين. رخصة الكفين، ناهدة الثديين، حمراء الخدين، كحلاء العينين، زجاء الحاجبين لمياء الشفتين بلجاء الجبين، شماء العرنين، شنباء الثغر، محلولكة الشعر، غيداء العنق، مكسرة البطن. فقال: ويحك وأين توجد هذه؟ قال: تجدها في خالص العرب وفي خالص الفرس.

وقال حكيم: عليكم بمن تربت في النعيم ثم أصابتها فاقة فأثر فيها الغنى وأدبها الفقر: وقال رجل لخاطب: ابغ لي امرأة لا تؤنس جاراً ولا توطن داراً، يعني لا تدخل على الجيران ولا تدخل الجيران عليها، وفي مثل هذه قال الشاعر:

هيفاء فيها إذا استقبلتها صلفٌ
عيطاء غامضة الكعبين معطار
خودٌ من الخفرات البيض لم يرها
بساحة الدار لا بعلٌ ولا جار

وقال الأعشى:

لم تمشِ ميلاً ولم تركبْ على جملٍ
ولم تر الشمس إلاّ دونها الكلل

وكانت امرأة عمران بن حطان من أجمل الناس وجهاً،

وكان هو من أقبح الناس وجهاً، فقال لها يوماً: أنا وإياك في الجنة إن شاء الله تعالى، فقالت له: وكيف ذلك؟ فقال: لأني أعطيت مثلك فشكرت وأعطيت مثلي فصبرت، والصابر والشاكر في الجنة. وقال بعضهم: رأيت في طريق مكة أعرابية ما رأيت أحسن منها وجهاً، فقعدت أنظر إليها، وأتعجب من جمالها، فجاء شيخ قصير، فأخذ بردائها وسار بها ومضى فلقيتها مرة أخرى، فقلت لها: من هذا الشيخ؟ قالت: زوجي. قلت: كيف يرضى مثلك بمثله فأنشدت:

أيا عجباً للخود يجري وشاحها
تزف إلى شيخ بأقبح تمثالِ
دعاني إليه أنه ذو قرابةٍ
يعزُّ علينا من بني العم والخالِ

وسمع بعضهم قائلا يقول:

ومن لا يرد مدحي فإن مدائحي
نوافق عند الأكرمين نوامي[1]
نوافق عند المشتري الحمد بالندى
نفاق بنات الحارث بن هشام

فقال: يا ابن أخي ما بلغ من نفاق بنات الحارث بن هشام؟ قال: كن من أجمل الناس وجوهاً وكان أبوهن إذا زوجهن يسوقهن ومهورهن إلى بعولتهن. فقال: يا ابن أخي لو فعل هذا إبليس ببناته لتنافست فيهن الملائكة المقربون.

وقال عبد الملك لابن أبي الرقاع كيف علمك بالنساء؟ قال: أنا والله أعلم الناس بهن، وجعل يقول:

قضاعية الكعبين كندية الحشا
خزاعية الأطراف طائية الفم
لها حكم لقمانٍ وصورة يوسفٍ
ومنطق داودٍ وعفة مريم

وقالوا: الوجه الحسن أحمر، وقد تضرب فيه الصفرة مع طول المكث في الكن والتضمخ بالطيب.

وقالوا: أن الوجه الرقيق البشرة الصافي الأديم إذا خجل يحمرّ وإذا فرق يصفر. ومنه قولهم: ديباج الوجه، يريدون تلونه من رقته، قال علي بن زيد في وصفه:

حمرة خَلْطُ صفرةٍ في بياض
مثل ما حاك حائكٌ ديباجا[2]

(١) نوامي ج نام أو نامية أي أنال بسببها إكراماً يتالى.
(٢) الديباج: نوع من القماش المخملي المُذَهَّب.

وقال علي بن عبد ربه:

بيضاء يحمر خداها إذا خجلت
كما جرى ذهبٌ في صفحتي ورقٍ[1]

وقالوا: إن الجارية الحسناء تتلون بتلون الشمس فهي بالضحى بيضاء وبالعشي صفراء فقال ذو الرمة:

بيضاء صفراء قد تنازعها
لونان من فضةٍ ومن ذهب

قالوا: ليس المرأة الجميلة التي تأخذ بصرك جملة على بعد فإذا دنت منك لم تكن كذلك، بل الجميلة التي كلما كررت بصرك فيها زادتك حسناً.

وقالوا: إن أردت أن ينجب ولدك فأغضبها ثم قع عليها قال الشاعر:

ممّن حملن به وهنّ عواقد
حُبُكَ النطاق فعاش غير مهبّل
حملت به في ليلةٍ مزؤودةٍ
كرهاً وعقد نطاقها لم يحللِ

الفصل الثالث

في صفة المرأة السوء نعوذ بالله تعالى منها

في حكمة دواد عليه السلام: «أن المرأة السوء مثل شرك الصياد لا ينجو منها إلا من رضي الله تعالى عنه».

وقيل: المرأة السوء غل يلقيه الله تعالى في عنق من يشاء من عباده.

وقيل لأعرابي كان ذا تجربة للنساء، صف لنا شر النساء فقال: شرهن النحيفة الجسم القليلة اللحم المحياض الممراض المصفرة الميشومة العسرة المبشومة السلطة البطرة النفرة السريعة الوثبة، كأنها لسان حربة تضحك من غير عجب وتبكي من غير سبب وتدعو على زوجها بالحرب، أنف في السماء وإست في الماء، عرقوبها حديد، منتفخة الوريد كلامها وعيد، وصوتها شديد، وتدفن الحسنات وتفشي السيئات، تعين الزمان على بعلها، ولا تعين بعلها على الزمان، ليس في قلبها عليه رأفة ولا عليها منه مخافة، إن دخل خرجت وإن خرج دخلت، وإن ضحك بكت، وإن بكى ضحكت، كثيرة الدعاء، قليلة الإرعاء تأكل لمّا وتوسع ذماً، ضيقة الباع،

(١) الورق: الفضة.

مهتوكة القناع، صبيها مهزول وبيتها مزبول، إذا حدثت تشير بالأصابع وتبكي في المجامع، بادية من حجابها، نباحة عند بابها، تبكي وهي ظالمة، وتشهد وهي غائبة قد دُلّي لسانها بالزور وسال دمعها بالفجور، ابتلاها الله بالويل والثبور وعظائم الأمور. ويقال: إن المرأة إذا كانت مبغضة لزوجها فإن علامة ذلك أن تكون عند قربها منه مرتدة الطرف عنه كأنها تنظر إلى إنسان غيره من ورائه، وإن كانت محبة له لا تقلع عن النظر إليه.

قال بعضهم:

لقد كنت محتاجاً إلى موت زوجتي
ولكن قرين السوء يُلقى معمّرُ
فيا ليتها صارت إلى القبر عاجلاً
وعذّبها فيه نكيرٌ ومنكر

وقال زيد بن عمير:

أعاتبها حتى إذا قلت أقلعت[1]
أبى الله إلا خزيَها فتعود[2]
فإن طمثت قادت وإن طهرت زنت
فهاتيك تزني دائماً وتقود

وقال داود عليه الصلاة والسلام: المرأة السوء على بعلها كالحمل الثقيل على الشيخ الكبير، والمرأة الصالحة كالتاج المرصع بالذهب كلما رآها قرت عينه برؤيتها والله أعلم.

الفصل الرابع

في مكر النساء وغدرهن وذمهن ومخالفتهن

في حكمة داود عليه الصلاة والسلام: وجدت في الرجال واحداً في ألف ولم أجد واحدة في جميع النساء.

وقيل: إن عيسى عليه الصلاة والسلام لقي إبليس يسوق أربعة أحمرة عليها أحمال فسأله، فقال: أحمل تجارة وأطلب مشترين، فقال: ما أحدها؟ قال: الغرور. قال: من يشتريه؟ قال: السلاطين. قال: فما الثاني؟ قال: الحسد. قال: فمن يشتريه؟ قال: العلماء، قال: فما الثالث؟ قال: الخيانة. قال: فمن يشتريها؟ قال: التجار. قال: فما الرابع؟ قال: الكيد. قال: فمن يشتريه؟ قال: النساء.

---

(١) أقلعت: رجعت عمّا كانت عليه وتابت منه.

(٢) تعود: أي ترجع لما كانت عليه.

وقال حكيم: النساء شر كلهن وشر ما فيهن قلة الاستغناء عنهن.

وقالت الحكماء: لا تثق بامرأة ولا تغتر بمال، وإن كثر.

وقال: النساء حبائل الشيطان.

قال الشاعر:

تمتّع بها ما ساعفتك ولا تكن
جزوعاً إذا بانت فسوف تبين
وخنها وإن كانت تفي لك إنها
على قدم الأيام سوف تخون
وإن هي أعطتك الليّان فإنها
لغيرك من طلاّبها ستلين
وإن حلفت أن ليس تنقض عهدها
فليس لمخضوب البنان يمين
وإن سكبت يوم الفراق دموعها
فليس لعمر الله ذاك يقين

وقال ابن بشار:

رأيت مواعيد النساء كأنها
سرابٌ لمرتاد المناهل حافل
ومنتظر الموعود منهنّ كالذي
يؤمل يوماً أن تلين الجنادل[1]

قال بعض الحكماء: لم تنه عن شيء قط إلا فعلته.

وقال الغنوي:

إنَّ النساء متى ينهين عن خلقٍ
فإنّه واقعٌ لا بدّ مفعول

وقال النخعي: من اقتراب الساعة طاعة النساء، **ويقال**: من أطاع عرسه فقد أضاع نفسه. **وقال علي رضي الله تعالى عنه**: إياك ومشاورة النساء، فإن رأيهن إلى أفن وعزمهن إلى وهن، اكفف أبصارهن بالحجاب، فإن شدة الحجاب خير لهن من الارتياب، وليس خروجهن بأضر من دخول من لا يوثق به عليهن، فإن استطعت أن لا يعرفهن غيرك فافعل.

قال السمعاني:

لا تأمننّ على النساء ولو أخاً
ما في الرجال على النّساء أمين

---

(١) الجنادل: الصخور الصماء الصلبة.

إنّ الأمين وإن تخفّظ جهده
لا بدّ أنّ بنظرة سيخون

وقال غيره:

لا تركنن إلى النساء
ولا تثق بعهودهن
فرضاؤهن جميعهن
معلّق بفروجهن

وقال علي رضي الله تعالى عنه: لا تطلعوا النساء على حال ولا تأمنوهن على مال ولا تذروهن إلا لتدبير العيال، إن تركن وما يردن أوردن المهالك، وأفسدن الممالك ينسين الخير ويحفظن الشر يتهافتن في البهتان ويتمادين في الطغيان.

وقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: ذل من أسند أمره إلى امرأة. وقيل: إن صياداً أتى أبرويز بسمكة، فأعجبه حسنها وسمتها، فأمر له بأربعة آلاف درهم، فخطأته سيرين زوجته، فقال لها: ماذا أفعل؟ فقالت له: إذا جاءك فقل له أذكر كانت أم أنثى؟ فإن قال لك ذكر، فاطلب منه الأنثى، وإن قال لك أنثى فاطلب منه الذكر، فلما أتاه سأله، فقال: كانت أنثى، فقال: ائتني بذكرها، فقال عمر الله الملك كانت بكراً لم تتزوج، فقال زه وأمر له بثمانية آلاف درهم، وقال: اكتبوا في الحكمة: الغدر ومطاوعة النساء يؤديان إلى الغرم الثقيل.

وقال حكيم: اعص النساء وهواك وافعل ما شئت. وقال عمر رضي الله تعالى عنه: أكثروا لهن من قول لا، فإن نعم تغريهن على المسألة، قال: أستعيذ بالله من شرار النساء، وكونوا من خيارهن على حذر.

ومما قيل في الباءة:

ذكر الجماع عند الإمام مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه: قال هو نور وجهك ومخ ساقك منه فَقَلِّلْ أو أكثر.

وقال معاوية رضي الله تعالى عنه: ما رأيت نَهِماً في النساء إلا عرفت ذلك في وجهه.

وكان لرجل امرأة تخاصمه وكلما خاصمته قام إليها فواقعها، فقالت: ويحك كلما تخاصمني تأتيني بشفيع لا أقدر على رده. وأتى رجل إلى علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وقال: إن لي امرأة كلما غشيتها تقول قتلتني، فقال: اقتلها بهذه القتلة وعلي إثمها. وقالوا: من قلّ جماعه فهو أصح بدناً وأنقى جلداً وأطول عمراً، ويعتبر ذلك بذكور الحيوان، وذلك أنه ليس في الحيوان أطول أعماراً من البغال، ولا أقصر أعماراً من العصافير، وهي أكثرها سفاداً، والله تعالى أعلم بالصواب.

الفصل الخامس
في الطلاق وما جاء فيه

عن عبد الرحمن بن محمد بن أخي الأصمعي قال: قال عمي للرشيد في بعض حديثه: يا أمير المؤمنين بلغني إن رجلاً من العرب طلق في يوم واحد خمس نسوة، قال: وكيف ذلك، وإنما لا يجوز للرجل غير أربعة، قال يا أمير المؤمنين: كان متزوجاً بأربعة فدخل عليهن يوماً، فوجدهن متنازعات وكان شريراً، فقال: إلى متى هذا النزاع؟ ما أظن هذا إلا من قبلك يا فلانة لامرأة منهن اذهبي، فأنت طالق. فقالت له صاحبتها: عجلت عليها بالطلاق، ولو أدبتها بغير ذلك لكان أصلح، فقال لها: وأنت أيضاً طالق، فقالت له الثالثة: قبحك الله، فوالله لقد كانتا إليك محسنتين، فقال لها: وأنت أيضاً أيتها المعددة أياديهما طالق، فقالت الرابعة، وكانت هلالية ضاق صدرك إلا أن تؤدب نساءك بالطلاق، فقال لها، وأنت طالق أيضاً. فسمعته جارة له، فأشرفت عليه، وقالت له، والله ما شهدت العرب عليك، ولا على قومك بالضعف إلا لما بلوه منكم ووجدوه فيكم، أبيت إلا طلاق نسائك في ساعة واحدة، فقال لها، وأنت أيتها المتكلمة فيما لا يعنيك طالق إن أجازني بعلك، فأجابه زوجها: قد أجزت لك ذلك. فعجب الرشيد من ذلك.

وطلق رجل امرأته، فلما أرادت الارتحال قال لها: اسمعي وليسمع من حضر، إني والله اعتمدتك برغبة وعاشرتك بمحبة ولم أجد منك زلة ولم يدخلني عنك ملة، ولكن القضاء كان غالباً. فقالت المرأة: جزيت من صاحب ومصحوب خيراً فما استقللت خيرك ولا شكوت ضيرك ولا تمنيت غيرك ولا أجد لك في الرجال شبيهاً وليس لقضاء الله مدفع ولا من حكمه علينا ممنع.

وقال رجل لابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ما تقول في رجل طلق امرأته عدد نجوم السماء؟ فقال: يكفيه من ذلك عدد نجوم الجوزاء.

ذكر من طلق امرأته فتبعتها نفسه

قال الهيثم بن عدي: كانت تحت ابن الغريان بن الأسود بنت عم له، فطلقها فتبعتها نفسه، فكتب إليها يعرض لها بالرجوع، فكتبت إليه تقول:

إن كنت ذا حاجةٍ فاطلب لها بدلاً
إنَّ الغزال الذي ضيّعت مشغولُ

فكتب إليها يقول:

إن كان ذا شغلٍ فالله يكلؤه
فقد لهونا به والحبل موصول
وقد قضينا من استظرافه وطراً
وفي الليالي وفي أيامها طول

وطلق الوليد بن يزيد زوجته سعدى، فلما تزوجت اشتد ذلك عليه وندم على ما كان منه، فدخل عليه أشعب فقال له: هل لك أن تبلغ سعدى عني رسالة ولك عشرة آلاف درهم، قال: أقبضنيها، فأمر له بها، فلما قبضها قال له: هات رسالتك، قال ائتها، فأنشدها.

أسعدى هل إليك لنا سبيلُ
ولا حتّى القيامة من تلاقِ
بلى ولعلّ دهراً أنْ يؤاتي
بموتٍ من خليلك أو فراقِ

قال: فأتاها أشعب، فاستأذن عليها، فأذنت له، فدخل، فقالت له: ما بدا لك في زيارتنا يا أشعب؟ فقال: يا سيدتي أرسلني الوليد إليك برسالة ثم أنشدها الشعر، فقالت لجواريها: عليكن بهذا الخبيث فقال: يا سيدتي إنه دفع إليَّ عشرة آلاف درهم، فهي لك، وأعتقيني لوجه الله، فقالت: والله لا أعتقك أو تبلغ إليه ما أقول لك، قال: يا سيدتي فاجعلي لي جعلاً[1] قالت: لك بساطي هذا. قال: قومي عنه، فقامت، فأخذه، وألقاه على ظهره، وقال: هاتي رسالتك، فقالت:

أتبكي على سعدى وأنت تركتها
فقد ذهبت سعدى فما أنت صانعُ

فلما بلّغه الرسالة ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأخذته كظمة فقال لأشعب: اختر مني إحدى ثلاث إما أن أقتلك، وأما أن أطرحك من هذا القصر. وأما أن ألقيك إلى هذه السباع فتفترسك، فتحير أشعب وأطرق ملياً ثم قال: يا سيدي ما كنت لتعذب عيناً نظرت إلى سعدى، فتبسم وخلّى سبيله.

وممن طلق امرأته فتبعتها نفسه الفرزدق الشاعر طلق النّوَار، ثم ندم على طلاقها. وقال:

ندمت ندامة الكسعي لما
غدت مني مطلقة نوار[1]
فأصبحت الغداة ألوم نفسي
بأمرٍ ليس لي فيه اختيار
وكانت جنّتي فخرجت منها
كآدم حين أخرجه الضّرار
ولو أني ملكت بها يميني
لكان عليَّ للقدر الخيار

وممن طلّق امرأته، فتبعتها نفسه، فندم قيس بن ذريح، وكان أبوه أمره بطلاقها فطلقها، وندم على ذلك فأنشأ يقول:

فنى صبري وعاودني رداعي
وكان فراق لُبنْى كالخداع[2]
تكنّفني الوشاة فأزعجوني
فيا للناس للواشي المطاعِ
فأصبحت الغداة ألوم نفسي
على أمرٍ وليس بمستطاعِ
كمغبون يعضُّ على يديه
تبيّن غبنه عند البياع[3]

وحَدَّث العتبي قال: جاء رجل بامرأة كأنها برج من فضة إلى عبد الرحمن بن الحكم وهو على الكوفة، فقال: إن امرأتي هذه شجّتني فسألها عبد الرحمن، فقالت: نعم يا مولاي غير متعمدة لذلك، كنت أعالج طيباً فوقع الفهر[4] من يدي على رأسه وليس عندي علم ولا يقوى بدني على القصاص، فقال للرجل: علام تمسكها، وقد فعلت بك ما أرى؟ فقال يا مولاي: إن صداقها علي أربعة آلاف درهم، ولا تطيب نفسي بفراقها. قال، فإن أعطيتك الأربعة آلاف درهم تفارقها. قال: نعم، قال: هي لك. قال: فهي إذن

---

(١) الجعل: الأجر المحدد أو ما يدفع في مقابل أمر أو عمل معين.

(١) حكاية الكسعي وكسره لقوسه مشهورة والمراد أنه أخطأ خطأ لا يمكن إصلاحه والعود عنه.

(٢) تزوج قيس بن ذريح لبنى بعد حب وقصة طويلة لكن أمه وأباه شددوا عليه النكير حتى يتزوج غيرها لأنها لم تنجب له فلما لم يفعل كان أبوه يخرج فيقف في الشمس عند الظهيرة ليجبره على طلاقها فلما طلقها ندم.

(٣) المغبون: المخدوع في البيع أو الشراء.

(٤) الفهر: الحجر المستطيل.

طالق. فقال لها عبد الرحمن: إحبسي علينا نفسك، وأنشأ يقول:

يا شيخ يا شيخ من دلاك بالغزل
قد كنت يا شيخ عن هذا بمعتزل
رضت الصعاب فلم تحسن رياضتها
فاعمدْ لنفسك نحو القرّح الذلل

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمدٍ، وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الرابع والسبعون

في تحريم الخمر وذمها والنهي عنها

وقد أنزل الله تعالى في الخمر ثلاث آيات. الأولى قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾[1] الآية، فكان من المسلمين من شارب، ومن تارك إلى أن شرب رجل، فدخل في الصلاة فهجر، فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾[2]، فشربها من شربها من المسلمين وتركها من تركها حتى شربها عمر رضي الله تعالى عنه، فأخذ بلحي بعير وشج به رأس عبد الرحمن بن عوف، ثم قعد ينوح على قتلى بدر بشعر الأسود بن يعفر يقول:

وكائنْ بالقليب قليب بدرِ
من الفتيان والعرب الكرام
أيوعدني ابن كبشة أن سنحيا
وكيف حياة أصداءٍ وهام
أيعجز أن يردّ الموت عنّي
وينشرني إذا بليت عظامي[3]
ألا من مبلغ الرحمن عنّي
بأني تاركٌ شهر الصيام
فقلْ لله يمنعني شرابي
وقل لله يمنعني طعامي

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج مغضباً يجر رداءه، فرفع شيئاً كان في يده، فضربه به، فقال: أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾[1] فقال عمر رضي الله تعالى عنه: انتهينا انتهينا.

ومن الأخبار المتفق عليها في تحريمها قول سيدنا رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة مدمن خمر»[2]. وقوله ﷺ: «أول ما نهاني ربي بعد عبادة الأوثان عن شرب الخمر وملاحاة الرجال».

وممن تركها في الجاهلية عبد الله بن جدعان، وكان جواداً من سادات قريش، وذلك أنه شرب مع أمية بن أبي الصلت الثقفي، فضربه على عينه، فأصبحت عين أمية مخضرّة يخاف عليها الذهاب، فقال له عبد الله: ما بال عينك؟ فسكت، فألح عليه، فقال: ألست ضاربها بالأمس، فقال: أو بلغ مني الشراب ما أبلغ معه إلى هذا، لا أشربها بعد اليوم. ثم دفع له عشرة آلاف درهم، وقال: الخمر عليّ حرام لا أذوقها بعد اليوم أبداً.

وممن حرمها في الجاهلية أيضاً: قيس بن عاصم، وذلك أنه سكر ذات ليلة، فقام لابنته أو لأخته، فهربت منه، فلما أصبح سأل عنها فقيل له: أو ما علمت ما صنعت البارحة؟ فأخبر بالقصة، فحرم الخمر على نفسه.

وممن حرمها في الجاهلية أيضاً: العباس بن مرداس، وقيس بن عاصم، وذلك أن قيساً شرب ذات ليلة، فجعل يتناول القمر ويقول والله لا أبرح حتى أنزله، ثم يثب الوثبة بعد الوثبة ويقع على وجهه، فلما أصبح وأفاق قال: مالي هكذا؟ فأخبروه بالقصة، فقال: والله لا أشربها أبداً. وقيل للعباس بن مرداس: لِمَ تركت الشراب، وهو يزيد في سماحتك؟ فقال: أكره أن أصبح سيد قومي وأمسي سفيههم.

ودخل نصيب على عبد الملك بن مروان فأنشده، فأعجبه إنشاده وشعره ووصله، ثم دعا بالطعام، فطعم منه، فقال له عبد الملك: يا نصيب هل لك فيما ينادم عليه؟ قال يا أمير المؤمنين جلدي أسود وخلقي مشوه

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢١٩).
(٢) سورة النساء، الآية (٤٣).
(٣) ينشرني: يبعثني من بين الموتى حياً.

(١) سورة المائدة، الآية (٩١).
(٢) مدمن الخمر ليس من يداوم على شربها فقط بل من يشربها أيضاً كلما توافرت له ولو كان بين المرة والمرة شهوراً.

ووجهي قبيح، وتكفيني مجالستك ومؤاكلتك، ولم يوصلني إلى ذلك إلا عقلي وأنا أكره أن يدخل عليه ما ينقصه، فأعجبه كلامه ووصله.

وقال الوليد بن عبد الملك للحجاج في وفدة وفدها عليه: هل لك في الشراب؟ فقال يا أمير المؤمنين: لا خلاف لما أمرت ولكن أنا أمنع أهل عملي منه وأكره أن أمنعهم عن شيء ولا أمتنع منه.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾[1]. **وقال تعالى:** ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾[2]. **وقيل لأعرابي:** لِمَ لا تشرب النبيذ؟ فقال: لا أشرب ما يشرب عقلي.

وقال الضحاك بن مزاحم لرجل: ما تصنع بشرب النبيذ؟ قال: يهضم طعامي. قال: أما إنه يهضم من دينك وعقلك أكثر!

قال ابن أبي أوفى لقومه حين نهوا عن الخمر:

ألا يا لقومي ليس في الخمر رفعةٌ
فلا تقربوا منها فلست بفاعلِ
فإنيّ رأيت الخمر شيئاً ولم يزلْ
أخو الخمر دخّالاً لشر المنازلِ

وقال الحسن: لو كان العقل يشترى لتغالي الناس في ثمنه، فالعجب ممن يشتري بماله ما يفسده، **وقال عليه السلام:** حب الدنيا رأس كل خطيئة، والنساء حبائل الشيطان، والخمر داعية إلى كل شر.

وقال بعضهم:

بلوت نبيذ الخمر في كل بلدةٍ
فليس لأخوان النبيذ حفاظ
إذا دارت الأرطال أرضوك بالمنى
وإن فقدوها فالوجوه غلاظ

وقال الحكيم: إياك وإخوان النبيذ فبينما أنت متوج عندهم مخدوم مكرم معظم إذ زلت بك القدم، فجروك على شوك السلم، فاحفظ قول القائل فيه:

وكلُّ أناسٍ يحفظون حريمهم
وليس لأصحاب النبيذ حريم

فإن قلتُ هذا لم أقلْ عن جهالةٍ
ولكنني بالفاسقين عليم

وللأعرج الطائي:

تركت الشعر واستبدلت منه
إذا داعي صلاة الصبح قاما

وقال الصفدي:

دع الخمر فالراحات في ترك راحها
وفي كأسها للمرء كسوة عار
وكم ألبستْ نفسُ الفتى بعد نورها
مدارع قارٍ في مدار عقار

نكتة: اجتمع نصراني ومحدث في سفينة. فصب النصراني خمراً من زق كان معه في شربة وشرب، ثم صب فيها وعرض على المحدث فتناولها من غير فكر ولا مبالاة، فقال النصراني: جعلت فداءك إنما هي خمر. قال: من أين علمت أنها خمر؟ قال: اشتراها غلامي من يهودي وحلف أنها خمر، فشربها المحدث على عجل، وقال للنصراني: يا أحمق نحن أصحاب الحديث نضعف مثل سفيان بن عيينة، ويزيد بن هارون أفنصدق نصرانياً عن غلامه عن يهودي، والله ما شربتها إلا لضعف الإسناد.

ومن المجون في ذلك ما حكي أن سكراناً استلقى على طريق، فجاء كلب فلحس شفتيه، فقال: خدمك بنوك ولا عدموك، فبال على وجهه، فقال: وماء حاراً أيضاً بارك الله فيك، وقيل: حالة السكارى ثلاثة: قرد حرك رأسه فرقص، وكلب هارش فنبح، وحية زويت فنامت.

ومر عقال الناسك بمرداس بن خدام الأسدي، فاستسقاه لبناً، فصب له خمراً وعلاه بلبن فشربه، وسكر ولم يتحرك ثلاثة أيام فقال:

سقيت عقالاً بالعشية شربةً
فمالت بعقل الكاهليّ عقالي
قرعت بأم الخلّ حبّة قلبه
فلم ينتعش منها ثلاث ليالي

ويقال: الخمر مصباح السرور ولكنها مفتاح الشرور، اللهم تب علينا وعلى العصاة والمذنبين برحمتك يا أرحم الراحمين آمين.

---

(١) سورة هود، الآية: (٨٨).

(٢) سورة البقرة، الآية (٤٤).

الباب الخامس والسبعون

في المزاح والنهي عنه وما جاء في الترخيص فيه والبسط والتنعم

وفيه فصول

الفصل الأول

في النهي عن المزاح

قال رسول الله ﷺ: «المزاح استدراج من الشيطان واختلاع من الهوى». وعن علي: ما مزح أحد مزحة إلا مجّ الله من عقله مجة وعنه: إياك أن تذكر من الكلام ما يكون مضحكاً، وإن حكيت ذلك عن غيرك.

وكتب عمر رضي الله تعالى عنه إلى عماله: إمنعوا الناس من المزاح، فإنه يذهب بالمروءة ويوغر الصدور، وقال بعض الحكماء: تجنب سوء المزاح ونكد الهزل، فإنهما بابان إذا فتحا لم يغلقا إلا بعد غم.

وقال آخر: لكل شيء بذر ويذر العداوة المزاح. وعن محمد بن المنكدر قال: قالت لي أمي: لا تمازح الصبيان تهن عندهم، وخرج أعرابي بالليل، فإذا بجارية جميلة فراودها، فقالت: أما لك زاجر من عقلك إذا لم يكن لك واعظ من دينك، فقال: والله ما يرانا إلا الكواكب، فقالت له: يا هذا. وأين مكوكبها؟ فأخجله كلامها، فقال لها: إنما كنت مازحاً، فقالت:

فإياك إيّاك المزاح فإنّه يُجري[1] عليك الطفلَ والرجلَ النذلا

ويذهب ماء الوجه بعد بهائه ويورث بعد العز صاحبه ذلاً

وقال الأحنف: كثرة الضحك تذهب الهيبة، وكثرة المزاح تذهب المروءة، ومن لزم شيئاً عرف به. ومما روي عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم كانوا يتحادثون ويتناشدون الأشعار، فإذا جاء ذكر الله انقلبت حماليقهم كأنهم لم يعرفوا أحداً.

---

(١) يجري: أي يجرىء إنما الانت الهمزة وجعلتها ياءً على عادة بعض العرب وليستقيم الوزن لأنها لو همزت لوجب أن تحرك.

الفصل الثاني

فيما جاء في الترخيص في المزاح والبسط والتنعم

لا بأس بالمزاح ما لم يكن سفهاً، والله تعالى وعد في اللمم بالتجاوز والعفو فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾[1].

وقيل: إن يحيى بن زكريا لقي عيسى عليه الصلاة والسلام فقال: مالي أراك لاهياً كأنك آمن، فقال له عيسى: مالي أراك عابساً كأنك آيس، فقال: لا تبرح حتى ينزل علينا الوحي، فأوحى الله إليهما أن أحبكما إليّ أحسنكما ظناً بي. ويروى إن أحبكما إلي الطلق البسام.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعال عنه لجارية: خلقني خالق الخير وخلقك خالق الشر، فبكت الجارية. فقال عمر: لا بأس عليك، فإن الله خالق الخير والشر.

قال الشاعر:

إنَّ الصديق يريد بسطك مازحاً فإذا رأى منك الملالة يقصرُ

وترى العدو إذا تيقّن أنه يؤذيك بالمزح العنيف يكثّرُ

وكان رسول الله ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقاً، فمن مزحه ﷺ أنه جاء رجل، فقال: يا رسول الله احملني على جمل، فقال عليه الصلاة والسلام: لا أحملك إلا على ولد الناقة، فقال: يا رسول الله، إنه لا يطيقني. فقال له الناس: ويحك. وهل الجمل إلا ولد الناقة؟

وقال رسول الله ﷺ لامرأة من الأنصار: إلحقي زوجك ففي عينيه بياض، فسعت إلى زوجها مرعوبة، فقال لها: ما دهاك؟ قالت إن النبي ﷺ قال لي إن في عينيك بياضاً، فقال: نعم والله وسواداً. وأتته أيضاً عجوز أنصارية، فقالت: يا رسول الله، أدع الله لي أن يدخلني الجنة، فقال لها: يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز، فولت المرأة تبكي، فتبسم ﷺ وقال لها: أما قرأت قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾[2].

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: سابقت رسول الله ﷺ فسبقته، فلما كثر لحمي سابقته، فسبقني،

---

(١) سورة النجم، الآية (٣٢).

(٢) سورة الواقعة، الآيات (٣٥ ـ ٣٧).

فضرب بكتفي، وقال: هذه بتلك، وعنها أيضاً قالت: كان رسول الله ﷺ يدخل وأنا ألعب مع صويحباتي ولا يعيب علي.

وسئل النخعي: هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون؟ قال: نعم، والإيمان في قلوبهم مثل الجبال الرواسي، وكان نعيمان الصحابي من أولع الناس بالمزاح والضحك، قيل: إنه يدخل الجنة وهو يضحك، فمن مزحه إن مر يوماً بمخرمة بن نوفل الزهري وهو ضرير، فقال له قدني حتى أبول، فأخذه بيده حتى أتى به إلى المسجد، فأجلسه في مؤخره، فصاح به الناس إنك في المسجد، فقال: من قادني؟ قالوا: نعيمان، قال لله عليّ نذر أن أضربه بعصاي هذه إن وجدته، فبلغ ذلك نعيمان، فجاء إليه وقال له: يا أبا المنور هل لك في نعيمان، قال: نعم. قال: ها هو قائم يصلي وأخذه بيده وجاء به إلى عثمان بن عفان وهو يصلي، وقال: هذا نعيمان، فعلاه بعصاه، فصاح الناس: أمير المؤمنين، فقال: من قادني؟ قالوا: نعيمان، فقال: والله لا تعرضت له بسوء بعدها.

وقال عطاء بن السائب: كان سعيد بن جبير يقص علينا حتى يبكينا، وربما لم يقم حتى يضحكنا. وكان رجل يسمى تاج الوعظ يعظ الناس ويقص عليهم حتى يبكيهم، ثم لم يقم حتى يضحكهم ويبسط آمالهم. فمن لطائفه أنه حكى يوماً بعدما فرغ من مواعظه قال: سمعت الناس يتكلمون في التصحيف وكنت لا أعرفه، فوقع في قلبي أن أتعلمه، فدخلت في سوق الكتبية واشتريت كتاباً في التصحيف، فأول ما تصحفته وجدت فيه سكباج(1) تصحيفه سك تاج، فرميت الكتاب من يدي وحلفت أني لا أشتغل به أبداً، فضحك الناس حتى غشي عليهم.

ودخل عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان، فوجده يتأوه، فقال يا أمير المؤمنين: لو أدخلت عليك من يؤنسك بأحاديث العرب ويباسطك استرحت؟ فقال: لست بصاحب لهو، فقال: ما الذي تشكوه يا أمير المؤمنين؟ قال: هاج بي عرق النسا في ليلتي هذه، فبلغ مني ما ترى، فقال: إن بديحاً مولاي أرقى الخلق منه، فأمر بإحضاره، فلما مثل بين يديه قال عبد الملك: يا بديح أرق رجلي، فقال يا مولاي أنا أرقى الناس لها، ثم وضع يده عليها، وجعل يقول ما لا يسمع، فقال عبد الملك: قد وجدت راحة بهذه الرقية. اين فلانة ائتوني بها تكتبها لئلا يهيج بي الوجع بالليل، فقال له بديح: الطلاق يلزمه ما أكتبها إلا بتعجيل جائزتي، فأمر له بأربعة آلاف درهم، فقال يا أمير المؤمنين: الطلاق يلزمه ما أكتبها حتى تحمل جائزتي إلى بيتي، قال: تحمل، فحملت، فقال: يا أمير المؤمنين الطلاق يلزمه، ما رقيت رجلك إلا مباسطة بقول نصيب حيث قال:

ألا إنَّ ليلى العامرية أصبحت
على البعد منّي ذنبَ غيري تنقَّمُ

فقال: ويلك ما تقول؟ فقال: الطلاق يلزمه ما رقيتك إلا بها، فقال: اكتمها عليَّ، فقال: كيف، وقد سارت بها الركبان إلى أخيك بمصر، فضحك حتى فحص برجليه، وأعجبه هذا البسط.

وروي أن ابن سيرين كان ينشد قول الشاعر:

أنبئت أنَّ فتاةً كنت أخطبها
عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول(1)

ثم يضحك حتى يسيل لعابه.

ومما جاء في الشطرنج واللعب به والنهي عنه والترخيص فيه:

أما النهي عنه، فقد قيل: إن علياً كرم الله وجهه مر بقوم يلعبون الشطرنج، فقال لهم: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾(2)؟ وكان أبو القاسم الكسروي يقول: لا ترى شطرنجياً غنياً إلا بخيلا، ولا فقيراً إلا طفيلياً، ولا تسمع نادرة باردة إلا على الشطرنج. واحتضر شطرنجي فصار يقول: شاه مات شاه مات مكان الشهادتين حتى مات.

وأما الترخيص فيه، فقد سئل الشعبي عن اللعب بالشطرنج، فقال: لا بأس به إذا لم يكن هناك تقامر وتبادل، **وقال بعضهم**: كنا في السجن مع ابن سيرين، فكان يرانا ونحن نلعب بالشطرنج، فيقوم، فيأتي ويقول: ارفع الفرس ارفع كذا إفعل كذا، ولا يعيب علينا. وعن سعيد بن المسيب قال: كنت ألعب الشطرنج مع صديق في بيته حين خِفْتُ الحَجّاج. ومما قيل لعلي بن الجهم في الشطرنج، وقيل للمأمون:

أرضٌ مربعةٌ حمراء من أدم
ما بين حرّين معروفين بالكرمِ

---

(1) لحم يطبخ بالخل والآبازير.

(1) العرقوب: العصب الغليظ فوق عقب القدم.
(2) سورة الأنبياء، الآية (٥٢).

تذكّرا الحرب فاحتالا لها فطناً
من غير أن يأثما فيها بسفك دم

هذا يغير على هذا وذاك على
هذا يغير وعين الحزم لم تنم

فانظر إلى همم جاشت بمعركةٍ
في عسكرين بلا طبلٍ ولا علم

قالوا: إن سبب وضع الشطرنج أن ملوك الهند ما كانوا يرون بقتال، فإذا تنازع ملكان في كورة أو مملكة تلاعبا بالشطرنج، فيأخذها الغالب من غير قتال. وقيل: إنه كان لبعض ملوك الفرس شطرنج من ياقوت أحمر وأصفر القطعة منه بثلاثة آلاف دينار.

فحكي أن غلماناً من أهل البحرين خرجوا يلعبون بالصوالجة وأسقف البحرين قاعد، فوقعت الأكرة على صدره، فأخذها، فجعلوا يطلبونها منه فأبى، فقال غلام منهم: سألتك بحق محمد ﷺ إلا رددتها علينا، فأبى لعنه الله وسب رسول الله ﷺ، فأقبلوا عليه بصوالجهم، فما زالوا يخبطوا حتى مات لعنة الله عليه، فرفع ذلك إلى عمر رضي الله تعالى عنه فوالله ما فرح بفتح ولا غنيمة كفرحته بقتل الغلمان لذلك الأسقف، وقال: الآن عز الإسلام إن أطفالاً صغاراً شتم نبيهم فغضبوا له وانتصروا وأهدر دم الأسقف، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السادس والسبعون

في النوادر

وفيه فصول

الفصل الأول من هذا الباب

في نوادر العرب

خرج المهدي يتصيد، فغار به فرسه حتى وقع في خباء أعرابي، فقال: يا أعرابي هل من قرى، فأخرج له قرص شعير، فأكله، ثم أخرج له فضله من لبن فسقاه، ثم أتاه بنبيذ في ركوة فسقاه[1]، فلما شرب قال: أتدري من أنا؟

(١) النبيذ: شراب يتخذ من نقيع التمر في الماء، والركوة وعاء صغير من جلد للماء.

قال: لا، قال: أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة، قال: بارك الله لك في موضعك، ثم سقاه مرة أخرى، فشرب فقال: يا أعرابي أتدري من أنا؟ قال: زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة قال: لا. أنا من قواد أمير المؤمنين، قال: رحبت بلادك وطاب مرادك، ثم سقاه الثالثة، فلما فرغ قال: يا أعرابي أتدري من أنا؟ قال: زعمت أنك من قواد أمير المؤمنين، قال: لا، ولكني أمير المؤمنين. قال: فأخذ الأعرابي الركوة، فوكأها[1] وقال: إليك عني، فوالله لو شربت الرابعة لادعيت أنك رسول الله، فضحك المهدي حتى غشي عليه، ثم أحاطت به الخيل، ونزلت إليه الملوك والأشراف، فطار قلب الأعرابي فقال له: لا بأس عليك، ولا خوف، ثم أمر له بكسوة ومال جزيل.

ووجد أعرابي يأكل ويتخوط ويفلي ثوبه، فقيل له في ذلك، فقال: أخرج عتيقاً وأدخل جديداً، وأقتل عدوا.

وقيل لبعض الأعراب: إن شهر رمضان قدم، فقال: والله لأبددن شمله بالأسفار. **وسمع أعرابي** قارئاً يقرأ القرآن حتى أتى على قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾[2]. فقال: لقد هجانا، ثم بعد ذلك سمعه يقرأ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾[3]. فقال: لا بأس هجا ومدح. هذا كما قال شاعرنا:

هجوت زهيراً ثم إني مدحته
وما زالت الأشراف تُهجى وتُمدح

وحضر أعرابي على مائدة يزيد بن مزيد فقال لأصحابه: أفرجوا[4] لأخيكم، فقال الأعرابي: لا حاجة لي بإفراجكم إن أطنابي[5] طوال يعني سواعده، فلما مد يده ضرط، فضحك يزيد، فقال يا أخا العرب: أظن أن طنباً من أطنابك قد انقطع.

ورؤي أعرابي يغطس في البحر ومعه خيط، وكلما غطس غطسة عقد عقدة، فقيل له: ما هذا؟ قال: جنابات الشتاء أقضيها في الصيف.

وسرق أعرابي غاشية من على سرج ثم دخل المسجد

(١) وكأها: ربط فوهتها.
(٢) سورة التوبة، الآية (٩٧).
(٣) سورة التوبة، الآية: (٩٩).
(٤) أي افسحوا له مكاناً.
(٥) الأطناب: حبال الخيمة التي تثبتها بالأرض.

يصلي فقرأ الامام: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ①﴾[1] فقال: يا فقيه لا تدخل في الفضول، فلما قرأ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ②﴾[2] قال: خذوا غاشيتكم ولا يخشع وجهي لا بارك الله لكم فيها ثم رماها من يده وخرج.

وحضر أعرابي مجلس قوم فتذكروا قيام الليل[3] فقيل له: يا أبا أمامة أتقوم الليل؟ فقال: نعم. قالوا: ما تصنع؟ قال: أبول وأرجع أنام.

وسرق أعرابي صرة فيها دارهم ثم دخل المسجد يصلي، وكان اسمه موسى، فقرأ الإمام، ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ⑰﴾[4]، فقال الأعرابي: والله إنك لساحر، ثم رمى الصرة وخرج.

وحكى الأصمعي قال: ضلت لي إبل، فخرجت في طلبها، وكان البرد شديداً، فالتجأت إلى حي من أحياء العرب، وإذا بجماعة يصلون وبقربهم شيخ ملتف بكساء، وهو يرتعد من البرد وينشد:

أيا ربِّ إن البرد أصبح كالحاً
وأنت بحالي يا إلهي أعلم
فإنْ كنتَ يوماً في جهنم مُدخلي
ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم

قال الأصمعي: فتعجبت من فصاحته، وقلت: يا شيخ أما تستحي تقطع الصلاة وأنت شيخ كبير، فأنشد يقول:

أيطمع ربّي أن أصلّي عارياً
ويكسوَ غيري كسوةَ البرد والحرّ
فوالله لا صليت ما عشت عارياً
عشاءً ولا وقت المغيب ولا الوتر[5]
ولا الصبح إلاّ يوم شمسٍ دفيئةٍ
وإن غمَّت فالويل للظهر والعصر
وإن يكسني ربي قميصاً وجبّةً
أصلي له مهما أعيش من العمر

قال: فأعجبني شعره وفصاحته، فنزعت قميصاً وجبّة

(١) سورة الغاشية، الآية (١).
(٢) سورة الغاشية، الآية (٢).
(٣) قيام الليل: قضاؤه في الصلاة.
(٤) سورة طه، الآية (١٧).
(٥) الوتر صلاة الليل وهي ثلاث ركعات أو خمس أو سبع إلى إحدى عشر ركعة وأجازها بعضهم ركعة واحدة.

كانا عليّ ودفعتهما إليه، وقلت له: البسهما وقم، فاستقبل القبلة، وصلّى جالساً وجعل يقول:

إليك اعتذاري من صلاتيَ جالساً
على غير طُهرٍ مُومياً نحو قبلتي
فمالي ببرد الماء يا رب طاقةٌ
ورجلاي لا تقوى على ثني رُكبتي
ولكنني استغفر الله شاتياً
وأقضيكها يا ربّ في وجه صيفتي
وإن أنا لم أفعل فأنت محكّمٌ
بما شئت من صفعي ومن نتف لحيتي

قال: فعجبت من فصاحته، وضحكت عليه وانصرفت. وصلى أعرابي مع قوم فقرأ الإمام ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا﴾[1]، فقال الأعرابي: أهلكك الله وحدك. إيش كان ذنب الذين معك، فقطع القوم الصلاة من شدة الضحك. وقيل: دخلت أعرابية على قوم يصلون، فقرأ الإمام ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾[2] وجعل يرددها، فجعلت الأعرابية تعدو وهي هاربة حتى جاءت لأختها فقالت: يا أختاه ما زال الإمام يأمرهم أن ينكحونا حتى خشيت أن يقعوا عليّ. وصلى أعرابي خلف إمام، فقرأ الإمام: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ⑯﴾[3] وكان في الصف الأول، فتأخر إلى الصف الآخر، فقرأ: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ⑰﴾[4] فتأخر، فقرأ: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ⑱﴾[5]. وكان اسم البدوي مجرماً، فترك الصلاة وخرج هارباً، وهو يقول: والله ما المطلوب غيري، فوجده بعض الأعراب، فقال له: ما لك يا مجرم؟ فقال: إن الامام أهلك الأولين والآخرين وأراد أن يهلكني في الجملة، والله لا رأيته بعد اليوم.

وجلس بعض الأعراب يشرب مع ندائمه فاحتاج إلى بيت الخلاء، فدلوه عليه، فلما دخل جعل يضرط ضراطاً شنيعاً، فضحكوا عليه، فأنشد يقول:

إذا ما خلا الإنسان في بيت غائطٍ
تراخت بلا شك مصاريع فقحته

(١) سورة الملك، الآية: (٢٨).
(٢) سورة النساء، الآية: (٣).
(٣) سورة المرسلات، الآية: (١٦).
(٤) سورة المرسلات، الآية: (١٧).
(٥) سورة المرسلات، الآية: (١٨).

فمن كان ذا عقلٍ فيعذر ضارطاً
ومن كان ذا جهلٍ ففي وسط لحيته

وكان لسابور ملك فارس نديم مضحك يسمى مرزبان. فظهر له من الملك جفوة، فلما زاد ذلك عليه تعلم نبيح الكلاب وعوي الذئاب ونهيق الحمير، وصهيل الخيل، وصوت البغال، ثم احتال حتى دخل موضعاً بقرب خلوة الملك وأخفى أمره، فلما خلا الملك بنفسه نبح نبيح الكلاب، فلم يشك الملك في أنه كلب، فقال: انظروا ما هذا، فعوى عوى الذئاب، فنزل الملك عن سريره، فنهق نهيق الحمير، فمضى الملك هارباً، ومضت الغلمان يتبعون الصوت، فلما دنوا منه صهل صهيل الخيل، فاقتحموا عليه وأخرجوه عرياناً، فلما وصلوا به إلى الملك، ورآه مرزبان ضحك الملك ضحكاً شديداً، وقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: إن الله عز وجل مسخني كلباً وذئباً وحماراً وفرساً لما غضب عليّ الملك. قال: فأمر الملك أن يخلع عليه وأن يرد إلى مرتبته الأولى.

وصلى أعرابي خلف إمام، فقرأ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾(١) ثم وقف وجعل يرددها، فقال الأعرابي أرسل غيره يرحمك الله، وأرحنا وأرح نفسك. وصلى آخر خلف إمام، فقرأ: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾(٢) ووقف وجعل يرددها، فقال الأعرابي: يا فقيه إذا لم يأذن لك أبوك في هذا الليل نظل نحن وقوفاً إلى الصباح، ثم تركه وانصرف.

ولزم أعرابي سفيان بن عيينة مدة يسمع منه الحديث، فلما أن جاء ليسافر قال له سفيان: يا أعرابي ما أعجبك من حديثنا؟ قال: ثلاثة أحاديث، حديث عائشة رضي الله تعالى عنها عن النبي ﷺ أنه كان يحب الحلوى والعسل، وحديثه عليه الصلاة والسلام: إذا وضع العشاء وحضرت الصلاة فابدأوا بالعشاء، وحديث عائشة عنه أيضاً: ليس من البر الصوم في السفر.

وانفرد الرشيد وعيسى بن جعفر ومعه الفضل بن يحيى، فإذا هو بشيخ من الأعراب على حمار وهو رطب العينين، فقال له الفضل: هل أدلك على دواء لعينيك؟ قال: ما أحوجني إلى ذلك، قال: خذ عيدان الهواء وغبار الماء فصيره في قشر بيض الذر واكتحل به ينفعك، فانحنى الشيخ وضرط ضرطة قوية وقال: خذ هذه في لحيتك أجرة وصفتك، وإن زدت زدناك. فضحك الرشيد حتى استلقى على ظهر دابته.

وخرج معن بن زائدة في جماعة من خواصه للصيد، فاعترضهم قطيع ظباء، فتفرقوا في طلبه، وانفرد معن خلف ظبي حتى انقطع عن أصحابه، فلما ظفر به نزل، فذبحه، فرأى شيخاً مقبلاً من البرية على حمار. فركب فرسه واستقبله، فسلم عليه فقال: من أين وإلى أين؟ قال: أتيت من أرض لها عشرون سنة مجدبة، وقد أخصبت في هذه السنة فزرعتها مقثاة، فطرحت في غير وقتها، فجمعت منها ما استحسنته، وقصدت به معن بن زائدة لكرمه المشكور، وفضله المشهور ومعروفه المأثور وإحسانه الموفور، قال: وكم أملت منه؟ قال: ألف دينار. قال: فإن قال لك كثير، قال: خمسمائة، قال: فإن قال لك كثير. قال: ثلاثمائة. قال: فإن قال لك كثير. قال: مائة، قال: فإن قال لك كثير. قال: خمسين، قال: فإن قال لك كثير قال، فلا أقل من الثلاثين، قال: فإن قال لك كثير. قال: أدخل قوائم حماري في [قفاه] وأرجع إلى أهلي خائباً. فضحك معن منه، وساق جواده حتى لحق بأصحابه ونزل في منزله، وقال لحاجبه: إذا أتاك شيخ على حمار بقثاء فأدخل به علي، فأتى بعد ساعة، فلما دخل عليه لم يعرفه لهيبته وجلالته، وكثرة حشمه وخدمه وهو متصدر في دسته، والخدم والحفدة قيام عن يمينه وشماله وبين يديه، فلما سلم عليه قال: ما الذي أتى بك يا أخا العرب قال: أملت الأمير، وأتيته بقثاء في غير أوان، فقال: كم أملت فينا؟ قال: ألف دينار. قال: كثير، فقال: والله لقد كان ذلك الرجل ميشوماً عليّ، ثم قال خمسمائة دينار، قال: كثير فما زال إلى أن قال خمسين دينار، فقال له كثير، فقال: لا أقل من الثلاثين، فضحك معن، فعلم الأعرابي أنه صاحبه، فقال: يا سيدي إن لم تجب إلى الثلاثين فالحمار مربوط بالباب. وها معن جالس، فضحك معن حتى استلقى على فراشه، ثم دعا بوكيله، فقال: أعطه ألف دينار وخمسمائة دينار وثلاثمائة دينار ومائة دينار وخمسين ديناراً وثلاثين ديناراً، ودع الحمار مكانه، فتسلم الأعرابي المال وانصرف.

الفصل الثاني

في نوادر القراء والفقهاء

عن محمد بن عبد الله قال: كنا في دهليز عثمان بن شيبة، فخرج إلينا فقال: ن والقلم في أي سورة.

(١) سورة نوح، الآية (١).
(٢) سورة يوسف، الآية (٨٠).

ومر بعضهم بقارىء يقرأ «الم غلبت الترك في أدنى الأرض» فقال له «الروم». فقال له: كلهم أعداؤنا قاتلهم الله.

وكان جماعة يجلسون إلى أبي العيناء وفيهم رجل لا يتكلم فقيل له يوماً: كيف علمك بكتاب الله؟ قال: أنا عالم به، فقيل له هذه الآية في أي سورة «الحمد لله لا شريك له» فقال له: في سورة الحمد، فضحكوا عليه.

وجاء رجل إلى فقيه، فقال: أفطرت يوماً في رمضان، فقال: اقض يوماً مكانه، قال: قضيت وأتيت أهلي، وقد عملوت مأمونية[1]، فسبقتني يدي إليها، فأكلت منها، فقال: اقض يوماً آخر مكانه. قال: قضيت، وأتيت أهلي وقد عملوا هريسة[2]، فسبقتني يدي إليها، فقال: أرى أن لا تصوم إلا ويدك مغلولة إلى عنقك.

وجاء رجل إلى بعض الفقهاء، فقال له: أنا عبد الله على مذهب ابن حنبل وإني توضأت وصليت، فبينما أنا في الصلاة إذ أحسست ببلل في سروايلي يتلزق، فشممته فإذا رائحته كريهة خبيثة، فقال الفقيه: عافاك الله خريت بإجماع المذاهب.

وجاء رجل إلى فقيه قال: أنا رجل أفسو في ثيابي حتى تفوح روائحي، فهل يجوز لي أن أصلي في ثيابي؟ قال: نعم، لكن لا كثر الله في المسلمين مثلك.

ووقع بين الأعمش وبين امرأته وحشة، فسأل بعض أصحابه من الفقهاء أن يرضيها ويصلح بينهما، فدخل إليها وقال: إن أبا محمد شيخ كبير فلا يزهدنك فيه عمش عينيه، ودقة ساقيه، وضعف ركبتيه ونتن إبطيه، وبخر فيه، وجمود كفيه، فقال له الأعمش: قم قبحك الله فقد أريتها من عيوبي ما لم تكن تعرفه.

وسكن بعض الفقهاء في بيت سقفه يقرقع في كل وقت فجاءه صاحب البيت يطلب الأجرة، فقال له: أصلح السقف، فإنه يقرقع، قال: لا تخف، فإنه يسبح الله تعالى قال: أخشى أن تدركه رقة فيسجد.

(١) نوع من الحلوى تسمى اليوم «المفروكة» وهي تعد من سميد يفرك بالزبدة ويقلى ثم يضاف إليه القطر ويفرد في وعاء ويغطى بالقشدة.

(٢) الهريسة طعام يعد من القمح المطبوخ مع اللحم وحلوى تسمى في أيامنا هذه «النَّمُورة» وصلصة تعد من الفلفل الحار والفليفة الحلوة الحمراء، والمراد الحلوى.

الفصل الثالث

في نوادر القضاة

كان لبعض القضاة بغلة، فقرأ يوماً في المصحف. ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[1]، فقال لغلامه: أطلق البغلة ورزقها على الله، فصارت البغلة تدور الأسواق والأزقة وتأكل من قشور الباذنجان وقشور الرمان وقشور البطيخ، وقمامات الطريق، فماتت، فأمر الغلام بإحضار المشاعلية ليحملوها لظاهر المدينة فأحضرهم، فطلبوا من القاضي عشرة دراهم أجرة حملها وقالوا ليس لنا شيء نرتزق منه إلا من مثل هذا، وسيدنا رجل غني وله أشياء كثيرة، العدالة والتزويج والعقود والوراقة والسجن والإطلاق وجامكية الحكم، وأجرة اليمين والتدريس والأوقاف، فقال لهم القاضي: ألمثلي يقال هذا، وأنتم لكم اثنا عشر باباً من المنافع، منها: الوسخ، والزفر، والهلع، والولع، وبيت النبذة، وشركة النفوس، وجباية الأسواق، وحرق النار، وسلب الشطار، ولكم الضياح وثمن الإصلاح وما تروحوا من هذه البغلة بلا شيء، جلدها للدباغين وذنبها للغرابلية ومعرفتها للشعار وتطبيقتها للبيطار، قال: فتقدم أحدهم إليه، وقال: بحق من تاب عليك ورد عاقبتك إلى خير وأراحك من هذا المعاش تصدق علينا بشيء ولا تدعنا نروح بلاش.

تفسير هذه الألفاظ. الزفر: النساء الزانيات، والوسخ: المراحيض، والهلع: جباية الأسواق، والولع: القمار. وبيت النبذة: محل المزر، وشركة النفوس: كل من حمل ميتاً، ولحقوه قبل أن يخرج من باب البلد كانوا شركاء. وسلب الشطار: كل من شنقوه لهم سلبه.

وولي يحيى بن أكثم قاضياً على أهل جبلة، فبلغه أن الرشيد انحدر إلى البصرة، فقال لأهل جبلة: إذا اجتاز الرشيد فاذكروني عنده بخير، فوعدوه بذلك، فلما جاء الرشيد تقاعدوا عنه، فسرح القاضي لحيته، وكبر عمته وخرج، فرأى الرشيد في الحراقة ومعه أبو يوسف القاضي، فقال يا أمير المؤمنين: نعمَ القاضي قاضي جبلة عدل فينا، وفعل كذا وكذا، وجعل يثني على نفسه، فلما رآه أبو يوسف عرفه، فضحك فقال له الرشيد: مم تضحك؟ فقال يا أمير المؤمنين: المثني على القاضي هو القاضي، فضحك الرشيد حتى فحص برجله الأرض، ثم

(١) سورة هود، الآية (٦).

أمر بعزله فعزل[1].

وأحضر رجل ولده إلى القاضي فقال: يا مولانا إن ولدي هذا يشرب الخمر ولا يصلي، فأنكر ولده ذلك، فقال أبوه: يا سيدي أفتكون صلاة بغير قراءة، فقال الولد إني أقرأ القرآن، فقال له القاضي: اقرأ حتى أسمع فقال:

علق القلب الربابا
بعدما شابت وشابا
إن دين الله حق
لا أرى فيه ارتيابا

فقال أبوه: إنه لم يتعلم هذا إلا البارحة، سرق مصحف الجيران وحفظ هذا منه، فقال القاضي، وأنا الآخر أحفظ آية منها وهي:

فارحمي مضنى كئيباً
قد رأى الهجر عذابا

ثم قال القاضي: قاتلكم الله يعلم أحدكم القرآن ولا يعمل به.

وتقدم اثنان إلى أبي صمصامة القاضي، فادعى أحدهما على الآخر طنبوراً، فأنكر، فقال للمدعي: ألك بينة؟ فقال: لي شاهدان فأحضر رجلين شهدا له، فقال المدعى عليه: سلهما يا سيدي عن صناعتهما، فأخبر أحدهما أنه نباذ، وقال الآخر أنه قواد، فالتفت القاضي إلى المدعى عليه، وقال: أتريد على طنبور أعدل من هذين؟ ادفع إليه طنبوره.

وتحاكم الرشيد وزبيدة إلى أبي يوسف القاضي في الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب، فقال أبو يوسف: أنا لا أحكم على غائب، فأمر الرشيد بإحضارهما، وقدما بين يدي أبي يوسف، فجعل يأكل من هذا مرة ومن هذا مرة حتى نَصَفَ الجامين ثم قال: يا أمير المؤمنين ما رأيت أعدل منهما كلما أردت أن أحكم لأحدهما أتى الآخر بحجته.

وأتى بعض المجان لبعض القضاة فقال: يا سيدي إن امرأتي قحبانا، فقال له القاضي: طلقهانا، فقال: عشقانا. فقال: قودهانا.

وادعى رجل عند قاض على امرأة حسناء بدين، فجعل القاضي يميل إليها بالحكم، فقال الرجل: أصلح الله القاضي حجتي أوضح من هذا النهار، فقال له القاضي: اسكت يا عدو الله، فإن الشمس أوضح من النهار. قم لا حق لك عليها، فقالت المرأة: جزاك الله عن ضعفي خيراً فقد قويته، فقال الرجل: لا جزاك الله عن قوتي خيراً فقد أوهيتها.

ورفعت امرأة زوجها إلى القاضي تبغي الفرقة. وزعمت أنه يبول في الفراش كل ليلة. فقال الرجل للقاضي: يا سيدي لا تعجل علي حتى أقص عليك قصتي، إني أرى في منامي كأني في جزيرة في البحر وفي قصر عالي، وفوق القصر قبة عالية، وفوق القبة جمل وأنا على ظهر الجمل، وإن الجمل يطأطىء برأسه ليشرب من البحر، فإذا رأيت ذلك بلت من شدة الخوف، فلما سمع القاضي ذلك بال في فراشه وثيابه وقال: يا هذه أنا قد أخذني البول من هول حديثه، فكيف بمن يرى الأمر عياناً.

الفصل الرابع
في نوادر النحاة

وقف نحوي على بياع يبيع أرزاً بعسل وبقلاً بخل، فقال: بكم الأرز بالأعسل والأخلل بالأبقل؟ فقال: بالأصفع في الأرؤس والأضرط في الأذقن.

ووقع نحوي في كنيف، فجاء كناس ليخرجه، فصاح به الكناس ليعلم أهو حي أم لا، فقال له النحوي: أطلب لي حبلا دقيقاً وشدني شداً وثيقاً واجذبني جذباً رفيقاً، فقال الكناس: امرأته طالق إن أخرجتك منه، ثم تركه وانصرف.

وكان لبعضهم ولد نحوي يتقعر في كلامه، فاعتل أبوه علة شديدة أشرف منها على الموت، فاجتمع عليه أولاده، وقالوا له: ندعو لك فلاناً أخانا، قال: لا إن جاءني قتلني، فقالوا: نحن نوصيه أن لا يتكلم، فدعوه، فلما دخل عليه قال له يا أبت: قل لا إله إلا الله تدخل بها الجنة وتفوز من النار، يا أبت: والله ما أشغلني عنك إلا فلان، فإنه دعاني بالأمس، فأهرس وأعدس واستبلج وسكبج وطهبج وأفرج ودجج وأبصل وأمضر ولوزج وافلوزج فصاح أبوه غمضوني، فقد سبق ابن الزانية ملك الموت إلى قبض روحي.

وجاء نحوي يعود مريضاً، فطرق بابه، فخرج إليه ولده فقال: كيف وجدت أباك؟ قال: يا عم ورمت رجليه، قال: لا تلحن قل رجلاه، ثم ماذا؟ قال: ثم وصل الورم إلى ركبتاه. قال: لا تلحن قل إلى ركبتيه، ثم ماذا؟ قال: مات وأدخله الله في... عيالك وعيال سيبويه ونفطويه وجحشويه.

---

(١) ثم ولي القضاء في عهد المأمون.

وعاد بعضهم نحوياً، فقال: ما الذي تشكوه؟ قال: حمى جاسية نارها حامية منها الأعضاء واهية والعظام بالية، فقال له: لا شفاك الله بعافية يا ليتها كانت القاضية.

الفصل الخامس

في نوادر المعلمين

قال الجاحظ: مررت بمعلم صبيان وعنده عصا طويلة وعصا قصيرة وصولجان وكرة وطبل وبوق، فقلت ما هذه؟ فقال: عندي صغار أو باش فأقول لأحدهم اقرأ لوحك فيصفر لي بضرطة، فأضربه بالعصا القصيرة، فيتأخر، فأضربه بالعصا الطويلة، فيفر من بين يدي فأضع الكرة في الصولجان وأضربه فأشجه، فتقوم إلي الصغار كلهم بالألواح فأجعل الطبل في عنقي والبوق في فمي وأضرب الطبل وأنفخ في البوق فيسمع أهل الدرب ذلك، فيسارعون إلي ويخلصوني منهم.

وحكى الجاحظ أيضاً قال: مررت على خربة. فإذا بها معلم وهو ينبح نبيح الكلاب، فوقفت أنظر إليه وإذا بصبي قد خرج من دار، فقبض عليه المعلم، وجعل يلطمه ويسبه، فقلت عرفني خبره، فقال: هذا صبي لئيم يكره التعليم ويهرب ويدخل الدار ولا يخرج، وله كلب يلعب به، فإذا سمع صوتي ظن أنه صوت الكلب فيخرج فأمسكه.

وقال الجاحظ: رأيت معلماً في الكتّاب وحده فسألته، فقال: الصغار داخل الدرب يتصارعون فقلت: أحب أن أراهم. فقال: لا أشير عليك بذلك. فقلت: لا بد، قال: فإذا جئت إلى رأس الدرب اكشف رأسك لئلا يعتقدوك المعلم فيصفعونك حتى تعمى.

وقال بعضهم: رأيت معلماً وقد جاء صغيران يتماسكان فقال أحدهما: هذا عض أذني، فقال الآخر: لا والله يا سيدنا هو الذي عض أذن نفسه، فقال المعلم: يا ابن الزانية هو كان جمل يعض أذن نفسه.

وقال بعضهم: رأيت معلماً وهو يصلي العصر، فلما ركع أدخل رأسه بين رجليه، ونظر إلى الصغار وهم يلعبون، وقال: يا ابن البقال قد رأيت الذي عملت وسوف أكافئك إذا فرغت من الصلاة.

وحكي عن الجاحظ أنه قال: ألفت كتاباً في نوادر المعلمين، وما هم عليه من التغفل، ثم رجعت عن ذلك وعزمت على تقطيع ذلك، فدخلت يوماً مدينة، فوجدت فيها معلماً في هيئة حسنة، فسلمت عليه فرد علي أحسن رد ورحب بي فجلست عنده، وباحثته في القرآن، فإذا هو ماهر فيه، ثم فاتحته في الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب، فإذا هو كامل الآداب، فقلت هذا والله مما يقوي عزمي على تقطيع الكتاب. قال: فكنت أختلف إليه وأزوره، فجئت يوماً لزيارته، فإذا بالكتّاب مغلق ولم أجده، فسألت عنه، فقيل: مات له عزيز، فحزن عليه وجلس في بيته للعزاء، فذهبت إلى بيته وطرقت الباب، فخرجت إلي جارية، وقالت: ما تريد؟ قلت: سيدك، فدخلت، وخرجت، وقالت: باسم الله، فدخلت إليه، وإذا به جالس، فقلت: عظم الله أجرك، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، كل نفس ذائقة الموت، فعليك بالصبر، ثم قلت له: هذا الذي توفي ولدك؟ قال لا، قلت: فوالدك، قال: لا، قلت: فأخاك؟ قال: لا، قلت: فزوجتك؟ قال: لا، فقلت: وما هو منك؟ قال: حبيبتي. فقلت في نفسي: هذه أول المناحس، فقلت: سبحان الله النساء كثير وستجد غيرها، فقال: أتظن أني رأيتها؟ قلت: وهذه منحسة ثانية. ثم قلت: وكيف عشقت من لم تر؟ فقال: اعلم إني كنت جالساً في هذا المكان وأنا أنظر من الطاق إذ رأيت رجلا عليه بردٍ وهو يقول:

يـا أم عـمـروٍ جـزاك الله مـكـرمـةً
ردي عـلـى فـؤادي مـثـلـمـا كـانـا

لا تـأخـذيـن فـؤادي تـلـعـبـيـن بـه
فـكـيـف يـلـعـب بـالإنـسـان إنـسـانـا

فقلت في نفسي: لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها، ما قيل فيها هذا الشعر فعشقتها، فلما كان منذ يومين مر ذلك الرجل بعينه وهو يقول:

لـقـد ذهـب الـحـمـار بـأمِّ عـمـروٍ
فـلا رجـعـت ولا رجـع الـحـمـار

فعلمت أنها ماتت، فحزنت عليها، وأغلقت المكتب وجلست في الدار، فقلت: يا هذا إني كنت ألفت كتاباً في نوادركم معشر المعلمين، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه والآن قد قوي عزمي على إبقائه وأول ما أبدأ أبدأ بك إن شاء الله تعالى.

الفصل السادس

في نوادر المتنبئين

ادعى رجل النبوة في أيام الرشيد، فلما مثل بين يديه قال له: ما الذي يقال عنك؟ قال: إني نبي كريم. قال: فأي شيء يدل على صدق دعواك؟ قال: سل عما شئت. قال: أريد أن تجعل هذه المماليك المرد القيام الساعة بلحى،

فأطرق ساعة، ثم رفع رأسه، وقال: كيف يحل أن أجعل هؤلاء المرد بلحى وأغير هذه الصورة الحسنة، وإنما أجعل أصحاب هذه اللحى مرداً في لحظة واحدة، فضحك منه الرشيد وعفا عنه وأمر له بصلة.

وتنبأ إنسان، فطالبوه بحضرة المأمون بمعجزة، فقال: أطرح لكم حصاة في الماء فتذوب. قالوا: رضينا فأخرج حصاة معه وطرحها في الماء فذابت، فقالوا: هذه حيلة ولكن نعطيك حصاة من عندنا ودعها تذوب، فقال: لستم أجل من فرعون ولا أنا أعظم حكمة من موسى، ولم يقل فرعون لموسى لم أرض بما تفعله بعصاك حتى أعطيك عصا من عندي تجعلها ثعباناً. فضحك المأمون وأجازه.

وتنبأ رجل في أيام المعتصم، فلما حضر بين يديه قال: أنت نبي؟ قال: نعم، قال: وإلى من بعثت؟ قال: إليك. قال: أشهد أنك لسفيه أحمق، قال: إنما يبعث إلى كل قوم مثلهم، فضحك المعتصم وأمر له بشيء.

وتنبأ رجل في أيام المأمون وادعى إنه إبراهيم الخليل، فقال له المأمون: إن إبراهيم كانت له معجزات وبراهين، قال: وما براهينه؟ قال: أضرمت له نار وألقي فيها، فصارت عليه برداً وسلاماً، ونحن نوقد لك ناراً ونطرحك فيها، فإن كانت عليك كما كانت عليه آمنا بك، قال: أريد واحدة أخف من هذه، قال: فبراهين موسى، قال: وما براهينه؟ قال: ألقى عصاه فإذا هي حية تسعى وضرب بها البحر، فانفلق، وأدخل يده في جيبه فأخرجها بيضاء. قال: وهذه علي أصعب من الأولى. قال: فبراهين عيسى. قال: وما هي؟ قال: إحياء الموتى. قال: مكانك قد وصلت. أنا أضرب رقبة القاضي يحيى بن أكثم وأحييه لكم الساعة، فقال يحيى: أنا أول من آمن بك وصدّق.

وتنبأ آخر في زمن المأمون، فقال المأمون: أريد منك بطيخاً في هذه الساعة، قال: أمهلني ثلاثة أيام، قال: ما أريده إلا الساعة، قال: ما أنصفتني يا أمير المؤمنين إذا كان الله تعالى الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ما يخرجه إلا في ثلاثة أشهر، فما تصبر أنت علي ثلاثة أيام، فضحك منه ووصله.

وتنبأ آخر في زمن المأمون، فلما مثل بين يديه. قال له من أنت؟ قال: أنا أحمد النبي قال: لقد ادعيت زوراً، فلما رأى الأعوان قد أحاطت به وهو ذاهب معهم قال: يا أمير المؤمنين أنا أحمد النبي، فهل تذمه أنت، فضحك المأمون منه وخلّى سبيله.

وتنبأ آخر في زمن المتوكل، فلما حضر بين يديه قال له: أنت نبي؟ قال: نعم، قال: فما الدليل على صحة نبوتك؟ قال: القرآن العزيز يشهد بنبوتي في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝﴾[1] وأنا إسمي نصر الله، قال: فما معجزتك؟ قال: ائتوني بامرأة عاقر أنكحها تحمل بولد يتكلم في الساعة ويؤمن بي، فقال المتوكل لوزيره الحسن بن عيسى أعطه زوجتك حتى تبصر كرامته، فقال الوزير: أما أنا فأشهد أنه نبي الله، وإنما يعطي زوجته من لا يؤمن به. فضحك المتوكل وأطلقه.

وادعى رجل النبوة زمن خالد بن عبد الله القسري وعارض القرآن فأتي به إلى خالد فقال له: ما تقول؟ قال: عارضت القرآن. قال: بماذا؟ قال: قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝﴾[2] الآية، وقلت إنا أعطيناك الجماهر فصل لربك وجاهر ولا تطع كل ساحر. فأمر به خالد فضرب عنقه وصلب، فمر به خلف بن خليفة الشاعر، فضرب بيده على الخشبة وقال: إنا أعطيناك العود فصل لربك من قعود وأنا ضامن لك أن لا تعود.

وأُتي المأمون برجل ادعى النبوة، فقال له: ألك علامة على نبوتك؟ قال: علامتي أني أعلم ما في نفسك، قال: وما في نفسي؟ قال: في نفسك أني كاذب، قال: صدقت. ثم أمر به إلى السجن، فأقام فيه أياماً، ثم أخرجه، فقال: هل أوحي إليك بشيء؟ قال: لا. قال: ولِمَ؟ قال: لأن الملائكة لا تدخل الحبوس. فضحك منه وخلى سبيله.

وأُتي بامرأة تنبأت في أيام المتوكل، فقال لها: أنت نبية؟ قالت: نعم. قال: أتؤمنين بمحمد؟ قالت: نعم، قال: فإنه ﷺ قال: لا نبي بعدي، قالت: فهل قال لا نبية بعدي، فضحك المتوكل وأطلقها.

وتنبأ رجل يسمى نوحاً، وكان له صديق نهاه، فلم يقبل، فأمر السلطان بقتله، فمر به صديقه، فقال له: يا نوح ما حصلت من السفينة إلا على الصاري.

الفصل السابع

في نوادر السؤال

وقف أعرابي بباب يسأل، فقال له صغير من باب الدار: بورك فيك، فقال: قبح الله هذا الفم لقد تعلمت الشر صغيراً.

---

(١) سورة النصر، الآية (١).

(٢) سورة الكوثر، الآية (١).

ووقف سائل على باب فقال: يا أصحاب المنزل، فبادر صاحب الدار قبل أن يتم كلامه وقال: فتح الله عليك، فقال السائل: يا . . . . كنت تصبر لعلي جئت أدعوك إلى وليمة.

وقال أبو عثمان الجاحظ: وقف سائل بقوم فقال: إني جائع، فقالوا له: كذبت، فقال: جربوني برطلين من الخبز ورطلين من اللحم.

ووقف سائل على باب، فقالوا: يفتح الله عليك، فقال: كسرة، فقالوا: ما نقدر عليها، قال: فقليل من بر أو فول أو شعير، قالوا: لا نقدر عليه، قال: فقطعة دهن أو قليل زيت أو لبن. قالوا: لا نجده، قال: فشربة ماء. قالوا: وليس عندنا ماء، قال: فما جلوسكم ههنا قوموا فاسألوا، فأنتم أحق مني بالسؤال.

الفصل الثامن
في نوادر المؤذنين

قيل لمؤذن: ما نسمع أذانك، فلو رفعت صوتك، فقال: إني أسمع صوتي من مسيرة ميل. وقال بعضهم: رأيت مؤذناً أذّن ثم غدا يهرول، فقلت له: إلى أين؟ فقال: أحب أن أسمع أذاني أين بلغ.

واختصم رجلان في جارية فأودعاها عند مؤذن، فلما أصبح وفرغ من الأذان قال: لا إله إلا الله ذهبت الأمانة من الناس، فقالوا له: كيف ذهبت الأمانة من الناس؟ قال: هذه الجارية التي وضعت عندي قيل إنها بكر، فلما أتيتها وجدتها ثيباً.

وسمع مؤذن حمص يقول في سحور رمضان: تسحروا فقد أمرتكم وعجلوا في أكلكم قبل أن أؤذن، فيسخم الله وجوهكم. وشوهد مؤذن يؤذن من رقعة، فقيل له: ما تحفظ الأذان؟ فقال: سلوا القاضي، فأتوه، فقالوا: السلام عليكم، فأخرج دفتراً وتصحيفة وقال: وعليكم، فعذروا المؤذن.

وسمعت امرأة مؤذناً يؤذن بعد طلوع الشمس ويقول الصلاة خير من النوم، فقالت: النوم خير من هذه الصلاة.

ومر سكران بمؤذن رديء الصوت فجلد به الأرض وجعل يدوس بطنه، فاجتمع إليه الناس فقال: والله ما بي رداءة صوته، ولكن شماتة اليهود والنصارى بالمسلمين.

الفصل التاسع
في نوادر النواتية

حكي أن بعض النواتية تولى أحد الكراسي السلطانية لما ساعده الزمان، فبينما هو جالس في داره إذ سمع صوتاً وراء الباب فقال لزوجته: إني أسمع غاغة في البر حلي قلوعي واعملي أسفيرتي على جاموري وقدمي إلى إسقالة الرجل، وقيميني بمدرة، فامتثلت كلامه، فنزل وجلس على مصطبته وقد علت مرتبته، واصطفت المقدمون بين يديه ووقفت الحبرتية حوليه، وإذا بشيخ قد أقبل وثيابه مقطعة وعمامته في حلقه والدم نازل من أنفه وهو يصيح بصوت عال: أنا بالله وبالوالي، فقال: تعال يا شيخ مالي أرى أرطمونك في حلقك وشبورتك مكسورة وأنت بتزلع ماء متغير وتقيم الهليلا في الساحل دخل عليك شرد غربي وإلا دخلت على بواجي، فقال الشيخ: والله يا سيدي بعض نواتية البحر عمل بي هذا، فقال: يا أولاد جيبوا غريمو بخنسوا عدته وقشطوا ظهره وجروه على مقدمه، فامتثلوا كلام الأمير وجاءوا بالغريم فلما مثل بين يديه قال له: ويلك هو أنت بغنوس بسفر البحر أنت الذي قطعت القلس وخرجت في الشعث حتى لقيت هذا الرجل نطحت مخطمته وكسرت اسقالته؛ لو انصلح كنت عملتك في بدراوة وعلقتك في الصاري، فلما سمع الرجل كلام الوالي علم أنه من أولاد المعيشة، فقال له بهمترة النواتية: والله يا خوند هو كار زني في معاشي اجصطن على الوحسة وأنا عايم في الليل إلا وشرد جاني من الشرق كابس هز أطرافي وكسر شابورتي وقطع لباني وها هو يحمد الله على بر السلامة، وإن كان انصلح فيه شيء فأنا بمرسوم الأمير أجيب له القلفاط، أسد فتحه وأعيد له وسقه وأخليه يروح في طريقه، فقال له الوالي: أنت بتقذف في وجهي وتطرح مقاديفك حتى نعبر على الحجر، يا رجالة الصاري سلسلوا أطرافه وعروا مقاديفه، وبلوا شيبنة اللبان وانزلوا عليه وأوسقوه الجنبين والظهر حتى تلعب المية على بطونسته، هيا قوامك خلوا جنب برا وجنب جوا قدام الخن وراء الصاري، فأكل علقة من كعبه إلى أذنه، فقالت النواتية: يا خوند هو خنفست عليه الطمية البحرية؟ قال: مدراتين وقيموه فلما أقاموه باس يد الأمير وقال: يا خوند سألتك بهبوب الرياح وطيب النسيم الرب لا يبليك بجر اللبان في الحلافي وأنت حافي الصيافي ويكفيك شر الأربعينيات قال: فرق عليه قلب الأمير وقال له: وحق من ضرب القلع باللبان الحلفا عند بخنسة الريح وفروغ الزاد بعيد من البلاد وعياط الركاب عند قيام الموجة وبعد البر في أيام النيل، لولا شفاعة الركاب لكنت أهد سقالتك وأقعد في زوايدك حتى أخلي ظهرك جيفة، فقال له: والله يا خوند ما بقي جنبي يحمل هذا الوسق العظيم

ولكن إن عدت أعبر لهذا الوجه أخسف من أضلاعي لوح وغرقني بالقايم، فقال له الأمير: أحمد الله على السلامة وأخرج في دي الطيابة وكتب له مرسوم وعلم عليه علامة الرياس البحرية للنواتية الله لك الله لي يا عملات على أبوس.

الفصل العاشر

في نوارد جامعة

سمعت امرأة في الحديث أن صوم يوم عاشوراء كفارة سنة، فصامت إلى الظهر ثم أفطرت وقالت: يكفيني كفارة ستة أشهر منها شهر رمضان.

وأسلم مجوسي في شهر رمضان فثقل عليه الصيام، فنزل إلى سرداب وقعد يأكل فسمع ابنه حسه فقال: من هذا؟ فقال: أبوك الشقي يأكل خبز نفسه ويفزع من الناس.

وسئل بعض القصاص عن نصراني قال: لا إله إلا الله، لا غير إذا مات أين يدفن؟ قال: يدفن بين مقابر المسلمين والنصارى ليكون مذبذباً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

وأهدي إلى سالم القصاص خاتم بلا فص، فقال: إن صاحب هذا الخاتم يعطى في الجنة غرفة بلا سقف.

وبنى بعض المغفلين نصف دار وبنى رجل آخر النصف الآخر، فقال المغفل يوماً: قد عولت على بيع النصف الذي لي، وأشتري به النصف الآخر لتكمل لي الدار كلها.

وسئل جامع الصيدلاني عن عمر ابنته فقال: لا أدري إلا أن أمها ذكرت أنها ولدتها في أيام البراغيث. وقيل لطفيلي: أي سورة تعجبك من القرآن؟ قال: المائدة. قال: فأي آية؟ قال: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾[1] قيل: ثم ماذا؟ قال: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾[2]، قيل: ثم ماذا؟ قال: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾[3]، قيل: ثم ماذا؟ قال: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[4].

وقيل لعثمان بن دراج الطفيلي يوماً: كيف تصنع بدار العرس إذا لم يدخلك أصحابها؟ قال: أنوح على بابهم فيتطيرون من ذلك، فيدخلوني، وقيل له: أتعرف بستان فلان؟ قال: إي والله إنه الجنة الحاضرة في الدنيا، قيل: لِمَ لا تدخله وتأكل من ثماره وتستظل بأشجاره وتسبح في أنهاره؟ قال: لأن فيه كلباً لا يتمضمض إلا بدماء عراقيب الرجال. وقيل له يوماً: ما هذه الصفرة التي في لونك؟ قال: من الفترة بين المضيفين. وقال: مرت بنا جنازة يوماً ومعي ابني ومع الجنازة امرأة تبكي وتقول: الآن يذهبون بك إلى بيت لا فراش فيه، ولا غطاء، ولا وطاء ولا خبز ولا ماء، فقال ابني: يا أبت إلى بيتنا والله يذهبون.

وحكي عن هارون الرشيد أنه أرق ذات ليلة أرقاً شديداً، فقال لوزيره جعفر بن يحيى البرمكي: إني أرقت هذه الليلة وضاق صدري ولم أعرف ما أصنع، وكان خادمه مسرور واقفاً أمامه فضحك، فقال له: ما يضحكك استهزاء بي أم استخفافاً؟ فقال: وقرابتك من سيد المرسلين ﷺ ما فعلت ذلك عمداً ولكن خرجت بالأمس أتمشى بظاهر القصر إلى أن جئت إلى جانب الدجلة فوجدت الناس مجتمعين، فوقفت فرأيت رجلاً واقفاً يضحك الناس يقال له ابن المغازلي، فتفكرت الآن في شيء من حديثه وكلامه، فضحكت والعفو يا أمير المؤمنين، فقال له الرشيد: ائتني الساعة به، فخرج مسرور مسرعاً إلى أن جاء إلى ابن المغازلي فقال له: أجب أمير المؤمنين، فقال: سمعاً وطاعة، فقال له: بشرط أنه إذا أنعم عليك بشيء يكون لك منه الربع والبقية لي، فقال له: بل اجعل لي النصف ولك النصف، فأبى، فقال: الثلث لي ولك الثلثان، فأجابه إلى ذلك بعد جهد عظيم. فلما دخل على الرشيد سلم، فأبلغ وترجم فأحسن، ووقف بين يديه، فقال له أمير المؤمنين: إن أنت أضحكتني أعطيتك خمسمائة دينار وإن لم تضحكني أضربك بهذا الجراب ثلاث ضربات، فقال ابن المغازلي في نفسه، وما عسى أن تكون ثلاث ضربات بهذا الجراب؟ وظن في نفسه أن الجراب فارغ، فوقف يتكلم ويتمسخر وفعل أفعالاً عجيبة تضحك الجلمود، فلم يضحك الرشيد، ولم يتبسم، فتعجب ابن المغازلي وضجر وخاف، فقال له الرشيد: الآن استحقيت الضرب، ثم أنه أخذ الجراب ولفه وكان فيه أربع زلطات كل واحدة وزنها رطلان، فضربه ضربة، فلما وقعت الضربة في رقبته صرخ صرخة عظيمة وافتكر الشرط الذي شرطه عليه مسرور، فقال: العفو يا أمير المؤمنين اسمع مني كلمتين. قال: قل ما بدالك. قال: إن مسروراً شرط علي شرطاً واتفقت أنا وإياه على مصلحة، وهو أن ما حصل لي من الصدقات يكون له فيه الثلثان ولي فيه الثلث وما أجابني إلى ذلك إلا بعد جهد عظيم. وقد شرط علي أمير المؤمنين ثلاث ضربات فنصيبي منها واحدة ونصيبه اثنتان، وقد أخذت نصيبي وبقي نصيبه، قال: فضحك

---

(١) سورة الحجر، الآية (٣).

(٢) سورة الكهف، الآية (٦٢).

(٣) سورة الحجر، الآية (٤٦).

(٤) سورة الحجر، الآية (٤٨).

الرشيد ودعا مسروراً، فضربه، فصاح، وقال: يا أمير المؤمنين قد وهبت له ما بقي. فضحك الرشيد وأمر لهما بألف دينار، فأخذ كل واحد منهما خمسمائة دينار، ورجع ابن المغازلي شاكراً والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السابع والسبعون
في الدعاء وآدابه وشروطه
وفيه فصول

الفصل الأول
في الدعاء وآدابه

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(١). اختلف في سبب نزولها، فقال مقاتل: إن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه واقع امرأته بعدما صلى العشاء في رمضان فندم على ذلك وبكى وجاء إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك ورجع مغتماً، وكان ذلك قبل الرخصة، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾(١).

وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: قالت اليهود كيف يسمع ربنا دعاءنا وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء خمسمائة عام، وغلظ كل سماء مثل ذلك؟ فنزلت هذه الآية.

وقال الحسن: إن قوماً قالوا للنبي ﷺ: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فنزلت هذه الآية. قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(١). أي أقبل عبادة من عبدني، فالدعاء بمعنى العبادة والإجابة بمعنى القبول.

وقال قوم: إن الله تعالى يجيب كل الدعاء، فإما أن يعجل الإجابة في الدنيا، وإما أن يكفر عن الداعي وإما أن يدخر له في الآخرة لما رواه أبو سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة لاحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخر له ثوابها، وإما أن يكف عنه من السوء بمثلها». وروي أنه إذا كان يوم القيامة واستقر

(١) سورة البقرة، الآية (١٨٦).

أهل الجنة في الجنة، فبينما العبد المؤمن في قصره، وإذا ملائكة من عند ربه يأتونه بتحف من عند الله، فيقول ما هذا؟ أليس الله قد أنعم علي وأكرمني، فيقولون ألست كنت تدعو الله في الدنيا؟ هذا دعاؤك الذي كنت تدعوه قد أدخر لك.

واعلم أن إجابة الدعاء لا بد لها من شروط، فشرط الداعي أن يكون عالماً بأن لا قادر إلا الله، وأن الوسائط في قبضته، ومسخرة بتسخيره، وأن يدعو بنية صادقة وحضور قلب، فإن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب لاه، وأن يكون متجنباً لأكل الحرام ولا يمل من الدعاء، ومن شروط المدعو فيه أن يكون من الأمور الجائزة الطلب والفعل شرعاً كما قال عليه الصلاة والسلام: ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، فيدخل في الإثم كل ما يأثم به من الذنوب، ويدخل في الرحم جميع حقوق المسلمين ومظالمهم.

قال ابن عطاء الله: إن للدعاء أركاناً وأجنحة وأسباباً وأوقاتاً، فإن وافق أركانه قوي وإن وافق أجنحته طار إلى السماء وإن وافق مواقيته فاز وإن وافق أسبابه نجح، فأركانه حضور القلب والخشوع وأجنحته الصدق ومواقيته الأسحار وأسبابه الصلاة على النبي ﷺ ومن شروط الدعاء أن يكون سليماً من اللحن، كما قال بعضهم:

ينادي ربه باللحن ليث
كذلك إذ دعاه لا يجاب

وقيل: إن الله تعالى لا يستجيب دعاء عريف ولا شرطي ولا جاب ولا عشار ولا صاحب عرطبة، وهي الطنبور، ولا صاحب كوبة، وهي الطبل الكبير الضيق الوسط. ومن آداب الدعاء أن يدعو الداعي مستقبل القبلة ويرفع يديه. لما روي عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ربكم حي كريم ليستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً». أو أن يمسح بهما وجهه بعد الدعاء، لما روي عن عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا مد يديه في الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه وأن لا يرفع بصره إلى السماء لقوله ﷺ: «لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء، أو ليخطفن الله أبصارهم» وأن يخفض الداعي صوته بالدعاء لقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾(١). وعن أبي عبد الرحمن الهمداني قال: صليت مع أبي إسحاق الغداة فسمع رجلا يجهر في الدعاء

(١) سورة الأعراف، الآية (٥٥).

فقال: كن كزكريا إذ نادى ربه نداء خفيا، وينبغي للداعي أن لا يتكلف وأن يأتي بالكلام المطبوع غير المسجوع، لقوله ﷺ: «إياكم والسجع في الدعاء بحسب أحدكم. يقول: أللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل». وقيل: ادعوا بلسان الذلة والاحتقار ولا تدعوا بلسان الفصاحة والانطلاق. وكانوا لا يزيدون في الدعاء على سبع كلمات، فما دونها، كما في آخر سورة البقرة. وعن سفيان بن عيينة: لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه، فقد أجاب الله دعاء شر الخلق إبليس، إذ قال: «رب انظرني إلى يوم يبعثون» وعن النبي ﷺ: إذا سأل أحدكم مسألة فتعرف الاجابة، فليقل: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، ومن أبطأ عليه من ذلك شيء فليقل: الحمد لله على كل حال. وعن سلمة بن الأكوع قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يستفتح الدعاء إلا قال: «سبحان ربي الأعلى الوهاب». وعن أبي سليمان الداراني: من أراد أن يسأل الله حاجة، فليبدأ بالصلاة على رسول الله ﷺ وينبغي للمؤمن أن يجتهد في الدعاء وأن يكون على رجاء من الإجابة، ولا يقنط من رحمة الله لأنه يدعو كريماً.

وللدعاء أوقات وأحوال يكون الغالب فيها الإجابة، وذلك وقت السحر ووقت الفطر وما بين الأذان والإقامة، وعند جلسة الخطيب بين الخطبتين إلى أن يسلم من الصلاة، وعند نزول الغيث وعند التقاء الجيش في الجهاد في سبيل الله تعالى، وفي الثلث الأخير من الليل لما جاء في الحديث: «إن في الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه». وفي حالة السجود لقوله عليه الصلاة والسلام أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء، وما بين الظهر والعصر في يوم الأربعاء وأوقات الاضطرار وحالة السفر والمرض. هذا كله جاءت به الآثار. قال جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه: دعا رسول الله ﷺ في مسجد الفتح ثلاثة أيام: يوم الاثنين ويوم الثلاثاء، واستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين، فعرفت السرور في وجهه، قال جابر: ما نزل بي أمر مهم غليظ إلا توخيت تلك الساعة فادعو فيها فأعرف الإجابة. وفي بعض الكتب المنزلة: يا عبدي إذا سألت فاسألني فإني غني وإذا طلبت النصرة فاطلبها مني فإني قوي، وإذا أفشيت سرك فافشه إلي فإني وفي وإذا أقرضت فأقرضني فإني ملي، وإذا دعوت فادعني فإني حفي».

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له». وقال وهب بن منبه بلغني أن موسى مر برجل قائم يبكي ويتضرع طويلاً، فقال موسى: يا رب أما تستجيب لعبدك؟ فأوحى الله تعالى إليه: «يا موسى لو أنه بكي حتى تلفت نفسه ورفع يديه حتى يبلغ عنان السماء ما استجبت له». قال: يا رب لمَ ذلك؟ قال: لأن في بطنه الحرام. ومر إبراهيم بن أدهم بسوق البصرة فاجتمع الناس إليه وقالوا: يا أبا إسحاق ما لنا ندعوا فلا يستجاب لنا؟ قال: لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء: الأول أنكم عرفتم الله فلم تؤدوا حقه، الثاني زعمتم أنكم تحبون رسول الله ﷺ ثم تركتم سنته، الثالث: قرأتم القرآن ولم تعملوا به، الرابع أكلتم نعمة الله ولم تؤدوا شكرها، الخامس قلت إن الشيطان عدوكم ووافقتموه، السادس: قلتم إن الجنة حق فلم تعملوا لها، السابع قلتم إن النار حق ولم تهربوا منها، الثامن: قلتم إن الموت حق فلم تستعدوا له، التاسع: انتبهتم من النوم واشتغلتم بعيوب الناس وتركتم عيوبكم، العاشر: دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم.

وكان يحيى بن معاذ يقول: من أقر لله باساءته جاد الله عليه بمغفرته، ومن لم يمن على الله بطاعته أوصله إلى جنته، ومن أخلص لله في دعوته منّ الله عليه بإجابته.

وقال علي رضي الله تعالى عنه: ارفعوا أفواج البلايا بالدعاء. وعن أنس رضي الله تعالى عنه (يرفعه): «لا تعجزوا عن الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد».

الفصل الثاني
في الأدعية وما جاء فيها

كان من دعاء شريح رحمه الله تعالى: اللهم إني أسألك الجنة بلا عمل عملته، وأعوذ بك من النار بلا ذنب تركته. ودعت أعرابية عند البيت فقالت: إلهي لك أذل وعليك أدل.

وكان من دعاء بعض الصالحين اللهم إن كنا عصيناك فقد تركنا من معاصيك أبغضها إليك وهو الإشراك وإن كنا قصرنا عن بعض طاعتك فقد تمسكنا بأحبها إليك وهو شهادة أن لا إله إلا أنت وإن رسلك جاءت بالحق من عندك.

ومن دعاء سلام بن مطيع: «اللهم إن كنت بلغت أحداً

من عبادك الصالحين درجة ببلاء فبلغنيها بالعافية». **وقيل لفتح الموصلي**: ادع الله لنا، فقال: اللهم هبنا عطاءك ولا تكشف عنا غطاءك. وكان من دعاء بعض السلف: اللهم لا تحرمني خير ما عندك لشر ما عندي فإن لم تقبل تعبي ونصبي فلا تحرمني أجر المصاب على مصيبته، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا ولا إلى الناس فنضيع. وقال الحسن: من دخل المقابر، فقال: اللهم رب الأرواح الفانية والأجساد البالية والعظام النخرة التي خرجت من الدنيا وهي بك مؤمنة أدخل عليها روحاً من عندك وسلاماً مني، كتب الله له بعدد من مات من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة حسنات.

وحكي عن معروف القاضي أن الحجيج كانوا يجتهدونه في الدعاء وفيهم رجل من التركمان ساكت لا يحسن أن يدعو، فخشع قلبه وبكى فقال بِلُغَتِهِ: اللهم إنك تعلم أني لا أحسن شيئاً من الدعاء، فاسألك ما يطلبون منك بما دعوا، فرأى بعض الصالحين في منامه أن الله قبل حج الناس بدعوة ذلك التركماني لما نظر إلى نفسه بالفقر والفاقة.

وقال الأصمعي: حسدت عبد الملك على كلمة تكلم بها عند الموت، وهي: اللهم إن ذنوبي وإن كثرت وجلت عن الصفة فإنها صغيرة في جنب عفوك فاعف عني.

وركب إبراهيم بن أدهم في سفينة، فهاجت الريح وبكى الناس وأيقنوا بالهلاك، وكان إبراهيم نائماً في كساء، فاستوى جالساً وقال: أريتنا قدرتك فأرنا عفوك، فذهب الريح وسكن البحر.

وقال الثوري: كان من دعاء السلف، اللهم زهدنا في الدنيا ووسع علينا فيها ولا تزوها عنا ولا ترغبنا فيها. وكان بعض الأعراب إذا أوى إلى فراشه قال: اللهم إني أكفر بكل ما كفر به محمد وأؤمن بكل ما آمن به، ثم يضع رأسه.

وسمعت بدوية تقول في دعائها: يا صباح يا مناح يا مطعم يا عريض الجفنة يا أبا المكارم، فزجرها رجل، فقالت: دعني أصف ربي وأمجد إلهي بما تستحسنه العرب.

وقال الزمخشري في كتابه «ربيع الأبرار»: سمعت أنا من يدعو من العرب عند الركن اليماني: يا أبا المكارم يا أبيض الوجه، وهذا ونحوه منهم إنما يقصدون به الثناء على الله تعالى بالكرم والنزاهة عن القبيح على طريق الاستعارة، لأنه لا فرق عندهم بين الكريم وأبي المكارم ولا بين الجواد والعريض الجفنة ولا بين المنزه والأبيض الوجه.

وقيل لأعرابي: أتحسن أن تدعو ربك؟ قال: نعم. قال: اللهم إنك أعطيتنا الإسلام من غير أن نسألك فلا تحرمنا الجنة ونحن نسألك.

وذكر لعبد السلام بن مطيع أن الرجل تصيبه البلوى، فيدعو فتبطىء عنه الإجابة، فقال: بلغني أن الله تعالى يقول: كيف أحرمه من شيء به أرحمه. **وقال طاوس**: بينما أنا في الحجر ذات ليلة إذ دخل علي علي بن الحسين، فقلت: رجل صالح من أهل بيت الخير لأسمعن دعاءه، فسمعته يقول: عبدك بفنائك مسكينك بفنائك فقيرك بفنائك، فما دعوت بهما في كرب إلا فرج عني.

ودعا أعرابي فقال: اللهم إنا نبات نعمتك. **وقال ابن المسيب**: سمعت من يدعو بين القبر والمنبر اللهم إني أسألك عملا باراً ورزقاً داراً وعيشاً قاراً، فدعوت به، فما وجدت إلا خيراً. **ودعت أعرابية بالموقف، فقالت**: أسألك سترك الذي لا تزيله الرياح ولا تخرقه الرماح. وقيل: اتقوا مجانيق الضعفاء أي دعواتهم، **ودعا أعرابي** فقال: اللهم امح ما في قلبي من كذب وخيانة واجعل مكانه صدقاً وأمانة. **وصلّى رجل إلى جنب عبد الله بن المبارك** وبادر القيام، فجذب ثوبه وقال: أما لك إلى ربك حاجة؟. **وقال سفيان الثوري**: سمعت أعرابياً يقول: اللهم إن كان رزقي في السماء، فأنزله، وإن كان في الأرض فأخرجه، وإن كان بعيداً فقربه، وإن كان قريباً فيسره، وإن كان قليلا فكثره، وإن كان كثيراً فبارك لي فيه.

وقال أبو نواس:

أحببت من شعر بشارٍ وكلمته
بيتاً لهجتُ به من شعر بشار[1]
يا رحمة الله حلّي في منازلنا
وجاورينا فدتك النفس من جارِ

وكان بشار يعني بذلك جارية بصرية كان يحبها ويتغزل بها، ونعني بها هنا رحمة الله التي وسعت كل شيء.

وسمع علي بن أبي طالب رضي الله عنه رجلاً يقول وهو متعلق بأستار الكعبة: يا من لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل ولا يبرمه إلحاح الملحين، أذقني برد عفوك وحلاوة مغفرتك، فقال علي: والذي

(١) لهجت به: حفظته فرددته مراراً.

نفسي بيده لو قلتها وعليك ملء السماوات والأرض من الذنوب لغفر لك.

ومن دعائه رضي الله عنه: اللهم صن وجهي باليسار ولا تبدل جاهي بالاقتار، فأسترزق طامعاً رزقك من غيرك، وأستعطف شرار خلقك وأبتلي بحمد من أعطاني، وأفتتن بذم من منعني، وأنت من وراء ذلك كله، وَلِيُّ الاجابة والمنع.

وعن أبي عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «**ما انتهيت إلى الركن اليماني قط إلا وجدت جبريل قد سبقني إليه يقول: قل يا محمد «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر والفاقة وهي من مواقف الخزي**».

وهبط جبريل على يعقوب فقال: يا يعقوب إن الله تعالى يقول لك: قل يا كثير الخير يا دائم المعروف ردّ علي ابني، فقالها فأوحى الله تعالى إليه: وعزتي لو كانا ميتين لنشرتهما لك.

وكان أبو مسلم الخراساني إذا نابه أمر قال: يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين. **وقال جعفر بن محمد**: ما المبتلي الذي اشتد بلاؤه بأحق بالدعاء من المعافى الذي لا يأمن وقوع البلاء. **وكان الزهري** يدعو بعد الحديث بدعاء جامع فيقول: اللهم إني أسألك من خير ما أحاط به علمك في الدنيا والآخرة، وأعوذ بك من شر ما أحاط به علمك في الدنيا والآخرة. وعن عقبة بن الغافر دعوة في السر أفضل من سبعين دعوة في العلانية. واعلم أن التوحيد والدعاء عند نوازل الملمات هو سفينة النجاة من الحوادث المهلكات.

وعن أبي الدرداء قال: صلى بنا رسول الله ﷺ العصر فمر بنا كلب، فما بلغت يده رجله حتى وقع ميتاً، فلما انصرف رسول الله ﷺ من صلاته قال: من الداعي على الكلب آنفاً؟ قال رجل من القوم: أنا يا رسول الله. قال: لقد دعوت الله باسمه الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى. كيف دعوت الله؟ قال: قلت اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام.

وقيل: أنه دخلت أذن رجل من أهل البصرة حصاة فعالجها الأطباء فلم يقدروا عليها حتى وصلت إلى صماخه فأتى إلى رجل من أصحاب الحسن، فشكا له ما أصابه من الحصاة فدعا له بدعاء العلاء بن الحضرمي وهو: «**يا علي يا عظيم يا حليم يا عليم**». قال الرواي فما برحنا حتى خرجت الحصاة من أذنه، ولها طنين حتى ضربت الحائط.

وعن أنس إذا قال العبد: يا رب يا رب يقول الله عز وجل لبيك عبدي، وعنه قال: مر رسول الله ﷺ برجل وهو يقول: يا أرحم الراحمين، فقال له الرسول ﷺ سل حاجتك. فقد نظر الله إليك.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا فتح الله على عبد الدعاء فليكثر، فإن الله يستجيب له**». وروي عن علي بن أبي زفر عن أخ له وكان فاضلاً صالحاً فقال: دعوت الله أن يريني الاسم الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، فقمت ليلة أصلي فسمعت قعقعة في سقف البيت، ثم هبط نور حتى صار تلقاء وجهي وإذا مكتوب بالنور فقرأته: يا الله يا رحمن يا ذا الجلال والإكرام. ومن دعاء الكرب ما روي عن وهب أن ابن عباس رضي الله عنهما قال له: هل تجد فيما تقرأ من الكتب دعاء تدعو به عند الكرب؟ قال: نعم. اللهم إني أسألك يا من يملك حوائج السائلين ويعلم ضمير الصامتين، فإن لكل مسألة منك سمعاً حاضراً وجواباً عتيداً، ولكل صامت منك علماً ناطقاً محيطاً، أسألك بمواعيدك الصادقة وأياديك الفاضلة ورحمتك الواسعة أن تفعل بي كذا وكذا، فقال ابن عباس هذا دعاء علمته في النوم ما كنت أرى أن أحداً يحسنه. وعن وهب أيضاً قال: لما أهبط الله تعالى آدم من الجنة إلى الأرض استوحش لفقد أصوات الملائكة، فهبط إليه جبريل وقال: يا آدم، هل أعلمك شيئاً تنتفع به في الدنيا والآخرة؟ قال: بلى. قال: قل: اللهم أتمم النعمة حتى تهنيني المعيشة، اللهم اختم لي بخير حتى لاتضرني ذنوبي، اللهم أكفني مؤنة الدنيا وكل هول في القيامة حتى تدخلني الجنة معافى.

وعن معروف الكرخي قال: اجتمعت اليهود أخزاهم الله على قتل عيسى عليه الصلاة والسلام بزعمهم، وأهبط الله تعالى عليه جبريل وفي باطن جناحيه مكتوب: اللهم إني أدعوك باسمك الأجل الأعز، وأدعوك اللهم باسمك الأحد الصمد، وأدعوك باسمك العظيم الوتر وأدعوك اللهم باسمك الكبير المتعالي الذي ملأ الأركان كلها، أن تكشف عني ضر ما أصبحت وأمسيت فيه، فأوحى الله عز وجل إلى جبريل أن أرفع عبدي إلي، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه عليكم بهذا الدعاء، ولا تستبطئوا الإجابة، فإن ما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إسناد هذا متصل إلى معروف الكرخي، ثم هو منقطع، ولو لم يكن فيه من البركة إلا رواية معروف لكان كافياً في قبوله والعمل به.

حدث عبد الله بن أبان الثقفي رضي الله عنه قال: وجهني الحجاج بن يوسف في طلب أنس بن مالك، فظننت أنه يتوارى عني، فأتيته بخيلي ورجلي، فإذا هو جالس على باب داره ماداً رجليه، فقلت له: أجب الأمير، فقال: أي الأمراء؟ فقلت أبو محمد الحجاج، فقال غير مكترث به: قد أذله الله ما أراني أعزه لأن العزيز من عز بطاعة الله، والذليل من ذل بمعصية الله، وصاحبك قد بغى وطغى واعتدى وخالف كتاب الله والسنة، والله لينتقم الله منه، فقلت له: أقصر عن الكلام وأجب الأمير، فقام معنا حتى حضر بين يدي الحجاج، فقال له: أنت أنس بن مالك؟ قال: نعم. قال: أنت الذي تدعو علينا وتسبنا؟ قال: نعم، قال: ومم ذاك؟ قال: لأنك عاص لربك مخالف لسنة نبيك تعز أعداء الله وتذل أوليائه. فقال له: أتدري ما أريد أن أفعل بك؟ قال: لا، قال: أريد أن أقتلك شر قتلة، قال: أنس لو علمت أن ذلك بيدك لعبدتك من دون الله، قال الحجاج: ولِمَ ذاك؟ قال: لأن رسول الله ﷺ علمني دعاء، وقال من دعا به في كل صباح لم يكن لأحد عليه سبيل، وقد دعوت به في صباحي هذا. فقال الحجاج: علمنيه؟ فقال: معاذ الله أن أعلمه لأحد ما دمت أنت في الحياة. فقال الحجاج: خلوا سبيله. فقال الحاجب: أيها الأمير لنا في طلبه كذا وكذا يوماً حتى أخذناه، فكيف تخلي سبيله؟ قال: رأيت على عاتقه أسدين عظيمين فاتحين أفواههما. ثم أن أنساً رضي الله عنه لما حضرته الوفاة علم الدعاء لأخوانه وهو: بسم الله الرحمن الرحيم باسم الله خير الأسماء باسم الله الذي لا يضر مع اسمه أذى، باسم الله الكافي، باسم الله المعافي باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، باسم الله على نفسي وديني باسم الله على أهلي ومالي باسم الله على كل شيء أعطانيه ربي، الله أكبر الله أكبر الله أكبر، أعوذ بالله مما أخاف وأحذر الله ربي لا أشرك به شيئاً، عز جارك وجل ثناؤك وتقدست أسماؤك ولا إله غيرك اللهم إني أعوذ بك من شر كل جبار عنيد وشيطان مريد، ومن شر قضاء السوء ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، إن ربي على صراط مستقيم.

وهذا دعاء مشهور الإجابة وله شرح طويل وتركناه لطوله وهو: اللهم كما لطفت في عظمتك دون اللطفاء وعلوت بعظمتك على العظماء، وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك، وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك وعلانية القول كالسر في علمك، وانقاد كل شيء لعظمتك وخضع كل ذي سلطان لسلطانك وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك لا بيد غيرك، اجعل لي من كل هم وغم أصبحت أو أمسيت فيه فرجاً ومخرجاً، إنك على كل شيء قدير. اللهم إن عفوك عن ذنوبي وتجاوزك عن خطيئتي وسترك عن قبيح عملي أطمعني أن أسألك ما لا أستوجبه منك مما قضيته لي أدعوك آمناً وأسألك مستأنساً لا خائفاً ولا وجلاً لأنك أنت المحسن إلي وأنا المسيء إلى نفسي، فيما بيني وبينك، تتودد إلي بالنعم مع غناك عني، وأتبغض إليك بالمعاصي مع فقري إليك، فلم أر مولى كريماً أعطف منك على عبد لئيم مثلي، لكن الثقة بك حملتني على الجرأة على الذنوب فاسألك بجودك وكرمك وإحسانك مع طولك، أن تصلي على محمد وآله وأن تفتح لي باب الفرج بطولك، وتحبس عني باب الهم بقدرتك ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين فأعجز، ولا إلى الناس فأضيع، برحمتك يا أرحم الراحمين.

وروى الحافظ النسفي باسناده عن الزهري، عن أبي مسلمة، عن أبي هريرة قال: مر رسول الله ﷺ برجل ساجد وهو يقول في سجوده: اللهم إني استغفرك وأتوب إليك من مظالم كثيرة لعبادك قِبَلِي، فأيما عبد من عبادك أو أمة من إمائك كانت له قبلي مظلمة ظلمتها إياه في مال أو بدن أو عرض علمتها أو لم أستطع أن أتحللها، فأسألك أن ترضيه عني بما شئت وكيف شئت، ثم تهبها لي من لدنك إنك واسع المغفرة ولديك الخير كله، يا رب ما تصنع بعذابي ورحمتك وسعت كل شيء، فلتسعني رحمتك، فإني لا شيء، وأسألك يا رب أن تكرمني برحمتك ولا تهني بذنوبي وما عليك أن تعطيني الذي سألتك يا رب يا الله، فقال رسول الله ﷺ: أرفع رأسك فقد غفر الله لك إن هذا دعاء أخي شعيب عليه السلام. وقال صالح المزني: قال لي قائل في منامي: إذا أحببت أن يستجاب لك، فقل اللهم إني أسألك باسمك المخزون المكنون المبارك الطيب الطاهر المطهر المقدس، فما دعوت بها في شيء إلا تعرفت الاجابة.

وقيل إن هذا الدعاء فيه اسم الله الاعظم وهو: بسم الله الرحمان الرحيم اللهم إني أسألك بالعزة التي لا ترام والملك الذي لا يضام والعين التي لا تنام والنور الذي لا يطفأ، وبالوجه الذي لا يبلى وبالديمومة التي لا تفنى وبالحياة التي لا تموت وبالصمدية التي لا تقهر وبالربوبية التي لا تستذل، أن تجعل لنا في أمورنا فرجاً ومخرجاً

حتى لا نرجو غيرك يا أرحم الراحمين. وقال سعيد بن المسيب: دخلت المسجد في ليلة مقمرة وأظن أني قد أصبحت وإذا الليل على حاله، فقمت أصلي، وجلست أدعو وإذا بهاتف يهتف من خلفي يا عبد الله قل: قلت ما أقول؟ قال: قل اللهم إني أسألك بأنك ملك وأنت على كل شيء قدير، وما تشاء من أمر يكون. قال سعيد: فما دعوت به قط في شيء إلا رأيت نجحه.

وعن الشيخ كمال الدين الدميري قال: روينا عن قاضي القضاة عز الدين ابن جماعة قال: أنبأنا الشيخ شرف الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن مناع الفزاري خطيب دمشق، أنبأنا الشيخ زين الدين أبو البقاء خالد بن يوسف النابلسي بقراءتي عليه، قال، أنبأنا الحافظ بهاء الدين ناصر السنة محمد بن الامام أبي محمد بن الحافظ أبي القاسم علي بن الحسين بن هبة الله ابن عساكر قراءة عليه، وأنا أسمع. قال: رويت بالاسناد وذكر إسناده إلى الإمام الحجة التابعي الجليل محمد بن سيرين، قال: نزلنا بنهر تيرا، فأتانا أهل ذلك المنزل فقالوا لنا: ارحلوا فإنه لم ينزل هذا المنزل أحد إلا أخذ متاعه فرحل أصحابي وتخلفت، فلما أمسينا قرأت آيات، فما نمت حتى رأيت أقواماً قد أقبلوا وجاءوا إلى جهتي أكثر من ثلاثين نفراً وقد جردوا سيوفهم فلم يصلوا إلي، فلما أصبحت رحلت فلقيني شيخ على فرس ومعه قوس عربية، فقال لي: يا هذا أنسي أنت أم جني؟ فقلت بل أنا من بني آدم، قال، فما بالك لقد أتيناك في هذه الليلة أكثر من سبعين مرة وفي كل ذلك يحال بيننا وبينك بسور من حديد، قلت: حدثني ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: من قرأ في ليلة ثلاثاً وثلاثين آية لم يضره في تلك الليلة لص طار ولا سبع ضار، وعوفي في نفسه وأهله وماله حتى يصبح، فنزل عن فرسه وكسر قوسه وأعطى الله تعالى عهداً أن لا يعود لهذا الأمر، وهذه الآيات وهي أن تقرأ بعد الفاتحة ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾[1] إلى قوله ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]، وآية الكرسي إلى قوله ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2]. ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾[3] إلى آخر السورة، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾ إلى قوله ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[4]. و﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾[1] إلى آخر السورة، ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝﴾[2] إلى قوله تعالى ﴿لَّازِبٍ﴾[2]، و﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[3] إلى قوله ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾[3]. ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا﴾[4] إلى آخرها، ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ إلى قوله ﴿شَطَطًا﴾[5] زاد البوني إلى قوله ﴿شِهَابًا رَّصَدًا﴾[6]. ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ۝﴾[7] إلى قوله ﴿مَّحْفُوظٍۭ﴾[7]، قال محمد بن سيرين، فذكرت هذا الحديث لشعيب بن حرب، فقال: كنا نسميها آيات الحرز ويقال إن فيها شفاء من مائة داء، وعدوا منها الجذام وغير ذلك. قال محمد بن علي: قرأتها على شيخ لنا قد أفلج فأذهب الله تعالى ذلك الفالج، قال البوني: هذه الآيات شرفها مشهور وفضلها مذكور لا ينكرها إلا غبي أو غيور، وقد جربها المشايخ، وعرف سرها من له في العلم قدم راسخ وقدر شامخ، وهي على ما رويناه بل ما رأيناه أولها الفاتحة ثم أول البقرة إلى آخر الآيات.

وقال أبو العباس أحمد القسطلاني سمعت الشيخ أبا عبد الله القرشي يقول سمعت أبا زيد القرطبي يقول في بعض الآثار أن من قال: لا إله إلا الله سبعين ألف مرة كانت فداءه من النار، فعملت ذلك رجاء بركة الوعد، ففعلت منها لأهلي وعملت أعمالا ادخرتها لنفسي وكان إذ ذاك يبيت معنا شاب يكاشف بالجنة والنار، وكانت الجماعة ترى له فضلاً على صغر سنه، وكان في قلبي منه شيء، فاتفق أن استدعانا بعض الإخوان إلى منزله، فنحن نتناول الطعام والشاب معنا إذ صاح صيحة منكرة، واجتمع في نفسه وهو يقول: يا عم هذه أمي في النار ويصيح بصياح عظيم لا يشك من سمعه أنه عن أمر، فلما رأيت ما به من الانزعاج قلت: اليوم أجرب صدقه، فألهمني الله تعالى السبعين ألفاً، ولم يطلع على ذلك إلا الله تعالى، فقلت في نفسي الأثر حق والذين رووه لنا صادقون: اللهم أن هذه السبعين ألفاً فداء أم هذا الشاب من النار، فما استتممت هذا الخاطر في نفسي أن قال: يا عم هذه أمي أخرجت من النار، والحمد لله فحصل عندي فائدتان

---

(١) سورة البقرة، الآيات (١ ـ ٥).
(٢) سورة البقرة، الآيات (٢٥٥ ـ ٢٥٧).
(٣) سورة البقرة، الآية (٢٨٥).
(٤) سورة الأعراف، الآيات (٥٤ ـ ٥٦).

(١) سورة الإسراء، الآية (١١٠).
(٢) سورة الصافات، الآيات (١ ـ ١١).
(٣) سورة الرحمن، الآيات (٣٣ ـ ٣٥).
(٤) سورة الحشر، الآية (٢١).
(٥) سورة الجن، الآيتان (٣ ـ ٤).
(٦) سورة الجن، الآية (٩).
(٧) سورة البروج، الآيات (٢٠ ـ ٢٢).

امتحاني لصدق الأثر وسلامتي من الشاب وعلمي بصدقه.

ومن خاف إنساناً فليصل ركعتين بعد صلاة المغرب ثم يضع جبهته على التراب ويقول: يا شديد المحال يا عزيزاً أذللت بعزتك جميع من خلقت. صل على محمد وآله واكفني فلاناً بما شئت، كفاه الله تعالى شره.

وروى الثقفي رحمه الله تعالى بإسناده إلى محمد بن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول لولده: يا بني من أصابته مصيبة في الدنيا أو نزلت به نازلة فليتوضأ وليحسن الوضوء وليصل أربع ركعات أو ركعتين، فإذا انصرف من صلاته يقول: يا موضع كل شكوى، ويا سامع كل نجوى ويا شاهد كل بلوى ويا منجي موسى والمصطفى محمد والخليل إبراهيم عليهم السلام، أدعوك دعاء من اشتدت فاقته، وضعفت حركته وقلت حيلته. دعاء الغريب الغريق الفقير الذي لا يجد لكشف ما هو فيه إلا أنت يا أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

قال علي بن الحسين رضي الله عنهما: لا يدعو به مبتلى إلا فرج الله عنه.

وقيل الإسم الأعظم هو بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إني أسألك يا مؤنس كل وحيد، يا قريباً غير بعيد يا شاهداً غير غائب يا غالباً غير مغلوب يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والأكرام، أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، وأسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم الذي عنت له الوجوه وخشعت له الأصوات ووجلت له القلوب أن تصلي على محمد وعلى آله وأن تعطيني كذا وكذا إنك على كل شيء قدير.

وهذه أبيات الفرج لأحمد بن حمزة البوني قيل إن فيها اسم الله الأعظم وهي هذه:

إنـي لأرجـو عـطـفـة الله ولا
أقـول إنْ قـيـل مـتـى ذاك مـتـى
لا بـدّ أن يُـنـشـر مـا كـان طـوى
جـوداً وأن يـمـطـر مـا كـان خـوى[1]
وربـمـا يـنـشـر مـا كـان زوى
وربّـمـا قـدّر مـا كـان لـوى
وكـل شـيء يـنـتـهـي إلـى مـدى
والـشـيء يـرجـى كـشـفـه إذا انـتـهـى
لـطـائـف الله وإن طـال الـمـدى
كـلـمـحـة الـطـرف إذا الـطـرف رمـى
كـم فَـرَجٍ بـعـد إيـاسٍ قـد أتـى
وكـم سُـرورٍ قـد أتـى بـعـد الأسـى
مـن لاذ بـالله نـجـا فـيـمـن نـجـا
مـن كـلِّ مـا يـخـشـى ونـال مـا رجـا
سـبـحـان مـن نـهـفـو ويـعـفـو دائـمـاً
ولـم يـزل مـهـمـا هـفـا الـعـبـد عـفـا[1]
يـعـطـي الـذي يـخـطـي ولا يـمـنـعـه
جـلالـه مـن الـعـطـا لـذي الـخـطـا

ومن المنظوم أيضاً:

يـا مـن يـرى مـا في الـضـمـيـر ويـسـمـع
أنـت الـمـعـد لـكـلِّ مـا يـتـوقـع
يـا مـن يـرجّـى لـلـشـدائـد كـلّـهـا
يـا مـن إلـيـه الـمـشـتـكـى والـمـفـزع[2]
يـا مـن خـزائـن رزقـه فـي قـول كـنْ
أمـنـنْ فـإن الـخـيـر عـنـدك أجـمـع
مـالـي سـوى فـقـري إلـيـك وسـيـلـةٌ
فـبـالافـتـقـار إلـيـك فـقـري أدفـع
مـالـي سـوى قـرعـي لـبـابـك حـيـلـةٌ
فـلـئـن رددت فـأي بـابٍ أقـرع
ومـن الـذي أدعـو وأهـتـفُ بـاسـمـه
إن كـان فـضـلـك عـن فـقـيـرك يـمـنـع
حـاشـا لـجـودك أن تـقـنّـط عـاصـيـاً
الـفـضـل أجـزل والـمـواهـب أوسـع[3]
ثـم الـصـلاة عـلـى الـنـبـي وآلـه
خـيـر الأنـام ومـن بـه يـتـشـفـع

وقال آخر:

يا خالق الخلق يا رب العباد ومنْ
قد قال في محكم التنزيل أدعوني
إنّي دعوتك مضطراً فخذ بيدي
يا جاعل الأمر بين الكاف والنون

---

(١) ينشر: يبعث من الموت، خوى: خوى السحاب خلا من المطر.

(١) نهفوا: نرتكب الهفوات أي الأخطاء.
(٢) المفزع: الملجأ.
(٣) تقنّط: تصيب بالقنوط وهو اليأس.

نجيْتَ أيوبَ من بلواه حين دعا
بصبر أيوب يا ذا اللطف نجيِّني
واطلقْ سراحيَ وامننْ بالخلاص كما
نجيّت من ظلمات البحر ذا النون[1]

ثم يقرأ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾[2].

قال بعضهم:
يا ربُّ ما زال لطفٌ منك يشملني
وقد تجدّد بي ما أنت تعلمه
فاصرفه عنّي كما عوّدتني كرماً
فمن سواك لهذا العبد يرحمه

وقال آخر:
يا من تحلُّ بذكره
عقد النوائبِ والشدائدْ
يا من إليه المشتكى
وإليه أمر الخلق عائد
يا حيُّ يا قيوم يا
صمدٌ تنزه عن مضادد
أنت الرقيب على العبـ
ـاد وأنت في الملكوت واحد
أنت المعز لمن أطا
عك والمذلُّ لكل جاحدْ
إنّي دعوتك والهمو
م جيوشها نحوي تطارد
فافرجْ بحولك كربتي
يا من له حسن العوائد[3]
فخفيُّ لطفك يستعا
ن به على الزمن المعاند
أنت الميسّر والمسبِّـ
ـب والمسهِّل والمساعدْ
يسّر لنا فرجاً قريـ
ـباً يا إلهي لا تباعد
كنْ راحمي فلقد يئسـ
ـت من الأقارب والأباعد
ثم الصلاة على النبي
وآله الغرِّ الأماجد
وعلى الصحابة كلِّهم
ما خرّ للرحمن ساجد

دعاء عظيم مأثور:

اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس أنت رب المستضعفين، وأنت ربي إلى من تكلني إلى بغيض يتجهمني أو إلى قوي ملكته أمري إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ولكن عافيتك أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن يحل بي غضبك أو ينزل بي سخطك فلك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة لنا إلا بك يا رب العالمين.

ومما جاء في أدعية الناس بعضهم لبعض:

دعا رجل لآخر فقال: سرك الله بما ساءك ولا ساءك فيما سرك. ودعا رجل لآخر فقال: لا أخلاك الله تعالى من ثناء صادق باق ودعاء صالح واق.

ودعا أعرابي لآخر فقال: رحب واديك وعز ناديك، ولا ألّم بك ألَم ولا طاف بك عدم، وسلمك الله ولا أسلمك.

وسمعت بعض العرب يدعو لرجل ويقول: سلمك الله تعالى من الرهق والوهق، وعافاك الله تعالى من الوحل والزجل، وسلمك الله من الشاردات والواردات، وسلمك الله بين الأعنة والأسنة.

ودعا أعرابي لعبد الله بن جعفر رضي الله عنه فقال: لا ابتلاك الله تعالى ببلاء يعجز عنه صبرك. وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك، وأبقاك ما تعاقب الليل والنهار، وتناسخت الظلم والأنوار.

ودعا بعضهم لآخر فقال: زودك الله تعالى الأمن في مسيرك والسعد في مصيرك، ولا أخلاك من شهر تستجده وخير من الله تستمده. وعزى شيب بن شبة يهودياً، فقال: أعطاك الله على مصيبتك ما أعطى أحداً من أهل ملتك.

ومما جاء في الدعاء على الأعداء والظلمة ونحوهم:

دعا أعرابي على ظالم فقال: لا ترك الله لك شفراً ولا ظفراً، أي عيناً ولا يداً. ومن دعاء العرب: «فتّه الله فتاً وحتّه حتاً وجعل أمره شتى». وخرج أعرابي إلى سفر

---

(١) النون: الحوت، وذا النون: صاحب الحوت وهو نبي الله يونس عليه السلام.
(٢) سورة الأنبياء، الآية (٨٧).
(٣) الحول: القوة، والكربة: الضيق والعوائد ج عادة.

وكانت له امرأة تكرهه، فاتبعته نواة وقالت: شط نواك ونأى سفرك، ثم أتبعته روثة وقالت: رثتك أهلك وورث خيرك، ثم أتبعته حصاة، وقالت: حاص رزقك وحص أثرك. ودعا أعرابي على آخر فقال: أطفأ الله ناره وخلع نعليه، أي جعله أعمى مقعداً. ودعا أعرابي على آخر فقال: سقاه الله دم جوفه أي قتل ابنه، وأخذ ديته فشرب لبنها. ودعا أعرابي على آخر فقال: بعث الله عليه سنة فاشورة تحلقه كلما يحلق الشعر بالنورة، ودعا رجل على أمير فقال:

أزال الله دولـتـه سـريـعـاً
فـقـد ثـقـلـت عـلى عـنـق الـلـيـالـي

وقالت امرأة من بني ضبة في زوجها:

ومـا دعـوت عـلـيـه حـيـن ألـعـنـه
إلا وآخـرُ يـتـلـوه بـآمـيـن
فـلـيـتـه كـان أرض الـروم مـنـزلـهُ
ولـيـتـنـي قـبـلـه قـد صـرت لـلـصـيـن

وقال رسول الله ﷺ في خطبته يوم الأحزاب: **«اللهم كلّ سلاحهم واضرب وجوههم ومزقهم في البلاد تمزيق الريح للجراد»**. ودعا رجل، فقال: اللهم أكفنا أعداءنا ومن أرادنا بسوء، فلتحط به ذلك السوء إحاطة القلائد بترائب الولائد، ثم أرسخه على هامته كرسوخ السجّيل على هام أصحاب الفيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ولنختم هذا الباب بهذا الدعاء المبارك وهو: اللهم إنك عرفتنا بربوبيتك وغرقتنا في بحار نعمتك، ودعوتنا إلى دار قدسك ونعمتنا بذكرك وأنسك، إلهي إن ظلمة ظلمنا لنفوسنا قد عمت، وبحار الغفلة على قلوبنا قد طمت، والعجز شامل والحصر حاصر والتسليم أسلم، وأنت بالحال أعلم، إلهي ما عصيتك جهلاً بعقابك ولا تعرضاً لعذابك، ولكن سولتها نفوسنا وأعانتنا شقوتنا وغرنا سترك علينا وأطمعنا عفوك وبرك بنا، فالآن من عذابك من ينقذنا؟ وبحبل من نعتصم إن قطعت حبلك عنا؟ واخجلتاه غداً من الوقوف بين يديك، وافضيحتاه إن عرضت فعالنا القبيحة عليك، اللهم اغفر ما علمت ولا تهتك ما سترت. إلهي إن كنا عصيناك بجهل فقد دعوناك بعقل حيث علمنا أن لنا رباً يغفر لنا ولا يبالي، إلهي لا تحرق بالنار وجهاً كان لك مصلياً ولساناً كان لك ذاكراً وداعياً، بالذي دلنا عليك وأمرنا بالخشوع بين يديك وهو محمد ﷺ خاتم أنبيائك وسيد أصفيائك، فإن حقه علينا أعظم الحقوق بعد حقك، كما أن منزلته لديك أشرف المنازل، فهو سيد خلقك، ومعدن أسرارك، صل يا رب على محمد وآله وأصحابه وارحم عباداً غرهم طول إمهالك، وأطمعهم كثرة أفضالك، فقد ذلوا لعزك وجلالك ومدوا أكفهم لطلب نوالك، ولولا ذلك لم يصلوا إلى ذلك، اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولكل المسلمين أجمعين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثامن والسبعون

في القضاء والقدر وأحكامه والتوكل على الله عز وجل

إعلم أن كل ما يجري في العالم من حركة وسكون وخير وشر ونفع وضر وإيمان وكفر وطاعة ومعصية، فكلٌ بقضاء الله وقدره، وكذلك فلا طائر يطير بجناحيه ولا حيوان يدب على بطنه ورجليه، ولا تطن بعوضة ولا تسقط ورقة إلا بقضائه وقدره وإرادته ومشيئته، كما لا يجري شيء من ذلك إلا وقد سبق علمه به. واعلم أن كل ما قضاه الله تعالى وقدره، فهو كائن لا محالة كما أن ما في علم الله تعالى يكون فهو كائن قريب، وما قدر الله وصوله إليك بعد الطلب فهو لا يصل إليك إلا بالطلب، والطلب أيضاً من القدر فإن تعسر شيء فبتقديره، وإن اتفق شيء فبتيسيره، فمن رام أمراً من الأمور ليس الطريق في تحصيله أنه يغلق بابه عليه ويفوض أمره لربه، وينتظر حصول ذلك الأمر، بل الطريق أن يشرع في طلبه على الوجه الذي شرعه له فيه.

وقد ظاهر النبي ﷺ بين درعين[(١)] واتخذ خندقاً حول المدينة حين تحزبت عليه الأحزاب يحترس به من العدو وأقام الرماة يوم أُحد ليحفظوه من خالد بن الوليد، وكان يلبس لأمة الحرب ويهيىء الجيوش ويأمرهم وينهاهم لما فيه من مصالحهم، واسترقى وأمر بالرقية، وتداوى وأمر بالمداواة، وقال: **الذي أنزل الداء أنزل الدواء**، فإن قيل: قد روي أن النبي ﷺ قال: **من استرقى أو اكتوى فهو بريء من التوكل**، قلنا: أليس قد قال: **أعقلها وتوكل**. فإن قيل: فما الجمع بين ذلك؟ قلنا: معناه من استرقى أو اكتوى متكلاً على الرقية أو الكي، وإن البرء من قبلهما خاصة،

(١) أي جعلهما الواحد فوق الآخر وحلهما معاً.

فهذا يخرجه عن التوكل، وإنما يفعله كافر يضيف الحوادث إلى غير الله، وقد أمرنا بالكسب والتسبب. ألا ترى أن الله قال لمريم عليها السلام: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾[1] فهلا أمرها بالسكون وحمل الرطب إلى فمها وأنشدوا في ذلك:

ألــم تــر أن الله قــال لــمــريــم
وهزّي إليك الجذع يسّاقط الرطبُ
ولو شاء أن تجنيه من غير هزّها
جنته ولكن كلّ شيء له سببُ

وقد تقدم هذا الشعر في باب الكسب والتسبب ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً[2] وتروح بطاناً[3]**»، فلم يحمل أرزاقها إليها في أوكارها بل ألهمها طلبه بالغدو والرواح».

وقد جمعوا بين الطلب والقدر فقالوا: إنهما كالعدلين على ظهر الدابة، إن أحمل في واحد منهما أرجح مما في الآخر سقط حمله وتعب ظهره وثقل عليه سفره. وإن عادل بينهما سلم ظهره ونجح سفره وتمت بغيته. وضربوا فيه مثالا عجيباً، فقالوا: إن أعمى ومقعداً كانا في قرية بفقر وضر لا قائد للأعمى ولا حامل للمقعد، وكان في القرية رجل يطعمهما قوتهما في كل يوم احتساباً لله تعالى، فلم يزالا بنعمة إلى أن هلك ذلك الرجل فلبثا أياماً واشتد جوعهما وبلغ الضر منهما جهده، فأجمع رأيهما على أن الأعمى يحمل المقعد فيدله المقعد على الطريق ببصره، فاشتغل الأعمى بحمل المقعد ويدور به ويرشده إلى الطريق وأهل القرية يتصدقون عليهما، فنجح أمرهما ولولا ذلك لهلكا. فكذلك القدر سببه الطلب. والطلب سببه القدر وكل واحد منهما معين لصاحبه، ألا ترى أن من طلب الرزق والولد ثم قعد في بيته لم يطأ زوجته ولم يبذر أرضه معتمداً في ذلك على الله واثقاً به أن تلد امرأته من غير مواقعة، وأن ينبت الزرع من غير بذر، كان عن المعقول خارجاً ولأمر الله كارهاً.

قال الغزالي: أما المعيل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبراً لضعفهم وتسكيناً لقلوبهم وقد ادخر رسول الله ﷺ قوت سنة، ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئاً، وقال: أنفق يا بلال ولا تخشَ من ذي العرش إقلالا.

وقال عبد الله بن الفرج: أطلعت على إبراهيم بن أدهم، وهو في بستان بالشام فوجدته مستلقياً على قفاه، وإذا بحية في فمها باقة نرجس، فما زالت تذب عنه حتى انتبه. فحسبك توكل يؤدي إلى هذا.

وعن عبد الله الهروي قال: كنا مع الفضيل بن عياض على جبل أبي قيس فقال: لو أنَّ رجلا صدق في توكله على الله ثم قال لهذا الجبل اهتز لاهتز، فوالله لقد رأيت الجبل اهتز وتحرك. فقال له الفضيل رحمه الله تعالى: لم أعنك رحمك الله فسكن.

وفي الإسرائيليات أن رجلاً احتاج إلى أن يقترض ألف دينار، فجاء إلى رجل من المتمولين فسأله في ذلك وقال له: تمهل علي بدينك إلى أن أسافر إلى البلد الفلاني فإن لي مالاً آتيك به، وأوفيك منه، وتكون مدة الأجل بيني وبينك كذا وكذا، فقال له: هذا غرر، فأنا ما أعطيك مالي إلا أن تجعل لي كفيلاً إن لم تحضر طلبته منه. فقال الرجل: الله كفيل بمالك وشاهد على أن لا أغفل عن وفائك، فإن رضيت فافعل، فداخل الرجل خشية الله تعالى، وحمله التوكل على أن دفع المال للرجل فأخذه ومضى إلى البلد الذي ذكر، فلما قرب الأجل الذي بينه وبين صاحبه جهز المال وقصد السفر في البحر فعسر عليه وجود مركب، ومضت المدة وبعدها أيام وهو لا يجد مركباً، فاغتم لذلك، وأخذ الألف دينار وجعلها في خشبة وسمَّر عليها ثم قال: اللهم إني جعلتك كفيلاً بإيصال هذه إلى صاحبها، وقد تعذر علي وجود مركب وعزمت على طرحها في البحر وتوكلت عليك في إيصالها إليه، ثم نقش على الخشبة رسالة إلى صاحبها بصورة الحال، وطرحها في البحر بيده وأقام في البلدة مدة بعد ذلك، إلى أن جاءت مركب فسافر فيها إلى صاحب المال، فابتدأه وقال: أنت سيرت الألف دينار في خشبة صفتها كيت وكيت وعليها منقوش كذا وكذا؟ قال: نعم، قال: قد أوصلها الله تعالى إلي، والله نعم الكفيل. فقال: فكيف وصلت إليك؟ قال: لما مضى الأجل المقدر بيني وبينك بقيت أتردد إلى البحر لأجدك أو أجد من يخبرني عنك، فوقفت ذات يوم إلى الشط وإذا بالخشبة قد استندت إلي ولم أر لها طالباً، فأخذها الغلام ليجعلها حطباً. فلما كسرها وجد ما فيها، فأخبرني بذلك، فقرأت ما عليها، فعلمت أن الله تعالى حقق أملك لما توكلت عليه حق التوكل.

---

(١) سورة مريم، الآية (٢٥).
(٢) خماصاً: جائعة فارغة البطون.
(٣) بطاناً: شبعى ممتلئة البطون.

وقيل: إن سبب بداية ذي النون المصري رحمه الله تعالى أنه رأى طيراً أعمى بعيداً عن الماء والمرعى، فبينما هو يتفكر في أمر ذلك الطائر، فإذا هو بسكرجتين برزتا من الأرض إحداهما ذهب والأخرى فضة، هذه فيها ماء والأخرى فيها قمح، فلقط القمح وشرب الماء. ثم غابا بعد ذلك فذهل ذو النون، وانقطع إلى الله تعالى من ذلك الوقت.

وحكي أن رجلا من أبناء الناس كانت له يد في صناعة الصياغة، وكان أوحد أهل زمانه، فساء حاله وافتقر بعد غناه، فكره الإقامة في بلده، فانتقل إلى بلد آخر، فسأل عن سوق الصاغة، فوجد دكاناً لمعلم السلطنة وتحت يده صناع كثيرة يعملون الأشغال للسلطنة، وله سعادة ظاهرة ما بين مماليك وخدم وقماش وغير ذلك، فتوصل الصائغ الغريب إلى أن بقي من أحد الصناع الذين في دكان هذا المعلم وأقام يعمل عنده مدة، وكلما فرغ النهار دفع له درهمين من فضة، وتكون أجرة عمله تساوي عشرة دراهم، فيكسب عليه ثمانية دراهم في كل يوم، فاتفق أن الملك طلب المعلم وناوله فردة سوار من ذهب مرصعة بفصوص في غاية من الحسن قد عملت في غير بلاده كانت في يد إحدى محاظيه، فانكسرت، فقال له: إلحمها، فأخذها المعلم وقد اضطرب عليه في عملها، فلما أخذها وأراها للصناع الذين عنده وعند غيره فما قال له أحد أنه يقدر على عملها، فازداد المعلم لذلك غماً، ومضت مدة وهي عنده لا يعلم ما يصنع، فاشتد الملك على إحضاره، وقال: هذا المعلم نال من جهتنا هذه النعمة العظيمة ولا يحسن أن يلحم سواراً، فلما رأى الصانع الغريب شدة ما نال المعلم قال في نفسه هذا وقت المروءة أعملها ولا أؤاخذه ببخله علي وعدم إنصافه ولعله يحسن إلي بعد ذلك، فحط يده في درج المعلم وأخذها وفك جواهرها وسبكها ثم صاغها كما كانت، ونظم عليها جواهرها، فعادت أحسن مما كانت، فلما رآها المعلم فرح فرحاً شديداً، ثم مضى بها إلى الملك، فلما رآها استحسنها وادعى المعلم أنها صنعته، فأحسن إليه وخلع عليه خلعة سنية، فجاء وجلس مكانه، فبقي الصائغ يرجو مكافأته عما عامله به، فما التفت إليه المعلم، ولما كان آخر النهار ما زاده على الدرهمين شيئاً، فما مضت إلا أيام قلائل وإذا الملك اختار أن يعمل زوجين أساور على تلك الصورة، فطلب المعلم ورسم له بكل ما يحتاج إليه وأكد عليه في تحسين الصفة وسرعة العمل، فجاء إلى الصانع وأخبره بما قال الملك، فامتثل مرسومه ولم يزل منتصباً إلى أن عمل الزوجين، وهو لا يزيده شيئاً على الدرهمين في كل يوم ولا يشكره ولا يعده بخير ولا يتجمل معه، فرأى المصلحة أن ينقش على زوج الأساور أبياتاً يشرح فيها حاله ليقف عليها الملك، فنقش في باطن أحدهما هذه الأبيات نقشاً خفيفاً يقول:

مصائب الدهر كفي
إن لم تكفي فعفي
خرجت أطلب رزقي
وجدت رزقي توفي
فلا برزقي أحظى
ولا بصنعة كفي
كم جاهل في الثريا
وعالم متخفي

قال: وعزم الصانع على أنه إن ظهرت الأبيات للمعلم شرح له ما عنده وإن غم عليه ولم يرها كان ذلك سبب توصله إلى الملك، ثم لفهما في قطن وناولهما للمعلم فرأى ظاهرهما ولم ير باطنهما لجهله بالصنعة، ولما سبق له في القضاء، فأخذهما المعلم ومضى بهما فرحاً إلى الملك، وقدمهما إليه، فلم يشك الملك في أنهما صنعته، فخلع عليه وشكره، ثم جاء فجلس مكانه ولم يلتفت إلى الصانع، وما زاده في آخر النهار شيئاً على الدرهمين، فلما كان اليوم الثاني خلا خاطر الملك فاستحضر الحظية التي عمل لها السوارين الذهب فحضرت وهما في يديها، فأخذهما ليعيد نظره فيهما وفي حسن صنعتهما، فقرأ الأبيات، فتعجب وقال: هذا شرح حال صانعهما والمعلم يكذب، فغضب عند ذلك، وأمر باحضار المعلم، فلما حضر قال له: من عمل هذين السوارين؟ قال: أنا أيها الملك، قال: فما سبب نقش هذه الأبيات؟ قال: لم يكن عليهما أبيات. قال: كذبت. ثم أراه النقش. وقال: إن لم تصدقني الحق لأضربن عنقك، فأصدقه الحق، فأمر الملك بإحضار الصانع، فلما حضر سأله عن حاله، فحكى له قصته، وما جرى له مع المعلم. فرسم الملك بعزل المعلم وأن تسلب نعمته وتعطى للصانع، وأن يكون عوضاً عنه في الخدمة ثم خلع عليه خلعة سنية، وصار مقدماً سعيداً، فلما نال هذه الدرجة. وتمكن عند الملك تلطف به حتى رضي عن المعلم الأول وصارا شريكين ومكثا على ذلك إلى آخر العمر. ورحم الله من قال:

إذا كان سعد المرء في الدهر مقبلاً
تدانت له الأشياء من كلِّ جانب

وقال آخر:

ما سلَّم الله هو السالمُ
ليس كما يزعم الزّاعمُ
تجري المقادير التي قدرت
وأنفُ من لا يرتضي راغمُ

وقال كعب بن زهير[1]:

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني
سعيُ الفتى وهو مخبوءٌ له القدرُ
يسعى الفتى لأمورٍ ليس يدركها
والنفس واحدةٌ والهم منتشرُ
والمرءُ ما عاش ممدودٌ له أملٌ
لا ينتهي ذاك حتى ينتهي العمرُ

وروي في الإسرائيليات أن نبياً من الأنبياء عليهم الصلاة السلام مرّ بفخ منصوب وإذا بطائر قريب منه، فقال له الطائر: يا نبي الله: هل رأيت أقل عقلاً ممن نصب هذا الفخ ليصيدني به وأنا أنظر إليه؟ قال: فذهب عنه ذلك النبي ﷺ ثم رجع وإذا بالطائر في الفخ، فقال له: عجباً لك ألست القائل كذا وكذا آنفاً؟ فقال: يا نبي الله إذا جاء الحين لم يبق أذن ولا عين. ويروى أن رجلاً قال لبزرجمهر: تعال نتناظر في القدر، قال: وما تصنع بالمناظرة؟ قال: رأيت شيئاً ظاهراً استدللت به على الباطن، رأيت جاهلا مبروراً وعالماً محروماً، فعلمت أن التدبير ليس للعباد.

ولما قدم موسى بن نصير بعد فتح الأندلس على سليمان بن عبد الملك قال له يزيد بن المهلب: أنت أدهى الناس وأعلمهم، فكيف طرحت نفسك في يد سليمان؟ فقال: إن الهدهد ينظر إلى الماء في الأرض على ألف قامة، ويبصر القريب منه والبعيد على بعد في التخوم، ثم ينصب له الصبي الفخ بالدودة أو الحبة فلا يبصره حتى يقع فيه وأنشدوا في ذلك:

وإذا خشيت من الأمور مقدّراً
وفررت منهُ فنحوه تتوجّه

(١) هو كعب بن زهير بن أبي سلمى، أبوه أحد شعراء المعلقات وقد مدح كعب رسول الله ﷺ بقصيدة «بانت سعاد» المشهورة.

وقال آخر:

أقام على المسير وقد أنيخت
مطاياه وغرّد حاديها
وقال أخاف عادية الليالي
على نفسي وأنْ ألقى رداها
مشيناها خطاً كتبت علينا
ومن كتبت عليه خطاً مشاها
ومن كانت منيّته بأرض
فليس يموت في أرض سواها

ولما قتل كسرى بزرجمهر وجد في منطقته[1] كتاب فيه: إذا كان القضاء حقاً فالحرص باطل. وإذا كان الغدر في الناس طبعاً فالثقة بكل أحد عجز، وإذا كان الموت بكل أحد نازلاً فالطمأنينة إلى الدنيا حمق.

وقال ابن عباس وجعفر بن محمد رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾[2]. إنما كان الكنز لوحاً من ذهب مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم عجبت لمن يوقن بالقدر كيف يحزن. وعجبت لمن يوقن بالرزق كيف ينصب، وعجبت لمن يوقن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يوقن بالحساب كيف يغفل، وعجبت لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها. لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وحكى الطرطوشي رحمه الله تعالى في كتابه «سراج الملوك» قال: من عجيب ما اتفق بالاسكندرية أن رجلاً من خدم نائب الإسكندرية غاب عن خدمته أياماً، ففي بعض الأيام قبض عليه صاحب الشرطة وحمله إلى دار النائب، فانفلت في بعض الطرق وترامى في بئر والمدينة إذ ذاك مسردبة بسرداب يمشي الماشي فيه قائماً، فما زال الرجل يمشي إلى أن لاحت له بئر مضيئة، فطلع منها فإذا البئر في دار النائب، فلما طلع أمسكه النائب وأدبه، فكان فيه المثل السائر: الفار من القضاء الغالب كالمتقلب في يد الطالب. وأنشدو فيه:

قالوا تقيم وقد أحاط
بك العدوّ ولا تفرّ
لا نلت خيراً إن بقيـ
ـت ولا عداني الدهر شر

(١) المنطقة: القماش الذي يلف حول الخصر كالحزام.
(٢) سورة الكهف، الآية (٨٢).

إن كـنـت أعـلـم أن
غـيـر الله يـنـفـع أو يـضـر

الباب التاسع والسبعون

في التوبة والاستغفار

قد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة، وأمر الله تعالى بالتوبة فقال ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١) ووعد بالقبول فقال تعالى: ﴿هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾(٢). وفتح باب الرجاء فقال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾(٣).

وروي في الصحيح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **أيها الناس توبوا إلى الله تعالى فإني أتوب إلى الله تعالى في اليوم مائة مرة.**

وروى أحمد بن عبد الرحمن السلماني قال: اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ فقال أحدهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله تعالى يقبل التوبة من عبده قبل أن يموت بيوم، فقال الثاني: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعته يقول: إن الله تعالى يقبل توبته قبل أن يموت بنصف يوم، فقال الثالث: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعته يقول إن الله تعالى يقبل توبة العبد قبل موته بضحوة، أو قال بضجعة، فقال الرابع: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعته يقول: إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر.

وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: **«لله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل بأرض دوية مهلكة معه راحلته، فنام واستيقظ وقد ذهبت راحلته، فطلبها حتى إذا أدركه الموت قال: أرجع إلى المكان الذي أضللتها فيه وأموت، فأتى مكانه فغلبته عينه فاستيقظ وإذا راحلته عند رأسه فيها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه، فالله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من هذا براحلته وزاده».**

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».** (رواه البخاري).

وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها».** (رواه مسلم).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: **«كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعبد أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ قال: لا، فقتله وكمل به المائة. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فأتاه وقال له أنه قد قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ قال: نعم. ومن يحل بينك وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله تعالى معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق حتى كان نصف الطريق أدركه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط. فأتاهم ملك في صورة آدمي فحكموه بينهم فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى؟ فهو أقرب لها، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة».** (متفق عليه وفي الصحيحين): فكان أدنى إلى أرض التوبة الصالحة فجعل من أهلها.

وعن أبي نجيد بضم النون وفتح الجيم عمران بن الحصين الخزاعي رضي الله عنه، أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنا فقالت: يا رسول الله أصبت حداً فأقمه علي، فدعاني رسول الله ﷺ فشدت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها فقال عمر: يا رسول الله تصلي عليها وقد زنت؟ قال: **«لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت أفضل ممن جادت بنفسها لله عز وجل».** (رواه مسلم).

وعن أبي نصرة قال: لقيت مولى لأبي بكر رضي الله عنه فقلت له: سمعت من أبي بكر شيئاً، قال: نعم، سمعته

---

(١) سورة النور، الآية (٣١).
(٢) سورة الشورى، الآية (٢٥).
(٣) سورة الزمر، الآية (٥٣).

يقول: قال رسول الله ﷺ: «ما أصر من استغفر ولو عاد إلى الذنب في اليوم سبعين مرة».

وحكي. . أن نبهان التمار وكنيته أبو مقبل أتته امرأة حسناء تشتري تمراً، فقال لها: هذا التمر ليس بجيد وفي البيت أجود منه، فذهب بها إلى بيته وضمها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتق الله، فتركها وندم على ذلك، فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾(١) إلى آخر الآية. وعن أسماء بن الحكم الفزاري قال: سمعت علياً يقول: إني كنت رجلاً إذا سمعت من رسول الله حديثاً ينفعني الله منه بما شاء أن ينفعني، وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلفته فإذا حلف لي صدقته، وإنه حدثني أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله يقول: «ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ويصلي ثم يستغفر الله إلا غفر له».

وروي في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا أذنب العبد ذنباً فقال يا رب أذنبت ذنباً فاغفره لي، قال الله عز وجل: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، فغفر له. ثم إذا مكث ما شاء الله وأصاب ذنباً آخر، فقال: يا رب أذنبت ذنباً فأغفر لي، قال ربه: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء.

وكان قتادة رضي الله تعالى عنه يقول: القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم، أما دواؤكم فالاستغفار، وأما داؤكم فالذنوب.

وكان علي رضي الله تعالى عنه يقول: العجب لمن هلك ومعه كلمة النجاة، قيل: وما هي؟ قال: الاستغفار.

وقال رسول الله ﷺ: «من قال عشراً حين يصبح وحين يمسي، أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه وأسأله التوبة والمغفرة من جميع الذنوب، غفرت ذنوبه ولو كانت مثل رمل عالج. ومن قال سبحانك ظلمت نفسي وعملت سوءاً فأغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، غفرت ذنوبه ولو كانت مثل دبيب النمل.

وقال أبو عبد الله الوَرَّاق: لو كان عليك من الذنوب مثل عدد القطر وزبد البحر محيت عنك إذا استغفرت بهذا الاستغفار، وهو هذا: اللهم إني أسألك وأستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه، وأستغفرك من كل ما وعدتك من نفسي ثم لم أوف لك به، وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك، وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها علي فاستعنت بها على معصيتك، يقول الله عز وجل لملائكته: ويح ابن آدم يذنب الذنب ثم يستغفرني فأغفر له، ثم يذنب فيستغفرني فأغفر له لا هو يترك الذنب من مخالفتي ولا ييأس من مغفرتي، أشهدكم يا ملائكتي أني قد غفرت له.

وقال بشر الحافي(١) بلغني أن العبد إذا عمل الخطيئة أوحى الله تعالى إلى الملائكة الموكلين ترفقوا عليه سبع ساعات، فإن استغفرني فلا تكتبوها وإن لم يستغفرني فاكتبوها.

نكتة. . قيل: انقطع الغيث عن بني إسرائيل في زمن موسى عليه الصلاة والسلام حتى احترق النبات وهلك الحيوان، فخرج موسى عليه الصلاة والسلام في بني إسرائيل وكانوا سبعين رجلاً من نسل الأنبياء مستغيثين إلى الله تعالى، قد بسطوا أيدي صدقهم وخضوعهم وقربوا قربان تذللهم وخشوعهم ودموعهم تجري على خدودهم ثلاثة أيام، فلم يمطر لهم، فقال موسى: اللهم أنت القائل: ادعوني أستجب لكم وقد دعوتك وعبادك على ما ترى من الفاقة والحاجة والذل، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى إن فيهم من غذاؤه حرام وفيهم من يبسط لسانه بالغيبة والنميمة وهؤلاء استحقوا أن أنزل عليهم غضبي، وأنت تطلب لهم الرحمة كيف يجتمع موضع الرحمة وموضع العذاب؟ فقال موسى: ومن هم يا رب حتى نخرجهم من بيننا؟ فقال الله تعالى: يا موسى لست بهتاك ولا نمام، ولكن يا موسى توبوا كلكم بقلوب خالصة فعساهم يتوبوا معكم فأجود بإنعامي عليكم، فنادى منادي موسى في بني إسرائيل ان اجتمعوا فاجتمعوا فأعلمهم موسى عليه الصلاة والسلام بما أوحي إليه والعصاة يسمعون، فذرفت أعينهم ورفعوا مع بني إسرائيل أيديهم إلى الله عز وجل وقالوا: إلهنا جئناك من أوزارنا هاربين، ورجعنا إلى بابك طالبين فارحمنا يا أرحم الراحمين، فما زالوا كذلك حتى سقوا بتوبتهم إلى الله تعالى.

اللهم تب علينا وعلى سائر العصاة والمذنبين يا رب العالمين.

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٣٥).

(١) بشر بن الحارث الحافي: ١٥٠ ـ ٢٢٧ هـ. أحد الزهّاد العبّاد الصالحين، ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة وذكر بعض أخباره.

أوحى الله إلى داود عليه الصلاة والسلام: يا داود لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم، لماتوا شوقاً إلي وتقطعت أوصالهم من محبتي، يا داود هذه إرادتي في المدبرين عني فكيف إرادتي بالمقبلين علي.

ولقد أحسن من قال:

أسيء فيجزي بالإساءة إفضالا
وأعصي فيوليني براً وإمهالا
فحتى متى أجفوه وهو يبرني
وأبعد عنه وهو يبذل إيصالا
وكم مرة قد زغت عن نهج طاعة
ولا حال عن ستر القبيح ولا زالا

وهذا آخر ما يسره الله تعالى في هذا الباب والله أعلم بالصواب.

الباب الثمانون

فيما جاء في ذكر الأمراض والعلل والطب والدواء وما جاء في السنة من العبادة وما أشبه ذلك

وفيه فصول

الفصل الأول

في الأمراض والعلل وما جاء في ذلك من الاجر والثواب

روي عن عبد الله بن أنيس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: أيكم يحب أن يصح جسمه فلا يسقم؟ فقالوا: كلنا يا رسول الله، قال: أتحبون أن تكونوا كالحمير الصوالة، ألا تحبون أن تكونوا أصحاب بلايا وأصحاب كفارات والذي بعثني بالحق نبياً إن الرجل لتكونن له الدرجة في الجنة فلا يبلغها بشيء من عمله فيبتليه الله تعالى ليبلغ درجة لا يبلغها بعمله، وقال ﷺ: ما من مسلم يمرض إلا حط الله من خطاياه كما تحط الشجرة ورقها، وكان يقول: لا تزال الأوصاب والمصائب بالعبد حتى تتركه كالفضة البيضاء والنقية المصفاة.

وقيل: إن الناس قد حُمّوا في فتح خيبر، فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس إن الحمى رائد الموت وسجن الله في الأرض وقطعة من النار، فإذا وجدتم ذلك فبردوا لها الماء في الشنان ثم صبوا عليكم بين المغرب والعشاء، ففعلوا ذلك فزالت عنهم.

وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: دخل رسول الله ﷺ على شاب وهو في الموت فقال له: كيف تجدك؟ فقال: أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال عليه الصلاة والسلام: هما لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف.

وعن عفيرة بنت الوليد البصرية العابدة الزاهدة رحمها الله تعالى، انها سمعت رجلاً يقول: ما أشد العمى على من كان بصيراً، فقالت له: يا عبد الله عمى القلب عن الله أشد من عمى العين عن الدنيا. والله لوددت أن الله وهب لي كنه معرفته ولم يبق مني جارحة إلا أخذها.

وكتب مبارك لأخيه سفيان الثوري يشكو إليه ذهاب بصره، فكتب إليه: أما بعد.. فقد فهمت كتابك فيه شكاية ربك، فاذكر الموت يهن عليك ذهاب بصرك والسلام.

وقيل لعطاء في مرضه ما تشتهي؟ قال: ما ترك خوف جهنم في قلبي موضعاً للشهوة. وأصاب ابن أدهم بطن فتوضأ في ليلة سبعين مرة. وقيل لأعرابي في مرضه ما تشتهي؟ قال: الجنة، فقيل: أفلا ندعوا لك طبيباً؟ قال: طبيبي هو الذي أمرضني.

الفصل الثاني من هذا الباب

في ذكر العلل كالبخر[1] والعرج والعمى والصمم والرمد والفالج وغير ذلك نسأل الله العفو والعافية والمعافاة في الدنيا والآخرة

قيل: تسارر أبخر[1] وأصم، فقال له الأصم: قد فهمت ثم فارقه. فسأله رجل فقال: والله لا أدري غير أنه فسا في أذني.

وقيل: إن عبد الملك بن مروان كان أبخراً فعض يوماً على تفاحة ورمى بها إلى زوجته، فدعت بسكين فقال: ما تصنعين بها؟ قالت: أميط الأذى عنها. فشق عليه ذلك منها فطلقها.

وسارر أبو الأسود الدؤلي سليمان بن عبد الملك وكان

(١) البخر: رائحة الفم الكريهة، والأبخر من يعاني من هذا الداء.

أبو الأسود أبخر فستر سليمان أنفه بكمه فعبر أبو الأسود وهو يقول: لا يصلح للخلافة من لا يقدر على مناجاة الشيوخ البخر.

وقيل طول انطباق الفم يورث البخر وكل رطب الفم سائل اللعاب سالم منه. وقيل إن الزنج أطيب الناس أفواهاً، والسباع موصوفة بالبخر، والمثل مضروب بالأسد والصقر في البخر والكلب من بينهما طيب الفم، وليس في البهائم أطيب أفواهاً من الظباء.

وحكي.. أن أبخر تزوج بامرأة، فلما ضاجعها عافته وتولت عنه بوجهها، ثم أنشدت تقول:

يا حبُّ والرحمن إنّ فاكا
أهلكني فولني قفاكا
إذا غدوت فاتخذ مسواكا
من عرفط ان لم تجد أراكا[1]
لا تقربني بالذي سوّاكا
إني أراك ماضغاً خراكا

في ديوان المنثور: كم من ذي عرج في درج المعالي عرج، وكم من صحيح قدم ليس له في الخير قدم. وقيل: إن من الصم من يسمع السر فإذا رفعت إليه الصوت لم يسمعه. ورأيت من العمش من لا ينظر صورة الإنسان من قريب ولكن يقرأ الخط الرقيق الحواشي. وقيل: إن طريفاً الشاعر مدح عمرو بن هداب، وكان أبرص فلما انتهى إلى قوله: أبرص فياض اليدين مهذب. صاح به الناس وقالوا قطع الله لسانك، فقال عمرو: مه، إن البرص مما تتفاخر به العرب أما سمعتم قول سهل حيث قال:

أيشتمني زيدٌ بأن كنت أبرصاً
وكلُّ كريم لا أبالك أبرصُ
كفى حزناً أنيّ أعاشر معشراً يخـ
وضون في بعض الحديث وأمسك
وما ذاك من عيّ ولا من جهالة
ولكنه ما فيَّ للصوت مسلك
فإن سد متي السمع فالله قادرٌ
على فتحه والله للعبد أملك

ومما جاء في العمى:

ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: من عدم إحدى كريمتيه [فاحتسبها] ضمنت له على الله الجنة. وكان أبو عبد الرحمن بن الحارث بن هشام يطعم الطعام، وكان أعور، فجعل أعرابي يطيل النظر إليه حابساً نفسه عن طعامه، فكلمه المغيرة في ذلك فقال: والله إني ليعجبني طعامك وتريبني عينك، قال: فما يريبك من عيني؟ قال: أعور وأراك تطعم الطعام وهذه صفة الدجال. فقيل له: إن عينه أصيبت في فتح الروم فقال: إن الدجال لا تصاب عينه في سبيل الله.

وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: من قاد أعمى أربعين خطوة لم تمسه النار. وقال علي كرم الله وجهه: ربما أخطأ البصير قصده وأصاب الأعمى رشده.

وقال أبو علي البصير:

لئن كان يهديني الغلام لوجهتي
ويقتادني في السير إذ أنا راكب
لقد يستضيء القوم بي في وجوههم
ويخبو ضياء العين والقلب ثاقب

وقال:

إذا عدمت طلاّبة العلم مالها
من العلم إلا ما تسطّر في القلب
غدوت بتشمير وجدّ عليهم
ومحبرتي سمعي وها دفتري قلبي

وقال:

إن يأخذ الله من عيني نورهما
ففي لساني وسمعي منهما نور
فهمي ذكيٌ وقلبي غير ذي غفل
وفي فمي صارمٌ كالسيف مشهور

وقال:

عزاءك أيها العين السكوب
وحقك إنها نُوَبٌ تنوب[1]
وكنت كريمتي وسراج وجهي
وكانت لي بك الدنيا تطيب
على الدنيا السلام فما لشيخ
ضرير العين في الدنيا نصيب
يموت المرء وهو يعدّ حياً
ويخلف ظنه الأمل الكذوب

(١) العرفط: نبات رائحته كرائحة الثوم، وهذا يعني أن رائحة فمه أشد كراهة من رائحة العرفط.

(١) نوب: نوائب أي مصائب، تنوب: تصيب.

إذا ما مات بعضك فابكِ بعضاً
فإنّ البعض من بعضٍ قريب

وحكي.. أن ربيعة رمدت عينه فأرسل إلى امرأة كان يحبها ثم أنشد يقول:

عينا ربيعة رمداوان فاحتسبي
بنظرة منك تشفيه من الرّمد
إن تكتحل بك عيناه فلا رمدٌ
على ربيعة يخشى آخر الأمد

وعن عبد الرحمن بن قيس عن النبي ﷺ أنه قال: داء الأنبياء الفالج واللقوة. قال الجاحظ: ومن المفاليج سيدنا إدريس عليه الصلاة السلام، وأكثر ما يعتري المتوسطين من الناس لأن الشاب كثير الحرارة والشيخ كثير اليبس.

وقيل: إن إبان بن عثمان كان أفلج حتى صار مثلاً، فكانت الناس تقول: لا رماك الله بفالج ابن عثمان، وكان معاوية ألوق، وعبد الملك بن مروان أبخر، وحسان أعمى، وابن سيرين أصم، وممن فلج ابن أبي دؤاد قاضي قضاة المعتصم كان من الشرف والكرم بمنزلة عظيمة قد ضرب المثل بفالجه، قال الشاعر في رجل ضرب غلامه:

أتضربُ مثلَهُ بالسّوط عشراً
ضربتَ بفالجِ ابن أبي دؤاد

وشجة عبد الحميد كانت مثلاً في الحسن، وهو عبد الحميد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهم، وكان بارعاً في الحسن والجمال فزادته حسناً إلى حسنه حتى أن النساء كن يخططن في وجوههن شجة عبد الحميد.

وكان يقال لعمر بن عبد العزيز أشج بني أمية، وكان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يقول: إن من ولدي رجلاً بوجهه أثر في جبهته، قال أصبغ: الله أكبر هذا أشج بني أمية يملأ الأرض عدلاً. وقال أعور لأبي الأسود: ما الشيء ونصف الشيء ولا شيء فقال: أما الشيء فالبصير كأنا، وأما لا شيء فالأعمى، وأما نصف الشيء فأنت يا أعور. اللهم اكفنا شر العاهات برحمتك ومنك وكرمك آمين.

الفصل الثالث من هذا الباب

في التداوي من الأمراض والطب

قال رسول الله ﷺ: تداووا فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء. وقال ﷺ: ما أنزل الله داء إلا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله. وسئل رسول الله ﷺ عن الدواء والرقى هل يردان شيئاً من قضاء الله تعالى: قال: هما من قدر الله تعالى.

وقال عبد الله بن عكرمة: عجيب لمن يحتمي من الطعام خوف الداء، ولا يحتمي من الذنوب خوف النار.

وقيل: إن الربيع بن خيثم لما مرض قالوا له: ألا ندعوا لك طبيباً، فقال لهم: إن مرضي من الطبيب وإنه متى أراد عافاني، ولا حاجة لي بطبيبكم، وأنشد:

فأصبحت لا أدعو طبيباً لطبه
ولكنني أدعوك يا منزل القطرِ

وعاد الفرزدق مريضاً فقال:

يا طالب الطب من داءٍ تخوفه
إنّ الطبيب الذي أبلاك بالداءِ
فهو الطبيب الذي يرجى لعافية
لا من يذيب لك الترياق بالماءِ

قال: ولما مرض بشر الحافي رحمه الله تعالى قالوا: أندعوا لك طبيباً؟ فقال: إني بعين الطبيب يفعل بي ما يريد، فألح عليه أهله وقالوا: لا بد أن ندفع ماءك إلى الطبيب، فقال لأخته: ادفعي إليهم الماء في قارورة. وكان بالقرب منهم رجل ذمي وكان حاذقاً في الطب، فأتوه بمائه في القارورة فلما رآه قال: حرّكوه فحرّكوه ثم قال: ضعوه ثم قال ارفعوه، فقالوا له: ما بهذا وصفت لنا، قال: بم وصفت لكم؟ قالوا: بالحذق والمعرفة، قال: هو كما تقولون غير أن هذا الماء إن كان ماء نصراني فهو راهب. قد فتتت كبده العبادة، وإن كان مسلماً فهو ماء بشر الحافي فإنه أوحد أهل زمانه في السلوك مع الله تعالى، قالوا: هو ماء بشر الحافي. فأسلم النصراني وقطع زناره فلما رجعوا إلى بشر قال لهم: أسلم الطبيب، فقالوا: ومن أعلمك؟ قال: لما خرجتم من عندي هتف لي هاتف وقال: يا بشر ببركة مائك أسلم الطبيب وصار من أهل الجنة.

وفلج الربيع بن خيثم فقيل له: هلا تداويت؟ فقال: قد عرفت أن الدواء حق، ولكن عاد وثمود وقرونٌ بين ذلك كثير، كانت فيهم الأوجاع كثيرة والأطباء أكثر فلم يبق المداوي ولا المداوى وقد أبادهم الموت. ثم قال هذا المفرد:

هلك المداوي والمدوای والذي
جلب الدواء وباعه والمشتري

وقيل لجالينوس حين نهكته العلة: أما تتعالج؟ فقال: إذا كان الداء من السماء بطل الدواء من الأرض، وإذا نزل

قضاء الرب بطل حذر المربوب. ومرّ قوم بماء من مياه العرب فوصف لهم ثلاث بنات مطببات وهن من أجل الناس، فأحبوا أن يروهن فحكوا ساق أحدهم حتى أدموها ثم قصدوهن فقالوا: هذا جريح مريض فهل من طبيب؟ فخرجت صغراهن وهي كأنها الشمس الطالعة فلما رأت جرحه قالت: ليس هو بمريض بل خدشه عود بالت عليه حية فإذا طلعت الشمس مات، فكان الأمر كما قالت.

وقيل: دواء كل مريض بعقاقير أرضه فإن الطبيعة تتطلع لهوائها. وقالوا: من قدم إلى أرض غير أرضه وأخذ من ترابها وجعله في مائها وشربه، لم يمرض فيها وعوفي من وبائها. واحتمى أحمد بن المعدل لعلة أصابته فبرىء؛ فقال: الحمية طالع الصحة لأهل الدنيا تبرئهم من المرض، ولأهل الآخرة تبرئهم من النار.

وقيل: إن الأبدان المعتادة بالحمية آفتها التخليط، والمعتادة بالتخليط آفتها الحمية، لأن الحكماء تقول: عودوا كل جسد بما اعتاد.

وكان كسرى أنو شروان يمسك عما تميل إليه شهوته ولا ينهمك عليه، ويقول: تركنا ما نحبه لنستغني عن العلاج بما نكرهه. وقال لقمان: لا تطيلوا الجلوس على الخلاء فإنه يورث الباسور. وكانت هذه الحكمة مكتوبة على أبواب الحشوس أي الكنف. وقيل: كفى بالمرء عاراً أن يكون صريع مأكله وقتيل أنامله.

فكم أكلة أكلت نفس حر
وكم أكلة جلبت كل ضرّ

وقيل: من غرس الطعام أثمره الأسقام. وعن بعض أهل البيت النبوي عليهم السلام، أنه كان إذا أصابته علة جمع بين ماء زمزم والعسل واستوهب من مهر أهله شيئاً، وكان يقول: قال الله تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾[1]. وقال تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾[2]. وقال عليه الصلاة والسلام: ماء زمزم لما شرب له. وقال تعالى ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾[3] من جمع بين ما بورك فيه وبين ما فيه شفاء وبين الهني المريء يوشك أن يلقى العافية.

وقيل: خمسة من المهلكات: دخول الحمام على الشبع والمجامعة على الشبع وأكل القديد وشرب الماء البارد على الريق ومجامعة المرأة العجوز. وقال: لا تنكح العجوز ولا تخرج الدم وأنت مستغن عن إخراجه. وقال الإمام رضي الله عنه:

تــوقَ مـدى الأيـام إدخـال مـطـعـم
على مطعم من قبل هضم المطاعم
وكـلّ طـعـام يـعـجـز الـسـنّ مـضـغـهُ
فـلا تـقـربـنـه فـهـو شـرّ لـطـاعـم
ووفـرّ عـلـى الـجـسـم الـدماء فإنـهـا
لـقـوّة جـسـم الـمـرء خـيـر الـدعـائـم
وإيـاك أن تـنـكـح طـواعـن سـنـهـم
فـإنّ لـهـا سـمـاً كـسـم الأراقـم[1]
وفـي كـلّ أسـبـوع عـلـيـك بـقـيـئـة
تـكـن آمـنـاً مـن شـرّ كـلّ الـبـلاغـم

ومما يورث الهزال. النوم على غير وطاء وكثرة الكلام برفع الصوت. وقال النظام رحمه الله تعالى: ثلاثة تخرب العقل: طول النظر في المرآة وكثرة الضحك والنظر إلى النجوم.

وفي الحديث: احتجم رسول الله ﷺ في أم مغيث وهي وسط الرأس، وكان ﷺ يحتجم في الأخدعين، ونهى عن الحجامة في نقرة القفا فإنها تورث النسيان، وأمر بالاستنجاء بالماء البارد فإنه أمان من الباسور.

وخطب المأمون بمسجد مروان فوجد غالب أهل المسجد يشكون السعال، فقال في آخر خطبته: من كان يشكو سعالاً فليتداو بالخل، ففعلوا فعافاهم الله.

وقال بعض الحكماء: إياك أن تطيل النظر في عين أرمد، وإياك أن تسجد على حصير جديدة قبل أن تمسها بيدك، فرب شظية حقيرة قلعت عيناً خطيرة.

وقيل: كانت الأدوية تنبت في محراب سليمان عليه الصلاة والسلام ويقول كل دواء: يا نبي الله أنا دواء لكذا وكذا.

وقال جالينوس: البطنة[2] تقتل الرجال وتورث الفالج والإسهال الذريع والإقعاد وصنفاً من الجذام يقال له

(١) سورة قٓ، الآية (٩).
(٢) سورة النحل، الآية (٦٩).
(٣) سورة النساء، الآية (٤).

(١) طواعن السن: العجائز والمراد العجائز من النساء، والأراقم: الأفاعي.
(٢) البطنة: التخمة.

الفهد، لا يسمع صاحبه ولا يبصر، نسأل الله العفو والعافية.

وقيل: البطنة تورث الصداع والكمنة في العينين والضربان في الأذنين والقولنج في البدن، فعليك أيها الإنسان بالطريقة الوسطى واتق الليل وطعامه جهدك.

وقال جالينوس: الغم المفرط يميت القلب ويجمد الدم في العروق فيهلك صاحبه، والسرور المفرط يلهب حرارة الدم حتى يغلب الحرارة الغريزية فيهلك صاحبه.

وقيل أنه وضع على مائدة المأمون في يوم عيد أكثر من ثلاثين لوناً فكان يصف وهو على المائدة منفعة كل لون ومضرته. فقال يحيى بن أكثم: يا أمير المؤمنين إن خضنا في الطب فأنت جالينوس في معرفته، أو في النجوم فأنت هرمس في صناعته. أو في الفقه فأنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه في علمه، أو في السخاء فأنت حاتم في كرمه، أو في الحديث فأنت أبو ذر في صدق لهجته، أو في الوفاء فأنت السموءل بن عادياء في وفائه، فسر بكلامه وقال: يا أبا محمد إنما فُضل الإنسان على غيره بالعقل، ولولا ذلك لكانت الناس والبهائم سواء. وقال طبيب الهند: إن منفعة الحقنة للجسد كمنفعة الماء للشجر.

وقال سفيان بن عيينة: أجمع أطباء فارس على أن الداء إدخال الطعام على الطعام، وقالوا: إدخال اللحم على اللحم يقتل السباع في البر.

وقيل: الشرب في آنية الرصاص أمان من القولنج. وعرض رجل على طبيب قارورته فقال له: ما هي قارورتك لأنه ماء ميت وأنت حي تكلمني، فما فرغ من كلامه حتى خر الرجل ميتاً.

وقيل: إن ملكاً من الملوك حصل عنده صداع في رأسه فأحضر الطبيب فأمره أن يضع قدميه في الماء الحار وكان عنده خصي فقال: أين القدمان من الرأس؟ فقال له الطبيب: وأين وجهك من خصيتيك؟ نزعتا فذهبت لحيتك.

وقيل: إن المأمون حصل له صداع بطرسوس، فأحضر طبيباً كان عنده فلم ينفعه علاجه، فبلغ قيصر فأرسل إليه قلنسوة وكتب له: بلغني صداعك فضعها على رأسك يزل ما بك، فخاف أن تكون مسمومة فوضعها على رأس القاصد فلم يصبه شيء، ثم إنه أحضر رجلا به صداع فوضعها على رأسه فزال ما به فتعجب المأمون ثم إنه فتحها فوجد فيها رقعة مكتوباً فيها: بسم الله الرحمن الرحيم كم من نعمة لله تعالى في عرق ساكن وغير ساكن حمعسق لا يصدعون عنها ولا ينزفون من كلام الرحمن خمدت النيران ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقال علي رضي الله تعالى عنه: ادهنوا بالبنفسج فإنه حار في الشتاء بارد في الصيف. **وقال أيضاً رضي الله عنه**: عليكم بالزيت فإنه يذهب البلغم ويشد العصب ويحسن الخلق ويطيب النفس ويذهب الغم.

وعنه رضي الله عنه: «إن لم يكن في شيء شفاء ففي شرطة حاجم أو شربة من عسل».

وقال الحجاج لطبيبه: أخبرنا بجوامع الطب. فقال: لا تنكح إلا فتاةً ولا تأكل من اللحم إلا فتياً. وإذا تغديت فنم وإذا تعشيت فامش ولو على الشوك، ولا تدخلن بطنك طعاماً حتى تستمرئ ما فيه ولا تأو إلى فراشك حتى تدخل الخلاء، وكل الفاكهة في إقبالها وذرها في إدبارها.

وأوصى حكيم خليفته وصية ووعده أنه إذا لازمها لا يمرض إلا مرض الموت، فقال: إياك أن تدخل طعاماً على طعام ولا تمش حتى تعيا، ولا تجامع عجوزاً، ولا تدخل حماماً على شبع، وإذا جامعت فكن على حال وسط من الغداء، وعليك في كل اسبوع بقيئة، ولا تأكل الفاكهة إلا في أوان نضجها ولا تأكل القديد من اللحم، وإذا تغديت فنم وإذا تعشيت فأمش أربعين خطوة، ونم على يسارك لتقع الكبد على المعدة فينهضم ما فيها، وتستريح الكبد من حرارة المعدة. ولا تنم على يمينك فيبطىء الهضم ولا تأكل بشهوة عينيك بعد الشبع، ولا تنم ليلاً حتى تعرض نفسك على الخلاء إن احتجت إلى ذلك أو لم تحتج، واقعد على الطعام وأنت تشتهيه وقم عنه وأنت تشتهيه.

قال بعضهم:

شره النفوس على الجسوم بليةٌ
فتعوّذوا من كلّ نفس تشرَه[1]
ما من فتىً شرهت له نفسٌ وإنْ
نال الغنى إلاّ رأى ما يكرَه

وقال أبو الفيض القضاعي يمدح الفضل وقد فصد:

أرَقت دماً لو تسكب المزن مثله
لأصبح وجه الأرض أخضر زاهياً[2]

---

(١) الشّرَة والشّراهة: الرغبة المفرطة في الطعام.
(٢) أرقت: سكبت.

دماً طيباً لو يطلق الشرع شربه
لكان من الأسقام للناس شافيا

الفصل الرابع

فيما جاء في العيادة وفضلها

قال رسول الله ﷺ: ثلاثة في ظل العرش، عائد المريض ومشيع الموتى وطائع والديه. وفي رواية ومعزي الثكلى. ومن السنة تخفيف الجلوس في العيادة.

مرض بكر بن عبد الله المزني فعاده أصحابه فأطالوا الجلوس عنده فقال: المريض يعاد والصحيح يزار.

قال الشاعر.

يعدن مريضاً هن هيّجن داءه
ألا إنما بعض العوائد دائيا

وقيل: إذا دخل العواد على الملك فحقهم أن لا يسلموا عليه فيحوجوه إلى رد السلام ويتعبوه، فإذا علموا أنه لاحظهم دعوا له وانصرفوا. قيل: مرض إنسان فكتب إليه بعض أصدقائه: كشف الله عنك ما بك من السقم، وطهرك بالعلة من الخطايا ومتعك بأنس العافية وأعقبك دوام الصحة.

ومرض إنسان فكتب إليه صديقه:

بإخوانك الأدنين لا بك كلّ ما
شكوت إليّ اليوم من ألم الوذ
فكلُّ امرىء منهم بقدر احتماله
وإنْ عجزوا عنه تحلمته وحدي

وقال آخر:

بي السوء والمكروه لا بك كلّما
أراداك كانا بي وكان لك الأجر

وقال عبد الله بن مصعب:

مالي مرضت فلم يعدني عائدٌ
منكم ويمرض كلبكم فأعود

فسنّي بعد ذلك عائد الكلاب.

وعاد مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه بعض المرضى فقال:

عادني مالكٌ فلست أبالي
بعد من عادني ومن لم يعدني

وقال علي بن الجهم:

أراقد الليل مسروراً عدمت إذا
عيشي وأحمد يرعى ليله وصبا(١)
الله يعلم أنيّ قد نذرت له
صيام شهر إذا ما أحمدُ ركبا(٢)

وقال آخر:

إذا مرضتم أتيناكم نعودكمو
وتذنبون فنأتيكم ونعتذر

وقال آخر:

أعاذك الله من أشياء أربعة
الموتُ والعشق والإفلاس والجربُ

وقيل: إن حق العيادة يوم ويوم بعد يومين وعلى الأول قول الشاعر:

قالتْ مرضتُ فعدتها فتبرمتْ
فهي الصحيحة والعليل العائد
واللّهِ لو أن القلوب كقلبها
ما رق للولد الصغير الوالد

وعلى الثاني قول بعضهم:

حقّ العيادة يومٌ بعد يومين
وجلسةٌ مثل خلس اللحظ بالعين
لا تبرمنّ عليلاً في مُساءلة
يكفيك من ذاك تسآلٌ بحرفين

وفضل العيادة مشهور وشرفها مذكور وبها تعظم الأجور. وهذا ما انتهى إلينا من هذا الباب والله الموفق للصواب.

الباب الحادي والثمانون

في ذكر الموت

وما يتصل به من القبر وأحواله

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ إذا مات لأحدكم ميت فحسنوا كفنه وعجلوا إنجاز وصيته وأعمقوا له في قبره وجنبوه جار

---

(١) يرعى ليله الوصب: يمنعه المرض من النوم.
(٢) أي إذا شفي وخرج فركب فرسه.

السوء[1]، قيل: يا رسول الله وهل ينفع الجار الصالح في الآخرة؟ قال: وهل ينفع في الدنيا؟ قالوا: نعم. قال: وكذلك في الآخرة.

ومن وصية علي رضي الله عنه لأبي ذر: زر القبور تذكر بها الآخرة، ولا تزرها بالليل وأغسل الموتى يتحرك قلبك، وصلِّ على الجنائز لعل ذلك يحزنك فإن الحزين في ظل الله تعالى.

ويقال: جزعك في مصيبة صديقك أحسن من صبرك، وصبرك في مصيبتك أحسن من جزعك.

ونظر فيلسوف إلى ميت يحمل إلى قبره فقال: حبيب تحمله أهله إلى حبس الأبد.

ودخل عمرو بن العاص رضي الله عنه على معاوية في مرضة مرضها، فقال له: أعائد أنت أم شامت؟ فقال له عمرو: ولم تقول هذا، والله ما كلفتني رهقاً ولا أصدعتني زلقاً ولا جرعتني علقاً، فلم أستطل حياتك ولم استبطيء وفاتك. فأنشد معاوية يقول:

فهل من خالدين إذا هلكنا
وهل في الموت بين الناس عار

ولما مرض معاوية رضي الله عنه مرضه الذي مات فيه، وفد إليه الناس يعودونه فقال لأهله: مهدوا لي فراشاً وأسندوني وأوسعوا رأسي دهاناً ثم اكحلوا عيني بالإثمد ثم ائذنوا للناس يدخلوا ويسلموا علي قياماً ولا تجلسوا عندي أحداً، ففعلوا ذلك، فلما خرجوا من عنده أنشد يقول:

وتجلدي للشامتين أريهمُ
أني لريب الدهر لا أتضعضعُ[2]
وإذا المنية أنشبتْ أظفارها
ألفيت كلّ تميمة لا تنفع[3]

وقيل لما دنا منه الموت تمثل بهذا البيت:

هو الموت لا منجى من الموت والذي
نحاذر بعد الموت أدهى وأقطع

ثم قال: رفع يديه وقال: اللهم أقل العثرة وأعف عن الزلة وعد بحلمك على من لم يرج غيرك ولا يثق إلا بك، فإنك واسع المغفرة وليس لذي خطيئة منك مهرب. ومات رحمه الله تعالى.

(١) أي لا يدفن بجانب قبر رجل كافر أو مشرك أو منافق.
(٢) أتضعضع: أضعف وأرتجف.
(٣) التميمة: ما كانوا يحملونه لرد العين أو الحسد أو ما أشبه ذلك.

وذكر أبو العباس الشيباني قال: وفد على أبو دلف عشرة من أولاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه في العلة التي مات فيها فأقاموا ببابه شهراً لا يؤذن لهم لشدة العلة التي أصيب بها، ثم أفاق فقال لخادمه بشر: إن قلبي يحدثني أن بالباب قوماً لهم إلينا حوائج فافتح الباب ولا تمنعن أحداً، قال: فكان أول من دخل آل علي رضي الله عنه فسلموا عليه ثم ابتدأ الكلام رجل منهم من ولد جعفر الطيار فقال: أصلحك الله أنا من أهل بيت رسول الله ﷺ وفينا من ولده وقد حطمتنا المصائب وأجحفت بنا النوائب، فإن رأيت أن تجبر كسيراً وتغني فقيراً لا يملك قطميراً فأفعل. فقال لخادمه خذ بيدي وأجلسني، ثم أقبل معتذراً إليهم ودعا بدواة وقرطاس وقال: ليكتب كل منكم بيده أنه قبض مني ألف دينار، قالوا: فبقينا والله متحيرين فلما أن كتبنا الرقاع ووضعناها بين يديه قال لخادمه: علي بالمال. فوزن لكل واحد منا ألف دينار ثم قال لخادمه: يا بشر إذا أنا مت فأدرج هذه الرقاع في كفني، فإذا لقيت محمداً ﷺ في القيامة كانت حجة لي أني قد أغنيت عشرة من ولده ثم قال: يا غلام ادفع لكل واحد منهم ألف درهم ينفقها في طريقه حتى لا ينفق من الألف دينار شيئاً حتى يصل إلى موضعه، قال: فأخذناها ودعونا له وانصرفنا ثم مات رحمه الله.

وقيل: لما دفن عمر بن عبد العزيز نزل عند دفنه مطر من السماء، فوجدوا بردة[1] مكتوباً فيها بالنور (بسم الله الرحمن الرحيم أمان لعمر بن عبد العزيز من النار).

وقيل لأعرابي: إنك تموت، قال: وإلى أين أذهب؟ قالوا: إلى الله تعالى، فقال: لا أكره أن أذهب إلى من لا أرى الخير إلا منه. وبكى الخولاني عند موته فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لطول السفر وقلة الزاد، وقد سلكت عقبة ولا أدري إلى أين أهبط وإلى أي مكان أسقط.

ودخل ملك الموت على داود عليه السلام فقال له: من أنت؟ قال: أنا الذي لا يهاب الملوك ولا تمنع منه القصور ولا يقبل الرشا، فقال: إذا أنت ملك الموت، وإني لم أستعد بعد، فقال له: يا داود أين فلان جارك أي فلان قريبك؟ قال: ماتا، قال: أما كان لك في موت هؤلاء عبرة لتستعد بها، ثم قبضه عليه السلام.

وفي الخبر من حديث حميد الطويل عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: إن الملائكة تكتنف العبد وتحتبسه

(١) البَرَدَةُ: حبة الجليد الساقطة مع المطر.

ولولا ذلك لكان يعدو في الصحراء والبراري من شدة سكرات الموت وقد أجمعت الأمة على أن الموت ليس له زمن معلوم فليكن المرء على أهبة من ذلك.

وقيل: بينما حسان جالس وفي حجره صبي يطعمه الزبد بالعسل إذ شرق الصبي فمات. فقال:

إعمل وأنت صحيحٌ مطلقٌ فرحُ
ما دمت ويحك يا مغرور في مهلِ
يرجو الحياة صحيحٌ ربّما كمنت
له المنية بين الزبد والعسلِ

وقيل: إن المأمون لما قربت وفاته دخل عليه بعض أصدقائه فوجده قد فرش له جلد دابة وبسط عليه الرماد وهو يتمرغ فيه ويقول: يا من لا يزول ملكه، إرحم من زال ملكه.

ولما احتضر عمرو بن العاص دعا بغل وقيد وقال: ألبسوني إياهما فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن التوبة مقبولة ما لم يغرغر ابن آدم بنفسه، ثم استقبل القبلة، وقال: اللهم إنك أمرتنا فعصينا فارتكبنا، وهذا مقام العائذ بك فإن تعف فأنت أهل العفو، وإن تعاقب فبما قدمت يداي. لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، ثم مات وهو مغلول القيد، فبلغ ذلك الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما فقال: استسلم الشيخ ولعلها تنفعه.

ولما احتضر المعتصم جعلوا يهونون عليه فقال: هان على النظارة ما يمر بظهر المجلود. **وسمع أبو الدرداء** رجلاً في جنازة يقول: من هذا؟ فقال: أنت. فإن كرهت فأنا. **وقيل**: مات عكرمة مولى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وكثير عزة في يوم واحد. فقال: اللهم كما جمعتهما في زيارة القبور فلا تفرق بينهما يوم النشور. فما بقي في المدينة أحد إلا استحسن كلامه.

ولما احتضر إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام قال: هل رأيت خليلاً يقبض روح خليله؟ فأوحى الله إليه: هل رأيت خليلاً يكره لقاء خليله؟ قال: فاقبض روحي الساعة. وقيل: إذا قضى الله لرجل أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة فيسيره إليها. وقال بعضهم:

إذا ما حِمامُ المرء كان ببلدةٍ
دعته إليها حاجةٌ فيطيرُ[1]

حكي أن شاباً تقياً من بين إسرائيل كان يجتمع مع سليمان عليه السلام ويحضر مجالسه، فبينما هو عند سليمان في مجلسه إذ دخل ملك الموت عليه، فلما رآه الشاب أصفرّ لونه وارتعدت فرائصه وقال: يا نبي الله إني خفت من هذا الرجل، فمر الريح أن تذهب بي إلى الهند، فأمر سليمان الريح فذهبت به، فما كان إلا قليل حتى دخل ملك الموت على سليمان وهو متعجب، فقال له سليمان: ممّ تعجب؟ قال: أعجب أني أمرت بقبض روح الشاب الذي كان عندك بأرض الهند ودخلت عليك فوجدته عندك، فصرت متعجباً، ثم توجهت إلى الهند فرأيته هناك وقبضت روحه فهذا عجبي. فقال له سليمان: إنه لما رآك خاف وانزعج وطلب مني أن تحمله الريح إلى الهند فأمرتها فحملته. وفي ذلك المعنى قال محمد بن الحسن:

ومتعب الروح مرتاحٌ إلى بلدٍ
والموت يطلبه في ذلك البلد

وقيل: إن الانسان يحصل له عند الموت قوة حركة، نحو ما يحصل للسراج عند انطفائه من حركة سريعة وضياء ساطع، وتسميها الأطباء النعشة الأخيرة والله أعلم.

وقيل: إن الرشيد ماتت له جارية وكانت من خواص محاظيه، فجزع عليها جزعاً شديداً، فقال لبعض أصدقائه: أما ترى ما بليت به؟ ما أحببت أحداً إلا مات. فقال يا أمير المؤمنين: أحببني، فقال: ويحك إن الحب ليس هو شيء يصنع إنما هو شيء يقع في القلب تسوقه الأسباب، فقال: قل أنا أحبك، قال: نعم أحبك، فحُمّ من وقته ومات.

وفي الحديث المرفوع: «**كسر عظم الميت ككسره في حياته**». وقال يزيد بن أسلم: لقد كان يمضي في الزمن الأول أربعمائة سنة ما يسمع فيها بجنازة، وعن ميمون بن مهران قال: شهدت جنازة ابن عباس رضي الله عنه بالطائف، فلما وضع ليصلى عليه جاء طائر أبيض حتى وقف على أكفانه، ثم دخل فيها فالتمسناه فلم نجده، ولما سوينا عليه التراب سمعنا من يسمع صوته ولا نرى شخصه يقول: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨﴾[1] الآية.

قال ابن عباس رضي الله عنهما إن قبر آدم عليه السلام بمسجد الخيف بمنى. **وقال عطاء**: بلغني أن قبره تحت

---

(١) الحِمَامُ: الأَجَلُ وَالمَوْتُ.

(١) سورة الفجر، الآيتان (٢٧ ـ ٢٨).

المنارة التي وسط الخيف. وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى ما لايبكيه عند ذكر الجنة والنار، فقيل له في ذلك فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا العبد منه فما بعده أيسر منه**».

وعن معاذ بن رفاعة الزرقي قال: أخبرني رجل من رجال قومي أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ في جوف الليل معتجراً بعمامة من استبرق، فقال: يا محمد من هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش، فقام رسول الله ﷺ يجر ثوبه مبادراً إلى سعد بن معاذ رضي الله عنه فوجده قبض.

وقال الحسن رضي الله عنه: ما من يوم إلا وملك الموت يتصفح وجوه الناس خمس مرات، فمن رآه على لهو ولعب أو معصية أو ضاحكاً حرك رأسه وقال له: مسكين هذا العبد غافل عما يراد به، ثم يقول له: اعمل ما شئت، فإن لي فيك غمزة أقطع بها وتينك[1]. **وقال عمر بن عبد العزيز** رضي الله عنه لرجاء بن حيوه: يا رجاء إذا وضعت في لحدي، فاكشف الثوب عن وجهي فإن رأيت خيراً فاحمد الله وإن غير ذلك فاعلم أن عمر قد هلك. قال رجاء: فلما دفناه كشفت عن وجهه، فرأيت نوراً ساطعاً، فحمدت الله تعالى أن قد صار إلى خير. **وقال أيضاً**: دخلت على عمر بن عبد العزيز وهو محتضر فقال: يا رجاء إني أرى وجوهاً كراماً ليست بوجوه إنس ولا جان، وهو يقلب طرفه يميناً وشمالاً، ثم رفع يده فقال: اللهم أنت ربي أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت، فإن غفرت فقد مننت وإن عاقبت فما ظلمت، إلا أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك المصطفى ونبيك المرتضى، بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة ونصح الأمة، فعليه السلام والرحمة، ثم قضى نحبه رحمة الله.

وعن أسماء بنت عميس قالت: كنت عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعدما ضربه ابن ملجم إذ شهق شهقة بعد أن أغمي عليه، ثم أفاق وقال: مرحباً الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء، فقيل له ما ترى؟ قال: هذا رسول الله ﷺ، وهذا أخي جعفر وعمي حمزة وأبواب السماء مفتحة

(١) الوتين: عرق في الرقبة يغذي الدماغ وإذا قطع مات الإنسان.

والملائكة ينزلون علي يبشرونني بالجنة، وهذه فاطمة قد أحاط بها وصائفها من الحور العين، وهذه منازلي، لمثل هذا فليعمل العاملون.

ولما احتضر عبد الملك بن مروان قال لابنه الوليد: إذا أنا متّ إياك أن تجلس وتعصر عينيك كالمرأة الوكعاء، لكن ائتزر وشمر والبس جلد النمر وضعني في حفرتي وخلّني وشأني، وعليك شأنك. وادع الناس إلى بيعتك فمن قال برأسه هكذا[1]، فقل له بسيفك هكذا[2]، ثم بعث إلى محمد وخالد ابني يزيد بن معاوية، فقال: هل عندكما ندامة في بيعه الوليد؟ فقالوا: لا نعرف أحداً أحق منه بالخلافة، فقال: أما إنكما لو قلتما غير هذا لضربت الذي فيه أعينكما، ثم رفع كنار فراشه فإذا تحته سيف مسلول تحت يمينه، كل هذا وروحه تتردد في حنجرته، وهو يقول: الحمد لله الذي لا يبالي أصغيراً أخذ أم كبيراً. لا إله إلا الله محمد رسول الله. ثم بعد ساعة نفذت روحه فدخل عليه الوليد ومعه بناته يبكون، فتمثل بقول الشاعر:

ومستخبرٍ عنا يريد بنا الرّدى
ومستخبراتٍ والعيونُ سواكنُ

وقال محمد بن هارون:

كأنّي بإخواني على جنب حفرتي
يهيلون فوقي[3] والعيون دماً تجري
فيا أيها المذري عليّ دموعه
سَتُعْرِضُ في يومين عني وعن ذكري[4]
عفا الله عنّي أنزِلُ القبر ثاوياً
أُزارُ فلا أدري وأجفى فلا أدري

وكان يزيد الرقاشي يقول: من كان الموت موعده والقبر بيته والثرى مسكنه والدود أنيسه وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر، كيف تكون حالته، ثم يبكي حتى يغشى عليه. فيجب على العاقل أن يحاسب نفسه بنفسه على ما فرط من عمره، ويستعد لعاقبة أمره بصالح العمل ولا يغتر بالأمل، فإن من عاش مات ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. نسأل الله أن يلهمنا رشدنا ويوفقنا لاتباع أوامره واجتناب

(١) أي من رفع رأسه رافضاً.
(٢) أي فاقطع رأسه، فهو هنا يوصيه بأخذ البيعة من الناس بالقوة.
(٣) أي يهيلون فوقي: أي يهيلون التراب فوق جثماني في قبري.
(٤) المذري دموعه: الباكي الذّارف لدموعه.

نواهيه، وأن يجعل الموت خير غائب ننتظره وأن يختم لنا بالخير وأن يتغمدنا برحمته إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثاني والثمانون
في الصبر والتأسي والتعازي والمراثي ونحو ذلك
وفيه فصول

الفصل الأول
في الصبر

قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝﴾(١). وقال ﷺ: «ما من مسلم يصاب بمصيبة وإن قل عهدها فأحدث استرجاعاً إلا أحدث الله له مثله وأعطاه مثل أجره ذلك يوم أصيب بها».

وعن أنس بن الملك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح حزيناً أصبح ساخطاً على ربه، ومن أصبح يشكو مصيبة فكأنما يشكو الله، ومن تواضع لغني ليسأله ما في يده أحبط الله ثلثي عمله، ومن أعطي القرآن ولم يعمل به وتهاون به حتى دخل النار، أبعده الله عن رحمته لأنه هو الذي فعل ذلك بنفسه حيث لم يعرف حرمة القرآن».

وروي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من مات له ثلاثة من الولد لا يلج النار إلا تحلة القسم، يعني قوله تعالى ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾(٢). وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي وأعقبني خيراً منها، إلا فعل الله به ذلك».

وروي أنه لما مات إبراهيم بن رسول الله ﷺ ذرفت عيناه، فقال له عبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله ألم تنه عن البكاء؟ قال: إنما نهيت عن الغناء والصوتين الأحمقين والندب، ولكن هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوبنا، ومن لا يَرحم لا يُرحم، فإن القلب يخشع والعين تدمع، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون، ولا نقول إلا ما يرضي الله ربنا إنّا لله وإنا إليه راجعون.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أول شيء كتبه الله في اللوح المحفوظ إنني أنا لاإله إلا أنا محمد عبدي ورسولي، من استسلم لقضائي وصبر على بلائي وشكر نعمائي كتبته صديقاً وبعثته مع الصديقين، ومن لم يستسلم لقضائي ولم يصبر على بلائي ولم يشكر نعمائي فليتخذ رباً سواي.

وقال ابن المبارك: إن المصيبة واحدة، فإذا جزع صاحبها فهما اثنتان لأن إحداهما المصيبة بعينها والثانية ذهاب أجره وهو أعظم من المصيبة.

وعن العلاء بن عبد الرحمن أن النبي ﷺ لما حضرته الوفاة بكت فاطمة فقال: لا تبكي يا بنتاه قولي إذا مت إنا لله وإنا إليه راجعون، فإن لكل إنسان مصيبة معوضة. قالت: ومنك يا رسول الله؟ قال: ومني.

عن عطاء بن أبي رباح قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصابته مصيبة فليذكر مصيبته بي فإنها من أعظم المصائب». وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال: من أُخذت حبيبتاه يعني عينيه فصبر واحتسب أدخله الله الجنة.

وقيل: إن امرأة أيوب عليه الصلاة والسلام قالت: لو دعوت الله تعالى أن يشفيك، فقال لها: ويحك كنا في النعماء سبعين عاماً، أفلا نصبر على الضراء مثلها، فلم يلبث إلا يسيراً أن عوفي.

وقيل: الصبر مفتاح الظفر، والتوكل على الله تعالى رسول النجاح. وقيل: من لم يلق نوائب الدهر بالصبر طال عتبه عليه. وقيل: إن معاوية رضي الله تعالى عنه خرج يوماً ومعه عبد العزيز بن زرارة الكلبي وكان ذا منصب وشرف وعقل وأدب، فقال له معاوية: يا عبد العزيز أتاني نعي سيد شباب العرب، فقال له: ابني أو ابنك قال: لا. ابنك، قال: للموت تلد الوالدة. ومما قيل: اصبر لحكم من لا تجد معولاً إلا عليه ولا مفزعاً إلا إليه.

وقال سويد السدوسي:

---

(١) سورة البقرة، الآيتان (١٥٥ ـ ١٥٦).
(٢) سورة مريم، الآية (٧١).

فأوصيكما يا ابنيْ سدوس كلاكما
بتقوى الذي أعطاكما وبراكما
بشكرٍ إذا ما أحدث الله نعمةً
وصبرٍ لأمر الله فيما ابتلاكما

وقال:

أيا صاحبي إنْ رمت أن تكسب العـ
ـلا وترقى إلى العلياء غير مزاحم
عليك بحسن الصبر في كلّ حالةٍ
فما صابرٌ فيما يروم بنادم

وقال آخر:

هو الدهر قد جرّبته وبلوته
فصبراً على مكروهه وتجلدا

وحدث الزبير قال: قامت عائشة بعدما دفن أبوها أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، فقالت: نضّر الله وجهك، وشكر صالح سعيك، فقد كنت للدنيا مذلاً بإدبارك عنها، وللآخرة معزاً بإقبالك عليها، ولئن كان رزؤك أعظم المصائب بعد رسول الله ﷺ وأكبر الأحداث بعده، فإن كتاب الله تعالى قد وعدنا بالثواب على الصبر في المصيبة، وأنا تابعة له في الصبر، فأقول إنا لله وإنا إليه راجعون، ومستعيضة بأكثر الاستغفار لك، فسلام الله عليك، توديع غير قالية لحياتك، ولا رازئة على القضاء فيك.

ولما مات ذر الهمداني جاء أبوه، فوجده ميتاً وكان موته فجأة، وعياله يبكون عليه فقال: ما لكم، والله ما ظلمناه ولا قهرناه ولا ذهب لنا بحق ولا أصابنا فيه، ما أخطأ من كان قبلنا في مثله، ولما وضعه في حفرته قال: رحمك الله يا بني وجعل أجري فيك لك، والله ما بكيت عليك وإنما بكيت لك، فوالله لقد كنت بي باراً ولي نافعاً وكنت لك محباً وما بي إليك من وحشة وما بي إلى أحد غير الله من فاقة، وما ذهبت لنا بعزة وما أبقيت لنا من ذل، ولقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك، يا ذر لولا هول المطلع لتمنيت ما صرت إليه، فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إنك وعدت الصابرين على المصيبة ثوابك ورحمتك، اللهم وقد وهبت ما جعلت لي من الأجر إلى ذر صلة مني فلا تحرمني ولا تعرفه قبيحاً وتجاوز عنه، فإنك رحيم بي وبه، اللهم قد وهبت لك إساءته لي فهب لي إساءته إليك، فإنك أجود مني وأكرم. اللهم إنك قد جعلت لك عليه حقاً وجعلت لي عليه حقاً قرنته بحقك، فقلت: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾(1). اللهم إني قد غفرت له ما قصر فيه من حقي، فاغفر له ما قصر فيه من حقك، فإنك أولى بالجود والكرم. فلما أراد الإنصراف قال: يا ذر قد انصرفنا وتركناك ولو أقمنا عندك ما نفعناك.

وفي الحديث: إذا مات ولد العبد يقول الله تعالى للملائكة: ماذا قال عبدي عند قبض روح ولده وثمرة فؤاده؟ فيقولون: إلهنا حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: أشهدكم يا ملائكتي أني بنيت له بيتاً في الجنة وسميته بيت الحمد. وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه دفن ابناً له وضحك عند قبره، فقيل له: أتضحك عند القبر؟ قال: أردت أن أرغم أنف الشيطان، فينبغي للعبد أن يتفكر في ثواب المصيبة فتسهل عليه، فإذا أحسن الصبر استقبله يوم القيامة ثوابها، حتى يود لو أن أولاده وأهله وأقاربه ماتوا قبله لينال ثواب المصيبة. وقد وعد الله تعالى في المصيبة ثواباً عظيماً إذا صبر صاحبها، واحتسب وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾(2). وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝﴾(3) الآية. اللهم رضينا بقضائك وصبرنا على بلائك واغفر لنا ولوالدينا ولكل المسلمين يا رب العالمين.

الفصل الثاني من هذا الباب

في التعازي والتأسي

روى الترمذي في كتاب السنن للبيهقي عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «من عزى مصاباً فله مثل أجره». وروينا في كتاب الترمذي أيضاً بسند متصل إلى رسول الله ﷺ قال: «من عزى ثكلى كسي برداء في الجنة». وروينا في سنن ابن ماجة والبيهقي بإسناد حسن، عن عمرو بن حزم عن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن يعزي أخاه بمصيبته إلا كساه الله من حلل الكرامة يوم القيامة».

واعلم أن التعزية هي التصبير وذكر ما يسلي صاحب الميت ويخفف حزنه ويهون مصيبته وهي مستحبة، فإنها مشتملة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي

(1) سورة لقمان، الآية (14).
(2) سورة محمد، الآية (31).
(3) سورة البقرة، الآية (155).

أيضاً داخلة في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾[1]. وهي من أحسن ما يستدل به في التعزية. وثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه».

واعلم أن التعزية مستحبة قبل الدفن وبعده، وتكره بعد ثلاثة أيام، لأن التعزية لتسكين قلب المصاب، والغالب سكونه بعد ثلاثة أيام، فلا يجدد الحزن. هكذا قال الجماهير من أصحاب الشافعي رضي الله تعالى عنه. وقيل: إنها لا تفعل بعد ثلاثة أيام إلا في صورتين، وهما إذا كان المعزّي أو صاحب المصيبة غائباً حال الدفن فاتفق رجوعه بعد الثلاثة، وأما لفظ التعزية فلا حجر فيه فبأي لفظ عزاه حصلت، واستحب أصحاب الشافعي أن يقول في تعزية المسلم بالمسلم: عظم الله أجرك، وأحسن عزاءك وغفر لميتك. وفي المسلم بالكافر: أعظم الله أجرك، وأحسن عزاءك، وفي الكافر بالكافر: أخلف الله عليك ولا نقص لك عدداً.

روي أن النبي ﷺ فقد بعض أصحابه فسأل عنه فقالوا: يا رسول الله بنيه الذي رأيته هلك، فلقيه النبي ﷺ، فسأل عن بنيه، فقال: يا رسول الله هلك، فعزاه فيه ثم قال: يا فلان أيما كان أحب إليك أن تتمتع به عمرك أو لا تأتي غداً باباً من أبواب الجنة إلا وجدته وقد سبقك إليه، فيفتحه لك؟ فقال: يا رسول الله ﷺ سبقه إلى باب الجنة أحب إلي من التمتع به في دار الدنيا. قال: ذلك لك.

وروى البيهقي بإسناده في مناقب الشافعي رحمهما الله: أن الشافعي قد بلغه أن عبد الرحمن بن مهدي مات له ابن فجزع عليه جزعاً شديداً، فبعث إليه الشافعي رحمه الله يقول: يا أخي عزّ نفسك بما تعزّ به غيرك واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك، واعلم أن أمض المصائب[2] فقد سرور وحرمان أجر، فكيف إذا اجتمعا مع اكتساب وزر؟ ألهمك الله عند المصائب صبراً، وأجزل لنا ولك بالصبر أجراً.

وروي عن ابن المبارك قال: مات لي ابن فمرّ بي مجوسي وقال: ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام، فقال: اكتبوها منه. عن معاذ بن جبل أنه قال: مات لي ابن، فكتب إلي رسول الله ﷺ: من محمد رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل، سلام عليكم، فإني أحمد الله الملك الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فعظم الله لك الأجر، وألهمك الصبر ورزقنا وإياك الشكر، ثم اعلم أن أنفسنا وأموالنا وأهلنا وأولادنا من مواهب الله تعالى الهنية وعواريه المستودعة، يمتعنا بها إلى أجل معدود ويقبضها لوقت معلوم، ثم فرض الله تعالى علينا الشكر إذا أعطى، والصبر إذا ابتلى، وكان ابنك من مواهب الله الهنية وعواريه المستودعة. متعك الله به في غبطة وسرور، وقبضه بأجر كبير إن صبرت واحتسبت، فاصبر واحتسب، واعلم أن الجزع لا يرد ميتاً ولا يطرد حزناً.

وروي أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه كان إذا عزى مرزأ قال: ليس مع العزاء مصيبة ولا مع الجزع فائدة، والموت أشد مما قبله، وأهون مما بعده، فاذكر مصيبتك برسول الله ﷺ تهن عليك مصيبتك.

وعزى الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه صديقاً له فقال:

إنا نعزيك لا أنا على ثقة
من الحياة ولكنْ سنةُ الدين
فما المعزّى بباق بعد ميِّتِهِ
ولا المعزِّي ولو عاشا إلى حين

كتب بعضهم إلى أخ له يعزيه: أنت يا أخي أعزك الله عالم بالدنيا وما خلقت له من الفناء وإنها لم تعط إلا أخذت ولم تسر إلا أحزنت، وإن الموت سبيل محتوم على الأولين والآخرين لا دافع عنه ولا مؤخر لما قضى الله عز وجل منه، وإنا لله وإنا إليه راجعون. وعزّى رجل بعض الخلفاء بابن له، فكتب إليه يقول:

تعزّ أمير المؤمنين فإنه
لما قد ترى يغذو الصغير ويولدُ
هل الابن إلا من سلالة آدم
لكلٍّ على حوض المنية موردُ

وكتب بعضهم إلى صديق له وقد ماتت ابنته فقال:

الموت أخفى سواةً للبنات
ودفنها يروى من المكرمات
أما رأيت الله سبحانه
قد وضع النعش بجنب البنات

وكتب بعضهم إلى صديق له يعزيه بأخيه ويسليه: ما تصنع يا أخي والقضاء نازل والموت حكم شامل، وإن لم تلذ بالصبر فقد اعترضت على مالك الأمر، وأنت تعلم

---

(١) سورة المائدة، الآية (٢).

(٢) أمض المصائب: أشدها وأصعبها احتمالاً.

أن نوائب الدهر لا تدفع إلا بعزائم الصبر، فاجعل بين هذه اللوعة الغالية والدمعة الساكبة حاجباً من فضلك وحاجزاً من عقلك ودافعاً من دينك ومانعاً من يقينك، فإن المحن إذا لم تعالج بالصبر كانت كالمنح إذا لم تقابل بالشر، فصبراً صبراً، ففحول الرجال لا تستفزُها الأيام بخطوبها، كما أن متون الجبال لا تهزها العواصف بهبوبها، فعزيز علي أن أخاطب مولاي معزّياً وأكاتب مسلياً عن كبير أو صغير مما يتعلق بخدمته أو ينتهي إلى جملته، فكيف بالصنو الأكرم والذخر الأعظم والركن الأشد والسهم الأسد والشهاب الأسطع والحسام الأقطع، لكن التعزية سيرة سائرة وسنة ماضية غابرة، وقدر الله هو المقدر وأجل الله إذا جاء لا يؤخر، ولولا أن الذكرى تنفع والتعزية يستوي فيها الأشرف والأوضع، لأجللت مولاي أن أفاتحه معزياً وأخاطبه مسلياً، ولكن بحمد الله العالم لا يعلم والسابق لا يتقدم فبمولاي يقتدى في الصبر على النوائب وبنوره يهتدى في مشكلات المذاهب، وكل ما كان من الرزء أوجع كان الأجر عليه أوسع. جعل الله مولاي من الصابرين على المصيبة وأعظم أجره وجعل الجنة نصيبه.

وعَزّى رجل فتى عن أبيه فلم يجده كما أحب فقال: يا بني سوء الخلف أضر علينا من فقد السلف. ومات لبعض ملوك كندة ابنة فوضع بين يديه بدرة من المال وقال: من بالغ في تعزيته فهي له، فدخل عليه أعرابي وقال: عظم الله أجر الملك كفيت المؤونة وسترت العورة، ونعم الصهر القبر، فقال: قد أبلغت وأوجزت ثم دفعها له.

وعَزّت أعرابية قوماً فقالت: جافى الله عن ميتكم الثرى وأعانه على طول البلى وآجركم ورحمه. وكان لعلي بن الحسين جليس مات له ابن فجزع عليه جزعاً شديداً، فعزاه علي بن الحسين رحمه الله ووعظه فقال: يا ابن رسول الله إن ابني كان مسرفاً على نفسه، فقال: لا تجزع، فإن من ورائه ثلاث خلال. أولهن: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن سيدنا محمداً رسول الله، والثانية: شفاعة جدي ﷺ، والثالثة: رحمة الله التي وسعت كل شيء، فأين يخرج ابنك عن واحدة من هذه الخلال.

وقال سليمان بن عبد الملك عند موت ابنه لعمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة: إنه في كبدي جمرة لا يطفئها إلا عبرة، فقال عمر: اذكر الله يا أمير المؤمنين، وعليك بالصبر، فنظر إلى رجاء كالمستريح بمشورته فقال رجاء: أفضها يا أمير المؤمنين، فما بذلك من بأس، لقد دمعت عينا رسول الله ﷺ على ابنه إبراهيم، وقال: «إن العين لتدمع وإن القلب ليخشع ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون». فأرسل سليمان عينيه حتى قضى أربه ثم أقبل عليهم، قال: لولا نزفت هذه العبرة لانصدع كبدي[1]، ثم إنه لم يبك بعدها.

وكتب الإسكندر إلى أمه قبل وفاته بقليل: إذا وصل إليك كتابي هذا فاجمعي أهل بلدك وأعدي لهم طعاماً ووكلي بالأبواب من يمنع من أصابته مصيبة بفقد أم أو أب أو أخ أو أخت أو ولد، ففعلت، فلم يدخل إليها أحد، فعلمت أن الإسكندر عزّاها في نفسه.

ولما قتل الفضل بن سهل دخل المأمون على أمه يعزيها فيه فقال: يا أماه لا تحزني على الفضل، فأنا خلف منه، فقالت: كيف لا أحزن على ولد عوضني عنه خليفة مثلك، فعجب المأمون من جوابها، وكان يقول: ما سمعت قط أحسن منه ولا أجلب للقلوب. فقال لها: عليك بالصبر، فإن فيه مزيد الأجر.

وممن جزع على ولده جعفر بن علية لما قتله الحارث قام نساء الحي يبكون عليه، وقام أبوه إلى ولد كل شاة وناقة فذبحه وألقاها بين أيديها وقال لها: ابكين معي على جعفر، فما زالت النوق ترغو والشياه تيعر والنساء يصرخن ويبكين وهو يبكي معهن، فلم ير مأتم كان أوجع منه. وقال يحيى بن خالد: التعزية بعد ثلاثة أيام تجدد الحزن، والتهنئة بعد سنة تجدد الفرح.

ومما قيل في التأسي والتسلي بالخلف عن السلف:

قيل: عزى بعض الشعراء يزيد بن معاوية في والده فقال:

أصبر يزيد فقد فارقت ذا ثقة
واشكر إلهك من بالملك حاباكا[2]

لا رزء أصبح في الأيام نعرُفه
كما رزئت ولا عقبى كعقباكا[3]

وقال آخر:

لا بدّ من فقد ومن فاقد
هيهات ما في الناس من خالد

وقال آخر:

---

(١) انصدع كبده: إنشق من الحزن.
(٢) حاباكا: من المحاباة وهي المراعاة.
(٣) رزء: بلاء ومصيبة.

تبصّر فلو أن البكا رد هالكاً
على أحد فاكثر بكاك على عمر

وكتب بعضهم إلى أولاد صديقه يعزيهم ويسليهم في والدهم فقال:

فلو كان فيض الدمع ينفع باكياً
لعلّمت غُرب الدمع كيف يسيل
فإن غاب بدرٌ فالنجوم طوالعٌ
ثوابت لا يُقضى لهنّ أفول
يغاث بها في ظلمة الليل حائرٌ
ويسري عليها بالرفاق دليل

ودخل عبد الملك بن صالح على الرشيد وقد مات له ولد، وولد له في تلك الليلة ولد، فقال سرّك الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك ولا ساءك فيما سرك وجمع لك بين أجر الصابر وثواب الشاكر. وقال بعضهم:

أليس لهذا صار آخر أمرنا
فلا كانت الدنيا القليل سرورها
فلا تعجبي يا نفسُ مما ترينَهُ
فكل أمور الناس هذا مصيرها

وسئل الأصمعي عن قول الخنساء في نعيها صخر حين مات ونعته فقالت:

يُذكرني طلوع الشمس صخراً
وأندبه لكلّ غروب شمسِ

فقالوا له: لماذا أنها خصت الشمس دون القمر والكواكب فقال: لكونه كان يركب عند طلوع الشمس يشن الغارات وعند غروبها يجلس مع الضيفان، فذكرته بهذا مدحاً لأنه كان يغير على أعدائه ويتقيد بضيفه، وقد رثته بعد البيت الأول بأبيات منها:

ألا يا نفس لا تنسيه حتى
أفارق عيشتي وأزور رمسي[1]
ولولا كثرة الباكين حولي
على أمواتهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكنْ
أسلّي النفسَ عنه بالتأسّي[2]

وقال آخر:

ولولا الأسى ما عشت في الناس ساعة
ولكنْ إذا ناديت جاوبني مثلي

وقال آخر:

وهوّنَ وجدي عن خليلي أنني
إذا شئت لاقيت الذي أنا صاحبه

وقال آخر:

ومما يؤديني إلى الصبر والعزا
تردّد فكري في عموم المصائبِ[1]

الفصل الثالث

في المراثي

لما توفي رسول الله ﷺ رثاه جماعة من أصحابه وآله بمراثٍ كثيرة منها ما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، فإنه كان أقرب الناس إليه، وهو أول من رثاه، فقال:

لما رأيت نبينا متجندلاً
ضاقت علي بعرضهنّ الدور
فارتاع قلبي عند ذاك لموته
والعظم منّي ما حييت كسيرُ
أعتيقُ ويحك إن خِلّك قد ثوى
والصبر عندك ما بقيت يسير[2]
يا ليتني من قبل مهلِك صاحبي
غُيبْت في لحد عليه صخور
فلتحدثن بدائعٌ من بعده
تعيا بهنّ جوانحٌ وصدور

وقال آخر:

فقدت أرضنا هناك نبياً
كان يغدو به النبات زكيا
خلقاً عالياً وديناً كريماً
وصراطاً يهدي الأنام سوياً
وسراجاً يجلو الظلام منيرا
ونبيّاً مؤيداً عربيّاً
حازماً عازماً حليماً كريماً
عائداً بالنوال براً تقيّاً

---

(١) الرمس: القبر.
(٢) التأسي: مواساة النفس والتّصبُّر.

(١) يؤديني إلى الصبر: يوصلني إليه.
(٢) خلك: خليلك أي صاحبك المقرّب، يسير: قليل.

إن يوماً أتى عليك ليومٌ
كوِّرت شمسه وكان خليا
فعليك السلام منّا جميعاً
دائم الدهر بكرةً وعشيّاً

ورثاه ﷺ أبو سفيان بن الحارث فقال:

أرقتُ فبات ليلي لا يزولُ
وليل أخي المصيبة فيه طولُ
وأسعدني البكاء وذاك فيما
أصيب المسلمون به قليل
لقد عظمت مصيبتنا وجلت
عشية قيلَ قَد قُبض الرسول
وأضحت أرضنا مما عراها
تكاد بنا جوانبها تميل(١)
فقدنا الوحي والتنزيل فينا
يروح به ويغدو جبرائيل
وذاك أحقُّ ما سالت عليه
نفوس الناس أو كادت تسيل
نبيٌّ كان يجلو الشك عنا
بما يوحى إليه وما يقول
ويهدينا فلا نخشى ملاماً
علينا والرسول لنا دليل
أفاطمُ إن جزعت فذاك عذرٌ
وإن لم تجزعي فهو السبيل
فقبر أبيك سيِّدُ كلِّ قبر
وفيه سيِّد الناس الرسول

ولما مات أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه رثاه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بهذه الأبيات حين رجع من دفنه فقال:

ذهب الذين أُحبُّهم
فعليكِ يا دنيا السّلام
لا تذكرين العيش لي
فالعيش بعدهُم حرام
إنّي رضيعٌ وصالهم
والطفل يؤلمه الفطام

ورثى بعضهم محمد بن يحيى بعد موته فقال:

سألت الندى والجود مالي أراكما
تبدّلتما عزّاً بذل مؤبد
وما بال ركن المجد أمسى مهدّماً
فقالا أصبنا بابن يحيى محمد
فقلت فهلاّ متُّما بعد موته
وقد كنتما عبديه في كلِّ مشهدِ
فقالا أقمنا كي نُعزّى بفقده
مسافة يوم ثم نتلوه في غد

وقال آخر:

ولا أرتجي في الموت بعدك طائلاً
لا أتقي للدهر بعدك من خطب

وفي المعنى لبعضهم:

لقد أمنت نفسي المصائب بعده
فأصبحت منها آمناً ان أروّعا
فما أتقي للدهر بعدك نكبةً
ولا أرتجي للعيش بعدك مرتعا(١)

ورثى أشجع السلمي عبد الله بن سعيد فقال:

مضى ابن سعيد حيث لم يبق مشرقٌ
ولا مغربٌ إلا له فيه مادح
وما كنت أدري ما فواضل كفّه
على الناس حتى غيبته الصفائح
وأصبح في لحدٍ من الأرض ميتاً
وكان به حياً تضيق الصحاصح
سأبكيك ما فاضت دموعي فإن تغض
فحسبك منّي ما تكنُّ الجوانح(٢)
وما أنا من رزءٍ وإن جلّ جازعٌ
ولا بسرورٍ بعد فقدك فارح
لئن حسنت فيك المراثي بذكرها
فقد حسنت من قبل فيك المدائح

وقال آخر:

إلى الله أشكو لا إلى الناس إنني
أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهبُ
أخلاي لو غير الحمام أصابكم
عتبت ولكن ما على الدهر معتب

---

(١) عراها: أصابها.

(١) المرتع: المكان الكثير الخضرة.
(٢) الجوانح: الصدر.

وقال العباس بن الأحنف:

إذا ما دعوت الصبر بعدك والبكا
أجاب البكا طوعاً ولم يجب الصبر
فإنْ ينقطع منك الرجاء فإنهُ
سيبقى عليك الحزن ما بقيَ الدهر

وقال آخر يرثي صديقه:

خليليّ ما أزداد إلاّ صبابة
إليك وما تزداد إلا تنائيا
خليليّ لو نفس فدت نفس ميّتٍ
فديتك مسروراً بنفسي وماليا
وقد كنت أرجو أن تعيش وإن أمتْ
فحال رجاء الله دون رجائيا
ألا فليمت من شاء بعدك إنما
عليك من الأقدار كان حذاريا(١)

أخذها بعضهم فقال:

كنت السّواد لمقلتي
يبكي عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت
فعليك كنت أحاذر

وقال آخر يرثي بعض أولاده:

وقاسمني دهري بني مشاطراً
فلما تقضّى شطره عاد في شطري
ألا ليت أمّي لم تلدني وليتني
سبقتك إذ كنا إلى غايةٍ تجري
وقد كنت ذا نابٍ وظفرٍ على العدا
فأصبحت لا يخشون نابي ولا ظفري

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للخنساء: أخبريني بأفضل بيت قلته في أخيك فقالت:

وكنت أعير الدمع قبلك من بكى
فأنت على من مات بعدك شاغلُهْ

ولأبي المحاسن الشواء في صديق له مات وسقط الثلج عقيب موته:

لم أنسه وبنو الملوك أمامه
يدمُون للأسف الأكفّ عضاضا
والثلج قد غطى الربا فكأنها
من حزنها لبست عليه بياضا

وقال آخر:

وليس صرير النعش ما تسمعونه
ولكنه أصلاب قومٍ تقصّفوا
وليس نسيم المسك ريا حنوطه
ولكنه ذاك الثناء المخلف

وقال مقاتل بن عطية يرثي الوزير نظام الملك:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤةً
يتيمةً صاغها الرحمن من شرف
عزّت ولم تعرف الأيام قيمتها
فردّها عندما عزّت إلى الصدف

وقال آخر:

وقبرت وجهك وانصرفت مودّعاً
بأبي وأمّي وجهك المقبورُ
وأرى ديارك بعد وجهك قفرةً
والقبر منك مشيّدٌ معمورُ
فالناس كلهم لفقدك واجدٌ
في كل بيت رنةٌ وزفيرُ
عجباً لأربع أذرعٍ في خمسةٍ
في جوفها جبل أشمُّ كبير

وكان رجل توفي ولده في يوم عيد فقال:

لبس الرجال جديدهم في عيدهم
ولبست حزن أبي الحسين جديدا
أيسرّني عيدٌ ولم أر وجهه
فيه ألا بعداً لذلك عيدا
فارقته وبقيت أخلد بعده
لا كان ذاك بقاً ولا تخليدا
من لم يمت جزعاً لفقد حبيبه
فهو الخؤون مودةً وعهودا
متْ مع حبيبك إن قدرت ولا تَعِش
من بعده ذا لوعةٍ مكمودا
ما أمّ خشفٍ قد ملا أحشاءها
حذراً عليه وجفنها تسهيدا(١)

---

(١) حذاري: خوفي.

(١) أم خشف: يقال خشفت المرأة بالولد خشفاً: رمت به أي أسقطته وأم خشف: الظبية والخشف صغيرها وهو المراد هنا، والتسهيد: السهر والقلق.

إن نام لم تهجع وطافت حوله
فيبيت مكلوماً بها مرصودا
منّي بأوجعَ إذ رأيت نوائحاً
لأبي الحسين وقد لطمن خدودا
ولقد عدمت أبا الحسين جلادتي
لما رأيت جمالك المفقودا
كنت الجليد على الرزايا كلها
وعلى فراقك لم أجد تجليدا[1]
ولئن بقيتُ وما هلكتُ فإن لي
أجلاً وإن لم أحصه معدودا
لا موت لي إلا إذا الأجل انقضى
فهناك لا أتجاوز المحدودا
حزني عليك بقدر حبّك لا أرى
يوماً على هذا وذاك مزيدا
ما هدّ ركنّي بالسنين وإنّما
أصبحت بعدك بالأسى مهدودا
يا ليت إني لم أكن لك والداً
وكذاك إنك لم تكن مولودا
فلقد شقيت وربما شقيَ الفتى
بفراق من يهوى وكان سعيدا
من ذمّ جفناً باخلاً بدموعه
فعليك جفني لم يزل محمودا
فلأنظمنّ مراثياً مشهورة
تُنسي الأنام كثيِّراً ولبيدا
وجميع من نظم القريض مفارقٌ
ولداً له أو صاحباً مفقودا

وقال الفقيه منصور بن إسماعيل المصري:

سألت رسوم القبر عمّن ثوى به
لأعلم ما لاقى فقالت جوانبُهُ
أتسأل عمّن عاش بعد وفاته
بإحسانه إخوانه وأقاربُهُ

وقال الإمام السبكي[2] رحمه الله تعالى يرثي فضل الله العالم:

مصابٌ ليس يشبهه مصابُ
لذي الألباب إذ فقد الشهاب
إمامٌ قد حوى من كلّ علم
كنوزاً نحوها يُسعى الرّكاب[1]
ليبكي كلُّ ذي علم عليه
فكم عَلَمٌ له ضمّ التراب
وكم كَلِمٌ موانعُ قد أتته
ثناها وهي عاصيةٌ صعاب
فسلطان البلاغ بغير شك
شهاب الدين ما فيه ارتياب
سقى الله الكريم ثراه صوباً
له من كل رضوان رضاب[2]

وقال الصفدي:

يا غائباً في الثرى تبلى محاسنه
الله يوليك غفراناً وإحسانا
إن كنت جرّعت كأس الموت واحدةً
في كلّ يومٍ أذوق الموت ألوانا

وقال محمد بن عبد الله العتبي يرثي إبناً له:

أضحتْ بخدي للدموعِ رسومُ
أسفاً عليك وفي الفؤاد كلومُ[3]
والصبر يحمد في المواطن كلّها
إلا عليك فإنه مذموم

وكتب أحمد بن يوسف إلى عمر بن سعيد يرثي بنتاً له فقال:

عجباً للمنون كيف أتتها
وتخطّت عبد الحميد أخاكا
شملتنا مصيبتان جميعاً
فقدُنا هذه ورؤية ذاكا

وله يرثي الأمير يلبغا:

ألا إنّما الدنيا غرورٌ وباطلٌ
فطوبى لمن كفاه منها تفرّغا[4]
وما عجبي إلا لمن بات واثقاً
بأيام دهرٍ ما وعى حق يلبغا

---

(١) الجليد: الشديد الجَلَدُ أي الصبور، تجليداً: تصبراً.
(٢) هو علي بن عبد الكافي السبكي الأنصاري الخزرجي شيخ الإسلام في عصره، ولد في سبك بمصر سنة ٦٨٣ هـ. وتوفي في القاهرة سنة، ٧٥٦ هـ.

(١) أي يسعى الركبان إليه من كل البلاد طلباً لعلمه.
(٢) صوباً: مطراً نافعاً.
(٣) رسوم: آثار، كلوم: جروح.
(٤) أي طوبى لمن مات واستراح من غوايات الدنيا وبلائها.

وقال آخر:

إلى الله أشكو أن كلّ قبيلةٍ

من الناس قد أفنى الحمام خيارها[1]

وقال رجل يرثي صديقاً له توفي وكان من الكرماء:

ما درى نعشه ولا حاملوه

ما على النعش من عفافٍ وجود

ولبعض الكتاب في ابن مقلة:

استشعر الكُتّاب فقدك سالفاً

وقضت بصحة ذلك الأيام

فلذاك سوّدت الدواة كآبة

أسفاً عليك وشُقت الأقلام

وقال الحسن بن مطير الأسدي يرثي معن بن زائدة رحمه الله تعالى:

هلمّا إلى معنٍ وقولا لقبره

سقتك الغوادي مربعاً ثم مربعا

فيا قبر معنٍ كنت أوّلَ حفرةٍ

من الأرض خطّت للسماحة مضجعا

ويا قبر معنٍ كيف واريت جوده

وقد كان منه البرّ والبحر مترعا

بلى قد وسعت الجود والجودُ ميّتٌ

ولو كان حياً ضقت حتى تصدّعا

فتىً عاش في معروفه بعد موته

أناسٌ لهم بالبرّ قد كان أوسعا

ولمّا مضى معن مضى الجود كلّه

وأصبح عرنينُ المكارم أجدعا[2]

وقال آخر:

عجبت لصبري بعده وهو ميّتٌ

وقد كنت أبكيه دماً وهو غائبُ

وقال آخر:

فديتك لم أصبرْ ولي فيك حيلةٌ

ولكنْ دعاني اليأس منك إلى الصبر

وقالت ريطة بنت عاصم:

وقفت فأبكتني ديار عشيرتي

على رزئهن الباكيات الحواسر[3]

غدوا كسيوف الهند ورّاد حومةٍ

من الموت أعيا وردهنّ المصادر[1]

فوارس حاموا عن حريمي وحافظوا

بدار المنايا والقنا متشاجر

ولو أن سلمى نالها مثل رزئنا

لهدّت ولكنْ محمل الرزء عامر

ولما قتل إبراهيم بن عبد الله بن الحسين وحمل رأسه إلى المنصور، أنفذها المنصور مع الربيع إلى عميه إدريس ومحمد وكانا في حبسه، وكان أبوه قائماً يصلي فقال له محمد: أوجز، فأوجز وسلم، فلما أتاه، وضع الرأس في حجره فقال: أهلا وسهلا يا أبا القاسم تالله لقد كنت من الناس الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠﴾[2]. ثم قبله بين عينيه وأنشأ يقول:

فتىً كان يحميه من العار سيفه

ويكفيه سوءات الأمور اجتنابها

ثم قال للربيع: قل لصاحبك المنصور قد مضى من بؤسنا أيام ومن نعمتك أيام، والملتقى غداً بين يدي الله تعالى، فكان ذلك فألاً[3] على المنصور ولم ير بعد ذلك اليوم راحة. وقيل لحسان: ما بالك لم ترث رسول الله ﷺ؟ قال: لم أر شيئاً إلا رأيته يقصر عنه[4]. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) الحمام: الموت.

(٢) عرنين المكارم أجدعا: أنف المكارم مقطوع.

(٣) الحواسر: الكاشفات رؤوسهن، لأنه كان من عادة الثاكلات كشف رؤوسهن إظهاراً لمدى تفجعهن وتعبيراً عن أن من قضى كان هو الحامي لهن، الساتر لأعراضهن فكأن موته أذهب تحصنهن وتحرزهن.

(١) حومة القتال: ساحتها وحومة الموت: حيث يقتتل الناس فيموت بعضهم فهو قد أسمى الموضع باسم ما يجري فيه، والورد: القدوم إلى موضع الماء للشرب والصدور: العود عنه بعد الارتواء.

(٢) سورة الرعد، الآية (٢٠).

(٣) فألاً: شؤماً، والفأل تقال في الخير كما تقال في الشر فهي من الأضداد.

(٤) أي لم أجد رثاء يمكن أن يعبر عن عظم خسارة المسلمين بفقد رسول الله ﷺ.

الباب الثالث والثمانون

في ذكر الدنيا وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾[1] فوصف سبحانه وتعالى جميع الدنيا بأنها متاع قليل، وأنت أيها الانسان تعلم أنك ما أوتيت من القليل إلا قليلا ثم إن القليل إن تمتعت به فهو لعب ولهو لقوله تعالى: ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[3]. فلا تبغ أيها العاقل حياة قليلة تفنى بحياة كثيرة تبقى، كما قال ابن عياض: لو كانت الدنيا ذهباً يفنى، والآخرة خزفاً يبقى. لوجب علينا أن نختار ما يبقى على ما يفنى، ثم تأمل بعقلك هل آتاك الله من الدنيا مثل ما أوتي سليمان عليه الصلاة والسلام حيث ملكه الله تعالى جميع الدنيا من إنس وجن وسخر له الريح والطير والوحوش، ثم زاده الله تعالى أحسن منها حيث قال: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[4]. فوالله ما عدها نعمة مثل ما عددتموها ولا حسبها رفعة مثل ما حسبتموها، بل خاف أن يكون استدراجاً من حيث لا يعلم فقال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[5]. وهذا فصل الخطاب لمن تدبر. هذا قد قال لك ولجميع أهل الدنيا: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾[6].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[7].

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء».

(١) سورة النساء، الآية (٧٧).
(٢) سورة الحديد، الآية (٢٠).
(٣) سورة العنكبوت، الآية (٦٤).
(٤) سورة ص، الآية (٣٩).
(٥) سورة النمل، الآية (٤٠).
(٦) سورة الحجر، الآيتان (٩٢ ـ ٩٣).
(٧) سورة الأنبياء، الآية (٤٧).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«ألا أريك الدنيا بما فيها؟ قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بيدي وأتى إلى واد من أودية المدينة فإذا مزبلة فيها رؤوس الناس وعذارات وخرق بالية وعظام البهائم، فقال: يا أبا هريرة هذه الرؤوس كانت تحرص حرصكم وتأمل آمالكم وهي اليوم صارت عظاماً بلا جلد، ثم هي صائرة عظماً رميماً، وهذه العذارت ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبتموها في الدنيا فأصبحت والناس يتحامونها، وهذه الخرق البالية رياشهم أصبحت والرياح تصفقها، وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد. فمن كان باكياً على الدنيا فليبك قال: فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا»**[1].

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على النبي ﷺ وهو على سرير من الليف وقد أثر الشريط في جنبه، فبكى عمر رضي الله تعالى عنه، فقال رسول الله ﷺ: **ما يبكيك يا عمر؟** فقال: تذكرت كسرى وقيصر. وما كانا فيه من سعة الدنيا، وأنت رسول الله، وقد أثر الشريط بجنبيك، فقال ﷺ: **هؤلاء قوم عُجّلت لهم طيباتهم في حياتهم الدُّنيا، ونحن قوم أخرت لنا طيباتنا في الآخرة.**

وروي عن الضحاك قال: لما أهبط الله آدم وحواء إلى الأرض ووجدا ريح الدنيا وفقدا ريح الجنة غشي عليهما أربعين يوم من نتن الدنيا.

وعن ابن معاذ قال: الحكمة تهوي من السماء إلى القلوب فلا تسكن في قلب فيه أربع خصال: ركون إلى الدنيا[2]، وهم عدو وحسد أخ وحب شرف.

وعن النبي ﷺ أنه قال لعلي: **«يا علي أربع خصال من الشقاء؛ جمود العين، وقسوة القلب، وبُعْد الأمل، وحب الدنيا».**

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يؤتى بالدنيا يوم القيامة على صورة عجوز شمطاء زرقاء العينين أنيابها بادية، مشوهة الخلق لا يراها أحد إلا هرب منها،

(١) لم أجد هذا الحديث في مصدر من المصادر المعتمدة ويضعفه كثيراً قوله فيه أن الرؤوس والعظام كانت في المزبلة وليس هذا من عادة المسلمين أو حتى العرب في جاهليتهم فهم يدفنون القتلى ولو كانوا من أعدائهم ورسول الله ﷺ قد دفن قتلى المشركين يوم بدر في القليب.
(٢) الركون إلى الدنيا: الإطمئنان إليها.

فتشرف على الخلائق أجمعين فيقال لهم: أتعرفون هذه؟ فيقولون: لا، نعوذ بالله من معرفة هذه، فيقال: هذه الدنيا التي تفاخرتم بها وتقاتلتم عليها.

وعن الفضيل بن عياض أنه قال: جعل الخير كله في بيت واحد، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا، وجعل الشر كلّه في بيت واحد، وجعل مفتاحه حب الدنيا.

وقيل: إن الدنيا مثل ظل الإنسان إن طلبته فر، وإن تركت تبعك، وفي قال بعضهم:

إنّما الرزق الذي تطلبه
يشبه الظلّ الذي يمشي معك
أنت لا تدركهُ متّبِعاً
وهو وإن ولّيتَ عنه تبعك

وقد شبهها بعضهم بخيال الظل فقال:

رأيت خيال الظلّ أعظمُ عبرة
لمنْ كان في علم الحقائق راقي
شخوصاً وأصواتاً يخالف بعضها
لبعض وأشكالاً بغير وفاق
تجيء وتمضي بابةٌ بعد بابة
وتفنى جميعاً والمحرّك باقي(١)

وما أحسن ما قال سليمان بن الضحاك:

ما أنعم الله على عبده
بنعمة أوفى من العافيه
وكلُّ من عوفي في جسمه
فإنّه في عيشة راضيه
والمال حلوٌ حسنٌ جيّدٌ
على الفتى لكنه عاريه(٢)
ما أحسن الدُّنيا ولكنّها
مع حسنها غدّارةٌ فانيه

وتوفي رجل من كندة فكتب على قبره هذه الأبيات:

يا واقفين ألم تكونوا تعلموا
إن الحِمَام بكم علينا قادم
لو تنزلون بشعبنا لعرفتمو
أنّ المفَرط في التزوّد نادم
لا تستَعِزُّوا بالحياة فإنّكم
تبنون والموت المفرّق هادم
سلوى الرّدى ما بيننا في حفرة
حيث المخدَّم واحدٌ والخادم

وقال آخر:

عن قليل أصير كومَ تراب
وتقول الرفاق هذا فلانُ
صار تحت التراب عظماً رميماً
وجفاه الأصحاب والخلاّن

وما أحسن ما قال عبد الله بن طاهر:

أليس إلى ذا صار آخر أمرنا
فلا كانت الدنيا القليل سرورها
فلا تعجبي يا نفس ممّا ترينه
فكلّ أمور الناس هذا مصيرها

وقال شرف الدين بن أسد:

يا من تملّك ملكاً لا بقاء له
حمّلت نفسك آثاماً وأوزارا
هل الحياة بذي الدنيا وإنْ عذبتْ
إلا كطيف خيال في الكرى زارا

وقال بعضهم:

وغاية هذي الدار لذّة ساعة
ويعقبها الأحزان والهمّ والندم
وهاتيك دارُ الأمن والعزّ والتُّقى
ورحمةُ ربِّ الناس والجود والكرم

وقال غيره:

حسّنت ظنّك بالأيام إذ حسنت
ولم تَخَفْ سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها
وعند صفو الليالي يحدث الكدر

وقال آخر:

فإن كنت لا تدري متى الموت فاعلمن
بأنّك لا تبقى إلى آخر الدّهر

يا ابن آدم:

أين الأولون والآخرون، أين نوح شيخ المرسلين، أين إدريس رفيع رب العالمين، أين إبراهيم خليل الرحمن، أي موسى الكليم من بين سائر النبيين، أين عيسى روح الله

---

(١) أي كما تفنى الصور التي تحرك في خيال الظل ويبقى محركها كذلك يفنى الخلق جيعاً ويبقى الخالق سبحانه وتعالى.

(٢) العارية: الشيء المستعار.

وكلمته رأس الزاهدين، وإمام السائحين، أين محمد خاتم النبيين، أين أصحابه الأبرار، أين الأمم الماضية، أين الملوك السالفة، أين القرون الخالية، أين الذين نصبت على مفارقهم التيجان، أين الذين قهروا الأبطال والشجعان، أين الذين دانت لهم المشارق والمغارب، أين الذين تمتعوا باللذات والمشارب، أين الذين تاهوا على الخلائق كبراً وعتياً، أين الذين راحوا في الحلل بكرة وعشيا، أين الذين اغتروا بالأجناد، أين أصحاب الوزراء، والقواد، أين أصحاب السطوة والأعوان، أين أصحاب الإمرة والسلطان، أين أصحاب الأعمال والولايات، أين الذين خفقت على رؤوسهم الألوية والرايات، أين الذين قادوا الجيوش والعساكر، أين الذين عمروا القصور والدساكر، أين الذين أعطوا النصر في موطن الحروب، والمواقف، أين الذين آمنوا بسطوتهم كل خائف، أين الذين ملأوا ما بين الخافقين فخراً وعزاً، أين الذين فرشوا القصور حريراً وقزاً، أين الذين تضعضعت لهم الأرض هيبة وعزا هل تحس منهم من أحد، أو تسمع لهم ذكرا، أفناهم الله مفني الأمم وأبادهم مبيد الرمم وأخرجهم من سعة القصور إلى ضيق القبور تحت الجنادل والصخور فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم لم ينفعهم ما جمعوا ولا أغنى عنهم ما اكتسبوا، أسلمهم الأحباء والأولياء، وهجرهم الإخوان الأصفياء، ونسيهم الأقرباء والبعداء، لو نطقوا لأنشدوا:

مقيمٌ بالحجون رهين رمس
وأهلي راحلون بكل واد[(١)]
كأني لم أكنْ لهمو حبيباً
ولا كانوا الأحبّة في السواد
فعوجوا بالسلام فإن أبيتم
فأوموا بالسلام على البعاد

وقالوا: لا فخر فيما يزول، ولا غنى فيما لا يبقى، وهل الدنيا إلا كما قال بعض الحكماء المتقدمين: قِدْرٌ يغلي وكنيف يملى.

وفي هذا المعنى قال الشاعر:

ولقد سألت الدار عن أخبارهم
فتبسّمتْ عجباً ولم تبدي
حتى مررت على الكنيف فقال لي
أموالهم ونوالهم عندي

(١) الحجون: اسم موضع، والرمس: القبر الدارس.

ولقد أصاب ابن السماك حيث قال للرشيد لما قال له عظني، وكان بيده شربة ماء فقال له: يا أمير المؤمنين لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملكك، قال: نعم، قال: يا أمير المؤمنين، لو شربتها وحبست عن الخروج أكنت تفديها بملكك؟ قال: نعم، فقال له: لا خير في ملك لا يساوي شربة ولا بولة.

وقال ابن شبرمة: إذا كان البدن سقيماً لم ينفعه الطعام، وإذا كان القلب مغرماً لم تنفعه الموعظة.

وروي أن أبا العتاهية مر بدكّان ورّاق وإذا بكتاب فيه:

لا ترجع الأنفس عن غيّها
ما لم يكن منها لها زاجر[(١)]

فقال: لمن هذا البيت؟ فقيل: لأبي نواس قاله للخليفة هارون الرشيد حين نهاه عن حب الجمال وعشق الملاح، فقال: وددت أنه لي بنصف شعري.

وممن استبصر من أبناء الملوك فرأى عيب الدنيا وتقضيها وزوالها، إبراهيم أدهم بن منصور، كان من أبناء ملوك خراسان من كورة بلخ، لما زهد الدنيا زهد في ثمانين سريراً. قال ابن بشار: سألت ابراهيم بن أدهم: كيف كان بدء أمرك حتى صرت إلى هذا؟ فقال: كان أبي من ملوك خراسان وكان قد حبب إلي الصيد، فبينا أنا راكب فرسي وكلبي معي إذ رأيت ثعلباً أو أرنباً، فحركت فرسي نحوه، فسمعت نداء من ورائي: يا إبراهيم ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت، فوقفت أنظر يمنة ويسرة، فلم أر أحداً، فقلت: لعن الله الشيطان. ثم حركت فرسي، فسمعت نداء أعلى من الأول: يا إبراهيم ما لهذا خُلقت ولا بهذا أُمرت. فوقفت أنظر يمنة ويسرة، فلم أر شيئاً، فقلت: لعن الله الشيطان، ثم حركت فرسي، فسمعت النداء من قربوس سرجي: يا إبراهيم ما لهذا خُلقت ولا بهذا أُمرت، فوقفت وقلت: هيهات جاءني النذير من رب العالمين، والله لاعصيت ربي ما عصمني بعد يومي هذا. فتوجهت إلى أهلي وخلفت فرسي وجئت إلى بعض رعاة أبي، فأخذت جبته وكساءه وألقيت إليه ثيابي، فلم أزل أرض تقلني وأرض تضعني حتى صرت إلى العراق فعملت بها أياماً فلم يصف لي شيء من الحلال، فسألت بعض المشايخ عن الحلال فقال: عليك بالشام، قال: فانصرفت إلى بلد يقال لها المنصورية[(٢)]، فعملت بها أياماً، فلم

(١) غيها: ضلالها والزاجر: الواعظ الرادع.
(٢) المنصورية: بلدة في جبل لبنان.

يصف لي شيء من الحلال، فسألت بعض المشايخ فقال: إن أردت الحلال، فعليك بطرسوس. فإن المباحات بها والعمل فيها كثير، فانصرفت إليها. قال: فبينا أنا قاعد على باب البحر إذ جاءني رجل فاكتراني أنظر له بستاناً، فتوجهت معه، فأقمت في البستان أياماً كثيرة، فإذا خادم له قد أقبل ومعه أصحاب له ولو علمت أن البستان بخادم ما نظرته، فقعد في مجلسه ثم قال: يا ناظورنا، فأجبته. قال: اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه وأطيبه. فأتيته برمان، فكسر الخادم واحدة، فوجدها حامضة، فقال: يا ناظورنا أنت منذ كذا وكذا في بستاننا تأكل من فاكهتنا ورماننا ولا تعرف الحلو من الحامض؟ فقلت: والله ما أكلت من فاكهتكم شيئاً، ولا أعرف الحلو من الحامض، قال: فغمز الخادم أصحابه، وقال: ألا تعجبون من هذا، ثم قال لي: لو كنت إبراهيم بن أدهم ما كنت بهذه الصفة، قال: ثم تحدث الناس بذلك، وجاءوا إلى البستان، فلما رأيت كثرة الناس اختفيت والناس داخلون، وأنا هارب منهم. وكان يأكل من كسب يده، وكان يحصد ويحفظ البساتين ويعمل في الطين، فبينما هو يوماً يحرس كرماً إذ مر به جندي فقال: أعطنا من هذا العنب، فقال له: إن صاحبه لم يأذن لي، فضربه بالسوط فطأطأ رأسه وقال: اِضرب رأساً طالما عصى الله يا سيدي الجندي، فاستحى الرجل وتركه ومضى.

وروي أن داود عليه الصلاة والسلام بينما هو في الجبال إذ مر على غار فيه رجل عظيم الخلقة من بني آدم ملقى على ظهره وعند رأسه حجر محفور مكتوب فيه: أنا دوسم الملك، تملكت ألف عام وفتحت ألف مدينة. وهزمت ألف جيش، وافتضيت ألف بكر من بنات الملوك ثم صرت إلى ما ترى التراب فراشي والحجر وسادي فمن رآني فلا تغره الدنيا كما غرتني.

وقال وهب بن منبه: خرج عيسى عليه الصلاة والسلام ذات يوم مع أصحابه، فلما ارتفع النهار مروا بزرع قد أفرك. فقالوا: يا نبي الله إنا جياع فأوحى الله تعالى إليه أن ائذن لهم في قوتهم. فأذن لهم، فتفرقوا في الزرع يفركون ويأكلون، فبينما هم كذلك إذ جاء صاحب الزرع يقول: زرعي وأرضي ورثتها من أبي وجدي، فبإذن من تأكلون يا هؤلاء؟ قال: فدعا عيسى ربه أن يبعث جميع من ملكها من لدن آدم إلى تلك الساعة، فإذا عند كل سنبلة ما شاء الله من رجل، وامرأة يقولون: أرضنا ورثناها عن آبائنا وأجدادنا، ففر الرجل منهم، وكان قد بلغه أمر عيسى ولكن لا يعرفه، فلما عرفه قال: معذرة إليك يا نبي الله لم أعرفك، زرعي ومالي حلال لك، فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال: ويحك هؤلاء كلهم ورثوها وعمروها، ثم ارتحلوا عنها، وأنت مرتحل عنها ولاحق بهم، ليس لك أرض ولا مال[1].

ولما مات الإسكندر قال أرسطاطاليس: أيها الملك لقد حركتنا بسكوتك، وقال بعض الحكماء من أصحابه: لقد كان الملك أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس. أخذه أبو العتاهية فقال:

كفى حزناً بدفنك ثم إنّي
نفضت تراب قبرك من يديّا
وكانت في حياتك لي عظاتٌ
وأنت اليوم أوعظ منك حيّا

وقال عبد الله بن المعتز:

نسير إلى الآجال في كلِّ ساعة
فأيامنا تطوى وهنَّ مراحل
ولم أر مثل الموت حتى كأنّه
إذا ما تخطّته الأماني باطل
وما أقبح التفريط في زمن الصبا
فكيف به والشيب في الرأس شاعل
ترحلْ من الدنيا بزاد من التقى
فعمرك أيامٌ تعدّ قلائل

وقال عبد الله بن المعلم: خرجنا من المدينة حُجّاجاً فإذا أنا برجل من بني هاشم من بني العباس بن عبد المطلب قد رفض الدنيا، وأقبل على الآخرة، فجمعتني وإياه الطريق، فأنست به وقلت له: هل لك أن تعادلني، فإن معي فضلاً من راحلتي، فجزاني خيراً وقال: لو أردت هذا لكان سهلاً، ثم أنس إلي فجعل يحدثني فقال: أنا رجل من ولد العباس كنت أسكن البصرة وكنت ذا كبر شديد ونعمة طائلة ومال كثير وبذخ زائد، فأمرت يوماً خادماً لي أن يحشو لي فراشاً من حرير ومخدة بورد نثير ففعل، فإني لنائم إذا بقمع وردة قد نسيه الخادم، فقمت إليه فأوجعته ضرباً، ثم عدت إلى مضجعي بعد إخراج القمع من المخدة، فأتاني آت في منامي في صورة فظيعة فهزني وقال: أفق من غشيتك وانتبه من رقدتك، ثم أنشأ يقول:

---

(١) لم يرد هذا الخبر عن عيسى عليه السلام في كتب الحديث المعتبرة، ولم تروه الأناجيل المتداولة.

يا خل إنك إن توسد لينا
وسدت بعد اليوم صم الجندلِ[1]
فامهد لنفسك صالحاً تسعد به
فلتندمنّ غداً إذا لم تفعلِ

فانتبهت مرعوباً وخرجت من ساعتي هارباً إلى ربي كما تراني ثم أنشأ يقول:

من كان يعلم أن الموت يدركه
والقبر مسكنه والبعث يخرجُهُ
وأنه بين جناتٍ مزخرفةٍ
يوم القيامة أو نارٍ ستنضجه
فكلّ شيء سوى التقوى به سمجٌ
ومن أقام عليه منه أسمجه[2]
ترى الذي اتخذ الدنيا له وطناً
لم يدر أن المنايا سوف تزعجه

قال وهب بن منبه: أصبت على قصر غمدان وهو قصر سيف بن ذي يزن بأرض صنعاء اليمن وكان من الملوك الأجلة مكتوباً بالقلم المسندي فترجم بالعربي فإذا هي أبيات جليلة وموعظة عظيمة جميلة وهي هذه الأبيات:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم
غلب الرجال فلم تنفعهم القلل[3]
واستنزلوا من أعالي عزّ معقلهم
فأسكنوا حُفرة يا بئس ما نزلوا[4]
فإذا همو صارخٌ من بعد ما دفنوا
أين الأسرّة والتيجانُ والحللُ
أين الوجوه التي كانت محجبةً
وكان من دونها الأستار والكلل[5]
فافصح القبر عنهم حين ساءلهم
تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طالما أكلوا دهراً وما شربوا
فأصبحوا بعد ذاك الأكل قد أُكِلُوا

وروي أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان معه صاحب

(١) صم الجندل: الصخر القاسي.
(٢) سمج: ثقيل غير مقبول.
(٣) قلل الجبال: قممها.
(٤) المعقل: الحصن.
(٥) الكلل: ج كلة وهي الناموسية التي تكون فوق السرير تحمي النائم من الحشرات الطائرة وتستره إذا انكشفت ملابسه عنه.

في بعض سياحاته فأصابهما الجوع وقد انتهيا إلى قرية فقال عيسى عليه الصلاة والسلام لصاحبه: انطلق فاطلب لنا طعاماً من هذه القرية، وأعطاه ما يشتري به، فذهب الرجل وقام عيسى عليه الصلاة والسلام يصلي، فجاء بثلاثة أرغفة، فقعد ينتظر انصراف عيسى من الصلاة فأبطأ عليه، فأكل رغيفاً وكان عيسى عليه الصلاة والسلام رآه حين جاء ورأى الأرغفة ثلاثة، فلما انصرف من صلاته لم يجد إلا رغيفين، فقال له: أين الرغيف الثالث؟ فقال الرجل: ما كانا إلا رغيفين، فأكلاهما.

ثم مرّا على وجوههما حتى أتيا على ظباء ترعى فدعا عيسى عليه الصلاة والسلام واحداً منها، فجاءه فذكاه[1] وأكلا منه، فقال له عيسى: بالذي أراك هذه الآية من أكل الرغيف الثالث؟ فقال: ما كانا إلا اثنين.

ثم مرّا على وجوههما حتى جاءا قرية فدعا عيسى ربه أن ينطق له من يخبره عن حال هذه القرية، فأنطق الله له لبنة، فسألها عيسى فأخبرته بكل ما أراد. وصاحبه يتعجب مما رأى، فقال له عيسى: بحق من أراك هذه الآية: من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال: ما كانا إلا إثنين.

فَمَرّا على وجوههما حتى انتهيا إلى نهر عجاج، فأخذ عيسى صلوات الله عليه بيد الرجل ومشى به على الماء حتى جاوز النهر، فقال الرجل: سبحان الله. فقال عيسى عليه الصلاة والسلام: بالذي أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال: ما كانا إلا اثنين، فمرا على وجوههما حتى أتيا قرية عظيمة خربة، وإذا قريب منها ثلاث لبنات عظام، وقيل ثلاثة أكوام من الرمل، فقال لها: كوني ذهباً بإذن الله، فكانت، فلما رآها الرجل قال: هذا مال، فقال عيسى: نعم واحدة لي وواحدة لك وواحدة لصاحب الرغيف الثالث، فقال الرجل: أنا صاحب الرغيف الثالث، فقال عيسى عليه الصلاة والسلام: هي لك كلها، ثم فارقه عيسى.

وأقام الرجل ليس معه ما يحملها عليه، فمرّ به ثلاثة نفر فقتلوه، فقال اثنان منهما للثالث: انطلق إلى القرية فأتنا بطعام، فانطلق فلما غاب قال أحدهما للآخر: إذا جاء قتلناه واقتسمناه المال بيننا، قال الآخر: نعم، وأما الذي ذهب ليشتري الطعام فإنه أضمر لصاحبيه السوء، وقال أجعل لهما في الطعام سماً فإذا أكلاه ماتا وآخذ المال لنفسي، فوضع السم في الطعام وجاء فقاما إليه فقتلاه

(١) ذكّاه: ذبحه.

وأكلا الطعام، فماتا، فمر بهم عيسى عليه الصلاة والسلام وهم مصروعون حولها فقال: هكذا الدنيا تفعل بأهلها.

وقال الهيثم بن عدي: وجد غار في جبل لبنان زمن الوليد بن عبد الملك وفيه رجل مسجى على سرير من الذهب وعند رأسه لوح من الذهب أيضاً مكتوب فيه بالرومية: أنا سبأ بن نواس خدمت عيصو بن اسحاق بن إبراهيم خليل الرب الأكبر، وعشت بعده دهراً طويلا ورأيت عجباً كثيراً ولم أر فيما رأيت أعجب من غافل عن الموت، وهو يرى مصارع آبائه ويقف على قبور أحبابه، ويعلم أنه صائر اليهم، ثم لا يتوب، وقد علمت أن الأجلاف الجفاة يستنزلونني عن سريري ويتولونه وذلك حين يتغير الزمان ويكثر الهذيان ويترأس الصبيان، فمن أدرك هذا الزمان عاش قليلاً ومات ذليلاً.

وعن عمرو بن ميمون أنه قال: افتتحنا مدينة بفارس فدللنا على مغارة فيها بيت فيه سرير من الذهب عليه رجل عند رأسه لوح مكتوب فيه: أنا بهرام ملك فارس، كنت أغناهم بطشاً، وأقساهم قلباً، وأطولهم أملاً، وأحرصه على الدنيا، قد ملكت البلاد، وقتلت الملوك، وهزمت الجيوش وأذللت الجبابرة وجمعت من الأموال ما لم يجمعه أحد قبلي، ولم أستطع أن أفتدي به من الموت إذ نزل بي.

ويروى في الإسرائيليات أن عيسى عليه الصلاة والسلام بينا هو في سياحته إذ مرّ بجمجمة نخرة، فسأل الله أن تتكلم فأنطقها الله له فقالت: يا نبي الله: أنا بلوان بن حفص ملك اليمن عشت ألف سنة ورزقت ألف ولد وافتضضت ألف بكر وهزمت ألف جيش وفتحت ألف مدينة، فما كان كل ذلك إلا كحلم النائم، فمن سمع قصتي فلا يغتر بالدنيا. فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام بكاء شديداً حتى غشي عليه.

ووجد مكتوب على قصر قد خرّبت أركانه وبادت أهله وأظلمت نواحيه هذه الأبيات:

هـذي مـنـازل أقـوام عـهـدتـهُـمُ
يـوفـون بـالـعـهـد مذ كـانـوا وبـالـذمم

تـبـكي عـلـيـهـم ديارٌ كـان يـطـربـهـا
تـرنُّـم الـمـجـد بـيـن الـجـود والـكـرم

وقيل في المعنى:

بـالله ربّـك كـم قـصـر مـررت بـه
قـد كـان أعـمـر بـالـلّـذّاتِ والـطـرب

نـادى غـراب الـمـنـايـا فـي جـوانـبـه
وصـاح من بـعـده بـالـويـل والـحَرَبِ

وفيه:

أيـهـا الـرّافـع الـبـنـاء رويـداً
لا يـردُ الـمـنـون عـنـك الـبـنـاء

وحكي أن رجلين تنازعا في أرض فأنطق الله تعالى لبنة من جدار تلك الأرض فقالت: إني كنت ملكاً من الملوك ملكت الدنيا ألف سنة، ثم صرت رميماً ألف سنة، ثم أخذني خزاف وعملني إناء، فاستعملت ألف سنة حتى تكسرت وصرت تراباً، فأخذني طوّاب وعملني لبناً وأنا في هذا الجدار كذا وكذا سنة، فلمَ تتنازعان في هذه الأرض وأنتم عنها زائلون وإلى غيرها منقلبون والله سبحانه وتعالى أعلم.

وروي أن ملكاً بنى قصراً وقال: انظروا إن كان فيه عيب فأصلحوه، فقال رجل: أرى فيه عيبين. فقالوا له: وما هما؟ قال: يموت الملك ويخرب القصر. قال: صدقت ثم أقبل على الله وترك القصر والدنيا.

وقيل: سئل الخضر عليه السلام عن أعجب شيء رآه في الدنيا مع طول سياحته وقطعه للقفار والفلوات، فقال: أعجب شيء رأيته أني مررت بمدينة لم أر على وجه الأرض أحسن منها، فسألت بعض أهلها متى بنيت هذه المدينة فقالوا سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا متى بنيت، وما زالت كذلك من عهد الطوفان ثم غبت عنها خمسمائة سنة ومررت بها فإذا هي خاوية على عروشها ولم أر أحداً أسأله وإذا رعاة غنم فدنوت منهم فقلت: أين المدينة التي ههنا؟ فقالوا: سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا أنه كان ههنا مدينة، ثم غبت خمسمائة سنة ومررت بها وإذا موضع تلك المدينة بحر وإذا غواصون يخرجون منه شبه الحلية، فقلت للغواصين منذ كم هذا البحر ههنا؟ فقالوا: سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هذا البحر من عهد الطوفان، فغبت خمسمائة سنة وجئت فإذا البحر قد غاض ماؤه وإذا مكانه غيضة وصيادون يصيدون فيها السمك في زوارق صغار فقلت لبعضهم، أين البحر الذي كان ههنا؟ فقالوا: سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا أنه كان ههنا بحر.

فغبت خمسمائة عام ثم جئت إلى ذلك، فإذا هو مدينة على الحالة الأولى، والحصون والقصور والأسواق قائمة، فقلت لبعضهم: أين الغيضة التي كانت ههنا، ومتى بنيت

هذه المدينة؟ فقالوا: سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هذه المدينة على حالها من عهد الطوفان. فغبت عنها نحو خمسمائة سنة ثم أتيت إليها، فإذا عاليها سافلها وهي تدخن بدخان شديد، فلم أر أحداً أسأله ثم أتيت راعياً فسألته أين المدينة؟ قال سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هذا المكان هكذا منذ كان.

فهذا أعجب شيء رأيته في سياحتي. فسبحان مبيد العباد ومفني البلاد ووراث الأرض ومن عليها وباعث من خلق منها بعد رده إليها.

ولبعضهم:

قف بالديار فهذه آثارهُمْ
تبكي الأحبّةَ حسرةً وتشوّقا
كم قد وقفت بها أسائلُ أهلها
عن حالها مترحماً أو مشفقا
فأجابني داعي الهوى في رسمها
فارقت من تهوى وعزّ الملتقى

ولبعضهم:

أيها الربع الذي قد دثرا
وكان عيناً ثم أضحى أثرا[1]
أين سكانك ماذا فعلوا
خبرنْ عنهم سقيت المطرا
فلقد نادى منادي دارهمْ
رحلوا واستودعوني عبرا[2]

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: أوحى الله إلى الدنيا من خدمني فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه، يا دنيا مرّي على أوليائي ولا تحلي لهم فتفتنيهم.

وقال بعض الحكماء: الدنيا كالماء المالح كلما ازداد صاحبها شراباً ازداد عطشاً، أو كالكأس من عسل وفي أسفله سم فللذائق منه حلاوة عاجلة وفي أسفله الموت، أو كحلم النائم يفرح في منامه فإذا استيقظ زال فرحه أو كالبرق يضيء قليلاً ثم يذهب. ولما بنى المأمون قصره الذي ضرب به المثل نام فيه فسمع قائلا يقول:

أتبني بناء الخالدين وإنما
بقاؤك فيها إن عقلت قليلُ

(١) الربع: مكان نزول القدم، دثر: باد وزالت معالمه.
كان عيناً: كان عامراً قائماً، أثراً: أثاراً وبقايا ضاعت معالمها.

(٢) عبر: عظات.

لقد كان في ظلّ الأراك كفايةٌ
لمن كلّ يوم يقتضيه رحيل

قال، فلم يلبث بعدها إلا قليلاً ومات وقال:

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض
على الماء خانته فروج الأصابع[1]

ووجد مكتوب على قصر باد أهله:

هذي منازل أقوام عهدتُهُم
في خفض عيش نفيس ماله خطر
صاحت بهم نائبات الدهر فانقلبوا
إلى القبور فلا عينٌ ولا أثر

ولو قيل للدنيا صفي نفسك ما عَدَتْ ما وصفها به أبو نواس بقوله:

وما الناس إلا هالكٌ وابنُ هالك
وذو نسب في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفت
له عن عدو في ثياب صديق

وروي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما رجع من صفين ودخل أوائل الكوفة رأى قبراً فقال: قبر من هذا؟ فقالوا: قبر خباب بن الأرت، فوقف عليه وقال: رحم الله خباباً أسلم راغباً وهاجر طائعاً وعاش مجاهداً، وابتلي في جسمه آخراً ألا وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ثم مشى فإذا هو بقبور، فجاء حتى وقف عليها، وقال: السلام عليكم أهل الديار الموحشة والمحال المقفرة أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع وبكم عما قليل لاحقون، اللهم اغفر لنا ولهم وتجاوز عنا وعنهم. طوبى لمن ذكر المعاد وعمل ليوم الحساب وقنع بالكفاف، ورضي عن الله تعالى ثم قال: يا أهل القبور أمّا الأزواج فقد نكحت، وأما الديار فقد سكنت وأما الأموال فقد قسمت وهذا ما عندنا، فما عندكم، ثم التفت إلى أصحابه وقال: أما أنهم لو تكلموا لقالوا: وجدنا خير الزاد التقوى، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) فُرُوجُ الأصابع: ما بينها.

الباب الرابع والثمانون

فيما جاء في فضل الصلاة على رسول الله ﷺ وهو آخر الأبواب وبه يختم الكتاب ولنذكر أربعين حديثاً في فضل الصلاة على النبي ﷺ

الحديث الأول: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي صلت عليه الملائكة ومن صلت عليه الملائكة صلى الله عليه ومن صلى الله عليه لم يبق شيء في السموات ولا في الأرض إلا صلى عليه».

الحديث الثاني: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي صلاة واحدة أمر الله حافظيه أن لا يكتبا عليه ذنباً ثلاثة أيام».

الحديث الثالث: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى علي مرة خلق الله من قوله ملكاً له جناحان جناح بالمشرق وجناح بالمغرب، رأس وعنقه تحت العرش وهو يقول: اللهم صلّ على عبدك ما دام يصلي على نبيّك».

الحديث الرابع: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي مرة صلى الله عليه بها عشراً ومن صلى علي عشراً صلى الله عليه بها مائة ومن صلى علي مائة صلى الله عليه بها ألفاً ومن صلى علي ألفاً لم يعذبه الله بالنار».

الحديث الخامس: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي مرة كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات».

الحديث السادس: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل يوماً وقال: يا محمد جئتك ببشارة لم آت بها أحداً من قبلك وهي أن الله تعالى يقول لك: من صلى عليك من أمتك ثلاث مرات غفر الله له إن كان قائماً قبل أن يقعد وإن كان قاعداً غفر له قبل أن يقوم فعند ذلك خر ساجداً لله شاكراً».

الحديث السابع: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي في الصباح عشراً محيت عنه ذنوب أربعين سنة».

الحديث الثامن: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي ليلة الجمعة أو يوم الجمعة مائة مرة غفر الله له خطيئته ثمانين سنة».

الحديث التاسع: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي ليلة الجمعة أو يوم الجمعة مائة مرة قضى الله له مائة حاجة ووكل الله به ملكاً حين يدفن في قبره يبشره كما يدخل أحدكم على أخيه بالهدية».

الحديث العاشر: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي في يوم مائة مرة قضيت له في ذلك اليوم مائة حاجة».

الحديث الحادي عشر: قال رسول الله ﷺ: «أقربكم مني مجلساً أكثرك علي صلاة».

الحديث الثاني عشر: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي ألف مرة بشر بالجنة قبل موته».

الحديث الثالث عشر: قال رسول الله ﷺ: «جاءني جبريل عليه السلام وقال لي يا رسول الله لا يصلي عليك أحد إلا ويصلي عليه سبعون ألفاً من الملائكة».

الحديث الرابع عشر: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء بعد الصلاة علي لا يرد».

الحديث الخامس عشر: قال رسول الله ﷺ: «الصلاة علي نور على الصراط» وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يلج النار من يصلي علي».

الحديث السادس عشر: قال رسول الله ﷺ: «من جعل عبادته الصلاة علي قضى الله له حاجة الدنيا والآخرة».

الحديث السابع عشر: قال رسول الله ﷺ: «من نسي الصلاة علي أخطأ طريق الجنة».

الحديث الثامن عشر: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة في الهواء بأيديهم قراطيس من نور لا يكتبون إلا الصلاة علي وعلى أهل بيتي».

الحديث التاسع عشر: قال رسول الله ﷺ: «لو أن عبداً جاء يوم القيامة بحسنات أهل الدنيا ولم تكن فيها الصلاة علي ردت عليه ولم تقبل منه».

الحديث العشرون: قال رسول الله ﷺ: «أولى الناس بي أكثرهم علي صلاة».

الحديث الحادي والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي في كتاب ما لم تزل الملائكة تصلي عليه ما لم يندرس اسمي من ذلك الكتاب».

الحديث الثاني والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «إن لله

ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني الصلاة علي من أمتي فأستغفر لهم».

الحديث الثالث والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي كنت شفيعه يوم القيامة ومن لم يصل علي فأنا بريء منه».

الحديث الرابع والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «يؤمر بقوم إلى الجنة فيخطئون الطريق» قالوا: يا رسول الله ولمَ ذاك؟ قال: سمعوا اسمي ولم يصلوا علي».

الحديث الخامس والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «يؤمر برجل إلى النار فأقول ردوه إلى الميزان فأضع له شيئاً كالأنملة معي في ميزانه وهو الصلاة علي فترجح ميزانه وينادى سعد فلان».

الحديث السادس والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «ما اجتمع قوم في مجلس ولم يصل علي فيه إلا تفرقوا كقوم تفرقوا عن ميت ولم يغسلوه».

الحديث السابع والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى وكّل بقبري ملكاً أعطاه أسماء الخلائق كلها فلا يصلي علي أحد إلى يوم القيامة إلا بلغني اسمه وقال يا رسول الله ﷺ إن فلان بن فلانة صلّى عليك».

الحديث الثامن والعشرون: عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أنه قال: «الصلاة على النبي ﷺ أمحى للذنوب من الماء لسواد اللوح».

الحديث التاسع والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام إن أردتَ أن أكون إليك أقرب من كلامك إلى لسانك ومن روحك لجسدك فأكثر الصلاة على النبي الأمي ﷺ».

الحديث الثلاثون: قال رسول الله ﷺ: «إن ملكاً أمره الله تعالى باقتلاع مدينة غضب عليها فرحمها ذلك الملك ولم يبادر إلى اقتلاعها، فغضب الله عليه وكسر أجنحته فمر به جبريل عليه السلام فشكا له حاله فسأل الله فيه فأمره أن يصلي على النبي ﷺ فصلى عليه فغفر الله له ورد عليه أجنحته ببركة الصلاة على النبي ﷺ».

الحديث الحادي والثلاثون: عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت من صلى على رسول الله ﷺ عشر مرات وصلى ركعتين ودعا الله تعالى تقبل صلاته وتقضى حاجته ودعاؤه مقبول غير مردود.

الحديث الثاني والثلاثون: عن زيد بن حارثة قال سألت رسول الله ﷺ عن الصلاة عليه فقال ﷺ: «صلوا علي واجتهدوا في الدعاء وقولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد».

الحديث الثالث والثلاثون: عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صلوا علي فإن صلاتكم علي زكاة لكم واسألوا الله لي الوسيلة».

الحديث الرابع والثلاثون: عن سهل بن سعد الساعدي أن النبي ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يصل على نبيه».

الحديث الخامس والثلاثون: عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلي علي».

الحديث السادس والثلاثون: عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال جزى الله عنا محمداً خيراً وجزى الله نبينا محمداً بما هو أهله، فقد أتعب كاتبيه».

الحديث السابع والثلاثون: عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم».

الحديث الثامن والثلاثون: عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يصلي علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه».

الحديث التاسع والثلاثون: قال رسول الله ﷺ: «أقربكم مني منزلاً يوم القيامة أكثركم علي صلاة».

الحديث الأربعون: نقل الشيخ كمال الدين الدميري رحمه الله تعالى عن شفاء الصدور لابن سبع أن النبي ﷺ قال: «من سره أن يلقى الله وهو عليه راض فليكثر من الصلاة علي فإن من صلى علي في كل يوم خمسمائة مرة لم يفتقر أبداً وهدمت ذنوبه ومحيت خطاياه ودام سروره واستجيب دعاؤه وأعطي أمله وأعين على عدوه وعلى أسباب الخير وكان ممن يرافق نبيه في الجنان».

اللهم صلِّ على سيد المرسلين وخاتم النبيين ورسول رب العالمين الذي أنزل عليه في محكم الكتاب العزيز تعظيماً له وتوقيراً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾﴾(١). فهذا خطاب خاص الخاص ولم يخاطب الله أحداً من المرسلين ولا من

---

(١) سورة الأحزاب، الآيات (٤٥ ـ ٤٧).

الأنبياء ولا رسولا بالرسالة إلا سيد خلقه محمد ﷺ فإن الله تعالى نادى أبا البشر: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾[1] و ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾[2] و ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾[3] و ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾[4] و ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي﴾[5]، وقال لمحمد ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾[6]. ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ﴾[7] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾[8] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾[9] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾[10] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾[11] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾[12] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾[13] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾[14] وما ناداه باسمه يا محمد كغيره إلا في أربع مواضع اقتضت الحكمة أن يذكر هناك باسمه محمد ﷺ. الأول قوله عز وجل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾[15]. لأن سبب انزالها أن الشيطان صاح يوم احد قد قتل محمد وكان ما كان فأنزل الله تعالى هذه الآية، ولو قال وما رسولي لقال الأعداء ليس هو محمد فذكره باسمه لأنهم كانوا ينكرون ان اسمه محمداً. الثاني قوله عز وجل: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[16]. الثالث قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾[17].

(١) سورة البقرة، الآية (٣٥) وسورة الأعراف، الآية (١٩).
(٢) سورة هود، الآية (٤٨).
(٣) سورة هود، الآية (٧٦).
(٤) سورة ص، الآية (٢٦).
(٥) سورة المائدة، الآية (١١٠).
(٦) سورة المائدة، الآية (٦٧).
(٧) سورة المائدة، الآية (٤١).
(٨) سورة الأنفال، الآية (٦٤).
(٩) سورة الأنفال، الآية (٦٥).
(١٠) سورة التوبة، الآية (٧٣).
(١١) سورة الطلاق، الآية (١).
(١٢) سورة التحريم، الآية (١).
(١٣) سورة الأحزاب، الآية (١).
(١٤) سورة الأحزاب، الآيتان (٤٥ ـ ٤٦).
(١٥) سورة آل عمران، الآية (٤٤).
(١٦) سورة الأحزاب، الآية (٤٠).
(١٧) سورة محمد، الآيتان (١ ـ ٢).

فلو قال وآمنوا بما نزل على رسولي لقال الأعداء ليس هو فعرفه باسمه محمد ﷺ. الرابع قوله عز وجل ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾[1] والحكمة في ذكره هنا باسمه أنه سبحانه وتعالى قال قبلها ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[2]، فكان من الأعداء من يقول من هو رسوله الذي أرسله فعرفه باسمه فقال ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾[1] وسماه تعالى باسمه أحمد في موضع واحد وله حكمة وهي أن الله تعالى لما أرسل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام قال لقومه من بني إسرائيل ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾[3] التي انزلت على موسى ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[3] لأنه كانوا يعرفونه في التوراة أحمد فما ناداه سبحانه وتعالى باسمه محمد ولا أحمد وإنما ذكر ذلك إعلاماً به وتعريفاً له وما ناداه إلا بالنبوة والرسالة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾[4] منيراً أي شاهداً بالإيمان للمؤمنين ومبشراً لأهل التمجيد ونذيراً لأهل التجحيد، وقيل شاهداً لأهل القرآن ومبشراً لهم بالغفران ونذيراً لأهل الكفر والعصيان. وقيل: شاهداً لأمتك ومبشراً بشفاعتك ونذيراً لمن ارتكب مخالفتك. وقيل: شاهداً بالمنة ومبشراً بالجنة وقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾[4] أي تدعو الناس بأمر الله تعالى إلى لا إله إلا الله. قال تعالى، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾[5] وسمى رسول الله ﷺ نفسه داعياً فقال: أنا الداعي إلى الله، وقوله تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾[6] أي يهتدى به كما يهتدى بالسراج في ظلمة الليل.

فإن قلت: ما الحكمة في قوله تعالى ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾[7] ولم يقل قمراً منيرا. فالجواب عن ذلك أن السراج أعم من القمر لأن المراد بالسراج هنا الشمس. قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[7] والشمس أعم نفعاً ونوراً من القمر، وقيل: المراد بقوله تعالى ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾[7] السراج الذي يقتبس منه لأن القمر لا تصل إليه

(١) سورة الفتح، الآية (٢٩).
(٢) سورة الفتح، الآية (٢٨).
(٣) سورة الصف، الآية (٦).
(٤) سورة الأحزاب، الآيتان (٤٥ ـ ٤٦).
(٥) سورة الجن، الآية (١٩).
(٦) سورة الأحزاب، الآية (٤٦).
(٧) سورة نوح، الآية (١٦).

الأيدي حتى يقتبسون منه، والسراج إذا كان في بلد يملأ ذلك البلد نوراً لأن كل من جاء يقتبس منه، والقمر ليس كذلك ولهذا كانت قبل ولادته ﷺ ظلاماً فلما ولد ظهر سراج دينه بمكة، فكان أول من اقتبس من الرجال أبو بكر. ومن النساء خديجة ومن الشباب علي ومن الموالي زيد ومن العبيد بلال رضي الله تعالى عنهم أجمعين. وجاء سلمان من أرض فارس فاقتبس وصهيب من الروم وبلال من الحبشة، ووفد الوفود واقتبسوا، وأبو لهب إلى جانب البيت ولم يقتبس واقتبس الناس من مشارق الأرض ومغاربها حتى امتلأت الأرض من نور سراجه فهو ﷺ أعظم الأنبياء وأكرم المرسلين وسيد الخلق أجمعين لم يخلق الله أحسن ولا أجمل ولا أكمل ولا أفضل ولا أفصح ولا أرجح ولا أسمح ولا أصبح ولا أجل ولا أعظم ولا أسخى ولا أكرم ولا أبهى ولا أنصف ولا أعدل منه ﷺ، فلو أن البحار مداد والنبات أقلام وجميع الخلق تكتب معجزاته ﷺ لعجزوا عن وصف نزر النزر من معجزاته ﷺ. اللهم اجعلنا من خالص أمته واحشرنا في زمرته وأمتنا على محبته ولا تخالف بنا عن ملته ولا عما جاء به برحمتك يا أرحم الراحمين آمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي عدد ما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون. نحمدك يا من هيأت لكسب الآداب جميع المعدات وفتحت للتحلي بأنوار آياتك سبل الخيرات ونصلي ونسلم على من كملت آدابه ورشحت بكمال البيان وإعجاز التبيان جنابه سيدنا محمد القائل: إن من البيان لسحرا، وعلى آله وصحبه ما أطلعت حدائق الأتباع زهراً.

أما بعد فقد تم بحمده تعالى كتاب المستطرف في كل فن مستظرف تأليف العلامة الفاضل واللوذعي الكامل الشيخ شهاب الدين أحمد الأبشيهي رحمه الله وأعلى منزله في دار رضاه.

فهرس

الباب الأول
في مباني الإسلام ١١
الباب الثاني
في العقل والذكاء والحمق وذمه وغير ذلك ١٩
الباب الثالث
في القرآن وفضله وحرمته وما أعد الله تعالى لقارئه من الثواب العظيم والأجر الجسيم ٢٤
الباب الرابع
في العلم والأدب وفضل العالم والمتعلم ٢٦
الباب الخامس
في الآداب والحكم وما أشبه ذلك ٣٢
الباب السادس
في الأمثال السائرة ٣٥
الباب السابع
في البيان والبلاغة والفصاحة وذكر الفصحاء من الرجال والنساء ٥٠
الباب الثامن
في الأجوبة المسكتة والمستحسنة ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك ٦٨
الباب التاسع
في ذكر الخطب والخطباء والشعر والشعراء وسرقاتهم وكبوات الجياد وهفوات الأمجاد ٧١
الباب العاشر
في التوكل على الله تعالى والرضا بما قسم والقناعة وذم الحرص والطمع وما أشبه ذلك ٧٦
الباب الحادي عشر
في المشورة والنصيحة والتجارب والنظر في العواقب ٨٤
الباب الثاني عشر
في الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة وما أشبه ذلك ٨٩
الباب الثالث عشر
في الصمت وصون اللسان والنهي عن الغيبة والسعي بالنميمة ومدح العزلة وذم الشهرة ٩٣
الباب الرابع عشر
في الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الإسلام وما يجب للسلطان على الرعية وما يجب لهم عليه ٩٩
الباب الخامس عشر
فيما يجب على من صحب السلطان والتحذير من صحبته ١٠٠
الباب السادس عشر
في ذكر الوزراء وصفاتهم وأحوالهم وما أشبه ذلك ١٠٢
الباب السابع عشر
في ذكر الحجاب والولاية وما فيها من الغرر والخطر ١٠٤
الباب الثامن عشر
فيما جاء في القضاء وذكر القضاة وقبول الرشوة والهدية على الحكم وما يتعلق بالديون وذكر القصاص والمتصوفة ١٠٨
الباب التاسع عشر
في العدل والإحسان والإنصاف وغير ذلك ١١٢
الباب العشرون
في الظلم وشؤمه وسوء عواقبه وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك ١١٥
الباب الحادي والعشرون
في بيان الشروط التي تؤخذ على العمال وسيرة السلطان في استجباء الخراج وأحكام أهل الذمة ١١٩
الباب الثاني والعشرون
في اصطناع المعروف وإغاثة الملهوف وقضاء حوائج المسلمين وإدخال السرور عليهم ١٢٤

الباب الثالث والعشرون
في محاسن الأخلاق ومساويها ١٢٦
الباب الرابع والعشرون
في حسن المعاشرة والمودة والأخوة والزيارة
وما أشبه ذلك ١٣٠
الباب الخامس والعشرون
في الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم
وفضل الشفاعة وإصلاح ذات البين ١٣٧
الباب السادس والعشرون
في الحياء والتواضع ولين الجانب وخفض
الجناح ١٣٩
الباب السابع والعشرون
في العجب والكبر والخيلاء وما أشبه ذلك ١٤٠
الباب الثامن والعشرون
في الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت ١٤١
الباب التاسع والعشرون
في الشرف والسؤدد وعلو الهمة ١٤٦
الباب الثلاثون
في الخير والصلاح وذكر السادة الصحابة وذكر
الأولياء والصالحين رضي الله تعالى عنهم
أجمعين ١٤٨
الباب الحادي والثلاثون
في مناقب الصالحين وكرامات الأولياء رضي الله
عنهم ١٥٧
الباب الثاني والثلاثون
في ذكر الأشرار والفجار وما يرتكبون من
الفواحش والوقاحة والسفاهة ١٦٥
الباب الثالث والثلاثون
في الجود والسخاء والكرم ومكارم الأخلاق
واصطناع المعروف وذكر الأمجاد وأحاديث
الأجواد ١٦٧
الباب الرابع والثلاثون
في البخل والشح وذكر البخلاء وأخبارهم وما
جاء عنهم ١٨١
الباب الخامس والثلاثون
في الطعام وآدابه والضيافة وآداب المضيف
وأخبار الأكلة وما جاء عنهم وغير ذلك ١٨٦
الباب السادس والثلاثون
في العفو والحلم والصفح وكظم الغيظ والاعتذار
وقبول المعذرة والعتاب وما أشبه ذلك ١٩٦
الباب السابع والثلاثون
في الوفاء بالوعد وحفظ العهد ورعاية الذمم .. ٢٠٦
الباب الثامن والثلاثون
في كتمان السر وتحصينه وذم إفشائه ٢١٤
الباب التاسع والثلاثون
في الغدر والخيانة والسرقة والعداوة والبغضاء
والحسد ٢١٦
الباب الأربعون
في الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها وفضل
الجهاد وشدة البأس والتحريض على القتال ٢٢٣
الباب الحادي والأربعون
في ذكر أسماء الشجعان وذكر الأبطال
وطبقاتهم وأخبارهم وذكر الجبناء وأخبارهم وذم
الجبن ٢٢٨
الباب الثاني والأربعون
في المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة ٢٣٦
الباب الثالث والاربعون
في الهجاء ومقدماته ٢٥١
الباب الرابع والاربعون
في الصدق والكذب ٢٥٦
الباب الخامس والاربعون
في بر الوالدين وذم العقوق وذكر الأولاد وما
يجب لهم وعليهم وصلة الرحم والقرابات
وذكر الأنساب ٢٥٨
الباب السادس والاربعون
في الخلق وصفاتهم وأحوالهم وذكر الحسن
والقبيح والقصر والألوان والثياب وما أشبه
ذلك ٢٦٢
الباب السابع والأربعون
في التختم والحلى والمصوغ والطيب والتطيب
وما أشبه ذلك ٢٧٧
الباب الثامن والاربعون
في الشباب والصحة والعافيةوأخبار المعمرين
وما أشبه ذلك ٢٧٩

الباب التاسع والأربعون
في الأسماء والكنى والألقاب وما استحسن منها ٢٨٣
الباب الخمسون
فيما جاء في الأسفار والاغتراب وما قيل في الوداع والفراق والحث على ترك الإقامة بدار الهوان وحب الوطن والحنين إليه ٢٨٧
الباب الحادي والخمسون
في ذكر الغنى وحب المال والافتخار بجمعه ... ٢٩٣
الباب الثاني والخمسون
في ذكر الفقر ومدحه ٢٩٨
الباب الثالث والخمسون
في التلطف في السؤال وذكر من سئل فجاد .. ٣٠٠
الباب الرابع والخمسون
في ذكر الهدايا والتحف وما أشبه ذلك ٣٠٤
الباب الخامس والخمسون
في العمل والكسب والصناعات والحرف وما أشبه ذلك ٣٠٦
الباب السادس والخمسون
في شكوى الزمان وانقلابه بأهله والصبر على المكاره والتسلي عن نوائب الدهر ٣١٠
الباب السابع والخمسون
ما جاء في اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة والفرح والسرور ونحو ذلك مما يتعلق بهذا الباب ٣٢١
الباب الثامن والخمسون
في ذكر العبيد والإماء والخدم ٣٢٦
الباب التاسع والخمسون
في أخبار العرب الجاهلية وأوابدهم وذكر غرائب من عوائدهم وعجائب من أكاذيبهم ٣٢٨
الباب الستون
في الكهانة والقيافة والزجر والعرافة والفأل والطيرة والفراسة والنوم والرؤية وما أشبه ذلك ٣٣٢
الباب الحادي والستون
في الحيل والخدائع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد والتيقظ والتبصر ٣٤٠
الباب الثاني والستون
في ذكر الدواب والوحوش والطير والهوام والحشرات وما أشبه ذلك مرتباً على حروف المعجم ٣٤٦
الباب الثالث والستون
في ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم ٣٧٤
الباب الرابع والستون
في خلق الجان وصفاتهم ٣٧٧
الباب الخامس والستون
في ذكر البحار وما فيها من العجائب وذكر الأنهار والآبار ٣٨٠
الباب السادس والستون
في ذكر عجائب الأرض وما فيها من الجبال والبلدان وغرائب البنيان ٣٨٥
الباب السابع والستون
في ذكر المعادن والأحجار وخواصها ٣٨٩
الباب الثامن والستون
في الأصوات والألحان وذكر الغناء واختلاف الناس فيه ومن كرهه ومن استحسنه ٣٩١
الباب التاسع والستون
في ذكر المغنين والمطربين وأخبارهم ونوادر الجلساء في مجالس الرؤساء ٣٩٦
الباب السبعون
في ذكر القينات والأغاني ٤٠٠
الباب الحادي والسبعون
في ذكر العشق ومن بلي به والافتخار بالعفاف وأخبار من مات بالعشق وما في معنى ذلك ... ٤٠٤
الباب الثاني والسبعون
في ذكر رقائق الشعر والمواليا والدوبيت وكان وكان والموشحات والزجل والحماق والقومة والالغاز ومدح الأسماء والصفات وما أشبه ذلك ٤١٥
الباب الثالث والسبعون
في ذكر النساء وصفاتهن ونكاحهن وطلاقهن وما يحمد ويذم من عشرتهن ٤٥٦
الباب الرابع والسبعون
في تحريم الخمر وذمها والنهي عنها ٤٦٧

الباب الخامس والسبعون
في المزاح والنهي عنه وما جاء في الترخيص فيه والبسط والتنعم ٤٦٩
الباب السادس والسبعون
في النوادر ٤٧١
الباب السابع والسبعون
في الدعاء وآدابه وشروطه ٤٨٠
الباب الثامن والسبعون
في القضاء والقدر وأحكامه والتوكل على الله عز وجل ٤٨٨
الباب التاسع والسبعون
في التوبة والاستغفار ٤٩٢
الباب الثمانون
فيما جاء في ذكر الأمراض والعلل والطب والدواء وما جاء في السنة من العبادة وما أشبه ذلك ... ٤٩٤
الباب الحادي والثمانون
في ذكر الموت وما يتصل به من القبر وأحواله ... ٤٩٩
الباب الثاني والثمانون
في الصبر والتأسي والتعازي والمراثي ونحو ذلك ٥٠٣
الباب الثالث والثمانون
في ذكر الدنيا وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها ٥١٢
الباب الرابع والثمانون
فيما جاء في فضل الصلاة على رسول الله ﷺ وهو آخر الأبواب وبه يختم الكتاب ولنذكر أربعين حديثاً في فضل الصلاة على النبي ﷺ ٥١٩